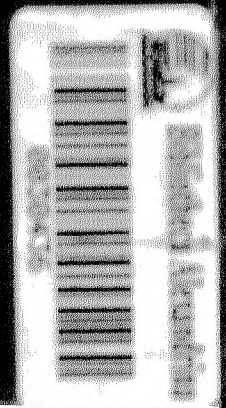


تاريخ الحضارات العالم

٤

القرن السادس عشر والسابع عشر

منشورات عريقات
بيروت - لبنان



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أستاذة متحف غيمه

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أستاذة متحف غيمه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي أستاذ في السريون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السريون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه أرست لافروس
أستاذ في السريون أستاذ في السريون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيوب أستاذ في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الرابع

التحول الفكري العظيم الذي طلع على البشرية
طلوع الحركة العالمية الحديثة
سيطرة أوروبا

تاريخ الحضارات العام

القرنان السادس والسابع

تأليف
رولان موسنييه
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية .

يوسف أسعد داغر فريد م. داغر

مكتورات عويدات
بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

مدخل

لو قبض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيريس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألأً، نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في أواخر القرن الخامس عشر، لأخذته الحيرة واضطرب له لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها مما قام من أمثالها . فالجتمعات الاميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لمعري مجتمعات لم يعرف عنها العالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من اوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجماعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشفي غليلاً ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيما لو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف الواحدة عن الاخرى ، اذا ما عرفت ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ما تم من منهجية آمرة ومعلومات موسوعية في الصميم .

فقد تكتشفت اوروبا في أواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في نواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من عل على اطراف كرتنا الأرضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المعرض للأمطار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في أواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً للذرائع ووسائل عرفت أوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكندن الحصان في رقبتة ، والثور بعد ان استميض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضغطاً متزايداً من جراء غناء الناس وتزايدهم ، بعد ان ارتفع عددهم الى اربعة اضعاف ما كانوا عليه في السنة الألف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتماد الدفة المحورية العالقة بفصلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استعمال الأبرة المغنطيسية بعد ان اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منذ أواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفنجة اساساً

والاعتماد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به إيطاليا أول من اخذت وجرت على اعتماده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد البحرية وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية مما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكلترا والمانيا الجنوبية والمانيا الرينانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفينة وارتكز عليها . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وتبدأ في إيطاليا الشمالية والمانيا الرينانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائع تقنية ، المتافع المائية في الاقراان الصناعية ، وذراع الدافعة في مقبض المحرك الآلي والتوصل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بناء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر المحيطات هي الكرافيل ، والتحويل ، اكثر فاكثراً ، على الاسطرلاب ، المعروف الاستعمال من قبل ، وعلى ربع محيط الدائرة والعمليات الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهجرة للوصول الى تحديد نقطة المرض ، وغير ذلك من التحسينات الآلية التي ادخلت تباعاً على المحراث والتقنية التي اعتمد عليها اكثر فاكثراً في تصنيع الريف والصناعة اليدوية .

وقد تفرد الاوروبيون دون سواهم بالقدرة على عبور المحيطات واجتيازها في اواخر القرن الخامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقي وتصادم وتفاعل وانفعال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا . وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان أطاح بالمدينيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية على الحضارات الافريقية ، وعاد بالرفء والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يقظة ووعياً كما ادى ، من جهة اخرى ، الى بحث النشاط في الحضارات الآسيوية ، اقله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا اصبح في الوسع ان نتكلم ، عن «العوالم» التي اقامها الانسان وعن هذه المجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، «عوالم» اعجز مسن ان تستوعب العالم ، «عالم» البحر المتوسط ، و«عالم» الصين . فمنذ الآن ، ومع انه لا يزال يوجد في العالم ، مناطق منعزلة كجزر المحيط الهادي والمناطق القطبية ، والاصقاع الواقعة في قلب افريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جعل من المحيط الاطلسي محوراً له فضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عبر المحيط الهادي ، ارخبيل الفيليبين ، ليلبلغ مشارف اليابان والصين وماليزيا ، ثم قام العالم البرتغالي الذي اتخذ محوراً له افريقيا والهند ، ونجح بمداخل بحر الهند ومخارجه ، وسيطر على جزر الملايو والطيب . وهكذا اصبح في مقدورنا ان نعتبر العالم الارضي ، واقعاً إنسانياً متميزاً ، وان

تاريخ أوروبا وتاريخ الكرة الأرضية كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب أوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقبع الأحداث الفصل في تاريخ الأجيال الطالعة ، ألا وهو نشأة العلم الحديث ، علم أوروبا بالذات ، عند ما تم لفاليليو ، عام ١٦٠٤ ، اكتشاف قاموس الجاذبية ، أول قانون الحركة ، باب العلم الحديث ومحركه ، كما وضع ، في الوقت ذاته ، أسس الفيزياء الرياضي ومباده الأساسية . وبذلك أثبت أن افلاطون كان على حق عندما راح يؤكد ، بمكس أرسطو ، أن الواقع المتعيز في الزمان والمكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وأن تحت الظواهر الحسية يكن نظام خفي يخضع للفكر الرياضي ، وأن كل شيء يتكشف عن معادلات هندسية وعن حركات في غاية الانضباط والدقة ، وأن كل شيء هو موضوع قابل للقياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها إلى ما لا حد له . أن هذا التحول بطراً على الذهن البشري ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطعية من فيزياء المناقبيية إلى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية إلى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، إلى الدقة والتمام ، كل هذا وما إليه يكون في تاريخ الانسانية ، حدثاً له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي أو يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن أمام أعظم تحول فكري عرفته الانسانية عبر تاريخها المديد . فكل شيء تغير وأصبح غير ما هو ، فيما بعد . فمن هذا التحول خرج مروراً بمؤسسي الميكانيكا وروادها الكبار أمثال : ديكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الأنوار كأوغست كونت ودارون وكارل ماركس وكوري وانشتاين العالم الحديث ، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد أن تهيأت أسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منذ عهد بعيد بعد أن ارتدت مظاهر شتى ومرت بمراحل عديدة . فأثار هذه الذهنية الكمية والاهتمام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، أن نضفي على المادة ، ما ليس من صفاتها ولا من خصائصها ، والرفض باعتباره واقعياً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما إليه مما نصت عليه مخلفات القرن السادس عشر الفكرية فكان أساساً لهذا الجدل العنيف الذي أثارته هذه الأهاجي البروتستانتية التي قذفوا بها العقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السيد المسيح تحت أعراض الخبز والخمر بعد استحالتهما ، هذه الأهاجي التي هيأت ومهدت السبيل أمام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجدور أبعد من ذلك بكثير . هل يجوز أن رد التحول الفكري إلى هذا الازدهار الذي عرفته الثقيلة التي تفترض ، لتعمل ذهنياً إيجابياً وعقلانياً خاضعاً لمبدأ السببية الذاتية ، هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتماد المالي والصفقة ، هذا النظام الذي كان يفترض دوماً العد والحساب وتحويل كل شيء إلى معادلات حسابية ، باستثناء تلك الذرائع التقنية التي تتعلق بالبناء والصناعة مما لا بد منه لتأمين نجاح أعمالها على أساس من الأعمال الحسابية والهندسية ؟ أيه لعمري ، إلى حد ما ، أقله كعامل إثارة وإغراء لفضول العقلي . وما هو غاليليو نفسه يدعونا إلى ذلك ، في مباحثه التي ظهرت عام ١٦٣٨ .

اذ نراه يؤكد لنا بأنه 'دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعد الذي طالعه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الراقعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه الخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسمية والرجحان الوقي الذي حققه الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع وليم اوكهام عندما استقر في خلداهم ان المعاني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهيم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر . وهذا انما يعني ان المفاهيم العامة انما هي اسماء او مسميات لا اكثر ولا أقل . فمعلوماتنا ، والحالة هذه ، انما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق الفهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار . ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة باريس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للابحاث التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفا حاسمة من عطفااته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بمصر جديد وحياة جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتنمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطيعة او تباعداً من قبل رجل او بضعة رجال ، هذه الاعراف التي سار عليها الناس او لعادات ومراسم اعتمدوها او اعتمدها مجتمع قائم بذاته ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمها . صحيح ان الانسان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسع عشر . فهو لا يزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط القبلية والمهنية والمجتمعية . ولكن ما عسى ان تكون هذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسان ، في الهند ، مثلاً ، في هذا النظام الطبقي الذي أرزح المجتمع ، أو في الصين حيث يرى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يبرز تحت ضغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المميقة بازاء استحالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخائفة والمراسم الضيقة مما رسمه الجسدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينعم بها اهل هذا المصير ؟ فاذا ما توفرت لبعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد او التأمل ، تحتم عليهم الانصهار مع المطلق والإعراض عن المسالم الخارجي ومغرياته هذا العالم ذي المظاهر الخداعة الزائفة . وعلى عكس ذلك فالفردية الاوروبية ازدهادت رسوخاً تحت تأثير عامل المسيحية . فالثنائية ، هذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصميم للفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

للمسيح والكنيسة الكمال ، خليقته التي برأ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في شبطة موصولة بمشاهدة كلمات الله . فهي روح اغازت بالفردية يتوجب خلاصها وتقادي ذهابها الى جهنم والدخول بها الى الفردوس ، حيث تنعم ، وجهاً لوجه بمشاهدة الله . فالمسيح بذل دمه وقاسى عذاب الصليب فداءً لجميع البشر ولسان حاله يردد : « هذه النقطة من دمي بذلتها وجدتُ بها لنجلك » . فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ، وهي صراع مستمر بينه وبين أركان الظلام . فالحقبة القائمة تنضج بالدين والتقوى ، وفيها بلغت مراسم الإبتها الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع لمشيئته ، والاتصال به ، تمامها الاكمل وكالها الأكم ، مع العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مثل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصهروا فيها بعد ان تطهروا من ادران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبثقت من العلماء الروحانيين ، اصحاب « التيقية الحديثة » في القرن الرابع عشر امثال : روبروك وطولر ، واخوة الحياة المشتركة والكنهنة القانونيين في نندشهايم ، جاءت تامة ، وفاقاً لمراسم العبادة التي قال بها وعلم فريزي من أولياء الله ، امثال القديس اغناطيوس ده لوابولا والقديسة تريزيا دافيللا والقديس يوحنا ده لاسكروا والقديس فرنسيس الساليزي وبايبرول Bérulle والرهبان السلبوسيين والمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر . ففي مثل هذا المحيط من الزهاد الهجوع والمتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد المهادف الى نجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبلر وديكارت . كبلر هذا الذي تحيل اليه يوماً انه توصل بنعمة الله الى الكشف عن مقاصد الله في خلقه والاسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نواميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه ان يرسي الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ، ويجزي ، الى الابد ، الكفار والملاحدة والمطلين . وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع ، كالفارس المجاهد في حملة صليبية ، المتأفل في سبيل ربه مرضاة لوجهه الكريم ، فاسكو ده غاما وفرناند كوريس . فقبل ان يقطع فاسكو بحراً في رحلة طوية ، نراه يقضي ليله الطويل ضارباً الى الله ، متوسلاً اليه في كنيسة السيدة ، في بلدة بيت لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتلاً اليه تسديد خطاه . وكنتيجة للاعتقاد بالله قيوم ، متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من العدم ، وعلى ضوء علاقة النفس بربها وقد انحطت به كل املها ، والفارس المسيحي بسيدته ، ومعاولة الفرد يهفو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة او الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هذه الامور وما اليها ، فاذن واضعة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ، والتطور .

هكذا تولت أوروبا مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحية وتدين العالم وايلاده طابعاً اوروبياً . فجاءت النتائج على غير استواء . فاذا ما ضربنا صفحاً عن القارة السوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود ، محدودة الاثر واستعملوها كعين لهم لا ينهب لدم بما يحتاجون اليه من الارقاء لاستثماراتهم الطائفة في اميركا ، فقد حققوا بعض النجاح في هذه المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولاً وحكومات نأت عن الحضارة الأوروبية لتكون بنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم ، مع ذلك ، لتقبس منها ما توجب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الأوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبائل يتعاطى اقوامها جني الثمار ويحترفون الصيد والقتل والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فتت في عضد تلك السبادات المحلية . اما في آسيا وافريقيا حيث وجد الأوروبيون حضارات تمود للعصر الحديدي ، تختلف كلياً عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الاسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلاً ، عرفت نظم الملكية واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف عما تم لأوروبا منه ، او كانت على مستوى حضاري لم كشرمه بتفوق الأوروبيين الظاهر ، فقد جاء انتشار المسيحية فيها وتغلغل الحضارة الأوروبية بين ارجائها ، سطحياً . فلم تدخل هذه الحضارات تغييراً جذرياً على اوضاعها القائمة . فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشعر على الخصوص ، بوطأة الطبيعة المرحضة ، ويشن من جشع بعض المجتمعات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يهملها الا المطلق ، وتستكشف بازدياد وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حد لمظاهر غرارة متغيرة دوماً ، فكان اخذها بأسباب التطور والتحول ، دون ما كان عليه في أوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن ان القدرة على التطور والاستعداد للأخذ بأسبابه ومسبباته لم تكن لتنقصهم قط . فقد ارتفع بعضهم وسما فريق منهم الى افكار ونظريات ، سجل الوصول اليها محرراً للفرد كما تم لطبقة السيخ في الهند بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحق المتجلية بأعمال البر والتقى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرحضة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالصيني وانغ - يانغ - منغ رأى ان كل انسان عالماً كان ام جاهلاً ، ثرياً كان او فقيراً ، ذكياً او متبذراً ، يملك في ذاته ، وتكتنه سريره ، مبدأ الخير والشر ومبدأ التكامل النفسي ، وفيه القدرة على ابداء رأيه في قيمة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وهكذا يجد نفسه في النهاية متحرراً من التقاليد والاعراف العائلية ، ومن تعاليم قدامى الكتاب . ووصاياهم ، ومن ضوابط العادات المستبدة ، كذلك هؤلاء اليابانيون من اتباع بوذية زن قههم يتوقعون كل شيء من التفكير الشخصي في العالم وفي المجتمع ، بعد ان ينطلقوا من ترمات هذه الدنيا وامورها ليصلوا بانفسهم الى معرفة المطلق ، مدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر ، مهما كانت فردية ومحدودة . تثبت بوضوح وجلاء بالرغم من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك نظرية ، هذه الفوارق التي تقوم على العرف والمناخ وحدتان التاريخ وجرياته ، ووحدة الجنس البشري . غير ان آسيا باعراضها الوقت عن المسيحية وضربها كشحاً عن المدنية الغربية وعما يكنانه في واقعها المتحيز من تحول وقيَم صالحة ابدأ للناس اجمع ، في كل زمان ومكان ، تكون قد تخلت لأوروبا عن مهمة قيادة البشرية كما تكون تخلت لها ايضاً ، عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ، وفتحت امامها على مصراعيها ، ابواب السيطرة والسؤدد على العالم ، والتحكم بالتالي ، بمقداراته ومصائرهم .

القسم الأول

أوروبا الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر

(١٤٩٢ - ١٥٩٨)

المؤسسات الجديدة

الفصل الأول

المباني الفكرية الجديدة النهضة الكبرى

مشكلة النهضة وعدها تتناول هذه الحقبة ، وفقاً لتقليد متعارف مكرور ، منذ عهد بعيد ، هذه الفترة الزمنية الواقعة بين العقد ١٤٩٠/١٥٠٠ والعقد ١٥٥٠/١٥٦٠ التي بلغت فيها النهضة الفكرية الاوج من الازدهار ، والذروة من الانتشار . ولا يتالك المؤرخ اليوم ، عن الشعور بشيء من الوجيل والقلق عندما يدعى للتحدث عن « النهضة » . فمئذ خمسة قرون ، حمل المؤرخون هذه اللفظة مدلولاً عنى عالمًا من الوقائع وبجراً من الافكار والمذاهب ، وقع عليها اختيارهم . ليس لانها فرضت ذاتها عليهم فرضاً ، بل لانه كان لهذه الوقائع وما اليها من حدائن وماجريات ، ولهذه الافكار والمذاهب حد القدرة على تركيز نظريات فلسفية ارتضاها الناس وعلمت بها خواطرم . فلاعجب ، والحالة هذه ، ان يقوم حول مفهوم النهضة عقدة ، وان ترتفع بصدها مشكلة لم تلبث ان استحالت الى شيء هو اقرب الى الفوضى .

يتبنى المؤرخون اليوم صورة لعصر النهضة والانبعاث رسم خطوطها الكبرى المؤرخ الفرنسي ميشليه ، سنة ١٨٥٥ وبوركهاردت السويسري سنة ١٨٦٩ . فقد جعل هذا وذاك عصر النهضة ، حقبة من حقب التاريخ البشري لها خصائصها المميزة ، انطلقت عند ميشليه الذي كان يضع نصب عينيه تاريخ فرنسا من عهد الملك فرنسيس الاول ، بينا رأى بوركهاردت الذي اتخذ من إيطاليا قاعدة لحكمه ان النهضة امتدت سحابتها ، في نظره ، من سنة ١٢٥٠ الى ١٥٥٠ تقريباً . وباستثناء هذا الفارق الزمني لم يختلف المؤرخان المذكوران كثيراً في الرأي عندما راحا يحددان الخصائص المميزة لهذا العصر بالذات . فالعصر يختلف في نظرها ، اختلافًا كلياً عن عصور الاجيال الوسطى ، اذ كان يحتضن ، ولو بصورة كاملة ، الخصائص التي تفرد

العالم الحديث وتميزه . ففي نظر بوركهارت الذي بدا اكثر منهجية من زميله الفرنسي ، ان هذا العصر جاء حصيلة للوضع الفكري الذي كان عليه الشعب الايطالي بعد ان استفاد بوعى ذاته ، فهو اذا ، عصر النهضة الذي جاء حصيلة تبدل جذري في الذهنية ومناحي التفكير . فقد تميزت النهضة بطابع الطغيان ، سمى الدولة اذ ذاك ، هذه الدولة التي قامت ، كما تقتضي الشكليات على القوة ، بجلى الفرد و بجلى استعلائه ، و بجلى فردية الانسان ، هذا الفرد الواحد ، ومن ثم استفحال مذهب الفردية التي تقوم على شهوة المجد والتطلع الى العظمة . اما المثالية الجديدة التي اطلت على العصر فتحقيقها موقوف على تحييز هذه المعطيات من الحقائق الوضعية التي تجمعت خلال الاجيال القديمة او التاريخ القديم والتي بواسطتها فقط يستطيع الوصول الى ما هو قائم حقاً الى العالم الخارجي وإلى الانسان ، هذه المعطيات المفترى عليها والمزودة من قبل كتاب الاجيال الوسطى ، هذه الاجيال التي غامت بين النصوص والآيات المقدسة ، وبين ألفاظ المصطلحات ومعانيها . ومن هذا العصر اطلت علينا الرغبة في العلم واحترام الشخصية البشرية والإقبال على درس ما يميز الفرد . وهذه النظرة الجديدة الى العالم اخذت تعمل عملها في تكوين المجتمع .

فالذي يرفع من قيمة الانسان ويحمل له شأنًا ، ويقم له وزناً بعد نبوغه وقوة الابداع فيه ، وما يتحلى به من ثقافة وما حققه له من يسر وغنى : نشاطه الخلاق ، وليس كرم الاصل الموروث وشرف المحدث واجداد الحروب . فالطبقة المسيطرة نصفها من النبلاء والنصف الثاني من البورجوازية ، كما ان طبقة الاشراف هي التي تتألف من كبار رجال المال والاعمال ، اما هذا النمط من الحياة الذي يحياه هؤلاء الاشراف الذين يحترفون مهنة الحرب والخدمة العسكرية فهو مضطرب في الاسن وموضوع ازدراء الجميع . والطبقة المتحركة التي تقلي على الطبقات الدنيا ، الصورة التي رسمها عن العالم وتلقنها سر اذواقها في الثقافة والفنون واخلاقيتها في التصرف والسلوك المتحرر . اذ ان الفرد هو ولي امره يستن لنفسه ما يلائم مزاجه ويفذي فيه التشككية الدينية ، اذ كثيراً ما يحمل المرء عملياً من نفسه محور العالم ، ويقف ، بوصفه واحداً من هؤلاء الآلهة الصغار ، موقفاً معادياً لرجال الدين ويصبح ملحدًا . هذه الذهنية الايطالية لم تلبث ان سيطرت هي نفسها على اوروبا وانتشرت في جميع ارجائها .

يبدو هذا الوصف صحيحاً واقعياً في القسم الاكبر منه باستثناء ما جاء منه خاصاً بالدين . فالامور النظرية هي وحدها موضوع تحفظ وجدل . ولذا راح مؤرخون محدثون يؤكدون اليوم ان عصر الانبعاث هذا لم يكن ليتعارض في الصميم مع الاجيال الوسطى ، اذ ان الخصائص المميزة التي تطبعه هي ، بالفعل ، من بعض مخلفات الاجيال الوسطى بالذات ، وانه اذا كان لا مندوحة من الاعتراف بقيام عصر « نهضة » فالقول يصح لجهة القرن الثاني عشر ، في هذا الجزء بالذات الواقع الى ما وراء جبال الألب ، ولاسيما في فرنسا محور الدائرة وقطب الحضارة

الأوروبية . ولكن ، ماذا من الفردية ، ومن هذا الاهتمام البالغ بالروابط التي تنتظم القوة والخبرات المادية وشهوة الفنى والبخخ ؟ كل هذه تفرغ أوروبا وتمشعش في كل زاوية منها ، منذ نهاية الحروب الصليبية وحركة الحداثة البلدية حتى ان الراهبة هيلوين معشوقة ابيلاز الاسبق ، البائسة ، التي تعيش كآل الفضيلة الإيطالية كما تمثلتها هي ، يمكن اعتبارها من شخصيات عصر النهضة ولو عاشت في القرن الثاني عشر . وماذا من التاريخ القديم اليوناني واللاتيني ؟ ولكن معرفة فرنسا لمكونات هذا التاريخ ولقوماته لم تكن لتقل قط عن معرفة إيطاليا لها . فلقد كان لهذا التاريخ ، في فرنسا ، من رفعة الشأن والاكبار ما تم لإيطاليا منه في القرن السادس عشر . فالمدارس الفرنسية التي قامت الى جانب كاتدرائيات باريس وريس ، وشارتر وأورليان ، كانت ، في القرن الثاني عشر ، منائر عالية للثقافة العامة ، كما ان مدرسة شارتر كانت المحور الرئيسي للمدارس اللاتينية في أوروبا جمعاء . ويمثل الادب الكلاسيكي من شعراء وخطباء ومؤرخين ، أحيطوا فيها بكل مظاهر الاكبار والتقدير اذ نظر اليهم الناس نظرتهم الى جبايرة الفكر في التاريخ القديم لا بد من دراستهم دراسة تدبر ، لكل من تشرتبث نفسه الى الرفعة والتجلي في حياة متجددة مشرقة . فالفرنسيون مطلعون كل الاطلاع ، على الآثار الفكرية والمخلفات الادبية التي عرفها فيما بعد ، عصر النهضة في إيطاليا . فاعلام الكتاب من فرجيل الى أوفيد ، الى شيسرون ، الى كونتليانوس ، الى سنيكا فلبيني القديم ، وغيرهم كثيرون ، هم موضوع عبادة الجميع يحيطونهم بكل اكرام واجلال . فاللاتينية فيها ولا اصفى ولا اقنى ، كما سيصبح امرها في إيطاليا ، خلال القرن السادس عشر ، والآداب الشمسية والرومانسية في هذه المنطقة انبثقت كلها عن اللاتينية . فالاهتمام بمحاورات افلاطون ومباحث ارسطو ، على اشده ، وقد ترجمت ، هذه الآثار من اليونانية الى اللاتينية ترجمة دقيقة ، امينة ، بحيث لم يبق لعلماء النهضة في إيطاليا من مهمة سوى تجديد او تصويب بعض التراكيب فيها . وليس بغريب ، البتة ان تطالعك ، حتى في مثل هذا الوقت ، بعض الافكار المصرية ، كالفكرة الطبيعية الخيرة المعطاء والفلسفة الطبيعية التي تؤكد ذاتية الطبيعة والعقل للفصل . فالكل متملّ من الاقتناع بان الطبيعة هي عمل الله على الارض وبحلى ارادته ، جميلة ، عظيمة ، خيرة في ذاتها ، افسدتها الخطيئة الاصلية ، ومع ذلك تبقى اداة للنعمة ومساعدة الخالق وخدامته المطواع في كل ما يؤول الى تجديد العالم . فنعمة الله رفيعة بالطبيعة ، بارّة بها ، كما ان الطلعة هي الاخرى رفيعة ، بارّة بالنعمة . ففي الاجيال الوسطى كما نرى ، مذهب فلسفي طبيعي جعل من الطبيعة محور اهتمامه اكثر بكثير مما تصوره بوركهاردت ، وبلغ اليه ظنه .

وبمكس ذلك تماماً هنالك مؤرخون بشددون على كل ما اقتبسته النهضة الإيطالية من الاجيال الوسطى وعرفت ان تنقله اليها وتصونه سالماً . ففي الرماضيات نرى الايطاليين ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، يعولون كثيراً على جامعات باريس واكسفورد وتاليمها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . كما نراهم مدينين كثيراً لهذا النابغة الباريسي العظيم

نقولاً أوريسم الذي تم له ان يكشف ، قبل ديكارت نفسه ، عن اصول الهندسة التحليلية ، كما انه توصل للكشف عن نظرية الاستمرار ونظريات : اللانهاية بالقوة واللانهاية بالفعل ، ونظرية المتسلسلة المتنامية الصغر ، ونظرية الأسس الكبرى والتغاير الوظيفي . وعن باريس صدرت دورة الشمس النهارية ونظرية تعدد الموالم ، وكلها نظريات علمية جرى بحثها والنظر فيها منذ القرن الثالث عشر . وما هو ليناردو ده فنشي ذاته ، يتملى ويتشبع من كتابات ومباحث حكبار الفيزيائيين الذين علموا في جامعة باريس ، امثال البرت ده ساكس وتيمون اليهودي ، وجان بوريدان ، بعد ان طبعت هذه الآثار وأعيد طبعها مراراً في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . وعلى هذا قس باقي الامور .

بعد هذا ، ما عسى ان يبقى من صفة التفرد التي يقصرونها على عصر النهضة ويصفونه بها ؟ بالطبع تتبخر وتتطاير هباءً . فعصر النهضة ليس سوى مرحلة من مراحل هذا التيار الجارف المتمثل في الحضارة الاوروبية ، نبعت من « اجيال الوسطى » المؤرخين ، وبلغت أشدها في « عصورم الحديثة » ، هذا التيار المتدافع باستمرار ، والمتواثب بلا انقطاع . فال مؤرخون امثال بوركهاردت راحوا فريسة الروح الوطنية الايطالية وفلسفتهم العرقية بعد ان ارمدت عيونهم من تفوق « الغالين » وسبقهم لهم ، فعزموا امرهم على تجاهل هذا التفوق وتناسي امره ، وضربوا صفحاً عن كل ما اقتبسوه منهم ، كارهين ان يعترفوا بأي فضل او قيمة ، الا ما لم يكن بد من الاعتراف به ، بعد ان عجزوا عن تجاهله وامحاله ، ثم راحوا ينسبون لأنفسهم سبق التجلي وحق الصدارة والتقدم . فعركة النهضة عندهم انطلقت من بترارك ، في القرن الرابع عشر ، ومن نقطة الانطلاق هذه إستمد بوركهاردت الاسس الأولى لنظريته ، نظرية النهضة الشعبية الايطالية . فقد إزدري بترارك الباريسيين . بل كل الفرنسيين ، ونظر اليهم نظره الى برابرة ، اجلاف . فالتمدين في نظره ، هو من تكلم الايطالية باصفي صيغها وانقى قوالها ، وهو من تجمل باللاتينية مصدر القيم وينبوع الفضائل كلها . ولكن هذه اللاتينية او بالاحرى الحضارة اللاتينية توارت من العالم وزالت عام ٥٢٤ مع بوبتيوس ، وهو التاريخ الذي انتهى فيه العالم اللاتيني وبرز فيه عالم البرابرة . فالفرنسيون ، سلالة الغالين وحفدتهم لن يستطيعوا ، يوماً امتلاك اللاتينية وتجويدها . فالإيطاليون وحدهم هم الذين يحري في عروقهم الدم اللاتيني ، وهم وحدهم يستطيعون بمت اللاتينية من جديد ، مرضعة العلوم والفنون والآداب . فقسمة تاريخ البشرية الى ثلاثة ادوار ، اوسطها تفشاء الظلمات والبربرية ، ثم إنبعاث اساسه الاداب الايطالية ، ثم الاجيال القديمة ، فالتفوق الايطالي في مجالات الفكر هو العنصر المحلي . هذه هي لعمرى ، العناصر المكونة الثلاثة لفكرة النهضة . هذا هو التقسيم الذي فرض فرضاً على اوروبا وعلى المؤرخين الذين ذهبوا فريسة اسطورة من هذا المعيار الضخم .

لما كنا نتناول بالبحث عهداً تداخل قسم منه ، على زعم بعض المؤرخين ، في عصر النهضة ، كان لا بد لنا من ان نشير ولو بإيجاز ، الى ام النظريات

الاساس الجديد

التاريخية حول هذه النقطة مما لا يزال محتج به دون ان نتعرض بالتفصيل لهذا الجدل . والذي
همنا هنا هو ان نعرف ما إذا كان جد من جديد في مطلع القرن السادس عشر .

نلاحظ ، بادىء ذي بدء ، ان فكرة النهضة بالذات تراود ، بحق او ببطل ، وسواء اكلت
لها ما يسوغها ام لا ، كل الخواطر والاضائر اذ ذاك . ولعل اول من اطلق هذه اللفظة تعبيراً عن
قيام مثل هذا الوضع الحضاري الذي يختلف كلياً عن وضع الاجيال الوسطى ، هو على ما نعتقد
الناقد الفني جورج فاساري ، في كتابه : « سير مشاهير المهندسين والرسامين والنقاشين
الايطاليين منذ سيابوالى يومنا هذا » ، في طبعته الاولى التي صدرت في مدينة فلورنسا ، عام ١٥٥٠ ،
ولمؤلف من العمر اذ ذاك ، ٣٩ سنة . وقد لخص لنا في مجال حديثه عن الفنون خواطر
بترارك بهذا الشأن ولا سيما ما جاء منها بالادوار الثلاثة التي مرت تباعاً على الانسانية ، ويصور
لنا جلياً ان إعراس الاذواق عن الفنون وضعف اهتمام الناس بها مرتبط الى حد بعيد ، بعوامل
شقي ، تتصل في الصميم ، بالقوانين والشرائع المدنية المعمول بها ، والاعراف الاجتماعية المتحكمة
بالاذواق ، وما للاخلاق عند الناس من قيم ، والمستوى الحضاري المتحيز على الاجمال ، فراح على
هذا الاساس يقسم عصر النهضة الى ثلاثة اقسام وهو تقسيم لا يزال مرعي الجانب تتناقله كتب
النصوص ، وهي : من منتصف القرن الثالث عشر الى اواخر القرن الرابع عشر حيث اخذ
الفنانون ينهجون نهج جيوتو ويسيطرون على منواله ويستكشفون بالتالي ، من الاساليب الغوطية
والبيزنطية ويحاربونها ، ويتناول الثاني القسم الاكبر من سحابة القرن الخامس عشر حيث اخذ
عدد الفنانين يكبر ويتضخم بعد ان اخذوا يتقيدون ، اكثر فاكثراً ، بالواقعية ، وان على شيء
من الجفاف والفجاجة في الاسلوب الفني . واخيراً هذه الفترة التي وضعت فيها صورة « المذراء
على الصخور » ، من سنة ١٤٨٣ الى سنة ١٥٥٠ ، اي الى مطلع العصر الحديث في مقدمة القسم
الثالث ، اي عصر الكمال والنم . وهكذا رسم فاساري صورة موجزة لهذه التيارات
الفكرية التي طلعت مع بترارك وترعرعت معه وبعده ، والتي عاشها فاساري نفسه وشب بينها
الا وهي افكار اليقظة والبعث والتجديد والانتقال من الظلمة الى النور ، وهي افكار دخلت
الآداب والفنون والعلوم وتغلقت عميقاً بين رجال السيف والقلم ، فكرة الانبعاث او النهضة .

من ايطاليا إنتقلت هذه الفكرة الى اوروربا على السنة واقلام اعلام الفكر والثقافة امثال
العالم الهولاندي ايراسموس والالمانى روتلين ، باعث الدراسات العبرية في المعاهد الاوروبية .
اما الفرنسيون فيكفي ، توبها بالشعور الذي ساورهم ، ان تردد هنا ، انشودة غرغنتويا
الجسار الحماسية ، عندما يكتب ، كما يقول رابليه (١٥٣٢) الى ابنه « بَنْتَغْرُوِيل قائل . «مرت
حدثاتي في عصر غشا الظلام وفاحت منه رياح البؤس واختلج بالكبائر التي اتاها القوط الذين لم
يتورعوا عن ذلك معالم اطرف واطيب وامثل ماخلفته الآداب والفنون ، ولكن الله في تحننه
ورحمته اعاد الكرامة والنور الى الآداب ، في عهدي . والآن بعد ان عاد الاعتبار الى العلوم ،

واللغات حلت محلها اللاتق من التقدير كاليونانية التي لا يمكن للمرء ان يعتبر عالماً بدونها ،
والعبرية والكلدانية واللاتينية . وتجلى ذلك كله في هذه الطبقات المؤنفة التي رفلت فيها المؤلفات
والآثار الفكرية التي رأت النور بوحى إلهي » .

كذلك لا يمكن ان نتجاهل واقعاً تاريخياً له اهميته وهو اعتقاد رجال العصر بأنهم يعيشون
بالعمل نهضة جديدة . فان لم يكن ثمة ما يبرر تماماً مثل هذا الاعتقاد ويزكّيه فمجرد شعور
المرء انه انسان من نوع آخر وانه سليل مدنية تقع في مرحلة زمنية دعت بالاجيال الوسطى
(وهي تسمية اطلقها اول من اطلقها ابناء هذه النهضة ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس
عشر رغم استعمالها في القرن السادس عشر) ، ادى ولا شك ، الى سلسلة من الاعمال وتسبب في
ظهور اساليب من التصرف والسلوك والتفكير ، وساعد في ظهور نمط من التفكير وعقلية
جديدة تختلف تماماً عما تم من مثل هذا للعهد الماضي المقيت . الا ان هذا الشعور له ما يبرره
ولو بصورة جزئية . فبين العقد ١٤٨٠ / ١٤٩٠ والعقد ١٥٣٠ / ١٥٤٠ ، طلعت علينا تغييرات
جذرية ، واطلت نظم ومؤسسات لم يبق مثلها من قبل ، كما يتضح ذلك جلياً من الامثلة الثلاثة
التي نورد هنا لك . منها تحقيق المثالية الافلاطونية الحديثة وتحجيرها في روما ، سنة ١٦٠٠ ،
في صوغ انسان مثالي ، تناهد على رسم قسائمه كل من ميكالو انجلو ورفائيل وكستيفليونى
وبرامنت ، فبرز في خطوطه الجديدة نصف اله ؛ بما تم له من نظر ثاقب يلتقط بلحمة عين
أرجاء الهضاء والاشكال في صور وصيغ فرضت نفسها على الحضارة الاوروبية مدة استطالت
ثلاثمائة سنة ؛ من ذلك ايضاً كشف كون جديد على يد كوبرنيكوس ، عام ١٥٠٦ ،
وهي السنة التي انجز فيها وضع كتابه الفصل المعنون : « حول دوران الافلاك السماوية » ،
وخلالها طرح في التداول كتيباً بعنوان : « تعليقات » بسط فيه بايجاز الخطوط الكبرى للنظرية
الجديدة التي قال بها وعلم ، والتي لم يبلغ البلاط البابوي خبرها الا في عام ١٥٣٢ ؛
واخيراً وليس آخر ، هذه الاكتشافات الجغرافية التي تمت عام ١٤٩٢ فحطمت حدود
العالم المتوسطي ونقلتها بعيداً لتجمل منها حدوداً لكوكبنا الارضي ، وهي كشوف تمت
على يد مرده مغامرين امثال كولمبوس وفاسكود غاما ، وألبوكرك ، وكورتيس ، فرسموا
بذلك مسبقاً اول صورة للاقتصاد العالمي ولتساقط المعادن الثمينة والسلع التجارية على اوروبا .
فان سموا هذه الحركة نهضة او انبعاثاً او شيئاً آخر ، فالامر عندنا سيان ، ويبقى بعد هذا شيء
واحد هو انه تم في بضعة عقود من السنين تحجير لعالم جديد وتركيز له .

بعد ان وضع ميكالو انجلو اثره الخالد : « الأم الحزينة *Pieta*
في روما بعد ان استغرق انجازه من سنة ١٤٧٩ الى ١٥٠١ ،
ووضع برامنت تحفته : المعبد الصغير *Tempietto* بعد

الانسان والصكون حسب
الافلاطونية الحديثة

ان قضى في عمله سنتين من ١٥٠٠ - ١٥٠٢، تحقق الحيز الامثل واطل عالم الاشكال والصيغ وظهرت الصورة المثالية فتم بذلك حلم الافلاطونية الحديثة ، الذي رآه مارسل فتشينو هذا الراهب الفلورنسي ، رئيس كهنة كاتدرائية فلورنسا ، واحد اصدقاء لورنتيوس العظيم الاوفياء - روح اكاديمية كارميجي الفلورنتية وراحها - هذا الراهب الذي عاد يبحر من جديد ويفكر عميقاً ، فكرة او سطية عاشها طويلاً وطالما رادته ، تهدف الى التجديد المسيحي وبعث المسيحية لتعود الى نقاها الاول فتهم ، من قريب بدخيلة النفس وذلك في سبيل إصلاح الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه . وقد خيل اليه وهو الفيلسوف انه أنيطت به رسالة الهية ، الا وهي تحقيق هذا الانبعاث الديني وذلك عن طريق احياء الافكار التي قالت بها الافلاطونية الحديثة بحيث تتم عملية مزج او افراغ الفكرة الدينية : الوثنية والمسيحية في قالب واحد فيتم لقاء زرادشت وهرمس وتريسمجيسست ، وفيثاغوراس مع الديانات الاخرى ذات الاسرار ، من أفلوطين الى اوريجانوس ، الى لكتانسيوس ، الى اوصابيوس ، الى اوغسطينوس ، الى توما الاكويني ، الى دونز سكوط في ائتلاف أشمل بما يمثل افلاطون ، والخروج من ذلك كله بدورة او معلة تغري الناس اجمع ، بشكل لا يدفع ، على اعتناق المسيحية .

فقد بدا فتشينيوس ، وهو الذي تتلمذ على افلاطون وتخرج في مدرسته متوهماً ان الله خالق الكائنات هو الذي اوحى ، منذ الارل بالافكار فتأتي قوالب مثالية وصيغاً في غاية الكمال والاتقان والجمال ، بعد ان رتب الله هذه الافكار والصور والاشياء وناسب بينها في نظام اسر يأخذ بمجامع القلب والعقل ، فنستق بينها على احسن ما يكون التنسيق والتبويب والتسلسل فتكتسب الحلات مع قيمة فنية في غاية التسامي . « فالكون اجمع ، في جزئياته وكلياته ، ينطلق في الحسن من المتناهي والإيقاع كاللحن المنطلق من اوتار القيثارة الشاكية ترتقص في لمس ناعم كمر النسيم ، بالرغم مما يطرق السمع احياناً من نشوز او شذوذ . فالخلقة جاءت على شاكله الكائن حيث لا نوافل ، وفاقاً لعمل فني كل ما فيه يتناغم جماً مع توافق الهدف النهائي ... وهكذا فنشكل جزء من اجزاء عالمنا يسهم في رسم قسمة الكون وجماليته بحيث لا يستطيع الانسان ان يطرح بعيداً او يزيد عليه اي شيء » .

وهكذا يبدو لنا الله اسمى الفنانين واكملهم طراً ، بل هو الفنان الاوحد . « فالعالم ، بما له من فائدة وبما فيه من نظام بديع وحسن انتظام ، وبما يبدو عليه من حلقة وجمال ، يشهد عالياً لهذا الفنان الالهي الذي ابدعه وبراه . ففيه الدليل القاطع على ان الله هو مهندس الكون الازلي . فعمله صورة عنه . « فالخالق قد وعرف واستطاع ان يجعل عمله يشبهه الى اقصى حد . والله نفسه يملأ هذا العالم الذي ابداع لانه دائرة روحية ، قلبها في كل مكان ولا يحيط لها البتة » فالكون كله ينطبق بمجد الله ويشهد له عالياً في ما تم له من نظام دائري وبما فيه من موهيات وملمهيات . فهو يتغلغل في هذا الكون باعتباره قوته المحركة فيفيض عليه الحركة

والحياة كالبنيان الهندسي بالنسبة للشكل العام ، وكنينوع الخير اللامتناهي الذي يغمر الكائنات والاشياء وكمرکز للجمال : صورة الخير وبلورته ، يشع على الكائنات والاشياء ويلؤها وسامة وملاحة كالشمس غلاً البلور بانواما .

وهذا الانسان القلق الذي لا يرى في المخلوقات كلها ما يُشبع نهمه ويشفي غليله ، لا يجد سعاده الاكمل المثلّي الا في ذات الله مجتمع الكمالات والفضائل . وباستطاعة هذا الانسان ان يبلغ الى الله بذرائع ثلاث لا رابع لها . بالعقل أولاً ، هذا العقل الذي يريه ما تمثله الكائنات والاشياء من افكار ، وما في عوالم الافكار من فكر الله ومقاصده ، وفي مقدور الله اذا ما شاء ان يجود عليه برويته بمشاهدته ، بنفحة واحدة من انواره البهية وبمعزل عن كل فكر وعن المخلوقات اجمع . واذا ذاك فقط ، تتحد النفس بذات الله لتنصهر فيه وتصبح لها ، فتستحيل بالتالي : غبطة وسعادة ، فتشعر وهي في حالة انخطاف روحي بلذة هي الغبطة الابدية . ويستطيع الانسان ، من جهة اخرى ، ان يتقرب من الله بالمحبة . ان جمال الكائنات هو مجلى للجمال الالهي . فكل حب او تعلق بالجمال يفيض على الحب جمالا ، اذا ما ادر كنا جيداً واية لنا ان ما نحبه في المحبوب هو ، بالفعل ، الجمال المطلق ، الشامل ، اي الله . فالنفس البشرية تضطرم بالنور الالهي والسناء الالهي ، فتتألاً صورته لتألؤ المرأة بالكائن الجميل ، فيجتذبه الله اليه بطريقة سرية كما يجتذب الشص السمكة العالقة بحيث يصبح لها ، يستطيع الانسان ، بعد هذه كله ان يزداد شهباً بالله اولاً ، ثم ينسكب في ذات الله اذا ما اراد الله ان يكرمه بهذه النعمة . وذلك عن طريق الخلق . فالانسان ، كالله نفسه ، فنان شامل ... وفقد أوتي هذه الانسان ادراك ما في السماوات من نظام وما في العوالم من حركات ، وما هي عليه هذه العوالم من مراتب وما بينها من أبعاد وتفاعل وتجاذب . فمن يستطيع والحالة هذه ، ان يُنكر ان للانسان من القدرة ما يشبه الخالق ، وان في مكنثه ان يبسط السماوات وينشر العوالم اذا ما تمت له مستلزمات البسط والنشر والمادة الفلكية اللازمة ؟ . فالانسان هو دله ، هو رب الكائنات المادية ، يجري فيها ، كيفما يشاء ، تبديلاً وتحويلاً وتغييراً . ففي الحين الذي يجري فيها تحويلاً عن طريق خلق الاثر الفني وابداعه بالصورة التي ارادها ، ملتقياً بذلك مع التصميم الالهي في الصميم ، مشاركاً في تحقيق هذا التصميم وتحيزه ، يدخل ، اذ ذاك ، اكثر فاكثراً في فكرة الله ويتحد بالله اكثر فاكثراً . فالمعرفة العلمية والفلسفية تتحقق بالخلق الفني . فالمهندس والرسام والحفار والشاعر ، يحدون انفسهم عندما ينزل عليهم الوحي والالهام وكأنهم على اتصال سري مع الله . فالله يعبر عن ذاته بواسطتهم وهؤلاء الناس الالهيون هم رسل الله وموفدوه . فالفن ولا سيما الشعر هو الطريق الحق للمعرفة والاكتناء ، وهو اسمى واعلى من اي فن آخر . فما الفنون الاحالات خاصة وصور من الصلاة والتنبؤ والاتحاد الرمزي بالله .

في عهد لورنتيوس العظيم ، اعطى فتشينو اهم آثاره الفكرية ، مع ان روما والافلاطونية الحديثة الكتب الاخرى التي صدرت له فيما بعد تتفق تماماً مع ترتيبنا

الزماني^(١) . فقد تخلت عنه فلورنسا وخانتته في نقطة حساسة ، اذ عجز الفنانون الفلورنسيون عن ان يعبروا ، بانجازاتهم الفنية ، عن تعاليم الفيلسوف ونظرياته وان يتمثلوها . ويتبين من رسائله العديدة انه كان على اتصال واسع مع الكثيرين من رواد النهضة في روما والبندقية والمانيا وفرنسا وبلجيكا وبولونيا وهنغاريا . فالحديقة التي اقامها في كاريجي كانت ملتقى الابداء الانسانيين ، يفدون اليها من جميع أنحاء اوروبا . فروما عاصمة المسيحية شهدت وحدها تحقيق فكرته ، بعد ان كان توارى هو عن هذا العالم ، وذلك في اشكال وصيغ اصبحت ، لاجيال عديدة ، موضوع الهام للكثيرين في جميع أنحاء اوروبا .

فبعد موت لورنتيوس العظيم ، عام ١٤٩٢ ، والثورة التي اندلعت نيرانها في فلورنسا ، بعد ذلك بسنتين ، اي في عام ١٤٩٤ ، وقيام الحكم الشيوقراطي على يد سافونارولا ، والجمهورية الفلورنسية ، فيما بعد ، وعلى اثر قدوم عدد غفير من رجال الفن نزحوا من فلورنسا الى روما ، اصبحت هذه ، المركز الاول للافكار والنظريات الافلاطونية الحديثة التي تشبع بها الفنانون والادباء وشاعت بين الاشراف والنبلاء ورجال الكنيسة الذين وجدوا في تلاقي مشاربهم وتوافق ميولهم مع مثالية البابوات ، وسيلة لتحقيق الاحلام التي راودت خواطرهم . فمنذ عهد البابا نيقولا الخامس ، على الاقل ، في منتصف القرن الخامس عشر ، والبابوات يجهلون بتشديد الكنائس والمعابد والقصور الفخمة وغير ذلك من الانجازات الفنية الجميلة ، في روما ، ليجعلوا منها بحق خليفة بنائب السيد المسيح وخليفته على الارض ، لا تنقص شيئاً عما كانت عليه في عهد القياصرة بحيث يستشعر المسيحيون في روما ، والحجاج الذين يفدون اليها من جميع اطراف الارض ، العظمة والضعامة والقوة والغنى المتمثلة بهذه المباني فيحمدوا الله على هذا كله وعلى ما تم لروما من عظمة وفخامة واهبة ، وهكذا تصبح روما انشودة تحدث عالماً بمجد السيد المسيح ، كما انها ستذيع عالماً ، بوصفها عاصمة البابا الملك ، ما للبابوات من شأن عظيم . فقد صرح البابا سكستوس الرابع ، في رقيم له صدر عام ١٤٧٣ قائلاً : « اذا كان ثمة من مدينة في العالم تشع نظافة ، وجمالاً ، فيجب ان تكون بالطبع ، المدينة المعروفة بكونها عاصمة العالم ، ولها شرف احتواء كرسي بطرس الرسول ، مما يجعلها ولا شك ، في الصف الاول بين مدن الارض » . وعندما راح البابا جول الثاني يبرر تشييد كنيسة القديس بطرس خاطب الكرادلة بقوله : « كما ان الطوباوي بطرس هو هامة الرسل والمتقدم بينهم ، وجب ان تبنى الكنيسة التي تحمل اسمه ، كنائس روما والعالم اجمع . وبما ان الخراب يهددها اذ انها تتداعى للسقوط ، كان من المترتب علينا توسيعها باعادة بنائها لنسلمها الى الخلف عروساً تدلّ بجهاها على جميع كنائس الارض » .

(١) منها : الرسائل (١٤٩٥) - شروح افلاطون وتعليقات عليه (١٤٥٦) ؛ قضى نحبه في ١٠/١٠/١٤٩٩ قبل ان يفرغ من تفسير لرسالة بولس الرسول الى اهل رومة .

فقد كان تحت تصرف البابوات موارد ماليه طائلة : كالضرائب التي كان الكرسي الرسولي يفرضها ويجبها بكل دقة ؛ واحتكارات الملح والشب المستخرج من مناجم 'طلنغا' ، هذا الشب الذي لم يكن لاوروبا قط غنى عنه لاستعماله قاصراً في صبغ الانسجة ودباغة الجلود ؛ وما قدره الرسوم المجبأة في اوروبا جماء ' كرسوم روحية ' ؛ وبيع وظائف الدولة ومناصبه الرئيسية ونجاح القروض الداخلية . والى جانب الموارد الطائلة الخاصة بالبابوات لتغطية تكاليف الابنية والانشاءات الفنية التي يوصون عليها ، يجب ان نشير هنا ، الى الثروات الاسطورية والموارد الواسعة الموضوعه تحت تصرف الكرادلة اذ كانوا يقيمون لهم بطانات واسعة الى جانب البلاط البابوي ؛ والموارد التي ينعم بها اشراف الرومان ونبلاؤهم ، واصحاب المصارف الكبرى الموجودة في روما . وقد كانت الافكار والاقتراحات المقدمة او المقترحة ابعد من ان تألف واحلام البابوات ، هذه الاحلام التي لم تتحقق الا في مطلع القرن السادس عشر ، عندما قام فنانون تشبعوا بافكار الافلاطونية الحديثة ونظرياتهم يحاولون تمييزها بانشاء مبان وعمائر جاءت على نسبة المباني الرومانية القديمة عظيمة وفخامة ، تمييزاً منهم لاذواق بهرما يهرج القوة والعظمة ، هذه المباني التي اخذت تفتشر في انحاء المدينة ، في نهاية بابوية اسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ولاسيما بحرية البابا جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) وليون العاشر ، البابا الفلورنتيني الاصل والمديتشي المتمد (١٥١٣ - ١٥٢١) .

فبدلاً من ان نتلمى بوصف امور مجردة وفي عدم لاسد له من المباني والفنانين الذين اشرفوا على تصميمها او انجازها ، رأينا من الانسب ان نقوم بنظرة تحليلية لبعض هذه الانجازات الفنية وامثلها .

ثلاثة من بين هؤلاء الفنانين اللامعين هم : برامنت وميكالو انجلو ورفائيل حملوا المبنى الحديث في روما لحساب البابا جول الثاني وتوصلوا ، بعد ان كشفوا عن خرائب روما الامبريالية ، الى تحديد شكل ولوح المباني والانشاءات الهندسية التي تعبر أتم تعبير عن مثل الافلاطونية الحديثة التي يمكن ان تفوز برضى البابا الخفيف .

عندما رغب البابا جول الثاني عام ١٥٥٥ في ان يستبدل كنيسة القديس بطرس في روما كنيسة القديس بطرس القديمة التي يعسود بناؤها الى عهد قسطنطين بكنيسة جديدة تتوفر فيها عناصر العظمة والفخامة ، رضي كل الرضى عن التصاميم الهندسية التي وضعها برامنت وعهد اليه بتحقيقها وتنفيذها . جاء برامنت روما متأخراً ، عام ١٤٩٩ ، وله من العمر اذ ذاك ، ٥٥ سنة تتقدمه شهرة واسعة كمهندس مهناري ممتاز ، الى الانجازات الهندسية العظيمة التي حققها في فلورنسا . فبعد ان وقع ، في روما ، تحت تأثير الجمال الروماني الافلاطوني الحديث ، وبعد ان تحول تحولاً كلياً عن النهج الميلاني الذي يرمعه

وحذا محذوه وانتهج نهجاً فنياً جديداً . قول تشييد مبنى المعبد الصغير *Tempietto* . فقتبذ
رغب برامنت ان يشيد على اسم القديس بطرس وشرفه المبنى الذي سبق لما رسل فتشينو ان
رسم تصميمه وفقاً لنظرية الانلاطونية الحديثة ، إعلاء منه لمجد إله المسيحيين . فقد وضع ،
اول ما وضع تصميماً لبناء ضخمة مساحته ٢٥٢٠٠ متر مربع بدلاً من ١٤٥٠٠ متر مربع
التسعت لها كنيسة القديس بطرس القائمة اذ ذاك . وحرص على ان يوحي كل شيء في المبنى
الجديد ، العلاقة القائمة بين الله ومخلوقاته ، مبنى لا يمكن الاستغناء قط عن اي جزء منه الا
ويشعر المرء بفراغه ونقصه ، كما لا يمكن اضافة اي شيء اليه الا وتتمتع العين لهذه الزيادة .
ولما كان كل شيء يصدر عن الله ويمود الى الله ويدور حول الله ، استقر به الرأي على ان يعتمد
شكلاً هندسياً عاماً للمبنى شكل الصليب اليوناني . فيرى الناظر ، من الخارج صليباً ضخماً
يتذهب عالياً في الجو يرمز الى الاتحاد الهيكلي مع الالهية . وترتفع تحت هذا الصليب قبة ضخمة
ترتفع فوق ركائز من الاعمدة ترمز الى الكنيسة . وفي الاسفل ، تبسط اذرع الصليب
الاربعة المتناسقة ، في طرف كل منها قباب صغيرة نسبياً مع انها كبيرة تنتصب فوق عمدة
قائمة امام صحن الكنيسة تجاه المحور ص تماماً .

وكما ان المسيحي يتدرج من الخلائق الى ربه محولاً على اجنحة الجمال ليصل الى الافكار التي
تفضي به الى الالهية ، هكذا يمر الزائر بهذه السطور من الاعمدة ضمن الكنيسة الرامزة الى
المخلوقات ليبلغ في مسيرته الى النور الشفاف الهابط من القباب الصغرى . وهذا النور الحافات
من شأنه ان يجعل النفس على الحشوع بمد ان تكون اثنت على ذاتها واعتكفت لتتم بمشاهدة
الافكار . والمسيحي الذي يبلغ قبر هامة الرسل بعد ان يكون اجتاز الاعمدة التي ترتفع عليها
القبة الكبرى ، في غمرة النور التي تفسف وخشعة النفس ، يسير قدماً نحو عالم زاد نقاء ليبلغ
النور السماوي الذي يجلب الافكار وبعد ان يصل على مقربة من القبر الذي يفيض نوراً تبرز له
القبة الجبارة التي ترتفع فوق رأسه رامزة الى الحضور الالهي والاتحاد بالالهية .

ووضع هذا التصميم الفخم « تمبيراً عن الوحدة في أقدس معانيها . كل شيء ارتبط بالفكرة
الرئيسية وفقاً لنظرية الانلاطونية الحديثة ، هذه النظرية التي ستتكم ، بعد قليل ، بالفن
الكلاسيكي . فقد جاء هذا التصميم معبراً عن مشاعر المعاصرين واحاسيسهم فراحوا يتحدثون
هنا معجباب تجاوز كل حد ، كما راح الشراء الذين يتغنون به ويعتبرونه اعجوبة الدنيا التامة .
وقد ارسى البابا الحبر الاساسي نهار الاحد الجديد ، وهو الاحد الأول بعد عيد الفصح ، الواقع
في ١٨ نيسان ١٥٠٦ ، ولما مات كان العمل انتهى من نصب الاعمدة القائمة اليوم في كنيسة
القديس بطرس ، والتي ترتكز عليها القبة والمعود التي تحملها وقد اضطروا فيما بعد للتخلي
عن التصميم الذي وضعه برامنت لتصميم آخر افقد همنسة الكنيسة كثيراً من عناصر
الفضامة .

كان البابا جول الثاني تخطى عن السكنى في الجناح المعروف بجناح بورجيا
 غرفة التوقيعات ليقيم في جناح آخر من اجنحة الفاتيكان يقع في عدد من الغرف والصالات
 اشتهر فيما بعد باسم « stanze » ، وراح منذ تشرين الاول ١٥٠٨ عدد من الرسامين يعمل في
 تحلية هذه الشقة وتزيينها . غير ان رفائيل لم يلبث ان اصبح الاول بين هذا الفريق فاختص
 بهذا العمل وبزر كشة هذه الغرف التي رغب البابا جول الثاني ان يحمل منها بالفعل « مرآة »
 عقائدية . فقد حرص رفائيل على ان يحمل من غرفة التوقيعات معبداً ينطق عالياً بالافلاطونية
 الحديثة ، فرسم على الجدران اربعة رسوم ضخمة تصور بالمجريات والوقائع اليومية ، تبدو بينها
 من خلال غلالة ، الافكار الافلاطونية التي قصد الفنان التعبير عنها الا وهي : العفة والفلسفة
 والبرناس وخنافة القربان الأقدس . وبأخذ الانسان بالانتقال تدريجياً من هذه الجهات المادية
 ليلبغ الافكار فنتطالعك ، قبل كل شيء العقود القائمة فوق كل صورة من هذه الصور . ولدى
 كل غلق من أغلاق هذه العقود بطلملك طفل صغير على ظهره جناحان في كل واحد منها رمز
 يتألف من وعاء وحامة وكرة ، اذ ان كل طفل هو عنصر من هذه العناصر الاربعة التي
 يتكون منها العالم . فالماء فوق مدرسة اثينا ، والدار فوق خنافة القربان الأقدس ، والهواء فوق
 البرناس ، والارض فوق الفقه . وهكذا عن طريق رد العالم الى عناصره الاربعة المكونة ،
 نأخذ بالارتفاع نحو الافكار . الا انه بالامكان ان نرتفع ونملو اكثر فأكثر ، عن طريق المشاهد
 المرسومة في وسط الدوائر القائمة في زوايا العقود . فكل مشهد من هذه المشاهد يحيلنا الى صورة
 العقد الذي يليه ، وهي تتوابع ابولو ، واقتصاص مرسباس من الشمر ، والخطيئة الاولى للاموت ،
 وقضاء سليمان الحكيم للعدل ، وعلم الملك يربط الفللفة بالنجوم . وهكذا في كل عقد تطالعنا
 الحركة الدائرية حركة الكون الارلية ، احد الاسس التي قامت عليها نظريات فثسينو ، واخيراً
 نبلغ الافكار المجردة في عليين التي يرمز اليها في العقد بالشمر فوق البرناس ، والفلسفة فوق
 مدرسة اثينا ، والعدل فوق الفقه واللاهوت فوق خنافة القربان الاقدس . ويرمز الى آلهة الشعر
 وفقاً لافكار فثسينو كما يلي : باكليل الفار واجنحة قوية وحولها منطقة مزركشة بالنجوم وقد
 التمتعت عينهاها حماسة وحيوية . وعلى مقربة منهم جميعاً طفلان مجنحان يحملان إطاراً كتبت
 عليه كلمتان مستمارتان من فرجيل^(١) هما : « Numine aflatur » اي نفحة الهية تحركه .
 فالالوهية يجري اعلانها على لسان الشاعر ، ولذا نرى صورة الشمر في العقد ، تعدل كل المقاوم
 النقلية : العدالة وهي معرفة الحق والتصفية ، الفلسفة وهي معرفة الطبيعة واللاهوت وهو معرفة
 العالم الالهي . وهكذا نرى ان كل الاجزاء المقومة لهذه الصورة هي من وحي الافلاطونية
 الحديثة وفيها الضمانة بايصال المسيحي ، في هذا العالم ، الى الافكار ، والافكار توصل
 الى الله .

ولكي ييسر للمتفرس في الصورة الوصول الى الفكرة المعلن عنها ضمناً ، ادخل رفائيل ، بضربة معلم ، فراعاً جديداً لا يلبث ان يصبح ، فيما بعد ، الفضاء المفضل في القرون الثلاثة التالية ، وهو المعروف بفضاء القرون الثلاثة في التاريخ « الحديث » ، أو فضاء المؤرخين الفرنسيين . صحيح ان الفلورنتين اكتشفوا ، منذ عهد بعيد ، رسم المناظر وعرفوا ان يستفيدوا منه في هذه الألواح التي رسموها خطوطاً متتابعة بحيث تتجه جميعها الى نقطة تقع تماماً في الوسط بحيث تبدو اللوحة ، في مجملها ، كتلة هندسية . الا انهم لم يتوقفوا الى الكشف عن احسن طريقة للانتفاع ، على الوجه الاكمل ، من الشكل المنظوري . فقد فاتهم استخدامه لابرار الموضوع الاساسي في الرسم . وهكذا تاه النظر وضاع الانتباه عندما يستقر على اشخاص ثانويين او على تفاصيل لا طائل تحتها . وعلى عكس ذلك تماماً ، فقد كشف رفائيل عن خبير طريقة للانتفاع من رسم المناظر والحجم الهندسي ، بعد ان عرف كيف يوزع ، بفن واصول ، الاشكال التي اختارها على الرسم الذي تلتقي فيه نقطة الانسراب مع الفكرة الاساسية التي يجب ابرازها .

فلننظر ملياً هنا في رسم خناقة القربان الاقدس ، وهو رسم معروف ومشهور لكثرة ما اخذ عنه من نسخ . نجد في الاعلى الكنيسة الظاهرة ، وفي الاسفل الكنيسة المجاهدة ، ويفصل بين الاثنين فراغ كبير يمثل السماء . ففي القسم العلوي يبرز الله الاب ، ثم يأتي بعده السيد المسيح ، وعلى يمينه العذراء مريم ومن اليسار يوحنا المعمدان ، ومن هنا وهناك من كلا الجانبين المختارون او المصطفون بشكل سحابة نصف دائرية ، يتخللها رؤوس ملائكة تفصل بين العالم المنظور والعالم غير المنظور . وعند قدمي السيد المسيح نرى روح القدس بالشكل التقليدي المعروف ، اي بهيئة حمامة تشع منها اشعة من ذهب ، رمز النعمة . وهي اشعة تمتد الى الاسفل ، نحو الافخارستيا . وفي الاسفل ، يبرز من السماء للعيان ، شعاع القربان الاقدس وقد وضع على هيكل بسيط للغاية ، بينما نجد من كلا جانبي الهيكل ، الكنيسة المجاهدة اي : البابوات والكرادلة والاحبار والاساقفة والشعراء ورجال الفن والعلماء . وهكذا نرى انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة الله التي تجمع او توحد ما بين الارض والسماء ، في ما يحاكي بناء مثالياً ظاهراً على الارض ، لا يرى في السماء ، وان كان قائماً فيها بالفعل .

في هذه الصورة الجدرانبة ، كل شيء يتوقف على الاشعاع النوراني المنبثق من القربان الاقدس القائم على الهيكل والذي يبرز للعيان بواسطة تلاميذ الابصار . ففي الاسفل تظهر خطوط التبليط ، ودرجات الهيكل وطبقات الكنيسة المجاهدة بينما تظهر ، في الملو ، السحابة نصف الدائرية والاشعة الذهبية المنطلقة من الروح القدس . والى هذا كله يطالعك ، في هذه الصورة الجدارية ، الجبارة شعاع القربان الاقدس الذي اشير اليه بنقطة تكاد العين لا تلتقطها ، ومع ذلك فالانظار تتجه اليه ، الى هذا القربان الاقدس الذي يضيف على اللوحة كلها ، كل ما فيها

من معنى ومدلول . فالفراغ ، والحالة هذه ، يساعد ليس فقط على تحريك الفهم واثارة القوة
اللاحظة ، بل ان رسم الابعاد يمتزج بالرموز اليه ، وينشأ من ذلك كله رمزية تشير رأساً الى
العالم الروحاني ، وهكذا يصبح الفراغ عنصراً من العناصر المساعدة كثيراً على الفهم .

ومن جهة اخرى ، في هذا الفضاء وتحت تأثير الحرص في التركيز على ما هو اساسي ،
يجب ان تتوفر الواحدة عن طريق التمرية والاطراح جانباً كل ما لا يؤول الى الفهم ولا يترك بعده
أزراً ، اي كل هذه التفاصيل وكل هذه المستملحات واللاطائف والنكات القريبة عن الموضوع ،
مهما كانت طريفة مغرية ، والتي من شأنها ان تشتت الانتباه ، وهي هذه الامور نفسها التي
وجدت فيها نهضة فلورنسا الفنية مسرتها . اما هنا فكل شيء يتجه الى سر القربان الاقدس
المنعكس على الفرد الذي تختلف حركاته وسكناته عن حركات وسكنات الآخرين والتي لم
تعد 'تعبير' الا عن ردة الفعل التي يحدثها الاقنوم الثاني من افانيم الثالوث الاقدس في كل من هذه
الشخصيات ، وهو تأثير وحيد 'موحد' في الصميم .

أطلق فراغ جديد كما أطل ايضاً نموذج جديد للانسانية يختلف اختلافاً جلياً عن هذه
الاجسام النحيلة والاعضاء الدقيقة والمرافق البارزة عظامها ، والحركات الطارئة الفسيقة ،
والمشية الخفيفة الحركة النطناطة ، والاشكال الفنية التي اثارها النهضة الفلورنتية ، بحيث لا
يستطيع المرء ان يتمالك عن التساؤل ما اذا كان جنس بشري زال وتوارى عن الوجود لجنس
آخر جديد . وسر ذلك هو ان الافلاطونية الحديثة عادت من جهة الى فكرة المسيحية للانسان
هذا الانسان الذي هو خير ما صنع الله وبرأ ، كما حاولت ، من جهة اخرى ، ان تبرز ظهور الانسان
الجديد ، هذا النموذج الامثل الذي جاء جميع الافراد على شاكلته ومثله ، هذا الانسان الذي
يمثل ، في ذاته الجمال الامثل والاكمل . هذا الانسان ابن الله ، والذي تجسد الله فيه ، لا يمكن
الا ويكون عظيماً قديراً ، جليلاً ، وقوراً . ولهذا نرى السيد المسيح ، في لوحة رفائيل ، وقد
تمرتى جسمه الى نصفه وبرزت يدها وجنبه بأوضح ما يكون ، يبدو جسم رجل رياضي جميل
ملأن عافية ، تفيض انبساطاً قوة . وعلى مثل هذا الوضوح تبرز اعناق المختارين وسواعيدهم
ومناكبهم ، قوية عامرة ، ملائكة . اما وقفنهم ، 'فتنيم' عن الهدوء والسكينة ، بعيدة عن كل
اصطناع ، ليس فيها اي توتر او تشنج ، وقد ارتسمت على وجوههم وقسماتهم امارات
النبل والرضى .

وهذه الرغبة في التركيز عن طريق التجريد والتمرية ، والاستفادة الى اقصى حد ، من
الفراغ لتحقيق غرض واحد وهدف واحد الا وهو التكتيف عن طريق التشديد على بعض
الخطوط الاساسية ، سنصادفها في هذا التمارض المنهجي الذي نراه قائماً بين الانجازات الفنية
للنهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولكن اين التركيز ، اين الحياة الداخلية بواسطة التجربة ؟

لنضرب مثلاً على ذلك ، هذا الحفر البارز في صورة لأنطونيرو - روسلينو ، ولنعارضه برسم آخر لميكاو انجلو يختلف عنه اختلافاً كلياً ، هو صورة العذراء مع الطفل . نرى ان روسلينو يبرز في إطاره ، عالماً آخر وطبيعة أخرى وشعباً آخر . نرى عند حاشية النقش صفراً من الرؤوس يحيط بها أجنحة مرفرفة وفي السف الأول العذراء مريم جاثية تضرع الى يسوع الطفل المتعدد امامها . ويأتي وراء العذراء مريم القديس يوسف غارقاً في التفكير ويده تعبت بلحيته ، ووراء القديس يوسف يأتي الاسطبل وفيه الثور والحمار . والى يمين العذراء مريم والطفل ، خط يقسم الصورة قسمين متميزين : رعاة قادمون يحملون الهدايا ، وقليلاً الى فوق بعض الاشجار ، ثم اعلى قليلاً ، السماء وما فيها من غيوم . اما في لوحة انجلو ، فلا نجد تقريباً شيئاً من هذا كله ، بل العذراء مريم جالسة وعلى ركبتيها كتاب ، والطفل يسوع واقف إزاءها لجهة اليسار ، متخدياً على ركبتيها ومرفقه على الكتاب ، ثم الى الورا ، خلف كتف العذراء من على اليمين ، تقع العين على صورة غير واضحة . هذا هو المنظر كله .

في رسم روسلينو كل شيء صغير . فنه تراكم اشياء صغيرة . فالعذراء التي تبرز ، الى الامام لا تشغل اكثر من خمس اللوحة . اما الطفل يسوع ، فصغير . فالعين في حيرة من لوحظما تتجاوزها أرضية الصورة والمنظر . اما عند ميكاو انجلو فالعذراء مريم تحتل ثلاثة ارباع اللوحة حتى ان هندام شعرها يطفطف على الحاشية ، فلا تقع عين الرائي الا على العذراء وبالكاد تقع العين على الطفل . اما الشخص الثالث ، الشبح ، فيجب ان نحملق جيداً لنلاحظه . فالمنظر يتجه بشكل لا يقاوم ، الى العذراء التي اصبحت ، بلا مرأ ، محور الصورة ومركز الثقل فيها .

فهي لوحة روسلينو كل شيء رسم بالتفصيل وعلى قياس صغير ، فبدا نحيفاً ، دقيقاً ، منمنماً ، فتبدو اصابع اليد واضحة الواحد جنب الآخر وقد صلف الشعر ، خصلة خصلة ، واللباس على اتفه ، لا ينقصه زر ولا شريط . هنا الحياة اليومية بكل تفاصيلها ، الحياة العائلية : فالطفل يسوع يضع سبابته على فمه .

اما عند ميكاو انجلو ، فالأشياء تتم وتوضع جملة . فبدا العذراء بدتاً كتلة تكاد لا تتميز عن المادة ، ورداؤها بداية البساطة ثنى والتف ، وشعرها رتب على مألوف المادة : في الوسط فرق الشعر قسمين على جانبي الوجه ، والطفل يسوع يبدو وكأنه قطعة واحدة ، على الخشاء نحيف لطيف ، ملامحه الرئيسية بارزة ، توحى وتلهم .

عند روسلينو ، كل ما في لوحته الحركة : فاجنحة رؤوس الملائكة ترفرف ، والرعيان في سيرهم جادون ، والقديس يوسف يلعب بلحيته وقد بدا على وجهه التفكير وحواجه مقبلة والثور والحمار يميلان برأسيهما متناولين علفها ، ومنخارا العذراء يختلجان وقد ارتسم على شفتيها

بسمه الرضى والتسليم بينما ترتفع يداها . اما الطفل يسوع فتكاد الاذن تلتقط تفريده بينما هو يمتص طرف إصبعه بحركا رجليه الصغيرتين . اما في لوحة ميكالو انجلو فالحياة تبدو وكأنها واقفة . فالاشخاص يكادون لا يتنفسون ، والمذراء جالسة بوقار عينانا مسمرتان في البعيد كأنها تحاول قراءة المستقبل الخيف واكتناء سره ، والطفل يسوع يتناول شيئا وهو يتكئ الى امه . فالمنظر يبدو وكأنه يتحدى الزمن ، وكان ميكالو انجلو يتم ليس بها يجري بل بما هو باق ، مستقر الى الابد . فهو يضيفي الخلود على اللحظة الهاربة .

هذا التجريد ، هذا التركيز على بعض نقاط اساسية لفتا للانتباه وإمعاننا في التشديد ، نجده في كل مكان . فهو في صورة ميلاد يوحنا المعمدان بريشة غير لانداخو حيث نرى الوصيعة تدخل وعلى رأسها أضخومة من الزهر . قارن هذه اللوحة بلوحة اخرى بريشة رفاييل ، في صورة الساقية او حاملة الماء . فغير لانداخو لا يميل شيئا ، مها كان طفيفا ، عندما يرسم لنا ذراع الوصيعة اما رفاييل ، لماذا تراء يعمل ؟ فهو يشدد كثيرا على العضل الدالي والعضل ذي الرأسين بحيث يتكوز الكتف ويتكوز الساعد ملتفا فبرسمه بشطحة ريشة ويضيفي على هذا الذراع : قوة باع ، وشدة ساعد ، ابن منه فن غير لانداخو .

وهذا الفراغ الجديد ، فراغ المفهومية ، اين هو ؟ لنفان في هذا ، الجهال ، بين صورة المذراء مع الملائكة والقديسين الستة ، بريشة بوتيشلي ، وصورة المذراء مع القديسين الثانية بريشة أندريا دل سارتو . يفهم بوتيشلي ، حق الفهم ما لرسم المناظر من قيمة وشأن . ومع ذلك فهو يضع جميع شخوصه على خطين . ففي الصف الاول ، نرى على سطر واحد ، ثلاثة قديسين الى اليمين وثلاثة غيرهم الى اليسار ، بينما تقع الهين ، في وسط الصف الثاني على المذراء مريم والطفل على شيء ما يشبه المسطبة يحيط بها ملاكان يملق احدهما ستائر بينما يقدم الثاني الزهور . خطان متوازيان لا علاقة بينهما . اما لوحة اندريا دل سارتو ، فهي عكس ذلك تماما ، فهي تنفسح على الابعاد وتوغل في التعميق ، فالفراغ ينفرج وينبسط : يطالملك قبل كل شيء درج وفي الاسفل ملاكا ينظران الى الملاء حيث تطالملك شرفة عليها ، من كل جانب ، ثلاثة قديسين ، اولهما راكع والاخران واقفان ليس على صراط واحد بل الواحد خائف الآخر . والى الراء ، نجد على قاعدة ، المذراء مريم والطفل يسوع على ركبتيهما . فكل خطوط اللوحة تنبجه من المذراء وابنها .

ففي لوحة بوتيشلي ، يبدو الشخص وكأنه مسمر ويقوم بإشارات وحركات تبقى في نطاق المسطح المتوازي لنظر المشاهد . اما عند اندريا دل سارتو ، فالإشارات والحركات تجري في اعماق الفراغ . وسواء أكان القديسون في موقف المتحدث أو الكاتب ، فحركاتهم تنبع دوما على خط المشاهد ، بالنسبة للمذراء ؟

وهكذا ، فالفراغ عند بوتيشلي يبقى لا شأن له ، بينما هو ، عند اندريا دل سارتو ، ليس

مجرد مجال يقع فيه المشهد فحسب ، بل ان المجال ينطق عالياً ويصرخ كيف اننا بواسطة القديسين ، صورة السيد المسيح ومثاله ، نصل الى العذراء مريم طاقسة السيد المسيح النقية وبشفاعتها الى السيد المسيح .

وهذا النموذج الجديد للانسان ، هذا البطل ، ماذا من امره ؟ لنتمل النظر ملياً ، قبل كل شيء ، في صورة « معمودية السيد » بريشة فيروكيو *Verruchio* . فالمسيح فيها يبدو على شاكلة شاب نحيل الجسم ، نحيف البنية ، نأت عظام وجهه ونفرت عضلات جده كالحبال ، وبررت ترقوته محدثة تجويفاً في الجلد . اما ساعدها فاكثرت نحولاً بما هو عليه جسمه ، وقد جفت عضلاتها ، فظهرت تحت أديم الجلد عقد ، والمرفقان نفرت عظامهما واحددت أطرافهما ، وانجرد قفاه وجفت ساقاه ، وقد تفضن وجهه وبرزت اخايدده وهو مع ذلك يشع رقعة وخشعة ، عليه مسحة من الاضطراب حتى القلق ، والمسيح وقد المحنى وانثنى قليلاً ، الى الامام ، لتلقي العماد ، يدها مضمومتان الى بعض . اما يوحنا المعمدان ، فيظهر شاحب اللون ليبادر بهيكله العظيم الى سكب الماء على رأس السيد المسيح ، متممًا بذلك ، الرسالة التي أعد لها وعهد الله بها اليه .

فلننظر الآن ، كيف ان الحفار اندريا سنسوفينو عالج الموضوع ذاته ولكن بأسلوب فني آخر . فليس في المسيح ولا في يوحنا المعمدان شيء بعد من مظاهر قنوت الزهاد المتعبين ولا شيء من هذه الحركة العصبية التي تدفعها للعمل بشيء من القلق تنفيذاً لرغبة الله تعالى . فللمسيح في هذه اللوحة جسم رياضي جميل ، مفتول العضلات ، مستدير الاكتاف ملآن ، مرن الحركات ، تكاد خطوط الجسم وتقاطيعه تستبين للرائي على نمومة ورقة . واعضائه مشبعة ، ملآنة تأخذ في الصمور عند الاطراف . كل ذلك وفاقاً للجمال المثالي في الرجل . وعلى هذا قس ايضاً طمأنينة النفس . فالوجه بيضاوي الشكل ، قسائه في غاية الاستواء ، ينم عن هدوء كامل ، والمسيح ، في طمأنينة هادئة ، ينتظر دوغاً تسرع او عصبية ، بانحناء قليل الى الامام ، في وقفة تشف عن ملاحه وقسامة والنسجام . ويوحنا المعمدان نفسه يبدو على نحول وضئور جسم اكثرت بما هو عليه السيد المسيح . ومع ذلك فله جسم رياضي ، ملآن مشبع هادئ ، يسكب الماء ويبدأ بينما هو في اللوحة الاخرى لوحة فيروكيو كأنه يسترق السانحة الهاربة . هنالك يهوديان تبدوا عليهما امارات القلق والاضطراب بعد الذي خبراه من خشونة الجيش الروماني وفظاظته ، يفيضان رجاء بالمسيح المنتظر . اما سنسوفينو ، فيرسم لنا صورة شخصين مثاليين تنزها عن المادة ، اذ ان ما يرمي الى ابرازه هو هذه العملية المتجددة الى الابد ، التي لها قيمة ذاتية دائمة ، اذ ان عماد السيد المسيح له قيمة خالدة خلود الدهر ، لتعم جميع المسيحيين الذين سيتتابعون على هذه الغائبة ، حتى انقضاء العالم .

بعد هذا ، هل من موجب لمعارضة لوحة ميلاد يوحنا المعمدان من بريشة غيرلانداسكو ،

بلوحة ميلاد العذراء مريم بريشة اندريا دل سارتو . فالنساء في لوحة غير لاندأخو تبدين خفيفات الحركة ، يسرن وكانهن يرقصن ، يقمن بحركات متاجئة . لباسهن مشدود قصير ، لهن جيد نحيف نحيل ، ونهودهن صغيرة واعضاؤهن نحيلة ، بينما تبدو النساء ، لدى اندريا دل سارتو ، سيدات تمشين الهويناء ، متزنة الخطى ، غير مباليات . حركاتهن مطمئنة يئننين بلطف ورقة . اما ارديتهن فكثيرة الشبه بالتوغا الروماني ، وقد تثبت تحت معاطف فضفاضة ، وفساتين تكنس الارض بأذيالها المطفطة ، فتوحي قدودهن القوة والضخامة . اما رقابهن ، فقصيرة ، قوية ، وبرزت نهودهن ، كما انفتلت منهن للسواعد للقوية وبرزت ججورهن . فليس من الصعب على القارىء بعد هذا ، ان يجد امثلة اخرى يرجع اليها .

رجل البلاط
رجل البلاط هو هذا النموذج الاتم ، الأمثل الذي يرغب ابن العصر في تحقيقه وتحيزه ، على خير ما يبدو من قوة الجسم واستدارة في الاعضاء وامتلاء ، عندما يبلغ المرء ذروة النضج والرجولة ، الى شيء ، من الكبر والعظمة ، على اعتدال في التعبير عن المشاعر والاحاسيس ، ورباطة الجأش والرواء وضبط النفس ، على شيء من « الوقار المطمئن » ، باقل قدر من الحركات ، على نبيل في الحركة والرصانة ، وانسجام في الاوضاع والمواقف ، ونفس نقية ، متطهرة ، سيدة ذاتها . كل هذه المماقبية والاصواف تطالعك اينما سرت وانما اتجهت ، ولن تثبت ان تصبح الصفات المثلى التي يجب ان تتوفر لابن العصر ، وهي هذه الاوصاف التي يلهمج بذكرها ويحنو على جمعها واستكمالها في النفس ، الانسان الثقيف ، المتمدين ، ورجل البلاط . ويضع رفائيل امامنا وتحت انظارنا رجلاً من هذا الطراز وعلى هذه الشاكلة في اللوحة الجميلة التي رسمها للكونت بلطازار كستغليونى احد نبلاء دوقية أوربين (Urbin) الذي تشبع بالافلاطونية الحديثة ، والذي كثيراً ما اختلف الى البلاط البابوي اثناء تروده على روما ، بين ١٥١٥ - ١٥١٨ ، وهي الفترة التي وضع خلالها كتابه المعروف بكتاب « رجل البلاط » هذا الكتاب الذي صدر مطبوعاً بعد ذلك بكثير ، اي عام ١٥٢٣ فقد ربطته برفائيل صداقة متينة ، بعد ان تشبع هذا الاخير هو ايضاً ، بتعاليم الافلاطونية الحديثة التي قال بها صديقه وأخذه ، فوضع له ، عام ١٥١٦ ، لوحة فنية . فهو يرئسها ما كان عليه من ظرف وكياسة واناقة ، هذه الصفات التي تحتم على كل افلاطوني حديث ، ان يتحلى بها ، انما اناقة معتدلة على وقار . تشهد لصاحبها بالاتزان والاعتدال وقهر النفس . ثيابه غائمة اللون . رداؤه اطلس الملمس وسرواله مخرجة بالابيض النقي ، وعلى رأسه قبعة خاصة هي شعار النبلاء وكبار الحكام . ويشدد رفائيل على الافلاطوني الحديث المثالي وهو الذي تمت له الثقافة الانسانية بمصاحبة كبار الكتاب وملازمتهم ، ويثق الثقة كلها بالطبيعة البشرية ، الطيبة الخيرة في الصميم ، اذ انها من صنع يد الله وتدبيره وعمله ، حري في الاساس لانه صورة الله ، هذا الرجل المثالي الذي اشتهر بدقة الظرف وعُرف بالكياسة ولين العريكة وحسن التصرف مع الغير ، وتوفرت فيه : الطيبة وحب الخير ، وصنع الجميل ومكارم الاخلاق واشبهيراً التقى .

ولهذا حرص رفاثيل الحرص كله فأضفى على لوحة كستغليوني نواظر تطفح بالذكاء والفهم وسرعة الخاطر كأنها بذلك تعكس نوراً علوياً .

كان رفاثيل يعبر بريشة الفنان عن الأوصاف التي رسمها وأتى على تبيانها « رجل البلاط » . والكتاب المذكور هو سلسلة من الحوار والاحاديث تجاذب اطرافها فريق من الاصحاب على شاكلة افلاطون علماً ، اجتمعوا في بلاط دوقية أوربين ، وتحت رئاسة الدوقة نفسها واشرفها . يصف لنا كستغليوني في كتابه هذا ، المعارف والآداب التي يجب ان يتحلى بها رجل البلاط ، كالآداب اللاتينية واليونانية ، قبل كل شيء ، اذ يترتب عليه ان يكون حسن الاطلاع ، كثير الالمام بآثار الشعراء والخطباء والمؤرخين ، يحسن الكتابة والتعبير جيداً عن مكنونات النفس وسرائرها ، شعراً ونثراً ، ملماً باصول الموسيقى ، يجيد الانشاء والترتيل واستعمال آلات الطرب على الوانها ، والرسم وكل صنوف الرياضة ولا سيما الفروسية ؛ وان يقوم بذلك كله على احسن وجه . ويمضي كستغليوني في تعداد ووصف ما يجب ان يتحلى به رجل البلاط من صفات خلقية : عليه بضبط النفس ورباطة الجأش وان يتشد في مشيته فيسير مقترن الخطى ، تتم قسامت وجهه عن الرضى والطمانينة ، لا يظهر على محياه شيء من امازات الانفعال والتأثر يتفادى كل ما يشتم منه الغلظة والفظاظة والكلام القسذع والالفاظ النابية التي تحمر النساء لاستماعها خجلاً ، وان يتعلى بالظرف ولين الجانب والاستعداد الدائم لخدمة الغير ، ويحسن استعمال النكتة الفكاهية ويروي الحكايات التي قد تدخل البهجة على النفس دون ان يتعدى حدود الحشمة . وينتقل بنا ، بعد هذا الى تبيان المتأقب والصفات الحميدة التي يجب ان تتم لسيدة البلاط وما يجب ان تكون عليه من وقفة هادئة ، محتشمة ، والاعتزان في حركاتها وسكناتها ، والايناس واللفظ ، واخيراً استعداد طبيعي للدعة والركة تبدو معه على مستوى واحد من الفطنة والخفر والحشمة والكياسة والرصانة . طبيعي جداً ان تكون متضلعة من الآداب ، تجيد الموسيقى والرسم ، وتحسن الرقص والمخاصرة وتحدث بايناس . كل هذا ليس سوى إعداد او المدخل للكتاب . اما لب الكتاب وسره ، فيأتي في الاخير ، في الخطاب الذي يضعه على لسان الانساني بيترو بيمو P. Bembo كاتم سر البابا الخامس الذي اصبح ، فيما بعد ، كardinale : فكل ما يفعله رجل البلاط والسيدة المثلى ليس سوى تطهير وتنقية وسلوك وفقاً للانلاطونية الحديثة ، لبلوغ الله والوصول اليه . فلرجل البلاط وسيدته المتكاملة الصفات ان يفلا كل ما من شأنه ان يقع موقعاً حسناً في اعين الآخرين وان يتحابا اذ ان الحب ليس سوى الرغبة الشديدة للاستمتاع بالجمال الذي يتألف من نسبة مقدورة من تناغمي العلاقات وانسجامها وفقاً لطبيعة الأشياء . والمتحابين ان يعرفا كيف يتجنب الواحد الاغضاء بالآخر وان يتبينوا ما في شخص المحبوب من الجمال ، اي من هذا الشعاع الالهي المصفى ، ليهم بالجمال المجرد الشامل الذي يقود الانسان الى هذا الجمال الملائكي والالهي ، الى محبة الله .

فالانسان اذاً هو كائن الهي ، بطل تنتظره كل الاجساد .

فرجل البلاط هذا ، البطل المجد ، يهوى في الادب وفي الفنون ، العنصر الجسالي كما تفهمه الافلاطونية الحديثة . وقد جاء في الكتاب الذي وضعه بيو ، عام ١٥١٣ ، بعنوان : « حول الاقتداء » ما يلي : « وكما يوجد في ذات الله ، شكل الهي للعدل والاعتدال وغير ذلك من الفضائل ، يوجد ايضاً شكل الهي للنموذج الكامل ، نموذج من الكمال المطلق ، فعلينا ان نحاول الاقتراب ، ما استطعنا ، من هذه الصورة المثلى والاكمل للجمال . ولذا كان علينا ان نقنّدي بشيرون الذي حقق على الوجه الاكمل النموذج المنهجي ، بحلى الله وشعاعه .

يبدو رجل البلاط ، هذا البطل المتدرب بل بالمجد في الصورة التي قصر فارنيز ومصل تشيجي تمثلها القدامى للعالم ، شبه ما يكون بالملمم للصورة التي رسمتها المسيحية له ، وما في الاساس واحد . فالله التاريخ القديم « الالبسة » الذين يضبطون حركة الكواكب في افلاكها ويشرفون بذلك على مقدرات الناس ومصائرهم . ان اخذ الناس بالنجامة وتعويلهم عليها في معرفة طوالهم ، عبر عنه رفائيل ، لمن كان في آن واحد ، من أخص زبائنه ومن اوفي اصدقائه ، الصراف اوغستينو تشيجي ، الذي اخذ على نطاق واسع ، بنظريات الافلاطونية الحديثة وتحمس لها . نرى اول ما نرى ، في قصر تشيجي او قصر فارنيز ، في هذه الصالة البديعة المشهورة بصالة غلاطية ، احدى الحوريات المشهورة في الميثولوجيا اليونانية بمغامراتها العاطفية الصاخبة . فسقف القبة تغشاها رسوم بديعة لمعظم الالهة تحت اسماء الكواكب السيارة : المريخ ، والزهرة والمشتري ، السخ . فالمواقع التي لهم في القبة المزرقاء ، تتوافق وتلائم مع جدول يشير الى مواقع هذه الكواكب السيارة وابراجها بتاريخ اول كانون الأول ١٤٦٠ وهو اليوم الذي رأى فيه اوغستينو تشيجي بالذات النور ، وتفتحت فيه عيناه على الحياة فجاءت بنيتها ومزاجه وسحابة حياته وفقاً للطوال التي تعطيها مواقع هذه الكواكب والابراج في الفلك ، من قال ومصير . وما مكان تشيجي يفتح عينيه كل صباح حتى يقرأ في سقف القبة الموقع الذي كان لمطارد في اليوم الذي ولد فيه ، في الدور الأول من برج القوس مما يعني تاجراً مرحاً موفقاً ، بينما كانت الزهرة في مثل هذا اليوم ، في الدور الأول من برج الدلو مما يرمز الى تاجر واقعي يفهم الامور التجارية ويقدرها . ونرى في هذا السقف دوائر (Tomdi) ترسم فيها حوريات الهواء كما نرى اخرى ترسم حوريات الماء . واذ ذلك ، تظهر غلاطية واقفة في مركبها يجرها دلفيلان جميلان تحيط بها آلهة البحر وقد جاشت فيهم الشهوة فراحوا يتخاطفون حوريات ملؤها السحر والفتنة . أما غلاطية النقية ، فهي في حالة من الذهول والانخطاف بالحب الالهي تحملق بعينها الدعج بسهاء الافكار .

عاش تشيجي وفقاً لطالعه ورغب في ان يقع اجله المحتوم تحت تأثير النجوم التي سيرت حياته بينما هي تتحرك وفقاً لمشيئة الله تستمد منه ما لها من حركات وما فيها من انضباط . وهذه الرغبة يبديها له صديقه الحميم ، أصبحت محور التصميم الفني الذي وضعه رفائيل لكنيسة تشيجي المعروفة بكنيسة العذراء مريم الشعبية ، التي باشر ببنائها ، عام ١٥١٥ . فعلى القبة نرى رسوم

آ لجة الكواكب التي لها مثل هذا التأثير البالغ على مصائر الكائنات والمخلوقات ، فيلطف الملائكة من تأثيرها ، وفي القمة ، الله الذي يضيء على الكواكب ، في الاسفل ، وهو باسط ذراعيه ، القوة التي تحركها والنظام الذي يضبط سيرها فتنتظم في حركاتها وسكناتها ، كما يرتب للمخلقة ادوارها واطوارها ، ويرعى قبر تشيحي القائم تجاه مدخل الكنيسة تماماً .

الكنيسة السكستينية كل هذه الجهود والمحاولات ليست سوى توطئة لمسيحية مصفاة ، منتقاة . من يمن النظر في التيارات الفنية ير كيف ان العقود الاولى من القرن السادس عشر تفادت الموضوعات التي استوحتها الايقونوغرافيا في الدور الاول من عصر الانبعاث الذي يرينا الديانة اكثر اتصالاً بالحياة اليومية ، واكثر واقعية تسير مع الأرضيات وقعايش الزمنيات . فقد اعاد القرن السادس عشر الى الدين والموضوعات الدينية ، الحرمان التي يجب ان تكون لها والوقار ، وارتفع بها دفعة واحدة ، الى العلو ، الى الاسمى الذي يضيفه ما فوق الطبيعة . فلنتمل النظر طويلاً في هذه الانجازات التي حققها رفايل عام ١٥١٦ في الكنيسة السكستينية التابعة للرهبان البندكتيين في مدينة بايزانس . ونهوضاً منه بالعاطفة الدينية التي جاشت بها نفسه بوصفه من اتباع الافلاطونية الحديثة ، فقد ادى به المطاف الفني الى مريم ام الله ، وعروس الله ، والى يسوع المسيح الفادي . والذي حاول رفايل ابرازه عندما رسم صورة العذراء السكستينية هو المعنى الذي تزخر به الترتيلة المعروفة : « السلام عليك يا سلطانة » *Salve Regina* ، انت يا شفيعتنا حولي الينا انظارك التي تفيض رحمة وحناناً وأطلي علينا بعد هذه الغربة مع يسوع ثمرة احشائك المباركة . فنلاحظ في الرسم قبل كل شيء ، ستاراً مزدوجاً اثنت اطرافه من كلا الجانبين ، ليكشف لنا ، من هنا وهناك ، شيئاً من تلك الدار ، دار البقاء . وفي اسفل ، اللوحة ، من جهة هذا العالم السفلي ، جاثياً مكشوف الرأس يجنب تابوت البابا سكس الرابع ، القديس سكس شفيح الاسرة البابوية ، اسرة دلا روفير واسرة البابا جول الثاني ، يبرز العذراء مريم ، للمحتضرين والاموات على هذه الأرض . ونرى امامه ، القديسة تقلا ، شفيعة ساعة الموت الاخيرة ، جاثية ، هي الاخرى . وفي العالم الباقي نرى العذراء مريم تسير فوق كرتنا الارضية تظللها سحابة تمد الطفل يسوع نحو المحتضرين والاموات ، أسيفة النظر ، قلقة المظهر اذ انها تخشى قضاء الله المادل . ويبدو الطفل يسوع نفسه في وضع جد رصين حتى حدود الجفوة والقسوة كان به يرى بنظره الثاقب ، كل آلام البشر ماثلة امامه . هؤلاء الناس الذين لاجلهم لجمع العذابات الراناً وفي سبيلهم بذل حياته حتى الموت ، وكأنه يخشى ، هو الآخر ، قضاء الله الذي لا يرد ، والحكم الذي يصدره بوصفه الديان الأخير .

في هذه الصورة ، لا أفر البتة لماجريات يومية ، او لأي شيء ارضي آخر . كل ما فيها تسامر لنبلغ العالم الآخر . وهكذا حققت الافلاطونية الحديثة تصاعدها المتسامي طالما انها وصلت الى السيد المسيح .

فهذه الافكار الرومانية ، والصورة الجديدة التي تبدت لهذا الكون ، وهذا الفراغ الذي يتحرك فيه الانسان وينشط ، كل هذا وما اليه ، لم يلبث ان عم ايطاليا كلها ومنها اتصل باوروبا فانتشر في معظم ربوعها .

في هذا الوقت بالذات ، اطلت علينا صورة جديدة للعالم كان لها العقلانية البدوانية - بيبونازي شأن عظيم في اوروبا تجلت في مدينة بادوا التي قامت فيها جامعة البندقية وفي غيرها من الجامعات الاخرى الواقعة تحت تأثيرها او المرتبطة بها بنهج واحد ، حيث كان يتولى التعليم والتدريس ، هنا وهناك ، نفس الاساتذة ، في مدينة بولونيا والبندقية وحيث اخذت تسيطر روح عملية يشتم منها الاتجار والتكسب والافرة ، وروح واقعية قوامها الوطنية تردد مثل هذه الأقوال : « انا اولا من ابناء البندقية » ، ثم انا مسيحي » ، وهي شعارات تتلاءم تماما مع الذهنية السائدة اذ ذاك .

وكان لا يزال قائما في مدينة بادوا اتباع لابن رشد مفسر ارسطو وشارحه . فقد قالوا ان النفس البشرية تتألف من عنصرين : العقل السليبي الذي تصله ، عن طريق الحواس ، صورة الاشياء المرئية فينقلها بدوره الى الفهم ، هذا العقل الايجابي الذي يعالج هذه الصور ويجعلها قابلة للادراك . اما العقل السليبي فهو بحاجة للحواس ولذا تراه مشدودا الى جسم الانسان ويختفي باختفائه . ولذا ليس ثمة خلود شخصي او اجتماعي بين الناس .

ينخفض الكون عندهم لحتمية آسرة ، ويوجد في كل جرم سماوي عقل في مكنثته الخارج على نواميس الطبيعة ولذلك تجري احداث غير متوقعة البتة . فالمعجزة ، اذا ، حادث مستمر يجب رده لتفاعل القوى الطبيعية ، ولهذا السبب لمعجزات الكتاب المقدس لم تعد بالدليل القاطع على الوحي الالهي .

قام بين البدوانيين فريق لا يهجم نهج تعاليم ابن رشد نفسه بل يتبع مذهب احد شارحيه المشهورين ، ظهر في القرن الثالث للميلاد ، هو اسكندر الافرودياسي الذي رأى في النفس حصيلة من حصائل الجسم البشري ، وهو تعليم يستتبع القول ، بفساد الجسم البشري . فما عسى ان يكون بعد هذا ، امر الجمع والسوء والحشر والشر واليماد ، في مثل هذا الاحتمال ؟ وبقي لكل من فلسفة ابن رشد واسكندر الافرودياسي اتباع في اوروبا حتى في القرن السادس عشر . ولعل اهم من هذه النظريات التي اؤمننا اليها ، النظريات الجديدة التي قال بها وعلم بيبونازي « آخر الفلاسفة المدرسين وأول علماء عصر الانوار » كما يلقبونه . فبعد ان تسليح بيبونازي بوصفه من علماء النهضة ، بنصوص دقيقة ، موثقة لمؤلفات ارسطو انخرجتها مطابع الناشر المشهور آلد مانوس *Ald Manuce* في البندقية ، ضرب بمرط الحائط الشروح والتعليقات التي وضعها توما الاكويني وابن رشد نفسه . ففي كتابه المعلنون : « حول خلود النفس » المطبوع عام ١٥١٦ ، وفي كتابه الآخر « حول اسباب ومسببات كل ما يجري في الطبيعة والسحر »

الذي وضعه عام ١٥٢٠ ، راح يدرس هذه المشكلات « بمزول عن الوحي والمعجزات ضمن حدود الطبيعة » مستعيناً بالعقل وحده الذي جعل منه ، في الاساس ، الحكم الوحيد . فهو من العقلين .

والحال ، والعقل تكتشف عن طاقة يستحيل عليها العمل بمزول عن الجسم . ولكي يعمل العقل ويتحرك وينشط فهو بحاجة ماسة للحواس ، لا يستطيع تمييز العام (المطلق) الا عن طريق الفرد وهي عملية تتم عن طريق الحواس . اذن ، فالنفس تبتدىء مع الجسم وتنتهي بانتهائه فلا مجال ، والحالة هذه ، لالظن بخلود النفس او القول به . ومضى بمبونازي في تهديم فكرة البطولة والفكرة المميزة التي طلعت بها الافلاطونية الحديثة عن الانسان ، المدعو ابن الله . فالانسان ، في نظر مببونازي ، ليس كائنًا متميزاً من كائنات الطبيعة . فهو لا يخرج عن كونه حلقة بسيطة فيها ، احد الحيوانات التي طلعت بها علينا ، حتى انه يبدو احياناً ، دور الحيوانات المتقدمة في تطورها . هنالك اناس اقل خبرة ودراية من القندوس الذي اشتهر بممارته ومنهم من لا اخلاق مدنية لهم كما نجد عند النحل مثلاً ، ومنهم من تجردوا من كل اخلاق ادبية مما توفر بعضه للكلب مثلاً ، اذ نراه يأتي ليموت على قبر سيده . هنالك قلة من الناس تمت لها ملكة العقل احدى مميزات الانسان . فالانسان والحالة هذه ، ليس على صورة الله ولا هو ، بعد ، بالبطل الخلاق بكل نجد ومخر . ولما كانوا يردون عليه متهمينه بقتل الاخلاق واستباحة الآداب بعد ان النكر الايمان وابطل عقيدة المثوبة والجزاء في الحياة الاخرى ، كان يجيب ان مكافأة الفضيلة هي الفضيلة ذاتها .

فقد هدم ، في الوقت ذاته ، اسس الايمان والادلة المؤيدة له في الكتاب المقدس الناطقة بالوحي . فالمعجزة ، في نظر مببونازي ، ليست سوى احدى النتائج المدهشة لبعض المسببات الطبيعية . التي لجمل اسرارها تمام الجهل . فالاسباب الطبيعية تكفي وحدها لتفسير هذه الظاهرة ... من المضحك وايم الحق ، ومن الغرابة بمكن ، ان يضرب الانسان عرض الحائط بما يقع تحت الحس وبما يقوم العقل الطبيعي بالدليل عليه فيلجأ الى غير المنظور ويعتمد على غير المحتمل ... ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على المعجائب التي اتاها السيد المسيح ، وهذه الخوارق التي تشهد الكنيسة بصحتها والتي سلم بمبونازي بالقول والايمان بها تجاوزاً لاحكام العقل ، وكبجرد فعل ايمان ليس ما يؤيده .

من الطبيعي ان تزدل الكنيسة مثل هذه التعاليم الكفرية الضالة ، المضلة التي راجت حوالى عام ١٥١٢ ، اي عند التثام بجمع لاتران ، اذ ان الكثرة تعلم انه لا بد من اسباب قوية تدعو للايمان وان العقل هو من الاسس التي ينهض عليها الايمان وان كان بحاجة ماسة لمساعدة الوحي وتأييده .

ومع ذلك فقد تمتع بمبونازي بنفوذ قوي وكان له تأثير بالغ في النفوس ، اذ أمّ الوف من

الاوروبيين مدينة بادوا ليتلقوا تحصيلهم العالي في جامعتها . . وهذا ما ساعد بالفعل على نشر تعاليم مبيونازي والترويج لها في جميع أنحاء أوروبا . فمن تلاميذه النباه : رابليه ، واتيان ، وليه ، وجان بودين ومونتاني وغيرهم من احرار الفكر في القرن السابع عشر ومن اليهم من « فلاسفة » عصر الانوار .

وهكذا نرى ان الافلاطونية الحديثة والفلسفة الطبيعية يتعارضان في الاساس ويقوم الواحد ضد الآخر . ومع ذلك فهما يتنازجان ويحتمان بالفعل لدى الكثيرين . وعلى كل ان معظم العقليين البدوانيين قالوا بالفراغ والصور والصيغ والمواقف البشرية التي قال بها اصحاب الافلاطونية الحديثة .

العلم ونظراته الجديدة على العالم
فتشينو دكورنيكوس

مهما يكن من هذه المفارقات ، فقد التقى فتشينو ومبيونازي والبدوانيون واصحاب الافلاطونية الحديثة على صعيد واحد وجمعهم معدود مشترك واحد ، الا وهو الهدف الذي وضعه الانسان نصب عينيه الا وهو السيطرة على العالم والتحكم به ؛ وذلك بما تم له من مهارة وصناعة . وقد راح فتشينو يستشهد بمثال ارخميدس الذي في سبيل تفهمه لاسرار الطبيعة ، وإفهامه تلاميذه كيف يسير الكون ، عمد الى صنع كرات من البرونز تمثل الاجرام السماوية . فعند ما اعداد على هذا الشكل العملي تركيب الكون استطاع ان ينفذ الى اسراره ويدرك مقاييسه وبذلك اصبح وكأنه مبدع السموات ، وبعبارات اخرى ، شبيهاً بالله . وفي رأي فتشينو ، فالانسان ، بعد ان يجري في الكائنات من تعديلات بما يدخل عليها من تحسينات ، وباستكمال له عمل الطبيعة ، بالآلة التي يصطنعها له ، وبالانشاءات والمصانع والمسالك ومعامل الزجاج التي ينشئها ، يحدث في العالم تغييراً قهراً كالتغيير الذي يتناوله هو فيتحول معه ويتكامل . فبمعرفة لاسرار الكون وبأحدائه عالماً لنفسه ، يلتقي مع تصميم الله ويصبح ، بالتالي ، شبيهاً به ، هو كله حرية والحرية البشرية هي تغيير متصل وتطور موصول . وهكذا افكرة التقدم بواسطة العلم ، وبواسطة التقنية ، اخذت تتغلغل في صلب الحضارة الاوروبية .

وهذا الشهور بقوة الانسان العظيمة التي لا حد لها ، يبدو على اتمه في هذا التبدل والتطور الذي طرأ على الرمز الذي رمزوا به تبعاً الى الحظ . فقد سبق الانسان ورمز اليه قديماً بمجمل او دولا ب يدور بسرعة يرفع الناس الى عليين طوراً ، وطوراً يهبط بهم الى أسفل السافلين ، وقد أسقط بيدهم امام هذه القوة العمياء التي لا يدركون من امرها شيئاً بل انها تهزأ بهم احياناً ، وحيناً تسحقهم تحت وطأتها . . اما في زماننا ، فطريقة الرمز ، الى الحظ قد تغيرت تماماً . فالحظ اليوم كمن يشبه راكب سفينة يسلك بالفلج وينفخ فيها بينما يكون الانسان بمسكاً بالدفة يوجهها ويستعمل في تسييرها ما لديه من قوة وظروف مساعدة وغير ذلك من المساعدات . وليس من باب الصدفة والتوافق قطعاً ان نرى بين الآثار الفكرية التي وصلت اليها ، نموتاً

واوصافاً مثل : « بطولي » ، « بطل » ، « الهبي » ، « نصف الهبي » وغير ذلك من نعوت التعظيم والتفخيم ، وما شاكل من الفاظ ، كمعظم وفخم وفوق البشر .

في الصورة التي اثبتتها ترتغليا « Tartaglia » في صدر كتابه الموسوم « Nuova scienza » المنشور عام ١٥٣٧ ، تنويه وايحاء بصوران الطريقة التي تخيلها معاصرو ذلك العهد لتنفاذ الى اسرار الطبيعة والتحكم بها . فهي تمثل ساحة تقع ضمن جدران عالية من الصعب جداً ان لم نقل من المستحيل عبورها وتخطيها . وفي آخر الساحة او الفسحة معبد قبعث فيه الفلسفة ، اذاً ؟ السبيل هو المرور من باب ضيق عبوره او اجتيازه بيد اقليدس ، امير الهندسة وربها . فيفضي المهاز بالباحث الى الساحة ليستقبله فيها عدد من العلماء يتجهون به الى باب الهيكل حيث يقف ارسطو ويسهل له الولوج ، ليجد ، في الداخل ، افلاطون واقفاً امام الفلسفة ، فيقدمه لها ويتم بذلك التعارف بينها . هذا رمز كل ما فيه واضح جلي . فالرياضيات هي مفتاح المعرفة او المدخل اليها ، والرياضي افلاطون يمارض العالم الاحيائي والاجتماعي ارسطو ، عندما راح يؤكد ان ما هو واقعي يخضع حتماً للعمليات الرياضية ، وان المعرفة الحققة هي بالفعل بناء رياضي خفي . فارسطو وما يمثل من العلوم الطبيعية والاجتماعية المعتمدة على الحواس ، يستطيع القيام بعملية جرد للظواهر الطبيعية وتقسيمها ، والقيام بعملية تقييم اولية . يبقى ان افلاطون وحده وعلوم الرياضيات ، هم الذين سيكشفون عن اسرار المركبات وعن الحركات الفعلية التي تخفي عنا الحقيقة .

هذه الصورة الرياضية ، الكمية ، للعالم التي اخذت تحل تدريجياً محل الصورة النوعية التي رسمها ارسطو وتميز فيزياءه النوعية ونظامه العالمي الذي يجعل من الارض محور الكائنات ، قد تم إعدادها منذ عهد بعيد . ان تغلب الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية جعل عقول الناس تسلم بثلاث معطيات اساسية : العلم التجريبي ، واقضاء ارسطو وتنحيته جانباً ، وفكرة الوظيفة الرياضية . كل من فكر قايلاً لا بد من ان يحدد نفسه بالفعل امام المشكلة التالية ، ان معرفتي للعالم الخارجي ، والتفسير الذي ارضيته يتوقفان ، الى حد بعيد ، على تفهمي لما هو واقعي ، قائم ، وللاحكام التي أتوصل اليها والاستدلالات التي اقوم بها . وهذه الاعمال الفكرية او العقلية التي اقوم بها ، هل استطيع ان اثق بها واعول عليها ؟ نعم ، كان جواب اتباع الفلسفة الواقعية ، وفي مقدمتهم القديس توما الاكوييني . فبامكاننا ، والحق يقال ، ان نتفهم ، بصورة معقولة ، العالم . نعم ، في مقدورنا ان نتوصل بعلم ومعرفة ، الى الحقيقة بان الله موجود هو . هنالك واقع قائم متميز ، يمكن تفهمه حق الفهم . من رؤية الاشياء الفردية نستطيع ان نتوصل بصورة معقولة ومقبولة ، في كل فئة من هذه الفئات ، الى صورة عامة هي بالفعل ، جوهر هذه الاشياء وقوامها . وهذا ما كان افلاطون يسميه الفكر ، النمط ، النموذج المثالي . من ذلك مثلاً ان رؤية ومعرفة الناس تمكننا من ان نكون لانفسنا ، فكرة مقبولة عن الجنس البشري ، عن الانسان قائماً بذاته ، عن الانسانية التي تكون حقيقة واقعية خارجة عنا هي جوهر الانسان ، وفي نظر افلاطون : فكرة الانسان .

فكيف يعمل العقل هنا ، وما هو سبيله الى ذلك ؟ لنأخذ مثلاً ، الناس الذين نعرفهم جيداً . فمن كل واحد منهم نرسم او نصوغ صورة ذهنية نخطر او تسبح في الهواء ، وهذا ما يعرف بـ « الأنواع الفكرية » ، وهي صورة اخذت تتخفف كثيراً من مقوماتها المادية المحسوسة . ثم تدخل هذه الصورة الى حواسنا الخارجية لتخفف ، أكثر فأكثر مما لا يزال عالقاً بها من مادية بحيث تستطيع ولوج اجهزتنا وقوانا الداخلية فتكتسب شيئاً من اللطافة تصبح معها قادرة على دخول جهاز المخيلة ، مع الاحتفاظ ، حتى في هذا الدور ، بشيء من ماديتها . وعندئذ يستطيع العقل الفاعل ، احدى القوى العاقلة التي تملك بصورة فطرية ، المبادئ الاولى التي تقوي فيها ملكة المحاكمة العقلية والتي نستطيع معها ان نحول هذه المعلومات (تخيلات) الى انواع قابلة للادراك ، خالصة من كل مادية . وبهذا الاتصال تجذب النفس الفكرة العامة للانسانية ، والمثلة في ذات كل انسان . وهذه الصورة هي صورة كائن تتمثل ، بذات الوقت في صورة ذهنية عامة في النفس وفي صورة فرد ، في كل شخص . ولكل صورة ذهنية عامة مصطلح او كلمة تعبر عنها . وكان افلاطون يقول ان لكل فكرة ، صورة ذهنية عامة او فكر وهذه الصورة توجد بكيفية مستقلة ، في ذات الله .

فالانسان هو جوهر في ذاته . فالجواهر هو الذي يعطي المادة صورتها اي قوامها وكيانها وهو الذي يولبها ما لها من صفات محسوسة كالشكل والحرارة والعمر واللون وغير ذلك . وهذه الصفات الحفية التي لا تقع مباشرة تحت الحواس ، هي التي تولي المادة بعض اعراضها المحسوسة كالثقل والحفة ، والقوة المغناطيسية وغير ذلك . فالجواهر مع المادة يكون بشراً يختلف الواحد منهم عن الآخر ، عَرَضاً او خاصة ، انما هم متماثلون ، متشابهون من حيث الجوهر .

ويرى ارسطو في هذه الصفات أعراضاً يمكن ان تقوم بالفعل في ذات الجوهر ، كالليونة في اعضاء الجسم ، او ان تقوم فيها بالقوة كالشعرة البيضاء في الشيوخ . هنالك حالة ثالثة هي الحركة كلشعر الذي وخطه الشيب . فالحركة لا تقتصر على تبديل في المكان ، بل هي تعتمل الاستحالة والتغير . غير ان الحركة تحدث تغييراً في الأعراض وليس في الجوهر . فسواء أثنى الانسان او اقتطع منه عضو من اعضائه فهو يبقى انساناً ، فان كان ابيض او اسود او اصفر فهو يبقى دوماً رجلاً ، لان له جوهر الرجل . فهو من نوع الرجل ، سواء اكان من العرق الابيض او الاسود او الاصفر . فهو واحد من هذه الانسانية الواحدة .

والتعليل العلمي للاشياء يقوم ، والحالة هذه ، في المرحلة الاولى ، بالتساؤل عن النوع او الجنس الذي تنتمي اليه المخلوقات ، وهي معرفة تتم بعد درس ما لها من صفات محسوسة وما يقوم بينها من روابط وعلائق ، وبطائفة من الاسئلة تعاون على توجيهها سقراط وافلاطون واكملها ارسطو في كتابه الموسوم « Organon » ، هذه الاسئلة التي تكون الطريقة الشاملة اللازمة للعقل البشري ، التي من شأنها ان تساعد على : التثبت من ان الشيء موجود بالفعل ،

وان لم يكن من يقع تحت الحواس ومعرفة ما اذا كان ممكن الوجود او ممتنع الوجود ، وما فيه من جوهر وعارض او دائم وزائل ، سبب ونتيجة ، والغاية منه اي الفرض من وجوده على هذه الارض ، وما هو جوهره ، اي مادته المقومة . وما هو عليه بالفعل او بالقوة او بالضرورة وغير ذلك . وعندما تتم لنا معرفة هذه الاشياء نكون توصلنا الى معرفة النموذج الخالد لهذا الكائن ، نكون توصلنا الى معرفة سره او وجوده . خذ مثلاً الحديد او المغنطيس . فعندما يكون الحديد امام المغنطيس ، يتلبس جوهره صفة خفية هي الصفة المغنطيسية التي من خصائصها المميزة ان يجتذب المغنطيس الحديد اليه . فالقوة المغنطيسية هي السبب الحقيقي او الاخير للظاهرة التي تجلت لنا . اما في الطور الثاني فباستطاعتنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ، الى تعليل كامل ، جذري ، للكون اجمع ، وذلك بسلسلة من التراكيب الذهنية لهذه المراتب او المرتسات الذهنية عن طريق المصطلحات ، والكلمات التي تعبر عنها خير تعبير . وهكذا ينشأ عندها علم كامل تام ، نصل به الى ذات الكائن وحقيقته الاولى .

وهذا النظام المنطقي يرتكز ، بدءاً ، على فكرة : الزائل المنتهي ، العالم المنتهي في الفضاء حيث الانواع تبقى هي هي بالرغم من التغيرات التي تطرأ على الفرد ، وحيث عدد الانواع محدود ، وهذه الانواع التي تتألف من اجناس وفوارق محدودة العدد ، وعالم مطبق ، موحد ، محدود .

وسجدت الفلسفة الواقعية خصمها اللدود في الفلسفة الاسمية بمثلة خير تمثيل بشخص وليم او كهام ، هذا الراهب الفرنسيكاني ، استاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد ثم في جامعة باريس ، والذي عاش من ١٢٨٠ الى ١٣٤٠ ، فكان الرائد الجليل (*Venerabilis inceptor*) الذي مهد لطلوع العصر الجديد .

أنكر او كهام ان يكون للصور الذهنية العامة وجود في الكائنات الفردية او الخاصة . فاذا كان العام قائماً او موجوداً بذاته وجب ان يكون من الوجهة العددية وحدة . فان كان وحدة ، ألّف والحالة هذه ، فرداً . فكيف يستطيع الكائن الفرد ان يكون معاً وفي عدد كبير من الكائنات البشرية في البشر ؟ فلو كانت البشرية شيئاً يختلف عن الافراد ، اما كانت استوجبت ان يحكم عليها في آن واحد بشخص يهوذا الاسخريوطي وان تخلص في المسيح ؟ ان مثل هذا القول مضاد للعقل والمنطق وهو امر مستحيل . فالفكرة العامة اذاً لا وجود لها البتة .

فالافكار ليست سوى اشارات او علامات تدل على وجود كائنات في الخارج دون ان تمثلها على الاطلاق . فالنية التي بها اسمع الناس ليست سوى اشارة طبيعية تعني الانسان ، لها كل ما للطبيعة من صفة ، كالأمة التي تتم عن المرض او الألم . فالتنهد هو علامة او اشارة تدل على المرض ، انما لا تفيدنا شيئاً قط عن طبيعة هذا المرض ، ولا عن نوعه ، ولا تدعو للقيام بأي عملية تشخيص او حدس او تطبيب . فلكل فرد من هؤلاء الناس الذين تقع عليهم العين ، علامة او دالة ذهنية في ادراكنا تقوم مقام الفرد نفسه وتمثله في المحاكات والتصديقات العقلية

التي نقوم بها . فاذا ما استعرضنا ذهنياً هذه الاشارات وعارضناها بعضاً ببعض ، خرجنا من هذه العملية بفكرة او صورة تعبر عن هذه الاشارات او العلامات مجتمعة ، تمثل رجلاً قائماً بذاته . فالجنس البشري ، هذه الصورة العامة ، صغناها بطريقة التجريد ، من الافراد انفسهم . ولذا فهي ليست شيئاً خارجاً ، بل كائناتاً عقلياً لا وجود له الا في الذهن ، ليس الا . اما الكلمات والمصطلحات فهي الاشارات التي تميز عن هذه الصور الذهنية . فهي لا قيمة لها البتة بذاتها .

وعلى هذا ، فنحن لا نعرف اية حقيقة او شيء واقعي . فنحن لا نعرف الا ظواهر الاشياء ومدلولاتها . اما الكائن ، فلا سبيل لنا الى معرفته . غير انه اذا كنا نشاهد علامات متتابعة مستمرة تقع دوماً حسب الترتيب ذاته ، امكنا ان نستنتج ، بالتالي ، انه لو وجدنا علامة واحدة من هذه العلامات ، كان ذلك داعياً لظهور باقي العلامات . فهناك إذاً امكانية علم تجريبي يتيح لنا ان نتصرف ونعمل . فلن نتوصل ابدأ الى معرفة حقيقة الاشياء الا ما اراد الله ان يعلنه لنا . فاماننا إمكانيات لا تعد للعمل والتصرف .

حلت هذه الفلسفة الاسمية التي قال بها اوكهام وعلم ، بض تلاميذ هذه على الوقوف موقف المراقب المستقل وكأنهم يرددون : لا لزوم بعد لنهيج نهج ارسطو ، ولا الأخذ بترايط الكلمات وتداعياتها قبل مراقبة الظواهر والبحث عن التراكيب المستمرة . كان هذا موقف بعض اساتذة جامعة باريس ، في القرن الرابع عشر امثال الدير ده ساكس وديمون اليهودي وجان بوريدان في ما يتعلق بناموس الحركة . كل حركة ، تستوجب في نظر ارسطو ، فعل محرك دائم يتميز تماماً ، عن الشيء المتحرك ، كالسهم الذي انطلق من القوس مثلاً ، والذي يستمر سائراً مع انه انفصل عن محركه . فوتر القوس ، في نظر ارسطو ، سبب اضطراباً في كتلة الهواء المحيطة بالسهم ، نقلت بدورها الاضطراب او الحركة الى كتلة اخرى ملاصقة بها ، وهكذا راح السهم يطير ساجحاً بفضل حركة الهواء المحيط به . اما عند الفلاسفة الباريسيين ، ولا سيما عند بوريدان الذي كان يعلم الفلسفة في باريس بين ١٢٢٧ - ١٢٥٨ ، فلواقع يعاكس تماماً نظرية ارسطو . لناخذ مثلاً على ذلك سفينة يجرها البحارة في ترعة او قناة ثم يتركها البحارة فجأة فتسير هي لوحدها بضع خطوات بقوة الدفع . ففي نظر ارسطو هي تسير بفعل الهواء المتحرك المحيط بها ، فتسوقها حركته الى الامام بضع خطوات . فاذا ما غطينا قعر السفينة بغطاء من جلد او نسيج ونزعنا فجأة هذا الغطاء في ذات الوقت الذي يتوقف البحارة عن جر السفينة ، نكون عزلنا طبقة الهواء التي تتصل مباشرة بالسفينة المتحركة . فالسفينة تقضي ، مع ذلك ، في سيرها الى الامام ، ولو لبضعة امتار . فليس الهواء ، والحالة هذه ، هو الذي يسبب لها الحركة . فالتعليل الوحيد ، المقنع هو ان البحارة (المحرك) أولوا السفينة (الشيء المتحرك) قوة ما تحركها ، وهذه القوة هي ما نسميه الدفع *Impetus* . وراح بوريدان يضع لنا ، في هذا المضمار ، قواعد ومبادئ لا تزال ، اليوم ، اساساً لبعض اقسام الميكانيكا ، منها ان قوة الدفع توازي سرعة المحرك

وتمتها ان الدفع معادل للخيجم او للثقل النوعي . وقد ذهب في تعليقاته الى ابعاد من هذا واعمق
اذ قال ان الدفع يزلي الأجرام السايوية حركة دائمة ، فرسم لنا بذلك اوليات حركة الفلك على
اساس مبدأ القصور الذاتي (*Inertie*) هذه المبادئ بالذات التي كشف عن نواحيها ، فيما بعد
غاليليو وكبلر .

واخيراً اوجد علماء الرياضيات من الباريسيين ، ولا سيما اوريسم بينهم واضع علم الهندسة
التحليلية ، بعد ان ادخلوا تحسينات ملحوظة على فكرة الدالة الرياضية ، تطوراً كبيراً على
العلم التجريبي كأداة للبحث العلمي ، وبها امكن استنطاق الطبيعة وتسجيل الكثير من المعلومات
التي جادت بها . وعلى شاكلة للفيلورنتيين الذين عجزوا عن الانتفاع بالشكل المنظوري ،
استخدماً صحيحاً ، هكذا عجز الباريسيون عن ان يكونوا لهم فكرة صحيحة عن الدور
الذي يمكن ان تلعبه الرياضيات . فالفيزياء عندهم ، بقيت نوعية او كيفية لا رموز او
صيغة لها تقريباً ، وازلوا ، بالتالي ، الدفع منزلة النوع . « من المحتمل جداً ، يقول بوريدان ،
ان يكون هذا الدفع صفة من طبيعتها تحريك الجسم الذي تم دفعه » . والظاهر ان من جاء بعده
من علماء الرياضيات ، قنع بهذا المقدار ووقف عند هذا الحد ، الى ان فقدت مدرسة باريس
نشاطها الخلاقي ، خلال حرب المائة سنة وراحت فريسة جدل بيزنطي معطل .

بقي اذاً ، شيء لا بد من تحقيقه الا وهو اعتبار الطبيعة باجملها ، قائمة على تركيب رياضي
خفي ، والاهتمام ، قبل كل شيء ، بالكم او الحركة . هذا التبدل في الذهنية والتفكير ، لم يتم
على ايدي البدوانيين ، لانهم آثروا البقاء الى جانب ارسطو ، ارسطو التاريخي بعد ان اعتنقوا
مقالته وارتضوها سنة لهم ، ارسطو هذا الذي اكتشفه إنسانيو النهضة ، واخذوا بالتالي
يهزؤون من الباريسيين ومن لاتينيته المزعجة . فلو عرف الباريسيون ارسطو معرفة صحيحة
لاقتنعوا بتعاليمه ، ولما كان البدوانيون من تلاميذ ارسطو الاحيائي ، راحوا ، فوق ذلك ،
يعلمون انه من الافضل بكثير ، التمويل على الحواس منه على القياس ، وراحوا ينتقدون
الباريسيين للتحاليل الدقيقة الصحيحة التي قاموا بها . فلا عجب قط الا يجري البدوانيون ، في
هذا المجال ، اي تغيير او تبديل في الذهنية المسيطرة . ولعل ما هو انكى من هذا كله وأحز
في النفس ، الفكرة التي وقفوا عندها والتي اوجبت عليهم الاعتقاد بالمعجائب والمعجزات ،
باعتبار ان في الطبيعة قوى كثيرة لمجهل كل شيء عنها . فليس ما يدعو للعجب او للدهش ،
والحالة هذه ، ان تذرف التائيل دمعاً ، او ان تنضح بالمرق او ان تنتقل ، من تلقاء نفسها
وبقوتها الذاتية ، من محل الى آخر ، كما يبدو ان هذه الفكرة بالذات زادت في انتشار وباء
عضال هو الاعتقاد بالنجامة والاقبال على التنجيم باوسع نطاق ، والاستسلام لمخاطبة الارواح
الموهومة ، وتعاطي السحر واعمال التعزيم ، وغير ذلك .

فبمبونازي ومن وقعوا تحت تأثيره المباشر ، امثال باراسلوس وفانيقي وبرونو وكبانيلا ،

ساهموا على اقدار متفاوتة ، في الترويج لشروح ارسطو وتفسيره تفسيراً ابطانياً *Immanentiste* . فبدلاً من «الله المتعالي، المتسامي، المتميز كلياً عن هذا العالم الذي برأه من العدم»، قالوا بالله إبطاني *Immanent* متمازج مع العالم متغلغل بروحه فيه . فالطبيعة التي رأى فيها ارسطو تسلسلاً آسراً للأسباب ومسبباتها ، وبمجموعاً ساكناً من الظواهر المعروفة ، تصورها اشبه ما تكون بكائن حي يغمره الله بروحه ويفيض عليه من ذاته . وهكذا تبدت لنا ، هذه الطبيعة ، في كل لحظة ، قوة خفية مجهولة لا يمكن حصرها او كبتها كما لا يمكن التنبؤ بها . هنالك قوة متوزعة محرك الاشياء . فالطبيعة ملأى بقوة خفية ، واصبحت مجالاً للسحر والسحره يسرحون فيه ويمرحون .

المعجزات جماعة ذلك العصر يؤمنون كلهم بالمعجزة ويميشون ، بالاحرى ، معجزة دائمة ، قائمة باستمرار . أفلا تتنبأ الحيوانات ؟ ، والتأثيل الا تنضح عرفاً منذرة بالأحداث الجسام ؟ والمدراء مريم ام النعم ، ألم تفتح عينها وتطبقهما ، في مدينة بريشيا ، يوم عيد المنصرة بالذات عام ١٥١٤ ؟ أو لم ير الناس ، في كنيسة القديس مكسيميس ، في مقاطعة بروفانس ، خاصة الاخوة الواعظين ، حجارة صغيرة تلتطخ بدم السيد ، بعد ان تلقفته مريم المجدلية وهي جاثية عند الصليب ؟ كان الناس يعتقدون ، وطيداً ، ان هذا الدم كان ينفصل عن هذه الحجارة ، نهار الجمعة الحزينة ، وذلك من الساعة ١٢ الى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ويأخذ بالفلين والفوران . وفي مدينة نابولي بالذات ، اما كان دم القديس جانقيه يغور ويسيل ثلاث مرات في السنة : اما اذا سال في غير هذه الاوقات ، فلا يتم ذلك ابداً في درجة حرارة تقل عن ١٩ درجة مئوية . وكثيراً ما استعملوا درجة الحرارة التي يسيل فيها الدم لاغراض سياسية .

النجامة أدى بحث الفلسفة القديمة الى بحث النجامة والتنجيم . فبينما اجزاء العالم في تماطف شامل يربط فيما بينها ، فمن الله يصدر روح يتصل عن طريق النجوم بالكائنات الحية . فكل جزء من اجزاء الجسم البشري ، وكل حالة من حالات النفس البشرية يرتبط ويتماطف مع الاوضاع السائدة في الفلك . فالمربخ يؤثر على الكبد ، وزحل على الرئة ، والشمس لها تأثيرها العميق على المعدة . وكل مزاج من الامزجة الاربعة الصفراوي والدموي والبلغمي والسوداوي مرتبط ، هو الآخر ، ارتباطاً وثيقاً ، باحد الاجرام السماوية . وعندما يقع القمر في قران برج الاسد او برج القوس يستحب القيام بعملية فصد صاحب المزاج الصفراوي . فالنجامة الطبيعية جعلت من الانسان نقطة الدائرة ومركز الثقل في العالم . وهو قول اخذت به الكنيسة ورعته واحترمته .

هنالك ضرب من النجامة يُعرف بقراءة الطالع البشري ، شجبت الكنيسة وحرمتها عام

١٥٨٥ . فالكوكب السيار الذي سيطر في السماء يضيء على الانسان الذي يولد تحته ، سمة لا تمحى . فهو يعطي المولود الجديد مزاجه الخاص ويحدد منه المصير المحتوم بشكل لا يتبدل . فليس من عجب والحالة هذه ان يقوموا بكشف الطالع يوم مولد الطفل . وفي هذا السبيل ، قسموا القبة الزرقاء مثلثات ومستطيلات حددت فيها المواقع التي تحتلها النجوم ومواقع البروج كما حددت فيها المواقع التي يجري فيها الكوكب تأثيره عندما يتفق وقوعه في المحل المعين له . وبذلك كانوا يستطلعون من خلال بعض العلامات والاشارات ، الصفات المرتقبة للشخص وما عسى ان يكون مصيره او اتجاهه ، الى التقوى ام الى الكفر ، وتاريخ الرحلات والأسفار المتوقع له ان يقوم بها ، وعدد البنين الذين سيرزق ، وغير ذلك من طوارئ الحياة المنتظرة .

كثيرون اخذوا يتعاطمون مخاطبة الأرواح ، هذه العادة التي وصلت اليهم من مخاطبة الارواح
التقاليد اليهودية ، وهي تقاليد تغفلت ، الى حد بعيد بين اوساط عصر النهضة ومجتمعاتها . فالرموز التي تضيء على الأشياء مدلولها ، وتعين لها المراتب والمواقع ، تتكون من اشارات وقدرات . فالاسماء الواردة في التوراة كتاب الله ، وما تتألف كتابتها من احرف تتلبس قدرة خاصة . وبواسطة هذه الدلائل يظهر الله قدرته وهي دلائل يمكن لنا ضبط بعضها . فالارقام يشار اليها بالاحرف ، ولذا قامت علاقة تماثل او تداع بين بعض الحروف وبين بعض الارقام . فاذا ما جمعنا الاعداد التي تنجم عن الحروف التي يتألف منها اسم معين ، نصل الى مثل هذا العدد الذي يخرج من جمع حروف اسم آخر ، اذ يوجد تماثل بين هذين الاسمين وبالتالي بين ما لهما من مدلول . وبواسطة الاسماء يمكن ان تؤثر الاشخاص والاشياء التي لها مدلولات خاصة بعضها ببعض .

كل الناس مؤمنون بالسحر ويستخدمون السحرة والدرّافين ، فنشأت من السحر والجوسية
هذه الأعمال والمراهم التي كانوا يقومون بها الدعاوي امام الحاكم التي راحت تضبط الكثير من اعترافاتهم وتسجل بكل اسهاب ، التفاصيل التي تصف اعرفهم واعمالهم . وكان ينظر في دعاوي السحر والسحرة ، قضاة متخصصون . فالسحرة على حسب اعتقاد الناس هم سبب كل الامراض الحفية او المستعصية كاللندين ، وذبول الصحة ، والعته والجناب الصرعي ، والاضطرابات التشنجية والهستيريا . فيصفون للعشاق والمتحابين شراباً يلهب فيهم الشوق والغلة ، وينفثون في الجو ربيعاً خبيثاً ساحراً ، موبوءاً ينشر بين الناس الحميات والعمه والشلل والجنون ، ويستمطرون المطر في غير اوانه والبرّد وينثرون الضباب الناشف المؤذي فيسبب الجفاف والامسى ويفتك بالناس كما يذرون رشوشاً مؤذية . ويتلبس السحرة ، في نظريهم اشكالاً متنوعة فيظهرون تارة بشكل بهائم خفيفة ، أو عناكب وذباب وأفاع وثعابين وجراد ، وحيكة وهررة وذئاب متلبسة بهيئة بشر . فمع بقاء اجسامهم في مكان معين ، ينفثون رياحاً وطيوفاً تخترق الابواب الموصدة وتنفذ من خلال الجدران ، وتصدى للنيام في أسرّتهم ،

ويدخلون كما زعموا ، في اجسام ضحاياهم شياطين يجعلون منها مسكناً لهم ، ويجتمعون ليلاً في نواد خاصة بالسحرة حيث يظهر لهم الشيطان بهيئة تيس اسود يأخذ في التحدث اليهم ، ثم يحترق ويستحيل امامهم رماداً فيأخذ منه الحضور ما يساعدهم على الفتك بيجرائهم .

وكان الناس يردون هذه الظواهر كلها الى المذهب الروحاني (Animisme) هذا المذهب القديم الذي قال بوجود ارواح في كل الاجسام ، وعليه قامت المجوسية التعاطفية والنجمانية ومخاطبة الأرواح . وعملاً بقانون المشاكلة (الشبه يولد الشبه) يتساقط المطر اذ ما رحلت تقلد صوت المطر المتساقط بضربك اديم الماء بمقربة فيتساقط المطر ، واذا ما نختست بآبرة شخصاً من الشمع يثمل ضحية واطلقت عليه اسم الضحية ، اصبحت نفسها بالنخس في المكان الموافق للمكان الذي تم فيه نخس تمثال الشمع . وبموجب قانون سريان القوة او استمرار الاثر ، يبقى شخصان او شيان يؤثر احدهما على الآخر ، بعد انفصالهما طالما كانا على اتصال ببعضهما ، من قبل . فاذا ما سقطت فتاة عصت الحب وتمردت على شريعته ، شراباً فيه شيء من اثر الحبيب ، لن تلبث هذه الفتاة ان تلهب عاطفة نحوه وتشتعل غراماً به بعد برودتها الاولى .

وكان المعاصرون ، اذ ذاك ، يعتقدون بتأثير هذه القوة الخفية التي تدعى عندهم *Mana* ، وهي عبارة عن اثر غازي او روحي ينبعث من اجسام السحرة .

اما علماء اللاهوت ، فكانوا يسقطون من حسابهم هذه التعليقات الخرقاء ويعزونها بدورهم بالاحرى ، الى عمل ابليس الذي كان يتلاعب كما يشاء بارادة السحرة الشريرة . وقد عكس بعض هؤلاء السحرة من بعض خفاف العقول ، المراسم الدينية المعمول بها في طقوس العبادة . ساعدهم على هذا ما يقوم من شبه بين بعض طقوس الاسرار الكنسية وعادات السحرة واعرافهم من حركات وسكنات واشكال رمزية اناطوا بها قدرة على اتيان النتائج المتوخاة من هذه المراسم . فابتلاع رشوش الابالسة ، عادة عكست تناول القربان المقدس . والمناولة الشيطانية التي يحاول معها الساحر ان يحمل اعداءه او خصومه على تناول جسد الشيطان ، من شأنها ان تسبب المرض او الموت ، تشبهاً او محاكاة لتناول جسد المسيح ودمه ، فيسكب في المرء حياة النعمة غزيرة ويحفظ النفس نقية جدرة بالحياة الابدية .

كل الناس اعتقدوا بقوة السحرة وتأثيرهم البعيد بعد الذي استقر في اذهانهم من صفاتية هذه الطبيعة الساحرة المسحورة ، وراحوا يفسرون مظاهرها تفسيراً مغلوطاً . فحبات الفول تسود بعد انقضاء الصاعقة ، والهواء المؤين يكتسب رائحة كريهة كرائحة الكبريت ، مما يبعث على الاعتقاد ، وبالتالي على القول ، بان شحنة الصاعقة كانت مسحورة ، مؤذية او ان صديقي خالداً الذي كان متخفياً في الشجرة عند سقوط الصاعقة ، كان السبب الحقيقي ، مثلاً ، لهذا الحادث المؤسف . والكلب الذي كان محمولاً على عربة تراه اختفى ، بلحمة طرف ، وهو بلون اسود ، فهو ساحر ولا شك ، تلبس شكل كلب ، فقد كانت رجله مجروحة ، وها هي جاري ، مثلاً تصاب بالقرح ، فقد راحت ولا شك فريسة ساحر .

وكان السحرة، هم على مثل ما وصفنا من عقيدة واعتقاد، اناساً فسدت ضمائرهم - ترمد العين من رؤيتهم للاذى الذي ينضحون به . وكثيراً ما كانوا مرضى لسبب من الاسباب ، تعود عليهم مسؤوليتهم . ومن الحالات التي تلبسها السحرة حالة من راحوا فريسة الهستيريا . وكثيراً ما راحوا بتأثير من الايماء والقضاء الذي ينظرون في الدعاري المقامة عليهم ، والعذابات التي يسمونهم اياها، يروون، وقد اخذ العباء والضعف منهم كل مأخذ ، الغرائب والوجائب المدهشة عن تصرفاتهم ، وهي تصرفات كثيراً ما كانت بالفعل اقل بكثير مما أتوا وفعلوا . وهنالك حالات كان فيها المتهمون بالسحر بالفعل ابرياء ، فيضطرون ، تنادياً منهم لما يستهدفون له في حالة اعتصامهم بالصمت والامتناع عن الاعتراف ، من عذابات يخضعون لها للحلهم على الاقرار ، لاختراع اشياء لم يقرّفوها قط ، او لسرد وقائم يستنبطها الخيال ، تجنباً منهم لهذه الاشرار ينصبها لهم اعداء بيتوا لهم الشر ، فكانوا يعترفون ، وبذلك يحملون المشتكين عليهم على ملاحقة آخرين بتهمة السحر ، كان عليهم هم ايضاً ان يعترفوا بها والا استهدفوا لعذاب أليم وهكذا كان الاعتقاد بالسحر يغذي في الناس استمرار الاخذ بعادة السحرة . فالسحر ومخاطبة الارواح ، والنجامة والاعتقاد بالمذاهب الروحانية كل هذه وما شاكلها، حالات مرضية تقرب من الجنون ، تبدو على الاجسام الضعيفة البنية او الضعيفة العقل .

لا شك ان القائلين بالافلاطونية الحديثة واتباعهم الذين هيأوا المظهر الروحانية هذه الذهنية ، الجديدة . قد يكون مثل هذا الوضع نشأ عن تلاقي الافكار التي قال بها افلاطون ، مع تكاثر الابحاث التقنية ، التي تجلّى الاخذ بها على أنه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذه الفترة بالذات التي انكسرت فيها الحركة الاقتصادية ولا سيما اسعار المواد وقامت فيها صعوبات عديدة في وجه المشروعات التجارية ، والصناعية . فليوناردو ده فنشي الذي اخذ بمبادئ الافلاطونية الحديثة ، تدرب في مشغل او مرسم اندره فيروكيو ، هذا المرسم الذي كان كغيره من مراسم الرسامين الفلورنتيين ، في ذلك العصر ، ضرباً من معهد للصنائع والفنون ، تدرس فيه الرياضيات وعلم المناظر ، ونحت الحجارة وتقصيبها وصب البرونز وافرغه ، وفن التخطيط الهندسي ، وتحصين المدن وبناء الطرقات ، وحفر الترع والاقنية ، تلتقي فيها الوان من طوائف الفنانين . عاش ليوناردو ده فنشي ردهاً من الزمن ، في مدينة ميلانو حيث احتشد الى جانب لودوفيك لو مور ، عدد من المهندسين يتعاطون تشييد الحصون وبناء الترع . وقد رسم بيده عدداً كبيراً من هذه الآلات التي اقتضاها القيام بهذه الاعمال . وقد كَوّن هذا الفريق من رجال الفن ، على اختلاف مناصبهم ، صورة عن الكون ، تختلف كلياً عن الصورة التي وضعها له الكلاسيكيون او البدوانيون . فالواقع المتحيز القائم ، هو حقيقة رياضية . لا ليتكسب عن قراءة مبادئ هذه من لم يؤث روحاً رياضية .

فليس في العالم من معرفة موثوقة لعلم من العلوم الطبيعية ، ولا لهذه العلوم التي لا تعول

على الرياضيات»، و « ليس من بحث علمي يستحق ان يدعى علماً ان لم يقوم على تجربة رياضية » .
فالنسبة لا توجد فقط بين الاعداد والمقاييس ، بل ايضاً بين الاصوات والاوزان ، والارقات
والمواقع ، بشكل ما او على قدر ما ... فالعالم كله ، والحالة هذه ، يقوم على الحساب ،
ومبدؤه القياس والوزن ويمكن تعليقه وشرحه برده الى سلسلة من النسب الرياضية .

حاول ليوناردو ده فنشي تحطيم العالم الارسطاطاليسي فقد رفض رفضاً باتاً التسليم بالقول
ان الارض هي محور الكون « ... فالارض ليست نقطة الدائرة في نظامنا الشمسي كما انها
ليست في منتصف الكون . انها هي تقع بين هذه الاحجام المحيطة بها والمتحدة معها » . فقد
قال بمجانسة الاجرام السماوية مؤكداً ان القمر مشابه للارض وليس فرقاً الفرض منه اثاره
الأرض . وذهب الى اكثر من ذلك قائلاً : « لو قام في القمر من نظر الى الارض لوجد ان الأرض
تلمب الدور الذي يلعبه القمر بالنسبة لها ، فهي بدورها تضيئه وتثيره » . وقد يكون قال بان
الشمس هي محور الكون ، بعد ان شهد : « ان الشمس ثابتة » .

كذلك هدم ده فنشي نظرية الجواهر والنوع . فاسلوبه في التفكير ، اسلوب العلماء الذين
جاؤوا بعده ، امثال غاليليو ، في كل ما يتصل بالزمان والفراغ والكتلة والطاقة . فالثقل ، في
رأيه ، ليس جوهرأ بل هو نتيجة الحركة . كذلك رأى انه ليس من عناصر ثقيلة او خفيفة
بذاتها . فالوزن او الثقل والخفة ليسا جوهرأ ، ولا من صفات داخلة في صميم الجواهر ، بل مجرد
قوى عارضة ، سببها التصادف او دفع العناصر بعضها لبعض . فهي نتيجة ترابط وعلاقات .
هذا هو بعينه نظر العلم الحديث اليوم .

ففي الوقت الذي كان فيه ليوناردو ده فنشي يدون خواطره العلمية هذه ، كان طالب من
اصل بولوني او الماني يدعى نيقولا كوبرنيكوس يسجل اسمه ، عام ١٤٩٧ ، في جامعة بولونيا .
لينتقل منها بعد حين ، الى روما (١٥٠٠) ثم الى فرمارة (١٥٠٣) فالى بادوا (١٥٠٤) .
وقد عُرف عنه تبعمره بعلم الهيئة بحيث تعين مساعداً تقنياً لدومنيكو ماريا ده نوفارا
استاذ القانون اذ ذاك ، والطب وعلم الفلك . وقد درس كوبرنيكوس تحت ادارته وتوجيهاته
افلاطون وتضلع ، على الاخص ، من كتابه : طيماوس *Timaeus* حيث يتناول بالدرس الطبيعية في
مظاهرها المتنوعة . ففي الحوار الذي تدور عليه مادة الكتاب ، نرى افلاطون كما رأى الفلاسفة
الفيثاغوريون من قبل ، ان العلم هو عبارة عن اعداد ، كما ان الرياضيات في نظريتهم ، ليست
سوى صيغ هندسية . فالحساب ، وهذه المعادلات النسبية التي نعتبر عنها اليوم بطريقة جبرية ،
تمثلها الاغريق ، من قبل ، اشكالا هندسية . وهكذا فقد رأوا في علم الفلك ، فرعاً من فروع
الرياضيات اسوة بالميكانيكا وعلم البصريات . فالاعداد هي مقادير معينة من المدى او الفراغ . ومن
هنا اطلت الفكرة الفيثاغورية والافلاطونية التي قالت وعلمت ان العالم بأسره يتركب من اعداد
ومعادلات وهكذا توصلوا الى النزعة الذرية الهندسية .

نجم من هذا كله امور في غاية الاهمية . ان احسن برهان لاثبات صحة قضية ما ، في نظر

المهندس ، هو ما كان في غاية البساطة اي ما يمكن التعبير عنه باصغر عدد من المقدمات ، وباقل عدد من الكلمات . ان ابسط هذه الادلة هو اجمالها على الاطلاق . والحال ، فالمدى الهندسي هو ، في نظر الفيثاغوريين والافلاطونيين ، المدى الحقيقي وليس المدى المثالي او الذهني . وعلاوة على ذلك ، ان الاجسام تسقط على خط مستقيم كما ان الاشعة الضوئية ، تنتشر هي الاخرى ، بخط مستقيم . ولذا راح الفيثاغوريون والافلاطونيون يعتقدون ان الطبيعة اساسها مبدأ البساطة . كذلك نجد عند هؤلاء المفكرين جميعاً الاوليات التالية : « الطبيعة تتبع دوماً اقصر الطرق » ، « الطبيعة لا تأتي شيئاً عبثاً » . « الطبيعة لا حشو فيها ولا فاقل ، ولا هي بحاجة الى ما هو ضروري لها » . كل هذه الحقائق اثبتتها بحرفيتها الفلاسفة والعلماء الطبيعيون في ما علموا وكتبوا ، كما نجدوها عند اتباع الفيثاغورية الحديثة والافلاطونية الحديثة . فقد يكون نوفارا على علم بها ، كما ان كوبرنيكوس تشبّع منها ، ولا شك في ذلك .

قد يكون نوفارا لقّن كوبرنيكوس نظرية الكون الفلكي الذي يسوده ويتحكم به تناسق رياضي وانسجام كلي ، اذ ان تركيب العالم انما هو تركيب رياضي ، وبين تركيبين رياضيين اصحبها هو اجمالها . وعن طريق نوفارا ، وصل الى كوبرنيكوس تأثير نيقولا ده كوس الذي كان كردينال مدينة بركنس كما تأثر به ايضاً ليوناردو ده فنشي . ويرى نيقولا ده كوس ان نظرية الاعداد هي العنصر الاساسي لفلسفة افلاطون . فالكون كله انسجام متناسق لا نهاية له ، للكائنات فيه نسبها الرياضية . « فالمعرفة هي ابدأ مقاييس ، والعدد هو ، في خلد الخالق ، الصورة الاولى للكائنات » .

قد يكون كوبرنيكوس وضع خطوط نظريته العلمية ، منذ عام ١٥٠٦ ، كما يستدل على ذلك من مقدمة كتابه المعنون *De Revolutionibus* اي حول دوران الفلك ، وهي رسالة وجهها الى البابا بولس الثالث ، وقد تمهدا بالتعديل والتطوير بينا كان يعمل رئيس كهنة فرونبورغ . فرغ كوبرنيكوس من وضع كتابه « حول دوران الفلك » عام ١٥٣٣ ، وخلال هذه الفترة كان كوبرنيكوس قد وضع في التداول ، بين ايدي بعض الخاصة من اصدقائه ، كراساً صغيراً بعنوان « *Commentariolus* » بسط فيه الخطوط الكبرى لنظريته العلمية . وقد بلغ خبر هذا الكراس ، مسامع البابا ، منذ عام ١٥٣٢ ، بينا كتابه *De Revolutionibus orbium Caeles tium* « حول دوران الافلاك السماوية » ، لم يظهر مطبوعاً الا سنة ١٥٤٣ .

ويروي لنا كوبرنيكوس بالحرف الواحد ، قائلاً : « اخذت اشعر بشيء من الانزعاج كيف ان الفلاسفة درسوا ، حتى درجة الاتقان ، كل ما يتصل بادق مخلوقات ارضنا ، بينا نراهم لا يعرفون شيئاً يذكر عن الحركات التي يقوم بها جهاز هذا الكون الذي ابدعه اقدر المهندسين وامثلهم طراً » . والحال ان اجمل الامور واجدوها بمعرفتنا ، أليست حقاً ، هذه العلوم التي تتعلق بحركات هذا الكون الالهى ، وبحركات النجوم السابجة في القبة الزرقاء وما لها من مقاييس وابعاد وشروق وغروب ، والاسباب الخفية التي تقوم وراء الظواهر السماوية الاخرى

فترسم لنا عنها صورة كاملة . وهل اجمل من هذه السماء التي تحتوي اجمل ما في الكون ؟ وهذا ما تعلمه عالماً اسماء السماء والأرض ، اذ تعني هذه ، النقاء والزينة ، وتلك كمال الصورة . فعلم الفلك ، هو ، والحالة هذه طليعة فنون الفكر ، وهو اخلق العلوم طراً بالرجل الحر . فهو يكاد يكون موضوع كل انواع الرياضيات : كالحساب والهندسة والبصريات وعلم هيئة الارض ومساحتها ، والميكانيكا . وكما انه من خصائص العلوم النافعة ان تؤدي بالعقل البشري الى ما هو احسن وافضل وان تجنبه الشر والذيلة ، كذلك باستطاعة علم الهيئة ان يحقق اكثر من سواء ، كل هذا ، بالاضافة الى المتعة التي يوفرها للعقل من من الناس لعمرى ، اذا ما نظر بالفكر الى هذه الامور التي جاءت على خير نظام واحسن ترتيب ، وفقاً لما رسمته العناية الالهية ودبرته ، لا يرى نفسه ، بعد مراقبتها مراقبة مستمرة ، مجبوراً الى الخير ، وبعد الاتصال الطويل بها ، لا يستبح بحمد الله ، مصدر كل خير وكل سعادة ؟

ومع هذا فبطليموس الاسكندري ، صاحب النظرية الفلسفية المشهور ، لم يستطع التحليق الى هذا العلو ، والارتفاع بفكره الى هذا النظام الالهى . فبالرغم من هذه التعميدات القريبة التي تفضي اليها هذه الدوائر الثمانية التي رسمها الكوكب الدائر على نفسه بينا محور الدائرة يبقى دائراً حول الارض قطب العالم الثابت ، فهناك حركات ودوران كشف عنها العلم منذ وفاته ، لا تتفق والنظام الذي وضعه . ففي الوقت الذي ثبت فيه ان المسالم مستدير كهذه الاجرام السماوية التي تتحرك فيه ، وان هذا الشكل هو اكمل الاشكال طراً ، اذ انه حجم لا يحتاج الى وصلة ، وبما ان الارض ، هي ولا شك في ذلك ، على هذا الشكل ، كما يظهر من وضع السفينة الآخذة بالابتعاد عن الارض ، فيرى الناظر اليها كيف انها تتوارى شيئاً فشيئاً الى ان تختفي تماماً ، كأنها غابت في اليم ، بينا « حركة الاجرام السماوية هي حركة دائرية محورية ، اذ ان من خاصية الحركة التي ترسمها الكواكب المستديرة هي ان تدور على نفسها . » و « بهذه الحركة بالذات ، وبينما هي تتحرك على نفسها بشكل سوي ، ترسم الشكل الذي لها ، شكل ابسط الاجسام ، حيث لا بداية ولا نهاية » مع ان هنالك على ما يبدو ، حركات تخالف ظاهراً هذه الحقائق ، لم يتوصل العلم بعد الى تحليلها وتفسيرها كما يجب . « وبالفعل ، فالشمس والقمر يبدو عليهما انها يدوران دائرة ببطء اكبر ، وطوراً بسرعة اكبر . اما الكواكب السيارة الخمسة الاخرى ، فيبدو لنا منها في حركتها وكأنها تعود القهري ، وتبر بفترة لوقف بين دورتين ، هل هنالك ، لعمرى اي زرع او عدم انتظام من اي شكل في قدرتها على الحركة ، او اي تغيير ما في الكوكب المتحرك على نفسه ؟ » فالعقل يتراجع مرتعداً امام هول هذين الفرضين ، لانه « ليس من اللائق قط ان نذهب بالظن الى شيء من هذا في هذه الاجرام السماوية التي جاء تكوينها على احسن ما يكون من نظام وترتيب » .

« ولذا كان لا بد ان نفترض » بان حركاتها المتساوية تبدو لنا وكأنها غير متساوية « لان الارض ليست محور هذه الدوائر التي رسمها الكواكب في دورانها . » وهكذا ، فالكواكب

تبدو لنا احيانا على مسافة قريبة من الارض، وطورا على مسافة بعيدة ، وتظهر لنا حركاتها هذه على هذا الشكل عندما تكون قريبة جداً منا اكثر منها بعيدة . فالحركات المتعادلة التي رسمها هذه الاجرام السماوية ، تظهر اذا ما نظرنا اليها من ابعاد مختلفة ، وكأنها حركات غير متساوية في اوقاتها .

ليس ما يؤكد قط ، بعد هذا ، ان الارض هي ثابتة في وسط هذا الكون، وذلك « لأن كل حركة محلية ظاهرة تنجم اما عن حركة الجسم ، موضوع الرؤية ، واما عن الحركة التي يخضع لها الرائي او المشاهد او عن حركة متفاوتة لدى الطرفين » .

و « الحال ، ان هذه الحركة المحورية او الدائرية تبدو لنا رؤيتها وتتمثل على احسن وجه ، اذا ما نظرنا اليها من الارض ؛ فاذا كان للارض شيء من هذه ، بدت الحركة في الاجرام الواقعة خارج الارض فتفسير هي وراءها بالسرعة ذاتها ، انما باتجاه معاكس ؛ وهذه هي في الدرجة الاولى حركة الارض اليومية . وهذه الحركة تبدو وكأنها تخرج معها الدنيا بكاملها ، باستثناء الارض والاجرام الواقعة على مقربة منها . والحال فلو سلمنا جدلاً ان الفلك ليس على شيء من هذه الحركة على الاطلاق، وان حركة الارض تتم من الغرب الى الشرق، واذا ما دققنا النظر ملياً في ما ينتج عن ذلك بالنسبة لما يبدو لنا من شروق الشمس ومغيبها، والقمر والكواكب الاخرى ، نجد ان الامور هي على مثل هذا الوضع » . وهذا هو بالذات ما ذهب اليه بالفعل ، من قبل ، الفيشاغوريون ، امثال : هيراقليديس واكفانتوس ونيكاوس السيراغوزي .

كذلك، « اذا ما راح احدهم ينفي ان تكون الارض تحتل مركز الدائرة في هذا الكون ... وراح يعتقد من جهة اخرى، ان حركات الكواكب تبدو وكأنها غير سوية، مع انها منتظمة غاية الانتظام بالنسبة الى محور آخر غير محور الأرض، امكنه ، والحالة هذه ، ان بآئينا بتفسير لما يرى من عدم انتظام وعدم استواء هذه الحركة ، لا يكون غير معقول ». هذا هو رأي الفيلسوف الفيشاغوري فيلولوس الذي قال بان للارض حركة رحوية لانها تدور على نفسها ، وهي بالتالي كوكب من هذه الكواكب

والحال ، فكل هذه الشواذات التي تبدو لنا في حركات النجوم يمكن تحليلها وتفسيرها بشكل اقرب الى الطبيعة تبدو معها الاشياء اكثر وضوحاً وانتظاماً وانسجاماً، اذا ما سلمنا بان الشمس هي الثابتة في وسط هذا الكون الشاسع الذي يحده ، مع ذلك ، انما على ابعاد لا تقاس ، حجوم نجوم ثابتة تتسع لكل شيء كما تتسع لنفسها، وان ابتداء من هذه الكرة الارضية هنالك اجرام تدور حول الشمس هي الكواكب السيارة، وترسم الاولى من هذه السيارات ، وهي زحل، دورة حول الشمس تتم في ٣٠ سنة ويبله المشتري الذي يتم دورته في ١٢ سنة ، ثم المريخ في سنتين، وتأتي في المرتبة الرابعة من هذه السلسلة، الدورة السنوية التي تقع ضمنها الارض والشمس. وتأتي في المرتبة الخامسة

الزهرة التي تكمل دورتها في ٩ اشهر . والمرتبة السادسة هي لمطارد الذي يتم دورته في ٨٠ يوماً . وفي وسط كل هذه الكواكب تقوم الشمس . وبالفعل ، في هذا الهيكل البديع ، من يمكن ان يقيم او ان يركز هذا الفرق في محصل آخر اجل من هذا الموضع الذي يمكن ان يشع بانواره الى كل مكان ويستضيء الجميع بنوره ؟ وهذه الشمس ، وكأنها ترتكز الى العرش الملوكي ، هي التي تتحكم بهذه الاسرة من الكواكب المحيطة بها ... ونجد في هذا النظام البديع ، هذا الانسجام الذي تبيناه في الكون كنتيجة لهذه النسبة القائمة بين الحركة ، وحجم الكوكب ، وهي نسبة لا يمكن ان نجدها على مثل هذا النحو ، في مكان آخر... فليس اكمل واتم لمعري ، من هذا العمل الالهي الذي خرج من يد المهندس الاكبر ، احلق المهندسين طراً ، وابرعهم .

بهذه الصورة الجمالية التي رسمها كوبرنيكوس بعد ان قال بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، وجد نفسه مخالفاً للشعور العام ، ومتعارضاً مع حرفية التوراة ومسح النظرية الجامعية التي احتضنتها الكنيسة . فبنائه هذا يرسم صورة علمية جديدة للعالم ، ويستبدل ، اينما استطاع ذلك ، صورة الجوهر بالصورة الهندسية . فالصورة الجوهر هو المبدأ او الاسل الذي يجعل من الماء ماءً ، والماء الصافي سلسيلاً ، وليس مجرد التقاء ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الاوكسجين . فقد علمت ارسطو ان لكل كائن « صورة جوهر » ، مبدءاً ، حيث توجد روح . فالماء له شكل جوهري يعطيه سمته المفردة . كذلك لكل من الكواكب صورته الجوهر ، هذا المبدأ الروحي الذي يجعل من الكائن ، ماهو عليه ، ويعطي كل فرد الحركة التي تحركه . والحال ، نرى كوبرنيكوس يحدثنا ، في كل لحظة ، عن « صورة » ولكن ، حيث كان تلاميذ ارسطو واتباعه يقصدون « الصورة الجوهر » كان هو يقصد دوماً ، بهذا التعبير ، « الصورة الهندسية » . فلم تعد عنده ، طبيعة الكواكب النوعية ، ولا ما لها من مادة وهيولى ، هي التي تجعلها موضوعاً قابلاً للحركة وتوليها هذا الشكل الكروي . فالكواكب هي كرات ، وهذه الصيغة او الشكل هي اكمل الاشكال وانما ، وهي التي تجعل الكواكب قابلة لتقبل الحركة ، اي الحركة الدائرية او المحورية . ففي الصورة التي وضعها كوبرنيكوس لنواميس الكون العامة ، نرى الكواكب تتحرك وتدور على نفسها بكل بساطة ، بفضل ما لها من شكل هندسي ، وليس بفضل ما هي عليه طبيعتها . فالاجرام السماوية هي على مثل هذا الوضع : فهي تدور وتتحرك فقط لانها كروية الشكل . كل شي يتحرك من نفسه بسبب ما له من شكل هندسي . فتفهم العالم اساسه القياس والعدد .

ولكن اذا كانت الامور كما رصفنا وقدمننا ، فلا حاجة بعد هذا ، « للمحرك الثابت » ، الذي يفرض ارسطو وجوده ، وبالتالي لله الذي يولي « الدفع » الاساسي ، هذا الدفع الذي ظن به فلاسفة جامعة باريس . فلا لزوم ، بعد هذا « لعقول الاجرام السماوية » ، وبذلك تفقد الارض الى الابد ، ما ميزها به عقل الانسان بجائناً ، من خصائص ، ولم يعُد لها ، بعد هذا ، من كيان ذاتي ، مستقل ، ينتصب في وجه الاجرام السماوية ، كعالم قائم لذاته ، فلها ما للكواكب الاخرى من حركة رمحية ، وتخضع مثلها للقوانين ذاتها ، فهي تواف مع الكون كلاً متجانساً . فالارض لم

تمد محاور الكون ونقطة الثقل فيه ، وهذا الكون لم يعد يتحرك لها ومن اجلها . وهكذا حطمت كوبرنيكوس هذا الكون الارسطاطاليسي الذي كان يوماً ما السر المطلق كما تبدى من خلال التوراة . فبهذه الصورة الرياضية التي رسمها للكون وطلع بها على العالم ، قلب بها ظهر المجن ، لهذه التراكييب الكوسموغرافية القديمة وضرب بها عرض الحائط ، وبذلك مهد السبيل لظهور كبار علماء الفلك في العصر الحديث ، امثال : كبلر وغاليليو ونيوتن ولا بلاس ، فاطل علينا المفهوم الجديد للرياضيات . فالكون لم يعد سوى مجال هندسي فسيح الارجاء والرياضيات مفتاحه . والشيء الوحيد الذي بقي على الانسان الكشف عنه والظفر به هو ان يتوصل الى ما « للوظيفة » من مفهوم ، فيصل منها الى نواميس الحركة .

اخضع الفلاسفة المدرسيون السياسة ، لاحكام الدين ، فسموا السياسة ومفهومها الجديد : مكيا فيلي جاهادين ، للوصول الى نظام سياسي حر عن طريق عالم مسيحي ، واشتراح خير القوانين الزمنية لتأمين رقي الفرد وضمن تقدمه الروحي في مدينة الله هذه ، خاضعة لنا موسى الانجيل ولتقتضيات اخلاقياته . اما الفلاسفة « الانسانيون » في ايطاليا ، خلال القرن الخامس عشر ، فقد جعلوا السياسة في خدمة اخلاقية تعمل لحير الانسان وتنهض بالمثل التي يتشوق اليها . فقد راحوا يبحثون عن خير الوسائل التي تمكنهم من اقامة مدينة مثالية كما تمثلها فلسفة ذلك العصر ، قوامها العدل والمساواة ، واحترام القيم الانسانية ؛ فتفتح امام الفرد مجال الارتقاء والتطور . وراح مكيا فيلي « هذا الفيزيائي الضال الذي طلع به التاريخ » يشيد السياسة على تقييم الروابط التي تشد ، بعضاً الى بعض ، القوى المادية والادبية ، والقدرة على التحكم بهذه القوى وتوجيهها ، وصولاً للسيطرة وبسط النفوذ . وهكذا اصبحت السياسة علماً ايجابياً يقوم على المادية التاريخية غير الاقتصادية .

وهذا التطور يطرأ على التفكير ، نحن مدينون به لرجل أوتي القدرة على « الجمع والتوفيق بين حاضر عامر بالتجربة الحية وبين ما تم له من ثقافة معرفة من خلال مطالعته وقرائاته المتصلة » . فقد عمل مدة طويلة سكرتيراً لدائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية الفلورنتينية التي من اختصاصها الاشراف على الشؤون الادارية للموظفين والحكام المتمرسين بالوظائف العامة ، في هذه المدن الخاضعة للجمهورية منذ عام ١٥٠٨ ، كما قولى ، في هذه السنة بالذات ، سكرتيرة لجنة « حراس الحرية والسلام العشرة » المعنية بتنظيم شؤون الدفاع عن الحرية والاشراف على سفراها وممثليها . كذلك عمل في الوقت ذاته ، منذ عام ١٥٠٠ ، سكرتيراً « للجنة الميليشيا التي تتألف من تسعة اعضاء » كما كان ، منذ عام ١٥٠٢ ، المستشار الخاص للحاكم الاول *Gonfalonnier* الذي كان يتولى سلطات رئاسة الجمهورية . جمع مكيا فيلي في شخصه هذه الوظائف المهمة حتى سقوط الجمهورية ، عام ١٥١٢ ، ورجوع آل مديتشي الى حكم المدينة من جديد .

فبعد ان جرت تنحيته عن هذه الوظائف الرئيسية التي كان يضطلع بها ، وفرضت عليه

الاقامة الجبرية في قرية صغيرة تدعى سان كسيانو، انصرف للدرس والتأمل والمطالعة . فقرأ تاريخ تيت ليف وآثار شيشرون التي تبحث في السياسة ، وكتاب السياسة لارسطو ، وكتاب التاريخ لبوليبي . وفي عزلة هذه اخذ يهيئ لكتابه المشهور : « الامير » الذي انتهى من وضعه عام ١٥١٣ كما انتهى من وضع بحث آخر بعنوان : « خطبة حول المرحلة الاولى من مراحل حياة تيت ليف » . وهدف بوصفه من كبار النافعين في الروح الوطنية في ايطاليا ، الى إنشاء دولة تمثل الشعب الايطالي برمته وتكلم باسمه وتتولى عنه شؤون الدفاع ومعالجة الشقاء الذي يتسكع فيه .

وأخذ يطيل النظر ملياً في التاريخ كما وصل اليه عبر المؤرخين . « فاذا ما راح الناس يسرون مع التيار عندما تتعلق الامور بادارة الدول ونظام الحكم فيها ، او عندما ينظر في امر تعبئة الجيوش وقضايا الدفاع ، فذلك لانهم لا يفقهون للتاريخ معنى ولا معرفة لهم باصوله كما يجهلون تماماً اتخاذ العبر منه وتذوق طعم ما يقدم لهم من عظات باللغة (خطبة - جزء ١ ، المقدمة) . ويأخذ مكيفاً في باستعراض الاسس التي تبنى عليها الدول والدساتير التي تنهض عليها الممالك وتتطور وتبلغ اشدها الى ان يعثرها الهرم والوهن فتحاول التخلص من الضعف الذي ينخر جسمها فيفت من عضدها فتموت وتزول . واعتمد في دراسته هذه على التاريخ المقارن فأخذ يعارض ، بعضاً ببعض ، النظم السياسية التي توالى عبر التاريخ على مر السنين وحكر الديمور ، كالجهورية الرومانية والجمهوريات الاغريقية ، والمدن - الدول الايطالية التي قامت في عهده وغيرها من الدول الكبرى التي تقع منه في مآتى العين . وفي هذا السبيل استخدم اسلوب الاستقراء التجريبي ، فعارض النتائج التي يقدمها له التاريخ القديم بالمعبر التي يتخذها من المصور الحديثة ، وذلك على ضوء تجربته في الحكم واضطلاعه بامور السياسة . فهو يولي السياسة جل اهتمامه ، هذه السياسة التي تتحكم بكل شيء وتضمن على كل شيء ، ويطرح جانبا ، كل ما يتعلق بالناحية الاقتصادية والاجتماعية . ولما كان جمهورياً في الصميم ، فقد مر مرور الكرام بتجربة الامبراطورية الرومانية وبامبريالة البندقية الاستعمارية .

ولما كان قد وقع تحت تأثير جامعة بادوا واستلهم الكثير من نظرياتها التقدمية ، فقد رأى المهتمات البشرية تخضع في الصميم ، لناموس التاريخ يمد نفسه . فالهتومات البشرية تتبع خطاً سوياً في تطورها الصاعد وتكاملها المطرد . فالناس يعيشون في اول امرهم ، متفرقين ، في عزلة بعضهم عن بعض . ثم يأخذون دفاعاً عن انفسهم ضد الاعداء الذين يترسسون لهم الشر ، ودرءاً منهم للمخاطر والابوثة التي تهددهم الطبيعة بها ، وهي كثر ، يلون شعشهم كشلاً . متراسدة ، ويجمعون شملهم صفاً واحداً . واذ ذاك ، تطل عليهم مشكلة القيادة ، فيختارون من بينهم من يتولى زعامتهم وتوجيههم : اناساً اشداء عرفوا بالشجاعة والأقدام . وبعد ان يطلع عليهم مجتمع متكون ، يراد الاذهان منهم والخواطر قضايا العدل والظلم ، وما يتصل بهذه الاشياء من اخلاقيات وادبيات ؟ فيصدرون شرائعهم وقوانينهم لتنظيم امورهم الحياتية . وفي سبيل العمل

بهذه القوانين وتطبيقها بعدل، يختارون لهم جماعة اتصف اصحابها بمحاصرة الرأي والحجى وحسن التدبير . وبدلاً من رجال حرب ، يختارون لهم ملكاً يشرع لهم نظاماً ملكياً ، شورى . وما تكاد تمر بضع عقود حتى يشتط الملك فتأخذه الرغبة باستدامة الحكم في ذريته ، فيخرج على الشورى ويحيل نظام الملك نظاماً وراثياً يعمل بدء ذي بدء ، في سبيل خير المجموع . وبعد لأي من الزمن يتوالى على الحكم فيه بضعة اجيال يأخذ الملك بالتفكير بمصلحه الخاصة ويمضي في استغلال الرعية على ابشع وجه ، ويصبح فيها طاغية جباراً يسيما الواناً من الضغط البغيض في سبيل ابتزاز اموال الناس . واذا ذلك يشمر زعماء الاسر الكبيرة في البلاد عن مساعد الجدد وقد التفت الشعب حولهم ، فيعلنون الثورة ويعتنقون معها النظام الديمقراطي ، فيسير هذا النظام في بدء امره ، ونصب عينيه المصلحة العامة ، الا انه لا يلبث حتى يدب اليه الفساد باسرع مما دب في النظم السياسية الاخرى التي تعاقبت على الدولة ، من قبل ، فيستحيل الى نظام ديمقراطي بغيض يضرب بحقوق الخاصة عرض الحائط . ويسخر الحكام في سبيل اشباع شهوته في الحكم ، ويمرض عن المصلحة العامة مؤثراً عليها مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية المباشرة لا يبالى بالمستقبل ولا يلوي على مصير . واذا ذلك ، تطل على الحكم شوب الدم الحار ينبض قوياً في عروقها ، فلا تلبث ان تستأثر بالامر ، بعد ان تكون طهرت الارض بقوة السلاح ، من هذه الاشباح الخفيفة التي روعت الشعب واقلقت راحته . ولعل الوسيلة الوحيدة لايقاف الانحدار فالانهيار المحتوم او اقله لتأخير ساعته ، هي في قيام رجل له من العبقرية الادارية والمقدرة ما يستطيع معه وضع حد للانزلاق القتال وذلك بانشائه في البلاد نظاماً يشترك فيه دعاة الملكية وممثلو الارستوقراطية ولواب عن الشعب . والسبيل الوحيد لرد المقدور والحؤول دون غزو اجنبي للبلاد يأكل فيها الاخضر واليابس ، هو قيام رجل مبدع ، خلاق ، يعيد نظام الملكية الى البلاد ، من جديد . وهكذا دواليك .

في هذه الدورة لنظم الحكم في الدول يستمرض لها مكيافلي ، لا بد من الوقوف لدى وضعين متميزين ، مختلفين هما : حكومة شرعية ، وحكومة قائمة فعلاً بقوة السلاح . فالحكومة الشرعية ، هي التي تقوم على تراخي او تعاقد ضمني بين الحكام والمحكومين . يترتب على هذا النوع من نظم الحكم ، كما هي الحال في النظام الملكي الفرنسي ، ان يترك للملك ، حق استخدام القوة ، العسكرية والاعتماد على بيت المال في توطيد اسباب الأمن في البلاد . ويجب ان تُسن كما هي الحال في فرنسا ، مثلاً ، قوانين تجعل الملكية الشخصية والحرية الفردية بحمي القانون . كذلك يجب ان تقوم هيئة تشريعية ، كمجلس ممثلي البلاد في باريس ، يسهر على احترام تطبيق مضمون هذا العقد بروحه . ويترب على دين الدولة الرسمي ان يَكِل الى من يعهد اليهم القيام بالخدمة الروحية من الكهنة وخدام الهيكل ، العمل لدى المواطنين لمعلمهم على القيام بواجباتهم المدنية خير قيام حتى ولو طلب اليهم بذل دمائهم في سبيل الوطن . وهذه الحقوق السياسية المعترف بها لبعض الهيئات المنتخبة ، يجب ان تكون ممن نصيب فريق من الفرياء البورجوازية

ولا سيما التجار بينهم ، بحيث ، يحال دون الافراء غير المشروع من قبل البعض فيصبحون بما لهم . نفوذ ، خطراً على النظام . كذلك يتوجب ان تقوم هيئة تتمتع بصلاحيات خاصة 'بمعد اليها النظر في الجرائم التي تهدف للمس من الدستور . فاذا ما استهدفت الدولة خطر الوقوع في قبضة احزاب يهملها حل احد انصارها الى الحكم ، كان لا بد لها اذ ذاك من قيام دكتاتور يضطلع بمهمة اصلاح الدولة وفقاً لروح دستور البلاد والقوانين المعمول بها ، فيحدد بصورة واضحة ، طبيعة الدولة ، ويهيئ لها الظروف المؤاتية للعيش السليم الكريم . اما اذا اشتدت المنازعات وتعاظم شأن الفوضى واضطرب حبل الامن في الداخل ، ترتب على الهيئات المنتخبة ان تعيد الى البلاد نظام الملكية ، القادر وحده ان يفرض احترام الحريات العامة ويصون حرمة القانون .

اما انظمة الحكم التي قامت على اغتصاب السلطة قسراً وعنوة ، فعلى الملك الا يتورع قط من رد الامور الى نصابها ، مهما كلفه الامر من تضحيات عزيزة ، ومهما اقتضاه من ثمن غالٍ ، والا اضطر فيما بعد لمواجهة ما هو ادهى من ذلك . عليه مع هذا ان يحترم حقوق الملكية الفردية وان يحافظ على ما للمرأة من حرمة بين المواطنين . « فالتناسي موت آباءهم واعزازهم ولا يتناسون ضياع املاكهم الموروثة » . من الضروري اصطناع الفضيلة والاعتصام بالكر . ثم ، بعد هذا كله ، هل من غضاضة قط ان يعتصم المرء ، عند الاقتضاء ، بالكذب والافتراء والخداع والحنث بالقسم المخلفة ، والتجاوز عن الوعد المقطوع ؟ فالغاية وحدها تبرر الوسطة ، ومنفعة الدولة يجب ان تأتي فوق كل شيء وقبل كل شيء . ومن هنا اخذ الفلاسفة النظريون الذين فلسفوا وضع المجتمع ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فكرة مصلحة الدولة العليا . ومع ذلك ، فعلى الامير ان يعمل بما فيه خير المصلحة العامة ، والا كان طاغية ووجب التخلص منه ولو بالقتل والاغتيال . وهنا اخذ مكيا في يفضل قضية الاغتيال السياسي ويزكئها .

فالعلاقات بين الدول ، سواء اكانت شرعية او حكومات بالقوة وعلى العنف ، سداها المنافسة ولحمها الحرب . فالحرب وضع طبيعي في المجتمع ، جد نافعة ، اذ تقضي في النهاية ، الى اختيار الافضل بين الدول ، تلك الدولة التي تقوم فيها خير النظم السياسية ، فتعمر طويلاً ، وتكتسب لها الغلبة والسيطرة . فالغرض من المجتمعات البشرية هو تأمين ما يُفضي بها الى تحقيق القوة ، اداة الفتح المثلى ، والوسيلة الكبرى للتوسع ، وهي هذه الاهداف بالذات التي يترتب على السياسي ان يضعها دوماً نصب عينيه . فعلى الدولة ان تتصرف بسرعة في حروبها مع الخارج ، وان تعتمد سياسة الهجوم الراجع ، وان تتنكب عن الجهاد . يجب ان تتوفر لها مجموعة من القوانين الرشيدة ، اذ ان السلام ، في الداخل ، هو شرط لا بد منه لاعداد وقائمين جيوش قوية . عليها ان تربي في المواطنين ، بطريقة منهجية ، الفضائل الحربية . فعلى رئيس الدولة ان يكون ، دوماً القائد الاعلى للجيش . على الدولة التي تخوض الحرب ان تتنكر لكل عاطفة انسانية ، وان تضرب بعرض الحائط ، الشعور بالرفق والرحمة ، فتحاول جهدها القضاء

على قوى العدو ، بكل الوسائل الممكنة لديها . ان توازن القوى منصوص عنه في المعهود والمواثيق المعقودة . وعلى رؤساء الدول الا يتورعوا قط ، والا يترددوا ابداً ، بتجاهل الوعد المقطوع ، وان يلحسوا تواقيعهم اذا ما اقتضتهم مصلحة دولهم ذلك .

وهذه السياسة التي جعل منها مكيا في علماً باصول ، تعرضت للنقد والتجريح ، ولو عمل بها وتبنى الاخذ بها كثيرون وعملوا بمقتضياتها . فالاسماء والحوادث لا تقوت احداً لكثرتها وفرتها . وقد جاءت هذه السياسة الجديدة تكمل الذهنية او العقلية الجديدة ، وهذه التيارات الفكرية التي جالت في خواطر الناس ، وهذه الصورة الجديدة التي برزت لهم عن هذا الكون ، وتبلورت ، على أتمها في مظاهر العقل البشري على اختلاف مناحيها ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لتنتقل ، في خطوطها الكبرى ، الى اوروبا فتنتشر في جميع ارجائها وتسيطر عليها فترة لا تقل عن ثلاثة قرون . وقد تم وضع هذه النظم في القوالب التي استقرت عليها ، على يد الايطالين ، قبل غيرهم ، بعد ان عولوا على التليد من تراث التاريخ القديم . فليس من الحماقة ، وليس من الجهالة بشيء ، بعد هذا ، ان نسمي هذا كله النهضة او عصر الانبعاث .

الارواح الاجتماعية نرى أنفسنا مسوقين بصورة لا تقاوم ، للخوض بحثاً في الاسباب والمجاري الفكرية الجديدة التي ادت الى ظهور مثل هذه التيارات الفكرية الجديدة . ليس بالمقصود هنا النظر في الحوافز ولا التحري عن الاسباب والدوافع التي أدت الى خلق مثل هذه الازواضع . ما من ظاهرة تستطيع ان تكون سبباً لظاهرة اخرى الا اذا سبقتها وقيمت قبلها ، وكان لها من التغيير والتبديل ما يتفق تماماً وطبيعة التطور الذي أحدثته الظاهرة الثانية ، فجاء تأثيرها واحداً وتم في الخط ذاته . قلنا عثرفا خلال دراستنا للمجتمعات البشرية على حدوث مثل هذا الامر بحيث نستطيع التحدث بمعرفة وتفهم عن اسبابه . فالبعض المزعوم عن الاسباب في التاريخ ليس ، في الغالب ، سوى عملية ابدال الاحكام والتصديقات الفلسفية ، كالحكم المثالي الذي يقول بان كل التبدلات انما تصدر عن العقل الانساني الذي يتبدل ويتلون فجأة مع الوقت ، وكالحكم المادي الذي يقرر ، بعكس الاول ، ان وسائل الانتاج والصراع الطبقي كان عبر التاريخ المحرك الاول ، والدافع الاكبر . يبقى ان كل هذه الآراء هي احكام عقلية ليس الا .

ولكي نحدد المؤثرات في ايطاليا النهضة ، يجب ان نطبق على الاقتصاد والمجتمعات البشرية والنظم السياسية ، شيئاً شبيهاً بما تم في بعض حقب القرنين الرابع عشر والخامس عشر في الفنون والفلسفة والمعلوم ، هذه المقارنة المنهجية ذاتها ، بشأن هذه الانشاءات والموضوعات التي وقعت خلال العقود ١٤٨٠ - ١٤٩٠ - ١٥٣٠ - ١٥٤٠ . وقد قادتنا هذه العملية الى التأكيد بان عالماً جديداً ظهر في دنيا الافكار والحساسية . وهل يمكن التأكيد ايضاً بأنه أطل كذلك عالم جديد في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ؟ نرى معظم المؤرخين الايطالين لا يسلمون فعلاً بهذا القول . فالذين ركزوا منهم اهتمامهم على الجانب الاقتصادي يتكبرون ظهور اي طابع أصيل او اي

تجدد من هذا القبيل ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، اذ نراهم يعلنون انهم لم يعثروا خلال التقصيات التي قاموا بها ، على اي طابع او اسلوب جديد . فها هو النظام الاقتصادي نفسه يستمر على وتيرة واحدة ، مع بعض فوارق كمية لا يؤبه بها . وعلى هذا يجب ان نقيس ايضا السياسة . فالمؤرخون الايطاليون يشمون في فترة واحدة كل هذه الامارات (*signorie*) التي طلعت بين ١٣١٣ او ١٣٤٣ الى ١٥١٦ وحتى الى ١٥٥٩ . وبما انهم تبينوا صفات جديدة واضحة بدت على الفن والعلم ، والصورة الجديدة التي رسموها للعالم ، وجب ان نستنتج ان هنالك فراغاً شاغراً بين هذه النشاطات على اختلاف الوانها والنشاطات الاخرى التي معنا اليها . هذا شيء له اهميته الخاصة ، اذ ان المؤرخين يعملون على اساس شيء مسكّن به وهو ان النشاطات البشرية المختلفة تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل معاً بحيث تؤثر الواحدة بالآخرى . فنحن نسمع كل هذا امام حدس اولي مسلم به ، تؤيده بعض الوقائع كما تدحضه وتنفيه وقائع اخرى ، من جهة ثانية . قد يكون وقع شيء من الانقطاع وعدم الاستمرار بين المجتمعات البشرية ، الا انه يتعذر ، مع ذلك ، اصدار حكم نهائي حتى في ما يتعلق بايطاليا نفسها ، في مطلع القرن السادس عشر ، اذ ان عملية المقارنة المنهجية هذه بين الاقتصاديات والمجتمع ، والنظم السياسية التي سادت آنذاك ، وبين ما تم منها في الماضي وما طلع منها في المصور التالية ، لم تستكمل عملياتها كل اطرافها .

فكل ما يمكن عمله الآن هو ان نكتفي بتسجيل الوقائع التي يصح اعتبارها ، بصورة معقولة ، ظاهرات رافقت هذا التبدل الحاصل في العقلية واساليب التفكير ، وان نتبين فيما اذا كانت هذه المفارقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشاهدها بين الممالك والامارات الايطالية ، لا تتم عن تبان وفوارق في مناحي التفكير ، تنبئ بوجودها ، هذه الانجازات التي تمت وظهرت في مجالات الفن والادب والعلم .

ففي مطلع القرن السادس عشر ، نرى روما تحول محل فلورنسا وتأخذ منها مركز الصدارة في حركة النهضة ، فتصبح محور البعث الفني والدوقي في البلاد . فالعن الروماني والانسان الروماني اصبحا الناذج التي يحتذى حذوها في ايطاليا بأسرها ، كما ان ايطاليا اصبحت بدورها الفرار الذي سارت عليه اوروبا . ومنذ ذلك الحين تصبح روما قبلة الفنانين ، وملتهم الادباء الايطاليين فيغد عليها رفائيل من مدينة اوربين ، وبمبيو من البندقية ، وكستفليوني من اوربين ايضاً ، وميكالو انجلو من فلورنسا ، بحيث نكاد لا نرى بينهم فنانين وادباء طلعوا من اوروبا نفسها . فما هو سبب توافدهم على مثل هذا النموا ترى ؟ لا شك ان الثورات المتكررة التي تضرست بها فلورنسا أدت الى اضعافها وايهاها . اما السبب الاول ، فهو ولا مرأه بذلك ، التطور العظيم الذي شهدته الدولة البابوية في عهد آل بورجيا ، مع البابا جول الثاني . من هذه الدولة الحضرية ومن عاصمتها روما ، التي احاط بها من كل صوب ، امرأه مشاغبون وبلديات تسودها الفوضى ، اراد البابوات ، ولاسيما البابا جول الثاني منهم ، ان ينشئوا منها دولة اقليمية

موحدة ، مطلقة الحكم ، عصرية الطابع . وفي هذا السبيل ، قضى البابا جول الثاني صدرأ كبيراً من حبريته يؤدب ، داعياً إياهم للطاعة والولاء ، البارونات الرومانيين ، كما سعى لاستعادة ما اقتزعه من الممتلكات الخاضعة للدولة البابوية ، سكان البندقية وميلانو وغيرهم من الأمراء المحليين . وفي هذا السبيل ، بذل البابا جول الثاني نشاطاً جماً لجعل إيطاليا برمتها وحدة متراسة ضد الاجنبي المحتل المفتصب لخيراتها . وليجمع الايطاليين صفاً واحداً ويوجههم متحدنين ضد البرابرة . فشل مسعاه بالطبع ولم ينجح الا باخراج الفرنسيين وتوطيد نفوذ الاسبان ، على كره منه . وهذه الجهود الكبيرة والمحاولة الجريئة ببذلها جول الثاني لاعطاء البابوية دوراً وطنياً شاملاً وامبريالياً ، انما كانت صورة ناطقة لنشاط عارم وبذل مضمّن ، ببذلها البابا جول رغبة منه في ان يُظهر مظهر السوبرمان ، او بطلاً وطنياً . جاشت نفسه بالعظمة قراح يسعى ما وسعته الخيلة لتحقيق الفكرة التي راودت خياله يجعل البابوية الرومانية تبرز روما القديمة ، روما القيصرية ، بما تم لها من عظمة وسؤدد ومهابة يضيفها عليها السيد المسيح واثبه على الارض . فهذا الجهد ، وهذا البذل ، وهذا التعطش للعظمة البشرية ، هو من بعض ما جاشت به الافلاطونية الحديثة ، التي ميزت هذه النهضة الانسانية الشاملة .

ضرب جول الثاني بتصرفه هذا تقليداً ذهب بعيداً في التقاليد الايطالية . انتقل الى هويّة الآداب والفنون البابا ليون العاشر الذي عرف ، بالمعاهدة التي عقدها عام ١٥١٦ ، ان يبعث نشاطات الملكية البابوية في الكنيسة ، كما نزعته نفسه الى إقامة الحكم الالهي او حكومة ظل الله .

وفي هذا السبيل ، استطاع البابا ان يستخدم كل ما في الدولة البابوية من طاقات وقدرات ، هذه الدولة التي تألفت قبل كل شيء من البلاط الذي يضم نحواً من ٧٠٠ شخص ، يؤمنون قسحت سلطة البابا الشخصية ، المطلقة ، الخدمات العامة ومسؤوليات الحكم ، بما لها من منظمات وهيئات . فالى جانب اولاد اشقائه واعضاء أسرته ، وكتبة سره والموظفين ، هنالك طفمة من رجال الدين ، والاشراف والفنانين والصناع ، دوماً على استعداد كلي لتنفيذ ما يعهد اليهم من مهام وخدمات وتعليمات . أوليست روما جنة غناء تفيض نعمى وفراء ، يقصدها العديد من الاغراب النوابغ ، طلباً للعيش الرغيد والثراء السريع ، يتعرقون شوقاً لشرف العمل في البلاط البابوي ، او تصيّد لامتيازات واعفاءات كنسية في اي صقع من اصقاع الارض ؟ والعيش في هذا البلاط عيد دائم . والى هذا ، فلكل كردينال من كرادلة الكنيسة هو الآخر بطانته وحاشيته التي تتألف من عدد كبير من النبلاء والاخصاء والادباء والفنانين . فقد تألفت بطانة الكردينال فارنيز ، حوالي عام ١٥٢٦ - ١٥٢٧ من ٣٠٥ اشخاص ، وحاشية الكردينال سيزاريني من ٢٧٥ شخصاً ، والكردينال اورسيني من ٢٠٠ شخص . كذلك لكل من هؤلاء البارونات والاشراف الذين يرأسون مصالح الدولة ودوايرها حاشياتهم العريضة وان لم تكن على مثل هذه الضخامة من الاتباع والحشم والخدم التي توفرت للكرادلة . ومع هذا ، فعاشية دو مينيكو مستيماً لم تكن لتقل عن ١٧٠ شخصاً ، بقطع النظر عن الضيوف الطارئين .

والبابا الذي يحكم روما بواسطة الكردينال نائبه ، والذي يؤمن لها الحياة بواسطة بلاطه ، يجد في الرومانيين خير عضد لسياسة العظمة والابهة التي ينهجها . « فالشعب الروماني » هذه الفئة الصغيرة من النبلاء المسجلة اسمائهم في سجل المجلس العام ، بعد استثناء هؤلاء الاشراف الاقطاعيين القدامى منهم ، يعتبر نفسه الوريث الشرعي لروما القديمة ، ولذا حمل كل عضو من اعضاء مجلسها البلدي « لقب قنصل » ، وعلم الدولة نفسه يحمل هذه الحروف الرمزية : *S. P. Q. R.* التي تختصر العبارة *Senatus Populusque Romanus* اي مجلس الشعب الروماني كما ان الشعب اعتبر دوماً روما « المدينة » *URBS* . فكان بالشعب اجمع ينو للملئ والعظام . والعالم المسيحي نفسه يغذي هذا الشعور العارم ويزيده تأججاً واضطراباً . فالهجاج والسياح وكل من جاشت نفسه من الفنانين بالطموح ، يتوافدون على روما التي تمش على استقلال الوافدين واعتصارهم ، مدينة تحفل بالنبلاء واصحاب الوظائف الكنسية والحشم والحشم ، تكاد العين لا تقع على اي ممثل للبورجوازية بينهم .

والآثار القديمة تمثل جانباً هاماً من الدور الذي تلعبه روما . فهي من اغنى بقاع الله بالآثار والمعاديات ، ومن اوقعها اثرأ في النفوس طراً . وقد ازداد الاهتمام البالغ بالتنقيب عن هذه الآثار منذ حبرية البابا اسكندر السادس حيث عثر المتقنون في رابية البلاطين ، على « المهرجين » *Grotesques* . وفي عهد البابا جول الثاني قامت حفريات علمية ، منهجية عثر فيها على آثار مثيرة منها تمثال « لاوكون *Laocoon* » و « زهرة » الفاتيكان ، وتمثال كليوبترا . ومنذ ذلك الحين ، اخذ الامراء الكرادلة يحرصون جهدهم ، على تكوين مجموعات أثرية لهم بلغت شهرتها ارجاء اوربا جمعاء . وفي سنة ١٥٥٥ ، بلغ عدد هذه المجموع الفنية ٩٥ مجموعة في روما وحدها ، توافد الفنانون من جميع الاطراف ليمتعوا الانظار برؤيتها والتفرج عليها واستلهاً فمادجها .

وفي سبيل تقوية سلطانه كملك لدولة اقليمية بدلاً من دولة - مدينة ، راح البنايا ينمي موارده المالية ، ويزيد من دخله . « فالرسوم الروحية » التي كان يفرضها على العالم المسيحي خفت مداخيلها جداً منذ الانفصال الكبير (١٣٧٨ - ١٤٢٩) والواردات الرئيسية التي امكن للبابا التمويل عليها ، لم تعد التبرعات التي تجود بها المسيحية جمعاء ، بل واردات الدولة البابوية . ولذا كانت الضرائب المباشرة وغير المباشرة منها تتضاعف باستمرار . واخذ البابوات يعوّنون ، اكثر فأكثر ، على الرسوم التي كانوا يستوفونها من بيع وظائف الدولة ومن نظام التحويل النقدي العام . فبيع المناصب الكنسية والاعتماد على اصحاب المصارف ، ثم انشاء نظام *Monti* او القروض العامة موزعة الى حصص او أسهم مالية صغيرة يتحملها رجال المال واصحاب المصارف ، تلك كانت اهم الموارد التي كانت تغذي صندوق الدولة البابوية ، الى جانب بعض الاحتكارات الرسمية كاحتكار الملح ، مثلاً والشب المستخرج من مناجم تولفا *Tolfa* الغنية ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع كقاصر في صناعات النسيج ، في اوربا .

الا ان الاعباء الباهظة التي اقتضاها تشييد الابنية الضخمة التي ارتفعت في روما اذ ذاك، ونصرة
الادب وحملته، والفن واصحابه، والدفاع عن المسيحية ضد تهجمات الاثراك وتمديداتهم،
والحد من تمرد اللوثرين وعصيانهم الديني، كل هذه الامور فرضت على الدولة البابوية اعباءاً
مالية باهظة اوزحتها.

لعبت البندقية، بعد روما، الدور الاكبر، في رعاية الفنون والعلوم والحركة الفكرية،
في جميع ارجاء ايطاليا. فدولة البندقية هي عبارة عن مدينة - دولة، الدولة المسيطرة قوامها
اصلاً ٢٠٠٠ من سراة القوم واشرافهم، المولودين من زيجات شرعية، كلهم اعضاء في المجلس
الاعلى *Grand Conseil* الذين من بينهم ينتقى معظم الحكام وكبار الموظفين. وهؤلاء الاشراف
هم من رجال الاعمال، تجار، في الاصل، نظروا الى الصنائع والمهن الحرة نظرة انتقاص، ملؤها
الهمز والسخرية، فانزلهم الناس في اوروبا، منزلة النبل والحسب والنسب. فالامراء وعظما
الارض في اوروبا جماء، سعوا دوماً ليكونوا اعضاء شرف بين طبقة النبلاء في البندقية.
وبالفعل فقد اقتصرت هذه الدولة على عدد اصغر من الرعايا الذين تألفوا من بضع مئات من
كبار الاغنياء وأثرياء القوم، سيطروا على الوظائف الكبرى واحتكروها في صلبهم، بعد ان
أمنوا لها منافع مادية سنوية لمن كان دونهم مرتبة في مصاف النبل. ففي نظر هؤلاء النبلاء، عز
دولتهم جمهورية البندقية، ان تكون في الذروة من العظمة والفخامة والسلطان، بحيث تقرض
احترامها على الطبقة البورجوازية وعلى هذا اللب من سواد الشعب في الداخل، كما تقرضه على
اعداء وخصوم «صاحبة الشوك» *Sérénissime* في الخارج. من هنا هذه الحفاوة، وهما
الاهتمام البالغ الذي احاطت به مجالي الحياة الفكرية والعقلية. فجامعة بادوا اصبحت فصلاً،
جامعة الدولة، بين اساتذتها اشهر وألمع اسماء الارستوقراطية في البندقية. ولكن رجال
الاعمال، هؤلاء التجار ذوو التفكير الواقعي، الشغوفون بالامور العملية، المهتمون، قبل كل
شيء آخر، بالقوة والامور المالية، المعروفون بفتورهم الديني، المتعززون من الكنيسة ورجالها،
الآخذون بالشك والتشكيك، كانوا اقل اهتماماً بالافلاطونية الحديثة منهم بتعاليم ابن رشد وفلسفة
مبوغازي. اما الفن، فقد نظروا اليه نظرتهم الى مصلحة عامة، الى مرفق من مرافق الدولة يجب
ان يذيع عالمياً اجماع «صاحبة الشوك» وقوتها التي لا تقاوم. ومع ان العاملين عندها في حقل
الفن جاؤوها من اوروبا، فقد سيطر عليها، مع ذلك طابع فني خاص، هو طراز البندقية،
فن الوطن البندقي، فن يشتمل بالانوار والالوان، في مدينة البطائح والفياض والرياض.
فالرسمون منهم يقتسمون، في بدء الامر، على مدينة البندقية، فيضعون رسوماً متنوعة
للدوغا، ولظواهر الحياة العامة في الاسواق، والمجازات والمآبر ولسفن البندقية وأرصفتها. اما
في قصر الدوغا، الجلى العقائدي لسياسة البندقية، فكانت ترى الدوغا يحاول التوفيق بين البابا
والامبراطور ببروسا، وهو مشهد، ان دل على شيء، فعلى دخول البندقية سياسة اوروبا
العليا، هذه السياسة التي اتسمت دوماً بالحفاظ على التوازن بين البابا والامبراطور.

ففي السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، في هذه الآثار الفنية التي وضعها جيوفاني بليبي ، عام ١٥١٦ ، اي في اواخر حياته ، وفي صورة « العاصفة » بريشة جيورجيو ، وفي صورة « زهرة درسدن » تطل علينا نماذج جديدة ، للانسان المدى الجديد ، الصورة الجديدة ، « صورة المسيح » بريشة لوتيتيان في مدينة بريشيا ، وفي صورة « القيامة » التي وضعها عام ١٥٢٢ ، يطلع علينا رياضي اولمبي كأنه جوبتر طائراً . فالرسامون يعملون على الاخص للخارج ، لفريق من الامراء ، يسكنون على مقربة من البندقية ، امراء آل أستيه ، وامراء آل غونزاغا . ولعل من اخرج الازمنة التي مرت بها البندقية ، هذه الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ - ١٥٣٠ ، هذه الفترة التي تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق الافاويه والتوابل ، طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند . ولكن بعد سنة ١٥٣٠ ، نرى الفن يعود الى التجلي والازدهار من جديد في البندقية ، مع جاكوبو سنسوفينو الذي شيده المكتبة المرقصية ، والمبكل الذي اقامه في مدرسة القديس مرقص وقصر كوريز ، ومع الحقبة التي أشع فيها لوتيتيان . فقد عرفت البندقية بالطبع ان تستغل قدوم الفنانين الرومانيين اليها ، وقد توافدوا عليها هرباً من الحصار الذي تعرضت له روما عام ١٥٢٧ ، فجاءها جاكوبو سنسوفينو ، عام ١٥٣٠ ، كما جاءها ، لمدة وجيزة ، ميكالو انجلو ، اثر الملح الذي نزل بمدينة فلورنسا ، فزود بارشاداته وتعليماته الفنية فريقاً من الفنانين البنادقة . فقد تم للبندقية ان تتغلب على الازمة الاقتصادية التي ألمت بها ، فعرفت كيف تفيد من التوسع الذي طرأ على الاسواق الأوروبية ، فباعت اوروبا من الافاويه ، بقدر ما كانت تبقيها من هذه التوابل قبل ان يكتشف فاسكو ده غاما المسالك التجارية الجديدة الى الهند والشرق الاقصى ، بحراً ، بحيث بلغت صادراتها منها مدينتي روان وأنفريس . كذلك انشأت لها صناعات جديدة . فهي بعد أزمة ١٥٣٠ ، اغنى واوفر قوة ، وامنع جانباً ، وأشد بأساً ، واطول باعاً ، منها في اواخر القرن الخامس عشر ، وان كان لحق بنفوذها بعض الغضاضة بعد ان برزت في اوروبا دول لها شأنها . وبما لا شك فيه قط ان البندقية اصبحت بعد السطو الذي تعرضت له روما ، وعلى اثر احتلال ميلانو على يد جيش شارل الخامس ، وفرض الاسبان حمايتهم على فلورنسا ، الدولة الحرة الوحيدة في كل الحما ايطاليا ، توافد اليها كل من نجوا بانفسهم من الطغيان الاسباني الذي عانت منه المدن الايطالية الأخرى . ويروي لنا شاهد عيان من ذلك العصر : « ان البندقية برزت ، اذ ذاك ، صورة عن الجمهورية الرومانية .. ففي هذا العصر القاتم الذي يكتنفه الظلام ، بقيت البندقية وحدها مشعلاً مشعلاً في كل ايطاليا ، والشاعرة الايطالية فكتوريا كولونا تصرح عالياً وتعلن للآل في في احدى منظوماتها الشعرية : « أن أسد القديس مرقص وحده يحافظ ، في كل ايطاليا على الحرية العريقة ، والامبراطورية العادلة » . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يعترى سكان المدينة عاطفة من الزهو وشموخ بالمباهاة والفخر ، وان تجيش في صدورهم هزة شعورية لما تم لمدينتهم من قوة ومنعة وعظمة ، تجلت في هذه الانجازات الفخمة التي تنبض بالعظمة الرومانية .

بعد روما والبندقية ، نرى دوقية فرّاره تلعب ابرز دور ، بين المدن والامارات الإيطالية في مجال الآداب والفنون والعلوم . فدولة فرّاره هي الامارة التي آلت مقاليد الحكم فيها الى اسرة أستيه *Este* . فهي عبارة عن مقاطعة صغيرة اقتطعت من ممتلكات الدولة البابوية ، ووقعت ضمن الممتلكات التابعة لمدينة البندقية ، على اليابسة ، فكانت ملتقى الطرقات التي تجتاز سهل بادوا ، هذا السهل الذي اتخذت منه الجيوش الضاربة ممراً لها . فطُوع الدول وبقاؤها مرتبط بالجميع ، الى حد بعيد ، بلعبة سياسية لبقة ، لحمتها سلسلة من المصاهرات ، وسداها توازن القوى بين مملكة البابا والبندقية وميلانو ومنتشوا وحلفائهم في الخارج : كفرنسا واسبانيا والامبراطور . ولكن هذه اللعبة تبقى ابدأً دوناً اثر وتذهب هباءً منثوراً ، اذا لم تضدها قوة عاصدة ، تمثلت على خير وجه وعلى امثل صورة ، في هذه التقنيات الحربية التي عرف امراء أستيه ان يحققوها ، فجعلوا منها عدة حربية هي خير ما طلع من امثالها في هذه الحقبة . فقد تم للدون الفونسو الاول (١٥٠٥ - ١٥٣٤) اقوى وادق مدفعية في كل ايطاليا ، حاول الجميع ان يستعينوا بها ويفيدوا من فعاليتها . فليس من عجب والحالة هذه ، ان تكون حرفة السلاح في فرّاره ، خير الحرف وامثل الفنون واجداها . اما الفريق الاجتماعي الذي تحكم بهذه الامارة فقد كان طبقة من النبلاء احترفوا الحرب ، عرف امراء أستيه ان يؤلبوم حولهم ، كما عرفوا ان يستندوا منهم ، العشرات من الأسر والعوائل النبيلة المحتد ، ذات التقاليد العسكرية ، يحلو اعضاؤها عن الريف ليمملوا في بلاط هؤلاء الامراء . وبالإضافة الى هذا كله ، وفد الى فرّاره من جميع اطراف ايطاليا ومن غيرها من الدول الأوروبية ، عدد كبير من فتيان النبلاء يتخرجون في بلاط آل أستيه على مراسم البلاط وشؤون الحرب ، وقد زاد هذا البلاط ألقاً عندما تعين أحد ابناء هذه الامارة ، هو هيبوليت أستيه ، عام ١٤٩٣ ، كردينالاً وله من العمر ١٢ سنة ، فأخذ يؤلب حواله مجموعة طيبة من الاحبار بين رؤساء أساقفة واساقفة ، فاذا ببلاط الأمير يضم ، عام ١٥١٦ ، اكثر من مائة نبيل يعملون كلهم في خدمته وسبيل مرضاته . وهؤلاء النبلاء المقيمون في البلاط ، هم سمرا ، الامير ، ملازمون له يعملون في خدمته والنهوض بشؤون الامارة فيجري عليهم الارزاق لإقطاعات كنسية وامتيازات . فاذا ما عرفوا ان يلقوا حظوةً لديه ، نالوا وظائف عالية في الدوقية ، فيرقى بعضهم الى مراقبة قائد في قلعة او حاكم ولاية ، ولن يلبثوا ان يثروا اثناء تضلهم بهام الوظيفة ، فيشترون العقارات ويبتاعون الاراضي ويسهمون في مشروعات تجارية او مالية مع فريق من اصحاب المصارف ورجال المال والاعمال ويشتركون مع اليهود باعمال الربا ، وهم على اتصال مباشر بالطبقة البورجوازية هذه الطبقة التي كثيراً ما رأوا فيها النور وطلعو من بين صفوفها .

وجامعة فرّاره هي الاداة المثلى بيد امراء أستيه والنبلاء . يتولى تعيين الاساتذة فيها لجنة خاصة تتألف من اثني عشر مستشاراً كلهم من النبلاء ، وتحدد لهم المرتبات والاجور . ازدهرت هذه الجامعة وارتفع لكلية الحقوق فيها اسم وشهرة ، معظم طلابها من ابناء النبلاء كما

اشتهرت مدرسة الفنون فيها . وعلى عكس البندقية راجت فيها التعاليم والمثل الفيشاغورية والافلاطونية . اما رجال البلاط فكانوا يستجيبون . بالاحرى ، لشعارات الافلاطونية الحديثة فيما يتعلق بالانسان . كل شي ، يتغنى بأعجاد بلاط فراره . وفي فراره يزدهر على الاخص ، الشعر الفروسي ، كما نرى ذلك جيداً في ملحمة : « رولان الماشق » التي وضعها بوياردو ، احد رجال البلاط ، اذ ذاك وحاكم مدينة مودينو ، وهي ملحمة تم وضعها بين ١٤٨٢ - ١٤٩٤ ، ولا سيما في المنظومة الشعرية المعصاة التي وضعها اريوست بعنوان : « رولان النائر » *Roland furieux* التي ظهرت في نصفها الاول ، في ٢٢ نيسان ١٥١٦ . اما الشاعر ، فكان احد النبلاء التحق ببطانة هيبوليت ابيتيه ، منذ عام ١٥٠٣ ، كما عمل في بطانة الدوق الفونسو من سنة ١٥١٨ - ١٥٣٣ . يتغنى اريوست بمثل البطولة ، كما يتغنى بأعجاد بطل القصة . يبلغ البطل الذروة من البطولة عندما يقوم لوحده ، خالي الوفاض من السلاح تقريباً ، بمذبحة مريعة لفرقة المشاة الحفيرة التي تتألف من هؤلاء الصعاليك ، هو هذا البطل الذي لا بد منه في كل جيش ، هو الذي يكفيه أن يد اليد لينتزع الظفر ، والذي يخترق ، وحده ، صفوف العدو مفسحاً لرفاقه مجال العبور من الثغرة التي شقها بين صفوفهم . فجاءت هذه القصيدة الغراء ، كأداة من أدوات الدعاية ، تويجاً لهذه السلسلة من اعمال النزال والمصالاة التي كثيراً ما انتهت بانتصار امراء آل أستيه ونبلائهم .

أمر بلاط فراره تأثراً بالغاً على فن الرسم بطوع خاص ، من خلال هذه الطلبات والتواصي التي عهد بصنعها ، الى الرسامين في البندقية ، بحيث امكن تحقيق ما طالما حلم به هؤلاء الامراء ورجال بطانتهم ، وما راود خيالهم ، الا وهو تمثيل حياة آلهة الاولب الخالدین ، وهذه الجمالية الدائمة ، هذا الشباب الباقي ، القدرة الكلية ، اللذة التي لا انقطاع لها ولا انقصاص ، هذه الحياة المادية المثلى ، الوثنية . وجل ما تمناه هؤلاء الامراء والنبلاء على المصورین رسمه لهم ، هي صورة الفونسو أستيه في ريعان شبابه الفض ، صورة لوكريس بوجيا ، وصور كل من زوجته وممشوقته لورا دياني . وبعد هذا كله ، هذه المشاهد الوثنية التي تمثل لنا آلهة اليونان القدماء وآلهتهم وهكذا طلب الى الرسام جيوفاني بليبي ، في كهولته ، ان يرسم ، عام ١٥١٤ ، لالفونسو أستيه ، صورة حفله من هذه الحفلات التي كانت تقام على شرف الاله باخوس يوم الاحتفال يذكراه . وكثيراً ما تمتنى على زبائنهم ان يرسموا لهم صورة الزهرة تتعرق شهوة ، تحياكي صورة « زهرة درسدن » الشهيرة او صورة « باخوس » و « اريان » و « ديانا » وصورة « ديانا واكتيون » وغير ذلك . وعلى درجة اقل لمجد في دوقية منتوا ، في بلاط آل غوزاغا ، وفي نطاق دوقية اوربين ايضاً ، طلبات على هذا الشكل ، هي ايضاً .

اما فلورنسا ، فقد فقدت ، دونما رجعة ، حق الصدارة ، في هذه الثورة اللاهبة التي نشبت فيها عام ١٤٩٤ ، فاذا بها تصبح صورة باهتة تعكس روما من بعيد . فالآثار الوحيدة التي امتازت بشيء من الاصالاة مما ظهر عندها في تلك الحقبة ، هي هذه البحوث السياسية التي

وضعها ميكافلي وغيثاردن . وهذا الوضع الذي صارت اليه وتردّت فيه ، يجب رده بالاحرى الى هذه الاضطرابات التي قامت فيها باستمرار ، والى هذه الازمة الاقتصادية التي اخذت بخناق المدينة في إثر حركة الشعب التي كانت المحرض الاكبر عليها سافونارولا ، والنظام الجمهوري الذي عاشت في ظله حتى سنة ١٥١٢ . وقد جاشت الجمهورية من جهة ثانية بروح لم نجد في كل ابطالها الاخذة باسباب الافلاطونية الحديثة ، من يستطيع التعبير عنها تعبيراً صحيحاً . وعندما راح حاكم المدينة ورئيس جمهوريتها بيرو سوديريني يعهد الى ميكالو انجلو برسم صورة الملك داوود ، كما حلا للجمهوريين في فلورنسا تخيله ، فالراعي الذي برز من بين يديه ، رهزاً لفلورنسا المستضعفة والمهينة الجناح التي لم يفارقهما الامل بالاستظهار يوماً على اعدائها بنضل ما رجحت من عون إلهي . فقد رأوا أشبهاً بالفعل ، بين هذه الصورة والصورة الاخرى بريشه فيروكيو . فالعهد ولى وزال ، وراح ميكالو انجلو يضع رسماً لداوود الملك ، بعكس المقصود ، ظهر معه داوود سوبرمان ، اي جاء وفقاً لذهنية العصر .

ويطل آل مديتشي من جديد مع اعادة الامارة اليهم ، فيشدون من امر هذه الدولة التي تحاول الانتقال من وضع مدينة - دولة الى وضع دولة اقليمية ، موحدة ، ذات نظام مطلق . ولم تلبث فلورنسا ان شعرت بتثاقل قبضة الاسبان عليها ، لتقع ، بعد حين ، تحت النفوذ الروماني ، ففارقها كل نشاط فني ، لمدة طويلة ، الى ان اعاد اليها بابوات آل مديتشي ، شيئاً من النشاط ، بفضل ما ارسلوا اليها من مال وفنانين تشبعوا بالمثل الرومانية . ويبدو ان الفلورنتيين فقدوا كل قدرة لهم على الخلق والابداع ، بعد ان فقدوا نعمة الاستقلال التي رتموا فيها .

والظاهر ان ميلانو كانت تحاول ، هي الاخرى في اواخر القرن الخامس عشر السير في النهج الذي جلت فيه روما . ففي عام ١٤٩٠ ، شرع ليوناردو ده فنشي ، في نحت الجواد الخاص بفرنسوا سفورزا . وفي سنة ١٤٩٦ ، اخذ برسم صورة « العشاء السري » فجاء عمله هذا تمجيداً ومحاولة جريئة كتب لها ان تعرف الازدهار في روما .

من الغريب جداً ان تقع هذا المحاولة في الوقت الذي اصبح فيه لودوفيك لو مور ، بعد ان اقطعه الامبراطور الولاية على هذه الدوقية ، اميراً تابعاً ، من الوجهة الاقطاعية ، للامبراطور ، يعمل بمزول عن كل تدخل من قبل الشعب في شؤون الادارة ، اميراً مطلق السلطة له حرية التصرف ، حاكماً له كل حقوق الولاية من الآن فصاعداً في هذه الفترة التي بلغت فيها سلطته القمة من القدرة والبطش ، اذ كان يحلو له ان يتبجح قائلاً : بان الامبراطور قائده ، وان البابا كاهنه الخاص يؤمن خدمته الروحية ، وملك فرنسا ساهي بريده ، والبندقية حاجبه . في هذا الوقت بالذات ، ظهرت في بلاط لودوفيك لو مور ، اولى المحاولات لهذا الفن الجديد ، فن الرجل السوبرمان ، الفن البطولي .

ومنذ ايلول ١٤٩٩ ، اصبحت ميلانو خاضعة للنفوذ الاجني يتوالى على حكمها تبعاً

الفرنسيون والسويسريون والاسبان. ويتلقى ليونارد دوده فنشي طلبات فنية من قبل الفرنسيين. واخذ الفن الجديد يطل رويداً ويَمُكُن. ولكن منذ عام ١٥٢٥ ، اخذ النفوذ الاسباني يسيطر. غير ان الاسبان كانوا دوماً في عسر مالي ، فرزحت الدوقية تحت وطأة الرسوم والضرائب التي فرضت عليها ، والحروب التي قُضرت بها والازمة الاقتصادية التي اخذت بتلايبيها ، فأخذ النبلاء يتجهون بانظارهم وجهة الوظائف العامة . فالدراسات الفقهية ، وحدها ، يبدو عليها طابع الخلق والاصالة ، كما يظهر لنا ذلك من الانجازات الفنية التي وضعها ألسيات (١٤٩٢ - ١٥٦٠) .

بعد الحروب الدامية الطويلة التي وقعت بين اسرة أنجو واسرة أراغون (١٣٤٣ - ١٤٤٢) ، استلب الأمر ، في مملكة نابولي ، لنظام حكومي قوامه فريق من البارونات اصحاب الاقطان الواسعة في الريف ، واصحاب الاملاك السيادية الذين كادوا يتمتعون باستقلالهم ومعظمهم يتصرف بسلطات ملكية ، ومن كبار المغامرين من رجال الحرب المعادين للملك وفي عصيان موصول ضده . فالحياة الفكرة اسم بلا مسمى ، لا ظل لها قط . والاراغونيون الذين جاء منهم ملك نابولي منذ سنة ١٤٤٢ ، كانوا قد حاولوا ان يحكموا بالاشتراك مع نبلاء مدينة نابولي ، هذه الطبقة الارستوقراطية التي استأثرت بوظائف الدولة فجعلت منها احتكارات تصرفت بها على هواها . وطبقة النبلاء هذه ، كانت تشعر في داخلها انها قريبة جداً من البارونات فاولتهم ثقتهما وولاءها . ولهذه الاسباب راح فردينان داراغون يبذل جهداً كبيراً ليخلق بورجوازية من رجال الاعمال والصناعة ، وراح الفونس داراغون الذي خرج ، عام ١٤٤٢ ، من هذه الحرب ظافراً ، يدخل على مدينة نابولي الحياة الفكرية ، ويفرضها عليها فرضاً . وهكذا بدت طلّات النهضة الفكرية ، في البلاط ، وأخذت تتطور بسرعة لا سيبا بين الطبقة الارستوقراطية والادارية ، فاصبحت عنصراً قوياً في هذا التيار الجديد ، راحت تفتتح للآداب لما رأت فيها من منافع وقوائد جمّة . من ابرز رجال النهضة في اواخر القرن الخامس عشر ، في مملكة نابولي : بونتانوس وجينارو وكاريتايو فكانوا خير من تمثلت فيهم طبقة النبلاء من اصحاب الوظائف الادارية العليا . اما لون الأدب الذي سيطر على البلاط ، اذ ذاك ، فقد كان الشعر ولا سيما الشعر الغرامي . كذلك أطل الفن التشكيلي بعدد وافر من الآثار معظمها من الدرجة الثانية .

ومنذ ١٤٩٤ نرى مملكة نابولي يتجاذبها الفرنسيون والاسبان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بها سنة ١٥٠٣ ، واصبحت بين ١٥١٦ - ١٥١٩ ، جزءاً من امبراطورية آل هابسبورج بشخص شارل كانت أو شارل الخامس ، الذي كان يحمل بان يحمل منها اداة طيعة بين يديه ، في ايطاليا . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكة نابولي خاضعة ، مبدئياً ، لامبراطور يحكم حكماً مطلقاً . وغلبت طبقة البارونات على امرها وراحت تتخذ لها ، أكثر فأكثر ، موقفاً سياسياً ، تعد شرفاً لها ان تخلص معه الولاء للامبراطور وان تقوم بمخدمة السلاح في جيوشه ، فازعة ، من وراء ذلك ، لتصبح طبقة تجمع بين يديها كبار قادة الجيش وضباطه الاعلى . ونزع البارونات من جهة

ثانية ، للانصار في طبقة نبلاء مدينة نابولي . فلم يكتفوا بأن قدموا الى المدينة وسكنوا فيها ، بل راحوا يبنون لهم فيها صروحاً وقصوراً شاهقة ، واخذوا يسجلون نفوسهم بين *Sedili* سكان نابولي باعتبارهم من نبلاء المدينة وشرفائها . وعلى عكس ذلك تماماً ، رأت الطبقة الارستوقراطية في المدينة ان شرفها يحتم عليها التخلي عن الوظائف الادارية والمعيش ، اسوة بطبقة البارونات في البطانة لا يأتون عملاً ما . أما الامبراطور فأخذ يشدد على طبع مملكة نابولي بطابع بلاد مستعمرة ، اذ فكر بان يجعل منها سوقاً لتنفيق المنتوجات الصناعية التي كان ينتجها هذا المضلّع الرباعي الذي تكون من جنوى وميلانو وفلورنسا والبندقية ، الذي كان يمد مقاطعات ايطاليا الجنوبية بمحاجاتها من المحاصيل الزراعية والحبوب والزيت ، والحامات ، وغزول الحرير والصوف الخام . ووضع البلاد تحت تصرف ارباب الاعمال والمال الاغراب من المائ وجنويين ، بعد عام ١٥٢٦ ، وهدر هدرأ الصناعات القائمة في مملكة نابولي فخم عليها الفقر بسراده . أسبب اخضاع هذه المملكة للاسبان وللإمبراطور ، وزوال ملك كان ينعم ، بالامس الغابر ، باستقلاله الناجز ويعيش كريماً مكرماً في بلاطه وبين بطانته وحاشيته ، وهذا التفتت والانسياع ينزل بطبقة النبلاء من كبار الموظفين ، اخذت الفنون ، في نابولي بالتأخر والقهرى ، واصيب سكانها بالعقم الفكري ، فيفقدون كل طاقة لهم على الخلق والابداع ، سوى بقية باقية من الشعر الركيك باللاتينية ، والايطالية ، فخم السكون على نابولي ؟

وهكذا وفي مثل هذه الظروف والاضاع المؤاتية لطوع آثار فكرية جديدة ، نجد دولا مستقلة ، سيدة امراء ، تنزع للحكم المطلق والسيطرة الامبريالية ، دولا - مدينة ، تطمح في ان تصبح دولا اقليمية ، وامراء ذوي نزعة ظاهرة للحكم المطلق لهم بطانات يتألف بعضها من نبلاء بيدهم الادارة يؤلفون طبقة وسطى بين طبقة النبلاء الاقطاعيين وبين الطبقة البورجوازية ، دولا بمقدورها ان تؤمن لذاتها موارد مهمة بالامكان إنماءها وتضعيفها باقامة علاقات لها مع الخارج ، واستدراج النقد عن طريق المصارف والاعمال التجارية الضخمة وتسهيل معاملات الترانزيت ، والسياحة والمغامرات الحربية ومحريك الكفاءات وتشجيعها ، دولا تقوم الفئات الحاكمة فيها بمختلف النشاطات السياسية ، والاجتماعية ، تنطلق كلها من الاعمال الفكرية والروحية .

وبهذه الصورة التقريبية التي رسمها نستطيع ان نتبين الخطوط الكبرى لهذا النهج الواجب انتهاجه في تحديد الوظائف والخدمات المنوطة بهذه المنظمات الفكرية التي أطلت علينا ، وهو لمعري نهج 'عمل به باستمرار ، نهج يتصل اتصالاً صميماً بالعقل البشري ، هو اسلوب المقارنة للكشف عن النظم الجديدة . وفي هذا السبيل نستعين كذلك بالاحصاء والمقايسة ، اذ لا يمكن ان نحصل على معلومات دقيقة ما لم نغم بمعاملات احصاء وقياسات ؛ ولا يمكن ان نطمع بالمعلم ونطمع بالحصول عليه الا اذا توصلنا للكشف عن المعادلات الرياضية . فالتقنيات والمعلوم

الاساسية توفر لنا ، وaim الحق عدداً متزايداً من الاجهزة والاعتدة الحاسبة والكاشفة وبينها ما يصلح تماماً للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته الباقية .

هذه الرؤى الجديدة التي تبينها للكون والفضاء والانسان بدت على الوان واشكال . فالصورة الافلاطونية الحديثة الكلاسيكية تركت كثيراً الجهد الانسان الحرفي في سيرة نحو الله . ان ما تعرضت له روما عام ١٥٢٧ من اعمال النهب والاستباحة ، وبسط اسبانيا سيطرتها على ايطاليا مع الامبراطور شارل الخامس ، والدفع الذي انطلق من هذه الدول الرئيسية النازعة للوحدة والحكم المطلق مع ما تحبته من ارهاق وارهاس للفرد ، كل ذلك وما إليه ، ساعد كثيراً على تبيين الحدود التي تحد من هذه المثالية وعلى لفت النظر ، اكثر فاكثراً ، الى ما يرسف به الانسان ، بعد ، من ضعف وعبودية ، هذا الانسان الصعلوك المتصيد الذي افتداه السيد المسيح باذلا حياته لاجله حتى عذاب الصليب . وميكالو انجلو ، هذا الافلاطوني الحديث الأتم ، كما تبدى لنا من خلال هذه الزخارف والنقوش الجدارية التي حلتى بها الكنيسة السكستينية ، والذي سيبقى دوماً هذا الافلاطوني الذي كان ، عرف ان يتجاوز بعيداً 'مثل الافلاطونية الحديثة ويتعداها ، اذ شدد ، اكثر فأكثر ، على السيد المسيح ، وعلى سرفداء المسيح الذي به قهر الإنسان . ان صورة الدينونة الاخيرة (١٥٣٣ - ١٥٤١) ، ترينا منجرفة مع دوامة الحركة الكوبرنيكية ، دائرة حول يسوع وقد ظهر بمظهر جوبتير الصاعق ، هذه البشرية الصاخبة اللاهية الجبارة ، المتكونة من صيادين برّح بهم القلق كل مبرّح ، يقفون متوسلين ، مع الرسل والقديسين ، وربما العذراء مريم نفسها . والرسام لوتيتيان ، يدع جانباً المسيح الهادي ، الظافر ، ليضع تحت انظارنا التحفة الرائعة : « هوذا الرجل » التي وضعها عام ١٦٤٢ ، وقد استعان بالحركة المعاصرة تلف هذه الجماهير المحتاجة ، الجياشة بالحقد والبغضاء ، تتألب على السيد المسيح ، الاله المتجسد ، الذي يرزح تحت ضغط الامبراطورية العاقية وتحت هيجان الجماهير المزمجرة ، يكفر عن خطايا البشر . وفي قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما التي اعتيَضَ بها عن تلك التي خطط لها برامنت ، نرى ميكالو انجلو يحتفظ بالصيغ والاشكال ذاتها التي ظهرت في الدور الاول من النهضة الا انه 'يمط' في القبة باضافة التضليع ، بعد ان ركب ، في الاسفل ، مصباحاً شفافاً . وهكذا يربطنا ، من فوق الاجيال ، بالطراز الفني القوطي الذي يرمز الى اندفاع المسيحي المتحمس ، وقد شعر بضغفه متجهاً نحو الله مخلصه . فقبة ميكالو انجلو ، لم تعد تظهر كأنها تاج ، بل هي تسبح و « تطير » . فهذه الجماهير ، وهذه التجاوزات المغالية ، وهذه الاندفاعية . والمفارقات والمتناقضات ، كل هذا انما يدل على ان الناس ينزعون الى نقطة . من نقطتي التوازن التي سيعوم حولها الفكر البشري ، لمدة قرون ، متأرجحاً بين هذه الانظمة الاساسية : الاتباعية الكلاسيكية ، وبين الغريب الشاذ .

الفصل الثاني

المجتمعات الدينية الجديدة

محاولات الإصلاح

الناس في هذا العصر يعيشون عرفاً وقانوناً في عالم مسيحي تنقضي أيامهم
حفاف الشمر الديني وفقاً لتقويم وتوقيت ومراسم دينية واعراف معينة . فمحاكم القضاء لا
تستأنف جلساتها في الثالث عشر من تشرين الثاني بل في اليوم التالي لعيد السيد القديس مرتينوس ،
وايام العمل القصيرة ، لا تبتدىء ، عند اصحاب الحرف في التاسع من تشرين الاول ، بل في
اليوم الذي يقع فيه عيد القديس ريمي . ونقابات اصحاب الحرف تعطل ٦٠ يوماً في السنة ، ما
عدا ايام الاحاد . ويطرح من ايام العمل يوم السبت وبرامون الاعياد الكبرى لتستعمل في
الاستعداد للاحتفالات الدينية التي تقام في اليوم التالي . والجامعات تجري الامتحانات ، في صحن
الكنيسة على انغام الارغن ، في هذه الفترة بالذات التي تقع بين القديس وفعل الشكر . وكتب
التعليم والنصوص المدرسية ، تبتدىء دوماً بالمباركة التالية : « لمجد الله الخالق ومسرته » .
والوصايا الارثية تحمل القروية : « باسم الثالوث الاقدس غير المنفصل » . وكوز شراب
التفاح أو النبيذ على المائدة يحمل في محل بارز منه الجملة التالية : « فكر بالموت ايها المسكين
الغني » . وفي اخريات القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، يفتش الارض ، وقد
تكاثرت عدد السكان ، العديد من الكنائس والمعابد والمزارات الدينية القائمة منفردة عند
عطفات الطرقات . كذلك يطل علينا فيض من الكتب التقوية : ككتاب القديس والفرض
وكتب عجائب العذراء والقديسين وكتاب الصلوات ، وكتابات يسوع الخالدة ، وكتب
السواعيات ، وافراح السيد المسيح بعدد لا يحصى من النسخ .

غير ان هذه الروح الدينية المتأصلة في النفوس المخلصة الصادقة تبقى مظهرأ جامداً من هذه
المظاهر التي ارتدت عنها طقوس العبادة والاحتفالات الدينية . فالنفوس لم تكن

لتميش هذه الطقوس في صمم حياتها الداخلية ، ولا أثر لها في اعمال الناس وتصرفاتهم وسكناتهم وحرركاتهم ، اذ الكل غافل ، لاه عما له طابع مكرس او مقدس . فيتجاهلون هذا كله ولا ولا تقتنئى ماجريات الحياة اليومية بشيء من العاطفة الدينية . قد يكون سبب هذا الوضع الحاجة الشديدة الى رجال الدين وخدام الكنائس الغيورين . كم من الكهنة والعاملين في خدمة الدين والنفوس ، زرعوا الشك والتشكك في النفوس لعدم امتثالهم للطاعة المتوجبة عليهم نحو الكنيسة ولرؤسائهم ، ولفظاظاة تصرفاتهم المقيتة . فكهنة كاتدرائية نوتردام القانونيون ، في باريس يتبجحون انهم معفون من الخضوع للسلطة القانونية التي يتبعون لها . اي لرئيس اساقفة سانس ، المطران تريستان ده سالازار . وبتاريخ الثاني من شباط ١٤٩٢ ، بعد ان فرغ رئيس الاساقفة من الاحتفال بالقداس بحضور الملك شارل الثامن ، وبينما هو يهم في الانصراف وهو يبارك الشعب يتقدمه الصليب ، اذ بكاهنين قانونيين ، ينقضان على حامل الصليب وعلى شماسه المطران يشبعانهم لكاً وضرباً ، زاعمين ان الاسقف خفض من جانبها وحط من قدرها وانتقص من كرامتها اثناء قيامه بالطقوس الدينية ، ثم يأخذان بشعر احد خدام المطران ، وعندما هم الاسقف بالتدخل في الامر . لكه احدهما في بطنه ، بينما نزع الثاني قبعته الاسقفية وطرحها ارضاً . ولم يكن من النادر قط وقوع حوادث من هذا النوع .

وهذا الفتور الديني كان الطابع الذي ميز ، على الاجمال ، رجال الدين ، اذ كان مهمهم ، في الدرجة الاولى ، السهر على مصالحهم المادية . وجماعة الكهنة القانونيين في كنيسة نوتردام ، كانت تنتخب اعضاءها من بين الطبقة العليا في البورجوازية ، وبين طبقة الاشراف . كما كانت تنتقيهم من بين مشاهير رجال اللاهوت والحق القانوني . وكان يهيم ان يشعر الناس بانها مهمة بادارة املاك الكنيسة ، وانها تحرص على الدفاع عن حقوقها وامتيازاتها . فلا عجب ان يحذو حذوها كهنة الرعايا في باريس . وعلى هذا قس رجال الاكليروس في المدن الواقعة في الاوساط الريفية الذين كان يهيمهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين مصالحهم المادية ، واستيفاء الرسوم المائدة لهم وتحصيل النذور .

اما الكهنة المكلفون بخدمة الرعويات في الارياف ، وهم على الغالب من ابناء القرويين الطيبين ، فكانوا يقومون بالخدمة الروحية . فقد كانت مرتباتهم ضئيلة للغاية تكاد لا تقوم بأودهم لو لم يكن يردم من عوائد الخدمة الروحية شيء زهيد . ولذا وجدوا انفسهم في جدال مستمر واختلاف مزمن مع ملتزم الوقف لعلهم ينالون منه بعض درجيات ، بما كانوا يدخلون مع رعاياهم في مجادلات لا تنتهي حول حقوقهم المكتسبة بفهم من الحصيد او اجرة قداس ، او الرسوم المستحقة لهم من عقود الزواج والقيام براسم العباد والجنائز . فلا عجب ، ان نزام يديرون ، احياناً ، بمساعدة احد اعضاء الاسرة ، دكاناً او نزلاً صغيراً ، او يقبلون بوظيفة « خولي » عند احد نبلاء المقاطعة او كبار الاقطاعيين فيها ، يؤمنون له جباية الرسوم المتوجبة على المزارعين والمرايعين وهم ، في ذلك كله ، حريصون على الاخذ بالاعراف والمعادات

المرعية ، يحافظون عليها ويستمسكون بها بشدة ، فيتلهون احياناً باللعب والنرد كما اعتادوا معاقره الحفرة ، وكثيراً ما استعملوا سواعدهم ، وكالوا اللكم والضرب و احياناً استعمال الدبوس والنبوت ، كما كانوا يجيدون ترغيب ربوات البيوت بالرقص ايام الاعياد .

من يدقق في السجلات الرسمية والصكوك والوثائق والاضابير الكنسية ، اذ ذاك ، فعثره الدهشة لكثرة ما تقع منه العين على الدعاوى والقضايا المقامة على رجال الدين لاخلاقهم الفاسدة وتصرفاتهم السيئة . فالسكر والمريضة يأتي في مقدمة هذه الموبقات . وضرب السكين والخنجر لم يكن نادراً قط . وكمن الاحكام صدرت على كهنة او رجال من الاكليروس لاستخدامهم قتيات او شابات مشكوك بفضائلهن ! أفلم يحكم على مدير مدرسة ثانوية تابعة لبلدية باريس بالسرقة ؟

والرهبان لم يكن وضعهم باحسن حال من وضع الكهنة العلمانيين اذ كثيراً ما نراهم يتركون الحياة والمعيشة المشتركة ، ويتحللون تماماً من عادة تناول الطعام او النوم في قاعات مشتركة ، المترتبة عليهم ، فاصبح لكل منهم حجرة خاصة يستقبل فيها الراهب ، دوغما حسيب او رقيب . اصدقاءه واقاربه . ونذر الفقر ، والاحوال المشتركة ، كل هذا وما اليه ، اصبح اثرأ بعد عين . لكل راهب كيسه الخاص ومذخراته الخاصة وحاجياته المنزلية الخاصة . وحياة العزلة والانفراد . في الدير ، لم يبق من يكثرث لها . هنالك رهبان يقطعون اوقات فراغهم يتمخضرون في الازقة والشوارع ، او الساحات العامة ، او يتلهون بالتفرج على اعمال المخرقين ، او البصصة عى بنات الهوى . والراهبات كم اثرن من الشكوك حولن بما أتبن من فظاظات وموبقات ؟

هذا الوصف لا يقتصر على ناحية أو منطقة خاصة فهو يطبق على جميع أنحاء اوروبا المسيحية .

هذا الوضع الذي تسكع فيه الاكليروس وبعض رجال الدين ،
الوضع العام - الفلسفة والدين يجب رده ، في كثير من مظاهره ، لأسباب سياسية ، فقد احتفظ ، البابا ، في اماكن وحالات كثيرة ، بحق اختيار المطارنة وتعيين الاساقفة واصحاب الوظائف الكنسية . وكثيراً ما وقع اختياره لملء هذه المراكز والوظائف على ايطاليين او اناس خبراء قد يكونون احياناً ، خلبين بكل تقدير واحترام ، كما كانت هذه الوظائف والمراتب تذهب لمن يتقدم من الادارة الرومانية ، بأحسن الاسعار ، أو لمن يتنازل بعضهم لهم عما ينتمون به من اعفاءات وامتيازات لقاء مبالغ طائلة . وكثيراً ما كان اصحاب هذه الوظائف لا يستقرون في مراكز وظائفهم ، فتبقى هذه المراكز من اسقفيات واديار ، بلا رئيس أو مدبّر ، ولا ادارة ، فتذهب امورها ووارداتها فريسة للفوضى ، يستغلها من أوتي الحذق والسطارة . وكان من حق الملوك وبعض الامراء ان يعينوا ، هم أيضاً ، اساقفة ورؤساء اديار ، كما انهم كثيراً ما تدخلوا في عملية انتخاب المرشحين لملء هذه الوظائف ، لمصلحة المرشحين من

رجالهم وازلامهم وخاصتهم ، أو من لقوا حظوة عندهم ، وهم في غالب الاحيان من رجال بطانتهم أو من عمال الملك أو الامير من عهد اليهم تدبير الامور المتعلقة بإدارتهم أو مصالحهم ، فاذا بهذا الفريق من أصحاب الحظوظ ، من كبار رجال الدين دون أن يأنسوا بأي ميل أو نزعة داخلية ، لهذه الخدمة ، أو أن يسيئوا لها بشكل من الاشكال . وهكذا أخذنا نرى أساقفة ورؤساء أديار يحسنون امور الدنيا ، ينهجون في عيشهم نهج الامراء فينصرفون لاعمال الصيد والقنص ، ويستسلمون للهو والقصف ولصيد الغواني ، أو يكونون من نصراء العلم والفنون فيؤلبون حولهم الادباء والفنانين والشعراء . اما نظرتهم الى ما تحت إيايتهم من مطرانيات واسقفيات وديارات ، فنظرتهم الى اقطاعات وموارد رزق يجب ان تدر عليهم الاعطيات والمداخيل الطيبة والثراء الوافر ، لا يهمهم قط ان يكثروا فيها أو أن يقيموا بين ظهرانيها أو ان يقوموا بما تقتضيه الواجبات الدينية التي يضطلعون بها من وعظ وارشاد ، وتعلم الدين المسيحي ، واعداد كهنة لائقين وخدمة للهيكل محترمين ، والحفاظ على الآداب والأخلاق الكنسية .

لهذا الفئور في الدين ، ولهذا النشور في الاخلاق في من يجب ان يكونوا حفاظاً عليها ومثالاً يحتذى بها ، يمكن ان نجد اسباباً اعتمق وابتعد تكن في سيطرة الفلسفة الاسمية وتحكمها اذ ذاك ، بعد او كهام ، في العقول والأذهان . فاذا ما اخذنا بأقوال الفلسفة الواقعية ، أصبحت العقائد المسيحية ، لا أقول ، اوضح واظهر ، اذ انها سلسلة من الاسرار المغلفة ، الغامضة ، متصلة الحلقات ، أوحى بها الله تعالى ، وكشف عنها هو نفسه ، بل امتست هذه العقائد أكثر قابلية للتفهم والافهام ، اقله من الوجهة المجازية او الرمزية . فقد أصبح لله مفهوماً او مدلولاً يستطيع الفهم البشري محاولة تفهمه ، ولو بصورة مجتزأة ، غير كاملة انما اكيدة ، ثابتة . وبما ان نفس الانسان ، لا مادية هي ، وتستطيع ان تفهم « الكليات » بثقة ، أصبح في مقدورها ، اذ ذاك ، ان تستخلص مما في هذه الكليات من حقائق اولية عدداً من المفاهيم والمدلولات المسلسلة ، المترابطة ، منها مثلاً : مفهوم اللامتناهي ، ومفهوم العلم الكلي ، ومفهوم الجوهر او الذات الكلي ، وغير ذلك . فاذا ما استعانت افهامنا بالمجاز ، استطاعت ان تصل الى مفهوم الله : الكائن الخالد ، الازلي ، السرمدى ، اللامتناهي ، المالىء الكل ، الكلي القدرة الكلي العلم ، الكامل .

كذلك في مقدورنا الآن ان نعرف معرفة مرضية ، لماذا كل الناس يولدون ملطخين بالخطيئة الاصلية ، خطيئة ابيهم آدم ، لان ما لطخه آدم في ذاته ، هو المفهوم العام للانسان ، هو الجنس البشري ، الانسانية جمعاء ، هذه الانسانية التي احتواها كلمة كما يحتويها كل انسان ، ومنذ ذلك الحين قصاعداً كل الناس يحملون في ذواتهم هذه اللطخة او اللوثة ، لانهم يحملون في ذواتهم المفهوم العام للانسان .

وعلى هذه ، قس ايضاً ، الاستحالة . فعلى المسيحي ان يؤمن انه عندما يلفظ الكاهن ، على

الحيز والخمر ، الكلمات ذاتها التي قالها السيد المسيح في عشائه السري الأخير : « هذا هو جسدي » ، هذا هو دمي » ، فالمسيح يحل فعلاً وحقيقة في القربان ويوجد فيه تحت الاعراض الحسية . وهناك ما هو أكثر من ذلك . فتحت هذه الاعراض ، تحت ظواهر الحيز والخمر ، يوجد بالفعل جوهر جسد المسيح ودمه ، مع بقاء الاعراض الحسية على ما هي من مظهر ملموس . والى هذا ، فالمسيح يجلس ، بمجد ، على عرشه السهوي بعد قيامته وصعوده ، عن يمين الله الأب . نحن امام سبعة من الاسرار المطبقة ، وهي ، مع ذلك ، اسرار ممكن تفهمها اذا تصورنا ان ما هو موجود في الوقت ذاته في السماء وفي هذه البرشانات التي لا حد لها ، منتشرة بين اطراف العالم اجمع ، ليس جسداً او جسماً خاصاً ، بل جوهر الجسد ، اي المفهوم العام لنوع الجسد ، متحيز وقائم في عدد لا يحصى من الافراد ، يمكن ان يوجد تحت اعراض مشتركة مع جواهر اخرى . كل هذا ليس بالواضح قط ، ولا بالجلي . فمن غير المعقول والقبول ان ما يخص الله الخالق ، القادر على كل شيء ، يستطيع الانسان ان يفهمه او يدركه ، هذا الانسان المخلوق ، العاجز المستضعف ، يبدو على الأقل ، ان هنالك تعليلاً او تفسيراً ، مع العلم ان الايمان ، اذا لم يكن تحت الفهم ، فهو لا يصدمه .

وعلى عكس ذلك ، فاذا ما تجاهلنا الفلسفة الانمية ، واذا ما انكرنا وجود فكرة الكلبي ، واذا لم يبق لنا سوى رموز مادية تخفي وراءها حقيقة صعبة المنال ، عندما كل وسيلة تساعدنا على تقريب الدين من أفهامنا . فكيف نستطيع ان نفهم او ندرك سر استحالة الحيز والخمر الى جسد ودم السيد المسيح ؟ هذا شيء محال . فالامر يعني في نظر اصحاب الفلسفة الاسمية ، ان جسد المسيح مع ما له من محسوسية وتحيز ، يحل محل الحيز المحسوس المتحيز ، دون ان تتغير منه الاعراض . هذا شيء مضاد للعقل ، منافي للمنطق فكيف لنا ان نفهم الخطيئة الأصلية ؟ هذا شيء غير ممكن . فاذا لم يكن سوى افراد نسهم بهذه العلاقة او الاسم : الانسان ، فاي مسؤولية علينا من خطيئة فرد ، هذا الفرد المسمى آدم ؟ ، أو ليس من الحيف والظلم ان نؤخذ بجريرته هو ؟ فكيف نفهم الله ؟ . هذا شيء محال . نحن ندرك الاشياء بواسطة هذه الاحكام العقلية التي نجريها على معطيات الحواس . وهذه العمليات الفكرية لا تقضي بنا الا لتجريدات سهلة ، ليست بالفعل سوى علامات مادية تشير الى شيء لا يرى ، خفي ، لا يمكن ادراكه او تفهمه ، فكيف نستطيع ، مع ذلك ، الصعود او الارتفاع من الاشياء المحسوسة الى الله ؟ فكل حقائق الايمان تستحيل احاجي والغازأ لا تدرك ولا لها حل بالنظر للفلسفة الاسمية .

فكان على اتباع هذه الفلسفة وعلى الآخذين بمقالتها ان يفصلوا او يقطعوا بين العقل والدين ، وبين التصريح بوجوب الايمان والاعتقاد ببناء لتعاليم الكنيسة وشهادتها ، القيمة على الكتب المقدسة والمفسرة لها ، وتبني الاقوال والاعمال التي تفرض الكتب المقدسة والكنيسة معاً ، ترداها والقول بها دون اي امل قط بان نفهم يوماً ، او نصل الى الله ، الله المحتجب عن كل حقيقة اخرى واكثر من اي حقيقة اخرى ، وراء حجب لا يمكن شقها والنفاز منها . ولكن

ماذا يبقى من الدين ، بعد هذا ، في نظر الكثيرين من الكهنة والمؤمنين ؟ سلسلة من الطقوس الآلية والصلوات الشفهية ومزامير ، واصطلاحات وعبارات بردها آلياً ، ميكانيكياً ، ونحن موقنون . عن طيب نية وحسن قصد ، ان لهذه الرموز قيمة في ذاتها ، دون اي اكتراث او اهتمام بوجود الله لا يُدرك ، ودون ان نحسي او نعيش هذه الحقائق الايمانية في نفوسنا ، ودون ان تحمل معها شيئاً الى القلب ، ودون ان تحرك منا النفس او ان تصبح حافزاً لنا على العيش والحياة عيشاً وحياة مسيحية حقة . فالديانة اصبحت جافة ، يابسة ، جامدة ، كما اصبحت النفوس شبه ميتة .

روح الاصلاح كان هنالك جماعة استحال عليها قبول هذا الوضع او تعذر عليهم النقاش معه ، قوم تحمسوا في دواخلهم ، الحاجة الى حياة اسمى تتمثل في الحب الروحاني ، هفت نفوسهم توقفاً الى هذه العذوبة السهاوية التي تلف النفس لفاً والى هذا الفيض من الحب الروحي الجياش . وراح هذا الفريق من المتصوفة والانسانيين يحاولون الوصول الى الله بالرغم من هذه الصعاب التي لاثرتها امامهم الفلسفة الاسمية . وهذا الجهد الجاهد ، وهذا الشوق المبرح تمثل على احسن ما يكون ، في هذه المحاولات التي تمت للقيام باصلاح ديني ، جذري ، كان المطلب الاكبر والقصد الاعظم الذي جاشت به نفوس الجميع ، اذ ذاك . وقد بدت للجميع الأخطار التي تتهدد الكنيسة بشر مستطير . وكان الناس يرددون ما يسمعون من حكاية ظهور علامات وامرات لا يمكن ان تخدع احداً لما علقوا عليها من دلالة . أفلم يشاهد الناس يوماً ، عام ١٤٩٩ ، ثلاث شمس ظهرت معاً وفي وقت واحد ، كما شاهدوا في احدى الليالي ، ثلاثة اقمار معاً ؟ أفلم تمطر السماء دماً ؟ وفي بلاد الاغريق ، ألم يشاهد الناس ، سيوفاً نارية تتلألأ في القبة الزرقاء ؟ وفي ٢٩ حزيران ، ألم تستطع الصاعقة ، نار السماء ، على الفاتيكان نفسه ؟ والبابا اسكندر السادس ألم يقع ويشج رأسه . كل هذه الغرائب علائم تنذر بشر مستطير ، كما يحلو لجان اوتون ان يعلق عليها شارحاً ، متيقظاً في كتابه : « تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر » . « هكذا بدا حال الراعي الصالح وعلى هذا الشكل كان وضعه ؛ افلا يكون ذلك نذيراً بتشتت الغنم او بما سيستهدف له القطيع من مآسي واضطهادات ؟ » ومن جهة ثانية فقد تطورت قوة الانسان المادية تطوراً خفيفاً . فقد استطاع الملك شارل الثامن ان يدك ، بما تم له من مدفعية ، قوية ، القلاع والحصون الايطالية . وهذه القوة الهدامة هل يجوز للانسان استخدامها للشر والخراب ؟ كذلك ، ان الفتور الديني الذي سيطر على الانسان ، واندفاع الناس وراء البذخ واشباع شهواتهم ، وهذه الهرطقات التي طلعت على الناس فزقتهم كل عزم ، كفلسفة ابن رشد ، تملأ القلب خوفاً وهلعاً . والى هذا ، راح الناس يتحدثون عن بلاد اصحابها ككفرة ، تقع ما وراء المحيطات ، يجب حمل بشارة الانجيل اليها .

لوفيفر ديتابل ففي هذه الظروف بالذات ، وفي مثل هذا الجو العابق بمثل هذه الهواجس والاضغاث ، وفي مثل هذه الذهنيات التي عشت فيها مثل هذه الترهات ،

طلعت علينا ، في غرة القرن السادس عشر ، المثلث التي جاش بها الفارس المسيحي - جندي المسيح *Miles Christi* ، المستعد دوماً للجهاد الروحي . عدته المثلث ، الصلاة وهذه الانسانية التي صقلت ثقافته العصر ، وكل العلوم التي خلفتها لنا المصور الخوالي ، بعد ان تُفَضَّض عنها غبار النسيان . وارتكضت في جنباتها الحياة ناشطة زاخرة ، وفوق هذا كله روح الله الحقبة . ولكي يتوفر لهذا الفارس المسيحي ما يلزم من عدة وعتاد في ما اخذ به النفس من مجاهدة ، قام الفرنسي لوفيفر ديتابل ، المولود عام ١٥٤٠ ، وأحد اساتذة كلية الكردينال لوموان ، يبحث ويتحرى عن هذه الفكر والافكار القديمة التي جاء بها كل من ارسطو وافلاطون والمتصوفون . فقد حاول الافلات او التملص من هذا الطوق ، من هذه البراهين والاقيسة الدقيقة ، التي طلعت بها الفلسفة الاسمية . فقد جاء في المقدمة التي وطأ بها لكتابة « المدخل الى المنطق » المنشور عام ١٤٩٦ ، بالحرف الواحد : « تَبَيَّنَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ان الحدسيات ، وهذه الاستقرات والحصرات ، والاستثناءات والمجازات والالغاز ، التي لا حل لها ، كلها امور لا طائل تحتها ، ولا خير منها ولا فائدة لها ، تكاد لا يؤبه لها ، وان الاحكام التي تبني عليها لا تمت بصلة قط للمنطق الحقيقي او الفلسفة الحقبة » . يجب ان نكف عن اقتطاع بعض نتف من ارسطو والاجتزاء ببعض مختارات او مقتطفات من آثاره لنتخذ منها دون النص الكامل ، اساساً لنظام او مذهب فلسفي . علينا ان نطالع هذه الآثار مطالعة كاملة وان نقرأها قراءة تدبر وتفهم ، بنصها وفصها ، وان نستخلص منها المعنى الحرفي ، قبل كل شيء . ان مؤلفات ارسطو وافلاطون هي خير الوسائل التي تقضي بنا عن طريق تفهم الاشياء الواهية والزائلة في هذا العالم الحسي ، الى الامور الالهية . فالله عز وعلا ، اقام من هؤلاء الفلاسفة ، كنهة له وجعل منهم انبياء وجعل منهم مشاعل تهدينا الصراط القويم . لا شك بان الله الذي ينير كل انسان واراد الى هذا العالم ، لم يكن بعد ، أعلن ذاته للبشر ، انما أطل عليهم من عليائه لانه النور الساطع الذي لا حد لاشعاعه ولا نهاية ، والذي تضيء انواره الاجيال كلها . فاذا ما اخذنا 'ننعم النظر في هذا كله وجدنا ان ارسطو ، بما وضع من نظريات كلية وبما فلسف مكنونات الاشياء وجوهر الكائنات ، واكثر منه افلاطون الذي رأى في الكليات وما لها من مفهوم عام صورة او نموذجاً او المثال الاعلى الذي يتحيز ، ليس فقط في الكائنات الفردية ، بل على حدة ، مستقلاً في الله ، فقلل بذلك من الصعوبات التي نلاقيها في شرح العقيدة المسيحية وتفسيرها . يمد هذا كم يخف الغموض الذي يحف بعقيدة الحية الاصلية ، اذ ان ما لطخه آدم في ذاته هو فكرة الانسان نفسه . هذا المثالي النموذجي ، الخالد الذي مر في خلد الله وخاطره ، والذي على شاكلته ومثاله جاء البشر اجمع . الا ان المعرفة الحقبة العميقة الغور ، البعيدة الجذر ، تتعدي بكثير ، قدرتنا على تفهم الامور ، كما تجاوز كثيراً طاقة العقل البشري . فالمعرفة تحصل باكتناه الشعراء ، باكتناه الله في هذه الشطحات الصوفية والمخطاطم الروحي . وفي هذا السبيل هبط لوفيفر ديتابل ايطاليا عام ١٤٩١ و ١٤٩٢ حيث تم له الاتصال بارسل فشينو وابهولا

بربارو الذي كان أخذ على نفسه ان يكشف عن حقيقة تعاليم ارسطو ، عندما راح يهاجم اتباع فلسفة ابن رشد . وتردد لوفيفر ديتابل ، بين ١٤٩٩ و ١٥٠١ ، على الصحاف المشهور ألد مانوس ، في البندقية وصاحب اكبر دار نشر فيها ، واشهر هذه الدور طراً ، في جميع أنحاء اوروبا بطبوعاتها . وقصد عام ١٥١٠ ، المانيا الرينانية ، جاء مدينة كولوني ، موطن المتصوفة ومعلمهم الاكبر ، ونزل ضيفاً على جمعية اخوة الحياة المشتركة ، فزودوه بكتب وابحاث تبحث في التصوف والمتصوفين . نشر بين ١٤٩٤ - ١٥١٥ شارحاً ومعلقاً ، مؤلفات نقولا دو كوس ، والمؤلفات الرمزية التي وضعها تريميجيست *Trismégiste* ودينيس الاروياجسي ، والقديسة اليسابات . كذلك نشر عام ١٥٠٩ ، الطبعة التي اعدّها لسفر الزامير كما نشر عام ١٥١٢ كتابه : « افراح روبسبروك الروحية » ، والطبعة التي اعدّها لرسائل القديس بولس مع شرحها وهكذا اسهم فعلاً في إيقاظ روح التقوى ، في النفوس .

ايراسموس وقد جاءت اعرق اثره وابعد مدى ، الآثار الفكرية التي وضعها الفيلسوف والكاتب الهولوندي ايراسموس ، هذا الراهب والكاهن الذي ولد عام ١٤٦٦ . والذي تخرج من جامعة باريس حيث اقام من سنة ١٤٩٥ - ١٥٠٠ . فقد كان من رواد النهضة الانسانية . ومن اضلع رجال العصر معرفة باللغة اللاتينية ، بحيث كان يخدش اذنه ما يسمعه ويشاهده من هذه اللاتينية المكسرة التي وردت على اقلام الكتاب السكولاستيكيين . جاء انكلترا عام ١٥٠٠ ، واقام في جامعة اكسفورد حيث لقي جون كوليت ، اثر رجوعه من إيطاليا وهو على اشد ما يكون اعجاباً بشيشرون وافلاطون ، والذي التحق ، عام ١٤٩٦ بكلية المجدلية ، فكان اول من طبق ، في دراسة رسائل القديس بولس ، مناهج النقد الحديث التي طبقها العلماء الايطاليون ، في درس مخلفات قدامى الاغريق الفكرية ، هذا النهج الذي كان لوفيفر ديتابل بالذات شرع بتطبيقه في دراسة ارسطو . وراح كوليت ، يشرح رسائل بولس ويفسرها كما يفسر ويشرح اي رسائل وجهها كاتب ما لاصدقائه ، محاولاً ان يلتقط في بساطتها الاولى الكلام الذي تفوه به القديس بولس ، دون ان يبالي قط بمذاهب الفلاسفة الاسمين وتجريداتهم . فافاض كوليت من انواره على ايراسموس الذي كان وقع تحت تأثير جان فتربيه ، رئيس دير الاخوة المرشدين في سانت اومير ، بفرنسا . فقد حفظ هذا الاخير عن ظهر قلبه ، رسائل بولس الرسول وخرج منها بصورة جلية واضحة ، متحررة تماماً بالروح والحق ، ضارباً بعرض الحائط ، هذه الاحتفالات وهذه المراسم والطقوس النافلة التي لا طائل تحتها .

نشر ايراسموس ، عام ١٥٠٠ كتابه : « الامثال » ، وهي حكم وأمثال انتقاها من الكتاب القدماي ومأثور كلامهم وشوارد الحكمة التي تساعدنا على فهم المقاصد الالهية . كذلك نشر كتاب شيشرون : « حول الوظائف » . فالامثال البشري الذي رسمه الاقدمون يساعد على توجيه الانسانية نحو أهدافها السامية ، غير ان يسوع وجدّه هو الذي يحقق فينا المثل الاسمي والاكمل

وراح ايراسموس ينشر عام ١٥٠٣ ، كتابه المشهور المعنون : « رفيق المناضل المسيحي - *Enchiridion militis christiani* وهو كتاب صغير الحجم كتب بلغة لاتينية ناصعة ، جزلة ، اراده صاحبه سلاحاً للروح ، شبيهاً بالخنجر صلاح الجسد .

واخذ ايراسموس يقنع قارئه بأنه مسيحي كاذب لأنه لا يتصرف كالمسيحي الحقيقي . « ترى قريبك تتحالف عليه الآلام والاصاب فلا تهتم لامره ولا تكترث لوضعه ؛ كل ما يهيك انت ، ان يسلم رأسك ، لا تأخذك فيه شفقة ولا رأفة ، فالامر لديك سيان . هل تستطيع ان تقول لي لماذا لا تشعر نفسك نحوه باي عاطفة ؟ الجواب بسيط للغاية ، يا اخي ، فانت لا تشعر بشيء نحوه لأن نفسك ميتة فيك - نعم ميتة هي - لانها لا تنعم بالحياة الحقيقية التي هي الله ، اذ حيث يكون الله تكون المحبة ، لأن الله محبة هو .

ولكن تتجدد فيك الحياة المسيحية ، حياة النعمة ، لا تذهب للرهبان ، اذ انهم قوم إستسلموا للخرافات ، فهم قوم ظلام ، قساة ، خطفة حقوقون ، غمامون ، نفاثون ، همهم الشجار والنكايات لانهم يعتقدون في انفسهم انهم على حق ، يتباهون بما تم لهم من خير ، يستنكفون ان يفهموا او يتفهموا الامور ، يخيل اليهم انهم على صلاح لأنهم لا يقتلون ولا يسرقون ، فهم مراؤون ، ومسيحيون زائفون اذ لا يهتمهم الا ان يلعبوا ، او ان يبرزوا سوامهم في مجادلاتهم الدينية . اما العون الذي انت بحاجة اليه ، فسيأتيك من المسيح نفسه ، اذ يعلمنا بولس الرسول ان المسيحيين يؤلفون جسداً مع السيد المسيح جسداً واحداً ، المسيحيون الاعضاء والمسيح منه الرأس . فالجسد يحياه المسيح ، في كل لحظة بدمه الذي بذله على الصليب وبنعمة الروح القدس . نحن بذاتنا ضعفاء ، ولكن بوصفنا اعضاء في جسد السيد المسيح السري ، نستطيع ان نعمل كل شيء . وبوصفتنا اعضاء في جسد المسيح ، هو يحررنا من الخطيئة ويعطينا الحرية الحقيقية ، ويسكب علينا الاطمئنان والرجاء والفرح ، على شرط ان نخضعه بحبنا ونقف هذا الحب عليه وحده . كل شيء حسن : المعرفة والصحة والقوة حتى والمال ، اذا ما ساعدنا على الازدياء حباً وتعلقاً بالسيد المسيح . والذي يبعدنا عنه هو الشر والاثم . فاذا كنت تتصرف بالمال تصرف الخازن أو امين الصندوق ، فيمر بين يديه برّاقاً في طريقه نحو الفقراء والمساكين ، فتصرفك حسن هو ، ويمكنك في مثل هذه الحدود ان تعمل على كسبه وتسمى الى تحصيله . اما اذا كنت تحتزن المال لذاته ، فالأوفق ان تطرح به الى البحر اذ يبعدك عن السيد المسيح ويسبب هلاكك . كل مناسك العبادة ومراسم الطقوس الدينية ، هي حسنة بمجد ذاتها ، اذا كانت تعبر فعلاً عن المحبة ، وإلا فشر هي ووبال . انت تصوم لتكون الى جنب السيد المسيح على الصليب ولتتألم معه بعض الشيء . هذا شيء حسن جداً . اما ان تصوم لان غيرك يصوم ، فعمل يعمله المراءون ، وعليك وحدك وزره . تتوجه بصلاتك نحو القديس خريستوف او القديس روكس أو القديسة بربارة . فاذا كنت تقصد بعملك هذا تكريم صورة السيد المسيح التي يحملونها في نفوسهم والحصول بشفاعتهم على نعمة التشبه بهم والسير على نهجهم لتصل الى محبة يسوع ، 'عد' عملك هذا برأ وصلاحاً ، اما ان كنت تستشفهم ليحرسوك من كل ضير واذي

او ليردوا عنك المخاطر أو لينصروك على اعدائك او ليردوا عنك الموت ، فانت فريسة خرافات خرقاء جوفاء . فالصلاة الحقيقية هي ان تطلب الاتحاد بالله والاقتداء بالسيد المسيح . ان الله يجب ان نعبده بالروح والحق ، والقلب الطاهر والاستقامة . أما ما يبيغضه الله فهو هذه الحركات والتصرفات التي لا تتم قط عن شعور حقيقي ولا تفيد شيئاً بما هو الله . ما معنى السجود والركوع في الكنيسة ، والقلب يعرج بالحق ويغلي ضغينة . ومسا نفع انشاد المزامير والتسابيح ، والفكر تائه مشتت . المهم هو تنقية القلب وتطهيره من كل رجس . المطلوب تحقيقه هو ما جاء في خطاب السيد المسيح على الجبل ، اي ان تحول خدك الايسر لمن ضربك على خدك الايمن ، اذ ردة الفعل المثل في المسيحي هي ان تحمل الشرير على رمي سلاحه وطرحه بعيداً لشدة ما يرى من كرم نفسك وطول افاذك ، .

ولكي نساعد السيد المسيح لبني فينا الحياة الداخلية علينا ان نعتصم بالتأمل ، صلاة القلب الحقيقية . خمس كلمات تفتجر من اعماق القلب خير من عشرة آلاف كلمة تخرج على طرف اللسان وتذهب في الهواء هباء ، « الشوق الشديد الذي تجيش به اعماق النفس هو الذي يجعل الله يصيخ باذنه اليك » اتمنيط بثل موسى النبي : فهو لا يثبت ببنت شفة وهو في حضرة الله العملي ، اما قلبه فيلهج صارخاً : لماذا دعوتني يارب؟

اما الوسيلة الثانية فهي معرفة شريعة الله ، « غذائنا الروحي » . ثقل يا اخي الحبيب ، أنه ليس من تجربة ، مهما اشتدت وطأتها ومهما خطر شأنها الا وتستطيع ان تتغلب عليها بقراءة الكتاب المقدس قراءة تدبر وتفهم . علينا ان نفلس عن الروح تحت الحرف ، عند هؤلاء المعلمين المزيين الكبار ، امثال : بولس الرسول ودينيس الاروباجي ، والقديس اوغسطينس واوريجينيس ، وان نستمد لفهم هذه الامور بالاستعانة بمؤلفات دنوية كتلك التي وضعها افلاطون . علينا ان نربي فينا قوة التمييز ، وان ننمي في ذواتنا ملكة المحاكمة العقلية ، وان نحكم على الاشياء بانفسنا ، اذ يتحتم علينا الانحداد مبادئ سلوكنا على المؤلف من أعراف الناس وعاداتهم حتى ولو لقيت استحسان البابا وحازت على موافقة الملوك ، بل علينا ان نزن هذه الاعراف ونقيسها وفقاً لتعاليم السيد المسيح . وهل من ضر علينا اذا ما كان قليلاً عديداً او كنا فئة صغيرة ؟ ويكفي ان تنال قضية ما أو ان تحوز رضى العدد الاكبر حتى تصبح موضوع ظنه وارتياب . كانوا ابدأ قلة وسيكونون دوماً فئة صغيرة ، هؤلاء الذين سيحافظون على نقاء القلب والضمير ، ويتحلون بالسذاجة والفقر الروحي والتجرد ، ونكران الذات ، ويستسكون بالحقيقة التي علمتها السيد المسيح . وهكذا نرى كيف ان الامر ينتهي عند ايراسموس الى حرية الفكر ، والى فردية المرء التي اكثر ما تليق بالحركة الانسانية ، وبالأحرى ، حركة « الانسانية الانجيلية » .

فلا تسلم ، بعد هذا عن الدوي الذي احده كتابه « رفيق المناضل » الذي اتبعه ، عام

١٥١١ ، بكتاب آخر عنوانه : « تفریط الجنون الذي جاء صورة عن الاول ، انما باسلوب تهكمي ، لاذع . فاشتهر بذلك اسم ايراسموس وامتد صيته في كل من ايطاليا واسبانيا ، والبلاد الواطئة ، وراح يعلم في جامعة كامبريدج ، في انكلترا ، في كلية كريستي ، حيث اخذ يعد طبعة جديدة للمهد الجديد ، باليونانية نشرها في مدينة بال ، عام ١٥١٦ ، في دار النشر المعروفة بدار فروبن Froben . وقدم لهذه الطبعة بخطبة حث فيها الناس على درس الفلسفة ، المسيحية ، عنوانها « *Paracésis ad philosophiae christianae studium* » « دعوة الى دراسة الفلسفة المسيحية » . يجب الا يحل احد بعد « فلسفة المسيح » « المعلم الوحيد المرسل من السماء » هذه الفلسفة التي هي في متناول الجميع ، لان في مقدور اي كان ان يردّ ورد هذا المين الصافي ، في بضعة كتب سهلة المأخذ : كالتجليل القديس يوحنا وبعض رسائل القديس بولس الرسول ونبوّة اشعيا النبي ، اذ باستطاعة اي كان ان يتفهم جيداً « لأنّ العقول تقتبس والنفس تستسيع بيسر ما يتلاءم مع الطبيعة » . والحال ان فلسفة السيد المسيح ، هذه الفلسفة التي يسميها هو نفسه الميلاد الثاني ، هي تجدد الطبيعة البشرية التي خلقت طيبة . وسيصادف القارئ ، باسرع ما يمكن ، معلماً ومرشداً هو الروح القدس الذي يحل بكل مسرة ، في النفوس الساذجة . « فالشمس التي تشرق علينا ليست باكثر التصاقاً بالناس ولا ايسر تناولاً من تعاليم السيد المسيح ... واني لآتمنى من الصميم ان تتمكن اوضاع السيدات من قراءة الانجيل ، ومن قراءة رسائل القديس بولس . وعسى ان تجود السماء بمن يقوم بترجمة الكتب المقدسة الى جميع لغات الارض بحيث تصبح في متناول الجميع وتيسر مطالعتها ليس فقط لسكان اسكتلندا ، وايرلندا ، بل ايضاً للعجم والعرب . صحيح ان البعض سيمدون لها طرف اللسان هازئين ولكن لا بد من ان يقع البعض تحت اسرها . وعسى ان يقيم الله من بين الزراعين والفلاحين من يردد آيات الكتاب المقدس ويلهج بها ، ويده على الحراث ، وان يطلع من بين الحاكة والنساجين من يتفنى ببعض نصوص الكتاب المقدس بينما تتعاور يداه الوشيعة ذهاباً وإياباً ، وان يجد المسافر في عزله ما فيه سلواه وتعزيتة في سيره الرتيب ، بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع احاديثهم وحديث سمرهم » . وهكذا نرى المسيحية تغذي جميع نشاطات الانسان وتسيطر على كل علاقاته الاجتماعية ، وتملأ كل حياته « فاللاهوتي الحق ، ليس هذا الذي يمضي في استخلاص البراهمين والادلة ويسوقها حججاً متصلة الحلقات ، آسره في بلاغتها دامغة في مدلولها ، بل اللاهوتي الحق هو هذا الذي يعلم ويرشد بكل ما فيه من اقتناع وإيمان حي ، وحسن سلوك ، وحياة مثالية ، ويحتقر الماديات ويعرض عنها .. هو الذي امتلأ من روح المسيح ، ويعلم تعاليمه وينشر مبادئه .. هو هذا الذي يحرص على غرس هذه التعاليم في قريبه ويحرضه على العمل بها ، ويأخذ بيده الى مراتب الايمان . هذا هو اللاهوتي الحق ، سواء اكانت يده على الحراث أو وراء منسجعه » .

كل هذا يتفق كل الاتفاق وتعاليم الكنيسة . فايراسموس هو هنا ، في صميم الصراط القويم ، في صميم الارثوذكسية المستقيمة الرأي . فالقول بالطبيعة البشرية ، التي لطختها الخطيئة الاصلية

ودنسها دون ان تفسدها كلياً ، هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية نفسها . ومع ذلك ، فكتابته « *paraclesis* » مليء بالمواد السريعة الانفجار . فاذا ما راح قارئه يمضي ، مثلاً في استخلاص النتائج المترتبة على القول ان الروح القدس هو المعلم ، ومضى في استنتاجه هذا الى الحد الأقصى ، انتهى حتماً الى وضع ، اضطر معه امام المنطق الأسر ان يسلم بان أقل رتبة منزل واية مسكنة ، تطالع الكتاب المقدس ، مستضيئة بأوار الروح القدس ، قد تطلع برأي او تفسير ، يناقض تماماً جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة . واذا مضى القارئ على مثل هذا النحو ، ويده مثل هذا القياس ، انتهى الى التسليم بان اللاهوتي الحق هو هذا الفلاح ، أو هذا الحائك الذي يمثل في سيرته وسريته ، قول السيد المسيح : أفلا ينتهي به المطاف الى استنتاج آخر ، الى نكران كل صفة كهنوتية في الكاهن ، فيضرب بعرض الحائط ، السلطة في تسلسلها المترابط ، وينكر بالتالي الكنيسة ؟

بعد نشر كتابه الأخير الذي اشرفنا اليه أعلاه ، أصبح إيراسموس زعيم الانسانيين الانجيليين ، في جميع أنحاء أوروبا . فنشر ، بالاتفاق مع الراهب الدومنيكي جان فابر ، في خريف عام ١٥٢٠ ، رسالة طالب فيها بوجوب عقد مجمع مسكوني . وبما يلت النظر في هذا الامر ويدعو الى شيء من الغرابة والدهش ، هو اشتراك هذا الراهب الدومنيكي بأعداد هذه الرسالة ونشرها بالتعاون مع إيراسموس ، في الوقت الذي سبق للبابا فيه واصدر بتاريخ ١٥ حزيران السابق براءته المشهورة *Exsurge* الذي حرم فيها الراهب المتمرد لوثير وقطعه من عضوية الكنيسة وشراكتها ، حتى ان اللوثيريين الالمان استهولوا الامر ، وراحوا يقترحون بوضع انفسهم تحت تصرف إيراسموس ، حتى ان لوثير نفسه عرض عليه ، عام ١٥١٩ ، ترأس الحركة الانتفاضة التي قام بها ، فرفض . وقد خيل للجميع . بين ١٥١٦ - ١٥٢١ ، ان الكنيسة ستقوم ، هي نفسها باصلاح نفسها ، وذلك باتفاق على نصوص معينة يتفق عليها الاطراف المعنية ، يقره مجمع مسكوني يُعقد لهذا الغرض ، اساسه مسيحية تتمتع بحرية واسعة بعد تحديد القضايا اليمانية الاساسية ، وفاقاً للمنهج الذي فصله إيراسموس في رسالة له الى بول فولز ، رئيس دير هوغشوفن ، مؤرخة ١٤ آب ١٥١٨ ، هذه الرسالة التي جاءت مقدمة للطبعة الثانية لكتابه : « رفيق الفارس المسيحي » التي ضمنها الامور التالية : صرف النظر عن أي جدل او مناقشة مع اتباع الفلسفة الاسمية ، الاقتداء بالسيد المسيح ، تحديد بعض قضايا الايمان والآداب بكلمات مقتضبة ، الكمال المسيحي حسبما يستطيع المسيحي تحقيقه في حياته الخاصة ، لان « الكمال المسيحي يتمثل ، قبل كل شيء في ما يحتاج في النفس من احساس ومشاعر وليس في نهج الحياة » ؛ إذا الفاء طغمة الرهبان بالتالي ، ونسخ الفرائض التي الزموا الناس الاخذ بها .

ما كادت هذه الانتفاضة الدينية على الكنيسة ان طلعت حتى ظهرت اختلافات
لوثير ومفارقات اساسية بين المؤازرين لها والناهضين بها ، لم يكن من السهل قط حلها

او كبتها ، فأدت بالتالي الى التباعد بين لوثير وإيراسموس والانفصال عنه ولا سيما عندما اثبتت قضية التوفيق بين قدرة الله السكلية وبين الحرية التي يتمتع بها الانسان في ارادته . فبينما كانت لوثير يسعى بكل قواه ، ولكن دونما جدوى ، ان يكيّف نفسه ، وهو بعد راهب تابع للرهبة الاوغسطينية ، ليسير حسب مشيئة الله وان يتصرف بما فيه مسرته تعالى ، ظهر له ، والالم يحز في نفسه ، ان الانسان اعجز من ان يتم وصايا الله واعجز من ان ينال ، بالتالي ، مثوبة عنده . فقد شعر ، في الصميم ، هذه الشهوة التي تلازم طبيعة الانسان وتتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملا الى الشر ، الى الاثم والريذة ، الى الشره ، الى السيطرة على الآخرين ، بحيث يصبح الانسان غارقا في خضم الخطيئة . فقد عاش لوثير بنفسه ، هذه الحالات التي 'خَبَّلَ اليه فيها ان الانسان يملكه فجأة' ، شعور عارم لا يقاوم يطيح امامه كالسيل الجارف ، بمقاصده ونواياه ، ويفرق ضميره ، ويسير به الى دوامة تجره الى الشر . كثيرا ما فكر بهذا الاشحنزاز يحسه نحو الاعمال الحسنة ، هذه الاعمال التي ، مها تجاهل الانسان الخطيئة وتعامى عنها ، تحالطها ، في احسن الحالات التي يكون فيها الانسان صادق العزم والارادة ، افكار دنيئة ، واهية ، رجسة ، تنزى بالأثرة والمنفعة الخاصة ، وحس الظهور والمجد الباطل ، بحيث يشمر المرء ان كل ما يأتيه او يصدر عنه او يفعله ، لا يمكن ان يكون صالحا ، او حسنا او خيرا . فقد تخير هو هذه الحالات النادرة جدا ، التي يشمر الانسان فيها وكأن قوة تهبط عليه فجأة من فوق ، من العلو ، فيرى نفسه محمولا الى الامام ، نحو العمل الخير ، البار ، فتنبض نفسه ، بصورة غامضة ، لا يرقى اليها الشك ، بشعور نقى طاهر . ومن هذه التجربة الشخصية التي عاشها نشأ عنده الاقتناع التام بعجز الارادة البشرية ، الجذري ، الذي لا حيلة فيه ، وبقوة النعمة الالهية التي لا تقاوم . وعلى هذا اليقين الذي رسخ فيه ، نهض تفسيره للكتاب المقدس وشرحه له .

وقد توضحت افكاره وتبلورت خواطره بهذا الشأن منذ ان وضع شروحه على رسائل پولس الى اهل روما ، عام ١٥١٥ - ١٥١٦ ، ووضع مبادئه العامة في وتنبه ، ونقده للاموت السكولستيكيين وقفنيده له ، عام ١٥١٧ . « فالطبيعة البشرية ، بحكم جوهرها ، فاسدة هي وعاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد . » فحرية الارادة فسدت من جراء خطيئة آدم . وبواسطة الخطيئة الاصلية ، يرى الانسان نفسه مسوقا الى الشر بصورة لا معدى له عنها . فلا يمكن للانسان ان يريد او يرغب غير الاثم والشر ، ولا يمكنه ان يصنع الا الاثم . غير ان الله القادر على كل شيء ، والذي يعرف منذ الازل ، بما له من سابق علم ، من هم الخالصون ومن هم المالكون ، يرسل بمعطف الهي منه ، نعمته وأيده السماوي ، لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح ، الى هؤلاء المحدثين ، منذ الازل ، الذين اقتداهم السيد المسيح بدمه وبذل لاجلهم آخر نقطة مسمرأ على الصليب . فالله يعطي هؤلاء ، مجاناً ، دونما اي استحقاق منهم ، الايمان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي به وحده يتم الخلاص ، كما ويزرع فيهم ويسكب عليهم حب يسوع ، والخضوع لارادة الله . والنعمة الالهية هي التي تجعل الانسان يرغب في الخير ويسعى اليه ، بعد ان كان زهديه واعرض عنه وتنكر

له ، فتحمله حملاً وتقصره قسراً على الزرع اليه . فالإنسان هو العوبة بيد الله . « نحن لسنا اسبياد عملنا ، انما نحن عبيد من المهد الى اللحد ، من البداية الى النهاية » . و « نحن لا نتبرر قط ، مهما كان سلوكنا باراً ، واذا كنا نعمل اعمالاً بارّة ، فلأننا نتركبنا بنعمة الله »^(١) . فالنعمة ، والحالة هذه ، لا تشفي الخاطيء ، فهي تدعه دَنَساً ، رجساً ، غير طاهر ، غير ان الله ، بنعمة منه مجانية ، ينجي من هذا الفساد ويخلصه من هذا النتن الذي يملأ كيانه ، وذلك بفضل استحقاقات السيد المسيح التي يجرها على الخاطيء بالايان بيسوع المسيح ، هذا الايمان الذي تفيضه النعمة عليه . ولذا كانت اعمالنا وتصرفاتنا لا شأن لها ولا قيمة البتة لعمل الخلاص . فالايان وحده ، اولى النعم ، هو الذي يُخلص . فالاعمال البارة ليست سوى الدليل على النعمة . فاذا كانت النعمة تملأنا اوحى الله لنا بهذا ، بواسطة الروح القدس الذي يأتي الينا ويطمئننا بان خطايانا قد غفرت لنا ، مهما كانت اعمالنا وتصرفاتنا . وترجو رجاء وطيداً انها تُسير الله ، مع انك تدرك جيداً بانك لا شيء امام الله ، باعمالك هذه ، حتى ولو كانت مرضية بارّة ، حتى ولو عملتها بروح الطاعة ؛ اذ لست انت الذي تعمل الاعمال الشريرة . فالله هو الذي يعمل كل شيء بدون ان يسهم الانسان بشيء . وهكذا نرى ان حرية الارادة وهم هي وخيال .

من هو الذي أدخل في روعنا واقتننا ان باستطاعة ارادتنا ان تعمل شيئاً ، وان في مكنتنا ان نكسب أجراً ومثوبة امام الله ؟ هم الفلاسفة القدامى الذين بواسطتهم استطاع اصحاب الفلسفة المدرسية ان يفسدوا الكتب المقدسة . فما الذي يعلمه لاهوتيو الفلسفة الكلامية ؟ انهم يرون في من لا يحسن المنطق من رجال اللاهوت هرطوقياً خطيراً ، هذه العبارة التي ينعتها لوثير بكونها هرطوقية غيفة . وما الذي يعلمه اللاهوتيون من اصحاب الفلسفة الكلامية ؟ هم يرون انه بدون معرفة ارسطو لا يمكن لانسان ما ان يصبح لاهوتياً . أما لوثير ، فيؤكد عكس ذلك تماماً ، فهو يعلم ان الانسان لا يصبح لاهوتياً الا اذا ابتعد عن هوميروس وتجاهله تماماً ، « وان نسبة ارسطو لللاهوت هي نسبة الظلام الى النور » . « كل ما جاء به ارسطو عن الاخلاق هو عدو النعمة ومضاد لها » فقد وقف لوثير من الفلاسفة الكلاميين موقفاً عكسياً ، مناقضاً لهم كل التناقض ، كما انه يبعد كل البعد عن الانسانية الانجيلية .

التصادم بين الانسانية
الانجيلية والاصلاح
وقع هذا الاصطدام عندما راح ايراسموس ينشر عام ١٥٢٤ ، كتابه :
« حول حرية الارادة » . فحرية الارادة ، في نظر ايراسموس ، هي ملكة من ملكات الحرية البشرية ، وصفة من صفاتها الملازمة ، بها يستطيع الانسان ان يأتي كل ما يفضي به الى الخلاص او الى الهلاك الابدي . وفي هذا السبيل ، ونهوضاً منه بهذا الهول ، راح ايراسموس يجمع النصوص الكتابية التي تشير او تُلحظ الى حرية الانسان باختيار الخير أو الشر على هواه . فتولى بالتدقيق والتحقيق بعض النصوص التي يبدو عليها انها تعني عكس ذلك ،

(١) من كتابه : مناقشة لاموت السكولستيكيين - الغضية ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ و ٤٢ .

وأخذ يدلل انها ضرب من المجاز ألحقَ بعض الغموض وأدخل شيئاً من اللبس على المعنى الحقيقي لهذه النصوص التي تعني حقيقة ، حرية الارادة في الانسان . وهكذا ، فالنفس البشرية لها القدرة على ان تحكم وتقضي وتقرر ، كما لها القدرة على الاختيار . صحيح ان الخطيئة الاصلية ألحقت بعض الغموض بهذه كما سببت بعض الضعف في تلك ، انما لم تقض عليهما البتة . ولما كانت الخطيئة قد رفعت عن الانسان بنعمة الله وتحننه ، فقد عادت الى هذه القوى حريتها بسلوك الصراط المستقيم والمضي في غراره ، بموازرة النعمة الالهية ومساعدتها .

حتى بدون النعمة ، بقيت حرية الارادة فينا ، قائمة ، ولو ان الخطيئة اضعفتها . بدون النعمة الالهية ، كان باستطاعتنا ان نتجه من الخير والصلاح ، وان نأتي ، اعمالاً صالحة بارة نستحق بها نعمة الله المبررة . فاذا لم يكن للانسان حريته ، لأتفت عنه بالتالي كل مسؤولية . فما الفائدة ، والحالة هذه من عدل الله ورحمته ؟ ان الواقع فعلاً هو ان نعمة الله وارادة الانسان تعملان معاً بالتعاون : فالنعمة تظهر حرية الارادة وتنقيها بما علق بها من شوائب ، كما ان حرية الارادة تعمل هي الاخرى من جهتها .

جاشت حفيظة لوثير لهذه التعاليم ، وراح يرد على ايراسموس بكتابه « *De Servo arbitrio* » - حول عبودية الارادة » الذي نشره عام ١٥٢٥ ، والذي جمع فيه زبدة تعاليمه بهذا الشأن ، كما راح يقذف ايراسموس باقذع الكلام ، ويدعوه : « خنزيراً » و « نفاقاً للسموم » كما رأى في كتابه الاخير : « قيامة اوساخ » ومطرح « الاوحال والقاذورات » . واذ ذاك ، أخذ لوثير يهاجم بهذا القياس ذي الحدين : اما ان تكون لحرية الارادة القدرة على السير بنا الى الخلاص ، فتصبح النعمة ، اذ ذاك ، لا طائل تحتها البتة ، ويصبح من التجديف على الله نكران القدرة الالهية ، واما ان لا تكون لحرية الارادة اي قوة او فعالية ، فلا تستطيع بالتالي ان تأتي اي عمل او ان تنتج شيئاً ، واذ ذاك تصبح كلاماً مكروراً باطلاً وهباءً منشوراً . والحال فانت تقرر وتعترف بأن حرية الارادة كثيراً ما تحتاج للنعمة ، في كل تصرفاتها وسكناتها ، وبذلك تعترف ضمناً انها لا شيء قط . وراح لوثير ، بوصفه تلميذاً للفيلسوف الاسمي ريبيل ، يفكر ويعلم ان جل ما يمكن لنا ان نتوقعه من مصير هو ان تبقى ، الى الابد ، مغمورين ، نكرة ، ليس فينا ما يستحق الذكر او يلفت النظر . فحيث لا توجد ظواهر تم عن شيء ما ، فليس هنالك شيء قط . ما عساك ان تقول لو اني استخدمت اقوالك وتأكيداتك بوجود حرية الارادة ، فاثبت لك منها ان لا وجود لهذه الحرية البتة ؟ فانت تعترف لحرية الارادة ، بقوة هزيلة ، وان هذه القوة تبقى عاجزة ، لا تأتي شيئاً بدون نعمة الله . والحال ، فاذا ما غابت نعمة الله عن هذه القوة التي لا أثر لها ولا حول ، أو اذا لم تبلغها نعمة الله وتصل بها ، فما يمكنها ان تفعل ؟ ستقول ، ولا شك ، انها لا تعمل شيئاً صالحاً اذ لا تأثير لها . اذاً هي لا تفعل ما يريد الله او نعمته ان تفعل ... وما لا يتم بنعمة الله ، وما لا تعمله نعمة الله ، لا خير فيه . ومن هنا يستنتج ان الارادة لا حرية لها البتة بدون نعمة الله ، يل انها تبقى ، ابد الدهر ، اسيرة للشر وعبدته له ، اذ تبقى

عاجزة عن الاتجاه وحدها نحو الخير .. وما عسى ان تكون هذه القوة التي لا تأثير لها سوى انها قوة لا وجود لها ؟ ولهذا ، فالقول ان حرية الارادة موجودة ، وان لها قوة ، انما هي قوة لا تأثير لها ولا فعالية ، شبه بالقول ان حرية الارادة موجودة لانها لا توجد بالفعل ، وكأنك بذلك تقول : « النار الباردة » . فالارادة البشرية تقع ، والحالة هذه ، بين الله والشيطان ، وهي ، كالحصان ، تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها الى الامام . فاذا كان الله هو الذي يوجهها ، اتجهت هي الاتجاه الذي يريده لها ، وحسباً يريده لها . واذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها ، ذهبت هذه الارادة حيث يريد لها الشيطان ، وسارت كيفما يريد . والحال ، فالارادة البشرية ، في هذا كله ، ليست حرة قط ، باختيار سيد لها . فهي ستبغ من من الفارسين المتصارعين ، او من من القوتين المتصادمتين ، يتغلب على الثاني . وهنا نرى ان لوثير اشتط كثيراً وذهب بعيداً ، اذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع مبدأي الخير والشر اللذين كانا يتنازعا على السيطرة على العالم . اي انه لامس هرطقة المانوية باعتناقها مقالتهن فلا عجب ان يتهمه ايراسموس رسمياً بالهرطقة ، بين ١٥٢٦ - ١٥٢٧ .

هذا الجدل الفلسفي بين لوثير وايراسموس كان الفاصل بينهما والقطيعة بين الاصلاح والانسانية الانجيلية بل كان ابعد من ذلك ، اذ اصبح القطيعة بين الاصلاح البروتستانتي وعصر النهضة . ففي « الحوار » الذي نشره سنة ١٥٢٤ ، تصور ايراسموس ، شيشرون كأنه شخص ملهم من الله ، فراح احد الذين شاركوا في هذا الحوار وشهدوه يصرح قائلاً : تغلبت على نفسي بكل صعوبة لأنمنا من ان تنطلق بالصرخ : « يا قديس سقراط ، صل لاجلنا » . اما لوثير فانه حكم بالهلاك الابدي لسقراط كما انه سفسه كل كبار العقول الذين لمعوا في عهد الوثنية ، بعد ان رأى في فضائلهم سفاهات ، وفي اعمالهم الخيرة الصالحة خطايا ، لانهم عطلوا الله ، في نظره ، من القدرة على ان يؤمن لوحده خلاصنا . « فقد انحدروا الى ادنى دركات الحقارة والمحطووا الى اقصى درجات البغضاء ، في بلوغ فضائلهم الذروة من التسامي » ، لأنهم نزعوا ، على ابشع صورة من السرقة والاختلاس ، مجد الله ليتباهوا هم به .

وهذه الخصومة العنيفة بين المذهبين الدينين الجديدين ، برزت على أشدها ، هي ايضاً ، بين النظم الكنسية الاخرى . آثر ايراسموس ان يبقى ضمن الكنيسة الكاثوليكية ، بعد تحررها واصلاحها . ففي الحين الذي اشتد فيه الجدل وحي وطيس النقاش ، برزت الوجود كنائس لوثيرية اخرى . فعند لوثير ، بين ١٥٢٠ - ١٥٢٨ ، الى تنظيم كنيسة ساكس البروتستانتية ، فجاء تنظيمها نموذجاً نسجت على منواله الكنائس الانجيلية الاخرى التي قامت في مقاطعات : هس وبروسيا واسوج والدانمارك . فقد رأى لوثير ، معتمداً في ذلك على بولس الرسول ، في رسالته الى الرومانيين (اصحاح ١٣ العدد الاول) وعلى رسالة بطرس الثانية (اصحاح ١٣) ان السلطة هي رسالة الهيمنة « تقوم على خدمة الله » ، وعلى المسيحي ان يخضع لهذه السلطة . فالأمير أو الملك ، بقطع النظر عما له من سلطة مدنية مطلقة ، يراقب ، بما له من حق الهي

معطى له ، الكنيسة ويتولى ادارتها . فبالاملاك والوقوفات الكنسية التي جاءت هبات من جماعة المسيحيين ، تخضع السلطة التي عهد الله اليها بتدبير امورها ، للامراء والحكام . فالامراء اللوثريون ، هم مدعوون ، والحالة هذه ، لان تخلفوا البابا في ما له من سلطة اديبية ، وبذلك يزيدون ، بواسطة مصادرة الاوقاف الكنسية ، ما تم لهم من ثروة وسلطان . فصاحب السلطة هو الذي يختار الوعاظ وشيوخ الكنيسة ويعين المراقبين الماليين الذين يتولون مراقبة الكنائس ويحرصون على بقاء نقاء مراسم العبادة والطقوس . باستطاعة رعاة الكنائس ان يتزوجوا . الله وحده قدوس هو ، فلا موجب بعد ولا داع ، لعبادة مريم العذراء ولتكريم القديسين وتكريم صورهم المرسومة باليد او المنقوشة في الخشب او الحجر . اما الاسرار فلم يبق منها الا السران اللذان رسمهما السيد المسيح صراحة ، وهما : سر العباد وسر الافخارستيا . ولكن تعاليم لوثير عن المسيح طلعت علينا بالكثير من الاسرار . فقد راح ، رغبة منه في تعظيم السيد المسيح ، يشدد ليس على وحدة الابن فحسب ، بل ايضا على طبيعة المسيح الالهية بحيث أوشك ان يلامس الهرطقة القديمة التي قالت بطبيعة واحدة في السيد المسيح . فقد رأى ان الطبيعة الالهية في السيد المسيح أضفت على الطبيعة البشرية فيه شيئاً من خصائصها وملكانها الجوهرية ، ولا سيما ، خاصية الوجود في كل مكان او خاصية كلية الحضور . فالمسيح الله هو في كل مكان ، والمسيح الله يمكن ان يوجد في كل مكان . فالمسيح يوجد بالفعل في الحبز والخمر بعد ان يتم تقدسها ، اذا ما توفرت لمتناولها ، الشروط اللازمة . فقد رفض لوثير الاعتراف او الايمان بالاستحالة الجوهرية التي يستحيل فهمها من وجهة نظر الفلسفة الاسمية ، غير انه يؤمن بالحضور الجوهري . فالعبادة على هذا النحو من المفهوم يمكن تبسيطها ، اذ تقتصر ، في ايام الاسبوع العادية ، على التعليم والوعظ وترتيل المزامير . أما يوم الأحد فيُحتفل فيه بالقداس . فالمذبح والشموع والالبسة الكهنوتية ، يمكن ان يحتفظ بها . فالكاهن يقرأ ، بالألمانية ، الرسائل والانجيل ، وجمهور المؤمنين يتلو بالألمانية أيضاً ، قانون الايمان ، كما ان الكاهن يشرح موضوع انجيل النهار ويفسره ، ويتلو بالألمانية كلام التقديس ، ويوزع القربان تحت اعراض الحبز والخمر . اما الاعتراف فليس بضروري ولا ما يوجب له . وفي ظل كنيسة الدولة الرسمية يبطل كل جدل ديني ، ويُقْطَع من شراكتها المخالفون لها بالرأي ، كما ان للكنيسة الحق بالحد من حرية الفكر ، وتفرض على الجميع . الطاعة السلبية . فبين هذه الصورة والصورة الاخرى التي تمثلها ايراسموس للكنيسة ، طرفا النقيض .

ففي الوقت الذي كانت فيه لوثير يقطع كل علاقة له مع الانسانية الانجيلية ، كان البعض من أتباعه يقطعون معه كل علاقة .

لم يلبث القول بحرية الضمير ، وحرية الاعتقاد وبالفردية ان اعطى كل نتائجه المنطقية . فالراهب السويسري زونكلي الذي كان يخدم منذ عام ١٥١٨ ، الكنيسة الكبرى في مدينة زوريخ والذي عُرف عنه أولاً ميله الظاهر الى ايراسموس والتعاطف معه ، ثم أخذ يقيم ، اكثر

فاكثر ، تحت تأثير لوثير ، لم يلبث ان تعداه سنة ١٥٢٢ ، وتجاوز بعيداً تعاليمه ، فدخل حق فكرة الاسرار التي حافظ لوثير على بعضها . فالعباد والعشاء ، السري ليسا سوى رمز . فالمنافاة لم تعد سوى رمز لرابطة روحية مع روح المسيح ، ليس الا . والعبادة اقتصر على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشتراك . فالشعب او جمهور المؤمنين هو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها ، كما انه هو الذي يحكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة ، من هذا التفسير ، اما الكنيسة فليست سوى ديموقراطية تذوب في الدولة الديموقراطية . وفي سنة ١٥٣٤ ، تبنى المجلس البلدي في زوريخ ، رسمياً ، هذه الحركة الاصلاحية التي لم تلبث ان امتدت منها الى مدينة بال ، ثم الى مدينة برن . وقد شعر الكثيرون ان الله بعيد كل البعد عنهم ، في نطاق المفهوم الذي أعطاه للاسرار الكنسية .

كذلك راح احد تلاميذ لوثير واتباعه هو موزر يؤسس ، عام ١٥٢١ ، في
الاممندانين
بلدة زويكان ، من اعمال ساكس ، حركة ، دينية اصلاحية ، جديدة ،
عرفت بحركة منكري المعمودية او المطالبين باعادة المعمودية . انطلق في حركته هذه من المبدأ الذي قال به لوثير وعلم ان ما يجعل للسر قيمة هو الايمان الذي ينتقل الى المؤمن عند اقتباله سر العباد . اذا فمعمودية الاطفال لا تحدث فيهم اي تغيير قط ، ولذا كان من المتوجب إعادة عماد هؤلاء الاشخاص عندما يبلغون سن المراهقة ، اذ يصبح في مقدورهم ، اذ ذاك ، ان يقوموا بعمل الايمان المطلوب . كذلك علمهم موزر ان كل انسان يتلقى الالهام من الروح القدس مباشرة اذا ما تمنى ذلك ، هو نفسه ، كما يتلقى منه معرفة اية حقيقة حتى انه يتلقى منه اوامر ونواهي خاصة . بعد هذا ، لا لزوم بالطبع ، للكنيسة ولا لطقوس العبادة ، ولا للقوانين والشرائع ، ولا لاي سلطة مهما كان شكلها . فالروح القدس يخلق عند كل من نزل عليهم الالهام مساواة كاملة : « فالكلمة هم ملوك وكنة » . فلا حاجة بعد لاي نظام اجتماعي ولا لاي منظمة او هيئة من هذا النوع ، اذ كان من الواجب العودة بالحياة الى ما كانت جماعة المؤمنين الاولى ، في مطلع الكنيسة ، من بساطة ، حيث كان كل شيء مشتركاً بين المؤمنين . وهكذا نرى ان التلميم الجديد كان من شأنه ان يفضي حتماً الى الشيوعية . وانتشر دعاة هذا المذهب الديني الجديد في جميع ارجاء المانيا الجنوبية ، ومورافيا وبولونيا ، ولم يمتنعوا ان يشقوا على انفسهم طوائف ، متباينتين : طائفة المسلمين منهم ، وطائفة المنادين منهم بالمذهب والشدة التي انضم اليها موزر . فقامت بينهما حروب شديدة دامية ، طاحنة عرفت بحروب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦)

الحلم الذي راود ليلا ، خيال ايراسموس بطولوع كنيسة جميعهم
الاصلاح الكاثوليك .. البابا
تجديد من شبابها وتصلح من شأنها على يد مجمع مسكوني ، هذا
الحلم الذي حاول الامبراطور شارل الخامس طيلة حكمه ، تحقيقه والخروج به الى حيز الواقع ، تبخر وراح هباء منثوراً . وشرعت الكنيسة الكاثوليكية تعمل من جهتها على تمكين تنظيمها

وتقوية كل ما من شأنه ان يباعد بين الكتلركة وجماعة الانسانيين الانجيليين ، والاصلاح البروتستانتي . وقد بوشر بالاصلاح الكاثوليكي في الوقت الذي تتتابع فيه مساعي الانجيليين والاصلاحيين للقيام بعمل مزدوج ، مشترك تساهم فيه السلطة الشرعية : البابا والكنيسة من جهة ، ومن جهة ثانية ، النفوس المشبعة بروح الدين الحق ، السلطة الكنسية التي راحت تتقصى الهراطقة ، وتلاحقهم ، وتحدد قضايا الايمان ، والرهبان ورجال الاكليروس والعلمانيين الذين يقومون بمناسك العبادة ، ويحيون في نفوسهم حقيقة ايمانهم .

فالباپا قد تخلص نهائياً من النتائج والمقررات الاخيرة التي افضى اليها مجمع كونستانس وبال . فعقد البابا ليون العاشر اتفاق الكونكورداتو مع الملك فرنسوا الاول ، أقره ، ووافق عليه مجمع لاتران ، عام ١٥١٦ . فقد أهملت هذه المعاهدة في نفسها النهائي ، الفصلين الاولين من الاتفاقية الدينية التي عقدها الملك شارل السابع ، عام ١٤٣٩ ، مع الكنيسة والتي تعرف بـ : *La Pragmatique Sanction de Bourge* ، هذه الاتفاقية التي ضمت بين ما تضمنته من نصوص ، قرارات مجمع كونستانس التي نصت على وجوب انقضاء فترة عشر سنوات ، بين عقد مجمع مسكوني وآخر ، كما نصت على ان سلطة المجمع المسكوني هي فوق سلطة البابا . ومن جهة ثانية ، فابرام البابا هذه المعاهدة الدينية جاء دليلاً على سلطته العليا ، كما انه باصداره البراءة « الراعي الابدي *Pastor æternis* » عام ١٥١٦ ، ألغى ، من تلقاء نفسه ، معاهدة بورج الدينية معللاً عمله هذا : « بأنه من الضروري جداً للخلاص ان يخضع جميع المسيحيين لرئيس الاحبار الروماني » ، كما جدد دستور الكنيسة حسبما وضعه البابا بونيفاسيو الثامن في براءته : « *Unam Sanctam* » . فالكنيسة لها رئيس واحد هو السيد المسيح ، ويمثل المسيح على الارض ، خليفة القديس بطرس . فالكنيسة تجمع في يدها السيوف : الروحي والزميني . فالبابا يحتفظ بالسيف الروحي (السلطة) ويمهد بالسيف الزماني الى الملوك الذين لا يجوز لهم استعماله الا وفقاً لارادة البابا ، الذي يقرر سلوكهم لما فيه خير الكنيسة . وهكذا فالجدل الذي وقع لاستبدال رئاسة مار بطرس برئاسه مجاس استشاري ، فشل تهماً ومات بتراجع ملك فرنسا ، كما ان البابا جعل من الكنيسة نظاماً ملكياً ينزع الى الحكم المطلق .

علماء اللاهوت
اصدر البابا ، عام ١٥٢١ ، حرماً ضد لوثير وحمل الامبراطور ، في مؤتمر وورمس على اصدار امره بالقاء الحاجر عليه . ومن جهة ثانية ، فاذا كانت تعاليم ايراسموس نالت بعض الخطوة في البلاط البابوي ، فقد وجد علماء اللاهوت الكاثوليكي ان دفاع ايراسموس عن حرية الارادة وتعاليمه حول هذا الموضوع ، ليس واهياً ولا يفي بالفرض ، فحسب ، بل ايضاً فيه الكثير من الشوائب التي تعتوره والمغالط التي تشوه وجه الحقيقة . فراحوا يجرحونه وينقدونه في سلسلة من الرسائل والردود المفحمة ، منها الرسالة التي وضعها الاسباني سبولفيدا ، عام ١٥٢٦ ، بهذا العنوان *De fato et libero arbitrio adversus Lutherum* « حول القدر وحرية الارادة رداً على لوثير » . فقد أخذ علماء اللاهوت ، على

ايراسموس الغاية الاولى التي وضعها نصب عينيه ، الا وهي معطيات الوحي ، اي الكتاب المقدس ، وهي النقطة التي انطلق منها اللاهوتيون ، بالذات . فقد رغب ايراسموس ، وفي هذا قناعته واقتناعه ، ان يشدد ، من الوجهة التاريخية ، على ما في معطيات الوحي ، من القيم الروحية والادبية في الكتاب المقدس ، مما لفت نظره ووقف عنده ، ليجعل منها محور الحياة الروحية الداخلية . كان من الممكن ان تتم ، لو أخذ برأيه ، تجربة دينية شخصية ليس من ينكر قيمتها ، وهي تجربة لم يكن لتجيز التغاضي او التنكر لطريقة اخرى ، كرستها الاجيال للوصول الى المعرفة ، هي علم اللاهوت ، كانت تبرز الاولى سمواً وتوقفاً تعالياً الى حد بعيد ، فلم اللاهوت ، لم يكن ليرضى فعلاً ، بالتوقف عند هذا الحد ، بل اراد ان ينطلق من معطيات الوحي ، من الكتاب المقدس ، ليصل عن طريق العقل والاستعانة به ، الى تفهم اكبر لهذه المعطيات . وللقيام بهذه العملية ، رأى علماء اللاهوت ان لهم كل الحق ان يأخذوا من كل فلسفة او نظام فلسفي ، ما تضمنه من تعاليم شاملة ، كلية ، يصح تطبيقها في كل زمان ومكان و يمكن الاخذ بها في كل أين وآن ، وان يتبنوها وان يحللوها ويمحصوها ، على اضواء الايمان ، في جهود تعاوني مشترك يتصف بالواقعية والعلم ، يسمو بكثير ويتعالى ، دوغما قياس ، فوق كل تجربة ذاتية ، فردية ، داخلية ، ولا يسدع مجالاً ، بشكل من الاشكال ، لاتهم الكنيسة المسيحية ، بالانزلاق نحو الفكر الوثني او التعويل عليه بنقل شيء منه . وهذا القول يصح بالطبع ، ضد لوثير نفسه .

وبما أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس انزلاقه هو واتخاذهم الى نصف المهرطقة البيلاجيانية ، فاتهموه انه اقترع كثيراً ، ان لم يكن شارك ، من مقالة بيلاج الذي علم انه عندما تسقط الخطيئة عن الانسان ، بنعمة الله ، ويصبح حراً بالتالي ، فهو لا يعود بحاجة الى نعمة جديدة ، فيستطيع ان يؤمن خلاصه بما فيه من قوى كامنة ضمن ارادته الحرة . فايراسموس يقوم بتنازلات كثيرة للحرية البشرية وللارادة البشرية . فقد كانت زلة ايراسموس وغلطته الكبرى ان يضع ، على مستوى واحد ، ارادة الانسان وارادة الله ، كأنها شخصان يجران معاً سفينة في وقت واحد . ففي وضع كهذا ، اذا ما شد احدهما اكثر من الآخر قليلاً ، جذب السفينة اليه اكثر من الثاني . فاذا ما تصور المرء نشاط الله ونشاط الانسان وفعالية كل منهما على مثل هذا النحو والشكل ، كان التسليم لواحد دون الآخر ، اكثر من اللازم ، فيه انتقاص من عمل الثاني . فيجب الا يغرب عن البال قط ان الله تعالى هو الملة الاولى ، وان ارادة الانسان هي في مرتبة الاسباب الثانوية او المساعدة . فالاسباب الثانوية تؤثر ولها مسبباتها بفضل الملة الاولى او السبب الاول الذي يحركها او يمددها بالحركة . فالله هو الذي يحرك الارادة في الانسان ، ولكن دون ان ينزع شيئاً من حريته ، اذاً ، ما الذي خلقه الله ؟ هو بالذات ارادة حرة ، ارادة شاءها حرة وعندما يولمها بنعمته ، حركة او دفعا ، فهي تصبح اكثر حرية لانه هو يعطي الحركة الدافعة لهذه الحرية . وهكذا شجب علماء ، اللاهوت تعاليم ايراسموس وردلوا مقالته ، لانه اعطى

الانسان اكثر مما يجب ، بينما جرّده لوثير ، من كل شيء .

أخذ علماء اللاهوت على ايراسموس ايضاً عدم تفهمه الحياة الرهبانية ، هذه الحياة التي ترمي الى مشاركة الله عن طريق التشبه به . أفليست النذور التي يقطعها الراهب على نفسه ، بالدليل القاطم على اختصاصه بالله وحده والعمل في سبيل مرضاته . فالتقيد باحكام هذه النذور وشروطها اعلان عنها وعن فوائدها امام الناس . فالنذور ومظاهر التقيد بها هي اصدق الوسائل وأمثلة لمن ينقطع كلياً الى الله ، عند من أنس ميلاً لهذه الدعوة واستجاب لها . فقد تجاهل ايراسموس الدعوة الكهنوتية واسقط من حسابها النعمة التي ترسخها في نفس من استجاب لها .

سبق لكلية اللاهوت ، في باريس ، وهي أكبر سلطة دينية في العالم المسيحي الجامع بعد سلطة البابا ، ان شجبت ، عام ١٥٢١ ، تعاليم لوثير وحكمت عليها بالزنيغ والفساد . والمجمع المعروف بمجمع « سانس » التأم في باريس ، عام ١٥٢٨ ، بقصد شجب تعاليم اللوثرين الهراطوقية ولاصلاح الكنيسة . فقد كان هذا المجمع بالفعل ، مجعاً اقليمياً ترأسه الكردينال انطوان دوبرا ، مستشار فرنسا ورئيس اساقفة سانس ، ورئيس اساقفة غاليا وجرمانيا ، كما تضمنت القرارات التي اتخذها واعلنها فيما بعد ، المجمع التريدينتي ، كحقائق ايمانية تتعلق بالكنيسة جمعاء . فالمجمع قام يناضل في المجال ذاته الذي ناضل فيه ، الانسانيون الانجيليون وجماعة الاصلاح ، اي الكتاب المقدس نفسه . وضد ادعاء المصلحين هؤلاء الذين يزعمون انهم يعتمدون نصوص الكتاب لا غير ويرفضون التقليد الكنسي باعتباره من وضع بشري ، قرر المجمع وجوب الاعتقاد بقضية ما من قضايا الايمان بمجرد ما تؤكد ذلك الكنيسة الكاثوليكية ، حتى ولو لم يرد عنها نص صريح في الكتب المقدسة . وعندما راح يؤكد ان اشياء كثيرة لم تدون في الكتاب المقدس ، انما وصلت اليها بالتقليد المتواتر عبر الاجيال ، كان المجمع يعتمد في موقفه هذا على ما جاء في خاتمة القديس يوحنا وفي رسالة القديس بولس الى أهل تسالونيكي . ومع هذا كله ، ألم يقل السيد المسيح ان الروح القدس سيأتي فيما بعد ليتم استنارة الرسل ويكمل اعلان الوحي الالهي ؟ . والروح القدس يكمل الوحي على مر الاجيال .

وقد اعلن المجمع حرية الارادة . اما عمل النعمة فيتم على مرحلتين . فالارادة البشرية ، اذا تكون تحررت بمراحم الله ، تحاول تنفيذ ارادة الله ، واذ ذلك ، يمطيها الله نعمته الفاعلة ، فاذا ما استجاب الانسان ، كما يجب ، لهذه المبادرة وقام بالأعمال الصالحة التي يترتب عليه القيام بها ، استحق بعمله هذا ، ما يؤهله للحياة الابدية . والنعمة هي ضرورة ، وهي لا تلحق اي اذى او اي ضعف بحرية الارادة . فهي ليست ملازمة او قاسرة (لوقا ، اصحاح ١٣ ، عدد ٣٤ - ومتى اصحاح ٢٧ ، عدد ٣٧) . « فالحق » ، كما يصرح المجمع ، « يقف امام الباب ويقرع ، فاذا ما فتحوا له الباب دخل على صاحب الدار وتناول معه الطعام » .

سبق للوثير ولزونكلي واعلنا : ان بالايمان وحده يخلص الانسان ، يؤكد الجمع . ولكن ، حذار من إلحاق اي تعسف بنصوص الكتاب المقدس . فنحن نخلص بالرجاء والمحبة . فاسمع ما يقوله القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثس (اصحاح ١٣ ، عدد ٢) : « اذا كان لي كل الايمان الذي ينقل الجبال ولم تكن لي المحبة ، فأنا لست شيئاً . وقد غفر كثير أ لمريم المجدلية لأنها احبت كثيراً ، فالاب والابن يأتيان لدى الانسان ويقيان عنده ، اذا ما احب السيد المسيح (يوحنا ، اصحاح ١٥ ، عدد ٣٣) . من هنا نستنتج ضرورة الاعمال لان الحب والصلاح لا يظهران الا بالاعمال (انجيل يوحنا ، اصحاح ١٤ ، عدد ٢١ - وانجيل متى ، اصحاح ٧ ، عدد ٢١) ، هي الاعمال التي تحسب على الانسان والله يجازي كلاً بحسب اعماله . سنُدان على اعمال الخير التي عملناها ، وعلى الطريقة التي نكون اسرعنا معها لاطعام الجوع وإرواء العطاش ، وبذل الكساء لمن كان عرياناً (متى ، اصحاح ٢٥ ، عدد ٣١ - ٤٦) .

وعلى هذا المنوال ، اتخذ الجمع ، موقفاً مضاداً للوثير ولزونكلي ، وفي حالات كثيرة ، ضد ايراسموس نفسه ، في ما علم حول اسرار الكنيسة ، وذبيحة القديس ، والمطهر ، وتكريم القديسين ، وعدم زواج الكهنة ، والصوم الذي تفرضه الكنيسة ، وغير ذلك من القضايا .

الصلاة الباطنية - القديس كان لابد من هذه التحديدات وبراهاها للعيان وللادهان . الا انه اغناطيوس ده لويولا كان يخشى ان تبقى حرفاً ميتاً لو اقتصر عليها فقط . فلكي ينتقل المؤمن الى العمل ، وجب ان تتحرك نفسه بعواطف قوية ، كمحبة الله ، وكره الخطيئة . يجب ان نحب يسوع المسيح . « والمقياس الوحيد لمحبة الله هو ان نحبه فوق كل قياس » ، ولكي نحرك فينا هذا الحب اللامتناهي بعد الذي قاساه وعانى من جفاف الفلسفة الاسمية ، راح اخوة الحياة المشتركة ، منذ القرن الرابع عشر ، في البلاد الواطية وراهبان دير وندشاهيم ، يحاولون صرف حياتهم ، في اقتداء السيد المسيح ، في عشرة موصولة مع الله ، وذلك باعتقادهم انهج ذاته الذي سار عليه المتصوفة ، امثال رويزبروك وطولر ، وادخال تحسينات على وسائل التأمل والصلاة الداخلية .

سنة ١٤٩٤ ، نشر جان ميمبرت كتابه الموسوم :

« *Resolium de exercitiorum spiritualum et sacrarum meditatione* » - روضة التمارين والتأملات الروحية ، الذي ، اعيد طبعه مراراً . وهو عبارة عن مجموعة من التمارين المعمول بها لدى اخوة الحياة المشتركة وكهنة دير وندشاهيم القانونيين لترويض النفس على التأمل والتجريد لكل يوم من ايام الاسبوع . وراح غارسيا ده سيسفروس يستوحي الكثير مما جاء في هذه المجموعة عندما وضع كتابه : « تمارين الحياة الروحية » ، الذي نشره مطبوعاً عام ١٥٠٠ ، متخذاً منه اداة لاصلاح راهبان مونتسرات . وعلى هذا الكتاب عول اغناطيوس ده لويولا عندما وضع كتابه : « الرياضة الروحية » ، الذي ابتداء بكتابه عندما اقام في بلدة منز من اعمال اسبانيا ،

عام ١٥٢٢. وهكذا نرى ترابطاً متسلسلاً بين رمزي الاجيال الوسطى حتى القديس اغناطيوس ده لويولا ، وهو ترابط يشابه ، الى حد بعيد ، هذا التفاعل الذي قام بين الفنانين الفلورنتيين ، في عصر النهضة في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس ، مشابهاً في الكثير من خطوطه ، للترابط الذي قام بين علماء الطبيعة الباريسيين في القرن الرابع عشر ، والعلماء الايطاليين في مطلع القرن السادس عشر . فالانجازات التي تحققت في السنوات الثلاثين الاولى من هذا القرن أوفت على التام ، بحيث أصبح في مقدورنا التأكيد بان شيئاً جديداً ، وان نظاماً جديداً ، قد أطل علينا . فكل المحاولات التي ظهرت قبل اغناطيوس ده لويولا تحاكي ، من بعيد ، كتابه « الرياضة الروحية » . ويرى مؤرخو الرهبة اليسوعية ان هذا الكتاب انما هو من عمل الروح القدس اذ ان اغناطيوس باشر بوضعه ، وهو في بلدة منريز ، قبل اي عمل ادبي آخر صدر له . فجاءت هذه الرياضة وما فيها من تمارين روحية ، إشرافاً للنبوغ الخلاقي .

فبعد وصول ده لويولا الى باريس بقليل ، عام ١٥٢٨ ليتابع فيها دراسته ، تولى تدريس الفنون ، عام ١٥٣٤ ثم ادخل على تمارينه الروحية ، اللغات الاخيرة ، واخذ يوجه بنجاح عظيم اساتذة العلوم ودكاترة جامعة باريس . ان الرياضة الروحية تؤلف ، بمجد ذاتها ، كتاباً صغيراً جافاً ، بشكل قانون عسكري ، يجيب الى التائب المنقطع عن العالم ، ترويض نفسه ترويضاً روحياً ويحمله على اعتماد مرشداً له طوال الشهر الذي ينقطع فيه للارتياض الروحي . فالتأملات موزعة فيه على أربعة اسابيع . تدور تمارين الاسبوع الاولى على التأملات الاساسية : الله هو الذي خلقتنا ، وخلقنا لخدمته ونعبده - وخلق العالم لخدمتنا . ولذا وجب علينا ان نكرس حياتنا لله وان نستعين بالعالم لما يؤول لمجد الله الاعلى . ثم على المترويض ان يتأمل في الخطيئة ، وفي جهنم ليثير في نفسه الندامة والاسف واستنكار الماضي من حياته ، والسخط على هذا العالم ، عالم الخطيئة . هذا هو الطريق « المطهر » او المنقي . اما في الاسبوع الثاني ، فعلى التائب المنسحق القلب ان يسلك الطريق « الاشراقي » . عليه ان يتأمل بحياة السيد المسيح في تأنسه ، وتقديمه الى الهيكل ، وغير ذلك من وقائع حياة السيد المسيح . اما في اليوم الرابع ، فمليه ان يقوم بالتأمل الاساسي الثاني ، هذا التأمل الخاص باللواتين . في هذا التأمل يُطلب اليه ان يختار فيه بين زعيمين أو رئيسين : المسيح والشیطان . اما الاسبوع الثالث ، فهو اسبوع الطريق الاتحادي ، اي الحماد النفس بالله ، طريق آلام السيد المسيح . واخيراً الاسبوع الرابع ، المخصص للتأمل ، في قيامة المسيح من القبر ، وفي محبة الله .

ففي كل يوم . على التائب ان يقوم بخمسة تأملات ، مدة الواحدة ساعة على الأقل ، مبتدئاً تأمله الاول عند منتصف الليل . ففي الاسبوع الأول ، يجري تأمل واحد ، حول الخطيئة الاولى والثانية والثالثة ، هذه الخطايا الموجهة ضد الله رأساً ، أي الوصايا الثلاث الاولى من وصايا الله المشر ، ثم تأمل آخر حول الخطايا السبع الاخرى ، هذه الخطايا الخاصة الموجهة ضد الذات ، والتأمل الثالث هو تكرار للاول والثاني . اما التأمل الرابع فهو بمثابة اعادة للثالث . اما الخامس

هو التأمل الخاص بجهنم فيجب ان يتم قبل مغيب الشمس .

يختلف اسلوب التأمل عند اغناطيوس ده لويولا ، عنه مما لدى غيره من الاساليب الاخرى ويتميز بخمس مميزات . تقوم الاولى منها في تركيز الانتباه وحصره في نقطة واحدة معينة ، بعد ان يقن ده لويولا انه يترتب على التأمل ان يحصر انتباهه في موضوع واحد الى ان تتم له النتيجة المتوخاة . ولذا كان على التأمل ان يقوم برياضته الروحية لمدة شهر كامل ينقطع معه عن كل مشاغل ويعرض عن كل مصالحه بحيث يحصر انتباهه بهذه القضية : « قضية علاقتي مع الله » . ثم يترتب عليه ان يهتم بنقطة واحدة في كل تأمل ، ولا يترك موضوع تأمله هذا الا بعد ان يكون انتج واثر ما يرجى منه ، اي عندما ما يكون ايقظ فيه العاطفة المطلوبة والشعور المرجى بحيث تصبح هذه العاطفة لا تقاوم ولا تغلب . فلكي يصل الى الله عليه اولا بالتوبة ، وان يشعر في صميم نفسه بالاسف والحزن العميقين ، ويشعر بتأنيب ضميره لما بدر منه في حياته السالفة من المعاصي . ولذا كان عليه ان يتأمل لمدة اسبوع ، والنوافذ مغلقة ، في عزلة تامة ، تكتنفه الظلمة ، بحيث يدور تأمله على الخطيئة وجهنم . ونلاحظ هنا اختلافاً بيننا وبينه وبين سيسنروس الذي يوصي بان يكون لكل يوم موضوع خاص يختلف عن الآخر ، بحيث يكون التأمل لمدة شهر ، في الصباح ، الموت والدينونة الاخيرة ، وغير ذلك ، وفي المساء ، صنيع الله نحونا ، بحيث تفمرنا ، في الصباح ، مشاعر الحزن والاسى ، بينا نشعر في المساء بالبهجة والفرح يلاً قلوبنا ، فتتقاسم نفوسنا في النهار عواطف تختلف تماماً .

اما الميزة الثانية ، لتأملات اغناطيوس ده لويولا فتقوم في البحث عن النور الفكري او الذهني ، اي ان نعي وعباً تامة كل قضية من قضايا الدين والايمان بحيث نجري على كل قضية من هذه القضايا ، تبعاً : الذاكرة والفهم والارادة . فاذا ما اخذنا نتأمل خطيئة الملائكة ، مثلاً ، علينا ان نستعرض في خواتمنا ، كيف ان الله تعالى خلقهم على صورته ومثاله ، في حالتي البرارة والسعادة ، وجعلهم خداماً له يكونون على مقربة منه ، وكيف فضلتوا ، على خدمة الله وطاعته ، التمرد والعصيان على اوامره ، ثم كيف زج بهم من عليين في اسافل الجحيم . فاذا ما فكرنا ملياً بهذه الامور ادركنا على نور العقل ، بصورة جليلة واضحة ، محور هذه الخلوقات التي خصها الله بهذه الامتيازات الخارقة ، والمصير الذي آل امرهم اليه ، وهو مصير لا حول فيه ولا حيلة ، اذ انه حكم عليهم بالهلاك الابدي ، لمجرد اقترافهم خطيئة واحدة ؛ واخيراً الاخطار الحقة بنا من كل جانب وتهديدنا باستمرار ، وتحزن الله علينا ورحمته لنا ، اذ بالرغم مما اقترطنا في حقه من الوفاء الذنوب والخطايا ، نراه يهيء لنا دوماً الوسائل التي تساعدنا على الخلاص . واذاً ذلك فقط ، وبعد ان تكون النفس شعرت بهول الخطيئة وببشاعتها ، واثارت فينا عاطفة الشكر لله ومحبتة نعزم ، بقصد ثابت ، الانصياع لاوامره والامتثال لمشيئته تعالى . ولكي نصل الى ما نرجو من وضوح وجلاء ، يترتب علينا ان ننهي كل تأمل برربع ساعة ، نفحص فيها ضميرنا حول الطريقة التي اتبعناها في تأملنا هذا ، والخطايا او الزلات التي قد نكون

اقتربناها خلال التأمل . وهذا الجهد يبذله الضمير ، كان من شأنه ان يفوز برضى الانجيليين من اتباع ابراهيموس .

والميزة الثالثة التي تميز كتاب « الرياضة الروحية » هي ان مؤلفه القديس اغناطيوس ده لويولا ، يستنجد بكل ما في الانسان من شعور كريم واحساس نبيل . هو يرغب في تحريك اعماق النفس البشرية ليصل الى نزعات الكائن الصميعة . كل الحواس يجب ان تعمل للوصول بنا الى هذه النتيجة : فكل تأمل يتبدى بمقدمة او استهلال يستعرض التائب خلالها ، في ذهنه : المكان ، والاشخاص في احوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ويجب ان نخصص تأملاً واحداً كل يوم على الاقل ، لتوجيه الحواس : النظر والسمع ، واللمس والحواس وفقاً لموضوع التأمل ، الى يسوع والعذراء مريم ، والرسول . وعندما يتأمل التائب في جهنم ، عليه ان يرى النفوس تتضور ألماً وتتلعظى لهيباً في النار المتأججة ، وان يشم رائحة الكبريت المتصاعدة ورائحة اللحم الذي يحترق ، ويشعر في نفسه بألم الحريق ، ويلبس قضم دودة الضمير بحيث يستحيل الخوف هلعاً يفضل المترواح معه كل شيء على النار .

والميزة الرابعة لهذه التأملات هي الاهتمام بارادة الانسان ولا سيما ما يعود منها إلى حرية الارادة . فالتمهيد الثاني في التأمل يرمي الى تساؤل المترواح : « ما الذي أريد الحصول عليه من الله ، وبعبارة اخرى ، ما هو الشيء الذي يريدده هو *Id quo voo* . كل تأمل يجب ان يفضي الى مقاصد معينة يتحتم تنفيذها في اليوم ذاته . وتنتهي الرياضة باختبار نهج معين أو مسلك معين للحياة . فما من قصد من هذه المقاصد المنبثقة عن هذه العواطف والمشاعر التي اثرت خلال الرياضة يجوز ان يذهب جزافاً ، بل يجب ان يتحول كل شيء الى قرارات واضحة تنتظم حياة المترواح اليومية والتي يترتب عليه العمل بموجبها .

والصفة الخامسة لهذه التأملات هي التشديد على الاخذ بكل العادات ومراسم الطقوس والاعراف التي تقوم بها الكنيسة من : تكريم القديسين ، والحياة الروحية ، والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة والحج اليها ، وذخائر القديسين ، والنذور ، وغير ذلك .

فكيف يحافظ المؤمنون على الاخذ بالرياضات الروحية بعد انقضاء الثلاثين يوماً ؟ قبل كل شيء بالصلاة المستمرة طيلة النهار . فالمؤمن يرى الله الاب ويسوع المسيح متمثلين في كل المخلوقات وفي هذه الكائنات المحيطة به ، والأشياء الواقعة على مقربة منه ، بحيث ان كل ما تقع عليه العين يذكره بالله ، أو انه يشاهد الله فيه .

ثم بالصلاة الصباحية ، اليومية ، المنظمة . فقد كان القديس اغناطيوس يصرف ساعتين كل يوم في الصلاة ، بلا انقطاع . كما كان تلاميذه يصرفون ساعة في الصلاة على الاقل . . .

ثم عن طريق فحص الضمير فحماً عاماً وفحصاً خاصاً ؛ ثلاثة فحوصات خاصة للضمير ، كل

يوم ، حول الخطيئة الرئيسية التي يرغب المؤمن في استئصال شأفتها من نفسه ، احدها صباحاً فيجدد المؤمن مقاصده ونياته الحسنة ويستعرض الظروف التي قد يتعرض فيها للسقوط في الخطيئة ، بحيث يتمكن من تفادها ، وآخر عند الظهر محاسباً نفسه عما فعلت في الصباح ، والآخر في المساء يستعرض معه حوادث بعد الظهر ، مع الحرص على ان يدون في مفكرة الخطايا التي اقترفها . وعندما ينصرف للنوم مساء ، يقوم بفحص عام للضمير يستعرض فيه اعمال النهار وتصرفاته بالنسبة لوصايا الله والخطايا الاخرى .

واخيراً يمكن للانسان ان يصلي طوال النهار . وهنا يقترح اغناطيوس ان يتلو المرء الصلاة الربانية « ابانا الذي » بتأمل فينظر ملياً عند كل كلمة من كلماتها ليتشبع جيداً من معناها ومدلولها ، او انه يصلي كما يصلي المسلم : كلمة بعد كل تنفس بحيث يعي تماماً مدلول الصلاة ، فينفذ من كلمات « ابانا » كل ما لها من معنى . وهكذا يصرف اسابيع في التأمل بمعاني الصلاة الربانية ، او « السلام المريمي » او قانون القداس ، والمزامير واستخلاص ما فيها من هذوبة المعنى .

وهذه الطريقة المثلى في استجلاء الامور ، وتحديد المعاني واشاعة الافكار النافعة ، والحواطر المفيدة في الضمير وتحريك العواطف الكريمة في القلب ، وتوجيه كل نشاط فينا للعمل المثمر ، جاءت باطبيب واشهى النتائج ، اذ انها ساعدت كثيراً على اعادة عدد كبير من المسيحيين الى حضن الكاثوليكية .

وهكذا تبخر هباء هذا الامل المعسول الذي راود ، حوالي عام ١٥٣٠ ، خيال الانسانية الانجيلية . والذي بدا تحقيقه وشيك الوقوع لاصحاب هذا الرأي ، بين ١٥١٦ - ١٥٢١ . كان لا بد من الاختيار بين الانسانية الانجيلية والاصلاح البروتستانتي والكاثوليكية المتجددة . فقد عاد عدد كبير من الانسانيين الانجيليين الى الكاثوليكية او انحازوا الى الدعوة التي نهض بها زونكلي مفضلين هذا على الدعوة التي قام بها لوثير . وانتهى كل شيء مع لوفيفر ديتابل ومع ابراسموس ، حوالي عام ١٥٣٦ ، بعد ما اقترب الاول كثيراً من تعاليم زونكلي بينما بقي ابراسموس اميناً لنظرياته وارائه ، وقد تحلى عنه مريدوه والمعجبون به واصبح لا شأن له . وهكذا فحوالي العقد الرابع من القرن السادس عشر اي من سنة ١٥٣٠ - ١٥٤٠ ، كانت طلعت علينا اهم النظم والمذاهب الدينية الجديدة التي كان من شأنها ان تقاسم العالم الحديث في الغرب . هنا في امور الدين ، وهنا لك في عالم العلم وفي عالم الفنون ، هذه المجالات التي برز فيها العقل البشري ولحمت لنا صوراً جديدة للانسان والكون - فقد طلعت علينا السنوات الثلاثون الاولى من القرن السادس عشر بعالم جديد .

على مثل هذه الصورة التي رسمنا كانت الاوضاع قد برزت واتضحت وتقبلورت .
كليفين غير ان التيار الاصلاحى ، هذه الحركة التي اصبحت في مقدورها الان ، منذ عام ١٥٢٩ بان نسميها الحركة البروتستانتية لم تتوقف عن التطور والتحول . ففي سنة ١٥٣٣ ،

اصدر الملك هنري الثامن ، ملك انكلترا : « قانون السلطة العليا » فوضع بذلك الاسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية ، في انكلترا ، هي الكنيسة الانكليكانية . فالملك هو الرئيس الاعلى الاوحد لهذه الكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية . وقد بدا لهؤلاء القوم الذين رأوا انهم يستطيعون الاستمرار في الكثرة ان لوثير وزونكلي لم يعودا بكافيين : كذلك بدا لبعضهم ، ان لوثير انتقص ، بشكل من الاشكال ، من سلطة الله المطلقة ، عندما راح يُعَلِّمُ بأنه يبدو وكأن علم الله الكلي حتم عليه إعداد مختاريه منذ الازل ، وهكذا 'حدثت فيه سبحانه وتعالى ، حريته وسيادته . كذلك سلّم لوثير ان الطبيعة الالهية ، في السيد المسيح ، أضفت على الطبيعة البشرية فيه مما له من كلية الحضور والوجود ، محافظة منه على حضوره في القربان . فاذا ما تم شيء من هذا التفاعل او التواصل بين هاتين الطبيعتين ، أفليس بإمكان الطبيعة البشرية ان تؤثر ، بشكل ما ، على الطبيعة الالهية ، فتنتقص بالتالي منها؟ وهكذا لامس لوثير الهرطقة المونوفيزية ، هذه الهرطقة التي قالت بوجود طبيعة واحدة في السيد المسيح ، وهو قول لا يمكن لاحد ان يطبقه او يقبل به .

أما زونكلي ، فقد عرف ان يتفادى المشكلة بنكرانه الحضور الحقيقي في القربان المقدس ، فالسر عنده ، هو مجرد رمز لا غير أو احياء ذكرى « هو صورة مجازية جوفاء ، خواء » . ولكن الا يقضي هذا القول والتسليم به الى ديانة باردة جافة ؟ اذ ان مجرد تناول خبز التقدمة وشرب خمر الكأس فيه تعبير عن ايمان المرء وعقيدته ، ولكن دون ان يتم بينه وبين الله اي اتصال أو تماس . والله يبقى ثائياً ، بعيداً ، ضائعاً في سمائه . هذا ، لعمري ، كلام مؤلم ، موجه ، يحز في النفس ، ويصعب سماعه على القلب والاذن . وبالإضافة الى ذلك ، راح زونكلي يُنزل الخطيئة الاصلية منزلة مرض موروث وبذلك هوّن كثيراً من تبعية الخطيئة ومسؤولياته ، هذه المسؤوليات التي ارادها الغير المتشددون ، كاملة غير منقوصة إظهاراً منه لفعل النعمة . واخيراً راح زونكلي يمزو ما قد يكون لدى الوثنين من الفضائل ، إلى موهبة خاصة من الله . ففضائلهم ، في نظره ، فضائل حقيقية ، وهو قول يُشتم منه مقالة الانسانيين الانجليكان .

ومن جهة اخرى ، شعر بعض البروتستانت ، بشيء من القلق من جراء المحاولات الايرينية *Irénisme* التي بذلت بكثرة بين ١٥٣٣ - ١٥٣٥ ، للتقريب بين الكاثوليك واللوثيريين بالرغم من كل الفوارق التي تباعد بينهم ، بشأن القداس ، هذه المحاولات التي بدت للشديد من المفالين منهم ، لا تحتمل ولا نطاق . وكان البروتستانت يتبرمون جداً ويستشيطنون غيظاً ضد من ينزلهم منزلة اللامعديانيين الذين نظروا اليهم نظراً الى فوضويين اجتماعيين . ولكي يقطعوا الطريق على كل التباس ويمجدوا أقصى ما يمكن ان تصل اليه تنازلاتهم بهذا الشأن، وضعوا بشكل نهائي ، وثيقتين بروتستانتيتين هما : « الاهاجي *Les Placards* » التي ظهرت عام ١٥٣٤ ، و « المؤسسة المسيحية » التي هي من وضع كلفن نفسه ١٥٣٦ .

اما « الاهاجي » التي أعدها فريق من الفرنسيين البروتستانت لجأوا الى مدينة نيو شاتل ،

في سويسرا ، فهي تتنزي بتعاليم زونكلي ونظرياته . فقد رموا دوماً ، الى ما يشير الشكوك
ويزيد من القطيعة ، وذلك بمهاجمتهم قطب العبادة لدى الكاثوليك : القديس الالهي . « بذل
يسوع المسيح جسده وروحه وحياته ودمه لاجل تقديسنا في ذبيحة كاملة ، نهائية ، لا يمكن ان
تعاد او تتمثل بذبيحة حية اخرى »... فالزعم بتجديد ذبيحة السيد المسيح كل يوم ، كما يدعي
الكاثوليك ، هو التجديف بعينه على السيد المسيح ، وهو زعم لا يختلف بشيء عن القول بوجود
اضافة شيء ما على ذبيحته . والزعم الكاثوليكي بالقول ان يسوع المسيح موجود فعلاً ، حقيقة ،
ذاتياً وشخصياً ، بجسده ودمه ، تحت اعراض الخبز والخمر ، هو كفر فاضح وخديعة علنية ،
ومخالفة نكراء للكتاب المقدس ، لأن السيد المسيح بعد قيامته من بين الاموات ، صعد الى
السما وجلس عن يمين الله الآب . و « يستنتج من هذا القول انه اذا كان المسيح موجوداً بجسده
في السماء ، فلا يمكن له ان يكون ، في الوقت ذاته ، على الارض ؛ واذا كان موجوداً على
الارض ، فلا يكون موجوداً في السماء ، اذ انه من الثابت ان جسداً حقيقياً لا يحتل الا حيزاً
واحداً ، ولمرة واحدة » . وعلى هذا قس كلامهم حول الاستحالة الجوهرية ، وحول رجال
الكليروس ، وغير ذلك من القضايا . وهذه « الالهجي » تمثل نصاً اساسياً فظاً ، املته روح
القطيعة البغيض ، بما اثار بالفعل شكوكاً هائلة . ولعل ارواح وانكى من هذا كله ، هو هذه
الروح العقلانية التي جاشت فيها . والثابت ان كل البروتستانت ، في هذه الحقبة كانوا يتنكرون
لهذه العقلانية ، لأن العقل ، بعد ان افسدته الخطيئة الاصلية ، اصبح عاجزاً عن الوصول الى اية
حقيقة . وما يلفت النظر بالاكثر ويحدث مثل هذا الدهش ، هو ان نلاحظ كيف ان الذين قاموا
بوضع هذا النصوص ، رفضوا القول بالحضور الحقيقي ، لمناقضته ، في رأيهم ، مبدأ الذاتية ، كما
يناقض الظواهر الحسية المموسة القابلة للقياس ، اذ يخلط خلط عشواء ، بين ما هو للروح وبين
ما هو للمادة . نص كل ما فيه يتنزي بالروح الديكارتية ، روح هذا العصر .

اما كلفين الذي كان في صغره ، سادناً لاحدى الكنائس وله من العمر اذ ذاك ١٢ سنة ،
والذي سم كاهناً وهو ابن ١٨ سنة ، فقد اثار من جديد ، ومن الاساس ، مطالب الاصلاح
البروتستانتي ، مزيداً عليها ما رغب في اضافته من نظريات جديدة ، بعد ان عرف كيف
يتجافى على الاخص ، المساوىء التي وقع فيها كل من لوثير وزونكلي . كان هم الاول والاخير
الحفاظ على سلطان الله وسيادته . وراح بوصفه من اتباع الفلسفة الاسمية ، يؤكد ان الله
تتعدد معرفته ، كما انه يستحيل على العقل البشري تفهمه وادراكه ، حتى ولو بالهجاز . فالصورة
التي نقيمها له وننتحها عنه في ضمائرنا ، حماقة هي ، لا اكثر ولا اقل ، فالكتاب المقدس وحده ،
يوحى لنا ، على قدر ما نستطيع ان نفهم ونستوعب ، بما يتوجب علينا معرفته ، وما فيه
الكفاية ليشير فينا الخوف والمحبة . وبواسطة الكتاب المقدس وحده ، نتعرف الى الله ، عن
طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح ، مرآة الله ، ولكن أنى لنا ان نعرف الله نفسه معرفة
حقيقية . ولكي نفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس . وعندما نشعر

بنواتنا بشهادة الروح القدس الحي فينا ، يرسل هذا الروح الحياة في الكتاب المقدس ويجعله مفهوماً ، سهل التناول ، ويشهد فينا عالياً بصحتها ، دون ان يحذف من الكتاب المقدس أو يزيد عليه حرفاً واحداً . وهكذا نرى كلفين ينكر التقليد الكنسي . من الأساس .

لا بد من ألوهية الابن اساساً للايمان به . ولذا كان لا بد من التسليم بالقول ان الخليقة هي من عمل الثالوث الأقدس كله ، اي هي على السواء من فعل الابن ، كلمة الله الذي يطبق عليه كل ما جاء عن الله في العهد القديم . فالثالوث الأقدس يخلق العالم في كل ثانية ويتدخل بخلقه ، في كل لحظة . هذه هي العناية الربانية التي هي علة او سبب اختيار الله لمن اصطفاهم ، منذ الأزل . « فالله هو الذي يدبر المؤمنين ، يعيش فيهم ويملك عليهم بواسطة الروح القدس » . فكل ما يأتيه المؤمنون يأتيه الله هو نفسه فيهم . فالله هو الذي يتصرف في الانسان ، وهو الذي يفكر في الانسان ، وهو الذي يتكلم بلسان الانسان ، هذا الانسان الذي لا يفعل شيئاً بمحض المعنى ، من نفسه . ففي قضائه الحر الذي اتخذته ارادة حرة موجودة منذ الأزل ، يتصرف الله في مختاره ، كيفما يشاء ليؤمن لهم الخلاص الابدي . فبقضاء حر أصدره منذ الأزل ، أعد الله مصير كل انسان . وهكذا فسلطانه كامل ، مطلق هو .

فآدم الذي يمثل البشرية جمعاء في شخصه ، قد لطم بخطيئته كل البشر . فالخطيئة الأصلية ، عطلت الى الأبد ، كل ما في الانسان من مواهب فائقة الطبيعة بالايمان ، ومحبة الله والقريب ، والتسوق إلى القداسة . والمواهب الطبيعية نفسها اصبحت هي الاخرى ، في الصميم ، بحيث لا يستطيع الانسان الا ان يريد الشر . فاذا ما اراد الشر ورغب فيه ، فهو يتحمل كل مسؤولية ارادته ، ولذا استوجب القصاص المترتب على معصيته . ومع ذلك ، فتحننا من الله وعطفاً منه عليه ، أعطاه الله الناموس ، هذا المربي ، المرشد الذي يقود الانسان الى الله . وعطفاً من الله وبمجرد نعمته الالهية ، تذلل الله وتجسد وصار انساناً وأخذ جسد آدم . وبوصفه انساناً تاماً ، كفر عن خطيئة آدم كما كفر عن خطايا جميع البشر . وبوصفه الاله الحقيقي ، فقد قدم مرضاة وكفارة خليقة بالله العلي ، كل هذا والله يبقى نقياً ، منزهاً عن كل عيب ، في عظمتة الالهية . والطبعتان تلبثان متميزتين الواحدة عن الاخرى ، ليس في الطبيعة البشرية ما يلطخ او ما يحط من كرامة الله . والحال فاذا لم تستطع الطبيعة البشرية ان تتلبس صفة الوجود الكلي التي للطبيعة الالهية ، فجسد السيد المسيح لا يمكن ، والحالة هذه ، ان يوجد في الافخارستيا ، وبالتالي ليس من حضور ذاتي في القربان المقدس .

باستحقاقات السيد المسيح ، تأمن الخلاص لبني البشر واصبح هذا الخلاص في متناول كل واحد منا بواسطة « المناولة الروحية » رمز الاتحاد مع المسيح بالايمان ، بواسطة الروح القدس ، الذي ارسله المسيح وأعطاه مجاناً ، للمختارين . « بالايمان جرى تطهيرنا بجسد المسيح » . وهكذا تم لنا الايمان الحقيقي ، والرجاء والثقة ، بارادة الله الحيرة ، تجاه كل واحد منا . فالمسيح يأتي ويسكن في قلب من اختارهم الله ، وفيه يعمل الروح القدس . والمسيح يتجدد في قلب كل من

اختارهم ، كما انه يُجَدِّد في قلب كل مختاره ، صورة الله التي افسدتها الخطيئة الاصلية وشوحتها ؛ فيجعل فينا الانسان الجديد ويأخذ في محاربة الانسان القديم القائم في قلب كل واحد منا ، انسان آدم الذي افسدته الخطيئة ، ويخرجه خارجاً ، وتحل محله ، هذه الحرب التي ستطول فينا وتستمر في داخلنا ما امتد فينا أمد الحياة . هذا التجدد الذي لن يتم باكماله الا في السماء بعد الموت . اما علامة او دليل الاصطفاء هذه ، فهي الحرب الداخلية ، هذه القوة التي تحملنا على احترام وصايا الله ، والامتنال لها بالرغم من جميع الاوصاب والآلام التي سنتغلب عليها في نهاية الامر ، بالرغم من تكرار عثراتنا وسقطاتنا في الخطيئة . هذه العلامة التي تشير الى عمل الروح القدس في كل واحد من مختاريه .

فالاعمال التي يفعلها المختار تأتي مطابقة لناموس الله ، ولكن هذا الناموس لا يولي المختار اي استحقاق قط ، لان هذه الاعمال لسنا نحن الذين نعملها ونأتيها ، انما الله هو الذي يعملها فينا .

وفي الوقت ذاته يغفر الله للمختار خطاياہ وُيسرِّله بسرِّبال بر المسيح الذي يؤلف معه شخصاً واحداً . فالمختار ليس باراً ولكن الله يراه باراً ، لان المسيح دخل الى قلبه بواسطة الايمان به .

وقد اعطى الله ، في تحننه للبشر ، الكنيسة . فالكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر . فهي شراكة كل الذين يعمل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته ، هي شراكة المحدثين منذ الازل ، ولاننا لا نستطيع النفاذ الى دوائر الناس للتعرف الى حقيقة ضمايرهم ، ولن نعرف ابداً ، ونحن على هذه الارض ، من هم الذين يعمل فيهم الروح القدس عمله الخلاصي .

اما الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين ، هؤلاء الذين يؤلفون رغبة واحدة تحت ادارة القس او الراعظ . وتضم الكنيسة المنظورة ، في الحين ذاته ، المختارين والمحدثين منذ الازل ، مجتمعين ، بمضاً الى بعض في التقاء الحنطة والزوان . فالكنيسة تقوم ، في كل مكان ، بكراسة كلام الله ، وتصيخ اليه في كل مكان تُعطى فيه الاسرار وتوزع فيه وفقاً لما رسمه يسوع المسيح .

والكنيسة يفرض وجودها وقيامها نظاماً معيناً ، فتتحول بذلك دون عمل الهراطقة والمنفصلين عنها وتأثيرهم على المؤمنين ، وتمنع انتشار الاخلاق الرديئة . فهي تقوم باربعة وظائف أو خدمات رئيسية ، منها اعمال المحبة . اما الوعظ وخدمة الاسرار ، فينأط امرها بالقسيس ؛ اما التعليم ، فامره متروك لمعلمي الايمان ، والحفاظة على النظام يقوم به الشيوخ ، والقيام باعمال المحبة يؤمنه الشمامسة . كل هؤلاء يجري تقديمهم بواسطة القسس والقضاة الذين يقومون بالوظائف الموكولة اليهم ، ويتم انتخابهم من قبل جماعة المؤمنين . والحقيقة ، فتعيين الجميع انما يجري من قبل الروح القدس وفقاً للمواهب التي أعطيت لهم .

على الكنيسة ان تتقيّد ، حرفياً ، بالكتاب المقدس الذي هو وحده معصوم عن الغلط .
يجب الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، يكفي الكنيسة عملاً ، تفسير كلام الله وشرحه للقضاة ،
وعلى هؤلاء ان يحرصوا على تطبيقه وفقاً للشرائع والقوانين المدنية . اما القاضي فواجبه يقوم
بالدفاع عن الكنيسة وتأمين حرية الكرازة بالانجيل .

فالله هو المعطي الكنيسة الاسرار . أما السر فهو علامة أو طابع خاص يسم الله به
نفوسنا ، اشارة منه للنعم والمواهب التي جادت بها علينا مراحمه . . . وخلافاً لتعاليم زونكلي ،
حافظ كلفين على الاسرار بعد ان رأى فيها ليس مجرد ذكرى او تذكّر ، بل شهادة حق على
نعمة الله . وعلى عكس الكاثوليك ، هو يرفض التسليم بالقول ان السر يعمل من ذاته ، اي
بدون تدخل مباشر من قبل الله ، كما ان السر يضيف شيئاً جديداً على عمل الله . فالله له كل
سلطان وسيادة . فهو يستخدم الاسرار كأداة اخرى ؛ دون ان يوليه شيئاً من قدرته .

اما الافخارستيا أو العشاء السري ، فكلفين يرفض التسليم هنا أيضاً ، بالحضور الحقيقي في
القربان المقدس ، كما يرفض التسليم بالطبع ، باستحالة الجوهر . . . وخلافاً لزونكلي ، فهو
يقر ويعترف ان جسد المسيح ودمه يوزعان تحت اعراض الخبز والخمر ، وكل الاشياء تجري
عندما تتناول الخبز والخمر كان المسيح حاضر فعلاً انما بشكل سري ، لا يرى ، وكأن المسيح
يضم جسده ودمه الى جسدها ودمنا ، ويسكب علينا روحه ونعمه السماوية . وهكذا نرى
كلفين يقرّب المؤمن من الله يسوع الذي يفيض محبة للانسان القريب منه ، يسمع ويُشعر به ،
ويذاق ويوزع على المؤمنين ، مع بقاءه متميزاً عنه ، متميزاً تماماً متسامياً فوقه بكثير ، حسب
توجيه طبيعته الالهية . وما يشهد على هذا النجاح يصيبه كلفين هو ان القرار الذي اصدره
برلمان باريس ، بتاريخ ١ تموز ١٥٤٢ ، بصدد الكتب والمنشورات التي تعمل على بث ونشر
المذاهب والتعاليم الدينية الجديدة ، ان الكتاب الوحيد بين هذه المطبوعات الذي جبي على
ذكر اسمه وعنوانه هو كتاب : « المؤسسة المسيحية » الذي وضعه جان كلفين .

وفي سنة ١٥٣٩ ، اعيد طبع كتاب « المؤسسة المسيحية » باللاتينية . اما اول طبعة فرنسية له ،
فقد ظهرت عام ١٥٤١ ومنذ هذا التاريخ توالى طبعات الكتاب ، مزيدة ، ومنقحة ، طبعة بعد
طبعة ، بالفرنسية ، وباللاتينية . وقد جعل كلفين من مدينة جنيف ، منذ عام ١٥٤١ ، « روما
الكلفينية » وانتشرت كتب كلفين بين القرى ، متنقلة من قرية الى اخرى بواسطة الباعة
المتجولين . وقد عرف المرسلون الذين ارسلهم للتبشير بدعوته ، بالنشاط الجهم ، اذ استطاعوا
ان يتسللوا الى كل مكان ، حاملين معهم علماً وثقافة ونشاطاً ، واستعداداً ليجودوا بدمائهم شهداء
ايمانهم . وكانت رسائله تحمل التشجيع والنصح لكل الكنائس الجديدة التي تنشأ في البلاد .
وهكذا دخلت الكلفينية اسكتلاندا وبوهيميا وهنغاريا وبولونيا والبلاد الواطية وفرنسا .

ديوان التفتيش والرهينة اليسوعية
في هذا الوقت بالذات توفر للببا كتيبة دينيسة جديدة ، هي
الرهينة اليسوعية . نشأت هذه الرهينة في ١٥ آب ١٥٣٤ ،

على مقربة من باريس في هضبة مونبارتر ، في كنيسة القديس دنيس ، شفيع ملوك فرنسا ، على
يد اغناطيوس ده لويولا ورفاقه الستة . وفي خلال صوم ١٥٣٩ ، وضع مؤسس هذه الرهينة
نظامها النهائي : رئيس منتخب مدى الحياة ، يتمتع بسلطات لاحد لها ، يقطع اعضاؤها من
الرهبان نذراً خاصاً هو الطاعة التامة لاوامر الببا، وينتظم هذه الرهينة نظام عسكري مسلسل
السلطة ، وتنعم بروح انضباطية مجربة . فاليسوعي يطيع الاوامر الصادرة اليه ولو في الامتثال
لها هلاكه وموته ، كما يمتاز اعضاؤها بثقافة شاملة ، 'مُعَرِّقَة' . وفي ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اقر الببا
بولس الثالث بالبراءة البابوية التي اصدرها بعنوان « *Regimini militantis* » - الفرقة المحاربة - نظام
هذه الرهينة وقانونها الاساسي . وفي سنة ١٥٤١ ، تم انتخاب اغناطيوس ده لويولا رئيساً عاماً
للرهينة اليسوعية ، واقسم بين الولاء بين يدي الببا . ومنذ ذلك الحين ، باشر اليسوعيون حريهم
المتصلة وجهادهم المرير ضد جماعة الاصلاح ، في كل من ايطاليا واسبانيا ، وفرنسا والمانيا . وكان
الببا ، في الوقت ذاته ، بعث من جديد ، الى الوجود ، ديوان التفتيش ، باسم جديد -
« الديوان المقدس » وذلك بموجب البراءة التي اصدرها بتاريخ ٢١ تموز ١٥٤٢ ، بعنوان
Licet ab initio ، ارتبطت ادارته رأساً بالأب الاقدس . وبعد ان أعدت عدته على هذا الشكل
وأوتر قوسه على هذا النحو ، امر الببا ، بتاريخ ٢٢ أيار ١٥٤٢ ، بالتشام المجمع المسكوني الذي
اجتمع في مدينة تريديانتي ، وانتهت اعماله عام ١٥٦٣ ، بذات الروح التي تجلّت ، عام ١٥٢٨ ،
في مجمع سانس .

مراطفة وملحدون
خاض الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض حروباً شديدة
رأوا انفسهم معها مضطرين ليخوضوا بحماس لا يقل شدة ، حروباً
ضد جملة من المهرطقات والحركات المضادة للمسيحية او للدين بصورة عامة ، استشاطت في هذه
الفترة بالذات ، الواقعة بين ١٥٣٦ و ١٥٤٥ . وقد جاء ظهور هذه الحركات الدينية بمثابة ردة
فعل طبيعية ضد رسوخ موقف الكاثوليك والبروتستانت . ونحب ان نرى في قيام هذه
الحركات ، بالاحرى ، نتيجة طبيعية ، لحرية الضمير والفكر ولهذه العقلانية الكامنة ، في
حركة الجماعات التي سارت مع تيار الاصلاح والتي ساعدت على نشرها والترويج لها ، هذه
المجادلات الدينية ، التي شجرت اذ ذاك وتصادمت فيما بينها . فبعد ان رأى هؤلاء الناس كيف
عشوا بالتقاليد وهزئوا من قضايا الايمان المتوارثة جيلاً بعد جيل ، وسخروا من الطقوس
الدينية ومراسم العبادة ، راحوا يقيسون كل شيء ويحكمون على كل شيء بمقاييسهم الخاصة
ومداركهم ، متوهين ان لهم من الفهم والعقل ما يمكنهم من الحكم على كل شيء . وقد رأينا
تطل علينا في رأد الضحى حركة هؤلاء الذين اطلق عليهم كلفين ، عام ١٥٤٥ وصفاً سار في
الناس ، اذ دعاهم « الدعار » او خالعي العذار . فنذ سنة ١٥٤٢ ، دخلت اللغات اللاتينية ،

واليونانية والفرنسية ، مصطلحات جديدة امثال : « ملحد » *Athée* و « ناكِر المسيح » *Achriste* ، كما ان خريجي جامعة بادوا القدامى (ومعظمهم حكام ومن رجال الدين) التفوا فيما بينهم جمعية ، شبه ما تكون الجمعية البنائين الاحرار (الماسون) لا قانون اسامي لها ، تعمل على نشر الرُشدية (فلسفة ابن رشد) التي جرى توطين تدريسها ، في جامعة باريس ، بين المحاضرين الملكيين الذين تألف منهم ، فيما بعد المعهد المسمى ، كولييج ده فرانس ، امثال الايطالي فيكومير كاتو ، الذي نشر بحثه الاول عام ١٥٤٣ . وقد أطل من جديد فجور ذهني لإنجس من تعاليم فرنسوا سكوت أريجين أحد مفكري القرن التاسع للميلاد ، او من الالماني أكاروت في القرن الثالث عشر . كان البعض من هذا الفريق حلولين ، على المكشوف ، فعملوا ان الله الكائن الاوحد ، لا شخصية له ، ولا وجودية له في ذاته بل هو مختلط بالعالم متمزج به ، وان روح الانسان ليست سوى فيض خالد من الله لا تنفصم عنه . فالحياة الدينية عندهم ليست سوى عملية تأمل وتجريد ، القصد منها التعرف الى ذات النفس الفردية ، مع الكل الاعظم . اذ ذاك تلقى الشخصية البشرية تياماً ، اذ يذوب الانسان وتفسر ذاته في الله . اما الباكون من هؤلاء الدّعّار ، فقد سلموا بوجود الثالوث الاقدس ، انما كانوا يقولون بوجود مسيحين : مسيح حسب الجسد ، يمثل الانسان على الارض ونموذجه الاكمل ، هذا المسيح التاريخي الذي عاش مع الرسل وعاشرهم ، والمسيح الحقيقي ، مخلص الانسان الذي لم يكن غير الروح القدس نفسه اما الروح القدس فكان يحل في شخص المتأمل ، بروح الايمان ويؤله . وقد اعترف الحلوليون ومن لف لفهم ، للانسان ، بالذات الالهية ، وجعلوه بمعزل عن كل اثم ، وبمناى عن كل خطيئة . فهو لا يزل ولا يفلط . فكل ما يشعر به في ذاته من غرائز وشهوات ورغائب ، هو مظهر من مظاهر الله . ولذا كانت كل نوازع الانسان خيرة ، جيدة حتى ما ادى منها الى القسق والرذيلة . وبما ان للانسان وحدة الذات مع الله ، فهو حر تماماً من كل نير او عبودية . والروحيون كانوا يوصون بالاتحاد الحر بالشوعية المطلقة . وقد انتشرت تعاليمهم منذ عام ١٥٣٠ ، ولا سيما بين الطبقات الاجتماعية الدنيا ، في مقاطعة الفلاندر ومدينة لياج والمانيا السفلى . وفي سنة ١٥٣٤ ، قام احد الطبيعيين من مقاطعة هينو ، يدعى كوانتين ، بادخالها الى فرنسا حيث تكاثر عدد اتباعه ، في مقاطعة نورمنديا . وفي سنة ١٥٤٧ ، راح احدهم من خلغوا الثوب الرهباني يكرز بهذه التعاليم في مدينة روان . اما كوانتين فقد حكم عليه بالموت في مدينة تورنيه ، عام ١٥٤٦ ، لانه حرض بعض المحصنات على خلع العذار والاستسلام للرذيلة .

كان عدد من الانسانيين قد تأثروا بالكتاب القدامى . فالكاتب اليوناني لوقيانوس لم يفتر يوماً عن الهزء بالدين والتهمك على رجاله . ويرى الابيقوري لوكريس في كتابه : « حول طبيعة الاشياء والعرفة » *De natura rerum et de divinatione* ، ان النفس البشرية تتألف اصلاً من ذرات تنفتت في وقت ما وتتناثر ، لتختفي من الوجود لانها مائة كالجسد . اما شيشرون فيضع على لسان شغوصه ، في « محاوراته » ، وفي كتابه : « طبيعة الآلهة والعرفة » اقوالاً

وخواطر زعموا فيها ان الله ، اذا صح وجوده ، تتعذر معرفته كما يستحيل ادراكه ، وان الخلق فكرة خواء ، باطلة ، لا تركز على شيء ، اذ لو كانت الله موجوداً وخالداً ، فلماذا نراه فجأة يشعر بالحاجة الى الخلق والابداع . ويرى آخرون ان الالهة ليسوا سوى رجال عظام ، ألهمهم الناس لمآتيهم وصنائعهم : فالدين هو من صنع السياسيين جاؤوا به ذريعة تمكنهم من التحكم بالناس كما يرغبون . . ويذهب آخرون الى نكران المعجائب والمعجزات ، وهذه الاعمال التي تثير الدهش والاستغراب مما ينسبون فعله الى القدرة الالهية التي يجهلونها : « كل ما يحدث هو مسبب عن علة طبيعية ، والذي يبدو عليه انه وراء النواميس العادية ، لا يمكن له ان يتم او ان يقع بعيداً عن الطبيعة » (المرافقة ، كتاب ٢ : ٢٢) وفي كتاب « التاريخ الطبيعى » الذي وضعه بليني والذي يؤلف وحده شبه موسوعة في العلوم الطبيعية ، في عصر مؤلفه ، نرى صاحبه يخلط خلط عشواء والعالم المادي . قاله هو « العالم الواسع ، الشاسع ، الخالد ، الذي لا بداية له ولا نهاية » . فهو ينكر العناية الربانية : من غير اللائق قط ان تصور الله معنياً بنا ، مهتماً بشؤوننا البشرية الحقيرة . ليس في الانسان نفس خالدة : « كل الناس سيان هم . فهم سواء في يومهم الأخير وقبل يومهم الاول . بعد الموت : لا شعور ولا احساس ، لا في الجسد ولا في الروح ، تماماً كما كان وضعهم قبل ان يولدوا » (كتاب ٧ : ٥٦) .

كل من الادباء المثقفين اطلع على الردود البليغة التي وضعها اوريجينس والقديس كيرلس ، وهي ردود طيبت مراراً وتكراراً ، وقموا منها على اقوال وتعاليم بعض مشاهير الكتاب القدامى من خصوم الكنيسة واعدائها ، امثال سلس^(١) ويوليانوس الجاحد ، فاسمع ما يقوله سلس بهذا الصدد : اي شيء عمله يسوع المسيح هذا ؟ . فقد ضل بعض المساكين البائسين وشفى بعض المرضى . ولكن ، أسكولاب والسحرة المصريون عملوا اكثر من ذلك . تجسده ؟ . هذه فكرة شعراء الاغريق . أفلم يرسل جو بثير ، عطاردا الى الاثينيين ، والى اللقذمونيين (السبرطين) ؟ . قيامته ؟ أفلم يبلغكم ان عشرين يونانياً اقاموا الموتى قبله ، على اساس من الصحة يقل او ينقص ، لا يتوفر له ؟ . موته ، ولكن أبكتيتس ، ولكن اناكسارخوس ، قاسا اكثر منه واحسن منه ، العذابات المبرحة . فقد رضى اناكسارخوس رضاً في جرن ، ومع ذلك سمعوه يردد لجلاديه : « حطّموا ، كسّروا غنّد اناكسارخوس ، فستبقون عاجزين عن ان تمسوه بأذى ، او ان تنالوا منه شيئاً » . هذه عظمة خليقة بالالهة ، بينما نرى هذا المسكين يسوع ينتحب قائلاً : « ايلي ايلي ، لم تركني » ، ثم راح يحشر صارخاً : « انا عطشان » ، ثم يتنهد من الاعماق متمتماً : « كل شيء قد تم » . وهكذا انتهى نهاية اقل الناس قدراً وشأناً . والذي كان من المسير جداً على سلس ان يدركه ران يفقه سره هذا الفرق بين رجل يهود بحياته مؤدياً واجبه بكل بساطة ، وبين مهرج ممخرق . الا انه كان على استعداد كلي لياخذ

(١) فيلسوف افلاطوني المذهب عاش في روما في عهد الاسرة الانطونية ، في القرن الاول للميلاد . عرف بمحرمته المسيحية ومهاجته لها .

بهذه الترهات التي طالما ردها اعداء المسيح من اليهود ، بان يسوع هو ابن طبيعي لجندي جلف هو بنشيروس ، الذي قضى حياته في شطف الجندي ، وانه ابن بغي طردها زوجها ، ذهب الى مصر حيث أتبح له ان يطلع على فن صنع المحرقات ثم استعان بما تم له من هذا الفنون ومن هذه الصنعة ، ليصنع ، فيما بعد المعجائب ، وليتزعّم فيما بعد وهو في الجليل واليهودية ، عصاة لصوص من قجاج الآفاق ، عددهم ١٢ ، خانة احدهم وسله تسلّم اليه اليه الى اعدائه .

حملت هذه التيارات الدينية في عباها الصاخب ، هرطقات وتعاليم مغايرة كما حملت في ثناياها نفيًا للمسيحية ونكرانًا لها . فالصحاف والناشر الانساني الذائع الصيت اتيان دوليه ، قاده المجرى الفكري ، اذذاك ، الى مذهب الطبيعيين ، الاعلى انه احتفظ بعقيدة خلود النفس . غير ان معاصريه نظروا اليه نظرم الى ملحد معطل كافر ، ولذا صدر الامر باحراقه حياً في ميدان موبرت - في باريس . وبوتافتورا ده برييه ردد في كتابه «صنوج العالم » الذي صدر له ، عام ١٥٣٧ أو ١٥٣٨ ، بطريقة فكهة ، هذه الالهاجي والطعون التي وجهها سلس ضد ألوهية السيد المسيح وضد الوحي الالهي للانجيل . والاسباني ميشال سرفيه هاجم عقيدة الثالوث الأقدس سنة ١٥٣١ ، وذلك في كتابه الموسوم : «مغالط الثالوث » ولا سيما في كتابه الآخر الضخم : « العودة بالمسيحية الى جذورها الاولى » الذي وضعه عام ١٥٤١ ونشره مطبوعاً عام ١٥٥٣ . فقد رأى في الاقانيم الثلاثة : الاب والابن والروح القدس : ثلاثة مظاهر مختلفة للنشاط الالهي . وليس ثلاثة اقانيم متميز الواحد منها عن الآخر . فيسوع ، صاحب الانجيل ، ليس سوى انسان ، هو ابن الله حقاً ، مولود من الاب بالروح القدس ، وممّوح من الله . ولكن يسوع هذا ليس بالكلمة الابدية ، الخالد ، الاقنوم الثاني ، من الثالوث الاقدس . وإلا وجب التسليم ، انصح القول ، ان يكون الاب ولد له ولدان ، وهو ظن أو قول مناقض للكتاب الذي يذكر : ابن الله الوحيد ، ثم ان السيد المسيح نفسه يقول عن نفسه انه ابن الانسان ، وليس الله بالذات . وهكذا نث سرفيه نفوثة في محنطات الهرطقات القديمة المضادة للثالوث الأقدس ، فبعثها حية ، ولو الى حين ، كالارويسية . وقد لاقى اتباعاً له بين الكاثوليك ، واكثر منهم بين البروتستانت . ولذا لاحقه كلفين امام القضاء الكاثوليكي الفرنسي ، ففر سرفيه وقدم لاجئاً الى جنيف حيث جرى توقيفه بامر من كلفين ، وجرت محاكمته وحكم عليه بالموت حرقاً ، عام ١٥٥٣ .

وفي الاتجاه الذي سار فيه سرفيه ، سارا ايضاً فقيه سيني ، هو لايوس سوسين ، المولود عام ١٥٢٥ . فقد علّم هو ايضاً ان الله واحد هو ، وان الكلمة والروح القدس ليسا سوى مظهرين من مظاهر نشاطات الله ، وان السيد المسيح هو انسان لا غير ، ابن الله ، انما لا طبيعية الهية له ، وان المسيح افتدانا بكرازته وتعاليمه بوصفه حاملاً لكلام الله ، وان لا اسرار في الكنيسة قط ، وان العشاء الصري ليس سوى تذكار بذكرنا بموت السيد المسيح ، وان لا فائدة من النعمة وليس لها اي جدوى ، وان الانسان يتمتع تماماً بحريته واستقلاله ، يملك في ذاته الدوافع التي تحفز

للامتنال لارادة الله . وقام لاليوس سوسين ينشر تعاليمه هو نفسه منذ عام ١٥٤٧ ، في زوريرج وجنيف ، وحلها الى بولونيا ، بعد عام ١٥٥٦ ، ثم صارت رسالته الى ابن اخيه ، كما صارت اليه مخطوطات الكتب التي كان وضعها ، ومذكراته ومفكراته ، كما انتقل اليه نشاط عمه الداعية . وتكاثر عدد السوسينيين في بولونيا ومنها أشعوا في اتجاهات عدة .

فالمرطقات وما هو انكى منها وأشق : نكران خلود النفس وربما نكران الله نفسه ، كل هذه التعاليم المتطرفة وما اليها تغفلت عميقاً بين الاوساط الشعبية . وحدث يوماً ان قامت سيدة من نيوشاتل ، من طبقة الشعب ، تنكر بين ١٥٣٨ - ١٥٤٢ ، قيامة السيد المسيح ، وبالتالي ، قيامة الموتى ، مدعية : « ان نفس الانسان تموت بموت الجسد ، وانه لا يعود من فرق قط بين روح حيوان ونفس انسان » . وقد بلغ من شدة قلق القوم واضطرابهم لهذه التعاليم ان قام القسس بمجمل شعواء يدافعون ، بألسنتهم واقلامهم ، عن عقيدة خلود النفس وقيامة الموتى . وقد ظن لوسيان فيفر ان في القرن السادس عشر ، عصر الايمان الحلي ، لا يمكن ان يظهر فيه ملحدون حقيقيون . واخذ يسرد النصوص التي لا تعني فيها كلمة « ملحد » - *Athée* ما يفهم منه : « لا اله » بل « لا دين » ، او « من لا يعرف للاله الحقيقي » . فبعد ان عول في هذا الموضوع على كشف ضم بيان المصطلحات والتعابير التي شاعت على ألسنة رجال القرن السادس عشر ، راح يلاحظ ان هؤلاء الناس لم تتوفر لهم ، اذ ذاك ، مصطلحات واوضاع علمية تتيح لهم الاخذ بالاحتمية العلمية ، وبالمادية ، وهي كلمات دخلت المعجمية في القرن الثامن عشر ، من خلال كتاب امثال فولتير وكنت . أما هنري بوسون ، فقد رجح ظهور ملحدين في القرن السادس عشر ، وبرزم هو ظاهرة اجتماعية تجلت في كل العصور . واتخذوا برهاناً على ذلك ، رهبان الاجيال الوسطى الذين ، بالرغم مما عرف من تقواهم وخشوعهم ، انكروا فجأة ، الايمان بوجود الله ، فوجدوا بذلك ، انفسهم في فراغ مطبّق وصحت مطلق ، وجهاً لوجه مع عالم ميت عديم القدرة على الايمان بالله . فالكفر أو الجحود بالايمان علة أو داء نحمله في اجسادنا كما نحمل غماً ، التدرت الرئوي . « فهو في حالة كمون في معظم الناس » . وقد توصل الناس فعلاً ، في القرن السادس عشر الى اشكال أو صيغ متعددة من الفكر المادي ، والاحتمية ، والعقلانية ، والرشدية (فلسفة ابن رشد) ، ونظرية مبيونازي لم تحكّون ، بالفعل ، فلسفة مادية وحتمية ، لأن الصيغتين الاخيرتين كانتا تفتقران كلياً ، وفي الصميم ، الى إقامة الحد بين الروح والمادة ، كما افتقرتا ، في الاساس ، الى صورة ذهنية لعالم ، يتألف اصلاً ، من مادة جامدة متحركة . فاذ كان التمييز قائماً ، بصورة غافية ، في تعاليم الزونكليه والكلفينية المتعلقة بالحضور الذاتي ، فالفكرة لم تتضح وتبرز بجلاء ، الا مع ظهور ديكارت . ومنذ ديكارت توفر للعالم المعاصر صورة تامة ، مترابطة ، للاحتمية والمادية ولكن ، كل فلسفة مادية غير مترابطة ، أليست لعمري ، بعد هذا ، يا ترى ، فلسفة مادية ؟ فاي شيء كانت فكرة سيدة نيوشاتل لعمري ؟ من المحتمل جداً ان تكون فكرة نكرانها خلود النفس ، ارتبطت في ذهنها ، بفكرة نكران الله ،

مع ان الفرق واضح بين الفكرتين ، ولكن ، أنى لنا ان نعرف تماماً ، ماذا عنت ، وماذا ارادت . وهكذا سيبقى الجدال والبحث حول الموضوع قائماً ، لما فيه فرحة المؤرخين ومسرتهم مع انه من المحتمل جداً ان يكون ظهر ، في القرن السادس عشر ، ملحدون حقيقيون . ومهما يكن من الامر ، فالظواهر الرئيسية الاخرى التي طلعت علينا في القرون المعاصرة ، للعقلانية وللأمسيحية ، والحرطقة ، بنوع عام ، كان سبق لها وتبلورت من قبل ، وبرزت واضحة للعيان .

الأوضاع الاجتماعية التي احاطت
بالنظم الدينية الجديدة

قام مؤرخون عديدون يتساءلون ، بحق ، عما اذا كانت هذه التيارات الفكرية والمجاري الدينية التي استعرضنا لها هنا ، لم تجد دافعاً لها ، وحافزاً عليها ، في هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحكت بالتطور الحضاري ، في ذلك العصر . وقد طلعت علينا بهذا الصدد ثلاث نظريات متباينة النزعة . فقد خُيِّل لبعضهم ان الحركة البروتستانتية لم تكن ، في الصميم ، سوى ثورة قام بها الامراء وطبقة النبلاء ضد سلطة البابا والامبراطور والملوك . وهذه النظرية اخذ بها في عهدها المؤرخ الفرنسي ميشليه . وقد خطر لبعض هؤلاء الذين فلسفوا التاريخ ، ان يروا فيها محاولة قام بها ابناء الطبقة الدنيا ومعلمو النقابات المهنية ، ونظار الرُشش ، والفلاحون وكل من عانى من اضطهاد الامراء وضغط رجال المال والاعمال . وهي نظرية راجت في عهود هوسر وقد ظن لوسيان فيفر يوماً ان حركة الاصلاح الديني جاءت تعبيراً عن الحاجات التي جاشت بها البورجوازية الرأسمالية . ففي التاريخ وقائع تؤيد كلا من هذه الحدسيات . كل الناس يذكرون اليوم ، موقف الامراء اللوثريين ، في المانيا ، حكام مقاطعات : هس وساكس ، والرئيس الاعلى لفرقة التيوتونيين : البرت ده براند بروج ، وغيرهم كثيرين ، ومصادراتهم الاوقاف وعيشهم بالاملاك الكنسية ، وخصوصتهم مع شارل الخامس ، كما يتذكرون قصة الملك هنري الثامن في انكلترا ، والدور الذي لعبه ، في فرنسا امراء من الاسرة الملكية ، وبعض كبار الامراء ، في الاقبال على الحركات الجديدة وتبني الآراء والتعاليم الجديدة ، ونصرتهم لها والدفاع عنها ، والاستقبال الحار الذي لقيه لدى شقيقة الملك بالذات مارغريت ، دنفوليم التي اصبحت ، فيما بعد ، ملكة نافار في نيراك ، مفكرون امثال لوفيفر ديتابل ، عام ١٥٢٩ ، والانجيلي الجديد العهد جيرار روسيل المذي رسمته اسقفاً لمدينة أولترون ، والدور الذي لعبه فرنسوا ده كوليني في مقاطعة بريتانيا ، وفي ايطاليا بالذات ، الدور الذي مثلته رينه ده فرانس التي اصبحت فيما بعد ، دوقة ، فراره ، التي ساندت مساندة ظاهرة حركة الاصلاح ، كما يذكر الكل تواطؤ بعض المطارنة ، من ذوي الحسب والنسب ، وغضهم الطرف عن التعاليم الجديدة ، وتسامحهم عنها . أما المؤيدون للنظرية الثنائية ، فهم يشددون على ثورة الفلاحين الالمان في مقاطعة الغابة السوداء ، وفي النمسا ، عام ١٥٢٤ - ١٥٢٥ ، كما يشددون على ظهور جمهورية اللامعمدانيين الشيوعية التي أعلنت في مونستر ، كما يلحظون ، بالتباه كلي ، هذا العدد الضخم من اهل الحرف والندافين ، والنساجين ، والقصارين

والاسكافين والزجاجين والمجلدين وغيرهم كثيرين من ترددت اسماءهم وحيء على ذكرهم في هذه الدعاوى القائمة على الهراطقة الذين صدرت بحكم احكام قضائية، في فرنسا ، ولا سيما في مدينة بومبيين ١٥٤٥ - ١٥٤٦ ، وفي باريس ، سنة ١٥٥٧ . والنظرية الثالثة يؤيدها ما نرى وما نلص من الاقبال على حركة الاصلاح ، هذا العدد المديد من التجار ورجال الاعمال في كل من : افقرس وبروج وروان ، وليون وفي غيرها من المراكز التجارية الكبرى في اوروبا ، لما لاقيه من التشجيع الادبي في اللوثرية والكلفينية ، في مشروعاتهم الاستثمارية .

كل هذه الحوادث وقائسح حية ، عاشها الناس ، اذ ذاك وتصلح كل واحدة منها ، بالرغم مما بينها من مفارقات ، حجة لكل من هذه النظريات ، ودليلاً لها . فلننظر الى ما هو ابعد من ذلك واعمق لنرى ماذا من حقيقة الامر .

لعله من المفيد ، ان نقيم ، بادىء ذي بدء ، الحد بين ظهور او نشأة الاصلاح البروتستانتي وبين الترويج لمبادئه ، والدعاية لها والعمل على نشرها . انطلقت الحركة كقضية دينية من هذه القضايا الكنسية . فقد ودّ رينودو الا يكون انطلق الاصلاح البروتستانتي من حادث اختلاف بين الرهبان . وماذا يضمر الامر ؟ أفلا نرى الرهبان ورجال الدين عند منطلق هذه الحركة وانفجارها ؟ ألم يكن ايراسموس ولوثير رهباناً وكهنة ، كما كان لوفيفر ديتابل وكلفين هما ايضاً من رجال الدين ؟ فما هي لمعري الدوافع الدفينة لهذه الحركة التي قاموا بها ؟ بالطبع حوافز دينية مجتمة . علينا ان نقبل وان نسلم بان هنالك أناساً يرون ان علاقتنا بالله هي قضية رئيسية ، مصيرية او بالاحرى هي القضية الكبرى في هذه الحياة .

وفي الترويج لمبادئ هذا الاصلاح والعمل على نشرها بين الملأ ، من أخذ المبادرة وقام بالجهد الأكبر ؟ الرهبان أولاً ورعاة الكنائس ، فيما بعد ، ورؤساء المعاهد والمنظمات التربوية (كلهم رهبان ، اذ ذاك) ، ومعلمو المدارس . كل هؤلاء لعبوا الدور الأكبر في نشر هذه النظريات الدينية الجديدة . ثم ، من هم الذين حملهم على اعتناق مقالاتهم ؟ - رجالاً ونساء من كل لون وجنس وطبقة من طبقات المجتمع الانساني : اشراف ، ومحامون ، وقضاة ، وموظفون في خدمة الملك ، ومن رجال المال والاعمال في التجارة والصرافة ، ومعلمو الحرف واصحاب المهن الحرة ، وسكان الريف ، من مختلف المستويات . هنالك من يمترض ان السواد الأكبر من أتباع الاصلاح البروتستانتي كانوا من السوقة . صحيح هذا ، والاصح منه ان السوقة ألفوا السواد الاعظم من المجتمع . والمهم اثباته هنا هو ان نمرف بشيء من الدقة ، ما اذا كان عددم يؤلف ، نسبياً ، العدد الاوفى من هذه الطبقات التي تألف منها المجتمع ، اذ ذاك . الا اننا نرى ، مع الاسف الشديد ان دراسة تركيب المجتمع في ذلك العصر ليست بعد من التقدم بحيث يمكن اعتمادها حجة ودليلاً . وقد لا تأتي نتائجها - لو صح الركون اليها - قاطمة ، جازمة ، باقة . علينا ان نحسب حساب المجتمعات القومية الجانب ، والافراد الذين يتمتعون بنفوذ قوي ، الذين يفرضون على الغير مثلهم ووجهة نظرهم في الحياة . ففي الوضع الاجتماعي القائم ، اذ ذاك ، يستحيل علينا

ان نرد كل محاولة اصلاح ، أو حركة اصلاحية ، الى طبقة اجتماعية معينة ، أو الى فئة اجتماعية خاصة ، مهما كان لها من حول وطول . ولما كان الدين يفر الفرد بأكمله في معاشه ، فليس من يعتقد ان المشاعر الدينية التي حملها القوم ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، لم تتأثر بما جاشت به نفوس الناس من عواطف ولواعج ، وخواطر ، ومصالح شخصية ، ومادية . ولكل وضع من هذه الاوضاع والحالات ودوافع ونوازع خاصة ، ومسببات تشدها بعضا الى بعض . فالاصلاح هو قبل كل شيء - كان قصة دين وحكاية ديانة .

عن بعضهم ان يرى في الاصلاح سبباً من الاسباب التي هيأت لطلوع
الاصلاح والرأسماليون
الرأسمالية . ان الكنيسة شجبت بالفعل وتشجبت باستمرار ، الربا على اشكاله والوانه . فمجمع اللاتران الذي انعقد عام ١٥١٥ ، وكلية اللاهوت في باريس ، جددا ، نزولاً عند اقتراح ابداه عام ١٥٣٢ ، تجار اسبانيون في انفرس ، الحرم الذي صدر من قبل بحق الربا . ففي نظر اللاهوتيين المدرسين : « سعادة الانسان الاتم لا تتم الا بمشاهدة الذات الالهية ، فمقتنيات هذه الارض ليست سوى ذرائع أو ادوات يجب ان تساعدنا على العيش بحيث نحيا حياة روحية تؤهلنا بدورها للحياة الابدية . فالسعي وراء هذه الخيرات الارضية والعمل على توفيرها ، يجب ان يتم باعتدال كلي . فالملكية شرّاً لا بدمنه ، والشيعوية قد تكون افضل الحلول . والسعي الدؤوب ، المتكالب على ادّخار المال وجمع الثروة خطيئة هو . فالعمل في هذا السبيل يجب ان يستهدف ، قبل كل شيء ، تلبية حاجاتنا الضرورية . فالانتاج ضروري ، وهو محمود الغاية . والتجارة أمر لازم ، وان كانت لا تخلو من خطر . فالتقدي قد يمسى مفسدة للاخلاق والآداب ، ومحط من شأن الانسان . فمن اشترى للتصنيع والبيع عمل جيداً . ومن يشترى لبيع ما اشترى في سبيل تأمين بعض الربح يسيء التصرف . يجب ان يتم البيع بثمن عدل يساعد على تأمين حاجات المنتج . الذين يجب ان يكون بلا بدل ، بدون فائدة . على مثل هذه المبادئ قامت النظرية التي تتلاءم مع نظام زراعي يتفق مع صناعة ضعيفة في مجتمع يتألف من فلاحين ومزارعين ومعلمي 'حرف' . والمعروف ان النظام الرأسمالي نشأ قبل الاصلاح بزمان طويل ، فهو نظام 'عمل به منذ القرن الثالث عشر ، في ايطاليا والبلاد الواطية ، وفي مدن فلورنسا والبندقية ، وبروج وليج و غنت . فاصحاب البيوتات المالية الكبرى ، في ذلك العصر من ايطاليين والماني ، كانوا يقومون بمضاربات مالية قبل ان ينشر لوثير تعاليمه . والمعروف ان كبار اصحاب هذه البيوتات المالية امثال - جر وولزر وهوشتر ، كانوا من أعداء خصوم لوثير والاصلاح الديني الذي قام به . قال : الكاثوليكية نفسها كانت تبرر تشفير رؤوس الاموال عندما يكون الدائن نفسه مساهماً في - ارة المشروعات ، هذا ان لم يكن يتحمل هو وحده نتائج كل خطر ينجم عن هذه المشروعات ، كما انها كانت تحيز قيام شركات مساهمة للمضاربات المالية . كذلك أجازت تسليف مبلغ من المال لقاء ربح دائم بفائدة صغيرة . والفلاسفة انفسهم من اتباع مدرسة توما الاكويني استجابوا ، بشيء من التعاطف ، لمقتضيات النظام الرأسمالي .

فالمال هو من هذه الوسائل المشروعة في خدمة الله .

اما لوثير ، فقد ناصب رأس المال العداء العنيف لانه من عمل ابليس . فسمحه يقول :

« اكبر مصيبة نزلت بالامة الالمانية ، هي ، لا شك بذلك ، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدها هذه الاعمال التي جرت على العالم ويلات لا يمكن حصرها ولا تصورها . فالالتجار مع الخارج في سبيل استيراد المحاصيل من كالكيوت ومن الهند واماكن نائية اخرى ، تسبب أذى للبلاذ بتسرب نقدها الى الخارج . ومثل هذه التجارة لم يكن من الجائز السماح بها . عندي الكثير عن هذه الشركات التجارية حيث لا تقع العين الا على الجشع وعلى امور مخالفة لابطس قواعد العدالة » .

وهاهو كلفين يتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر ، هذا الشرط الاساسي لكل حياة مسيحية حقة : « يكفيننا ان تتوفر لنا وسائل العيش واللبس .. »
فاذا كان لوثير وكلفين لم يكونا وراء ظهور نظام الرأسمالية ، فقد ساعدا ، من حيث لا يدريان ، على الترويج له والتمكين لاصوله .

شجع لوثير الرأسمالية ، ونظام المضاربات المالية . وقد نصح بالدين الهاني ، بل أوصيه ، والبيع بسعر منخفض يؤمن مع ذلك اسباب العيش للبائع . الا انه امتنع عن سن اي قانون أو تشريع ، رغبة منه في اطلاق الحرية الكاملة أمام الناس ، في هذا المجال .

فعلى التاجر ان يرجع ، في ذلك ، الى ما جاء في الانجيل والى صوت ضميره ، على اننا نرى اكثر الناس يتصرفون بحرية تامة ليكسروا من حدة توصيات اللاهوتيين المدرسين . فاللوثيرية ، ادت ، بالرغم من لوثير ، الى انتشار الرأسمالية ، تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد .

اما كلفين الذي كان اصغر سناً من لوثير ، فقد شر تعاليمه في اوساط تتعامل كثيراً بالنقد بعد ان جعل مقره الدائم في مدينة جنيف التي اصبحت ، اثر انهيار مدينة ليون الاقتصادي في اعقاب الحروب الالهية الدينية ، مركزاً مالياً كبيراً ، وذلك بوصفه زعيماً لحركة مدينة ساعد على نشرها عمال مهاجرون وتجار . فهو اكثر تحرراً من لوثير في ما يتعلق بالربا . ومن جهة اخرى ، لم يتقاعس قط بوصفه رجلاً فقيهاً متشرعاً ، عن فرض نظام شديد بعد ان اقتنع في الصمم ، بضرورة ضبط الامور لاستتباب الامر .

فهو يرى : « ان الله هباً الاشياء لتأتي وفاقاً لما حددته ارادته الالهية » . فالرأس المال ، اذا والاعتماد المالي ، والمصرف ، وحركة الاعمال التجارية ، والنقد كل ذلك وما اليه ، هو من تربيئات الله ، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها ، واحترامها احترامنا لحق العامل باجره ، ودفع ايجار عقار مستثمر ، ودفع فائدة عن مبلغ جرى تسليفه يكون متناسباً مع المبلغ المدفوع عن قطعة ارض تستغل بالحصة . قاله أعد كل واحد منا لدعوة خاصة يؤول الاضطلاع بها الى تعجيدته تعالى . فالتاجر الذي يسعى لتأمين ربح له يقتضيه نجاح مشروعه ومتجره على قدر ما يأتيه من جهد وقناعة واقتصاد ونظام ، يتفق تماماً مع مقاصد الله ،

ويساعد على تقديس العالم بالجهد المبذول ، فينصف عمله هذا بالقداسة . « فالعامل هو اكثر ما يكون شهماً بالله » . « فالرجل الذي يرفض ان يعمل يجب ألا يأكل » . قد يكون فقر المرء ناجماً عن الكسل وهذا يعتبر اهانة موجبة ضد الله تعالى . أما الصدقات فيجب ان تعطى بتحفظ كلي ، بعد روية ونظر .

نرى مما تقدم ، ان كلفين وقف الى جانب الاعراف والتقاليد البورجوازية يؤيدها ويشد من ازرها ، وهذا ما يفسر النجاح الذي صادفته دعوته لدى هذه الطبقة التي كان ابنائها ينصرفون عادة لاعمال التجارة والصناعة ، في أنفوس ولندن وامستردام ، وهم واقفون انهم انما يعملون وفقاً للترتيب الالهي ويسيطرون على النهج الذي رسمه الله لهم ، ولذا قست قلوب ابناء هذه الطبقة قسوة الحديد لا تعرف الشفقة الى قلوبهم سيلاً .

اصلاح والدولة
سأيرت حركة الاصلاح النزعات القومية وماشتها ، فالعقيدة الدينية من شأنها ان توحد الشعوب وان تلبس 'مثلها القومية المشتركة' ، وتوحد صفوفها لتقف كالبنيان المرصوص ضد الاجنبي ، فتنصب في وجه ملك لا يشاظرها ايمانها . فهل من عجب ان تصبح اللوثرية ، في السويد مثلاً ، رمزاً للقومية السويدية تحمل السويديين على امتشاق الحسام واعلان الثورة في وجه المستعمر الدانماركي (١٥٢٣ - ١٥٢٩) . اما في الامبراطورية ، فالانضمام الى اللوثرية بدا مظهراً من مظاهر صراع الامارات الصغيرة للحد من اطماع الامبراطور ومنعه من التحول الى نظام ملكي مستبد ، مطلق التصرف ، وبذلك يصونون الحريات التي كانوا يتمتعون بها ويحققون الاستقلال . التام الذي طالما راود خواطرم . اما الكلفينية ، فقد ساعدت من جهتها على تكوين دولة جديدة هي الولايات المتحدة التي اصبحت الحبر الذي حتر عجين الامة الاسكتلاندية .

اصلاح والتسامح
بالنظر لتعذر اجبار رجال الاصلاح والمعتنقين لحركته على الارتداد أو استئصال شأفتهم من الارض بقوة السلاح ، فقد رأى من بيدم الامر ان يعترضوا بالتسامح وحل الامور بالتي هي احسن ، عن طريق عقد اتفاقات او معاهدات دينية ، تكاثر عددها في هذه الحقبة بالذات . ومن ابرز هذه المعاهدات وأيسرها ذكراً ، معاهدة اوغسبورج ، التي أبرمت عام ١٥٥٥ . وفرمان ثانت ، الذي اصدره الملك هنري الرابع في فرنسا ، عام ١٥٩٨ . ففي معاهدة اوغسبورج : اضطر الامبراطور شارل الخامس للاعتراف رسمياً باللوثرية ، كما اعترف للامراء الذين اعتنقوا الاصلاح وغاروا عليه ان يختاروا الايمان او الديانة التي يرغبون في اتباعها ، مع الحق باجبار رعاياهم على اعتناق دين الامير مسلماً بالقول المأثور : الناس على دين ملوكهم *Cujus regioeius religio* . كذلك سلم الامبراطور بالاعتراف بشرعية مصادرات الاوقاف والاملاك الكنسية التي سبقت عام ١٥٥٢ ، شريطة ان 'يلزم كل من يرغب ، من الآن فصاعداً ، في الانضمام ، من الامراء ، الى اللوثرية ، بارجاع الاملاك التي

يكون صادرها ، الى الكنيسة . وعلى هذا الاساس استتب السلام . فالاتفاقات المعقودة في اوغسبورج عنت اللوثريين وحدهم دون الكلفينيين ، كما ان هذه الاتفاقات سرى مفعولها على الامراء وليس على الافراد . اما هنري الرابع ، فقد ذهب الى ابعد من ذلك بكثير ، كما نص عليه منطوق فرمان نانت ، اذ عرف ان يتخذ من التدابير والوسائل ما سهل التعايش السلمي ، في قلب الدولة الواحدة ، لرعايا اختلفوا عقيدة وتباينوا ايمانا ، وربما كانوا على مستويات حضارية متفاوتة ايضا . فالديانة الكاثوليكية كانت الديانة الرسمية . اما الكلفينيون ، فقد نعموا ، هم ايضا بحريتهم الدينية وبحرية العبادة ، مقتصره على المقاطعة التي يوجد فيها بروتستانت وعلى عدد من المدن والقرى . وتمتع اتباع الاصلاح بحريات عريضة ، فكان لهم محاكم مختلطة ومدن ملاجئ محصنة يقيمون فيها حاميات لهم . وتمن المسؤولون في فرنسا من الحد من انتشار البروتستانتية بالحد من حرية العبادة . وخلافا لصلح اوغسبورج ، اعترف فرمان نانت رسميا ، ولاول مرة في التاريخ ، بوجود ديانتين وبتساوي الحقوق تقريبا بين اتباعها رعايا الدولة الواحدة تحت حكم ملك واحد ادارة واحدة .

الفصل الثالث

النظم الاقتصادية الجديدة

قد تكون دنيا الاقتصاد المجال الاكبر الذي تصارعت فيه النظم الجديدة التي طلعت علينا في عصر النهضة . فالرأسمالية التجارية التي قامت على اساس الاعتماد المالي والسفينة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر ، في فلورنسا والبندقية وجنوى ، وان الاساليب او النظم التجارية على اختلاف انواعها : كالمضاربات المالية وتحويل المدفوعات وكتب الاعتماد ، وهو المحور الذي استقطب حوله بالاكثر المعاملات التجارية والتبادل الدولي ، ليس ما يدل انها تطورت كثيراً خلال القرن السادس عشر . علينا ان نلاحظ هنا ، قبل كل شيء ، ان أي تقدم يطرأ في المجال التقني ، يحمل بين طياته نتائج لا تقدر ، وان لم تزد الوثائق التاريخية التي وصلتنا من ذلك العصر ، أي صدى بارز لها . مثال ذلك ، فرنسا ، مثلاً ، حيث نجد ان الإيراد أو الدخل لم يكن ليعتبر فيها من وسائل الاعتماد المالي . فالربح الناشئ عن مبلغ من المال ، يصلح بيعه من دائن لقاء مبلغ يقرضه او يسلفه ، على ان يستوفي دينه تبعاً من ايجار عقار معين ، بموجب عقد يعتبر المعاملة بيعاً نهائياً بحيث لا يعود من المتوجب على المدين ان يدفع . ففي الربح الدائم لا يستطيع الدائن ، ان يسترجع عيناً المال الذي دفعه نقداً وعداً . وقد حاول بعض الخاصة ان ينزلوا ، بصفة عفوية وبالرغم من معارضة القضاء ، الإيراد الدائم او الربح ، منزلة الدين نفائدة . فمنذ أواخر القرن الخامس عشر حاول المتعاقدون ، في باريس ، ان يدخلوا على العقود شرطاً إضافياً يُخضع بموجبه كل املاك الدين ومقتنياته . كما ادخلوا بين ١٥٢٠ - ١٥٤٠ ، شرطاً اضافياً آخر يحدد بصورة واضحة حق الدائن باستيفاء جميع حقوقه ، من جميع املاك المدين ، ان لم يسدد هذا الاخير ما تبقى عليه من حساب ، غير مكتف ببيع العقار المرتهن لديه والذي كان يستوفي ريعه . وهكذا فالربح اصبح الزاماً شخصياً مع رهن ، وهي معاملة تقرب جداً من التسليف بفائدة ويمكن ان تكون اداة طيعة في التحويل المالي . اما معرفة ما اذا كان هذا النظام قد أدى عمله بالفعل ، فأمر آخر . فهل بعد هذا ، نحن مقتنعون

بانتنا كشفنا النقاب عن كل التغيرات التي عرفتھا المعاملات المصرفية والتجارية ؟

ومها يكن من الامر ، فاتساع محال الحركة التجارية وانقشاع مداھا ، وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقھا ، كل ذلك يعتبر بحق تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي . فبامتداد الحركة التجارية الى العالم الاسباني ، في العالم الجديد والى المحيط الهندي البرتغالي ، ادخل على الحركة الاقتصادية تغييرات جذرية . فالفترة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، تتفق مع ما يسميه فرنسوا سمياند بطور « B » ، اي نهاية الحقبة التي قَلَّت فيها المعادن الثمينة وندرت للغاية وهبطت فيها الاسعار هبوطاً عظيماً ، وانكسحت فيها المبادلات التجارية كما صُوِّلَتْ فيها حركة الانتاج . فالصعوبات التي اصطدمت بها الحركة الاقتصادية العالمية شجعت الناس على البحث للخروج من الازمة وراح جيل جديد من التقنيين ورجال الاعمال المغامرين يحاول ابتداع شيء جديد . فالدقة التي حققوها في بناء سفينة الكرافيل هذا النوع من السفن الذي عوِّلَ عليه المستكشفون الجغرافيون والتي يمكن بحركة بسيطة في قلوبھا ان تصبح بمستوى الدرجة ٦٥ من خط السير لتسير مع تيار الرياح الذي يهب من جهة اليمين ، ثم الاتجاه في طريق بحري يرسم زاوية معينة ، مع الابرّة المنطيسية ، وتحديد الموقع الجغرافي للسفينة ، بالاعتماد على زيج الزوايا ، للرجوع الى الخط والاتجاه السوي ، اذ ما حادت عنه السفينة ، ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الصدد المطلوب ، كل هذه التحسينات الفنية ادت الى تطور عظيم في وسائل النقل البحري . فالثورة التي تمت في المجال الجغرافي ، وتسهيل اِصال التوابل والافاويه الى الاسواق الانكليزية والفرنسية والفلمنكية والالمانية ، وتحويل سبائك الفضة المستخرجة من المناجم الالمانية باتجاه البندقية ومنها الى انفرس ولشبونة ، ووصول المواد الصباغية ، من الهند وخليج كمباي ومقاطعة بينغو ، او من البرازيل ، كالبقم والقرمز والنيلة ، والانقلاب المفاجيء في صناعة النسيج من جراء ورود القطن من السوس ومن جزر الرأس الاخضر ، والبرازيل والهند ، وتطور صناعة السكر في كل من جزر ماديرا والازور والجزر الخالدات ، على أثر اختراع مطاحن السكر ، وبروز صناعة صيد الاسماك على شواطئ جزيرة الارض الجديدة ، واشتداد الطلب ، بالمقابل ، على مقاطعات البلطيق واوروبا الغربية ، لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية واجواخ وغير ذلك من مصنوعات الحديد والنحاس ، والزئبق ، والمدافع ، وانسجة القلوع ، والبارود ، وتصدير هذه المواد نحو لشبونة وأشبيلية ، كل هذه المجاري التجارية ، وهذه الاسواق الجديدة ، ساعدت على طلوع عالم رأسمالي ، وتسببت في ارتفاع مستمر في الاسعار ، وفي ازدياد الانتاج والمبادلات التجارية . هذا الوضع كله حلَّ في مرتبة « A » من نظام سيمياند .

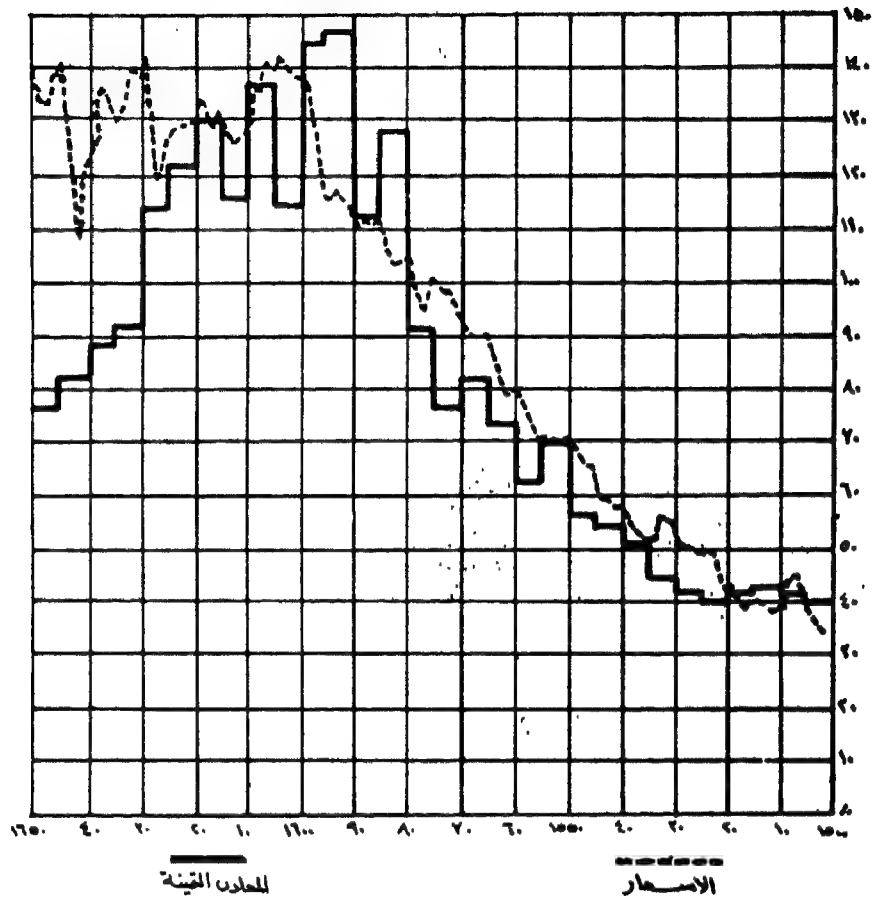
فالحركة التجارية التي نشطت وازدهرت بين أشبيلية ومرافئ اميركا الاسبانية ، فكانت المحور الرئيسي لهذه الحركة الاقتصادية التي جاءت بها اوروبا ، اذ ذلك ، ملأ نشاطها الحقبة الواقعة بين ١٥٠٤ و١٦٠٨/١٦١٠ . وقد ارتفعت حركة النقل البحري ذهاباً وإياباً ،

بين الطرفين ، من ١٥٦٨٠ برميلا ، سعة البرميل الواحد ٢٤٨ متر مكعب ، في فترة السنوات الخمس ١٥٠٦ - ١٥١٠ ، الى ٢٣٧٥٣٠ برميلا في فترة السنوات الخمس ١٦٠٦ - ١٦١٠ . وهكذا نرى ان معدل الزيادة في حركة النقل ارتفعت من ١ - ٢٠ . وقد مرت حركة النقل خلال هذه الحقبة الممتدة بين الحدود المذكورة بتقلبات عديدة تناوحت بين صعود وهبوط ، وتقدم وتأخر ، تتفق ، الى حد بعيد ، مع هذه الدورات الزمنية التي عرفتتها الحركة الاقتصادية ، ومر بها الرأسمال الدولي ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، والتي راح يحدد مميزات كل منها والخصائص التي تلبستها ، كبار علماء الاقتصاد وخبرائهم . وهذه الدورات الزمنية يختلف مداها بحسب آراء ، هؤلاء الخبراء : فهي تدوم من ٥٠ - ٦٠ سنة في نظر كوندراتييف ، او من ٧ - ١١ سنة في نظر جوكلر ، او من ٣ - ٤ سنوات في نظر كيتشين . أليست دورة كوندراتييف ، توازي تلك الدورة التي ابتدأت في اواخر القرن الخامس عشر فتميزت بهذا النشاط العارم تزخر به حركة الاعمال التجارية والنقل اثر الاكتشافات الجغرافية وطرق المواصلات المحيطية الجديدة ، وانتهت هذه الازمة التي اشتدت بين ١٥٥٠ - ١٥٥٩ بعد ان ظهرت بوادرها عام ١٥٤٧ / ١٥٤٨ ، والتي عاد اليها ريس من النشاط ، واذ احوالي عام ١٥٦٢ - ١٥٦٣ ؟ فاذا ما حسبنا معدل سعة البرميل ٢٤٨ متر مكعب ، واذا ما أخذنا اساساً لتقديراتنا ، فترة خمس سنوات ، في هذه الازمة المالية الكبرى ، بلغ وزن البضاعة التي تم نقلها من اسبيلية الى اميركا ، في نصف العقد من السنين ١٥٤١ - ١٥٤٦ ، ما قيمته ٦٥٦٢٥ برميلا . ارتفع هذا المعدل في الفترة ١٥٤٥ - ١٥٥٠ ، الى ٩٥٤٠٠ ثم هبط الى ٦٧٧٢٥ برميلا خلال الفترة ١٥٥٦ - ١٥٦٠ .

وقد حدث في الفترة الواقعة بين ١٥٤٧ - ١٥٦٠ هزة مالية شديدة تأثرت من جرائها اشهر البيوتات التجارية التي عرفت في النصف الاول من هذا القرن ، لدى الفلورنتيين ولدى اسرة فوجر « Fugger » . فقد ارغمت الحروب التي وقعت اذ ذاك ، الملوك على استلاف مبالغ طائلة وجدوا انفسهم عاجزين ، فيما بعد ، عن ايفائها ، كما استعملت مبالغ ضخمة في مشروعات غير مجدية ، كان مع ذلك ، لا بد من القيام بها ، هي هذه المبالغ الخاصة بالحروب وتكاليف حياة البذخ في بلاطات الملوك . ونشأ من جراء ذلك أزمة مالية حادة هزت اوروبا بين ١٥٥٧ - ١٥٥٩ ، ووقعت اسرة هبسبورج نفسها في عجز مالي يتراوح بين ١٣ - ٢٠ مليون دوقا بما اضطرها لاعلان افلاسها ، وفي سنة ١٥٥٧ توقفوا عن الدفع وحظروا اخراج الذهب من البلاد ، ولا سيما مبلغ ٥٧٠٠٠٠ تمود لمحات فوجر في انفرس ، وحولوا ما لديهم من *juros* بسعر يتراوح بين ٥٠ - ٤٠ من قيمته الاسمية ، الى سندات على الدولة بفائدة ٥٪ لم تلبث ان فقدت قيمتها الاسمية ، في البورصة . ولما كانت لمحات فوجر استحقاقات على اسبانيا بقيمة مليون دوقا ، اي ما يوازي ضعف رأسمالهم التجاري ، فقد اشترى عام ١٥٦٣ ، اسهما لم تلبث ان هبطت ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وملك فرنسا نفسه بعد انكساره في موقعة سان -

كنتين في ١٠ آب ١٥٥٧ ، لم يستطع ان يدفع سوى قسم ضئيل من أصل الفوائد المستحقة عليه للمبالغ التي سبق واقرضها ، وعندما توفي عام ١٥٤٧ ، خلف وراءه ديناً يتراوح بين ٣٦-٤٤ مليون ليرة في الوقت الذي خسرت عملة الدوقا التي اصدرها ٥٠ - ٤٠ بالمائة من قيمتها الاسمية . وهكذا نرى ان كل البيوتات المالية التي كانت تتولى الاعمال المصرفية ، والتمويل ، وجدت نفسها مهتزة . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتكاثر الافلاسات في انفرنس والمانيا الجنوبية . وانهارت مؤسسة فوجر نفسها بعد ان فاقت الديون المستحقة عليها ، موجوداتها ، وذلك اثر فقدانها حرية الاتجار بالمضاربات التجارية ، الامر الذي اضطر معه بعض اعضاء الاسرة ، للانسحاب من الشركة .

وقد ظن بعضهم ان هذه الازمة التي استحكمت حلقاتها في منتصف القرن السادس عشر ، مهدت السبيل لازمة مالية اخرى ألمت بالرأسال وضعفتمته طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فمنذ سنة ١٥٦٢/١٥٦٣ التي عقدت فيها معاهدة كاتو - كبريس فاعادت السلام الى اوروبا ، راحت الحركة التجارية تسجل نشاطاً جديداً ، فارتفع معدل الرحلات التجارية بين اسبيلية واميركا ، وارتفعت نسبة المشحونات التي 'صدرت' ، في الفترة ١٥٦٦ - ١٥٧٠ الى ١٠٤،٤٢٥ برميلا . ومدينة لاروشيل التي لم يسجل مرفؤها سوى ١٨ سفينة عام ١٥٦٣ ، و٥ سفن عام ١٥٥٨ غادرت ميناءها ، اذ بها تسجل ٦١ سفينة عام ١٥٦٣ ، و ٩١ سفينة سنة ١٥٦٤ . ومدينة فيثريه من اعمال فرنسا ، صدرت وحدها ، بالرغم من الحروب الدينية التي خلخلت حركة الاعمال والاشغال ، ٧٣٢،٦٦٢ ذراعاً من المنسوجات كمعدل سنوي للتصدير ، كما سجلت حركة التصدير فيها ١٠٥٢،٨٩٠ ذراعاً كمعدل وسط للسنوات ١٥٧٠ - ١٥٧٥ ، و ٤٠٠ ، ٣٤٥ ، ١ ذراعاً عام ١٥٧٥ - ١٥٨٠ . فاذا ما تدهورت بيوتات تجارية ومصرفية كبيرة كمحلات فوجر وغيرها ، فقد حلت محلها بيوتات مالية ضخمة ، في جنوى ، نتيجة للحرب التي وقعت بين الملك فيليب الثاني وبين البلاد الواطية وانكلترا ، والاضطرابات التي وقعت في فرنسا وانقطاع المواصلات المحيطية ، وطرق المواصلات الفرنسية ، كما يعود ذلك للموقع الممتاز الذي تحتله جنوى اذ انها واسطة المقد وعقدة المواصلات الكبرى التي تمر بها المعادن الثمينة في طريقها من اسبانيا الى البلاد الواطية عبر ممرات جبال الألب ومجازاتها . فاذا ما سببت حركة ارتفاع الاسعار تأخر بيوتات مالية خاصة ، فقد نشأت مصارف وطنية تباعاً في كل من باليرمو وجنوى (١٥٨٦) وفي البندقية (١٥٨٧) وميلانو وروما (١٥٩٣) وتولت هذه المصارف القيام بمعمليات تسليف على المكشوف دون ايداع سندات تغطية موازية لها ، وتستعمل عملات ورق فتضمن للمودع دفع دراهمه بالعملة ذاتها التي دفعها كما تكفل المبالغ المودعة فيها ضد اي هبوط يطرأ على النقد . وهكذا نرى ان المبالغ الضخمة التي استخدمت في القرن السادس عشر جاءت دليلاً يشهد عالياً على ما كان لرأس المال ، اذ ذاك ، من تأثير بّين . هنالك عنصر هام نهض بهذه الحركة التجارية يتمثل على أتمه في هذه المعادن الثمينة .



شكل ١ - الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠
(عن ماملتون)

المعادن الثمينة وارتفاع الاسعار اشتدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر حاجة أوروبا الى المعادن الثمينة . فالنقد المتداول ، لم يكن بالقدر الوافي بحيث يشجع الاقدام على المقايضات التجارية ، كما ان ندرة النقد ، من جهة اخرى ، وقفت حائلاً دون الانتاج وتطوره . والرغبة في توفير مقادير اكبر من المعادن الثمينة كانت من هذه الحوافز الشديدة التي ادت الى تحقيق الكشوف الجغرافية في المحيطات الكبرى . وقد اصكن توفير بعض هذه المعادن الكريمة عن طريق استثمار مناجم الفضة في أوروبا بعد ان تم تجهيز المدينين بالمعدات الفنية والعماد اللازم فادخل على الاستثمار تحسينات ملموسة . وقد كانت هذه الناحية موضوع اهتمام اصحاب المصارف بنوع خاص لما كان لهذا المعدن من قوة شرائية عالية جعلت من عملية استثمار مناجم الفضة عملية رابحة . فقد سدت الفضة المستخرجة من المناجم الألمانية بين ١٤٧٠-١٥٤٠ حاجة أوروبا منه . ودخل هذا المعدن الكريم الى البلدان المجاورة للبحر الأبيض المتوسط يحمل فيها تدريجياً محل الذهب المستورد من السودان لصعوبة الحصول عليه . وبلغ استثمار مناجم الفضة في ألمانيا الذروة ، بين ١٥٢٦ - ١٥٣٥ .

ومنذ ان احتلت اسبانيا جزر الانتيل ، اخذ الذهب الاميركي يجري كالنهر ، نحو اسبانيا ويليها معدن الفضة . وازدادت الكميات المستوردة من هذه المعادن الثمينة بعد ان تم فتح المكسيك ، على يد فرناندو كورتيس (١٥١٩ - ١٥٢٢) والبيرو على يد الفاتح بيزار (١٥٣٢ - ١٥٣٥) ، واخيراً بعد ان اكتشفت ، عام ١٥٤٥ ، مناجم الفضة الفينية في بوتوزي ، في جبال البيرو ، على أثر استعمارهم ، بين ١٥٥٢ - ١٥٥٤ ، الزئبق في استخراج الفضة من مناجمه . واذا ذلك ، اخذ هذه المعدن الثمين يجري كالنهر ، نحو اسبانيا ^(١) .

فهذه القناطر المتقطرة من المعادن الثمينة ، ما لبثت ان خرجت من اسبانيا بسرعة ، ثمناً لما استورده من الحبوب والحرير والمعادن والبارود والمدافع ، من فرنسا وإيطاليا والبلاد الواطية وألمانيا وإنكلترا ، والمضاريب التي قام بها رجال المال واصحاب المصارف من الألمان والإيطاليين فيها ، والعديد من الصناعات الماهرة الذين توافدوا عليها للعمل فيها ، من فرنسيين وألمان وإيطاليين ، فنشروا هذه المعادن الثمينة ووزعوها في جميع انحاء أوروبا .

فهذه المعادن الثمينة ، سواء منها ما استخرج من مناجم أوروبا الوسطى او ما جاء من أميركا ، تسببت في ارتفاع باهظ للأسعار . ومع ذلك فلم تكن بالسبب الوحيد . فبلاطات

واردات المعادن الثمينة من أميركا الى اسبانيا بالبيزوس من عيار ٤٥٠ مارافادس		(١) الانتاج العالمي من الفضة والذهب بالكيلو		
		فضة	ذهب	الفترة
منذ ١٥٠٣ - ٣٣٧٦٠٠٤٠		٤٧٠٠٠٠	٥٨٠٠	١٥٢٠ - ١٤٩٣
١٥٢١ - ١٥٤٤ - ١١١٦٦٠٠٧٣٥		٩٠٠٠٠٠	٧٦٦٠	١٥٢١ - ١٥٤٤
١٥٤٥ - ١٥٦٠ - ٢٣٠٣٦٨٠٢٤٠		٣١١٠٦٠٠	٨٥١٠	١٥٤٥ - ١١٥٦

عن هاملتون

الملوك ، ونفقات الجيوش ، وارتفاع مستوى العيش ، وازدياد عدد السكان ، كل هذه المرافق زادت من الطلب . فاحتكارات التجار ، والحروب التي انفجرت تبعاً في كل من ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية والمانيا ، والحرب ضد الاتراك ، خففت احياناً من المرض . فالتحويل المتزايد على نظام الاعتماد المالي ، مع انه ضاعف من وسائل الدفع ويسر لها ، لم يبق ، مع ذلك بدون تأثير على حركة ارتفاع الاسعار . الا ان ازدياد كمية المعادن الثمينة في الاسواق بقي السبب الاقوى لهذا الارتفاع . واخذت حركة ارتفاع الاسعار تمتد الى جميع انحاء اوروبا منذ اواخر القرن الخامس عشر . وانطلقت حركة الارتفاع من مقاطعة الاندلس حيث كانت تصل الى اسبيلية الشحنات المتتابعة من اميركا ، ومن الاندلس امتدت الى باقي بلدان اوروبا على نسبة ما متصل باسبانيا .

لم يدرك المعاصرون سر حركة ارتفاع الاسعار هذه ، فراح اعضاء الكورتيس ، في اسبانيا ، ينمون عام ١٥٢٥ هدر الثروة بمثلها بكمية المعجول التي ذبحت ، والرسوم الباهظة التي 'فرضت عام ١٥٣٧' ، على حق استئصال المراعي وعلى تصدير البضائع الى اميركا ، كما نعموا ، عام ١٥٥١ ، المضاربات التي يقوم بها الاجانب في الاراضي الاسبانية . وتخفيفاً من حدة الارتفاع ، اخذت الحكومات والبلديات تفرض الرسوم ، وتحظر التلاعب بالاسعار ، وتصادر البضائع : زجراً للتجار وتأديباً لهم انما بدون نتيجة محسوسة . والظاهر ان الفرنسي جان بودين أدرك وحده الاسباب الكامنة وراء ارتفاع الاسعار ، وراح يشرح الاسباب الدافعة الى ذلك ، كل هذا لم يأت بنتيجة حتي اواخر القرن . فقد فاته ان يذكر سبباً آخر لهذا الارتفاع تبينه جيداً بعض موظفي غرفة التجارة ، في باريس ، اذ ذاك ، ولا سيما السيد مالستروا من بينهم . وكان ارتفاع الاسعار يشتد اكثر فاكثراً ، بالنسبة لقيمة النقد الفعلية ، التي كان الجمهور يضيفها على العملات المعدة للتحويل . وقد سبب هذا الامر المضاربات على العملات وفقاً لاوزانها وعياراتها في مختلف البلدان وبنسبة الفرق الرسمي بين الذهب والفضة . فقد حمل تجار اجانب معهم الى البلدان التي دخلوها ، عملات اجنبية قيمتها ، وزناً وعياراً ، دون قيمة النقد القوي في البلاد . وكلوا يتقدمون لشراء هذه العملات القوية ويدفعون فيها اسعاراً تزيد على سعرها الرسمي بالتحويل ، ثم يعمدون الى تحويل هذه العملات الى سبائك من الذهب ، اذ كان سعرها اعلى بكثير مما دفعوا ثمناً للعملة الذهبية بالنقد الاجنبي الذي حملوه معهم . وهكذا كانوا يسقرون العملات العينية اعلى من العملات الورق المعدة للتداول والتي كان سعرها الاسمي في نزول مستمر بينا اسعار الحاجيات في ارتفاع دائم . وهناك طرق ووسائل اخرى يتبعونها لتخفيض اسعار النقد المد للتحويل ، انما النتيجة النهائية كانت دوماً واحدة هي ارتفاع مستمر بالاسعار نتيجة محتومة لازدياد كميات المعادن الثمينة في الاسواق .

وهذا الارتفاع سبب ارتباكاً للمعاصرين بسبب المشاكل والصعوبات التي افارها في الدول ، وبسبب هذه الاضطرابات الاجتماعية التي حركها فيها . فقد رأوا فيه شراً لم يكونوا مطمئنين اليه . ومن جهة ثانية ، كان لا بد من ارتفاع وازدياد كمية النقد المتداول لتأمين التبادل التجاري .

بالتالي لتشجيع الانتاج وتقويته . الا ان الاسعار ارتفعت ، بين ١٥٠١ - ١٦٠١ ، اربعة ضعاف . وقد كتب للقرن العشرين ان يرى ويشهد ما هو أدهى وأشد من هذا بكثير . وقد رقت الاسعار ، في اسبانيا ، بين ١٥٠١ - ١٥٢٥ ، خسين بالمائة ، وبلغ معدل هذا الارتفاع ، بين ١٥٢٥ - ١٥٥٠ حوالي ٣٧٪ ، وهي زيادة لم تحصل لمعري ، بسرعة كبيرة جداً حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار ، اقل امكانية عرضت في ذلك العصر لمضاعفة الانتاج . واخيراً وليس آخراً ليس ما يشير قط الى ان هذا الارتفاع بدا مترجراً أو متارجعاً ، وقد كان على الاجمال ، حافظاً اكبر على زيادة الانتاج منه سبباً للاضطراب الاقتصادي ، وذلك طمعاً واستهواء لربح متزايد .

أدى النشاط المتزايد في الاعمال التجارية وحركة المبادلات الى بعث النشاط الاقتصادي في جميع أنحاء أوروبا ، كما يظهر من الارقام التي نضعها هنا تحت الانظار . فمشحونات المحور من مرفأ ثانت فقط باتجاه مقاطعة بريتانيا وشمال المملكة الفرنسية ، وانكلترا وايسوسيا ، والولايات المتحدة ، والبلاد الواطية ، ومناطق البلطيق ، واسبانيا والبرتغال احياناً ، بلغ معدلاً ١٣٤٧ برميلاً بين ١٤٤٧ - ١٤٤٨ ، وارتفع هذا المعدل الى ١٠٤٧٧٨ برميلاً ، بين ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ، اي إبان الازمة المالية التي استحكمت حلقاتها اذ ذاك . وقد حافظت حركة التصدير على هذا المعدل لمدة ثلاثة قرون ، مع العلم ان حركة الشحن بلغت الذروة في القرن الثامن عشر اذ ان الكمية التي صدرت عنها اذ ذاك ، بلغت ٤٤٠ ، ١٣٥ برميلاً . وقد استعار هوسر كلمة « البعث الاقتصادي » للتعبير عن النشاط الاقتصادي الذي ميز السنوات الاربعين الاولى من القرن السادس عشر . بعد هذا حان لنا ان نتكلم عن العالم الجديد .

ان اشتداد الطلب ، في كل من اسبانيا والبرتغال على الانتاج الصناعي وعلى المواد الغذائية ، من كل أوروبا ، تلبية منها للطلبات الملحة الواردة من اصقاع ما وراء المحيط ، ساعد كثيراً على تطوير وسائل الانتاج واساليه ، والتركيز التجاري الصناعي عمت حركته مناطق واسعة . وهنالك بوادر تم بوضوح على ظهور رأسمالية صناعية حتى في صناعات النسيج ، حيث كانوا يعتمدون بالاكتر على الصناع اليدويين ، فيجدون لهم فيها مورد رزق اكثر مما كان يتوفر لهم لو عملوا في المناجم والمطابع ودور النشر . فاذا كنا نجد دوماً في مراكز صناعة النسيج : حلاجين وندافين ، وحاك وقصارين ، ومعلمي كار ، واصحاب ورش لهم عتادهم الفني واعتدتهم يعملون لحسابهم الخاص ، وعدداً اكبر منه بكثير يعملون لحساب كبار التجار ويؤمنون لهم كل وسائل العمل وأدواته الضرورية ، وما يلزمهم من عدة وعتاد ، والباعة المتجولين الذين يعملون على تنفيذ الانتاج ، نرى ، من جهة ثانية ، ترتفع في طول البلاد وعرضها ، اكثر فاكتر ، معامل ومصانع لنسج الاصواف والاجواخ . يلتشؤون في منازلهم وبيوت سكناتهم بمعد ان يحترقوا بكل ما تحتاج اليه صناعة النسيج من أدوات ، ويستخدم فيها ٨ او ١٠ ، او ١٨ حتى و ١٩ نولاً لكل نول فريقه الخاص من العمال ، حتى انهم كانوا يستأجرون ، قأميناً للعمل ليل نهار ، عمالاً ، اضافيين . وبعض اصحاب هؤلاء المصانع ، حولوا منازلهم الى معامل « توج بالناس وتبيع بالحركة » كما جاء في احدي الوثائق البلدية ، اذ كنا نرى الندافين والحلاجين يشطون الصوف في

غرف المنزل وحجراته ، ويركب الفساجون مفازلهم وانوالهم في مستودعات المونة ، و يرى الحاكة والغازلات في كل الغرف ، يعملون على مقربة من غرفة نوم ربة المنزل ، الى جانب العمال يقضون ليالهم في المنزل . حركة موصولة من عمال يفدون ويروحون ، صباحاً وأصيلاً ، من قصّارين ودباغين وصباغين ، أنهما أو في سبيل الانتهاء من اعمال أو اشغال عهد بها اليهم في بيوتهم أو يعيدون ما انتهوا من انجازهم ليستلوا غيره من الاعمال .

والمدن تتضخم وتكبر وتوسع اكثر فاكثراً ، وتلحف في طلب المواد الغذائية والحامات التي تحتاج اليها من الريف ، مما سبب انقلاباً في نشاط الفلاحين والمزارعين وسكان الريف ، حتى في هذه المناطق المعزولة حيث تحف الحركة وتتمتع المواصلات ان لم تمتنع . وحري بالملاحظة هنا ما نشاهده مثلاً ، في بعض الحماة ولاية بواتو من تربة كتم تكثرت فيها القياض والمستنقعات . فقد كانت الارض القابلة للزراعة ، في اواخر القرن الخامس عشر ، موزعة الى قطع صغيرة ، يمزقها الفلاحون بأيديهم ، أو يكتريها مراعون ، مالوا حق استثمار الارض والانتفاع بثمارها ، بينما تبقى ملكية الارض لصاحبها الذي يبقى له عليها حق فرض الرسوم واستيفاء بعض المداخيل والغلال وتأمين بعض الخدمات الاخرى ، وهو وضع ، لم يكن بالطبع ، ليؤمن لسيد الارض ، مردوداً يذكر . ولذا راح اسباد الارض يحاولون شراء هذه القطع الصغيرة الملاصقة أو المجاورة لاراضيهم فيجعلون منها وحدات ضخمة تصلح للاستثمار على نطاق اوسع ، تؤلف في مجموعها مزارع قناروح مساحة الواحدة منها بين ٤٥ - ٥٠ هكتاراً ، لم تمتد تمزق أو تحرق تربتها باليد ، كما كانت من قبل ، بل بالمحراث واقدنة من البقر . وقد جهزت كل مزرعة من هذه المزارع بأربعة أو خمسة فدادين كما جهزت بأربعة الى ستة محارث ، وكان بوسع صاحب المزرعة ان يعنى بتربية الابقار الحلوب والغنم ، وبذلك تتوفر للمزرعة ، اكثر فاكثراً ، امكانات اكبر للاستثمار ، وتسميد الارض ، ونتاج اوفر ، ولم يعد بحاجة الى اكثر من ٨ - ١٠ اشخاص لتأمين الاعمال ، يؤلفون عادة ، اسرة المزارع ، بينما كان يعمل في هذه القطع قبل توحيدهما من ٧ - ١٠ اسر بترواح عدد افرادها بين ٣٠ - ٣٥ شخصاً . وهكذا استطاعت الارض ان تعطي غلة اوفر ، بلغ معدلها احياناً ٩ قناطير من الحبوب في الهكتار الواحد ، وصار في امكان المزارع ان يبيع في السنة ، زوجاً من البقر المسنة وزوجاً من الثيران الصغيرة وزوجاً من المعجول ودزينة من رؤوس الغنم . كذلك صار باستطاعته ان يورد الى القرى والمدن المجاورة محصول مزرعته من الصوف الضروري في حياكة الاصواف والاجواخ التي تصدر للخارج . وهكذا رأينا ان حياة المزرعة ونشاطها يتوقفان ، الى حد بعيد ، على الطلبات التي تنهال عليها من القرى والمدن التي تحرص الحرص كله على تلبية المروض المفرية التي تردّها من الخارج وتلي بالتالي ، مطلب التجارة الدولية . وهكذا نرى ان تطور طرق استثمار الارض ، وتغيير مظهر الريف ، بتوفير المراعي الخضراء للماشية ، واقامة مساكن تحتاج اليه السائمة من صيّر وسياجات وزرائب ومغروسات وحدائق وغير ذلك مما يضيف على الارض حلة سندسية ، كل هذا اقتضى بالطبع رأسمالاً كبيراً

لتأمين نفقاته والنهوض به . وقد تمت هذه التغييرات على يد اسباب الارض ، والاشراف والبورجوازيين والتجار بفضل حركة تسليف زراعي ناشطة ، استندت الى رأس مال كبير اقتضاء القيام باعمال واشغال متنوعة : من توسيع المزارع وتجهيزها ، وصيانة المباني الموضوعة تحت تصرف الشركاء والمرابعين العاملين في استثمار الارض ، والمخازن ، ونقب الارض وعزقها واحيائها وتقديم البزار ، واحياناً توفير نصف ثمن حيوانات الجر . وهكذا تمكن المزارع من تأمين غلة اوفر ، من هذه الاستثمارات التي اخذ يقوم بها بفنية وتقنية اكبر . فبين العقد الاخير من القرن الخامس عشر (١٤٩٠ - ١٥٠٠) وبين العقد الرابع من القرن السادس عشر (١٥٣٠ - ١٥٤٠) اطلت علينا في خطوطها الكبرى ، هذه المساحات الشاسعة الواقعة وراء المحيط ، في العالم الجديد ، التي اصبحت مجالاً واسعاً لحركة تجارية عارمة ، واسواقاً تجارية جديدة لتصرف منتوجات جديدة ، وبقيت هذه الاوضاع التي اطلت علينا ، هي هي تقريباً ، في خطوطها الرئيسية ، حتى منتصف القرن الثامن عشر . كذلك اطل علينا ، في المجال الاقتصادي ، في اقل من ٥٠ سنة ، ولا سيما في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، عالم جديد احتل محله البارز في النشاط البشري .

فلننظر الآن ما عسى ان تكون عليه الخصائص المميزة لهذا الوضع العام .

ازدهار حركة الاعمال
التجارية الضخمة
سجل النظام الرأسمالي تطوراً عظيماً اثر بروز التجارة البعيدة المدى .
ان انشاء البلاطات الملكية وما كان لها من أثر بالغ في اشاعة البذخ والترف في مختلف طبقات المجتمع ، وقيام هذه الجيوش الضخمة من المرتزقة ، ونمو المدن الكبرى السريع ، وازدياد السكان ، وتوفر الفنى والثروة في جميع انحاء اوروبا ، وكلها عوامل انفعلت وتفاعلت بعضها ببعض بحيث اصبحت معاً ، اسباباً ومسببات ، كل هذا وما اليه ، زاد كثيراً ليس من معدل استهلاك المواد النادرة الغالية الثمن فحسب ، بل ايضاً المواد العادية اللازمة للاستهلاك اليومي . وقد دخل في التداول التجاري الدولي عدد كبير من المحاصيل والمنتجات كما اصبحت هذه الفلال والمحاصيل مجالاً جديداً لتشغيل واستثمار مبالغ طائلة من الاموال الدولية ، منها مثلاً : الحرير والمصنوعات الفنية الايطالية الصنع ، واصواف البلدان الواطية ، وفرنسا وانكلترا ، والمصنوعات المعدنية واعمال التعدين في المانيا ، وصنوف الخمر والكحول في فرنسا ، والحبوب والكتان والقُتُب ، وخشب البناء ، والماشية في البلدان المحيطة بالبحر البلطقي ، وروسيا وهنغاريا . واصبحت هذه المواد المجال الاكبر والحقل الاوسع الذي تجملت فيه التجارة بالجملة منذ ان انفتحت أمامها طرق المواصلات المحيطية الكبرى التي تقضي بسالكها الى آسيا واميركا .

ورأت اوروبا نفسها بحاجة الى عدد كبير من المحاصيل الاسيوية منها ، في الدرجة الاولى ، التوابل والافاويه التي دخلت انواع كثيرة منها ، في صناعة الاقرا باذين وتركيب العلاجات ،

أو كانت تستهلك، بمقادير طائلة في المطبخ ، وفي وقت وظروف كانت فيها النباتات العلفية والمراعي الاصطناعية ، تضطر الاهلين ، في اواخر فصل الخريف ، الى ذبح جانب كبير من الماشية يحفظون لحومها ، لفصل الشتاء البارد ، بين ساقين من الملح ، كما كان يقتضي حفظها واستهلاكها بمقادير طائلة من التوابل ، في وقت لم تكن توفرت له بعد ، مثل هذه القائمة الطويلة من الحبوب والمشروبات المشهية التي يحفل بها عصرنا اليوم ، فتطلعت فيه الاذواق الى 'مقبّلات' ومشهيات جديدة . فالفلفل الاسود الذي تغلته سواحل الملابار في الهند وجزيرة سرنديب (فيستخدّم تابلًا أو لبخةً أو لصوقًا أو لموقًا) ، وزنجبيل الهند أو الجزيرة العربية ، وجوز الطيب من جزر موليسك (الصنع المرق المقبل وتطبيب اوجاع وامراض المعدة) ، والقرفة من الصين أو من جزيرة سرنديب (علاج مقوّر ، أو مقبل أو قابض) ، وكبش القرنفل (لتعطير الاطعمة وتطرية المشروبات الروحية) كل هذه المواد ، اشتد الطلب عليها بعد ان سعى اليها القوم باحثين عنها . ونزلت منزلة التوابل ، هذه الملطّفات والمسهلات التي طالما جيء على ذكرها ووصفها في طريقة معالجة جالينوس الطبية : اهلبلج الهند ، وراوند الصين أو الهند ، وسمقونيا أو الحمودة من سوريا ، وطارد الديدان المستورد من بلاد اليهودية أو من بلاد فارس ، واصناف كثيرة من الاعاشيب والحشائش ذات مفاعيل وخصائص مختلفة ، كالكاפור من صومطرة والصين (يستعمل منشطًا أو ضد التشنج) وجوز العفص من الصين ، (قابض) ، وشلش غالنغا المستورد من الصين (ضد حفر الاسنان) والافيون من وادي النطرون ، وصمغ الكثيراء لسد الحبوب ، وتوتياء الهند والصين (للآثد والكحل ، والقطرة) ، وسكر سوريا أو مصر أو الهند ، والى قائمة التوابل ، يجب ان نضيف الاصباغ الضرورية لصباغ الانسجة والملبوسات: كالأحمر القاني والقرمز من أرمينيا ، والقوة من جزيرة العرب ، والخشب من البرازيل أو من الهند ، والازرق والنيل من بغداد أو من البنغال ، والاصفر كالصفران من الشرق الأدنى أو من الهند ، والحناء من الجزيرة العربية ، والعطور والطيوب ، كالمسك من التبت أو من الصين ، والعنبر الاسمر من عُمان ، والناordin من الهند ، والنباتات النسيجية ذات الالياف ، كالقطن من مصر ، والحرير من المعجم والعراق وسوريا ، والاقمشة والمصنوعات الزجاجية ، والاسلحة السورية ، والياقوت الاحمر من الخليج الفارسي ، والماس من الهند ، (النوع المعروف اذ ذاك من انواع الماس) والياقوت والجدع من سرنديب ، وغير ذلك .

كانت هذا الاصناف والمواد تصل الى اوربا عن طريق بلدان البحر الابيض المتوسط . الا ان الفتوحات العثمانية لم تعد تترك للتجار الغربيين القادمين من الهندية ، أو من جنوى او من مقاطعتي البروفانس واللانفدوق ان يتسوقوا هذه المواد الا من مرفأى بيروت والاسكندرية حيث كانت تصل الافاويه قادمة من الخليج الفارسي والبحر الاحمر . اما المواد والاصناف التي كانت تصل من الموانئ الواقعة الى الشمال من البحر الابيض المتوسط ، قادمة من آسيا ، فكانت تنقل برأ لتبلغ مدينة ليون والبلاد الواطية ، أو تمر عبر جبال الالب لينتهي بها المطاف الى

المدن الالمانية ، الجنوبية ، مثل : اوغسبورج ونورمبرغ اللتان ازدهرتا بفضل هذه التجارة ، ومنها تصل الى البلاد الواطية ومدينة بروج حتى مدن الهانس ولا سيما ستاتين ولوبيك ، وكانت سفن البندقية تحمل جانباً من هذه المواد الى المدن الشمالية ولا سيما الى مدينة بروج . ومن هذه المراكز التجارية واسواقها كانت توزع فتبلغ جميع انحاء اوروبا . وبالمقابل ، كان التجار الالمان وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ينقلون معهم كميات كبيرة من النقود والعملات والمعادن والمصنوعات ، كالاخواب الخفيفة المصنوعة في انكلترا ، والاصواف والسجاد واقمشة بلاد الفلاندر ، والنحاس والفضة من اوروبا الوسطى .

احدثت الاكتشافات الجغرافية الكبرى انقلاباً عظيماً . فقد استطاع البحار البرتغالي فاسكود غاما ، بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقيا ، عام ١٤٩٨ ، ان يصل الى مدينة كلكتوت في الهند . واستطاع البرتغاليون ان يسيطروا تماماً على تجارة التوابل في المحيط الهندي وان يضربوا حول التعامل بها ونقلها الى اوروبا شبه احتكار ، لا ينافيهم فيه منازع . وفي سنة ١٥٠٤ ، اضطرت سفن البندقية ان تعود خاوية الوفاض من مرافئ بيروت والاسكندرية . وقد اصبحت لشبونة ، السوق الاكبر والأهم لتجارة الافاويه . وفي سنة ١٤٩٢ تم لحريستوف كولمبوس بلوغ جزر البحر الكاريبي والنزول في هذه الجزيرة التي سماها « اسبانيولا » ، وراح الاسبانيون ، من بعده ، يستكون عمليات الاستكشاف والفتح ، فعمثوا على قناطر من الذهب والفضة ، واضطروا الى تمويل مستعمراتهم الجديدة بما يحتاج اليه الاهلون فيها من وسائل الغذاء والكساء . ومنذ ذلك الحين اصبحت اشيلية المرفأ الاساسي لتمتين الصلات وشد اواصر الاتصالات بين اسبانيا والعالم الجديد . وهكذا افتتح امام التجارة العالمية مجال جديد وحلبة جديدة ، هما مجال وحلبة المحيط ، الذي حل محل البحر الابيض المتوسط ، بعد ان بقي الوفاً من السنين ، المحور الاساسي للتجارة العالمية في التاريخ القديم .

الا انه لم يكن للبرتغاليين من وسائل النقل ما يسمح لهم بنشر التوابل في اوروبا ، ولا كانت لهم القدرة او الطاقة لتجهيز عمارات السفن اللازمة لنهوض بهذا النشاط ، ولا لتأمين حاجة البلدان الاسيوية من البضائع التي كانوا يرغبون فيها ولا التعويض على السودان لقاء مسحوق الذهب ، كانوا ينقلونه الى بلدان آسيا .

اما الاسبان ، فقد توفرت لهم ، بمكس البرتغاليين ، صناعات فاهضة من الاجواخ والحرائر والاسلحة ، ولكن لم تكن من الوفرة وسعة الانتاج بحيث تفي بحاجة البلدان الجديدة التي يشرفون عليها . ولذا توافد عدد من التجار قدموا من البلاد الواطية والمانييا وفرنسا لشراء محاصيل آسيا واميركا من اسواق اشيلية ولشبونة التي زخرت بها ، وذلك لقاء ما يجمعونه معهم من انسجة القلوع ومصنوعات النحاس ، والقنابل والمدافع والخزواات ، والقمح والسمك والمحور والنحاس ، وغير ذلك من المواد الضرورية . وقد تحولت مدينتا اوغسبورج ونورمبرغ عن البندقية ووجهتا نشاطهما التجاري شطر المحيط الاطلسي مما زادها فراء وازدهاراً . الا ان

المركز الرئيسي للتجارة الأوروبية تمثل في مدينة أنفريس على مصب نهر الاسكو، وهي النقطة التي انتهت إليها مجاري نهري الرين والموز، مستشرفة بحار الشمال الضيقة، والتي اغدق عليها الامبراطور مكسيمليان، عام ١٤٨٨، لاسباب سياسية لا محل لذكرها هنا، الامتيازات والاعفاءات الملكية، التي تمتعت بها مدينة بروج، من قبل. ولم يلبث ان نقل البرتغاليون والاسبانيون والالمان والايطاليون والانكليز وكالاتهم التجارية الى انفريس التي اصبحت، بالفعل، بندر أوروبا الاكبر، كما اصبحت مع منافستها مدينة ليون في الجنوب، اكبر مركز مالي في أوروبا جمعاء.

وهكذا رأت القواعد الايطالية للتجارة ومحاورها الكبرى نفسها من يبرزها نشاطاً ويتجاوزها حركة، دون ان يلم بها بالفعل اي ومن او ان تسجل اي هبوط. فقد عرفت حركة الانتاج والمبادلات التجارية في المدن الايطالية الكبرى ان تحافظ على مستواها من حيث الكم والنوع أو من حيث الحجم والقيمة، وذلك بعد ان ضربت نوعاً من الاحتكار على التوابل الموجودة في اسواق لشبونة لتبقى اسعارها مرتفعة. واستطاعت البندقية ان تبعث النشاط من جديد في حركة الاعمال والتجارة، اذ تمكنت من استيراد الافوايه عن الطرق القديمة المألوفة، وبأرباح منشطة، بالرغم من الوسطاء العديدين الذين عولت عليهم واعتمدتهم في عمليات الشراء والتفنيق والترويج، مما ادى الى رفع الرسوم والتكاليف، فالفلفل الذي استورده رأساً لم يكن له من الجودة ما للجنس الممتاز الذي توفر في اسواق البرتغاليين، ومع ذلك فقد راجت تجارته في الاسواق. ومن جهة ثانية، عرفت البنادقة والفلورنتيون والجنويون والميلانيون ان يفيدوا كثيراً مما تم لهم من قبل، من خبرة وتجربة عريضتين من تقاليدهم المرعية. ومن سبقهم التقني والفني، فاتجهوا بالاكتر، الى الاعمال المصرفية وصناعة ادوات الترفيه، والبذخ، ولا سيما صناعة الحرائر منها التي لم يكن بد منها لمن ينخرط في حياة البلاط او يعيش بصحبة الملوك وبرفقة الامراء، كما قاقت نفوسهم وشرعت الى صنائع المرمز واللوحات الفنية والرسوم الجميلة باقلام كبار رجال الفن والنقوش الجدارية التي تحلي قصورهم وصروحهم. فعرفت ايطاليا، بذلك ان تحافظ على ازدهارها وان قام في الغرب من بزها وتقدمها في مجالي رأس المال والتجارة الدولية.

وهذه الحركة التجارية التي استشرت على نطاق واسع بعد ان قامت اركانها على نظام رأسمالي ضخم، عرفت ان تتغلغل عن طريق عدد كبير من التجار المغامرين، فسرت سريان النار في الهشيم حتى بلغت هذه المجتمعات الريفية التي تعمل في الزراعة، وراح الفلاح الثري يرتدي، ايام الاحاد والاعياد، الثياب الفنية التي يرقدها ابناء المدينة، فنشطت الحركة الانتاجية وحركة الاشغال والاعمال. الا ان الاقتصاد بقي على طابعه الخاص المدني الاقليمي. واخذت مدن كبيرة باسباب النمو والتطور والتوسع على حساب مدن اقل شأنًا منها، تقع في جوارها. هنالك العديد من المدن كالبندقية، وفلورنسا، وانفريس وباريس، وليون

ولندن ، ونورمبرج وأوغسبورج ، ولوبيك ، زاد عدد سكانها فتراوح بين ٤٠ - ٥٠ ألفاً حتى بلغ في بعضها مائة ألف . وقد كانت هذه المدن محوراً لصناعات عديدة كما كانت مراكز هامة للاستهلاك المحلي والمواصلات والتوزيع ، اقتضاها الكثير من الحركة كما احتاجت لمقادير هائلة من المواد الغذائية والخامات عرفت ان تؤمنها في المنطقة او الاقليم نفسه . وهناك بعض الاصناف اللازمة لمن يحيو حياة الترف والبذخ ، وغيرها من المواد الضرورية ، كالشرب مثلاً الذي لا بد منه لصبغ الاجواء ولدباغة الجلود ، ولا يراى الا لوان الزاهية ، وغير ذلك من هذه المواد التي تشتد عليها الحاجة بصورة استثنائية ، كما لو حدثت مجاعة مثلاً او وقع جفاف في الامطار اهلك الزرع والضرع ، وكلها مواد وخامات كان يمول في استيرادها ، على الاسواق الدولية او الاسواق الاقليمية . وأخذت هذه الدول الكبرى التي برزت حتى الآن واستكملت فيها عناصر السيادة والاستقلال كفرنسا واسبانيا وانكلترا ، تنزع في الصميم ، الى تكوين ممالك ، لها أطرها الاقتصادية الثابتة . ولكننا امام نزعة لا غير . أما الوحدة الاقتصادية المستكملة العدة التينة الاركان ، فهي المدينة الكبرى : حواضر البلاد الرئيسية وقواعدها الحورية . فالمملكة ليست بعد سوى عدد من الولايات والمدن المتواضعة ، تحمل بان يتم لها يوماً استقلال اقتصادي حكم الحلفاء ، مراعى المرافق .

لا بد من التنويه عالياً هنا بأهمية المعرى الوثيقة التي شددت ما
الراسالية والملكية المطلقة بين كبار رجال المال ، اذ ذاك ، والملكيات المطلقة ذات الحكم المستبد . ان تأمين أود الجيوش المرتقة ومقتضيات العيش الكريم الرفيه في البلاطات الملكية والانهرية وكبار القادة والموظفين ، حل الملوك على فرض ضرائب ورسم جديدة لتأمين ما يلزمهم من الموظفين الاكفاء . ومن جهة ثانية فالمشاريع والانشاءات الدولية ، كثيراً ما اقتضى تحقيقها المفاصىء ، مبالغ طائلة لم يكن بمقدور الضرائب تغطيتها أو مواجهتها الا ببطء كلي . ولذا راح الملوك يمتدنون ، لتوفير ما هم بحاجة ماسة لتوفيره من نقد ، على كبار رجال المال الذين يقومون بالاعمال المصرفية وعمليات التسليف على نطاق واسع ، فيلزمونهم جباية الضرائب ، ويعقدون معهم قروصاً ويدفعون لهم بالمقابل فوائد باهظة ، متنازلين لهم عن حق استثمار الاملاك الملكية الخاصة ، ولا سيما المناجم ، ويمحونهم من القوانين الكنسية ومن انتفاضات الرأي العام الذي كان يأبى التسليم او القبول بمبدأ الدين بفائدة ، مها كانت طفيفة ، او الانحراف في المضاربات المالية .

ولعل الدور الكبير في هذا المجال هو الدور الذي لعبه كبار رجال المال من الايطاليين ، في فلورنسا وجنوى ، ومن الالمان في مدينتي اوغسبورج ونورمبرج . ومن هؤلاء الممولين الكبار ، اعضاء اسرة فوجر ، في اوغسبورج ، الذين صار اسمهم مرادفاً للربا الفاحش ، ولذا نحت الناس كلمة « *Fuggerei* » يمتدنون فيها عن المرابين ، وكان يضرب بهم المثل في جميع انحاء اوربوا . فبعد ان أقرؤوا من الانجار بالحرير والتوابل والاصواف عن طريق البندقية ،

ربطوا مصيرهم بمحنة اسرة هبسبورج الامبراطورية وبمصيروها . وبفضل السلفات المالية التي قدموها للامبراطور مكسميليان ، للنهوض بحروب ايطاليا ، بين ١٥٠٨ - ١٥١٧ ، ومصارعة الاسرة المالكة في هنغاريا ، عام ١٥١٥ ، وبفضل نفوذهم المريض ، آمنوا انتخاب شارل الخامس امبراطوراً ، عام ١٥١٩ ، ضد خصمه فرنسوا الاول ، وتحملوا نفقات الحرب التي خاضها ضد فرنسا ، وحرب سمالكالد ضد البروتستانت ، سنة ١٥٤٦ ، ومحاصرة مدينة متر ، عام ١٥٥٢ ، كذلك عضدت اسرة فوجر ، العسكري الرسولي مالياً ، فلسفته مبالغ طائلة ، فعهد بالمقابل ، الى اعضائها ، بحماية الرسوم البابوية ، في كل من هنغاريا ، وبولونيا ، والمانيا والبلاد الرواطية . كذلك عهد اليهم ببيع « الغفرانات » في ألمانيا .

مقابل خدماتهم المالية المتنوعة هذه ، عهد اليهم الامبراطور مكسميليان باستئثار مناجم الفضة والنحاس التابعة له ، كما انهم استثمروا ، باسمه ، ملاحات التيرول . كذلك ، ائمن لهم شارل الخامس مرافق مهمة في املاك التاج في نابولي والبلاد الرواطية وعهد اليهم ، بحماية ريع املاك التاج ، في اسبانيا ، وعهد اليهم باستئثار معادن الزئبق في مدينة « المادن » ، ومناجم الفضة في وادي القنال . وخوّلهم حق انشاء اتحادات تجارية من متمولين : المان وايطاليين ، وان يحتكروا باسمهم تجارة البهارات والنحاس والفضة في انفرس ، وان يبيعوا من الملوك والامراء ، باثمان مرتفعة جداً ، ما كانوا بحاجة اليه من المعادن الضرورية لسك عملاتهم ولتجهيزاتهم للحربية .

وقد سلمهم الامبراطوران المذكوران « فرمانات ملكية » ، ترفع عنهم كل مسؤولية عندما يعقدون ، بصورة غير شرعية او غير قانونية ، العقود التي تخوّلهم حق اقامة الاحتكارات . وكان في مقدورهم ان يطلوا مفعول الملاحقات القضائية التي يستهدفون لها ، ويقترحون هم انفسهم اصدار القوانين التي يرغبون فيها كالقانون الذي صدر عام ١٥٢٥ (في مدريد وتوليدو) مثلاً ، هذا القانون الذي يترك بالفعل ، لهؤلاء المتمولين الكبار ، كل حرية في المضاربات التي يقومون بها .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يتمتع آل فوجر بنفوذ سياسي عظيم ؟ فهم يطلعون اطلاعاً وثيقاً على الوضع السياسي في اوروبا عامة ، بفضل ما كان لهم من عيون وارصاد مبنوثة ، ورسل ومفوضون ومعتمدون واصدقاء ومحاسيب ، بين طبقة النبلاء ، يفرقونهم بالهدايا والأعطيات من كل نوع ولون : من خواتم ذهب ، وحلى ومجوهرات ، وعقود ، والاقشة للزركشة الفاخرة كالديباج . فهم وراء كل المغامرات التي قام بها آل هبسبورج .

اما ملوك فرنسا ، فكنا نرى الى جانبهم ، جلة من كبار رجال المال الايطاليين يقيمون في ليون ، ولهم وكالات وفروع في باريس ومثلون معتمدون لدى البلاط الملكي في فرنسا ، امثال : ساملي ، وغوداني ، وأليزي وسلفياني ، وسوام من كبار المتمولين الالمان في

نورمبرغ ، امثال هانز كليبرجر الذي طالما عمل وسيطاً بين الرأس المال الالمانى في نورمبرغ ، وبين الملك فرنسوا الاول ، فلبموا جميعاً الدور ذاته الذي لعبه آل فوجر ، لدى الاباطرة الالمان .

وهذا النشاط يجيش في صدر ارباب المال ممن ذكرنا، وكان من شأنه ان يدرّ عليهم بالطبع ، ارباحاً طائلة ، تقصر عن تأمين مثلها او بعضها ، الاعمال والنشاطات التجارية البحتة . ابتداءً آل فوجر ، عام ١٥٢٧ ، برأس مال قدره ٩٩١ ، ١٩٦ فلورين ، فاستطاعوا في مدة ١٧ سنة ان يجعلوا رأس ماله ٤١١ ، ٨٢٤ فلورين ، اي انه زاد بنسبة ٥٤٥ ٪ في السنة الواحدة ، بينما لم يستطع منافسوم من آل فيلرز الذي انصرفوا ، هم ، بالاحرى للتجارة وامتنعوا عن القيام بعمليات التسليف ، ان يؤمنوا ربحاً غير ٩٥ ٪ في السنة .

وهكذا نرى ان الملكية المطلقة ورأس المال هما عون للواحد مع الآخر . فالملكية المطلقة ، بنا لها من ممتلكات طائلة خاصة ، وبما تفرضه من رسوم على الزراعة وبما تقيمه من احتكارات تجارية واسعة ، أصبحت وكأنها ورشة رأسمالية ، الفنيون فيها والمساهمون والمتعهدون هم رجال المال أنفسهم .

هنالك عنصر هام أو عامل كبير كان له ، ولا شك ، تأثير الدفع الديموغرافي او السكاني ظاهر على النظام الرأسمالى واستفحل شأنه ، هو ازدياد عدد السكان في اوربوا ، وهو نغ كان من بعض نتائجه العميقة توفير اليد العاملة اللازمة للنهوض بالمشروعات الجديدة والعمل في ما يؤمن أود عدد اكبر من المستهلكين . وهذا النمو في عدد السكان كان من نتائجه ايضاً تضخم الاسواق وتنشيط الاعمال التجارية ، كما نشهد ذلك واضعاً في البلدان المحيطة بالبحر الابيض المتوسط في اواخر القرن ، اذ أدى توالي سوء المواسم الزراعية ونمو السكان في المدن ، الى توافد قوافل من تجار الانكليز والهولنديين ، حاملين معهم قمح البلطيق ، والاستعداد لتقوية الروابط التجارية مع الاصقاع الشبالية .

اما النتيجة العكسية التي تنط للعين فهي عجز المواد الغذائية عن الوفاء بحاجة السكان فيلشاً عن هذا التقصير مجاعات دورية تروح ضحيتها مناطق برمتها بمن فيها من سكان وبما فيها من زرع وضرع . فالجاعة التي نشبت عام ١٥٢١ ، زرعت الرعب والهول بين سكان المدن والارياف ، في فشتيلية والبرنتال . فالجفاف ثم القحط الخيف الذي وقع عام ١٥٢٥ ، سمرّ الهلع في قلوب الناس في كل أرجاء الاندلس ، والجاعة التي نزلت بايطاليا ، عام ١٥٨٣ ، حصد فيها منجل الموت الناس حصداً .

وهذه المجاعات الفاشمة ، كثيراً ما حملت في طياتها الاوبئة على انواعها ، وجرت ورائها وافدة الطاعون الذي يحرف الناس جرفاً بالعشرات والمئات ، فيذهب بربع سكان المدينة أو

بثلثهم احياناً . فقد فقدت مدينة راغوز ، في سنة واحدة ٢٠,٠٠٠ نسمة ، وفقدت البندقية ما بين ١٥٧٥ - ١٥٧٧ ، اكثر من خمسين ألفاً .

وهذه الشوارع والممرات التي افترشها موات الناس في المدن ، وهذه الجثث الملقاة على جوانب الطرقات باعداد لا تحصى وبكيات هائلة ، كان دفنها ومواراتها الثرى يكون مشكلة حادة ، وهذه العربات تتكدس فوقها رمم الموتى يفتح منها النتن والفساد ، زرعت في القلوب الهلع والفزع ، فاضطربت الخواطر وقلقت القلوب . ألم يبلغ مسامع الجميع ان ثمانية اعشار سكان مدينة روما وناپولي حصدم منجل الموت حصداً ، عام ١٥٢٥ وان مدينة مرسيليا لم تعد بعد ، عام ١٥٨١ ، سوى خمسة آلاف نسمة لاغير ؟ وهل بعد هذا وجهه للاستغراب ، اذا ما راح الجار يقتل جاره ، انتزاعاً منه لرغيف يلبثه ، يسد هو به رمق الحياة ؟

في كل مكان وزمان ، كان فجأج الآفاق يحوبون البلاد يسرحون ويمرحون حائمين ، منهم من ينقطع للمبت والعيث والصخب ، بينهم : المستعطي والشلال ، وساري الليل ، والتصبد والغامر ، وقاطع الطريق ، والهائم على وجهه لا يلوى الا على مهابط الرذيلة ، فيزرعون الهول في قلب المدينة التي كانت تقوم عبثاً من حين الى آخر ، بعملية تنظيف وتطهير ، تجتث منها بالطرد والنفي ، والاجلاء والابعاد والسجن ، هذه الهوام البشرية التي لن تعدم فتعود الى ما شبت عليه ورسخت عليه من غل الطباع وفساده . اما الاماكن المزولة في الجبال ، أو في مناطق الحدود ، فكانت مسرحاً لمصائب من شذاذ الآفاق واهل الخطف والسطو ، فتنهب ما طاب لها من احبيب الغلال ونتاج الارض ، وتقطع الطريق على السابلة ، وتقتل المسافرين الذين قدر لهم حظهم المائر ، ان يقهوا بين ايديهم ، أو انهم ينتهكون حرمة المعابد والكنائس فيدنسوها بموبقاتهم ، او يهاجمون القصور والصروح ، ويفزون القرى الآمنة والساكن الهادئة والمدن المغربية ، يشجعهم احياناً في ايطاليا واسبانيا ، نصراء لهم من عليبة القوم وبعض السراة .

ولعله من حسن الطالع واليُمن مما ان نشهد تجديدأ مستمراً بين السكان وحركة تبادل لا تنقطع بين قوم قابعين مستقرين واقوام قادمين .

لم يحسن رأس المال اذ ذاك ، يتخصص بمشاريع معينة ، محددة . فهذا شركات ودور البورصة المتمول يتعاطى هو نفسه التجارة او اي شكل او لون من اشكال الحركة التجارية والصناعية واهمال الصرافة . فالتاجر الحق هو من قام بشيء من النشاط في هذا كله . نجد قبل كل شيء شركات عائلية ، اي قائمة ضمن افراد الاسرة الواحدة ، اذ ينهض احد افرادها المعروف بنشاطه ، كالأب او العم مثلاً ، ويؤلف رأس مال يشترك جميع افراد الاسرة بتقديمه . ويتولى ادارة الشركة ويفتح لها فروعها وكالات في اماكن عدة ، في اوروبا يمد بنشاطاتها للابناء او لافراد الاسرة كممثلين وعلاء ، على مثل هذا النهج سارت الشركات

الامانية ، من آل فوجر وآل ولزر ، والشركات الايطالية ، من آل أفيتاتي وغويتشارديني ، والشركات الاسبانية من آل بيريس وآل لوبيز . ولما كان يعقوب فوجر لم يعقب فقد أشرك معه أولاد اخوته : ابرونيموس واولريخ وريمون وانطون ، وعملت الشركة بالعنوان التجاري : « يعقوب فوجر وابناء اخوته » (١٤٧٣ - ١٥٢٥) . وعندما جاءت منيته أوصى بأن يخلفه في ادارة الشركة ، اصغر ابناء اخيه انطون . وقد اشرك انطون تبعاً معه ابناء اخوته واشقائه : هوس ويعقوب ، وجورج ، وخريستوف وريمون . الى ان وافاه الأجل المحتوم عام ١٥٦٠ .

وتكاثر الشركات من نوع شركة توصية *Commundite* وهي شركة تجارية برئاسة تاجر يستودعها بعض الافراد قسماً من رأسمالهم شريطة ان يتقاسموا الارباح فيما بينهم كل بحسب سهمه .

وهناك شركات مساهمة : *Compagnie* تحمل اسم تاجر معين ، مضاف اليه : « وشركاه » . وهي عبارة عن جمعية او شركة من التجار ، ترمي الى الحصول على احتكار صنف معين كالشركة التي تألفت من البيوتات التجارية الكبرى ، في اوغسبورج عام ١٤٩٨ ، بحيث تحتكر الاتجار بالنحاس (في البندقية) او كالشركة التي تشكلت من ايطاليين والمان ، في لشبونة لاحتكار تجارة التوابل ، او شركة من هذه الشركات التي تتجر بمادة دقيقة ، خطيرة ، منها مثلاً الشركة الانكليزية ، المعروفة بـ « التجار المغامرون » ، او « الشركة الشرقية » (١٥٧٩) او « الشركة التركية » (١٥٨١) ، او « التجار المسكوب » . وهذا النوع الاخير من الشركات عرف انتشاراً كبيراً بعد عام ١٥٦٠ .

ونجد في آخر المطاف ، احتكارات ملكية برتغالية واسبانية . من هذه الاحتكارات مثلاً ، ان ملك البرتغال احتكر لنفسه تجارة الافاويه والتوابل . فكان وكيله او ممثله في أنقرس يفاوض باسمه ، نقابة رجال المال التي تألفت من ممثلين عن شركات ولزر وأفيتاتي وغوالسيروتي الذين يشتركون ، في مسواق واحد ، او صفقة واحدة ، كل ما لديه من شحنات التوابل ومخزونها لقاء ٥٠٠ او ٦٠٠ قنطار من معدن النحاس والزئبق والزنجفر ، وكلها مواد لازمة لسفن البرتغال التي تتجر مع الهند فكان ملك البرتغال يدفع قيمة الفواتير المسحوبة عليه ، كميات من التوابل ، كما كان يقترح مثلاً ، ان يدفع بهذه العملة ما يوازي ثمنه بائنة شقيقته . وبالإضافة الى هذا ، فقد كانت لشبونة المركز الامم ، او السوق الاوحد لكل البضائع والاصناف المستوردة من الهند ، حيث كنت ترى مثلاً : وكالة الهند *Casa India* ووكالة الغينيه *Casa da Guinée* يشرف عليها ويتولى تصريف ما فيها من بضائع مراقبون ملكيون ، بعد ان يستوفوا ما يترتب على البضاعة من رسوم ومكوس وضرائب ملكية ، وبعد ان يحددوا ، منها الاسعار . كذلك كان للملك اسبانيا ، هو الآخر في مدينة اشبيلية ، مركز خاص او دائرة خاصة بإعماله التجارية ، هي « مصلحة المقود التجارية » . وهذه المصلحة تستوفي ما يعود للمرش الاسباني ، من رسوم وعوائد على المصارف الثمينة ، المستوردة من اميركا ، كالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، كما ان الامبراطور شارل الخامس فرض رسماً

جديداً ساء : رسم البضائع المستوردة من الهند ، كانت الرسوم المجبأة عليها تستخدم في تسليح الاساطيل ومراقبة حركة التصدير والاستيراد .

وفي سبيل تشجيع المقايضات والحركة التجارية على جميع نشاطاتها قامت دوماً معارض واسواق لهذه الغاية بالذات . فقد اقيمت اسواق خاصة للبضائع والاسهم عرفت باسم « مصفق » او « بورصة » ، لم تلبث هذه الاسواق ان لعبت دوراً هاماً في المضاربات المالية والتجارية . ولعل اهم هذه المصافق او الاسواق المالية هي مصفق أنفريس الذي انشيء عام ١٤٠٠ ، واعدت تجديد هذه السوق سنة ١٥٣١ . فقد كان عبارة عن مبنى فخم مستطيل قائم الزوايا ، تقوم من الداخل أروقة مرقعة على اعمدة عالية ، تطل على فناء او ساحة فيسحة الارجاء حيث كانت تجري المناقشات والمداولات التميدية لمعد الصفقات التجارية ابتداء من الساعة ١١ صباحاً . وكان محظوراً القيام بالالعاب او السماح لتجار المباديل والمقروشات العتيقة ، الدخول الى المصفق ، كما حظر الدخول اليه ايضاً على باعة الكتب المتجولين ، ومنعت الجماهير من الاحتشاد او التجمهر في الاسواق والاحياء المجاورة . وبالرغم من هذه الاحتياطات كلها ، كثيراً ما شجرت المشاحنات وقامت الحناقات بين الانكليز والاسبان ، يتضاربون ويقتتلون بعضهم مع بعض . وكثيراً ما كان المتخاصمون يهاجمون بعضهم بعضاً بالسيوف الطويلة ويتبادلون الطعن بالخنجر ، او يتربصون لبعضهم البعض في المنعطفات ، وكما حدث من المارك استمان بها كلا الفريقين ، بما عندهم من خدع وحشمة وأتباع . وكان الدم الذي يغلي في المروق كثيراً ما تحدر في هؤلاء التجار من دم اشراف او قدامى الجنود او المبارزين .

من المتبع ومؤلف العادة عند القوم ، ان تعقد بين السندات والاعتمادات المالية الصفقات التجارية امام كاتب العدل ، بعد ان يمد لها سمسرة وعلاء . من المعروف ايضاً ان الكنيسة كانت تحظر الدين بفائدة . فمن وجد نفسه بحاجة الى مبلغ ما ، عمد الى شراء المبلغ الذي هو بحاجة اليه بعد تقديم ضمان او كفالة تتألف من ربيع دائم ، على شاكلة ما كان يجري مثلاً عند شراء عقار بضمان دخل دائم ، وهو ترجيب تعارف عليه الناس ونهجوا على منواله . وهذا النوع من الدين بفائدة كان تدبيراً عملياً عندما يكون الامر متعلقاً بمبالغ صغيرة يستعملها المزارع او الصناعي مثلاً ، لشراء ما هو بحاجة اليه من بزار وتقاوى وعتاد وخامات ومواد غذائية له ولزراعته او مصنعه . ولكن الصعوبة كل الصعوبة عندما كان الدائن يريد استيفاء رأس مال وضعه تحت تصرف الغير الى امد طويل ، لقاء شروط وضوابط معينة الامر الذي جعل المعاملات في غاية التعقيد ، ولذا لجأ التاجر الى المعاملات التي تؤخذ بصدد شركة توصية ، فيما لو كان احد الدائنين سلفه مبلغاً من المال لتشغيله في عملية تجارية معينة على مسؤوليته ، اي انه يتحمل ما في العملية من مخاطر واحتمالات . الا ان الذين لم يحكوا يرضون الاستهداف ، لاي خطر محتمل ، راحوا يدورون حول القانون ويداورون

بانتهاج طريقة عرفت عندهم بـ *trinus contractus* ، وهي طريقة لقيت رواجاً عظيماً في ألمانيا الجنوبية ، والتي شجعتها الكنيسة بالبراءة الرسولية : « *Detestabilis* » التي اصدرها البابا سنة ١٥٨٦ . والطريقة المذكورة تقوم بان يقرض دائن تاجراً مبلغاً من المال على شرط ان يقاسمه جزءاً من الارباح قد يبلغ احياناً ١٥ ٪ من المبلغ الذي سلفه اياه ، ثم يعقد مع التاجر المذكور عقد ضمان ينص على ان يتخلل له الدائن عن ثلث المبلغ العائد له من الارباح المرتقبة اذا ما رضي التاجر ان يعيد المبلغ الذي اقترضه كاملاً ، حتى في حال خسارة رأس مال الشركة ، ثم يعقد معه اتفاقاً ثالثاً يبيع بموجبه من التاجر ربعه المرجح لقاء فائدة ٥ ٪ من المال المقروض او المسلف ، وهي فائدة مضمونة ملازمة مهما كان مصير العملة التجارية . فشركة التوصية استحالّت ، في مثل هذا الوضع ، ديناً بفائدة بسيطة ، بمعدل ٥ ٪ تصبح بالطريقة التي أقرت بها ، بأمن من تدخل القانون . ثم كان هنالك عدد كبير من الدائنين يستوفون بفائدة بحرية تامة ، دونما وجل أو خجل ، بالرغم مما يستهدفون له من ملاحظات قانونية امام المحاكم ، اذا ما رأى المدين ان يرفع ظلامته امام القضاء . مثال ذلك ، ان المتمول الألماني امبروسيوس هوشستتر من مدينة اوغسبورج ، رغب يوماً في احتكار الحشب والمحور والحبوب والنحاس والزئبق ، فعمد حوالي سنة ١٥٢٦ الى الدين بفائدة ٥ ٪ يستلف بهذا المعدل من الامراء والنبل والكونتية واصحاب الطبقة البورجوازية والخدمات . وبينما هو في وهمه غارق يعتقد انه يتصرف لوحده بصنف الزئبق ، اذ بمناجم الزئبق التي ظهرت في مدينة المادن الاسبانية ، التي دخلت تحت احتكار آل فوجر ، تسبب له الافلاس ، وهي هزة دوت بعيداً في كل ارجاء اوروبا . وهذا الافلاس الداوي كان يجب ان يلقى فيه كل مضارب درساً له وعظة ، ولكن انى من يرعوي ويتعظ .

وراحت الدول تعتمد في معاملاتها التجارية نظام الاعتماد المالي أو السند ، اعتماداً كلياً ، بما عاد على هذه الطريقة بالازدهار فانتظمت اسسه واستقرت على وجه دقيق نظم . فقد اصدر الامبراطور شارل الخامس ، سندات أو اسهماً على الخزينة بقيمة اسمية تتراوح بين ٧ - ١٠ بالمائة . وفي سنة ١٥٢٢ ، باع الملك فرنسوا الاول مدينة باريس ربيعاً له قدره ٢٠٤.٠٠٠ ليرة ذهب ، يعود عليه من رأس مال ، تبلغ قيمته ٢٠٠.٤٠٠٠ ليرة . وراحت بلدية مدينة باريس تستدين هذا المبلغ من احد البورجوازيين ، ثم راحت توزع على سكان الحلة التي يوجد فيها هذا الربيع ، سندات بالقيمة المذكورة . وهكذا ظهرت السندات الدائمة المقرّبة على المجلس البلدي في باريس . وقد راح البورجوازيون يبيعون ما لديهم من اواني موائد الطعام الفضية لوفاء قيمة هذه السندات . وكانت مدينة ليون المركز الرئيسي ، مع مدينة انفرنس ، للتجار بالفضة . وفي سنة ١٥٤٢ - ١٥٤٣ ، راح الكردينال ده نورنون ، حاكم المدينة اذ ذاك ، يستعمل الطرق والاساليب ذاتها التي ركن اليها هوشستتر ، وألف ، بالاتفاق مع صياغة ايطاليين ، اتحاداً من كبار المتمولين تولى ادارته هانز كليبرجر ، وراح يستدين بفائدة ١٠ ٪ واحياناً ١٦ ٪ من فرنسا

والمانيا وابطاليا ، ومن الارامل واولياء اليتامى ، حتى ان ملك اسبانيا كان يتعذر عليه وجود من يقرضه أو يسلفه ما هو بحاجة اليه . وفي سنة ١٥٥٥ ، اعاد ده تورنون الكرة باسم « حزب ليون الكبير » هذه المرة ، وراح الخدم يقدمون له المبالغ الصغيرة التي وفروها ، حتى ان النساء بعن حليهن ومجوهراتهن وسرت المدوى وشاعت بين الناس ، وراح السويسريون والالمان والباشوات والتجار الاتراك يدينون بفائدة .

تلبست الحركة التجارية في المراكز التجارية الكبرى ، امثال انفرس وليون المضاربات وجنوى ، الواناً واشكالاً من المضاربات اقتربت كثيراً من المراهنات والالعاب الحظ . فقد كانت البضائع مجالاً تعقد حولها اتفاقات وعقود محددة الآجال . مثال ذلك ان يشتري تاجر ما ، كمية من التوابل يستلمها بعد ثلاثة اشهر من تاريخ العقد بسعر البضاعة يوم الاستلام . فاذا ما كان سعر البضاعة يوم الاستلام اعلى من سعرها يوم البيع ، يكون حقه ربحاً . اما اذا ما قصر السعر يوم الاستلام عن سعر البضاعة يوم الشراء يكون البائع هو الرابح . وهكذا تبدو المعاملة اشبه ما تكون رهاناً ، على شيء من التأمين او الضمان . ويسلم البائع او المشتري ، عقداً موقعاً منه ، يتعهد له فيه بتسليمه كمية معينة من صنف معين من التوابل بمواصفاته ، في مدة يجري تحديدها بين الطرفين المتعاقدين . وللمشتري ، مثلاً ، ملء الحق ببيع هذا الصك أو السند ، من شخص آخر ، وهذا من شخص ثالث ، وهكذا دواليك ، الى ان يحين الاستحقاق وهكذا وجد التجار انفسهم امام معاملات وتعهدات اساسها الصك أو سند التعهد ، فتنبهوا في الصفقات التي عقدها ، اذ يحنبهم متاعب ومضايقات كانوا يغنى عنها كالاهتمام بالبضاعة مثلاً ، ويخفف عنهم أعباء الانشغال بها .

ومنذ ذلك الحين جرى التعامل بهذا الصك 'سنة' بين الناس لقيمتها المالية وسهولة تداوله . ذهب ان تاجراً من تجار ليون يترتب عليه دفع مبلغ يستحق عليه لعميل له في انفرس ، ولم يكن له على احد من تجار انفرس او رجال المال فيها ، اى تحويل أو سند . فقد كان من السهل عنده ان يشتري تحويلاً مالياً لتاجر من تجار ليون على تاجر من تجار انفرس بدلاً من ان يرسل لعميله في هذه المدينة المال عيناً . وعلى هذا قس ايضاً تاجراً من تجار انفرس يرغب في تحويل دراهم لعميل له في مدينة ليون ، فيشتري محلياً من تاجر انفرس تحويلاً يرسله لدائنه في ليون وفاءً لدينه بدلاً من ان يرسل له المبلغ عيناً . وقد انتشرت عادة استعمال هذه السندات او الصكوك الورقية بعد ان اصبحت نوعاً من العملات لها قيمتها المعينة ، وهي قيعة تتأرجع صعوداً أو هبوطاً وفقاً لناموس العرض والطلب في سوق المضاربات او المصفق (البورصة) . وكثيراً ما كانت هذه السندات موضوع صفقات مالية لاجل معين أو نوعاً من الرهان على قيمتها الفعلية ، في المستقبل ، وهي سندات كثيراً ما تكاثرت قيمتها بالحوادث السياسية والقضايا الدولية . فاذا ما دخلت الجيوش الفرنسية ، مثلاً ، ايطاليا الشمالية ، انخفض بالتالي في البورصة ، سعر السندات

الصادرة عن البيوتات المالية في المنطقة . اما اذا لم تقم الجيوش الفرنسية ، كما حدث معها قبل معركة بافي ، بأعمال السلب والنهب ، كانت قيمة السندات وسعرها يرتفع . وقد راحت الشوائع والاخبار المصطنعة او المفلقة تفعل فعلها للتأثير على قيمة سندات معينة لاجبارها على الهبوط والنزول ، فيقبل الناس على بيعها أو شرائها ، حسبما تكون الاوضاع ، حتى اذا ما بان بطلان الخبر وانكشف التلغيف ارتفعت اسعارها ، فيربح الناس .

وبناء لقانون الطلب والعرض ، كانت هذه السندات ، حتى العملة النقدية نفسها ، تختلف قيمتها باختلاف الأمكنة وتبدل الظروف . هب مثلاً ان الذهب قلّ وجوده في انفرنس ، بينما توفرت منه في ليون كميات كبيرة ، فيرى المضاربون ، في مثل هذا الظرف بالذات فرصة أمامهم للقيام بالمضاربات ، اذ يسارعون لشراء الذهب المتوفر في اسواق ليون لبيعه في اسواق انفرنس بأرباح طيبة . ومضاربات من هذا النوع يمكن ان تتناول سندات الـ *Juros* التي اصدرها الامبراطور شارل الخامس ، في اسبانيا ، كما تتناول اي نوع آخر من السندات المالية . وكمن مرة عمدوا احياناً الى خلق ازمة نقدية في مكان ما ، وذلك عن طريق جمع او لم كل السندات والاستحقاقات والتقدم فجأة بطلب استيفاء المستحق منها . وقد اختصت مدينة انفرنس بهذا النوع من التلاعب بالاسهم والمضاربات ، في الفترة الواقعة بين ١٥٤٢ - ١٥٥١ . وهذه المضاربات تفرد بالقيام بها عميل البلاط المالي غسبار دوتشي ، من هؤلاء المتمولين الدوليين الذي لم يكن يتورع من تسليم الملك فرنسوا الاول حاجته من المال ، وهو يعرف انه الخصم الازرق والمدور للدود لسيده ورئيسه المباشر شارل الخامس .

والاقبال على المراهات ساعد كثيراً على التأمين ضد أخطار البحر والملاحة ، هذه الاخطار التي تهدد مشحونات البضائع ، او التي تقوم في تعرض القرصان في عرض البحر ، للسفن ، او تكن في احتمال مصادرة السفينة ، من قبل الملوك والامراء ، والسرقة والفرق وغير ذلك من المخاطر التي تستهدف لها الاسفار البحرية ، اذ ذاك . وقد راح بعضهم يؤمن على سفنهم ، عدة مرات او عند شركات مختلفة ، ثم يفتعلون الحوادث بحيث يقبضون مبالغ طائلة تعويضاً لسفنهم عما ألم بها من معاطب واضرار وعوار .

وراحوا يؤمنون على الحياة ضد الحوادث والاطار ، فكنت ترى شيوخاً يؤمنون عليهم بدون علمهم ، ثم يجري اختطافهم من حيث لا يدرون ويسومونهم الوانا من المذايات حتى اذا ما فقدوا الحياة قبض المؤمنون عليهم قيمة التأمين . كذلك راح الناس يراهنون على وقوع الحرب ومصير المارك القاغة كما يراهنون على جنس الولد المنتظر ، وينظمون اصمال يانصيب ، والكل اقبل على اللعب واعمال الرهان .

وكان التجار يستعملون مسك الدفان واعمال المحاسبة المركبة ، وهي طريقة قديمة استنبطها لوقا فانشيولي ونقلته هذه الى الفلمنكية ، ثم الى الفرنسية عام ١٥٤٣ ، فلما الانكليزية عام

٢٥٤٧ ، والى الالمانية عام ١٥٥٠ ، عابداها الجردة ودفتر اليومية ، والجورنال والدفتر الكبير .

المواصلات
ادى التطور العظيم الذي ادخل على تداول النقد بفضل مؤازرة الملوك ، الى ازدهار التجارة الدولية . فقد توطدت اسباب الأمن واستتب النظام في البلاد ، بنوح الاجال ، ومع ذلك فقد اوجب بعد النظر وحسن الفطن الا يسافر التجار عزلاً من الحلال ، ومن الاسلام لهم ولا يحملون من نقود ان يسافروا بصحبة فريق من الناس . وقد نظم التجار ، بسبيل الاتصال الاخبار والرسائل ، نوهاً من البريد الخاص الذي كان يقطع المسافة بين بروكسل وباريس ، عام ١٥١٦ في ٣٦ ساعة صيفاً و ٤٠ ساعة شتاء ، كما استغرقت الرحلة بين بروكسل وليون ، ثلاثة ايام ونصف او اربعة ايام ، ومن بروكسل الى روما ، عشرة ايام ونصف أو اثني عشر يوماً . وكان في مقدورهم ان يستعينوا ، في فرنسا ، بالبريد الملكي وفي ممتلكات الامبراطور . بريد امرة نابولي الملكية الذي اصبح بريداً حكومياً ، منذ سنة ١٥٠٥ . وهذا البريد كان يقطع المسافة ، بين ايطاليا وبروكسل ، مروراً بالتيرول وإيفل بخمسة ايام ونصف ، بمعدل سير ١٣٥ كيلومتراً في اليوم . أما المسافة بين بروكسل ومديسد ، مروراً بفرنسا ، فيقتضي لها ١٥ يوماً .

كانت البضائع والشحنات ، تنقل ، براً بعربات تقطع من ٣٠ - ٤٠ كلم . في اليوم ، تسير بالاحرى مع مجاري الانهر . وقد قامت البلديات ، في هذا المجال ، ببعض الاشغال لتحسين المسالك والمعايير الصعبة المرتقى بالتعاون مع الشركات التجارية او بمساعدة الملوك والقضاء الملكي . واعد بناء الجسور والطرق ، كما ادخلت تحسينات على بعض المسالك النهرية ، وبذلك تفادت التجارة دفع رسوم معينة ، والقيام باجراءات وترتيبات فرضها من قبل اسياذ المقاطعات دون اي مبرر لها سوى ابتزاز المال ، فالقيت .

اما في البحر ، فقد كانت سفن مدينة البندقية حتى عام ١٥٢٥ ، تصل الى انفرس ، الا ان المجدفين كانوا يتقاضون اجوراً عالية ، كما ان الشحن كان عرضة لمخاطر عديدة على سفن من نوع *galere* ، ظهرها مع سطح الماء تقريباً . اما في المحيطات ، ولا سيما في البحر الابيض المتوسط ، فقد استمض اكثر فاكثر ، عن السفن الخاملة بالمهاذيف ، بسفن تعمل على القلوع والشراع ، كسفينة الكرافيل التي لها عدة صوار كما ان حاققتها تملأ جداً فوق سطح البحر ، وسعتها كبيرة تتسع لـ ٢٠٠ - ٥٠٠ برميل ، وهي سفن سريعة السير انما سريعة العطب ، كان عليها ان تقضي فصل الشتاء في الموانئ التي ترسو فيها . ومن انواع السفن المستعملة اذ ذاك سفينة *hulques* وهي سفينة مفلطحة ، فطساء ، ثقيلة ، بطيئة ، الا انها اقوى من الاولى ، لها عدة قلوع ، صالحة لركوب البحر في كل الفصول ، تحمل من ٤٥ - ١٠ اطنان ويأتي بعد هذا النوع ، نوع آخر من السفن يدعى *galions* ، وهي سفن ضخمة ، ملفومة ، تحمل في مؤخرها برجاً كبيراً ، قليلة السرعة ، تستطيع ان تحمل عدداً اكبر من الركاب ووسقاً كبيراً ، كثيراً ما استعملها

الاسبان في شحنهم المعادن الثمينة من ممتلكاتهم في اميركا عبر الاطلسي . و بقيت المواصلات بطيئة ، تحف بها المخاطر لقلّة الخرائط الجغرافية الدقيقة الرسم ، ولافتقار الملاحة البحرية للمعلومات التقنية الدقيقة وللربانسة ذوي الخبرات الواسعة . وكانت سرعة سير السفينة في انفرس بمعدل ميل واحد في الساعة ، وكان المسافر يقطع المسافة من انفرس الى لشبونة ، في احسن الحالات ، بخمسة عشر يوماً . اما في البحر الابيض المتوسط ، فالاستثناءات ، وعدم الاطراد ، كان القاعدة ، في الغالب ، اذ ان المسافة بين البندقية والقسطنطينية كانت تستغرق من ٢٩ يوماً الى ٧٢ يوماً ومن البندقية الى يافا ، من ٤٠ - ٥٠ يوماً ، ومن تونس الى ليفورنو ، من ٦ - ٢٠ يوماً . فالبهر المتوسط كان له من الاتساع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، ما لدنيا الاقتصاد منه اليوم . والعالم كان اوسع ، في نظر الانسان ، اذ ذاك ، منه في القرن العشرين . وهذا ما يفسر لنا تفوق الاقتصاد المدني او بالاحرى المدني .

كثيراً ما يجد التاجر الذي يهبط بلباً فائياً ، زبائن عديدين هم على النظام الرأسمالي والصناعة
استعداد كلي لا يتبايع ما يحمله من محاصيل ومنتجات ، يتوقون لرفع مستوى حياتهم ، كما كانوا على اتم استعداد ايضاً لشراء محاصيل من اصناف ادنى على ان تكون حسنة المظهر وارخص سعراً . والحال ، فقد كانت قوانين نقابات الحرف وجميعها في المدن القديمة امثال : بروج وغنت وبروكسل وروان ، تحظر على معلمي المهن تجهيز مصنوعاتهم بمقادير كافية ومن النوع المحدد . ولذا امّ التجار القرى والمدن الصغيرة في الارياف يشترون منها الخامات التي يرغبون في الحصول عليها والادوات الصناعية اللازمة لهم والنأذج او العينات التي تروقمهم ، كما كانوا يقبلون على شراء المحاصيل وانتاج الصناعة ويعملون على تنفيقيها . وهكذا ادخلوا على المهنة عدة ادوات صناعية واصناف جديدة رفضت النقابات قبولها والتسليم بها ، كالمكابس لضغط الاجوان بدلاً من ضغطها بالقدم ، وهي طريقة كانت تخفض الكلفة وتضاعف الانتاج ، وان جاء الصنف اقل جودة اذ كانت عملية ضغط ثوب جوخ واحد تقتضي من ٤ - ٥ ايام بينما يضغط المكبس في المدة ذاتها من ٩ - ١٠ قطع ، والمغزل الذي يدور بحركة الرجل بينما تبقى اليدان حرتين تعمل في الغزل ، والآلة الناسخة التي اخترعها ، عام ١٥٨٩ ، الراهب وليم لي والتي لم تلبث ان عم استعمالها في جميع المحاء انكلترا ، فزادت سرعة النسيج من ١٠ - ١٥ ضعفاً من ناسخة باليد ، ويمكن لولد عمره ١٢ سنة ، ان يديرها بسهولة . واذا لم يعد الصناعي مالكا لأدوات الانتاج واجهزته ، فقد تحول تدريجياً من معلم حرفة الى عامل . وهكذا رأينا مراكز صغيرة للصناعة تقوم وتنتشر في انحاء عدة من البلاد الا انها كانت تتركز تجارياً وادارياً بيد بعض الممولين الذين يتعهدون الاشغال . وكان الوضع على مثل هذا الشكل في مقاطمة الفلاندر . مثلاً حيث راح بعض رجال المال الذين يرغبون في الصمود في وجه الاجوان الانكليزية الخفيفة ، المعدة للاستهلاك اليومي وباسعار معتدلة ، يفتشون لهم معامل نسيج ، من هذا النوع ، في مدن إيبير وبيتول ، في ضواحي بروكسل وليل ، وفي بلدة هندشوت وأرمنديار ، وعلى الأثر

توافد على هذه المعامل الجديدة المحتاجون للعمل والعاطلون الذين لا عمل معين لهم ، ولم تلبث هذه القرى ان اصبحت مدناً ، وراجت بها المنسوجات الخفيفة التي تخرجها فباركها وتغلب على الاجوارح الانكليزية الصنع . وقد عرفت مناطق اخرى مثل هذا التطور السريع ، منها مثلاً: منطقة روان والاندوق، وبورج وبيري، ومدن وادي نهر اللوار ، ولانكشير وغيرها . وهكذا اضطرت النقابات المهنية القديمة ان تؤمن تموين المدن والارض الواقعة في نطاقها . ورغبة منها في الاحتفاظ بزبائنها ، رأت نفسها مضطرة لتعديل قوانينها الدقيقة بحيث تستطيع الصمود في وجه المنافسة التي تقوم بين معلمي الحرف ، وهي رتبة لا يستحقها الا من توفرت له المهارات الفنية بعض المواصفات والشروط الدقيقة : كالمجاز اشغال عالية الكلفة تعد روائع صناعية بما تقتضيه من فن ومهارة ، وبين عدد قليل من المهنيين الناشئين ، وتحصص أضيق ، واساليب فنية ، اساسها نماذج معدة اوصافها بكل دقة ، وقام العمال حيث لا تقوم مثل هذه النقابات المهنية ، يسهون لانشائها فيلتمسون من الملك الترخيص لهم بذلك ، تسيباً لهم حول مصالحهم من المنافسة الشديدة التي يتعرضون لها من قبل عمال طارئین او دخلاء او من قبل زملاء قدامى لهم راحوا يعملون احراراً لحسابهم الخاص . ولعل ما هو اهم من هذه التدابير بكثير ، فساعد على بقاء هذه النقابات ، هو هذا النمو السريع الذي طرأ على المدن فأدى الى تطورها تطوراً عظيماً ، وهي ظاهرة جاءت نتيجة للنظام الرأسمالي الذي وفر للعمال زبائن اخذ عددهم يزداد شأنًا يوماً بعد يوم .

قام التجار بتجميع او تركيز صناعي في الانشاءات والمشاريع الصناعية الكبرى اذ ان ازدياد الطلبات ، واحياناً طبيعة هذه الطلبات بالذات قضت من نفسها الاخذ بأسباب التصنيع : كالطباعة وتوضيب المعادن وصناعة التعدين ، وصناعة المدافع ، وغير ذلك . وقد تمت رغبتهم هذه بالتعاون التام لانسجامها مع رغبة الملوك والامراء الذين تنازلوا لهم عن احتكاراتهم . وقد اصطدموا احياناً بمنافسة الرؤساء الملمانيين او رجال الاكليروس الذين شغلوا اموالهم في بعض المشاريع الانشائية . وهذا امر اصبحت عادة مرغية في جميع انحاء المانيا والبلاد الواطية ، منذ عام ١٥٤٠ ، وثورة الاديان وفي انكلترا، حيث بلغت الحركة حدود ثورة صناعية . فبدلاً من الاكتفاء بالنزول الى عمق بضعة امتار في المناجم ، اقتضى الاتجاه الجديد النزول الى ٢٥ واحياناً الى ٥٠ متراً ، مما اضطرروا معه الى فتح خنادق ودهاليز وسرايب تحت الارض . وهي اعمال استغرقت وتستغرق صيانتها نفقات طائلة تتجاوز احياناً عشرات الالوف من الليرات ، كما تستنفذ دخل بارونية فرنسية لمدة بضع سنوات . وقد تعرضت هذه الانشاءات احياناً الى فيضانات اغرقت المنجم أو سببت انفجاراً للغاز ، كما اقتضى مضاعفة العتاد والاجهزة ومعظمها من الخشب ، وتدعيمها بوصلات حديد او تركيب محاور او مصاريع أو صفائح من المعدن عندما تحتك هذه القطع بعضها ببعض ، وهي اجهزة تحرك باليد أو بحيوانات جر او بغير ذلك من القوى الطبيعية ، وتركيب اجهزة لنضح الماء المتسرب الى الداخل ، وسلاسل لا تنتهي من

القوايس ، وبراغ من نوع براغي ارجيئدس ، ومضخات جاذبة ذات كباس . وأخذوا ، منذ عام ١٥٤٦ ، ينشؤون في المناجم العميقة سلسلة عمودية من المضخات الجاذبة ، والاحواض المتراكبة الواحد منها فوق الآخر ، وهي مضخات تحركها عجلات ضخمة يسير عليها رجال أو يتساقط عليها شلال الماء من حوض ، واجهزة للتنوية كهذه المفاتيح الضخمة ، وهذه البراميل المجهزة بفئزيرات مثقوبة في الوسط يخترقها الهواء ، وتنتهي بماسورة او انبوب لتفريغ الهواء ، ومراوح كبيرة يدخل منها الهواء بشدة في انبوب للتنوية ركبت في طرفه شفرات ضخمة يحركها جناح مطبوعة هواء ، فركبوا ، لجهلهم ناموس القوة المبعدة عن المركز ، الانبوب عند طرف الطبقة بدلاً من ان يكون قريباً من المركز ، وبكرات ضخمة لرفع الاثقال الكبيرة تأتيتها الحركة من محرك يدور على عجلة ، على وجهي الارض ، بواسطة اسطوانة شاقولية الوضع ، طويلة ومسننة من الحشب ، وكسارات ضخمة مجهزة بطريقة تتحرك بقوة الماء لتكسير فلزات المعادن ، ومصاهر ضخمة للعديد تعمل على فحم الحطب ، تم اختراعها في المانيا ، ثم دخل استعمالها مقاطعة سوسكس ، في انكلترا ، في اواخر القرن ، ومنها شع استعمالها في كل مكان حوالي ١٥٥٠ . وقبل اختراع هذه المصاهر ، كانوا يحصلون على الحديد المشغول من الفلزات هينها بواسطة كور حدادة صغير . وكان زهاء ١٢ ملئزماً أو متعبداً يخرجون نحواً من ٢٥ طناً في السنة . ومنذ سنة ١٥٤٠ ، انشئت مصاهر للعديد علو الواحد منها ٣٠ قدماً ، بمرض ٢٠ قدماً مربعاً من تحت ، مع منافخ من الجلد ، علو الواحد منها ٢٠ قدماً يحركها دولاب يعمل بالماء يأتيه من سد قريب بواسطة انابيب من الحشب ، ينتج في السنة كلها من ١٠٠ - ٥٠٠ طن من الصب . وكانوا يستعملون في تطريق الحديد والنحاس والقصدير مطارق ضخمة تتحرك على عجلات ركزوها في بنايات كبيرة يعمل فيها عشرات من العمال . ولتوفير ما يلزم من الملح ، لجأوا ، في انكلترا ، الى تبخير ماء البحر ، وهكذا استفنوا عن فريق من العمال كانوا يستخدمون من ٦ - ١٢ دستاً صغيراً ، بينما ركب بعض المتمولين ، في ابنية كبيرة وعلى وجاقات ضخمة ، خلاقين سعة الواحدة ٢٠ قدماً مربعاً وعمقها نحواً من ٦ أقدام .. ونرى في سنة ١٥٨٠ ، احد رجال المال يستعمل نحواً من ٣٠٠ عامل ، وينفق في هذا السبيل اكثر من ٦٠٠٠ ليرة انكليزية ذهب ، في تجهيز ورشة له . فاشتد من جراء ذلك الطلب على معلمي الحرف والصناع المهرة يفدون من الفلاندر لصنع الاجواخ ، كما كانوا يستقدمون ، من المانيا ، معدنين للعمل في استخراج فلزات الحديد وشغل الحديد .

النظام الرأسمالي والحياة في الريف تغفل النظام الرأسمالي في حياة الريف على اثر ظهور الاسواق الدولية ، وطولوع عصر الصناعة في اوربا ، وتزايد عدد السكان في المدن ، واخذهم اكثر فأكثر ، بأسباب الحضارة ، فوجد في هذا كله مرافق للاستهلاك والاتفاق . ففي اواسط انكلترا ، راح اصحاب الاقطان يستخلصون اراضيهم من مستأجرها ومكثريها ويدمجون بها الاراضي الصالحة للفلاحة من المشاعات البلدية ، وتحولها

الى مراعى خضره تنتجها قطعان الغنم طمعاً بصوفها الذي يذهب لمصانع النسيج الانكليزية ، كما ان قسماً منه كان يُصدّر للخارج . وفي هذه المدة بالذات أخذت تظهر طلائع حركة اقامة السياجات حول الاراضي والمزارع ، هذه الحركة التي استعالت انقلاباً وارثت شكل ثورة عارمة في القرن الثامن عشر . وانتقل استثمار الارض من مرابعين الى أيدي مزارعين تحت تصرفهم ما يلزم من المال السكافي لاستغلالها بروح بورجوازية يفيدون من نتائجها وغلاهم في مقايضاتهم التجارية .

اما في فرنسا ، فقد كان جانب كبير من الاراضي الزراعية بيد مرابعين ومزارعين توارثوا استثمارها اباً عن جد ، كان من الصعب جداً على مالك الارض الاصيل انتزاع هذا الحق منهم ، وكانت حصته من الفلال التي حددت قيمتها ، لمرة واحدة ، يبلغ من المال يضؤل على مر السنين لارتفاع الاسعار المستمر ، ولكن منذ ان وضعت حرب المائة سنة اوزارها بعد ان افقرت الارض ، وانجذبت وحرمتها من اليد العاملة ، راح بعض الممولين من البورجوازيين ، في المدن المجاورة ، يتعهدون الاراضي الزراعية بعد توسيعها فيؤجرون ، من ضمنهم ، لفلاح او مزارع او ومربع ، شقة منها ، يدفع ما يترتب عليها من عوائد ورسوم ، نقداً وعداً ، وفقاً لمقود ايجار قابلة للتعديل في انتهاء الاجل المضروب ، او يتناول قسماً من غلة الارض ، وما تبقى يكون حصة المزارع ، يتصرف به وفقاً للاسعار الدارجة ، اذ ذاك . اما البورجوازيون ، فكان بعضهم يؤجر اراضيهم الحرة لسيد الارض او يعمدون الى شراء الارضي ، اذا ما توفرت لهم اسباب الثراء ، بمن لهم عليها حق السيادة ، ثم يؤجرون القسم الاوفى من هذه الاراضي لمربعين يستغلونها وفقاً لشروط محددة . وسار على نهج البورجوازيين عدد كبير من اصحاب الاملاك ، فكان الواحد منهم يعمل على استثمار اراضيهم ويراقب بنفسه اعمال مزرعته باذلا أقصى جهده لتحسين ريعها . وقد برز في هذه الحلقة هذا النموذج من الفلاحين الذين عرفوا قيمة التعاون مع الغير ، فيتولون ، هو بنفسه ، بيع بقرة ، ويشرف على بناء ما تحنجه ارضه من اسوار وسياجات ، ويراقب عملية قطع الحشيش وقطاف العنب ، وهو ، في الغالب ، من ذراري أحد البورجوازيين . وكثيراً ما كان اسياد الارض يشترون من الفلاح ، بعد ان يكون هذا الاخير ، ارمقه الدين ، اربوالمواسم او لتفجيه عنها للخدمة العسكرية ، أو لمعجزه عن ايفاء ما تبقى عليه من متأخر دينه ، أو مطالبة فجأة بالمتأخر المتراكم من عدة سنين ، بعد ان يكون تناسى امرها . وكثيراً ما يكون عرف هؤلاء البورجوازيون الذين حرصوا على شراء الاملاك السيادية ، او هؤلاء الملاكون الذين تطبعوا بطباع البورجوازيين ، ان يراقبوا ، بعين يقظة ، وضع الاسواق التجارية ، وان يحتفظوا ، في منازلهم ، ببعض المحاصيل المنخرة ، بانتظار الفرصة المناسبة ، لبيعوا ما احتفظوا به من غلال ، بأسعار مرتفعة . وقد اعتنوا ، على الاخص بالاصناف الصالحة للامال او المضاربات التجارية ، كالقمح والجر ، وفي مقاطعات بروفانس كشجرة الزيتون والقوة ، وفي مقاطعة اللانغدوق بنبات المعظم المستعمل في الصباغة ، وشجرة

الزيتون وشجرة التوت وهكذا نرى ان حياة الريف تغيرت كثيراً وتطورت مظاهر الحياة فيها : فاستعنت القرى وغت ، واكتظت بالسكان والعمال والصناع ، وباليد العاملة من دباغين وبيطريين ، وزجاجين ، وصانعي القرميد والبلاط ، والحبالين ، والعاملين في صب الحديد ، وغيرهم . ويأخذ السيد ببناء مكبس هوائي لضغط الجوخ وكبسه ، ومدقة آلية تتحرك بواسطة دولاب لجرش فلزات المعادن ، دون ان يشعر المرء دائماً ما اذا كان المعمل يعمل لحيز المنطقة او انه يعمل لتاجر يقوم بنشاط صناعي .

وقد وقع مثل هذا التطور في بلدان اخرى : في الفلاندر والمانيا الغربية والجنوبية ، وفي ايطاليا .

اما في البلدان الواقعة الى ما وراء نهر الايلب كألمانيا الشرقية وبولونيا ، فقد حمل اشتداد الطلب على القمح ، من قبل التجار التابعين لاتحاد الهانز ، والبلاد الواطية لشحنه الى بلدان البحر الابيض المتوسط ، اصحاب الاراضي ومالكها ، على استخلاصها بالقوة من ايدي المزارعين او المستثمرين لها ، فيكونون منها مزارع استنار ، ويحبرون الفلاحين على تأمين الخدمات اللازمة مجاناً ، دون مقابل ، وهكذا يصبح هو نفسه منتجاً للقمح ومتجراً به . ان الاتساع المتزايد لهذه المزارع واعطائها كمية صغيرة نسبياً من الحبوب اللازمة للتجارة ، ساعد كثيراً على دمج نظام الاسترقاق في النظام الرأسمالي ، في هذه المناطق الواقعة على أطراف الحضارة الاوروبية .

فالتقنيات الزراعية فيها لم تتغير ، ولم تتبدل كثيراً . وعلينا ان ننتظر نهاية القرن ، لنشهد في البلاد الواطية ، دفعاً جديداً نحو الزراعة ، على نطاق واسع .

ان ازدهار النظام الرأسمالي وارتفاع الاسعار ، ساعدا كثيراً على النتائج الاجتماعية للنظام الرأسمالي

التقريب بين الطبقة البورجوازية والطبقة المملوكة للارض ، وإبراز الفوارق بين هاتين الطبقتين وبين الطبقات الشعبية وتفتيتها الى طبقات فرعية ثانوية .

اضطر عدد من الاسياد ، عرفوا بامهالهم وعدم درايتهم ، او افقرتهم حياة البذخ التي عاشوها ، وارتفاع الاسعار المتتابع ، ان يبيعوا اراضيهم وممتلكاتهم ، فأل امرها الى فريق يعمل في التجارة ، فشيّدوا لهم فيها نزولا ومساكن جميلة ، واقاموا لهم صلات مع الانسانيين ، فنهجوا نهج السراة . وبفضل النمط الجديد لحياتهم هذه ، ولتمرسهم بالوظائف المماثلة التي عرفوا ان يستأثروا بها ، تحولت أسرم تدريجياً ، الى طبقة النبلاء وأصبحت بدورها ارومة طبقة جديدة من الاشراف ، لمع ابناؤها من رجال الدين والدنيا ، عملوا في الجيش او موظفين كباراً في خدمة البلاط . الا ان أهل الحسب والنسب لم ينزلوهم منهم منزلة الميرق الاصيل .

ويليهم منزلة ومرتبة ، هذا الجانب من البورجوازيين يتمثل برؤساء الحرف والمهن الذين كانوا يعمدون ، من قبل ، زهرة هذه الطبقة ، فاذا بهم ، المحمدوا اليوم ، الى المرتبة الثانية ان

لم نقل الى ما هو ادنى . اما رؤساء نقابات الحرف ، ذات الشأن كالجواخين . والجزارين والمطارين ، والبازين والبقالين ، فقد عرفوا ان يحافظوا على ما حققوا من مستوى محترم ، بفضل ازدهار حياة المدن ، وعمرانها وازدياد عدد السكان فيها . واستطاع فريق منهم ان يوجهوا أبنائهم شطر المهن الحرة أو الوظائف العليا . الا ان دخيلة هذه الطبقة او بالاحرى . هذه الفئة ، ما زال يعتلج بالحقد ويتنزى بالبغضاء ضد طبقة التجار .

وبلى هذه الفئة درجة ، معلو الحرف الدنيا : كالاسكافي وتاجر الاممال والثياب العتيقة وغيرهم ممن يشغلون بعض الصناعات العادية او يدبرون دكان بقالة .

وجاء في الدرك الاسفل من النسل الاجتماعي ، طبقة البروليتاريا وهي طبقة اعتاد افرادها ان يعيشوا من عمل يدوي ، مأجورين يوماً فيوماً ، او عمالاً احراراً يعملون عندما يحلو لهم العمل او يعملون في ورش يشرف عليها احد رجال المال ، او يلتصون الى حرف منتظمة نقابات ، مشدودين ابدأ الى اوضاعهم ، الا ما تندر ، في بعض الحالات ، اذ ان رؤساء الحرف كانوا يحتفظون بوظائفهم لاولادهم او لاصهرتهم ، وكانت اجورهم الاسمية لا ترتفع او لاتزداد الا ببطء ، وذلك بالنظر لما يلاقونه من مقاومة لدى ممثلي الطبقة البرجوازية ، الاقوياء الجانب لاعتقادهم على موازنة الامراء ونصرتهم . اما اجورهم الفعلية فكانت تهبط باستمرار ، وفي هذا ما فيه من بوادر الصراع الطبقي . وابتداء المهنة الواحدة يؤلفون جمعيات خاصة بهم تؤلف فيها بينها اتحادات عامة ، لها رئيسها الاعلى ، وصندوق مشترك ، يتسلحون بالسيوف والخنجر ويقومون باضرابات وحركات تمرد ، كما حدث مثلاً في مدينة أرفُورت ، عام ١٥٠٩ ، وفي مدينة ، أولم وكولوني ، عام ١٥١٣ ، وفي مدينتي ليون وباريس ، عام ١٥٢٩ ، و ١٥٣٩ .

اما في الريف ، فاذا ما ألفت المزارعون فيه طبقة على شيء من اليسر المادي وعقلية بورجوازية ارفع من عقلية المزارعين ، فهناك ، مع ذلك ، فئة من الفلاحين والكادحين في الارض لامال عند اصحابها 'يحسنون به من احوالهم واوضاعهم' . رضخوا يائسين للعيش على ما يحفت بهم من وضع زري ، عجزوا او جهلوا ان يبيعوا ، في الفرصة السالمة ، محصولهم ، وهم يرون اوضاعهم تسوء وتدهور امام ارتفاع الاسعار المستمر . فقام بين الفلاحين ثورة لم تكن دوماً من عمل الصماليك بينهم ، اذ كثيراً ما تفخ في ثارها فلاحون ومزارعون ميسورون ، هالمهم استمرار ارتفاع ثمن المواد والبضائع المستوردة ، كما هالمهم ، من جهة ثانية . توسع الملكية الرأسمالية واستبطار الحقوق الاقطاعية .

وهكذا شهدا المزيد من الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض وتباعد بينها ، بما ادى الى صراع طبقي عنيف كان له نتائج ديلية وسياسية خطيرة .

جاءت الثورة الرأسمالية نتيجة منطقية لمسلك جبل او فريق من الناس
البرجوازي الرأسمالي ضلع بسهم كبير بالنهضة الانسانية يتمثل ، خير تمثيل ، بهذا البرجوازي

الرأسمالي الذي عرف ان يعبر عما 'طبيع' عليه من فردية مميزة ، وما جاش في نفسه من رغبة السيطرة وتوق الى السلطان ، وما نزعت اليه نفسه من تفتيح وإشراق ، سواء في العمل او في الخلق والابداع ، والتطلع الى حياة متفتحة ، رغيدة ، باذخة ، والضلوع بهذه المشاريع وانشاءات الاقتصادية من نوع معين .

حاول البورجوازي المتمول ان يطفئ ما في قرارة نفسه وسويداء قلبه من شهوة صاخبة للربح والكسب جعلته يتهافت بل يتكالب على جمع المال ، مستعيناً على ذلك بما 'ركّز' فيه من إدراك واقعي ، عقلائي ، لاصول المغامرات المالية والمجازفات الاقتصادية .

فقد أوتي ، قبل كل شيء ، حب المغامرة ، وتذوق الجرأة في المخاطرة واشربت نفسه الى الفتح والخلق . فهو رجل اداري يعرف من اين تؤول الامور ، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس ادرك بما فيه من زكاة ، ما م عليه من 'خلس' واستعداد معين لتدبير امر معين ، فيعهد الى كل واحد منهم بالعمل الذي هيء له ، فينسق ويناسب بين اعمالهم وتصرفاتهم بحيث يحصل على اكبر قدر من الفعالية والطاقة . فهو مفاوض لبق ، ساحر الحركات والنظرات والايام ، يعرف اصول البحث ويحيد المناقشة ويأتي الامور من ابوابها ليفضي منها الى غارحها الطبيعية ، أعطي موهبة عظيمة على الايحاء والاقتناع وحل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية . كل هذه الصفات تحل بها البورجوازي الثري تركت في نفسه شيئاً من الانطباع واليقين ان شيئاً من الاشراف انتهى اليه ، وان 'نسيات' من هؤلاء العسكريين او رجال الحرب الذين غرسوا باعمال الحرب وما اليها من صنوف السلب وألوان النهب ، ممن تركوا اعمال القرصنة ، استقر في نفسه ، واستشرى في عروقه في وقت كانت روح الفروسية بعد هي المثال الافضل للمجتمع الامثل . وهل نعتجب ، بعد ، كيف ان بعض الانكليز والاطاليين ممن نبضت في نفوسهم روح الفروسية قاموا ، في صميم القرن السادس عشر يمارسون بالفعل اعمال القرصنة ، فيشكل اليهم كثيرون من ارباء القوم ، يجانب من اموالهم المدخرة لاستثمارها في هذه المغامرات التي يحلو لهم القيام بها ؟ أفلم تتضاعف اولى الاسفار الطويلة عبر المحيطات وأولى الشركات التجارية ، الكبرى التي قامت ، بمغامرات مسلحة من الكر والفر كان لهم الحظ فيها نصيراً ؟

وقد يبدو على هذا البورجوازي الرأسمالي ، بما امتاز به من روح التنظيم وروح والاقتصاد انه 'قد' على شاكلة معلمي الحرف والمهن القدامى . وهذا بالفعل ما لفت الانظار الى هذه الروح التي نبضت فيه ، وهي روح منافسة ، في الصميم ، لهذا الشريف . فبينما نراه يرغب صادقاً ان يصير هو الى مثله نراه يوضح نفسه كما يستدل من المدونات وسجلات التجارة ، ان ذلك ما يباعد بينه وبين هذا الشريف الذي لا يهمنه الحياة الا الظهور بمظهر الحر الباذخ : 'ان اقتصدت غنيت ، فمن انفق قليلاً لن يلبث ان يصبح غنياً ، فالاقتصاد هو اولى الفضائل واولى المقدسات ' . وهي ملكة يجب ان تعم وتنتشر لتملأ القدرات والافاق والأزمنة ، على ان يستعملها الانسان بشكل منطقي ، معقول بما فيه نفعه وربحه . علينا ان نهرب من البطالة وان نحسن توزيع

أوقاتنا على الوجه الاكمل ، كما يترتب علينا ان نتفادى الاعياء ، ونبتعد ، ما امكن ، عن الملاهي ، والصيد والقصص والولائم ومضيعة الوقت بالاستقبالات الفارغة وان نحاسب انفسنا في المساء حساباً عسيراً على وجوه استمالة ساعات النهار . علينا ان ننظم حياتنا تنظيمًا منطقيًا لتأمين المنافع التي تؤمنها لنا التجارة . ولهذا البورجوازي ناموسه او قانونه الاخلاقي الا وهو المحافظة ، قبل كل شيء ، على المهود المقطوعة والاتفاقات التي ابرمها ببله حريته ، كما عليه ان يحافظ على المظاهر الخارجية ، وان يراعي ما يعود عليه بطبيب الاحدوة وان يعيش عيشاً منظمًا ، بعيداً عن الخمر والميسر والتسري ، كما عليه بحضور القداس بانتظام والاستماع الى الوعظ والارشاد ، وان يحتفظ بوقاره ومشيته المترنة .

للبورجوازي الرأسمالي عقلانية نموذجية ، منهجية . كل شيء عنده يجري او يجب ان يجري بدقة الحساب . وكل ما يأتيه هو تعبير بالارقام لهذا النشاط البشري الذي يحيش فيه ، هذه الارقام التي تضبط كل حساباته من مدخول ومصروف . فالقلم دوماً بيده ليضع على الورقة ويدون تفاصيل مفاوضات ومعاملاته ، وكل ما يتوصل الى عقده من ارتباطات واتفاقات ، وما يأتيه من شاردة وواردة . فالرأسمالية اسوة بالفيثاغورية الحديثة ، تحمل الكثير من طبيعة الذهنية الكمية .

وهذا البورجوازي الرأسمالي وقع تحت تأثير الانسانيين فهو ينتقي من الحكم ، ويختار من الكلم المأثور مما جاء في كتب الاقدمين من أقوال الفلاسفة الكليبيين وفينوفون وكاوتون وكولوميل ، ما يبيد قسما من الصورة المثالية التي هام بها . فقد ربط نفسه بمجاعة الانسانيين امثال : بوتيجر ، أحد رجال الفكر في مدينة اوغسبورج ، الذين يدافعون بقلمهم ولسانهم ، عن شرعية وجدوى المشروعات التي تضطلع بها الرأسمالية ، وعن شرعية الدين بفائدة .

فكبار المفكرين ، في هذا العصر ، لا يختلف تفكيرهم بشيء عن تفكير روكفلر وكارنجي وكروب وتيسن ، في زماننا هذا . فقد هاموا بالتطور وراحوا يرسمونه ويحاولون تحييزه ، الى اقصى حد ، في هذه القصور والصروح ومعارض الوحوش التي انشاؤها ، وهذه الجماهير الفنية التي لا تشمن من الانسجة والاقمشة والديباج ، والسجاجيد والطنافس والمجوهرات ، والحلي والآثار القديمة ، التي وفق الى جمعها ، وهذه التواصي الفنية التي اوصى عليها لدى مشاهير الرسامين وكبار الفنانين ، في رعايته للادباء ونصرتهم للانسانيين صانعي الرأي العام . كل هذه الوسائل والذرائع ادوات بين يديه حققت له الكثيرين من الاصدقاء والزبائن . الا ان معظم رجال المال وذوي الثراء نظروا دوماً الى الفن نظراً الى وسيلة تساعد على العيش الكريم الرغيد والرفه في الحياة ، فكانوا يلطفون من حدة نشاطهم بالاستمتاع بالراحة والاستجمام . وكان عدد كبير منهم انضوى تحت لواء الانسانية والمخروط بين اتباع الابيقورية جزلوا للمفاكهة والبساطة ، والحب . ولذا كانوا ينسحبون باكراً من العمل لينصرفوا لاملاكهم ومقتنياتهم يرحلونها تاهمين بما تم لهم من ثروة عريضة وغنى بعيد .

الفصل الرابع

الدولة ونظمها الاقتصادية

بين دول كبيرة وصغيرة
أوروبا حضارة هي وليست وحدة سياسية . فالصورة التي راودت
خيال الناس ، في الاجيال الوسطى ، والحلم الذي جال في خاطرهم
بان يروا جمهورية مسيحية يتولى زمنياتها الامبراطور والروحانيات فيها البابا ، في تعاون بينهما ،
تزيه ، متبادل ، بقيت ترقص في الاذهان ، وان أعوزتها القوة وخلت من قوام وكيان . فالبابا
يتجاهل سلطته الكثير من الناس وبعضهم يهاجمها ، حتى في الدول الكاثوليكية بالذات ، وينكر
عليها حق الاهتمام بالدين وضوابطه . أما الامبراطور فسلطته مقصورة على الامبراطورية الرومانية
الجرمانية المقدسة ، لا وجود لها ولا لها اي وزن الا في هذه الامارات التي يشرف عليها بوصفه
الرئيس الاعلى أو العاهل . وهذه الفردية ، التي طبعت عصر النهضة تتجلى ، في المجال السياسي ،
بهذه الدول أو الدويلات التي انتظمت سلك أوروبا ، فجاء ظهورها تعبيراً عن هذه القوميات
المختلفة التي جاشت بها القارة على شيء من التوازن . وفكرة المساواة في الحقوق التي اعتلجت
بها هذه الدول والافراد الاحرار ، فيما يتعلق بالاخلاق والمثل الواحدة المتشابهة ، حلت محل
مبدأ السلطة المسلسلة الذي ارتضته الاجيال الوسطى لها قاسماً مشتركاً ، بالرغم مما باعد بين
هذه الدول من انفصامات حادة ومنافسات وخصومات .

والنزعة التي جاشت في الضائير بإنشاء دول كبرى ، تبنت حركة ترمي الى اعادة تشكيل
أوروبا وفقاً لهذه الصورة التي تبلورت في الاجيال الوسطى والتي أوشكت ان تتحقق وتتحيز
بالفعل على اساس من التوازن النسبي . واستطاعت بعض الدول كفرنسا مثلاً ان تفرض سلطة
الملك وحده ، على هذه الامارات المرتبطة بالتاج بالولاء له ، والتي حاولت ان تفلت من ذاتها
قوميات مستقلة ، كدوقية بورغونيا ودوقية بريتانيا ، فاعلنت اولاهما اندماجها بالتاج عام ١٤٩٣ ،
والثانية عام ١٥٣٢ . وهناك ييجوار فرنسا ، دول كاسبانيا مثلاً أنجزت وحدتها القومية بضم
ممالكها بعضاً الى بعض ، كملكة اراغون وفشتيليه ، اثر زواج فرديناند وايزابيل عام ١٤٦٩ ،
ومن بعدها في عهد شارل الكبير الذي سيُعرف ، في المستقبل ، باسم شارل الخامس ، عام

١٥١٦ ، وفي الجزر البريطانية حيث انضمت امارة ويلز الى انكلترا فخفضتاً معاً ، منذ عام ١٥٣٦ ، لحكم واحد وادارة واحدة . اما في الامبراطورية المقدسة فقد حوّل الامراء فيها اماراتهم الى دول قلبية . بينما بقيت ايطاليا منقسمة على ذاتها ، الى دويلات قوية الدعائم . متحررة من كل كبتية أو من كل رابطة ولاء الواحدة نحو الاخرى ، على اساس من توازن القوى فيما بينها ، قبل ان تجرفها من الوجود الضرورة القاضية بانشاء دولة كبرى فيها ، اسوة بغيرها من البلدان المجاورة .

الجغرافية السياسية وزوال المدينة - الدولة
هذه الدول الكبرى وهي في الغالب اصغر مساحة منها اليوم ^(١) تبدو ، بالفعل ، اكبر ايضاً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ، بطء المواصلات وضعف كثافة السكان . وتبدو شاسعة جداً ، اذ تتألف من مدن ومنطقتها المجاورة ، او من مدن منعزلة تنعم بضاحية ، خصبة ، مكتظة بالسكان ، تفصل بينها مسافات شبه صحراوية ، وغابات وارياضي يراخ . وضمن الولايات وهذه الدول نرى حدوداً ونحوماً منتصبة مميزة ، امثال فرانك كونتية وسويسرا ، وغابات الصنوبر الكبيرة المؤيدة وهؤلاء المعتمرون في مقاطعة فرانك كونتية ، قدموا من الشمال ، متدثرين بحلود الحيوانات يحرقون الارض بأيديهم ليخلقوا منها اراضي مزروعة بالقمح ، المتزوج مع النسيم . ويأخذ سكان مقاطعة فو بقطع الاحراش لتوسيع المناطق الزراعية باتجاه جيرانهم ، يقيمون فيها المزارع والداكر ، الى ان يقع التصادم بين الفريقين . وهو صدام عنيف استعمل فيه الطرفان الغزو والنهب والسلب ونصب الشباك والاحاييل ، امعاناً في الوقعة ، كما استعانوا بالخناجر يمينون طمعاً عجزت عن ان تضع حداً له ، هذه الاتفاقات المقودة ، ولا تحديد التخوم وتعيين المدى الجيوي بين الفريقين .

وهذه الجغرافية السياسية التي جاءت صورة حتمية لهذا التاريخ البشري ، بدت على دويلاتها مع ذلك ، نزعة تتفاوت قدراً ونسبة ، نحو الاندماج والانصهار ، وان بدت غامضة ، غائبة . فالولايات التي انصهرت حديثاً مع املاك التاج في فرنسا ، اعترفت بمبدأ الولاء والتبعية للملك ، وفقاً لمهود نصت من جهة ثانية ، على احترام اعرافها وعاداتها وتقاليدها المرعية ، وعلى حقها بان يتولى الادارة فيها موظفون محليون من سكانها وتربتها . وفي اسبانيا ، احتفظت مملكة اراغون بمؤسساتها ونظمها وبما لها من شخصية مفردة . وهذه الدول الكبرى ، تستطيع ، وحدها ، بما تملكها من اتساع الرقعة وانبساط المدى ، ان تتحمل اي صدمة حربية تترسها لها دون ان تحسب حساباً لاي احتمال تصدع او تفكك ، بعد ان امتنت ما هي بحاجة اليه من عدة وعتاد ، ومن موارد تقي بأود الحرب ونفقاتها المرهقة . وهكذا شهد القرن السادس عشر ، زوال هذه الدول او الكيانات الدولية المتوسطة التي نستطيع ان نسميها

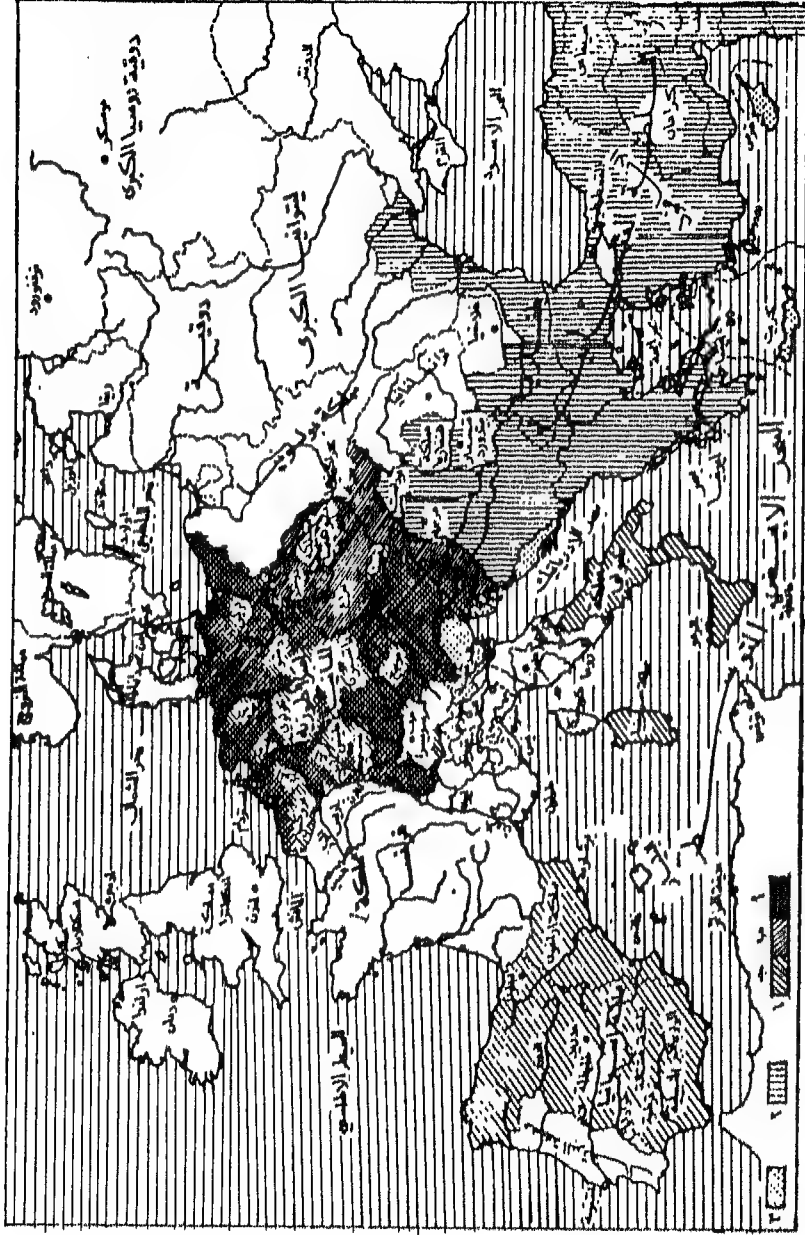
(١) كانت مساحة فرنسا عام ١٤٩٧ نحو ٤٨٠٠٠٠٠ كلم^٢ . بينما هي اليوم (١٩٥٠) ٥٦٠٠٠٠٠ كلم^٢

بالنسبة للدول الاخرى ، دولاً اقليمية او محلية ، منها مثلاً : الفرائش كونتية ، او هذه الدول التي كانت نواتجها الاولى او قام مجورها الاساسي ، على مدن تجارية ، كالبنديقية ، مثلاً التي تصبح تسميتها بالدول - المدن ، وهي هذه الدول التي تكون فيها المدينة ، هي الحاكمة والمضطلعة بالادارة عن طريق ابنائها . وهذه الدويلات صار امرها الى كيانات لا شأن لها ، او انها راحت فريسة فتح اجنبي فاندماجت مع دولة كبيرة ، كما حدث للقسطنطينية عام ١٤٥٣ وكما حدث لنوفغورود الكبرى عام ١٤٧٨ ، ولغراطة ، عام ١٤٩٢ . ومن الطبيعي جداً الا ترضى بمثل هذا المصير المشؤوم وان تتنكر له في هذه الثورات والانتفاضات التي قسامت بها . ولم ينج من هذا المصير سوى البنديقية التي لا تزال تلعب بعد ، دوراً بارزاً في الحروب الايطالية ، ولا سيما في الحرب ضد الاتراك العثمانيين ، مع انها مجلت هبوطاً نسبياً في الميزان الدولي ، اذ ذاك .

١ - تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

معظم هذه الدول تتجه في تطورها وفي تطلعها الى التكمال ، نحو الملكية المطلقة والحكم الاستبدادي . ويكون للنظام الملكي مطلقاً او مستبداً ، عندما يحسم الملك ، في شخصه ، الممثل الوطنية ويتمتع ، قانوناً وفعلاً ، بكل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها : كحق التشريع وسن القوانين ، وحق اقامة العدل واشاعته بين الناس ، وفرض الضرائب وجبايتها ، وتجهيز الجيوش وتكتيب الكتائب الحربية ، وتعيين الموظفين ، وازال القصاص الصارم بمن يتطاولون على المصلحة العامة ، ولا سيما من يتعرض منهم للسلطة الملكية وذلك بفضل ما يتمتع به من ولاية وصلاحية ، صادرتين عن سلطانه كقاضٍ اعلى . وقد جاءت فكرة الملكية المطلقة ترفد دون ان تقسمها او تنتقص منها بشيء ، مفهوم المواثيق والاعراف التي تحدد الزوابط التي شدت اصحاب الاقطاعات ورعاياهم الى الملك .

حب الوطن
وهذه الدول الكبرى تجهز بحب الوطن الذي يبعث فيها الحيوية والنشاط ويجعلها على تحقيق وحدتها . وهذا الحب مصدره التعلق بالاقليم او المنطقة ، والولاء للملك صاحب السلطة الاولى في البلاد . ويشعذ الروح الوطنية في النفس الجهاد ضد الاجنبي الغازي ، المستبوع ، فيعمل على ايقاظ النفوس ، وعلى الاهتمام بالمصالح العامة المشتركة . وذلك بفضل ما للموظفين الملكيين من تأثير وتوحيد في هذا المجال ، والروابط الاقتصادية المشتركة التي تشد الاهلين بعضاً الى بعض ، ولا سيما بفضل تأثير الانسانيين على رجال البلاط والحاشية الملكية ، وعلى كبار ممثلي الطبقة البورجوازية الذين يشار اليهم بالبنان او يسير الناس في خطاهم . فالحرية تبعث في الانسان هذا الشعور الذي يصدر عن اعماق النفس ، كما انها وجه من تجاوب الانسان مع محيطه ، وكلها عوامل وحوافز اضافية تزيد هذا الشعور جلاء ووضوحاً ، ودقة ، وتوليه بالتالي مزيداً من القوة والدفع يشمر معه غليوم بوديه G.Budé في



شكل ٢ - أوروبا في عهد شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني

- ١ - القديان الخاصة للسلطان آل ميديج :
أ - الإمبراطورية القديسة ب - ممتلكات فردينان ، شقيق شارل الخامس ج - ممتلكات شارل الخامس في الترسط
- ٢ - ممتلكات سليمان القانوني :
٢ - ممتلكات البندقية .

قرارة نفسه بان روحاً مشتركة واحدة ، كأنما تجيش في صدر فرنسا وتضفي عليها شخصية واحدة . ولهذا السبب بعينه راح يقدم كتابه : *De Asse* الى « شيطان فرنسا » اي الى النبوغ الفرنسي .. والانسانيون الفرنسيون يملنون عالياً ، وعلى الملأ الاكبر ، أولوية فرنسا . وهامو غاغن *Gaguin* يدافع عن الوطن ، هذا الام الحنون ، فيعدد لنا الفضائل والمناقب التي يتحل بها هذا الوطن : شجاعة الفرسان ، حب العمل والاستمساك بروح الاقتصاد وهناء العيش الرغيد ، وهذه الانسانية في الاخلاق السامية . ويحاول *Valerun de Valaranne* ان يرى ، في فرنسا ، الدولة الرائدة ، الزعيمة . ألم يفتح الغاليون اليونان ومقاطعة إيونيا ، ومقدونيا ؟ أو لم يستولوا على روما ، ويحولوا الحضارة الى ما وراء الالب ؟ أو لم يفتح تحفدهم جرمانيا ، وينقذوا الكرسي الرسولي ، ويستخلصوا الشرق من قبضة المسلمين ؟ وفي هذه الفتوحات العريضة التي قامت بها فرنسا فاشرة معها الافكار الجديدة ، ألم تبقى أمينة لما اتسم به نبوغها الخلاق من تجرد ومثالية ؟ (١٥٠٨) ويتغنى دانغلتيير بالانتصار الباهر لـ شارل ده مارتل على العرب والمسلمين ، هذا النصر المبين الذي جاء خير هدية من فرنسا لأوروبا جمعاء ، اذا آمن لها الحرية ، هذه الحرية التي لا تقدر بثمن . وينشعب الفرنسيون من هذه المسآتي والانجازات التي جـاءه التاريخ يحلوها على مثل هذا النحور من سطوع الصورة وسناها ، في هذه المشاعر العميقة التي تور في اعماق النفس ، حيث تستحيل حباً للوطن ، على مثال الاقدمين ، هذه المثالية التي وضعها الفارس المسيحي نصب عينيه . وعندما راح الملك فرانسوا الاول يحمل الى قائده العام غاليو ده جنوئالك . نبأ مقتل ابنه واستشهاده في معركة سريزول ، صرخ غاليو هاتفاً بكل بساطة : « شكرأ لك يا الهي ، هذا الولد الذي جدت به علي في تحنانك الالهي ، قد راق في عينيك ان تأخذك اليك » ، ثم التفت الى الملك وقال : « اني لسعيد ، مولاي ان يكن لي ولد على هذا الشكل يحود بنفسه ويبدل دماءه فداءً للملك وللوطن » . وهل من عجب ، بعد ، اذا مسا هرفنا ان خاليو أولع بالثقافة القديمة ، وانه كان عين لابنه ، مهذباً انسانياً من بين ادهاء النهضة ؟ ولم يكن سكان قشيليبية والانكليز والفلمنك ليؤلموا عن الفرنسيين فعلاً باوطانهم وهياماً بحبها . ففي ايطاليا المنقسمة على نفسها دويلات وجمهوريات تلتاحر فيما بينها ، كانت دويلاتها مثلة بالبندقية وفلورنسا وفابولي ، وبفريق الانسانيين فيها بن فيهم مكيا في يتمتعون ، بالسنتهم واقلامهم ، ان يروا ايطاليا ، تنعم بوحدها واستقلالها الناجز التام . وهذه الامم والشعوب التي جاشت في قلب الامبراطورية المقدسة ، وكل فريق الانسانيين فيها ، امثال ويمبليينج من سكان ستراسبورج ، كانت صدورهم تلجج بالوحدة الالمانية . وهذه الروح الوطنية لم تكن لتقل بشيء عن الروح القومية .

وهذا التطور شخضت له الملكية المطلقة او الحسك الاستبدادي لم يكن عبادة البطل
 الفضل فيه اساساً ، لهذه الرغبة الطبيعية التي جاشت في صدور الملوك بعيرت

يزدادون سلطاناً وسؤداً . فالحق الروماني هو الذي طلع علينا ، في القرن الثالث عشر ، بفكرة الملك المستبد الذي يجمع في شخصه كل السلطات ، هذا الملك الذي كانت مشيئته هي القانون . ان اقبال القرن السادس عشر على احياء التاريخ القديم ، اضى على الحق الروماني قوة جديدة بالنظرة الجديدة التي نظر بها الى الملك « البطل » ، هذا النصف الاله المسيطر الخيتر . فليس الأمر مجرد صورة ذهنية او فكرية تستبد بالفرد او تعبت به وتحفز به الى العمل والتصرف . فالحق الروماني مدين بالنجاح الذي لقيه ، لهذه الاصطلاحات والتمايز السهلة التي عبرت عن خلجات الناس ونزعاتهم الدينية واحاسيسهم الدفينة في هذا العصر الذي وضع فيه . فالبطل هو النموذج الذي يرغب الشعوب باحتذائه ، والنسج على منواله . فتنظريه الحكم المطلق او المستبد تعبر تماماً عن هذه النزعات الفياضة التي تجيش بها هذه المجتمعات فكانت تمييزاً صادقاً عن رغبات المجتمع البشري .

فالحاجة الى سلطان قوي ، هي من هذه المتطلبات التي يقتضيها صراع الامم . صراع الامم فمن بروز الدول الكبرى التي لها من القوة والبطش ما يجعل ملوكها يسيطرون على المنازعات الداخلية ويحزمون امرهم لبسط سيطرتهم في الخارج ، ومن هذه النجاحات التي سجلتها الدول المذكورة في سبيل تحقيق وحدتها الاقتصادية ، انطلقت هذه الحروب العظيمة ، الطويلة الأمد التي خاضتها في سبيل توطيد تفوقها الاقتصادي والسياسي . فالحرب تستدعي حتماً تقوية السلطة وتعزيزها ، وتتطلب حكومة قوية تأخذ بمنتهى السرعة قرارات يسر على تنفيذها الجميع ، انى واينما كانوا .

الزعات الاقليمية قيام سلطة قوية في الدولة هو من مقتضيات الامم ومتطلبات كيانها . فالامم هي عبارة عن مجتمعات جغرافية قائمة جنباً الى جنب ، كهذه الولايات والمقاطعات والبلديات والهيئات والمؤسسات البلدية والقروية ، والمنظمات المعترف بها الممثلة بهذه الطبقات الثلاث الاكليروس ، والنبلاء والشعب ، وهيأة موظفي الدولة ، والجامعات والنقابات المهنية . وقد قام بين هذه الممالك وبين هذه المجتمعات ، على اختلاف مسمايتها ، عقود وعهود ، اعترفت رسمياً لكل منها بما لها من ممتلكات ورثاسات ومثليين بحيث تتألف من هذا المجموع ، وحدة تتمتع بقوة وسلطان . وقد انتصبت هذه الهيئات والمنظمات في وجه بعضها البعض ، لتضارب المصالح وتباين المآثر والاهداف . ولذا كان لا بد من ان يكون جانب الملك قوياً ليقضي في اختلافاتها ، على السواء ، لا تأخذ في الحق لومة لائم ، بحيث يؤمن الانسجام التام بين اعمالها وتصرفاتها ، لما فيه الخير العام . وكثيراً ما رأى من مصلحة التاج ان يفيد من هذه الانقسامات بما فيه خير البلاد والامة جماء .

على هذا ، قس ايضاً المنافسات التي شجرت بين مثلي البيوتات الكبيرة من المنافسات السيادية آل ابولي ، وألب ، في اسبانيا ، وآل شالون ، وآل فرجيز ، وآل هورن . وآل اغمونت ، في البلاد الواطية ، وفي القرائش كوتتيسه ، وآل شالون ، وآل يوربون ،

وآل مونغورنسي وآل ده غيز ، وآل كونديه ، في فرنسا ، وغيرهم كثيرين . وفي هذه المنافسات ما فيها من مخاطر لانها تجيش باعراف الاجيال الوسطى وعاداتها . وقد شهدا بعضاً الى بعض : وشائج الدم ، واواصر التبعية ، وروابط المصاهرات والتزاوج ومن التف لِقْهم من الخدم والخصم ، والازلام والاتباع ، والفدائيين والمتعشين ، من يبذل دمه ويستعد لارتكاب العظائم لاجلهم . وقد بلغ من حدة المنافسة بين هذه العوائل ومثانة الروابط التي جمعت بينها انه لو اتفق لاحداهم واقترب بنسبية سيد من هؤلاء الاسياد السند ، مهما كانت القرابة بعيدة بينهما ، فيكون الصهر الجديد قد أمن لنفسه حماية هذا السيد الكبير وتمتع بمطفه وحمايته ، بينما يقطع الصهر الجديد على نفسه عهداً بالذود عنه والتجند لخدمته ، ولو ضد الملك بالذات . وكثيراً ما كان الملك يمد في بطانة هؤلاء الامراء وفي معيتهم ، اتباعاً له وانصاراً ومريدينهم على اتم استعداد لشد ازره اذا ما حدثت احدهم النفس الامارة بالسوء ، بالعصيان والتمرد ، كما كان واثقاً من جهة اخرى ، من ولاء خصوم هؤلاء الامراء له .

ساعد على تمكين الحكم الاستبدادي والترسيخ له في القلوب والنفوس ، هذا الصراع الطبقي الذي تجلى على اتمه بين الطبقات ، ولا سيما بين البورجوازية منها والنبلاء . فالملك الذي كان يشعر عميقاً بمحاجته للطبقة البورجوازية التي كانت بالفعل ، عماد الدولة بما فيها من اموال طائلة ، وبما تقدمه للإدارة الملكية من موظفين وعمال ، وبموقفها المعارض ضد الاقطاعيين ، كان من السهل عليه جداً تأمين ولائها ومساندتها لقضايا التاج . فالسلطة الملكية ساعدت كثيراً على تيسير الاثراء وانماء الثروة لدى التجار البورجوازيين بما استلقتهم منهم من قروض وبما رهنته لديهم من ممتلكات لقاء سلفات ، وبما عهدت اليهم من تكليف جباية الرسوم والعوائد الملكية ، وبما اولتهم من حقوق فرض الاحتكارات ، وبجبايتها لهم من مفعول القوانين الكنسية ضد الربا ، وبوقوفهم الى جانبها ضد المراقيل والمصاعب التي كثيراً ما اثارها الامراء في وجه الملك ، وضد موقفهم المتشكر للقبابات المالكية . كذلك ، انقذت السلطة الملكية رؤساء الحرف وسيجّت حولهم باعترافها بها وبقرارها للانظمة والقوانين الاساسية التي سنتها لنفسها ، وبما اتمنته لها من حماية قانونية تعدتهم بالتالي الى زبائنهم ، كما صانت ارباحهم من جشع الممولين وكبار الاغنياء . وقد عطفت السلطة الملكية على البورجوازيين العاملين في القطاع التجاري او في المهن والحرف وحمتهم ضد تعديات البروليتاريا الجديدة . وبذلك هبّأت لهم الظروف التي تساعدهم على الاثراء ، وان يحققوا ما حلموا به من ان يكونوا يوماً من اصحاب اليسار . فالملك وحده يستطيع ان يحقق لهم هذه الاحلام التي راودتهم وهذا الرقي الاجتماعي ، وذلك بابلائهم الوظائف العامة التي في توليها شرف لهم ، وبابلائهم إقطاعيات لا تعطى الا للنبلاء . وهكذا ارتفع كثيرون من بين البورجوازيين الى طبقة النبلاء . الا ان هؤلاء البورجوازيين المتأصلين عرفوا ان يحافظوا ، مع ذلك ، على الكثير من أعزافهم وعاداتهم ، وعلى ما عرفوا به من روح الفطنة والاعتدال والتروي . فالسيد برنو ، كونت ده غرانفيل ، اسقف اراس ، ومستشار

الامبراطورية، يرسل بتعليقاته ونصائحه ، حتى في احلك الظروف وأقسى الحالات التي مرت بها سياستها ، لما فيه خير الامبراطور ومنفعته الخاصة . ونراه يعلق على ما يرده ، في البريد ، من تقارير يبعث بها اليه مفتشوه ، بشأن موسم القمح وحالة الاسواق ، ويقرر بنفسه الظروف الملائمة للبيع باحسن الاسعار وأطيبها ، ويخطط للامور باحسن ما يفعل العاملون على خدمته ، ويرسل بتحارير ورسائل من اربع صفحات يحشوها بالنصح والارشادات يبحث فيها عملاءه على ان يتخلوا لاحد ، عن أي رهن ، مهما كان طفيفاً ، ويرجعهم بان يرفعوا اليه التقارير المفصلة عن فرائده ، ويشكر الله على انها خالية من كل ما يبعث بها ويبحث فيها ، ويشدد عليهم بالأمر بفرتطوا بأي كمية من الزبدة بدون اذن خاص منه . وهكذا نرى كيف ان الارستقراطية قطبت بطبائع البورجوازية . ومع ذلك ، فاذا ما أخذ بعض النبلاء من أصحاب الحسب والنسب والمهتد الرفيع بهذه الطبائع ، واذا ما تسربت بعض هذه الاعراف الى أسر نبيلة عن طريق زواجهم ونسائهم من الطبقة البرجوازية ، فما زلنا نجد ، مع ذلك ، نوعين او صنفين من النبلاء : نبلاء النسب القدامى ، المزهوين بشموخ ورفع ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ارققوا الى هذه المرتبة ، بعد جهد وجهود مريرة ، وبعد ان احترف عدد كبير من اعضاء الاسرة ، مهنة السلاح والحرب ، قعدوا « جديرين » بهذا الشرف الاثيل .

ولم يكن في وسع طبقة النبلاء ان تتحامي من استعلاء الطبقة البورجوازية ، الا اذا لقيت حظوة في عين الملك . ولما كانت ترى ، في نهاية الامر ان ليس من مهنة ارفع واعمى واشرف من مهنة السلاح ، فقد املت العناية بملكاتها ، وبحقوقها الاقطاعية . ومن جهة أخرى ، فان هبوط قيمة النقد الشرائية ، احدث هبوطاً ذريعاً في قيمة عائداتها النقدية . فبإمكانها ان تعيش عيشاً كريماً على ممتلكاتها مكتفية بوارداتها ومداخيلها العينية والخدمات التي يؤمنها لها ما عندها من خدم وحشم . إلا ان مغريات العيش في البلاط الملكي والدلّ بالقايا واوسمتها في الاهياء والمجتمعات ، والاستقبالات في المدن ، والاشراك في التجديدات الحربية البعيدة ، كل هذا يجتذبها ويستغويها . ولذا تراها تمعن في انهاك نفسها وتتهالك ، اكثر فأكثر ، على هذا كله . فحياة البذخ هي من مستلزمات حياة النبل والشرف . فالجود والكرم والسخاء هدف بعض اخلاقية النبيل ، لا يمكن اغفالها او التخلي عنها ، بينما الرقي البورجوازي يقتضي له ، اكثر فأكثر ، وفقاً للشعور النبيل ، ان يمكسوا الى فضائل ، عورات الاشراف ومساوئهم ، تميزاً لهم عن البورجوازيين . فقصور النبلاء تمور بحيش من الخدم والحشم ، والاعباد والحفلات الرائعة التي تقام بمناسبة الاعراس تفتح المجال واسماً للمراقص واعمال الفروسية ، والمسارح ، ومراسم الجنازات تقتضي المئات من القناديس ، ومن للشموع المضاءة ، ومن ارغال الفقراء والارامل مرتدين ثياب الحداد ، حاملين الشموع ، ومبالغ طائلة توزع صدقات وحنانات ، كل هذا يستهلك مدخول اسرة بورجوازية محترمة لمدة سنة . ففي حفلة رقص ومغاصرة يقضيها البلاط ، مثلاً ، يرقد النبيل الذي يحضرها - ولا بد له من حضورها - بزة ، يتمثل فوق

كواهل، ثن قطع كامل. وهكذا يرى هذا النبيل نفسه مضطراً ليضع ذاته بخدمة الملك ، وان يلتبس منه ، وفقاً لمرتبة في سلم النبل والشرف ، وظيفة حاكم في ولاية أو مقاطعة أو ناحية ، أو وظيفة قائد موقع في قلعة حصينة ، أو رتبة زعيم في الجيش ، أو عريفاً بسيطاً في فرقة صغيرة أو في الحرس الملكي ، أو ريعاً ثابتاً أو بائنة لابنه المتزوج ، أو رئاسة دير ، أو درجة اسقف أو حبر لابنائيه الآخرين . وهو لا يستطيع ان يقف بوجه البورجوازي ويحافظ على مركزه في المجتمع ، الا بوضع نفسه تحت جناح الملك . فقد خف والحق يقال ، كثيراً شأن هذه الاقطاعات التي قامت الى الغرب من نهر الايلب وجبال الألب الدينارية ، كما نجسد أكثر فأكثر ، من جهة ثانية ، النبلاء ، وعدداً اقل من الإسياد ، يستخدمون ما لهم من سلطة وسלטان في اقطاعاتهم ، مع ولائهم للرئيس الأعلى ، كما نرى ، أكثر فأكثر ، هيئات ومنظمات اجتماعية ، يضفي عليها رئيس الدولة ، بصفة وراثية ، ولقاء خدمات يؤديها له أصحابها ، في الحرب أو في الإدارة ، مرتبة أعلى ، وألقاباً سلسلة مثل : دوق ، وماركيز ، وكونت ، وبارون ، وغير ذلك من الالقاء العريضة كما يوليها : أوسمة وشارات شرفية ، وينفذ عليها من مقومات الجيش الكريم ، وغير ذلك من النعم ، وهو مرتبط بالدولة وحدها وما هو متوقف على إدارة ملكها العليا .

ولعل هذا السراع الطبقي هو اهم عامل يساعد على تطوير الملكيات المستبدة .

ومع ذلك فقد كانت القوة الفعلية لهذه الملكية المستبدة اقل تأثيراً على حدود السلطة المطلقة
سير الحياة اليومية لرعاياها مما تمّ منها للحكومات الديمقراطية التي طلعت في القرن التاسع عشر . فالشريعة الالهية المسيحية ، والعوانين الاساسية التي قام عليها النظام الملكي والتي حددت الارضاح السياسية لكيان الملكية ووجودها ، وقانون الحق العام الذي نص على حق التملك ، ووضع حدوداً لحرّيات الفرد والجماعات وبتنّ ما لها من حقوق وواجبات والتزامات ، وأعراف وهادات ، كل هذه الموامل وما اليها ، جاءت متحد من سلطة الملك وسلطانه . كذلك يحد من طاقة هذه السلطة ، هذا المدد الضئيل من الموظفين وصحوبة المواصلات ونسبة وسائلها . فاذا إقتصرت على الموظفين المدنيين وحدهم في فرنسا ، وفيها اذ ذاك أكبر هيئة للموظفين في أية دولة من دول أوروبا ، جماء ، نرى ان عددهم لم يكن ليتجاوز ، حوالي عام ١٥٠٥ ، بضعة عشر الف موظف في دولة تضم زهاء ١٥ مليون نسمة ، وبلغت مساحتها نحو ٤٨٠.٠٠٠ كلم^٢ ، أي بمعدل ١ لكل ٢٥٠ نسمة ، ونسبة او بمعدل موظف واحد لكل ٤٠ كلم^٢ (ففي سنة ١٩٣٤ وفي مجتمع أكثر تعقيداً وقد اختلف في تركيبه وتنظيمه ، كانت النسبة بمعدل موظف واحد لكل ٧٠ شخصاً ، و ٥٦ موظفاً لمعدل ٤٠ كلم^٢) اما نفوذ الإدارة المركزية وتأثيرها ، فكان ، بالطبع ، اقل بروزاً واستمراراً ولعمالة منه اليوم . فالامراء ، والهيئات المنتظمة والمؤسسات كانت تقوم كلها ، تحت اشراف الملك ورعايته ، بهام كثيرة هي اليوم من اختصاص الدولة وصلاحياتها الاساسية .

أتاح مبدأ السلطة المطلقة بالفعل ، لهذه الهيئات والمنظمات التي تشكلت من فرقاء متباينين ، أصلاً وفصلاً وأوضاعاً ، ان تعمل معاً في هذه العطفة من التاريخ ، يتوقف عليها مسألة موتها أو حياتها . فقد اتاح هذا المبدأ ، عملاً بداعي الترابط والاعراف ، ان يحقق ، بعد ان عرف كيف يتفادى التطرف والمغالاة التي تجنح اليها نظام ثيودوسيوس ويوستينيانوس ، هذا التوازن الذي نراه ، بالرغم مما أحاق به من عوامل قومية وهزات مختلفة ساعدت على التشتيت والانقسام ، وان يحافظ في وسط هذا المصطرع ، على بقاء هذه الملكيات ، ويؤمن عوامل رقيها وتطورها الصاعد نحو دولة نموذجية ، أكثر مركزية وأكثر وحدة ، لا بد منها لتأمين الازدهار والنجاح .

٢ - الملكية الفرنسية أكثر هذه النماذج تطوراً

حققت فرنسا أكثر من أي ملكية أخرى في أوروبا ، شروط الملكية المطلقة ، ولذا كان شارل الثامن عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨) ولويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) وفرنسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) وهنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) من هؤلاء الملوك الذين قبضوا بيد من حديد ، على السلطة في البلاد . فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملك فرنسا ، اعتُرف له بها قانوناً . فهي هبة من حق إلهي . ولذا كان الملك مسؤولاً أمام الله وحده ، ويتمتع بالتالي ، وحده بكل السلطات العليا والصلاحيات ، كحق اعلان الحرب ، وعقد المعاهدات التي تعيد السلام الى البلاد ، ويفرض ارادته على رعاياه . فهو وحده يملك سلطة التشريع واصدار القوانين لانه هو وحده القانون إلهي ، وهو وحده الذي يقضي ، لانه وحده القاضي الاعلى ، والحكم الذي يصدره لا يقبل أية مراجعة او نظر من أي مرجع آخر . عليه ، مع ذلك ، ان يحترم المواثيق ويراعي الاعراف والمعادات المرعية الاجراء ، وقوانين البلاد الاساسية التي ينص اولاها على ان يتوارث الملك احد افراد اسرة هونغ كابت ، ماجد عن ماجد ، مثل الابن البكر في الاسرة ، دون ان يكون للملك أي حق بان يوصي بخلاف ذلك او ان يقرر ما يتعارض مع العرف والتقليد المتبع ، كما يترتب عليه ان يحترم القسم الذي اداه يوم تكريسه ، هذا القسم الذي يلقي عليه مسؤولية الدفاع عن الكنيسة ضد الهرطقة .

لنجد الفصل الذي آل اليه عام ١٤٨٤ ، اجتماع البرلمان (ممثلي وسائل القسمل المتوفرة للملك الطبقات) ، ليس من حريات عامة او خاصة هناك في وسعها الوقوف بوجه الملك او الحد من سلطته . فهو السيد المطلق في البلاد ، المتصرف بالضرائب على هواه ، حتى في هذه الولايات التي تحدد فيها المجالس العامة (البرلمان) هذه الضرائب كولاية بورغونيا ، ولورمندا وبروفانس . فتعديدها لها ليس بحق تتمتع به ، بل مجرد هبة او انعام او تسامح من صاحب الجلالة ، يمكن له الغاؤه عندما يريد . وهذا الانعام ، لا تتعدى حدوده ، سرية المناقشة لقيمة الضريبة ومبلغها النهائي .

فالملك هو رأس القضاء الاعلى . فالجالس التمثيلية ، البرلمان ، التي كان فيها ممثلو الطبقات الثلاث يحفون بمثل الملك عملاً بالاعراف المتبعة ، حل محلها المجلس القضائي الذي يترأسه قاض اعلى او ناظر المعدلية او من ينوب عنها ، مع عدد من المستشارين المكيين . وقد جرى إلغاء هذه البرلمانات او المجالس العامة ، بعد فرنسوا الاول . وللملك جيش دائم ، 'محترف' ، 'لجب' ، يرتفع عدده الى ٨٠٠٠٠ كما حصل سنة ١٥١٣ ، 'تدفع مرتبات افراده وضباطه من خزينة الملك . كما تدفع لهؤلاء الضباط والقادة المشرفين على امن البلاد . وتوزع وحدات الجيش على ٣٠٠ مركز او قلعة حصينة : بين مدينة او حصن . وللملك موظفوه ، يزداد عددهم ويرتفع ، سنة بعد سنة ، وفقاً لحاجة الادارة . فكل خدمة عامة هي وظيفة ، وكل وظيفة هي هبة من لدن الملك . فكل المأمورين العاملين في الخدمة العامة يعملون بوصفهم ممثلين للملك . اما عددهم فيتراوح بين ١٠-١٢ الف موظف يؤلفون اكبر هيئة ادارية تمت للملك في اوروبا ، يسهرون على تنفيذ رغبات الملك واراذه السنية . ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين ضم بين اعضائه بعض الخاصة الجريين ، يبذلون له النصح الملل ويساعدونه بأرائهم ، على اتخاذ القرارات السياسية ، كما يوجد مجلس أوسع يضم فيمن بضمهم ، مستشار التاج ، وصاحب الالتماسات للنظر في ما يخص امور القضاء والادارة . وهناك مجلس اعلى للعدل ينظر ، باسم الملك ، في مراجعة القضايا ، والقضايا المحفوظة ، للملك . ويقوم في باريس ، وفي هذه الولايات التي جرى دمجها حديثاً مع املاك التاج يقوم برلمان او مجلس ممثلين يتألف من قضاة يعملون في اعداد القوانين ووضعها وتهيئة القرارات التي يجب اتخاذها ، كما انه يقضي في الناس ويتولى النظر في الامور الادارية . وعلى رأس الولايات حكام عامون يتمتعون بصلاحيات وسلطات واسعة . وكان الملك يتحسب كثيراً لتصرف هؤلاء الحكام الذين كثيراً ما وقفوا الى جانب مجلس التمثيل ، وهذا ما حله في سنة ١٥٤٥ على اصدار رسوم بالغاء وظيفة حاكم الولاية ، الا في هذه الولايات الواقعة على الحدود . وبلي المجلس التمثيلي او البرلمان شأنًا ، القاضي او ناظر العدل *Senéchal* او من اليهم في المجلس ، لهم صلاحيات القضاة والنظر في امور الناس . اما امور المملكة المالية ، فكانت من اختصاص مجلس مستشاري الملك ويتولى امر مراقبتها مجلس المحاسبة الذي ادخل عليه الملك فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٣ ، تعديلات جديدة حسنت كثيراً من فعاليتها ، وذلك بإنشائه صندوق التوفير ، وهو صندوق يمثل الادارة المركزية ويشرف على واردات الدولة ومصروفاتها . ويشرف المفتشون الماليون على صناديق بيت المال في الولايات . وفي سنة ١٥٤٣ ، انشئ في البلاد ١٦ مركزاً عاماً للمحاسبة المالية في طول البلاد وعرضها . وهكذا كان يتسع نطاق العمل وتشعب الادارة الملكية في كل مرفق من مرافق البلاد الرئيسية .

الحكم المطلق والخصنية
استطاعت الملكية ، بفضل ما تم لها من وسائل العمل والتصرف ، ان تسيطر بالفعل على الكنيسة . فالاساقفة ورؤساء الاديار ملزمون بالولاء للملك والطاعة له وبالدفاع عنه . فالملك هو الرئيس الزمني

للكنيسة ، وهو الذي يقرر ما تصدره الكنيسة من قوانين وتتخذ من اجراءات . وللملك وحده الحق بدعوة الجوامع المسكونية للانمقاد ، وعليه تقع مهمة المحافظة على الوقف واملاك الكنيسة . وهذه المعاهدة الكنسية التي عقدها ملك فرنسا عام ١٥١٦ ، تعترف له بحق انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار على ان تتم سياستهم ، من قبل البابا ، وفقاً للراسم المنبئة ، فجاء هذا الحق فريضة بين يديه ، لاجتذاب ولاء الاسر النبيلة ، طمعاً منها بالاحتفاظ للصغار من ابنائها ، بالمنصب الكنسية الفنية الموارد . وباستطاعة الملك ان يرغم الكنيسة ورجال الدين على المساهمة ، كلا ضمن طاقته ، بالضرائب التي يفرضها . وبموجب الحق الملكي الذي كان يدعيه لنفسه ، كان الملك يتقاضى ريع الاسقفيات والاديار الشاغرة ، لعدم وجود رئيس شرعي لها . وكان مجلس الملك يشرف على ادارة الكنيسة كما ان مجالس المثلين الملكيين كانوا يخضعون رجال الاكليروس لاختصاص المحاكم الملكية ، كما كان من حقهم ان يحرروا الكنيسة من حق النظر في معظم القضايا التي يتقدم بها الشاكون ، مع العلم ان برلمان باريس كان يتولى ضبط الامن ويتمهد النظام في الكنيسة

المملك هو السيد السند لجميع اصحاب الاقطاعات . ففي السهم المطلق ونظام الاقطاع المملكة ليس سوى اتباع للملك . فكل الامارات هي اقطاعات ترتبط بالملك ، كما ان كل سيد او آمر ، مرجعه الاول والاخير هو الملك . فلا يستطيع الامير ان يقيم مجالس للمعدل او ان يشيد له قصراً في الامارة او الولاية او ان يبدل او يغير من اسمه بدون ان يعرض نفسه للملاحقات القانونية او للمصادرة . فالاقطاعيون ليسوا سوى رعايا الملك الذي يفرض ارادته على الامارة . كذلك يفرض الرسوم ويعين الضرائب المترتبة على اتباع الامير او السيد ، ويخولهم حق استيفاء رسوم خاصة بهم . لكل رعايا الدولة الحق بان يميزوا الاحكام الصادرة عليهم من محاكم الامارة الى قضاء الملك . وهناك عدد كبير من القضايا يحتفظ النظر فيها ، لمحاكم الملك وحدها . ولدى اي شبهة ، يحق للقاضي الملكي ان يطلب الاطلاع على سير اي دعوى او قضية تجري امام محاكم الامارة ، لاشتباها في امر ما ، او سوء ظن ، او لارتباب بعدم اختصاص المحكمة للنظر في القضية . وقد عرف الملك ان يضع حداً للحروب الاقطاعية ، وآخر حرب من هذا النوع هي الحرب التي خاضها امراء آل فوا *Fois* (١٤٨٤ - ١٥١٢) . ويرفع الامراء اختلافاتهم ومشاجراتهم للتحكيم امام قضاء الملك . وهكذا انتهت ، دوغما رجعة ، السيادة الاقطاعية . وفي سنة ١٥٢٥ ، ضم فرنسوا الاول ، الى املاكه ، دوقية بوربون واملاكها السيادية بعد ان تم التشير بصاحبها ولودي به خائناً ، متمرداً على الملك . وفي سنة ١٥٣٢ ، تم عقد اتفاق ، ضمت بموجبه مقاطعة بريتانبا الى التاج ، هي الاخرى . وهكذا لم يبق في الجنوب يتمتع بشيء من السيادة الا امارة آل ألبريه .

فالملك هو السيد في الولايات والامارات المختلفة ، وهي هذه الحكم المطلق والمجتمعات المحلية المجتمعات القديمة التي تتألف من البلديات والمدن القنصلية ،

له المعنى ان يبعد النظر في هذه الاتفاقات التي ربطت الولاية بالتاج ، وذلك بما فيه خير المصلحة العامة كما له الحق ان يحتمل مجلس القضاء فيها الى برلمان ، ورئيس الادارة فيها الى حاكم عام ، وان يبعد بالوظائف الكبرى الى موظفين من خارج الولاية ، وان يبعد برئاسة المجلس والهيئات القائمة فيها الى موظفين يعينهم مباشرة . كذلك يضع تحت مراقبته عمليات الانتخابات البلدية ، ويراقب اعمال المجلس والهيئات المنتخبة ، ويوزع ما لها من صلاحيات قضائية ومالية حسب اراء مناسباً . كذلك يضع انظمة ومراتب سلسلة للثقافات ويشكل للصناع ولمثلي الطبقات السفلى في المدن ، هيئات سلسلة السلطة ، تحت ادارة موظفين ملكيين يأخذون على عهدتهم تنظيم المدن الحرة .

الحكم المطلق والحياة الاقتصادية
يحاول الملك ، من جهة ، ان يوجه حياة البلاد الاقتصادية
فاهجاً في المجال الاقتصادي سياسة قومية او مصلحة
تعود بالخير العميم على الجميع ، وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد وتوفير المدد
لثمين « عصب الشعب وقوته » كما يحلو للمستشار دوبرات (١٩١٧) ان يعلنه ، وذلك عن طريق
قوانين « تحيد » الاسراف في الاتفاق ، كما تقيد حركة اخراج العملة الى الخارج ، بدلاً من فرض
رسوم على الاستيراد لا تتوفر للملك الوسائل القمينة يجبايتها على الوجه الاكمل .
وهكذا تنعم كل طبقات الشعب بعوارف الملك يوزعها بسخاء على رعاياه كل بحسب
استحقاقه ، ولا سيما تلك التي تضفي على حاملها الاحترام ، تؤمن لهم النفع : كالتعويضات
والاعطيات ، والإنعامات والاعفاءات او الاوسمة الفخرية وألقاب الشرف والتبلي ، او غير ذلك .
والبلاط ، هذه الهيئة الجديدة او الجهاز الجديد الذي خلقه الحكم المطلق على صورته ومثله ،
اصبح الآن مسلماً او منهجاً سلسلة يحمل الكثير من عوامل الاغراء والجذب .

وهكذا فطبقات الشعب الثلاث ، تعمل جميعها على توطيد نظام الحكم المستبد ، بالرغم مما
ييز الواحدة عن الاخرى من الامتيازات ، وما تنعم به من إعفاءات واستثناءات وغير ذلك من
الروابط التي تشدها الى الملك باوتق اواخر الولاء ، اذ في منافساتها الواحدة للآخرى ما
يكبح من جماها .

حدود الملكية المطلقة في فرنسا
وهذه السلطة الواسعة التي يتمتع بها الملك لها بالفعل ، ما
يحد منها ويقيدها . فاذا كانت مشيئة الملك ورغبته هي
التي تفوز في نهاية الامر وتنتصر ، فقلة عدد الموظفين نسبياً ، وبطء المواصلات لا يسمحان لها
بالتدخل دوماً وفي كل مكان ، بالشكل المرجح . فالسلطات المحلية لا تزال تتمتع بعد ، بشيء من
المبادرة ، في حياة الولاية ونشاطها . ومن جهة اخرى ، فهذا الاضطراب او القلق الفكري
الذي رات على الوضع القائم ، اذ ذاك ، جعل المؤسسات العامة تبدو وكأنها بالفعل ، اوضاع
وحالات متباينة كثيراً بعضها عن بعض ، تلفها حركة متصلة من التبدل والتحول والتفسير .

فالوظائف ليست بالحقيقة سوى اوضاع او حالات يعمل فيها فرد او عدة افراد لا تخصص لهم ولا مهارات عندهم ، يتمتعون بحقوق وصلاحيات ويقومون بنشاطات تختلف نوعاً وتوزع بدداً بين العديد من السیادات والبلديات والمصالح والمؤسسات الكنسية ، من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، تحديد نطاق اختصاصاتها .

بيع الوظائف العامة والاتجار بها ساعد مسلك الموظفين انفسهم وتصرفاتهم ، اذ ذاك ، على التخفيف او التحلل من رتبة سلطة الملك . فقد جرى العرف ، منذ عهد بعيد ، ان يقدم طلاب الوظائف ، مكافآت مالية لمن من موظفي المعية ومستشاري الملك وغيرهم من ذوي الربط والحل ، يساعد على الحصول على وظيفة ، وقد راح الملوك انفسهم يستشعرون هذا العرف ، فيبيعون ، لقاء دين لا يستوفى ابداً ، بعض الوظائف التابعة للادارة المالية ، او للقضاء . وقد استطاع الملك فرنسوا الاول ، منذ عام ١٥٢٥ ، ان يؤمن له ريعاً او دخلاً خاصاً من بيع وظائف ككازنة غير ملحوظة . فكان عمله هذا كمن يفتح دكاناً لتصريف مثل هذه البضائع . كذلك اخذ بعض الملوك يسمح لبعض الموظفين ان يبيعوا ، لقاء مبلغ معين ، الوظائف التي لهم ، لشخص آخر او يحتفظون بها ، ضمن شروط ورسوم معينة ، لاولادهم وبنينهم . وقد اتسمت هذه الاعراف وانتظم العمل بها على مر السنين . بحيث أصبحت تقليداً مكروساً وامراً معترفاً به . فقد كان من بعض نتائج هذه العادة ان رحبت من نطاق ملاك الوظائف العامة ، وان تخلق ، ضمن الادارة ، هيئة خاصة من الموظفين ، هيئت مسؤولياتهم وغامت صلاحياتهم ، فاستأثروا مع ذلك في الدفاع عنها والتسييج حولها ، لما كانت تمثل لاصحابها ولذويهم ، من مورد رزق لا ينضب معينه . وقد أصبح هؤلاء الموظفون اصحاب حق في الوظائف التي يضطلعون بها ، لا يستطيع الملك انتزاعها منهم الا في حالات خاصة ، او اذا دفع لاصحابها تمويضاً لانقائها عنها او بعد مراجعات قضائية طويلة . وهكذا أصبح الموظفون « طبقة رابعة » في الدولة ، تترأخى عراها اكثر فاكثراً ، مع الملك . ولهذا رأى العاهل نفسه مضطراً ، لا سيما بعد عام ١٥٥٠ ، للجوء الى تعيين مفوضين او ممثلين له ، يعزلهم عندما يريد ، يعهد اليهم السهر على تنفيذ قراراته ووضعها موضع العمل بها .

الحروب الدينية ان وفاة هنري الثاني المبكرة على اثر اصابته بطعنة قاتلة في الالعب الرياضية . ترك مصير فرنسا بيد ملوك قاصرين هم : فرنسوا الثاني وشارل التاسع اللذين ملكا تحت وصاية امها كاترين ده مديتشي . وراح بعض زعماء الارستوقراطية من آل ده غيز وآل ده بوربون ، يتنافسون على الاستئثار بالنفوذ ويعتمد الفريق الاول على الكاثوليك كما يعتمد الفريق الثاني على البروتستانت . انطلقت شرارة الحرب الدينية من مذبحة البروتستانت على يد الكاثوليك ، يوم عيد القديس برثلماوس (٢٤ آب ١٥٧٢) فحملت في ثناياها خطراً كبيراً على الملكية في فرنسا . وراح جميع المغالين والمتطرفين ، من اي لون

كانوا ، يهاجمون الملك . وفي عهد الملك هنري الثالث حاولت العصبة الكاثوليكية ان تعيد ، عام ١٥٧٦ ، الى اصحاب الامارات والاقطاعات الكبيرة ، السلطة التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، كما حاولوا الرجوع الى التقسيمات الادارية المعمول بها قبلاً . وقد سرى بين اعضاء هذه العصبة ، عام ١٥٨٥ ، نزعات ديموقراطية ، اذ بدا لبعض المفكرين من البروتستانت ان يتحدثوا من سلطة الملك بواسطة مجالس وهيئات انتخابية اعضاءها من ممثلي الشعب أخذاً بالتقاليد والاعراف المرحية . (هوتان في كتابه : « فرنسا الغالية ») وعلا منهم بنطوق العقيد الاجتماعي *Vindictae contra Tyrannos* كما ان مجالس ممثلي الطبقات (برلمان) دعيت مراراً للاجتماع . وقد كان لاستحكام الفوضى في البلاد ، والسياسة الاسبانية النزعة التي انتهجها اعضاء العصبة الكاثوليكية ، المضادة تماماً لمصالح القومية الفرنسية العليا ، ان جاءت بنتائج تخدم مصلحة هنري الرابع الذي اعتلى العرش ، اثر مقتل هنري الثالث على يد راهب متعصب يدعى رافيناك (١٥٨٩) ويعد ان جسد البروتستانتية (٢٥ شباط ١٥٩٤) واعاد السلام والهدوء الى البلاد ، بوضع حد نهائي لهذه الحروب الدينية والاجنبية التي زرعت البلاد خراباً ودماراً ، وذلك باصداره « فرمان ثالث » (١٥٩٥) وعقده معاهدة فيرفين (١٥٩٨) .

وهذه الحروب الطويلة ، الدامية ، أدت بالطبع الى تعزيز الحكم المطلق في البلاد . وعلى عكس ما تم في انكلترا ، فقد 'حدث' من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعية كما 'حدث' من تطور الحركة البورجوازية فيها . فقد هاجر من البلاد ، عدد كبير من اصحاب الصنائع والحرف والفنون ، الى انكلترا ، حاملين معهم اسرار صناعات كثيرة . كذلك 'حدث' من تطور البلاد الاقتصادي بعد ان عتيا الحراب وجف فيها الزرع والضرع . واستطاعت الحكومة ، مع ذلك ، ان تمضي 'قدماً' في توجيه الحياة الصناعية في البلاد ، عن طريق الموظفين الذين استمروا في تطبيق القوانين ، في المناطق التي انكش فيها ظل الملك ، محاولين بذلك ، مضاعفة نفوذهم فالمراسم التي صدرت عام ١٥٨١ ، و ١٥٧٩ ، بصدد النقابات العمالية والانظمة الخاصة التي وضعت في هذه الحقبة بالذات ، حدثت كثيراً من عتد العمال المتدربين ، كما حددت فالتالي مدة التدريب وأعاقت ، الى درجة كبيرة ، الانشاءات والمشروعات الكبرى في البلاد . والضرائب التي فرضها الملك من جهة ، والثوار من جهة ثانية ، في المناطق والاقاليم التي سيطروا عليها ، حالت دون تكوين رؤوس اموال ضخمة في البلاد . والتطور الذي سجلته الطبقة البورجوازية العليا جاء ادنى بكثير من امثاله في كل من انكلترا والولايات المتحدة ، بينما لم تقطع طبقة الاشراف ، في هذا المجال ، الشوط الذي قطعتة البورجوازية ، في هذه الحقبة . فلم تستبدل اوضاع الحكم المطلق فيها باوضاع الملكية المعتدلة او الجمهورية البورجوازية .

الملكيات الأوروبية على هنالك في أوروبا ، دول عديدة ، جاء الحكم فيها والظروف شاكلة الملكية الفرنسية المهيمنة به ، شبيهاً من جميع الوجوه ، ان لم نقل مماثلاً

لما توافر من ظروف الحكم واورضاه في فرنسا . من هذه الدول ، مثلاً ، اسبانيا التي 'نظر اليها كدولة اخذت ، اذ ذاك ، بالتقهقر الاقتصادي . كان الحكم فيها استبدادياً في عهد ملوكها : شارل الخامس (١٥١٦ - ١٥٥٥) وعهد ابنه فيليب الثاني (١٥٥٥ - ١٥٩٨) ، وبعض الدول الايطالية ، كنبولي التي وقعت ضمن الملكات الاسبانية ، ودولة سافوي ، بيامونت ، وبعض الدويلات الالمانية القائمة في قلب الامبراطورية المقدسة ، الي استعالت ملكيات مستبدة ، مطلقة ، ومستقلة بالفعل ، بفضل ما تم لها من تنظيم عسكري وجيوش جديدة ، وبفضل تأثير الحق الروماني الذي أخذ به وعمل بمنطوقه من جديد ، وذلك بالرغم من الجهود والمحاولات التي بذلها شارل الخامس لتوحيد الامبراطورية وجعلها اكثر مركزية .

٣ - الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

هنالك ، مع ذلك ، دول يختلف نظام الحكم فيها ويتباين تبايناً كبيراً . فقد برز في البلدان التي اشتد فيها ساعد الرأسمالية والبورجوازية اكثر مما اشتد في فرنسا ، ملكية معتدلة او جمهورية بورجوازية جاءت على نسبة تطور البورجوازية فيها . اما في البلدان الاخرى التي لم يتم للبورجوازية فيها مثل هذا الشأن ولم تبلغ مثل هذا الشأ في تطورها ، فقد قامت نظم ملكية على اساس إقطاعي ذات طابع ارستوقراطي . فاختصاراً للوقت ، نضرب في ما يلي بعض الامثلة على ذلك .

انكلترا حققت انكلترا ، بالفعل ، خلال القرن السادس عشر ، نظام الحكم المطلق ، وهو نظام بعث في البلاد تطوراً اجتماعياً سريعاً ، اذ ما كادت تأذن شمس القرن للمغيب ، حتى كان هذا النظام قد فات ومضى قبل ان يسجل قيامه رسمياً .

مبادئ الدستور الانكليزي ففي الحقبة الاولى من عهد هنري الثامن (١٤٨٥ - ١٥٠٩) نجد بالفعل عدداً من المبادئ فرضها النبلاء على الملكية والزموها الاخذ بها والعمل بموجبها ، خلال فترة طويلة سابقة من التطور يحلو للفقهاء تبنيها بدقة . وقد خلقت هذه المبادئ صورة ذهنية ، جماعية تبلورت واستقرت نهائياً وتم الاحذ بها في الظروف القائمة اذ ذاك . فقد علم الفقهاء بأن القانون الاساسي او الدستور هو اول ما يرثه الملك ، لانه لم يصبح ملكاً الا بفضل هذا القانون ، وباسمه ، ولولا وجود هذا القانون لما صار اليه الملك صاغراً . فالقانون هو اذاً ، فوق الملك . وهنالك قوانين اخرى تميش في اذهان الناس وخواطرهم وان لم تكتب او يجرى تطبيقها باستمرار . فليس باستطاعة الملك ان يفرض على البلاد ، وان يحتمل المباد ، من رعاياه ضرائب جديدة ، كما انه ليس باستطاعته ان يسن قانوناً جديداً او ان يضع تشريماً جديداً دون موافقة البرلمان وهو مجلس يتألف من ممثلين عن الاكليروس والنبلاء فيؤلفون معاً مجلس اللوردات ، ومن ممثلين لاصحاب الاراضي الاحرار ، وللبورجوازيين الذين يؤلفون مجلس العموم . لا يمكن سجن اي كان بدون مذكرة

توقيف تبين نوع المخالفة التي استوجبت توقيفه ، وبدون ان تجري محاكمته بالسرعة المطلوبة .
فجبرية المظنون عليه او براءته يفررها حكم صادر عن هيئة محكمين تضم ١٢ عضواً . يمكن
ملاحقة الموظفين قضائياً امام المحاكم لمخالفات أتوها اثناء الوظيفة ، كذلك يمكن ملاحقة وزراء
الملك من قبل مجلس العموم .

لدى الملك عدد ضئيل نسبياً من الموظفين ، فالجانب الاكبر من القضاء والادارة ، كان
يؤمنه ، باسم الملك ، عدد من الاعيان يعهد اليهم بهذه المهام . اما انكلا ترا فقد قُسمت
ادارياً ، الى مقاطعات (كونتات) يمثل الملك فيها لورد نائب يُعين من بين نبلاء المقاطعة
ويتولى قيادة الميليشيا ، يساعده مأمور أمن (شريف) وقضاة صلح ، يجري انتقاؤهم من بين
طبقة الاشراف الوسطى (Squires) او من بين النبلاء اصحاب العقارات ، او من بين ملاكين
اغنياء (Gentry) يتولون امور القضاء واصدار احكام العدل . فليس للملك عليهم السلطة
التي له على الموظفين المحترفين ، الغرباء عن مقاطعاتهم الاصلية . اما في هذا القسم الجبلي الواقع
الى الشمال من البلاد ، فالمقاطعات تشكلت الادارة فيها على الوجه التالي : فالحكام يمارسون فعلاً
سلطتهم كاملة . وهذا التقسيم لم يعمل به في بلاد الغال حتى عام ١٥٣٦ . كل هذا التنظيم كان
من شأنه ان يؤمن للطبقة الارستوقراطية ولبعض المدن الانكليزية التقدم المطرد وحق الصدارة .

الحكم المطلق القائم بالفعل ومع هذا وذاك ، فالملك هنري السابع تصرف تصرف ملك
مطلق ، مستبد ، وعلى خطاه سار خلفه هنري الثامن (١٥٠٩ -
١٥٤٧) واكثر ، ادوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) وماري تيودور . وفي آخر المطاف
بلغ الحكم الاستبدادي الذروة مع الملكة اليصابات (١٥٥٩ - ١٦٠٣) . عندما اعتلى هنري
السابع العرش ، وجد الملكة فريسة حرب أهلية ضروس ، تآقت من ملء جوارحها ، الى
الهدوء والسلام وقيام سلطة تثبت وجودها في البلاد . فقد ذهبت حرب الوردتين بزهرة النبلاء
وخيرة الاشراف في البلاد . فالواصلون حديثاً منهم لهذه المرتبة ، دانوا للملك وحده ، بهذا
الفضل والشرف يوليه ايام . اما البرلمان ، فقد كان طوع بنان الملك . والشعور القوي الذي
بعثته في النفوس حرب المائة سنة ، والحق الذي جاشت به صدور الانكليز ضد فرنسا ، والخوف
الذي سمرته في قلوبهم ، كل ذلك جاء ظهيراً للملك معزراً للسلطة الملكية المستبدة . كذلك
عرف العرش البريطاني ان يفيد كثيراً ، من الافكار التقدمية الجديدة والمرئيات الذهنية التي
طلعت بها النهضة الأوروبية الثقافية ، والفنية والتي تغلغلت في جميع انحاء أوروبا باسرها
وانتشرت فيها ايما انتشار . ولم يلبث الانكليز ان غرقوا الى ما فوق انوفهم في القضايا الدينية
وما اثارته في البلاد من جدل ومناقشات ومشاحنات ، فزهدوا معها بالامور السياسية وعتركوا
امر الحكم للملك يتدبر شؤونهم كما يريد . وقد حملتهم الروح القومية التي استعمرت في نفوسهم
اذ ذاك ، على الوقوف موقفاً ، معادياً للبابا ، كما حملت على الوقوف مثل هذا الموقف الصلب

الحشن من البابا ، كلاً من الملك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليصابات ، فزادهم شمية في البلاد كما حل الشعب على التعلق بهم . ثم جاء الازدهار الاقتصادي الذي لعبت الملكية في تحقيقه ، دوراً حاسماً ، فساعد من جانبه على تقوية الطبقة البورجوازية التي شمرت بحاجة ماسة لسلطة الملك ورعايته .

تألف قوام الشعب البريطاني ، حتى أواخر القرن الخامس
الازدهار الرأسمالي في المجتمع البريطاني
عشر ، في الدرجة الاولى ، من مزارعين ورعاة . وقد كان
الانكليز قد أخذوا بتحويل الصوف الذي تنتجه بلادهم
الى منسوجات واقشة خفيفة ، ارخص سغراً بكثير من الاجواخ التي كانت تنتجها مقاطعة
الفلاندر ، فراحوا ينافسونها في أسواق القارة حتى وفي بلدان الشرق الأدنى . وقد عرف الملك
هنري السابع ان يحمي الصناعة في البلاد بفرضه رسوماً على الصوف الخام المصدر للخارج مما
زاد في اسعار هذا الصوف وبالتالي ، في أسعار الاجواخ التي يبيعها سكان الفلاندر من الصوف
الانكليزي . ونفخ هنري الثامن بدوره الحماس وأدخل النشاط على الاقتصاد الانكليزي ،
عندما راح يطرح في التداول ، بين ١٥٣٦ - ١٥٣٩ ، ممتلكات الاديار والاقواف . وحدث في
البلاد ، بفضل هذا الدفع الجديد للرأس المال ، ثورة اقتصادية حقيقية تغطت في جميع جنبات
انكلترا اذ انه ما كاد يطل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى اصبحت انكلترا مركز
كبيراً للتجارة البحرية وللصناعة الضخمة المتمركزة كان لا بد من حمايتها . وراحت طبقة
بورجوازية ثرية تقبل على شراء الاراضي كما أخذت طبقة النبلاء القديمة تتهاوت على الوظائف
الحلية ، فظهرت بين الفينة والاخرى بوادر صراع طبقي في البلاد ، الا انه صراع اقل عنفاً مما
نرى من امثاله في الممالك التي قامت الى الجنوب الشرقي من انكلترا حيث كان صفار النبلاء
يعملون في الزراعة المرتكزة على رأس المال ، أو في الاعمال التجارية الكبرى ، وهو صراع
عرف شيئاً من الشدة والحدة في بعض المناطق الانكليزية بحيث ان بعض كبار ممثلي الاقطاعية
امثال كونت نورمبرلاند وكونت وستمورلاند قاموا ، عام ١٥٦٩ ، بثورة مسلحة ضد الملكية
اليصابات ، رمت من جهة ، للحد من حركة الوصوليين الجدد ، ومن جهة اخرى ، للدفاع عن
الكنائس في شخص ممثليها ماري ستوارت . انتصرت الملكية في نهاية الامر وجاء فوزها هذا ،
انتصاراً للطبقة الاجتماعية الرأسمالية الجديدة .

على عكس ذلك تماماً ، اضطرت الملكية ان تكبح من جاح البروليتاريا الجديدة التي ثارت
عام ١٥٤٩ ، وهي طبقة تألفت من مزارعين يستثمرون الاراضي التي استأجروها او اكتروها
من مالكيها ، فراح هؤلاء ينتزعونها منهم بالقوة والمنف ويحولونها الى مراع خضراء ترقدها
قطعان الغنم طمعاً باصوافها . وهكذا نرى كيف ان احتياجات رجال المال وصراع الطبقات
بعضها مع بعض ساعد كثيراً على تقوية جانب الملكية وبالتالي على ترسيخ الحكم المطلق في
البلاد .

تمكن هنري الثامن وخلفاؤه من تأمين موارد لهم يفرض قروض الزامية على السكان وحملهم على التبرع لخزينة الدولة ، او بفرض رسوم جركية جديدة وذلك باصدارهم قرارات جديدة اصبحت ملازمة بمجرد اعلانها ، وهي طريقة حازت قبول البرلمان فاقرها واعترف بقانونيتها الدستورية ، بين ١٥٣٩ - ١٥٤٩ ، وفرضت بمراسيم اتخذت في مجلس الملك . وارغم الفرع القضائي التابع لهذا المجلس ، والمعروف بالمجلس المرصع بالنجوم ، الذي اعيد تنظيمه عام ١٤١٧ ثم المستشار وولسي بعده ، عام ١٥١٧ ، كل من تجرأ على الانتقاص من الامتيازات الملكية ، كمديري الأمن وقضاة الصلح واي انجليزي آخر على الخضوع للملك وعلى الامتناع لارادته السنية . وقد ساعد مجلس الملك الخاص ، بعد ان تم تركيزه نهائياً عام ١٥٤٠ ، على تركيز الوحدة الوطنية ، باشراقة على المجالس والهيئات الخاصة الاخرى وتوجيهها . والبرلمانات التي قلما دعيت للاجتماع ، كانت دوماً طوع البنان ، بعد ان اخذ الملك يُعيّن ، هو نفسه ، اسما المرشحين لانتخابات مجلس العموم ، اما مجلس الاعيان او اللوردات ، فقد حل محل رؤساء الاديار الذين كانوا اعضاء فيه ، الاساقفة الذين يجري تعيينهم من قبل الملك .

بلغ الحكم الاستبدادي ذروقه في انكلترا ، في عهد الملكة اليصابات التي احسنت الى اقصى حد ، هذه الاساليب بالذات التي اتينا على وصفها . فقد راحت محكمة العدل العليا (١٥٨٣) تحكم وتصدر احكامها دون اللجوء الى محكمين ، على كل من يحاول الانتقاص من سلطة الملكة السامية او من حق ولايتها (قانون ١٥٥٩) . ونظار الدولة اصبحت بالفعل وزراء . منهم مثلاً ولیم تسل الذي عين عام ١٥٧١ ، لورد بورلاي ، وقام اذ ذاك بدور فعال . وراحت الحكومة الملكية تنهج سياسة تجارية فتتدخل باستمرار بحياة البلاد الاقتصادية ، تشجيعاً منها للنشاطات الفردية . ولما كانت الدولة تعيش تحت كابوس الغزو الاسباني المدام ، فقد اخذت الحكومة تنمي ، الى اقصى حد ، مواردها العامة ووسائل دفاعها ، كالبحرية والصناعات الحربية التي يقتضيها النهوض بآلة الحرب . فالجوائز التشجيعية التي خصصت لبناء السفن الجديدة ، والقوانين التي ألزمت الناس التمويل ، في معيشتهم ، على استهلاك السمك ، وقانون الملاحة الذي صدر عام ١٥٥٩ ، والرسوم الجركية الجديدة التي اصاب البضائع المستوردة على سفن اجنبية ، وانشاء شركات تجارية ذات طابع احتكاري ، والمنافسة الشديدة ضد التجار الهانزا ، كل هذه التدابير والاجراءات ، كان من شأنها ان تؤمن للبلاد حاجتها من السفن والبحارة والتجارة . فقد أدى المرسوم الذي صدر عام ١٥٦٣ بصدد العمل والعمال ، الى تأمين الاستقرار في اليد العاملة ، وساعد كثيراً على توسيع التدريب المهني والمسلكي للبحارة ووضع الحدود التي تميز بين مهني الحرف والرأسماليين . ان انشاء الاحتكارات والشركات التجارية الجديدة ، والعمل على توطيد جاليات اجنبية دخلت البلاد هرباً من الضغط الديني الذي تعرضت في القارة ، بعد ان اغدقت عليها الاعفاءات والانعامات المشجعة ، كل ذلك ساعد كثيراً على انشاء صناعات جديدة ، بينها ، في الدرجة الاولى ، تلك التي تؤمن للبلاد حاجاتها الملحة من

حكامها ومدنها من رغبة شديدة وتوق ظاهر للاستقلال الناجز . وبفضل حماية أولى الامر فيها للتجار من عداة النقابات المهنية ومعلمي الحرف ، انتصر فيها النظام الرأسمالي واستعملت فتقوت على مدينة بروج وتمكنت من إنشاء شبه وحدة اقتصادية من البلاد الواطية بعد ان عرفت كيف تجعل من سكان هذه المقاطعات ، في الوقت نفسه متعديها وزبائن لها . فقامت فيها بروجوازية رأسمالية شغفت بحرية التجارة ونبضت بروح الفردية الاقتصادية . وبالتالي اعتنقت مبدأ المركزية الملكية ضد هذه النزعات والمطالب المحلية ، فتغلبت بذلك ، على بروجوازية النقابات في المدن . وقامت في وجه هؤلاء البورجوازيين ذوي التأثير البعيد الذين يحيون حياة الرفاه والبذخ ، طبقة النبلاء التي ، رغبة منها في التميز عنهم ، وحرصاً منها على الاحتفاظ بتساميها الاجتماعي ، راحت تحتفظ لنفسها بالوظائف العامة وبهذه الشارات المميزة والوسمة الشرفية التي يقدحها الامير . ومن جهة اخرى ، فالازدهار الذي عرفته النهضة الانسانية والفنية في هذه البلاد بعد الازدهار الاقتصادي الذي تجلّى فيها وعم جميع المرافق ، شجع كثيراً الروح الفردية والرغبة في التحكم بهذه الفئات المحلية والنزعات المتضاربة التي تجيش فيها ، وهي مطالب ونزعات لا يمكن تحقيقها الا على يد امير قوي الجانب ، شديد الشكيمة . ان اقتباسهم لمبادئ الحق الروماني وتقديسهم لها جعل نفوساً كثيرة تتشبع بمبادئ الحكم المطلق . فراح شارل ده غنت ، اذ ذاك ، الذي عرف فيما بعد باسم شارل الخامس والذي كان حاكماً عاماً على البلاد عام ١٥١٦ ، يحاول التمكين للعناصر والعوامل التي من شأنها ان تساعد على ترسيخ اسباب الحكم المطلق في البلاد . فقد عين في كل ولاية ممثلين مباشرين لذلك ، منهم حاكم عام لاصلاحيات محددة له ، ومجلس للقضاء او مجلس عدل ، وفي بعض الاحيان ، مجلس محاسبة ، كما عين في المدن والبلديات ، قضاة كثيراً ما حاولوا إدخال اصلاحات على المجالس البلدية وملاً الوظائف البلدية بموظفين اخذهم من بين كبار البورجوازيين ، لهم من تربيتهم ومن مصالحهم الشخصية ما يجعلهم متجانسين مع حاكم الولاية . واخذ الامير شارل ، اذ ذاك ، يحاول ربط الولاية بالحكومة المركزية . لتولي الحكم في البلاد ، وصية على العرش ، يساعدوا في الادارة مجلس لم يلبث ان تشعب وانقسم كما حدث في فرنسا ، الى ثلاث شعب كل شعب تخصصت بناحية : مجلس شورى الدولة للنظر في الامور السياسية ، اعضاءه من النبلاء ، المجلس الخاص او مجلس المعية ، والمجلس المالي ، اعضاءه من رجال الفقه والقانون يؤتى بهم من الطبقة البورجوازية او من بين صفار النبلاء ، يتولون اعمال القضاء والادارة (١٥٣١) ثم الزم الامير شارل الولايات بارسال ممثلين عنها للمجالس العامة . واخيراً شكل عام ١٥٤٧ ، جيشاً دائماً ، ملاكه من النبلاء ، يتعهد مرتباتهم ويعترفون له بالولاء . ويتدخل موظفوه في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، فينظمون اعمال المظاهرات المالية والبورصة ، والمستودعات الملكية والاسعاف العام ، ويسجلون الاعراف والعادات والتقاليد المرحية ، ويجرون العدل وفقاً لاحكام القانون الروماني . وهكذا جعلت هذه التشريعات المشتركة ، من هذه الولايات السبع عشرة ، وحدة متماسكة لم تلبث ان جاشت فيها الروح القومية .

ولكن هنالك حكماً استبدادياً قائم بالفعل، ولكن لا وجود قانوني له . فلم يتمكن شارل من فرض رسوم وضرائب مستقرة كما يشاء ويرغب ، يستعمل ريعها بعد جبايتها ، كما يحلو له . غير ان المجالس التمثيلية تحرص دوماً على اثبات حقها باقرارها ، مع العلم ان فرض الضرائب هو مفتاح النظام السياسي . ولم يمضِ طويل وقت حتى جعلت البورجوازية ، بعد الازدهار الذي عرفته ، الحكم الاستبدادي لا يحتمل . ففترة الحكم المطلق التي وقعت بين عهد الاقطاع وعهد البورجوازية ، جاءت هنا ، قصيرة للغاية . فنظام الحكم المطلق لم يستطع ان يمتد جذوره قانوناً .

الامة ضد الملك حزم الملك فيليب الثاني (١٥٥٥-١٥٩٨) ابن شارل الخامس وخليفته على عرش اسبانيا ، امره على ان يجعل من البلاد الواطية مملكة اساس الادارة فيها ، الحكم المطلق شرعاً ، تتيج له بما تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز وما لها من موارد طبيعية غنية ان يسيطر منها على اوروبا جمعاء . فبات محاولته هذه بالفشل . فقد آذت الحكومة الاسبانية هذه البلاد ، والحقت بها الضرر ، عندما راحت تحاول تنظيم مرافقها الاقتصادية لما فيه مصلحتها الخاصة ، ويخدم امنها في الدرجة الاولى . وفي هذا السبيل اصدرت فيما اصدرت من قرارات امراً بمضاعفة البحارة في السفن ، مما ادّى الى ارتفاع كلفة البضائع . وقد زادت هذه التدابير فداحة ، إثر الافلاس الذي اصاب الحكومة الاسبانية عام ١٥٥٧ ، فتضرت من جميع على السواء . فمن الطبيعي جداً ان تسم ازمة اقتصادية على هذا النطاق ، الحواطر ضد الحكومة ، وتحمل الجميع على ان يتبينوا بالمحسوس مساوى الحكم وان يحسوا على الادارة اسباب الشكوى التي يتذمرون منها .

فقد أثار فيليب الثاني ذاته المعارضة ، وأهاجها عندما عبث بالتوازن القائم بين طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية لحساب الاخيرة . فقد عين ، قبل مغادرته البلاد الى اسبانيا ، الى جانب الوصية على العرش مارغريت ده بارم ، لجنة تتألف من ثلاثة بورجوازيين بينهم غرانفيل من مقاطعة فرانكس كونتية . فما كان من هذه اللجنة شبه الرسمية إلا ، ان قامت تحتكر كل الاشغال والمشروعات المهمة بعد ان ألغت مجلس شورى الدولة ، مما انتقص كثيراً من شأن النبلاء ، وحط من قدرهم بعد الذي قاسوه من عقابيل الازمة الاقتصادية ، وتناجى الوخيمة عندما راحوا يستغلون اخلاكم على الطريقة التي انتهجها الرأسماليون ويقومون بمضاربات مالية في البورصة ويتطعمون بطباع البورجوازية ، بالرغم من الاحتقار الذي يحملونه في صدورهم لهذه البورجوازية ، وقد رفضوا ان يجلسوا في مجلس شورى الدولة ، مع غرانفيل الذي كان عضواً فيه معهم . فانطلقت الثورة وعلى رأسهم كبار النبلاء .

فلم يعتنق البورجوازيون قضية الملك فيليب بل تحلوا عنه بالاجماع . فالملك لم يعد يمثل ، في نظرم ، المثل الوطنية ولا المطالب القومية . وبالرغم من انه اسباني ، فقد بدا ، في اعينهم ،

غريباً عنهم وعن بلادهم ، يستخدم الرسوم التي يجيئها من اهل البلاد لاغراض لا تمت لاهلها ولمصالح البلاد بسبب . فالحاميات الإنسانية ، وهذه الحكومة الارهابية التي حكمت البلاد بالسوط ، بين ١٥٦٧ - ١٥٧٣ ، برئاسة دوق ألبا ، زادت الاهلين نفوراً من شموخ الاسبان بانوفهم وبمعجزتهم وقسوتهم وفضاظتهم ، ومن مظاهر هذه التقوى المصطنعة وفساد اخلاقهم . ثم ان السياسة الدينية التي سار عليها الملك وجعلته يخضع كل شيء لمصلحة الدين ، اقلقت خواطر الكاثوليك في هذه البلاد ، بالرغم مما كانوا عليه وما عرفوا به من فتور ديني ، وتسامح واغضاء وتجاوز ، في بلاد تعيش في سعة ويحيش اهلها بمثل النهضة ، كان من مصلحتهم الاولى ان يحسنوا وفادة الوافدين عليهم ، مهما كان لونهم او دينهم . ومن جهة اخرى ، فقد حلم الكلفينيون الذين اشتد ساعدهم في البلاد منذ عام ١٥٤٣ ان يؤسسوا فيها دولة بروتستانتية ، وبرهنوا ، بالمحسوس ، على انهم ثوريون ، وانهم اعداء ألداء للملك الكاثوليكي . وقد راح دوق ألبا يسدد للبلاد ضربته الاخيرة عندما حاول تطبيق الحكم المطلق الاكمل بفرضه ضرائب ثابتة على كل المعاملات التجارية (١٥٧١) كما اوقع الشلل في حركة الاعمال وأربكها . فاشتد البؤس في البلاد ، وقامت فيها حرب اهلية سارت فيها الثورة سيرها الطبيعي ، للانتقال بالبلاد من حكم مطلق ، مستبد ، مرهق ، الى نظام بورجوازي . فبعد ثورة النبلاء ، قامت ثورة البورجوازيين ، ثم تلتها الثورة الديموقراطية التي اعقبتها ردة فعل بورجوازية .

الدولة البورجوازية
المستورية والاتحادية المتحررة

خلقت الثورة ، في البلاد الواطية ، في اول الامر ، دولة بورجوازية ، دستورية ، اتحادية ، متحررة . فند ١٥٧٢ ، شكل الكلفينيون فيها دولة كلفينية ، تعزلها من الشمال دلتا هولندا وزيلاندا ، وانتخب رئيساً لها الامير غليوم دورانج . واضفى الكلفينيون الفرنسيون الذين التجأوا الى جوار الامير عليها صبغة خاصة كما انهم مهروها بطابع سياسي خاص ، اذ راحوا يعلّمون ان السلطة يعطيها الله الشعب الذي يمهّد بدوره بهذه السلطة الى ملك ، يحتفظ بالملك ان هو احسن السياسة وامتنل لاحكام الشريعة الوضعية والطبيعية على السواء ، والا جرّده الشعب من هذه الكرامة التي أعطيت له ، ونزع عنه ما أوتي من سلطة وسلطان ، ان لم يكن بطريقة مباشرة فبواسطة حكامه وقضاة وقد اتقنوا ، في البلاد الواطية ، تحريك مجالس التمثيل ، ودفعوها للعمل ، ان هذه البلاد لم تعد مجرد ولايات متراففة الواحدة منها مع الاخرى ، بل دولة واحدة موحدة . وهكذا حلت نظرية الحقوق الطبيعية العقلانية ، محل التقاليد والاعراف والحقوق التاريخية المكتسبة والانعامات والاعفاءات التي أقسم الملك على نفسه باحترامها ، والتي كانت تعبيراً او تبريراً لهذه النتائج التي أفضى اليها التطور الذي بعثته في البلاد كل من الرأسمالية والملكية المستبدة . فبورجوازية المستنيرين التي تعالت من الموظفين والحامين لقيت قبولا في الازدهان . وفي ١٩ تشرين الاول ١٥٧٦ ، تشكل في البلاد ، مجلس الممثلين واتخذ لم صفة الملك ، واعلن بقرار اتخذه ، يعرف بقرار التهدة ، صدر في مدينة غنت ، ظهور دولة جديدة

تقوم على هذه المبادئ والاسس .

الدكتاتورية الشعبية الكلفينية
الا ان المحاولات والاتصالات التي تمت للوصول الى تفاهم
بين الكاثوليك والملك فيليب ، اقلقت بال امير غليوم
دورانج وخواطر الكلفينيين معاً ، فراحوا يستغلون البؤس الذي تسكن فيه العمال ورجال
الصناعات اليدوية في بلد دهكتها الحروب وجرت عليها الخراب والدمار . فراحوا ينشرون على
الناس نشرات تثير حفاظ الشعب وتذكي حقدته ضد كل سلطة ، ولا سيما ضد سلطة الكنيسة
بعد ان رمتها بكل قريرة ، وما اخذت عليها من مؤاخذات في ما تم لها من ثراء وغنى ، وضد
سياسة الملك الكاثوليكي التي شجبتها . وبما ان الله هو الذي يستودع الشعب السلطة ، فقد
عرف هذا الاخير ان يستغل ما في هذا المبدأ من نتائج . وفي آب ١٥٧٧ ، تألفت لجنة الثانية
عشر عضواً ، في بروكسل وقررت انشاء حكومة ديموقراطية استبدادية ، فرضت دكتاتورية ،
الشعب على المجلس التمثيلي . وهكذا تلبس الشعب حلة دكتاتور في شخص امير دورانج الذي
أطلق على الناس وهم رُكع ، سُجّد ، يشهبون فرحاً وغبطة كأن الله نفسه يجتاز شوارع
المدينة . واخذ هذا النظام الديموقراطي يسري بين الناس ويمتد من مدينة الى اخرى ، في
الوسط من البلاد الواطية وجنوبها .

وكان من فظاظة التعديلات على الملكية ان أثارت الرعب والهلع في قلوب البورجوازيين
والنبلاء ، على السواء ، فتمنوا ، ان يقوم في البلاد ، سلطة قوية ، بعد الذي رأوا ما رأوه
من سلب الكنائس وانتهاك الاديار والتعديلات السافرة على الكهنة والرهبان مما أثار الحفاظ
وايقظ المشاعر الدينية في النفوس ، وفتح الباب واسماً امام اليسوعيين للقيام بحملة وعظ
وارشاد وتوعية وايقاظ ، واحتل الاهتمام بالكتلثة ومصيرها المحل الاول من اهتمام الناس ،
بعد ان عم الخراب البلاد من جراء الحرب ومن نهب مدينة أنقرس بالذات (١٥٧٦) والحصار
البحري الذي فرضه الثوار في الشمال ، على مصب نهر الاسكو ، ومنافسة كل من هولندا
وزيلاندا ، ومعظم سكانها من التجار الكلفينيين الذين فروا من الجنوب ، واخذ النشاط التجاري
في هاتين المقاطعتين ، يحل تدريجياً محل أنقرس .

القطيعة بين الشمال والجنوب
انشقت البلاد الواطية على نفسها دولتين . وفجأة اخذ النبلاء
والبورجوازيون ، في المقاطعات الجنوبية يتخلصون من
الديموقراطيين ، فالفوا ، عام ١٥٧٩ ، اتحاد أراس ، بينا ألف الكلفينيون ، في الشمال :
« اتحاد اوترخت » . واستطاع الحاكم العام فارنيز ان يوفق بين اتحاد اراس وملك اسبانيا الذي
تخلّى ، ولو بصورة مؤقتة ، عن سياسته الاستبدادية ، وهكذا تمكن من ان يسترجع ، تدريجياً
الولايات العشر الواقعة في الجنوب والتي يتألف القسم الوسط منها من سهول رسوبية ، فكانت
مجازاً او عمراً ممتازاً للجيوش المتحاربة في مناوراتها وما تقوم به من حركات الكر والفر . اما

في الشمال ، فقد ألقت الولايات الواقعة عند الدلتا كياناً مستقلاً بعد ان اطمأنت الى ما يؤمن مصيرها من جهة الجنوب ، في هذه الترع والخلجان والقنوات النهرية التي تعزلها عن الجنوب وما اليها من غياض وبطائح ومستنقعات تؤلف شبكة صعبة الاجتياز ، وامكانية اغراق البلاد عند اول خطر مدام يطل في الافق ، وسيطرتها على البحر . فالاختلاف في الدين ، والدمار الذي انزلته بالبلاد الجيوش المتحاربة ، والمنافسة الاقتصادية ، كل ذلك ، زاد في شقة الخلاف بين القوميتين وبعاد بينهما .

حاول فيليب الثاني ، عام ١٥٩٨ ، ان يعيد الوحدة الى البلاد ويؤلف بين الشطرين المتقسمين . وفي هذا السبيل ، منح البلاد الواطية ولو ظاهرياً ، استقلالاً ادارياً ، تحت ادارة الارشيدوق البرت وايزابيل اللذين استقبلها الجنوب واحسن وفادتها واعترف بسلطتها . اما الشمال ، فالتجه الوجهة التي يقتضيها مصير الدولة البورجوازية الانجليزية ، الاتحادية ، المتحررة التي قامت فيه . ولم يعم الجنوب ان استحال قطراً يخضع للاستبداد .

٤ - ملكيات القرون الوسطى

خلافاً لهذه البلدان التي استعرضنا لها ، بقيت الممالك التي لم تبرز منها طبقة بورجوازية قوية الجانب ، في وضع ادنى بكثير من الوضع الذي تم للملكيات المستبدة .

اعلنت بولونيا نفسها جمهورية ارستوقراطية برئاسة ملك ، في عهد آخر ملوك دولة يابلتون ، جان البير الاول (١٤٩٢ - ١٥٠١) واسكندر الاول (١٥٠١ - ١٥٠٦) وسجسموند الاول (١٥٠٦ - ١٥٤٨) وسجسموند الثاني اوغسطس (١٥٤٨ - ١٥٧٢) ثم في عهد هنري ده فالوا الذي سيصبح ، فيما بعد ، ملكاً على فرنسا ، باسم هنري الثالث (ايار ١٥٧٣ - حزيران ١٥٧٤) ، ثم اسطفان باثوري (١٥٧٦ - ١٥٨٦) وسجسموند الثالث فاسا .

ومن الحكومة وعجزها بولونيا دولة قبايئت فيها العناصر والعروق والاجناس التي تشكلت منها ، وهي عناصر يمكن ردها الى اربعة رئيسية : المملكة وهي منها النواة المستقطبة ، وليتوانيا ، وبروسيا الملكية وبروسيا الدوقية ، وهي عناصر تألفت منها وحدة هشة تحت سلطة ملك 'مشتراك' . كان هذا الملك يُنتخب انتخاباً ، كثيراً ما ادت عملية انتخابه الى حروب ومناوشات ، كما حدث ، مثلاً ، عام ١٥٨٧ ، على اثر وفاة الملك اسطفان باثوري . فالجلاس التمثيلية (الدييت) التي لم تكن غير طبقة النبلاء ممثلة فيها ، كانت الهيئة القانونية التي تقر القوانين الجديدة ، وتحدد الضرائب ، التي لا بد منها لتغطية نفقات الجيش ، ومثل هذه القرارات يجب ان تؤخذ بالاجماع . فليس تحت تصرف الملك جيش ولا بيت مال ولا عنده اية هيئة ادارية . فهو يعيش من ريع املاكه السيادية ويدفع من وارداتها نفقات الدولة . فخير ما يقال فيه انه الاول بين الاسياد . فهذا

النظام الملكي الموسوم بطابع الاجيال الوسطى ، لم يكتب له ان يرتقي ويتطور الى نظام ملكي مطلق ، مستبد .

وسر ذلك ان البورجوازية لم تظهر في بولونيا ، باستثناء بعض الامانات تسلط الارستوقراطية الذين كانوا يقيمون في عدد من مدنها الرئيسية . والنشاط التجاري الحربي بالملاحظة في هذه البلاد الواقعة على اطراف اوروبا الشمالية ، قام على تصدير القمح . فطلب الحبوب من الغرب ، لم يكن في مقدور احد ان يلبيه ، سوى كبار الارستوقراطيين لما لهم من الاطيان والاملاك الواسعة . فبدلاً من رؤوس الاموال التي افقتروا اليها ، راحوا يستخرون اليد العاملة ، وليزيدوا من غلاتهم ومحاصيلهم الزراعية ، اخذوا يعملون ، اكثر فأكثر ، على الفلاحين العاملين عندهم . وامعانا منهم في تسخير هؤلاء الفلاحين ، ورغبة منهم في انهاء المحاصيل راحوا يحدون من سلطة الملك ومن صلاحياته كما ضحتوا بالطبقات الاجتماعية الاخرى . فانتخاب الملك الذي كان يفرض على المرشحين التزامات وقبودا ، وعجز الملوك على مجابهة كبار الارستوقراطية لهؤلاء النبلاء الفقراء الذين لم يكن لهم ما للبورجوازية ، في الغرب ، من شكيمة وطول باع ، كل ذلك ساعد على توطيد المشاريع والخطط التي يضمها كبار الاشراف في البلاد .

فمنذ ان اعتلى جان الاول البير العرش ، صدرت قوانين عام ١٤٩٣ - ١٤٩٦ ، تحد جداً من حرية المزارعين والفلاحين على التنقل ، وأعطى للسيد الحق بالاحتفاظ بهم في املاكه واراضيه واجبارهم على العمل فيها . فهو يمثلهم في القضاء وهو مرجعهم الاول في اقصيتهم ، ولذا كانت يحول بينهم وبين القضاء الملكي الذي لم يكن يطالهم بشيء . فهو سيد هؤلاء الناس ورئيسهم المطلق . وفي سنة ١٥٢٠ - ١٥٢١ ، قرر مجلس الدييت ، ربط الفلاحين بالارض واجبارهم على الشغل فيها وحرثها ، كما خول الاسياد حق استملاك الهبئات الريفية . والبلديات فقدت ما كانت تتمتع به من استقلال اداري وقضائي ، فأخضعت لقضاء الاشراف والنبلاء الذي اصبحوا أسياداً لهم مطلق السلطة على اراضيهم ومن عليها .

وفي سنة ١٤٩٣ ، و ١٤٩٦ ، تقرر اعفاء النبلاء من الرسوم الجمركية ومن الفوائد الخاصة ببيت المال . وتحظر على البورجوازيين دخول الوظائف العسكرية ، كما سدت في وجوههم ابواب المراكز الدينية العليا التي اصبحت وفقاً على النبلاء وحدهم . وفي عهد الملك سجموند اوغسطس ، ولكي يتمكن النبلاء من الحصول ، بارخص الاسعار ، على ادوات البذخ المصنوعة في الخارج ، اعلنوا ، بعد عام ١٥٦٤ ، مبدأ حرية التبادل التجاري المطلق . ولم تقوَ الصناعة الوطنية على الوقوف بثبات في وجه المنافسة التي تتعرض لها من الخارج ، فذبلت وماتت . وأرغم التجار على التقيد بالسعر الاعلى ، وحظر عليهم الانتقال للخارج للاستبضاع والامتيار ، اذ فضل النبلاء الحصول على ما يرغبون فيه ، من متعهدين أجانب يفدون على البلاد لشراء الحنطة

وغير ذلك من محاصيل الارض . ان احتلال الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، عام ١٤٥٣ ، والتنازل للمقاطعات المطلة على البحر الاسود ، قطع على البولونيين الطرق التجارية المؤدية الى الجنوب ، وسدت في وجوههم ، من هذه الناحية أبواب الرزق . وهكذا قامت المراقيل في وجه التجارة البولونية من كل صوب . فلا عجب ، بعد هذا الا تستطيع البورجوازية ان تنمو وتزدهر بعد ان ضيق عليها النبلاء الانفاس على مثل هذا النحو .

وفي السنوات ١٤٩٣ و ١٤٩٦ ، نال النبلاء حق تشكيل مجالس اقليمية (*dioceses*) لتحديد الضرائب التي يجب جبايتها في حال قيام الحرب . فاصدرت هذه المجالس تعليماتها المشددة لممثليها في مجلس الدييت للوقوف الموقف الذي تليه عليهم مصلحة المقاطعة . فتبقى هي حرة في رفض او قبول القرارات التي تصدر عنها . وهكذا رجحت المصلحة المحلية والمنفعة الآنية على المصلحة العامة . والانعام الذي اصدره ميالنيك (١٥٠١) زاد كثيراً من سلطة مجلس الشيوخ او مجلس الملك الذي تألف من اساقفة ومن كبار الموظفين الاشراف . وقد كان على الملك ان يترسم ارشاداتهم وان يتقيد بتوجيهاتهم وان يقضي في العدل كما يشاؤون والا رأوا انفسهم في حل من قسم الولاء الذي أقسموا . فمجلس الشيوخ يحتفظ بالتاج وبالشارات الملكية ويصدر الى الحكام التعليمات . والقانون الاساسي الذي صدر عام ١٥٠٥ ، بعنوان : « ليس من جديد *Nihil novi* » حظّر على الملك اتخاذ أي قرار او تدبير جديد دون موافقة مجلس الشيوخ وممثلي الملحقات . ففي عهد الملك سيجسموند الاول نص الدستور *Laesae Majestatis* « التعدي على ذات الجلالة » على وجوب احترام حرمة اعضاء مجلس الشيوخ ونواب الامة في الدييت . فمجلس الشيوخ يمارس سلطات الملك . فالملك هو بالفعل معتزل الحكم ، وفي سنة ١٥٧٣ ، صدر القانون *Pacta Conventa* الذي حظّر على الملك هنري ده فالوا ، اعلان الحرب أو عقد السلام بدون موافقة مجلس الشيوخ او اصدار أمر بحشد الجيش وفرض التبعة بدون موافقة مجلس الدييت ، وأن يستعين ، في الادارة والحكم ، بمجلس من ١٦ عضواً من اعضاء مجلس الشيوخ ، وان يدعو مجلس الدييت للاجتماع كل سنتين . فاذا ما خالف هذه الشروط كان رعاياه في حلّ من كل طاعة وولاء . وفي سنة ١٥٩٢ ، اخضعت لجنة تحقيق خاصة ، شخص الملك بالذات والقرارات التي يصدرها ، لتحقيق دقيق .

وفي الوقت ذاته ضعف الشعور بالخطر الخارجي فرفض مجلس الدييت ، اعضاء الامة مراراً ، سنة ١٥١٢ ، و ١٥١٤ ، و ١٥٢٧ ، فرض ضرائب في سبيل انشاء جيش دائم ، مكتفياً من ذلك بحشد عام للنبلاء . وترك الملك الحرية التامة لالبرت براندنبورغ الرئيس الاعلى للفرسان التوتون ان يتكلمن ويتخلى عن الحياة الرهبانية ، ويعتنق البروتستانتية ويعلن نفسه أميراً وراثياً لبروسيا خاضعاً للتبعية البولونية (١٥٢٩) . وهكذا أطلت بروسيا على الحياة واحتلت موضعها تحت الشمس . وفي ١٥٢٦ ، وضعت للنساء يدها على هنغاريا وعلى بوهيميا كما راحت دوقية موسكو توسع من نطاقها وتحصن ، فلم يعد للملك

بولونيا ، في هذه المنطقة محل من الاعراب ، وفقد كل شأن بين المسيحيين . وبالرغم من إرسال بروسيا الملكية من يمثلها في مجلس الدييت البولوني ، وبالرغم من ان ليتوانيا حذت حذوها مع احتفاظها بموظفيها وماليتها وجيشها المستقل ، ومع ان بروسيا الدوقية كانت تجدد من ولائها وتستمر على تبعيةها لها ، فقد اامت بولونيا دولة ضعيفة الجانب ، لا حصون لها ولا قلاع ، ولا جيش لها تقريبا يتولى الدفاع عنها ، فقد اختنقت وماتت من فرط الحرية .

ولعل من يقوم ويحتج على هذا القول ، بموقف روسيا . هذه الدولة النصف موسكويا الآسيوية التي لها من العرق المسيطر فيها ، ومن الديانة الارثوذكسية التي عليها سواد الشعب الاعظم ، والعداء الازرق الذي تجيش به ضد الكفرة ما جعلها احدى دول اورميا . فقد اصارها التطور الذي مرت به في القرن السادس عشر ، مملكة مستبدة الحكم ، مطلقة السلطان ، مع ان البورجوازية فيها كانت مستضعفة الجانب ، عاجزة تماما عن الوقوف بوجه طبقة النبلاء دون ان تبالي للامر قيد شعرة .

فاذا ما قام هنا من شدة عن القاعدة التي اتخذناها قاسماً مشتركاً للظروف التي أحاطت بظهور المملكة المستبدة والحكم المطلق افلا يكون ذلك دليلاً على بطلان القضية وعدم صحتها فتسقط من نفسها ؟ .

في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) برزت روسيا دولة معزولة ، روسيا بلد ريفي منزل لا تطل مباشرة على اي بحر من بحار اوروبا ، باستثناء البحار الشمالية المتجمدة ، حشرت رقعتها حشراً بين اعدائها التتار من جهة ، وبين جيران اوروبيين من الغرب ، عرفوا هم ايضاً بعدائهم لها ، من جهة ثانية . فبولونيا وليتوانيا ومدن الاتحاد الهانزا (ريفيل وريفا) كلها تقف سداً لتعرقل حركة دخول البضائع والفنيين الاوروبيين اليها ، فحاولوا عمداً ، دون اقتباس الروس ، الذين أنزلوا منزلة اعداء تقليديين لكل الدول الحرة ، لوسائل التسليح المعروفة في الغرب او تسهيل نقل افانينهم الحربية اليها .

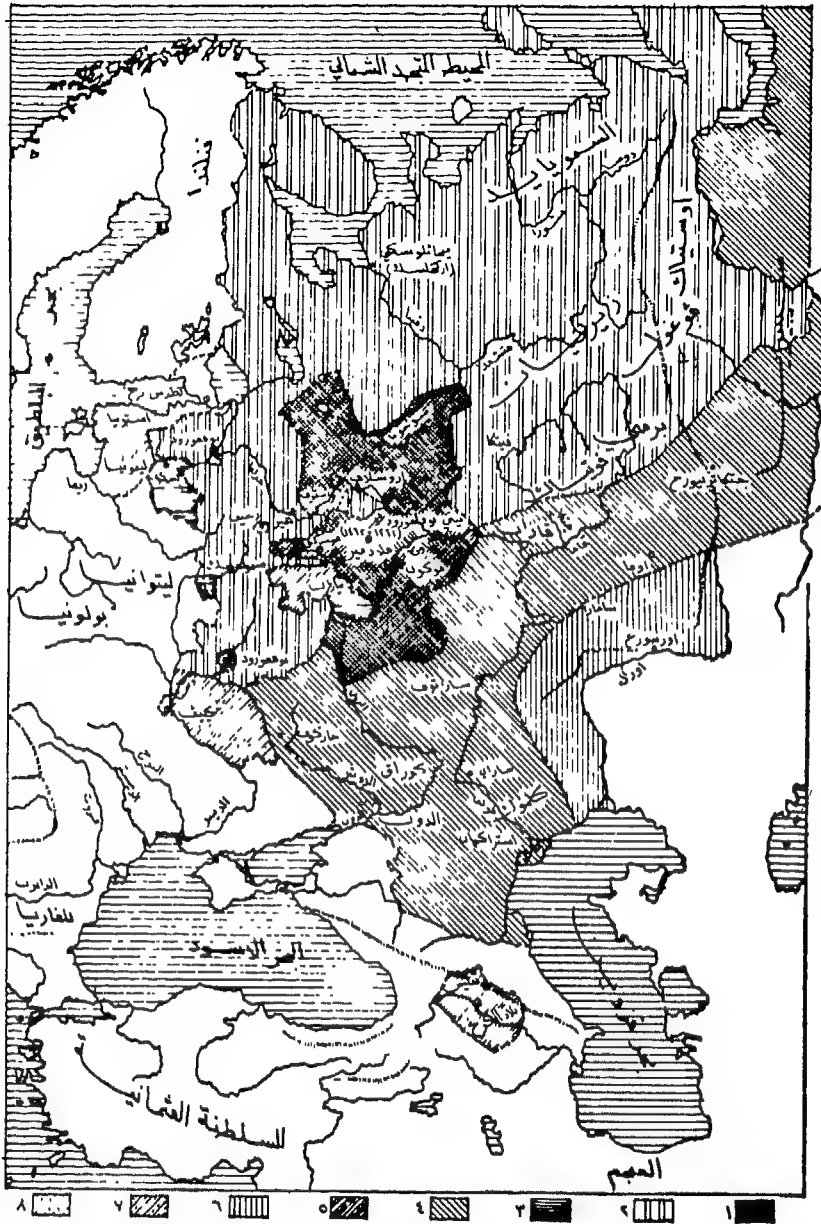
روسيا بلاد زراعية في الصميم ، ينصرف فيها الفلاحون ، وعددهم فيها نادر قليل ، ومعظمهم يقيمون جماعات في قرى ودساكر من ١٠ - ٤٠ منزلاً ويستسلمون لزراعة الحبوب على نطاق ضيق يتفق ووسائلهم البدائية . فقد ساروا في فلاحتهم وزراعتهم على نظام التحويل الثلاثي بحيث تستريح الارض سنتين قبل ان تزرع في الثالثة ، او انهم اعتمدون نظام الغابات المعروفة فيتاح لهم استثمار الارض التي انكشفت تربتها بعد احتراق شجرها . فالمحاصيل الزراعية والغلل فيها ضعيفة . اما المدن وعددها لم يكن ليتجاوز الستين ، سنة ١٤٩٧ ، فهي عبارة عن مجتمعات 'مسورة' ، واسواق تجارية ريفية الطابع ، في وسطها مراعى خضراء ومروج . اما التجارة فضيقة ، تقوم اساساً على الترانزيت ، اي المقايضة بمحاصيل نادرة وغالية الثمن بكميات

محدودة ، كالأحجار الثمينة ، وإسلاك الذهب والابرز وعقاقير طبية وتوابل يؤتى بها من الشرق ، وفراء ، وعسل وشمع في طريقها الى الغرب ، وأجواخ ثمينة وقصدير من انفرس ، ودانتيسلا والأسلحة على أنواعها ، في طريقها نحو الشرق . والمراكز القلبية فيها هي مدن مستقلة أمثال نوفغورود الكبرى ، إحدى المدن الداخلة في اتحاد الهانزا التجاري ، ومدينة بسكوف . أما التجارة ، فنشاطها محصور ضمن دكاكين صغيرة ، ومعظم الصناعيين يعملون فرادى والبورجوازيون فيها قلة هم ، فقراء ، لا حول لهم ولا طول ولا قوة .

هذه المدن والقرى تقوم ، على الغالب ، في وسط أملاك كبار الملاكين ، علمانيين كانوا أم كليريكيين من رجال الكنيسة ، تنافرت حباتها كالسلك النظيم ، على مجاري الأنهر أو على معالم الطرق . فتعلق الإنسان بها واستقراره فيها ، واه ، يعد أن كان لصاحب الأرض السلطة المطلقة على أرضه وعلى ما قام فيها أو عليها . ومعظم هذه الأملاك تنعم بإعفاءات واسعة ، وهي بأمن من تدخل موظفي الإمارة ، لا ضرائب ترهقها ولا خدمات تؤذيها الأمير . وهكذا حل كبار الملاكين محل موظفي الأمير وهم قلة صغيرة . ففي حالة عدم توفر الناس والموارد اللازمة للدولة ، كان كبار الملاكين يمارسون قسماً من صلاحيات الأمير لقاء إسقاط ما يستحق له عليهم من فوائد ورسوم .

وكل إمارة تتألف من أملاك الأمير ، ومن أسياد الأرض وأراض ذات «تربة سوداء» اختصها الأمير لنفسه ، ومهد لها وسائل الاتصال بها والنقل ، أقامت فيها جماعات حرة تسام بأمور الدفاع بما تقدمه للأمير من عوائد وخدمات . ويقوم بتمثيل الأمير ، خارج أملاكه ، في المدن ، ممثلون يعرفون بـ *Namestniki* ، وفي المقاطعات الريفية عرفوا بـ *Volosteli* . وكلا الفريقين يجري انتقاؤهم من بين أتباع الملك ، وهم رجال حرب ، اعترفوا بولايتهم له بالجثو أمامه . كانت معظمهم إشراف من أصحاب الأراضي أو سراق ضعاف الجانب ، أو من طبقات دنيا مالوا لمهنة الحرب . وهؤلاء الاتباع لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما قام منها على أمثالهم ، في الغرب . وهم يتطوعون بحرية أكبر على خدمة السيد الذي اختارهم لخدمته والعمل في أرضه .

الأمير الأول في روسيا هو بالطبع ، كبير الأمراء في موسكو
النجاح الذي أصابه أمير موسكو هذه المدينة الواقعة في منأى من الطرقات التي يتبعها الغزاة ، تحميها وتخفيها عن العيون غابات ظليلة تعزلها عن الأنظار ، وتقع عند مفترق الطرق . وهي ملتقى المزارعين ورفاق السلاح يؤمونها منذ عهد بعيد . فهي عاصمة البلاد الدينية منذ سنة ١٣٢٧ ، ويتمتع كبير أمراء موسكو ، منذ عام ١٣٥٣ وفقاً للبراءة المغطاة له من خان القبيلة الذهبية *Horde d'or* الذي كان سيد روسيا الاسمي ، بلقب صاحب السلطة القضائية . فهو يرفل بالفنى وله نفوذ عريض .



شكل ٣ - تطور الامبراطورية الروسية

- | | |
|---|---------------------------------|
| ١ - الاراضي الروسية عند اعتلاء ايفان الثالث العرش | ٥ - فتوحات بيدور دوبريس غودولوف |
| ٢ - فتوحات ايفان الثالث | ٦ - فتوحات ميخائيل رومانوف |
| ٣ - فتوحات باسيل الثالث | ٧ - فتوحات ألكسي ميخائيلوفتش |
| ٤ - فتوحات ايفان الرابع المربع | ٨ - فتوحات بطرس الاكبر |

ويتطور ايفان الثالث من امير متجول ، الى رئيس دولة . وبما انه اقوى الامراء وأندهم بأماً على الاطلاق ، نرى الفلاحين العاملين في خدمة الامراء في الريف ينفدون عليه بالجملة ليدخلوا في خدمته ويعملوا تحت رعايته ، الامر الذي يجر الضعف على هؤلاء الامراء فيضطرون للتخلي عما يتمتعون به من استقلال . ولم يبق في البلاد ، بالطبع سوى عدد قليل من الامارات التي تنعم بشيء من الاستقلال الذاتي . فلم تلبث ان حققت البلاد وحدتها . وبسلسلة من الحروب شنها امير موسكو ، عام ١٤٩٢ ، و ١٥٠٠ - ١٥٠٣ ضد امير ليتوانيا ، اضطر هذا الاخير للتنازل له عن هذه المقاطعات الشاسعة الواقعة ما وراء نهري الدنيبر والدونا ، كما اعترف له بلقب : « حاكم روسيا جمعاء » . واذا أنس إيفان الانحلال يدب في جسم دولة القبيلة الذهبية ، رفض ان يدفع للتنازلية جزية بعد الآن ، محتفظاً بها لنفسه ؛ ثم ينادي بنفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً عن كل ملك اجني . فهو يحدد في نظر الروس اجمع المقاومة المسيحية والوطنية ضد المحتل الاجني الذي يعبث بالبلاد ويعيث فيها فساداً ، هذا الاجنبي عميل ابليس وزبانيته وسيفه المصلت على روسيا .

الايديولوجيا الامبريالية
البيزنطية رسالة روسيا

حيأت النجاعات الداوية التي حققها ، والايمان المستقيم الرأي الذي كان عليه ايفان ، زواجه من الاميرة صوفيا بالولوغ ابنة شقيق آخر امبراطور في بيزنطية . وقد رأى المعاصرون في عقد هذا الزواج رمزاً سياسياً وحملوه معنى خاصاً . فالكنيسة تصوغ الافكار التي تفرض ذاتها على عقول الناس وقلوبهم (الخطاب الفصحي الجديد للتروروبوليت سوزيم ، رسالة الراهب فيلوثي لباسيل الثالث ، نظرية جوزيف الدينية حول اخضاع السلطة الروحية للسلطة الزمنية ، ودير فولوك) . فروسيا التي اعتنقت وحدها الايمان المستقيم هي بلاد مقدسة (روسيا المقدسة) والشعب الروسي « اسرائيل الجديد » هو الشعب الذي اختاره الله ليتولى رئاسة جميع الشعوب المسيحية ، وليؤمن الفوز النهائي لمملكة المسيح . فالدولة المسكوبية ستبقى الى منتهى الدهور ، وستسيطر على جميع شعوب العالم وموسكو هي « روما الثالثة » هي العاصمة الوحيدة والاخيرة للعالم المسيحي . وقد ورث ملك روسيا الصفة الالهية التي كانت للباطرة البيزنطيين ، وبصفته مسيح الله فهو لا يؤدي حساباً عن اعماله الا الله . فالوقوف في وجهه او ضد ارادته ، خطيئة . فالكل ملزمون له بالطاعة العمياء والولاء الاعلى ، حتى الكنيسة ورئيسها ، فليس للفرد اية حرية تصرف بذاته . وقد عم الاقتناع سواد الناس واستقر في يقينهم لدرجة الايمان ان على الملك ان يؤمن الخلاص لكل فرد بالزامه الجميع على احترام الطقوس الكنسية ومناسك العبادة ، والتسليم بان كل كلمة من الكتاب المقدس هي موحى بها من الله . وشجب كل فكرة متحررة ، قفزي الى الهرطقة . ومنذ ذلك الحين ، تبنى ايفان الثالث الشارات الجديدة ، التي ترمز الى سلطته المطلقة المسلمة اليه من الله ، وهي السر ذو الرأسين ، والصولجان والكرة والعرش . كذلك تحلى تماماً عن النهج الذي كان انتهجه حتى الآن بوصفه من اصحاب الاملاك الواسعة ، ليعتصم برسم البلاط

البيزنطي ، في عزلة من شعبه ، بوصفه كائناً فوق البشر ليس باستطاعة الناس الاقتراب منه الاً مطأً طئي الرأس .

وايفان الثالث هو القائد الاعلى ، المطلق ، يرأس حملة الدولة العسكرية الروسية المطلقة صليبية ضد التتار و ضد الغريين الهراطقة . عليه ان يصد بهذا العدد الضئيل من السكان ، هجمات التتار التي تنهش بصورة لا تنقطع ، حدود الدوقية التي لا نهاية لها . وقد انشأ بمساعدة مدربين استقدمهم من الغرب ، اولى مفرزاته الحربية من جيش المرتزقة سلتحها بالبنادق والمدافع ودرها على الاساليب الحربية المتبعة في الغرب . كذلك كان عليه ان يواجه هذه المشكلات الحادة التي أثارها في وجهه صعوبات مالية . فلم يكن بمستغرب قط ان يطلع ايفان الثالث بفكرة دولة موسكوبية منظمة على شاكلة معسكر حربي خضع لنظام حديدي ، ليس للحرية الفردية فيه ظل او شبه ظل .

وهذا السيد المطلق يفتر جذرياً ، الى وسائل التنفيذ . فطبقة النبلاء التي تعمل في خدمته ليست سهلة الانقياد . وهؤلاء الامراء الذين قدموا خضوعهم له أرغوا على ذلك بقوة السلاح ، فحملوا معهم ما كان تحت تصرفهم ، من قبل ، من كتائب وطواير ، يستخدمونها عند ما تدعو الحاجة ، يقومون بالمهام التي يُعهد بها اليهم ، ويحلسون الى جانب نبلاء الروس في الهيئات والمجالس الرسمية ، بعد ان احتفظوا باستقلالهم الداخلي في اماراتهم المتوارثة . وتطلع على روسيا ، الفينة بعد الفينة ، محالفاً ارستوقراطية ، فللنبلاء الحق ، دوماً ، باختيار الامير الذي يرغبون بالانضواء تحت لوائه . وهذا الامير قد يكون مثلاً رئيس امراء ليتوانيا ، او ملك بولونيا .

وقد راح ايفان الثالث يحارب هؤلاء الارستوقراطيين بسلاح الطبقات . فاستخدم ، في هذا السبيل ارستوقراطية متوسطة الحال ، لها ماض وضيع ، تألفت في معظمها من كتبة وسكرتيرية ، كما استعان بطبقة عسكرية دنيا قوامها جماعة من المسلحين ، علوا في البلاطات الاميرية قبل ان تجري تصفيتها ، ومن صفار الملاكين الذين تحرروا بعد ان استخلصت منهم أراضيهم ، ومن لم من الفلاحين وجواري الآفاق . فقد تطوعوا في خدمته كرجال خدمة لمدى الحياة ، فاقطعهم مكافأة لهم واجتذاباً لولائهم ، قطعة ارض *Pomestia* ومنها جاءت كلمة *Pomietchiks* التي اطلقت على هؤلاء الملاكين الصماليك ، وقد انشأ من خيار هذه الكتائب ، طبقة نبلاء خدمة ، هم مدينون له بكل شيء ، لم تلبث ان فتحت امامهم عضوية المجلس ، فكاوا له عوناً على تطويع وترويض طبقة النبلاء القديمة وإجبارهم على الخضوع والامتثال له . وهكذا حال دون مروق اي تابع من توابعه حدثته نفسه الامارة بالسوء اللجوء الى امير آخر ، وبذلك اصبحوا من رعاياه وأجبروا على الخدمة العسكرية دفاعاً عن البلاد .

وراح ايفان الثالث ، من ناحية ثانية ، يضع وجهاً لوجه الفلاحين وطبقة النبلاء ، ومنع تسرب المعدن الثمين وتهريبه الى الخارج لئلا يقع بين يدي أعدائه التتار ، مما أدى الى تقوية

العملة النقدية في البلاد ونهوض الاقتصاد . وهذه العوائد التي كانت تدفع له عينا ما لبثت ان حل محلها عوائد تُدفع عدأً ونقدأً . والضرائب الاميرية اشتدت وطأتها مع تكاثر الحروب ، فاضطر الفلاح الى بيع غلته بسرعة مما عاد بالربح على التجار ، لينتفع من تسديد دينه بعد ان كان يستلف من سيده ، بفائدة عالية لاقبل حادث طارئ، يتعرض له . ولما كان كثيراً ما ، عاجزاً عن تسديد دينه ، فقد رأى نفسه مضطراً للعمل في خدمة سيده ، على حساب حريته . وقد رأى نفسه مشدوداً شداً الى الارض لقاء الدين الذي لسيدته في عنقه . وهكذا اصبح المزارع المديون ، شبه المشدود الى ملك سيده ، يذهب مع الارض سلعة مربوطة بها اذا ما باع سيد الارض ارضه . ولذا حاول عدد كبير من المزارعين الحرب والنجاة بأنفسهم الى حيث تشتد الحاجة لليد العاملة ، وكثيراً ما كانت تسنح له مناسبة الحرب . وهكذا أسقط بيد اسياد الارض وهؤلاء المراميين ، اذ لم يعد في مقدورهم ان يفوا بتعهداتهم تجاه الملك . ولذا وقف الملك الى جانبهم ضد الفلاحين المارقين فشرع يحظر على هؤلاء الفلاحين ، مغادرة املاك السيد ، وان يعهد الى بعض هؤلاء الفلاحين ، بمن كانوا أحراراً من قبل ، بقطع من الارض ، تربتها سوداء ، شعروا معها انهم اصبحوا مشدودين الى الارض ومضطرين بالتالي ، للخضوع الى اسيادهم . وهكذا أتم الصراع الطبقي لايفان الثالث طبقة من النبلاء سهلة الخضوع والانقياد .

وازدراءً منه لنظام الخلافة المتوارثة - وهو امر لم يكن احد من ملوك فرنسا الذين عرفوا باستبدادهم يجرؤ على اتيانه - فقد جرّد من حق الخلافة بالارث ، الذكور الابكار الذين يلدون من اول زواج . ثم عيّن له شريكاً في الحكم والسلطان باسيل ، ابنه من صوفيا ، الوريثة الشرعية للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الخفيف قائد الصليبية سار باسيل الثالث (١٥٠٣ - ١٥٣٣) ، على خطى ابيه وسلفه ونهض على الوجه الاكمل بالسياسة التي كان اختطها ايفان الثالث . اما الانجازات العظيمة ، فقد تمت على يد حفيده ايفان الرابع الخفيف او المرعب (١٥٣٣ - ١٥٨٤) . ففي سنة ١٥٤٧ ، جرى تنويجه وله من العمر ، اذ ذاك ، ١٦ سنة . وأخذ لأول مرة ، في تاريخ روسيا ، لقب قيصر ، وبذلك اعلن نفسه خليفة القيصرية ووارثهم بعد ان تبنى كلياً المبادئ الاساسية التي قالت بها اليوسفية (١) .

أصلى التتار سلسلة من الحروب كانت بمثابة صليبية روسية ، ووجهها وجهة من كان يرغب صادقاً في تأمين السيطرة الكلية ، على طرق المواصلات التجارية . ففتح ، عام ١٥٥٢ ، خانة قازان ، ثم احتلت جيوشه مدينة استراخان ، وبذلك اصبح مجرى نهر الفولغا تحت اشرافه وسيطرته . وهكذا أصبحت استراخان ، بين اوروبا وآسيا ، نقطة التلاقي للتجار القادمين

(١) نسبة الى الامبراطور جبريل ، او يوسف احدباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية الذي حاول اخضاع الكنيسة وسلطتها الدينية ، للسلطة الزمنية ، في كل شيء .
الناشر

من القوقاز والتركستان والعجم . وبانتصاره على خانة سيبيريا ، عام ١٥٨٢ ، نشر السيطرة الروسية حتى مشارف نهر اليانسي وجبال الالتي ، فأطلق على « كاليفورينا الفراء » . ثم اتجه ايفان الرابع شطر البحر البلطقي ، موجهاً ضرباته ضد هراطقة الغرب الذين كانوا يحاولون عزل روسيا . ففتح ، بين ١٥٥٨ - ١٥٦٠ ، مقاطعة ليفونيا ، بما حمل السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا على التدخل فاستطالت الحرب ، بين كروف ، حتى عام ١٥٨٢ ، فاضطر في نهاية الامر صرف النظر عن هذه المقاطعة .

ان ثلاثين سنة من الحروب الدامية والجهاد المستميت قلبت المجتمع المسكوبي وما اليه من نظم ومؤسسات ظهراً لبطن ورأساً على عقب . ارتفعت خلالها ، نفقات الدولة ارتفاعاً عظيماً واضطر ايفان الى تقوية فرقة الرماة *Strélitz* وتسليحهم بالبنادق ، كما قوى كثيراً من فرقة المدفعية ، وفرقة الهندسة وجيش المرتزة ، ووسع فرقة الحيلة في الجيش ، كما انشأ على طول الحدود الآخذة دوماً بالامتداد والمط والاتساع ، سلسلة من الم المدن الجديدة المحصنة ، والقلاع والحصون ولذا كان لا بد من اخذ الناس بنظام حديدي آسر ، وفرض الضرائب وجبايتها بشدة تأميناً لموارد طائلة تقتضيها صناعة الحرب .

اما التجارة فقد عرفت نشاطاً متزايداً فسهل اسبابها ووسّع من تطور الاقتصاد القدي حريتها التحالف مع خان القرم الذي سهل الاتصال مع اوربا الغربية عن طريق البحر الاسود ، فتوافد على البلاد ، مواكب التجار ومعلمو المهن والحرف والصنائع ، من المانيا وايطاليا وهنغاريا ، فدخلوها عن طريق القرم . ومنذ الرحلة التي قام بها الرحالة الانكليزي تشانسار عام ١٥٥٣ الذي استكشف معها البحر الابيض الواقع الى الشمال من البلاد ، راح الانكليز يتغلغلون في مجاهل روسيا وآسيا ، سالكين الطرق الملتوية التي تنطلق من الرأس الشمالي والبحر الابيض والمحيط المتجمد الشمالي . ونالت الشركة الانكليزية المسكوبية ، منذ عام ١٥٦٧ ، الترخيص لها بالتجارة في جميع انحاء روسيا وغشيان اسواق قازان واستراكان ، والعبور منها الى بلاد فارس والى جزيرة ياغري الواقعة عند مصب نهر الدفين في الشمال ، وانشاء مستودعات ومعامل لها في معظم المدن الروسية . وجاء بعد الانكليز الهولنديون وتجار انفرنس وبروكسل ، كما قدم اليها ، بعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون عام ١٥٨٦ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٥٥٨ - ١٥٨١ ، وقع مرفأ نارفاً تحت تصرفهم ، فقد أمه ٧٠ سفينة انكليزية سنة ١٥٦٧ الا ان السويديين تمكنوا ، من استرجاع هذا المرفأ ، عام ١٥٨١ ، واذ ذاك ، قام ايفان بتأسيس مرفأ أر كنجلسك سنة ١٥٨٤ .

واستطاع التجار الانكليز والهولنديون من التغلغل داخل الولايات الروسية النائية ، والتعامل رأساً مع التجار المحليين ، يتبادلون معهم ويتقاوضون السلع ، فبعثوا النشاط في الحركة التجارية في الداخل ، فزاد النقد في التداول . والى جانب الاتجار بادوات البذخ والزينة راجت تجارة المحاصيل

والغلال الزراعية ، كالقمح والكتان والقنب ، اللحم والجلود والقار والزفت والسلك . وقد عرفت مدن كثيرة كموسكو وقازان ويسكوف تجاراً كباراً ، بلغ عدد مخازن الواحد منهم عشرة مخازن وأكثر ، ومع ذلك بقيت نسبة البورجوازية في البلاد ضئيلة لاسباب عديدة ، منها منافسة المؤسسات الكنسية والتجار الاجانب ، وكلا الفريقين ينعم باعفاءات وامتيازات عديدة ، لا سيما الضرائب والرسوم الجمركية والاحتكارات القيصريّة للمشروبات الروحية ، او التبغ والكافيار ، وعدد الاسواق التجارية المحدود بحيث يتاح للأموري الجمارك والمكوس القليلي العدد ، ان يراقبوا الاعمال والصفقات المالية والتجارية ، واخيراً الضرائب الثقيلة التي رزح تحتها الشعب .

ازمة المجتمع الروسي عرف القيصر ان يفيد الى اكثر حد من ازدياد النقد المتداول بحيث آمن دفع مرتبات افراد فرقة المرتقة العاملة في خدمته . واستطاع ان يعهد الى الاغنياء من التجار بمهام ومشروعات قبلوا القيام بها على مسؤولياتهم الخاصة ، لقاء بعض انعامات جاد بها عليهم كالسماح لهم بفرض بعض الرسوم على التجار ، واستثمار بعض الاحتكارات الحكومية . كذلك ، عرف ان يستغل الى اقصى حد ، الازمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد من جراء الحروب الدامية المرهقة التي اقتضتها الفتوحات الواسعة التي قام بها . فالاراضي كانت تستصرخ من يهب للعمل فيها . وقد اقطعت الحكومة الكنيسة وبعض الاسر الروسية ، من اسحاب الاعمال ، كآل ستروغانوف ، اراضي واسعة ، تقع في حوض نهر الفولغا الوسط والاسفل ، وفي نهر الكاما ، يسهل منها الاتصال بمقاطعة الاورال ، هذه المقاطعة التي كانت مضرب الامثال بغنى مواردها الطبيعية . واشتد الطلب على الفلاحين ، وارتفعت ، فوق الارض ، كالفطر ، مدن جديدة واديّار كثيرة ، منها اوفاسمارا (١٥٨٦) . وسارانوف (١٥٠٩) ، واسس بعض جوانبي الآفاق ، الى الجنوب من أوكا ، في قلب السهل الفسيح ، شركات حرة من القوزاق ، والرجال المحترفين القنص والصيد ، ومن شذاذ الآفاق . وجاء في اترم مزارعون استقروا في تلك السهول وراحوا يتعمدون بالحرث والزرع ، ومن ورائهم مدن جديدة تشد ازهم ، امثال يانسك (١٥١٠) واورييل (١٥٦٤) وفورنيخ ولفني (١٥٨٦) وغيرها كثير .

واشتدت الحاجة الى اليد العاملة . بعد ان افقرت السهول الواقعة في وسط البلاد ، واخذ الفلاحون المرهقون بالديون او الرازحون تحت وطأة الضرائب والرسوم ، يهربون ، بحيث ان ٧٦ - ٩٠ ٪ من الاراضي الواقعة في منطقة موسكو ، امست بوراً ، كما ان القرى هجرها أهلها ، فتعذر على المزارعين النهوض بالاعمال الزراعية المترتبة عليهم ، كما اصبح من المستحيل على اسباده البلاد ان يؤدوا ما عليهم من عوائد ورسوم للخرينة . وهكذا فقدت الدولة كل اشراف على دافعي الضرائب ونضبت بيت المال . واخذ كبار الملاكين والمزارعون يتزاحمون على

الفلاحين والمزارعين في حركة من التجاذب والتراشق لا نهاية لها ما لم تتدخل السلطة المركزية لتضع حلاً للامر

الانتقال من الادارة
السيادية الى الادارة الحكومية
لم يرَ ايفان الرابع ، اذ ذاك ، بدأ من ردف الادارة السيادية القديمة بادارة حكومية . فقد قام تحت القيصر ومجلسه الخاص ، ممثل او وكيل عام له يدعى *Bazrjad* اصبح الوسيط بين القيصر والادارات الحكومية الاخرى : كبيت المال الخاص بالدولة ، وبيت المال الخاص بالقيصر ، ودائرة الاختام (*Priks*) ودائرة الالتاسات ، ودائرة البوليس ومصلحة المدفعية ، والجند المرتزقة ، و « قصر قازان » الذي انشئ عام ١٥٥٨ ، وهو اشبه ما يكون اذ ذاك بوزارة المستعمرات ، للنظر في امر الاراضي والمقاطعات التي ضمت بعد الفتح ، ومصلحة العلاقات الخارجية (١٥٤٩) ومصلحة التمثيل الدبلوماسي او مصلحة السفراء (١٥٦٤) .

وقد نظم المرسوم القيصري الذي صدر عام ١٥٢٦ المصلحة الخاصة بالـ *Pomicetchicks* او اصحاب الاملاك الذين لم يكن عددهم ليتجاوز ٢٠٤٠٠٠ ، ففرض عليهم ان يجهزوا خيالا (فارساً) بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، عن كل ٥٠ هكتاراً من الاراضي التي يملكها . وقد كان الواحد منهم يملك من ١٤٠ - ٢٣٠ هكتاراً . وقد كان بينهم من ملك ٣٠٠ او ١٠٠٠ ، او ١٣٠٠ هكتار . وقد جرى تثبيتهم في ملكيتهم لهذه الاملاك مدى الحياة واعترف لهم القانون بحق توريثها ، الا انه حظّر عليهم ان يخرجوا من خدمة القيصر او من دائرة ولائه ليعملوا ، نوابع ، لأمير آخر او ليعملوا في خدمته . وكانت غلال الارض ضعيفة جداً . فقد أرقق تسليح الفرسان ، هؤلاء الملاكين ، فراحوا بدورهم يرهقون الفلاحين العاملين في اراضيهم ويبتزونهم بأبشع الطرق ، مما حملهم على الحرب .

اصبحت الخدمة العسكرية ملازمة لكل اصحاب الاملاك ، لهم الحق ان يدفعوا بديل عن الخدمة في الجيش مبلغاً محدداً . وقد استغني عن المهندسين الذين كان يترتب على الاتباع تقديمهم كما تم توحيد الجيش وانظمته . وفي سبيل تأمين أود هذا الجيش ، كان القيصر يفرض ، على هواه ، رسوماً خاصة تصيب مثلاً ملح البارود ورسوم حملة البنادق ، وغير ذلك ، ومنذ عام ١٥٥٤ لم تصدر في روسيا أية براءة اعفاء او استثناء حتى ان الاعفاءات القديمة ، جرى تخفيضها كثيراً كما الفى عام ١٥٨٠ ، اعفاء الاكليروس ورجال الدين من الرسوم .

الدولة البوليسية
ليس بمستغرب قط ان تلاقي هذه الاصلاحات معارضة لدى طبقة النبلاء القديمة . ففي سنة ١٥٦٥ ، انشأ القيصر ايفان الرابع فرقة *Opritchnina* وهي فرقة الحرس القيصري ، معظم رجالها من الغدائيين ، عهد اليهم بالسير على أمن القيصر ، وتصفية كل من تحدّثه نفسه بالخيانة والفدر ، دخلها بعض افراد طبقة النبلاء القدامى ممن حط بهم الدهر . وقد أقطع كل واحد من اعضاء هذه الفرقة فدانة من الارض في

قلب روسيا . شهدت البلاد ، اذ ذاك ، حركة واسعة في انتقال ملكية الارض . فالامراء الاقطاعيون اضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم السيادية المتوارثة لقاء التمييز عليهم بقرارات تقسم على اطراف البلاد او على حدود هذه المقاطعات Zemtchina التي تم فتحها منذ عهد قريب . وهكذا انفصلت هذه العرى التي كانت تشدهم الى سكان البلاد حيث كانت تقع ممتلكاتهم ، فوجدوا انفسهم بين اقوام لا يعرفون عنهم شيئاً كبيراً ، كثيراً ما تعرضوا للعصيان من قبل هذه الجماعات ، كما تعرضوا كثيراً للهجوم من وراء الحدود ، لا يرد عنهم غائلة الموت الا مبادرة القيصر لنجدتهم . وقد عهد القيصر الى اعضاء فرقة حرسه بمراقبة هؤلاء الامراء المبعدين بعد ان حامت حولهم الظنون وارتاب القيصر بهم متهماً اياهم بالتخلي عن الولاء نحوه . وقد جرت تصفية عدد كبير من زعماء هذه الاسر حتى ان اسراً كثيرة ابديت برمتها . ففي سنة ١٥٧٠ ، جرى نهب مدينة نوفغورود الكبرى . وقد فاضت مياه النهر من كثرة ما ، ألقوا فيه من جثث الموتى .

ومساعدة منهم هؤلاء Opritchniks , Pomietchiks ، راح القيصر يهتم بتوفير ما هم بحاجة اليه من الفلاحين والمرايعين الذين استعالموا ، فيما بعد ، عبيداً مشدودين الى الارض . فقد نص القانون الصادر عام ١٥٥٠ ، على ان المديون العاجز عن ايفاء دينه يجري تسليمه للدائن الذي يفرض عليه العمل في ارضه حتى وفاء الدين المترتب عليه . وفي سنة ١٥٧٤ ، فرض القيصر على كل فلاح ، يعمل في التربة السوداء ، ان يزرع لحساب الدولة ، اربعة هكتارات في السنة ، وذلك على سبيل التخفيف من حدة الطلب على اليد العاملة بعد فرار المزارعين وهربهم . وفي سنة ١٥٨٠ حظّر القيصر على المزارع جحود سيده وألزم الفلاح على الاتّ تقبيل عن ارضه الا باذن خاص من سيده . اما الفلاحون الهاربون فكانوا يستهدفون لعقوبات زاجرة .

وهكذا قامت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ملكية بين الملكية المسكوبية ، والملكيات الغربية مطابقة مستبدة في روسيا . فالقيصر يتمتع ، قانوناً وبالفعل ، بكل صلاحيات السيادة وخصائصها المميزة : سلطة تشريعية ، وسلطة تنفيذية ، وسلطة قضائية ، وله كل سلطان لفرض الضرائب وتعبئة جيش قائم باستمرار ، وموظفون يتولى هو نفسه تعيينهم . ويختلف النظام الملكي المسكوبي المطلق عن مثيله في الغرب باتساع الحقوق الملكية المسكوبية وبتساع صلاحياتها . فليس ما يدل قط على انه قام في البلاد قانون اساسي جد من سلطة الامير المطلقة ، في ما يتعلق مثلاً بحقوق خلافة العرش ، او وجود اي حق للفرد ، او للؤسسات والهيئات القائمة ضمن الدولة كحق التملك . وعلى عكس هذا ، هنالك ما يشير الى او يدل على وجود حدود لهذا السلطان ، من مثل الظروف والاحوال المسيطرة ، وهذه الاعفاءات القائمة ، وعدم وجود بورجوازية رأسمالية باستطاعتها ان تجابه الطبقات الاخرى او ان تصد من طغيانها ، فالملكية المسكوبية المطلقة ، شكلت نوعاً في جنس الملكية المطلقة ، فهي اقرب لعمرى من نوع الملكية الاسيوية المطلقة التي جاءت وليدة مجتمعات خاصة

تميزت بضعف الروح الرأسمالية فيها . ولهذه الملكية ذات المميزات الاساسية التي اتصفت بها الملكية المطلقة في اوروبا الغربية في القرن السادس عشر : مثالية قومية جاءت نتيجة بعث ايدولوجيا قديمة جرى تكييفها وفقاً للحاجات الجديدة ، وایمان شعب بكامله يعتقد يقيناً انه مدعو لرسالة خاصة ، وطموح فردي جاشت به امة مهيمنة ، غلبة تقمصه ملك هو صورة الله على الارض ، بطل قومي مظفر ، عهد اليه القيام بحرب مستمرة ضد الاجنبي دارت على حدود اعتبرت دوماً في خطر ، واقتصاد نقدي آخذ بالتطور . الى هذه المثالية القومية صراع طبقي يختلف في بعض وجوهه ، عما قام من امثاله في الغرب . فنحن هنا لسنا امام صراع بين بورجوازية وطبقة نبلاء ، بل صراع قام بين طبقتين متجانستين ، بين طبقتين من النبلاء متشابهتين تقريباً ، صراع بين ما هو رئاسة سيادية ممثلة في طبقة نبلاء من هذا النوع او ذاك ، وبين فلاح او مزارع امضى سلاحاً ، هنا في روسيا ، منه في الغرب ، لما يتوفر له من املاء ومسافات تنبسط امامه ، وامكانية الحرب والتملص ، والمساومة او المفاضلة بين سيدين او اميرين يتجاذبان . والصراع الطبقي اعطى دوماً بوصفه صراعاً ، النتائج ذاتها والمعطيات ذاتها : الدولة فيه هي الحكم وهي السيد . ولذا راحت هذه الدولة ، هنا في روسيا كما في الغرب ، تشهد من حدة هذا الصراع الطبقي وتنفتح في أواره . فالظروف الاساسية واحدة هي ، فقيام الملكية المطلقة له ما يبرره وما يركبه .

الفصل الخامس

النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

ليس من جديد في هذه النظم الا ما طلع منها خارج ايطاليا . فالجديد فيها هو نقل طبيعة هذه العلاقات التي ربطت الدول الايطالية كما كرسها صلح لودي، المعقود عام ١٤٥٤ ، الى جميع دول اوروبا، إثر الحملة التي قام بها شارل الثامن على ايطاليا بقصد فتحها وضماها . فقد وعت الدول الايطالية ان هذه العلاقات التي شدتها بعضاً الى بعض لم تكن تتوقف على هذه الروابط العديدة التي جمعت فيما بينها ، ولا جاءت نتيجة لتجاورها او تلاصقها فحسب ، بل ايضاً نتيجة لهذا الشعور المشترك والتحسس العميق بأن القوى والعوامل التي تتأثر بها جميعاً اولتها الحق المتبادل في التدخل والاهتمام جدياً بهذه الاحداث التي تقع بعيداً عنها، ولو لم تكن لتعنيها في الظاهر كثيراً، وذلك لما تحدثه هذه الشؤون والاحداث من تأثير على توازن القوى، اذ ان اي خلل او اختلال يلحق بهذا التوازن، كان لا يخلو من خطر على دولة او على مجموعة من هذه الدول . وهكذا رى ان الايطاليين ، ارتقى بهم التفكير بحيث راحوا يعملون على قيام شبكة من الدول كل واحدة منها معنية بالمحافظة على هذا التوازن . ولتحقيق هذه الفلسفة والعمل بمبادئها ، كان لا بد من قيام علاقات مستمرة بين هذه الدول تركز على قوانين وانظمة تشكل ما يعرف اليوم بالقانون او الحق الدولي . ولكي لا تتجرأ دولة ما ان تحاول الاخلال بهذا التوازن لمصلحتها الخاصة ، اعترفت بمبدأ حق التدخل وجعلت منه مبدأ سياسياً سارت عليه . فلكل دولة الحق بالتدخل لدى دولة اخرى مبررة تدخلها بحجج مختلفة ومتذرة بطل شتى ، منها الديني ، مثلاً ، كأن تدعي حماية ابناء دينها الرسمي ، ومنها السياسي كصيانة الحرية والمحافظة عليها . وهذا التوازن لم يكن سوى وسيلة للحؤول دون اي دولة لتحديثها نفسها بزيادة قوتها وبسط سيطرتها وسلطانها على حساب دولة اخرى . فهو لا يقوم على تفاهم ضمني يرمي لتحقيق عمل مشترك . فهو مجرد فكرة سلبية ، او مكسح يمح من الشهوة ، ويحد منها . ففي ٣١ اذار ١٤٩٥ ، بدا اول مظهر لهذه السياسة الجديدة ، سياسة التوازن بين دول اوروبا،

وذلك في حلف البندقية ، الذي تألف للوقوف بوجه فرنسا معارضة لتدخلها في إيطاليا . وقد تشكل هذا الحلف من البندقية ، وملك أسبانيا ودوق ميلانو ، والبابا . واللغة الدبلوماسية الأوروبية استعملت في هذا السبيل عبارات واصطلاحات مستمدة من الحياة السياسية في إيطاليا ، منها : « توازن الدول » و « القوى المتقابلة » وغير ذلك من الالفاظ والاصطلاحات . أما التعابير والمجازات التي عمل بها من قبل ، أمثال : « الكتلة المسيحية » و « الجمهورية المسيحية » فقد بطل استعمالها . واخذت المصطلحات : التوازن الأوروبي ، والدبلوماسية المعمول بها ، والقانون الدولي ، وحق التدخل ، تطبع السياسة الأوروبية ، حتى حلول معاهدة فيينا (١٨١٥) وما بعد .

١ - الظروف العامة

كان لا بد ، والحالة هذه ، من وسائل عمل كفي بالغرض . فقد تبنت دول الدبلوماسية الثابتة أوروبا ، على شاكلة الدول الإيطالية في القرن الخامس عشر ، نهجاً جديداً هو الدبلوماسية الثابتة . فقد كانت اقتصرت هذه الدول حتى أواخر القرن الخامس عشر ، على سفارات أو وفادات احتفالية أحيطت بكل مظاهر الأبهة ، برئاسة أمراء أو كرادلة أو وزراء أحيطوا بكل مظاهر التجلّة كُلفوا معالجة قضية ما حتى إذا تمت تسويتها ، رجعوا من حيث أتوا . وقد استمر العمل بهذا الأسلوب خلال القرن السادس عشر ، في كل ما يتعلق بأمور المواليد والزواج والمآتم الرسمية وحفلات تنصيب الملوك العرش ، أو لاقرار المعاهدات والمواثيق المعقودة ، وهي مهات محدودة ، كما ترى ، قلما أروّت ظمأ الطرف الثاني للزود من المعلومات التي يرغب في الاطلاع عليها أو التي منى النفس بالوصول إليها .

فمنذ ١٤٩٥ ، وهو تاريخ الحلف الكبير الذي قام للحد من اطماع شارل الثامن وتفشيل حملته على إيطاليا ، اقتضت الضرورة القيام باتصالات مستمرة ، ثابتة بين الحلفاء أو بين من هم على الحياد أو بين من قد يصبحون خصوم الغد ، كان لا بد لانجاحها ، من وجود ممثلين يبقون بصورة مستمرة في عاصمة الدولة . وقد حذا الجميع حذو البندقية ، في هذا المجال . وفي هذا السبيل حرصت أسر كثيرة ، على الاحتفاظ ، أباً عن جد ، بهذه المناصب التمثيلية ، بعد أن تفرس اعضاؤها بهذا العمل وقدرت على اساليبه طويلاً . فقد راح ممثلون أو وكلاء سفراء ، من رجال القانون أو من صفار النبلاء ، أو من رجال الاكليروس ، يساعدون أحياناً موظفون إضافيون من كبار الاشراف كان وجودهم مجرد مظاهر خارجية على الغالب ، يفاوضون محلياً ويهيئون شروط الاتفاقات التي يرغبون في الوصول إليها ، أو نصوص المواثيق التي مهم عقدها ، كما كان مهم الاكبر ان يزودوا حكوماتهم بكل ما تحتاج اليه من معلومات وما ترغب في الاطلاع عليه من اوضاع معينة وظروف قائمة . ولذا حذقوا التفرس في الناس والنظر الى الاشياء بتبصر ، كما اتقنوا

الاصغاء والتحري عن كل شيء ، وتفتنوا في تزويد رؤوسائهم بكل ما وقعت عليه ايديهم من كل فن وخبر او ما وقفوا عليه من روايات واقاويل مع اي ربح وصلتهم ، او من اي مصدر استقوا او من اي رزٍ وَرَدوا . فالسفير الدائم ليس بالفعل سوى جاسوس يتمتع ببعض الامتيازات ، تحت تصرفه شبكة ممتازة من وسائل الاعلام والرصد والتسجيل . وبصفته ممثلاً دبلوماسياً لبلاده ، فهو يتصل ، ولا حرج عليه ، بكل من يمكن ان يستفيد منه بدأ ، مهما كان لبوسه : خائناً او مارقاً او متصيداً فيوزع بلباقة وفطنة ، الأعطيات والمرقيات والجمالات ويتصل دونما تورع ، بمستشاري الدولة ، وبالخطباء الكنسيين والمرشدين والوعاظ ، وبوجوه المجتمع والشخصيات البارزة والمنظمات والهيئات القائمة في الدولة . فقد مثل الملك فرنسوا الاول في البندقية ، السفير بليسييه الذي امتد نفوذه حتى الشرق الأدنى . وقد برهن بعض الاسبان ، في عهد ملكهم فيليب الثاني ، عن مقدرة خارقة في هذا المضمار ، ولا يزال التاريخ يحفظ لنا ، لليوم ، اسماء لها شهرتها في عالم التجسس ، امثال دوق ألبا ، في فرنسا ، بعد معاهدة كاتو - كبريس . ومثل هذه المهمة نهض بها الى الأوج ، توماس برنود شانتوناي ، شقيق الكردينال ده غرانفيل الذي حمل سفيراً لبلاده ، من آب ١٥٥٩ الى شباط ١٥٦٤ ، والسفير الاسباني الفارود لاكوادرا مطران أكيرا الذي احسن حبك شبكة من التجسس في انكلترا ، في هذه الفترة - بالذات . غير ان مهنة السفير كانت مهنة شاقة لم تكن لتدر كثيراً على صاحبها ، كما ان الحصانة الهشة التي يتمتع بها السفير ، اذ ذاك ، لم تكن لتجعله دوماً بمنأى من المفاجآت غير السارة ، فاهيك عن ان بطة المواصلات وصعوبتها كان يجعل مغامراته لا تخلو قط من خطر عليه .

وقد استعمل الملوك من فرنسوا الاول ، الى شارل الخامس ، الى الملك فيليب الثاني ، باستثناء السفراء ، عدداً من العملاء السريين والمغامرين من فرسان واعطاء ، ممن أنسوا فيهم المقدرة على الاضطلاع ، بتفوق ، بمفاوضات سرية ، كما انهم استعملوا بعض الوسطاء الضعاف الذين لم يكونوا يتورعون من اللجوء الى علاقات ملتوية او مشبوهة ، مايكاد ينفضح امرها حتى يبادر الملك الى شجبها والتبرؤ منها .

تنهج الدبلوماسية طرقات واساليب واقعية . ومهما يكن ، فالنتيجة وحدها هي التي يُعْتَد بها . فالاهتبارات والمبادئ الخلقية ، تأتي بعيدة بمراحل ، في عملية الوزن والتقييم ، بعد حساب القوى . أليست الدبلوماسية حرباً من نوع آخر غير التراشق بالفتنابل والمدافع ، سلاحها المعروف : الكذب ، والخائلة ، والفش والخذاع . فعلى السفير ان يكون على إلمام كبير واطلاع واسع باحداث التاريخ وما فيها من عظمت ودروس ، هذا التاريخ معلم الكذب والفش والخذاع والحسنة بالمواثيق ، كما يقول كوتمين . عليه ان يتظاهر بأنه رجل برّ وصلاح ، صريح مخلص ، حر الفكر ، بحيث يكسب لغة محدثيه حتى يتمكن بالتالي من بلفهم عندما تحين الفرصة السانحة (مكياجلي) ، عليه ان يوحى جيداً بأنه يرغب صادقاً أمراً ما ، بينما هو يقصد بالفعل شيئاً آخر بمكسه تماماً . هذه الطرُق والاساليب ، لم تلبث ان اصبحت اموراً مقررّة ، متعارفة ، ولم نعتن ان تصبح مهنة او نهجاً بعلم واصول وقواعد . ولكي يُعطى حليفه

لمقابلة او مفاوضة لم يكن مقررأ ان تشترك بها بلاده ، يأخذ السفير بالتأكيد بان حكومته لا ناقة لها ولاجل في الامر ، وان المقابلة او أمر التفاوض دعت اليه ، الجهة المعارضة حبأ بالسلام ، وفي سبيل ترسيخ اسبابه لا غير . ولكي يثير الغيرة والحماسة في نفس محدثه يروح 'يزين' له بان النية او الافكار تتجه الى صرف النظر عنه ، وتفضيل فريق آخر عليه ، وان مليكه لعل استعداد كلي لتوقيع مشروع اتفاق معروض عليه ، ولكي 'يحدث' في نفس محدثه التأثير الذي يرغب فيه ويحمله على التسليم بوجهة نظره ، يتظاهر السفير برغبته بقطع المفاوضات ويُخرج مرافقيه من البلاد كمن 'يود' الانسحاب والتراجع ، وغير ذلك من وجوه التناور .

ففي المفاوضات الرسمية ، يتولى الكلام باسم الوفد المفاوض شخص واحد ، وباللغة اللاتينية ، وعندما يفرغ من عرض القضية ويبسط وجهة نظره ، ينسحب الفريق المتفاوض الثاني للمذاكرة وتبادل الرأي ، قبل ان يعهدوا الى واحد منهم بالرد على المقترحات المعروضة . يتبادل السفراء مراسلاتهم مع اجهزة خاصة في الدولة كالملك او مجلس الملك الخاص ، وتباعاً مع امناء السر . وكان على سفراء البندقية ان يرفعوا ، الى رؤسائهم ، تقريراً عن وفادتهم ، لدى رجوعهم الى البلاد ، عن المهمة التي انتدبوا لها . ويتلى التقرير علانية على اعضاء مجلس الشيوخ ، بحضور التوغا ، ثم يُحفظ في قسم السفراء ، المحفوظات السرية . وتؤلف مجموعة تقارير السفراء في حكومة البندقية ، معينة لا ينضب ، من المعلومات التاريخية .

المارة التجارية : بين في القرن السادس عشر انتقلت نقطة الثقل في المواصلات البحرية ، الثلاثية والركب الشراعي من البحر الابيض المتوسط ، الى المحيط والاقيانوس . فبعد ان اقتصر نشاط الحضارة ، في اوروبا ، من قبل ، على البحر الابيض المتوسط والبحار الشمالية (البلطيق والبحر الشمالي وخليج المانش) ، اذ بهذا النشاط يصطبغ ، اكثر فاكثر ، بعد النصف الثاني من القرن السادس عشر بطابع اسيوي بارز . وقامت على الاثر منافسة قوية بين السفينة الثلاثية الصوف من الهاذيف التي كانت ، اداة النشاط البحري في المتوسط وبين السفينة الشراعية ، او المركب ، وهو الاسم العام المشترك الذي يمكن اطلاقه على الكرافيل وغيرها من انواع السفن الشراعية التي اتخذت عدة للاسفار البحرية في المحيطات . ولم يلبث ان كبر شأن السفينة في كل ما يتصل بالحرب والمعارك البحرية ، وما ان مالت شمس القرن للمغيب حتى كانت افضليتها تبرز الثلاثية بكثير .

الثلاثية ، المركب ، الريح والبحر كانت الثلاثية ، تفضل السفينة الشراعية عندما يكون الطقس هادئاً ، والهواء ساكناً مع نسيم خفيف . اما اذا ما هاج البحر واضطرب اديمه فالأفضلية ، تعود للسفينة الشراعية او المركب . فالثلاثية ، ظهرها واطر يكاد يلامس سطح الماء ، فهي ، في الصميم ، قارب مكشوف الظهر ، يعلوها درابزون يطفف من كلا الجانبين ، يفصل بين صف وصف آخر من المجدفين ، ممر ضيق ،

ويعلو ظهرها أرضية من الواح الخشب ، تستدير اطرافه لمريضق يسلكه الجند . وكنا نرى سفناً شراعية كبيرة كالتي تستعملها البندقية لتأمين علاقاتها التجارية مع مقاطعة الفلاندر (طولها ٤١ متراً ، بعرض ٣،٤٦ متراً في الاسفل و٦،٠٦ متراً على الظهر ، و٢،٧ م ، في القلب من الداخل) ، اما صفاتها ومميزاتها فهي لم تتغير . فاذا ما احتاج البحر وازيد تعرضت السفينة الثلاثية للغرق . اما المركب ، فيؤلف هيكله بناية عائمة . فالظهر يعلو علو رجلين او ثلاثة رجال ، عن سطح الماء . ويقوم فوقه ، من الامام ومن الورا على السواء ، برجان او قلمتان ، فترى المياه تتساقط من على جانبيه بينما يبقى الظهر ناشفاً جافاً . فقدم السفينة المدبب ، يشق أديم الماء شقاً عندما يكون البحر هادئاً ، احسن بكثير من المقدم الافطس في المركب ، وتسير بسرعة اكبر منه اما عندما يكون البحر هائجاً او تتأرجح السفينة ، بين المقدمة والمؤخرة ، يغوص مقدم السفينة في المي ، بحيث يمر الموج فوق ظهرها عندما يشق العباب . اما المقدم الافطس في المركب ، فلا يغوص عميقاً بخلاف مقدم الثلاثية ، ويعلو فوق الموج ، وتزيد سرعته على سرعة الثلاثية . وتزود الثلاثية بمجاديف طول الواحد منها ١٢ متراً ، يعالج المجذاف الواحد خمسة 'مجدّفين' ، كلهم من الارقاء او من المحكوم عليهم بحبس اللومان ، عند انطلاقه الصغير ، يلهب السوط اجسامهم عند اقل تمهل او تأخر في الحركة ، فيولون السفينة دفعا الى الامام ، عندما يكون البحر ساكناً ، اما عندما يأخذ الريح بالهبوب ، تعود الى المركب أفضليته . وللثلاثية صار واحد او صاريان ، وعدد من الاشرعة تبلغ مساحتها مجتمعة ٥٠٠ متر مربع . اما المركب فعدد الصواري فيه يتراوح بين ٢ و٤ صوارم وتزيد مساحة اشرعته اربعة او خمسة اضعاف ، مساحة اشرعة الثلاثية . كذلك تجهز المراكب باشرعة مربعة عليا ، تساعدها على السير الى الورا عندما ينفخ الهواء بعكس السير . فالركب يجهز بأربعة او خمسة انواع من الاشرعة ، من مقاييس مختلفة ، بينما لا يحمل الصاري سوى شراع واحد مجهز بدقل ضخّم ، بينما عارضة الصاري مستديرة وتتحرك بصعوبة كلية ، اما المركب فاشرعته اكثر توزعاً بحيث تزيد او تخفض من مساحة الشراع الممرضة للهواء . ولكل من الصواري الرئيسية اشرعتها ، مع أذقال مربعة .

والسفينة الثلاثية معدّة للعمل في الاقاليم
الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية الهادئة نسبياً ، وللقيام برحلات قصيرة .
فعندما ترسو سفينة يمكن نصب خيمة وايقاد المشاعل . فالهذّاقون ومساجين اللوماق المحكوم عليهم بالعمل في التجديف ، يلتحفون القبة الزرقاء ، فهم يلبسون قميصاً وسروالاً من النسيج الاسمر الخشن ، حفاة ، لا شيء في ارجلهم ، صيفاً شتاءً ، والبستهم دائماً مبللة ، فالفسيل عملية تغطيس البدلة من فوق حافة السفينة . فهم مشدودون دوماً الى مقاعدهم ليلا . ولم تتخذ السفينة اي تدبير ولو بدائي للتخلص من الاوساخ ، وقد حشا الضباط انوفهم تبغاً قوي الريحمة . فلا تسل ، والحالة هذه ، عن تكاثر الهوام كالقمل والبراغيث . فاذا ما امتدت الاسفار وطال

امدها ، تفشت الامراض بين الجماعة وهددهم بالفناء . اما ربان السفينة فيرتدي ثياباً حسنة ويقنات جيداً ويستطيع ان يستسلم للراحة في اماكن خاصة معزولة ، جافة ومدفأة . اما المركب فباستطاعته ان يعمل في كل الاحوال المناخية . فهو يضطر للسير مع الشاطئ ، تأميناً لبعض الراحة ووسائل التدفئة والتغذية ، وتأمين أود العيش من المرافىء القريبة اذ يتعذر على السفينة الشراعية ان تتمون من هذا كله لأمد طويل . ولذا نرى الدول البحرية تنشئ لها ، على طول شواطئ البحر المتوسط ، سلسلة متاسكة الاطراف من المرافىء الحربية . فالمركب الذي في مكنته ان يتزود بكميات اكبر من المواد الغذائية ، يرى امامه مجالاً واسع للعمل وارحب .

السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب وظيفة السفينة الثلاثية هي جلب الجنود للهجوم وتسهيل وسائل الاشتباك لهم بالايدي . فهي لا مهاز لها ولا يمكن ان تجهز بشيء من هذا . فهي متاسكة الاطراف ، من الوسط وان كانت تفتقر للمانة والصلابة في طولها ، فقدمها الطويل ، الغرض منه التلطيف من حدة الصدمة والدفع عند الرسو ، والمدفعية التي تحملها فوق متنها ، صغيرة هي . ففي المقدمة مدفع كبير ، تركز في المحور ، واربع قطع خفيفة لتسديد الضربة على مدى قريب ، ممهدة الطريق لفرقة الهجوم . فالمعركة بين الثلاثيات هي معركة بين المشاة او الرجال ، يتحول الاشتباك فيها الى صراع فردي بين افراد الجند من كل الفريقين فيعمدون الى الخنجر او امتشاق الحسام ، فهب امراء البحر انفسهم يطلب الواحد مناخزة الآخر للمبارزة ، فالاساطيل المتلاحمة تقوم بسباق الزوارق بحيث ينفسح امامها مجال العمل والمزيد من النور والشمس ، ثم يطبق الجانبان بعضهما على بعض ، ويتخذ كل الموامل الحاسمة ، كالاندفاع الحاسي والشجاعة والمهارة الشخصية . والضباط العاملون في هذه السفن هم من ذراري الاسر الارستوقراطية الكبرى ينظرون بشموخ وترفع الى غيرهم من الضباط العاملين تحت امرتهم . فاذا ما استهدف المركب لعملية اصطدام كان مصيره الهلاك ، وقد يكون له من القوة احياناً ما يستطيع ان يتحمل الصدمة ويحطم بدوره ، بقدمه اية ثلاثية تكون لحقتها ورشاقتها اكثر استعداداً للعطب السريع ، بينما يتميز المركب بالصلابة . وقد جرت عادة تقوية جوانبه بشبكة متعارضة من عوارض الخشب بعد قدعيمها عمودياً . فالامواج ترتطم بهذا الحاجز الخارجي وتتكرر عليه فتتطاير رذاذاً في الهواء لا يلبث ان يتساقط كالطرر باستمرار فوق ظهر السفينة . والمركب من المتانة ما يتيح له استعمال الخطاف او المهاز في المعركة فهو يشكل بطارية مدفعية عاتية مكلفة بتعظيم السفينة الشراعية عن بعد . ويقوم على الخط الدائري ، على مستوى سطح الماء ، عدة بطاريات ، كما يقوم من النوع الخفيف منها عدد فوق الظهر . وقد رُكبت فوق حصون المركب مدافع سددت فوهاتنا نحو السفن العدو ، ويتراوح تسليح مركب من الحجم الوسط ، بين ٣٨ - ٤٠ قطعة مدفع .

تطور الثلاثة والمركب يبدو ان الثلاثيات وما اليها من هذه الانواع لم يطرأ عليها اي تحسين يذكر ، في القرن السادس عشر ، بعد ان بلغ هذا التطور حده من قبل . اما المركب فقد خضع هو باستمرار للتطور والتحسين ، فالنصف الاول من القرن السادس عشر كان بمثابة حقبة تجارب واختبار ومحسن الاساليب التقنية . فقد امر فرنسوا الاول ببناء سفينة الفرنسواز الكبرى ، في مدينة الهافر ، وهي سفينة استغرق بناؤها من ١٥٢١-١٥٣٣ ، جهزت بخمسة صواريخ ، واتسعت ل ١٥٠٠ راكب ، انشئت فيها كنيسة وملعب للتنس ، وكور للحدادة ، وفرن ومطبخة هوائية . الا ان هذه المدينة العائمة لم تنزل قط الى البحر . ونقل جان لاسكاريس الى شارل الخامس ، سربناء سفينة تجارية تعمل على عجالات لها قواديس ، جرى تصميمها في ايطاليا . وجرى محاولة بناء هذه السفينة ، في مرفأ برشلونة بنجاح تام . وقد جهل الناس كيف كانت تتحرك ، ربما بواسطة جهاز يدعى *Eolypile* من اختراع العالم اليوناني الاسكندري هيرون . وفي سنة ١٥٧٥ ، صمم الهولنديون سفينة جبارة تسير بعجلات تتحرك بدفع المذايف ، وقد اتسعت فيها مساحة الاشرعة وتوزعت . فالصواري القائمة في الاطراف تزداد ضخامة وتفرش بالقلوع ويسهل بالتالي قدويرها من جهة الى اخرى . فالطوابق العليا في البرج القائم عند مؤخرة السفينة لم تعد تصل الى طرف الصاري ، وتناقص طولها كلما خف علوها بما يزيد في قوة الاستمرار ، اما المؤخرة ، فقد اصبحت مربعة بعد ان كانت مقعرة . وفي اواخر هذا القرن ظهرت السفن من نوع *Fuisseu* . وقد تبين البحارة ببطء كلي الامكانات الطائلة الكامنة في المركب . وقد بقيت فكرة مهاجمة السفينة تتحكم بالافكار والخواطر . وعندما حاول الملك فرنسوا الاول القيام بعملية نزول في انكلترا وغزوها بحرأ ، عام ١٥٤٥ ، اردف اسطوله بخمس وعشرين سفينة شراعية كانت تعمل في مياه البحر المتوسط . اما الفشل المريع الذي اصاب به اسطول الارمادا الذي لا يقهر بعد ان اعده فيليب الثاني لفزو انكلترا عام ١٥٨٨ ، فقد فتح عيون الناس على ما في هذا الاسلوب من نواقص وسيئات . فاضطرت سفن فيليب الشراعية ان تبقى على مقربة من شواطئ اسبانيا الشمالية بالنظر لهيجان البحر . اما المراكب الاخرى التي تألف منها اسطول الغزو ، فقد عرف الانكليز ان ينقلبوا عليها بسهولة كلية بعد ان عرفوا كيف يتفادوا خطر المهاجمة ، وبعد ان راحت تقذف الجند الاسبان من بعيد ، بقنابل المدافع وفتكت بهم وشردتهم كل مشرد . والانتصار البحري العظيم الذي حققه اسطول الدول المسيحية ، على الاسطول العثماني في معركة ليبانت ، عام ١٥٧١ ، استحال في النهاية الى اشتباك او عراك بالايدي ، بعد ان امنت فرقة الرماة البحرية ، الافضلية للمسيحيين وفي سنة ١٥٧٢ ، عرف المسيحيون ان يمتثوا سفنهم ضد اسطول اولغ علي ، وذلك بوضع مراكبهم في الطليعة . وهكذا بدت خطوطهم الامامية لا تقهر على ايدي الثلاثيات . وفي سنة ١٥٩٠ ، التقى اسطول صقلية المؤلف من ثلاثيات شراعية ، باربعة مراكب انكليزية وحاول ايقافها ، فما كان من العبارة الانكليزية الا ان افنت

على قتلها ، اسطول صقلية . وهكذا زال الى الابد عصر الثلاثيات من السفن واطلت علينا سفينة خط النار الاول .

الجيش : جيش شارل الثامن
ولعل خير مثال لتمبئة الجيش ، في مطلع الحروب الايطالية ، هي التمبئة التي تمت للجيش الفرنسي في عهد شارل الثامن ، عام ١٤٩٤ . تألف جيشه ، اذ ذاك ، من كتائب تشكلت وحداتها من افراد مجهزين بأسلحة الرماية ، القصد منها التهيئة للهجوم بزحزحة صفوف العدو ، والتأثير على معنوياتها وإضعافها . وقد جهز كل فرد من افراد الجيش بأسلحة يدوية ، وأحسن تدريبه بحيث يتمكن من خرق خطوط العدو من اول هجوم او يقوى على كسر حدة هجوم العدو بواسطة فرقة القنفذ ، وهي فرقة خاصة من المغاور ، والفرق المسلحة تسليحاً خفيفاً للقيام بعمليات الاستطلاع والاستكشاف او للقيام بحروب المناوشات ومطاردة العدو ، لاستغلال النصر الى اقصى حد ، وفرق من الضابطية والياوران لابسى زرد الحديد مزودة افرادها برماح كبيرة ، الى جانبهم حملة الخناجر ورماة النبال ، وفرقة المشاة ، اكثر من نصف وحداتها يحملون رماحاً طويلة بينما جرى تسليح الآخرين بالحراب ، وعُشر فرقة المشاة يحملون البنادق الكبيرة وقد ركزت على مرماة ، وهي عبارة عن مدفع صغير يُحمل باليد ، ورماة النبال على خيولهم أو مشاة . اما المدفعية فكانت تتألف من ١٤٠ مدفعاً من البرونز تجري تعبئتها من الفم .

فرقة تألفت من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة لهم ومسلحاً ، جيش المرتزقة
فخضعوا لتدريب عسكري شديد ، ولتأارين وحركات ومناورات تفتتهم تحت ادارة واشراف اخصائيين فاصبحوا وكأنهم آلات ميكانيكية تتحرك بالايام والاشارة ، ضمن أطُر وملاكات من الضباط ، جرى اختيارهم من بين الاشراف يتعذر بعضهم احياناً من اجد واعرق الاسر الارستوقراطية ، يدفع الملك مرقباتهم ، فيخلصون له الولاء والطاعة . ويؤلف جيش المرتزقة فرقة منتقاة ، مختارة ، لها دفع لا يقاوم ، وتكون عنصر القوة الاساسية في الجيش . فالقسم الاكبر من فرقة المشاة يتألف من السويسريين جيء بهم من سفوح جبال سويسرا او من المقاطعات الالمانية ، او من صفار البورجوازيين او الفلاحين الميسورين ، يتسلحون على حسابهم الخاص تحت إشراف تَحَمَلَة البنادق ، كُتِبوا كتائب تحت ادارة واشراف ضباط حملوا متعدين حربيين ، نالوا من الامبراطور ، او من الملك ، او الامير ، براءة تشهد بكفاءتهم في فن الحشد والتمبئة . وقد ألّف مجموعهم فرقة قوية ، تقوى على الصمود ، انما لا تنبض باية فكرة او اقدام . وتتألف فرقة المشاة الخفيفة من فرنسيين جيء بهم من شمالي فرنسا ومن بين سكان غسكونيا الذين عُرفوا بنشاطهم وشجاعتهم ، ومرونة اجسامهم وبما يحيش فيهم من روح اقدام ، انما كانوا اقل صلابة من السويسريين ، وحمله البنادق .

كان من الطبيعي جداً ان تكلف تعبئة الجيوش غالباً . وهي نفقات لم يكن يتحملها الا

الدول القوية والملوك الذين باستطاعتهم ان يتصرفوا بموارد الممالك والمقاطعات الواسعة الغنية التابعة لهم .

فن الحرب قد تمتد الحرب طويلا لان المعركة لا تبتدىء الا برضى الفريقين المتحاربين . والجيش لا يمكن ان يخوض معركة حربية قبل ان تجري تمبثته فتحشد كتائبه في ساحة الحرب حسب نوع اسلحتها لتحتل مواقعها في المينة والميسرة ، والقلب والمؤخرة والطليعة . ولم تكن الوسائل قد توفرت بعد للتحويل بالسرعة اللازمة من طاوور في طريقه الى الحرب لطاوور مهيأ لخوض المعركة . ولذا كان لا بد من التوقف بعيداً عن نطاق العدو ، وتعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم الى الامام ، ببطء واحتراز كلي ، محافظة على النظام من جهة ، وتحسباً لكل طارئ ، مفاجيء بحيث تصبح فرق الجيش ادنى من قاب قوسين من العدو فيبدأ بالهجوم . وفي هذه المدة يكون امام العدو الوقت الكافي لياخذ عدته للامر : فيستأنف سيره او يتخذ مواقفه المقررة . ولا سبيل لاجبار العدو على التوقف وقبول المعركة لان الاسلحة النارية هي بطيئة للغاية ولا فعالية كافية لها . ولذا كان لا بد من اللجوء الى استراتيجية الوسائل الثانوية او الاضافية ، كالاستيلاء على مدن العدو الكبرى الواحدة بعد الاخرى ، وعلى مراكز تموينه ، واستباحة الريف وغزوه وسلب القرى والمزارع لارغام العدو على القاء سلاحه لقلعة الميرة لديه . فاذا ما رضى العدو خوض المعركة ليتفادى نهب مدنه ، كان عليه ان يعمل ، في الدرجة الاولى ، على فرقة الحياالة وهي الفرقة التي كانت تقرر مصير المعركة بهجوم جانبي مفاجيء .

تأثير الحروب الايطالية
على تطوير الاسلحة

ادت الحروب الايطالية الى تطورات عظيمة ، اذ كان باستطاعة المدفعية الفرنسية ان 'تطلق' في ساعة واحدة ، من طلقات المدافع ، اكثر مما تستطيعه المدفعية الايطالية ، في يوم بكامله . ولذا لم تستطع اية مدينة محصنة في ايطاليا ان تصمد اكثر من ٣٦ ساعة ، وكانت المدفعية تدك المعادل دكا فتنهاوى جدرانها وتتساقط الى الارض . ولذا كان لا بد من 'تسوير' المدن وتشبيد اكوام من التراب عند الاسوار وفي مؤخرتها بحيث اذا تساقطت قنابل المدافع واخرقتها لا تحدث في السور اي خلخلة في الجدران ولا تصدع . ولذا اصبح الدفاع عن المدينة اسهل من قبل . فكان لا بد ان يقوم المحاصرون باعمال واتخاذ وسائل اخرى تسهل لهم الاقتراب من الحصون . عن طريق اقامة خنادق ودهاليز وممرات سرية والاستمانة بأكياس الرمل .

والمدفعية هذا السلاح الذي احتفظوا بفعاليته حتى الآن لحصار المدن والقلاع ، راحوا يستعملونه ، اكثر فأكثر ، في ساحات الحرب ، بلاشتراك مع انواع اخرى من السلاح . فقد ارغمت المدفعية الفرنسية ، في معركتي أغناديل (١٥٠٩) ورافينا (١٥١٠) العدو على ان يتخلى عن تحصيناته والخنادق التي كان يمتصم داخلها ، الى اراضٍ مكشوفة كانت تصلح لقيام

المشاة الفرنسيين بهجومهم على الوجه الاكمل . ففي معركة مارينيان (١٥١٥) راحت المدفعية الفرنسية بعد ان امنت الاسلحة الاخرى حمايتها ، تمحصد صفوف العدو ووحداته حصداً ، بحيث كانت « اجسام الجنود السويسريين تتطاير في الجو مع البارود » . وهكذا كسبت المعركة . فمعركة مارينيان هي اولى المعارك الكبرى في التاريخ الحديث ، تم تحقيقها بفضل هذا التناسق العظيم الذي تم بين الاسلحة الكبرى الثلاث : المدفعية والخيالة والمشاة .

وقد راح المتحاربون يقلدون نظم التعبئة الاصلح جدوى وفعالية : فيكتبون كتاب المشاة ويعبثون المدفعية على الطريقة الفرنسية ، والمشاة على الطريقة الالمانية في القرن الخامس عشر ، والخيالة الخفيفة على الطريقة الالبانية ، وكلها اساليب ومناهج تعبئة اصبحت وسائل شائعة ومعروفة لدى الجميع . والبنديقية التي استعملها الالمان سلاحاً رهيباً بعد ان ادخلوا عليها ما ادخلوا من تحسينات فنية ، جاءت ثمرة مهارتهم في شغل الحديد ، عم استعمالها وانتشر على نطاق واسع ، بعد ان اصبحت اسهل استعمالاً واهون اخذاً وتناولاً من القوس والنشاب ، وبرهنت عن فعالية حاسمة في تهيئة الهجوم والقيام به . ولم يلبث القوس والنشاب ان خف استعمالها تدريجياً حتى انتسخ العمل بها بالكلية .

ألتح مزج هذه الاساليب الحربية وافراغها لغونزالفو
القرطبي ، من فلاسفة الاستراتيجية الحديثة ورجال الحرب في
الذي قام بغونزالفو القرطبي
ايطاليا ، ان يدخل على الجيش الاسباني تحسينات جديدة
على مناهج التهيئة واساليب الحرب افضت بها الى طلوع فرقة الـ *Tercio* ، هذه الفرقة الاجنبية
التي انشئت في الجيش الاسباني عام ١٩٣٠ . واول اصلاح ادخله غونزالفو ، تم سنة ١٥٠٣
وادى الى انشاء الفرقة ذات الجناحين ، كل واحد منهما يتألف من ٦٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من
الشرطة ، و ٨٠٠ من فرسان الخيالة الخفيفة و ٢٢ مدفعاً . وهكذا نجد تحت تصرف القائد او
اللواء كل العناصر اللازمة لتوجيه المعركة نحو النصر الاخير ، فقد شدد كثيراً ، على الدور
المنوط بفرقة المشاة ، هذه الفرقة التي تستطيع ان تتأور وان تقوم بالحركات العسكرية في
في كل المجالات بالدقة المرجوة . وقد ضاعف فيها من عدد كحمة البنادق بحيث اصبحت نسبتهم
خمس سلاح المشاة . وقد جهز كل جنديين من اصل خمسة من المشاة بسيف قصير ومزراق ،
بحيث يستطيعون التغلغل بين افواج السويسريين وجندهم ويأخذون بطعنهم في بطونهم . وقد
عبأهم ثلاثة صفوف متراسة ، متتالية ، مع الاحتفاظ بقسم احتياطي للقيام بناورات وحركات
اذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، بعد تعبئة الافواج سرّيات تأتي الواحدة منها بمستوى السرية
التي تسبقها من جهة اليمين لتشكّل الطليعة ، وقد يسهل نظام التعبئة هذا ، على الطابور السائر
في طريقه ، ان يتحول ، في الحال ، الى طابور محارب ، ويُدرّب هؤلاء الجنود على النظام
والتقيد بالانتظام ، ويشبّوا على احترام الذات والشعور بالكرامة والعزة الوطنية والتحمس

بالشعور الديني الحي . وبذلك جعل من المشاة الاسبان سلاحاً مخيفاً ، مما جعل الالمان ، بعد ان خبروا بأس هذه الفرقة وجربوها ، يصرحون قائلين : « انهم لم يحاربوا بشراً بل ابالسة » .

اما الاسبان ، فالكابوس الجاثم على صدورهم ، كان الجندي الفرنسي ، وليس من النادر قط ان تقع عين الباحث في الوثائق التاريخية التي تعود للاعمال الحربية التي قام بها الاسبان في اميركا وكتبها على الغالب ، كتاب من قدامى رجال الحرب في اوروبا ، على عبارات كهذه : « فقد رَفَعْنَا في وجه العدو حاجزاً بلغ من متانته ما لا قِبَل للفرنسيين ان يأتوا معه شيئاً » .

هذا الصراع الدامي ، الطويل المدى ، الذي قام بين ملوك من البندقية الى الطنججة فرنسا وملوك النمسا ، افاح ادخال تحسينات جديدة على صناعة الحرب وادواتها . ادخل الاسبان ، حوالي عام ١٥٢٠ ، تحسناً على البندقية ، فقد نُقِيت حَقَّة الاشغال الى جهة اليمين من مدفع البندقية بحيث يصل الثقب بعلة البارود ، بعد ان وضعوا لها غطاءً يمنع تسرب الماء والهواء والمطر والاهتزاز اليها ، بحيث يستطيع الجندي ان يسير والبندقية معبأة ومحشوة ، فيتم اطلاق الميار الناري بواسطة الكبس على انبوب يتصل بالزناد فيسقط الفتل ويتصل بالبارود . فباستطاعة الجندي ان يشد على البندقية بكلتا يديه مما يزيد كثيراً في دقة التسديد . وهكذا امكن التخفيف من ثقل البندقية ، وراح الجندي يطلق النار والبندقية مسندة الى مشجب . وارتفعت نسبة حَمَلَة هذا السلاح في فرقة المشاة بعد ان راحوا يدعونها تارة *Arquebuse* وطوراً *Mousquet* بحيث بلغ عددهم الثلث واحياناً النصف في فرقة المشاة . وقد بلغ من فعالية هذا السلاح ما حدا بالامبراطور شارل الخامس الى التصريح قائلاً : « ان مصير الحرب والمعارك التي خُطت غمارها ، انما توقف ، الى حد بعيد ، على فتيلة بنادق الاسبان » .

وحوالي ١٥٢٥ ، اخترع الماني البندقية ذات الدولاب ، ربط به حجر صوان يتحرك بواسطة نابض (زنبرك) يستعمل كزنناد ، يقذف شرراً عندما يتحرك فيشعل البارود . فالاستغناء عن الفتيل جعل فرسان الحباله يعملون ، اكثر فأكثر على هذا السلاح . ولكي يسهلوا لهم استعماله صنعوا بنادق خفيفة يمكن استعمالها بيد واحدة ، هي الطنججة . وفي اواسط القرن السادس عشر ، اخذ فرسان الحباله الالمان يطلقون اثناء هجومهم الميارات النارية من طنججاتهم مما اضطر معه قسم الحباله ، في الجيوش الاخرى على احتذاء حذوهم واعتماد هذا السلاح الجديد ، حتى الشرطة منهم ، مع ان تأثيرهم كان قد تضاعف جداً .

كان الجندي السويسري يكلف غالباً بينما جندي المشاة الالماني في حالة سكر دائم . ولم تلبث فرقة المشاة ان اصبحت سلاحاً وطنياً وراح الفرنسيون يجندون طواير من المشاة اكثر افرادها من الفرنسيين وفي عام ١٥٣٥ ، راح فرنسوا الاول يؤسس كتائب اقليمية يؤخذ افرادها من ابناء الولاية او المقاطعة .

المدفعية ادخلت تحسينات اساسية على سلاح المدفعية ، أهمها تبسيط الحركات والاكتفاء ببعض انواع رجعت فعاليتها بعد ان تكاثرت انواع المدافع التي كانت قيد الاستعمال ، مما وقف حائلاً دون تجهيز الفرقة بحاجتها من المتاد والمسدد ، وبذلك وضعوا حداً لهذه الفوضى . فمنذ عام ١٥٤٤ ، اقتصرَت المدفعية ، في جيش شارل الخامس ، على بعض المدافع من عيار مجرب . وحذا حذوه ، سلاح المدفعية عند الفرنسيين بعد ان توقفت نتائج المعارك على هذا النوع من السلاح ، ففي الحصار مثلاً ، عوتوا بالاكثير ، على مدافع الهاون التي لم تعتم ان اصبحت غير صالحة للاستعمال ، بعد اطلاق ٥-٦ طلقات ، لسبب ما يحدث المدفع من ردة الى الوراء . ولذا اخذوا يستعملون رفاصات 'تلتطف' من حدة الارتجاج . وتمكن الالمان من اختراع الصاروخ ، للقنابل المدوة للانفجار واشعال الحرائق . ودخل في تركيب المتفجرة عناصر مختلفة كالزرنينخ والزفت والقار . كذلك اعتمدوا قنابل يدوية (رمقات) تبقى مشتعلة في الماء ، كما استعملوا اسهماً ملتصقة تطلق من البنادق ومنقذات صنعت من المشاقه والكبريت ، لامطار المحاربين باللهب النارية . كذلك اخترعوا نوعاً من الرشاشات وهي كناية عن عدد من البنادق 'صفت جنباً الى جنب' ، 'عمل بها حتى عام ١٥٧٠ .

التحصينات العربية كثيراً ما ذهبت الرطوبة بطلاء الاسوار ، فافقدتها ما عليها من الاتربة المختلفة ولذا اخذوا يستبدلونها باسوار قليلة السماكة بحيث تخترقها القنابل بسهولة دون ان تحدث فيها تصدعاً يذكر او خلخلة وتدخل في الثراب حيث تفقد قوتها . وعند الزوايا التي تتألف من حائط منحرف يصل بين جدارين ، اخذوا ، حوالي عام ١٥٦٠ ، يبنون ، بدلاً من الابراج ، 'شرفات' حصونها بالتراب والاغصان ينصبون على جوانبها ، من هنا وهناك ، المدافع . ولكي يحولوا دون نفس الجدران بالالغام الناسفة ، حرصوا على اقامة خندق أجروا فيه قناة من الماء ، بعد ان دعموا جانبيه من جهة الارض ، بحائط قوي ، وبعد ان اقاموا ، في القمة ، برماً خفياً يسهل المرور لمن يريد الخروج .

الانحطاط والتدهور بطبع نهاية القرن
احدثت الحروب الدينية تأخراً ظاهراً في فرنسا . فقد اشتدت فيها اعمال الكمين وهولوا على اعمال التبييت والترصد اكثر من تمويلهم على العمليات الحربية الكبرى . وكذلك اعتمدوا ، اكثر فاكثر ، على المتفجرات والمفرقات لنسف ابواب المدن (كاهور ، عام ١٥٨٠) وراحوا في البلاد الواطية يعتمدون اكثر فاكثر في دفاعهم عن البلاد ، على ما يقوم فيها من شبكات الفياض والغدران والمستنقعات والبطائح لتقوية اعمال الدفاع . ومنذ موقعة ، غيرترويدميرج (١٥٩٣) تبنى موريس ده ناسو ، اساليب التعمية التي جاء بها غوزالفو ، عندما استعمل الجنند كروتاد او طلائع في الجيش . ولما كان جيشه جيش حصار وليس جيش هجوم ، فقد

دريج على ان يقع حول مجسمه اسواراً من الاوتاد بحط به خندق ماء ، وقد تفنن كثيراً في توفير اسباب الاقتاب من المدن المحاصرة ، بواسطة قفف عشوة ترابساً ، في ارض يكفي ان يحفر الجندي قليلاً في تربتها ليعثر على الماء . كذلك تفنن في حركات الكر والفر ، بحيث ان جيشه هذا اصبح مدرسة انتشرت مبادئها في جميع أنحاء أوروبا .

ومع ذلك نشهد تناقص عدد الجيوش ، بعد عام ١٥٧٠ ، كما ان هذه الجيوش اصبحت اقل تجهيزاً وعتاداً حروبياً . فالأزمة التي نزلت بالأسماوية ، وارتفاع الاسعار ، والعراقيل التي حدثت من الانتاج بسبب كثرة الحروب الأهلية ، وانقسام أوروبا ، اكثر فاكثراً ، الى دول واحزاب واحلاف ، كل ذلك اضعف كثيراً من طاقات الجميع . فقد انتهى القرن وغربت شمسهُ في شبه تأخر عام .

الحرب الاقتصادية والمالية والحرب ليست كلها اقتتال وتراشق بالنار والقنابل ، فهي حرب مال واقتصاد . ان طرح رؤوس الاموال المجمدة في التداول وتحويل الاعتمادات المخصصة لمقاطعات اخرى ، للنهوض بالحرب وتاجج ضرامها ، كل هذا وما اليه ، اناح الملوك تجهيز جيوش جرارة بعد ان توفرت للدولة واردات طائلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة . ولذا كان من الاهمية بمكان ان يحاول الخصم تعبئة تموين العدو ، وقطع اسباب الميرة عنه لاجراجه مالياً واقتصادياً بتضييق الخناق عليه . فالابتكارات التي وضعها الكوردينال ده تورون ، حاكم مدينة ليون ، كتشكيل الاتحاد المصارف الذي رمى منه الى تجميد الاموال المدة للاستثمار ، واجتذاب رؤوس الاموال الى فرنسا من اي جهة كان ، واختزانها بقصد حسمها عن العدو والحؤول دونه للاستفادة منها ، ولا سيما التدابير والاجراءات التي اتخذت ، في هذا السبيل ، عام ١٥٤٢/١٥٤٣ و ١٥٥٤/١٥٥٣ ، وتأليف «اتحاد ليون الكبير» الذي جرى تشكيله عام ١٥٥٥ ، كل هذه التدابير كان القصد منها ضرب حصار مالي ضد اسبانيا وتوفير الاعتمادات المالية اللازمة لفرنسا الاول وهنري الثاني ، فاعطت النتائج المرجوة .

والحرب كذلك لها وجهها الاقتصادي . ولذا فكثيراً ما راح الملوك يشيرون بين رعاياهم الروح القومية الاقتصادية ، هذه السياسة الوطنية التي عبروا عنها بكلمة *Mercantilisme* وهو تعبير يبدو لنا اليوم ضيق المدلول ، غائم المفهوم . اما الغرض من هذه السياسة فهو ان تؤمن الدولة نوعاً من الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد ، اي ان تكفي نفسها بنفسها على اكبر قدر ممكن ، ولا سيما من المواد الأولية والحامات الضرورية للنهوض بالحرب وتأمين ما يلزم لها من عدة وعتاد وعددي وعُدَد ، وغير ذلك من المعادن وملح البارود والكبريت ، وتوفير كل هذه المواد محلياً . كذلك رمت هذه السياسة ، من ناحية اخرى ، الى اجتذاب النقد النادر او الثمين من الذهب والفضة واختزانه في البلاد والاحتفاظ به لليوم العصيب ، بما لا بد منه لحياة البلاد الاقتصادية ولدفع مرتبات الجند وتأمين نفقات الجيوش الطائلة ، وما تحتاج اليه من ذخيرة

وميرة ، ولا سيما لدعم سياستها العليا . فالدول قلما تعتمد ، في هذا المجال ، على الحماية الجمركية مع العلم ان الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج ، او على المواد الاولية التي تصدرها البلاد ، جرى تطبيقها والعمل بها ، في بعض الاحيان . فلم يكن ليتوفر لدى الدول ما يلزم من الموظفين الاكفاء ولا من العمال الاكفاء ما يلزم لاقامة مراكز تفتيش وجبائية على طول الحدود ، لاستيفاء المتوجب من العوائد والرسوم ، كما ان الدولة لم تكن تمت لها بعد الخبرة الكاملة لفرض نظام من الحماية الجمركية ، او الاخذ بنظام اقتصادي موجه . وراحوا يحفظون استيراد مصنوعات اجنبية ، ويمنعون خروج بعض المواد من البلاد ، كما راحوا يصدرون ما يلزم من القوانين ويتخذون ما يجب من التدابير التي تمنع تهريب النقد للخارج ، او تحد من ارتفاع اسعار الحاجيات ، ويعمدون الى اقامة الاحتكارات . وكان رعاياهم ، ولا سيما التجار منهم في المدن يفضلون بالاكث ، ان تعتمد حكوماتهم سياسة التجارة الحرة . وكان لا بد مع ذلك من ظهور ازيمات مالية حادة : ازمة هبوط او ازمة ارتفاع ، وظهور اخطار في الخارج تجعل الناس يرضخون او يطالبون بهذه الروح القومية في حياة البلاد الاقتصادية ، اسوة بما حدث في عهد الملكة اليبسات ، قبل عام ١٥٨٨ ، اذ كان يحتم على صدر البلاد كابوس الارمادا التي لا تقهر ، وكما حدث في فرنسا بالذات ، عندما اجتمع ممثلو الامة ، عام ١٥٧٦ . فالقومية الاقتصادية ، هي ، قبل كل شيء ، سلاح بيد الحكومات ، في ما تعاني من اضطراع سياسي مع الخارج .

٢ - امبراطوريات وقيصريات

سبق للسيد المسيح ان تمنى على الله : « ان يكونوا واحداً كما نحن واحد » وهو طلب تمنى معه ان تؤلف جميع الامم والشعوب حكومة واحدة تحت سلطة واحدة وقانون واحد . وبقيت هذه الأمنية حية تنبض في قلوب الناس حتى القرن السادس عشر ، يتبلور صداها على الاخص في شخص رئيسين نزع كل من جهته ، الى اقامة سلطان اعلى وسلطة اسمى ، هما البابا والامبراطور .

البابا ادعى البابا لنفسه سلطة شاملة مسكونية ، كما ادعى الحق بحمل رعايا الملوك اجمع من قسم الولاء والطاعة الذي يقيدهم ، وحق اسقاط الملوك ، وتكريس الامبراطور ومسحه ، وتوجيه الملوك وارشادهم . غير ان نفوذه لم يكن بالفعل مما يُعتد به او يؤبه له . فيها هو يدعو عبثاً ، حملة صليبية جديدة فتذهب صرخته في وادٍ ، وعبثاً يقضي في الاختلافات بين الملوك حكماً ، اذا ما رأى هؤلاء مصلحة لهم في العبث باحكامه والغض من افضيته . وعندما راحت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان ، عام ١٤٩٤ ، في بلدة توردسيلاس ، الاراضي الجديدة التي صارت اليهم في العالم الجديد ، لم يتورعا قط من ان يحريا تعديلا في احكام البراءة البابوية *Inter Caeteras* ضاربتين بمرض الحائط ، ادعاء البابا ، ملء

السلطان ، بعد ان اعلنتا على الملأ ان ليس في مقدوره قط ، ان يرفع ، من تلقاء نفسه وبمجرد مشيئته ، المسؤوليات المترتبة عليها . وفي سنة ١٥٤٠ ، اعترف الملك فرنسوا الاول وافر ان للبابوات سلطة روحية ، ولكن لا حق لهم البتة بان يتصرفوا بالارض فيوزعوها على هوام . ثم ان علنة السياسة وحركة الاصلاح الديني أقصرا كثيراً من نفوذ البابا الزمني ، وخفضا مما تبقى له من سلطة وسلطان حتى على الدولة البابوية بوصفه زعيماً سياسياً .

من مزاعمه المتوارثة انه الوريث الشرعي للباطرة الرومانيين ، تلقى
الامبراطور سلطته من الله نفسه ، وانه بالتالي ، الرئيس الاعلى والقاضي ، والوسيط ، والحكم النهائي والآخر ، في الامور الزمنية ، وان له السيادة والتقدم على أصحاب العروش والنيحان ، وان الملوك والامراء كلهم تبع له ، مقيدون تجاهه بالروابط التي تفرضها النظم الاقطاعية وله وحده الحق بان يلقب صاحب الجلالة ، وله وحده الحق بان يسن القوانين ، وان يقيم جميع الملوك نواباً امبراطوريين ، وانه أعطي وحده الحق بتدبير شؤون المسيحية جمعاء ، ولا سيما السلطان لتأديب الكفرة والمارقين ، والمراطقة والجاحدين . فهو القائد الاعلى لكل صليبية .

القول بسلطة عليا في العالم ، نظرية تجاوبت اصداؤها في النفوس وارتكضت
اوروبا والقيصريات بها المشاعر الحية التي تنبض في كل الشعوب ، ولم يكن أحد ليجرؤ للتمرض لها على المكشوف . وقد أخذت هذه الافكار والمشاعر تتطور بالفعل دون ان يلحظ المسؤولون شيئاً من هذا ، او ان ينتبهوا الى ما هو جار . ففكرة الامبراطورية او السلطة الشاملة اخذت بالرغم من احترامها للقوميات المختلفة ، باعتبارها اداة اتحاد بين الشعوب الاشقاء ، تتغير وتتحول خفية لتحل محلها فكرة القيصرية ، او تسلط امة فاتحة غلبة ، تمتص دونها انقطاع او توقف ، الممالك والشعوب مرغمة الآخرين من ليسوا من قواها ، على احترام ارادتها .

هنالك بالفعل ، قيصرية ألمانية . فالامبراطورية لم تكن ، من حيث
القيصرية الالمانية اشتقاق اللفظ ، من حق اي شعب من شعوب الارض . فهي فوق الشعوب والمنطق يقضي بانتقالها من ملك الى ملك ومن شعب الى شعب . اما الالمان ، فقد اعتبروا انها من حقهم وحدهم دون سواهم . أفليس ملكهم الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؟ وهي امبراطورية تشمل كل الاراضي الجرمانية . فهي تُدعى حتى في اواخر القرن الخامس عشر : الامبراطورية المقدسة تقتصر على القومية الالمانية . وعندما تقدم الملك فرنسوا الاول وشارل الخامس يرشحان نفسيهما ، عام ١٥١٨ ، لانتخاب الامبراطور ، قام ومُقلنغ يعيد نشر بحث قديم ينص على وجوب انتقال منصب الامبراطورية الى الالمان ، وبالات قول لا الى فرنسي او بورغوني ، بل الى الماني ، من العرق الالمني . فالامبراطورية ، هي ، في نظر الالمان ، سمة التفوق

والتسامي واداة سيطرة الشعب الالمانى على باقى الشعوب فهي أداتهم المثل لاقامة قيصيريتهم .
الا ان تطور الممالك والامارات الالمانية ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ونزعات رؤسائها
وملوكها للاستقلال بالانفصال عن الامبراطورية ، والاصلاح الدينى الذى غذى هذه النزعات
وابرزها ، كل ذلك جزءاً ألمانيا ، وحال دون بروز هذه القيصرية .

هناك ايضاً - وماذا ينبغ ؟ - قيصرية فرنسية ، فقد سبق للفرنسيين واعلنوها
القيصرية الفرنسية عالياً ، مراراً وتكراراً ، انه ليس ما يربطهم بالامبراطورية قط . « فالملك
هو الامبراطور في مملكته » . وها هو شارل الثامن يهبط ايطاليا ، ويتوغل بعيداً نحو الشرق ،
مقرئاً صليبية ، ويتزوّد بما يؤيد خلافته لامبراطور القسطنطينية . فها هو يدخل نابولي
حاملاً على هامته تاجاً من الذهب ، ممكاً بيده الصولجان الامبراطوري والكرة الارضية ،
والشعب يتف له بجلء جوارحه . « ليمش الامبراطور صاحب الجلالة » . فاذا بالهلع يدب في
قلوب الالمان ، وراحوا يفسرون مخاوفهم انه انما يسعى وراء لقب امبراطور الامبراطورية
الرومانية الجرمانية المقدسة . وهذه القيصرية الفرنسية التي تبلورت في رغبة الفرنسيين السيطرة
على ايطاليا بترشيح الملك فرنسوا الاول نفسه لانتخابات الامبراطور عام ١٥١٩ ، حل محلها ،
بعد فوز شارل الخامس بها ، سياسة دفاعية تجاه آل هابسبورج .

قيصرية آل هابسبورج تجلّبت لبوسين مختلفين : شارل الخامس ، هو وريث
القيصرية البورغونية العائلة الملكية في النمسا وهو الوريث لامراء بورغونيا واملاكهم الطائلة ،
كما هو صاحب تاج أراغون وقشتالة ، الذي اصبح ، عام ١٥١٩ ، امبراطوراً على الامبراطورية
الرومانية الجرمانية المقدسة . هو اولاً ، وقبل اي شيء آخر ، شارل العظيم ، شارل الكبير ،
البورغوني الاصل والحمد ، يحمل في نفسه نزعة بورغونية قوية الى القيصرية تسيطر عليه
وتتملكه . فمطلبه الاغر وهدفه الاول هو استرجاع تركة شارل الجسور ، من ملوك فرنسا ولا
سيا استخلاص دوقية بورغونيا وعاصمتها ديجون ، ودير رهبان شارتر في شانغول ، حيث يرقد
بالرب ، اباؤه واجداده ، ثم انشاء دولة بورغونية ، مهيبة الجانب ، تهيمن على الغرب وتقود
منه الخطى . هذا هو حلمه الاكبر ، وفي سينل هذا الحلم الموصول ، يحلو له ان يسخر الممالك
والدوقيات والكوتتات والامبراطورية نفسها . فقد صارت خطته هذه الى فشل ذريع اذ ان
معاهدة كيريه التي عقدها مع فرنسوا الاول ، عام ١٥٢٩ ، كرست نهائياً ، اقتسام تركة
شارل الجسور .

وهذه القيصرية التي جاش بها آل هابسبورج ، نراها تنقص من جديد في
القيصرية القشتالية شخص شارل الخامس لتبرز قيصرية اسبانية ، قشتالية . اخذ شارل
الخامس يتطبع ، شيئاً بطباع آل قشتالة . أليست قشتالة هي خير من فهم احلامه وآبائهم ،

وخير من امثل له وخير من أمدّه بالاصفر الرنان والجيش الجرامة ؟ فهو يتزعم اسبانيا
ويقودها للسيطرة على ايطاليا . فصقلية تمد اسبانيا بالقمح الذي لا يتوفر لها بالقدر الكافي .
وقامينا للاعتمادات التي تؤمنها له المصارف الالمانية ، رهن املاك التاج في نابولي . ودوقية ميلانو
هي المرحلة الاولى والقلمة التي تُفنضي اليها مجازات جبال الالب .

والانتصارات التي يحققها في ايطاليا تضع تحت تصرفه خزائن رجال المال في جنوى
وفلورنسا ، الى ان يتم له ، بعد لأي قصير ، طرد الفرنسيين من ايطاليا .

وها هو يقود اسبانيا للسيطرة على الامبراطورية . فالجيش الاسباني يؤمن له النصر في
موهلبيرغ (١٥٤٧) وينتصر على البروتستانت الالمان وعلى حلف شمالكلاند . والحاميات
الاسبانية تتحكم بكل ألمانيا . فشارل الخامس يرغب من كل قواه ويتوق في الصميم ، الى
تتويج ابنه فيليب ملكاً رومانياً ، بالرغم من جنسيته الاسبانية ، ويعمل منه الامبراطور
المتيد . فظنون الالمان وهو اجسهم لها ما يبررها : فهم امام محاولة لبسط سيطرة اسبانيا عليهم .
« فاذا كان لا حق لاي ولش ان يتحكم بنا ، فكم بالاحرى ، لاي اسباني » . فراح السواد
الاعظم من الالمان يعطفون على شقيقه فردينان وعلى ابنه مكسميليان . فمُنذ عام ١٥٢٢ ،
تحتل شارل الخامس لاهيه ، عن ممتلكات آل هبسبورج في النمسا وفي المانيا . كما اختاره ليكون
نائبه العام في هذه الاخيرة . فمُنذ عام ١٥٣١ ، اصبح فردينان ملك الرومان . والمقاومة التي
اظهرها هو وابنه ، لاهيه شارل الخامس ، حلت هذا الاخير على التراجع ، وفي سنة ١٥٥١ ،
اضطر الى ان يسحب من جميع انحاء المانيا ، الحاميات والكتائب الاسبانية المرابطة فيها ، بعد
الذي شاهده من احتياج الالمان وبغضهم لها . ولذا لم يكن بدّ من التسليم بانسحاب الاسبان ومن
اقتسام تركة آل هبسبورج . وفي سنة ١٥٥٨ ، تنازل شارل الخامس عن لقب امبراطور المانيا
الذي كان يحمله منذ عام ١٥١٩ ، وعلى الاثر ، تم انتخاب فردينان امبراطوراً وصارت اليه
جميع املاك آل هبسبورج المتوارثة ، كما صارت اليه المسالك المؤدية الى مجازات الالب
والمداخل الموصلة الى قلب اوروبا . الا ان الانقسامات التي قامت في ايطاليا ، والخطر التركي
الجالم بالقرب منها ، جعلت هذه القيصرية لا توحى باي خطر .

احتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية فاقصرت القيصرية التي جاش بها على غربي
اوروبا . فكما ان والده سخر فكرة بسط سيطرته في خدمة القيصرية المتتابعة ، سخر فيليب
الثاني ، عن حسن نية منه ، الفكرة الدينية التي مثلها ، في خدمة للقيصرية الاسبانية : فقد
برّز المدافع الاول عن الكاثوليكية ضد المهرطقة . حاول ان يخضع لسيطرته ، البلاد الواطية
ليجعل منها قاعدته الكبرى . لتوجيه ضرباته ايضاً شاء . فقد حاول ان يسيطر على انكلترا وان
يبسط سلطانه على البهار الضيقة بزواجه من اليسانبات ثم محاولته غزو انكلترا ، عام ١٥٨٨ ،
بواسطة اسطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد ان مفي بالفشل ، توجه جهوده نحو فرنسا ولا
سيا ضد هنري ده نافار المهرطوقي المطالب بالعرش ، وهياً جميع الاسباب ليرشح نفسه لعرش فرنسا ،

ثم رشح له ابنه ايزابيل . فشلت خطته تلك ، فاضطر معها الى عقد معاهدة فرفين (١٥٩٨) التي جاء عقدها تكرساً لهذا الفشل . فقد اصطدمت القيصرية الاسبانية ، اينما ظهرت ، بالروح القومية ، والشعور الوطني . فالقيصرة التي جاءت أصلاً ، ربيبة الروح القومية ، وجدت في القوميات المهددة ، حداً لآمالها ، وصدأ لآمانها .

هل يجوز بعد هذا ، التحدث عن قيصرية انكليزية ؟ فالسياسة الانكليزية القيصريات البحرية استهدفت دوماً التوازن الدولي . وقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا دوماً بمدينتي بولوني وكاليه ، وبذلك يؤمنون السيطرة على المسالك والممرات من بحر المانش الى البحر الشمالي ، وعلى ملتقى المحيط الاطلسي بالبحار الشمالية ، ومنافذ البحر الابيض المتوسط الى البلدان المحيطة بالبحر البلطقي . وقد بقيت السيطرة ، على هذه المواقع ، في نهاية الامر ، بيد الفرنسيين .

مثلت الاجيال الوسطى الحقبة التي كانت فيها حرية البحار مطلوبة للجميع . ولكن ما كادت بعض الدول تطل على العصر الحديث حتى نزعَتْ نفسها للسيطرة على بحر او عدة بحار ، فالبنديقية هدفت ، منذ القرن الثالث عشر ، للسيطرة على البحر الادرياتيكي ، كما هدفت ، جنوى من جهتها ، منذ القرن الرابع عشر ، للسيطرة على البحر الليغوري ، والدانمارك على البلطيق ، والنرويج على المحيط الاطلسي حتى مشارف اسلندا وجرينلاند . والدولة الاستعمارية كثيراً ما رغبت في اقامة نوع من الاحتكارات والى فرض الرسوم وجبايتها ، لقاء حرية الصيادين والتجار ولتأمين سلامة السفن التي ترفع علمها .

قيصرية البحر المتوسط كثيراً ما جاءت القيصرية البرية نتيجة للسيطرة على البحار . فالقيصرية الاسبانية لا يمكن تصورها الا بعد تأمين سلامة وامن الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط حيث قامت ام الممتلكات الاسبانية . فالحرب البحرية رمت دوماً للسيطرة على بعض القواعد المهمة الواقعة على سيف البحر . فالعواصف الشديدة والارياح المزمجرة ، وصغر السفن وسرعة عطبها ، اجبرت الملاحة على السير بالقرب من السواحل البحرية ، وارجبت عليها إقامة شبكة ، من المرافئ تؤمن لها حاجتها من المؤن والذخائر ، فقد كان من السهل احتلال بعض هذه الموانئ ، وقطع المواصلات البحرية ، بعد ان أُلِفَ الاتراك كل سنة تقريباً ارسال عمارة من سفنهم ، للقيام باعمال القرصنة في البحر وسلب المناطق المحيطة به . وكَم من مرة هب الفرنسيون لمساندتهم ومعاضدتهم ، وذلك بوضع القواعد التي كان الاتراك بحاجة اليها (طولون سنة ١٥٤٤) . ولحسن حظ الاسبان ، انه لم يخطر يوماً للاتراك في البال - وجبل مهم من القرصنة النهب والسلب والاستباحة - ان يذهبوا بعيداً في قرصنتهم ، او ان تحدتهم النفس ، باغلاق البوابة القائمة بين نابولي وميسينا . فبعد وفاة هنري الثاني ، اختفت من مياه البحر المتوسط ، السفن الفرنسية التي كانت تقوم فيه باعمال القرصنة ، وعزَفَ الاتراك عن

مغامراتهم الحربية في هذه المناطق، بعد أن سُدت في وجههم القواعد الفرنسية، إذ أن حروبهم مع الفرس والامبراطور اضطرتهم للتوقف عن هذه الاعمال العدوانية، كما كان لهم من مشاغلهم الداخلية كأمر الخلافة، والقضايا الاقتصادية ما أثار في وجههم المراقيل والمصاعب. فقد تم للحلف المسيحي المقدس النصر على الاتراك العثمانيين، في معركة ليبانت، (١٥٧١). وهكذا تم طرد الاتراك من حوض البحر المتوسط الغربي. ثم ان الاتراك والاسبان اتجهوا، بانظارهم نحو المحيطات واصبح البحر المتوسط، بنأى من الطرقات البحرية الكبرى، واصبح بالتالي في المرتبة الثانية من النشاط والحركة التجارية، بعد ان كان، من قبل، قطب الحركة ومحورها الرئيسي. وهكذا اخذ مجال السيطرة يتجه الى المحيطات.

القيصرية المحيطية وهكذا لم تلبث القيصرية القارية مرتبطة، الى حد بعيد، بالسيطرة الأوروبية على المحيطات. فلم يكتف البرتغاليون والاسبانيون بتأسيس امبراطوريات واسعة لهم، بل راحو يعتقدون يقيناً ان الله اختصهم دون سواهم بتملك الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف في المستقبل. وظهرت براءات باوية عديدة تؤيد وتقر المواثيق التي توصل الطرفان الى عقدها، بهذا الصدد، وتحدد مناطق نفوذ كل دولة منها محاولتين ان تقصي عنها او ان تحرم منها، الدول الاخرى. واهم المواثيق التي عقدت بين الاسبان والبرتغاليين، في هذا المجال هي معاهدة تورد سيلاس (١٤٩٤) التي أقامت الحدود الفاصلة بين ممتلكات الطرفين عبر المحيط الاطلسي، عند خط يمتد ١٧٠ فرسغاً الى الغرب من جزر الرأس الاخضر، كما حددت معاهدة سرغسطة (١٥٢٩) الخط الفاصل بين املاك الطرفين في المحيط الهادي، على بعد ١٧٢ درجة الى الشرق من جزر المولوسك.

فالاسبان والبرتغاليون تشبعوا من فكرة قدسية هذه النصوص التي كرسحت احتكاراتهم لهذه الكشوف الارضية والملكيته لهذه البلدان التي ظهرت لهم. فالناهضون لها او المتجرئون على مخالفتها يستهدفون للحرم. فقد نظروا الى كل حملة او تجريدة تجارية، او الى اية محاولة استعمارية يقوم بها الغير، نظروا الى عمل قرصنة موجه ضدهم، ولذا استهدف كل من تحدّثه نفسه باتيان شيء من هذا، للقتل والمذاب والتشهير، مصير كل خائن مارق.

والحال، فقد اصبحت هذه الامبراطوريات الاستعمارية، عاملاً هاماً في السياسة الأوروبية بما امنته لدول أوروبا ولامراتها من المعادن الثمينة، وصلتها، في بدء الامر، بمقادير ضئيلة محدودة، لم تلبث ان ارتدت اهمية كبرى، لدى شارل الخامس، بعد ان تم له فتح المكسيك على يد ممثله كورتيس (١٥٢٠-١٥٢٢)، وفتح البيرو، على يد بيزارو (١٥٣١-١٥٣٦)، واخيراً بعد ان تم اكتشاف مناجم الفضة الفنية، الواقعة في مدينة بوتوزي، عام ١٥٤٥. فالامبراطورية البرتغالية مثلت، مدة طويلة، دوراً كبيراً، في المجال الاقتصادي، اذا ما قيس بالدور السياسي الضئيل الذي لعبته في المجال السياسي، بالنظر لصغر حجم البلد الأم.

الا ان فيليب الثاني ، تمكن ، عام ١٥٨٠ ، من فتح البرتغال ، والاستيلاء على البلاد ، وحل البرتغاليين . عام ١٥٨٢ ، على الاعتراف بسلطانه وسلطته ، فاضاف بهذا الفتح ، الى ممتلكاته الواسعة ، ما كان من امثاله للبرتغاليين من مستعمرات شاسعة الارحاء ، وصرف كل همه اذ ذاك ، لرعاية هذه الامبراطوية العالمية الشاملة . وهذه الحروب التي خاضها في السنوات الاخيرة من عهده ضد انكلترا وهولندا وفرنسا ، لم تكن لقرمي ، في نظره ، الا لتأمين سيطرته على المواصلات في المحيط الاطلسي . فالحرب ضد الاتراك جعلته ينصرف عن البحر المتوسط ويحمل امره فيه ليولي كل همه الى المحيط الهندي ، تأميناً منه السيطرة على مناجم الذهب في صوفالا . من ينظر الى خارطة العالم ، اذ ذاك ، يحيل اليه انه اذا كان شارل الخامس وابنه فيليب الثاني ، قد غلبا على امرهما في اوروبا ، فقد حققا ، في اماكن اخرى ، نجاحات عظيمة ، وان اهم ممتلكاتهما هي المحيط الاطلسي وامبراطوريتهما ترامت من حدود هذه الامبراطورية ، في اوروبا ، الى اميركا ، في الغرب . كل هذا وهم في وهم . فواردات اميركا لم تكن لتمثل سنة ١٥٥٤ ، سوى ١١٪ من مالية الدولة ، ثم ارتفعت الى ٢٥٪ عام ١٥٨٥ ، فقوة شارل الخامس وفيليب الثاني تبقى في اسبانيا وفي ايطاليا . فامبراطوريتهما هي قارية ، قبل كل شيء ، مع فروع لها بالطبع ، عبر الاوقيانوسات .

هذه القيصرات التي استمرضا لاهما في بحثنا هذا ، حلت على التصدي التوازن الدولي لها ، والوقوف بوجهها والصمود امامها ، هذه الدول الاخرى التي تمثل نزعات ومصالح القوميات التي تألفت منها . فقد حاولت مجتمعة ، منع اقواها واشدها ، اذ ذاك ، من تحقيق اهدافها ، وراحت تتحالف لاقامة توازن بين الدول ، اي اقامة ميزان او قسطاس لهذه القوى . وهذه النظرية لم تلبث ان اصبحت القاعدة التي سار عليها مبدأ التوازن بين الدول الاوروبية ، والفكرة التي سلت بها الاجيال الوسطى بوجود تدرج مسلسل بين الممالك حلت محلها نظرية : دول حرة متساوية . وفكرة التوازن الدولي هذه عرفتها ايطاليا من قبل ، وطبقتها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وما خلف البندقية ، (مارس ١٤٩٥) الذي ألج ضد شارل الثامن : البابا والبندقية ، وميلانو وآل هسبورج وآراغون وقشتالة ، الا ايداناً بانتقال مبدأ التوازن الدولي ، من ايطاليا الى اوروبا والعمل بموجبه كعاعدة اساسية للسياسة الاوروبية . وقد اصبحت انكلترا روح هذه السياسة وباحتها ، مع انها اشتطت مراراً في تطبيقها وجارت ، بدافع الحقد التقليدي الذي تحمله ضد فرنسا . ومبدأ التوازن هذا ، ادعى الى عقد عدة احلاف ، منها مثلاً : الحلف المقدس الذي عقد عام ١٥١١ ، وحلف كونياك المعقود عام ١٥٢٦ ، وغيرهما ، بعد ان ضربنا صفحاً عن عدد كبير من الموائيق المتذبذبة .

اما المحيطات فلم يتحقق بشأنها اي توازن ، انما طلعت علينا نظرية حرية البحار ، ونظرية الاحتلال الفعلي او الواقعي . ففي سنة ١٥٣٣ ، قال فرنسوا الاول ، من البابا اقليمس السابع ،

تفسيراً لهذه البراءات البابوية التي صدرت عام ١٤٩٣ والتي استثنت نصوصها القارات المعروفة قبل عام ١٤٩٣ ، وليس الأراضي الجديدة التي يمكن اكتشافها فيما بعد ، على يد الدول الأخرى . وذهب فرنسوا الأول الى أبعد من ذلك ، عام ١٥٤٠ ، فاسمعه يقول : « ان الشمس تشرق له كما تشرق لغيره ، ويتوق كثيراً لو يستطيع الاطلاع على الوصية التي تركها ابونا آدم وقسم الأرض بموجبها بين ذريته » .

وصرح بأن احتلال الأرض وحده يولي حق التملك ، وبأن اكتتال العين بمراى الأرض التي تلوح للنظر من بعيد ، او مجرد عبورها ، لا يعطي قط حجة بتملكها ولا يقيم سند تملك ، وبأنه يعتبر مملوكة : « الاماكن المأهولة والتي جرى تحصينها » . فنحن هنا امام الاسس التي قام عليها الاستعمار الحديث .

السياسة الإيمانية تنهض السياسة ، قبل كل شيء على وزن القوى القائمة وتقيم العناصر التي تتألف منها بالنسبة بعضها لبعض . فالقانون او العامل الأخير هو المصلحة المتفهمة حق الفهم ، والقاعدة الوحيدة هي الفعالية او النجاح . وكثيراً ما اقسوا بالله وامشيدوا بالاخلاق الأدبية ، وهي امور لم يعد احد ليهتم بها او ليحترث لها . فبابوات تلك الحقبة ، هم انفسهم أعطوا المثل على احتقار الكلام المقطوع . فاذا كان لهم حق الربط والحل ، فقد كانت بوسعهم ، طبعاً ، ان يحتلوا انفسهم : فلم يشعروا يوماً ، بأي التزام يقيدهم ، لانهم ذبلوا او وقعوا وثيقة او صكاً حرروه . فقد نسفوا من الاساس الاخلاقية الشريفة التي كانت توصي باحترام الكلام المقطوع ، واواصر الشرف ، وهذه المثل النبيلة التي كانت الباعث او الدافع لكارم الاخلاق . وعلى هذا دشّن البابوات عهداً جديداً وسياسة جديدة ، في العلاقات الدولية .

غامت فكرة الصليبية في الاذهان مع انه لا يزال هنالك من يثير هذا مسيحين وخوارج الموضوع ويلجج به . فقامت ، في هذا السبيل ، عدة المحاديات ضد الاتراك (١٥٠٨ و ١٥١٨) كانت مظاهر ومناورات أكثر منها وقائع جدية . فالبابا جول الثاني نفسه اعطى المثل على طمسها . فقد اقتطع قدراً من المبالغ المجموعة لاغراض الصليبية لاستكمال بناء كاتدرائية القديس بطرس . والبابا اينوشنتيوس الثامن تقاضى من السلطان بايزيد جملة دسمة لقاء احتجازه ، في روما ، شقيق السلطان ، المدعو دجم سلطان الذي كان منافساً لاختيه على عرش السلطنة . كذلك ، استقبل البابا استقبالا مهيباً سفير السلطان بايزيد بحضور مجلس الكرادلة وممثلي الدول المسيحية في روما . وفرنسوا الاول ، عقد حلفاً مع الاتراك لانهم يستطيعون ان يهاجموا الامبراطور من السوراء ، في اوروبا الوسطى فيقطعون ، على شارل الخامس ، خطوط مواصلاته في البحر المتوسط ، وهي اعمال تنفق تماماً وسياسته الوطنية . ومنذ عام ١٥٣٤ ، عقد على المكشوف معاهدة مع المسلمين ، كما وقع ، عام ١٥٣٦ ، اول معاهدة فكرس سيطرة فرنسا التجارية في بلدان الشرق الأدنى . وشارل الخامس نفسه توصل في نهاية الامر ، الى عقد اتفاق مع

المسلمين في تلسان وفي تونس ، كما ان اخاء فردينان دخل في مفاوضات مع الاتراك ، ودفع لهم الجزية .

شجب الرأي العام المفاوضات التي اجراها الملوك المسيحيون مع المسلمين . رأي عام ودعاة وكان واضحاً ان هؤلاء الملوك لا يستطيعون الاضطلاع باعباء الحكم الا اذا عرفوا ان يؤمنوا عطف الرأي العام ، خوفاً من قيام معارضة في وجههم . ولذا قاموا ينظمون الدعاوة . ففي عام ١٥٣٦ ، فرض شارل الخامس على البابا ان يلقي في مجلس الكرادلة ، خطبة طويلة ، يشهر فيها بالملك فرنسوا الاول ، ويفضح جرائمه ويحمله المسؤول الاول عن الحرب ، « هذا التركي » مضطهد اللوثريين . وقد تمت ترجمة هذه الخطبة الى كل اللغات وجرى توزيع نسخ منها في كل البلدان ، بواسطة مطابع أنفوس . وقد راح حزب الامبراطور يلعب فرنسوا الاول بـ « تركي » . أما فرنسوا الاول فقد عهد الى الاخوة *Du Belay* ان ينظمو له اشبه ما يكون بكتاب صحفي يكون فيه من الكتاب والسكرتيرية من يحسنون الفرنسية واللاتينية والالمانية ، مع مراسلين له في جميع انحاء اوروبا ، من أبرزهم جان سليدان ، في ستراسبورغ ، فاغرقوا البلاد بطائفة من المنشورات والهاجبي ضد شارل الخامس الظالم الظلوم .

كان فرنسوا الاول هو اول من حرك او أطلق النظرية التي تقول بوجود موافقة الرعايا بحرية ، على اي قرار يتعلق بمصيرهم . فكل حوادث دمج ولايات البروفانس وبورغونيا وبريتانيا ، الى املاك العرش التي وقعت منذ اواخر القرن الخامس عشر ، انما تمت بناءً على اتفاق نص صراحة على حق تصرف الشعوب بنفسها بحرية . الا ان تنازل فرنسوا الاول عن مقاطعة بورغونيا لشارل الخامس ، بموجب معاهدة مدريد ، عام ١٥٢٦ ، بعد انهزامه في معركة بافيا ، لم يتحقق ولم يحصل ، لان عقد هذه المعاهدة جاء مخالفاً لهذا الحق . ففي عام ١٥٢٦ ، اعلن سكان دوقية بورغونيا بانهم يرغبون « في البقاء على ولائهم لعرش فرنسا وليس للامبراطور » ، متمسكين بالمبدأ القائل بانه لا يجوز نقل شعب ، من سلطة الى سلطة اخرى ، بدون رضا هذا الشعب وموافقته .

وكما ان اللغة راحت تفرض نفسها في كل انحاء المملكة ، فقد ألغيت الرقعة التي سيطرت عليها لغة ما ، وطنياً او جنسية . ففي سنة ١٥٥١ ، قدم الامراء الالمان للملك هنري الثاني الوكالة على مدن الامبراطورية التي تتكلم اللغة الفرنسية . وهذا التصرف حمل الملك هنري الرابع على ان يصرح فيها بعد : « أرغب في الصميم ان تذهب المقاطعات التي تتكلم الالمانية الى المانيا ، كما افهم جيداً ان تكون لي كل المقاطعات التي تتكلم الفرنسية » .

غلبت الاصلاح احياناً ، الشعور الديني على الشعور الوطني او القومي ، الاصلاح والامم كما يشهد على ذلك بوضوح ، تاريخ اوروبا بين ١٥٦٠ - ١٥٩٠ . فقد راح اتباع الدين الواحد يظاهرون بعضهم بعضاً ، أياً كان البلد الذي ينتمون اليه ويمسكون السلاح الى جانب ابناء ملتهم ولو كان موجهاً ضد مواطنيهم . غير ان الاصلاح راح يشجع ، على الاجمال

ظهور القوميات . فاسبانيا وحدها بين الدول الكبرى في الغرب ، قضت على الهرطقة الجديدة بسرعة ، وراح الاسبان يعتقدون ، في قرارة انفسهم ، انهم شعب السيد المسيح الخاص وجندالله . فالقيصرية الاسبانية ، في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني اعتبرت نفسها صليبية اسبانية ، فالشعور الديني هنا وطد كثيراً الشعور القومي وقواه .

اما في انكلترا ، فحرب المائة سنة غذت في البلاد شعوراً وطنياً صحيحاً ، انما كانت شعوراً فاتراً لأن البلاد لم تكتو ببنار هذه الحرب ولم تتعرض بويلاتها ، وبقيت الاراضي والممتلكات سالمة لم تتعرض لاعمال السلب والنهب والاستبزاز ، كما ان الاهلين بقوا بعيدين عن ويلاتها . فقد جاء الاصلاح الديني فيها يلهب الشعور القومي في النفوس ويؤججها حقداً وموجدة على البابا والدول الكاثوليكية . ولم تلبث انكلترا ان اصبحت حامية الاصلاح والمناضلة دونه ضد فيليب الثاني بعد ان تفجرت فيها الروح القومية .

اما في المانيا ، فقد تحسست البلاد بشعور عام ضد العرش وايطاليا ، فقد شطرها الاصلاح شطرين اضعفا من شأنها كدولة ذات بأس ونفوذ . وبعثت حركة الاصلاح فيها الى الوجود ، قوميات جديدة ، تركزت وتراصت دينياً حول اميرها او مليكها . وعلى هذا قس ، الاصلاح في البلاد الواطية ، اذ فرض على هذه البقية الباقية من القومية البورغونية فخلت فيها قوميتين متباينتين .

ففي اواخر القرن نرى الشعور القومي يتغلب ويسيطر في كل مكان ، ففي عام ١٥٩٨ ، يشكو بوسفين من ان الرهبان اليسوعيين الفرنسيين لم يقبلوا برئاسة رئيس ايطالي عام عليهم ، وراح الرهبان اليسوعيون يستبدلون الكتب الاجنبية الموجودة في التداول بينهم بكتب من وضعهم هم . وهكذا فالحركة الانسانية نفسها تأمت ، والفردية القومية فازت بالنهاية وتغلبت على الروح الشعبية والدينية .

٣ - قيادة الحرب والسير بها

كانت الحرب تُشهر رسماً يُعلنها نذير الجيش او رائده ، بين الحرب الطويلة والحرب القصيرة
اشتهر منهم غويين في فرنسا ، وكلارانس في انكلترا ، وبورغونيا ، لدى شارل الخامس ، فيقوم احد الفريقين المتحاربين بمهاجمة الآخر . وقد يحدث احياناً ان ينهض منافس لأحد الفريقين فيحاول التوفيق بين اعداء خصمه ويضرم فيهم الحماسة ويوضع تحت تصرفهم ما يلزم من المال . وكثيراً ما عمد فرنسوا الاول ، حتى في اوقات السلم ، الى تغذية الحقد والضغينة في خصوم الامبراطور شارل ، كما فعل بعد معاهدة كمبريه ، ويؤلب عليه الامراء الالمان الذين يؤلفون حلف شمالكلاند ، والهنغاريين والعثمانيين ، وغيرهم .

التحوم الآسيوية تجري الحرب في القارة الأوروبية ، يفصلها عن الآسيويين من اترك وتثار ، منطقة حصينة تجمعها في منأى عنهم . فقد قامت على جنبات البحر المتوسط سلسلة من الحصون والقلاع ، كهذه الحاميات تقيمها البندقية على سواحل إستريا ودلماتيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي جزيرة كريت وقبرص ، وهو خط امعن الاتراك في مهاجمته وإيهانه فضصف وتفتت . وهناك خط آخر من الحصون قام على جبهة نابولي وصقلية يؤلف مضيق مسينا منه الباب ، والرتاج . وقام خط آخر من الحصون الاسبانية على طول سواحل افريقيا الشمالية . وقام في البر الاوروي خط من الحصون الالمانية امتد عبر مقطعات كرواتيا والساف الاوسط ونهر الدراف الاوسط ومنطقة فيينا ، والصور الروسي على نهر الاوكها محاذياً للغابات الظلية . ومنطقة المدن الحصينة التي اخذت شبكتها بالاتساع والامتداد نحو الجنوب والشرق ، وكلها قلاع وحصون ركزت فيها المدافع لدرة خطر الفرسان بنقضون عليها من آسيا . وكانت المسافات والابعاد نفسها سلاحاً يلعب المصلحة المسيحيين . الا ان الصعوبة ، كانت تقوم في تامين هذه الحاميات وتوفير ما يلزم لها من هذا العدد العديد من حيوانات الجر التي لم يكن بد منها . كل هذه الموائق والصعوبات ، سببت الشلل في هذه الهجمات التي اعتاد الاتراك شنها واوهنتها اذ كانت حداثها تنكسر على هذه الحصون وكثيراً ما انتهت الى غير نتيجة .

الميليات الحربية ليس من جبهة لها معينة تكن عديدة ، اذ لم يكن المقصود تغطية الحدود التي لم تكن لتقف عند نقطة معينة . وقد وضعت على مر الاجيال ، شيئاً فشيئاً ، خطوط من الحدود ، في مناطق معينة ، فصر واضمو الخرائط وراسموها على لتحديد ما ، والحدود التي قامت على نهر السوم ، اثر الاعمال الحربية .

قلما كانت الحملات العسكرية حاسمة ، اذ لم يكن القصد منها ابادة جيش استراتيجية التتابع العدو كما حدث في معركة هرينيان ، مثلاً عام ١٥١٥ ، وفي معركة بافيا عام ١٥٢٥ ، ومعركة سان كنتان ، عام ١٥٥٧ . ومن النادر جداً ان يحمل ضياع معركة ، العدو على طلب الصلح . ولذا كان من المستحيل محاولة استنهار النصر واستغلال الظرف . فالمسافات الشاسعة وصعوبة تامين الجيوش عن طريق فرق التجهيزات الحربية ، وتأمين اود الجيوش المحاربة في ارض العدو المستباحة ، كل ذلك كثيراً ما اضطر الجيش سعه الى الانكفاء او التوقف . ولهذا قلما خطط قادة الحرب لهجوم صاعق يبلغ معه الجيش قلب البلاد والمراكز الحساسة فيها . فالجرب هي ، بالاحرى ، حرب حصار ، وضمت ستراتيجيتها على اساس انذاك المراكز التتابع بطريقة منهجية ، وذلك باحتلال الحصون ، ومراكز الدفاع ومستودعات التامين ومخازن الميرة الواحد تلو الآخر ، والانتظار ريثما يضطر العدو لطلب الصلح ، بعد ان تقل لديه الميرة والتجهيزات وتشتد لديه الحاجة للتد . فالجرب هي حصيلة آخر لميرة في خزينة الدولة .

ولذا تحتم على المحاربين السعي والعمل لاحتلال ثغور العدو ، وهي بمثابة الابواب
التغور والنوافذ التي تقضي الى قلب البلاد ، والمسالك الطبيعية التي تؤدي اليها : كمقاطعة
السافوى - بيامونت مع سوز ، بنيارول وتورين ، ومقاطعة ميلانو ، والسوم الاعلى (سان -
كنتان - برون) مزير ، والتغور المؤدية الى نهري الموزيل والموز (مدن : ماز وقول وفردون) .

قطع « المواصلات الحربية الكبرى » اي هذه الطرق التي تسلكها الجيوش ، وقطع
الطرقات موارد النقد على العدو وغير ذلك من الوسائل ، هي من بعض نقاط الخطة الحربية
التي عرضت احيانا للمعنيين بامور الاستراتيجية ، وان لم تتضح لهم يوماً بيلاء . وقد جرت محاولات
جريئة ، خلال القرن ، ضد سلسلة المواصلات الطويلة التي ربطت امبراطورية آل هابسبورج ،
في العالم الجديد ، بالبلاد الواطية ، عبر المحيط الاطلسي . فالقرصان الفرنسيون الذين اتخذوا من
رأس سان فنسان في جزر الازور والجزر الحسالدات (جزر كناري) كانوا ينقضون فجأة على
قوافل السفن البرتغالية والاسبانية ويستولون عليها . وفي سنة ١٥٢٢ ، تمكن جان فلوري ، من
سكان مدينة هونفلور ، من الاستيلاء على ثلاث سفن من سفن الكرافيل التي كانت تنقل الكنوز
التي جمعها كورتيس في مكسيكو . وفي اواسط القرن ، اضطر شارل الخامس ان ينظم عبور
السفن في المحيط الاطلسي ، بواسطة قوافل محروسة فاصبحت هذه الطريقة القاعدة التي عمل بها
باستمرار . ثم ظهر القراصنة الانكليز ، امثال درايك وهوكنز وفروبشر وراحوا يتعرضون
للسفن الاسبانية في خليج برزخ بناما الذي كان صلة الوصل بين الممتلكات الاسبانية في العالم
الجديد على سواحل كل من المحيطين الاطلسي والهادي ، الا ان السفن الاسبانية استطاعت ، مع
ذلك التملص بمحولاتها وتقادي الوقوع بين ايدي القراصنة الانكليز ، فبقيت المواصلات بين هذه
المستعمرات مؤمنة ، على الاجمال . وقد قطع الانكليز والهولنديون خط المواصلات بين بلباو
وأفئرس ، منذ عام ١٥٦٨ ، وبقيت الطريق الرئيسية الطريق التي تمر بالبحر المتوسط من اسبانيا
الى ايطاليا لتأخذ الطرق التي تمتد من ايطاليا الى مقاطعات الرين ومنها الى البلاد الواطية ،
مارة بمجازات الألب ومقاطعة الكونتية ، واللورين ، او عبر الازراس والبلاتينا . وفي سبيل
تأمين سلامة هذه الطريق ، راح شارل الخامس يحاصر عام ١٥٢٤ ، مرسيليا ، كما انه هاجم ،
عام ١٥٣٦ ، مقاطعتي البروفانس واللانغدوق . ولكي يتمكن من قطع هذه الطريق ، عند
عقدتها الاساسية راح لوتريك ، عام ١٥٢٧ ، وغيز عام ١٥٥٧ ، يهاجمان نابولي . فبعد عام
١٥٥٩ ، وهبوط شان فرنسا ، استطاع الاسبان ، ان يستعملوا خط برشلونة - جنوى مباشرة .

الاتصال بين كثيراً ما وقفت الموارد الاقتصادية حائلاً دون نهوض شارل الخامس
ساحات العمليات الحربية بالحروب التي شنتها على عدة جبهات . فبعد الانتصار الساحق الذي
ناله في بافيا ، عجز عن متابعة هجومه حتى حدود فرنسا ، حاسباً حساب الخطر التركي
والاضطرابات القائمة في المانيا ، والعداوة التي انطوى عليها الايطاليون ضده ، وحاجته

الملحة للمال ، كل ذلك فت في عضده . فبعد انتصاره في معركة سريزول (١٥٤٤) احدى قرى مقاطعة البيامونت ، اضطر فرنسوا الاول ، الى سحب بعض فرقته من هذه المقاطعة دراً للخطر الذي يهدد مقاطعة الشبانيا . والجهد الضخم الذي بذله فيليب الثاني لتأمين النصر على الاتراك في معركة ليبانت (١٥٧١) اضطره هو الآخر للاسترخاء في موقفه من البلاد الواطية . ان تعدد ساحات القتال والاعمال الحربية ، وبطء المواصلات ، والصعوبة التي كانت تعترض جلب الامدادات ، وتأمين الاعتمادات اللازمة للنهوض بالحرب ، في الوقت المناسب ، وتأمين التنسيق والتعاون فيما بين هذه العناصر ، كل هذا يفسر لنا الفشل النسبي الذي لحق بمشاريع شارل الخامس وفيليب الثاني .

لا تزال تقاليد الفروسية ، مرعية الجانب محترمة . فها هو شارل الخامس اعمال المبارزة يلمصق بفرنسوا الاول تهمة عدم الوثوق به ويدعوه للمبارزة ، فيرد عليه ملك فرنسا بان الامبراطور يكذب . وهو يقبل التحدي . كثيراً ما نرى زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتبارزون علانية برأى من الجيوش ، ايام الهدنة بين الطرفين ، حتى اننا نرى دوق ده غيز يميز عام ١٥٥٢ ، والحصار قائم حول مدينة متر ، لبعضهم القيام باعمال مبارزة .

الاسرى كان المتحاربون يحرصون جهدهم ، على اخذ اكبر عدد من اسرى الحرب ، طمعاً منهم بفدية الافتكاك ، مما ادى الى قيام صفقات ومساومات رابحة . فسي سان - كنتان ، اشترى ضابط اسباني من احد الجنود ، نائب قائد الجيش الاعلى في فرنسا . وكانوا ياخذون بحمد السيف كل من وجدوه في قلعة حصار فضل المقاومة على الاستسلام للعدو . تكون الحرب جد « موفقة » اذا ما تم الاتفاق بين المتحاربين ، على احترام اسرى الحرب ، وتعيين المبالغ المترتبة عليهم ، وفقاً لمراتبهم . وقد ادخل الاسبان عادة الافراج عن الاسرى ، اذا ما تعهد هؤلاء ان اقساموا الا يعودوا لحمل السلاح من جديد ضد محرريهم .

كثيراً ما حوّل القواد البلاد قفراً يباباً ليحولوا دون تقدم الجيوش الخراب واعمال التخريب العدو وتغلغلها في البلاد (مقاطعة بروفانس ، عام ١٥٣٦ ، مقاطعة ايسن عام ١٥٥٦) . وكم احلوا للجند ان يقوموا ، تشفياً وانتقاماً ، باعمال السلب والنهب والتمثيل والتعذيب والحريق ؟ فقد كان الالمان اساتذة في هذا المجال . ففي كل فوج او كتيبة من كتائبهم وأفواجهم ، قولى ضابط تنظيم هذه الاعمال وتنفيذها وفقاً لخطة يضعها ويشرف على الأخذ بها بكل دقة ، فلا يستثنى من القرى والدساكر الا ما دفع منه فدية تقادياً لاعمال التعسف والابتزاز والاعتصار ، اذا ما تلكا الالهلون عن دفع ما يترتب عليهم او ترددوا في ذلك . ومن هنانشأت عادة الوصول الى شيء من التفاهم بين سكان القرى ورجال الحرب . فاذا ما ساهم المديون بدفع مساعدات مالية او عينية ، اصبحت قراهم بمنأى من النهب والسلب وغير ذلك من أعمال العنف .

الحبياء كان من عادة الدول المحايدة ان تسمح للمحاربين المرور باراضيها ، نتيجة لهذا التفتت الجغرافي الذي اصاب اوروبا اذ ذاك . وكان الجانب المتحارب يتمهد خطياً باحترام حياد البلد وعدم مس الاهلين باي اذى ، وذلك عملاً بالقاعدة المرعية *Transitus Innoxius* . أما المقاطعات السويسرية ، فكانت ترفض حق المرور للمحاربين . فعند سنة ١٥٢٢ اعلنت مقاطعة فرانك كونتية محايدة لا يجوز اجتياحها ، وفقاً لنصوص المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والبلاد الواطية .

التدخل الاجنبي من العادات المألوفة ان تتدخل عناصر وقوى أجنبية في الحروب الاهلية الداخلية : فتدخل الفرنسيون في ألمانيا ، والانكليز والبروتستانت الالمان في فرنسا ، والاسبان الى جانب أعضاء العصبة (*Ligue*) الفرنسية . وتعرّف الملكة اليعصابات ، عام ١٥٨٠ ، بهذا المبدأ اذ تقول : من الواجب كذلك المبادرة للوقوف الى جانب ابنائ المذهب الواحد الواقعين تحت الاضطهاد .

الدعوة للسلام اطلقت الحروب وما تجر وراءها من الويلات والحزن والاحن ، الالسنه والاقلام للمطالبة ان لم يكن بوقفها والغائها ، فاقله بالتخفيف من شرورها فقد جاء في كتاب ايراسموس : « شكوى السلام » (١٥١٧) دعوة الى إقامة سلام عام فالحرب تحط من قيمة الانسان العاقل وتنتقص من شأن المسيحي . كل واحد يدعي ان مطلبه هو حق . ولذا كان لا بد من اجراء تحكيم في الامر . فمها يكن رأي الحكم ، فالقاعدة الذهبية هي ان سلاماً لا يتسم بالعدل خير من حرب عادلة .

الحق الدولي أجاز معظم الفلاسفة والمفكرين قيام حرب عادلة ، وكلهم أمل بان يتم إلغاء الحروب وذلك عن طريق إيقاف الضمير الدولي ، وعن طريق الحق الدولي . ولعل اشهر هؤلاء جميعاً هو الاستاذ الكاثوليكي فينتوريو ، احد اساتذة جامعة سلنكا الذي تمثل حلمه في هذا السلام الباسط رواقه على العالم ، هدف الانسانية الاعلى ، كما رأى في الحرب ، الشر الاكبر . ومع ذلك ، فهو يسلم بالحرب اذا كانت ترمي لتجنيب الانسانية شرأ اكبر ، او كانت في سبيل الدفاع عن النفس ، أو رمت الى ارجاع الحق إلى نصابه اذا ما رفض المعتدي التعويض عن الاضرار التي سببها ، أو لانقاذ الشعوب المسيحية ، الواقعة تحت اضطهاد المسلمين . فالحرب ليست بعادلة إذا ما أريد منها نشر الديانة المسيحية بالقوة لان الله لم يكلف أحداً من الناس ليثأر باسمه من المظالم التي تقع ، اذ ان الحرب التي يندلع لهابها تسبب من البلىا والشرور أكثر من تلك التي ترمي الى اجتثاث هذه البلىا . فالدول الأوروبية متساوية ، وكل واحدة منها هي كفاء للآخرى ، ومتكافئة الواحدة منها مع الاخرى ، وعليها ان تتعاون لازالة الحيف النازل بها والضرر الذي يصيب الجميع على السواء . « فالبشرية جمعاء تذهب فريسة المظالم أياً كان الفاعل ،

فعلى الدول ان تؤمن حرية التجول والانتقال ، ولا تمنع في إقامة الاجانب بين ظهرانيها ، شرط
الا يلحقوا اي أذى أو ضرر بأهل البلاد الاصليين . عليهم ان يؤلفوا جميعاً ، مجتمعاً بشرياً واحداً
وبشرية واحدة .

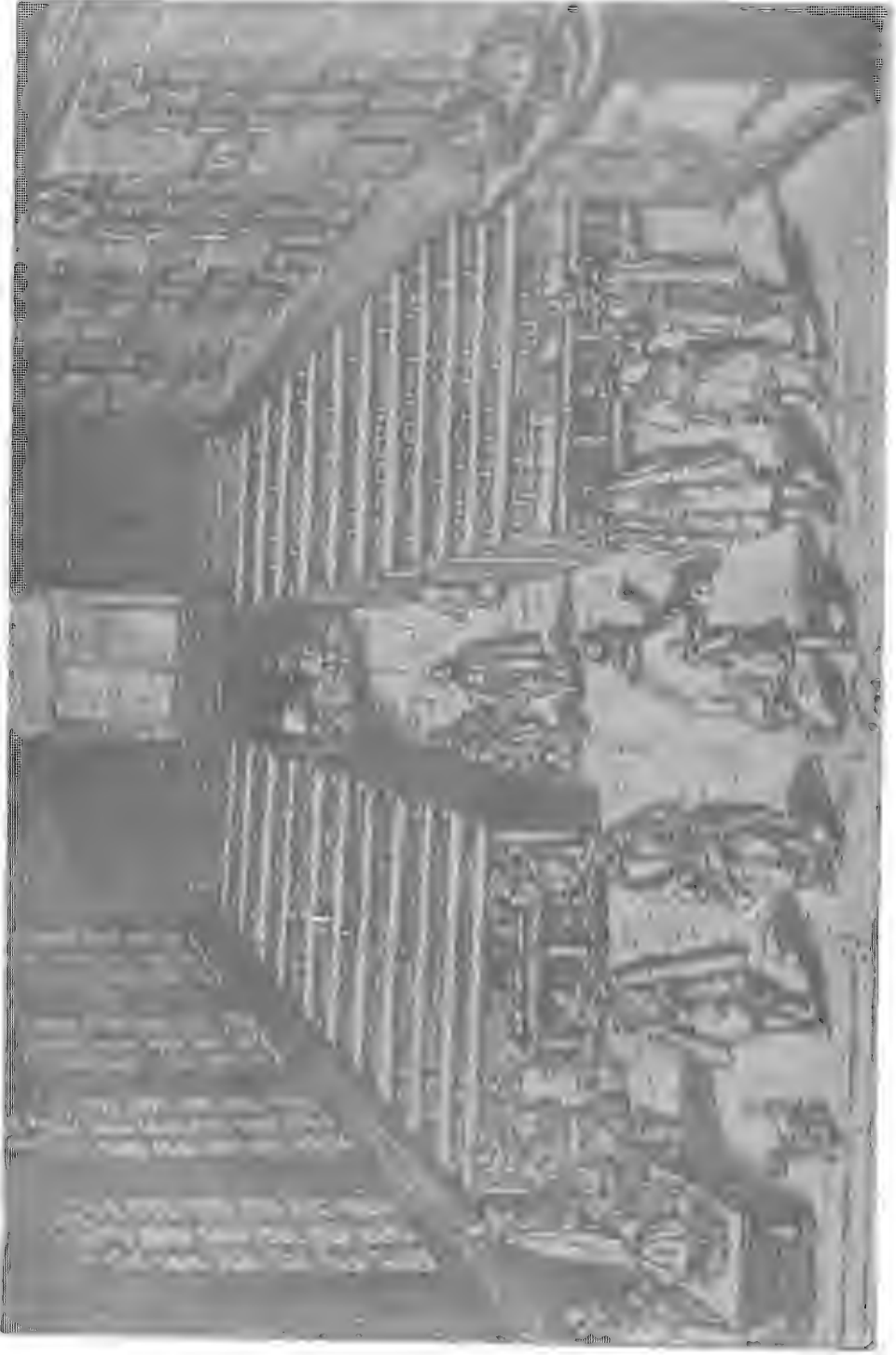
وهكذا نرى كيف ان هذا الجيل حاول ان يلطف من اشتداد الروح الفردية بين الناس ،
وذلك باشاعة المساواة في الحقوق والتضامن وبث الاخوة الانسانية بينهم .



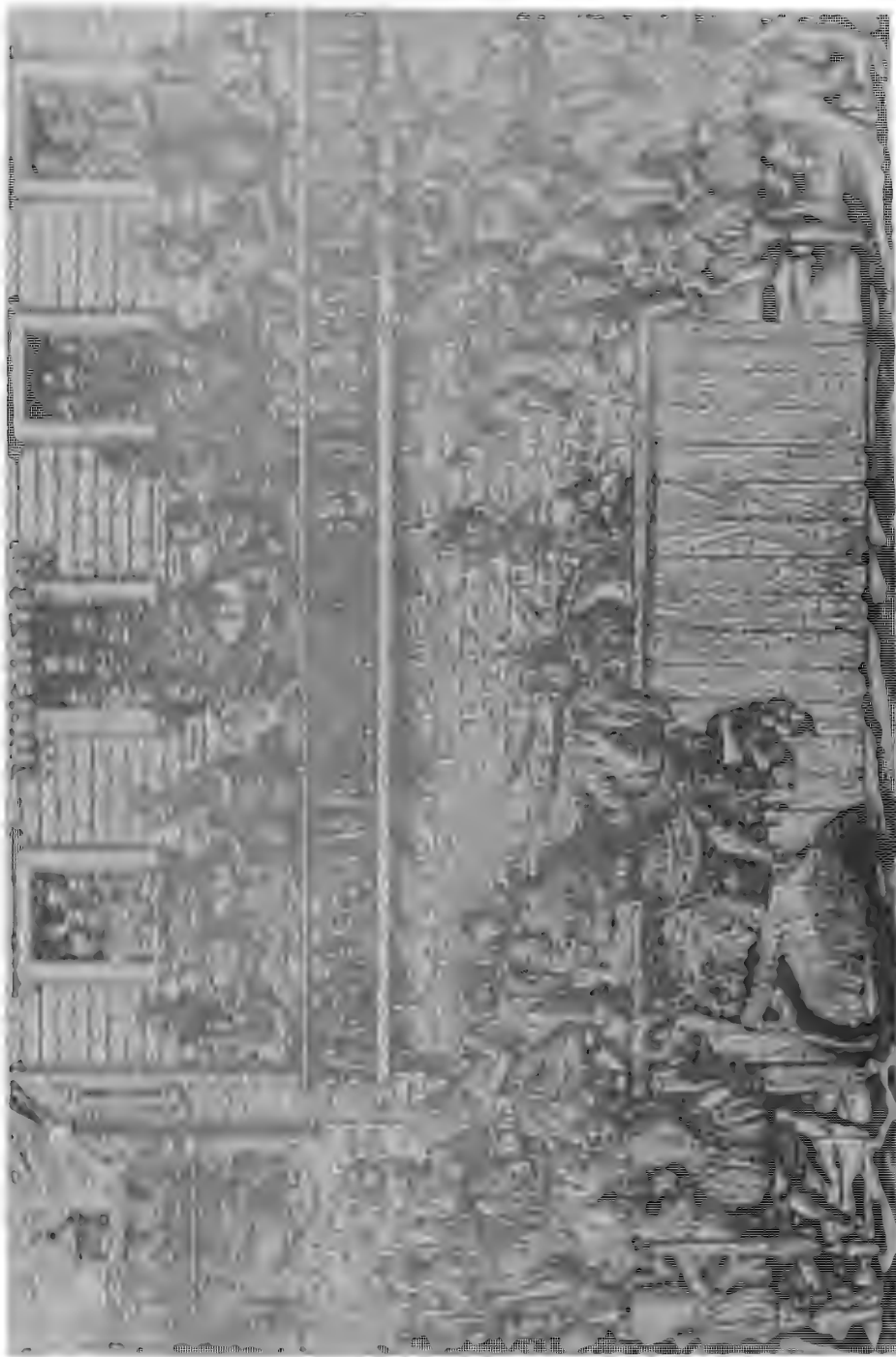
(١) - الحملة الموسمية



٢- عبيد الحياه هنري الشافي ومارتون دي مدميس اكرانا سفراء سورلونيا



٢- مكتبة في الشرن المساد من عشر



٤- الميمنة التي اصيبت فيها الملك هادي الثاني بجروح مميتة في آخر يوم من حزيران من السنة ١٩٥٩



• • مطهر عام القصر شاهنشاهی



٦- قبة كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تشاهد من حدائق الفاتيكان



—The Fountain—



٨ - مناظر في مواريد باب كنيسة المروحة في القدس (١٥٥٣)



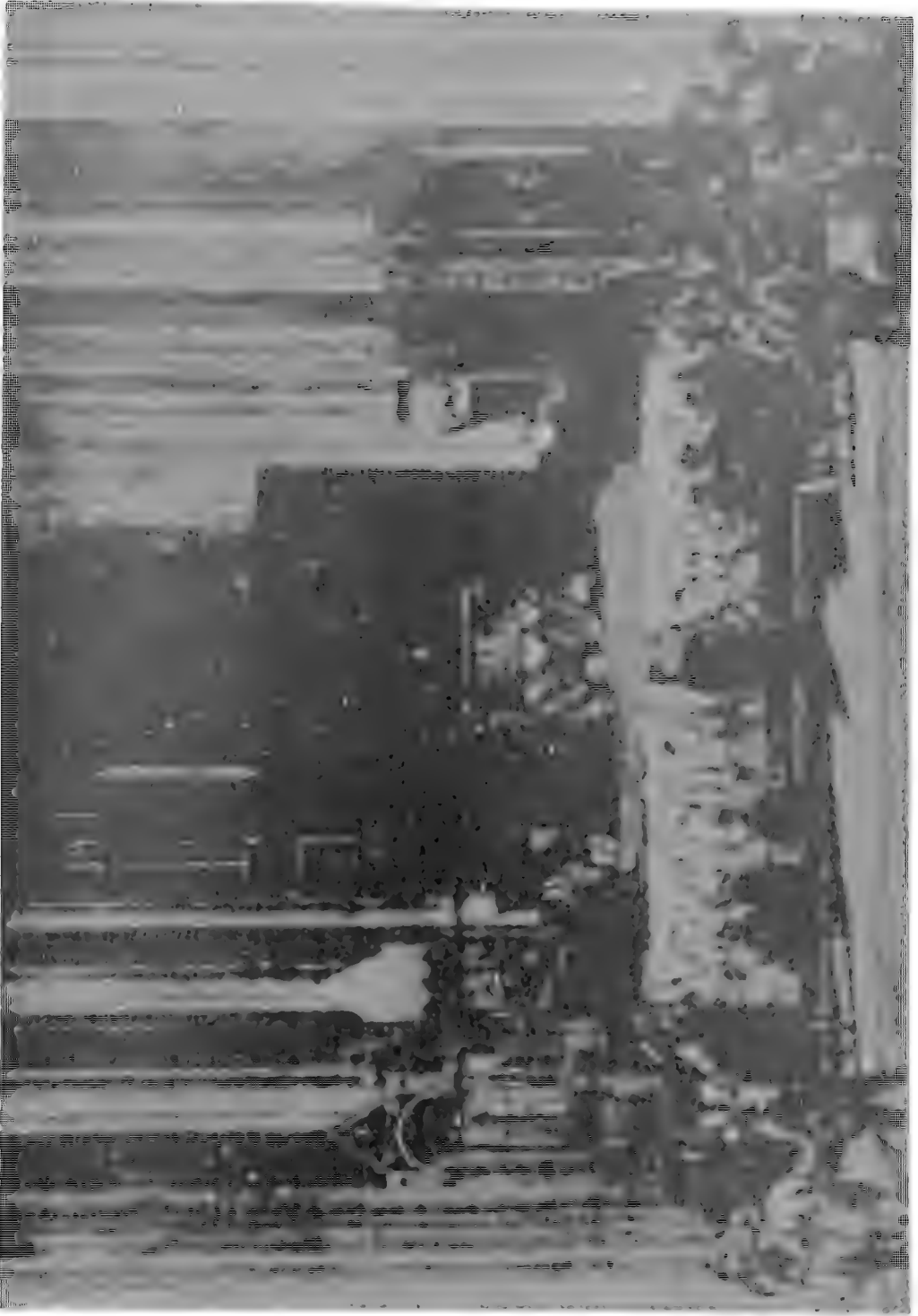
٩ - منجسم في أواسط القرن السابع عشر



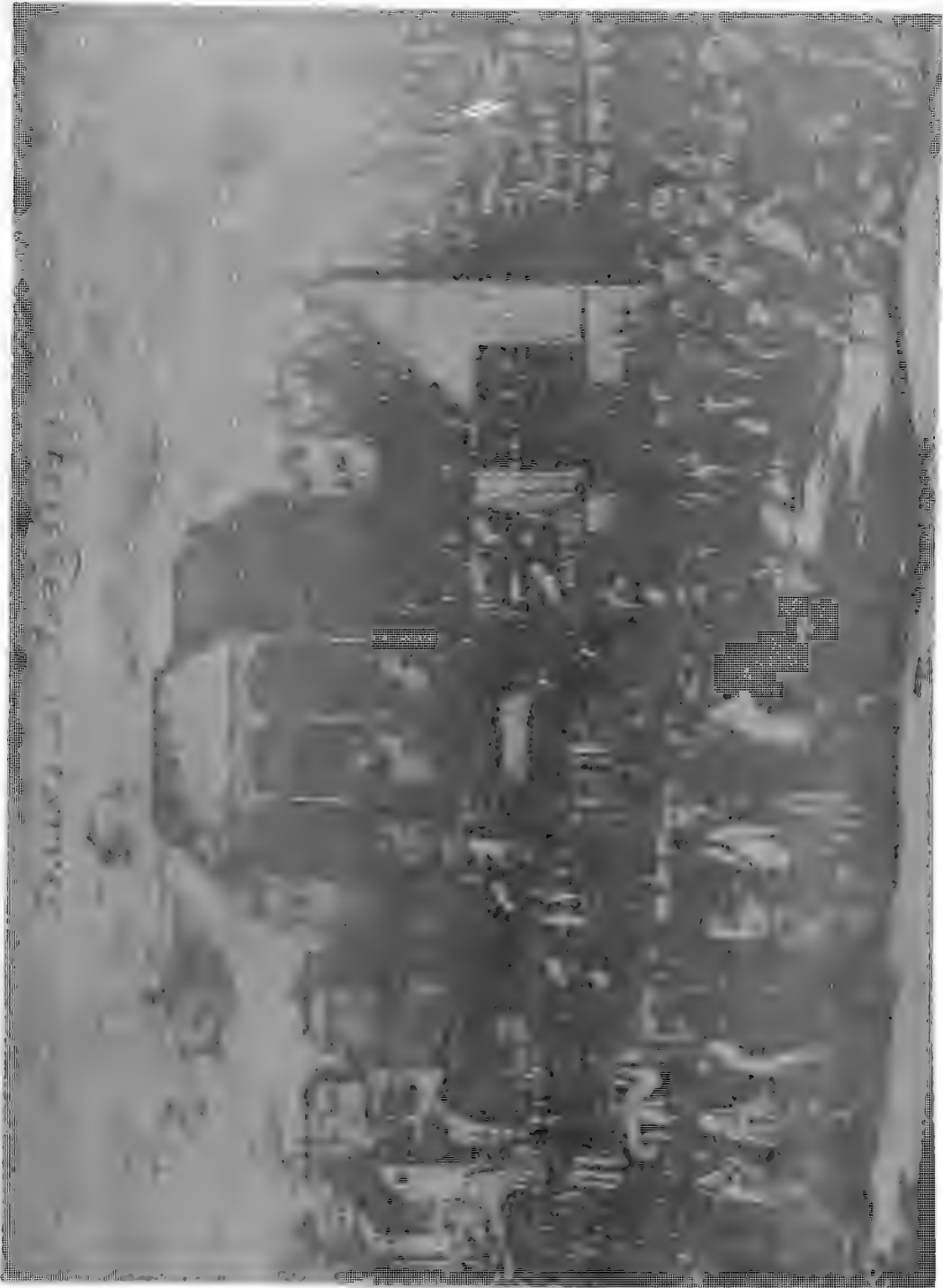
۱- مشفق صالح

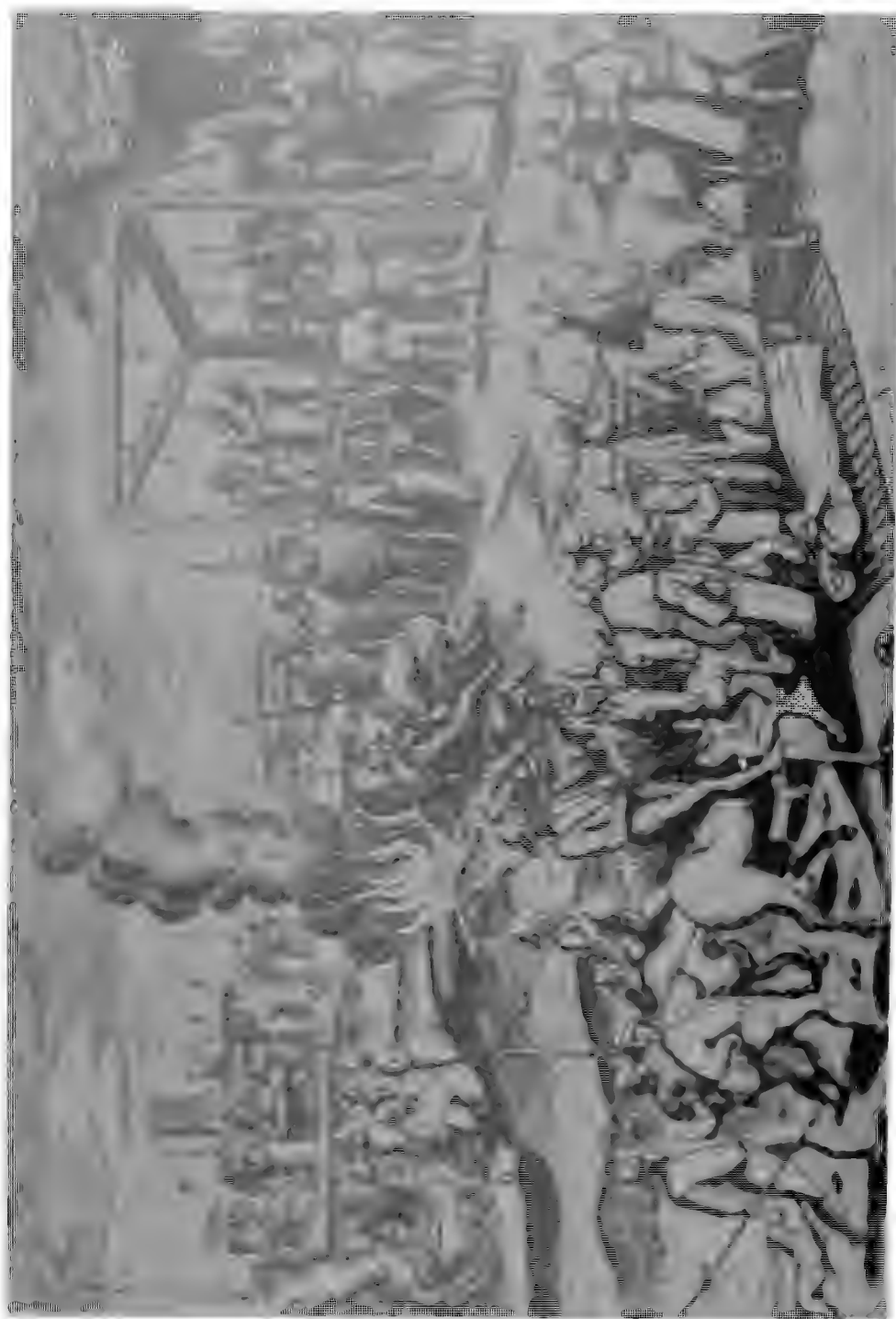


١٢. الخندق النرويجي

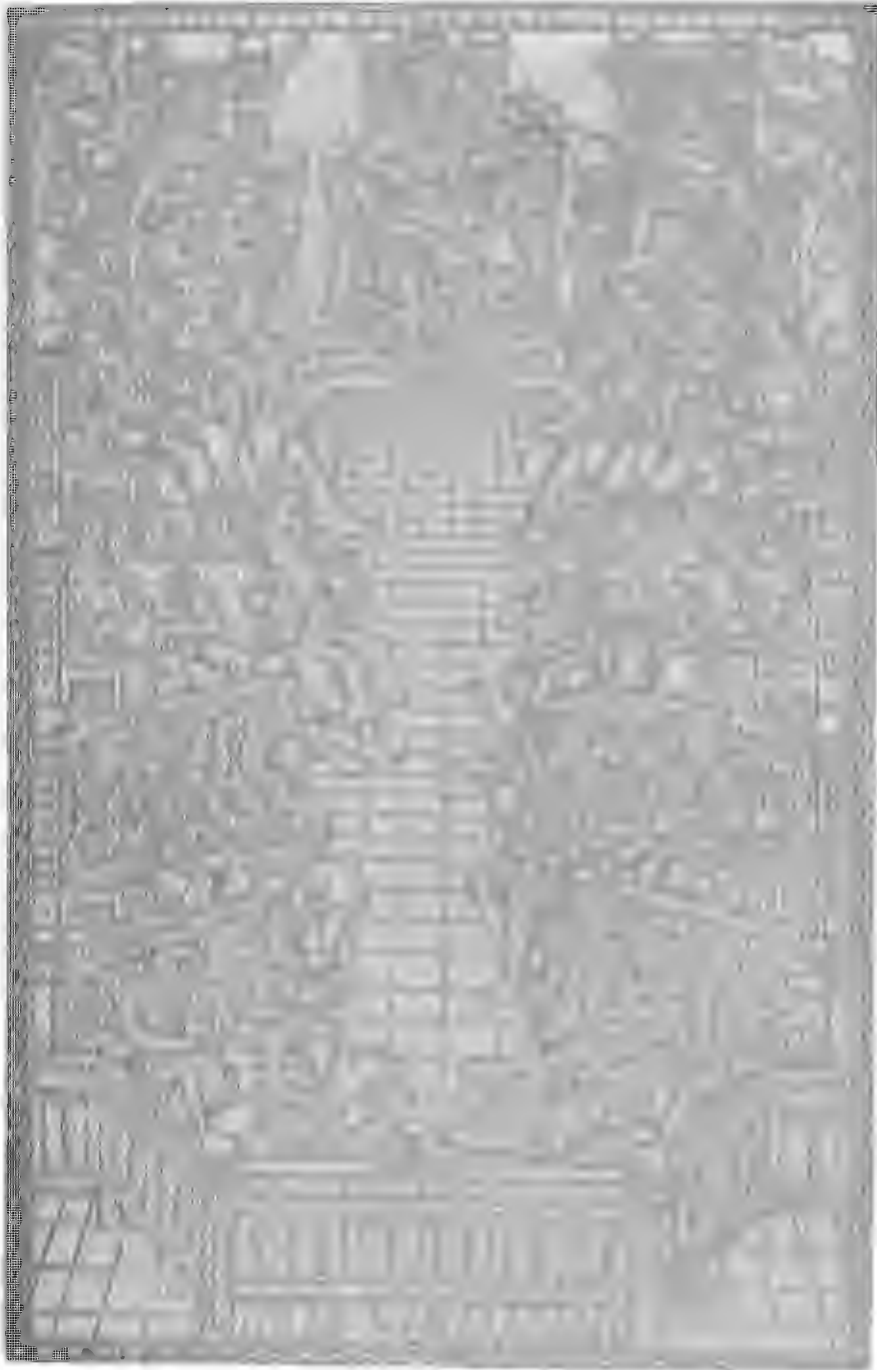


٧٠. النعنين في السكابيا، في فالادوليد





١٤- اضطهاد الطائفة الاثنا عشرية في ولاية الكويت (حوالي ١٨٨٠)





الكتاب الثاني

القرن السابع عشر

(١٥٩٨ - ١٧١٥)

القرن السابع عشر هو مهد أزمة نزلت بالانسان في كافة نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية والفنية ، وفي كل كيانه ، أي في أعماق قوته الحيوية وحسه وارادته . وكانت أزمة مستمرة ، اذا صح التعبير ، تتميز بثورات عنيفة احياناً . فان نزعات متناقضة « قد تجانبت طويلاً وتشابكت معاً وانصهرت حيناً وتصارعت حيناً آخر ، دون ان يكون في معتركها تحول او تاريخ حاسم يسهل تحديد هـا . وهي لم تتجانب في اوروبا في عهد واحد فحسب ، بل في الدولة الواحدة والطبقة الاجتماعية الواحدة والانسان الواحد ايضاً ، الذين خيم عليهم التناقض والانشقاق . فالدولة والطبقة الاجتماعية والانسان يناضلون لاستعادة النظام والوحدة الى بيئتهم والى ذاتهم . انها لمعركة ضارية مستمرة ، في سبيل توازن زائل ابدأ ، تقدم فيها اوروبا على تحول حاسم ، وعلى تعديل النوع كما يقول بعضهم ، وعلى هذه الطريق التي يستهويننا تخيلها والتي قد تنتهي الى السمو وتخطو خطوة كبرى الى الامام في الدم والدموع والالام النفسية المبرحة ، وفي الامل والثقة والبهجة .

الفصل الأول أزمة القرن

١ - الأزمة الاقتصادية

ان ما خلفته النهضة الاقتصادية، والتطور الجديد في الاسعار، قد ابرز بقوة المساويء الدائمة التي ينطوي عليها نظام تناسل وزراعة لم يتبدل قط في خطوطه الكبرى، منذ القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر. باستثناء نقاط معدودة (هولندا والاقالم المتحدة، انكلترا الوسطى، ألزاس، الخ.) .

فالاقتصاد ما زال زراعياً، وعدد السكان يميل أبداً الى تجاوز السكان ومواد التغذية، والمجاعة تنتشر محلياً مع ما تصصف به من شمول مفاجيء يستوقف الانتباه بين حين وآخر. ولا غرو فالسكان لم يحدوا الولادات. وليس نادراً ان تضم عيلة واحدة ٢٠ او ٢٢ ولداً، وكان من الممكن جداً ان يتضاعف عدد السكان في اقل من خمس وعشرين سنة لولا الارتفاع الرهيب في نسبة الوفيات. ومرد ذلك الى ان التقنية الزراعية لم تسمح بعد بانتاج يسد الحاجة.

لما كانت الضرورة تقضي بتغذية عدد كبير نسبياً من البشر، كانت الزراعة^(١) التقنية الزراعية الاساسية زراعة «البلاد» أي الحبوب، الحنطة والجاودار والشمير والقرطمان والذرة البيضاء والحنطة السوداء والذرة الصفراء، اذ ان الحبوب هي الانتاج الزراعي الذي يوفر اكبر كمية من الوحدات الحرارية في وحدة مساحة معينة. والفلاحون يزرعون في الدرجة الاولى الحبوب التي ندعوها اليوم بالثانوية، الجاودار، القرطمان، الخ.. لان محصولها في وحدة مساحة معينة يفوق محصول الحنطة الى حد بعيد، لا سيما في الاراضي المجدبة،

(١) ففي انكلترا المتقدمة صناعاً على سواها، قدر ان اربعة ملايين ونصفان اصل خمسة ملايين، اعتمدوا الزراعة سيلاً للعيش، حوالي سنة ١٦٨٨.

وتقوم التغذية بنوع خاص على الحساء والخبز . وفي سنوات الاقبال يستهلك الناس مزيجاً من الحنطة وحبوب اخرى . خبز الحنطة مادة بذخية ؛ اما خبز الجاودار فوقف على ذوي اليسار من المستهلكين . ولكن الحبوب تستنزف قوى اخصاب التربة بسرعة . لذلك فقد عمد الفلاحون الى اراحة الارض ، سنة بعد سنة في الجنوب ، وسنة بعد سنتين في الشمال ، على ان استراحة الارض قد تستمر سنوات أحياناً . وكان المحصول متوسطاً ، أربعة أو خمسة للواحد أحياناً ، واثنين أو ثلاثة غالباً . ولا عجب في ذلك فالاسمدة غير متوفرة والزبلة نادرة . وكانت الماشية قليلة العدد ، لان الاراضي يحرث جلها ولان المروج والمراعي ضيقة رقعتها . ولم يفكروا بالاستفادة من الارض المراحة بزراعتها بحشائش تغذية المواشي ، الا في هولندا ، وما كانوا يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، على كل حال ، لان عرف المراعي العمومية الذي اجاز لكل فرد ان يرعى ماشيته في الاراضي البائرة ، كان يحول دون ذلك . وكان فراش الماشية من الموص على غير كثافة ؛ فقد استخدم الموص للاغنية ، واللبن والحصير والكراسي ، وحتى كوقود للافران . اضاف الى هذا ان العمل لم يكن متوفراً . وكانت الحيوانات هزيلة لا تقوى على العمل الطويل . واستخدم الفلاحون محارث غير مجهزة بالمجلات تحدش الارض خدشاً بدلاً من ان تقلعها ، او محارث غير معدة للارض التي يطلب منهم زراعتها . فبحث الزارع عن التعويض عن نقص الاسمدة وعن التقنية بالاكثر من البذار . فحضر بذلك الحب وخسر الموسم لان مصير الجدوع النابتة كان الضعف والذبول بفعل تراصها . ولم يعمد الى تنظيف الحبوب وغسلها بالكلس للحوول دون تخمرها . وعند الحصاد اعوزته اليد العاملة . اما الحصاد فالمنجل اداته الاولى واستخدامه عمل طويل وشاق . وكان حتى التقاط السنابل وراء الحصادين يستهوي العديد من الناس لأن نتيجته لم تكن دون العمل نفسه مما زاد في ندرة وجود العمال . وخارج فصل الحصاد لم يكن العمل متوفراً للجميع . فلم يكن السكان من ثم مشغولين بمعلقة متينة الى الارض ، فتشرد العديد منهم هائمين على وجعهم .

توزيع السكان يتضح بالتالي ان سوء التغذية قد آلى ، عند سواد السكان ، الى ضعف الصحة والموت في سن مبكرة . فقد تراوح معدل الاعمار بين ٢٠ و ٢٥ سنة . وكان نصف الاطفال يموتون قبل ان يبلغوا السنة من عمرهم . اما الباقون فغالباً ما كانوا يموتون بين الثلاثين والاربعين سنة . ولم يتجاوز الملوك انفسهم والاسياد العظام وكبار البورجوازيين ، على الرغم من تغذيتهم الجيدة ، حدود ال ٦٥ سنة . بيد ان هذا الجيل لم يكن بالجيل النقي لان شيخوخته سريعة الخطى . فالرجل يصبح كهلاً في الاربعين . وفي المناطق الفقيرة قد تكون الفلاحات ، في سن الثلاثين ، متفضنة ومنتكئة كالمجائز . ويحافظ عدد السكان على مستوى غير مرتفع ، لانه ما ان يرتفع حتى تتدنى كمية الغذاء للشخص الواحد وتزداد نسبة الوفيات . لم يتجاوز سكان انكلترا الملايين الخمسة ، وبلغ سكان فرنسا ٢٠ مليوناً كحد اقصى اي بكثافة ٤٠ في الكيلومتر المربع . يضاف الى ذلك ان هذه الاعداد

عرضة لتبديلات كبيرة جداً .

إذا كان الحصاد سيئاً، ارتفع ثمن الحبوب ، وتحول مستهلكو الحنطة الى الجاودار نسبة الوفيات ومستهلكو الجاودار الى الحبوب الاخرى . لذلك فان اسعار الحبوب الدنيا ترتفع اكثر من الحبوب النبيلة والطبقات الشعبية هي التي تتأثر اكثر من غيرها . قد لا ترتفع نسبة الوفيات في السنة الاولى لان تأمين أود المعيشة يدفع الفلاح الفقير الى بيع بقرته والصناعي الى بيع ادواته واولئك الذين خزنوا بعض المواد الى استهلاكها وبيع بعضها . اما اذا عقب الحصاد السيء الاول حصاد سيء آخر فتلتشر المجاعة مع ما يرافقها من اوبئة ، « الطواعين » الجسدي ، والتيفوس ، والكولرا ، والطاعون بمعناه الحصري ، وكلها امراض تبسو وكأنها امراض الاقاليم الحارة بصورة خاصة مع انها امراض واقع حضاري قبل اي شيء آخر . يتدنى عدد الولادات ، ويرتفع عدد الوفيات وقد يبلغ ٣٠٪ من السكان في سنة واحدة ، ويصيب الموت الارياك اكثر من المدن : اذ ان البلديات تستطيع تخزين المواد وشراءها في المناطق النائية والبورجوازيين يملكون الاراضي وبالتالي المؤن الشخصية . ثم ان الموت يصيب الفلاحين والصناعيين اكثر من النبلاء والضباط واعضاء المهن الحرة والتجار . وقد يشمل المحول احياناً دولا كاملة او مناطق شاسعة من اوروبا . تلك هي المجاعات الكبرى التي اثرت في نخيلة المؤرخين : في فرنسا مجاعات السنوات ١٦٢٩ - ١٦٣٠ ، و ١٦٤٨ - ١٦٥١ ، و ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، و ١٦٩٣ ... ١٦٩٤ . بيد ان سنة واحدة لا تمر دون ان تحدث مجاعة في بعض المناطق . ومن العسير جداً التغلب عليها بمعالجة او مداواة ، وربما كان من العبث والخطر توزيع مداخيل الاغنياء على الفقراء . فهذه المداخيل كانت كمية مهمة اذا ما قيست بمحاجات مجموع السكان . وكان ذلك بمثابة اضعاف جميع الاهالي للتساوي في البؤس ، في حال ان موت الاغنياء والميسورين قد يؤدي الى تفويض الاطارات الاجتماعية ، وبالتالي الى المزيد من الويلات والفضوى والى تسدن جديد في مستوى حياة المجموع ، وتظهر في الحضارة . اجل لقد لجأ الناس الى الشراء من المناطق الفنية ولا سيما من « البلدان الجديدة » ، بولونيا وليتوانيا . ولكن صعوبة النقل البري وارتفاع اكلافه لم يسمحا قط باستحضار المواد المتباعدة الا الى الاماكن الغالمة على مقربة من طريق مائية وكانت هذه المواد تصل متأخرة وبكميات محدودة وباسعار باهظة . الا انها قد حالت دون وفيات كثيرة بفعل عظمة مقاومة الانسان . زد على ذلك ان تنمية الصناعات اليدوية والصناعات الريفية المنزلية الصغرى كانت تفي زيادة في كمية النقود التي تدخل البلاد وفي قدرة الطبقات الدنيا على الشراء . ولكن السكان ، في السنوات الحيرة ، كانوا يزدادون بازدياد المواليد وتدني الوفيات ، فيصبحون اشد تأثراً بالسنوات الماحلة . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم يؤد تقدم الصناعات ، وهو نتيجة النمو الرأسمالي للنهضة الاقتصادية ، الى طبع وضع هذه المجتمعات بمزيد من التقلب وعدم الاستقرار . وهكذا فان عدد السكان كان يتأرجح بسرعة نسبية بين حدود ثابتة . ولا يبدو ان سكان فرنسا الذين لم يتجاوزوا قط العشرين مليون نسمة قد هبطوا

يوماً الى ما دون ١٢ - ١٤ مليوناً .

المجاعة والازمة الاقتصادية النتيجة الطبيعية للمحول هي الازمة الاقتصادية : فهي تشوش الحياة الزراعية وتقتل العملة وتقضي على اعمال فصل الصيف وتؤدي الى اهلاك الاراضي وتكوين طبقة كادحة بائسة لا قدرة لها على الشراء . وبفعل ارتفاع الاسعار الزراعية يقلّص النبلاء والبورجوازيون من نفقاتهم . وتنتشر البطالة في المدن برّثل حركة البيع لدى اصحاب الانوال والخوانيت ولدى التجار احياناً . يزول الكسب ويستحيل توظيف الاموال ، ويزيد المحول الدوري من التقلب الاقتصادي العام ويمجد حركة الاقتصاد .

ان التقلب الدائم هذا ، الذي يرد الى النظام السائد ، قد ازداد خطورة في حركة الاسعار القرن السابع عشر بازمات ظرفية مردّها الى حركات الاسعار . فقد عقب الارتفاع السريع والمستمر في القرن السادس عشر فترة من الارتفاع البطيء ، ثم من الانخفاض ولا سيما من التقلب البارز في الاسعار .

التنقص المتزايد في المعدن الثمين في الواقع تأخر انتاج المعادن الثمينة في العالم كله . ويعتقد « سوتير » بان هذا الانتاج اخذ بالانخفاض منذ السنة ١٦٢٠ . ولكن ما يلفت الانتباه بصورة خاصة هو ان المعدن الملقى في التداول ، اذا ما قيس بالمعدن الذي سبق انتاجه ، يمثل نسبة مطردة الانخفاض . فبينما يتضاعف مخزون المعدن الثمين عشر مرات في الارجح خلال القرن السادس عشر ، لم يتضاعف سوى مرتين في القرن السابع عشر ، فبرزت بمزيد من السرعة الحاجات الى النقد للمبادلات التجارية . ويرى « هاملتون » ان استيراد المعادن الثمينة من اميركا الى اسبانيا ، وهو المصدر الرئيسي لتموين اوروبا عن طريق الانجار مع اسبانيا ، قد بلغ الذروة ما بين السنة ١٥٩١ والسنة ١٦٠٠ (فضة : ٢٧٠٧٦٢٦ كيلو) ثم اخذ بالهبوط . وزادت سرعة هذا الهبوط بعد السنة ١٦٣٠ (١٦٣١ - ١٦٤٠ ، فضة : ١٣٩٦٧٥٩ كيلو) . اما بعد السنة ١٦٥٠ ، فقد انهار الاستيراد انهاراً (١٦٥١ - ١٦٦٠ ، فضة : ٤٣٣٢٥٦ كيلو) . واذا كانت الفضة المستوردة الى اسبانيا منذ السنة ١٥٥١ حتى السنة ١٥٦٠ تمثل ٢٠٪ مما استورد منها منذ السنة ١٥٢١ حتى الفترة المذكورة ، فان الفضة المستوردة منذ السنة ١٦٢١ حتى السنة ١٦٣٠ لا تمثل في الظروف نفسها سوى ١٨،٧٪ ، والفضة المستوردة ما بين ١٦٥١ و ١٦٦٠ ، ٢،٨٪ فقط . يضاف الى ذلك ان قسماً من هذا المعدن كان يجمع ويكتنز ، وقسماً آخر يجمد في اعمال الصباغة وقسماً آخر يصدّر الى آسيا تسديداً للمشتريات الأوروبية .

الارتفاع البطيء
ثم الانخفاض في الاسعار
ان ما نشاهده اذن في اوروبا هو ، على العموم ، ارتفاع بطيء جداً حتى حوالي ١٦٢٥-١٦٦٠ . اما المستوى الأدنى الذي قبله

الاسعار فيمكن تحديد فترته ما بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠. يلي ذلك ارتفاع لا يذكر بين السنتين ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ثم انخفاض بسيط جديد بين السنتين ١٧٠٠ و ١٧١٥. ولكن الانخفاض اعظم شأنًا مما يبدو في عدد من البلدان اذا نحن لم ننظر الى الاسعار الاسمية المعبر عنها بالنقد المتداول فقط ، بل نحسبها على اساس وزن المعدن الثمين المقابل. وفي الواقع فاننا نرى تضخمًا نهديًا في بلدان كثيرة ، المانيا واسبانيا منذ الثلث الاول من القرن ، وفي فرنسا في القسم الاخير منه . فالمبلغ نفسه من نقد التعامل غذا يقابل ، في القطع النقدية ، معدنًا ثمينًا اقل وزنًا . وكثيراً ما يحدث ، والحالة هذه ، ان يكون الارتفاع الاسمي انخفاضاً في الواقع .

وهكذا فان الارتفاع الاسمي حدث في مونيخ في السنة ١٦٢٢ ، وهو الذروة التي بلغت بها الاسعار ، هو في الواقع هبوط سقطت خلاله الاسعار بالمعدن الثمين الى ما كانت عليه بين السنتين ١٥٥٠ و ١٥٦٠ . فحوالي ١٦٦٠-١٦٧٠ كانت الاسعار في الواقع ، في هذه المدينة ، ادنى منها حوالى السنة ١٥١٠ . وخضعت بعض البلدان ، كنيكلترا وألزاس ، الى حركة عامة على بعض الاختلاف ، ففي النيكلترا لا يزال الارتفاع سريع الخطى حتى حوالي ١٦٤٠ - ١٦٥٠ . وتلي ذلك على العموم فترة من الاستقرار النسبي . بيد ان الارتفاع الذي صدق في النصف الاول من القرن قد توقفت حدته توقفاً يلفت الانتباه . فهناك ١٦٥ نقطة زيادة بين السنتين ١٥٥٠ و ١٦٠٠ ، بينما ليس هناك سوى نقطة فقط بين السنتين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ . واذا نظرنا الى حركة تجارة اشبيلية مع اميركا الاسبانية ، وهي ما يقاس به جزئياً مدى نشاط اوروبا الاقتصادية بالثمن والاسواق ، اوضح لنا ان حجمها ينكش بانخفاض الاسعار . ففي نصف العقد ١٦٠٦ - ١٦١٠ بلغت الواردات ٢٧٣٥٦٠ برميلا بينما هي لم تبلغ سوى ١٢١٣٠٥ براميل فقط في نصف العقد ١٦٤٦ - ١٦٥٠ . وتوقفت حركة التجارة عن التقدم حوالي ١٦٠٨-١٦١١ ثم اخذت تخف بوضوح خلال السنوات ١٦١٩-١٦٢٢ وتدهورت اخيراً في السنة ١٦٣١ . وفي منتصف القرن ، بلغ النقص ٥٠ ٪ . ويبدو بعد السنة ١٦٤٠ ان الانخفاض في القيم كان اسرع منه في الاحجام . وسلكت الاسعار الطريقة نفسها . فهناك تبدل متواز قد لا يسمح لنا بالكلام هن سببية حقيقية ، ولكن ذلك محتمل اذ ان عنصراً اساسياً من تجارة اميركا الاسبانية نحو اوروبا كان المعادن الثمينة ، التي تقلصت كمياتها .

بدء الانطلاقة الرأسمالية . لقد نتج عن ذلك ، في معظم أنحاء اوروبا ، بدء في الانطلاقة الاقتصادية التلقائية وفي انطلاقة الرأسمالية . فان ارتفاع الاسعار يؤدي الى نقص في حجم الكسب . وتلفد آفاق المستقبل بعض جماعها في نظر الرأسمالي الذي يبحث اقل اقداًماً . ويتدنى عدد المشاريع الجديدة وتضائل حركة تقدم المشاريع الرأهنة ، ويتقلص حجم الانتاج . اما حين تلدن الاسعار فيقل الكسب وقد يزول بالكليّة . فيسيطر القرد على متعهد المشروع الذي يحاول تحديد نفقاته ويسرع العمال . وينقص الانتاج وتنتشر البطالة . ويتضخم عدد المتشردين . وتضطرب المشاريع الصغرى او المشاريع التي لا تزال في طور

التأسيس الى اقبال ابوابها . ولا تصمد سوى المشاريع المجهزة تجهيزاً حسناً . ولكن الصعوبات عظيمة . ويجب البحث عن التحسينات التقنية التي تؤدي الى تخفيض سعر الكلفة . فيمكننا القول ، اذا استعنا بتعبير « سيمباند » ، ان المرحلة A في القرن السادس عشر قد عقيبتا مرحلة A على بعض البطء ، ثم مرحلة B .

ولكن القرن السابع عشر نفسه قد عرف ايضاً تقلباً خفيفاً في ثقل الاسعار واسبابه . الاسعار وفي تأرجح الارتفاع والانخفاض يفوق الى حد بعيد ما حدث في القرن السادس عشر . وفي العدد الاكبر من البلدان برزت هذه التآرجحات الموسمية والدورية (عشر الى عشرين سنة) الضخمة منذ اوائل القرن . فهناك في كل مكان تقريباً ، حوالي ١٥٩٥-١٦٠٠ ، انقلات وانخفاض عظيم حتى حوالي ١٦١٠-١٦١٥ ، ثم تسدوم التآرجحات القصوى بعد ذلك طيلة القرن . ولا يسعنا القول ان الارتفاع الذي طرأ في القرن السادس عشر يتأدى طيلة الثلث الاول من للقرن السابع عشر الا في انكلترا وبعض الاقاليم الاوروبية الضيقة . فنحن في المناطق الاخرى امام ارتفاع من نوع آخر . لا بل ان انكلترا نفسها ، بعد ١٦٤٠-١٦٥٠ ، عرفت شأن غيرها نظام التآرجح في اقصى ابعاده .

ليس باستطاعتنا بعد ان نملل هذه الظاهرة تعليقاً وافياً . فجل ما نستطيعه توفير بعض عناصر التفسير فقط . ليست الحروب اسباب هذه التقلبات اذ ان مرور الجيوش وحده كاف لان يؤثر في الاسعار اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان المقايضات دون مقايضات اليوم شأنها الى حد بعيد وان الاسعار تختلف كل الاختلاف في وقت واحد بين منطقة واخرى ، ولا يطرأ ارتفاع عظيم على الاسعار الا اذا اصطدمت الجيوش في الاقليم نفسه . ولكن يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الظروف الجوية السيئة طيلة سنوات عدة ، ونتائج الحصاد الماحلة التي تدفع بالاسعار الى الارتفاع حتى عودة الطقس الجيد والجنيايات الوفيرة . ويجب كذلك ان نأخذ بعين الاعتبار ازدياد عدد السكان الذي يضاعف الافواه الواجب تغذيتها ولا سيما وان المنطقة تجمع العديد من الممال والصناعيين ، ويسبب ارتفاعاً في الاسعار الى ان تصبح حصة الشخص الواحد غير كافية والى ان « تمجد » الوفيات من الطلب وتؤدي بذلك الى انخفاض الاسعار . وقد ثبت بالدليل ، فيما خص المانيا الجنوبية ، ومدن مونيخ واوركسبورغ ونورمبرغ بنوع خاص ان الاسعار كانت ترتفع فيها بازدياد عدد السكان ، وان انطلاق الزيادة كان يسبق ارتفاع الاسعار . وهكذا فان جهود الدول في سبيل تنمية صناعاتها كانت سبباً في زيادة السكان . وعاملاً من عوامل ثقل الاسعار احياناً . ويجب اخيراً ان نأخذ بعين الاعتبار الاعمال في الحقل التقني . فلم تمد الدول الكبرى لتجد الموارد الضرورية لنقود المعادن الثمينة التي تستوجبها سياستها ؛ فلبأت بصورة طبيعية الى التضخم . واصدرت الحكومات الاوامر باعادة النقود الى دور ادارة المالية . واعدت شكلها بالقيمة الاسمية نفسها دون كمية المعدن الثمين عينها ، او اعطتها قيمة اسمية عليا دون ان تنقص فيها نسبة المعدن الثمين . واصدر بعضها كميات

كبرى من المسكوكات النحاسية واعطتها قيمة اسمية تحكية ومرتفعة جداً بالنسبة لقيمة النحاس المستعمل (اسبانيا) . وهكذا سددت الحكومات بسهولة ما توجب عليها للدائنين وتجار الاموال والموظفين والجنود والمتارين ، ولكنها غدت بدورها ضحايا هذا التدبير عند جباية الضرائب . وجر التضخم الى ارتفاع الاسعار . وزاد من هذا الارتفاع ان النقد السيئ يطرد النقد الجيد . فالقطع النقدية الاجنبية ، من ذهب وفضة ، تتوارى عند ظهور القطع النقدية النحاسية . كما ان الافراد لا يضمون في التداول سوى النقد السيئ وحده . وهم يفرضون سعراً مرتفعاً اذا حوسبوا بالنقد السيئ فارغمت الحكومة بسبب حدة ارتفاع الاسعار ، على تخفيف التضخم . فخفضت قيمة النقود الاسمية وانهارت الاسعار . وهكذا فان تضخم السنة ١٦٢٦ في اسبانيا عقبه تخفيف السنة ١٦٢٨ ، وتضخم السنة ١٦٤١ تخفيف السنة ١٦٤٢ .

أثره المشؤم في الاقتصاد يستدل من ذلك ان القرن السابع عشر ليس مرحلة B حقيقية . في هذه المرحلة تتدنى الاسعار بانتظام مع تأرجحات متضائلة . وهذا يعني انها مرحلة شاقة دون ان تنسم بطابع الكارثة . فباستطاعة المشاريع ان تبذل الجهود لتحقيق انتاج افضل ، وتقدم تقني يفدو مصدر رفاهية عند عودة البجوحة النقدية . وباستطاعة الاجور ان تصمد في وجه تخفيف التضخم ، كما باستطاعة بعض الطبقات الناشطة ، ان تنجو من البؤس والمفاجآت . وهذا ما حدث ، على ما يبدو ، في اقليم فالنس الايبيرية . ولكن القرن السابع عشر ، في معظم انحاء اوروبا ، يبدو واقفاً على شفير الكارثة . فان ارتفاع الاسعار بسرعة قصوى قد حد من الاستهلاك وتسبب في ازيمات الصفقات الخاسرة وادى الى البؤس والالم ، وقد لا يتمكن اغني المتعهدين من الاستفادة دائماً من هذا الوضع بالاستعاضة عن تدني المبيعات بمضاعفة المكاسب وبتجميع رؤوس الاموال المتابعة لتوظيفها في المشاريع . فمرحلة ارتفاع الاسعار قصيرة الاجل ، يعقبها الهبوط ، فيزول الكسب ، ويسرح المتعهد عماله ، ويتأخر عن تسديد الدائنين اموالهم . اصف الى ذلك ان تأرجحات الاسعار لا تترك مجالاً لأي تقدير . فيسيطر اليأس على المتعهدين ويقرون بعجزهم . ويستحيل تحسين المشاريع ، لا بل ان الكثير منها ينتهي الى الزوال .

فالقرن السابع عشر هو من ثم ، بين مرحلة ارتفاع الاسعار في القرن السادس عشر والمرحلة المماثلة في القرن الثامن عشر (بعد ١٧٣٠) ، مرحلة ازمة مستمرة مختلفة الحدة .

٢ - الازمة الاجتماعية

ان المنازعات الاجتماعية ، التي تنمينا النهضة الاقتصادية ، لا تبدل طبيعة ، بل تشدد حدة . فهناك فئات بورجوازية تسير قدماً في تقوية شأنها بالنسبة للطبقات الاخرى ، بسرعة اخف منها في القرن السابق ، ولكن بصورة ثابتة اكيدة .

غير انه يبدو ، في فرنسا والدول الماثلة لها ، وبسبب عدم الاستقرار الاقتصادي ، ان ذلك قد تم خصوصاً باستغلال حاجات الدولة المتعاطمة التي يتوجب عليها تأمين موارد دخول جديدة والحصول على سلفات لمواجهة نفقات الحرب بسرعة . ويبدو ان العمليات التجارية والصناعية ، وهي اقل فائدة وضمانة ، قد لعبت دوراً قليل الاهمية نسبياً . فهم رجال المال وموظفو الدوائر المالية من جهة ، وموظفو القضاء والشرطة من جهة ثانية ، من برزت اهميتهم الاجتماعية بصورة خاصة .

المثال الفرنسي
تحويل رؤوس الاموال الى العمليات
المالية الرسمية
وارتقاء رجال المال والضباط

ان موظفي المالية ، ولا سيما خزنة فرنسا العظماء ، هم كبار دائني الملك . فهم يؤمنون له المال بفائدة باهظة بانتظار جباية الضرائب . ولا يتورعون عن التعلل بتأخير جمع الضرائب حتى يقرضوا الملك ماله الخاص . ويشركون في عملياتهم بعض اعيان الاقليم فيستجمعون بذلك رؤوس الاموال المجددة ، اما رجال الاموال الذين يعقدون اتفاقات مع الملك فيلتزمون جمع الضرائب غير المباشرة وادارة الاحتكارات واستثمار أملاك الملك وبيع الوظائف العامة والمناصب . ويسهم في عملياتهم ، من طرف خفي ، بعض النبلاء والقضاة والتجار . وقد انصرف رجال المال انصرافاً مطرداً عن التجارة والصناعة . وحين اعوزت هنري الرابع رؤوس الاموال للصانع الملكية اضطر الى ارغام « زامت » و « دي مواسه » و « بوله » الى تقديم مبالغ غير ذات اهمية نسبياً .

بيعت الوظائف العامة على تفاوت في النسبة ، في كل مكان تقريباً . الا ان بيع المناصب في فرنسا قد بات نظاماً وبلغ الذروة . فالملك يحدث ويبيع مناصب عديدة ، وهو انما يصدر بذلك صكاً بدخل تدفقه الدولة : فالضابط مثلاً يستوفي فائدة رأسماله رواتب وتوابل وحقوقاً ومواد مسعرة . ويفرض الملك دورياً على الضباط ، لقاء دفعة من المال ، زيادات على الرواتب ليست في الواقع سوى قروض اجبارية . فلما كانت المبالغ الواجب دفعها باهظة جداً ، يضطر الضباط الى البحث عن الدائنين فيمسي بمجموع الضباط وكأنهم آلة ضخمة مهمتها تعبئة رؤوس الاموال المجددة لخدمة الخزانة الملكية . ولكن الملك ، مقابل ذلك يتيح للضباط في النهاية جعل مناصبهم وراثية . وقد اضيف الى حق الاستقالة وتعيين الخلف نظام هو اشبه ما يكون بالتأمين على الحياة ، يضمن الوظيفة للعائلة اذا كان للضابط ولد في سن الخدمة ، او رأس المال الذي يمثله المنصب اذا لم يكن للضابط اولاد . فجعل من ثم ان طبقة الضباط باجمها قد توطدت وتمكنت .

ارتقاء التجار الصناعيين
ولكن طبقة التجار - الصناعيين استمرت في الارتقاء ، ففي باريس غدا ارباب الهيئات - الست (صانعي الاجواخ ، والطارين - الصيادلة ، والعقادين ، وصانعي القلنسوات ، والفرائين ، والصاغة) من كبار التجار . كما ان « سنكتو »

و « نقول له كامو ، الذي جمع ثروة تقدر بتسعة ملايين واستولى دفعة واحدة على ٢٠٠٠٠٠ دينار من الفضة في سوق فرنكفورت الدورية ، وصانع الاجواخ « كلود بارفكت » ، وتاجر الانسجة ، الخفيفة ادوار كولبير عم الوزير العتيد ، وكثيرين غيرهم في كافة المدن الكبرى ، اسسوا مصانع لانتاج المدافع والاسلحة وملح البارود والفروش والحرائر والاجواخ والادوات المعدنية . واقتنوا الاراضي ودفعوا بعائلاتهم الى وظائف الدولة والمدينة والكنيسة . فعين اخو « شارل بارفكت » خازن فرنسا ثم رئيساً بديوان النقود وتولى افراد عائلته وظائف هامة في ادارة مدينة باريس . وهكذا انضمت عائلات الصناعيين والتجار الى عائلة الضباط في ممارسة الوظائف العامة واشتركت كلها مع عائلات النبلاء في امتلاك الاقطاعات .

ان ما نشده جميع هؤلاء البورجوازيين هو النبالة وشرف النسب . النبلاء ضد البورجوازيين فهم يعمشون ، في الدرجة الاولى ، « عيشة الاشراف » دون اي نشاط مأجور ويمارسون الجندية : الجدتاجر والاب ضابط والابن جندي . كثيرون من قضاة المحاكم العليا اشراف ، الرؤساء فرسان والمستشارون حاملو سلاح . ويتفوق بورجوازيون كثيرون الى الحصول على براءات شرف . ولكن نبلاء الجندية القدامى يمتنون هؤلاء الحانوتيين البلهاء الذين لم يحسنوا التخلص من دماء نسبهم . وقد اوصدت ابواب المناصب في وجه نبلاء الجندية لانها غدت وقفاً على ذوي الثروات . لا بل ان الملك اخذ يعين المزيد من البورجوازيين حتى في الوظائف التي لا تباع بيعاً . فبورجوازيون هم باغلبيتهم منذ هنري الرابع أعضاء المجلس الملكي السياسي الذين كانوا اشراف جندية في الدرجة الاولى في عهد هنري الثالث . وبورجوازيون هم امناء سر الدولة اولاً والوزراء تدريجياً امثال « كولبير » و « لوفوا » . ولكن البورجوازيين ، اسباده اشراف اصبحوا أو بارونات ، لا يزالون يحتفظون بذهنية وعادات واخلاق لا يقرها اشراف الجندية . ولا يعترف لهم هؤلاء النبلاء بـ « الصفة » ولا ينظرون اليهم الا نظرهم الى « بورجوازية حقيرة » ويتظاهرون حيالهم بمزيد من الرفعة والازدراء . وقد حدث في اجتماع مجلس وكلاء المملكة الفرنسية في السنة ١٦١٤ ، حين قال النائب المدني « هنري دي مسم » « ان الطبقات الثلاث هي اخوات ثلاث امهن واحدة هي فرنسا » ، ان نهض بعض الاشراف واعلنوا « انهم لا يرضون بان يدعواهم ابناء السكافين والحرازين بالاخوة وان الفرق الذي يميزنا عنهم هو نفسه الفرق الذي يميز السيد عن الاجير » .

تعاطمت المضادة بين كافة الاسياد ، الاشراف والضباط والتجار ورجال المال ، وكلهم يمتلكون الاقطاعات ، من جهة ، وبين الفلاحين من جهة الاسياد ضد الفلاحين اخرى ، على الرغم من وحدة مصالحهم وارتباطاتهم الاقطاعية . فالاسياد يعيشون من عمل الفلاحين بالدخول عينا ونقدا وبالاتاوات المختلفة التي يجمعونها من ضرائب يدفع جلتها الفلاحون . ولكن الدخل الزراعي سريع التأثر بحركة الاسعار . وقد تقسو الفرائض والحقوق الاميرية واجبات عسيرة جداً اذا ما اتسمت هوة اللامساواة بين الافراد . ويجب التمييز

بين حالة الضرائب والكرامات والدخول والفرائض الاقطاعية المسددة نقداً وبين حالة الدخول والفرائض الاقطاعية المسددة عيناً بالنسبة الى الحصائد ، وبين حالة الاسياد ، والمزارعين ، والشركاء وصغار الملاكين .

ان السيد والمزارع الكبير يحققان المكاسب عندما ترتفع الاسعار بسبب ندرة المواد الغذائية لانها يحتفظان على الاجال بفائض الحصائد او بمخزونات يتمكنوا من بيعها باسعار عليا . ولكن الشريك والملاك الصغير يريان ان حصادهما يكفيهما للبذار والحيز فيستحيل عليها والحالة هذه ان يدفعوا الضرائب والفرائض . والضريبة توزع على الرؤوس ، لا بنسبة الانتاج . ولا تتبع الدخل الذي قد تتمدها . والفريضة او الضريبة الكنسية تقرران بالنسبة للانتاج قبل اسقاط النفقات ؛ ولكن النفقات المهنية (بذار ، الخ .) لا تتغير قط وقد لا يبقى من الانتاج ، بعد اسقاطها ، ما يغطي الفريضة .

اما اذا كان مرد ارتفاع الاسعار الى اسباب اخرى ، فالجميع يحققون المكاسب ، ولكن السيد والمزارع الكبير اللذين يستطيعان ارتقاب الوقت المناسب للبيع فيبدون ، بصورة طبيعية ، من هذا الارتفاع ، اكثر من الملاك الصغير والشريك . ويربح السيد بالنتيجة فوق ربح المزارع الكبير لان يمكنه ، كلما جدّد عقد الضمان ان يرفع قيمة الضمان بحيث يصادر كسب المزارع .

واذا انخفضت الاسعار ، فالمزارع المرتبط بمقد ضمان ينكب بضمان وافق عليه حاسبا حساب الاسعار العالية . اما الملاك الصغير والشريك فيدفعان دوغما صعوبة الدخول والفرائض العيلية اذا نجم الانخفاض عن حصاد وثير ، وبصعوبة كلية اذا اضطرهم الانخفاض الى بيع المزيد من حصادم للحصول على النقد ؛ ولكن الضريبة والدخول والفرائض النقدية قد تتجاوز الدخل مجدداً ، لاسيما وان الملاك الصغير والشريك يرغمان ، امام الحاج الحاجة ، على البيع بعد الحصاد مباشرة ، حين تكون الاسعار في ادنى انخفاضها . ويصاب العمال الزراعيون اسوأ اصابة . فبالنظر الى ركود التقنية الزراعية يعذر تخفيض سعر الكلفة الا بتحديد اليد العاملة . اجل ان الاجور لا تتدنى ، ولكن هنالك مزيداً من الماطلين والمشردين والهائمين على وجهم .

وهكذا فان التفاوت والمضادة بين الطبقات يتعاضمان باطراد . يضاف الى ذلك ان الدخول والفرائض والضرائب قد تتمدى وسائل المستثمر الصغير في حالتين ظرفيتين غير نادرتين في ظل هذا النظام الاقتصادي : ثورات الفلاحين والحروب بين الفلاحين .

يقف الاشراف ورجال المال والضباط موقفاً متزايد العداء من الكبار ضد ارباب المهن والعمال صغار ارباب المهن ، اسياد المهن « الصغيرة » ، ومن عمال المدن ، بمقدار خضوع هؤلاء للضرائب لان باريس معفاة من ضريبة الاقتطاع ، ومدنا اخرى مفعاة ايضاً او مشتركة . وقد اعتمدت هيئات الضباط الملكيين والمجالس التمثيلية والمحاكم ووزراء الدول ، من جهة ثانية ، سياسة عاطفة حيال اوليفارشية كبار التجار الصناعيين ومضرة

بصالح صغار ارباب المهن، الحُبازين والقصابين والقشاشين ، وصوالح العمال والصناعيين المستقلين الذين باتوا اشد انفعالا وحققا . واحتفظت الدولة للتجار الصناعيين بالوظائف البلدية والسلطة في المدن. وناصرت الدولة كافة ارباب المهن على العمال في مجهودهم الرامي الى ازالة التنافس وتخفيض لاجور وبلوغ الحد الاقصى من الانتاج . وامست التعاونيات في النهاية آلة في ايدي ارباب المهن للتضييق الخناق على العمال . ووقف ارباب المهن الانخراط في جمعيتهم . فاقفلوا ابوابها في وجه غير ابنائهم واصهارهم بفرض شروط تحدد السن والاقامة وانقاص عدد المترنين واطالة مرحلة التمرين للرفاق وتمعيق التحفة الفنية وغلانها والتحيز والاختلاسات وافساد ضامر لجان الامتحان ورسوم الانضمام الباهظة وضخامة نفقات ولائم الدخول . واتفق ارباب المهن على اعطاء ادنى الاجور الممكنة ، حتى يدفعوا عليها رسوما خفيفة للتعاونيات والسلطة العامة . وارغوا العمال على ان يشتغلوا ما بين اثني عشرة ساعة وستة عشر ساعة في اليوم . وطلبوا من الدولة تخفيض عدد ايام العطلة وتحريم التسرر العمالي ومنع العمال من الاختلاف الى الحانات ، حتى يتاح لهؤلاء الاكتفاء بالاجور المتدنية . وحظرت التكتلات والاضرابات على العمال . فاسس هؤلاء نقابات سرية : ابناء سليمان (الذئاب) ، ورفاق الواجب (المفترسون) ، وابناء السيد بجاك (الذئاب المتكرون) ، وابناء السيد سوبيز (السكارى) . وكان لهم رؤساؤهم ، وجمعياتهم المنتظمة ، وصناديق مال تغذيها اكتنابات اجبارية ، والاسلحة ، والخراب ، والبنادق القصيرة . ولم ينظر الرأي العام اليهم بعين راضية لانهم اتهموا بالتسبب في ارتفاع الاسعار بفعل متطلباتهم . ولكنهم ازدادوا قوة بازدياد عددهم . ففي السنة ١٦٣٧ ، بلغ عددهم في باريس ٥٠٠٠ عامل ومتمرن . والفوا في ليون ثلثي سكانها المائة الف وتراوح عدد العاطلين منهم بين عشرة آلاف واثني عشر ألفا ، فحين تتوقف جماهير المتسولين والمشردين من الارياف الجائسة نحو المدن وتتضم الى جماهير العاطلين المتضورين جوعا وذوي الاجور المتدنية ، حينذاك تبدأ الفتن والثورات .

تفاهم الخصومات وتتفاهم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية . فعلى الاجتماعية بالخصومات الدينية الرغم من البراءة المعروفة ببراءة « نانت » ، وعلى الرغم من التقارب بين الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك الذي انتهى الى قبول الزواج المختلط فيما بينهم استمرت الخصومة على حداثها اقله في الاقليات المتشددة . الاكليروس يوجه الى البروتستانت التهديد تلو التهديد . ويقدم بعض الكاثوليك على تمكيد احتفالات ترتيل المزامير واحراق مساكن البروتستانت المنفردين . وتثير « جمعية قربان المذبح » القضية على المنشقين .

مقابل ذلك يتصرف بعض البروتستانت المتهوسين تصرفا غير لائق عند مرور القربان المقدس ويسئون معاملة المرسلين في القرى . ويمتنع البروتستانت في « ميلو » عن تسليم الصكوك للكاثوليك وفي « نيم » ، لا يحمد الصناعيون الكاثوليك لا مسكنا ولا عملا . وقد اقدم بعض الاسياد البروتستانت ، بفضل ما يتمتعون به من سلطة ، على ارغام ابناء قرام على تغيير معتقدهم بالقوة احيانا . وفي مقاطعة « ساتونج » عطف ملاكو المراكب البروتستانت بالتفضيل

على البحارة من ابناء دينهم . وعاش كاثوليك الجنوب تحت كابوس الخوف الدائم من الاقصاء .
فعدا الصراع الديني شيئاً فشيئاً صراعاً طبقياً . وكان البروتستانت في « تور » و « روان »
وعدد كبير من المدن الصناعية تجاراً - صناعيين اثرياء يرتبط بهم الوف العمال الكاثوليك في
نطاق تأمين معيشتهم .

الثورة الصناعية الاولى في انكلترا سارت انكلترا قدماً في حقل التنمية الرأسمالية المرتكزة الى
التجارة البحرية الكبرى . فزادت تجارتها الخارجية عشرة
اضعاف ما بين السنة ١٦١٠ والسنة ١٦٤٠ ، فبدل الاقتصاد التجاري الاقتصاد الزراعي تبديلاً
اعمق منه في فرنسا الى حد بعيد . واستمرت الثورة الصناعية الاولى التي انطلقت في القرن
السادس عشر . وقد باتت الصناعة الكبرى ، قبل الحرب الاهلية ، شيئاً مألوفاً في مناجم
استخراج المعادن . ويغلب على الظن ان الصناعة الكبرى ، حوالي ، السنة ١٦٤٠ كانت اوسع
انتشاراً في انكلترا منها في اي مكان آخر من اليابسة . فبرزت مؤسسات تتطلب رؤوس
اموال ضخمة . وفي عهد جاك الاول استخدمت مصانع الشب على مقربة من « هوني » في
مقاطعة « يوركشاير » ، هياكل خشبية كبرى ومصاهر قرميدية وصهاريج وافران معدنية
يشتغل في كل منها ستون عاملاً ويستهلك كل سنة فحمًا حجرياً وخشباً وشباً بمبلغ ١٠٠٠
جنيه استرليني . وضم مصنع الورق في « دارتفورد » (كنت) ستهاية عامل ، ومصنع المدافع
في « برندلي » (كنت) مائتي عامل ، الخ . وقد بات ضرورياً ، لزيادة انتاج مناجم الفحم
والنحاس والحديد والرصاص القصدير السير قدماً في الحفر والحوول دون غزو المياه
وانفجارات الغاز . ولكن رواقاً عميقاً يكلف الوف الجنيهات ، ومضخة تسيرها الاحصنة
تكلف الف جنيه سنوياً . كما بات لزاماً استخدام مئات المدنيين لان مناجم الفحم أصبحت
تنتج بين عشرة وخمسة وعشرين ألف طن حوالي السنة ١٦٤٠ ، بعد ان كان الانتاج السنوي
في منجم الفحم لا يتعدى بضع مئات من الاطنان الا نادراً في السنة ١٥٥٠ . وكانت المصاهر
الكبرى والمطارق المائية الضخمة لصناعة الحديد شيئاً مألوفاً قبل الحروب الاهلية . ثم
تكاملت بعض الصناعات : فعادت معامل الحديد مثلاً لارباب المصاهر الكبرى . وتعاظم شأن
رؤوس الاموال المتجمعة . ففي عهد جاك الاول ، بلغ رأس مال احد مصانع الجمعة اللندنية
عشرة آلاف جنيه بينما لم يتطلب سير مصنع الجمعة الكبير ، قبل السنة ١٥٤٠ ، اكثر من ٢٥
جنيهاً . وسيطرت الرأسمالية الصناعية على الصناعة المنزلية التي ما زالت قاعدة عامة . ووفرت
صناعة المعادن الكبرى المتعاظمة المادة الخام للصناعيين اليدويين الذين ينتجون المراسي
والادوات وقطع التبديل للآلات والفؤوس والمهاميز والمواس والمسامير والاقفال وبواسن الحارث
ومفالي الماء والآنية المدنية والمقالي . وبرز تعاظم الصناعة التجاري في النسيج اذ استخدم بعض
« الاسياد » ٥٠٠ وحتى ١٠٠٠ عامل في منازلهم . وفي مقاطعة « لنكاشاير » ، وفر التجار -
الصناعيون القطن لالوف الغزالين والحاكة الملتصتين هنا وهناك . وفي صناعة القطنيات ، كما

في صناعة الاجواخ ، نهضت بعض المعامل بالاعمال التكميلية : الصياغة والتلييد والصقل . ولكن هذه الانطلاقة لم تخل من الازمات . فالبطالة غير نادرة في صناعة الاجواخ خلال القرن السابع عشر . وقد حدث في تجارة الاقمشة ، قبل السنة ١٦٢٠ ، هبوط استمر سنوات عدة . وطورت الرأسمالية التجارية الزراعة تطويراً بطيئاً . وفي سبيل توفير الصوف للصناعة واللحوم للمدن ، تابع الملاكون ، ولو على نطاق اضيق ، تحويل اراضيهم الى مراعي بتسييجها ومنع الدخول اليها ؛ واتسعت رقعة المروج الصناعية ؛ واستحسن الكرنب الساقى ، الذي اقتصرت زراعته من قبل في البساتين ، لتغذية المواشي في بعض الدورات الزراعية .

الرأسماليون والسيطرة لقد حدث انقلاب في توزيع الثروات والعلاقات بين الطبقات . على المجتمع الانكليزي الا ان الصراع بين الطبقات اختلف عنه في فرنسا ، بسبب نمو الرأسمالية السريع ولان طبقة الاشراف لم تنظر الى مزاوله التجارة والصناعة والزراعة التجارية نظرتها الى عمل مشين . فقد استهوت هذه النشاطات عدداً كبيراً من الارستقراطيين ؛ ولا غرو فان شطراً من طبقة الاشراف الانكليز لا يختلفون بعاداتهم وذهنيتهم عن البورجوازيين ، ولكن سواد الاشراف لا يزالون يعيشون عيشة الاسياد في اراضيهم بين شركائهم المزارعين ، وقد حصد اشراف الطراز القديم هذا اولئك الذين جمعوا الثروات بفضل النشاطات الجديدة وتقدموا عليهم ؛ ومقتوا الرجال الجدد ، من تجار وتجار-صناعيين ، الذين يتفوقون الى اقتناء املاك واسعة ، ويتوصلون ، بفضل عقاراتهم ، الى شغل مناصب قضاء الصلح ، ويسهمون في ادارة البلاد ويتعاطفون شأنهم في انتخابات المجالس التمثيلية ، ويطالبون ، لغير الابكار من ابناءهم ، بوظائف الكنيسة والجيش والدولة وينافسون الاشراف القدامى في كافة المجالات . وقد اتهم اشراف الطراز القديم ، الرأسماليين بالمراباة وطالبوا بان تتدخل الحكومة لتضع حداً لتصرفاتهم .

وكان الرأسماليون المستقلون على خلاف مع رجال بطانة الملك . فقد استفاد بعض هؤلاء من نفوذهم لحل الملك على ان يعهد اليهم بعض الاحتكارات . ولدينا مثل اللورد « شفيد » ، رئيس مجلس الشال ، الذي حصل من جاك الاول على احتكار صناعة الشب لمصلحة نقابة من الاعيان المتمهدين الذين كان يمثلهم في البلاط . ولدينا ايضاً مثل الاميرال السر « روبرت مانسل » ، الذي استعاد بالشراء ، في السنة ١٦١٥ ، احتكار الزجاج الممنوح لتسعة متمهدين ، النخ . فطالب الرأسماليون ، يساندم صفار ارباب المهن وتجار المدن والمناطق الصناعية ، بالقضاء كافة هذه الاحتكارات وباطلاق حرية العمل .

ودفع نمو صناعة الاجواخ وتصدير الحنطة بالرأسماليين الى اقتناء املاك واسعة امنوا بعد ذلك ديمومتها بتخصيص ابيكارهم بها عند زواجهم . وقد دب الخلاف بين هؤلاء الملاكين ومزارعهم وفي سبيل استعادة ما يتفقدون حولوا المزارعات الدائمة الى مزارعات مؤقتة ورفعوا نسبة

الفرائض والاجور متجاهلين كل حق وقانون . واستمروا بتسييج اراضيهم مستندين الى القانون الصادر في السنة ١٥٩٧ ، الذي اجاز تحويل الارض الى مرعى لراحتها ، وسرحوا الفلاحين المناكيد واكتفوا مكانهم ببعض الرعاة . وتضاعفت قيمة الضمانات بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٥٠ ولكن عدد المستفيدين منها قد تدنى . اما الذين حرّموا حقوقهم فقد انضموا الى صفوف المتشردين الذين يختار من بينهم عمال الصناعة الكبرى . وقد تقدم المزارعون بالعريضة تلو العريضة الى المجلس الخاص مطالبين هؤلاء الملاكين الرأسماليين بحقوق مهضومة .

ودب الخلاف بين العمال وارباب الصناعات على قضايا الاجور والبطالة واستخدام العمال غير المؤهلين . وكان نظام الصناعيين البدويين الصادر في السنة ١٥٦٣ قد قضى بان لا يستخدم اي عامل ما لم يخضع للتدريب القانوني ، ولكن نمو الصناعة السريع قد حل ارباب المصانع على استخدام يد عاملة اقل كلفة من بين الفقراء والعاطلين الذين لم يتمرنوا في يوم من الايام . وفي سبيل التوصل الى تسريح هؤلاء غير النظاميين ، تحالف الرفاق والمتمرنون ولجأوا الى اعلان الاضرابات كما حدث في « نورويش » (١٦١٠) .

اصطدام المفاهيم الاجتماعية
ادى كل ذلك الى ايجاد التنازع بين فئتين . فمن جهة ، الرأسماليون والمستفيدون من نشاطهم : الارستوقراطيون والاشراف الريفيون وصغار ارباب مهن الحياكة والمزارعون المستقلون في المقاطعات الصناعية « نورفولك » و « سوفولك » و « اسكس » ولندن ، ومدن صناعة الاجواخ في « لنكشاير » « برادفورد » و « ليدس » و « لفاكس » ، ومدينتي « برمنغهام » و « ونيستر » في « مدلاندس » ، ومدن « غلوسستر » و « توفتول » و « اكستر » في الغرب . ومن جهة ثانية اسباب الطراز القديم ومزارعهم وطبقات الشعب الفقيرة .

قالت هذه الفئة الثانية بفهوم المجتمع القديم : الجسم الاجتماعي مركب من اعضاء متكافلة يتوجب عليها تبادل الخدمة والمساعدة ؛ وليس ما يملكه كل فرد الا لخدمة القريب . وقالت كذلك بتنظيم القرية القديم : حقول مستطيلة غير مسيجة ، زراعة مشتركة ، دورة زراعية كل ثلاث سنوات ، اراحة اراض ، مراعى عامة ، اي كل تلك الحياة الجماعية التي تحد من سلطة الغني وتأخذ بنصرة الفقير . وقالت اخيراً ببدا الفلسفة المدرسية : الاعمال على انواعها خدمة عامة ؛ فلا يجوز من ثم مزاوله تجارة قد تؤدي الى افقار الغير ؛ بل يجب البيع بالسعر القانوني ، والامتناع عن البيع بأعلى الاسعار ، والتنبيه الى انخفاض الاسعار المحتمل ، والاقلاع عن تخزين المواد بانتظار ارتفاع الاسعار ، وعدم استيفاء الفائدة الا اذا شارك الدائن المخاطر التي قد يتعرض لها المدين ، وعدم استيفائها كذلك من الفقير والدائن المنكود الحظ ، وتخفيف الشروط المفروضة على المزارع ، وابقاء الاراضي دون سياج ، ورفض كل كسب على حساب القريب .

أما المستفيدون من الرأسمالية ولا سيما الملاكون الجدد المنحدرون منها ، فقد تبنوا ، على

نقيض ذلك ، مفهوم الملكية البورجوازي : كل فرد سيد مطلق على ما يملك ، وله ملء الحق في استثماره لخدمة فوائده المادية ، دون أي موجب يضطره الى تقديم مصلحة القريب على كسبه الشخصي ، فالملكية حق رامن غير مشروط ودائم كانت هنالك واجبات ام لم تكن وقام بها المالك ام لم يقوم . وجلي ان هذا المفهوم الفردي للملكية يزيل كافة الواجبات الاجتماعية : فيجب من ثم ان تتحرر المصلحة الاقتصادية من كل قيد ، اذ ان غاية كل نشاط ، بالنتيجة ، هو ارضاء للشهوات . وان هذا المذهب ، كما نرى ، يقود الى مادية لاواعية .

وقد وجد المفهوم البورجوازي عضداً له في مذهب القائلين باتباع قوانين صارمة في الدين . أجل لقد تمسك بعض الكلفينيين المتشددين بأراء « كلفين » الشبيهة كل الشبه بأراء الفلاسفة المدرسين . ولكن الدين المسيحي غدا ، عند عدد كبير من القائلين باتباع القوانين الصارمة ، مجرد فردية مصلحة . فجوهر عقيدة هؤلاء هو وحي الله لروح الفرد . والدين ليس سوى معاملة شخصية بين الانسان وخالفه دوغا وساطة بشرية . كل انسان حر على مسؤوليته الخاصة . غير ان نظام الكون العقلي ، من جهة ثانية ، هو عمل الله ، والمخطط الالهي يفرض ان يملك الفرد لارضاء الله . الايمان وحده يخلص ، ولكن الايمان يتحيز بالاعمال . كل فرد مرغم على القيام بأعمال رسالته . وهو مدعو للنهوض بعمل خاص في سبيل مجد الله والخير المشترك . وعلى اولئك الذين تكون رسالتهم مزاولة الاعمال ان يعتبروها صلاة لله . ويترتب عليهم معالجتها خير معالجة وينظروا اليها نظرتهم الى نظام زهدي والى نضال روحي طويل الأمد . والكسب هو دليل النجاح والبرهان على ان الواجب قد قيم به بموجب وحي الضمير . والواجب من ثم هو الكسب . والنجاح في الاعمال هو دليل النعمة الروحية . والله قد بارك كل من يستجيب استجابة حسنة لرسالته . والفقر والبؤس هما عقوبة الخطايا . والمرعى العمومي والقانون على الفقراء يشجعان البطالة والخطيئة . يجب الا يساعد الفقير ، بل ان تصلح سجيته حتى يتخلص من الخطيئة ، وبالتالي من البؤس . وهكذا فان الفردية المتطرفة قد آلت الى الانانية والقساوة .

صراخ الطبقات افضت تجارة العمولة ، الى اثناء طبقة بورجوازية كبرى من التجار . في الاقاليم المتحدة فنجم ، عن ذلك تضاد واختلاف بين الطبقات في اطار الاقليم الواحد وتضاد واختلاف بين اقليم واقليم . وكانت هولندا وزيلندا المستفيدين الاكبرين من استثمار التجارة البحرية الكبرى ومن انهيار الموانئ البلجيكية . فاصبح لدى هولندا ، منذ السنة ١٦١٤ ، بحاره يفوقون عدداً بحارة انكلترا واسكتلندا واسبانيا وفرنسا معاً . كما اصبح لديها شركات بحرية قوية ، كشركة الهند الشرقية مثلاً (١٦٠٢) . وقد توفر لها المال الذي أتاح لها اجتياز الازمات بفضل مصرف امستردام (١٦٠٩) . وقد اتاحت لها الهدنة مع اسبانيا (١٦٠٩) دخول العالم الاستعماري واستثماره استثماراً منظماً . فازدهرت فيها الصناعات ، من بناء سفن ، وصناعة حرير ونمل وكتان وجوخ ، وقيشاني . وارتفع عدد سكانها . وبات لزاماً

توسيع زراعة البقول في السباح واعتماد الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات دون اراحة الارض فتوطد نفوذ البورجوازية في المدن : « امستردام » ، « روتردام » ، « هارلم » ، « مدلبورغ » ، « الكرن » . وتمكنت اوليفارشية بورجوازية من الاستئثار بالسلطة كلها . وكان هؤلاء البورجوازيون كلفينيين معتدلين ، متساهلين بالضرورة لاجتذاب التجار الاجانب ، وقد ساروا على آراء الراعي ارمينيوس الذي لم يكن متشدداً في موضوع القضاء السابق بالنسبة لمصير الانسان . ولم يبق في هولندا وزيلندا اشراف قط : سبعة في هولندا وواحد في زيلندا . أما الفلاحون ، وهم بنسبة واحد لاثنين من أهل المدن ، فلم يتمتعوا بأي حق سياسي . وتكونت في المدن طبقة كادحة من البحارة والعمال والمتمرنين ، المحرومين كل حق ، استغلت ايما استغلال ، وسارت على مبادئ الراعي « غومار » المتصلب وقاومت بعنف الاوليفارشية البورجوازية . وقددفعت هولندا ٥٥٪ من ضرائب الاتحاد ولكن فيها كان ثقباً على الاشراف الفقراء في « غلدر » و « اوفر - ايسل » وزبائنهم شبه الاقطاعيين من الفلاحين ، وعلى ديموقراطيي اقليم « فريز » . وهكذا فان الصراع الطبقي قد تفاقم أمره في كل مكان .

٣ - ازمة الدولة

كانت الثورة كامنة في كل مكان لا بل انها اعلنت اكثر من مرة . لذلك فان الحرب الاهلية كانت شبه مستمرة ، خامدة احياناً ومستمرة اخرى .

المثل الفرنسي في فرنسا خاض الملك صراعاً دائماً لاجل الاستقلال ضد محاولات آل ثورات الفلاحين والعمال هابسبورغ المتكررة لبسط هيمنتهم فاقوه ذلك في المعجز المالي . فالامكانات التي وفرها له الانتاج محدودة جداً ، والضريبة غير كافية ابداً ، والمعجز مزمن وزيادة الضريبة ثقيلة الوطأة وبعيدة الاثر . لذلك ما عثمت الحقوق الاميرية ان غدت سبباً أو مبرراً او حجة لاندلاع الثورات .

ألفت ثورات الفلاحين سلسلة متصلة الحلقات . فلا تمر سنة الا وتندلع ثورة في احدى الولايات . ولكنها تزداد خطورة ويتسع ميدانها في بعض الاحيان . وبين السنة ١٦٣٦ والسنة ١٦٣٩ ، حين افضت الحرب المعلقة التي نهض بها ريشليو الى افعال وطأة الحقوق الاميرية ، انفجرت هنا وهناك وهناك حروب فلاحية حقيقية . وروي عن الفلاحين في بعض المناطق انهم كانوا يرعون الاعشاب ويتنقلون عراة ويتنحرون ، وشكل « الرعاع » منهم في اقاليم « ميموسين » و « بواتو » و « المجرموا » زمراً من سبعة أو ثمانية آلاف رجل تنقض على جبابة الضرائب وتزق مأمور المساعدات ارباً . وفي السنة ١٦٣٧ ، شقوا عصا الطاعة في غسكونيا و « بريغور » ، فتوجب تجنيد جيش لتأديبهم . ولكن ألفاً ومايكي رجل من بينهم آثروا الموت وزراء المتاريس . وفي السنة ١٦٣٨ ، أدى فرض الضريبة على الملح ، في نورمانديا السفلى ،

الى اندلاع ثورة « الحفاة » . فقتل هؤلاء الفلاحون جبابة الضرائب المباشرة وطأة ، اعني بها ضريبة الاقتطاع . وارادوا منع جمع كافة الضرائب التي فرضت بعد وفاة هنري الرابع .

وثار عمال المدن بدورهم ايضاً كلما ارتفع سعر الحنّز وانتشرت البطالة وزيدت الضرائب . وتعددت الفتن بعد السنة ١٥٩٨ ، ثم تحولت ثورات في ليسون في السنوات ١٦٢٣ و ١٦٢٩ و ١٦٣٣ و ١٦٤٢ ، وفي باريس في السنة ١٦٣٣ ، وفي روان في السنة ١٦٣٤ ، اذ قاد أحد الحرّازين العمال الحبالين والوراقين وهجم معهم على « مكتب المزارع » وفي السنة ١٦٣٩ ، اذ هاجم عمال صناعة الاجواخ ، وعمال الصباغة ، بقيادة احد الساعيتين ، مأمور الرقابة على صباغة الاجواخ . فنقب الشعب المأمور بالمسامير وأرغم العجلات على ان تمر فوق جسمه ، ثم خربوا مكتب وزراء مال فرنسا ودخلوا عنوة مسكن « نقول له تلييه » رئيس جبابة ضريبة الملح .

وجلة القول ان الفتن بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٥٩ ، خلال حرب الثلاثين سنة حتى السنة ١٦٤٨ ، ثم خلال الحرب مع أسبانيا ، أكثر من ان تعد وتحصى .

وليست هذه الثورات حرباً يعلنها الفقراء على الاثرياء . فالاعتداء يتناول جبابة الضرائب ، ولكنه قلما يستهدف القصور والدور البلدية ، واذا ما أحدث ذلك ، فغالباً ما يكون المقصودون بمض حديثي النعمة من ضباط ورجال مال . ان ما استهدفته الثورات هو الادارة الاميرية . وما كانت لتصبح خطراً حقيقياً على الحكومة الا اذا اشتركت فيها الطبقات الاجتماعية الاخرى . وقد استطاع الملك على العموم اعادة النظام الى نصابه بسهولة بمقدار قيام قضاة المجالس التمثيلية وقضاة المحاكم ورؤساء دوائر العدل وغيرهم من المسؤولين بواجباتهم ، ووقوف قوى الامن بوجه الشعب وعزوف طبقة الاشراف عن الانضمام الى الفلاحين . ولكن جماهير من كل الطبقات اشتركت احياناً في اعمال العنف فاحدق الخطر اذ ذاك بالدولة .

طالب « السيد » اخو الملك والامراء الملكيون ، ورثة التاج من ثورات الكبار
بعده ، بان يشتركوا في الحكومة ويلعبوا الدور الاول في اهمية الروابط الاقطاعية
مجلس الملك ويتولوا السلطة في الولايات كحكام وراثيين وبالا
يكون الملك سوى الاول او الرئيس بينهم ، وغالباً ما ثاروا على سلطة الملك المطلقة . ولكن ثوراتهم كانت تجر شيئاً فشيئاً الى اندلاع ثورات جماهير كثيرة من الفلاحين احياناً . في هذا المجتمع ما زالت المشاعر الاقطاعية على حيويتها والروابط الشخصية بين انسان وانسان وروابط السيد بالفداوي على قوتها . وكان للامراء الملكيين والكبار زبائن كثر من الاشراف وعامة الشعب انتسبوا لهم ونذروا لهم امانة كلية واخلاقاً مطلقاً وناثبوا عنهم في المبارزات والمنازعات والمعارك والكلام والكتابة والديسة ، وتبعوهم في الضراء وسجنوا وقتلوا من اجلهم . وبالمقابلة ، وفر لهم السيد الغذاء واللباس احياناً ووضع فيهم ثقته وساعدهم ابدأ على التقدم في المجتمع واوجد

لهم مراكز العمل وزوجهم ووضعهم تحت حمايته واخرجهم من السجون وضمن المعاهدات التي عقدها مع الملك لانهاء الثورات شروطاً تحفظ لهم حقوقهم . وقد تقدمت هذه الواجبات المتبادلة على كل واجب آخر ، حتى واجب الطاعة للملك وخدمة الدولة . ولم يكن باستطاعة الملك نفسه ان يفرض سلطته الا بواسطة أمثال هؤلاء « المتفانين » وأمثال هؤلاء « الطفيلين » من رجاله .

تمكن الامراء الملكيون والكبار من جمع الزبائن من حولهم بفضل الخدمات الجمة التي كانت في متناول يدهم : « السيد » ، « الملكة » ، والامراء والاميرات ، في بيوتهم واقطاعاتهم ، والامراء الملكيون والكبار كضباط كبار في بلاط الملك الذي تكاد تنحصر وظائفه الكبرى بالعائلات نفسها ، مما جعل بعضهم يخشون من ان لا يحيط الكبار الملك الا بالسلابين والقتلة . اضاف الى ذلك ان الامراء والكبار كانوا يحكم الولايات نفسها طيلة اجيال . فعاد اليهم حق تعيين حكام المدن وضباط الحصون وضباط الفرق والاقواج وضباط عدلين ومالين كثيرين . وقد قامت في عدد من الولايات ، كتورمنديا فيما خص آل « لونجفيل » ولنفدوك فيما خص آل « مونورنسي » ، روابط مصلحة وتقان بين الكبار والوف العائلات على اختلاف نسبها . وكانت الوف العائلات ، اباً عن جد « مرتبة » للكبار ، و « ملزمة » ، و « متفانية » ، تخدمهم قبل الملك نفسه .

وغالباً ما يحتل هؤلاء الاوفياء انفسهم منصب متعدي الاملاك الملكية الذي فازوا به مع حق شغل الوظائف الملكية وتعيين الاسياد الذين يقضون بالعدل والضباط السيديين . فكسبوا بذلك نقوداً على صفار الاشراف ويورجوازيي المدن الصغرى والفلاحين الذين يسعون وراء هذه الخدمات المختلفة الكثيرة حتى في قلب الارياض .

اتفاق الطبقات الاجتماعية على الدولة كان هؤلاء الاسياد اخيراً تأثير عظيم على فلاحهم . فالروابط الاقطاعية تجمعهم ، وغالباً ما يشعر الفلاح شعور « الوفاء » و « التفاني » نحو سيده . ولا ينمو الحقد وروح العنف في قلب الفلاح الا اذا كان سيده رديئاً حقاً ، يضاف الى ذلك ان السيد يستطيع ، بواسطة ضباطه الذين ينظمون كل نشاط ، ان يجعل حياة فلاحه مرضية أو ثقيلة لا تطاق . وللسيد والفلاح من جهة ثانية مصالح مشتركة ضد الملك والادارة الاميرية . فالضريبة الملكية ترغم على حفظ الاجور دون مستواها في حال زوال الضريبة ؛ والضريبة الملكية تعرض للخطر ، في سنوات المحول ، جمع الدخول والفرائض واموال المزارعة . فكم من مرة اقدم الاشراف انفسهم على دعوة الفلاحين للثورة ضد جباة الضرائب ؟ والاسياد ، كما نعلم يحمون فلاحهم ، ويتدخلون لاعفائهم من المكوس واعمال التسخير ، ويوزعون عليهم الاسلحة ابان الحروب الاهلية ، ويفرضون بمساعدتهم احترام المواشي والحصائد . ويندر ان يكون من مصلحة الفلاح مقاومة سيده في حين ان الجيوش الملكية ، كغيرها لا تمف عن الاستلاب والنهب وان الفلاح ، دون حماية ، متأكد من انه سيكون الضحية . لذلك تبع الفلاحون اسيادهم في اغلب الاحيان .

زد على ذلك من جهة ثانية ان كل ثورة كانت تمتد بسهولة بالنظر الى ان الحد لم يكن فاصلاً بين الطبقات الاجتماعية . فليس نادراً ان نرى في العائلة الواحدة افراداً قضاة وافراداً جنوداً ، وافراداً صاهروا التجار وافراداً صاهروا اعضاء المجالس التمثيلية ، وافراداً ارتقوا الى طبقة الاشراف وافراداً ما زالوا في طبقة عامة الشعب ، وقد ارتبط بعض التجار من عليا الاشراف بروابط متعددة متشابكة متينة ، في عهد تميز بتنظيم عائلي قوي جعل عرف العلائق بين الحامي والحامي ، بالاضافة الى ذلك ، من رابطة النسب ، دماً أو مصاهرة تمهداً بالخدمة من جهة اخرى منها بلغ من بعد درجة النسب .

دور الضباط
المجالس العليا والدستور
لم يطمئن الملك الى ضباطه انفسهم ، وقد اعتبر اعضاء المجالس العليا ولا سيما اعضاء المجالس التمثيلية انهم جد مغبونين باحداث الوظائف التي تقلل من قيمة مهامهم وشأنها وزيادات الضمانات التي الجأتهم الى قروض باهظة الفوائد . فهم قد ارفعوا برفع الضرائب كأصحاب دخول سنوية من الارض وبالضرائب غير المباشرة كمتكفين . فرفضوا من ثم توقيع البراءات الاميرية وشلوا عمل الملكية حتى اثناء الحروب ، وادعى مجلس باريس التمثيلي بانه ورث مجلس الملك السابق . واراد الاشتغال بصورة بدئية بالامور السياسية ، ودعوة الامراء والملكيين والدوقة والامراء وضباط التاج للتداول في شؤون الدولة ، كما حاول ذلك ، دون جدوى ، في السنة ١٦١٥ والسنة ١٦٤٨ . وكان ادعاؤهم هذا بمثابة اعادة تشكيل مجلس الملك السابق وجمعية الاقطاعيين ؛ كما ان القول مبدئياً بحقهم في الاجتماع بمطلق ارادتهم واتخاذ المقررات الشرعية ، كان بمثابة اقامة ملكية تقيد بها الارستوقراطية ، في حال ان الملك قد أراد لنفسه ان يكون مطلق الصلاحية وشعبياً .

وادعى مجلس القضاء لنفسه ، في السياسة والتشريع ، بالتمتع بسلطة مستقلة عن الملك وبالمعمل تلقائياً بمبادرته الخاصة والتشاور بمزول عن اي رأي آخر وفرض مقرراته . وقد أراد جمع ضباط الملك الآخرين للوقوف على شؤون الدولة المختلفة (قرار الاتحاد ، في ١٣ نوار ١٦٤٨) . وحاول هذا المجلس اعادة النظر ، وحده ، في البراءات المقررة في حضرة الملك ، وذلك في الاجتماعات القضائية التي أعادت مجلس الملك السابق ، وقد حور أو ألغى بقراراته براءات أو بنوداً من براءات اقرت في هذه الاجتماعات . ولم يسلّم بالاجتماع القضائي في حضرة الملك الا اذا كان حضور الملك بمثابة زيارة يقوم بها لاستطلاع آراء المجلس في موضوع سياسي عام . وقد اعلن ان في حضور الملك انتهاكاً لحرية التصويت ، وادعى لنفسه حق التشاور وقرار البراءات والاوامر بمزول عن الملك .

الدعوة التلقائية لممثلي المملكة ، والاطلاع على كافة الشؤون ، والشرائع المسنونة بمزول عن الملك ، كل ذلك كان بمثابة اقامة جمعية منفصلة عن الملك تتمتع بالسلطة التشريعية وبحق رقابة السلطة التنفيذية ، وبمثابة محاولة اولى للفصل بين السلطات المختلفة . فسار المجلس ، بذلك الى

ملكية مقيدة ، لا بل مهد الطريق أمام الجمهورية . وجاء عمله متنافياً وكيان الملكية بالذات التي الف الملك والمملكة في نظرها كلا لا يتجزأ . فحضور الملك لم يكن انتهاكاً لرأي أعضاء المجلس الملكي ، لأن المجلس ، الذي يمثل المملكة ، لم يكن ليوجد بدون الملك . وكان الملك يستجمع الآراء بواسطة مستشاره ولكنه يستخلص بنفسه بعد ذلك حقيقة رغبة المجلس ويتبناها كما لو كانت صادرة عنه . وكان ممكناً ان تختلف هذه الرغبة عن الرغبات الملنسة ، فيبقى للملك الحق آنذاك في اتخاذ قرار نهائي يعارض اغلبية الآراء . فكان موقف المجلس التمثيلي من ثم موقفاً ثورياً . وكان انقلاباً ، وفصلاً مصمماً بين عنصرين متحدين في الواقع يتكاملان ولا يتجزآن ، الملك والمملكة ، الملك والامة . وكان بالتالي رفضاً للملكية .

المجلس العليا وثورتها الرجعية

ولكن هذه الثورة السياسية وسيلة دوام اجتماعي . ولم يستهدف عمل المجلس التمثيلي سوى المحافظة على اوضاع أعضائه الراهنة وأوضاع أنسابهم وحلفائهم ، وأوضاع امثاله ، وأوضاع متولي الوظائف والاقطاعات ، في وجه ثورة اخرى مركزية تقول بالمساواة الى حد ما ، هي ثورة الملكية المطلقة . فالجلس التمثيلي انما قاوم محاولة احلال المفوض محل الضابط ومجلس الملك محل المجالس العليا والوكيل محل مختلف الهيئات القضائية والمالية . وانكر على مجلس الملك وحده ، في غياب الملك ، حق التصرف وكأنه كتبية المملكة الاولى ، وحق ابطال كل قرار يصدر عن المجالس التمثيلية ويتعارض مع السلطة الملكية والمنفعة العامة . وطالب بإلغاء وظائف الوكلاء الذين لم يكتفوا بالنظر في الشؤون الطارئة قبل احوالها الى القضاة العاديين بل بتوا بالامور الجوهرية بانفسهم بتفويض من مجلس الملك واقصوا كثيرين عن وظائفهم ، اولئك الوكلاء الذين زاولوا وظائف ضباط المال وخزنة فرنسا و المختارين ، وغيرهم . وطالب المجلس التمثيلي بان يعود الضباط الى ممارسة مهامهم وان لا يجرموا وظائفهم بناء على مجرد أمر ملكي بل بموجب حكم قضائي كما تقضي بذلك الانظمة . فكان الموضوع من ثم معرفة من سيتولى ادارة المملكة : موظفون ملكيون يعينون ويمزلون عند الحاجة ويعملون باسم السلامة العامة وسياسة الدولة العليا في سبيل خدمة مصلحة الملك التي لا تختلف عن مصالح الدولة العامة ، ام هيئات من الضباط تعود لهم ملكية وظائفهم ، لا ينقادون من ثم بسهولة ولا يعزلون علماً ، يهتمون للمصالح التي يمثلونها فوق اهتمامهم بالمنفعة العامة ، ويملكون وظائفهم واقطاعاتهم بالوراثة ويتمتعون بكافة سلطات السيد ، ويرتبطون باواصر النسب او المحالفات باشراف الجندية ، ويفقدون قوى اقليمية أو محلية ، ويمثلون الاقاليم والمصالح الخاصة في وجه الملك فوق تمثيلهم الملك امام المصالح الخاصة والاقاليم .

وقد توفرت للمجلس التمثيلي وسيلة ممتازة للعمل: الاعتراض على الضرائب واقناع الفرنسيين بانهم يدفعون رسوماً باهظة غير عادلة لمجرد مجد الملك ومجرد بذخ البلاط ، بينما تعرض مطامع آل هابسبورغ في السيطرة الشاملة للخطر وجود الدولة بالذات وبينما يفتقر البلاط البائس الى

المال الضروري لتأمين غذائه . وكان من شأن ذلك حل الجماهير على التعلق العاطفي بالمجالس التمثيلية وعلى احترامها واجلالها . ويصح الكلام نفسه عن بورجوازيي المدن المثقلين بالرسوم والقروض الالزامية والاحتكارات التجارية واستيراد المصنوعات الاجنبية . يضاف الى ذلك ان أعضاء هذه المجالس كانوا ضباطاً لفرق الميليشيا البورجوازية وأسياداً ينعمون بملء السلطة على الفلاحين في أملاكهم . فقد حدث في باريس ، ابان « ثورة المرجام » ان استدعى الاسياد من البورجوازيين الباريسيين فلاجي « سانتوان » وقرى اخرى قلبوا الدعوة وحاربوا في صفوف بورجوازيي العاصمة .

الدور الثوري
للحزب البروتستانتي .
ان التنظيم السياسي للحزب قد اعطى اسياده وبلدياته قوة نادرة . منحت براءة « فانت » البروتستانت مراكز سلامة وحاميات عسكرية . ولكن البروتستانت لم يكتفوا بما منحتهم اياه البراءة فأسسوا ، بالاضافة الى ذلك ، جمعيات اقليمية وجمعية عامة . وكانوا قد قسموا فرنسا ثمانية قطاعات عسكرية ، كما كان على رأسهم قائد عام ، ومثلهم سفير في البلاط الملكي . فالفوا من ثم دولة داخل الدولة وجعلوا من فرنسا اتحاداً مؤلفاً من دولة كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وشعبين مختلفين لا يجمع بينها سوى الخضوع للملك واحد ، وثنوية سياسية . الا ان هذا المفهوم الاتحادي الذي كان في صميم الحركات الارستوقراطية « الاقطاعية » ايضاً ، لم يكن ليتفق وحاجات الدولة . فاستفاد الاسياد البروتستانت منه للانضمام الى كل حركة ينهض بها « الكبار » وثاروا كلما كان الملك بحاجة الى السلم الداخلي ابانت صراعه مع الاجنبي .

الثورات العامة
وقام في بعض الفترات الاتحاد يستهدف مقاومة الملك و « أوفياته » ضم الاشراف والضباط وجماهير المدن والفلاحين . فكان كافياً ان يعطي أحد الامراء الملكيين الاشارة المتفق عليها حتى تندلع الثورة وتشمل نيرانها تدريجياً ولايات كاملة . فبدعو الاشراف آنذاك الفلاحين لحمل السلاح وقطعي المجالس التمثيلية المثل فتفتح الامراء التي يجمع فيها الوكلاء الحنطة للجيش « دوفينه » ، « ١٦٣٠ » وخزائن الملك ليستولوا منها بانفسهم على مرتباتهم المحجوزة للحاجات العسكرية (تولوز ، « ١٦٣٠ ») وتشجع اعمال الفوضى وتتقاعس عن الوشاية بالناشرين وتقاوم التدابير المتخذة بحقمهم وتتقاضى عن اعمال الجماهير اذا لم تتعرض الا للضباط الملكيين وتملكاتهم لا لاملاك رعايا الملك الآخرين .

أما هذه الفترات فهي فترات القصور الشرعي في الدرجة الاولى ، قصور لويس الثالث عشر ، وقصور لويس الرابع عشر . وتبدو الروابط السياسية وكأنها تتحطم تحطيماً خلال هذه المراحل فيشق العديد من الرعايا عصا الطاعة ويتحصن العديد من الاشراف وعامة الشعب في مساكنهم ويؤلفون الزمر ويهاجمون ويستلبون ، كما لو كانت تمهدهم محصورة في شخص الملك الراحل وكما لو كانوا غير ملازمين بأي واجب نحو خلفه القاصر ، وكما لو لم يعد هناك لا دولة ولا قانون بعد

وفاة الملك . فتسبح الفرصة المؤاتية لمطالبات الامراء الملكيين . ثم ان هذه الفترات هي سنوات الحول والجماعات ايضاً أو فترات الحروب ، حين تغدو الادارة الاميرية ثقيلة الوطأة وحين لا ينقطع حبل الدسائس الاجنبية لاستمالة الامراء الملكيين . ويبدو حينذاك ان الروح الوطنية تفسد ويفسد مفهومها . فعلاً بالرأي القديم القائل بان لصاحب الاخذاة حق انتخاب سيده ، ترى « غاستون دورليان » و « سنك مارس » و « كوند » يتفقون وملك اسبانيا . ويلفت النظر ان المجلس التمثيلي والضباط الآخرين والبورجوازيين والشعب باجمعه يسون العدو الخارجي . وتسابق الولايات والمدن على اعلان الثورة . فيبدو الملك وكأنه لم يعد سوى سيد لا يقوى على المقاومة الا بفضل بعض المخلصين ، وبعض العسكريين الاوفياء الذين يحتفظون له ببعض الكتائب ، وانشقاقات الامراء الثائرين . وتعلق مصير المملكة مرراً عدة بمصادفات المارك . فقد احرز النصر في معركة « لنس » (١٦٤٨) على اسبانيا مثلاً ولكن لا يستطيع أحد التكهن ، في ثورة المرجام الناشئة هذه ، بالاحداث الممكنة لو تحولت هذه المعركة الى هزيمة . فان ما نرجعه نحن هو تجزئة المملكة وزوال فرنسا .

أما في انكلترا ، ففي عهد جاك الاول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) ،
المثال الانكليزي
 الدولة على الفردية البورجوازية وعهد شارل الأول حتى الحرب الاملية ، وعهد جاك الثاني بين
 السنة ١٦٨٥ والسنة ١٦٨٨ ، نرى كل المتضررين بنظام تسييج
 الاراضي يتورون دوماً انقطاع على نتائج الرأسمالية . والصورة النموذجية لهذه الاضطرابات هي
 ثورة السنة ١٦٠٧ في « مدلاندس » فقد أقدم الالف من الرجال والنساء والأولاد والعامل
 الزراعيين وصغار الفلاحين الذين أفقرهم زوال طرائق الزراعة التقليدية والصناعيين اليدويين
 والقصابين والحدادين والنجارين والبنائين الذين أفقرهم نزوح السكان عن القرى ، على مهاجمة
 جدران صيانة المراعي وتقطيع الأسبجة الشائكة وسدّ الخنادق . وقد قدم لهم السكاك
 الأغذية الضرورية . ولكن هذه الحركات التي تستهدف الاشراف الريفين الذين يسجون أملاكهم
 لا تشكل خطراً على الملك الا لانها تخرج موقفه امام الرأسماليين . فالملك يميل بالتفضيل الى
 الثائرين . والدليل على ذلك ان التحقيقات الملكية في الحوادث الثورية لا تنتهي غالباً الى نتيجة
 والمحاكم الملكية تدين المالكين الذين يغالون في التسييج او في رفع الضرائب . وقد حافظ
 الملكان الاولان من سلالة « ستوارت » دون اي تغيير ، على مفهوم المجتمع : جسم منظم
 متسلسل السلطات تقوم فيه كل طبقة بالمهمة المسندة اليها وتضمن بالمقابلة نطقاً حياتياً يتناسب
 ومرتبته . تلك موجبات روحية يفرضها الله . ويتوجب على الدولة ، التي هي تعبير زمني لهذه
 الموجبات الروحية ، ارغام المجموع على احترام ارادة الله والحرص على ان يؤمن لكل فرد ما
 يحتاج اليه في معيشته فقط . وجليّ ان هذا الدور السامي الذي تلعبه الدولة يؤدي الى السلطة
 الملكية المطلقة . فحاول الملوك من آل ستوارت ان يحتفظوا لانفسهم بالسلطة التشريعية

والصلاحيات القضائية الخاصة وحق جميع الضرائب دون موافقة الرعايا وجيش دائم يخلص لهم الوفاء .

تقدم الفردية البورجوازية
الا انهم اصطدموا بالمتشددين البوريتانيين من البروتستانت .
فقاومهم التجار المتشددون الذين منوا بخسائر مالية بفعل
الاحتكارات الممنوحة لرجال البطانة الملكية ، والدائنون المتشددون ، من رجال كنيسة أو
أسياد الذين تعاقبهم المحكمة الكنسية العليا بسبب مراباتهم والذين يسخرون من تدخل الاساقفة
في الشؤون الزمنية ، والجواخون المتشددون الذين يشكون من ايفاد المفوضين الملكيين لمراقبة
الصناعة والاسعار ، والاشراف الريفيون المتشددون الذين تهرمهم اللجان بسبب نزوح السكان
عن الارياف ، ولكنهم تأقمو على قرارات الندوة المكوكية والدائرة القضائية في المجلس .

فقد ولى الزمان الذي كان الملك فيه يحسد المثل القومي ، وبات باستطاعة الطبقات
المتنافسة ان تتألب عليه . والمجتمع الذي يحيط به بات مجتمعاً بورجوازي العادات والميول .
فتجار الشركات التجارية البحرية الكبرى يستخدمون اشقاء الاشراف الريفيين وابناء الاثرياء
البورجوازيين على السواء . ويزاول بعض النبلاء التجارة الكبرى . وينتج كبار الملاكين
الارستوقراطيين وصغار الاشراف للتصدير المباشر وللصناعة على السواء . وغالباً ما يكون
العمال المتمرنون في لندن ابناء اسياد عقاريين . فتتحقق بذلك الوحدة بين المدن والارياف . في
مدونة القرية وفي مدرسة المدينة التجارية القريبة ، يجلس ابناء العائلات المسيطرة في المقاطعة
على مقاعد واحدة الى جانب ابناء المزارعين والتجار والصناعيين اليدويين . وليس نادراً ان
يتزوج ابناء الاسباد العقاريين الذين لم يخدمهم الحظ من بنات الاسباد العقاريين الاثرياء . ويقبل
في طبقة صغار الاشراف اولاد ابناء التجار وابناء كبار الملاكين الذين يتزوجون من بنات
الاسباد العقاريين . اصف الى ذلك أخيراً ان الروح البوريتانية المتشددة ، وهي في جوهرها
ذاك الشعور الداخلي بان المسيح يحبني وباني احب المسيح ، تملأ قلوب افراد ينتمون الى كافة
الطبقات وتجمع بين طبقات مختلفة في احترام تطيري للشخص البشري الذي يسيره عمل الله ،
وفي الوقوف موقفاً حذراً من السلطات والنظم التي تستطيع الحد من حريته ، وفي مقت
السلطة المطلقة .

الاختلاف الدستوري
ان وجود هيئة تمثل الانكليز الميسورين ، ونعني بها المجلس ، قد أتاحت
لهذه المناجم ان تتصادم في صراع كان في البداية دستوريا . اختلف
المجلس مع الملك ومعاونيه . فاعاد اصول « المنع » . فاشتكى مجلس العموم الى مجلس اللوردات
واستصدر حكماً على المستفيدين من الاحتكارات الملكية اولاً ثم على مستشاري الملك ،
اللورد - المستشار « بيكون » (١٦٢١) واللورد - الخازن « سترافورد » (١٦٢٤) و « لود »
(١٦٤٠) . واعلن المجلس مرة اخرى حق الانكليز في الامتناع عن دفع ضرائب لا يسلم بها

ممثلهم وكافة الحقوق التي كان معترفاً لهم بها عند بدء ولاية هنري السابع (عريضة المطالبة بالحقوق ١٦٢٨) وحاول تأمين دوريته (١٦٤١) ، وتوسيع حقوق الانكليز بحيث تشمل الضرائب الغير مباشرة نفسها، والى الندوة المكونة والمحكمة الكنسية العليا (١٦٤١) وحور المالك الرأسمالي . ويتضح من ذلك ان الانكليز حاولوا من ثم ان يحلوا محل ملكية مطلقة تسمى الى تحقيق التوازن بين الطبقات الاجتماعية ملكية يقيد بها ممثلو النزعات الرأسمالية المزودون بالسلطة التشريعية وبحق الرقابة على السلطة التنفيذية والادارة المحلية ، ودولة تسند اليها مصالح الطبقات البورجوازية ومن ينتسب اليها . وقد بلغ من بعد وجهات النظر بين الملك والمجلس التمثيلي ان الحرب الاهلية قد اندلعت في السنة ١٦٤٣ وان القرن قد قدر له ان يشهد ثورتين (١٦٤٠ - ١٦٦٠ ، ١٦٨٥ - ١٦٨٨) .

في الاقاليم المتحدة، بقيت السلطة المركزية متميزة بضعفها. والاقاليم المتحدة المثال الهولندي اتحاد مؤلف من سبع ولايات حافظت على حقوقها في السيادة . اجهزتها المشتركة الهامة هي مجالس الطبقات ومجلس الدولة الذي يشترك فيه مندوبو الولايات بصفة سفراء حقيقيين حافظت كل ولاية على ضرائبها وجيشها واسطولها وقائدها العسكري المسؤول عن النظام ومجلس الطبقات ومجلسها الخاص . ولا بد من اجماع رأي الولايات . وفي سبيل ذلك يراجع مندوبو مجلس الطبقات مندوبي المجالس الاقليمية الذين يراجعون بدورهم منتخبهم . فنحن هنا امام استفتاء دائم يتطلب اقناع كل مدينة في كل ولاية ؛ وفي كل مدينة الحكام المسؤولين عنها . ويجب الحصول على موافقة ١٢٠٠ شخص تقريباً قبل التوصل الى اتخاذ قرار . وهذا لعمرى وضع يقارب الشلل .

أما الذهنية فتتميز بالآفة . فالبورجوازيون يسيطرون في مجالس هولندا وزيلندا و « اوترخت » و « فريز » و « غروننغ » وبين المندوبين الى مجلس الطبقات . أما طبقة الاشراف فلا تسيطر الا في « غلدر » و « اوفرايسل » . ولكن هؤلاء البورجوازيين حديثو النعمة تستمر ذهنية المدينة الصغرى والافانية التجارية الضيقة . فاستحال تفاهمهم واتفاقهم حتى في زمن الحرب . وقد رغب الهولنديون في العمل على الانهر ، على مصب نهر اسكو ، بغية افقار « انفرس » ، ورغبت « غلدر » في العمل على الرين لاقفال ابواب الاتحاد في وجه الاعداء . أما امستردام فقد باعت الذخائر والبارود والقنابل لاعداء الاقاليم المتحدة ، للاسبانيين اولاً ، ثم للويس الرابع عشر في عهد متأخر .

ان واجب العيش قد اتمى قوتين وحدويتين متعارضتين . فقد قدمت عائلة « اورانج » للاتحاد قادته العسكريين الذين جعلتهم حاجات الحرب يميلون الى حكومة ملكية . كما ان الخدمات التي اداها امير اورانج قد فرضته قائداً عسكرياً مسؤولاً عن النظام في خمس أو ست ولايات . ووقع الاختيار في ولايات اخرى على احد افراد العائلة . وقد مثل امير اورانج

التفاف القومي ، ومن ثم فكرة الوحدة . واستند الى طبقة الاشراف في غلدر و « اوفرايسل » التي كانت اقل تعلقاً من البورجوازيين بالمصالح المادية والشؤون المحلية ، ولكنه استمال كذلك جميع اعداء البورجوازية الرأسمالية ، اي الفلاحين والعمال والبحارة والجيش .

أما البورجوازية الهولندية المحسدة برئيس سلطتها التنفيذية ، والقديمة بتجارتها العالمية والنافذة بجامعتها في ليدن ، فقد سارت على برنامج اوليفارشى يحقر الفقراء ، والاشراف في عدادهم ، وبرنامجاً جمهورياً صممه ضد الملكية التي اعتبرتها غير منطقية وبدائية وملزمة بطابع الاستبداد العسكري ، وفي كلا البرنامجين انتقام تقدم عليه طبقة لم تعد لتحظى بمركز مرموق في الاقتصاد وفي المجتمع . وقد أراد البورجوازيون الهولنديون تحقيق وحدة الوطن المشترك بهيمنة ولاية هولندا التي كانت أوسع الولايات ثروة واعظمها نشاطاً واشدها حزماً واعمقها ثقافة . وعلى رئيس السلطة التنفيذية في هولندا ان يلعب ما يشبه دور رئيس الجمهورية الاتحادية للاقاليم المتحدة .

ادى هذا الوضع الى قيام نزاع دائم بين رئيس السلطة التنفيذية والقائد العسكري المسؤول عن النظام رافقته ازمات حادة تقابل فيها « اولدنبرنفلت » و « موريس دي ناسو » ، و « جان دي فيت » و « غليوم دورانج » . فكانت الغلبة للقائد العسكري في فترات الحرب ، ورئيس السلطة التنفيذية في فترات السلام ؛ لأول حين تتأزم العلاقات الخارجية وحين يكون النزاع المسلح أمراً مرغوباً فيه ؛ والثاني حين يرغم العياء على طلب التهدئة . وقد اتخذ النزاع طابعاً دينياً بين البورجوازية الارمنية وبين الاشراف وافراد الشعب الفوماريين . ان هذه الدولة المتمزقة تبدو للمراقبين الاجانب وكأنها مسخ غريب الحلقة . وهكذا تبدو الدولة في كل مكان ناقصة غير مكتملة .

٤ - الازمة السياسية النولية

تخلت أوروبا شيئاً فشيئاً عن حلم الجمهورية المسيحية والوحدة الدينية الكاثوليكية والوحدة السياسية للامبراطورية - المقدسة الرومانية كما ان دولاً « عصرية » مستقلة وسيدة ومستقرة وخاضعة لنظام اقليمي وانظمة سياسية ثابتة انجبت فيها الوحدة والمركزية ، بصرف النظر عن كل اعتبار ، الى التغلب على الاثر المحلي الخاصة والتجزئة والبلبل ، قد سارت قدماً في اثبات كيانهما ووجودهما . وقد صممت كلها كذلك على اثبات قوتها ، فتصادمت في محاولاتها التوسعية والتسلطية .

وكانت اخطر هذه المحاولات محاولة سلالة هبسبورغ ، هبسبورغ اسبانيا خطر آل هبسبورغ وهبسبورغ النمسا . اما الفرع النمساوي ، وقد أسسه فردينان ، شقيق

« شارل الخامس » الثاني ، فقد سطر على ممتلكات اقليمية واسعة الاطراف : النمسا العليا والسفلى التي تسيطر على مجرى الدانوب الاوسط قبل « فيينا » وبعدها ، وامارات « ستيريا » و « كارنتيا » و « كرنبول » و « تيرول » ، ومملكة « بوهيميا » ومملكة « هنغاريا » التي الفت قوة ضخمة داخل الامبراطورية . وسوراً حصيناً لها في وجه الاتراك . وكان الجالس على العرش في فيينا من هذه الاسرة الحامي الطبيعي للمسيحية في وجه غير المؤمنين ، تلنف حوله المانيا كلها التفافاً تلقائياً حين يلوح الخطر التركي في الافق الشرقي .

في الواقع ، اختير الامبراطور ابدأ من سلالة هسبورخ . ولكن
 في الامبراطورية المقدسة ^{الفوضى}
 الامبراطورية « شكل دولة غير منظمة اشبه ما تكون بالمسخ » .
 فالبلدان التي تحمل كلها اسم المانيا موزعة الى « امم » ناشطة
 مختلفة اللسان . وهي مقسمة الى « امارات ودول الامبراطورية - المقدسة » التي تفوق « الامم »
 عدداً والتي لا تقوم فيها اية رابطة بين « الامم » والكيانات السياسية . فهذه الكيانات المتداخلة
 تداخل غريباً مختلفة كل الاختلاف من حيث المساحة والشأن وشكل الحكومة : الدوقيات
 وولايات الحدود والكونتيات وراثيات الاسقفيات والاسقفيات والاديرة والمدن الحرة والاملاك
 الصغرى الخاضعة لفرسان الامبراطورية . وبلدان المانيا مجلس تمثيلي هو مجرد اجتماع سفراء .
 ويقسم المجلس التمثيلي الى ثلاث هيئات : هيئة المنتخبين وهيئة الامراء وهيئة المدن . وهو مصاب
 بالشلل عملياً . فالامبراطور هو وسعه من يستطيع دعوته للاجتماع ، ولكن « لمنتخب ماينس »
 الرئيس ، حق معارضة الدعوة ومنع ادخال المسائل التي يعرضها الامبراطور في جدول الاعمال .
 وباستطاعة الامبراطور من جهة اخرى التمتع عن نشر قانون اقره المجلس . ولكنه لا يستطيع
 حمله على اعادة النظر فيه . ويسود الرأي كذلك بان العضو الامبراطوري ليس ملزماً بالخضوع
 لقرار مشترك اذا لم يوافق هو عليه . ويمكن اخيراً ، في المواضيع الدينية ، ان ينحل المجلس
 التمثيلي دون ان يتوصل بمضه الى فرض قرار على البعض الآخر . وهذا الخواء العاجز هو ما
 أراد ابن سلالة هسبورخ ان يجعل منه دولة .

استفاد الامبراطور فردينان الثاني ، المنتخب في السنة ١٦١٩ ،
 محاولات الامبراطور السلطية
 من ثورة التشيك في بوهيميا الذين كانوا قد انتخبوا فردريك
 الخامس ، المنتخب باللاتيني ، لسحق التشيك في « الجبل
 الابيض » (١٦٢٠) . ففدت بوهيميا ملكاً وراثياً لسلالة هسبورخ واعادها اليسوعيون الى
 الكاثوليكية ثم فرضت عليها الحضارة الالمانية . وفي شهر كانون الثاني من السنة ١٦٢١ ، رسم
 فردينان باقصاء المنتخب باللاتيني عن الامبراطورية ، وهو تدبير يجر الى حجز ممتلكاته
 وسقوط حقه في الانتخاب . فتصرف الامبراطور بذلك تصرف السيد . وبالإضافة الى هذا
 نقل حق الانتخاب ، والباليتينا العليا الى « مكسيميليان دي بافير » الذي كان قد قدم له

جيشاً . فتصدعت من ثم المساواة في الاتحاد الانتخابي ، اذ اصبح الممثلون البروتستانت اثنين فقط (ساكس وهيندنبورغ) مقابل اربعة من الممثلين الكاثوليك . وعبر الامبراطور ، وهو تلميذ اليسوعيين ، عن استعداده للقضاء على البروتستانتية في الامبراطورية . واخذ في تفسير « صلح اوغسبورغ » بوجهة النظر الكاثوليكية . واعتبر البند الذي حظر كل علمنة جديدة منذ السنة ١٥٥٢ بنداً مقبولاً شرعاً ، بينما اعتبره البروتستانت لاغياً وباطلاً . وشرع الامبراطور في اعادة اراض معلنة كثيرة للكنيسة الكاثوليكية . ورسم مجل الاتحاد البرتستاني او الانجيلي . ونظم في أوائل السنة ١٦٢٥ جيشاً خاصاً به هو جيش القائد المأجور « والنستين » . وفي السنة ١٦٢٨ انتزع من دوقية مكلنبورغ املاكهم واراد ان ينشئ قوة بحرية . وفي السنة ١٦٢٩ ، فرض على الالمان براءة « الاعادة » التي قضت باعادة كل ما عُلمن منذ السنة ١٥٥٥ ووضعت هذه الممتلكات عملياً بتصرف الامبراطور ، فحدثت حركة واسعة جداً في انتقال املاك البرتستانت الى الامراء الكاثوليك من ابناء الامبراطور او انسابه او حلفائه واختلافاً كبيراً جداً في ميزان القوى الراهن . اضيف الى ذلك ان شكل الوثيقة القانوني قد كان ثورة بمحد ذاته . فلم تقتزن اية وثيقة فيما سبق بقوة القانون الا بعد قرار يتخذه المجلس التمثيلي ويبرمه الامبراطور . ولم يسبق للامبراطور ان اتخذ اي قرار يتناول الامبراطورية بأجمعها الا بعد اتفاق مسبق مع مجموع المقترعين . وهانحن نرى الامبراطور ، بعد ان تجاوز حد السلطة في السنة ١٦٢١ ، يقدم مرة اخرى ، بوثيقة شخصية ، اقرار بتبديل عميق في وضع ملكية الاراضي الامبراطورية ، فبات له « التحفظ الكنسي » قوة القانون . وبدأ الامبراطور وكأنه مصمم على الاستغناء عن المجلس التمثيلي والاتحاد الانتخابي معاً . وسنراه ينفذ مقرراته بواسطة جيشه الخاص ، جيش « والنستين » . ففدت السلطة الامبراطورية سلطة ملكية مطلقة ، وغدا الامبراطور خطراً اشد تهديداً لاوروبا .

هسبورغ النمسا وهسبورغ اسبانيا : وزاد في شدة الخطر ان عمل الامبراطور وعمل
السيطرة على الطرق العسكرية والبحرية
هسبورغ اسبانيا كانا مرتبطين ، وان التسليطين تبادلا
مد يد المساعدة . وبقي فرعا السلالتين متحالفتين بالمصاهرات . ودرج اشقاء الابكار في العائلات
النمساوية على البحث عن الثروة في بلاط اسبانيا . ومنذ السنة ١٦١٧ ، عقد اتفاق وضعت
بموجبه الاسس لتحالف وثيق ، كانت اسبانيا آنذاك في حالة حرب مع جمهورية الاقاليم -
المتحدة المؤلفة من رعاياها السابقين الثائرين . توقفت الاعمال الحربية في السنة ١٦٠٩ بهدنة
الاثني عشرة سنة ، ثم تجددت في السنة ١٦٢١ . فكان من الضرورة بمكان لاسبانيا ، التي لم
تكن سيدة البحار ، ان تؤمن نقل جيوشها من منطقة ميلانو الى لوكسمبورغ . فاجاز ملك
اسبانيا للقائد « سبينولا » ان ينتزع حصون البالاتينا الريفانية عنوة من فردريك الخامس .
وممكن المال الاسباني من احراز النصر في الجبل - الابيض . أما السفير الاسباني فقد دفع
فردينان الى اتخاذ هذه التدابير بحق البالاتيني لأن من شأنها اطالة الحرب وتوسيعها . وفي السنة

١٦٢٠ ، استفاد حاكم ميلانو من ثورة كاثوليك « فالتلين » ، رعايا « الاحلاف الغبراء » ، ليحتل الوادي والممرات الالبية ، بينما قسام فرد آخر من آل هبسبورغ ، هو ارشيدوق « انسبروك » بالاستيلاء على « انغادين » على المنحدر الآخر من جبال الالب . فاتح اذ ذاك للجيوش الاسبانية في مقاطعة ميلانو ، والجيوش النمساوية في مقاطعة تيرول ، القيام باعمال عسكرية مشتركة عن طريق « مالويا » و « انغادين » و « ستلفيو » . وفي السنة ١٦٢٧ ، أرسل فردينان جيوشاً الى ايطاليا العليا ، وفي السنة ١٦٢١ ، قرر فيليب الرابع و « اوليفاريس » المقرب اليه العودة إلى سياسة فيليب الثاني ، وهي سياسة كاثوليكية تهدف الى تحقيق الهيمنة الاسبانية واجهت في الدرجة الاولى واجب سحق مقاومة « الاقاليم - المتحدة » . وكان اوليفاريس بحاجة ، في سبيل ذلك ، لأن تطول الحرب في المانيا . فالحرب تتيح له اقامة حاميات اسبانية في البالاتينا ؛ وهو كان مصمماً على احتلال بعض المواقع في الزاس وتأمين مرور الجيوش الاسبانية بين « فرانكس - كوتيه » وهولندا عن طريق « سندغو » و « برزاخ » و « الرين اليميني » و « فيليبسبورغ » و « سبير » و « ماينس » و « اقليم » و « تريف » و « لوكسمبورغ » و « اوبين » و « ميلانو » وهولندا عن طريق « فالتلين » و « بحيرة » و « كنستانس » و « المدن » و « الحرجية » (« والدشوت » و « ساكنجن » و « رينغلدن ») و « فريبورغ » (في بريسغو) و « الرين اليميني » . ثم أدرك اوليفاريس ، بعد السنة ١٦٢٥ ، ان ما يؤمن سلامة الاقاليم - المتحدة هو اسطول هولندا الحربي والسيطرة على البحار الشمالية . فكان لا بد من ثم ، لطرد المراكب الهولندية من هذه البحار من ان تتمكن الاساطيل الاسبانية من دخول مرافئ الشواطئ الالمانية لتؤمن الثمن والاحتواء فيها . وكان لا بد كذلك من ان يحتل الامبراطور دائرتي « ستفاليا » و « ساكس » - السفلى . والى هذا ترد عمليات والنسطين العسكرية في السنة ١٦٢٧ ، والانعام عليه بلقي « قائد البحار الاوقيانوسية والبلطيكية » و « دوق مكلنبورغ » في السنة ١٦٢٨ .

جاءت هذه المطامع تماكس مطامع ملوك آخرين وتهدد بالخطر استقلال
المفضلة البلطيكية ممالكهم . ويأتي بين هؤلاء ، في الدرجة الاولى ، ملك الدانمرك « كريستيان » الرابع ، دوق « هولستين » ، وبالتالي احد امراء الامبراطورية ، الذي كان يجلس ويقترح في المجلس التمثيلي ، وهو احد أعظم الأمراء شأناً في دائرة « ساكس - السفلى » . وكان ابنه الثاني قيماً على اسقفي « فردن » و « هالبرستات » بين مجرى « الفيزر » الاسفل ومجرى الالب ، وخلفاً مقررراً لاسقفي « بريمن » و « اوسنابروك » . وقد راقب ملك الدانمرك ، بفضل الرسوم الباهظة التي استوفها ممثلوه في جمارك « السنور » ، تجارة البلطيك من خروج الحبوب والاشباب من بولونيا وبروسيا ودخول المواد الغذائية و « المصنوعات » التي تستوردها المانيا الشمالية والشرقية من اوروبا الغربية . وكان مصمماً كذلك على ان يراقب بواسطة « بريمن » و « فردن » ، تجارة كل من الالب والفيزر وتأمين الشطر الاكبر من السهل الالمانى ايضاً ، فتوصل ، باستغلاله تجارة الآخرين عن طريق الجمارك ، الى مضاعفة مداخيله ،

ومضاعفة قوته بالفعل نفسه . وكان عمله هذا نوعاً من التسلط الجرمي . ولكن وسائله العسكرية كانت محدودة جداً . لذلك فقد اقل نجمه منذ السنة ١٦٢٩ (صلح « لوبك ») .

ومنذ السنة ١٦١١ ، حارب ملك اسوج « غوستاف - ادواف » قيصر « موسكوفيا » وملك بولونيا ، فاعطاه صلح السنة ١٦١٧ « كاريليا » و « انغريا » واستونيا الى الجنوب من فنلندا الاسوجية . وكان في نيته أن يبسط سيطرته الشخصية على الشواطىء الالمانية على بحر البلطيك ويضمن فوز البروتستانتية يجمع كافة الأمراء البروتستانت الالمان . وقد طمع هو ايضاً في نقاط الجمارك المثمرة في مرفأء البلطيك الالمانية . اصف الى ذلك أنه اعتبر اقامة ملوك آل هبسبورغ على الشاطئء البلطيكى خطراً يهدد اسوج .

امتدت الى الغرب والجنوب ، بين الدول الكبرى في اوربا الغربية ، وبين
المعضلة اللواتينية
الامبراطورية ، منطقة غير واضحة المعالم كانت موضوع تنازع دائم .
فالاقاليم المستقلة كانت قانوناً تحت سيادة ملك اسبانيا وعضواً من اعضاء الامبراطورية المقدسة في دائرة بورغونيا في آن واحد . ولكن نصوص هدنة الاثني عشرة سنة اقرت في السنة ١٦٠٩ باستقلالها المؤقت . ولم يكن الامر بالنسبة لبورجوازي هذه الاقاليم قضية حرية فحسب ، بل قضية حياة أو موت أيضاً . فقد تحقق لهم الازدهار بالحصار المطبق على مرفأ انفرس . وبات لزاماً من ثم ان يبقى مرفأ انفرس مقلداً اقلها نهائياً .

وما زالت الاقضية السويسرية مع حلفائها ورعاياها ، تابعة قانوناً للامبراطورية المقدسة . أما في الواقع فقد أمنت استقلالها عن النمسا . ولكن وضعها كان مكتئفاً بالصعوبات . فاذا هي عرفت كيف تفتح او تقفل المجازات الالبية وفاقاً للظروف ومقابل مكاسب مضمونة ، فقد تعرضت لان تصبح هدف المعارك ولأن تحتل الجيوش الاسبانية او النمساوية أو الفرنسية الطرق المؤدية اليها . لذلك فان استقلالها كان رهناً بتوازن المنافسات الاجنبية حول المجازات .
وخضعت ايطاليا لسيطرة ملوك اسبانيا من آل هبسبورغ الذين امتلكوا فيها « صقليا » و « نابولي » ، وهما مصدر تموين شبه الجزيرة الابيرية بالحنطة ، وراقبوا ، بواسطة « سردينيا » جزيرة « البابا » والحصون التوسكانية (« اوربيلو » و « بيومينو » و « بورتو - ارکولي ») وطريق نقل الجيوش بحراً بمحاذاة شواطىء ايطاليا الوسطى ، وسيطروا ، بواسطة دوقية ميلانو ، على سهل البو ومنافذ الطرق الالبية الرئيسية ، واستخدموا جمهورية جنوى لانتزاع الجيوش المرسله الى مقاطعة ميلانوا .

بات النزاع ، في هذه المنطقة الوسطى ، امراً محتوماً بين فرنسا وآل
الخطر يهدد فرنسا
هبسبورغ . فقد احاطت بفرنسا ممتلكات ملك اسبانيا . وكان باستطاعة
الجيوش الاسبانية المتنقلة ، على مقربة من حدودها ، من منطقة ميلانو الى فرانك - كوتيه ، ومن فرانك - كوتيه الى هولندا ، عن طريق الازراس والبالاتينا ، ان تحتشد وتهاجم « ابواب »

فرنسا . كما كان يمكنه ملك اسبانيا، بعد احراز النصر على الاقاليم المتحدة ، ان يرتد على فرنسا . فغدا ضرب الطريق العسكرية المؤدية من اسبانيا الى ايطاليا الشمالية ، الى فالتلين ، الى الزاس ، ضرورة ملحة وحيوية . ولكن فرنسا ، اذا ما اقدمت على هذا الضرب ، تدخل في نزاع مسلح مع هسبورغ النمسا .

القوميات وضع الملوك نصب أعينهم أهدافاً موضوعية ، ولكنهم اضطروا في سياستهم ان يحسبوا حساباً لمشاعر الطبقات المثقفة . فقد طالب الالمان بكل البلدان الالمانية اللسان ، « جرمانيا العظمى » ، وحتى بغيرها . وهي دليل على وجود حركة قومية نادت بالوحدة الجرمانية الشاملة . فان « فيليب كلافييه » ، البروتستانتي الدانتيغي ، واستاذ الجغرافية السياسية في جامعة « ليدن » في السنة ١٦٢٩ ، قد نشر كتاب « المدخل الى الجغرافية العامة » الذي طبع اكثر من ست وعشرين مرة . وقد تطرق هذا الالماني بايجاز الى موضوع فرنسا . ولكنه استشهد بـ « بلين » و « قبصر » و « تاسيت » ليطالب ، بعد تأويلات شتى ، بالمانيا العظمى : الزاس ، لورين ، برابان ، غلدر ، هولندا ، منطقة داننزيغ ، بروسيا ، بوهيميا ، « ليتونيا » ، سكندينايفيا .

ولم يكن الفرنسيون دونهم الحاحاً بالمطالبة . فان « جغرافياتهم » المنشورة بين السنتين ١٦٣١ و ١٦٤٦ قد شددت الكلام عن فرنسا الغالية وغذت الشعور بان حدود فرنسا يجب ان تكون حدود غاليا القديمة .

حين تشرب باريس من مياه الرين تكون غاليا كلها قد بلغت حدودها القصوى وضم « مسرح المناطق الغالية » ، المنشور في السنة ١٦٤٢ ، خريطة لاوروبا الفرنسية تمثل التوسع السلامي للكابيتين خلال القرون السابقة . وقد ورد تحت « لوحة للمناطق الغالية » : وصف جديد « للامبراطورية الفرنسية » تحت سيطرة الامبراطور لويس الثالث عشر العادل .

القيصرات البحرية وامتدت مطامع القيصريين الى البحار ايضاً . فطالب الهولنديون ، وهم السباقون في الملاحة والتجارة ، بحرية البحار . وفي السنة ١٦٠٩ ، نشر « غروتيموس » كتابه « البحر الحر » الذي انطوى على ان لكل امة الحق في الاتصال الحر بكل الامم الاخرى والاتجار معها بحرية . أما الانكليز الذين دخلوا تدريجياً ميدان التنافس الاقتصادي ثم دخلوا في نزاع مسلح مع الهولنديين ، فقد عارضوا هذا المبدأ . وفي السنة ١٦٣٥ ، نشر « جون سلدن » كتابه « البحر المقفل » . ففي الوقت الذي اعلن فيه شارل الاول السيادة الملكية على البحار الاربعة المحيطة بالارخبيل البريطاني ، اعلن « سلدن » ان مبدأ حرية البحار لا ينطبق على البحار البريطانية حيث للملك الانكليزي حقوق سابقة لحقوق الامم الاخرى .

الجيوش والحرب الزمنية تحولت الحرب الالمانية اذن الى حرب عامة طويلة الامد . فالجيوش الالمانية لم تستطع التوصل الى نتائج حاسمة . يضاف الى ذلك ان تأليف

الجيش كان يجد ذاته مضاربة مالية . فالقائد كان يعقد مع الملك ، الذي يسند اليه القيادة ، اتفاقاً يدعى امتيازاً ، ويستلم منه شهادة بذلك ، ثم يعقد الاتفاقات مع الزعماء العسكريين الذين يتفقون بدورهم مع الضباط . فيؤلف مجموع الضباط من ثم ما يشبه نقابة من الشركاء الذين يتقاسمون الخسائر والأرباح . وإذا كان للقائد ممتلكاته ، شأن « والنستين » ، فإنه يغترف منها الحبوب والاعلاف للجيش ، كما أن انواله تصنع له اجواخ الملابس العسكرية .

كانت اجور الجنود ضئيلة تدفع بغير انتظام ، وكان الهرب من الجندية أمراً غير نادر . فكانت عملية التجنيد من ثم عملية دائمة ترافقها الاضطرابات واعمال العنف . وتوجب السماح للجنود بتأمين غذائهم على حساب الاهالي ، أو فرض المساهمة في نفقاتهم على البلاد . وما كان الجنود ليتراجعوا عن الاستلاب والاعتصاب والتعذيب واشعال الحرائق ونشر الرعب . وقد جرت اعمال التخريب والتفجيرات الدائمة التي تدخل على عدد الجنود الى فترات توقف طويلة الامد في سير العمليات العسكرية . وحدث احياناً ان ارغمت الجماعة الجيوش الظافرة على الجلاء عن المناطق المغزوة . ثم ان صفار الامراء الذين كانوا يعيشون من الحرب ، من امثال الكونت « دي منسفلد » والدوق « كريستيان دي برونسويك » ، قد باتوا عاجزين ، منذ السنة ١٦٢٢ عن احراز النصر بقوة السلاح ، فلم يبق أمامهم سوى اقرار الانحرام الفظيعة . وكان هؤلاء يعيثون الجنود حين يستطيعون الى ذلك سبيلاً ، ويقومون بحملاتهم العسكرية حين يتجمع لديهم بضعة آلاف من الرجال المسلحين ، ولكن جيشهم هذا كان يزداد ويتعاضم اذا ما احرزوا نجاحاً أو انتصاراً . الا ان هذا الجيش كان عبثاً ثقيلاً على البلاد . فالجنود يستلبون المواشي ويقتلعون سنابل القمح ويتلفون ما لا ينقلونه معهم ويقطعون الاشجار وجفون الكرمة ويحطمون الابواب والنوافذ والموائد وينهالون ضرباً على السكان . ولم تنج من استلابهم ممتلكات الامبراطور نفسها . فلا يبقى أمام الفلاحين الا ان يتغذوا بالأعشاب وقشور الأشجار والأثمار البرية وان يختبئوا في الاحراج . وقد تعرض المسافرون للنهب على الطرقات العامة الرئيسية . وعندما يدخل فصل الامطار ، تشتت المرتزقة المأجورون اذا لم يكن باستطاعة قائدهم توفير معسكرات جيدة لهم . ولم تكن الجيوش في المعسكرات أقل خطراً على الاهالي من الجيوش المشتركة في الحملات العسكرية . وكان لزاماً على القادة تأمين معسكرات شتوية جيدة دونما اعتبار للاصدقاء والاعداء ، فيجبر ذلك إلى توسيع نطاق الحرب واطالتها . ولم يكن الهدف من ذلك خططاً استراتيجياً بل الحؤول دون تشتت الجيوش .

ان حروب الابداء لم تحصل الا نادراً . وكان من الصعب احراز نتائج حاسمة حتى بواسطة الجيوش الدائمة القومية الطابع كجيوش « مكسيميليان دي بافير » بقيادة « تيلي » . ونشبت المعارك ابدأ بموافقة متبادلة . وكانت الصفوف المتعاقبة عميقة جداً ، وربما بلغت السبعين كما فعل « والنستين » في ليزينغ . وأعوزت الجيوش سرعة الحركة . فالمناورات التي من شأنها ان تجر الى تصدع جيش العدو والمطاردة التي من شأنها الاجهاز على تنظيمه وابدته ما زالت

بطيئة وغير ذات فعالية . فكانت الحروب أبداً ، وقبل أي شيء آخر ، حروب حصار طويلة الاجل .

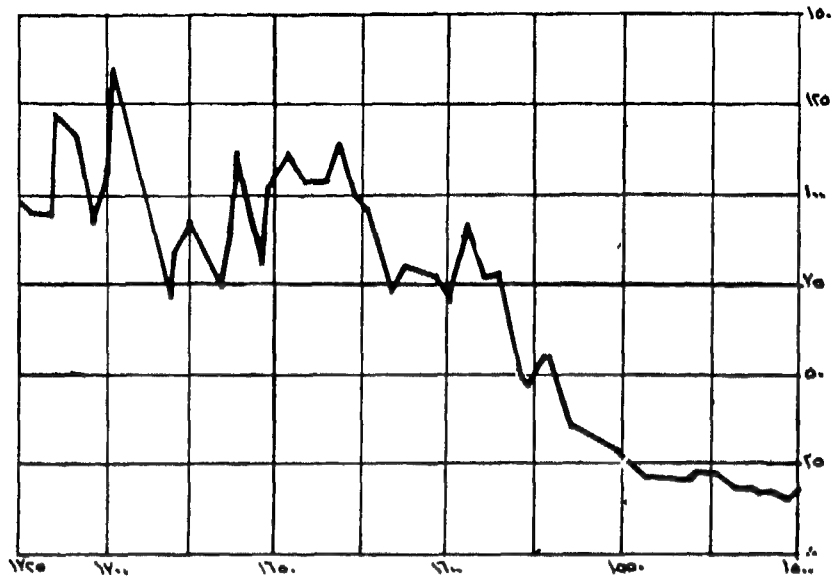
أما على البحر فقد ظهرت للمرة الاولى البارجة الحربية ، المدفعية العائمة . ولكن القادة البحريين لم يتوقفوا بعد الى استخدامها الافضل . فغالباً ما أطلقت مدافعها المربعة من مسافات بعيدة دون ان تصيب المرمى ، « فلا يفقد البحر شيئاً من ملحه » .

اجتاحت اوروىا الوسطى اذن حروب لا نهاية لها وانهكت الدول المجاورة التي اشتركت فيها .

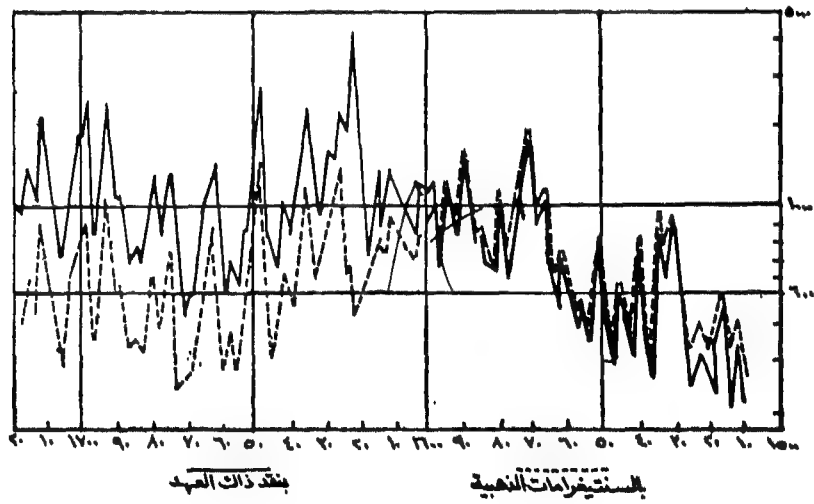
٥ - ازمة الحس الفني

شاهد القرن السابع عشر ذروة ازمة الحس التي برزت بوادرها في مصادر الفن المستهجن . حقل الفن . وقد أطلق عليها اسم « الفن المستهجن » الذي يمكن اطلاقه على كافة مظاهر الفن . وقد ظهرت دلائل الحس المستهجن ، دوناً شك ، في ايطاليا بعد نهب مدينة روما (١٥٢٧) واتضحت مميزات في الثلث الاخير من القرن السادس عشر بصورة خاصة . وكان مركزها مدينة روما حيث شيد « جاك فينيول » ، في السنة ١٥٦٨ ، كنيسة يسوع ، وهي الكنيسة - الام لجمعية اليسوعيين ، التي كان لها اكبر اثر في اوروىا . ويعتبر هذا الفن ، فن الحركة الاصلاحية المضادة ، ومعبراً عن فكرة المجمع التريدينتي . انطلق من روما وأشع ، عن طريق الكرادلة والاساقفة ورؤساء الجمعيات الرهبانية والسفراء وحاشياتهم ، في البلدان الاوروبية التالية : ايطاليا ، اسبانيا ، فرنسا ، فلاندر ، المانيا الجنوبية ، النمسا ، بولونيا ، أي كافة البلدان الكاثوليكية . أما البلدان الاخرى فقد اغلقت ابوابها في وجهه . ولكن فن الحركة الاصلاحية المضادة ليس سوى مظهر من مظاهر الحس الفني المستهجن . استخدمت الكنيسة نزعات كان مقدراً لها ان تفرض سيطرتها ؛ ولم تتناف هذه النزعات وحمل المجمع التريدينتي ، ولكن حالها في ذلك حال نزعات اخرى ايضاً . اصف الى ذلك ان الحس الفني المستهجن قد ظهر بعد ذلك في بلدان غير كاثوليكية ايضاً . وقد تأثر بالازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحدثتها أشكال النهضة المختلفة والتي اتسع نطاقها في القرن السابع عشر . وكان بالنسبة لهذه الازمات ، علة قارة ومعلولا اخرى .

الفن المستهجن هو مظهر من مظاهر الحس ، وبالتالي مظهر من مظاهر الفن المستهجن السجية ، نشاهده في عهود مختلفة . وهو يقابل ، في الشخصية البشرية ، فترات المخطاط القوى التي فيها تضعف وحدة الشخص ، فتعمل فيه محل « انا » الواحد اشكال مختلفة من الـ « انا » . فتصعد حينذاك تدريجياً ، الى مستوى الوعي ، مكونات اللاوعي



الشكل ٤ - السعر الاسمي للحنطة في اوروىا الغربية والوسطى
(نقلا عن السرو ، بفريدج)



الشكل ٥ - سعر الجاردار في مونيخ بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٧١٥
(نقلا عن إلس)

الكثيرة والفامضة ، ومجموع الدوافع التي يكتنفها الابهام والدفعة المتعددة الاشكال لكافة القوى الحيوية . فالفن المستهجن اذن يستهوي الحرية ويحتقر الانظمة والاعتدال واللباقات . وهو لا يخضع للمنطق بل يجمع المتناقضات . ليس يدري ما يريد ولكنه يريد الاجال والخلاف في آن واحد . ينطوي في ذاته على المصادات ويعبر عن الكثير من النوايا . فاذا ما نظرنا الى تمثال ملاك من انتاج هذا الفن يتوج حاجزاً حديدياً في احد معايد سلامنكا ، نرى الساعد يرتفع كما لو كان ذلك لرفع شيء ما ، ونرى اليد تنخفض كما لو كان ذلك لوضعه في مكانه : هنالك اتجاهان متضادان في العضد الواحد ، وازدواجية في النوايا . وهذا ما نشاهده كثيراً عند « غريكو » الذي يمثل اتجاهين مختلفين في ساق واحد من ساقى تمثال المسيح . فالعقل عنده في حالة انقصاص داخلي ، يزدري بموجبات مبدأ التناقض . أما الاعمدة فغالبا ما يصنعها ملتوية أو مفتتلة .

يستهي الفن المستهجن كذلك الغموض وما فوق الطبيعة والتأثر والعواطف ومفاتيح الطبيعة والفولكلور . ويبحث عن الاتحاد بقوى الكون الخفية ، ويستسلم أمام هذه القوة ويحترمها . فهو كوني يقول بالوهية الكون ؛ ويبحث عن اندفاع الطبيعة الحيوي ، فيغدو متقلبا ، صاخبا ، أشوه ، منتفخا ، ويغدو في الوقت نفسه زائفاً ومكثراً ، يضحي بالدقة على مذهب الحاسة ، وبالخلود على مذهب المغالاة . أما قوته فيتركها تتبعثر .

مثال الفن المستهجن : روبنس
ان روبنس ، ولعله الرسام الذي يمثل الفن المستهجن خير تمثيل ، يملك في الدرجة الاولى قوة الحيوية ، والاجزال في العطاء ، وفورة الحياة . « فهو يسلي اخصابه بخلق العوالم ، على غرار إله هندي في أوقات فراغه » . يعالج أوسع المواضيع تشعباً ، تاريخ ملك ، مثلاً قديماً ، المهد القديم ، حياة المسيح ، الدينونة الاخيرة . كل شيء يكبر ويتسع في روحه العظيمة . يخلق الواقع خلقاً جديداً . صور لوحاته تمتد حدود الواقع . وصور نسائه مستوحاة من الفلنكيات ، ولكنهن فلنكيات كونيات . ليس من وجود الاجسام الجميلة التي تولدها عبقريته الا في مخيلته . ان التمثيل الصحيح نادر في انتاجه . فمسيح لوحة « ضربة الحربة » في متحف انفرس ، المسيطر في النور الذي يغمره ، ليس مسيحاً معذباً ، بل مسيحاً هزم الالم والموت . وعالم روبنس الخيالي هو عالم العواطف في ذروة حدتها . ففي لوحة « القنص » نرى سورة الفضب ضاربة تأهب للتزيق . وفي لوحة « معارك النسوة المترجلات » ، نشاهد اصطفاق غريزة الابادة . وليست لوحة « السوق الخيرية » في متحف اللوفر على شيء من الابتهاجات الشعبية : فاحتساء الخمر فيها ابتلاع ، واستلام الراقصة خطف ، والقبلة قلاصق او افتراس متبادل ؛ ان اندفاعاً جنونياً الى الشر يزعرع هذه البشرية التي تحرقها روح روبنس . يحمل الالوان الطبيعية سمياً وراء قوة التعبير : فاجسامه غبراء واشجاره برتقالية . يكثر من المصادات المفاجئة والالوان الجارحة والاضواء الساطعة .

ان موافقات سرية تجمع بين الاشياء والكائنات . والاشكال تفقد حدود هيئاتها الواضحة

فيم نوع من الانصهار بين الاجسام وجوها . ويسري النور سريان الاجسام السائلة أو سريان تيار الحياة الكونية بالذات . والاولاد السامنون المثلون في الكليل من الاثمار هم انفسهم أطيب اثمار الطبيعة المغذية . لحم حورياته مادة سائلة ، حارة ، مختلجة ، مشعة ، متجددة باستمرار ، بل هو ذوبان نبيذ الكرم . فالدم الذي يملأ الشرايين ويحيي العضلات ويجعل النظر متوقداً ، في « قنص اجلالنا » و « الحوريات » ، مماثل للنسج الحي الذي ينبجس من الارض متموجاً ومغصاً ويحول في الاغراس والنباتات .

وعلى نقيض التناسق والتوازن في فن النهضة نرى ان انشاء حركة كله واندفاع وارترقاء . يصعد سبل اشخاصه في اتجاه منحرف . ولا فرق عنده في تحديد مركز صورته الرئيسية من اللوحة ، فقد يضعها في الخلفة او المقدمة ، الى اليمين أو الى اليسار ، أو في الوسط . وعوضاً عن ان يقابل مجموعاً بمجموع ، وصورة بصورة ، نراه لا يتردد في مقابلة الصور المنفردة بالمجموعات . أما التلاحم الذي نلسه في مجموع متشوش فمصدره النسق العام الذي يستولي على المشاهد ويخلق وحدة الانطباع . ففي لوحة « الصعود الى الجلجلة » المعروضة في المتاحف الملكية في بروكسل ، نرى ان ما يعطي المشهد مفزاه ، مع ان المسيح قليل الظهور فيه ، هو صعود الموكب الحزين منذ الزاوية السفلى الى اليمين حتى الزاوية العليا الى اليسار . وفي لوحة « سقوط الملك » المعروضة في مونيخ ، نرى بشرية تنثني تذوب وتتساقط شلالات من العمم الذي لن يلبث ان يختلط ، في النار الجهنمية المتأججة ، بالبوارق الصهباء والادخنة الكبريتية .

ان فنه يعبر عن كون تختمر فيه اختاراً مستمراً قوى تتجدد ابداً ، وعالم يتحول تحولا دائما وتلاشي أشكاله السائحة بعضها بعضاً وتتجدد في فضاء لا نهاية له وفي ديمومة لا حدود لها ، وفقاً لحركة الحياة الازلية .

ان روبنس هو رسام الحركة الاصلاحية المعاكسة ، مصور النهضة الفن المستهجن عند معارضه الادبية الورعة التي أصلحها الجمع التريدينيني . ولكن حس الفن المستهجن يبرز حتى في البلدان التي اعتبرت مراكز مقاومة هذا الفن .

ان رمبراندت الذي نقصر الكلام عليه هنا يتميز ، في الاقاليم الفن المستهجن عند رمبراندت المتحدة ، بفن مستهجن قد يبرز به الايطاليين والاسبانيين وحتى روبلس نفسه . فالمنسبون الى هذا الفن من الجنوبيين يحطمون الخطوط بالحركة ويزعزعون السطوح المستوية والاجسام ويعملون الاقمشة واجسام الملائكة تحفق وكأن ريحا زعزعا تعصف بها . اما رمبراندت فيجعل الحركة تتغلغل الى دقائق مجموع اللوحة باحكام توزيع الاضواء والظلال . ان « تنويره » و « غريكو » يحطان الخطوط ، ولكنها يبقيان على ابعاد عريضة من الخطوط الساكنة . اما رمبراندت فيمزق الخطوط بالارتجافات . يتميز الجنوبيون بتعدد النوايا التي تتعاقب بسرعة . اما رمبراندت فيتميز ، في كل برهة ، بنوايا متناقضة تتجانب في

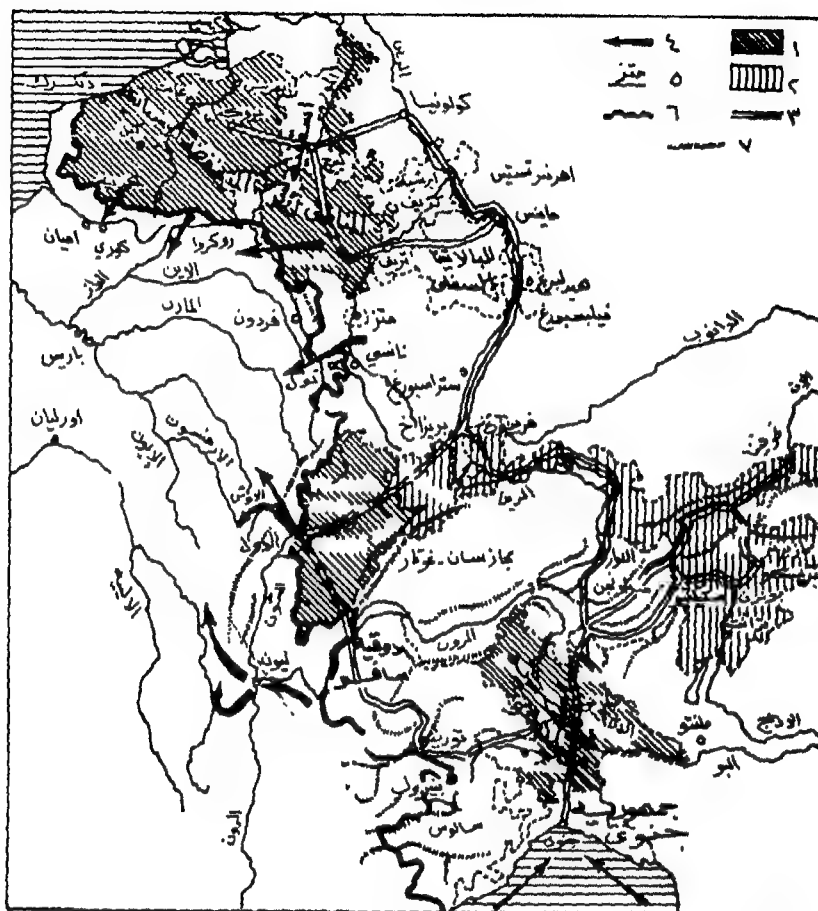
آن. واحد . يستحلب النور في الظل حيث يبقى حائراً دون ذوبان ينتشر انتشاراً سريعاً
ويصطفق اصطفاً فجوياً في داخل الظل . ان مبراندت يذهب بميزات الفن المستهجن الى
حدود الافراط .

الفن المستهجن الفرنسي انتشر حسن الفن المستهجن في هندسة العمارة الفرنسية ، في ولايتي
هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، انتشاراً مماثلاً في هندسة
العمارة الايطالية أو الاسبانية في العهد نفسه ، ولا سيما في عهد شريفرا ، (١٦٥٠ ، ١٧٢٣)
ولكن دون افراطاً في الاستهجان . فقد نشر روبنس ، بعد عودته من ايطاليا ، « قصور
جنوى » وشيد لنفسه في أنفوس بيتاً مستوحى من الفن المستهجن . وادخلت النقاش بعد ذلك
الاشكال المستهجنة الى فرنسا حيث اعتمدت قوياً وعلى نطاق واسع نسبياً بسبب حاجة
عميقة اليها .

حطم الفن المستهجن المثلثات في أعلى الابنية ونضدها وأضفى الحياة على الخطوط ولوى
الاعمدة ولف النقوش الحزونية واعجب بالنمط الكورنثي المتفخل ، وثنى الاقسام النائية كما تنثنى
السيور ونفضها الى ان غدت محدبة وبرز المعصائب وقعر النحور وضخم القواعد وصغر الصور
الغريبة التي تغدو أفواهاً أنسجة قطنية وأذانها أبواقاً ترمز الى الوفرة ووجنتها وأذقانها نباتات مختلفة .

وزخر هذا الفن بالقوة الطبيعية . فأكثر من أوراق النباكات القوية الملتفة ، التي التصقت
بكل المساحات وتقوست سعواً وتساقطت شلالات وتعلقت أكاليل وتفلكت تيجاناً . واكثر
من التماسيح والقلق والأضب والدلافين والأرانب البرية والنسور . وزعزع شعباً من التماثيل .
فالملائكة والقديسون والآلهة يتزلون فوق الافاريز والمذابح والمثلثات في أعلى الابنية ، ويأوون
الى المشاكي أو يحرسون حول القبة والصحن . اما تماثيل الجدران النصفية المغلفة بأوراق النبات
فتتحول الى قواعد ، والرؤوس تزين الأغلاق وتسم الافاريز وتستخدم تيجان أعمدة . فكان
الحجر يسهو ويحيش بنوع من الحياة المسيخة .

ولكن هذا الحس لا يختلف عن ذوق الكتاب . فان تكلف « فواتير » وفخخة « بلزاك »
وبطولة « كورناني » وغزارة « اونوريه دورفيه » ومحدلق « سكودري » ، كل ذلك يبرز في الاطارات
المزينة والمثلثات المطولة والتماثيل العاضلة . كما ان تعابير النقاشين هي نفسها التعابير التي نجد
في لغة « رينيه » المبرقشة . اخف الى ذلك ان الجميع شغفون بالمرح الذي كلف به البلاط
والمدينة . ولكن ضوابط المسرح غالباً ما يفرها النسيان ، فلا وحدة زمان ولا وحدة مكان
ولا وحدة لهجة . كما أن احاديث السكارى والاغتيالات ، ومشاهد الهول والمشاهد الخلاعية
تتعاقب تعاقباً مطرداً . والاهواء البشرية تنتقل الى الطبيعة بأسرها . ففي نهاية تمثيلية « بيرام
وتيسبيه » يتوجه كل من الحبيبين بصوات صوفية الطابع الى القمر والجدول والزهور . وتتدخل
القوى الفائقة الطبيعية ، وثنية حيناً ، كفينوس وديانا وكوبيدون وإلهات الجمع ، أو مسيحية



الشكل ٦ - الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢، والطرق العسكرية الإسبانية
 ١ - ممتلكات سلالة هابسبورغ إسبانيا ٢ - ممتلكات سلالة هابسبورغ النمسا ٣ - الطرق العسكرية
 الإسبانية ٤ - نقاط الضعف في الحدود الفرنسية ٥ - مدينة استولت عليها فرنسا
 ٦ الحدود الفرنسية ٧ - خطوط المرتفعات الرئيسية

حينما آخر ، كلاك وإليس والشيطان . وينتشر السحر انتصاراً باهراً : الاثرية ، والجواهر المسحورة ، والمراحم العجيبة ، والاموات المبعوثون احياء . وتكثر الاحلام واجوبة هاتفي الغيب وظهورات الظلال والارواح . وتلعب المصادفة دوراً غريباً : احداث طارئة ، فراقاات ولقاءات تسببها المواقف أو القراصنة ، حوادث غرق تنتهي بنجاة الغرقى ، جروح سريمة الشفاء ، مسدسات لا يلبي زنادها ، خطف النور للأطفال .

يطالب المشاهدون بالتأثرات القوية . لذلك نرى الممثلين يتضاربون ويتقاتلون على المسرح ، ونرى الجثث والرؤوس المقطوعة والقلوب . ويلعب الممثلون ادوار مضطربي الحواس وأدوار المجانين اليائسين الثائرين . وتعرض على المسرح المدافن والاسفنج المليء بالدم والاجواخ السوداء الملطخة بالدموع البيضاء . وتنتهي المأساة احياناً بانتحار علني يقدم عليه كافة الممثلين .

ويسعى المؤلفون وراء تصوير السجاياء الغريبة والاهواء في ذروة حدتها : انتقامات هائلة ، كانتقام « ميداي » وانتقام « قياست » ؛ ورغبات شديدة كتبادل القبة بملء الفم والاغتصاب على المسرح ؛ الزنى والافواء ، ومما امران عاديان ؛ الزنى بسين الأقارب ؛ كاغتصاب الشقيقة وتسرر الاب وابنته .

وتزيد المحبة من عزم الماشق . واليك مثلاً عن ذلك في مثل هذا الادعاء بالبسالة :

... وكان بمكنتي ، في سبيل امتلاكك ، أن أقدم على ما هو اسوأ من ذلك .

ففي سبيل الفوز بهذا الكثر العظيم والثمين .

حاربت الملوك ، وما سكنت لأرردد في محاربة الآلهة .

كما ان العزم يبحث عن اشد العقبات هولاً والمواقف الحرجة التي من شأنها اقنساط النفوس المادية ؛ فبطل المأساة رجل عزم من الطراز الاول . ولكن المشاهد يرغب في ان يرى ، الى جانب العزم ، ما يقابل العزم بعنف من اشخاص يثيرون ضحك الاستخفاف والسخرية أو يدهون بالبسالة ، وكهول متيمين ، ومدعي علم ، ومجانين .

بالفن المستهجن يتصل التصنع أو الكلفة . والتصنع هو على غرار الفن المستهجن ، نمط حياتي ، ومطالبة فردية بالاستقلال ، ويظهر بين وقت وآخر في عالم بلاطات الحب وردهمات الاستقبال . وقد دفع به الى الامام ، في القرن السابع عشر ، ظهور رقصة من وضع « اونوريه دورفيه » ، « استريه » ، التي أضافت اليه اثر الافلاطونية الادبية والعالمية في النهضة . يبذل المتصنعون جهدهم للانفصال عن العامة كي يصبحوا ندرة ويشيروا الدهشة في كل شيء . فهم في المحبة كهان الحب المذري ، الحب الطاهر ، المرفوع الى مستوى الدين ، البعيد عن المخالطات الجسدية والمذات والزواج . وبسبب رغبتهم في التميز الارستوقراطي ، انتهى الأمر بالتصنعين في اسلوبهم الكلامي ، الى الطمطمانية ، الى طريقة تمبير خاصة بفئتهم . فكل ما هو شعبي ،

وكل مفردات المن ، وكل ما يشتم منه المماحكة والتظاهر بالعلم قد اقصي عن هذا الاسلوب ، وبلغ من هذا الاقتصاد ان « انجليك دانييل » قد اغمي عليها اكثر من مرة عندما كانت تسمع كلمة غير مقبولة في بيتها . والكلمات المقبولة ، على نقيض ذلك ، هي تلك التي تعبر تعبيراً قوياً يبلغ حد الافراط : فالمصنعون يحبون « بجرارة » ؛ ويحتفرون ما هو من شيم « آخر » بوجوازي الخ . . أما في الأدب فهم يتلهون . يبحثون عن كمال المبنى وعما يثير الدهشة . ولكنهم يلزمون أما الألوان الصغرى ، كالرسالة وقصيدة الهجاء والقصيدة الغزلية وما شاكل ذلك ، وأما القصة الراعوية وقصة المغامرة . وكتبت الآنسة « دي سكودري » قصصاً شهيرة عرف اثرها البقاء ؛ « كورش العظيم » (١٦٤٥) ، « كليبي » (١٦٥٤) . وهدف التصنع في هذه القصص الى التميز باللباقة والمهارة : النكات ، والتقابل ، والاستعارة ، والصور الرمزية ، وكل ما هو بديع وغير مرقب ومفرط . وفي اللون الرمزي ، عرفت الجغرافية الماطفية ، التي تتمثل « بخريطة الحنان » ، في الكتاب الأول من الجزء الأول من قصة « كليبي » ، شهرة عظيمة ما بين السنة ١٦٥٤ ، والسنة ١٦٦٤ . ومن حيث ان التصنع يسمى وراء الصعوبة والغرابة ، فهو قد استهوى التحاليل النفسية الدقيقة ، فميز وعزل وقسم وأحصى وحدد ؛ فهد الطريق ، من حيث لا يدري أمام الكلاسيكية ، بحرصه على الاتقان والوضوح .

لقد سعى الناس ، في المسرح ، وراء فتنة التزيين ، والاعدة الفخمة ،
 الذين المستهين اليومي
 والحداثى السحرية . ولكن الأغنياء بحثوا في حياتهم اليومية ايضاً ،
 عن المفروشات المتعددة الألوان والخزائن المزدانة بالمينا والحزفيات الصينية والأواني البلورية والصناديق المشجرة والمدبجات والتذهيب ومرايا البندقية والمحملات والحرائر والاقمش المطرزة بالذهب والفضة والمربات الفاخرة والطنافس التركية والصينية والسقوق الخشبية المصورة . وفي القصور بهرت الأروقة الميونة بنفائسها المتقلبة الألوان وأدهشت العقول بكل براعة تخدع العيون . وجملة القول ان الغرابة والقوة وشدة التأثير تسيطر على الحياة اليومية .

أو ليست مصادر هذا الاضطراب الداخلي ، وهذا الجري وراء الحياة التي
 الذين المستهين
 تبدو وكأنها هاربة ، وهذه الحاجة الى التأثيرات القوية وابعاطف العنيفة والاستفادة من الحياة الى آخر حدود الاستفادة ، هي البؤس والحروب والمجاعات والابوثة وكافة اسباب الابادة التي تهدد كل شخص في كل وقت ؟ أو ليست مصادر الصراعات الطبقية والحزبية والمشادات الدينية والسياسية التي ترغم الانسان على الوقوف في وجه مواطنيه وأعضاء عائلته واصدقائه ونفسه بالذات ؟ أو ليست اعترافاً بالقلق ووسيلة للتخلص منه في آن واحد ؟ أو ليس من شأنها ان تصبح بدورها سبب اضطراب فكري واضطراب اجتماعي وسياسي ؟

٦ - الازمة الاخلاقية والدينية

ساعد الفن المستهجن ، في الارجح ، على بعث أزمة عقلية عامة برزت في الاخلاق البطل في الدرجة الاولى . ففي هذا المجتمع ، حيث توجب على الفرد ، المهدد باستمرار ، ان يثبت انه عدو خطر ، وفي هذا المجتمع الذي ما زال ارسوقراطياً ، وحيث المثل الاعلى هو الانسان النبيل ، الجندي الممتاز ، الفارس ، وحيث ساعد فقدان التوازن بشتى انواعه على اضطراب الـ « أنا » ، وبالتالي على الاندفاع في الكبرياء ، نرى ان الانسان الفاضل هو الماهر الماهر والبطل البطل ، اي القدرة والمجد . أما الواجب ففي اشباع الحاجة إلى المجد . ويقوم المجد بالتقيد بقوانين الشرف الاجتماعي الذي هو الشرف الاقطاعي ، أي النبيل . ويقود إلى التضحية بالاهواء التي تتعارض وهذا الشرف : فالاميرة في تمثيلية « السيد » تضحي بمحببتها على مذهب واجبها نحو نسبها ومرتبها اللذين يحرمان عليها الزواج من شريف ريفي عادي . فيصبح المجد من ثم موجباً باطنياً ، شريعة داخلية . والواجب يقضي بالانتصار لا على العقبات الخارجية فحسب ، بل على الاهواء والخوف والحجل والحنان في صميم داخلنا أيضاً . والفضيلة بالذات ، والحالة هذه ، هي السخاء ، أي السعي بشغف وراء المجد ، واخضاع الاهواء للمجد . والبطل هو ذاك الذي أقسم أمام نفسه بان لا تعوزه الشجاعة البتة في السعي وراء المجد ، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بنفسه لأجله .

ولكن هذه التضحية هي تضحية الاهواء الاخرى على مذهب الهوى الأعظم ، أعني به الكبرياء . هذه الفضيلة هي إثبات كيان الفرد ، كما يتضح من صرخة « ميداي » : « ماذا تبقى لك في هذه الداهية الدهيئة ؟ - أنا . » ان عقل البطل وقوته المعنوية وإرادته وعزمه اللفظ وبسالته ، كل ذلك ينبع من شعوره ، في الحقد والانتقام والطموح والحمية والوطنية والحب والاهواء « الرجولية » « النبيلة » « المسيطرة » ، وهي تعبر عن القوة الحيوية التي تجيش في الفرد وتدفعه إلى اثبات قوته والسيطرة على الآخرين والامتياز والتفوق على البشر الآخرين الذين سينتهي بهم الامر إلى إحباطه بهالة اعجابهم أو بنوع آخر من التكريم هو البغضاء والدسائس الدائمة والافتراءات المقيتة ، التي يمكف بها المتوسطون حول البطل .

ان البطل يبحث عما هو جميل وجليل وغريب ، وعما « لا مثيل له » ، وقد يجده في الجريمة نفسها . فد « رودوغون » تطلب إلى أخوها قتل امها . وكليوباترا تصرخ قائلة : « أخرجني من قلبي أيتها الطبيعة ... » ان البطل ينطلق وراء العظمة وتجاوز الحدود . أجل ان أخلاق البطل دالة مجتمعة ارسوقراطي ، ولكن يبدو انها تتفوق على مثل الفروسية الأعلى ومثل النهضة الأعلى ، وان سعيها وراء قفح الانسان في كافة نشاطاته ، ووراء نجاحه في كافة أشكال الجمل ، أقل منه وراء ارضاء الكبرياء بالقوة ، وانها على مزيد من العصبية والتوتر والقلق المترجرج ، أي انها في حقيقة واقعها مظهر من مظاهر الاستهجان .

النهضة الادبية
الورعة
كان الجمع التريدينيني ، في الحقيقة ، قد كرس ، في وجه الاصلاح ، التفسير
المسيحي للنهضة الأدبية . ومنذ الثلث الاخير من القرن السادس عشر ، نشر
علماء الآداب القديمة الورعون مئات « المداخل الى الحياة التقوية » و « الابحاث في محبة الله » .
ان الانسان انعكاس للشبه الالهي ، والطبيعة البشرية هي من ثم آية الخلق . ويغلب ان جرح آدم
القديم لم يفسد كل كياننا . فان اهواءنا ثمرة طبيعتنا ، وخلقنا حكمة الله ، جيدة بحسب ذاتها .
وواجباتنا الاولى هي نحو انفسنا . فعملينا ان نسو الى اعلى ذرى السمو بجمال الطبيعة التي
منعنا اياها الله ، وهو عقلنا ، انعكاس العقل الالهي ، ما سيعين لنا مبادئ سلوكنا .

العالم جيد . وقد خلق ليودنا الى الله ، « والجماليات الدنيا » هي بمثابة درجات يجب ان
تسلقها محبة الانسان درجة الى ان تصل الى الاستمتاع بالجمال المطلق . « صنع الله الخلائق
في جودته لنستمع بها » . فيتوجب على الانسان ان يكون « انساناً شريفاً » ويجب جمال الطبيعة
وجمال الفنون والتماثيل والموسيقى والمطور والأعياد والأفراح ، ولا سيما الجمال النسائي ، لأن
المحبة الزوجية اشعاع من المحبة الالهية وتقدم تدريجي نحوها : « لماذا الخفر من المحبة ؟ .. فهل
من خجل في التعلق بصورة الله ، وخلقنا عاقلة وشخص شريف حسن التربية يتباهى بالشرف
والفضيلة ؟ » (كامو) اسقف بلي . وقد درج روبلس على تحديد فنه : « تمجيد قوى الانسان
وابتهاءاته » .

ويقدم الله ابداً لهذا « الانسان الشريف » نعمة الفداء . يترك الانسان حراً في الاجابة
بالقبول أو بالرفض . ومن حيث هو محبة كله ، لا يستنكف البتة من موقف الانسان . والانسان
يستجيب لهذه الجودة الحنون بالمحبة . أو لم تعود النهضة الأدبية العيش في بهجة ربيع حنان
شامل ؟ ان هذا المذهب الافلاطوني قد سطم قيود الحسن الفني المستهجن . فان المديد من
البسوعيين وكهنة الرعايا قد نشروا الموسوعات ، « عجائب الطبيعة » . كما ان العديد من الكهنة
والعلمانيين قد تأثروا الى حد بعيد بالشمراء الدنيويين . فان المثات من الرهبان والقضاة ورجال
القانون وعظام الاسياد ، قد نقلوا شعراً ، في نشوة كلامية ، المزامير والتأملات والصلوات :

« ابتها النجوم المضيفة ، ابتها الصفائح الذهبية

التي يزدان بها الليل

وينثرها ماساً في اشرعته ،

ايا زهور الحدائق اللازوردية ... »

باركبي الرب ، كما انشد المحبوشي « مارسيل دي بريف » . وان هذه المحبة الشاملة تفرد
الى محبة الله :

لا تفتروا مزاجكم بل غيروا أهدافكم ،

أحبوا ، ولكن أحبوا الله الذي يبادلكم محبة ثابتة (الرئيس فافر) .

وباستطاعة الانسان ، اذا ما تخلص بالحبّة الطبيعية من تسلط الانانية والدناءة وتعود نسيان نفسه والتواري في الاشياء المحيطة به والاستسلام حتى التضحية بشخص عزيز ، ان يحب الله بحبة حقيقية تنسى نفسها ولا تحرص الا على ارضاء الله ، دونها خوف أو أمل ، وتدعن الى كل ما يريده الله ، حتى اذا كان ما يريده لنا عذاب جهنم . وباستطاعته آنذاك ان يحب الله « بحبة خالصة » . وكانت مريم المجدلية ، من هذا القبيل ، بطلاة القرن السابع عشر المفضلة . وهكذا فان النهضة الادبية الورعة قد عززت التيار الصوفي .

ان الصوفية ، وهي الحياة مع الله وفي الله ، هي جوهر النهضة الكاثوليكية الصرفية والحركة الاصلاحية المضادة . فان جماهير تنتمي الى كافة الطبقات ، عامة الشعب ، والرعاة ، والراعيات ، والبقارين ، وفقراء المدن ، والقضاة ، والاشراف الريفين ، عاشت منذ السنة ١٥٧٠ تقريباً عيشة تأملية ، تحت نظر الله ، ويتوقه ، متحسدة به ، ضحايا الانخطافات والرؤى التي هي في غالب الاحيان فدية ضعف الجسم البشري ، ولكنها شاهدت الله بفعل نور باطني سرّي . وبشت حركة اوروبية تعاليم الصوفيين الرينانيين من أمثال هارفيوس وتولر ، والصوفيين الاسبانيين والاطاليين ، وكلاسيكيي الحياة الروحية في القرون الوسطى ، من أمثال كاسيان والقديس برناردوس ، الذين نشرت مؤلفاتهم واعيد نشرها تكررراً باللغة اللاتينية واللغة الشعبية ، بفضل علماء الآداب القديمة . ونظمت شعراً غنائياً وضع اسمى صوفية في متناول النساء الفقيرات الجاهلات انفسهن ، واشيحت بفضل المرشدين الكروتوزين من أمثال « دون بوكوزين » او الكبوشين من أمثال « بنوا دي كنفلد » . ونجمت عن هذه الصوفيات مدارس قداسة حقيقية اقلقت بال الوزراء والملوك انفسهم الذين عاملوها معاملة القوى الكبرى . فان « ماري دي فالنس » الامية قد تولت تهذيب الاشراف الريفين ورجال الكنيسة ، وحتى الاب « كوثون » اليسوعي مرشد هنري الرابع ، واستقبلت ريشليو الذي زارها مائياً . وتفوقت مدام « اكاري » (١٥٦٦ - ١٦١٨) ، وهي ابنة محاسب وزوجة محاسب ، في الارشاد الروحي ، وبلغ من تفوقها ان اليسوعيين وراهبان القديس فيلبس النيري وكهنة الرعايا كانوا يتوجهون اليها بغية معالجة الحالات الصعبة . وقد التف حولها « كنفلد » ، « بوكوزين » ، « فرنسوا دي سال » ، « بيرول » مؤسس جمعية « ماريلاك » الراهبانية ، دوفال ، الدكتور في جامعة السوربون . وحرص هنري الرابع على ان لا يفقد حظوته لديها . وقد جمعت في منزلها فتيات كن نواة الراهبات الاورسوليات والراهبات الكرمليات في فرنسا . وهي من اسهمت في ادخال هاتين الجمعيتين الى فرنسا ، فبدأ بذلك اصلاح اديرة الراهبات . ويعود الفضل في استكمال « فرنسوا دي سال » تربيته الصوفية الى مراقبة الصوفيات الكرمليات في ديمون ومراقبة راهبات الزيارة من بعدهن (بعد السنة ١٦١٠) ، وليس « البعث في محبة الله » سوى وصف اختباره للفتيات المتدينات .

ولما كان التأمل يتيح تجديد احوال يسوع المسيح الباطنية في نفس الصوفيين ويمحي المسيح

فيهم ، فانه قد جر قسراً الى اصلاح الاديرة . فبات من ثم مستحياً على الراهبات اللواتي كن يعشن فقر المسيح وآلامه ومحبتة ان يرتدين ملابس بيضاء صوفية ناعمة او كتانية مفضنة وان يتنافسن في اقتناء اجمل لباس واحسن مسبحة واكبر عدد من الجواهر الكريمة ؛ وبات مستحياً عليهن كذلك ان يعشن كل على حدة ويأكلن على هواهن في حصنهن مع صديقاتهن ، ويستقبلن الزائرين ويتقبلن الهدايا والمعاشات ؛ وبات مستحياً عليهن اخيراً ان يستقبلن الاشراف الربيعين الآتين للاطفتن ، وان يخرجن متنكرات بلباس الراعيات بغية حضور اعراس القرية او الاجتماعات الربوية ، كما بات مستحياً على الرئيسات في هذه الاديرة ، وهي ممتلكات عائلية تنتقل من عمة الى ابنة شقيقتها ، ان يستقبلن انسابهن بين راهباتهن الخضبات والمسكات والكاشفات عنقهن وكتفيهن واعلى صدرهن ، ويرفن عنهن بالموسيقى والنزهة والولائم . وبفضل الاثر الذي تركته السيدة « اكارى » باشرت « ماري دي بوفيليه » ، رئيسة دير « مونارتر » ، اصلاح ديرها الذي غدا مدرسة للرئيسات الاخريات . كما ان رئيسات الاديرة البندكتية ، وكلهن فتيات نبيلات يحسن ممارسة السلطة ويتميزن بحزم نزول معه فكرة المقاومة عند المؤوسسات ، قد اقدمن بمشورة جماعة السيدة « اكارى » ، والكروتوزيين والكبوشيين والبندكتيين واليسوعيين على فرض التأمل الانزامي ، في ساعات معينة صباحاً ومساءً ، وفحص الضمير والرياضة الروحية السنوية والحياة مع الله وما تستوجبه من احترام القانون والتحصن المشدد ، واضفن الى كل ذلك منع الزيارات العالمية ، والفصيل المشترك ، والمائدة المشتركة ، واللباس الاسود ، والصلوات الليلية ، والصيام ، والقطاعة ، والبرد ، والامانات على انواعها . وحدث الاصلاح نفسه في الرهبان من كرمليين وكبوشيين وغيرهم ، ثم انتقلت حياة التأمل من الاديرة الى العلمانيين بفضل المرشدين وواضمي المؤلفات الروحية . فقد نشر القديس « فرنسوا دي سال » ، المدخل الى الحياة التقوية ، في السنة ١٦١٠ و « البحث في محبة الله » في السنة ١٦١٦ .

ولكن هؤلاء الصوفيين ، الواعين الضعف البشري ، والمنتظرين
 النهضة الادبية الورعة تعرض
 كل شيء من نعمة الله بفضل استحقاقات القادي ، والموحدين
 للخطر بفصل الايمان عن الحياة
 حياتهم بادخال الانجيل كله اليها ، قد اشتبهوا آنذاك بما قد
 تنطوي عليه النهضة الادبية الورعة من تعليم مذهب الطبيعيين . او لم تقض ثقفتها بالعقل البشري
 الى الفصل في اغلب الاحيان ، عند علماء الادب الورعين ، بين الحياة والدين ؟ او لم يشاهدوا
 الناس ، على الرغم من قسلبهم في موضوع العقيدة ومواظبتهم على الاحتفالات الدينية ،
 يترشدون حكماء العصور القديمة ، ويقتدون بهم ، ويستجدون امام الموت بالوثنيين من امثال
 افلاطون وسنيكا ، كما لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، وكما لو كان حكم الانسان قانون
 الحياة الاوحد ؟ اصف الى ذلك التناقضات الغريبة التي نجمت عن هذه المواقف . فقد تقلبت
 المصلحة على الله في قلب القاضي الورع « بوشار دي شامبيني » ، كبير اخوته الرهبان الكبوشيين
 والكروتوزيين ، فقاوم دعوة ابنته الى الحياة الرهبانية وارغمها على زواج يحسن وضع ابها

الاجتماعي ؟ واوجب القائد « دي غوندي » على ابنه ، « رتس » الشهير ، وهو ابعد الناس عن الدين والعبادة ، ارتداء ثوب الكهنوت ، بغية الاحتفاظ لعائلته بمركز رئاسة اساقفة باريس . فكانت نتيجة مثل هذه التصرفات افساد الكنيسة عن طريق الدولة ، وتمييز اساقفة سياسيين وعلمانيين ، ورتبا كنسية تسند الى العلمانيين ، وحتى الكلفينيين منهم ، واساقفة في سن الطفولة ، وكهنة اميين يعجزون عن توزيع الاسرار ، ولا يمظون ولا يبشرون ، ويتركون المؤمنين في الارياض جاهلين وجود الله ويفسدونهم ويقنعونهم ، كما حدث في ابرشية « كوثانس » بانه خير للفنيات ، في اية حال من احوالهن ، ان ينجبن الاولاد من ان لا ينجبنهم .

النهضة الادبية الورعة
تعرض للخطر بفعل تطرفاتها
ودفع الحس الفني المستهجن ببعض علماء الادب الورعين ، من لا مأخذ عليهم ، الى تطرفات اخرجت مراكزهم . فالمصور القديمة ، في نظرم ، تحمل ، في ما خلفت ، حقائق الوحي الاولي وتبشر بالحقائق المسيحية . ومما الامثال القديمة سوى رموز . فميرفا هي الكلمة وكوبيدون هو صورة المحبة الالهية . وقد غنى الناس :

يا قديسة احراجنا ، ديايا
يا سيدة نفسي الوحيدة ،
ايها العذراء والام ، اسمعي صوتي .

وقد رأوا في افروديت ترفض الحورية المهرطقة التي ترفض الكنيسة . الا ان جميع هذه الرموز كانت مثقلة ، لسوء الحظ ، بشهوانية محمومة من شأنها اثار الاضطراب في الضمائر .

فهل كان احتراماً حقاً ان يرى الناس في الله ، على غرار الكثيرين من علماء الادب الورعين ، الصديق والاخ في الدرجة الاولى ؟ وهل كان موافقاً للسيادة الالهية ان تبدو وكأنها تعتبر الانسان مطلق الحرية ، وان يكون الله مرغماً ، نوعاً ما ، على منح نعمته اذا كان الانسان قد اختار طوعاً ان يعمل الخير (مولينا) أو مرغماً على العفو بمحبة انه قد يحطم صورته بالذات اذا ما حطم الانسان ، وقد يتلاشى اذا ما لاشى الخاطئ (كامو) ؟

وهل كان من اللائق نظم وصايا الله والصلاة الربية والاسرار ابيات شعر مقتضبة وغناؤها الحاناً رائجة ، والاكتثار من النكت والتصنع في اللطف والاضحاك والتكلف وكل لون ادبي مستهجن ، والطلوع بمثل هذه الكتابة : « ان هذا القديس المبارك قد غذى محبة قلبي » ، أو اقدام اسقف ، من امثال « كامو » ، على تأليف قصص غرامية حتى ولو كان القصد منها دفاعاً عن العقيدة ، أو تمضية الوقت كله في احكام التأمل بالطبيعة ودرس العلوم الدنيوية لأن العالم عمل الله ؟

قامت في وجه النهضة الادبية الورعة ردة فعل استهدفت اتمام عمل المجمع الجنسينية
التريدنتيني باستيحاء روح القديس اوغسطينوس . ولكن تأويل الاوغسطينية اوقع البعض آنذاك في تطرف آخر هو المهرطقة الجنسينية . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة

لـ « جنسن » اسقف « ايدر » الذي نشر في السنة ١٦٤٠ كتابه العقائدي الهام « اوغسطينوس » الذي وسع وكمل نظريات لاهوتي كاثوليكي آخر « بايوس » ، المحكوم عليه في السنة ١٥٦٧ . وغدت الجنسينية حركة اوروبية تميزت قوتها في فرنسا منذ ان نشر « أرنو » (١٦٤٣) كتاب « تناول القربان المتواتر » : وكان مركز الجنسينية دير الراهبات في « بور رويال » وجماعة « السادة » الذين كانوا يأتون ويمارسون حياة العزلة في جوار الدير . ولكن الجنسينية جمعت حولها انصاراً وأصدقاء في اوساط الاكليروس كلها ولدى العديد من المؤمنين . أما المؤلف الذي يعتبر اليوم اشهر مؤلف جنسيني النزعة فهو « الخطرات » التي جمعها باسكال بين السنة ١٦٥٨ والسنة ١٦٦٢ ونشرت جزئياً في السنة ١٦٧٠ وكان لها اثرها العظيم في القرن التاسع عشر .

يمثل الجنسينيون نزعة دائمة للفكر البشري هي تأويل الدين المسيحي تأويلاً تشاؤمياً . وهي نزعة لوثر بالذات . فان المتشائمين الذين يكونون اسمى فكرة عن عظمة الله وقدرته الكلية ويتأثرون بالغ التأثير بضعف الانسانية وبؤسها ، قد كوّنوا لنفسهم فكرة الله رهيب يعجز العقل البشري عن ادراك مقاصده واحكامه . بدون انه لا يستطيع الانسان شيئاً . يذهب الى حيث يجد لذته ، وهو لا يجد لذة ، منذ الخطيئة الاصلية ، الا في الشر . فانه يدور في حلقة مفرغة ولا يستطيع التوصل الى اية حقيقة (نتيجة مذهب الاسمية) ، عقله المتناقض والمتقلب سخرية ؛ وارادته عجز . الانسان لعبة . القوى الخارجية الساحقة ، واتفاق الظروف ، والعادات تقوده وتقلب به كما تلعب الريح بدوارة الهواء . الانانية وحب الذات والقابلية الفردية هي وحدها ما يحركه .

« ان هوج رياح الشهوانية

تجمل لـه يصطفق اصطفاق علم قديم » .

لا حول للانسان . ولكن الله الكلي القدرة يحمل الانسان ، بفعل نعمته ، يجد لذته في التقيد بالوصايا . وهو يمنح هذه النعمة اناساً اختارهم منذ الازل للمجد الساهوي . وقد مات المسيح لاجل هؤلاء دون غيرهم وفداهم وحدهم فقط . وعديد هؤلاء قليل جداً . وليس بمكنتهم التهرب من هذه النعمة لانها تفرض نفسها عليهم . الانسان ليس حراً ، بل هو عبد الله ويقتضي من ثم على الانسان ، في حريته الوهمية ، ان لا يصنع شيئاً . دون ان يشعر « بتحريك خاص من الله » ، « بدعوة من الله » . ويقتضي ان يستقبل هذه الدعوة للتقدم نحو الاسرار ، كما يجب ان يخاف ويرتجف من التقدم نحوها بدون الدعوة . ولا يجوز ان يصبح كاهناً ويتدخل في عمل رهبان هو تقدس جسد المسيح ودمه الا اذا كان « مدعواً من الله بصوت يكاد يكون مرئياً ومحسوساً ولا يرقى اليه ارقاب » . لا كاهن بدون « رسالة باطنية » من قبل الله . فكيف يصح الاقدام على الكهنوت ؟ ويجب ان لا يتقدم الانسان من محبة التوبة الا اذا شعر من لدن الله

بجرمة صادقة للذهاب إليها وبتوبة حقيقية وأسف تام على الخطايا لاجل محبته ، والا فالخل من الخطايا يكون باطلا . ويقتضي فوق ذلك الشعور بميل وبهجة لتناول القربان المقدس ، وبحسن أحيانا الامتناع عن تناوله تواضعا على ان يكون سبب الامتناع تواضعا حقيقيا ، لا تكاسلا . فكيف يصح الاقدام على الاقتراب من الله ؟

يجب العمل وفاقا لصوت الله . ويقتضي ، لسماعه ، الصمت والانفصال والتجرد والكفر بالعالم والموت بالنسبة له . يجب على المسيحي ان يوجد الفراغ في داخله بتعمية باطنية . يجب ان يكون امام الله ، حين يصلي ، كإناء مفتوح حتى يكرر الله نعمته فيه ، شيئا فشيئا ، وبحسب ارادته . لن يفرط المسيحي يوما في الانتضاع والانحناء امام كمال الله وقداسته . ولن يحترز البتة احترازا كافيا من دوافعه الداخلية ، لأن الفضائل ليست في الغالب سوى قناع حب الذات ، ولأن العاطفة الوحيدة التي لها قيمتها هي العاطفة الخالصة الطاهرة ، والعمل الوحيد الذي له اعتباره هو ما توحى به محبة الله وحدها . هذا هو الدافع الى الخوف من حب الذات وحى فحص الضمير ، والقلق الدائم . ولن يعرف الجنسين في النهاية فترة هدوء الا حين يجد ، لاعماله ، مبررا انسانيا ، اذ انيا ، قد لا يكون له من وجوده البتة . فيدفعه رأيه الوهمي التشاؤمي الى حرمان الانسانية من خير ما لديها .

أراد بعضهم اعتبار الجنسانية حركة بورجوازية موجبة ضد الاشراف وتعبيرا عن صراع بين الطبقات . والواقع هو ان السيكلوجية الجنسانية تقضي على مثال « البطل » . وانت من يقتنع بحقيقة هذه السيكلوجية لا يستطيع بعد ذلك ان يؤمن بهذه الصورة المثالية المتفوقة للانسانية التي حلم بها علماء الأدب القديم والارستوقراطيون . ولكن هنالك ارستوقراطيين كثيرين بين الجنسين والعاطفين عليهم : الدوق « دي ليانكور » ، الدوق « لاروشفوكو » ، المركيزة « دي سابلية » ، الخ .. فالهالة ، كما نرى ، لا تأخذ وجودهم بعين الاعتبار .

أما ما هو ممكن ، فالتساؤل عما اذا لم ينبع التطرف الجنسيني من الحس الفني المستهجن ، وما اذا لم يكن الجنسينيون من هواة الاستهجان . ففي رأيهم ، « لا شيء فاضل اذا لم يكن بطوليا ، ولا شيء مسيحي اذا لم يكن عجائبيا » ولا شيء مطابق اذا لم يكن منقطع النظير .. كل ما يمكن تحسينه هو في نظرهم شيء الصنع ؛ كما ان الاعتدال في نظرهم نقيصة ؛ وكل ما ليس نجاحا هو اخفاق ؛ وكل ما ليس فريدا من نوعه هو مبتذل . وهم لا يستكبرون الا ما هو عظيم الجسامة . ولا يحترمون الا ما هو اخاذ مدهش .. ويزدرون بمصنوعات كل فن تكون دون المثل الاعلى .. كل كلمة من كلماتهم مبالغة واغراق ؛ وكل حكمة مغالطة ، وكل تماييرم جسارة ؛ وكل آرائهم متطرفة ، وكل وعودهم جزيلة ؛ فهم جبابرة الشيع . (الاب « فرنسوا بونال » : ١٦٥٥) .

كان من نتائج الجنسانية إثارة جدالات حادة بين الكاثوليك حول النعمة ، امات محبة القريب

وادت ، على الرغم من فضلها على الادب ، لاننا مدينون لها بـ « اقليميات » باسكال ، الى بليلة الضائمر والاضرار بالدين .

وكان من نتائجها كذلك تشجيع تيار الاحاد . فقد ادعى الملحدون ايضا بان ما يحرك الانسان هو اللذة وحدها : فوجدوا تبريراً وتشجيعاً لهم في السيكلولوجية الجنسية ، وكانوا جد مرتاحين للقول بالاختيار السابق للملكوت السماوي :

« لقد اختل عقل رجال البلاط والعالمين بعد هذه التأويلات حول النعمة ، لانهم يقولون في كل حين : ما معناها فعلنا لاننا سنخاص اذا كانت النعمة فينا وسنهلك اذا لم تكن . ثم ينتهون الى القول : ليس كل ذلك سوى ترهات .. فقبل بحث هذه القضايا ، كانوا ، اذا قرب عيد الفصح يصابون بدهشة صاهري الاجراس لا يعلمون اين يختبئون وتشكك ضمائرهم ، أما اليوم فانهم يرحون ولا يفكرون بالاعتراف ويقولون : ان ما كتب كتب . هذا ما فعله الجنسيون حيال العالمين » (السيدة « دي شوازي ») .

٧ - أزمة العلم

ما زالت السيطرة ، في اوائل القرن السابع عشر ، وعلى ^{الفن المستهجن} الرغم من جهود النهضة ، للارسطاطاليسية القريبة كل القرب ^{والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء} من الاختبار اليومي والطبيعة التي كانت تحمل على الايمان بالمعجزات والطيرة والرقية والتنجيم والسحر ومناجاة الارواح . فقد بلغ هنري الرابع ملك فرنسا ، في احد الايام ، خبير اكتشاف مؤامرة حاك خيوطها مرشده الاب كوتون . في البدء هداً روح الملك بعض الشيء في أعقاب تكذيب صريح ، ولكنه ما لبث ان عاوده الخوف حينما ظهرت في الافق ، بصورة مفاجئة ، غمامة قائمة السواد مضرجة ببقع حراء : انها مقاصد الاب كوتون المظلمة الدموية تمكر الطبيعة التي تشي به . الا ان اليسوعي قد دافع عن نفسه . وجاء في الوقت نفسه من يفيد بان الغمامة قد اختفت . فكان ذلك انتصاراً للبراءة .

وسار استكشاف العالم قدماً تشجعه ذهنية الاستهجان على تحقيق اوسع الفتوحات ، تلك الذهنية التي حملت « بيكون » على ان يرسم على غلاف كتابه : « *Novum Organum* » (١٦٢٠) صورة سفينة منشورة الاشرعة تحاول اجتياز مضيق جبل طارق ، الحد الاقصى للعالم القديم . كانت الاكتشافات ثمرة اعمال الفلكيين والاطباء . وغالباً ما انتسب المكتشفون الى البورجوازيين ، كـ « كبلر » ، ابن احد موظفي الدوق « دي ورتمبرغ » . الا ان « غاليليو » ، و « نايير » مكتشف علم انساب الاعداد ، كانا ينتسبان الى الاشراف الريفين . فخرجوا من الجامعات وغالباً ما مارسوا فيها عمل التعليم : فان الطبيب غاليليو قد درس الرياضيات والطبيعات في جامعة « بيزا » ، ثم في جامعة « بادوا » ، وكان « هارفي » استاذاً في كلية لندن

الملكية للطب ، النخ . ولكنهم يصطدمون بالجامعات وغالباً ما يضطرون الى مغادرتها .
 قد « الفلسفة » أمة اللاهوت ، والجامعة أمة الكنيسة ، وقد بدت الاكتشافات خطراً يهدد
 الايمان ؛ اصف الى ذلك أخيراً ان عادات الآخرين من أساتذة الجامعات قد تبلبلت وان أنانيتهم
 قد جرححت في الصميم امام بواذر عبقرية المكتشفين . الا ان حسن طالع العلماء جعلهم يدخلون
 في خدمة الامراء كمنجمين وأطباء . ففدا كبلر رياضياً امبراطورياً ، وهارفي طبيباً لجاك الاول ،
 و « جلبرت » طبيباً للملكة « اليزابت » ، وغاليليو في كنف دوق « توسكانا » .

كانت المهمة الاولى متابعة عمل « كوبرنيك » . فتولاهما الالماني « جان كبلر »
 سنن كبلر من « شتوتغارت » (١٥٧١ - ١٦٣٠) . بعد ان أصبح معارناً لـ « تيخوبراهي » ،
 ترك له هذا الاخير ، وهو على سرير الموت ، ما دونه من ملاحظات وطلب اليه وضع تقاويم
 حركات الكواكب السيارة وبناء نظرية فلكية تتفق وتعاليم كوبرنيك . وكان كبلر يشاطر
 كوبرنيك آراءه البيثاغورية والافلاطونية . وقد استوحى منذ البداية اعتقاده بان الله انما خلق
 العالم وفقاً لنظام سابق يجب ان نكتشف ظواهره في عدد مدارات السيارات وابعادها وفي
 حركات السيارات . وقد استطاع استعمال المرقب الذي اخترعه في السنة ١٦٠٨ ، كما نرجح ،
 طبيب عيون هولندي من « مدلسورغ » ، هو « هانس ليرش » . فوضع اولاً نظام
 المساحات المحدودة . وأثبت ، بعد ان درس مدار الارض ، ان الارض تجتاز اقسام قوس مدارها
 في اوقات متناسبة لطول الاشعة بين هذه الاقسام والشمس . وانتقل بعد ذلك الى درس حركة
 المريخ فلم تسمح له ملاحظاته برسمها مستديرة وفقاً للآراء السائدة . فتوصل بعد تردد ومحاولات
 كثيرة الى القطع الاهليلجي ، الذي طابق ملاحظات « تيخوبراهي » ونظام المساحات المحدودة ،
 واثق لكبلر تحديد النظامين الاولين لحركة المريخ اللذين نشرهما في السنة ١٦٠٩ في كتاب « علم
 الفلك الجديد » .

١ - يسير الكوكب السيار في مدار اهليلجي تحتل الشمس احد محترقيه .

٢ - ان سرعة الكوكب السيار الزاوية ، في كل نقطة من مداره ، متناسبة عكساً لمربع
 المسافة بينه وبين الشمس ؛ تردد السرعة كلما اقترب الكوكب من مركز حركته
 وتنخفض كلما ابتعدت عنه ^(١) .

وفي السنة ١٦١٨ ، طبق النظامين ، في كتابه « موجز علم الفلك الكوبرنيكي » ، على
 السيارات الاخرى وعلى القمر ، باعتبار ان الشمس تحتل محترقا مشتركاً بمداراتها الاهليجية .
 واخيراً ظهر النظام الثالث في كتاب « انظمة الكون » :

١ - صيغة هندسية اخرى بامثلة : ان الشعاع الموجه بين الشمس والكوكب السيار يغطي ، في اوقات متساوية
 مساحات محدودة متساوية .

٣ - ان مربعات الاوقات التي تستغرقها دورات السيارات المختلفة متناسبة لمكعبات معدلات مسافاتها الخاصة الى الشمس .

واستند الى مكتشفاته في وضع « التقاويم الرودولفية » ، التي لم يُستغن عنها ، طيلة قرن كامل ، للانباء بمواقع السيارات . وتضمنت التقاويم ، بالإضافة الى ذلك ، جدولاً بالنجوم من وضع « تيخوبراهي » ، وجداول من وضعه هو بالمخرافات الاشعة ، وجدولاً بالنسب الاعداد التي كان قد اكتشفها مؤخراً نابير في سكوتلندا (١٦١٤) و « بورجي » في سويسرا ، فسهلت عليه عمله بتحويلها عمليات الضرب والقسمة الى عمليات جمع وطرح ؛ وعملية استخراج الجذور الى مجرد قسمة بسيطة .

ان كبلر ، بعمله هذا ، قد قوّم ما توصل اليه كوبرنيك وكرس مركزية الشمس بتحديدته الشمس « مركزاً » لحركة السيارات ، لا مركز حركات الارض كما ساد الرأي . واكمل كذلك وصف الحركات الحقيقية المحتملة وراء الظواهر ، فتوصل الى نظام هذه الحركات .

وحدة الكون : صنع غاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) في السنة ١٦٠٩ ، بفضل توسع معرفته غاليليو وشاينر لانظمة علم البصريات ، مرقباً يفضل مرقب الهولنديين الى حد بعيد . وفي السنة ١٦١٠ اكتشف الاقمار الاربعة التابعة للمشتري ، ثم اقنعت مراقبة هذا الكوكب مع اقماره ، عن طريق المائلة ، بحقيقة مركزية الشمس . واكتشف في اواخر السنة ١٩١٠ ان الزهرة ، كما للقمر ، اوجها ايضاً . وتحقق له ان القمر شبيه بالارض . ورأى فيه الاودية والجبال وقدر ارتفاع هذه الاخيرة . واحصى اربعين نجماً ثابتاً في برج الثريا ، حيث ما كانت العين المجردة لترى سوى ستة فقط ، واستدل بذلك على بعدها السحيق . واعتبر المجرة والنجوم الضعيفة الضوء مركبة من نجوم كثيرة . واخيراً اكتشف بقع الشمس في شهر تشرين الاول من السنة ١٦١٠ . واكتشف هذه البقع ايضاً ، بفضل المرقب ، اليسوعي « شاينر » ، استاذ الرياضيات في « انفولستات » . وقد اخترع شاينر المرقب الشمسي ، وهو مرقب موجه نحو الشمس في غرفة معتمة ، صورة الشمس مع بقعها على مساحة بيضاء . فاستطاع من ثم اجراء اكثر من ٢٠٠٠ مراقبة واستدل بها ، في السنة ١٦٢٦ ، على دوران الشمس والنجوم كلها على محاورها الخاصة .

ولكن مذهب كوبرنيك بدا متناقياً وملاحظة ما يجري مولد علم الآليات : غاليليو دعم القوى عادة امام اعيننا على سطح الارض ، ولا سيما في تساقط الاجسام الثقيلة . فلما كان مسلماً به دون منازع انذاك ان كرة يلقي بها من أعلى الصاري في مركب متحرك لا تسقط عند قدم الصاري ، بل على بعض المسافة الى الراء . وقد استدلوا بذلك على ان ما يلقي به عمودياً لا يمكن ان يعود ، في حال دوران الارض ، الى المكان الذي القى به منه ، بل يجب ان يسقط ابعد الى الغرب لان الارض ، أثناء وجوده في الهواء ، تكون قد

دارت نحو الشرق . فواجهت مركزية الشمس من ثم ، مسألة الحركة قبل كل شيء .

استرشد غاليليو ، على غرار كوبرنيك وكبلر من قبله ، بوحى فكرة سابقة البحث والتحقيق : هنالك نظام خفي تحت تنوع الطبيعة ، وهو نظام رياضي ؛ وسنن الطبيعة هي سنن رياضية ، والواقع هو تمييز الرياضي تمييزاً مادياً ؛ فالطبيعة تجيب من ثم على المسائل المطروحة في اللغة الرياضية . واستوحى غاليليو أرخميدس الذي لم يكتب اسمه مرة واحدة دون ثناء وتقريظ . وقد اعترض الارسطاطاليسيون على تعاليم كوبرنيك باسم الحركة . فتابع غاليليو درس الحركة للاجابة على اعتراضاتهم .

كان كبلر قد توصل ، بعملية تجريد ساعدته عليها ملاحظات لا يحصى لها عدد ، الى استشفاف سنة الجماد : كل حركة هي مستقيمة ومتساوية السرعة بقوة الطبيعة وحدها ؛ كل جسم يخضع لتأثير قوة واحدة ، تعمل فيه فجأة ، يتحرك تحركاً مستقيماً ثابتاً وبسرعة متساوية لا تتبدل . فقد تأكد لكبلر ان الجسم لا ينحرف عن الخط المستقيم الا اذا عملت فيه قوة ما ، وان سرعته لا تتدنى الا اذا اعاقته تقدمه قوة ما . واستدل من ذلك على ان الحركة تحافظ ، الى ما لا نهاية له ، على استقامتها وسرعتها المتساوية ، اذا ما ازيلت القوى المضادة .

اكتشف غاليليو منذ السنة ١٦٠٤ ، الحركة المستقيمة الاطرادية السرعة وسنة المسافات . « ان النسبة بين المسافات التي يمتازها الجرم المتحرك الهابط ، في اوقات متساوية ، هي نفسها النسبة الكائنة بين الأعداد الوترية المتعاقبة انطلاقاً من الوحدة » ، ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، الخ . وفي الواقع ، ان جسماً يهبط ٥ أمتار في الثانية الاولى ، يهبط ١٥ متراً في الثانية الثانية ، و ٢٥ متراً في الثانية الثالثة . فكانت الصيغة التي توصل اليها غاليليو معادلة لسنة المسافة التي تخضع لها الحركات الاطرادية السرعة : المسافات المقطوعة متناسبة لمربع الاوقات ، وفيما يلي بيان ذلك : اذا قطعت خمسة امتار في الثانية الاولى ، تكون المسافة المقطوعة في آخر الثانية الثانية 2×5 أي ٢٠ متراً (١٥ + ٥) ، وفي آخر الثانية الثالثة $3 \times 5 = 15$ متراً (١٥ + ٥ + ٥) . وقد استخدم غاليليو سطحاً منحدرًا احدث فيه فرضة مستقيمة . فكان يترك كرة تتزحلق في الفرضة ويحصى الوقت الذي يستغرقه ترحلقها من اهل الفرضة الى أسفلها ، ثم يحصى الوقت الذي يستغرقه احتياز الكرة لربع المسافة : كان الوقت الثاني نصف الوقت الاول ، فخلص من ذلك سنن المسافات . وقد استخدم ، لاحصاء الوقت ، ساعة مائية ، وزن السائل المتجمع في الاحواض اثناء الاختبارات المختلفة .

اقتضت مضجعه مسألة الحركة ، فأكب على درس رقااص الساعة الذي لفت انتباهه اليه ، على ما يروى ، ذبذبة احد المصابيح في كاتدرائية بيزا . وتوصل الى تحديد السنن الاساسية :

١ - ان مدة الذبذبة لا تتعلق بسمتها . فان ذبذبة رقااص يبلغ مترًا واحدًا طولًا تستغرق المدة نفسها سواء كان انحرافه عن الخط العمودي ، عند الانطلاق ، ١٠ او ٢٠ او ٣٠ او ٤٠ سنتيمترا .

فجأة في ب ، فان الثقل سيفعل فعله حينذاك ويدخل حركة جديدة هي الهبوط العمودي ب ل . ولكن الحركة الافقية المتساوية السرعة لم تبطل . لذلك فان الحركتين تتحدان والجرم ينتقل على المسيرة المنحنية الاضلاع ب ط و ح حيث د = ٤ ج ط لأن ب د = ٢ ب ج ولأن المسافة التي التي يقطعها جسم هابط تختلف باختلاف مربع الاوقات . ويمكننا الاستناد الى البرهان نفسه في المعادلة : ه ح = ٩ ج ط . فحركة القذائف تخضع من ثم للسفن نفسها التي تخضع لها الاجسام الهابطة . وقد اوحى ذلك بان حركة الاجرام السماوية تطابق الشروط نفسها .

اتاحت هذه الاكتشافات دحض جميع الارسطاطاليسيين على سنان كبير . فقد نجم عنها ، لعمري ، مبدأ استقلال القوى أو وجودها معاً : كل حركة مشتركة بالتساوي بين كل الاجرام المختلفة فيما بينها ، اذ ان هذه الحركات تستمر في الحدوث كما لو كان مجموع النظام عارم الحركة . وبات جلياً من ثم ان الكرة التي يلقي بها عمودياً من اعلى صارى سفينة متحركة لا يمكن ان تهبط الا عند اسفل الصاري لأن الكرة تخضع للحركة الافقية نفسها التي تخضع لها السفينة . والسفينة تشاركها من ثم في قوة الدفع نفسها التي تتلقاها هي . وبات جلياً كذلك وهن الاعتراض على حركة الارض ، لأن الجرم الهابط في الهواء يدور مع الارض .

أما هذه النتائج ، ونتائج كثيرة اخرى ، وسنة الجهاد التي حددها ديكارت بوضوح ، فقد نشرها غاليليو في السنة ١٦٣٨ في كتابه « احاديث حول علمين جديدين » . وقد استلزمت اعماله منذ البدء سنة الجهاد . وكان « بيكن » ، صديق ديكارت ، على علم بسنة دوام الحركة منذ السنة ١٦١٣ . « ان ما يخضع للحركة مرة يبقى متحركاً الى ما لا نهاية له » . ولكن ديكارت هو من عبر بوضوح وجلاء عن سنة الجهاد : الجسم الساكن يبقى ساكناً اذا لم تعمل فيه اية قوة ، واذا تحرك فانه لا يتوقف من ذاته ، ان لم تغد حركته اية قوة ، كما افترض الارسطاطاليسيون ، ولكنه يستمر في حركته بالسرعة نفسها وفي الاتجاه نفسه ، فحركته مستقيمة ومتساوية السرعة ، واذا ما اخضع هذا الجسم لعمل قوة ثابتة ، فتحدث اذ ذاك نتيجة جمعية لأن القوة تعمل في الجسم بشكل واحد سواء كان ساكناً او متحركاً ، يحتفظ في كل هنيئة بالحركة التي خضع لها في الهنيئة السابقة ، والقوة تدخل عليه سرعة جديدة ، فتصبح حركته متساوية السرعة .

ولكن الطبيعة كلها بدت وكأنها خاضعة لسفن الحركة . ففي السنة ١٦٤٤ ، اثبت توريشلي ، تلميذ غاليليو ان فوارة ماء تخرج من ثقب في جانب سفينة ملأى بالماء تتبع مسيرة عدسية الشكل شبيهة بمسيرة القذيفة ، وان حركة الماء هي نفسها حركة الاجسام الهابطة الاخرى .

كان الانكليزي هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) قد نشر منذ السنة ١٦٢٨

كتاب « حركة القلب ، حول حركات القلب والدماغ ، الذي عرض فيه

هارفي
والدورة الدموية

اكتشافه للدورة الدموية الكبرى . كان الارسطاطاليسيون من قبله يعتبرون

الدم وكأنه راكد في حالة توازن ، والارواح الحيوانية كأنها تتمثل في مستنقع الدم هذا . وكان

هارفي قد واظب في بادوا على دروس « فابريش داكوابندنتي » الذي كان قد ميز صمامات الأوردة ، وهي الشرط الضروري لاكتشاف هارفي . راقب هذا الأخير ، في البدء ، حركات القلب بفضل تشريجات أجراها على حيوانات مختلفة : كلاب ، خنازير ، ضفادع ، افاع ، علاجيم ، رخويات ، سراطين ، اسماك . فتمكن بذلك أولاً من ان يرى التشابه بين حركات القلب والتقلصات العضلية وان يرى بعد ذلك عند كل الحيوانات وصول الدم بواسطة الأوردة وخروجه بواسطة الشرايين . عند ذلك تأمل ملياً في كبر وتناسب بطينات القلب وكبر وتناسب الأقنية التي تخرج منه وكمية الدم التي تمر في القلب وسرعة مرورها . وكان جلياً ان الأوردة تنتهي بسرعة الى الفراغ والشرايين تنفجر بفعل تدفق الدم اذا لم يستطع هذا الأخير العودة من الشرايين الى الأوردة وبالتالي بلوغ البطن الأيمن في القلب . حينذاك افترض هارفي وجود حركة دموية دائرية ، وثأكد من وجودها بعدد من الاختبارات : ان ربط مجاري الدم في اعلى العضو ربطاً غير مشدد يسمح بتدفق الدم بواسطة الشرايين ولكنه يمنع عودته بواسطة الأوردة ؛ أما اذا كان الربط مشدداً ، فهو يوقف كل دورة دموية ، فيتخدر العضو وينتابه الألم ويختفي النبض ويبرد العضو ولا يلبث ان يتقرع ؛ وضغط على الأوردة باصابعه فأظهر الدورة في طريق العودة وجزم بان الصمامات تقاوم عودة الدم نحو اقسام الجسم الدائرية .

واكتشف الطبيب الفرنسي « جان بكيه » (١٦٢٢ - ١٦٩٤) ، في السنة ١٦٤٨ ، دورة الكيلوس اثناء قيامه بتشريح احد الكلاب . فاعترضوا عليه ان هذه الدورة لم تكتشف في جسم الانسان . ولكن الطبيب الجراح « جارغان » اكتشف الاقنية الكيلوسية وحوض « بكيه » في جسم جندي لاقى حتفه في اعقاب اقتتال اشترك فيه .

وهكذا امست الحركة عنصراً اساسياً في الطبيعة كلها وفي الكون . وكانت هذه الحركة خاضعة لسنن معينة ، وكانت هذه السنن رياضية .

كانت هذه الاكتشافات كلها بمثابة ثورة حقيقية . فقد وجهت اشد الضربات لنظام ارسطو الذي ما زال مسيطراً . تصور الارسطاطاليسيون عالماً منظماً ، محدوداً ، محصور الابعاد ،

اصطدام الكوبرنيكيين
بالارسطاطاليسيين

الارض ساكنة في وسط العالم ، وكافة الاجرام السماوية متممة حول الارض ، خلال اربع وعشرين ساعة ، حركات دائرية اعتبروها طبيعية لانها اكمل الحركات طراً ، وكل الكواكب مصنوعة لاجل الانسان ، من مادة خالصة لا تقنى ، وقد جعلوا فيها مقراً للكمال غير القابل للتغير والفساد ، فاذا بكوبرنيك وكبلر وغاليليو يقضون على مفهوم مركزية الانسان هذا وعلى كل هذا الكون المنظم خير تنظيم . فكان الكوبرنيكيون على خلاف مع الارسطاطاليسيين في كل النقاط . احلوا الحركة الاهليلجية محل الحركة الدائرية . وقضت سنة كبلر الثانية على الاعتقاد

السائد بأن الحركات السماوية متماثلة . وظهر الكوبرنيكيون السماوات خاضعة لسنة لا محيد عنها هي سنة الولادة والشيخوخة والموت . وبرزت نجوم جديدة ، وتبين ان القمر شبيه بالأرض من حيث تكوينه ، واثبتت بقع الشمس ان الشمس قابلة للفساد . وحين اراد الارسطاطاليسيون وضع نجم جديد اكتشفه كبلر في دائرة القمر لأن كل تغيير . مستحيل بعد القمر ، اوضح الكوبرنيكيون ان النجوم ابعد من الشمس عن الارض بعشرة آلاف مرة ، وان دورانها حول القمر في اربع وعشرين ساعة يتطلب سرعة فائقة في حال حصوله ، وان خلا جسيماً يطرأ اذ ذاك على الطبيعة لأن مدة دورة السيارات تزداد بازدياد المسافة : القمر ينجز دووته في ثمانية وعشرين يوماً ، والمريخ في سنتين ، والمشتري في اثنتي عشر سنة ، وزحل في ثلاثين سنة ، فكيف يصح ان تنجز النجوم دورتها في يوم واحد وهي ابعد من هذه السيارات الى حد بعيد جداً ؟ وذهب غاليليو الى ابعد من ذلك . فهاجم عقيدة الاستقرار وعدم التغيير ورأى فيها دلالة على النقص والعيب . وظهر ان في التغيير والانسال مزيداً من النبل والروعة ، وان التبديل واقع شامل حتى في السماوات ، ولكنه يحدث في كل مكان وفاقاً للسنة الطبيعية نفسها ، وان النوع الواحد من الاحداث الطبيعية يحصل من انحاء الكون ، وان مادة السماوات مماثلة لمادة الارض ، لا تقنى ، وانما يتحول شكلها تحولا مستمراً . وحطم الكوبرنيكيون العالم الارسطاطاليسي القديم ، واحلوا محل العالم ، وهو وحدة مقفلة منظمة تنظيمياً تسلسلياً ، الكون وهو مجموعة غير مقفلة ولا حدود لها مرتبطة بوحدة سننها ، ففتحوها بذلك ابواب اللانهاية أمام الانسان . فمنذ الان وصاعداً ، سيسترشد الفكر البشري مثال اللانهاية ، وهو فتح حقيقته الازمنة المعاصرة . فانهار من ثم انهياراً نهائياً منطق الكليات (المثل العامة) القديم ، ومنطق ارسطو ونظريته في علم الطبيعيات ، ومنطق المفاهيم المرتبط بعدد ثابت من الانواع المكونة من أجناس وفروق محدودة العدد ، وبالعالم متناه في الفضاء مكوّن بحيث تبقى الانواع ثابتة على الرغم من تغير الافراد . اما في نظر الكوبرنيكيين ، فكل مفهوم لا يتناول اللانهاية مفهوم مجرد وثاقص : وليس من واقع الا ما يدرك كله .

عارضت هذه الاكتشافات حرف سفر التكوين واعتماد الكنيسة ، منذ
الكنيسة تقاوم المجددين
زمن قصي ، نظام ارسطو الذي اعتبر ، دونما سبب ، وكأنه احد اعمدة
الشريعة . وحين اعترف الاب شاينر لرئيسه الاقليمي باكتشافه بقع الشمس لم يرد هذا الاخير
تصديق شيء من ذلك . ويروى انه قال له اذ ذاك : « لقد قرأت مؤلفات ارسطو تكرر
وباستطاعتي ان اؤكد لك اني لم أجد فيها شيئاً من ذلك . فاذهب يا بني واطمئن بالا وتؤكد ان
ما اعتبرته بقعاً في الشمس ليس سوى عيوب في عدساتك او في عيونك » . ولم يؤذن للاب
شاينر ، في البدء ، الا باطلاع صديقه « فلسر » ، العالم في الادب القديم ، على اكتشافه ، في
ثلاث رسائل حول « البقع الشمسية » لم يلبث فلسر ان نشرها . فعلا حينذاك صراخ
الارسطاطاليسيين ، وهم الكثرة الساحقة ، لأن الساء قد استفذت بهذا القول ، وصرحوا بان

الفلسفة قد « اهينت امانة محقرة » . « كانت (البقع) الخداع نظر وأواماً مصدرها العدسات » لانهم لم يستطيعوا تصور « رأي أبعد غواية من ذلك الذي يضع قذارة في عين العالم التي أوجدها الله لتكون مشعل الكون » .

كان الكرسي الرسولي قد نشر في السنة ١٦١٦ ما يلي : « ان القول بان الشمس ساكنة في وسط الكون قول جنوني ، باطل فلسفياً وهرطوقي ، لانه لا يتفق والكتاب المقدس . كما ان الرأي القائل بان الارض ليست في وسط الكون وأنها بالاضافة الى ذلك تخضع لحركة محورية يومية قول باطل فلسفياً واعتقاد أقل ما يقال فيه انه ضلالة » . لذلك فان غاليليو ، حين نشر في السنة ١٦٣٣ « الحوار حول نظامي العالم الهامين ، النظام البتليموسي والنظام الكوبرنيكي » ، الذي هاجم فيه المذهب الارسطاطاليسي ، استدعي الى روما بطلب من ديوان التفتيش . فذهب اليها ووقف في شهر شباط من السنة ١٦٣٣ واخضع للفحص في شهر حزيران . وحين هُدد بالتعذيب ، رجع عن قوله ، وحكم عليه بالسجن وبتلاوة مزامير التوبة السبعة كل اسبوع طيلة ثلاث سنوات . واستحلف بان يصرّح عن كل ما قد يبدو له مربياً في نطاق العقيدة . اما « حوار » ، فقد ادرج في فهرس الكتب المحرمة .

كانت الارسطاطاليسية ، في هذه الاثناء ، آخذة في التصدع شيئاً فشيئاً . التحول الفكري وكانت العلوم الطبيعية الجديدة تكيل لها ضربات لا تقل شدة عن ضربات علم الفلك . في نظر ارسطو كانت الحركة الرئيسية تبديلاً ، وكان مثال التبدل الولادة ، اي تكون كائن غير موجود من قبل . فعلت كل ظاهرة طبيعية بسبب بمائل أبداً لذلك الذي يعمل الحيوانات تتناسل وتكاثر . وكان للكائنات الطبيعية في ذاتها مبدأ حركتها . وهذا المبدأ الداخلي الذي يسبب الحركة في كل كائن حي هو الروح . فالروح من ثم هي المثال الاصيل للطبيعة ، المثال الاصيل للشيء الخاص الذي يدرسه العالم في الطبيعيات . وفي المواد الطبيعية ، المركبة شأن كل كائن ، من مادة وصورة ، تكون الصورة المبدأ الجوهرية المولدة . وطبيعة شيء ما هي صورة هذا الشيء . والصورة هي المبدأ الداخلي للحركة ، وهو مبدأ شبيه بالروح . فكانت هذه الصورة الجوهرية ، من ثم ، مفاهيم غامضة يتراوح ما تشمله بين الفكر الداخلي والمادة . كان الثقل صفة داخلية تجذب الجرم نحو وسط الارض ، فهو قد عرف من ثم وسط الارض او أحس به ، وكان بالتالي روحاً سوية . وكان الثقل صفة من صفات جوهر الجرم ، مستقلاً عن المساحة أو الحجم ، شبيهاً بمفهوم المادة غير الهبلية ، اي انه كان روحاً ، لانه كان موجوداً في آت واحد في كل جزء من اجزاء الجرم وفاعلاً فعله فيه ، بصورة خاصة ، بواسطة جزء واحد من أجزائه ، كالجزء الذي يلتصق بالجبل من وزن معين يستند الى هذا الجبل . وكان هذا احد الاسباب التي حملت ارسطو على القول باستحالة اخضاع الصفة والواقع للعلوم الرياضية : فالكائنات الرياضية لا تتحرك : انها أزلية وغير محدودة بزمان . ولم يتوصل ارخيدس نفسه الا الى علم توازن الاجسام : اي انه اخضع الكون للعلوم الرياضية . ثم ان الاشكال الهندسية ،

من جهة ثانية ، لا تعطي صورة كاملة عن المادة الارضية . فليس في عالم الواقع خطوط مستقيمة ولا سطوح ولا مثلثات ولا اجسام كروية . ليس لاجسام العالم الهولي من أشكال هندسية منتظمة . ولذلك يستحيل تطبيق السنن الهندسية على موجوداته .

الا ان ما توصل اليه غاليليو في علم الطبيعيات قد أظهر ان الحركة تخضع لسنن رياضية . وبدا ان الزمان والمسافة مرتبطان بسنة العدد . واعلن غاليليو ان عالم الواقع وعالم الهندسة ليسا عالمين مختلفين . وان الطبيعة تحقق الشكل الهندسي . وان للحجر غير المهندس شكلا هندسيا ليس دون شكل الكرة احكاماً وضبطاً . وان الاشكال الهندسية مجانية للعادة . وان السنن الهندسية تنفذ الى الواقع وتسيطر على المعلوم الطبيعية . وان الطبيعة انما تتكلم لغة رياضية ، فيجب ان توجه اليها الاسئلة بهذه اللغة . وان النظرية الرياضية تتقدم الاختبار . وان سنن الطبيعة سنن رياضية . وان النظرية تعبر عن جوهر الظواهر .

استغنى الغاليليون عن الصور الجوهرية ولم يأخذوا بعين الاعتبار سوى الحركة والمسافة . واطهر غاليليو ان الجسم الجامد لا يطفو بالنسبة لشكله ، بل بالنسبة لثقله النوعي ، وانه يطفو في السائل اذا كان ثقله النوعي ادنى من ثقل السائل النوعي . استند الارسطاطاليسيون الى ظاهرة مألوفة هي طفو الصفائح المعدنية الرقيقة على سطح الماء . اما غاليليو فقد اثبت انها انما تطفو في الواقع على الهواء وانها تنزل حتماً الى القمر اذا ما غطت في الماء . لا شأن للشكل ، فالأهمية للثقل والحركات التي يسببها وسنن هذه الحركات . الحركة والسكون يستلزمان قوة خارجية وغريبة عن الجرم . ويبدو لنا هذا المفهوم جلياً وطبيعياً . وهذا الجلاء يرقى الى ثلاثة قرون ونيف . واعتبر الارسطاطاليسيون كذلك ان الاجسام الثقيلة والخفيفة تتحرك بفعل الخفة والثقل الكامنين فيها اللذين هما كائنات نصف هيولية ونصف روحية . أما في نظر الغاليليين ، فان ثقل الجسم هو قوة الدفع التي تنلقاها حركة الجسم الوزان الى اسفل في الهنية الاولى ، وهو من ثم القوة التي تتحملها المساحة القائمة مباشرة تحت الجسم الوزان . فليس وارداً من بعد سوى تنقلات المادة . والغاليلي يبعث عن جوهر الحركة ، عن نسبة رياضية .

ان ما يجب عمله ، في رأي غاليليو ومدرسته ، هو استخلاص الحركة ثم التأكد من الاستخلاصات الهندسية بالتحقق من الحركة . فالهندسة والحواس هي أدوات الاكتشاف . ولكن زملاء غاليليو رفضوا النظر في مرقبه ، ومعارضه هارفي رفعوا الاكتاف تهكماً حين اعلن هارفي انه لم ير الارواح قط في الدم . اعتبر الارسطاطاليسيون ان « كل كلمة تقابل مثلاً ، وكل مثال كائن . فعمل الصرف والنحو من ثم هو المنطق ، والمنطق هو العلم . لماذا درس الطبيعة والملاحظة والاستقصاء ؟ يجب ان ننظر الى العالم في فكرنا .. فنرى الحقيقة والواقع . كل تركيب كلمات تركيب اشياء ووقائع . وتنسحق الكلمات هو المعرفة .. » . أما الغاليليون فقد قاموا بتحويل فكرهم :

استمرار الارسطاطاليسية
فقدان نظام كوني آلي

بيد ان الارسطاطاليسيين لم يهزموا بعد . فالحددون لم يتوصلوا بعد الى ايجاد نظام يسير الكون كله بموجبه . اجل تخطل البناء الارسطاطاليسي وتهدمت بعض اجزائه ، ولكنه ما زال قائماً ولم يستبدل بسواه . أما الكوبرنيكيون فقد آلوا الى مذهب الطبيعية . فان كبار ما زال يفترض وجود روح محرّكة مكانها في الشمس ترسل أشعة قوة ، هي نوع من التفريغ المغناطيسي ، أشبه بأشعة الدولاب . وان الشمس تدور حول محورها . وان هذه الاشعة تتناول بقوتها كل السيارات فتنتقلها حول الشمس . وان السيارات ترسم مداراً اهليلجياً لأن قطبي كل منها يتماقبان تعاقباً مطرداً أمام الشمس التي تجتذب احدهما وتدفع الآخر . وان الجاذبية « توازن جرمين متجاورين ميلان الى الاتحاد أو الاتصال ، شبه في طبيعته بالمغناطيسية » . وسلم غاليلو ، أقله قبل السنة ١٦٣٠ ، بان علة الحركة التي كان يبحث عن جوهرها لها تفسيرها في ذلك . وقد تأثراً كلاماً بطبيب البزابت ، « جلبرت دي كولستر » (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ومؤلفه حول المغناطيس (« الفن المغناطيسي » ، ١٦٠٠) . فان اختبارات جلبرت على الحجر المغناطيسي قد قادت الى اعتبار الارض ، بالمثالة ، كمغناطيس ضخم . واعتقد بالمثالة ان الشمس والقمر وكافة الاجرام السماوية اجسام مغناطيسية تشر قوة مغناطيسية في الفضاء الذي يكتنفها . وان هذه القوة المغناطيسية تولد حركاتها . وانها روح . وان للاجرام حياتها . وان الاجسام المغناطيسية حية ويتحرك احدها نحو الآخر تحركاً تلقائياً .

فلم تزل الحاجة ماسة ، من ثم ، الى تعميم سنة الجماد وتفسير الكون كله بالمسافة والحركة . ولم تزل الحاجة ماسة كذلك الى اخضاع الواقع للعلوم الرياضية . ولم يزل ممكننا الاخذ على غاليليو ان الاختبارات التي فسرت استخلاصاته الهندسية كانت باطلة . فهو لم يأخذ بعين الاعتبار مقاومة الهواء وقوة الثقل والاحتكاك . ويعمل تجريدي ، ابعاد العوارض وتحليل سطحاً مسطحاً تسطيحاً مطلقاً وكرة كلية الكروية ، كلاماً كلي الصلابة ، جسدان مجردان ، موضوعان لا في الفضاء الحقيقي ، بل في الفضاء المجرد الاوقليدي ، حيث لا تتأثر الاجسام بحالة السكون أو الحركة ، وحيث لا شأن إلا لسنة الجماد فقط . واستند الى مفاهيم لم تستخلص من الاختبار بل فرضت عليه فرضاً . وكان بالامكان ان يعاب عليه عند اللزوم أنه يبعد كل البعد عن الواقع . فما زال هنالك شك . وكان من الواجب تقديم البرهان القاطع النهائي على ان العلوم الرياضية مبرغن الواقع وانها حقيقة الواقع بالذات .

تفسير بيكون

أجل كانت هنالك طريقة الانكليزي بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذي كان قد فكر بوضع بحث في العلم الجديد واجزائه وطريقة كل منها وشروطها . فجمع بعض النبذ وامها اثنتان : « النظام الجديد » (١٦٢٠) و « تقدم العلوم » (١٦٢٣) . وقد هاجم بيكون ارسطو ، « ابا السفسطائيين » ، وافلاطون ، « ذاك المازح » . واوصى بالتوجه مباشرة الى الطبيعة بالاختبار للتوصل الى التسلط عليها باطاعتها اي بمعرفة سننها .

فأحدث بذلك صدمة عنيفة وأثار شعوراً قوياً واسهم في إعطاء الابحاث العلمية اندفاعاً شديداً . ولكن كتبه كانت مجرد كتب منهجية ، فلم تتضمن نظرة شاملة على العالم كان من الضروري احلالها محل نظرة الارسطاطاليسية . اصف الى ذلك انها كانت مشوشة ككتب منهجية . فان سيكون لم يسائل نفسه قط عن شروط الملاحظة بحد ذاتها وعن الاحتياطات الانتقادية الواجب احترامها . ووقف موقفاً حذراً من العلوم الرياضية . فأول ما فكر به هو تنويع الاختبارات وتوزيعها على ثلاث فئات : فئة الوجود ، فئة الفقدان ، فئة الدرجات . اما الصورة ، او الجوهر التي تولد طبيعة الظاهرة النوعية فتوجد ، كما هو طبيعي ، في الدردي . فلنأخذ الحرارة مثلاً : تحدث في ٢٧ حالة ؛ ولا تحدث في ٣٥ حالة ؛ وتنشع في ٤١ حالة ؛ والدردي هو حركة الارتجاج التي نرى نتيجتها في الماء العالي . الحركة هي صورة الحرارة ، وهي عنصر محسوس نلاحظه ولا نستنتجه استنتاجاً . زد على ذلك ان الدردي عند يكون هو ابدأ استعداد آلي ثابت في الطبيعة . وان جوهر كل شيء في الطبيعة هو تركيب هندسي دائم . يبحث بكون عن التراكيب والحركات الخفية ولكنه يعتبر كل تركيب مطلقاً لا يقبل التفسير . فهو اختبائي لا يستطيع ان يصنع العلم . والاختبارية لا تقود الى شيء . الاختبار يفرض النظرية ويفرض الكلام لانه سؤال يطرح على الطبيعة . الا ان يكون قد افترق الى هذا الكلام الذي هو العلوم الرياضية . فاخفق . ومنذ السنة ١٦٢٥ اخذ عليه الاب « مرسين » انه ساذج وانه يقترح انظمة لا يجملها العلماء واختبارات اجري بمجلها من قبله وتعاير جديدة لم تأت بأي جديد حقاً . فان يكون ، وشأنه في ذلك شأن الارسطاطاليسيين ، قد وضع الارواح في كل مكان . وقال ان الاجرام ترغب في ان تتلامس خوفاً من ان يحدث فراغ ومن ان تتجزأ الطبيعة ؛ وانها ترغب في العودة الى حالتها الاولى ، حالة العظمة والصورة ، التي كانت حالتها حين اعتدي عليها وابتعدت عن استعدادتها الطبيعية ، وفي ان تتحد مع اجرام الكون واجزائه المختلفة التي هي من طبيعتها ، الخ . فلم يكن باستطاعة هذا المجدد المزيف ان يعطي الحلول الضرورية .

ازمة العقل كانت الاكتشافات ، التي فتحت ابواب الانهاية ، ووضعت الحركة في كل مكان اعتبرت فيه من قبل سكوناً ، وكانت الحركة التي انزلت منزلة الكمال ، تبريراً عقلياً للفن المستهجن . فقد قامت هنالك بمائلة ، دوغما مشابهة ، بين مهندسي العمارة الذين يضعون الحركة في الابنية باعتماد « الاشكال التي تطير » ، وبين العلماء الذين يضعون الحركة في كافة اجزاء الكون ، وبين الرسامين روبنس ورمبراندت من جهة وبين الرياضيين كبار وغاليليو من جهة ثانية .

وكانت اختلاطاً وتشوشاً ايضاً . فان في التناقض بين نظام قائم للعالم وبين الاكتشافات الجديدة ، والنظريات العقلية والمسامي الفكرية الكثيرة التي بدت وكأنها الجلاء نفسه والعقل عينه ، والتي أمست بين ليلة وضحاها نظريات ومسامي هرمة وباطلة ، والصدمات والتناقضات

الكثينة ، ما بدا تبريراً لمذهب التشكك في الكل ، واعترافاً بسقم العقل المضل وتشريع باب
امام الارتيابيين والملحدين .

٨ - الملحونون

اتسمت بعض الجماعات ، التي جمع بينها اسم واحد هو اسم « الملحدين » ، بطابع مشترك
هو التنكر للمسيحية ، نظرياً وعملياً ، واعتماد الحياة الوثنية أو مفهوم الحياة الوثني . وسارت من
ثم على خطى نقاد النهضة العقلين ، من امثال « بومبونازي » و « ماكيافلي » ، وأمير
الارتيابيين « مونتاني »^(١) . واستندت ، على غرارهم ، على القدماء . ونقلت تعاليم القدماء
بمخاديفها الى برامج التدريس . فوجد الطالب الفتى عند المؤلفين اللاتين واليونانيين كل ما هو
ضروري للحياة : وكون لنفسه ، بذلك ، روحاً قديمة معادية للدين المسيحي .

أما ما أبعد هذه الجماعات عن الدين المسيحي فهو ، في الدرجة الأولى ،
الاحاد السياسية
ظروف
سياسية : كنهة جهلة نسوا حتى صيغة الحل من الخطايا ، راهبات كثيرات
الاهتمام بجسادهن ، رئيسات اديرة عالميات ، احبار لم يسلكوا سلوكاً يقتدى به ، رؤساء اديرة
في سن الطفولة ، كنهة قانونيون على مقاعد الدراسة ، وخدمة رعايا سكيرون ، « لافردين »
اسقف « له مان » المتطارف ، « لاريفير » ، الذي انتقل مباشرة من « مجلس خلاعة » شقيق
الملك (السيد) ، الى اسقفية « لانفر » . وقد قال احد المصلحين : « ان اسوأ ما يفعل ...
يفعل في أوساط الكنسين » . وما زاد في الاشتمزاز وتغرز النفوس المشادات الدينية ومجادلات
اللاهوتيين ، كاثوليك وجنسينيين ، وغوماريين وارمينيين ، وقد جرت على مرأى الجماهير
ومسممها وخلت من مبادئ المحبة الاولى . اصف الى ذلك ان الحروب الدينية قد اذلت الدين
وافقدته اعتباره . فباسم الانجيل تشاتم اطراف النقيض وتحاسدوا ونشروا الفذارة في مقالات
حاقدة عنيفة مشينة وخانوا وقتلوا . وانتهى الامر بالناس الى الارتياح من وجود حقيقة
دينية والتفكير شيئاً فشيئاً بان الدين قد يكون مشؤوماً . وجاءت الحروب الاهلية والخارجية
اخيراً تحمل عنف الفرائز من بمقاله وتقضي على البقية الباقية من احترام الدين فخلال الحملات
المسكرية ، لم يتورع الجنود عن تحطيم ابواب الكنائس وسرقة الحلل الكهنوتية وتخريب بيوت
جسد الرب واستلاب حلق القربان وتدنيس القربان المقدس . وشجعت الحياة في المسكرات
اشباع رغائب الحواس والاستسلام لابتغاءات الجسد والسلب والنهب والاعتصاب ومغازلة
النساء والانصراف الى المسكر ، وابتعدت عن دين طهارة يحاول توجيه كل قوى الفرد الى محبة
الله الخالصة والقداسة الكاملة التي لا يشوبها عيب .

١ - مونتاني : حياته ، فلسفته ، منتقبات ، صدر عن منشورات عويدات . (الناشر)

الحاد الفكر
ارتيابية للمحدثين
اسهمت الحركة الارتيابية في ابعاد الناس عن الدين المسيحي الذي يرتكز الى البراهين . فقد ادعى الدين المسيحي ، من جهة ، بأن وجود الله يمكن اثباته عقلياً بالارتقاء من المخلوقات الى الخالق ، ومن جهة اخرى بأن الوقائع التاريخية التي نستطيع بواسطتها الاستدلال على ألوهة المسيح قد اثبتتها نقد تاريخي عقلي . ولكن الملحدون كانوا كلهم على مذهب الشك بالكل . ففي السنة ١٦٣٠ قال « لاموت له فاييه » في حوار « اوراسيوس قوبرو » .

« ليست حياتنا كلها ، اذا ما فحصناها من كل وجوها ، سوى اسطورة ؛ وليست معرفتنا سوى غباوة ؛ ويقيننا سوى خرافة ؛ وبجمل القول ليس هذا العالم سوى تمثيلية مضحكة ومهزلة دائمة » .

تأثر هؤلاء الاشخاص بالحس الفني المستهجن ، فتوسعوا في تعليم عظماء النهضة الايطاليين وتعليم « مونتاني » . شرع « غاسندي » في السنة ١٦٣٤ باحياء المذهب الابيقوري في كتابه « دفاعاً عن ابيقور » . فرأى غاسندي ، مخالفاً بذلك ابيقور ، ان الذرات ليست أزلية ولكنه رأى ، كما رأى ابيقور ، ان الكون مركب من ذرات دائمة الحركة تتساقط في الفضاء وتكون عوالم شبيهة بعالمنا لا يحصى لها عدد . وان كل الاشياء وكل الاجسام مركبة من ذرات متحركة . وان جسمنا مركب من ذرات ايضاً ، وان روحنا اقرب ما تكون الى النفخة ، او اللهب ، وهي مجموع ذرات صغيرة جداً منتشرة في كافة أجزاء جسمنا . فالنفس تتأثر من ثم بكل ادواء الجسم . تتحرك ذرات الجسم بفعل الخيلة تنطلق باستمرار من ذرات الاجسام الاخرى ، وتتحرك الروح بفعل حركة الجسم ، فيتولد الشعور . شاعرنا صحيحة ابداً ولكن احكامنا عليها قد تكون مخطئة ، فالخيلة تقرب معطيات الحواس وتنظمها وتقارن بينها وتنقصها وتوسعها ثم تستخلص منها الاحكام . لذلك كانت اسباب الخطأ متعددة في هذه العمليات . ان ما فوق الطبيعة حكم سيء على معطيات الحواس بل انتاج من انتاجات الخيلة . يجب اعادة العمليات ومقابلة الاحكام وامتحانها باستمرار ، فيما بينها وبالنسبة لحواسنا . فغاسندي ، وشأنه في ذلك شأن الارتيابيين الآخرين ، كوبرنيكي وغاليلي لا غش فيه . وحين ينحل جسمنا المركب من الذرات ، تنجاب النفس وتضمحل . فلا يبقى حينذاك شعور ولا عاطفة ، ويموت الفرد بكليته .

افضت هذه المادية الى نتائج عدة . وفي مقدمتها استحالة ادراك كنه الاشياء . لا نبليج بواسطة حواسنا سوى حقيقة نسبية كافية عملياً . أما طبيعة الاشياء الحقيقية فلا ندرکها . فما هي من ثمة قيمة الآراء النظرية حول طبيعة الكائن ، حول طبيعة الله ؟ وما هي قيمة البراهين على وجود الله ؟ وما قيمة هذا البرهان على وجود الله في تسليم الشعوب كلها بذلك ، على انها تفعل ذلك انقياداً لرأي مطبوع ؟ لا وجود لرأي مطبوع بل كل شيء يصل الينا عبر الحواس ، والخيلة تركيب معطيات الحواس تركيبات مختلفة جداً بحيث لا تتكون عند اناس كثيرين اية فكرة عن الله كما اعترف بذلك بعض الملحدون . وقد رأى غاسندي ان

فكرة الله هذه ، مع ما تتطوي عليه من مفاهيم اللانهاية والازل والكمال والقدرة الكلية والصلاحيات الكلية ، ليست سوى توسيع وتعظيم كالات الجنس البشري ، اذ ان افكارنا العامة تأتينا من الحواس . فالاله هو الانسان متعلباً بمنتهى كالاته .

وافضت كذلك الى الوقوف موقف الحذر من الشهادة التاريخية . فكيف تصح الثقة بشهود تتكون آراؤهم تكوناً يترك مجالاً لبقاء مثل امكانات الخطأ هذه ؟ قام « نوديه » ، امين مكتب الرئيس « دي مسم » ، وخريج جامعة بادوا ، بتهديب النقد التاريخي . فتوصل منذ السنة ١٦٢٥ ، في كتابه « دفاعاً عن عظام الرجال المتهمين بالشعوذة » ، الى وضع سلسلة المراجع والعودة الى المصادر ودرس قيمة الشهادات . فبحث عن المستند الاول ، والزمان الذي كتب فيه ، ووضعه ، واتجاهه ، وعحص قيمة تأكيداتاه وفسرها بحسب النزعة المادية للفلسفة الابيقورية . فأعبد كل شيء الى روابط طبيعية بين علة ومعلولات ، واعيدت كل دوافع الانسان الى مصلحته المادية . تظاهر « نوما بومبيليوس » بالتحدث الى الحورية « ايجيريا » بنية توطيد سلطة انظمته . كما ان مؤسسي الامبراطوريات وقادتها قد ادعوا بانهم آلات في ايدي الآلهة ، بنية ارساخ سلطتهم . واختلق نساك صحراء طيبة روايات باطلة عن معارك مزعومة ضد الشيطان للتوصل الى الشهرة والاحتفال على اموال السذج . وليس تنصر كلوفيس ودعوة جان دارك والوحي المنزل على محمد وموسى سوى حيل سياسية . ولكن ماذا يكون اذ ذاك من امر الدين المسيحي والشهادات الانجيلية ؟

ووفرت الاكتشافات الجغرافية اسلحة جديدة . فقد سبق ان اتاح برابرة الشعوب الفريجية والديانة الطبيعية اميركا لونتاني ان يستهزىء بالعقل والاخلاق والديانة عند الشعوب المسيحية . ووفرت الصين وسائل العمل نفسه للمحدي القرن السابع عشر . ففي السنة ١٦٤٢ ، قال « لاموت له فايه » ، في بحثه حول « فضيلة الاوثان » ، ان التسليم واجب ، ما دامت الكنيسة لا تستبعد امكانية خلاص الفلاسفة الاوثان الذين عاشوا عيشة صالحة بحسب السنة الطبيعية قبل شريعة موسى ، بان حكماء الامم ، التي لم يبشر الرسل فيها بالدين المسيحي ، قد يكونون خلصوا ايضا . فالمسيح لم يبشر به في الصين . ولكن الديانة الصينية انقى من ديانة الاغريق أو الرومان أو المصريين لانها لا تستشهد بالمعجزات ولأن الصينيين منذ القدم ، آمنوا بالله واحد . فان كونفوشيوس ، سقراط الصين ، قد آمن بوجود الله واحد واتخذ مبدأً مبدأ السنة الطبيعية بالذات ، اي الامتناع عن معاملة السوي بغير ما نريد ان يعاملنا به . ومن ثم فان كونفوشيوس والصينيين قد يخلصون أيضاً . أما الفكرة المركزية في كل ذلك فكانت وفق الطبيعة الذي يميل الى هدم الاعتقاد بالخطيئة الاصلية وضرورة القداء بواسطة المسيح وضرورة النعمة ، اي بأسس المعتقد المسيحي .

وانتشر الاعتقاد كذلك بان شعوب اميركا وآسيا والمناطق الجنوبية لم تنحدر من آدم وان التوراة لا تسرد من ثم تاريخ الانسانية وعلائقها بالله ، بل تاريخ شعب واحد فقط هو الشعب

اليهودي . فليس للتوراة ، والحالة هذه ، تلك القيمة السامية التي تعزوها الكنيسة اليها .
أما رجال الكنيسة من امثال غاسندي ، استاذ اللاهوت في « دينيه » ، وذوو الفطنة من
من امثال « نوديه » ، أو « له فايه » ، أمين سر ريشليو ، فقد تخلصوا من الورطة باعتماد تعاليم
بومبونازي حول اولوية الايمان على العقل ، وفصل العقل عن الايمان .

ولعل ما كان ابعد خطورة من كل هذه الحملات ان الاقدمين وفروا
وسيلة الاستغناء عن الديانة المسيحية ، فهل نحن نتوخى ادارة بيت
وتربية اولاد ؟ هوذا « كسينوفون » . أم نتوخى الحكم ؟ هوذا
ارسطو وافلاطون وتاسيت ، ام نقوض معركة سنن الكون ؟
هوذا بلين ولوكريس . أم الاستدلال على حدود الطبيعة والمعجزة ؟ هوذا كتاب « معرفة
الغيب » لشيشرون . أم التفكير بخلود النفس ؟ هوذا « فيدون » و « حلم شيبليون » . وتوفرت
عند الاقدمين ، بصورة خاصة ، تعاليم تنبئ للانسان ان يكفي نفسه بنفسه لمواجهة صعوبات
الحياة وآلامها وقلقها الشديد ، تعاليم يلي فيها العقل ما تنفذه ارادة حرة . ورأى ابيقور ان
قوام السعادة شرطان : « جسم بدون ألم ، وروح بدون اضطراب » . وان هاتين الحالتين
هما التمتع ، غاية طبيعتنا الاولى وخير الانسان الأول . وان العقل السليم يلي علينا الاشياء
والآراء التي يتوجب علينا تجنبها أو السعي وراءها بنية بلوغ هاتين الحالتين . وانه سيحدو بنا
الى رفض ملذات كبرى . اذا ما تبين لنا ان آلاما اكبر ستعقبها ، ومعاناة آلام كبرى وطويلة
اذا ما ثبت ان ملذات اكبر ستعقبها . وانه سيظهر لنا ان القناعة والنزاهة والعدل تضعسنا في
الحالات التي يصدر عنها التمتع ، وان الغبطة والفضيلة شقيقتان لا تفترقان ابداً . ففدا من ثم
دستور الملذة حسابا نفعيا متحذراً . وكان ذلك جوهر كتاب « الحكمة » لبيير شارون
(١٦٠١) الذي ادرج في فهرس الكتب المحرمة في السنة ١٦٠٦ وسار سواد الملحدن بهدي
هؤلاء المرشدين .

وآثر غيرهم الرواقيين ، ابيكتيت ، سينيكا الذي حملت رواقيته طابع الابيقورية . هنالك
أشياء يناط امرها بنا ، كالرأي والارادة والرغبة والكراهية ، وبصورة عامة ، أحكامنا
وقصورتنا . نحن نسيطر عليها . نحن احرار . عقلنا يولينا القدرة على تصور الاشياء ، ورؤية
صلاحها وسوءها ، وابتغائها أو النفور منها ، والسعي وراءها أو الانصراف عنها . القدرة على
الحكم والارادة لا تخضع لاي قيد .

وهنالك اشياء لا يناط امرها بنا ، الجسم ، الممتلكات ، الصيت ، الكرامة . انها غريبة عنا
وأمرها منوط بالآخرين .

اذا ابتغينا ما هو منوط بنا فقط ، اي احسان الحكم والتوفيق بين ارادتنا وحكمنا ، فسوف
نكون سعداء لأن للسعادة هي في الحصول على ما نبتغي .

ولم يكن الرواقيون ندرة بين القضاة والاشراف الريفين . لا بل ان احد الرهبان قد طلب ان يدفن والى جانبه كتاب لسينكا لم يفارقه في يوم من الايام . ولكن الابيقوريين كانوا اكثر عدداً ، وابتات الابيقورية ، بسهولة ، نفعية وقعت موقع الرضى من الذهنية البورجوازية . فاعتنق هذه التعاليم رجال قضاء اشراف من امثال « دي فير » ، « دي تو » ، « دي مسم » ، « دي مونور » ، « دي سيفيه » ، « دي هارلي » ، « ديورجوازيون » ، ابناء تجار واطباء وضباط ملكيين ، وكنسيون ومهذبون ووكلاء خزائن كتب وامناء سر وزراء ومستشارون وسفراء واحبار وامراء ملكيون ، من امثال غاسندي ، ابن المزارع واستاذ اللاهوت في دينيه ، ونوديه وكيل خزانة كتب الرئيس « دي مسم » ، « دي لا موت له فاييه » ، امين سر ريشليو (١٦٣١ - ١٦٤٢) ومهذب لويس الرابع عشر (١٦٥١ - ١٦٥٨) ، اجتمعوا لنادي ثقافية حول قضية ناصروا الادب ، كـ « بيرسك » في « اكس » ، وقد كان على صلة بجميع النحاء اوروبا والرئيس « دي مسم » في باريس والرئيس « دي تو » في قصره حيث عمل وكيل خزائن الكتب ، « بيير » و « جاك دي بوي » (١٦١٧ - ١٦٥٦) .

ولكن الانسياق وراء الطبيعة ، اي البحث عن التمتع ، قد عنى في نظر الكثيرين الفجور بتأثير فن الحس الفني المستهجن ، انفلات غرائز ، وحميا ارادة دون رقابة ، وتخطيا لكل الحدود . فكانت فترات القصور الشرعي وفترات الاصابة وعهد « ماري دي ميديسيس » وعهد « آن دوترويش » عهود مغالطات خطيرة وقمع جنونية انصرف خلالها بعض الاشراف الريفين ، من امثال الكونت « دي بلفارد » ، والدوقية « دي غيز » ، والمارشال « دي روكلور » المقربين الى هنري الرابع والمدرين على المكامن والسلب والاغتصاب والاحراق بدافع من اهواء فظة ، الى العيش في اجواء الفجور الجنوني والمقاتلة والمبارزة والكروالتجديف ، وتلهوا وانكروا الله وعاشوا عيشة من لا يؤمن . وبات مألوفاً في بيئته بعض الشبان اعتبار الدين مخاتلة وخداعاً . وقد حدث ، اثناء حصار « لاروشيل » ، ان ضباطاً تقدموا في سخرتهم من رفيق لهم تكلم عن الله الى ان ارغموه على طلب تسريحه . ولم تختلف الحال ابان ثورة « المقلع » (*La Fronde*) . ولفت الاحاذ الانتباه بين النبلاء من حاشية « غاستون دورليان » و « كونديه » . فما هو عددم يا ترى ؟ اجاب « مرسين » على هذا السؤال منبهراً بقوله : « ان باريس وحدها مبتلاة باكثر من ٥٠.٠٠٠ ملحد » . وحوالي السنة ١٦٣٠ ، ذرف « بوشيه » الدمع اسفاً على « مليون عقل مفقود » . ولكن كلا القولين صرخة الم لا قيمة احصائية لها . وبين السنة ١٦٢٣ والسنة ١٦٢٥ حدثت ازمة حقيقية . فقد صدرت خلال سنتين المؤلفات التالية : « قصة فرانسيسون » ، « عروس الشمر اللعوب » ، « حجرة الهجاء اللاذع » ، « ديوان شعراء الهجاء اللاذع » ، « صفوة الهجاء اللاذع » . وتناولت هذه الكتب مواضيع معادلة التقوى والرتاء وحق اللذة في التخلب على القانون . فكانت النتيجة موجة من الرعب . واعتقد المتدينون بوجود مؤامرة مبيتة . وبات « الاحاد » واقماً معترفاً به وقوة يجب محاربتها .

٩ - أثر الحركات الفكرية والعاطفية في السياسة

أثرت كل هذه الحركات العاطفية والفكرية في الازمة السياسية والاجتماعية فجعلتها تتفاقم وتزداد خطورة . قال ريشليو : « ان نظام الدولة يفرض بعض التساوي في السلوك » . الا ان الاستهجان والاحاد والجلسينية ومركزية الشمس قد ابرزت ووسعت الاختلاف والتفاوت والفوضى . ووفرت وسائل المعارضة السياسية . وليس مصادفة أن يكون قادة الملحمين بين الاشراف الريفين ، من امثال كونديه وغاستون دورليان ، قادة في الوقت نفسه لحركة مقاومة الملكية المطلقة . وليس مصادفة كذلك ان يكون الكثيرون من أدباء الاستهجان ، وهم الاعداء الالاء لكل نظام وسلطة وقصر ، في عداد « خدم » العظماء و « المتفانين » في سبيلهم ، مستعدين لخدمتهم بالتعليم كما يخدمهم غيرهم بالسيف . أو لم تغد الوان الفن نفسها مظاهر مقاومة؟ قها هو علم الاخلاق الارستوقراطية قد حث على الثورة بدافع من الحس الفني المستهجن ، والأدب قد بات وسيلة دعاوة . وها هو كورنابي في « نيكوميدي » و « روبردوغون » ، و « روثرو » في « الامانة البريئة » و « بليزير » و « لاروشفوكو » و « رتر » في « مذكراتها » ، قد مجدوا هوى العظمة ، ورفض الخدمة ، والطباع الفظة التي تنكسر ولا تنحني ، والنفوس الكبيرة التي تستهوي المغامرات البطولية . لا بأس في ان تكون المغامرة اجرامية إذا هي انطوت على احتقار الموت وافضت الى السلطة . ان ما يفقد المرء اعتباره هو تحذره ، وتوسطه ، وبخله باله وحياته ، وعيشته مغموراً في الخفاء . كما ان الخطر الكبير هو السيل الى المجد الكبير . أما الخير الاسمى فهو في ان نرغم الغير على عبادتنا ومحبتنا ومهابتنا ومقتنا .

المقصد المجيد شرعي ابدأ

واذا اعتبر شراً ، فمرد ذلك الى تقدير ضعيف

صادر عن نفس موعوكة

القلب الكبير لا يدهش البتة أمام المخاطر الكبيرة

ومن لا يقدم على جريمة تتوج بالفار

يتقيد على حسابه بفضيلة فاشلة

(الامانة البريئة)

كل الجرائم جميلة اذا كان لها العرش ثناً

(الامانة البريئة)

ان القلب الكبير يشترى الاعتبار الكبير بأي ثمن

وكل جريمة حلال حين تقضي الى أكبارنا

(بليزير)

أما الملحدون فقد تظاهروا باحتقار الجماهير الجاهلة الميقاتنة ، اي عامة الناس . ولكنهم من جهة ثانية حطموا البطل ، وهو احد المثل الاساسية في الملكية المطلقة . فقد توسع « رينيه »

« ويوفيل دي فيو » ، بشكل شعري ، ويمزج من العنف والتشاؤم ، في تعليم « مونتاني » ، وجزموا بأن الانسان ليس ملك الكون ، بل نتاج قوى عمياء ، وامتزاج هواء ووحل ، خاضعاً لضغط الضرورة ، متحركاً باهوائه ، العوبة المحبة والضعف والخطأ . فاني لمثل هذا الانسان التوق الى السلطة المطلقة ودور المخلص ؟ العقل الكوني خرافة . فعلى كل فرد ان ينقاد لطبيعته ويخضع لسنته الباطنية فقط . ليس للرذيلة من علة سوى الجهد الذي نبذله بغية السلوك بمقتضى الظروف ، ومن ثم بغية خيانة ذاتنا . واذا كان هنالك طماعون وجشعون ومراؤون ، فمرد ذلك الى ان الانسان لا يريد ان يحيد في ذاته غاية اعماله . يجب ان نتعلم « التمتع بذاتنا » . فعدت الحكومة والمجتمع من ثم السببين المسؤولين عن ضعف الافراد وكان معنى ذلك ان كل نظام وكل ايمان قويم وكل قانون اجتماعي وكل قضحية وكل مجهودات موضوع سخرية وقضي عليه ، وان اسس المجتمع نفسها قد تخلخلت وتزعزت .

وافضت الجهنسية ايضاً الى تحطيم البطل . فهي قد صورت الانسان العوبة شعوره والعادة والمصادفة ؛ وصورت ابتغاء المجد غريزة تملك والسمي وراء الخير الاسمى حركة نفعية لاواعية وعسى قلب . فليس باستطاعة الملوك وقادة الحرب والوزراء ، من بعد ، ان يكونوا انصاف آلهة . وقابل الجنسينيون السلطة الخارجية بوصايا الضمير ، المستقل ، لأن الله نفسه يحركه . وانتزعوا من السلطة الحكم المانع في المسائل التي تقع تحت الحواس أو ترتبط بقوة العقل . ونظروا الى الرأي القائل اننا لا نخطيء حين نطيع ، نظرهم الى شرك تنصبه محبة الذات ، معلنين خطأ السير ، والعيون مغمضة ، ووجوب التوجه الى الله مباشرة فوق السلطات القائمة ، الكنائس والملوك ، بغية سؤاله عن السلوك الواجب سلوكه ، وقد برهنوا في كل شيء عن تقلقل ومعارضة . وحلم واضعو نظرياتهم البورجوازيون ، في سبيل مقاومة السلطة البابوية المطلقة ، بارستوقراطية اساقفة تختارهم مجالس الكهنة القانونيين ولا يتلقون الوحي من البلاط أو من القاصد الرسولي ؛ وفي سبيل مقاومة السلطة الملكية المطلقة ، وبطريقة شريفة من عليا البورجوازيين تكون لها السيطرة في نظام دستوري .

وهكذا كان باستطاعة كل فرد ، في نضاله ضد غيره من البشر أو ضد الحكومة ، التوصل الى مبررات فكرية . فلم يكن القرن ، والحالة هذه ، سوى اضطراب وبلبله وتشوش . وبدأت المجتمعات الاوروبية وكأنها صائرة الى الفوضى والانحلال والزوال .

الفصل الثاني

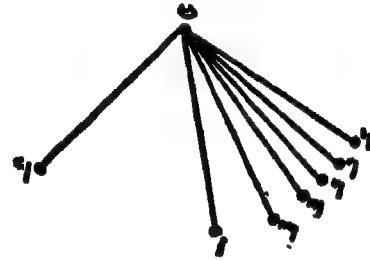
مقاومة الأزمة

كان رد الجبم الاجتماعي ، على فرضي الحسن المستهجن التي كادت تقضي عليه قضاء تاماً ،
بذل الجهود ببقية استعادة الوحدة العضوية ، الوحدة الكلاسيكية ، وهي شرط لا بد منه لحياته .
كان الرد تلقائياً في البداية ، فنبح من نوع من التوازن بين النزعات البورجوازية ونزعات اشراف
الجندي . وصدر بصورة خاصة عن افس منحدرين من الاوساط البورجوازية ، كأعضاء المهن
الحرة ، ورجال القانون ، والقضاة ، والنبلاء الحديثي العهد الذين ما زالوا قريبين من البورجوازية ،
وقد تعودوا كلهم بممارسة النظام والاقتصاد والسيطرة على الاهواء الخاصة
بالبورجوازي . وما زالوا يحرصون على بقاء العائقة والملكية ويتمشقون الشرعية ويمحرمون
تسلسل السلطات والرياسات القائمة ، ويتحلون بروح كلاسيكية بفضل تربيتهم الادبية . ولكن
هذه الطبقة الصاعدة لم تتوصل بعد الى وعي ذاتها وعياً كاملاً . فان هؤلاء الناس ، الذين كانوا
خدام الملك ، الشريف الاول في المملكة ، و « اجراء » العظماء ، واسياداً حديثي العهد ،
ورغبوا في ان يعتبروا نبلاء وحججوا باعينهم الى المثل الارستوقراطي ، قد حاولوا ان يعيشوا
حياة البطل الابي الذي يبذل نفسه في سبيل اله وسيدته وسيدته والدولة والفكرة ، بسخاء
كريم ، هو معنى نبيل يرتفع على ما غيره من أهواء ، وينظمها ، ويوحد الوعي . من اوساط هؤلاء
بصورة خاصة ، ومن الندوات وقاعات الاستقبال التي يتم فيها الاتصال بأشراف الجندي ،
انبثقت نظرية مركزية الاله الاوغسطينية ، والكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية ،
والكثرتيانية (الديكارتية) ، والحكم المطلق ، والروح التجارية والاهتمام بالاستقلال القومي والعظمة
القومية . ولكن العمل التوحيدي الكلاسيكي لم يتمكن من تحقيق النتائج الا بفضل الدولة الملكية
المطلقة التي تبنت هذه النزعات وشجعتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى غير قصد أو
وعى منها احياناً ، وأطلقت لها التفتح وأمنت لها نجاحاً عرف بعض الديمومة .

١ - المدرسة الفرنسية ، ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية

بيرول انتهى الاصلاح الكاثوليكي الى الاكتمال في نظرية بيرول (١٥٧٥ - ١٦٢٩)
بحول مركزية الاله بحسب التعليم الاوغسطيني . كان بيرول ابناً لأحد
المستشارين في مجلس باريس التمثيلي وابن اخت لاربعة مستشارين آخرين في هذا المجلس وابن عم
لمستشار فرنسي ، « سيفيه » . واصبح مرشداً لـ « هنرييت دي فرانس » ملكة انكلترا
(١٦٢٥) ، ثم كردينالاً (١٦٢٧) ، ثم رئيساً لمجلس الملكة الام « ماري دي مديسيس »
(١٦٢٩) . وكان روحانياً ، من فئة مدام « اكاري » . يمارس الحياة الداخلية والحياة التأملية .

رجع بيرول الى القديس
الاوغسطينية اوغسطينوس . وعن طريقه
الى افلاطون والمثل المطبوعة ، بغية التمكن من
مقاومة الاتحاد والمهرطقة والفتور . فاذا كانت
طريقة المعرفة الاكوسينية قد غدت حجة للابتعاد
عن الله ، فلنرجع الى ذاتنا ولنخلق جواً من
السكون الداخلي ، فتظهر امامنا المفاهيم الاولية
ويظهر الله . فكذا حدث في كل عهود الصوفية ،



الشكل ٧ - وقاص غاليليو
(انظر صفحة ٢٦٠)

وفي عهد « برمنيد » ، توجب على الانسان ، في مقاومته التشتت والتعدد ، ان يعتمد عن العالم
المحسوس ويحاول ان يشاهد ، في ذاته الكائن ، الواحد ، ويلامسه ، اذا صح التعبير ، ملامسة
المادة للعادة . وهكذا شاهد القرن السابع عشر كله حركة اوغسطينية كبرى اسهم بيرول
فيها .

ان بيرول ، الذي تخفد من جهة ثانية بالتعليم الكاثوليكي حيال الحرية ، اقتبس
مركزية الله عن القديس اوغسطينوس شعوره بمظمة الله اللامتناهية وفناء الانسان .
فاستخلص نتائج ذلك في « خطبة حول معالي يسوع » (١٦٢٣) . واراد ان يقوم بثورة
كوبرنيكية ، تقول بمركزية الله . « اراد عقل نير من عقول هذا القرن ، فنولاس كوبرنيكوس
الدفاع عن ان الشمس هي مركز العالم ، لا الارض ، وانها ثابتة وان الارض ... تتحرك امام
الشمس ... ان هذا الرأي ، الذي لم يعمل به كثيراً في علم الكواكب ، لا يخلو من الفائدة ويجب
ان يعمل به في علم الخلاص ، » .

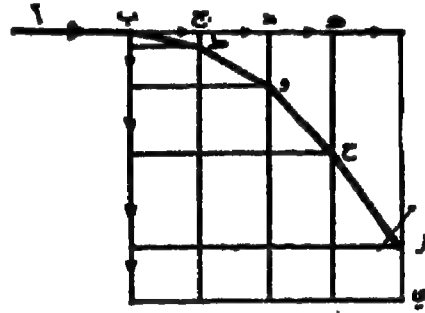
كان يبرول تلميذ اليسوعيين وتشبع ، عن طريق القديس اوغسطينوس ، من التأمل الاسامي حيث يقول القديس اغناطيوس : « يجب ان ننظر الى الله اولاً لا الى ذاتنا . وان لا نتصرف بوحى نظرنا الى ذاتنا والبحث عن ذاتنا بل بوحى النظر الخالص الى الله » . فيبرول يريد ان يود كل شيء « لا الى استفادتنا ومنفعتنا الروحية ، بل الى مجد الله فقط ، دوننا اعتبار لمصلحتنا او لقضاء حاجتنا الخاصة » ، وان يحملنا الى الله « بعبادة عظمتة وقداسته عبادة عميقة » فقط ، لان « اله المسيحيين عظيم » . فلا يليق من ثم ان نعتبره كصديق واب فقط . يجب ان نعامله باحترام قادر ، دون ان ننسى يوماً المسافة اللامتناهية التي تفصل بينه وبين الانسان . بذلك احيا يبرول الفضيلة الاولى ، اي فضيلة العبادة .

يقود يبرول الانسان الى هذا الاله المثلث الاقانيم بالتعبد للاقنوم الثاني ، الكلمة المتجسدة ، يسوع المسيح . فبالجسد تألمت ، في شخص المسيح ، كافة الحالات البشرية التي افسدت واذلت في شخص الانسان الاول . ولم يبتغ يبرول من ثم سوى يسوع المسيح ولم يفكر الا بيسوع المسيح متأملاً ومشاهداً اياه في اقل ظروف حياته شائناً : « لنذهب الى بيت لحم ، لنذهب الى الاسطبل . لنشاهد يسوع طفلاً ، لنشاهد مريم امه ، ويوسف معاوننا الام والطفل . لنشاهد الاسطبل والثور والحمار . ولكن لنشاهد بصورة خاصة حالاته الداخلية في كل دقيقة من دقائق وجوده على الارض . فعياة المسيح ليست تتابع احداث تاريخية فحسب . ان اسرار يسوع المسيح سوف تستمر وتحيا في الارض حتى آخر الدهور . انها من عالم الماضي من حيث وضعها . ولكنها من عالم الحاضر من حيث قوتها » . العيش مسيحياً هو ان نعيش الاسرار ونتقوى حالات المسيح ونتمثل بالمسيح . يجب الان نسمي وراء الفضيلة لانها جميلة بذاتها ، متفقة مع العقل ، ضرورة لكمال الانسان ، كما يجب ان لا نبحث عنها للتميز عن الغير ، لاشباع رغبة شخصية ، لانتزاع الثناء او لتأمين المصلحة : فالوثنيون والمهرطقة والكاثوليك المزييفون هم الذين يسمعون وراء كل ذلك . ان ما يجب عمله هو تمجيد يسوع ، وفي سبيل ذلك ، « الاستمرار في ممارسة الفضائل التي مارسها على الارض » ، وفي هذا بالذات تقوم الفضيلة المسيحية . السير على خطى المسيح . . اتمام فضائل يسوع المسيح » . يجب ان نموت لذاتنا كي نتيح ليسوع ان يوجد ويحيا فينا .

بذلك يبطل اعتبار الصلاة مجرد فحص ضمير ، وتعبيراً عن رغائبنا وطلباً الصلاة البيرولية لاجلنا . فهي تصبح نظرة وضيفة للاعراب عن الخضوع والاعتزاز والمحبة الهياية ، واتضاعاً ونكران ذات ، وانخراطاً في الاعجاب ، في البهجة ، في عرفان الجميل الاسمي ، ونشيد اعجاب وثناء . ولا تنطوي الصلاة من بعد على اسلوب بلوغ الكمال أو للاتصاف على الذات ، فهي ليست اذ ذاك سوى اقرار بخضوعنا لله ، وهبة ذاتنا لروح يسوع ، وعرض نفسنا أمام قدرة يسوع المسيح الذي يطبع بذاته ، في النفس ، آلامه ، وفضائله ، الهية ، الفاعلة ، بايجاد ما يشبهها فينا . فضائل المسيح : « لننظر اليها بانتباه ، لنعظمها بتواضع ولننتظر من الله

بصت ما هو مفيد لخلاصنا الابدي ؛ لنطلب بعض التأثر والاشتراك في فضائل يسوع المدهشة والالهية هذه ... ولنتوسل اليه ان يد ساعد قدرته الكلية كي يطبعها فينا ... » ، ولترفض ارتضاء كلياً بالعمل الالهي . لنقلع عن فحوص الضمير الخاصة ولا نتوقف عند الفحص العام . يجب الا ننظر طويلاً الى نقائصنا وخطايانا ، لاننا بذلك قد ننسى المسيح : « لا تنتظروا الا الى ما هو جميل ... وما القصد من جمال يسوع الفائق الا اختطاف حياتنا في سبيل اسعادنا » . لنكرم في العذراء مريم « السمة الطاهرة » ليسوع ، وفي القديسين حالات يسوع التي احيوها في ذاتهم . هكذا سوف يُطعم الانسان في يسوع الحي ، ويشعر في يسوع الحي ، كالجن في الكرم . ويجب كذلك الا ينتهي الى مذهب التجرد لأن الفضائل لا يبرهن عنها الا بالأعمال ، والعمل هو غاية الحياة ، والنعم كلها تسبغ علينا حتى نحقق هذه الغاية . وكما ان حركة الآب الالهية التي تكون ابنه هي مصدر سر التجسد ، الذي يهب فيه ابنه الطبيعة البشرية ، كذلك نحن سنذهب ، بواسطة يسوع ، الى الثالوث الذي هو مصدر ومبدأ كياننا وكمال وغاية كياننا .

ان يقول قد سار في ذلك على لاهوت القديس بولس والقديس يوحنا ، وتعليم القديس بولس حول الجسم السري . الذي لم يؤثر تأثيراً عظيماً في القديس اغناطيوس والقديس « فرنسوا دي سال » . اي انه شرح رسالة القديس بولس الى الرومانيين . وبعد ان هدم اساس مجادة الملحدين بافلاطونيته الاوغسطينية ، لم يترك للبروتستانت اي موضوع شكوى بتعبده الداخلي في الروح والحق ، الذي رد فيه كل شيء ليسوع ، وبيسوع للاله الواحد المثلث الاقانيم . ، والذي دعا ، لتقفي آثار المسيح ، كل البشر ، العلمانيين منهم والرهبان على السواء .



الشكل ٨ - نظرية غاليليو في المدائد
(انظر صفحة ٢٦١)

اذا ما اردنا التعبير عن فكرنا تعبيراً بشرياً ، أمكننا القول انه تخلى عن تدريب الارادة بحسب طرائق القديس اغناطيوس و « رودريغيز » ، التي كانت متشابهة كل التشابه بطرائق علماء الاخلاق العلمانيين ، بغية الاستعاضة عنها بطريقة مرتكزة الى الایحاء لأنها اعظم فاعلية في الارجح . فان وعي الحالة الداخلية والدوافع والاسباب ، والضوء الملقى على الطبيعة ونتائج شتى المقررات الممكنة ، والاختيار الحر الصادر عن عقل نير ، وكل ما كان متعلقاً بإرادة انسان سيد نفسه ، قد ابدل بتوفيق لارواح بين الكائن بكلية وبين مثال أنعم النظر فيه ، بتنفيذ هذا المثال وتهذيبه للواعي أو للوعي الغامض . وهكذا فان تحويل جوهر الفرد قد خلف مقاومة الاعراض والظواهر .

جاءت مركزية الله البيرولية تمنة للنهضة الكاثوليكية . وقد عرفت الانتشار
 رهبانية المبد
 بفضل رهبانية المبد التي أسسها بيرول في السنة ١٦١١ وضمت كهنة عالميين
 فرض عليهم احياء حالات يسوع المسيح الكهنوتية ، وهو « الكاهن الاسمي » ، في انفسهم ،
 واعطاء المثل عن كهنوت كامل مقدس . وضع كهنة المبد انفسهم تحت تصرف الاساقفة فقاموا
 بما انتظره منهم مؤسسه . ونشر تلامذة بيرول روحه بمؤلفاتهم ايضاً (« ب . بورغوان » ،
 « حقائق يسوع المسيح ومعاليه » ، ١٦٣٦ ؛ « املوت » ، « حياة الاب شارل دي كوندون » ،
 ١٦٤٣ ؛ « ج . ج . اوليه » « كتاب التعليم المسيحي للحياة الداخلية » ، ١٦٥٥) . وبتحقيقاتهم .
 فان جان جاك اوليه ، الذي كان ابناً لـ احد كبار المباشرين في فرنسا ، وحفيداً لأحد التجار
 الجواخين ، ومنتسباً لعائلة ضمت العديد من رجال الشرع وارتقت الى طبقة النبلاء منذ خمسين
 سنة ، قد أسس ، في السنة ١٦٤١ ، اكليريكية سان - سوليس . منذ السنة ١٦٥٠ ، غدت
 خورنية سان - سوليس في باريس ، وهي خورنية بيرولية كلها قدوة لخورنيات اخرى
 كثيرة . ووافقت كليات جمعية المبد كليات الآباء اليسوعيين . وانتسب الى البيرولية فترة من
 الزمن كل من القديس « فنان دي بول » و « بوسويه » و « سان - سيران » نفسه . وكان
 هنالك يسوعيون بيروليون ايضاً . ولكن العداء ما لبث ان قام بين البيروليين واليسوعيين ،
 لأن البيروليين ، الذين ساروا على خطى القديس أوغسطينوس ، قد ناهضوا الموليين وعطفوا
 على الجذسين مع انهم استدلوا هرطقات الجلينية .

ان هذه الحركة التي انبثقت من رزامة البورجوازيين ومنطقهم وصدق
 نراهم ، وتحولت الى الله بفضل عاطفة بيرول الحارة ، قد تحسنت الورع
 واوجدت في الكثيرين ، لا سيما في فرنسا ، احترام الله ومحبة المنزهة عن
 الغرض ، والتفاني في سبيل القريب ، ووسمت تقوam وحياتهم بطابع من الوقار والحشمة وحفقت
 فيهم وحدة الايمان والعواطف والاعمال ، وجمعت منهم مسيحين حقيقيين . فتأثر القرن كـ
 بالبيرولية . وكان لبيرول ، على ما يبدو ، تأثير كبير على ديكارت . وأدت البيرولية الى تعزيز
 الكلاسيكية . فان مشاهدة اعظم الامرار سمواً قد اعطت البيروليين معنى العظمة الحقـة
 والظاهرة ، ونفرتهم من الفلاظة والتجبر ، فاسهموا في انتصار العقل والعفة والبساطة والطبيعية .
 وقد لوحظت اوجه التشابه بين ادب البيروليين الفائق الطبيعة نحو الله وأدب المتكلمين في العالم ،
 بين تعابير بيرول وتعابير التكلف ، بين مركزية الله البيرولية ومركزية المرأة ، اي عبادة
 المتكلمين للمرأة . ويصعب التمييز هنا بين ما اذا كان هنالك تأثير متبادل او بادرة لمجهود واحد
 سعياً وراء وحدة منظمة في نشاطات مختلفة . ومن هو الذي يستطيع ايضاح النتيجة الممكنة
 التي كانت لمركزية الله على الخضوع للملك ، صورة الله على الارض ، ولأثر فضيلة العبادة على
 توسع السلطة المطلقة ؟ لا ريب في ان أثر اليسوعيين كان كبيراً عن طريق كلياتهم ومرشدهم ،
 ولكن ربما كان أثر مركزية الله البيرولية اعظم شأنًا وابعد عمقاً .

ان الحركة الماثلة للحركة البيرونية ، في اوساط بروتستانت الاقاليم المتحدة هي
الغومارية الحركة الغومارية . فالسينودس الدولي الذي انعقد في « دوردرخت » (١٦١٩)
وهو اشبه بمجمع كلفيني عام ، جاء ردا على المجمع التريدينيني ، قد اقر واشهر علنا مبادئ
الراعي « غومار » . فاذا بها ابعد نظريات الكلفينية عبوسة : عجز الانسان عجزاً كلياً بدون
نعمة الله ؛ القدية باستحقاقات يسوع المسيح وحدها ؛ القول بالاختيار للمجد الساهوي منذ الازل
بقرار لا يدرك غوره يصدره الله الكلي القدرة . واضيف الى ذلك مثل ثيوقراطية تمارس
بواسطة كنيسة ديموقراطية ، وادانة الرأسمالية ، الخ ..

٢ - الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية

اكملت مركزية الله ، عند بعضهم ، التربية التي وضع اليسوعيون .
اليسوعيون والكلاسيكية اسسها . ومن جهة ثانية ، وجدت النزعات الكلاسيكية ، في التربية
اليسوعية ، الوسائل التي تعززها . هذبت الكليات اليسوعية عقول وقلوب العدد الاكبر من
الاشرف الريفين والاثرياء البورجوازيين في البلدان الكاثوليكية . فديكارت وكورناي
« وبوردالو » وكولير و « اود » واوليه كانوا من تلامذتها . وسعى اليسوعيون وراء انتصار
هوى معين في الفرد ، هو محبة الله . ولكن هذه المحبة يجب ان تنتصر بالارادة . ارادة الانسان
حررة . اجل لقد فقد الانسان حرية التصرف بالخطيئة الاصلية : ولم تعد ارادته محررة من كل
مقاومة تبديها الاهواء . ولكنه احتفظ بحرية الارادة : فباستطاعة ارادته ان ترفض او تقبل
ما تعرضه الاهواء عليها . يتمتع الانسان بالعقل ، وهو القدرة التامة على تقدير قيمة افكاره على
ضوء المعرفة الطبيعية . وفي أثناء مذاكرة داخلية ، يقترح العقل على الارادة ، بشكل مفاهيم
مجردة وشاملة ، حلولاً تقبلها او ترفضها . وهكذا يستطيع الانسان ، حتى بدون النعمة ، تجنب
الخطيئة وتحقيق كماله .

اعد كل شيء في التعليم والتربية بحيث تحقق ارادة التلميذ انتصار ارادة الله في ذاته ، وبحيث
يموت الانسان الصغير لنفسه ويتحول الى انسان جديد . ودُرب الولد والفتى على الركون الى
الهدوء ، وتجنب التأثيرات العنيفة ، كالخزن والجزع ، التي تشوش العقل وتضعفه ، واعتبار
الاحداث المفعمة وكأنها مرسلات من الساء لخيرنا الاعظم ، والانصراف ابداً الى التأمل والاستجمام .
وكانت فحوص الضمير ، الخاصة والعامة ، كثيرة جداً . فكان من الواجب الخلو بالنفس ،
واستبطان الحياة الداخلية ، واستجلاء الرذائل والنقائص الاخلاقية والشهوات والافكار الاثيمة
والمينول السيئة ، والقاء نور ساطع على منبع الشر ، وما كان الحل من الخطايا ليعطي البناء على
تمهد المعترف تمهداً صريحاً بالعمل على تقويم اخلاقه .

نظمت كل الحياة المدرسية بغية خلق عادة اخضاع كافة النشاطات لاوامر الضمير . ففرض

النظام الشديد ، في المكان والزمان ، كتهذيب يعود بالخير على العقل . واعتبرت الدقة في التقيد بالمواعد كتمرين للارادة يكبح جماح الهوى الفردي وجماح المخيلة ويروض الشهوانية . وتوجب التدريب على عمل ما يجب عمله ، لا عمل ما يرغب فيه الانسان . فرنة الجرس المؤذنة بالنهوض من النوم انما هي صوت الله الذي ينادي ، والتقيد بالنظام ، انما هو واجب التلميذ الاول .

وحفوظ على التهذيب كما على النظام . فحظرت الصيحات والقهقهات والاحتدادات لأنها اعتبرت تخلياً عابراً عن السيطرة على النفس . واعتبر التهذيب زهر الهبة : ان المسيحي يفضل الملك لأنه ابن الله . وكان من الواجب ملاطفة الآخرين و اظهار الهبة بمبادرات الجاملة ، وبالبسامة .

لم تكن كل هذه الانظمة اذن كجماً لجماح قوى داخلية ، بل توجيهها . والمنافسة كانت مذهباً وطريقة . فقد استنهض الشرف والعزة والطموح الى المجد ، ولكن هذه المفاهيم حوات نحو تحصيل مجد القديسين ومجد القادة الظافرين في خدمة وطنهم والتضحية بالذات على مذبح الدولة . وهكذا فقد علّمت الآداب الكلاسيكية بعد تكييفها وفقاً للذوق المصري ، وازيل الفاسد من مؤلفات المؤلفين الديويين ثم فسرت تفسيراً مسيحياً . وحصر الانتباه في فضائل الانسان الاساسية : العدل ، الوفاء ، احترام الوعود ، الشجاعة . وفي الاعياد المدرسية ، دارت مواضيع التمثيليات والخطب حول التاريخ القومي : جان دارك ، استيلاء الصليبيين على اورشليم ، استيلاء بودوين على القسطنطينية ، سجايا ملوك فرنسا ، الخ . وهكذا فان المسيحية لم تدين غرائز الطبيعة العميقة ، وهي من صنع الله ، بل نظمتها ووفقت بينها .

ان هذه المميزات جميعها : توجيه الالهواء القوية واستخدامها بعد تنميتها تنمية مطردة ، الاهتمام الشديد بالحياة الداخلية ، تشغل البال بما هو شامل وواضح ومتميز ، سيطرة العقل والارادة ، انما هي مميزات كلاسيكية . وقد اسهمت هذه التريبة الدينية اليسوعية الطراز في انطلاقة الكلاسيكية .

ان القواعد ليست الكلاسيكية ، مع ان اللبس بينها سهل الحصول .
الكلاسيكية الادبية :
القواعد والكلاسيكية :
افتخر الكلاسيكيون باحترام القواعد واستخدموها . ولكن
الكتاب الذين استمبدوا لها كانوا ضحاياها ، وربما خالفها كبار
الكلاسيكيين اكثر بما احترموها ، الا انها قد اسهمت في اصفاء بعض طباعهم على المؤلفات
الكلاسيكية . وهي اسهام في مقاومة الازمة نهض به اناس كلفوا بالنظام الاجتماعي كلفهم بالادب ،
ولكنهم اقتفروا الى القوة الخلاقة ، وهي ليست سوى مظهر خارجي وثانوي من مظاهر
الكلاسيكية .

أما منشأها فيعود الى تبني ارسطاطاليسية اصحاب النظريات الفنية من الايطاليين المولمين
بالفن الشعري ، من قبل الجيل الذي رأى النور حوالي السنة ١٦٠٠ واقضت مضجعه الحاجة الى

الوحدة . ويعود الفضل الأكبر فيها ، في فرنسا ، الى شابلين (١٥٩٥ - ١٦٧٤) . فعمل بهذه القواعد بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، ثم املت بعض الاعمال ابان اضطرابات منتصف القرن الى ان عمل بها مجدداً بين السنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ .

على العقل ان يراقب الفن ويبرر القواعد ويمنع الحرافات الخيلة ، القوة الدنيا المشتركة بين الانسان والحيوان . العقل ثابت وشامل ومسلم به في كل زمان ومكان . والدوق السليم هو العقل في وظيفته النقدية . العقل يميل على الفن غايته . وغايته تهيئية : تنقية الالهواء وتوفير الامثلة الصالحة والحكم الفراء . والعقل يميل قواعد من شأنها اتاحة خلق الجمال وابقاظ التأثيرات والعواطف المتوخاة . قاعدة استخدام الطبيعة : ولكن الواجب يقضي بالنسج على منوال طبيعة مثالية وانتقاء المميزات الواجبة الحفظ في الطبيعة الحام ، وابرازها وتنظيمها ، وبالنسج بصورة خاصة على منوال الطبيعة البشرية ، أجمل الطبايع طراً . قاعدة تقفسي القدماء ، لانهم يصفون في مؤلفاتهم الطبيعة المثالية دونما نقص والتباس . ومن الصواب على كل حال ان لا ننقل عن القدماء ألا ما يمكن تطبيقه على الزمن الذي نحن فيه . قاعدة الاحتمال العقلي ، وقياسها الرأي المشترك ، تنتهي الى ما يجري اعتياديا . قاعدة اللياقة : الامتناع عن الجمع بين الجسد والمزاج ، وتحلية الاشخاص باخلاق لا تتناسب وخصيصة ، والاخلال بالحشمة وآداب المجاملة ، وعرض الاختلاق البربرية والمستهجنة ، والقديمة . يجب الاعتدال في عرض ما هو مدهش وعجيب واقصاء الاعمال السحرية والمعجزات المسيحية . ويجب التقيد بوحدة الموضوع ، اي وصف موضوع تام واحد لا يمكن انقاص اي من أجزائه دون تفكيك الاجزاء الاخرى . ويجب التقيد تقيداً صارماً بوحدة الزمان والمكان . فلا يجوز ان تمثل المسرحية احداثاً تستغرق اكثر من دورة شمسية ، وقصة تمتد الى اكثر من سنة وقصة راعوية غنائية تدوم اكثر من ساعة . ولا يجوز اخيراً ان تتشابك الالوان ، المأساة والتمثيلية المهنزة المضحكة والمهزلة ، والقصيدة الجدية - المهزلية ، والقصة ، والشعر الراعوي والشعر الغنائي والشعر الهجائي : ان لكل من هذه الالوان نمطاً مثالياً يجب التقيد به .

حاول الفنانون الكلاسيكيون العمل بمقتضى هذه القواعد لانها سارت ومسام نحو الوحدة في اتجاه واحد . ولكنهم خالفوها مراراً كثيرة فتناولهم النقد العنيف . ولعلها أدت لهم خدمات جلي كصعوبة اضافية وجب التغلب عليها . فالفنان الحقيقي انما يبعث عن المادة الصلدة التي ترغبه على تركيز قواه . ولكن القواعد ليست الكلاسيكية . فالكلاسيكية حياة هي

انتجت الكلاسيكية خير ما انتجت في فرنسا . وقد حدها « ماليرب »
الكلاسيكية
وديكارت في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الى الوجود بفضل الجهود الخلاقة
الذي حققه كورناني وبلازك وباسكال وراسين وموليير وبوالو .

ان الكلاسيكية هي في الدرجة الاولى قوة داخلية ، وثبة حيوية ، ثورة أهواء ، حاجة

الى توفير القوة ، والى الانتاج والخلق . اذا كان الكلاسيكي اقل قوة ، فقد يغدو مستهجناً بسهولة كما يشاهد ذلك في مؤلفات ماليرب وكورناي وبوستويه في مراحل فتورهم وتكاسلهم . فعين يتغافل ذهن ماليرب نراه ينفخ الواقع ويشوهه ويفخمه ويضخمه كما فعل روبنس واذا كانت رحلة ماري دي مديسيس ، « الصيرفة الكبرى » ، من توسكانا الى مرسيليا ، رحلة طويلة وشاقة فمرد ذلك الى ان نبتون (اله البحر) الذي اصيب بسم الحب قد اراد الاحتفاظ بها في امبراطوريته . وحين تعود « شارلوت دي مونمورنسي » الى البلاط ، يقول بلسان هنري الرابع :

« لقد عادت هذه الكواكب المعبودة
التي يستمد اوقيانسي مدته وجزره منها »

ولكن قوى الكلاسيكية الداخلية ، اكبر من ان تبقى في اجواء الجلبة . فان قدرتها تتيح لها ان تجمل من الهدى حمة متلظية عن طريق المشاهدة في السكون الداخلي والتعمق الذي يربط بهذا الهوى شتى انواع البواعث . الهوى المسيطر يتغذى بغيره من الاهواء وينظمها . هذا هو مصدر المميزات الاساسية للمؤلف الكلاسيكي . فهو في الدرجة الاولى تركيز قوى . الكلاسيكي لا يضعف قدرته الداخلية بل يوجهها . يفني بعض الاهواء خوراً ويضعف بعضها الآخر بغية تحويل قوتها الى الهوى الرئيسي الذي يصبح بركانياً . يحمل من الاهواء الثانوية خدماً للهوى الرئيسي . الكلاسيكية هي القوة بمحدودها القصوى .

من هنا تنبع الوسائل التي تستطيع تحقيق تركيز القوى ومن ثم مضاعفة الحياة . الكلاسيكية علم سنن جمال الوحدة . والمؤلف الكلاسيكي ، كما كتب ديسكارت الى بلزاك في « الرسالة اللاتينية » (١٦٢٧) ، هو جهاز عضوي ، كل نابض بالحياة ، ترتبط جزئياته بالجموع ويتوجب على كل قسم من أقسامه وكل عنصر من عناصره التعاضد في سبيل بلوغ الفاية المنشودة ، اعني بها التأثير الواجب خلقه والحقيقة الواجب اثباتها . هكذا يتم وضع المؤلف . وهو ينطوي على منطق داخلي ليس رقة كلام مدرسية بل اكتشافاً لنظام عميق وطبيعي في الاشياء وفي تركيبها الداخلي وعلائقها الشاملة والضرورية يعبر عنه بفكرة عامة تتفرع عنها الفكر الثانوية ، فيحظر من ثم الخروج عن الموضوع وغمر الجوهر بتفاصيل لا طائل تحتها . يجب التوسع في ما هو جاف جداً ، وتخفيف ما يكون كثيفاً وملتبساً . ويجب ان يبرز المؤلف تقدماً تدريجياً منتظماً يظهر في الانتقال من برهان الى آخر ، ومن فترة ازمة الى اخرى يجب ان يكون الفكر منسقاً والتسلسل خالياً من كل عيب . يجب اقضاء ما هو تقريبي ، وما هو غير متلاحم ، والبرهان الرهمل ، والوقائع التي ترتبط ارتباطاً سيئاً بالجموع ، والاستدلالات التي ليست نتائج طبيعية للوقائع . ويجب ان تكون اللغة مهذبة وجلية وصحيحة .

الكلاسيكية حقيقة سامية . القوي يريد ما هو كائن . نيتشه احب القرن السابع عشر . الكلاسيكي يريد في الدرجة الاولى ، وفي كل شيء ، ما هو حقيقي ، لا واقع الظواهر ، بل

الحقيقة العميقة ، حقيقة مصادر الالهواء ، حقيقة علل الكون . هذا ما يفسر حرصه على النظام الذي هو التعبير عن النظام العميق في الاشياء . وهذا ما يفسر الحرص على التحليل الداخلي والهمة في استبطان ادق انواع العواطف والالهواء والارتقاء الى اسبابها الخفية . وهذا ما يفسر السعي وراء ما هو شامل وازلي ، اي اعنى ما هو حقيقي ، الذي يستحيل التعبير عنه اذا لم نبلغ التناسق والنبيل والعظمة والاتقان والانجاز والكمال . وهذا ما يفسر تجنب الغلاظة المضحكة والواقعية الغظة أو الشعبية التي تمت بصلة الى الاستهجان وتعمد الفظاظة السهلة . وهذا ما يفسر النفور من المجازات الشعرية . ففي « رسالته الاولى الى الملك » اظهر « رينيه » فرنسا توجه من أعلى الطبقات الهوائية ، خطبة الى الثائرين ، قال ما يرب عن زمن حدوث ذلك : فهو قد بقي في فرنسا منذ خمسين سنة ولم يلاحظ قط انها ارتفعت من مكانها . وهذا ما يفسر الحشمة في التعبير . فالكلاسيكي يبحث عن الكلمة التي تنطبق انطباقاً كلياً على الواقع دون ان تشوهه أو تضيف شيئاً اليه . لا بل يفضل البقاء دون الواقع والاشارة اليه اشارة فقط خوفاً من ان يحسمه . لذلك يجب البحث ابداً عن الكلاسيكي وراء تعبيره . وهذا ما يفسر اخيراً الحاجة الى الوضوح ، لأن الابهام لا يسمح بمعرفة ما اذا كنا على صواب أو على ضلال . المبهم قد يكون حقيقياً مثل الواضح ، ولكننا لا نستطيع التثبت من ذلك . الكلاسيكي يبذل ما بوسعه حتى يأتي فكره قريب المنال مباشرة ودون جهد . لذلك يتجنب اللبس والاضمار والتعريف والمفردات النادرة أو الغامضة والكلمات المأثمة والتعابير الفنية . فان ما أراده « ماليرب » ، حين طالب بحالي « بور اوفوان » لسياده ، لم يكن سوى رفض التعابير الصعبة ، لان اسياده كانوا في قاعات استقبال البرلمانيين ، في قصر « رامبويه » وفي البلاط . الكلاسيكي يريد لغة جليلة ، كلمة واحدة لفكرة واحدة ، ومعنى واحداً لكلمة واحدة . انه يبسط ويوحد ويحدد معنى الكلمات وتراكيب الجمل .

ان الكلاسيكية والحالة هذه حياة عميقة القرار . ولا عجب من ثم اذا ما ازدرى الفنانون بالقواعد الضيقة والمفصلة التي لا تستجيب لغاية المؤلف الكلاسيكي . فهم لا يسلون الا ببعض القواعد الكبرى العامة التي تفرضها طبيعة الأشياء ويقبل بها العقل البشري . وهم محدثون دونما وجل . يرفضون سلطة الاقدمين ويمعجبون بهم ويتذوقونهم في آن واحد ، ولكنهم لا يريدون منهم سوى الروح الحية ، لا الصيغ ، وجوهر مؤلفاتهم ، لا طرائقهم . الكلاسيكيون يبتغون الحرية ، ويهتمون في الدرجة الاولى للارضاء ، لان المطلوب هو ارضاء عالم محدود من الهواة في البلاط والمدينة الذين يعيشون الكلاسيكية ؛ فيغدو الاركان حينذاك الى ذوقهم وحكمهم ، والى روحهم الرقيقة بالترفضيل على روح النقاد الهندسية ، اكبر ضماناً لهم ، « القاعدة الكبرى بين كل القواعد هي الارضاء » ، حين نكون أمام جمهور كلاسيكي . لا بل ان الكلاسيكيين يخلقون اشخاصاً احياء خلقاً ثانياً . كما ان هوام المركز يحى في ذاتهم صور وعواطف اولئك الذين يكتبون عنهم . يعيشون حياة الاشخاص مرة ثانية ، ويتأثرون باهوائهم ، ويتصرفون ويتكلمون

ككل فرد منهم مداورة . اصف الى ذلك ان مبدأهم في الوحدة هو نفسه مبدأ الحياة . وليس من حياة دون مبدأ تنظيم الكائن الحي . فان اوغسطس واغنيس و «هرباغون» و «فيدر» يحيون حياة ازلية وشاملة .

ان هذه المميزات الاساسية توجد في الفن ايضاً . فلننظر الى بوسين (١٥٩٤ -
الكلاسيكية
في الفن ١٦٦٥) مثلاً . انه يحدد الفن الكلاسيكي في التصوير . في السنة ١٦٦٧ ،
حلل المجمع الملكي للتصوير لوحاته في اجتماعات خاصة عقدت لهذه الغاية كما
يفعل اللاهوتيون في تحليل نص مقدس . كان زينه من بين الاشراف والبورجوازيين : الملك
لويس الثالث عشر الذي كان بوسين رسامه الاول (١٦٤١ - ١٦٤٢) ، الدوق دي ريشليو ،
الدوق «دي كريكبي» ، رئيس المحاسبة «باشار» ، ناظر المالية «موروا» ، الصيرفي الباريسي ،
بوانتيل ، التاجران اليونانيان «سيريزيه» و «رينو» . ولكن زين هذا الفرنسي ، الذي قام
في روما منذ السنة ١٦٢٤ . كانوا من غير الفرنسيين ايضاً : البابا اوربانوس الثامن ، آل بربريني ،
صاحب المقام الرفيع «كاسيانو دل بوزو» ، الكاردينال مسيمي . وأما لوحاته المعدة للدور
الخاصة فوسيلة ثقافة للعقل .

كان شهبانياً تميز بالرغائب العنيفة ، المتنوعة ، المتناقضة . استهواه العري اللحم الجميل .
حسد حورياته وآلهاته يعقب لذة وتنعماً . احب الطبيعة . ففي لوحاته ، التي باتت قائمة جداً ،
يرى النظر تأجج الاقترع عند مغيب الشمس تأججاً بطيئاً يتميز بانواره المنعكسة الصبهاء . ولو
استسلم الى ميوله ، لانهى حتماً الى الاستهجان .

ولكنه يركز قواه . فهو ينشد الحقيقة أولاً . ويعرف ان طريق الوصول اليها هي الانطلاق
من الظواهر . يجمع معلوماته بضبط كلي . في السنة ١٦٣٨ ، اكتشفت فيسفاء «بالسرينا»
التي تمثل الاحتفالات المصرية . فعمد اذ ذاك ، وهي المرة الاولى والاخيرة في حياته ، الى احتذاء
مثالها . صور كل تفاصيلها ثم استلسخ هذا أو ذاك منها في لوحاته استنساخاً لا يتميز عن الأصل
وكأنه عالم آثار ينشر مكتشفاته . قاس ابعاد تمثال «انتينوس» و«ثايسل يونانية شهيرة
اخرى ليستوحى نسبها الصحيحة . استضاء بنور التاريخ ، فوجد في مؤلفات «بلوتارك»
التاريخ الصحيح لوفاة «فوسيون» ، أي ١٩ مونيخيون . وعلق بذاكرته ان الفرسان نظموا
يومذاك تطوافاً اكراماً لـ «زفس» . فأدخل من ثم ، في «مأتم فوسيون» ، موكب تزهوة
الفرسان بين الاشجار البعيدة تحت اسوار اثينا . وهو ، على غرار الكلاسيكيين ، لا يقبل
بالكذب ، «هؤلاء الشعراء يتقيدون بنظام اشبه بنظام العلماء» .

بيد ان بوسين ، وشأنه في ذلك شأن الاوغسطينيين وديكارت وكافة الكلاسيكيين ، يتخطى
الظواهر ويمجد في أثر المنطق الداخلي والمطابقات العميقة والنسب الضرورية وسنن الكون ، الى
ان يصل من بعدها الى مبدئها المشترك . «ان الفتيات الحسنات اللواتي يمررن في شوارع «نيم»

لسن دون جمال اعمدة « البيت المربع » بهجة للعقل لان الاعمدة ليست سوى صور قديمة للفتيات . فهو لا يستنسخ لهاب ، بل يلاحظ . ينظر الى الاشياء بقوة ويكثر من الملاحظات حول الابعاد والاشكال والالوان . ثم يترك الحس يتحول الى تمثيل ، والصور تتبسط وتتوحد ، والعنصر الاساسي ينبثق وينبعث . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يستلهم الصورة الداخلية ويرسم رسوماً اعدادية يبحث فيها لا عن مجرد التشابه بل عن النسبة العميقة . اصف الى ذلك انه يتم في الدرجة الاولى للانسان الداخلي ويبرز العواطف يحملات الاجسام ويعبر عن التحاليل السيكولوجية بالاشارات . ويؤنس المناظر الريفية حيث ترتدي الاشجار طابع الاعمدة .

يركز ويوحد ، شأن كل كلاسيكي . ان التصوير ، في رأيه ، هو قبل كل شيء اثبات وجود ارادة انسانية . « لا يجوز ان ترسم يد الانسان خطأ واحداً لم يتكون في عقله من قبل » . فبوسن يتجنب كل ذكرى وكل تقليد وحتى تقليد نفسه : يجب ان تخلق لا ان تعيد . ينضج موضوعه على مهل في ذهنه . يبحث اولاً عن « فكرة » اللوحة ، عن معنى ما يصور . ثم يترك جلبة الصور الداخلية تهدأ وتسكن الى ان تتراءى له كل النسب ونتائج الفكرة التي ينطلق منها . ينظم موضوعه بحسب المنطق الداخلي الذي يقتضيه اخضاع الاجزاء للفكرة العامة والتفاصيل للمجموع . ثم يقذف بما حققه في الداخل الى الخارج كما يفعل ديكارت في حقل العلم . وحين يشرع بالرسم يكون كل عمله منجزاً . وضمن اطار وحدة قوية ، يجمع في تركيب مترابط الاجزاء كل ما من شأنه خلق التأثير المنشود والتعبير عن الحقيقة السيكولوجية ويقصي كل ما يبددها ويعاكسها ويضعفها . كل شيء عنده مصدر اختيار معطل بغية بلوغ الخالص والصفاء . فلوحته « الطوفان » هي تصوير الصلاة المرفوضة وبأس الانسانية المهمة : الذراعان المرفوعتان في حركة المصلي يعبران عن الصلاة ، ولكن السماء الوحيدة اللون ، المقفلة ، المياء ، وتساقط الرماد الاربدة الماس ، بدلاً من تساقط المطر الطبيعي بالوانه اللامعة ، واخدود الوبيض الشاحب كل ذلك دليل غياب ورفض اجابة : ما عاد الله يعرف الانسان .

يتميز بكل ما يتميز به الكلاسيكي . فهو مليء بالحياة ، يتم ابدأ للارضاء ، ولا يسهر عن باله البنية ان غاية التصوير هي « الاستمتاع » ، التمتع بالضوء والاشكال . خبأ في لوحاته كنوزاً سيكولوجية صحيحة . تحلى بحشمة التعبير . قد تبدو لوحاته ، في الوهلة الاولى ، جامدة ومعتمة : ولكن لننعم النظر ؛ كل ما فيها يحيا ويشعل ويهتز كما لو كان التصوير يحتوي على « المطلق » الحي .

الاخلاق الكلاسيكية الكلاسيكية حياة . فهي لا تستلزم من ثم مفهوم جمال واسلوبا للبحث عن الحقيقة فحسب ، بل فكرة عن الخير ووسائل صنعه ايضاً . ولذلك فان علم الجمال يشمل منطقاً وعلم اخلاق ايضاً .

ان منطلق الاخلاق الكلاسيكية هو في ابتغاء القوة ، التي يريد الكلاسيكي قوة كلية .

فالكلاسيكي يريد ان يكون حراً ، اي ذا قلب لا تجد تعديات الغير وسهام القدر والاختافات والخوف من الموت الى قلبه سبيلاً . يريد ان يكون متفوقا . لا يريد ان يخضع الا لقراره الخاص وحكمه على قيمة الاشياء . فالكلاسيكي من ثم ينكش على نفسه ويركز انتباهه الى اهوائه والافعال التي تقترحها على ارادته ، ويصدر احكاماً حازمة ومحددة على هذه وتلك وعلى قيمتها بالنسبة لارادته . ويقابل في حوار داخلي بين الدوافع والمبررات والنتائج . ويقرر الاختيار بحكم يعين ما هو صالح ومرغوب فيه . ويصوغ حكمه مبادئ واضحة رزينة معدة لان توجه كل الاهواء نحو ما حكم هو بصلاحه . قد يسيء الكلاسيكي الاختيار وقد يخطيء في حكمه ، فيندفع اذ ذاك نحو الجريمة . ولكن مبدأ الاخلاق هو في التقيد بالحكم . ومرد ذلك ، في حال اقتضاح بطلان الحكم ، الى ان الموضوع ينقلب او يتحول ، كما حدث لاوغسطس « وسناً » و « اميليا » . وفي تصميمه هذا على فعل كل الاشياء الفضلى ، يجد الكلاسيكي سعاده القصوى :

ايها الحظ ، مهما تكن الشرور التي يوجهها جفاؤك الى
فقد امتديت الى وسيلة لاستخلاص البهجة منها .

(هوراس)

ان هذا التصميم الحازم الثابت على العمل بوحى حرية الارادة ، هو الفضيلة السامية ، النجاة المنبثقة من تفوق قوة البطل ، النجيب . القوة الداخلية تدفع بالنجيب لان يخرج من ذاته ويب نفسه ويحب . ويحب النجيب في الآخرين ويريد في الآخرين ، قبل اي شيء آخر ، خير ما عندهم ، اي نجابتهم الخاصة ، وحرية ارادتهم الخاصة ، ويسمو بحبته شيئاً فشيئاً نحو الكائن ، الواحد المطلق الحرية ، المطلق النجاة ، اعني به الله . وتنتهي الاخلاق الكلاسيكية الى اخلاق محبة وانعتاق ، كما نرى ذلك في التدرج الجميل الذي يقود من الـ « سيد » ، عن طريق « هوراس » و « سناً » ، الى « بوليكت » . الواجب يقود السيد الى قتل والد خطيبته ، ويقود هذه الاخيرة الى المطالبة بموت من تحب ، وكل ذلك بوحى نخوة بطولية ترفض الضعف وتضن بكرامة العائلة : الفضيلة هنا هي هبة الذات حتى الموت في سبيل ما يعتبر خيراً . ثم يحقق هوراس تقدماً الى الامام . ينقطع بكلبته لسولته ، لاستقلالها ، لسلامتها ، لمظمتها ، ومن ثم حرية مواطنيه الجماعية . وهو لا يحيا الا في سبيل الدولة ، ولكنه يقدم فرحاً ، بوحى ذلك ، على قتل ثلاثة اشخاص يحبهم . ثم يحقق اوغسطس تقدماً آخر ايضاً . يريد ان يسيطر في نفسه ، نهائياً ، على الخوف والانتقام . لا يريد الانتصار الا بفعل حرية ومحبة متفوقتين ، يريد ان يوقظ ، في سناً وفي اميليا ، محبة الخير الحقيقي والمنافسة ، اي الرغبة في ان يصبغا نظيره . ويستسلم « بوليكت » اخيراً بلاء ارادته الى الله ، الكائن الكامل ، الذي يوفر للانسان النجيب ، اكثر من المرأة والوطن والانسانية ، موجبات الخدمة والتفوق على النفس وتناسي الذات . المحبة الالهية تحول نفسه . بولين تخضع

لسلطتها ، فتتخلى عن محبة « ساويروس » ، وتندفع في محبة بوليكت لانه يحسد المثل الاعلى الذي كانت تهواه وتبحث عنه ، ولانهما تراه كما تتوخى هي ان تكون . « بوليكتي ... » : فبوليكت هو هي لانه كما تتوخى ان تكون . « صور كورناي البشر كما يستطيعون ان يكونوا ، كما يكونون » ، عندما يصممون بشجاعة على ان يكونوا بشراً .

انطلق الكلاسيكي من الاخلاق الارستوقراطية والبطولية ، ولكنه تعمق فيها واندفع نحو الحقيقة السامية بفعل القوة الداخلية . فتوصل الى اخلاق كافة البشر مها كانت طبقتهم وجنسهم وزمانهم وبلادهم ، الى الاخلاق المطلقة الحقيقية ، النابعة من اعماق ما في الانسان الذي تتمتع بحرية ارادته بقوة لا حدود لها ، الى الاخلاق الانسانية .

٣ - الكرتزيانية (الديكارتية)

ابتكر ديكارت المذهب الاجالي والعلم الشامل الضروريين لاجهاز هزيمة ثقافة ديكارت الارسطاطالينية بالحلول عليها . ولد في فرنسا وانتسب لعائلة بورجوازية كانت في طريقها الصاعدة نحو طبقة الاشراف . كان اجداده من جهة ابيه اطباء وابوه مستشاراً في برلمان بريتانيا ، ووالد جده من جهة امه وكيلاً عاماً لحكمة بداية « بواتيه » . طمعوا كلهم بان يصبحوا فرساناً وغالباً ما اعلن ديكارت انه احد اشراف بواتو الريفين . تلقى تهذيب طبقة الاشراف في كلية « لافليس » للآباء اليسوعيين . وبعد ان تلقى بعض الدروس القانونية ، عاش عيشة اشراف الجندية وخدم في جيش « موريس دي ناسو » في السنة ١٦١٨ ، وفي جيش « موريس دي بافير » في السنة ١٦١٩ .

منذ هذا العهد ، وعلى غرار غاليليو ، أخذ يعالج العلوم الطبيعية بالرياضيات ، وفي تشرين الثاني من السنة ١٦١٨ ابعد صورة الثقل الجوهرية ورد الثقل الى الحركة . ومنذ سنة ١٦١٩ - ١٦٢٠ كان قد وضع أسس علومه الطبيعية في منهجه وفي ذهنه وردها المادة ضمناً الى المساحة فقط . ولكنه ، شأن كل معاصريه ، لم يتوصل بذلك الا الى مزيد من الشك والارتباك والتشويش . الا انه كان انساناً متديناً جداً ، فبدا له ان هذا الوضع اثقل من ان يتطرق الى التأمل ، في أحد المسكرات الشتوية ، في جوار « اولم » ، بعد تنويع الامبراطور . ورأى هنالك ، في العاشر من تشرين الثاني ١٦١٩ ثلاث رؤى في منامه . سمع ازيز الصاعقة فأفاق من نوميه ورأى شرارات نارية منتشرة في الغرفة . ففسرها بانها روح الحقيقة النازلة عليه لتسلط عليه . ثم رأى « مجموعة قصائد » . فرأى فيها الشعر والحكمة مجتمعين معاً لان حمية الشاعر هي فيه حضور الهي يظهر له الحقيقة فوق ما يظهرها العقل للفيلسوف . في بحران الصوفية هذا ، تجملت له حقيقة رسالته : البحث في ذاته عن مبادئ العلم لانها فينا مثلاً مطبوعة ؛ خلق العلم الشامل بتطبيق البرهان الرياضي على ظواهر الطبيعة ؛ وضع النظام الحقيقي للكون . في اليوم

التالي توسل الى الله كي ينيره ويرشده في البحث عن الحقيقة ، ونذر على نفسه للعدراء القديسة ان يزور « لوريت » سيراً على الأقدام .

في السنوات التالية ، وضع أسس منطقته وعلومه الطبيعية الرياضية . ولكن توجب عليه تبرير هذا العلم الجديد ، وفي الوقت نفسه ، وضع أسس اليقين والايان بالله . يروى انه قصد القاصد الرسولي في باريس في شهر تشرين الثاني من السنة ١٦٢٧ ، وطلع أمام بيرون بأراء لفتت انتباه هذا الاخير ، وان بيرون انذره بتنفيذ مشروعه وجعل له من هذا التنفيذ واجباً ضميرياً . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان ديكارت كان منتصباً الى الحركة الاوغسطينية . وكان بيرون ، وتلميذه « جيببوف » و « سيلون » ، في ما كتب بين السنة ١٦٢٦ والسنة ١٦٣٤ ، ومرسين ، اخلص اصدقاء ديكارت منذ صدور « مسائل حول التكوين » في السنة ١٦٢٣ ، قد تبنا رأي افلاطون في المثل المطبوعة لانه اضمن وسيلة لاثبات وجود الله . فانضم ديكارت اذن الى جماعة لن يلبث ان يستلم قيادتها . انطوت الكرتزيانية على حركة صوفية كما حدث للحركة البيشاغورية من قبل . السبيل الى وضع اسس علم جديد شامل هو محبة المطلق وروح المغامرة والشغف والحرارة في البحث ، والقلق ، والتمسش الى الجدة ، وهي سمات كبار الصوفيين فالصوفية التي تقول بمر كزية الله والكرتزيانية حركتان متوازيتان يجمع بينهما المصدر نفسه والارتباطات والمميزات عينها .

في السنة ١٦٢٥ ألفت ديكارت لمنهجه الخاصة كتاب « قواعد توجيه العقل » ثم لجأ الى هولندا حيث أقام من قبل ، ليتمكن من الهجاز عمله الكبير . وجد في هذه البلاد الرأسمالية الحريات التي تؤمنها بوجوازية تدين بها « في وسط جماهير شعب كبير قوي نشيط يهتم لشؤونه الخاصة فوق اهتمامه لشؤون الغير » ، استطاع « المشي في عزلة واختلاء لا يتوفران الا في الصحاري النائية » . ومنذ السنة ١٦٢٩ ، حرر فيها « التأملات » التي تتضمن أسس تعليمه حول ما وراء الطبيعة .

لم يبق ديكارت ، شأن « مونتاني » والملاحدين ، في حالة رخية من الارتباب . هدف ديكارت
احداث علم سام
فكما كان يشبهه بسوء مقاصد الملاحين الذين ينقلونه ويستل سيفه ويواجه
الخطر الذي يستشفه ويخضعهم لارادته ، نرى هذا الجندي الذي لا يتنازل
عن نبلة الريفي يواجه اكبر المسؤوليات الفكرية والاخلاقية وينقض على الصموبة . يستخدم
الشك محكاً ويذهب به الى اقصى حدوده حتى يرى ما اذا كان كل ما بناء سينهار أو سيبقى منه
بعض اليقين الذي يتيح الحياة . فانما هدفه العمل ، اي « المعرفة الواضحة الثابتة لكل ما هو
نافع للحياة » . وهو يريد ذلك للجميع كما لنفسه . ولما كان نجيباً ، فهو يعمل لكل الناس حيث
نرى الملاحدين الارتبابيين المزدرين بالجماهير والمهتمين لانفسهم فقط يشنون كهمهم على الحقائق التي
يمتقدون بانهم اكتشفوها لانهم اعتبروا انفسهم المؤهلين الوحيدين للتمتع بها . وقد كرس ديكارت

كل حياته في سعيه وراء الحقيقة زاهداً في الثروة والمراتب الرفيعة وكل شيء ، مجاهداً العقبات والمحاولات الظاهرة والعداوات . فقضى حياته كلها في هذه المطاردة : فاما الاهتمام الى اليقين والله ، واما كلثة الظلمة والعدم ، اما كل شيء واما لا شيء . ان هذا الانسان لعظيم بعقله بين العظماء ، ولعله اعظم بقلبه ايضاً . وقد احرز نجاحاً رائعاً بتوصله الى ان يسمو مثل الشريف الرضي الاعلى ، حتى البطولة ، بليل البورجوازي الى المعرفة العملية وبالعناد البورجوازي في السعي وراء النجاح .

في الخامس من حزيران ١٦٣٧ ، صدر عن مطابع « جان مير » ، في مؤلفات ديكارت « ليدن » ، كتابه « خطاب حول اسلوب توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم » ، يضاف اليه بحث انكسار النور ، والنيازك ، والهندسة ، التي هي اختبارات لهذا الاسلوب ، الذي يقع في ٥٢٧ صفحة . أما الخطاب فمقدمة بشكل اعترافات على طريقة القديس اوغسطينس . وقد دان للمحاولات العلمية الثلاث بشهرته الواسعة وبأثره ، لأن ديكارت على نقيض « بيكون » قد قدم العلم الذي بشر به واسلوبه قد اوجز استخدامه ، والتطبيق الحسي قد أتاح ادراك المعنى الحقيقي والعميق للقواعد التي صاغها صياغة على بعض الابتذال . وانه لمشين حقاً ان يعاد طبع الخطاب ، في ايامنا ، دون الاختبارات . فالخطاب ، مع الاختبارات ، يتضمن جوهر آراء ديكارت . وهو قد اوضحها واكملها في كيان « تأملات حول ما وراء الطبيعة »^(١) (١٦٤١) وكتاب « المبادئ » المعد لطلاب المدارس وكتاب « اهواء النفس » اخيراً ، تضاف اليها رسائل وافرة تلفت الانتباه من بينها تلك الموجهة الى « اليزابت دي بوهيم » .

ان ديكارت مصمم على انجاز العمل الذي تراجع امامه غاليليو : الارتقاء الى العلم الشامل المبادئ الاولى للعلم الجديد ، العلوم الطبيعية الرياضية ، واستخلاص علم شامل منها : الفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها علم ما وراء الطبيعة ، وجذعها العلوم الطبيعية ، واغصانها المتفرعة من هذا الجذع كافة العلوم الاخرى التي ترد الى ثلاثة علوم رئيسية : الطب ، وعلم الآليات ، وعلم الاخلاق .

الاسلوب اسلوبه هو جوهر التفكير الرياضي . على الذهن ان يدرك الحقيقة بالحدس الذي هو ادراك ذهن صريح ويقتض ، لا يحققه سوى نور العقل ، ولا يبقى معه اي ارتياب لأنه ادراك يتصف بالمزيد من السهولة والتميز والجلاء . أما نموذج هذه الآراء الواضحة فهو الآراء الرياضية من هذا الحدس يستخلص الذهن النتائج بالضرورة ، وعن طريق الاستدلال ، في حركة تفكير متواصلة مرتقياً ، بحسب العقل الرياضي ، من ابسط الأشياء الى اكثر التركيبات تعقيداً . ولا يلجأ الى التعداد أو الاستقراء ، اي البحث عن كل ما يتعلق بمسألة معينة ، الا اذا

(١) تأملات ميتافيزيقية ، تأليف رنيه ديكارت ، صدرت في منشورات عويدات بالنصين الفرنسي والعربي . (الناشر)

استحال رد معرفة ما الى الحدس . فالقضايا المستدل بعضها مباشرة من البعض الآخر ترد ، عند كل خطوة ، الى استقراء حقيقي اذا كان الاستخلاص جلياً . أما اذا كان الاستخلاص انطلاقاً من عدد كبير من القضايا المنفصلة ، فلا يعود الادراك كافياً للاحاطة بها بحدس واحد . ويصبح التعداد ، آنذاك ، امراً واجباً . ثم ينشئ الذهن ، بين الاشياء الخاصة ، علائق ذات نسب واضحة ، ويقارن هذه العلائق احداها بالآخرى ، وينظمها فنان بحسب ترتيب انشائها ، بحيث ترتبط كل منها بسابقتها وتعين لاحقتها .

الشك المنهجي ديكارت يبحث عن يقين . فيرى نفسه محاصراً بالشكوك . كان طفلاً قبل ان يصبح رجلاً . مهذبوه حشوا منه الرأس بالمفاهيم الغامضة . وتراكت لديه مفاهيم اخرى عن طريق الحواس . ولكنه اختبر ان حواسه تخدعه أحياناً ، فلا يستطيع من ثم ان يركن اليها . فليجأ مرغماً حينذاك الى عملية يتوجب على كل انسان اجراؤها مرة في حياته : الشك في كل شيء الى ان يصادف شيئاً لا يرقى اليه الشك . وهكذا يستند ، عند الانطلاق ، الى تأكيد تفاضلي : قيمة العقل البشري كمحك لما هو حقيقي . لانه لو توصل جسدلاً الى ان كل الأشياء مشكوك فيها ، لما كان توصل الى ذلك الا بالنسبة لشيء غير مشكوك فيه ، ولما كان علم بان كل شيء مشكوك فيه ، الا لأن كل شيء لا ينطوي على مميزات ما هو حقيقي . لذلك فانه يقر ، كمبدأ اساسي مسلم به ، ان هنالك ما هو حقيقي وان العقل حكم في ذلك . ان تلميذ اليسوعيين هذا يثق بالانسان كما يثقون .

ديكارت يشك في كل شيء . ففرقته وطاولته ومصباحه : حلم ؛ ويداه وذراعاها وجسمه : اوهام . لا وجود لشيء . وليست كل الأشياء سوى طيف يبتكره جنّ خداع . ولكنه اذا شك ، وانكر وجود كل شيء ، وأصدر حكماً ، وكونت قوة ادراكه فكراً وانكرت ارادته وجود هذا الفكر كشيء خارج عن ذاته ، فمن الضروري الطبيعي ان يكون هو ، وهو من يفكر ويتصور ويؤكد وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس ، موجوداً . « افكر ، اذن انا موجود » . ان هذه الحقيقة الاولى ليست قياساً توفر كبراه ، اي « كل ما يفكر موجود » ، جردة الكائنات المفكرة ؛ وصغراه ، أي « انا افكر » ، تحقق الفكر في الفرد ديكارت ؛ ونتيجة اي « انا موجود » اثبات وجود الفرد ديكارت . بل هي الادراك المباشر في ذاته بفضل المعرفة الطبيعية ، هي توقع (حدس) وجود ارتباط لا يرقى اليه الشك ، بين هذين الواقعين : افكر ، وانا موجود . بالفعل نفسه ، وفي الوقت الذي يتوصل فيه الى حقيقة يستحيل الشك فيها ، يمكنه هذا الحدس من قاعدة اسلوبه الاولى : كل الافكار التي يدركها العقل في ذاته دفعة واحدة بكل جلاء ووضوح ، على ضوء النور الداخلي الساطع ، هي حقيقية ، وكل ما يراه ، بكل جلاء ووضوح ، مختصاً بشيء ما ، يختص في الواقع بهذا الشيء : افكر ، اذن انا موجود ؛ $2+3=5$ ، الكل اكبر من الجزء ، الخ . فيجب من ثم ان ينطلق من الداخل الى الخارج ، من الذهن الى الاشياء .

الافكار المطبوعة
الله
ضمانة العلم

اذن يحذف ديكارت في ذاته افكاراً . قد يصدر بعضها عن حكمه الخاص الذي
تؤلف الارادة بواسطته بين توقعات قوة الادراك . ولكن هنالك افكاراً
اخرى ، كفكرة المساحة والحركة والديمومة ، هي شرط لا بد منه لغيرها ،
ولا يمكن تخيلها الا افكاراً اولية ، او وحياً داخلياً ، او افكاراً مطبوعة .
وهنالك افكار ، كفكرة اللانهاية التي لا يمكن ان تصدر صدوراً اكيداً عن الانسان ديكارت ،
الكائن الناقص المتناهي ، ولكن يجب ان تنطوي العلة على القدر ذاته الذي ينطوي عليه المعلول .
لذلك فان افكار اللانهاية والكمال لا يمكن ان يضمها فيه سوى كائن هو نفسه لامتناه وكامل
اي الله . الانسان يعرف اللانهاية والكمال قبل اي شيء آخر ، ولا يعرف ما هو متناه الا بعد
ذلك . ان هذه الافكار تثبت وجود الله . ان مجرد فكرة الله تثبت وجود الله . لان الله يتحلى
بكل الكمالات ، فهو من ثم يتحلى بكمال الوجود . الوجود يدخل في جوهر الله . فن جوهر
المثلث الزوايا ان تساوي زواياه الثلاث زاويتين مستقيمتين ، لا ان يوجد خارج فكري الذي
يدرك هذا الجوهر . اما الله فيستحيل علي ان افكر به جوهرأ دون ان افكر به موجوداً ،
ولكن الله كامل ، وليس من ثم بجذاع . اذن كل ما ادرك وجوده يجلاء ووضوح موجود حقاً .
اذن العالم الخارجي موجود . التركيب الرياضي للعالم حقيقي . وجود الله هو في الاساس من
حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية .

ديكارت يعرف نفسه كفكر ، كشيء يدرك ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس .
وهو موقن من وجود هذا الشيء دون حاجة منه لأن يعلم ما اذا كان هذا الشيء مرتبطاً بجسد .
فيستخلص من ذلك ان هذا الشيء مادة لا أبعاد لها ، أي النفس ، التي تستطيع ان تبقى دون
الجسم ، والتي لا يدركها فساد الاشياء التي تحددها الأبعاد ، وانه من ثم دائم البقاء . ولكنه
موقن من ان له جسماً ومن ان هناك أشياء خارجية ، لانه يشعر ، حين يتخيل ادراكه هذه
الاشياء بما هو صلب ورخي وبارد وساخن ولذيذ ومؤلم ولا يتعلق بإرادته ان يشعر به او لا
يشعر ، لانه يفرض نفسه عليه فرضاً . أضف الى ذلك ، من جهة ثانية ان الله ليس خداعاً . فوجود
الله هو من ثم في الاساس من واقع العالم الخارجي .

للفكر والأبعاد
ما هي معلومات ديكارت الثابتة عن هذه الأجسام ؟ لنأخذ قطعة من الشمع .
انها جسم جامد ذو شكل معين ولون معين ورائحة معينة . انها صلبة .
تحدث صوتاً معيناً اذا قذف بها الى الطاولة . لندنها من الحرارة . فترتخي وتذوب وتصبح سائلاً
ويتغير لونها وتفقد رائحتها ولا تعود تسمع صوتاً وتحتل مساحة اكبر . لنخضعها لمزيد من الحرارة .
فلن تلبث ان تتحول بخاراً . على اننا نستمر في القول انها شمع على الرغم من تبدل كل ما يقع
تحت حواسنا . ونحن نعلم بانها شمع لا بالنظر ولا باللمس ولا بالشم ولا بشيء آخر غير الفحص
الذهني . ان ما يعرفه ذهننا معرفة اليقين في الاجسام هو مادة تتسع طولاً وعرضاً وعمقاً . وتقوم
طبيعة المادة بهذا الاتساع طولاً وعرضاً وعمقاً . كل ما هو فكر يوجد في الله وفي النفس غير
متسع ، غير متجزئ ، غير هولي ، غير قابل للفساد ، دائم البقاء . وكل ما هو جزء متسع

طولاً وعرضاً وعمقاً وقابل التجزؤ الى ما لا نهاية له . فيتوجب من ثم ، عند درس الاجسام ، اقضاء كل ما قد يشبه الروح ، وحتى كل ما هو صفة الصلب والرخي والحار والبارد الخ . لأن كل ذلك ليس سوى تأويل في حواسنا للواقع الذي هو غير ذلك . ان حواسنا لا تعلم الا بما هو مفيد ان نعلمه عن الاشياء لا بما هي عليه في الواقع . واقعها هو الاتساع والحركة اللذان يقبلان القياس . لا بل ان الطريقة الصحيحة لمعرفة قياستها . وهكذا فان المعرفة الصحيحة للطبيعة هي رياضية . ولكن في الهندسة بعض النوعية ايضا . فيجب اقضاؤها ورد كل شيء الى الكمية . الاتساع المرسوم هو موضوع الخيلة . اما موضوع الادراك فهو الكمية الخالصة . ديكارت يعبر عن الخطوط والمنحنيات بالأرقام ، وعن النسبة القائمة بينها بالمعادلات . يدخل فكرة الحركة التي اعوزت الهندسة اليونانية . يحدد مكان النقطة في المسطح بابعادها عن محوريه الثابتين . تختلف هذه الأبعاد باختلاف مكان النقطة . تنسق فكرة التمثيل الهندسية مع فكرة المتحولين الجبرية في معادلة تقبل عدداً غير محدود من القيم في آن واحد . فيصل بذلك الى مفهوم الدالة ويبتكر احدى ادوات العلوم الطبيعية العصرية ، اعني بها الهندسة التحليلية . الرياضيات هي جوهر الواقع . فهي تلفت الانظار الى النظام العميق الذي يسير الكون . حقيقتها مبنية على وجود الله . وهكذا تأيدت تعاليم غاليليو ، وأمن ديكارت في الوقت نفسه ثار افلاطون من ارسطو .

علم الآليات الشامل كل جسم يحتل جزءاً من الفضاء . وباستطاعته ان يحتل مكاناً آخر . ولكن الفضاء الذي غادره لا يبقى فارغاً بمعنى هذا التعبير المألوف . الفضاء الموصوف بأنه فارغ لا يمكن تصوره الا بأبعاد الطول والعرض والعمق : فهو من ثم شيء متسع . وهكذا يجب ان ينظر الى الكون كله كما الى شيء ملآن . الاتساع الكوني يقبل التجزؤ الى ما لا نهاية له دون ان نستطيع التوصل يوماً الى تصور ذرة لا تقبل التجزؤ . فالذرة من ثم غير موجودة . اما ما يوجد فصغريات اجزاء الاتساع المتباعدة والامتداد المتنوعة الاشكال والمليئة بالسام . في هذه الأجزاء وفي ما بينها توجد مادة رقيقة جداً ومائعة جداً تمتد دونما انقطاع في كل الكون . الله يعطيها الحركة التي تنتقل في هنية وإحدة الى كل مكان . الله لا يقبل التغير ، وكمية الحركة ثابتة اذن في الكون ، ومن عدم قابلية الله للحركة ومن بساطة العمليات الالهية تنجم سنن الحركة ، سنن المجاد ، لا يستطيع اي جسم ان يبدل من ذاته حالة حركته او سكونه ؛ سنن الحركة المستقيمة المتساوية السرعة ، وسبع سنن لتسام الاجسام بعضها ببعض الآخر .

من هذه الحركات ينجم تنوع الاشياء في الكون . الكون حقل آليات واسع الارحاء . فالنور مثلا ليس سوى حركة في الاجسام المضيئة ، تنتقل بسرعة كلية وبلعان كلي الى اعيننا . النور يرسل اشعته في برهة واحدة من الشمس اليها ، كما يحدث للاعمى الذي يسترشد عصاه ، اذا عملت الاشياء المحيطة به في طرف عصاه ، ينتقل عملها حالا الى طرف العصا الآخر . وهكذا فلا فائدة في تفسير الرؤية من اللجوء الى الصور الصغيرة المرفرفة في الهواء ، أو الانواع العممية ، كما يدعوها الفلاسفة . ان هذه الاشعة الضوئية تكون مستقيمة كل الاستقامة حين لا تمر الا في جسم

شفاف واحد . أما اذا صادفت اجساماً اخرى فتتحرف عنها ، كما تنحرف حركة الكرة أو الحجر . هذه المقارنة بحركة الكرة وجراً ديكارت في تحليل القوى قد ساعدته على ان يوضح كيف ان عمل النور يخضع لسنن الحركة نفسها ، وان عمود المرآة ، في الانعكاس ، هو منتصف الزاوية المتكونة بالشعاع الملتقي بالمرآة والشعاع المنعكس ، وان الشعاع الملتقي بكأسرة الاشعة والعمود والشعاع المنكسر تكون في سطح واحد وان جيب زاوية الالتقاء ، حين يمر الشعاع من الهواء الى الماء ، يبلغ $\frac{4}{3}$ جيب زاوية الانكسار . وهكذا فقد ردت سلسلة من الظواهر الطبيعية الى حركات مادية وجدت صيغة سننها .

الحركة الآلية شاملة . الماء والارض والهواء والاجسام كلها مركبة من عدة اجزاء صغيرة متباينة الاشكال والاحجام تفصلها مسافات مليئة بمادة رقيقة ؛ الاجزاء الصغيرة المستطيلة الملساء الزلجة تكون الماء . الاجزاء غير المهندمة والمعقبة تكون الاجسام الصلبة ، كالارض والحشب الخ . . المادة الرقيقة تتحرك باشعة الشمس فتتحرك بدورها الاجزاء الصغيرة التي تهز دقات اعصابنا وتجعلنا نشعر بالحرارة .

ان المادة الرقيقة الموجودة في مسام الاجسام الارضية ، التي تحركها اشعة الشمس بقوة ، تحرك بدورها الاجزاء الصغرى في هذه الاجسام ، التي لا تجد حينذاك مكاناً يتسع لحركاتها ، فترتفع في الهواء كما يحدث في السهل للغبار الذي تثيره اقدام المارة . هذه الاجزاء الصغيرة تكون الابخرة والنفثات المتصاعدة ، والغائم المختلفة على انواعها . اذا انخفضت هذه الغائم فجأة تسبب في حدوث وعاصفة ، واذا هبطت غمامة على اخرى ، نجم عن هبوطها الرعد والبرق والزوابع والصاعقة .

المادة الرقيقة تملأ الفضاء الكوني . وتتحرك حكماً تحركاً دائرياً ؛ ان جسماً الزوابع يغادر جزءاً من الفضاء ليحتل آخر يطرد جسماً آخر من جزء الفضاء الذي يبلغه ، لان الكون ملآن ، والجسم الآخر يطرد جسماً ثالثاً ، وهكذا دواليك الى ان يحتل جسم اخير جزء الفضاء الذي تركه الجسم الاول المتنقل فارغاً . فالحركة من ثم دائرية حكماً . لذلك فان الكون مليء بزوابع المادة الرقيقة التي تحمل النباتات حول الشمس . هذه الزوابع تفسر كل الحركات التي وصفها كوبرنيك وكبلر وغاليليو وهارفي .

كل شيء آلي اذن في العالم ، وليس في علم الآليات سوى عناصر هندسية أو شبه هندسية .

الحيوان - الآلة
نفس . الحيوانات آلات محضة . للانسان وحده نفس ولكنها متحدة بآلة .
والانسان - الآلة

يوجد في الانسان انسان - آلة يقابل الحيوان - الآلة . ليست النفس ما يعطي الجسم الحرارة والحركة ، والموت لا ينجم عن انفصال النفس عن الجسم ، بل عن فساد احد اجزاء الجسم الهامة . حرارة الجسم تقلل كثافة الدم انشط الاجزاء حياة تصعد الى تجاويف الدماغ ، حيث تنفصل ادق الاجزاء رقة وتكون التأخير الحيوانية . هذه التأخير تمر ،

كالنسيم البالغ الرقة ، في انابيب صغيرة ، الاعصاب ، وتتوزع لتحريك العضلات ، الاشياء الخارجية تحرك الاعصاب التي تحرك الدماغ ، وهكذا تتجه التأشير الى بعض العضلات بالترتيب على سواها . وهكذا تدور الآلة دونما حاجة الى نفس .

ليس في النفس سوى افكارنا .. ان حركات الدماغ التي تسببها الاشياء
الاهواء والارادة الخارجية أو حركة اتفاقية للتأشير الحيوانية تستطيع ايضا ان تُزَيِّن النفس عواطف مختلفة هي أهواؤها . أما اعمال النفس فهي ابتغائها . النفس متعددة بالجسم كله دون ان تحتل منه جزءاً معيناً . بيد انها تعمل بصورة خاصة في الدماغ بواسطة الغدة الصنوبرية . فهي تستخدم هذه الغدة لتدفع بالتأشير الحيوانية ، عن طريق مسام الدماغ ، نحو العضلات التي تريد هي تحريكها . وكذلك تحرك التأشير الحيوانية التي تفعل في النفس وتولد فيها الاحساسات ثم تولد ، بناسبتها ، الاهواء : الاعجاب ، المحبة ، البغض ، الشهوة ، الفرح ، الحزن ، الجراءة ، الخوف . الاهواء تحدو بالنفس الى ابتغاء الاشياء التي تعد لها الجسم : فالخوف مثلاً يحث على الهرب .. وهي كلها صالحة في طبيعتها .

الا ان ارادة الانسان حرة . ولا يمكن البتة ان تحمل على شيء اكراهاً . تستطيع استخدام اهوائها بـ « احكام حازمة وجازمة حيال معرفة الخير والشر » . تستطيع اثارة هوى أو اقصاء آخر بتمثلها « الاشياء التي تربط عادة بالاهواء التي رغب فيها والتي تناقض ما نرغب في رفضه » . فلا تارة الجراءة في ذاتنا واقصاء الخوف « يجب الاجتهاد في تبصر الاسباب أو الأشياء أو الامثلة التي تقنعنا بان الخطر ليس عظيماً ؛ وان الضمانة في الدفاع اكبر منها في الهرب ، وان في احراز النصر عزة وبهجة وان عاقبة الهرب ندامة وخزي ، وما الى ذلك » . وهكذا فان فكرة الخطر ، بدلا من ان تكون مرتبطة بكان الغدة الصنوبرية التي تمهد الطريق أمام التأشير الحيوانية بحيث تعد العضلات للهرب ، تنتهي الى الارتباط ، بفضل العادة ، بكان الغدة التي تعد العضلات للمعركة . فيكون الانسان قد بات شجاعاً . وبإستطاعة كل فرد على بعض المهارة ان يغير حركات الدماغ ويحقق السيطرة المطلقة على كافة الاهواء وبلوغ السعادة .

سبيل السعادة الوحيد الينا هو الفضيلة . وتقدم الفضيلة في التوق الى الاشياء
حرية الارادة
التي تتعلق بنا ، اي بحرية ارادتنا . لقد ارادت العناية الالهية ، بقرار ثابت منزله عن الضلال ، ان تتعلق بعض الاشياء بحرية ارادتنا وان يحدث لنا بعضها بضرورة حتمية . فيجب علينا من ثم ان ندرك مقصدها ونحصر اهتمامنا باستخدام حرية ارادتنا ونبتهج بهذا الاستخدام مهما كان من أمر النتيجة . اذا كانت لنا حرية الاختيار بين طريقين اثبت الاختيار ان احدهما اضمن من الثانية ، يجب ان يحدو بنا عقلنا الى اختيار الاولى حتى اذا كان من مقاصد " اية الالهية ان نعرض فيها للشيء " ، ونعتبر انفسنا سعداء ، بعد

السرقه ، لاننا سلكننا بوحى عقلنا . على الانسان ان لا يهتم الا الى تتميم كل الاشياء التي حكم عليها بانها الفضلى « فيسر بذلك سروراً يبلغ من عظمتها في اسعاده ان اعنف جهود الاهواء تعجز ابدأ عن تمكيد طمأنينة نفسه . فالانسان لا يستطيع ان يعتبر ذاته الا بسبب استخدام حرية ارادته التي تجعله شبيهاً بالله من زاوية معينة . ويكون الانسان نجيباً حين يدرك انه لا يملك سوى هذا التصرف الحر بابتغاءاته وانه لا يستحق المديح أو اللوم الا اذا احسن أو أساء استخدام حرية ارادته وان عليه « ان يعزم عزمًا حازماً وثابتاً على ان ... لا تعوزه الارادة في مباشرة وتنفيذ الاشياء التي سيحكم بانها الفضلى » ، وهذا يعني الاهتمام بالفضيلة اهتمام كلياً . ومن المستطاع التوصل الى النجاة بالتأمل في فوائد العزم الحازم على حسن التصرف بحرية الارادة وفي بطلان الهومو التي يشغل بها الطماعون . هكذا يتمكن المرء من ان يشير في ذاته هوى النجاة التي تاق اليها الكلاسيكيون .

ان المذهب الكرتزياني ، ولا سيما فكر ديكارت ، قد احرزا انتصاراً . فان انتصار ديكارت بوسويه و « سينوزا » و « مالبرانش » و « ليبينز » وكافة العلماء ، لا بل كل من تحلى بذرة تفكير ، كانوا تلاميذه او تأثروا بنفوذهم . اصف الى ذلك ان الندوات الاجتماعية نفسها قد اولعت بالكرتزيانية لا سيما بعد السنة ١٦٦٠ . فقد ديكارت « ذاك الآدمي المائت الذي لو عاش في ايام الاقدمين لجمعوا منه الها » (لافونتين) . وان رينري الذي لقن مذهبه في « دقنر » و « ليدن » قد دعا « نوري وشمسي والهي » ، ووصفه « هيرورد » بانه « اعظم الفلاسفة وحارس الحقيقة والفلسفة وحرية الفكر ، ومنقذه والمنقمة لها » (١٦٤٧) . وقد تلاكم الطلاب من اجل آرائه . ودرج هويجنس العالم الهولندي الكبير على القول : « لم يولد مثيل له في يوم من الايام » مقدماً بعض البراهين على نجاحه الشامل :

« ان ما نال كل الرضى ... حين اخذت هذه الفلسفة بالظهور ، هو ان الناس كانوا يفهمون ما يقوله ديكارت ، بينما كان الفلاسفة الآخرون يستعملون كلمات لا يفهم منها شيء البتة ، كتعابير الصور الجوهرية ، والانواع العمدية الخ ، ولكن ما فرض فلسفته قبل كل شيء هو انه لم يستمر في اثاره الاشمزاز من الفلسفة القديمة ، بل اقدم على سد مسد الماضي بعلم يمكن ادراكها انطلاقاً من كل ما هو موجود في الطبيعة » .

وفعل ديكارت اعظم من ذلك . اعاد الى الانسان مبررات الحياة والنضال والخلق . اهتدى الى اليقين واعاد الثقة بارادة الانسان وعقله ، وبقيمة العلم ، ووطد الايمان بالله والامل بحياة ازلية سعيدة ، واحيا الوحدة في الانسان الذي بات لديه تفسير عام للكون ، بسيط في مبدئه ، ومثل اعلى لحياة داخلية منظمة في هدوء حرية الارادة المطلقة . وجاز الاعتقاد بانه اعاد اساس الديانة المسيحية ، كما ارتأى بوسويه فترة من الزمن . كما جاز الاعتقاد بانه برر مفهوم البطل ، المرتكز السيكلولوجي للملكية المطلقة ، وانه حين شدد على تفوق المؤلفات الموضوعة من قبل شخص

واحد وعلى ترتيبها وثناسقها وكألها ، وحين هاجم معارضيه وشرع بمفرده في إعادة بناء صرح الفلسفة والعلم ، انطلاقاً من مبدأ مسلم به ، أنها كان متفقاً وروح السلطة المطلقة .

٤ - الملكية المطلقة

كانت السلطة المطلقة أمنية الجماهير التي رأت خلاصها في جمع
السلطة في يدي إنسان يحسد المملكة ويكون رمزاً حياً للنظام
والوحدة المنشودين . وأراد الناس كلهم ان يروا في الملك صورة
الله : « انت اله على الارض .. » وقد انضم الى هذا المفهوم ، لدى اناس كثيرين حلم علماء الادب
القديم : يجب ان يكون الملك بطلاً يتعشق الجهد ، على الطريقة القديمة ، يحمي الآداب كاوغسطس
ويحمي الكنيسة كقسطنطين ويسن القوانين كجوستينيانوس ، على ان يمتاز « بحب تفضيلي
للاسلحة » لأن « صفة الفاتح تعتبر أنبل واسمى الالقب » برأي كل المعاصرين .

ومن حيث ان الملك وكيل الله ، فهو سلطة سامية . « الامير السامي يسن القانون ، فهو
من ثم لا يقع تحت سلطة القانون » . يتصرف كما يطيب له التصرف . وينتج عن ذلك ان للملك
« حقاً طبيعياً في التصرف تصرفاً مطلقاً بجميع الممتلكات ، سواء عادت للعلمانيين أم للكنسيين ،
بغية الاستفادة منها كما يفعل الحكماء المقتصدون ، اي بحسب حاجيات الدولة » : السلامة العامة
تتقدم حق الملكية ، وينتج عن ذلك ايضاً ان الكنيسة تخضع للملك ويتوجب عليها ان تدفع له
الاثوات على املاكها التي اعطيت لها « لخير المملكة العام » وينتج عن ذلك اخيراً :

« ان عظمة الضباط هي لمان عظمة الامير المطلقة ، كما ان عظمة الامير السامية هي شعاع
عظمة الله المطلقة ولعنانها » .

فقدت المقارنة بالشمس امراً طبيعياً ، وليس ما فعله لويس الرابع عشر سوى اصرار على
رمز ملكي قديم .

ولكن الملك ، صورة الله ، يجب ان يكون « عناية الهية » على الارض . عليه ان ينشر
العدل « تلك الامانة الثمينة التي أودعها الله ايدي الملوك كاسهام منهم في حكته وقوته » .
عليه ان يسمو الى الكمال بكل من المهن التي تكون المجتمع ، لأن « لكل منها وظائفها التي
يصعب جداً على المهن الاخرى ان تستغني عنها .. لذلك يتوجب علينا لا ان نعتقر احدي
هذه الحالات أو رفع احداها على حساب غيرها ، بل الحرص على ان نسويها كلها ، اذا
امكن ذلك » الى الكمال اللائق بها ، وهذا هو المثل الاعلى لمجتمع يوجه فيه العمل الاجتماعي
وتنظم المهن بحسب حاجات الانسان . وعلى الملك اخيراً ان يحمي الضعفاء و « ييدي للشعوب
الحاضرة لنا مظاهر العطف الابوي نفسها التي يديها الله لنا كل يوم » ، و « لا يتم بشيء فوق
اهتمامه بوقاية الضعفاء من ظلم من هم اقوى منهم ، وبتأمين المزاء للفتاحين في بؤسهم » .

سلك لويس الرابع عشر بمقتضى هذه الآراء ، ولكن هنري الرابع ولويس الثالث عشر لم يكونا اقل منه تصميمًا على ان يكونا البطل والسيد المطلق و « العناية الالهية » .

مارس الملك سلطته ممارستين مختلفتين بحسب المهود . فعين اسلوب الحكم الوزاري
واسلوب الحكم الذاتي
يكون قليل القدرة ، كلويس الثالث عشر ، او حديث السن جداً ، كلويس الرابع عشر بين السنة ١٦٤٣ والسنة ١٦٦١ ، يقوم حكم وزاري ، حيث رئيس الوزراء ، كالكردينال دي ريشليو والكردينال مازارين ، في فرنسا ، والكونت - الدوق اوليفاريس ، في اسبانيا ، الخ ، يحكم باسم الملك ، ويؤدي له حساباً .
وحين كان هذا الملك لويس الثالث عشر ، لم يكن هذا الاسلوب قاعدة :

« ان السيطرة على كافة ساحات الوغى في اوروبا لاسهل علي من السيطرة على مكتب الملك » .
ولكن الوزير ، في أيام الاقطاعية والتبعية هذه ، يسلك سلوك وزير الملوك في اواخر عهد الميروفنجيين . يحيط الملك برجاله ويعين اتباعه الخالص في المناصب الهامة ويؤسس سلالة ويحمل من انسابه مشيري فرنسا وقادة بوارج ودوقية وامراء ، ويزوج بنات أشقائه وشقيقاته الى الامراء الملكيين ، ويملك ، كريشليو مثلاً ، مراكز محصنة ، ك « بروج » ، و « له هافر » ، يوصي بها لورثته . ويتصرف ببعض الجيوش ، فرقة مشاة وفرقة اشراف ريفيين . فيرى الملك ضباطه يتخلون عنه شيئاً فشيئاً ويدخلون في خدمة الوزير ، كما يرى مستقبل قريباً يمسى فيه وحيداً وعاجزاً امام وزيره الذي يدين له الجنود بولايتهم ولا يستطيع فرض سلطته على المملكة الا بواسطة الوزير ورجاله . لذلك كانت وفاة الوزير فرجة للملك .
وهكذا ، فان لويس الرابع عشر ، الذي بنى مذهباً مما مال اليه هنري الرابع بالفطرة ، عزم على ان يكون هو بالذات رئيس وزرائه ويلم وحده بكافة الشؤون ويكون الشخص الضروري الوحيد : فانتهى به ذلك شيئاً فشيئاً الى حياة بيروقراطية منتظمة ومنظمة في سبيل خير انتاج . « كان بالامكان ، بواسطة التقويم والساعة ، معرفة ما يفعله ، على مسافة ٣٠٠ عقدة منه » . كما انتهى به الى الانفراد ، في « فرساي » ، في قصر ومدينة لم يكن تشييدها لاجل عمل الملك اقل منه لاجل دعاوته وملذته . أراد البعض ان يروا في هذه الحياة البيروقراطية تقليداً لاسبانيا ، بينما هي ظهرت ، في الواقع حيثما اتسعت السلطة المطلقة . فمردها من ثم الى الضرورة .

في عهد الحكم الوزاري ، ترتبت الانظمة . ولكن توسع الانظمة كرس حقوقاً لبعض اناس خطرين ، المعظام ورئيس الوزراء . فدبر لويس الرابع عشر حركة ارتداد الى الوراء
تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحكم الذاتي
مستغلي الجو للارادة الملكية . ما زالت الحكومة ، في عهد الحكم الوزاري ، اختصاص عائلة ونسب والقباب ووظائف . يدخل المجلس الاعلى اعضاء الاسرة المالكة والامراء الملكيون

والدوقية والامراء والمستشار وناظر المالية . الوزراء يتسلمون وظيفة تسند اليهم بشهادات رسمية يمنحها الملك « تقييهم » فيها وتجعلها « ملكا » لهم . فأحدث لويس الرابع عشر ثورة حقيقية . اقصى عن المجلس الاعلى كل من قد تحدته نفسه بسلطة سياسية بالاستناد الى نسبة او لقبه او وظيفته . تناول تدبيره ، في الدرجة الاولى ، امه وأخاه والامراء الملكيين : فزالا عن الحكومة صفتها العائلية وامست ذاتية حقاً . ثم تناول مستشار فرنسا والاحبار وكبار الاسياد . وتناول أخيراً كبار الموظفين . فأمناء السر لم يمينوا كلهم وزراء . ولم يعد مركز الوزير حالة دائمة . وليس من بعد لا رسائل ولا شهادات ملصكية باسناد وظائف الوزراء . يصبح المرء وزيراً حين يدعوه الملك الى مجلس الوزراء بواسطة أحد حجابيه ، ويفقد منصبه حين يكف الحاجب عن دعوته . وفي بعض الساعات يتداول الملك في شؤونه مع من يناسبه من الرعية . ليس لاحد غير الملك حق مكتسب في الحكم . كل شيء مركز في شخص الملك .

بذلت في عهد الحكم الوزاري جهود كبرى لتنمية آلة السلطة الملكية ، اي المجلس . فحدث فيه اقسام جديدة ، مجلس البرقيات للداخل ، ومجلس الوعي . أما القسم السياسي ، اي مجلس الشؤون أو المجلس الاعلى ، والاقسام الادارية ، اي مجلس المالية ، ومجلس الشورى والمالية ، والمجلس الخاص ، فقد سبق وحددت اختصاصاتها وادخل على وظائفها توزيع اجده واجدى . بيد ان لويس الرابع عشر ، بالمقابلة ، قد وقف موقفاً حذراً من المجالس . وحين اتضح له انه لا يستغني عنها ، حاول اقصار اعمالها على ما هو شذوثة ونسق مطرد . واخذ يعمل وحده مع كل من امناء سر الدولة ومراقب المالية العام على التوالي . كما اخذ يبت في كافة الشؤون الهامة التي لم تعد لتمر أمام المجالس الا مروراً شكلياً ، أو لا تمر البتة . وصدرت الوف القرارات المجلسية حاملة ، « بأمر المجلس » ، توقيع احد امناء سر الدولة والمستشار ، دون ان يعلم بها المجلس الاعلى أو مجلس البرقيات أو مجلس المالية الملكي .

ووقف الملك موقفاً حذراً من وزرائه وأمناء سر دولته ايضاً . فاعاد النظر في تقسيم العمل وحاول اثقال اعباء العمل حيث تتشابك الامور بحيث لا يستطيع اي اختصاصي اقامة المقبات في طريق ارادته . واوجد الخلاف بين معاونيه واوغر ضدورهم غيظاً بعضهم على بعض ورمى الفتنة فيما بينهم و« اشعل نار احسادهم المتبادلة » ورأى في كوابير و« لوتليه » ضمانته لسلطته .

ان المعضلة التي واجهها الملك في العهدين لم تكن الفوز بطاعة رعاياه فحسب ، بل باخضاع ضباطه انفسهم لارادته ايضاً ، لا سيما وقد غدوا مستقلين بفضل بيع الوظائف ، وبممارسة ملء السلطات التشريعية والقضائية و« البوليسية » أو الادارية .

لجأ الملك ، في سبيل بلوغ هذا الهدف الى الاوامر الملكية بالسجن
الارامر الملكية بالسجن
ومفوض الشرطة السياسية
التي يملن بها مباشرة عن ارادته للأفراد أو الهيئات . فبموجب
هذه الاوامر ، يوقف الملك من يشاء أو يسجنه أو ينفيه؛ ويعاقب
الابن أو الزوج على سوء سلوكها بناء على عريضة تتقدم بها العائلات ؛ ويستدرك المقاومات ،
ويقاص مثيري الفتن والمتآمرين مع العدو دونما محاكمة . واذا تكلم الملك نفسه ، فما على الرعية
سوى الانحناء أمام سلطته ، مصدر العدالة الشرعي .

ولجأ الملك لجوءاً مطرداً الى مفوضين يعينهم ويعزلهم على هواه ، وما مستشارو الدولة في
المجالس الادارية سوى مفوضيين على كل حال . وفي عهد الحكم الوزاري ، منح الملك هذه المجالس
صفة « الفرقة الاولى » في المملكة واولاها سلطة على المحاكم المعروفة بالمحاكم العليا ، حتى في
حال غياب الملك . كان باستطاعة المجالس ، منذ السنة ١٦٣٣ ، ابطال كل قرار ، حتى ولو كان
صادراً عن المجالس التمثيلية ، اذا ثبت ان صدره يتنافى والانظمة أو السلطة الملكية أو
المنفعة العامة أو حقوق التاج . كما كان من حقهم طلب المعاملات والبت بها وحرمان المحاكم العليا
من وظائفها . أما في عهد لويس الرابع عشر ، فقد ابقى على سلطة هذه المجالس ، اقله كإسم
وهي مفيد ، لان قرارات المجلس غالباً ما تنبثق في الواقع عن الملك ومعاونيه المباشرين ، أي
امناء سر الدولة ومراقب المالية .

خلال العهدين ، توطدت سلطة الملك على المحاكم العليا ، على الرغم من انحصار عملها في مجلسه
مبدئياً ، في السنة ١٦٤١ ، احتفظ لنفسه شرعاً بحق الاطلاع على شؤون الدولة ، وانزل عدد
الاعتراضات الى اثنين قبل التوقيع في المعاملات المالية ورفضها بعد التوقيع في شؤون الدولة .
واحتفظ لويس الرابع عشر لنفسه ، مرة اخرى ، بشؤون الدولة ، وفرض على المحاكم العليا ،
في السنة ١٦٧٣ ، توقيع المراسم حالاً كما ترد عليها ؛ ولا تقبل الاعتراضات الا مرة واحدة
وبعد التوقيع فقط . فآثرت المحاكم ابداء رأيها . وهكذا وجدت المحاكم العليا نفسها مقصاة عن
السياسة العامة وعن المسائل الدستورية . فتمززت بالفعل نفسه سلطة الملك في الحقل السياسي
وسلطته التشريعية المطلقة ، ومن ثم قدرته على فرض الضرائب على هواه والتصرف بالاموال
المجموعة دون تأدية حساب . واتيح للملك ان يطلب الى لجان تشكل من بين اخصائه وضع
قوانين (النظام المدني في السنة ١٦٦٧ ، والنظام الجزائي في السنة ١٦٧٠ ، والنظام التجاري في
السنة ١٦٧٣) اعطاها الملك وحده قوتها التشريعية دونما تسجيل ، ودونما استشارة احد من
الموظفين المسؤولين ، ودونما اسهام من قبل الهيئات الخاصة ، وانطوت على نزعة واضحة الى
الوحدة والمساواة وجاءت عملاً ثورياً حقيقياً .

عين الملك لجاناً من المجلس للحكم في قضية والتأكد من تنفيذ مرسوم ، كغرفة الد ارسنال ،
في السنة ١٦٣١ ، واللجنة التي حاكت حكام « لاشابيل » وال « شاتليه » بعد معاهدة الصلح

في « كوري » ، الخ . ولم تكن هذه اللجان مجرد اجهزة تحضيرية ؛ بل أصدرت في الواقع احكاماً مبرمة .

واستخدم الملك وكلاء جيش ووكلاء قضاء وشرطة ومالية . كان هؤلاء ، في الدرجة الاولى مفتشين كلفوا مراقبة الضباط ورعايا الملك وتأدية حساب عن ذلك للمجلس . وكان باستطاعة المجلس حينذاك ؛ اما الفصل في القضية بموجب حكم ، واما اعطاء الوكلاء السلطات الضرورية للفصل والحكم والتشريع . وكان من ثم باستطاعة الوكيل حضور مجلس الحاكم وابداء رأيه ، وتروؤس المحاكم القضائية ، واصلاح القضاء من حيث الأنظمة ، والتثبت من ان الضباط ينفذون مهام وظائفهم ، وكف أيديهم في حالة السلب ، وتلقي شكاوى رعايا الملك ، وإحقاق حقهم بواسطة القضاة . وتروؤس الوكيل جمعية المدن وراقب الانتخابات واستثبت ديون الجمعيات وسهر على تطبيق الأوامر والأنظمة : فكان ذلك مقدمة للصيانة الادارية . وراقب الوكيل جباية الضرائب ، وتصدر مكاتب المالية ، وسهر على تطبيق الأنظمة والقوانين، ولكنه لم يتمتع بسلطة عامة مطلقة وبحق اصدار احكام من الدرجة الاخيرة الا في حالتين : اختلاسات ضباط المالية؛ الجمعيات المنوعة ، العصيان ، الفتنة ، تجنيد الفرق .

وكان الوكيل اداة طيبة جداً . وكان باستطاعة المجلس ، في أيام الحرب أو الأزمات الداخلية ، اعطاؤه صلاحيات واسعة جداً تجعله يقوم بكافة مهام الضباط ولا يترك لهم سوى الاسم فقط . في هذه الساعات العصيبة يقيم الوكلاء ، بمساعدة رؤوسهم ، ادارة مفوضين في وجه ادارة الضباط . ولكن الحكومة الملكية ، وریشليو وكولير ، يعتبرون هذه الفترات فترات استثنائية وضرورات مؤسفة . ويحاول الملك في زمن السلم الاحتفاظ بالوكيل ويميل أبدأ الى توسيع صلاحياته في دوره التفتيشي . يحظر عليه الحلول محل الضباط ، ويرغب اليه في مراقبتهم فقط ، ويوجب عليه ، اذا ما قصرُوا في واجباتهم ، اطلاع المجلس على ذلك وانتظار الحصول على الصلاحية اللازمة لمعالجة أوضاعهم .

ولجأ الملك الى عمل بوليسي سياسي ، مارسه الوكلاء والجواسيس والعملاء المنتشرون في كل مكان ، في باريس حيث عينهم حاكم الباستيل ، الوكيل المجرم ، ثم وكيل الشرطة العام « لارني » ، منذ السنة ١٦٦٧ . وكان يكفي ان يساء تفسير كلمة واحدة حتى يمسى المرء في الباستيل ، دوقاً كان ام خادماً . وقد استند الوكلاء والمجلس الى دلائل واهية حتى يوجهوا التهم بالجناية على الملك ، وكان الحكم يصدر بالاستناد الى مجرد ظنون لان ریشليو ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر قد جاهرُوا بان الحصول على براهين حسابية في موضوع التآمر يكاد يكون مستحيلاً وبأن انتظار الحدث يؤدي الى ضياع كل شيء . لا بل لقد لجأ الملك الى السجن الوقائي ، غير المحدود بزمان ، بمجرد كتاب مهور بخاتمه .

وامن تنفيذ الاوامر الملكية جيش من المرتزقة تدفع لهم اجورهم بانتظام ويخضعون لنظام صارم.

لويس الرابع عشر
سيد أوحده

ما عاد لويس الرابع عشر ليقبل ، في كل الوظائف الهامة ، كوظائف الوزراء وامناء سر الدولة والمراقب العام ، الخ .. سوى « بالخلصين » الذين يقومون بخدمات منزلية بالإضافة الى وظائفهم العامة وينقلون على غرار كولبير مثلاً ، رسائل الملك الى عشيقاته أو يستلمون منهن ، عند الولادة ، أولاد الملك غير الشرعيين. وقد لجأ الى الشواعر الاقطاعية، ولكنه اراد ان يكون هو مرادها وغايتها. وأراد تحقيق السلطة المطلقة بربط كافة الفرنسيين بالملك ربطاً مباشراً ، بواسطة رباط ذاتي ، كما ارتبط الفداديون بسيدهم . وأراد أن يكون السيد الأوحده المطلق أو اقـله الحامي المطلق ، كل الميـون شـاخـصة اليـه وحده ؛ واليـه وحده ترفع كل الاماني ؛ هو وحده يتقبل كل احترام واعتبار ؛ وهو وحده محط كل الآمال ؛ وبدونه لا يطلب ولا يسمع ولا يعمل شيء. ينظر الناس الى نعمه كما الى المصدر الوحيد لكل الخيرات ؛ ولا يؤمنون بالارتقاء الا بمقدار تقريهم من شخصه واعتباره ؛ وكل ما عدا ذلك جذب ومحول . روابط المواطف والمصالح كلها تتوجه الى الملك الذي يحسد من ثم اماني رعاياه وآمالهم وبذلك ، كما بممارسته السلطة الذاتية ، يركز الدولة في ذاته ويحقق في ذاته وحدة الدولة ، كما يعد رعاياه ، باستغلال مشاعر قديمة جداً ، للانتقال الى مفهوم الدولة المجرده . وهكذا فان لويس الرابع عشر قد أعد الدولة العصرية بواسطة روااسب القرون الوسطى .

الاستفادة من البورجوازية .
اعد الملوك الدولة العصرية باعداد طبقة اجتماعية على اخرى و برفع البورجوازية في السلم الاجتماعي . فخلال القرن ، اختار الملك وزرائه ومستشاريه ووكلاءه ، اكثر فأكثر ، من بين رجال القانون البورجوازيين . خلائقه هذه « تنحدر من عامة الشعب » ولكنها « تعظم فرق كل عظمة » . رفع الملك الى طبقة النبلاء « لوتلييه » وكولبير وجعل منها مركيزين اي سيدين يسميان باسم اراضيها ، على غرار « لوفوا » و « بربريسو » و « كرواسي » و « تورسي » وخلق سلالات تنتمي الى الوزراء من الانساب والانسال « البورجوازيين » الذين استفاد من قوتهم في وجه الانساب والانسال النبلاء . في السنة ١٦٩٥ ، احدث قائمة الضريبة الشخصية وزراء الدولة في الطبقة الاولى وساوت المستشار ومراقب المالية العام بالامراء الملكيين . وارتفعت في الأقسام الادارية التابعة لمجلس شورى الدولة نسبة رجال القانون . فقد حدد نظام السنة ١٦٧٣ عدد المستشارين الأصليين بـ ٢٤ مستشاراً من رجال القانون و ٣ من رجال الكنيسة و ٣ من اشرف الجندي . ويحذر لفت الانتباه هنا ، بصدد هؤلاء الاخيرين ، الى ان شرط العدد المعين من درجات النبيل لم يعد وارداً : فقد بات باستطاعة ابن أحد رجال القانون من النبلاء أن يتولى هذا المنصب . وفقد الدوقية والأمراء ، شيئاً فشيئاً، مراكزم بين المستشارين الذين كان لهم الحق ، قانوناً ، بعضوية المجلس الخاص لا بل ان قانون السنة ١٦٧٣ قد اهل ذكرهم امالاً تاماً . وحصل مستشارو

الدولة على حق الارتقاء الى طبقة الاشراف الذي جاز انتقاله الى انساب الدرجة الاولى . وكانوا بعد ذلك يقدمون الى الملك مع نسائهم ويسمح لهم بالتزلف اليه ، وتملكوا الاقطاعات ففسدوا اسياداً . وغالباً ما اختار ابناؤهم عمل الجندي وخدموا في فرق الملك ، اقله لفترة معينة ، قبل ان يدخلوا عالم الوظيفة . وهكذا فان الملك قد رفع رجال القانون المكرسين لخدمته رفعاً مطرداً وجعل منهم اشرافاً . ففقدت خدمة الملك ، الذي يحسد الدولة ، رويداً رويداً ، مقياس تصنيف طبقات المجتمع .

رديش النبلاء
تذمر الاشراف من تصرف الملك هذا ، فهم يحتقرون هؤلاء «البورجوازيين» وقد دمدم «سان - سيمون» قائلاً : «كان هذا الملك ملك بورجوازية حقيرة» . وتألموا من تسوية بين الطبقات اقدمت عليها دولة حصدت المقاومات حصداً . فالسجون ملأى بالسجناء المرموقين : الكونت «دي كرامين» ، والمرشال «دي باسومبيير» و «باراداس» احد المقربين الى لويس الثالث عشر . لذلك حاول الملوك ان يوفروا لطبقة النبلاء المراتب الرفيعة وسبل العيش . فاحتفظوا لهم بمناصب الحكام وبمعدد وفير من رتب الجيش ولاشقاؤهم بمعظم الوظائف الكنسية ، وادخلوهم في خدمتهم ، وارسخوا في ذهنهم روح النظام والطاعة ودرروهم شيئاً فشيئاً على حياة الوظيفة . واتم لويس الرابع عشر تنظيم البلاط . فجمع حوله في «سان جرمين» و«فونتينبلو» و«فرساي» كافة ذوي الشأن من النبلاء . واجهز على ثروتهم بتعاقب خدمتهم الباهظة الاكلاف في المعسكرات وبجباتهم البذخية في البلاط . ولم يتورع عن خوض غمار الحروب كي يوجد لهم عملاً وظروف مجد وشهرة . واسترقهم بما خصهم به من معاشات وأمهار وخيرات كنسية . «قد يحدث اثناء التزلف الى الملك ان يجد المرء نفسه تحت ما يلقيه» كما قالت مدام «دي سيفينييه» بوصفها كلباً أميناً . ووفر لهم تعويضاً سيكولوجياً . ففي سلسلة من الاعياد المدهشة الفائقة كان الملك يظهر بشباب إله الاولمب وافراد حاشيته بشباب الآلهة الثانويين أو الابطال . واستطاعوا بذلك نقل سراب حلمهم بالقوة والمظمة الى تقليد حياة الخالدين هذا مرتفعين فوق الانسانية العادية وخاضعين ، اذا وجب الخضوع ، لـ «الرب جوبيتر» ، الملك الاله . وعلمتهم آداب البلاط ان يروا في الملك كأنه يفوق قدرة البشر . ودرج الرجال على رفع قبعاتهم أمام سرير الملك ، والنسوة على الركوع كما يفعلن أمام المذبح في الكنيسة . وتباهى الامراء الملكيون بالامساك بكم قميصه عند نهوضه من النوم . واحيط نهوضه ونومه ووجباته وحياته كلها بمراسم حافلة بمظاهر الاحترام والتكريم . وقد عبر احد رجال البلاط عن كل شيء اذ قال ، حين وفاة لويس الرابع عشر : «بعد وفاة الملك ، جاز تصديقي كل شيء» .

وتجد الإشارة هنا ، من جهة ثانية ، الى ان آداب البلاط ، والبلاط نفسه ، لم تكن تمثل بما شوهه آنذاك في اسبانيا بل فرضها الوضع الاجتماعي وطبيعة الاشياء .

وهكذا فإن الملك ، بفضل تقسيم الوظائف بين الطبقتين ، والاحتفاظ بأهمها للطبقة الدنيا ، أي البورجوازية ، وبفضل رفع هذه الأخيرة رفعا مطردا وإيقافها في وجه الطبقة الأخرى ، الأعظم قوة ، قد أعاد الصراع الطبقي الى نقطة توازن بين الطبقات أمنت سلطته الشخصية وأمنت الوحدة والنظام في الحكومة والدولة . أضف الى ذلك أنه اعتمد التسوية والمساواة ، أكثر فأكثر ، في خدمة الدولة والخضوع التام والطاعة العمياء ؛ ولعله اضطر الى ذلك اضطرارا بفعل الازمة والحرب دون ان يستهدف تغيير نظام المملكة اجتماعياً . ففدت سلطته ، مع لويس الرابع عشر ، مطلقة وثورية .

حاول ملوك سلالة ستيوارت في انكلترا تحقيق السلطة المطلقة ، واستطاعوا المثال الانكليزي الى ذلك سبيلا خلال فترات طويلة . فقد حكم جاك الاول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) حكم الملك المطلق الصلاحيات الى حد بعيد . وكرر شارل الاول محاولته من بعده (الاستبداد ، ١٦٢٩ - ١٦٤٠) . ويمكن ان يعتبر شارل الثاني ، منذ السنة ١٦٧٩ ، أي بعد الثورة (١٦٤٠ - ١٦٦٠) والاصلاح ملكا مطلق الصلاحيات عمليا . وقام جاك الثاني (١٦٨٥ - ١٦٨٨) بالمحاولة الأخيرة . وقد سعى كلهم ، باستثناء شارل الثاني ، ليس وراء السلطة المطلقة عمليا فحسب ، بل وراء جعل السلطة المطلقة نهائية بتحويلها الى وضع قانوني .

اراد ملوك سلالة ستيوارت عن طريق السلطة المطلقة ان يوجهوا التطور ملوك سلالة ستيوارت نحو الرأسمالية ويبقوا على التوازن بين الاسياد المحافظين ، والمزارعين والدولة والفقراء ، وبين الطبقات الرأسمالية أو الطبقات المرتبطة في حياتها بالرأسمالية . وفي رأي ملوك سلالة ستيوارت ومستشاريهم من امثال « لود » رئيس اساقفة كنتربري ، وعضد الاستبداد ، ان الدولة انما هي تعبير زمني عن الموجبات الروحية . « الله والملك لم يهبنا التزير اليسير الذي نملك الا لاجل استعماله في خدمة قريبتنا » . وما هدف الحكومة الاخير سوى المحافظة على التعاون الوثيق بين مختلف اجزاء جهاز المجتمع . لكل من هذه الاجزاء ، أي لكل طبقة ، وظيفة محددة يتوجب عليها القيام بها ، على ان يؤمن لها بالمقابلة مستوى حياثيا يتناسب ومرتبها في السلم الاجتماعي . فيتضح من ثم ان ملوك سلالة ستيوارت كانوا معادين للحزب السياسية : « الاحزاب تستهدف ابدأ غايات خاصة » . وكانوا معادين للأفراد الذين تمرقل مصالحهم الشخصية لتحقيق الخير العام ، ومعادين للفردية الاقتصادية المفقوتة والفردية الدينية ، التي تفوقها فظاعة ، لان الدين يجب ان يكون اداة في يد الدولة لتنفيذ مهمتها . وهذا ما يفسر عطف ملوك سلالة ستيوارت على الكنيسة الكاثوليكية التي نظرت نظرات مائتة الى المجتمع والتي كان باستطاعتها وضع امكانيات تنظيمها تحت تصرف الملك .

كانت اداة الملك مجلسه الخاص المؤلف من مستشارين يمينون ويعزلون كما المجلس الخاص يطيب للامير ويلزمون باطاعته اطاعة كلية . بلغ اعضاؤه ، حوالي السنة ١٦٣٠ ، ٣٨ عضواً يدخل في عدادهم رئيس اساقفة كنتربري ، المستشار ، وزير المال ، بعض عظام

الاسياد ، رجال قانون ، امينا سر الدولة . لا يعرض الملك عليهم الا ما يطيب له عرضه ، ويصغي الى آرائهم ثم يضع صيغة قراره بنفسه . يتشاور المجلس الخاص وينفذ بواسطة الاعلانات والوامر التي تقرر في الاجتماع . وتدخل في صلاحياته السياسة العامة والتشريع والقضاء والمالية والحرب وشؤون الاسطول ، ودعوة المجلس التمثيلي للاجتماع وتعيين مأموري الاحكام المدنية والتعليمات الى القضاة والضباط المحليين والبث بالرسائل والعرائض . ويحضر عمل المجلس وغالباً ما تتخذ القرارات مسبقاً ، في الديوان ، للشؤون السياسية ، وفي لجان المجلس للشؤون الجارية والادارة . أما الديوان الذي ليس معترفاً به رسمياً فيضم بعض مستشاري الملك السريين . ونرى في كل ذلك اوجه التشابه مع فرنسا على الرغم من ان تطور الانظمة هنا لم يبلغ ما بلغه في فرنسا .

فهي الاسس نفسها التي اقتضى تأمينها في هذه البلاد التي كانت ملكها دون ملك فرنسا سلطة مطلقة .

سلطة الملك التشريعية
حاول ملوك انكلترا الاحتفاظ لانفسهم بالسلطة التشريعية . وسنجاك الاول القوانين بالاعلان والمناداة . وفي السنة ١٦٠٧ ، كتب « كوك » ، استاذ القانون في جامعة كمبردج ، ما يلي : الملك « فوق القوانين بسلطته المطلقة . . يستطيع تعديل أو تعليق كل قانون يبدو له مضرأ بالخير العام » . فاضطر جاك الاول لأن يتبرأ من الكتاب ولكنه استمر في سياسته . وصرح شارل الاول دون مواربة بان لاعلاقته قوة القانون . واخذ جاك الثاني يحمل القضاء على الاعتراف بحقه اي اعفاء الفرد من التقيد بهذا القانون أو ذاك (قضية ادوارد هيلز) ، ثم افرط في الاعفاء من القوانين ، ثم اصدر في السنة ١٦٨٧ بياناً حول حرية المعتقد جاء فيه ان « ارادته الملكية وهواه ... قررا ، منذ الآن ، تعليق كافة القوانين الجزائية في الدعاوى الكنسية » . وكان باستطاعته ان يفعل الشيء نفسه بصدد كافة القوانين وان يرغب المجلس التمثيلي على ان لا يقر سوى القوانين التي يوحى بها الملك .

السلطات القضائية الخاصة
وحاول ملوك سلالة ستيوارت تأمين تنفيذ ارادتهم بسلطات قضائية خاصة . فان جاك الاول وشارل الاول اكرها الشعب على اطاعة اعلاناتها بواسطة « الغرفة المكوكبة » والمحكمة العليا . أما الغرفة المكوكبة ، وهي الدائرة العدلية في المجلس الخاص برئاسة المستشار ، فقد حاكمت المتهمين الذين سبق للمجلس واوقفهم واستجوبهم وأحالهم عليها . وقد دخل في صلاحياتها كل حوادث الاخلال بالنظام العام والاخلال بالوامر الملكية . وشملت الفئة الاولى الفتن والمنازعات ، لا سيما بمناسبة تصوين المراعي ، والحروب الخاصة بين الاشراف الريفين ، والمؤامرات والاعتداءات على القضاة والاهاجي والشتائم . وهكذا استطاع « ونتورث » ، اثناء عهد الاستبداد ، ملاحقة منتقدي

مساعيه في ايرلندا بغية خلق جيش دائم في خدمة شارل الاول . وشملت الفئة الثانية مخالقات الاعلانات الملكية ، كتلك التي حظرت زيادة عدد البيوت والمساكن في لندن ، مركز الرأسمالية الكبير ؛ وتلك التي اوجبت على الاشراف الريفين ، مالكي الاراضي في الارياف ، العيش فيها وعدم مغادرتها الى المدينة ، وقد حكم على احدهم ، « بالمر » ، في السنة ١٦٣٤ ، بالسجن و « بير » / ١٠٠٠ / ليرة جزاء نقدياً ، لهذا السبب ؛ وتلك التي حظرت تخزين المواد الغذائية ورفع الاسعار ، وقد حكم على ١٥ شخصاً من اصحاب المصاين ، في السنة ١٦٣٤ ، بالجزاء النقدي والسجن واقفال المصانع لاستخدامهم زيت السمك بدلاً من زيت الزيتون ولاتقاضيهم على سعر ادنى معين لا يجوز تخفيضه . وكان عمل الغرفة المكوكية مباشراً على المواطنين وعرضاً على القضاة الذين يخشون آنذاك مغبة الامر ويتشددون في تطبيق الاعلانات . وحين برزت مقاومة « مال الاسطول » في السنة ١٦٤٠ ، استدعى مأمور الاحكام المدنية في سبع كوتيتات لاهلهم في شؤون التحصيل وصدرت بحقهم احكام مختلفة . فنبت هذه المحاكم تجسداً للسلطة المطلقة .

وأعاد جاك الثاني المحكة العليا . كانت برئاسة المستشار وشملت صلاحيتها كافة رجال الكنيسة وكل كلية ومدرسة تلغز دروس الصرف والنحو . وكان من حقها اصدار احكام مبرمة في دعاوى المعتقد الديني ، كاللغاء والعزل والحرم ، التي كانت بمثابة الحرمان من الحقوق المدنية والسجن مدى الحياة .

وتهرب ملوك سلالة ستيوارت من مبدأ « المثول أمام المحكة » . فلا يوقف رعابا الملك الا بسبب دين مدني أو بتهمة جرمية . وباستطاعة كل انسان حر سجين ان يلتبس من محكة الملك « امراً بالمثول امام المحكة » . يوجب على السجن احضار السجين والادلاء بسبب سجنه حتى تتمكن المحكة من اعادة السجين الى السجن أو اخلاء سبيله بكفالة أو تبرئته . ولكن ملوك سلالة ستيوارت اوجبوا على السجنائين انتظار امر ثان وثالث ثم نقل السجين الى سجن آخر حيث تتجدد المهزلة . ودرج القضاة الملكيون على تحديد الكفالة بمبالغ باهظة جداً يعجز السجين ابدأ عن دفعها . وادعى الملك اخيراً بان « امره الخاص » كاف لتبرير السجن ، واستند الى هذه الحجة حتى السنة ١٦٧٩ ، في عهد شارل الثاني . فكان ذلك مماثلاً للأمر الملكي بالسجن في فرنسا .

سلطة إحداث الضرائب كانت المسألة الهامة تأمين موارد مالية دون تدخل المجلس التمثيلي ، فباع جاك الاول وظائف امناء الصناديق والقضاة والمدعين العموميين وامناء سر الدولة ، الخ . وحذا خذوه شارل الاول ، ثم شارل الثاني ولكن على نطاق اضيق . بغير ان الامم كانت ان يتمتع التاج بحق فرض الضرائب من تلقاء نفسه مباشرة . فأمر جاك الاول ، في السنة ١٦٠٦ ، بفرض رسم جمركي جديد . رفض « جون بيتس » ، احد تجار شركة الشيرز ، ان يدفع هذا الرسم لانه غير شرعي . فأداته المحكة المالية : « سلطة الملك مزدوجة » عادية ومطلقة . أما سلطته العادية فلتنفعة الافراد ... ولا يمكن ان يدخل عليها

أي تعديل بدون المجلس التمثيلي . واما سلطة الملك المطلقة... فلغير الشعوب العام ... وتعرف بالسلطة البوليسية ... تتنوع ، بحسب حكمة الملك ، للخير العام . القضية موضوع البحث قضية دولة ويجب أن تعالجها سلطة الملك الفاتكة بحسب الانظمة البوليسية . كل الرسوم الجركية ناجمة عن التجارة الخارجية ؛ ولكن التجارة والشؤون الأخرى مع الأجانب من اختصاص سلطة الملك المطلقة ... ، فأمر الملك من ثم بوضع « كتاب الرسوم » (١٦٠٨) الذي فرض موجبات مالية باهظة .

بعد السنة ١٦٢٦ ، فرض شارل الاول الضرائب تلقائياً وفرض على كل رعاياه قرضاً يعادل ما دفعه كل فرد من الضريبة الأخيرة . فكان عمله خطوة أولى نحو الضريبة المباشرة التي تجبى بإرادة الملك . ولكن المقاومة برزت عنيفة . فأعلن الملك الأحكام العرفية ، وأرسل الفرق للاقامة في بيوت السكان وسجن بعض النبلاء وكبار البورجوازيين ، وأكثر من عامة الشعب في القوى البحرية . وخلال الاستبداد أعاد من تلقاء ارادته الاحتكارات التي ألغاهها المجلس التمثيلي في السنة ١٦٢٤ ؛ وأمر بإحترام الحدود القديمة للإخراج الملكية واستصدر أحكاماً بفرضات نقدية على الملاكين الممتدين . وفي السنة ١٦٣٤ ، أعاد « مال الاسطول » الذي يوجب على قضاة المرافىء تقديم عدد معين من السفن الحربية أو ما يعادلها مالا ويمطيهم حتى فرض الضرائب على السكان . تمنع « هامبدن » ، فادين في السنة ١٦٣٧ . واستند القضاء الى سلطة الملك المطلقة والى عجز مجلس التمثيلي عن حصر امتيازات التاج العليا . « الملك هو القانون » . و « للملك الحق في فرض الضرائب على رعاياه في سبيل الخير العام ... وللملك الحق في تجاوز كل قانون اذا اقتضت الضرورة ذلك » .

وبدأ جاك الثاني ، في الاتجاه نفسه ، بإعلان أوجب فيه ، من تلقاء نفسه ، الاستمرار في تأدية الرسوم التي أعفى بعضهم منها في حياة الملك المتوفي (١٦٨٥) فقط .

الجيش الدائم اقتضى لفرض ارادة الملك وجود جيش دائم يأتمر بأمره وحده . وكانت هذه على الدوام أكثر النقاط ضعفاً . فقد نبا طبع الانكليز عن ذلك ، وبالنظر إلى أن البحار تحمي انكلترا لم يحظ الملك ، شأن ملوك الباسية ، بمساعدة إلحاح ضرورات الدفاع عن الحدود . وغالباً ما قنع الملك بحرس خاص قليل العدد وبعض الحاميات الضعيفة . فلجأ شارل الاول الى « الاكثار » من المتطوعين بينما كان « وتوورث » يحاول تأليف جيش دائم له في ايرلندا . وفي أواخر عهد شارل الثاني ، استدعيت حامية طنجة الى انكلترا فارتفع الجيش النظامي الى سبعة آلاف من المشاة والف وسبعماية من الفرسان . ورفع جاك الثاني عدد المجندين الى ٣٠.٠٠٠ رجل وأقام معسكراً في « هونسلو » للسيطرة على لندن .

وهكذا توصل ملوك سلالة ستوارت ، على مراحل ، الى تركيز امم مستلزمات السيادة المطلقة في شخصهم ، وتوفقوا ، بمراقبة دائمة استهدفت الرأسماليين والاشراف الريفيين المتجهين

الى الزراعة التجارية، الى الابقاء بعض الوقت على التوازن بين المجتمعين القديم والجديد قبل السنة ١٦٤٠ ، وحاولوا مراقبة التطور نحو رأسمالية حرة بعد الاصلاح .

مثال الاقاليم المتحدة
أتاح الصراع الطبقي لرئيس سلالة « اورانج » استلام ادارة الحكومة ، وجعلت منه الحروب ملكا مطلقا ، وان لم يحمل هذا الاسم .

منذ السنة ١٦١٩ ، يقف امير اورانج ، « موريس دي ناسو » ،
سلطة امراء اورانج المطلقة قائد الجيش ، الى جانب الفوماريين المتحيزين للمجتمع القديم ، والى جانب الاشراف والفلاحين والصناعيين اليدويين والملاحين ، اي الى جانب اعداء البورجوازية والرأسمالية . فاستحال بتصرفه هذا قمع الفتن الشعبية التي أخذت تندلع في كل مكان تقريبا . ولجأ الى حملة مقالات انتقادية عنيفة مغرضة جعلت الناس يعتقدون بخيانة رئيس الحكومة « اولدنبرفيلت » الذي اتهم ، في هذه المقالات ، ببيع بلاده من فرنسا واسبانيا . فاعلن رئيس الحكومة مجرماً واعدم في ١٢ - ١٣ ايار من السنة ١٦١٩ ، وأقصى بجمع « دوردرخت » كل تفسير حر للتعالم البروتستانتي وأدان الارمينيين بالهرطقة . فنزح عدد كبير من الرعاة الارمينيين عن البلاد . وخسر الجمهوريون الاكثرية في كل مكان ، في مجالس المدن والجمعيات الاقليمية والجمعيات العامة . وتكون في الرأي العام تيار فكري لمصلحة الامير ، الذي اعتبر منقذاً ، كان من نتيجته احلال الاورانجيين في كافة المراكز المرموقة . ولم يلبث تجدد الحرب ، والخطر المحدق بالحدود ، والحاجة الملحة الى تركيز السلطة ، بغية تعهد الجيوش وادارة العمليات العسكرية والدبلوماسية ، ان رفعت سلطة امير اورانج الى منتهىها ، فمارس « موريس دي ناسو » حتى السنة ١٦٢٥ ، ثم فردريك - هنري من بعده ، سلطة ذاتية مستندة الى الجيش والطبقات الشعبية المطمئنة والاكليروس العادي للرأسمالية . وبات امير اورانج متمتعاً بسلطة مطلقة اتاحت له ادارة كل السياسة الخارجية بمعاونة مجلس يضم بعض الانجبة . لابل ان يمثل المجالس العامة قد سمحوا لامين سرهم في السنة ١٦٣٤ بحضور اجتماع هذا المجلس واعترفوا بشرعية مقرراته .

انتهى الصلح المعقود في السنة ١٦٤٥ والنصب الذي عقبه بسلالة اورانج
الجمهورية البورجوازية المأجزة الى الضعف والوهن . فلجأ غيلوم الثاني الى قلب نظام الحكم ، ولكنه توفي في السنة ١٦٥٠ ، ولم تضع له امرأته ابناً الا بعد وفاته بعدة أشهر . غدت سلالة اورانج دون زعيم آنذاك ؛ فانهار الحزب الاورانجي . تأسست الجمهورية البورجوازية مرة اخرى تحت سلطة اقليم هولندا ورئيس سلطتها التنفيذية « جان دي فيت » الرئيس الحقيقي لجمهورية الاقاليم المتحدة . ففقدت سلالة اورانج كل سلطة . والفيت مهام القائد العام في اقليم هولندا ، في السنة ١٦٦٧ ، اذ جاء في البراءة الدائمة ان مهام الضابط العام والاميرال العام تتنافى ومهام القائد العام . الا ان الجمهورية البورجوازية برهنت عن ضعفها وعجزها عن تأمين سلامتها ومصالحها . فان الحريين اللتين اندلعتا بين الانكليز والهولنديين انتهتا

في السنة ١٦٥٤ بتقهقر تجارة الهولنديين الذين اضطروا للقبول بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة، وبفقدان المستعمرات الهولندية الاخيرة في اميركا الشمالية في السنة ١٦٦٧. وأخيراً اجتاحت لويس الرابع عشر الاقاليم المتحدة في شهر حزيران من السنة ١٦٧٢. ومرد كل ذلك الى ان البورجوازيين الجمهوريين لم يعملوا بتحذيرات « جان دي فيت » ، بل انشغلوا ، قبل أي شيء آخر ، بالتجارة والكسب السريع ، وحرصوا على ان لا يتجاوزوا حداً أدنى في دفع الضرائب ، فرفضوا الاعترافات المطلوبة للجيش وقاوموا احداث الضرائب المباشرة وأعملوا صيانة التحصينات التي تداعت وتهدمت وباعوا الذخائر من فرنسا . وكانوا قد قضوا على نظام الجيش لغايات سياسية . فاضطر الضباط المدربون ، وجلهم من النبلاء والاورانجيين ، الى تقديم استقالتهم ، واستبدلوا ببناء البورجوازيين الذين أعوزتهم الخبرة والروح العسكرية .

تصاعد شعور الجماهير القومي ضد الجمهوريين . وانفصل عنهم بعض
سلطة غليوم الثالث
امير اورانج المطلقة
البورجوازيين ممن تضررت مصالحهم بفقدان المستعمرات الاميركية .
الا ان ذكريات الماضي المجيد واقصاء سلالة اورانج عن كافة الوظائف المدنية والعسكرية في اقليم هولندا ، الذي فرضه الاسكتلزي في السنة ١٦٥٤ كخبر ضمانة للحوول دون عمل ثاري ، قد عينا أمير أورانج الشاب ، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، لان يكون المنقذ . فتسلم تحت ضغط الرأي العام الشعبي ، منذ الرابع والعشرين من شهر شباط من السنة ١٦٧٢ وظيفة الضابط العام والاميرال العام في الاتحاد . واعادت المدن كلها ، ثم الاقاليم ، ثم المجالس العامة ، وظيفة القائد العام ، والفت البراءة الدائمة وعينت غليوم اورانج ضابطاً عاماً وأميراً عاماً مدى الحياة ، كما كانت الحال قبل السنة ١٦٥٠ . وتجددت الحملة المضروبة ، التي استهدفت « أولدنبرنفلت » فيما سبق ، على « جان دي فيت » وأخيه « كورناي » ، فمزقتها الجماهير تمزيقاً . ومنعت المجالس غليوم الثالث كافة السلطات التي طلبها وغداً تابعه « فاجيل » رئيس السلطة التنفيذية .

تمتع غليوم الثالث بسلطة لا ينازعها منازع حتى صلح « نياج » . إلا ان النصب العام والوضع السلمي قد زادا مرة اخرى من شأن البورجوازية الجمهورية الكبرى الداعية للسلام والراغبة في التعاون مع فرنسا . فتجدد الصراع الطبقي ، كما بين السنة ١٦٠٩ والسنة ١٦١٨ ، على الصعيد الديني .

بيد ان سياسة ضم الاقاليم الى فرنسا التي انتهجها لويس الرابع عشر ، ثم ابطال براءة « فانت » ، الذي أوغر صدور كافة هؤلاء البروتستانت غيظاً ، قد أزالا نفوذ البورجوازيين أصدقاء فرنسا . وفي السنة ١٦٨٨ ، جعلت الثورة الانكليزية من غليوم الثالث ملكاً على انكلترا . فأكسبه ذلك نفوذاً واسعاً ، اذ انه بدا وكأنه المدافع عن الحريات في جميع أنحاء أوروبا وحامي الدين البروتستانتي . ولم تلبث حرب تكتل أوغزبورغ ان اندلعت . فعدا غليوم

الثالث مرة أخرى ، في الاقاليم المتحدة ، اميراً سيداً حقيقياً كما كان مورييس دي ناسو وفردريك — هنري من قبل . ولجأ إلى الضغط بغية تأمين انتخاب أنصاره قضاة في المِسدن ، فامسى الاورانجيون اكثرية في المجالس الاقليمية والمجالس العامة . وحل محل « فاجيل » ، الذي توفي في السنة ١٦٨٨ ، على رأس السلطة التنفيذية ، هنبوس المتفاني في خدمة الاورانجيين . فمارس غليوم الثالث حتى وفاته (١٩ اذار ١٧٠٢) سلطة تكاد تكون مطلقة .

ان الاقاليم المتحدة تقدم لنا ، من ثم ، على مراحل ، مثل نظام نرى فيه الصراع الطبقي والخطر الخارجي والضغط الشعبي تجعل السلطة تتركز في أيدي قائد حرب يتمتع ، بفضل نسبه ، بما يشبه حقاً تفضيلاً ، ومثل نظام اشبه بنظام مطلق مستند الى الرأي العام ، دون ان تحدث تبديلات ذات شأن في النظم الجمهورية البورجوازية . وهكذا فان هذا النظام يتوسط الملكية والدكتاتورية ويتقرب من دكتاتورية « كرومول » حامي انكلترا بعد فوضى الجمهورية الانكليزية . وعلى الانظمة الجمهورية البورجوازية ، أمام الازمات الداخلية والخطر الخارجي ، ان تفصح المجال للانظمة التسلطية .

٥ - الروح التجارية

فكرة عامة ان الهدف الاول هو رفع قوة الدولة ، وبالتالي موارد لها ، الى الذروة ، عن الروح التجارية والتزود بالسلحة والذخائر والسفن تزوداً مستقلاً عن الخارج . ولكن وسيلة المقايضة الاولى هي النقد المعدني الثمين . فهو ما يتيح ، قبل اي شيء آخر ، الشراء والبيع ، ومن ثم انهاض همه المنتج ، وتنمية الاقتصاد ، والحد من خطورة المجاعات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي تنجم عنها ، وزيادة قدرة المكلف على الدفع ، وتمكين الدولة من دفع تخصيصات جيوشها ، ومرتبات موظفيها ، والمحافظة على النظام الداخلي والسلامة الخارجية ، وانهاض همه المنتجين مرة اخرى بتسديد مئاريها . النقد المعدني الثمين هو « دم الاقتصاد » ، لا بل دم الدولة بالذات . ولكن حجمه محدود جداً . فقد توصل بعضهم الى تقدير المعدن الثمين المتداول في اوروبا ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بخمسين ملياراً من الفرنكات (سعر ١٩٢٨) . وهذا يعني ان الدول الاوروبية تصرفت كلها ، حوالي السنة ١٦٦٠ ، بحجم من الذهب والفضة المسكوكة يعادل النقود المعدنية في مصرف فرنسا وحده في اواخر السنة ١٩٢٩ .

اما نتيجة ذلك فقومية اقتصادية وشبه حرب مالية دائمة بين الدول . كل دولة تحاول ايجاد تجارة يكون ميزانها مؤاتياً لاجتذاب المعدن الثمين والاحتفاظ به فيجب من ثم ان تمنع الاستيرادات البذخية ، وان يحمد من استيراد المصنوعات جهد المستطاع . لا سيما وانها تنقص حجم عمل المواطنين . يجب ان تلتج المصنوعات في البلاد حتى ولو كلف انتاجها اضعاف الاسعار الخارجية . يجب ان تشرع ابواب البلاد لدخول الحامات ، وانما يجب جهد الامكان

ان تنتج في البلاد المصنوعات الضرورية للدفاع الوطني ، كالصواري ، وخشب البناء ، والقار والجنب ، والقطران ، الخ . في هذا العهد ، وفرت الزراعة معظم المواد الاولية الضرورية للصناعة . فوجب من ثم ، بدون تردد ، ان يعتمد ، عند الاقتضاء ، نظام جركي قاس حيال مزارعي البلاد وفرض رسوم ضئيلة على المنتوجات الزراعية المنافسة او اعفاؤها من كل رسم وتحظير تصدير المنتوجات الزراعية الوطنية او إثقالها بالرسوم ، بغية الحصول على محاصيل زراعية وفيرة بأسعار متدنية تضمن انخفاض سعر كلفة المصنوعات المعدة للتصدير .

فالهم انما هو زيادة حجم التصدير ما امكنت الزيادة ، وبالتفضيل ، تصدير المصنوعات لان العمل قد رفع قيمتها . ويجب من ثم توفير اكبر عدد ممكن من المنتجين واعتماد سياسة تشجيع زيادة النسل . الا ان التغلب على المنافسة يستوجب بيع النوع الافضل بالسعر الادنى . فيجب من ثم ان تكون نسبة الفائدة متدنية حتى يتوفق المتعهد الى رؤوس اموال لا تجر عليه نفقات باهظة . كما يجب ان يدفع للعامل اجر زهيد وان يبقى مستوى حياته متدنياً . ولكنه اذا لم يسلم بهذا الواقع واستسلم للبطالة في بلاد تغمرها المصنوعات الاجنبية اولاً ، والاقتصاد الراكد ثانياً ، ينتهي حتما الى البؤس ، كما ان الدولة التي تفتقر الى القوة ، تتعرض لشر الاخطار اي الغزو والسيطرة الخارجية . اما المتعهد الرأسمالي فيجب على نقيض ذلك إنهاء همة بكاسب وفيرة .

يجب ان يكون هنالك مستعمرات تقدم للوطن الام المواد الاولية ومنتجات الاستهلاك التي تفتقر اليها ، على ان تستغرق بالمبادلة منتوجات الوطن الام للمحافظة على الميزان التجاري . ويجب ان توفر مواد غذائية ، خامات او مصنوعات ، بسمرتدن ، حتى يتاح اعادة تصديرها . اما المستعمرات المفرية فهي مستعمرات المناطق الاستوائية لان منتوجاتها تختلف عن منتوجات اوروايا . وتعتبر المستعمرة قبل كل شيء مؤسسة تجارية توفر لتجارة الوطن الام المحاصيل التي تفتقر اليها البلاد المنافسة او محاصيل تكون اقل كلفة من محاصيل البلدان المنافسة . هذا كان اساس مذهب الحصرية . تحتفظ الدولة بكافة العلاقات مع مستعمراتها . فهي تضمن بذلك اسواق المستعمرات لتصريف محاصيلها الخاصة التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة ، وتشترى فائض محاصيل هذه المستعمرات بأسعار متدنية ، وتعيد تصديرها وتستجمع اموال الدول المتعاملة معها ، ولا تعطى المستعمرات سوى قسم من هذه الاموال . وقد نظرت الدول الى المستعمرات ، في الدرجة الاولى ، كما الى وكالات تجارية على السواحل او الجزر ، او د حقول مزروعات ، يتمدها المهاجرون في مناطق اعظم اتساعاً . وليس سوى رجال الذئلة الاسبانيين والفرنسيين ، وبين هؤلاء ريشليو وكولبير ، من رأوا ان سكان المستعمرات يجب ان يتشكوا ويحوتوا الى اسبانيين او فرنسيين وان المستعمرات يجب ان تؤلف ولايات الوطن الام في ما وراء البحار .

ان التجارة بمفهومها هذا تدويل اقتصادي او اقتصاد موجه . فبمقدور الدولة وحدها

تنظيم الاقتصاد والدفع به الى الامام كما هو لائق . وهي تفعل ذلك ، في مرحلة اولى ، في سبيل بلوغ هدف سياسي ، هو قوتها . وهي لا تسعى وراء الازدهار بحد ذاته ، وليس رفع مستوى الحياة غايتها الاولى . فالازدهار وسيلة ورفع مستوى الحياة نتيجة مباركة ثانوية . الجوهر هو قوة الدولة . السياسة تتقدم الاقتصاد . وتقدم الدولة ، في مرحلة ثانية ، تعبيراً عن البورجوازية التجارية والصناعية الثرية التي هي انتمها والمجبتها ، فيصبح إغراء هذه البورجوازية غاية وقوة ، وقوة الدولة نتيجة . الاقتصاد يتقدم السياسة . الاقاليم المتحدة مثال المرحلة الثانية ، وفرنسا مثال المرحلة الاولى . اما انكلترا فلا تزال بين السنة ١٦٠٣ والسنة ١٦٨٨ ، مثال مرحلتين معاً .

مثال الاقاليم ان اقتصاد الاقاليم المتحدة اقرب للاقتصادات الى الاقتصاد الحر . المتحدة : جواله البحار فليس للبلاد من ميزة سوى مركزها الجغرافي على البحار الضيقة عند مصب طريق الرين النهرية الكبرى بين بلدان البلطيك وبلدان المتوسط ، وسهولة بلوغ المحيطات . وحين افاح الانتصار السياسي على اسبانيا ، واقفال مصاب الـ اسكو ، وتقهر أنقرس ، ان يستفيد شعب نشيط من ذلك ، جعل الهولنديون والزيلنديون والفريزيون من انفسهم وسطاء تجارة العالم . انصرفوا الى تجارة تخزين البضائع ، وجمعوا لديهم منتوجات العالم اجمع لمقايضة بعضها ببعض الآخر بواسطة النقد ولاعادة تصديرها . قاموا جواله البحار . واعتمدوا مبدأ الحرية الضروري لتجارتهم . فخالفوا الانكليز بقولهم بحرية البحر . وكانوا في بلادهم ، اقله في المدن الكبرى ، متساهلين نسبياً حتى نحيل غير المؤمنين . ومنعت المعاهدة المعقودة مع ملك فارس في سنة ١٦٣١ جميع الفارسيين اجازة عامة بالتجار مع الاقاليم المتحدة ومستعمراتها في المحيط الهندي ، كما منعت الحصانة الدولية للملك فارس ، والسكنى على نفقة الجمهورية للتجار الفارسيين والاعفاء من الضرائب غير المباشرة ، على ان يأتوا باعداد كبيرة ويستحضروا مالا وقيراً للشراء وإذناً بممارسة العبادة الاسلامية سراً . هكذا لجأ الهولنديون الى وسائل مختلفة وتوسطوا بين المنتج المحلي والشاري الاجني .

الشركات التجارية والدولة ولكن اقتصادهم ليس بالاقتصاد الحر الصرف . فالتجارة البحرية تخضع في الاساس لقوانين الشركات التجارية ولرقابة متبادلة بين الشركات والدولة . ولا عجب في ذلك اذ ان تجارة الافراد الحرة وخيمة العاقبة في عهد يتميز بندرة المعادن الثمينة . فان الافراد ، الذين يسعون كلهم وراء الكسب ، يسلقون في اسواق اوروبا وآسيا كميات ضخمة من المنتوجات بالنسبة لكمية النقد المتوفرة . فتتخفض الاسعار ويفلس الافراد وتنتحر التجارة . وفي فترات الحروب الاوروبية ، والمنازعات التجارية في المحيطات ، والصعوبات التي يثيرها الامراء المحليون ، والازمة الاقتصادية ، يكون الافراد عاجزين وقشل التجارة . وليس لدى الدولة من جهتها ، بسبب افتقارها الى الموارد المالية ،

الموظفون والسفن والجيوش والوسائل اللازمة لتنظيم تجارة ما وراء البحار . وبات من ثم لازماً على التجار ان يتجمعوا ويوسعوا الشركات . فتجمعت ست غرف من التجار في السنة ١٦٠٢ وأسست شركة الهند الشرقية . وقد ضمت ٧٣ مديراً من مدراء الشركات التجارية . اسندت ادارة الشؤون المشتركة الى هيئة من سبعة عشر شخصاً تعينهم الغرف ، على ان تعين غرفة استرداد ثمانية منهم لانها تتحمل وحدها نصف النفقات المشتركة . وعاد لكل غرفة امر البت في تجارة اعضائها والصفقات الواجب اجراؤها في الهند والمبالغ الذهبية الواجب ارسالها وبيع البضائع المستلة . وعاد لهيئة السبعة عشر امر البت ، باكثرية الاصوات ، بتنظيم الاساطيل وتحديد خط سيرها وتمرفة البضائع . واستفادت من احتكار الاتجار مع الهند . واعتمدت في المستعمرات مبدأ البحر المغفل وادعت بتحريم دخول الهند على الانكليز والبرتغاليين والفرنسيين . ومارست حقوقاً ملكية ، كالحرب والسلم والمعاهدات مع الاوثان وتعيين حكام ومجالس يكون له سلطة القضاء المدني والجزائي في الوكالات التجارية التابعة للشركة . وتجمع لديها اخيراً في الهند ، جيش بري مؤلف من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل وجيش بحري وضعت تحت تصرفه بين اربمين وستين سفينة ، وباتت ترسل سنوياً الى اوروبا بضائع تتراح قيمتها بين عشرة ملايين واثنى عشر مليوناً ، وتوزع ارباحاً تعادل ٢٥ الى ٣٠ ٪ ، فارتفعت اسهمها من ٣٠٠٠ فلورين الى ١٨٠٠٠ فلورين حوالي السنة ١٦٧٠ .

ولكن صلة وثيقة قامت بين الشركة والدولة . فقد عين حكام المدن المدراء الجدد مدى الحياة . وكانت كل المدراء اعضاء في مجالس المدن والمجالس الاقليمية والمجالس العامة . وسيطرت غرفة استرداد في هيئة السبعة عشر كما سيطر اقليم هولندا في المجالس العامة . وكان مصرف استرداد ، الذي يعود تأسيسه الى السنة ١٦٠٩ ، مصرفاً بلدياً . واختير مدراء المصرف من بين الاوصياء على المدينة (الحكام ورؤساء البلدية) ، الذين كانوا في الوقت نفسه مدراء شركة الهند الشرقية . فكان هنالك ، الى حد ما ، تشوش والتباس بين الدولة والشركة والمصرف ، وغالباً ما خطلت كلها الخطوات نفسها . ان السياسة والحرب هما اداة التجارة التي تديرها موافقة من الرأسماليين .

اما شركة الهند الغربية ، التي تأسست في السنة ١٦٢١ ، فقد خضعت لتنظيم مماثل ، ولكنه ابعد حرية . يقدم المساهمون الفرنسيون ، كل سنتين الى الحكام ، مرشحيهم لتولي مهام المدراء . ويعين المساهمون لجان مراقبة ترغم المدراء على عرض كافة المسائل الهامة على جمعيات المساهمين . اما مجلس التهمة عشر فيكاد أن يكون عاجزاً . وتقوم الاحزاب في الجمعيات . لذلك كانت سياسة الشركة مترددة وحائرة وكان أقول نجمها سريعا . اضيف الى ذلك ان البرازيل فقدت في السنة ١٦٦١ واسترداد الجديدة (نيويورك) في السنة ١٦٦٧ . فاقضى تصفية حسابات الشركة في السنة ١٦٧٤ .

تجارة المعادن افضت التجارة البحرية الكبرى الى تكديس المعادن الثمينة في
التمينة ومصرف امستردام الاقاليم المتحدة ، ولا سيما في امستردام . فقد نقل الهولنديون
بضائعهم الى غينيا وعادوا منها بالذهب . وموتوا اسبانيا ، حتى اثناء الحرب ، اذ ان نصف
منتوج مناجم الفضة الاميركية كان يصل سنوياً الى امستردام . وكانت للهولنديين السيطرة على
تجارة قادش . وبسبب نظام الحصرية اضطروا الى ان يدعوا البضائع لدى الاسبانيين الذين كانوا
يبيعونها في الهند الغربية ويعودون باثمانها . ومارسوا التجارة المنوعة ايضاً انطلاقاً من جزيرة
« كوراساو » المجاورة لقرطبة . فكانت المراكب الهولندية تتخذ من « كوراساو » قاعدة
لها وترسو على مقربة من الشواطئ الاسبانية ، فيقصدها السكان في زوارقهم ويتساعون ما
يحتاجون اليه . بفضل هذا المعدن كله ، كان الهولنديون من الوسطاء بين الهند واروپا لان
الشرقيين نادراً ما ارتضوا من الاوروبيين بغير المعادن الثمينة .

وصدر الهولنديون النقد المعدني ايضاً . فان دور النقد عديم قد ضربت نقوداً تجارية شرعية
الوزن والقياس وثلث الناس بها وتهافتوا على طلبها ، كالدنانير التي تحمل رسم الأسد ، في مرفئ
الشرق الادنى وفي آسيا الصغرى ، والركسدالات الفضية في البلدان البلطيقية ، و« الدوقيات »
الذهبية في روسيا ، و« الدوقيات » الفضية الصغرى ، في الهند والصين . وكان على التجار
الاوروبيين الراغبين في الاتجار مع هذه البلدان أن يحصلوا على القطع النقدية الهولندية ويأتوا الى
امستردام ، لهذه الغاية ، ببضائعهم او سبائكهم المعدنية المستطيلة أو بقطعهم النقدية الخاصة .

وكان مصرف امستردام ، الذي تأسس في السنة ١٦٠٩ بناء على طلب تجار امستردام ، يزيد
من امكانية الاستفادة من كمية المعادن الثمينة هذه بوسائل الدفع التي يوفرها للتجار . فكان
مصرف تخزين تودع فيه النقود والسبائك الذهبية والفضية المستطيلة . وكان من شأن الثقة التي
أوحاها ان تدفقت الودائع عليه حتى من الخارج . وكان مصرف صرافة ايضاً يوفر للتجار نقد
أية بلاد من البلدان ، ويتيح بذلك شراء البضائع من كل منشأ ، ويحتذب من ثم التجار الاجانب .
وكان مصرف دفع بحري قوّن مقابل ، بتحويل حساب لآخر ، ودونما نقل المعدن الذي يستغرق
وقتاً طويلاً ويستلزم نفقات باهظة ، كافة عمليات الدفع التي يحتاج اليها التجار ، ضمن حدود
ودائعهم . وقد استخدم المصرف ، في عملياته ، نقداً حسابياً هو الفلورين « بنكو » ، ثابت القيمة ،
يمتد بكتابة كفالة للتجار . ثم أصبح مصرف امستردام ، شيئاً فشيئاً مصرف دين اخيراً . فبدأ
باعطاء السلفات لمدينة امستردام في حالة الحرب ، ولشركة الهند الشرقية بغية تجهيز أساطيلها .
وانتهى ، بعد السنة ١٦٨٣ ، إلى إعطاء السلفات للأفراد أنفسهم .

واستمرت ، إلى جانب المصرف العام ، المصارف الخاصة ، التي كانت تسلف التجار المبالغ
الضرورية لإكمال شحناتهم ، وتحسم السلفات التي تدفقت عليها من كل مكان وأضيفت الى
رؤوس الاموال المتحدة في أيدي الهولنديين .

كانت نتيجة هذه العناصر كلها وفرقة في وسائل الدفع الممتازة التي جعلت البائع يفضل الشاري الهولندي على كل شار سواه ، وأتاحت للهولنديين ، في أي وقت ، إجراء صفقات كبرى ، وعرض شتى أصناف البضائع بكميات كبرى وبأسعار دنيا . وجرت هذه الوفرة إلى انخفاض نسبة الفائدة . وكان باستطاعة الهولنديين البيع بسعر أدنى وتجميع أموالهم مدة طولى ، كأن ينسحبوا التجار الانكليز والفرنسيين إلى تخزين بضائهم في قادش ، ويتفاوضوا في موضوع الصفقات قبل منافسيهم ، ويحددوا آجالاً بعيدة للدفع . وكان باستطاعة الصيارفة الهولنديين أخيراً اقراض ملوك فرنسا وانكلترا وأمراء ألمانيا . وقد أتاحت سلفات المصرف لمدينة امستردام وشركة الهند الشرقية تجهيز الاساطيل والجيوش في الظروف العسيرة . وقد سهلت كميات النقود الكبرى القروض والضرائب وتجنيد الجيوش البرية والبحرية والتحالف مع الدول . وجعلت وفرة رؤوس الأموال من هذه البلاد الصغرى قوة سياسية كبرى .

الثال الانكليزي
ترتدي الروح التجارية الانكليزية طابعاً مشتركاً . لقد دهش الانكليز من نهوض فرنسا السريع في عهد هنري الرابع . فبرزت فكرة التنظيم ، الموروثة من عهد اليزابت ، بروزاً شديداً ولفنت انطلاقة التجارة الهولندية الانتباه إلى فوائد حرية التجارة النسبية وفوائد الشركات صاحبة الامتياز . وبدا نمو التجارة ، الذي كان أقل منه في الاقاليم المتحدة ، أشد حاجة إلى تدخل الدولة ، ولكن انطلاقة الرأسمالية التجارية والصناعية الهامة قد أوحى لبعض التجار ، منذ ذلك الحين ، بالحقد على الانظمة والاحتكارات ، وبالميل إلى الحرية ، وبأن التجارة يجب ألا تخضع إلا لتشريع عام وبأن هذا التشريع هو من شؤون المجلس التمثيلي .

رقائق الملاحة
بذل الملكان جاك الاول وشارل الاول جهوداً كبرى في سبيل التدخل في الحياة الاقتصادية . فقد انصرف إلى هذا العمل المجلس الخاص بتبأونه « لجنة تجارة » منذ السنة ١٦٢٦ وتسانده الفرقة المكونة . وبقيت التجارة البحرية حرة في المناطق القريبة من انكلترا وأسبانيا وفرنسا ، وقد استطاع صغار مجهزي المراكب ممارستها دونها صعوبة . أما التجارة البحرية في البلدان النائية أو في البلدان التي ليس بلوغها بالأمر اليسير ، فقد نظمت في البدء بسلسلة من وثائق الملاحة التي لا تختلف وثيقة كرومول الشهيرة (١٦٥١) عنها اختلافاً جوهرياً . فقد احتفظت بتجارة انكلترا مع ممتلكاتها في آسيا وأفريقيا وأميركا لسنن الانكليز والاييرلنديين أو للسفن المبنية في المستعمرات التي يملكها المهاجرون . وأوجب ان يكون القبطان وثلاثة أرباع الملاحين انكليزاً أو رعايا ملك انكلترا . وانقصت عدد السفن التي كانت رهن الطلب ، فرفعت بالفعل ذاته أجور نقل البضائع ووجهت رؤوس الاموال نحو بناء السفن وأفضت شيئاً فشيئاً إلى زيادة عددها وعدد البحارة .

فتأسست بعض الشركات التجارية . وكانت على نوعين : الشركة « المنظمة » ، والشركة المساهمة . استفادت الشركة المنظمة من احتكار تجاري اقصى عنها المنافسين . كل عضو من أعضائها يتجر بأمواله الخاصة وينصرف إلى أعماله التجارية الخاصة . إلا أن كل عضو مقيد ببعض الانظمة : البيع بسعر أدنى معين ، وعرض أصناف بمنازاة . لذلك كانت المنافسة بين الاعضاء محصورة وكانت الشركة شبيهة بجمعية الصناعيين التي تستهدف اتقاء الكساد أو قحط الانتاج . انتمى إلى هذا النوع تجار لندن المغامرون وتجار شرقي انكلترا وتجار « نيوكسل » المغامرون ، والشركة التركية . واستفادت الشركة المساهمة كذلك من احتكار محصول معين أو منطقة تجارية معينة ، ولكن رؤوس الاموال تجمع كلها فتضاعف قوة المشروع . وقد تأسست في البدء لرحلة واحدة أو لمدة محدودة . ثم غدت دائمة بعد السنة ١٦٦٠ ، فاستطاعت الشركات الاقدام على مشاريع طويلة الاجل . انتمت الى هذا النوع الشركة المسكوبية والشركة الافريقية وشركة الهند الشرقية الشهيرة التي تأسست في السنة ١٦٠٠ واستفادت من احتكار التجارة الانكليزية بين رأس الرجاء الصالح ومضيق « ماجلان » ، في المياه الشرقية ، وتمتعت بحقوق ملكية . وقد درج الملك على منح مساحات كبرى في المستعمرات للأفراد أو للشركات التي توطن فيها المزارعين أو المكترين .

والرقابة الاقتصادية وحاول جاك الاول وشارل الاول تنمية الصناعة عن طريق شركات احتكارية وانظمة جديدة ومنع الاستيراد . واسند الى عدد غفير من الضباط امر مراقبة النوعية . ولعل التنظيم في عهد الاستبداد لم يكن دون شأن في عهد كولبير . فقد صب السرد جون كولبير ، في المجلس التمثيلي جام غضبه بقوله : « ها... ان بيلا من الطفيليات قد غزا كل البلاد . اعني بذلك المحتكرين ... على غرار الضفادع المصرية ، احتلوا بيوتنا ولم يبقوا لنا غرفة واحدة ليسوا فيها ؛ يشربون في طاسنا ويفترقون من صحيفتنا ؛ يملسون قرب نارنا ، ولجندم في طستنا ... وسمونا وختمونا من رأسنا حتى أخمص قدمينا » .

ثم استقرت الحرية مع الثورة . فانهار المجلس الخاص وزالت المكوكبة وتلاشى التنظيم والرقابة . ولكن نوعية المنتوجات انهارت ايضاً . الفت الجمهورية عملياً كافة امتيازات الشركات . ولكن التجار ، الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً كبيراً ، ملأوا الاسواق بالبضائع . وهجرت الدولة عن تأمين سلامة السفن . فافضت حرية التجارة الى نتائج سيئة .

فرجع شارل الثاني في مهد الاصلاح الى نظام تدخلي معتدل لأن الطبقات الرأسمالية خرجت ظافرة من الثورة ، مع ان هذا الظفر لم يكن حاسماً . تدخلت الدولة ، بصورة خاصة ، بتدابير عامة ، كاللتشريع والجمارك والمعاهدات . واستعان الملك بمجلس تجارة مؤلف من بعض اعضاء المجلس الخاص وبعض اعضاء الشركات التجارية . قدم هذا المجلس تقاريره للملك الذي اصدر قراراته النهائية . وتدخل شارل الثاني باعتماد سياسة معاهدات تجارية مع البرتغال واسبانيا

والاقاليم المتحدة وفرنسا والدانمرك (١٦٦٧ - ١٦٦٨) . ونظم التجارة البحرية بوثيقة السنة ١٦٦٠ حول الملاحة ، التي استوحاها من وثيقة السنة ١٦٦٣ التي توسع فيها . فحصر كل تجارة بين المستعمرات واوروبا . غدت انكلترا مستودعاً ضخماً للسكر والتبغ والقطن والنيلاج والزنجبيل واخشاب الصباغة الخ . التي تشتري بأسعار منخفضة في المستعمرات وتباع بأسعار مرتفعة للخارج . وغدت المستعمرات سوقاً لا تباع فيها سوى المصنوعات والمواد الغذائية البريطانية . وتواصلت سياسة الشركات صاحبة الامتيازات . وخصت شركة الهند الشرقية ، بصورة خاصة ، بامتيازات جديدة في السنة ١٦٦١ شملت احتكراً جديداً وسلطات ملكية .

أما في الداخل فقد انخفض عدد الشركات الصناعية الاحتكارية ، التي كانت مدينة بامتيازها لصك صادر عن المجلس التمثيلي لا لشهادات رسمية صادرة عن التاج . واهملت قوانين تنظيم الحياة الاقتصادية . فلم يعد هنالك من تحقيق ولا من رقابة نوعية المنتوجات ورقابة الاسعار والاجور . فباتت الحرية الاقتصادية شبه تامة ، وسارت الاعمال التجارية على هذا المبدأ : الكسب هو وحده ما يوجه عمل التاجر . فبقيت نوعية المنتوجات متدنية .

دانت انكلترا لتدابير التوجيه الاقتصادي بالازدهار الذي بقي دونه في الاقاليم المتحدة على كل حال . وبقيت تجارة شركة الهند الشرقية ادنى الى حد بعيد من تجارة منافستها الهولندية ولم تشكل سوى جزء ضئيل جداً من تجارة الهند البحرية . فهي قد بلغت ، حوالي السنة ١٦٤٤ ، ٥٠ ٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً ، كما بلغ عدد السفن العائدة كل سنة من « سورات » الى لندن ٢٠ الى ٢٧ سفينة بمعدل حمولة كل منها ٥٠٠ طن .

ان النظام الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا قد جعل الحاجة الى تدخل
المثال الفرنسي؛
الدولة اشد الحاجة . فالمذهب الذي طلع به « برتلي دي لافماس » في عهد
الكولبيرية الدائمة
هنري الرابع ، و « مونكريتيان » (الاقتصاد السياسي) ، وريشليو ،
وكولبير ، هو لم يتغير ، كما لم تتغير اساليب الحكم في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر
ولويس الرابع عشر . ولم يأت كوليبر مجديداً سوى التوسع في تطبيق نظام كان ملكاً مشتركاً
وتقليداً بسبب تعاضل سلطة لويس الرابع عشر المطلقة وبسبب حاجات سياسته ، وانخفاض
الاسعار المضر بالانتاج ، والازمة الاقتصادية التي كانت نتيجة طبيعية لارتفاع نسبة الوفيات في
السنين ١٦٦١ و ١٦٦٢ . فقد احدث عدة مئات من المصانع الملكية بينما لم يكن في فرنسا قبله
سوى عدة عشرات منها فقط . ولكن « الكولبيرية » شمل القرن بكامله ، وتنشط كلما
توطدت السلطة المطلقة ، في عهد هنري الرابع بعد السنة ١٥٩٦ ، وفي انشاء وزارة ريشليو ،
اقله قبل « الاختيار العظيم » الذي آثر الحرب (١٦٣١) ، وفي عهد لويس الرابع عشر بعد
السنة ١٦٦١ .

الهدف سياسي قبل اي شيء آخر . يجب المؤول دون خروج « هذا الذهب وهذه الفضة

من خزائن فرنسا ليثري بها اعداء الدولة ، ومحاربة الاعداء الخارجيين الذين لن يكونوا
« المكوك » واداة صناعيينا « اقل وبالأعلى عليهم من السيف » (لافاس) .
« الشركات التجارية هي جيوش الملك ومصانع فرنسا هي رديفه » (كوليير) .

ان باستطاعة الدولة وحدها التغلب على « الصعوبات التي لا يحاول التجار
الادارة الاقتصادية التغلب عليها بنشاطهم الخاص » . لذلك تنظمت ادارة اقتصادية رسمية
كاملة . وكان جهازها الرئيسي مجلس الملك الذي عاونه مراقب التجارة العام ، « لافاس » ،
منذ السنة ١٦٠٢ حتى السنة ١٦١٢ ، ولجنة التجارة منذ السنة ١٦٠١ حتى السنة ١٦١٦ ،
وريشليو ، ناظر الملاحة والتجارة ورئيسها وسيدهما الاعلى . ولكن السلطة المركزية ما زالت
متشعبة . فقد احتفظت المجالس التمثيلية وغرف المحاسبات ، الخ . بصلاحياتها الاقتصادية ،
وليس بعد من اجهزة ادارية جديدة ذات اختصاص في الولايات . أما بعد السنة ١٦٦١ فقد
انتقلت معظم الصلاحيات الاقتصادية تدريجياً الى مراقب المالية العام ، كوليير . الا ان المستشار
وأمين سر الدولة في بعض الولايات ولو تلبيه ولو فوا في مصالح الجيش الصناعية ، قد احتفظوا
ببعض المهام الاقتصادية . وقد عاونهم مجلس ملكي للتجارة ، واسندت امور التحقيق الى
الوكلاء ومفتشي المصانع العاملين .

نظمت الدولة الاستهلاك بقوانين تقيد النفقات المفرطة ، والتجارة بتحضير المعادن الثمينة
والنقود المعدنية ، ومنع الاحتكار ، وصفقات المعينات ، وشركات المتقاربين وتحديد عدد الوسطاء
بالابقاء على المنافسة بفضل ايجاب البيع للاسواق في ايام ومواعيد معينة . ونظمت الدولة
الصناعة بقواعد عامة تحدد الطول والعرض والوزن والنوعية والصقل . وقام المفتشون العامون
وكتبة المصانع بزيارات متكررة الى المصانع والمساكن . أما العقوبات التي تعرض لها المخالفون
فقرامات نقدية وحجز وهدم ، واخيراً (١٦٧٠) نصيبة وغل .

كان الهدف الأول ، بحسب التسلسل المنطقي ، منع اخراج الأموال .
لذلك بات من واجب الدولة احداث صناعات جديدة حتى لا تضطر الى
الشراء من الخارج . وانما قد يحدث ان لا تكون لهذه الصناعات سوق
داخلية فتصبح الدولة اذ ذاك زبوناً الوحيد . والفلاحون لا يبتاعون مصنوعات حديدية كثيرة
كما ان أدوات زراعية كثيرة ، كالمساحي والمقالب ، تصنع من الخشب . وغالباً ما تصنع البواسن
نفسها من الخشب الصلب . فالدولة تكاد تكون السوق الوحيدة لصناعة الحديد ، لاجل سفنها
واسلحتها ومعدات وقصورها حيث يعالج المهندسون الحجر بالحديد . وكانت الدولة ، منذ السنة
١٦٦٥ حتى السنة ١٧٢٦ ، الزبون الوحيد لصناعة التتلك في « بومون » . وخلاصة الكلام ان
النقطة الاولى ، في التسلسل المنطقي ، هي ان يدور المال في داخل المملكة ، وهي الدولة من
ينظم حركته الدائرية الضرورية للحياة : ضرائب ، صفقات الدولة ، تسديد حساب الميارة ،

اجور العمال ، ضرائب ، وهي حركة تقضي الى توفير المصنوعات والمواد الغذائية في كل مكان .
أما النقطة الثانية فهي منطقياً زيادة هذا الحجم من المال بمضاعفة البيع الى الخارج . فيتضح من
ثم ان الصناعة هي أهم عناصر المال الفرنسي .

الدولة تستحث انشاء المشاريع . عملاء الملك يبحثون عن التجار الراغبين في انشاؤها .
الملك يرفع من مرتبة النشاط الصناعي في السلم الاجتماعي بترقية اصحاب المشاريع الى طبقة
النبلاء ، وبإعلانه ان صناعة الزجاج وصهر الحديد والتجارة الكبرى لا تحط من مقام النبلاء ،
وبزيارته الى المصانع مع حاشيته ، سواء دعي هنري الرابع أم لويس الثالث عشر ام لويس
الرابع عشر ، وباطلاق اسم الصناعة الملكية على بعض المشاريع والسماح لها باستخدام شعار
التيجان المزدانة بالزئبق .

والدولة تؤمن حياة المشاريع الجديدة بتوفير الوسائل الضرورية لها الى ان يصبح المشروع
قادراً على الحياة بوسائله الخاصة . فعملاء الملك يبحثون عليه النبلاء وكبار الاكليروس والمجالس
الاقليمية والمدن على تقديم رؤوس الاموال . والملك يرغب كذلك ، على هذا العطاء ، رجال المال
المهولين جل اهتمامهم الى التزام الضرائب والقروض الملكية . وسائل تخزين الأموال ، فيكشف
وجهم ولكنهم يمثلون بكل حقارة . كما ان الملك يخفض نسبة الفائدة القانونية ، الى ٢٦ ، ٦٪
في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٣٤ ، والى ٥ .٪ في السنة ١٦٦٨ . ويحاول تخفيف الدخول الملكية
والضرائب المباشرة ووفاء ديون المدن والجمعات . ويمنح المشاريع ذات الامتياز اعفاءات اميرية
ومساكن وابنية وتمويضات ادوات ومساعدات للاتفاق على التأسيس أو لتفذية رأس المال ،
وتعيينات لاسكان العمال والعمال المتدربين وتغذيتهم .

ويوفر الملك اليد العاملة اللازمة للمشاريع . فكولبير يعتمد سياسة تشجيع النسل ، ويعفي
من الضرائب ، الى حين ، المتزوجين في سن العشرين والعائلات المؤلفة من عشرة أولاد فما فوق .
والملك يمنع هجرة العمال لأن عملهم حق من حقوقه . والملك يجمع المتسولين في مستشفيات حيث
يكرهون على تعلم مهنة من المهن . وكولبير يلزم المتعطلين والموانس وسكان الاديرة بالعمل
للمصانع ، والآباء والامهات في مختلف الطبقات بارسال أولادهم الى التدريب . والملك يستحضر
الاختصاصيين من البندقية و هـ فلاندر ، واسوج والمانيا ويجلسهم ويزوجهم ، ويفعهم بآلائه
ولكنه يشترط عليهم تدريب العمال الفرنسيين والبوح باصرارهم .

وتضمن الدولة ، للمشاريع ذات الامتياز ، حرية العمل ضد نقابات أهل الحرف الواحدة :
حق استخدام ما يلزمها من عمال وعمال متدربين ، وحق انشاء المصانع والمستودعات التي تحتاج
اليها . ويحررها من الانظمة النقابية ويؤمن لها سلطات قضائية خاصة ، كطلب حكم قصر
العدل أو مجلس الملك .

وتؤمن الدولة تمويل المشاريع بالحامات بحرية نقلها واعفاؤها من الرسوم الجمركية والاجازة

بالتزود بها من الاحراج الملكية .

وتؤمن الدلة التعليم التقني . فالمتدربون يتمرنون في مصانع « الوفير » و « التويلري » و « غوبلين » والمصانع الملكية ، ومصانع المستشفيات ، ومدارس بناء السفن وعلم المياه السطحية في المرافئ . وبايعاز من كولبير تولت اكاديمية العلوم اصدار كتاب « وصف الفنون والمهن » (١٦٧٥) وكتاب « مجموعة الآلات » (الجزء الاول ، ١٦٧٧) . وظهرت كتب تقنية : « التاجر الكامل » ، « لجاك سافاري » (١٦٦٩) ، و « الحسابات المضبوطة » « لباريم » ، وتولت « صحيفة العلماء » اطلاق القراء على الطرائق الصناعية الجديدة . وانصرفت الاكاديمية الى محاولات الاختراعات الآلية : آلات رفع البضائع وتنسيقها ؛ آلات البذر والحصاد والتقنية والطحن ؛ شتى انواع المناويل . فقد رفعت احدى الآلات المثلث القائم في اعلى الوفير الذي وزن ١٠٠ ٠٠٠ كيلو غرام . فاعتقد « برّو » ان عهد الآليات سيبدأ قريباً .

وتؤمن الدولة الاسواق للمشاريع ذات الامتياز : طلبات ، احتكار البيع لفترة معينة ، حماية المنتوجات في السوق الداخلية بالترعفات الجمركية المرتفعة ، منع البضائع الاجنبية .

هنالك امثلة مختلفة عن المشاريع صاحبة الامتيازات . فالدولة تحمي
أمنّة المشاريع
صاحبة الامتيازات
« المصانع اليدوية الملكية » ، وهي مجموع مصانع لصناعة معينة في مكان معين . وما صناعة القلائس والجوارب في « طروا » سوى مجموع ارباب المهن الذين يعملون في هذه الصناعة في طروا .

وتحمي الدولة شركات التوصية ، ثم الشركات المساهمة بعد السنة ١٦٧٣ . يشترك الموطنون باعداد محدودة مع تجار صناعيين : اربعة شركاء في مصنع « فان روبيه » في « ابفيل » . أما في المناجم وصناعة التعدين الكبرى وصناعة الاصواف ، فالشركات حقيقية تضم تسعة مساهمين واثني عشر وسبعة عشر مساهماً ، كشركة « داليان دي لاور » ، جابي الاموال العام في مقاطعة « دوفينه » ، التي تخصصت في صناعة المدافع والمراسي والاسلحة والمصاهر .

وفي بعض الاحيان تكون الدولة تاجراً - صناعياً في مصانع الدولة . ففي مصنع « غوبلين » وهو مصنع مفروشات التاج ومدبجاته ، اثنان وعشرون رئيس مصنع . الدولة تفاوضهم قطعاً . تقدم لهم المناويل وتبيع منهم الخامات وتفرض عليهم الرسوم الايجازية والرسوم النهائية . ويفاوض رؤساء المصانع العمال ويقدمون لهم سلفات مالية .

وهناك اخيراً ادارات ملكية . فالدولة تحقق احياناً تأميمات حقيقه كما حدث في بعض الصناعات الحربية مثلاً ابان الحرب الهولندية . صودرت المصاهر في مقاطعة « نيفرنيه » . وتولى ادارة الانتاج مهندسون وعمال تابعون للبحرية . وفرض على كل مصهر تسليم وزن معين من المصنوعات . وحددت بكل دقة ارباح اصحاب المصانع والاجور واثان الخامات . وكانت هنالك ادارات اخرى ايضاً .

هناك ثلاث طرائق مختلفة للانتاج . الانتاج في المصانع الفردية الصغرى
طرائق الانتاج
والكبب
اولاً . ثم انتاج المصانع الصغرى التي تشتغل لمعمل يجري فيه تركيب القطع
والصقل والتحويل . وكانت هذه الطريقة اكثر الطرائق رواجاً لانها تتيح
النقل المجرأ . هكذا استخدمت دار الصناعة البحرية في « روشفور » المعدن الذي تنتجه مصاهر
« انغوموا » و « ليموسين » و « بريغور » ومنطقة « اللوار » واصبحت سوقاً له . وهكذا
تخصص كل مصهر في مقاطعة-نيغريه في جزء من اجزاء المرساة التي تجمعها مصانع التركيب في
« امفي » و « كوسن » . وفي صناعة الاصواف المنزول والنسج في مصانع عائلية صغرى ،
والصقل والصبغة في المعمل . فازداد عدد الصناعيين اليدويين المستقلين لان صاحب المشروع
الرأسمالي يبحث في الارياض عن يد عاملة اقتصادية وطبعة تمارس في المنزل عملاً عائلياً غالباً ما
يكون موسمياً . وفي بيكارديا انشئ في الارياض ١٩٠٠٠ منوال من اصل ٢٥٠٠٠ . وأفضت
المشاريع ذات الامتياز الى تنمية العمل الحر . فان عشرة تجار صناعيين في « اميان » يؤمنون
الحياة لـ ١٠٠ ٠٠٠ شخص يجمعون بين عمل المناويل ليلاً وعمل الحقول نهاراً . وهناك اخيراً
معامل حقيقية تضم عدداً كبيراً من العمال . ففي عهد هنري الرابع ضم مصنع انسجة « فولف »
الكتانية الناعمة في « سان - سفر » في « روان » ٣٥٠ منوالاً و ٥٠٠ الى ٦٠٠ عامل مجموعين في
ابنية يحيط بها سور مقفل . وفي عهد لويس الرابع عشر ضم مستشفى « سلبيريير » العام ١٨
مصنعا عمل في بعضها أكثر من ٢٠٠ عامل (حتى ٢٩٢) .

وكان الملتزمون من النبلاء أو من كبار ذوي المراتب في الكنيسة أحياناً . وقد يحدث ذلك
في المناجم والمصاهر ومصانع الزجاج ايضاً . اما اصحاب المشاريع ، من أمثال الدوق « دي
لورين » ، والدوق « دي مركور » ، والدوق « دي مونيسييه » ، والكردينال « دي غيز » ، والكردينال
« دي ريشليو » ، واعضاء المجالس التمثيلية ، فقد استثمروا مشاريعهم استثماراً مباشراً أحياناً .
الا انهم لزموها تليماً في اغلب الاحيان . يقدمون الابنية والادوات . اما الملتزمون فيبورجوازيون
ابناء تجار يستعينون بمخدمات مدراء تقنيين . فهناك من ثم ثلاث فئات : اصحاب المشاريع ،
الملتزمون الرأسماليون ، والتقنيون .

وقد بولغ في تقسيم العمل . فهناك ، في مصانع النسج مثلاً الغزالات ، والفصالات ،
وطارقوا الصوف ، والمنفثون والحاكة والجزازون والصباعون والحلاجون والقصارون .

نحن نقتصر إلى الارقام حول الانتاج . ففي ليون كان « فورتييه » يصنع اربعة أزواج جوارب
مقابل ثلاثة يصنعها اصحاب المناويل الحلفين . ولكن الانتاج قد بلغ شأواً بعيداً على كل حال .
ففي اميان ، انتج « فان روبيه » ، في عهد كولبير ١٢٠٠ قطعة من الجوخ الناعم سنوياً . وفي
بيكارديا انتج ١٠٠ ٠٠٠ عامل ١٨٠ ٠٠٠ قطعة من الاقشة . ولعل انتاج الملكة كلها ، في جميع
انواع المشاريع ، بلغ مليون قطعة من الجوخ سنوياً .

الدولة والتقابات
لم يكن المشروع ، في نظر الحكومة ، سوى تدبير مؤقت ، اذ كان من المفروض ان تتخذ الصناعة ، بعد تأسيسها واستقرارها ، الشكل النقابي . فقد حاولت الدولة تعميق النقابة التي رأت فيها ، بانظمتها ووكلائها وحراسها المحلفين وجمعياتها وانتظامها ، مساعداً للسلطة . فصدرت في السنتين ١٥٩٧ و ١٦٧٣ ، براءات تجعل العمل النقابي الزامياً ، فاخفقت . الا ان عدد المهن النقابية ، وان بقي متدنياً ، قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً وشمل اعظم المهن شأناً .

فرضت الدولة الوصاية على النقابات . فقد احتفظت لنفسها بحق الموافقة على الانظمة الاساسية ، واخضعت المهن لسلطتها المطلقة . وراقب عملاؤها الانتخابات . كما ان الدولة توصلت الى تقسيم ارباب المهن . وأعادت الى ما لا نهاية له انتخاب قلة من أثرياء ارباب المهن للوظائف النقابية . ولم تقبل في الهيئات البلدية سوى اغنى اغنياء ارباب المهن النقابية الهامة وجعلت منهم ارستوقراطية تستدعى الى جمعيات الاعيان والمجالس الاقليمية ويسمح لها بإرسال وفود لمقابلة الملك . واجازت لارباب المهن تخفيض عددهم بالمبالغة في الموجبات المفروضة على من يرغب في ان يصبح رب مهنة . وزاد الملك من خطورة التفاوت الاجتماعي . وحاول ان يمحصر الفوائد في عدد ضئيل من ارباب المهن وان يميز بينهم اقلية من الاغنياء المتفانين في خدمة الحكومة . وهذا ما عناء التطور الاقتصادي على كل حال . ففي ليون جعل ارباب التجارة من الملتزمين رفاقاً عاديين . اما الانتاج لاسواق اعظم اتساعا فقد افضى الى سيطرة الوسطاء .

الدولة والتضحية
بالعمال لاجل الانتاج
وزاد الملك من خطورة التباعد بين ارباب المهن والعمال . فقد ضحى العمال مادياً لمصلحة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج . وكان العمال جنوداً في جيش صناعي اسندت اليه مهمة تأمين عظمة الدولة وقوتها . فبات لزاماً ، بسبب تقلبهم وتشردهم وتبدلهم ، ان يدربوا على عمل متصل ونسق سريع ومستمر ونوعية فضلى . فغضضوا من ثم لنظام حديدي اشبه بنظام الحياة الرهبانية .

أضف او ذلك ان الدين ، الذي يوجب كمال القيام بالواجبات اليومية ، قد كان عوناً للانتاج . ففي المعامل المركزية للمشاريع ذات الامتياز ، وفي المستشفيات العامة ، يحضر العمال القداس يومياً ويباشرون العمل برسم اشارة الصليب وتلاوة صلاة معينة . الاعتراف والمناولة الزاميان في الأعياد الكبرى . وتوافق وجبات الطعام قراءات تقوية . الثروة بمنوعة في المصنع ، الا ان باستطاعة العمال ترتيب الاناشيد باصوات خافتة .

يتمتع المدير بقله السلطة في مؤسسته . العمال يشتغلون تحت رقابته ورقابة معاونيه . يعملون بالقبالة ، مما يضاعف الانتاج . يعاقبون بالغرامات المالية والمجدة والغل والالقاء من اعلى الصواري والتطبيق على أعواد المشاق ، على تأخرهم وتبدلهم وكلامهم البذيء ولجديفهم وغشهم وعصيانهم وسكرهم وترددهم على البيوت المقلقة والحانات والمخارات ووقاحتهم في الكنائس وتسردم وكل

ما قد يكون سبباً مباشراً أو غير مباشر لانخفاض الانتاج أو ارتفاع النفقات الذي قد يحملهم على المطالبة بزيادة الاجور .

الاجور ضئيلة . يوم العمل يستغرق ما بين اثني عشرة ساعة وستة عشر ساعة ، ولا يتوقف العمل الا اثناء الوجبات التي يخصص لها ثلاثون أو خمس وأربعون دقيقة . العامل يُستغل بواسطة اجره : الشركة تدفع له حقه مواد غذائية او مصنوعات تخمن ثمنها كما يطيب لها التخمين . والدولة تشل امكانيات العامل الدفاعية . تحظر عليهم الجمعيات والدسائيل . ففي « روشفور » طالب « دي ترون » بسجن صاهري المراسي الذين اشتكوا من انخفاض اجورهم . وقد اوجب على ضباط القضاء تقديم المساعدة للمتقنين كلما طلبت منهم ان كسب رب العمل ، وهو مصدر نشاطه ، يتقدم باضرورة على كل شيء آخر .

أما عمال المشاريع ذات الامتياز فيعطون من الضرائب والترصد والحراسة والخدمة العسكرية ، وتقدم لهم المساكن مع حديقة صغيرة في الأغلب ويتقاضون منحة عند الزواج وعند ولادة ابنكارهم ويستفيدون من الاسعافات الطبية . وباستطاعتهم ان يصبحوا اربابهم من دون ان يستلزم ذلك منهم طرفة رائعة أو نفقات خاصة .

ويخضع ضباط القضاء رفاق النقابات والعمال المستقلين لنظام مماثل باستثناء الامتيازات . التدريب يستغرق مدة طويلة (خمس سنوات) . التكتلات والاضرابات ممنوعة . على العامل ان يتقدم خطياً بطلب صرفه من الخدمة كلما تبدل رب مهنته ، وهذا ما يبادل بطاقة العمل النابوليونية . في السنة ١٦٦٦ التي عشرون عيداً من أعياد البطالة ، فأنزل عددها الى ٩٢ . النظام العام هو لا تبدل فيه .

وجدت الزراعة تشجيعاً لها في انطلاقة الصناعة وتزايد الطلاب عليها . استورد الدولة والزراعة كولبير الاكباش من انكلترا واسبانيا بغية تحسين الاجناس الوطنية . ونشطت الدولة الزراعات الصناعية ، المعظم والقوة والكتان والقنب والتوت ودودة القز . وقدم الملك البذار والماشية للفلاحين وأعفاهم من الضرائب في سنوات القحط وطلب منهم الخنطة والمشروبات الروحية والخمور والمقدرات ، لاجل الجيش والمشاريع العامة . فتواصلت من ثم اعمال اصلاح الاراضي تتولاها جمعيات الفلاحين أو البورجوازيون الميسورون كالأطباء والتجار وضباط القضاء السيدي الذين يقومون باستثمار الاراضي الجديدة . وانشأ بعض الاسياد استثمارات جديدة فأحيوا الارض وخططوها وأعادوا تجهيز المزارعين بمحوانات القرن وحموا الاستثمارات المضاعفة الانتاج واستولوا على بعض الاراضي المشاعية بالاختيار ووضع اليد فالت الحكومة قتلهم حيناً (١٦٠٠ ، ١٦٢٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٨٣) واجت عليه حيناً آخر (١٦٦٧ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٧ ، ١٧٠٢) بحسب ميلها الى حماية الفلاح الصغير أو الى زيادة الانتاج .

الدولة والتجارة الخارجية نظممت التجارة الخارجية ، كما في انكلترا والاقاليم المتحدة ، بوثائق ملاحية (قانون « ميشو » ، ١٦٢٩ ، التعرفة الجمركية ، ١٦٦٤) وشركات تجارية ، وحماية جمركية (تعرفه ١٦٦٤ وتعرفة ١٦٦٧) لم يتوصل الملك الى فرضها في مناطق حدود المملكة ولم تشمل الولايات كلها . وازداد حجمها بفضل المستعمرات . وقد حلم ريشليو وكولبير يجعل مستعمرات المناطق المعتدلة ، ككندا واكاديا مثلاً ، ارضاً فرنسية جديدة .

جاء النجاح عظيماً . فاكسبت المنتوجات الفرنسية شهرة النوعية الجيدة . وحوالي السنة ١٦٧٠ صدرت الاجواخ الفرنسية مثلاً الى ايطاليا ، واسبانيا ، والمانيا ، وموآنىء الشرق الادنى ، والهند .

٦ - الدعارة الملكية

لقد سعى الملوك وراء استعادة وحدة المشاعر المؤاتية للملكية المطلقة . فالآداب والفنون والدين يجب ان تقرب باستمرار من الخدمة العامة . والقوانين يجب ان تخلق في رعايا الملك ميلاً الى النظام وتسلسل السلطة وتعيد اليهم توازنهم الداخلي وتسهم في توحيد نزعاتهم . فاضطر الملوك الى تشجيع الكلاسيكية التي تمتاز علم سنن جمال الوحدة . ويكفي هنا ان نقدم مثل فرنسا . ففي فترتين مختلفتين ، اي بين السنتين ١٦٣٠ و ١٦٤٠ ، والسنتين ١٦٦٠ و ١٦٨٠ ، رافقت غلبة الكلاسيكيين على منافسيهم سيطرة السلطة المطلقة في هذه البلاد بفضل الحماية الملكية . وقد حاولت الحكومة شيئاً فشيئاً ، ايقاف اتباع الملك في وجه اتباع الأسياد من الفنانين وأهل الأدب ، ثم حل التبعيات الثانية بحيث لم يبق من نصير للآداب والفنون ، في عهد لويس الرابع عشر ، سوى الملك .

الدعارة الادبية الدولة تراقب المطبعة والمكتبة . وتحاول تحديد عدد اصحاب المطابع لمراقبتهم مراقبة اجدى . مستشار فرنسا ، ثم الملك منذ السنة ١٦٦٦ ، يستقبلان اصحاب المطابع الجديدة . ولكنها لا يستقبلان منهم سوى عدد ضئيل . ف منذ السنة ١٦٦٧ حتى السنة ١٦٧٦ هبط عدد المطبعين المكتبيين ، في باريس ، من ٨٤ الى ٣٦ . وقد جمعوا في المدن الكبرى وفي احياء خاصة ، تحت رقابة ضباط القضاء . وحظر على الاديرة والكليات والافراد اقتناء المطابع .

مستشار فرنسا هو وحده من يرخس بالطبع . اسندت مراقبة المطبوعات الى كلية اللاهوت في باريس أولاً ، ثم مارسها ، منذ السنة ١٦١٢ ، مراقبون ملكيون . منعت كل المنشورات التي تعالج شؤون الدولة وكل المؤلفات التي تهاجم الجلالة الملكية والاخلاق والدين . وراقب الضباط

الملكيون البيع وبيع التجول والمستودعات وطاردوا مؤلفي الاعلانات الشتمية والاغاني والاهاجي والكتب المنوعة وعاقبهم بالغرامة المالية والسجن والنفي والاشغال الشاقة . أما المؤلفات التي تشكل خطراً كبيراً فيحرقها الجلاد بيده .

الدولة تراقب الصحافة وتوجهها . فهي من اوجت بـ « المركور الفرنسي » منذ السنة ١٦١١ . كما ان الاب « جوزيف » ، صاحب النياقة الرمادية ، قد اسهم في الادارة . وكان لريشليو صحافيون رهن اشارته ، « فنكان » ، « بليتييه » ، « فرييه » ، « صوفي » ، « رينودو » . وحين اسس « رينودو » « جريدة فرنسا » ، في السنة ١٦٣١ ، اعد له ريشليو ولويس الثالث عشر مقالات غير رسمية .

الدولة تراقب تمثيل المسرحيات . فعلى الممثلين ان يعرضوا المسرحيات والادوار على وكلاء الملك في المحاكم العدلية . ويسهر الضباط الملكيون على الامن اثناء التمثيل .

كان لهنري الرابع شعراؤه الخاصون ، « شعراء اللوفر » ، « برتو » ، « فوكلين ديزيفتو » ، « دي برون » ، « مالرب » . وقد نظموا الشعر بناء على طلب الملك ولخدمته ، والفوا الاناشيد والقصائد القصيرة وقصائد المناسبات ، ولادات العائلة الملكية وأمراضها ووفياتها وانتصاراتها . ولكن الملك قد ترك شعراء عديدين يدخلون في خدمة المعطاء .

الأكاديمية الفرنسية حاول ريشليو ، على نقيض هنري الرابع ، جمع اهل القلم ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، في خدمة الملك . وجد بين المالريين اعظم مساعدي الملكية تفانياً ، وبين الملحنين ايضاً ، لأن هؤلاء يطمحون الى ارسنوقراطية الفكر ويزدرون بالجاهل والارتيابيين ، فساروا بسهولة وراء السلطة المطلقة الظاهرة . علم ريشليو ، عن طريق « بوارويير » المقرب اليه ، ان اشخاصاً عدة يجتمعون ، منذ السنة ١٦٢٩ ، عند احد امناء بير الملك ، « فالنتين كورنار » ، للتداول في شؤون الادب . ففرض ريشليو عليهم ، في الاشهر الاولى من السنة ١٦٣٤ ، ان يؤلفوا جمعية صاحبة امتياز ، الأكاديمية الفرنسية ، استاثر هو بلقب ودور حامها ، وعززها بثلاثة من مستشاري الدولة وبمحافظة اختام الملك . وقد وقعت الشهادات الملكية بذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٥ .

عينت للأكاديميين مرتبات شهرية وخصصوا بانعامات . فتوجب عليهم من ثم التفتي بمجرد الملك ووزيره . في السنة ١٦٣٥ نشروا « البارناس الملكي » تمجيداً « لمآتي الملك المسيحي جداً والفاضل جداً لويس الثالث عشر » ، و « قربان عرائس الشعر » تقريراً جماعياً « للكردينال العظيم ريشليو » . واليهم ينتسب بعض من وقفوا في وجه الصحفيين الاسبانين والفلمنكيين : « هاي دي شاتليه » ، « جان سيلون » ، « مستشار الدولة » ، و « جان سيرمون » ، ابن شقيق مرشد الملك .

اراد ريشليو ان تجعل الأكاديمية من اللغة الفرنسية والادب الفرنسي اللغة والادب الاولين

في أوروبا ، « هذه اللغة التي تتكلمها والتي قد يتكلمها كافة مجاورينا قريباً اذا استمرت فتوحاتنا كما بدأت » . وقرر الاكاديميون « وضع القواعد لمفرداتها وجملها بقاموس مستفيض واجرومية واضحة جداً ، ثم العمل على « وضع علم بيان وعلم قريض يكونان دستوراً لمن يرغب في الكتابة شعراً أو نثراً » ، واخيراً تقديم نماذج النثر الفرنسي المنقح بخطبة اسبوعية . وفي السنة ١٦٣٧ تقدمت الاكاديمية بملاحظات حول « السيد » .

ان حماية ريشليو جعلت أهل القلم يشمرون بكرامتهم ودفعت بهم الى الانتاج . فسياسته وحرره جعلت الناس يمشون في جو من التوتر الادبي والتصميم على النصر والعزة القومية ولا « يفتخرون بالانتساب الى شعب عظيم والاسهام في عمل سيسجله التاريخ » . ففجرت الانطلاقة القومية المؤلفات الادبية .

ما زالت الاكاديمية الفرنسية جemie خاصة تحميها الدولة . وحدين توفي المستشار « سيفيه » في السنة ١٦٧١ ، امم كولير الجمعية ، ووضعها تحت حماية الملك ، وقدم لها الوفرة منندي ، وخصصها باعتمادات مالية لكتبتها وقرطاسيتها وقدفثتها وانارتها ، وبكافآت الحضور لاستمعجال العمل . فاعتبرت الاكاديمية انها « خادمة » جلالة . واستمرت على جعل الفرنسيين اكثر قدرة على العمل لاجل مجد الملك بمعرفتهم اللغة معرفة فضلى .

« كل مفردات اللغة وكل مقاطعها تبدو لنا ثمينة لاننا ننظر اليها كما الى ادوات يجب ان تستخدم لاعلاء مجد حامينا العظيم » (راسين) .

مجد الملك بشتى انواع التقاربط . وقد وضع شابلين لائحة بالمؤرخين والشعراء الواجب منحهم الانعامات ، ضمت عدداً كبيراً من الاجانب ، الفلورنسيين والهولنديين والالمان . فتلقوا سفتجات وشارة لى « السلوك الواجب عليهم سلوكه للاعراب عن امتنانهم » .

دافعت الاكاديمية عن مذهب « النظاميين » . فاذعن له الكتاب الفرنسيون كي يصبحوا اكاديميين . هكذا قضت « الحكمة » . ويتضح من كل ذلك ان الدولة عززت موقف المجتمع من الحس المستهجن .

لم يكن من وسيلة لانطباع عظمة الملكية في النفوس خير من البناء
الدعارة الفنية :
هنري الرابع والتجمل الملكي
وتزيينه للذين كانا سبيلاً « للتأثير على عامة الشعب واستمالتها »
ايضاً . أراد هنري الرابع ان يدخل على المدينة نظام الدولة
بالذات . يجب ان يسيطر العقل على المدن سيطرته على الفكر . والعقل يعبر عنه بالهندسة . لذلك
فان الملك يريد تحقيق انشاءات كبرى متناقصة الاجزاء وساحات عامة هندسية الشكل وشوارع
ومجموعات بنائية متقابلة ومتناسبة . ولكن كما ان الملك في الدولة يرثس الامة ، وكما يجب ان
تخضع الافكار الثانوية المعارضة للفكر الرئيسي ، كذلك يجب في الممدن ان تنظم المجموعات

البنائية حول بناء مركزي ملكي حتى يحترم التسلسل في المدن كما في الدولة .

لأجل توفير الهواء لحياء باريس التي يرتفع عدد سكانها بسرعة كلية والتي تنبعث منها روائح كريهة جداً ، قرر هنري الرابع فتح ساحات عامة وشوارع كبرى ومنتزهات . فأمر في شهر حزيران من السنة ١٦٠٥ بإنشاء الساحة الملكية . وقد انجز بناء الملك وبناء الملكة في السنة ١٦٠٧ ؛ وبيعت لبعض الاسياد العظام والبرلمانيين والضباط اراض تتسع لاربعة وثلاثين بناء . الساحة الملكية هي نموذج ساحات النهضة وساحات الملكية المطلقة . ان الانسان ، بحسب روح النهضة ، يسيطر على هذه المساحة المغلفة ، المحدودة ، المتميزة ببيوت غير مرتفعة . وبحسب روح المجتمع المنظم والمتسلسل السلطات ، تحيط الزناوير الحجرية الافرقة وشبكات الزوايا الحديدية بالجدران القرميدية وتتقابل الاشكال وتنضض . وبحسب روح السلطة المطلقة تنظم البيوت المماثلة انتظاماً متناسقاً بالنسبة لبناء الملك والملكة ؛ الساحة العامة عارية تتجه الشوارع الى وسطها حيث سينصب في المستقبل تمثال الملك وحده ، مركز كل شيء ، المشرف على كل شيء ، المؤله ، الاله على الأرض . واحداثت ساحات عامة اخرى مماثلة .

في هذه الاثناء ، اظهر الرسامون للفرنسيين كيف يجب عليهم ان ينظروا الى الملك . ففي اللوفر ورواق الملوك ، روت الصور التي تزين السقوف قصصاً مستعارة من الميثولوجيا والمهد القديم ، ومثلت ابطالها بصورة هنري الرابع ، تأليف كلا المصريين القديمين ، الانسان الكامل ، المستنير والمسير بروح الله .

وقد احب هنري الرابع ، على غرار لويس الرابع عشر من بعده ، ان يري ابنيته بنفسه للاجانب ويدهشهم ويرهبهم بجلاله . ولكن كبار اعيان المملكة نسجوا على منوال الملك ، كالدوق « ديبرون » في قصر كاديلاك . فكان لزاماً على الملك ان ييضم . الا ان ريشليو ، حيال هذه النقطة ، لم يفلح في اقناع لويس الثالث عشر ، الملك المقتصد ، فاضطر الى الاكتفاء بقصر اميري ومدينة جديدة احدثت لتكون له اطاراً ، في ريشليو .

لouis الرابع عشر
فأشرف بنفسه على اعمال البناء ، يعاونه كولبير ناظر الابنية العام
وثأيم الفنون : الاكاديميات
(١٦٦٤) ، و « لو برون » ، الخبير في حقل التزيين ، والاكاديميات
التي تهيم المواضيع وتدرس المشاريع وتوزع العمل وتراقب التنفيذ وتفرض النمط . في السنة ١٦٦٣ ، امم كولبير اكااديمية التصوير والنقاشه . في السنة ١٦٧١ ، تأسست اكااديمية هندسة المعمارة ؛ وفي السنة ١٦٧٢ ، اكااديمية الموسيقى . وتحولت جمعيات خاصة في الولايات الى فروع لأكاديميات باريس الكبرى . واخيراً انشئت في السنة ١٦٦٨ اكااديمية روما وضعت منذ السنة ١٦٧٦ تحت سلطة الاكاديمية الملكية للتصوير والنقاشه . فأسمى الفنانون منذ ذلك التاريخ في مركز يحسدون عليه . كان الرسام يتلقى علوم الاكاديمية ويذهب الى روما لاستكمال تخصصه

ويعود ليدخل في خدمة الملك ويستلم من « لوبرن » المواضيع المطلوب التوسع فيها وفقاً لتواعد تفرضها الأكاديمية . منذ السنة ١٦٦٤ حتى السنة ١٦٧٤ درجت أكاديمية التصوير والنقاشة على عقد مؤتمر شهري ، يدرس فيه المجتمعون تمثالا أو لوحة ويتناقشون وينهون نقاشهم بقاعدة تدون في سجل خاص . فتوطد في الفن رأي مشترك فرض نفسه .

أوحى الملك بتشييد اقواس النصر تمجيداً لانتصاراته (باب سان دنيس
التجميل
في عهد السلطة المطلقة ١٦٧٣ ؛ باب سان - مارتين ، ١٦٧٤) . وبرزت ساحات ملكية عامة
معدة لأن تحيط بتمثاله . وشق الدوق « دي لا فوياد » باريس ونصب في
ساحة الانتصارات تمثال لويس الرابع عشر لـ « ده جاردين » : الملك « ساحق » سربروس ،
المثلث الرؤوس . وعند التدشين ، سار الدوق في مقدمة فرقة الحرس التي يقودها ودار ثلاث
مرات حول التمثال و « قام بكل ما كان يقوم به الوثنيون أمام تماثيل اباطرتهم » . وفي زوايا
الساحة اتقدت باستمرار منائر مقامة فوق الاعمدة في فوانيس من البرونز المذهب تذكر بالمصاييح
المقدسة أمام الايقونات . وأمر الملك بتشييد قصور واسعة الأرجاء اذهلت سكان الولايات
والاجانب بمظمتها وتناسقها الكامل ايضاً الذي ينم عن نظام حديدي . ان صف الاعمدة
الكبير الذي صممه « شارل برتو » (١٦٦٧ - ١٦٧٤) واشرف على تنفيذه في اللوفر يتميز
بتناسبه الكلاسيكي : فعلى كلا جانبي المحور الوسطي تتوازن اجزاء البناء بقناطر وتقابل .
وعلى كلا جانبي الجزء الوسطي ، من البناء الذي تعلوه جبهة مثلثة الزوايا ، ينسط جناحان
كبيران فلسفهما الاعمدة الكورنثية الكبرى التي تتعاقب مثنى ومثنى الى اجزاء زاوية تزيناها
ركائز ضخمة . كما ان الاساس و سطوح الاعمدة والافاريز تبرز الخطوط الافقية ، فتترك في النفس
انطباع عظمة ثقيلة . الا ان فقدان السقوف ، والدرابزونات الايطالية النمط ، وقفاة وجه
البناء الابيض ، تستجيب لمجتمع تهده الدولة التي تبطله ، وتذكر بالتزيين المسرحي الذي استهوى
لويس الرابع عشر في شبابه ، عند « مازارين » ، والذي اضطر مهندسو العمارة لاضافته الى
الكلاسيكية الفرنسية . ويذكر بالتزيين المسرحي ايضاً وجه قصر فرساي المطل على الحديقة .
ففي فرساي انشأ الملك ، على مراحل ، المدينة الملكية ذات الطرق المؤدية الى القصر الملكي ،
الذي يستدبر المدينة ويطل بوجهه على حديقة « له نور » ويمتد على « رقاص مهيب » هو
الحديقة الكبرى ، حيث نسقت الطبيعة ، التي يسيطر عليها الانسان السيد ، تنسيقاً يتناسب مع
شئ ابنيته ، ونظمت لاجل حياقه الجمعية . أما في مقر « مارلي » الملكي (١٦٧٩ - ١٦٨٦)
فقد صمم كل شيء للتذكير بان الملك هو مركز العالم وكوكب الكون الساطع . ففي مشهد
مسرحي ، وحول مسكن جوبتير ، انشئ ١٢ بناء اهديت لبعض الرموز المجردة أو لبعض
الالهة : الشهرة ، الغزارة ، أبولون ، منيرفا ، الخ ، التي تواكب سير الالهة . وشيدت الكنيسة على
احد الجوانب قبالة البناء المهد للحرس ، كما لو كان الرب الاله ، هو ايضاً ، أحد ضباط السيد الملك .

ان في ترتيب كل هذه القصور لسياسة مستخلصة من كتاب تصوير عهد السلطة المطلقة « التحولات » لا وفيد . فرواق المرايا يروي قصة الملك . وقد رسم « لو برون » صور السقف الرمزية تمجيداً للملك . وتلقي « تعليقات » « فيليبيا » على غرفة الملك في قصر « تولري » ضوءاً على فن التصوير في الابنية الملكية : « ان كل هذه الصور المستوحاة من تاريخ ابولون توافق الشمس وترمز ، علاوة على ذلك ، الى ما في الملك وما اثره . فهو صاحب الجلالة من يجب ان نراه في اللوحة الوسطى بصورة ابولون ؛ وهو من نراه محاطاً بهالة من المجد ؛ وهو من يبدو متسامياً فوق كل شيء ومن ينشر انواره على الارض ويشير الاعجاب في كافة أنحاء العالم بفضل وقاره وخصاله الرفيعة » . وما عقوبة مارسباس ، الذي « سلخ حياً لتجاسره على مجازاة ابولون » سوى « صورة القصاص الذي يستحقه اولئك الغلاظ المعجبون بأنفسهم حين يتجاسرون على مساواة انفسهم بأمرنا في فن قيادة الشعوب » .

آلت الطريقة المعتمدة في كل مكان الى تصوّر امثلة عامة والى رد « كل شيء الى المثل المطلق » ، قالت بها الفلسفة المدرسية الاكوسينية ، ونادت بها الفلسفة الكروتزيانية التي تتميز بالتجريد واقضاء الفردية والسعي وراء المطلق . اساءت الكنيسة الظن في ديكارت ، وفي السنة ١٦٧١ حكمت السوربون على مؤلفاته وأمرت بان لا تدرس سوى تعاليم ارسطو . كان الملك مقيداً بقسم التكريس ، فحظر تعليم الكروتزيانية ، ولكنه لم يمنع انتشار هذا المذهب بواسطة الكتاب والندوات الاجتماعية لأن روحه لم تكن بعيدة عن تلك التي تحرك الوزراء والفنانين .

لقد رأى الملك ابداً ان في الوحدة الدينية تكيل السلطة المطلقة .
الدعارة الدينية :
اضف الى هذا ان قسم التكريس ألزمه بالقضاء على الهرطقة .
تأخر الروح البروتستانتية
واعتقد كل رعاياه ، الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، « بان الخلاف في الدين يشوه وجه الدولة » : « ايمان واحد ، شريعة واحدة ، ملك واحد » . اضف الى هذا ايضاً ان فتوراً في الايمان ورغبة في الاتحاد مع الكاثوليك قد برزا شيئاً فشيئاً ، خلال القرن ، في الاوساط البروتستانتية . وقد مال الكلفينيون ، امام تعدد الشيع والكنائس وامام الفوضى البروتستانتية ، لان يروا في الدين مستودعاً موضوعياً لحقائق راهنة جاهزة يتوجب على سلطة منظورة ان تستخلصها من الكتاب المقدس وتفرضها فرضاً . وكانت المجالس الادارية للرعاة البروتستانت تضع انظمة قاسية جداً . فباتت الكالينية سلسلة اوامر ونواميد بعد ان كانت عبادة روحية . فانفصل بعض البروتستانت عن تعليم كلفين واصبحوا ارمينيون ونقلوا بعض عبادتهم الى شخص الملك ورأوا بان للملك حقاً مطلقاً على الاشياء الخارجية ، ومن ثم على العبادة . وامسى معظم البروتستانت لامبالين بالعقيدة فد يكتفون ببعض التنازلات حيال النقائص التي تثير شعورهم : عبادة الايقونات ، الابتهاال الى القديسين ، مناولة العرضين السريين ، الصلوات باللغة العامية . ورأى غيرهم ، ممن كانوا اشدّ تصلباً ، بان مذهب بيروول يقرب وجهات النظر الكاثوليكية والبروتستانتية ويسهل الارتدادات والاتفاقات .

ارتد بعض المصلين الى العقيدة الكاثوليكية منذ عهد لويس الثالث عشر : ابن « سولي » ، الدوق « دي ليديفير » ، الدوق « دي لا تريوي » ، وكان ارتداد هذا الأخير أبان حصار « لاروشل » . وقد أسهم الميل الى النظام في حدوث الارتدادات . وفي عهد لويس الرابع عشر ، لم يميز « تورين » ، تلميذ تيلينوس الارمني بين المذهب البروتستانتي المشيخي والجمهورية ، واعتبر هذه الأخيرة مفسدة لكل نظام بشري والهي . « ان استقلال الرعا يتنافى وكل نظام » . وفي السنة ١٦٦٨ ، كفر بمعتقدته .

تعاظم شأن البورجوازيين تعاظماً مطرداً في اوساط البروتستانتية . الا انهم كانوا يخافون ، في حال اندلاع الثورة ، عامة الشعب من جهة ، ودكتاتورية احد الاشراف ، كـ « روهان » ، مثلاً ، من جهة ثانية . وكانوا حريصين على الاحتفاظ بمركزهم لانهم تولوا وظائف مالية كبرى في البلاط ، ووظائف قضائية هامة ، ومحاكم بدائية كاملة في الجنوب ، ولانهم كانوا بالاضافة الى ذلك تجاراً وصناعيين . فاكسبوا كلهم روح الحكمة ومحبة النظام والفوارق الاجتماعية . ولم يكن للدين في حياتهم شأن كبير .

انتهى البروتستانت ، الذين تباهاوا من جهة ثانية بانتسابهم الى ملك عظيم ، الى النظر الى لويس الرابع عشر كما الى ابن الله ، عطاء الله ، والاعتقاد بان عقم الاثنين وعشرين شهراً الذي سبق الحمل به دليل على تدخل الاله في هذا الحمل . اخلوه الى جانب الله . وفي السنة ١٦٥٧ ، قال له مندوبو كنائس الاصلاح : « رأينا في السياسة لا يختلف عنه في الدين . نحن نعتقد بان الرعية غير قادرة على استحقاق اي شيء من سيدها وانها ، حتى ولو ادت له كل الخدمات الممكنة ، لن تستطيع ابتغاء أي انعام من انعاماته الا اذا ابتغته ابتغاءها للنعمة » .

توصل الملك من ثم الى اخضاع البروتستانتية تدريجياً . فقد اتفق ^{الدولة} ^{واخضاع البروتستانتية} اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت ، بصدد الوسائل ، على اعتماد تعاليم القديس اوغسطينوس . على الدولة حماية النفوس الضعيفة من جور العقول القوية حين تسقط هذه العقول في الهرطقة . عليها استرجاع الهرطقة بتدابير قسرية تكون لها قيمة علاجية . الحقيقة هي شمس الروح . ولكن يجب ان تتوجه اليها البصيرة الداخلية ، المادة وقائماً البيئة وسلطة السيد تمنعها من ذلك . لذلك يجب ازالة هذه العقبات بالتهديد ، والحرمان من الانعامات ، والقسر والعنف .

قضى الملك في الدرجة الاولى على الحزب السياسي البروتستانتي . ألتاحت انقسامات البروتستانت . لويس الثالث عشر وريثليو احتلال « لاروشل » (١٦٢٨) ثم لإحقاق الهزيمة بشوار الجنوب . رفض الملك التفاوض في الصلح على قدم المساواة بين سلطتين . في ٢٣ حزيران ١٦٢٩ ، منح العفو المعروف بمفو « آليه » . اعفي عن الثورة واعيد العمل ببراءة فانت ، ولكن بالبراءة وحدها : يجب ان تهدم كافة تحصينات المدن وتحمل المنظمة السياسية والعسكرية

البروتستانتية . فلم يعد من وجود للجمهورية البروتستانتية . وسلك البروتستانت منذ ذلك التاريخ سلوك الرعايا الأوفياء . فكان جزاء اخلاصهم اثناء ثورة المقلع اثبات براءة فانت في السنة ١٦٥٢ .

حاول الملك بعد ذلك تحقيق وحدة الكنائس . فكر ريشليو برد البروتستانت عن طريق مفاوضة دينية على صعيد قومي . ويقال انه توصل الى اقناع ٨٠ راعياً . عاد لويس الرابع عشر الى المفاوضات منذ السنة ١٦٦٢ . حوالي السنة ١٦٦٥ ترأسها مجلس غير رسمي ضم بين اعضائه تورين وبوسويه . نشر بوسويه كتابه « عرض الايمان الكاثوليكي » (١٦٧١) وهو « روعة الاصلاح المضاد » . اقترح تورين استقالة ٥٠ راعياً وافتتاح مؤتمرات يدعون اليها والتاس الايضاحات من البابا وابطال براءة فانت التي باتت غير ذات موضوع . الا ان الحروب التي حولت انتباه الملك ومقاومات الكلفينيين المتصلبين ادت الى فشل كل المساعي . استخدمت الرشوة منذ اوائل ولاية لويس الرابع عشر ، فاغدت الاموال والانعامات على البروتستانت . ومنذ السنة ١٦٧٤ ، ادار مؤرخ الملك « بليستون » ، البروتستانت المرتد ، « صندوق الارتدادات » ، الذي وزع المكافآت المالية ، « قاعد القلوب لعمل النعمة » . واستخدم الملك رساليات الكبوشيين ودور نشر الايمان ، فحصلت ارتدادات محصورة العدد .

ولكن الملك ، في الوقت نفسه حرم متصلبي الرأي من انعاماته واخذ يفسر البراءة تفسيراً مشدداً ملزماً . بدأ العمل بهذا الاسلوب بعيد عفو « آليه » ثم بولخ في استخدام . واخذت جمعية القربان المقدس تستحث القضاة . وطالبت جميعيات الاكليروس « بمحدود ضيقة » . وقد مهد الطريق أمام هذا الاسلوب كتاب « جان فيليو » ، الهامي في محكمة بواتيه البدائية الذي جمع ، بين السنة ١٦٤٥ والسنة ١٦٦٨ ، كافة القرارات التفسيرية لبراءة فانت ، وكتاب « برنار » ، المستشار في محكمة بيزيه البدائية (« شرح براءة فانت » ، ١٦٦٦) . ليس ما يمنع اسناد وظائف الدولة الى البروتستانت ، ولكن « هذه المادة من براءة فانت لمحصر الاهلية لتولي الوظائف العامة برعايا جمهورية لاروشل البروتستانتية » دون ان يكون هنالك موجب لان يتولوها . وهكذا خلبت البراءة شيئاً فشيئاً من مضمونها واضطهد البروتستانت . واخيراً لجأ الملك الى العنف . منذ السنة ١٦٨١ ، استحصل الوكيل « دي ماريلاك » في « بواتو » ، على اذن باسكان الفرسان في منازل السكان : فحققت اعمال العنف بعض الارتدادات في السنة ١٦٨٥ ، اعتمد هذا الاسلوب في كل المناطق . فكانت نتيجة مآثر الجيوش افلاس الضيوف بفعل متطلبات الجنود ، وشتهم وضربهم اذا لم يسمعوهم أقوال الكبوشيين ، ونساء يحمرن بشمرهن ، وتمذيباً بحرق الارجل بالنار ، وحرماناً من النوم ، واغتصاباً . ارتد البروتستانت آنذاك باعداد غفيرة . فبدت براءة فانت منذ ذلك التاريخ وكأنها غير ذات موضوع والقيت في ١٨ تشرين الاول من السنة ١٦٨٥ ببراءة « فوتينبلو » .

الدولة والجنسية
اعلن الملك على الجنسية حرباً لا هوادة فيها . اعطى صفة القانون ، في
السنة ١٦٥٣ والسنة ١٦٥٥ ، لمراسم البابا اينوشنتيوس العاشر بالحكم على
الهرطقة . في السنة ١٦٦٠ اصدر الامر بان تحرق « اقليميات » باسكال بيد الجلاذ . ثم اوجب على
رجال الكنيسة توقيع قانون ايمان قويم . وأدب دير « بور رويال » ، مركز الشيعة ، بطرد
الداخلين والمبتدئين (١٦٦١) وسجن الراهبات (١٦٦٥) . واخيراً توصل الدبلوماسي « دي
ليون » ، بمهارته ومراوغته ، الى تظاهر الجنسين بالخضوع ، و « سلام الكنيسة » .

الكنيسة الفليكانية
كان الملك مصمماً على قيادة كنيسة فرنسا وتركيز كل سلطة في شخصه
وتحقيق الوحدة الدينية من حوله وارغام البابا على الاكتفاء بسلطة
روحية وهمة . وكان قد شرع عملياً بتعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة ، واعطاء أو رفض صفة
القانون لمقررات المجامع : اي ان الكنيسة قد امست تحت حمايته . وساند الملك في موقفه هذا
المجلس التمثيلي ، والبورجوازية والسوريون وصغار رجال الاكليروس ، بدافع عداء قومي
غريزي للبابا ، واحترام حريات الكنيسة الفليكانية وحقوقها وامتيازاتها . فالملك في
نظرهم يستمد سلطاته الزمنية مباشرة من الله ، كما يستمد البابا سلطاته الروحية . وليست
سلطة الملك من ثم دون سلطات البابا صفة الهية ، بل هي مساوية لها ومستقلة عنها . الملك
حامي الكنيسة وحارس زمنياتها ، فهو يتمتع من ثم بكل سلطة على نظام كنيسة فرنسا
وزمنياتها . لا يحق للبابا ان يحرمه أو يحل رعاياه من قسم الوفاء أو يبت في نظام اكليروس
فرنسا وزمنياته . للمجلس التمثيلي وللمجلس الملك الحق في ابطال انظمة السلطة الكنسية التي تثبت
تباقيها وقوانين المملكة واعرافها ، والانظمة المتخذة في فرنسا التي تفرض الارادة الملكية .

الا ان الفليكانية قد انطوت على طابع لا يخاف من الخطر . فان « ريشيه » ، الفليكاني الهام
ونقيب كلية اللاهوت ، انبرى يؤكد (١٦١١) ان المسيح لم يعط سلطته للقديس بطرس وحده
بل لجميع الاساقفة الذين يخلفون الرسل الاثنى عشر ، والذين يتمتعون من ثم بحق الهي على
قرار البابا ، ويجب ان يكونوا مستقلين عنه . والكنيسة كذلك يخلفون الاثنى وسبعين تلميذاً .
فليست الكنيسة من ثم ملكية شاملة بل ارستوقراطية قومية . الا ان ريشيو قاوم تعليم ريشيه :
ان من يرغب في ادخال الارستوقراطية الى الكنيسة لا يمكن ان يقاومها في الدولة . فارغم
ريشيو ريشيه على الرجوع عن تعليمه (١٦٢٩) . ولكن ضرورات السياسة الملكية ارغمت
الكردينال بدوره ، على الرغم من ميوله البابوية ، على الابقاء على التوازن بين الفليكانين والبابا .
لا بل يبدو انه طمع بلقب بطريرك « غاليا » الذي كان من شأنه منحه السلطة الروحية على
كنيسة فرنسا . ولكن البابا تظاهر بالصمم على ما يبدو .

ان الضرورات السياسية حملت لويس الرابع عشر على محاولة تنظيم كنيسة غليكانية
تكون بمثابة النذ للكنيسة الانغليكانية . انطلق في محاولته من حق التعمين في الرتب الكنسية

المرتبطة بعدد من الاسقفيات وجمع دخولها اثناء شغور المراكز الى ان يقسم الاساقفة الاصليون بين الاخلاص . أراد لويس الرابع عشر ، لاعتبارات مالية ، ان يشمل حقه هذا كل الاسقفيات الخاضعة له . فاصطدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر . وضمت الجمعية العامة لكنيسة فرنسا « بيان البنود الاربعة » في السنة ١٦٨٢ . ذكر البيان بنظرية السلطة المزدوجة ورفع رقابة الكنيسة وحكمها عن السلطة المدنية ، واكد تفوق الجامع العامة على سلطة البابا ، واعلن ان سلطة البابا مقيدة بالجامع والاعراف القومية ، ورفض عصمة البابا في مسائل الايمان واخضع صعدة مقرراته لحكم الكنيسة . جعل لويس الرابع عشر من هذا البيان قانوناً و اضاف الى قوانين الدولة . فاصبح تدريس تعاليمه الزامياً في كافة انحاء المملكة . تمتع الملك من ثم بسلطة زمنية مطلقة على الكنيسة وبات قادراً في الحقل الروحي على رفض رسوم البابا المعقائدية التي لم تقارن بعد بموافقة مجمع مسكوني ، ففقد رئيساً لكنيسة قومية تخضع خضوعاً كلياً لسلطة الدولة المطلقة ولا يربطها بالبابا سوى رابطة الاحترام .

ان لهذه الرقابة على الحياة الفكرية والفنية والدينية ما يماثلها في كل البلدان التي الفومارية
تدين بالسلطة المطلقة او تلك التي تحاول تحقيق هذه السلطة . فلم تخل منها الاقاليم المتحدة ، مع انها كانت متساهلة نسبياً . ففي الهود الفومارية التي توافق في الزمن عهود توسع سلطات امير اورانج ، سنت قوانين صارمة قيدت المسرح وفرضت حفظ يوم الرب واتخذت التدابير ، حتى في الاقاليم التجارية والبورجوازية ، كهولندا وزيلندا ، ضد الكاثوليك الذين لم يسمح لهم الا بالعبادة الفردية : منع التجمع لحضور الذبيحة الالهية او اي احتفال ديني آخر ؛ منع الكهننة من دخول البلاد ؛ السباح لكل مواطن « بتشويش الممارسات البابوية » ، ليلاً ونهاراً ؛ مكافآت للواشين ؛ عقوبات غرامة مالية وجلد ومصادرة الممتلكات .

٧ - التوازن الاوروي

والتمسك في تنظيم اوروبا

الاحلاف ضد
تسلطية آل هسبورغ
اهتدت فرنسا الى الهدف : انفاذ الحريات الاوروبية من مدعيات آل هسبورغ بالسيطرة الشاملة ، والوسيلة : اتحاد الشعوب الاوروبية باخضاع خلافتها الدينية ومطامعها الفردية للهدف المشترك . التجهت السياسة نحو نوع من الوحدة الكلاسيكية . باتت فرنسا مركز المقاومة وشهدت المزائم ونظمتها . حتى السنة ١٦٣٥ ، قامت بحرب « صامتة » ، مصلحة ذات البين بين خصوم العدو المشترك ومقدمة لهم المال وواضحة يدها على النقاط الاستراتيجية . في السنة ١٦٣٥ ، دخلت في حرب معلنة ضد اسبانيا ، وبالتالي ضد الامبراطور .

توصل ريشليو منذ السنة ١٦٢٩ الى حل اسوج وبولونيا على عقد هدنة بينها، وحذا مازارين
 حذوه في السنة ١٦٤٥ بحمل اسوج والدانرك علي عقد الصلح فيما بينهما في «برومسبرو». في السنة
 ١٦٣٦، استطاع ملك اسوج، غوستاف - ادولف، بعد ان اخلي سبيله، النزول الى اليابسة في
 «ستتين». ولكنه كان مفتقراً الى المال. حينذاك عقد الكردينال ريشليو الكاثوليكي جداً،
 مع غوستاف - ادولف اللوتري جداً، معاهدة مساعدات مالية (باروولد، ٢٣ كانون الثاني
 ١٦٣١) لتأمين الاتفاق على الجيش الاسوجي الذي كان مقدماً على غزو المانيا ومحاربة ملك سلالة
 هبسبورغ الكاثوليكي جداً. دام التحالف الاسوجي الفرنسي حتى السنة ١٦٦٧؛ وجدد ريشليو
 تحالفات فرنسا مع كلينيبي الاقاليم المتحدة (١٦٣٠). ثم جددت هذه الاتفاقات تكراراً
 قبل السنة ١٦٤٨. وتوصل ريشليو، ثم مازارين من بعده، الى الاتفاق مع ترنسلفانيا،
 الامارة الهنغارية الخاضعة لسيادة الاتراك، فقام راکوكرزي، امير هذه المقاطعة التابع الخاضع
 للكفرة، بغزو النمسا. ووجد ريشليو، ثم مازارين من بعده، اغضاداً لها في المانيا على
 الامبراطور، لاسيما عضد «مكسيميليان دي بافير» الذي كان متخوفاً من مطامع امير
 هبسبورغ اسبانيا في البالاتينا، ونظماً تكررراً، بين البروتستانت والامبراطور، ما يشبه
 فريقاً ثالثاً كاثوليكياً المانيا. وجلي ان هذه الاتفاقات لم تحل من الصعوبات والصدمات. فان
 غوستاف - ادولف، الذي احرز النصر في «بريتنفلد»، قد شرع في غزو المنطقة الريمانية،
 متجهاً بإبصاره نحو الازراس ومهدداً بتقدمه بفصل فرنسا عن حلفائها ومحاولاً ان يجمع حوله
 امراء المانيا الشمالية من البروتستانت ليجعل منهم امبراطورية بروتستانتية ليست دون
 الامبراطورية الكاثوليكية خطراً. الا ان وفاته ابان المعركة في «لوتزن»، حيث انتصر ولاقي
 حتفه، كانت خشبة خلاص لريشليو على الرغم من ان ضعف اسوج وهزيمة الاسوجيين في «نورد
 لنجن» (١٦٣٤) قد ارغما فرنسا، في عهد لاحق، على دخول حرب معلنة.

سواء كانت الحرب صامتة أو معلنة، فهي تعتمد على تشجيع الثورات والمؤامرات عند
 العدو. فالاسبانيون تحالفوا مع المظلماء الثائرين على ملك فرنسا، الدوق «دورليان»، والدوق
 «دي بويون»، «مونيورنسي»، و«تيمهدوا» بارسال ١٨٠٠٠ رجل الى «سك مارس» لدعم
 ثورته، مقابل استرجاع الاراضي التي يحتلها الفرنسيون، وقاوضوا «كونديه» والمقلاعين
 وقدموا لهم فرقاً عسكرياً في باريس مع اعلامها الحمراء الحاملة صليب القديس اندراوس
 واستقبلوا اللاجئين والامير «دي كونديه» والدوق «دي يورك» والملكيين الانكليز الذين
 حاربوا في معركة الـ «دون» في صفوف الاسبانيين (١٦٥٨). ولكن ريشليو من جهته قد
 ساعد الكتالونيين الثائرين على فيليب الرابع الذين نادوا بلويس الثالث عشر «كونت برشلونا»،
 (١٦٤٠) وتحالف في السنة ١٦٤١ مع البرتغاليين الثائرين على اسبانيا وارسل لهم مالا وعتاداً.
 وساند مازارين سكان نابولي المتمردين على السيطرة الاسبانية (١٦٤٧).

ما زال له « ستراتيحية الواحق » دورها الاول في العمليات الحربية. النتيجة ستراتيحية الواحق الحاسمة ليست سهلة المثال . يقتضي يوم كامل لتوزيع صف من الجنود مؤلف من ٣٠.٠٠٠ رجل على خطوط الجبهة في وجه العدو . اذا رغب العدو عن المعركة ، فان لديه متسما من الوقت لينسحب انسحاباً منظماً . ويقتضي لمطاردته ان يعيد الجيش صفه ، ولكن الجيش لا يستطيع دخول المعركة حينذاك . لا تدور المعركة الا اذا وافق عليها القائدان وصرفا الوقت اللازم في تنظيم جيشيهما وبعثاً لوجهه ؛ يجب إرغام العدو على دخول المعركة بانتزاع مستودعاته ونقاط مروره . وهذا يصح على الاخص في الرقعة الفلنكية التي تتشابه فيها الانهار والاقنية . ولا حيلة ، امام الحصون القائمة عند ملتقى الانهر ، الا في احتلال كل مربع على حدة بالاستيلاء على الحصون والجسور والمستودعات . ويصح القول نفسه عن مناطق النواتى او الجبال . كالمنطقة الهرسينية في اوروبا الوسطى ، والالب والبيرينيه حيث يجب الاستيلاء تدريجياً على حصون الجازات وتقاطع الودية . ولكن الحصون كثيرة في كل مكان . فكل تمون يصبح مستحيلاً على مسيرة خمسة ايام من المستودع ، ويضاف الى ذلك ان جنود الحملات العسكرية لا يجهزون بأسلحة تمكنهم من الدفاع طويلاً عن أحد الجسور او أحد المواقع . فيقتضي من ثم انشاء موقع محصن في كل منها . وبالتالي فان الحرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً .

كان هم المحاربين الاكبر الاستئمان الى « ابواب » الممالك التي يستطيع بواسطتها السياسة ستراتيحية الابواب صد الغزو وشل العدو بخشيته من الهجوم ، ثم الاستئمان الى خطوط المواصلات الأوروبية . وقد عمل الفرنسيون قبل سواهم بهذه الستراتيحية والسياسة التي تنجم عنها بسبب وجودهم في موقع يحتل وسط الصراع . لذلك استولى ريشليو على « بينرول » ، « باب » ايطاليا ، التي يستطيع الفرنسيون انطلاقاً منها تهديد ميلانو ، مركز التسليح الاسباني ، وقطع الطريق العسكرية ، المارة في ايطاليا ، من أسبانيا الى الاقاليم المتحدة . وقد تصلبت فرنسا حتى ١٦٩٧ في رفضها الجلاء عن هذا الموقع . وأنقذ ريشليو « لافلتين » ووضعها تحت سلطة أسيادها القدماء ، الـ « غريزون » البروتستانت ، وأمن لفرنسا استخدام الممرات استخداماً مانعاً مطلقاً (١٦٢٤ و ١٦٣٥) ، لان « لافلتين » مهمة جداً للاسبانيين لوصول دول ايطاليا بدول المانيا ، وأزلق ريشليو الفرنسيين نحو الرين حيث تتشابه الجيوش الامبراطورية والاسوجية والاسبانية واللورينية ، وحيث يتنازع المتحاربون رقبات الجسور . ومنذ السنة ١٦٣٢ ، أمر ريشليو تدريجياً بالاستيلاء على مواقع اللورين المحصنة واستحصل على حق مرور الجيوش الفرنسية في الدوقية . ووضع « منتخب تريف » تحت حماية فرنسا واستولى لمصلحته على « فيليبسبورغ » و « اهرنبرستين » ، وحمى اسقفية بال وكونتيية مونبليار لمصلحة دوق « ورتنبرغ » ، واقفل بذلك باب بورغونيا . في كانون الاول ١٦٣٣ ، ادخل الكونت « دي هانو » الفرنسيين الى ثلاثة من مدنه في ألزاس السفلى ، « بشولر » ، و « انغولر » و « نولر » . وفي كانون الثاني ١٦٣٤ ، طلب الكونت « دي سالم » ، محافظ

مقاطعة « هاغلو » ، حماية فرنسا لهاغنو و « سافرن » . وفي ٩ تشرين الاول ١٦٣٤ قفاوض « هنري موخ » وكيل اتحاد « كولار » ، في ستراسبورغ مع ملك فرنسا ، باسم كافة مدن ألزاس العليا : فقد قبل بدخول حامية فرنسية على ان تحتفظ هذه المدن بحكوماتها وامتيازاتها الدينية . وأمر ريشليو في السنة ١٦٣٨ بالاستيلاء على بريزاخ ورقبة جسر الهامة . وطلب مازارين الى تورين وكونديه احتلال « فريبورغ » (بريسغو) حارسة المهابات الجنوبية الى « الحرج الاسود » ، و « سبير » و « ورمس » ، و « ماينس » ، (١٦٤٤) . وارسل مازارين جيشا لمهاجمة الحصون الاسبانية في توسكانا بغية قطع طريق ناقلات الجيوش الاسبانية بين نابولي ومنطقة ميلانو (١٦٤٦) .

لم تسلك فرنسا هذا السلوك الابوحي الاسباب . الاستراتيجية . فلا ريشليو ولا مازارين نهجا سياسة حدود طبيعية . كثيرون من الفرنسيين فكروا في ذلك . فان نقائص الخرائط الجغرافية التي تمثلت الانياز فيها بخطوط ثخينة والجبال بخط من التلال الصغيرة التي تذكر بمحدور متواصل ، قد اشاعت الرأي بان الحدود الثابتة يجب ان تكونها امات طبيعية كالانهار والجبال ، وقد عينت « تاويلات » ، قيصر ، حدوداً لفرنسا ، جبال الالب وجبال البيرينيه ونهر الرين . ولكن نظرات رجال الدولة الفرنسيين كانت واقعية .

ان حرب تقويض الجيوش العدو والاندفاع حتى عاصمة العدو لم حرب تقويض الجيوش تعد من المستحيلات . فالجيوش زادت قدرتها على القتال والحركة . واستفاد غوستاف - ادولف من دروس اللاجئين الفرنسيين البروتستانت ، من أمثال « بونتوس دي لا غاردي » ، فاحكم أدوات الحرب واسقطاع بذلك اعتماد فن حربي جديد . خفف وزن البندقية ، فبات بمكنة حاملها اطلاق النار بدون اسنادها الى شيء . واستخدم الخرطوش المصنوع من الورق المقوى لحشوة البارود . وتجهزت عدة فرق من فرقه بالبندقية ذات الدواب . قبات سرعة اطلاق النار عند الاسوجيين بالنسبة لها عند الامبراطوريين ، تعادل نسبة ٥ الى ١ . وبات حامل البندقية يحشوها في الوقت الذي تستغرقه ثلاث أو أربع ظلقات . وبات من ثم باستطاعة غوستاف - ادولف الاكتفاء بستة جنود عمقا من حاملي البنادق ، وبثلاثة احيانا . يرتب الجنود صفوفاً الواحد على مسافة خطوات من الآخر بسبب اخطار الانفجارات المفاجئة التي تحدثها الفتائل المشتعلة ، وعلى مسافة خطوات بين الصف والآخر ، للسبب نفسه وحتى يتمكن مطلق النار من الاندساس بين الصفين والوقوف وراء صفه يحشو بندقيته بينما يطلق رفيقه النار ، بحيث يستمر الاطلاق دونما انقطاع . وبات باستطاعة غوستاف - ادولف تقسيم المشاة كتائب صفرى مستقلة اقل كثافة وأسرع حركة . واصبحت نيران الاسلحة الحربية اكثر فعالية ضد فرق الخيالة ، فبات بمكنته زيادة عدد حاملي البنادق ورقمه الى ضعف عدد حاملي الحراب . واستخدم حشوة البارود الجاهزة بغية الاسراع في اطلاق نيران المدفعية ، وزاد عدد المدافع ، وزود المشاة بمدافع صغيرة من عيار ٤ سم يمكن دفعها بالايدي بغية مواكبة الفرق اثناء الهجوم

ومساندتها بنيران المدافع حتى هجمة الالتحام الاخير . أما مشاة ، وهم ضعفا خيالاته ، فقد حطموا ، بأسلحتهم النارية وحرايمهم على السواء ، هجمات خيالة العدو ، وانهكوا بنيرانهم مشاة العدو وقضوا على معنوياتهم ومهدوا الطريق للغارة على خيالاتهم . ما زالت فرق الخيالة سلاح النتيجة الحاسمة . توزع على الجناحين لحماية الشاكلتين ، اللتين هما نقطة الضعف عند فرق المشاة ، وتحاول اخلاء ميدان المعركة من فرسان العدو لمهاجمة مشاته جانبياً . تهاجم بنيران الأسلحة ، يساندها حاملو البنادق الموزعون بين كتائب الخيالة ، وتطلق نيران الطبنجات ، ثم تسير خبيئاً وتكرر على العدو بالأسلحة الابيض . وقد تبني روح اصلاحات غوستاف - ادولف اشهر قادة اوربوا العسكريين ، الفرنسيان تورين وكونديه ، وقائدان في خدمة الامبراطور ، « مرسى » والاطالي مونتيكوكلي . وقد رفع هؤلاء نسبة حاملي البنادق الى اربعة وخمسة اضعاف حاملي الحراب .

فاصبح من ثم تدمير جيش العدو اكثر سهولة . واخذ كبار القادة العسكريين ينظرون كلهم الى الحرب كما نظر اليها نابوليون : حصارات قليلة ومعارك كثيرة ، لأن المواقع العسكرية ستستسلم بعد احراز الانتصارات في الأرض المكشوفة ؛ الهدف الرئيسي : العدو ابنا وجد . وقد عبر عن الوحدة الكلاسيكية في الفن العسكري بارتباط الأسلحة المختلفة التي تعمل كلها لمصلحة السلاح الاول ، اي الفرسان ، وباخضاع كل الحركات لغاية واحدة : ضرب العدو في الصميم بعد القضاء على جيوشه . ان في هذه النظرة لمجرد نزعة نحو مثل اعلى . فهناك جيوش كثيرة دمرت في ميدان المعركة ، كالجيش الاسباني الذي قضى عليه فرنسيو كونديه في « روكروا » ولنس (١٦٤٣ - ١٦٤٨) والجيش الامبراطوري الذي قضى عليه تورستنسون في ليزينغ (١٦٤٢) . ولكن دون استثمار النصر خرط قتاد . فان الحاجة الى المؤن والمال ما زالت ترغم المنتصر على التوقف في اغلب الاحيان ، وهذا ما حدث للاسبانيين المندفعين نحو باريس بعد استيلائهم على « كوربي » ، (١٦٣٥) ولتورستنسون الذي وصل الى مسافة ٢٥ ميلاً من فيينا (١٦٤٢) ، ولكونديه المتعطش الى الاندفاع نحو عاصمة النمسا بعد معركة « نورد لنجن » (١٦٤٥) . ولكن ريشليو ومازارين واصلا اعادة تنظيم الجيش بمساعدة بعض المدنيين . فشرع امينا سر الدولة للشؤون الحربية « سوبليه دي نوييه » و « لوتليه » من بعده (منذ ١٦٤٣) في معالجة المسألة من جميع نواحيها . حرص وكلاء الجيش على ضبط دفع الاجور وتوزيع المواد الغذائية في اوقاتها ، ونظروا في الجرائم التي اقترافها الجنود ، وارغموا موالي الجيش على انشاء المستودعات المقررة وعلى تسليم المؤن الجيدة . وحين اتفق الاسوجيون والفرنسيون اخيراً على توحيد جهادهم والقيام بعملية هجومية مشتركة ، احرز النجاح تاماً . فقد كان تورين و « رانجل » زاحفين على فيينا ، بعد انتصارهما على البافاريين في « زوسمار سهوزن » (ايار ١٦٤٨) ، حين علما بتوقيع معاهدات وستفاليا .

المؤتمرات الأوروبية كان من المفروض ، بحسب فكرة روجها البابا منذ السنة ١٦٣٥ ، ان ينعقد مؤتمران في وستفاليا ، احدهما في «مونستر» للدول الكاثوليكية والثاني في «اوسنابروك» للدول البروتستانتية . ومع ان موعدهما قد حدد في ٢٣ اذار ١٦٤٢ ، فانها لم يفتتحا رسمياً الا في ٤ كانون الأول ١٦٤٤ . فكان على فرنسا وحلفائها في مونستر ، وعلى الامراء البروتستانت والدول البروتستانتية ، في اوسنابروك ، ان يجروا مفاوضات مع الامبراطور وحلفائه . أما في الواقع فقد كان المؤتمر اوروبياً لأن كل الدول تمثلت فيه باستثناء البعير والسلطان وملك انكلترا . احتلت المدينتين الصغيرتين جواهر غيرة بعد ان اعلن حيادهما اثناء المفاوضات . وتبارت وفود الدول الكبرى فيها اية في عرباتها الفاخرة وملابسها الرسمية وكرماً قائماً في استقبالاتها .

استغرقَت المفاوضات وقتاً طويلاً . كانت المسائل المطروحة معقدة . وكان على المؤتمرين ان يتبادلا استطلاع الرأي في كل شيء وان لا يفصلا في شيء الا بالاتفاق بينها . ولجأ الدبلوماسيون بصورة خاصة الى التسوية والمباينة املاً منهم بنجاح عسكري يحسن موقفهم . عقد صلح منفرد بين اسبانيا والاقاليم المتحدة في ١٥ ايار ١٦٤٨ . ومرد ذلك الى ان مازارين قد انفرد في اقتراحه على فيليب الرابع مقايضة كتالونيا ، التي كان الفرنسيون سائرين في احتلالها ، بالاقاليم المنخفضة الاسبانية ، رغبة منه في ان يجعل من باريس « حصناً منيعاً لا يرام » . وقد سبق للهولنديين ، حين كانوا يخشون جانب اسبانيا ، ان اقترحوا على ريشليو تقاسم الاقاليم المنخفضة بغية الحصول على ايد فرنسا . ولكن ريشليو رفض الاقتراح لانه آثر تيسير استقلال المنطقة التي اصبحت بلجيكا فيما بعد . أما الآن وقد امسى ملك اسبانيا مستضعفاً والفرنسيون اقوياء ، فرغب الهولنديون عن مجاورة الفرنسيين لهم . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٦٤٨ وقعت في آن واحد معاهدتا اوسنابروك ومونستر ، اي « صلح وستفاليا » ، « أو « دستور » أوروبا الجديدة .

«الدستور» الأوروبي كرسَت المعاهدتان في الدرجة الاولى انقسام الامبراطورية والمانيا وعجزهما . وقد اعتبرت هذه النصوص قانوناً امبراطورياً ونظر اليها رجال القانون كما الى دستور الدولة الالمانية . غدا ملك فرنسا وملك اسوج كفيلين « للحريات الجرمانية » . تمتع الامراء الالمان باستقلال يكاد يكون ناجزاً . استغادوا من « الرئاسة الاقليمية » ، الشبيهة بالسيادة ، وحق لهم التفاوض مع الدول الاجنبية وفيما بينهم لضمان سلامتهم . يضاف الى ذلك ان الامبراطور لم يعد عملياً يستطيع شيئاً بدون المجلس التمثيلي للاقاليم الذي سيطر عليه المعجز بدوره بفعل الحاجة الى اجماع الاصوات في كل المسائل الهامة .

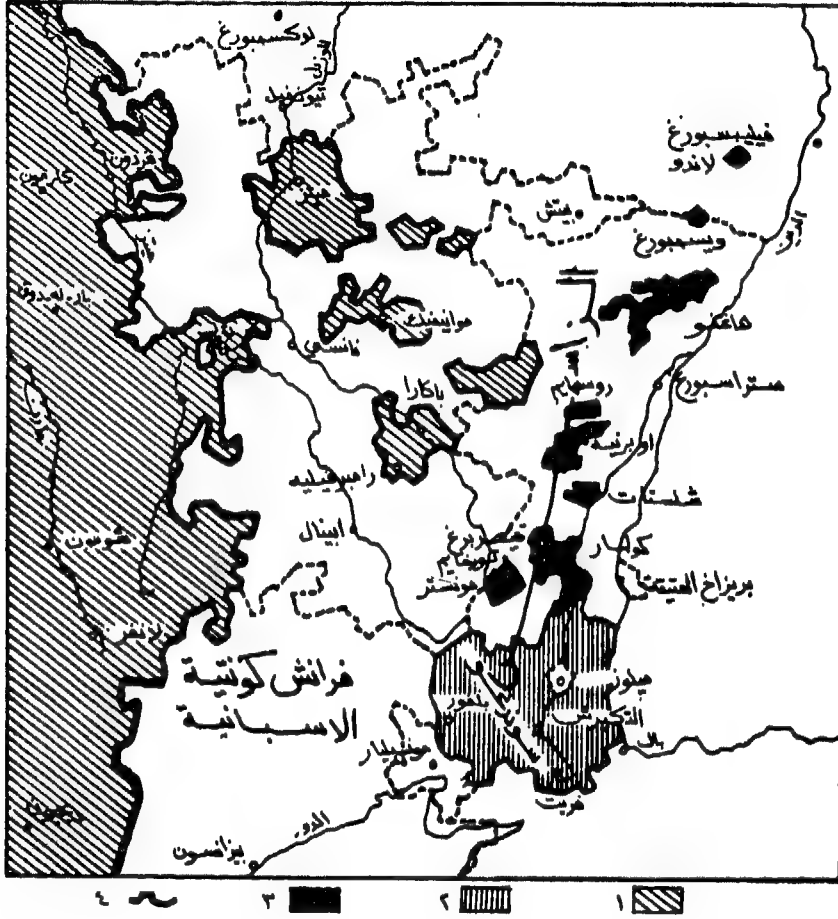
تأمن توازن القوى في الامبراطورية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين كانوا حلفاء اسوج وفرنسا على كل حال . أقر في البدء نوع من التساهل الديني بين الدول . وشمل صلح اوغسبورغ الامراء الكلفينيين ، واعترف بشرعية الكلفينية اسوة باللوثية ، واستفاد الامراء من هذا

السويسرية الناجز . وحصلت اسوج ، تمويضا لها عن نفقات الحرب ، على اقاليم تشيخ لها تأمين سلامة « البحيرة الاسوجية » ، بمراقبتها مصاب الانهر الالمانية وطرق التجارة المؤدية الى السهول الالمانية : بومرانيا الغربية مع مصاب الاودر ومرفأ ستتين ، واسقفيتا برمين وفردن المعلننتان ، اللتان تشرفان على مصب الفيرو غربا ومصب الإيلب شرقا . وحصل ملك فرنسا على « ابواب » تقوم على الطرق العسكرية الكبرى . وظفر بالسيادة على اسقفيات « متز » و « تول » و « فردون » المحتلة منذ هنري الثاني . كما ظفر في الالزاس بكل ما امتلكه الامبراطور فيها باعتباره رئيس سلالة النمسا وبكل الحقوق التي تتمتع بها باعتباره امبراطورا . في هذا العجاج من الجمهوريات والمدن الحرة والامارات الكنسية والسيادات ، في هذا الاختلاط الالسي والديني والثقافي ، حيث تكلم ألزاسيو وديان « الفوج » العليا اللغة الفرنسية ، وغيرهم الالمانية ، وسوادم لهجات مختلفة ، وحيث كان ثلث السكان لوثريين والثلثان كاثوليكين ، وحيث سيطرت الحضارة الجرمانية على الرغم من الآثار العميقة التي تركتها السيطرة الرومانية ، نرى بصورة خاصة اماراة الالزاس العليا ، ومنطقة صلاحية محكمة هاغنو الكبرى ، وارااضي امبراطورية ضمها بعض الاقطاعيين الى اقطاعاتهم ، كراضي آل « ريبوبير » حول « ريبوفليه » . وقد صيغ تسليم هذه الاراضي بكلمات غامضة ، ومتناقضة في اغلب الاحيان : فقد حسب المفوضون المطلقو الصلاحية ان الاقوى سيفسرها لمصلحته في المستقبل .

كان مقدراً لآل هبسبورغ ان يتخلوا مرغمين عن السيطرة الشاملة . ولكن
معاهدة البيرينيه وخلافة ملك اسبانيا
امير هبسبورغ اسبانيا رفض التسليم بالهزيمة . بعد ان عقد الصلح مع هولندا ، استدعى مفوضيه المطلق الصلاحية . ولما كان دوق اللورين حليفا لاسبانيا ومستقلا عن الامبراطورية منذ السنة ١٥٤٢ ، استمر الاحتلال الفرنسي لهذه الدوقية وتواصل النزاع بشكل حارب فرنسية اسبانية . ولكن التشوش النقدي والاقتصادي في اسبانيا ، وثورة المقلع في فرنسا ، جعلها تطول زمنا طويلا . واخيرا اتفق مازارين مع « كرومول » الذي لم يستطع الحصول من ملك اسبانيا ، فيليب الرابع ، على فتح اسواق الهنه الغربية للتجارة الانكليزية . وقع الطرفان معاهدة تحالف صريح في ٢٣ اذار ١٦٥٧ . تمكن تورين ، يسانده الاسطول الانكليزي وقوة ائزال مؤلفة من ٦٠٠٠ انكليزي ، من احراز النصر في معركة « الدون » (١٤ حزيران ١٦٥٨) . لم يبق للملك اسبانيا لا جيش ولا مال . وفقد الأمل بتلقي العون من النمسا . فقد توفى مازارين الى حل مجلس المنتخبين على الزام الامبراطور ليوبولد بان لا يتدخل في حروب ايطاليا ودائرة بورغونيا . ولضمان تنفيذ هذا التمهيد ، ألّف منتخبو « تريف » و « مابلس » وكولونيا الكنسيون ، واميرا نويبورغ و « هس - برونسويك » خط حياد كفلته اسوج وفرنسا ، فاضطر ملك اسبانيا الى الانحناء .

نوقشت شروط الصلح على نهر « بيداسوا » ، في جزيرة الموتر ، منذ شهر نيسان ١٦٥٩ حتى حزيران ١٦٦٠ . وقعت معاهدة البيرينيه في ٤ حزيران ١٦٦٠ اقبلت بموجبها حدود

فرنسا في وجه الغزو . واستعادت فرنسا او غنمت مناطق « ارقوا » و « روسيئون » و « سردانية » التي كان ريشليو قد استولى عليها ، ومواقع هامة على الطرق المؤدية اليها : « غرافلين » ، « لندرسى » ، « لو كينوا » ، « افين » ، « فيليفيل » ، « مارينبورغ » ،



الشكل ١٠ - الممتلكات الفرنسية ، الزاس في السنة ١٦٤٨

١ - مملكة فرنسا - ٢ - اقاليم تجارية غنمتها فرنسا - ٣ - المدن الامبراطورية العشر - ٤ - حدود فرنسا

« موندي » . واستعاد دوق اللورين دوقيته ، ولكن فرنسا احتفظت « بالارغون » ، « ترويلنا » ، والطريق الحرة لجيوشها .

زد على ذلك ان الاتفاق الفرنسي الاسباني قد اعطى فرنسا امكانية منع امير هسبورغ النمسا من ان يضم الى ممتلكاته وراثه عرش اسبانيا ويعيد امبراطورية شارل الخامس . فاقتضى

اتخاذ بعض الاحتياطات بالنظر الى حقوق الامبراطور في خلافة فيليب الرابع . تزوج لويس الرابع عشر من ابنة ملك اسبانيا البكر ، ماري - تريز ، حتى لا يتزوج منها امير هابسبورغ النمسا ، الامبراطور . فرض فيليب الرابع ان تتنازل عن ارث ابيه . ولكن الدبلوماسي الفرنسي « دي ليون » ادخل هذا التنازل في عقد الزواج « مقابل » ٥٠٠.٠٠٠ دينار ذهباً ، علماً ان الخزينة الاسبانية اعجزت من ان تدفع هذا المبلغ . احتفظت من ثم ابنة ملك اسبانيا بحقوقها التي انتقلت الى لويس الرابع عشر ، زوجها . يضاف الى ذلك ان التنازل كان باطلاً على كل حال : ان حقوق ماري تريز المتصلة اليها بفعل نسبها لا يمكن ان تكون موضوع تنازل ، ولذلك استقبح الاسبانيون انفسهم عمل ملوكهم ولم يأخذوه بعين الاعتبار . فكان من ثم باستطاعة لويس الرابع عشر المطالبة بنصيبه من الارث واحباط مطامع الامبراطور عند الاقتضاء .

ان انتهاء الاعمال الحربية أتاح لفرنسا فرض ساطتها في أوروبا . التحكيم الفرنسي في اوربا كانت اسوج في حالة حرب مع كافة دول السواحل البلطيقية ، روسيا ، بولونيا ، براندنبورغ ، الدانمرك ، ومع هولندا . فخشي مازارين الامكانيات التي توفرها لامير هابسبورغ النمسا خلافاً البروتستانت الشماليين . توفى الى عقد الصالح بين اسوج والدانمرك في كوبنهاغن ، وبين اسوج وبولونيا وبراندنبورغ في « اوليف » (ايار - حزيران ١٦٦٠) . وقد استمر لويس الرابع عشر في لعب دور الوسيط هذا في مستهل حكمه الشخصي .

وهكذا عاد السلم والاتفاق في أوروبا الى سابق عهدها . اما اسمها
فكانت : تساهلاً دينياً تسبياً ؛ توازن القوى بين دول كبرى تفصل
بينها دول صغرى كانت لها بمثابة القطيعة ، كالأقاليم المنخفضة
الاسبانية بين فرنسا والأقاليم المتحدة ، او كحلف الرين ، الذي تشرف عليه فرنسا ، وبافير ،
بين فرنسا والنمسا ؛ واخيراً التحكيم بين الدول الأوروبية تجريه دولة راجعة السلطة والنفوذ ،
فرنسا ، وبالتالي تكريس المراتب بين دول أوروبا . وحين اقدم لويس الرابع عشر على خوض
حرب نقل الحقوق (١٦٦٧) واعتبرت سياسته محاولة جديدة للهيمنة وبسط السيطرة ، بدا
وضع أوروبا وكأنه خطوة أولى نحو مثل أعلى ، فاستوحاه الفيلسوف الألماني، لينينز ، ووضع في
السنة ١٦٧٠ مخطط اتحاد لأوروبا . اعتبر التوازن غثلاً والمانيا ضعيفة لا تقوى على احباط
مطامع جيرانها ، فاقترح تقويتها بتحويلها الى اتحاد دول متحالفة تتمثل في جمعية واحدة يكون
لكل دولة المانية فيها حق الجلوس والاقتراع . بهذا تمنع الاعتداءات المحتملة الوقوع ويصان سلم
أوروبا . ولكن أوروبا تتميز بمرارتها الخلاقة والفاتحة . يقتضي صمام امان لهذه القوة . قد
تحوّل الى استثمار القارات الأخرى . يكون لكل دولة اوروبية نطاق عمل وفتح في هذه
المستعمرات تجنباً للنفاسات والاصطدامات ، اسوج في سيبيريا ، انكلترا والدانمرك في اميركا

الشمالية ، اسبانيا في اميركا الجنوبية ، هولندا في الهند الشرقية ، فرنسا في افريقيا ومصر . فلن يحاول لويس الرابع عشر حينذاك تحقيق الملكية الشاملة ، والسيطرة بقوة السلاح ، بل يكتفي بممارسة التحكم الشامل . وتابع ليبينر في الوقت نفسه محاولة سلامية كبرى ، هي تحقيق وحدة الكنائس ، بالاتفاق مع بوسويه الذي كان منصرفاً الى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في فرنسا ؛ وقد نشر بوسويه آنذاك « شرع العقيدة الكاثوليكية في المواضيع المختلف عليها » الذي كان له أثر عم اوروبا (١٦٧١) ، واتصل به « بوفندورف » ، مهذب ولي عهد اسوج حيث كان الاجتماع مرغوباً فيه ، وتولى في « سان جرمين » هداية دوق « اوسنابروك » زوج حفيدة المنتخب البابائني ، وأعد مشروعا للمناولة تحت العرضين السريين ارضاء للبروتستانت . وفي الامبراطورية بذل الفرنسيون كل ما في وسعهم من اجل « سبينولا » جهوداً كبرى منذ السنة ١٦٧٥ لتحقيق المصالحة بموافقة الامبراطور البابا « اينوشنتيوس » الحادي عشر . وفي السنة ١٦٧٩ ، وافق البابا على « شرح » بوسويه . فأمكن للبينز تأمل تنفيذ مخططة ، وهو تحقيق مثالية العمل المنجز في معاهدات وستفاليا والبيرنيه .

الفصل الثالث

المظاهر الجديدة للأزمة

لم تتكشف وسائل مقاومة الأزمة الا عن كفافها الضروري موازنتها ، دون ان تمكن من التغلب عليها . فكان لا مخلص مثلاً من تقنيات زراعية اخرى ، اي من نماذج اخرى للملكية العقارية ، وبالتالي من أنظمة اجتماعية وسياسية غير تلك المعمول بها في البر الاوروي ، حتى تزول الأزمة المزمنة في المواد الغذائية . يضاف الى ذلك ان استعمال العلاجات نفسه قد خلق اسباباً اخرى للأزمة .

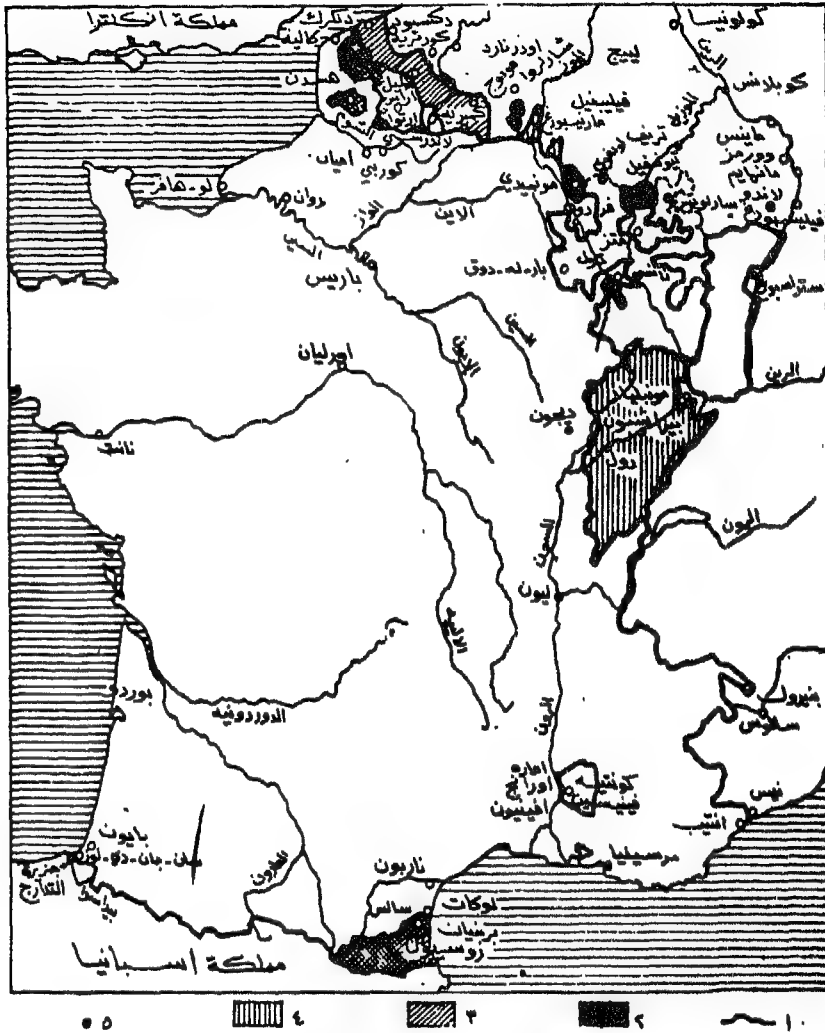
١ - النزاعات الأوروبية

يجب ان يبيحت عن أحد الاسباب الكبرى للأزمة ، وهو إبرازها ان لم النزعات التسلطية القارية . يمكن اهمها ، في الحروب التسلطية ، الأوروبية والاقبانيوسية ، في عهد حكم لويس الرابع عشر الشخصي . فالنزعات التسلطية لم تلق السلاح قط . اوقف تسلط آل هابسبورغ ، ولكنه لم يهزم . واصر آل هابسبورغ النمسا على مدعيتهم . فان الامبراطور ليوبولد الاول ، سور أوروبا المسيحية في وجه الاتراك ، وقائد جيش الصليبية الطاهرة امام فيينا (١٦٨٣) ، ومنتزع هنغاريا وترنيسلفانيا من الكفرة (صلح كارلوفيتز ، ١٦٩٩) ، الذي توفق خلال سنوات معدودة الى الاستيلاء على مناطق الدانوب والساف والدراف الواسعة الاربعاء حتى قمم جبال الكاربات وحتى بلغراد ، بينما لم يستول لويس الرابع عشر الا على بعض المواقع المحصنة في الاقاليم المنخفضة ، وعلى منطقة «فرانش - كونييه» الصغرى ، الفرنسية لغة وروحاً ، ان هذا الامبراطور ، الذي اوشك تكراراً ان يؤدي للمسيحية خدمة توحيد الكنائس ، التي لا تقدر بثمن ، وان يضع حداً نهائياً لانشقاق الكاثوليك والبروتستانت ، والذي سطع نفوذه العظيم ، وطالب باسبانيا والهند ، قد صان أوروبا كما يصان المقنص الخاص .

كما ان الحكومة الفرنسية ، التي دافعت عن الحريات حتى ١٦٦٠ ، قد نزعت هي ايضاً الى التسلط بعد احرازها النصر وتوطيد التفوق الفرنسي ؛ فقد حاول لويس الرابع عشر فرض هيمنته وادعى بالتاج الامبراطوري نفسه . . فادى ذلك الى تصادم آل هابسبورغ وآل بوربون . وادى الصراع السيامي ضد الازمة الى ازمة سيامية جديدة .

ان الروح التجارية عززت النزعات التسلطية البحرية وارغمت النزعات التسلطية القارية على الاتجاه بانظارها ، في الوقت نفسه ، شطر البحر . ففي عهد الجمهورية وعهد حياية « كرومول » اولاً ، زاحمت انكلترا الاقاليم المتحدة ، منذ السنة ١٦٥٠ ، على التفوق التجاري والبحري واحتكار تجارة الهند واميركا وتركيا الاسبانين البرتغاليين الذين أقل نجمهم . واکرحت الحرب الانكليزية الهولندية (١٦٥٢ - ١٦٥٤) الاقاليم المتحدة على الارتضاء بوثيقة السنة ١٦٥١ حول الملاحة (معاهدة وستمنستر ، ١٦٥٤) ومن ثم بالحد من دورهم كجواله البحار حداثاً ملحوساً . وفي السنة ١٦٦١ ، تزوج شارل الثاني من الاميرة البرتغالية « كاترين دي براغانس » التي امهرت بومباي وطنجة . فاتاحت قاعدة العمليات هذه للانكليز الادعاء بالوساطة بين الاقاليم المتحدة والبرتغال : كان البرازيل البرتغالي قائراً على السيادة الهولندية ؛ فاضطرت الاقاليم المتحدة الى التخلي عن هذه الارض الاستعمارية (١٦٦١) . واخيراً ارغمت الحرب الانكليزية الثانية (١٦٦٤ - ١٦٦٦) الهولنديين على التخلي عن هولندا - الجديدة وعن امستردام الجديدة (التي اصبحت نيويورك) (معاهدة بريدجا ، ١٦٦٧) . وهكذا خسر الهولنديون تجارة الهند الغربية واكروهوا على الانكفاء نحو الهند الشرقية . وكانت النزاعات الانكليزية الهولندية هذه فاتحة الحروب الكبرى لاجل السيطرة على البحار والتجارة العالمية . ثم نهجت فرنسا النهج نفسه . كان كولبير طامعاً في السيطرة الاقتصادية وهي شرط السيطرة السياسية . فأقدم ، بتعرفة السنة ١٦٦٧ ، على تلك الحرب الجركية التي كانت سبباً من اسباب الحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨) . بعد الهجوم الصاعق على هولندا ، استطلع رأي كولبير ، في شهر حزيران ١٦٧٢ ، في شروط معاهدة الصلح القريبة ، فاقترح ضم الاقاليم المتحدة ، وبالتالي تجارتها ، واكره الهولنديين ، الفرنسيين الجدد ، على التخلي عن جزء من تجارتهم للفرنسيين القدماء . وقد جاءت هذه المشاريع ، التي لم يعلم بها الهولنديون ، تنمة لمخطط التجزئة الاقليمية والانهيار الاقتصادي والاذلال الذي عرضه « لوفوا » على الاقاليم المتحدة في حزيران ١٦٧٢ . الا ان هذا المخطط وحده كان كافياً : انتفض الهولنديون سخطاً وصمموا على القتال حتى النهاية . وهكذا فان الروح التجارية ، المعدة ، فيما خصها ، لمعالجة الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تعرضت لها الدولة ، قد أدت بهذه الاخيرة الى حروب كان مقدراً لها ان تثقل وطأة الازمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

استمرت كل النزاعات بفعل خلافة عرش اسبانيا التي سيطرت على
 خلافة عرش اسبانيا السياسة الاوروبية منذ السنة ١٦٦٠ حتى السنة ١٧١٣ . لم يرزق
 فيليب الرابع ، ملك اسبانيا ، حتى السنة ١٦٦٠ ، سوى ابنتين ، احدهما تلك التي تزوج منها



الشكل ١١ - الفهم الفرنسي منذ معاهدتي رستفاليا حتى معاهدة اوترخت
 ١ - الحدود - ٢ - معاهدة البيرينييه ١٦٥٩ - ٣ - اكس لا شابيل ١٦٦٨ - ٤ - نيميج ١٦٧٨
 ٥ - اقاليم ربطتها بفرنسا غرف الاجتماع

لويس الرابع عشر ، والثانية تلك التي لن يلبث الامبراطور ليوبولد الاول ان يختطفها . ورزق

بعد ذلك إننا هو شارل الثاني الذي غدا ملك اسبانيا ، ولكن ضعف بنيته البالغ قد حمل الجميع على الاعتقاد بأنه لن يرزق اولاداً وبأنه سيموت قريباً . قالى من تؤول خلافة العرش يا ترى ؟ أجل ان ماري تيريز ، عقيلة لويس الرابع عشر ، قد تنازلت عن هذه الخلافة في معاهدة البيرينييه . ولكن التنازل ، بصرف النظر عن ان الامير لا يستطيع ان يتنازل تنازلاً صحيحاً عن حقوق تتصل اليه بالنسب ، قد منم به « مقابل » ٥٠٠ ٠٠٠ دينار لم تدفع قط : اذن فهو باطل . لذلك فلويس الرابع عشر ، وهو ابن وزوج اميرتين ملكيتين بكرين ، يحتفظ بكافة حقوقه التي تفوق حقوق ليوبولد ، وهو ابن وزوج اميرتين اصغر سناً . واذا ورث ليوبولد خلافة العرش ، فهذا يعني اعادة امبراطورية شارل الخامس ، وتهديد فرنسا بالزوال واوروبا بالاستعباد ، وضياح نتيجة جهود وتضحيات استغرقت قرناً ونصف القرن . واذا ورثها لويس الرابع عشر ، فهذا يعني صيرورة السيطرة التجارية والبحرية الى فرنسا مع الوسائل الموصلة الى الامبراطورية الشاملة . فالقصد انما كان استثمار الامبراطورية الاسبانية في اميركا واستغلال المفترقات التجارية ذات الاهمية الحيوية : بحر الشمال الذي تقوم الاقاليم المتحدة على سواحه ، والبحر المتوسط الذي تتيح السيطرة عليه صقليا وملكة نابولي ، وكلاهما ممتلكات اسبانية . وغني عن البيان ان الدولتين البحريتين ، انكلترا وهولندا ، ما كانتا لتقبلان رؤية فرنسا لتعيد فتح مصاب نهر اسكو ، وتبعث انفرس التي قد تصبح المنافسة البحرية لامستردام ولندن اذا ما رفعت عنها قيود معاهدة مونستر وضمنت مساندة دولة واسعة الاطراف تقوم وراءها ؛ وبترك الفرنسيين يسيطرون سيطرة نهائية في افريقيا الشمالية ومرافق الشرق الاوسط ؛ أو بتركهم يحصلون على احتكار في المستعمرات الاسبانية في اميركا ، ويزودونها وحدهم ، بالمصنوعات ، والزنج ، ويقصون منافسهم عن التيار التجاري الجديد نحو « شيلى » و « بيرو » و « كاليفورنيا » السفلى عن طريق مضيق « ماجلان » . لذلك راقب الانكليز والهولنديون عن كثب خلافة عرش اسبانيا حتى يكون لهم نصيبهم منها .. قام الخلاف حول الخلافة بين سلالتين ملكيتين ولكنه أثار في وجه كل دولة مسألة خطيرة ذات اهمية قومية لأن الممالك انما تتجسد بملوكها . وكان شعور الشعوب بذلك كافياً لاختفاق وسائل الدبلوماسية العادية . اشترى لويس الرابع عشر محالفة ملك انكلترا شارل الثاني بجمالة شهرية ، وامدادات مالية ، وسرية هي « لويز دي كيروال » الحسناء التي اصبحت دوق « بورتسموث » . واشترى الوزراء وحتى زعماء المعارضة في المجلس التمثيلي . ولكن ضغط رجال المال ومجهزي البواخر والتجار وحقد الشعب الانكليزي على فرنسا البابوية والمنافسة ، اكراها شارل الثاني على التخلي عن حليفته فرنسا ، بينما كانت حرب هولندا على اشدها (١٦٧٤) ، وعلى تزويج ابنة شقيقه ، ماري ، الى « غليوم دورانج » ، ثم التحالف مع هولندا على فرنسا (١٦٧٨) .

فكر: الحصان اكثر من مرة بتقسيم سبق بغية افتتاح التركة . فبموجب تقسيم السنة ١٦٦٨ بين لويس الرابع عشر والامبراطور ، تقرر اعطاء لويس الرابع عشر المناطق المنخفضة ،

وفرانس - كوتيه ، ونافار ، ومملكة نابولي ، وصقليا ، وحصون مراکش ، واخيراً الفلبين ، على ان يعطى الامبراطور ما سوى ذلك . أما بعد اتفاق السنة ١٦٩٨ ، بين لويس الرابع عشر والدول البحرية ، فان اتفاق السنة ١٧٠٠ بين لويس الرابع عشر وهولندا وانكلترا قد اعطى ارشودوق اسبانيا ، شارل ، الهند والمناطق المنخفضة ؛ وولي العهد ، نابولي وصقليا ومواقع توسكانا . وفكر لويس الرابع عشر باستبدال صقليا بنيس وسافوا ، ونابولي بالورين فيستكل بذلك ارض مملكة فرنسا . ولكن هذه المحاولات اصطدمت فارة بتصميم الاسبانين الصريح على الابقاء على كمال امبراطوريتهم ، واخرى يرفض الامبراطور . فتوالت الحروب .

ثم لم يلبث الاختلاف حول الآراء الدستورية الذي نجم عن اختلاف المراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي بلغتها كل دولة من الدول ان اصبح بدوره سبباً للنزاع . فبعد الثورة الانكليزية (١٦٨٨) مثلاً ، رفض لويس الرابع عشر الاعتراف بشرعية « غليوم دورانج » الذي اختاره الشعب الانكليزي ملكاً عليه ، وساند اولئك الذين يمينهم نسبهم لهذه الولاية ، اي جاك الثاني ثم جاك الثالث ، من آل ستيوارت . فكان ذلك تصادماً بين مبدأ الملكية الوراثية المبنية على حق الهي ومبدأ الملكية المبنية على التعاقد الحر .

الزعة الى
التسلط الدستوري

بدا انتسلط الفرنسي أذهب من كل تسلط آخر ، واتهم لويس الرابع عشر المدعيات الفرنسية والمجلس الأوروبي بأنه انما يريد استعباد أوروبا . اما الحقيقة فهي ان سياسته حتى السنة ١٦٧٨ تعتبر دفاعية ، ومكحلة لسياسة ريشليو . ان لويس الرابع عشر واصل سياسة « الابواب » و « الطرق العسكرية » القديمة ، دونما نظر الى الحدود الطبيعية . وهذا كان مقصده من الاستيلاء على اللورين ومن استرجاع دنكرك من شارل الثاني بالشراء . لا بل يمكن اعتبار حرب نقل الحقوق نفسها (١٦٦٧ - ١٦٦٨) حرباً دفاعية لان فيليب الرابع قد اوصى ، وهو على فراش الموت ، بان خلافة العرش تمود ، بعد شارل ، الى حفدة ابنته الثانية ، مرغريت - تريز ؛ خطيبة الامبراطور ليوبولد : فبات لازماً ، والحالة هذه ، الاستيلاء على بعض بقاع المناطق المنخفضة بغية اقفال حدود فرنسا . ويجوز اعتبار الحرب الهولندية عملاً دفاعياً ضد التسلط التجاري الهولندي ضد السياسة الهولندية التي كان من شأنها إزاحة استيلاء الامبراطور على المناطق المنخفضة مجدها من التوسع الفرنسي فيها . زد على ذلك ان اسبانيا التي حاقت الهولنديين على فرنسا قد خسرت ، بالإضافة الى شطر من الفلاندر ، منطقة فرانش - كوتيه التي قال لويس الرابع عشر عنها : « انها شقت لي طريقاً جديدة الى ألمانيا ، يمكنني في الوقت نفسه اقفالها في وجه اعدائي » . فما زال الفرنسيون يعملون بوحى فكرة ابعاد الغزوات عن فرنسا بالاستيلاء على الطرق المؤدية اليها التي تتترع من العدو وتتيح عملاً عسكرياً هجومياً اذا ما احقق بها خطر هذا العدو .

الا ان دخول الفرنسيين الى المناطق المنخفضة ، في السنة ١٦٦٧ ، بينما كانت اسبانيا منهكة بفعل حكمها السيء والتشوش النقدي ، وبينما لم يحرز الامبراطور انتصاره على الاتراك امام الد راب - الا بفضل التجريدة الفرنسية (١٦٦٣) ، وبينما كان لويس الرابع عشر يمارس حماية حقيقية على الامراء اليرينانيين ، باستثناء المنتخب البالاتي ، قد نشر الذعر في اوروبا . في هذه السنة بالذات ، نشر الفرنسي « او بري » مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية . وقد دافع في هذا الكتاب عن حق لويس الرابع عشر في استعادة القسم الاكبر من ، ألمانيا « ارث الامراء الفرنسيين القديم ، والتي امتلكها شارلمان بوصفه ملك فرنسا » ، وفي استعادة المنصب الامبراطوري الذي انتزعه ألمانيا من فرنسا . وزعم ان كل ما هنالك يؤمل ولي العهد بالسيادة على البحر والبر على السواء وبالملكية الشاملة . وما دور روما او غسطس سوى اعداد لدور فرنسا لويس الرابع عشر التي ستؤول اليها السيادة المطلقة على الكون .

كان السخط والذعر شاملين . فان السفير الامبراطوري ، « ليزولا » ، قد اشتكى ، في كتابه « ترس الدولة والعدالة » ، من ان عدة لويس الرابع عشر الحربية لا مبرر لها سوى تصميمه على فتح كافة الحماة اوروبا . العالم المسيحي مهدد بالخطر . يجب ان تسلح اوروبا وتتحد ، لو ان تقبل باستعباد الفرنسيين لها . وكان للكتاب صدى عظيم جداً . وقد روي خطأ في حينه ، ان صورة ولي العهد بلباس الامبراطور تغل كل مكان في فرنسا ، حتى الحانات . ومثل اخذ النفوس فرنسا مدرعة ، تغطي رأسها ثعابين هائجة ، تتقدم ، وهي تنفخ النار في بوق ، نحو ايرروبا بمجناحة يحتلها جنود فرنسيون مهانقون يطعنون الاطفال طعنات نجلاء برماهم ويجهزون على الجرحى بالمساير ويسحقون المدنيين تحت سنابل جيادهم ، بينما تنهار الجدران المشتعلة وتتصاعد دخان الحرائق نحو السماء . ولعل لويس الرابع عشر ، الذي امر بسجن « او بري » ، لم يكن مصمماً تصميماً واضحاً على الضغط والطغيان ، ولكن الرأي العام الاوروبي نظر اليه نهائياً كما الى مجنون او كما الى « هائج فائر » .

بعد معاهدتي ليمينغ (١٦٧٨ - ١٦٧٩) ، لم يبق مجال للارتياح . فان الملك - الشمس وفرنسا - الشمس ضبط الحدود الشمالية ، وضم فرانك - كوتيه ، والاحتفاظ بالورين ، واكتساب فريبورغ (في بريسغو) ، باب الهضبة الدائرية ، وانقاذ الحلفاء الاسويجين من الدانرك وبراندبورغ المنتصرين عليهم ، ودور الحكم في اوروبا ، والاقدام في ايام السلم ، بحسب عرف اوروبي قديم على كل حال ، على ضم اقاليم خاضعة لاقاليم اخرى اعطيت لها بموجب المعاهدات ، كل ذلك جعل فرنسا تزدهر خيلاء وكبرياء . منحت باريس الملك ، في السنة ١٦٨٠ ، لقب « لويس الكبير » . ومن ثم ياترى ، في نظر الفرنسيين آنذاك ، حكيم الرواقين ، وهام ارسطو والانسان الالهى عند اللاكديونيين ، اذا ما قورنوا بلويس ؟ مجرد ظلال او رموز . « ما كنا لنؤمن بهذا القدر من المعجزات (التي اتها) لو لم نشاهدها بام العين : فلماذا البحث اذن في الاسطورة عن اعمال « هر كول » ، وفي التاريخ عن اعمال الاسكندر ،

ما دام لويس الكبير يعطينا المثل عن كل الفضائل ؟ ان هذا البطل ، بفهوم البطولة القديم ، يريد السيطرة الشاملة واثباتها الرسمي ، الامبراطورية . ولكن الفرنسيين متفقون في الرأي ويتغنون مع لويس الكبير بفرنسا الكبرى . افلم يكن لفرنسا ، في ما يزعمون ، عظمة وامتياز لا نظير لها ؟ أو لم يكن الفرنسيون اساتذة في كل الفنون ؟ أو لم تكن لغتهم لغة اوروبا ؟ ففي نيميج حرر سفراء الدانمرك برقياتهم باللغة الفرنسية . لا بل ان سفير اسبانيا المتعجرفة كان يحيب باللغة الفرنسية على ترحيب زملائه به . ولم ير الفرنسيون في ذلك ما يثير الدهشة ، فليس هنالك سوى لغة واحدة كاملة وحكم واحد . كامل ومثل ادبي اعلى واحد ، تتوفر كلها في فرنسا ! اللغة الفرنسية شبيهة بخلق الامة التي تتكلمها : حلوة ، عذبة ، صافية ، نقية ، نبيلة ، عظيمة . ليس لاية بلاد وضع شبيه بوضع فرنسا ، ولا تتوفر لاية بلاد كما لفرنسا الاشياء الضرورية للحياة . الفرنسيون اغنياء بجميع مواهب الروح والجسد . يخوضون الحروب لتحرير الشعوب وتحضيرها اذا حالقهم النصر فانهم يبتهجون بعدالة وعظمة ، كما ان مهزومي فرنسا يستفيدون من هزائمهم فوق ما تستفيد فرنسا الظافره من ظفرها . أو ليس عدلاً ، في زعمهم ، ان تسيطر مثل هذه الامة على العالم ؟ كانت فرنسا لهم ، بالنسبة للكون ، كما هي الشمس بالنسبة للسيارات في نظام كوبرنيك . وكانت فرنسا - الشمس خليقة بالملك - الشمس .

ومن سخرية القدر ان ضم ستراسبورغ ، الذي تم في ايام السلم والذي كان له ما يبرره ، قد احدث اسوأ اثر . سبق لستراسبورغ ، المدينة الامبراطورية الحرة ، وباب الالزاس ، ان سمحت ثلاثا لجيوش الامبراطور بعبور جسر الرين ، على الرغم من حيادها . فاستولى لويس الرابع عشر على المدينة (١٦٨١) لسد هذه الثغرة المفتوحة في جهازه الدفاعي . ولكن هذا العمل فسر بأنه تصميم على فتح لا يقف عند حد ، فالقى الذعر في اوروبا . اضاف الى ذلك ان لويس الرابع عشر ، رغبة منه في دعم مدعياته بالامبراطورية ، قد رغب في ان يؤدي خدمة جليلة للعالم المسيحي يجمع المسيحيين المنفصلين الى الكتلكة ، وفي ان يؤديها وحده بمزل عن اي شخص آخر . فكانت رغبته مدعاة لحشية البابا وفشل انضمام بروتستانت المانيا الذي اعده سينتولا والامبراطور ، والذي كان الامراء ، بتأثير من لينينز ، مهينين للقبول به : الاعتراف بالبابا رئيساً والقبول بالجميع التريدينيني . أما لويس الرابع عشر ، فكان بمقدوره ، بواسطة فرسانه ابطال براءة فانت في فرنسا . وعزيت اليه رغبته في ارسال فرسانه لمساعدة جاك الثاني على اعادة انكلترا الى احضان الكتلكة . فاعتقدت اوروبا كلها بان لويس الرابع عشر انما يريد الاحتلال لتحقيق الارتداد . فارتجف الاوروبيون قلقاً . لا بل ان اصدقاء لويس الرابع عشر القداماء انفسهم ، بوجوازي امسترام المعادين لرئيس السلطة التنفيذية ، والامراء الالمان ، قد تمخلوا عنه ولفضان رصيدهم . وثار الانكليز وطردوا جاك الثاني (١٦٨٨) . والمحدث اوروبا ضد فرنسا .

جاء رد فعل أوروبا ، امام الخطر ، بحالفات بقيادة الدول البحرية .
 المحالفات ضد فرنسا كانت الاحلاف محصورة ، قبل السنة ١٦٨٥ : حلف السنة ١٦٦٨ الثلاثي ،
 بين انكلترا وهولندا واسوج ، الذي ارغم لويس الرابع عشر على ايقاف فتوحاته في « فلاندر »
 وعلى توقيع معاهدة صلح « اكس - لا - شابيل » (١٦٦٨) ، وحلف « لاهاي » الكبير
 (١٦٧٣) بين الاقاليم المتحدة والامبراطور واسبانيا ودوق اللورين الذين انضم اليهم الجمع
 الجرمني (١٦٧٤) ، ثم الدانمرك ، وقد انقذ الاقاليم المتحدة والمناطق المنخفضة . ولكنها
 غدت شبه شاملة ودائمة بعد السنة ١٦٨٥ . فان البروتستانت الفرنسيين المهاجرين حرضوا
 أوروبا على لويس الرابع عشر وعملوا على توحيد الامراء ضد فرنسا . وكان قلب الاحلاف النابض
 غليوم دورانج ، رئيس السلطة التنفيذية في الاقاليم المتحدة ، الذي اصبح ملكاً على انكلترا في
 السنة ١٦٨٩ ، واشتهر بمصيته البروتستانتية وعنف عدائه للفرنسيين . تحالفت انكلترا
 والاقاليم المتحدة مع تكتل « اوغزبورغ » الذي تألف في السنة ١٦٨٦ من الامبراطور وملك
 اسبانيا وملك اسوج لضمان العمل بمهادتي وستفاليا ونيميخ ، وما ان ارتضى لويس الرابع
 عشر ، في السنة ١٧٠٠ ، بوصية شارل الثاني ملك اسبانيا لمصلحة دوق انجو ، الذي اصبح ملكاً
 على اسبانيا باسم فيليب الخامس ، كي لا يترك الخلافة لامير نمساوي ، حتى تألف الحلف مرة
 اخرى من انكلترا والاقاليم المتحدة والامبراطور ومعظم الامراء الألمان والدانمرك . وقد
 رفعت معنويات المتحالفين فكرة الحرب الصليبية ضد لويس الرابع عشر . ساعدت الدول
 البحرية بمالها كل امراء البر الأوروبيين الموزين الذين ما كانوا ليصمدوا طويلاً لولا هذه المساعدة .
 فبدأت بين الفرنسيين والانكليز حرب مائة سنة جديدة لن تضع أوزارها الا في السنة ١٨١٥ .
 وكان على فرنسا ، للمرة الاولى ، ان تخوض الحرب وحدها ضد أوروبا كلها ، حتى بعد السنة
 ١٧٠٠ ، لان أسبانيا كانت مستضعفة ، فالقي عبء الصراع كله على كاهل فرنسا التي واجهت
 اعداءها على طول حدودها البرية ، من دنكرك حتى طولون ومن برنيسان حتى باثون ، وفي
 اسبانيا ، وعلى الجبهة البحرية ايضا ، في البحر المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، وفي
 المستعمرات حتى في اميركا والهند . فباتت فرنسا ، كما سيحدث لها بعد مرور قرن كامل
 في عهد مجلس الميثاق « ولجنة الانقاذ العام » ، موقعاً كبيراً محاصراً .

طالت الحروب اكثر فاكثر . فبعد حرب « نقل الحقوق »
 ديوم الحرب وعجز الجيوش (١٦٦٧ - ١٦٦٨) والحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨) ،
 دامت حرب حلف إوغزبورغ منذ السنة ١٦٨٨ حتى معاهدة ريسويك في السنة ١٦٩٧ ،
 وحرب خلافة عرش اسبانيا منذ السنة ١٧٠٢ حتى السنة ١٧١٤ ، ومنذ السنة ١٦٨٨ حتى
 ١٧١٥ ، اي طيلة ثمان وعشرين سنة ، استفرقت الحروب منها احدى وعشرين سنة تقريباً . ويرد
 ذلك الى ان الحلفاء ، الذين استفادوا من تفوقهم العددي والمالي ومن عضد البروتستانت في
 فرنسا ، قد تضاربت مصالحهم فانقسموا وطالت المسافات التي تفصلهم عن فرنسا فصعب تنسيق

حركات جيوشهم ، بينما استفاد الفرنسيون من توسطهم اعداءهم ووحدة قيادتهم وقوة مركزية ادارتهم . كما يرد الى ان الجيوش الفرنسية بعد تألب اوروبا باجمعها على فرنسا ، قد فقدت تدريجياً قدرتها على المناورة وعلى احراز الانتصارات الحاسمة .

قام الفن الحربي البحري اولاً ، ما بين السنة ١٦٥٠ والسنة ١٦٨٠ ، بالبحث الاساطيل والصف عن العدو العائم قبل كل شيء آخر والسعي الى تدميره بمركبة حامية الوطيس ؛ والمناورة لعزل قسم من الاسطول واضناكه ؛ ومطاردة الغلول بدون هواة . في سبيل تحقيق هذا الهدف عمد امراء البحر ، الانكليز منهم ، كـ 'منك' ، والهولنديون ، كـ 'رويتز' وـ 'ترومب' ، والفرنسيون ، كـ 'دوكين' وـ 'تورفيل' ، الى خطة 'اقتصاد القوى' . حتى ولو لم يكن اسطولهم ، في مجموعه ، دون اسطول العدو عدداً ، فانهم كانوا يناورون بحيث يحدون معظم قوام ضد الجزء الذي يريدون تدميره من اسطول العدو ويحققون التفوق العددي في هذه النقطة . لذلك قادوا الى المعركة عدداً من الفرق المتضامنة هدفاً المستقلة حركة . واحتفظ قادة الفرق ببعض المبادرة . فكان باستطاعة الفرق ان تغادر مكانها لتطوق العدو او لتستفيد من ثمة في صفه . كان الهجوم سيداً .

ولكن صفوف مدافع السفن قامت في جوانبها . فلا مجال اذن للحصول على اقصى فاعلية نيرانها الا اذا صف الاسطول كله ، سفينة بعد الاخرى ، ترفع كل منها صارمها الكبير في المؤخرة وتوجه جانبها نحو العدو . منذ السنة ١٦٥٣ ، امر دوق يورك ، الذي سيصبح جاك الثاني ، باعتماد هذه التشكيلة . الا ان تطبيقها تطبيقاً صارماً يشل الاساطيل التي تعجز اذ ذاك عن المناورة وينحصر عملها في اطلاق نيران مدافعها . ولكن امراء البحر والقباطنة انتهوا شيئاً فشيئاً الى التغلب على كل اعتبار واعتماد الصف المحدود . بعد انتصاره في 'بيتشي هد' ، طارد تورفيل العدو باسطوله كما كان مصفوفاً للمعركة ، فلم يتمكن من تطويق وتدمير اجزاء اسطول العدو المشتتة ، وكان ذلك سبباً هاماً من اسباب اخفاق عملية ازالة الجيوش في انكلترا . في السنة ١٦٩٦ ، نشر الاب 'هوت' ، مرشده واستاذ الرياضيات ، 'فن الجيوش البحرية او بحث حركات الاساطيل' ، حيث احل الصف في المرتبة الاولى . تشبع الضباط الفرنسيون من هذه المعلومات ، وفي السنة ١٧٠٤ ، طبق الانكليزي 'روك' ، وخصمه الكونت 'دي تولوز' هذه النظرية تطبيقاً صارماً في معركة 'فيليز - ملكه' . لم يستفد تولوز من ثمة احدثها ليحاول عزل مقدمة القوة الانكليزية . كما لم تحاول هذه الاخيرة تطويق مقدمة القوة الفرنسية . لم تتحرك القوتان المتقابلتان . فاطلقت نيران المدافع دون جدوى طيلة سبع ساعات .

بيد ان عدم فاعلية العدد في المارك البحرية ، وجولة تورفيل الذي توفق في السنة ١٦٩١ الى ركوب البحر طيلة خمسين يوماً تجنب خلالها عدواً يفوقه عدداً ، والى تدمير قافلة اسكليزية هولندية محملة بكل غال ثمين ، ونهكة الحزينة الفرنسية في اعقاب ارتفاع نسبة الوفيات في

١٦٩٣ - ١٦٩٤ وخلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، اوحى كلها للفرنسيين بفكرة الاستعاضة عن حرب الاساطيل بحرب القرصنة . ففعل القراصنة البحريون ، « جان بار » و « دوغي تروين » وغيرهما ، ما يقضي المعجب واستولوا على الوف السفن العدو . ولكن العدو قاوم بطراداته . وكانت الحاجة ماسة الى الاساطيل وخوض المعركة البحرية لتنظيف البحار من هذه الطرادات ، ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا بعد السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧٠٤ . فاطلقت يدا العدو ضد القراصنة ، ولم تقلح حرب القرصنة في شل تجارتها على الرغم مما لحقت به من خسائر فادحة .

اما في البر ، فقد بلغت الجيوش اقصى فعاليتها بين السنة ١٦٦٠ والسنة ١٦٨٠ . فقد ازدادت قدرتها على اطلاق النيران باستخدام البندقية استخداماً متعاضداً ومتعاضداً وباستعمال القذائف اليدوية لضرب النقاط الساكنة واكتشاف مخايب العدو ، وتنظيم فرق خاصة من ملقي القنابل ومطلقي نيران المدافع . واثاح اطلاق القذائف بحيث ترتد الى الارض او الى اي حاجز آخر ، بفعل المنعكس المدافع انحناء خاصاً ، نشر الفوضى والذعر في صفوف الاعداء وبلوغ هدف خفي بصورة غير مباشرة . وشكلت فرق من المشاة مجهزة خير تجهيز وسريعة الحركة جداً ، هي فرق « الدراغون » . وسمحت البزة ، وهي مختلفة باختلاف الاسلحة والفرق ، للقائد بتمييز شتى فرقته في ساحة المعركة ، وسهلت عليه القيادة . واتاحت المشاة العسكرية قيادة فرق المشاة بكل تنظيم ، وحفظ المسافات والابعاد الملائمة لمعركة بالاسلحة النارية . كما ان تنظيم « لوفوا » لقوافل العربات الصغيرة والكبيرة ، والمخازن على مقربة من الحدود ، ومستودعات الاعلاف ، اتاح للفرنسيين دخول المعركة قبل غيرهم واخذ اعدائهم على حين غرة منذ انتهاء فصل الامطار . ولما حان المواقع المحصنة ، احكم « فوبان » جهاز الخنادق « الموازية » لتحصينات العدو ، بغية ابراء مدافع النقب ، وجهاز الحفر المعوجة بغية التقدم تدريجياً . اما للدفاع فقد اخفى الجدران في خنادق عميقة لا تبرز منها فوق الارض سوى متاريس ترابية تنغرز فيها القذائف دون ان تخلخل شيئاً وبسهل اعادتها الى ما كانت عليه . وشبك نيران ابراج الحصون . « المدينة التي يحاصرها » فوبان ، ساقطة حتماً ، والمدينة التي يدافع عنها فوبان متمنعة الفتح . فاستطاع قادة نخبة ، كدورين ، وكوندي ، اكثر من أي يوم مضى ، السمي وراء معركة التدمير ، « وحجب » المواقع كما يسترخى ، في السنة ١٦٧٢ ، والانتفاض خطا مستقيماً على قلب بلاد الاعداء ، كما في هولندا . وكانت الاستراتيجية الفرنسية استراتيجية الحرب الصاعقة . وهي لم تصادف الفشل في هولندا الا بفعل غمر البلاد بالمياه .

بعد السنة ١٦٨٠ اخذت الجيوش ، رويداً رويداً ، تفقد فعاليتها وقدرتها على المناورة . وكان ذلك نتيجة استخدام البندقية التي كملها فوبان باضافة الحربة اليها في السنة ١٦٨٧ ، والتي عم استعمالها في كافة الجيوش الاجنبية منذ حرب حلف اوغزبورغ ، وفي الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٠٣ . والبندقية ، في جوهرها ، قطعة فولاذية تطرقها صوانة حين يطلق الزنبرك .

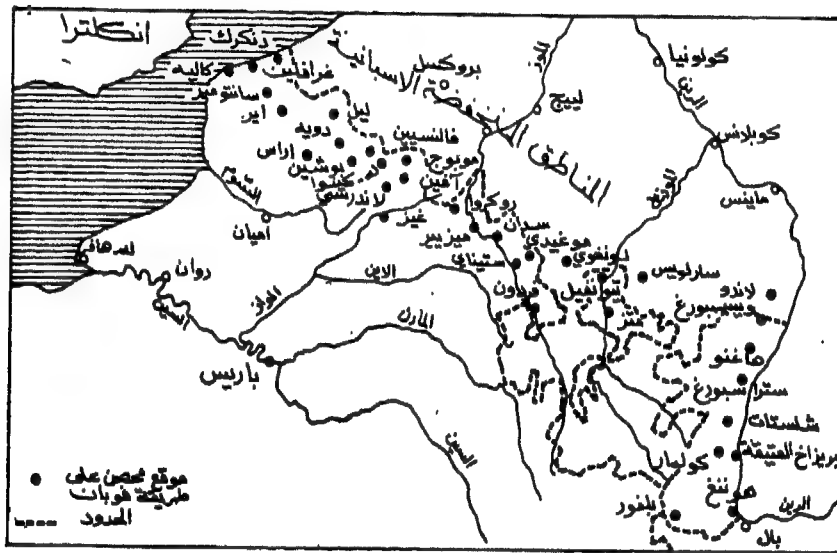
يزند الطرق شرارات تشعل النار في بارود الخزانة الذي ينقل النار بدوره الى البارود الموجود في مدفع السلاح ، بواسطة ثقب صغير يعرف بثقب اشعال البارود . ثم اطلق اسم البندقية على السلاح الناري بكامله . جاء هذا السلاح اسهل استعمالا واقل خطراً من البندقية القديمة ذات القتل . فما عاد الجندي ليشغل باله بالحوادث التي قد يسببها القتل المشتعل اثناء حشوه البندقية ؛ وما عاد ليتقيد بطول معين للقتل حتى يصادف سقوطه على بارود الخزانة ؛ فقد اصبح باستطاعته ان يحرك سلاحه على هواه بالقرب من رفيقه او في وسط الدوالي والاشجار ، وان يحشوه ويطلق النار بسرعة . منذ ذاك الحين ، غدت نيران المشاة وسيلة المركبة الاولى ، وشكلت فرق المشاة ، وهي ملكة المعارك ، حتى خمسة اسداس مجموع الجيوش . ولكن ما لفت انتباه القادة هو سرعة اطلاق النار في البندقية ، طلقة في الدقيقة ، والاطلاقات الكافية الكثيرة (التي أخرت اعتمادها في الجيش الفرنسي) . لذلك كان عنوان الكمال في نظر القادة اطلاق نيران الاسلحة في آن واحد ، وغايتهم المنشودة التوصل الى اطلاقها باستمرار ، ومدت سمات من الرصاص امام جبهة الجيوش ، وانشاء جدار من نار في سبيل بلوغ هذه الغاية . رتبوا الجيوش صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . ولكن القادة استمروا في اعتماد الصفوف الحمة عمقاً والخطوات الاربع او الخمس مسافة وبعداً ، في حال ان الاطمئنان الى السلاح الجديد كان يسمح باعتماد الخطوة الواحدة مسافة وبعداً بين الجنود ، وسرعة الاطلاق باعتماد الصفوف الثلاثة عمقاً فقط . وبسبب عدم توفر الوسائل للانتقال من الصف المتلاحق الى الصف المتلاحق ومن الصف المتلاحق الى الصف المتلاحق ، توجب ، كما في الماضي ، مجابهة العدو على بعض المسافة والهجوم عليه ببطء ، وتوزيع الجنود هنا وهناك في الحقول . يضاف الى ذلك زوال فرق مطلقي النار بتواتر ، خلال حرب خلافة عرش اسبانيا ، باستثناء خمسين رجلاً في كل فوج . ومرد ذلك الى ان استعمال البندقية قد أمن السلاح الضروري لصد العدو بنيران محكمة التصويب ، بنيران قاتلة ، فلم يعد من مبرر حقيقي لاستخدامهم . الا ان القادة الفرنسيين ، الدوق « دي لوكسمبورغ » ، « لورج » ، « بوفلر » ، « كاتينا » ، « اندادم » ، « لويس دي باد » ، « منتخب بافيير » و « غليوم دورانج » ، ابان حرب حلف اوغزبورغ ، و « فندوم » و « فيليه » و « برويك » من جهة ، والامير « اوجين » و « تشرشل » والدوق « دي مارلبورو » من جهة ثانية ، ابان حرب خلافة عرش اسبانيا ، لم يتخلوا يوماً عن فكرة معركة التدمير التي ستنتهي حتماً بسقوط المواقع المحصنة . ولكن الصف جعل جيوش حرب خلافة عرش اسبانيا اقل قدرة على المناورة والحركة من جيوش تورين وكونديه . وقد حافظ لويس الرابع عشر على رباطة جأشه في أسوأ ساعات الحرب لانه كان مقتنعاً ، كما قال مراراً ، باستحالة انهزام هذه الجيوش الجرارة انهزاماً كاملاً .

بسبب نقائص جيوش البر والبحر هذه ، فشلت كل محاولات الحرب الصاعقة والاندفاع حتى المراكز الحيوية . فشلت في السنوات ١٦٨٩ - ١٦٩١ محاولات ازالة الجيوش الفرنسية في انكلترا ، بينما ألزم الفرنسيون حرباً دفاعية على الحدود البرية ، وفشل في السنة ١٧٠٢ الهجوم

المركز على فيينا الذي رسمه لويس الرابع عشر ؛ وفشل الحلفاء في التوصل الى غير فتح الولايات ، « بافير » بعد « بلنهام » (١٧٠٤) ، و « برابان » و « فلاندر » بعد « رامبي » (١٧٠٦) . اصف الى ذلك ان بعض طرائق الدفاع قد أخرت تقدم الجيوش . فالفرنسيون قد اجتاحوا البلاتينا تكراراً لحماية الرين . وفي السنة ١٦٨٩ ، احرقوا هيدلبرغ ، ونسفوا قصرها العائد الى عهد النهضة . ودمروا مانهايم وسبير و « وورمز » و « بنجن » . وبعد اودنارد ، عجز الحلفاء عن الانتفاض على باريس لان جيشاً فرنسياً مؤلفاً من ٨٠.٠٠٠ رجل ، هزم دون ان يقضى عليه ، ما زال يهددهم من وراء ، ولانهم اصطدموا بـ « الحدود الحديدية » المعروفة باسم فوبان ، وهي جهاز دفاعي بنى فوبان ووضع تصميمه لويس الرابع عشر . تألف هذا الجهاز من سلسلة مواقع محصنة تتصل فيما بينها بمواقع محصنة ثانوية ، ويقوم وراءها وبموازاتها خط دفاعي ثان . وكان الهدف منه اقفال طريق الفوز : مجازات الواز و « سيدان » و « فروار » و « بلفور » وسافوا العليا . وهو ما ساعد فرنسا على الصمود .

وهكذا تحولت الحروب الى حروب انكاس . استخدم المحاربون كل التوازن الادريي وسيلة تساعد على احراز النصر . استخدم الحلفاء البروتستانت الفرنسيين . فقام هؤلاء في كل مكان بالدعابة ضد الفرنسيين وتجهسوا وتأمروا لمصلحة الاجانب . وقد نظم « جوريو » ما بين السنة ١٦٩٢ والسنة ١٧٠٥ ، وباموال الوزراء الانكليز ، شبكة جاسوسية كاملة الحلقات . وحرص « بروتسون » و « فيفان » بروتستانت منطقة الـ « سيفين » و « فالديي » اقليم « دوفيليه » على التمرد والثورة . وقد هدفا من وراء هذه الثورات الى تسهيل دخول الجيوش الاجنبية ، ووزعا ذهب المدو بوفرة . فساعدت ثورة « كامباز » « السيفين » ، في السنة ١٧١٠ ، على ازالة الجيوش الانكليزية في « سيت » و « آغد » . وقد حسب البروتستانت على الرغم من تحذيرات « بابل » ، ان الحلفاء المنتصرين سيشرطون على لويس الرابع عشر عودتهم الى فرنسا . ولكن الحلفاء لم يأتوا على ذكرهم اثناء المفاوضات . واخيراً وضع الميلاء والنهكة حداً للنزاعات المسلحة . فاضطر المحاربون الى التسليم بتقاسم الاراضي والسلطة والنفوذ . قبل الحلفاء مكرهين ، في معاهدة ريسويك (١٦٩٧) بالتخلي عن فكرة اعادة فرنسا الى حدود السنة ١٦٤٨ والسنة ١٦٥٩ ، وقبل لويس الرابع عشر مكرهاً ايضاً بالتخلي عن اللورين وعن حصون ضفة الرين اليمنى . وفي معاهدي اوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤) ، قبل لويس الرابع عشر والامبراطور مرغين بتقاسم خلافة اسبانيا . فاحتفظ فيليب الخامس باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وامبراطور النمسا شارل السادس بالمناطق المنخفضة ومنطقة ميلانو والحصون التوسكانية وناپولي وسردينيا ؛ اما لويس الرابع عشر فكان نصيبه انه حال دون تجديد امبراطورية شارل الخامس واحلّ احد افراد سلالة بوربون على العرش الاسباني . وهكذا لم تتوفق اية قوة برية الى السلطة الشاملة .

انتظمت الحدود بين الدول تدريجياً بموجب معاهدة نيميج والمعاهدات التي تلتها . تخلت فرنسا شيئاً فشيئاً عن مواقعها المحصنة في أراضي الاعضاء ، وكانت لها بمثابة « ابواب » لهجوم مستقبل : سالوس وبنيرول في ايطاليا ، فريبورغ وبريزاخ وكهل وفيلبسبورغ على ضفة الرين اليمنى ، « شارلوا » و « اودنارد » ، « وآت » و « منين » و « اير » و « دكسمود » وتورنيه الخ ، في المناطق المنخفضة الاسبانية . وازالت فرنسا شيئاً فشيئاً الجيوب الاجنبية في داخل المملكة . فلم يبق في السنة ١٧١٣ سوى ثلثة واحدة هامة هي اللورين . فقد جرى الانتقال اذن ، في هذا العهد ، من الحدود - المناطق القديمة الى الحدود - الخطوط في مفهوم الدول المعاصرة ، التي تعينها الامات الدفاعية ، كقمم



الشكل ١٢ - حدود فوبان الحديدية

سلاسل الجبال ، والانهار المحاطة بخنادق محفورة في الارض ، كما في الفلاندر ، والحدود المجهزة بالحصون ؟ فقد قابلت « الحدود الحديدية » مثلاً حصون « الحاجز » الهولندية . وفكر الساسة ، على الرغم من حكمتهم العملية ، يجعل الحدود فاصلاً بين اللغات والحضارات . فبجاءت هذه الحدود دليلاً على ان الدول اقتربت من الحد الاقصى لتوسعها وانها ستصادم تصادماً مباشراً ، واضع الدبلوماسيون مفهوم الدولة - القطيعة ، كسافوا ، بيمون ، وبالاتينا ، ومنتخبية كولونيا ، التي بقي على عاتقها عبء الفصل بين الدول الكبيرة وابطاء هجمات الجيوش والحسد منها . ولكن هذا الدور المرهق قد أخضعها لسنة الاقوى ، اي للانكليزي .

توصلت الدولتان البحريتان ، انكلترا وهولندا ، في معاهدتي ريسويك الحق العام الجديد واورنخت ، الى اقرار حق عام جديد مبني على مبادئ العقد . وقد اعترف لويس الرابع عشر واوروبا ، على مرتين ، بشرعية ملوك تولوا سلطاتهم ، بعد ثورة السنة ١٦١٨ ،

بموجب عقد مع الشعب الانكليزي لا بموجب حق إلهي يكسبهم إياه نسبهم ، غليوم دورانج وماري ، ثم الملكة « آن » . لا بل ان الانكليز والهولنديين قد ادخلوا هذا الحق العام الجديد ، الى حد ما ، عند جيرانهم في البر الاوروبي . ففي ريسويك واورخت طالب الهولنديون بالحاح بتسجيل المعاهدتين في مجلس باريس التمثيلي ، كما لو كان هذا التسجيل يضيف الى توقيع الملك ضمانا اخرى . وفي اورخت ، فرض الانكليز تنازل فيليب الخامس عن عرش فرنسا ، وتنازل الدوق « دي برّي » والدوق « دورليان » عن عرش أسبانيا ، وهي تنازلات باطلة بموجب مفهوم حق السلطة المطلقة الصرف ، وطالبوا ، اسوة بالهولنديين ، بتسجيل المعاهدة في المجلس . فاضموا بذلك اعداءهم ، لا يمنع فرنسا من ضم عرش اسبانيا فحسب ، بل يعزز مدعيات مجلس باريس التمثيلي ، المؤلف من قضاة يملكون وظائفهم ويتميزون بنزعاتهم الارستوقراطية والاقطاعية ، وبمعارضتهم لتعاضد سلطة الدولة . وبتوسع نطاق حقهم العام ، الملائم لبلاد مرتقعة النسبة البورجوازية ، والمتنافي والوضع الاجتماعي في فرنسا ، حيث ما كان ليعتمد الا مصالح الارستوقراطيات الرجعية ، أعاق الانكليز ، على غير علم منهم في الارجح ، تطور الامة الطبيعي واضمفوا الدولة .

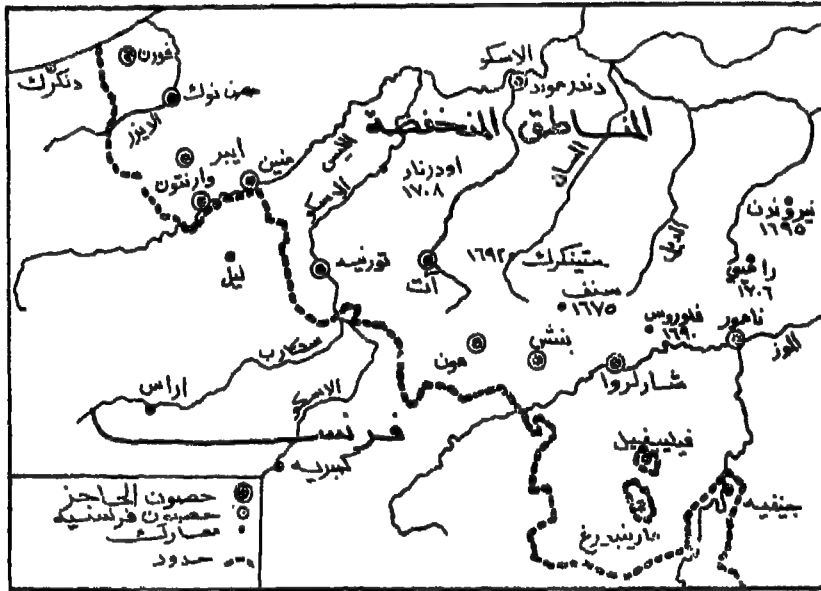
أخيراً ، توصل الانكليز الى بسط نفوذهم السياسي والبحري
ورجعنا انقسامات اوربيا
وارجعنا النفوذ الانكليزي
والتجاري . فقد أتاحت انقسامات الاوروبيين التي توفقت
معاهدنا اورخت الى تنفيذها وسما ، سيطرة الانكليز على
الطرق البحرية الرئيسية والاسواق التجارية الهامة . قسمت شواطئ بحر الشمال المحفوفة
بالاخطار بين ملكين متعادين هما لويس الرابع عشر وشارل السادس . فبقيت أنفوس مغلقة
وسطع نجم لندن . ووفر النزاع بين الاسويجين من جهة وبين الدانمركيين والبروسيين والروس
من جهة اخرى ، امكانات المناورة لاحتراز المكاسب في بحر البلطيك والمضائق الدانمركية .

قسمت مجازات البحر المتوسط بين عدوين عنيدين هما شارل السادس وفيليب الخامس ؛
اما الانكليز ، مالكو مضيق جبل طارق وجزيرة مينورك ، فقد راقبوا مدخل البحر المتوسط
الى الاوقيانوس ، وحوض المتوسط الغربي الى الحوض الشرقي ، واحرزت شركتهم التركية بعض
المكاسب في ايطاليا وفي موانئ الشرق الاوسط على الفرنسيين .

منذ السنة ١٧٠٣ ، اعطت معاهدة « ميتون » الانكليز احتكار الاسواق البرتغالية
والبرازيلية وانتزعت معاهدنا اورخت الامبراطورية الاسبانية من الفرنسيين وفتحت امام
الانكليز اسواق اسبانيا بتخفيض الرسوم على اقمشتهم الصوفية وباعطائهم الافضلية على غيرهم ،
واسواق اميركا باعطائهم احتكار توريد العبيد الزوج وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات كل سنة الى
بعض موانئ اميركا الاسبانية . وفي الانحاء الاخرى من اميركا ، انتزع الانكليز من الفرنسيين

جون « هيدسون » مع رجحان النفوذ في تجارة الفراء، واكاديا والارض الجديدة مع رجحان النفوذ في صيد الاسماك ، وسان كريستوف مع منتوجها من السكر .

وهكذا توصل الانكليز الى ارساء أولويتهم تحت ستار الدفاع عن الحريات الاوروبية وعن حقوق الانسان ضد لويس الرابع عشر . وبفضل التوازن الاوروبي الذي تحقق في البر بين الدول الكبرى ، وخشية فرنسا ، والارتياحات والمنافسات المتبادلة ، استطاع الانكليز ، أسياد البحار وتجارة العالم ، المحافظة عليها . فللمرة الاولى منذ القرون الوسطى بسطت دولة بحرية نفوذها على البر الاوروبي ، وللمرة الاولى رافقت النفوذ ظروف جعلته يبدو وكأنه تحرير وانقاذ .



الشكل ١٣ - حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اورخت ١٧١٥)

كان من شأن هذه الحروب انها حركت التشامخ القومي . فقد اعترف لاوروبا القوميات في مجموعها بعمق خاصة ؛ وانتشرت الكلاسيكية واللغة الفرنسية في كل مكان ؛ ولكن ذلك لم يمنع كل دولة من ان تعتبر نفسها متفوقة على ما سواها ، او بالاحرى جامعة وحدها المجد من أطرافه . وجاء في مؤلف اديسون ، « سبكتاتور » ، ان الازهار هي رمز الامم : فرائحة أزهار ايطاليا ذا فرة تنفّر من يشمها ؛ ورائحة ازهار فرنسا الزاهية والفاقة ضعيفة وعابرة ؛ أما أزهار المانيا فلا رائحة لها عموماً ؛ واذا انتشرت منها رائحة ما فرائحة كريهة . وتخيل الفرنسي « لوساج » انكليزا قساة يقدمون الغليون والجمعة لسيدة أفكارهم ، والمانسا

غلاظاً ، مفكوكي الاضرار ، سكارى ، غارقة في قذارة التبغ ، متمرغين حول طاولة تغمرها فضلات افراطهم في الاكل والشرب . وأكد « بوفندورف » و « لينينز » ان الحق الجرماني سابق لكل ما سواه من حقوق ومتفوق عليها ، وان اللغة الالمانية ، التي ليست دون اللغة اللاتينية قدماً وجمالاً ، ترتقي الى اصول العالم ، وان الشمر الالمانى لا يعلو عليه شمر آخر . ولعل الاوروبيين لم يموا ما يرحمهم وعيهم للاختلافات والمنافسات القائمة بينهم .

اضف الى ذلك ان الطبايع الفردية جبارة . فالانكليز يقبلون بنتائج الاختبار في العلوم ، ولو لم تسمح بتكوين افكار واضحة كل الوضوح ؛ اما الفرنسيون فيتمسكون بهذه الاخيرة ويميلون الى بناء البراهين المتسلسلة المستخلصة خير استخلاص ؛ وأما الالمان فيصعب عليهم القول بالآلية البحتة ويسلمون ابدأ بالقوى الخفية ، وبالارواح تقريباً .

٢ - الحرب وأزمة الدولة

ما زالت طريقة الانتاج ، وحركة تداول المادان الثمينة ، والنقد ، والاسعار ، اسباباً هامة من اسباب الازمة ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في مستهل هذه الدراسة حول القرن السابع عشر . وتفاقت كافة اسباب الازمة بفعل الحروب الطويلة وما رافقها من قتلى وخراب ، وهدر القوى والوقت في انتاج ما هو عقيم وزائل (كالبارود والقذائف والاسلحة) ، وتحويل المال عن وظائفه الاقتصادية العادية لاجل حاجات الدولة ، وتحويل توزيع الدخول لمنفعة رجال المال وموالي الجنود . فبرزت مظاهر جديدة للازمة . ولكن الحروب احدثت نتائج مختلفة باختلاف نظام الدولة المعنية ، على انها استعملت في كل مكان تطوراً ما زال في مرحلته الاولى ، فلم يكن الجديد جديداً بصورة كلية ومطلقة ، وغذت الدول والمجتمعات اشد اختلافاً بعضها عن بعضها الآخر .

ما زالت الرأسمالية التجارية سائرة في طريق النمو ، يرافقها تصلب الفردية النفعية ^{انكسار} المعادية للمذهب القائل بان الملكية وظيفة عامة . وقد نُظر اكثر فأكثر الى مهن ^{التصلب الرأسمالي} التجار والمزارعين والبحارة كما الى رسالات ، او كما الى استجابات لدعوة الله . فظهرت كتب تقرأ من عناوينها : « المعنى الروحي لعمل الحقول (١٦٦٩) » ، « المعنى الروحي للملاحة » (١٦٨٢) ، « رسالة التاجر » (ريتشارد ستيل ، ١٦٨٤) . المسيحي يخلص بالايمان ، ولكن الايمان الحقيقي هو ذاك الذي يولد الاعمال ، والانسان سيعاكم على اعماله . ان التاجر ، كالراعي ، مدعو لعمل خاص لاجل الخير العام . فواجبه كمسيحي يفرس عليه ثم ان الانصراف بكل قوته الى شؤونه . ولكن الدليل على ان المسيحي قد عمل ما في وسعه وكان أميناً لرسالته ، وان الله قد بارك تجارته ، هو النجاح والكسب . احراز النجاح واجب ؛ واستخدام الفوائد التي

تضعها عناية الله بين يدي المسيحي فريضة الزامية . المسيحي يظفر بالثروة والحياة الابدية في آن واحد ، ويرضي ، على خلاف ما جاء في الانجيل ، رين في آن واحد : المال والله . الاندفاع وراء الكسب يصبح فضيلة ، والتقدم الاقتصادي غاية ، والانتاج المتزايد ابداً عبادة . فمكس الدين المسيحي ومهد السبيل أمام جشع الغني وتسلط الامة التجاري .

كان من نتيجة ثورات انكلترا انها انجحت تدريجياً ، بواسطة النظم
نجاحات الفردية النفعية السياسية الجديدة ، الفردية الاقتصادية والاجتماعية . ففي السنة ١٦٤١ ،
ادى الغاء الغرفة المكوكة والمحكمة العليا الى تحرير المالك والمتعهد الرأسمالي . انتقلت اراض
كثيرة ، بفعل المصادرات ، الى ايدي تجار المدينة . وساعدت الحرب الاهلية على نجاح المتطرفين .
وطالب « المهيدون » بحق التصويت للجميع وهدم الاسيجة والعودة الى الزراعة الجماعية .
وطالب « الكادحون » بتوزيع الاراضي وتحريرهم « من السلطة الملكية التي كانت في قبضة
الاسياد » . ولكن المالكين والتجار اعتبروا الملكية حقاً سابقاً للدولة التي وجدت لمحايتهم .
وقد ارتأى « ابرتون » وكرومول ان الملاكين دون غيرهم هم الذين يؤلفون الهيئة السياسية وان
بمقدورهم استعمال ممتلكاتهم كما يطيب لهم دونما خضوع لرقابة رئيس أو لادعاءات الفقراء الذين
ليس يؤسهم سوى قصاص لخطاياهم . رد المجلس التمثيلي المرائض المقدمة احتجاجاً على الاسيجة .
ولكن الجمهورية (١٦٤٩ - ١٦٥٣) لم تبد قادرة على حماية الملكية ، وهذا هو احد اسباب
دكتاتورية كرومول « الحامي » (١٦٥٣ - ١٦٥٨) . وتغلب الرأي القائل « بان كل فرد
سيمعمل ما يؤمن له الدخل الاوفر ، على ضوء الطبيعة والعقل ... وان فائدة الفرد ستكون
فائدة للجميع » (١٦٥٦ ، ج . لي » ، « تبرير تنظيم حق التسييج ») . فخدم الجميع « اجمل
سيدات العالم » ، اي إلهة الاعمال ، وليس وعي ذلك ما اعوز الهولنديين .

بعد اعادة الملكية ، في عهد شارل الثاني ، لم يطرأ اي تغيير على عدة نقاط سبق اقرارها :
المجلس الخاص لا يتدخل بين المالكين والمتعهدين من جهة ، وبين الشركاء والاجراء من جهة
ثانية ؛ الاشراف الريفيون يسبقون حقوقهم بحرية بغير زيادة انتاج الصوف والخنطة المدين
للبيع ؛ بطل العمل ، أو كاد ، بقانون الفقراء ، فاستطاعت الرأسمالية الزراعية ان تتصرف
تصرفاً طليقاً ، وكبار الملاكين ان يحولوا المشاركات الطويلة الاجل الى مشاركات اختيارية
يسهل زيادة دخلها ، وان يرفعوا عدد المزارعين ويسبقوا الاملاك العامة في القرى . ففدت
انكلترا من أهم مصدري الخنطة والصوف والمعوم الى البر الاوروبي ؛ كما ان نقل البضائع في
السفن حدا بالمجهزين الى التسلح ؛ وغدت تجارة المستعمرات احدى اهم تجارات العالم ، وقد
عززها فتح المستعمرات البرتغالية بعد زواج شارل الثاني من « كاترين دي براغانس » ، والتشدد
في العمل بروثية الملاحه ، واحداث مجلس التجارة والمستعمرات .

ولكن هذه الانطلاقة جرّت الى نزاع تجاري طويل الامد مع هولندا وفرنسا . رضي الرأسماليون الانكليز عن سياسة شارل الثاني ضد هولندا ، ولكنهم لم يرضوا عن موقفه ، ولا سيما عن موقف جاك الثاني ، من فرنسا التي غدت اخطر منافسة في التجارة والمستعمرات . واذا أقدم جاك الثاني من جهة ثانية على اعادة الملكية الى انكلترا بمساندة لويس الرابع عشر ، فيكون معنى ذلك اعادة مذهب « الملكية وظيفية عامة » ورقابة الدولة في آن واحد . فأدى الصراع الاقتصادي ضد فرنسا ، والصراع لاجل افضل دين يتفق والذهنية الرأسمالية ، الى ثورة السنة ١٦٨٨ .

تمثل ثورة السنة ١٦٨٨ انتصار البورجوازية الرأسمالية وتجار مدينة لندن والاعراف الريفيين المتخلفين باخلاق البورجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية . وقد مثلت عملياً انتصار نظرية الاتفاق المقود بين الملك والامة . فان اللوردات والعموم قد اعلنوا غلبهم دورانج وزوجته ماري ، ابنة جاك الثاني ، ملكا وملكة على انكلترا ، لانها يضمنان احترام « بيان الحقوق » (١٦٨٩) ، وقد منعهما هذا البيان عن كافة الاعمال التي حاول آل ستيوارت بواسطتها الاحتفاظ بصلاحيات السيادة وبلوغ السلطة المطلقة : فلا قدرة لها على الادعاء بالسلطة التشريعية ، لان إيقاف مفعول القوانين او الاعفاء من تنفيذها اعتبرا تصرفا غير شرعي ، ولا قدرة لها على تجنيد جيش دائم بدون موافقة المجلس التمثيلي ، او جباية اموال لا يقرها المجلس التمثيلي ، ولا قدرة لها على المطالبة بصلاحيات استثنائية او بمحكمة من المفوضين للقضايا الكنسية ، ولا على تنظيم الحياة المدنية ومن ثم حياة رعاياها اليومية بقرارات ينفردان باصدارها . واخيرا بات من حق كافة البروتستانت اقتناء الاسلحة وتشكيل ما يشبه حرساً قومياً بورجوازي النزعة .

لم يبق سوى الاعراب بالافعال عن رجعات نفوذ المجلس التمثيلي المبرر عنه ضمناً في هذا النص ، فبعثت الحرب ضد فرنسا بسبب الثورة تتيح ذلك . ففكر المجلس التمثيلي ، في البداية ، بمنح غلبهم وماري دخلاً مدى الحياة مقابل ادارة البلاد العادية الطبيعية : اي الادارة المدنية والعسكرية والبحرية في ايام السلم . فيكون للملك من ثم بعض الاستقلال . ولكن المجلس التمثيلي ، في ظروف الحرب ، كان يقر سنوياً النفقات العسكرية والبحرية الاستثنائية . فتوصل من ذلك شيئاً فشيئاً الى اقرار نفقات الجيش والبحرية العادية التي خرجت نهائياً في السنة ١٦٩٥ من اختصاص الملك . ولم يقرر المجلس التمثيلي كذلك مرتب الملك الى لمدة اربع او خمس سنوات ، وكأثر من تقيته في تقريره ذلك ان المرتب لم يكن ، حوالي السنة ١٧١٣ ، سوى دخل شخصي صرف للملك ، دون ان يكون باستطاعة الملك أن تسديد نفقات الحكم . فجرد الملك ، بكل ما للتعبير من معنى ، من دخوله ، وبات تابعا كلياً للسلطة التشريعية . أما المجلس التمثيلي ، الذي غدا مسؤولاً في حال المعجز المالي ، فأخذ يراقب الحسابات والخدمات

والجهاز التنفيذي الملكي .

بيد ان المجلس الخاص الذي اندلعت الثورات تكررأ عليه قد استمر لتصرف الاعمال الجارية والادارة ، ولكنه حرم كل سلطة ، فانحصر دوره في اثبات القرارات المتخذة شرعاً . رسمت السياسة في الديوان ، وهو اجتماع يضم بعض الوزراء حول الملك . تألف الديوان في عهد شارل الثاني من بعض المقربين الى الملك ، ولكنه لم يضم في عهد الملكة آن سوى بعض رؤساء مصالح يحتل اللورد - الخازن بينهم مركز الصدارة . فبحسب تطور بدأ منذ السنة ١٦٦٧ ، أخذ الخازن شيئاً فشيئاً يتمتع بمزيد من النفوذ والقوة . وتألف الديوان ، الى جانب الخزانة ، من بعض المفوضين . الى هؤلاء عاد ، اثناء الحرب وفي الضائقة المالية ، امر تنظيم الشؤون التي تتوقف عليها السياسة كلها . فمن جهة كان اعضاء الديوان يجتمعون فيه بحضور الملك او غيابه ، بحسب العهود ، ولكن المقررات السياسية الهامة ما كانت لتتخذ بدون رأي الخازن . ومن جهة ثانية كان الخازن يتقدم بالمقترحات من المجلس التمثيلي الذي يجتمع اعضاءه في اللجان البرلمانية . فبدون ان يكون هنالك موازنة ، جرت العادة ، منذ السنة ١٦٩١ ، على تدوين القوانين المالية الصادرة عن البرلمان في مخطط الخزانة العام ، ولكن المجلس التمثيلي كان ينظم نشاط الحكومة والمصالح باقراره قيمة الاعتبارات وتوزيعها . وقد أمنت الخزانة ارتباط الحكومة بالمجلس التمثيلي بحيث يصعب التمييز بين الوجه والموجه .

كان على الخزانة ان تأخذ بعين الاعتبار ما يديره حاكم مصرف
أو الخزانة
مصرف انكلترا والمدينة
انكلترا ومدراؤه من آراء . احدث هذا المصرف في السنة ١٦٩٤ ،
بغية تسليف وزارة المال المبالغ التي تحتاج اليها . فكر اللوردات
- الخزانة ، اثناء الضائقة المالية التي أدت اليها الحرب ضد فرنسا ، بتوزيع النفقات على سنوات
عدة بتحويلها الى دين قومي ، بحيث لا يتوجب عليهم سوى دفع الفوائد كل سنة . فقدم بعض
المكتسبين الى وزارة المال سلفة اولى بلغت قيمتها ١٢٠٠٠٠٠ جنيه وتألفت منهم هيئة باسم
« حاكم وشركة مصرف انكلترا » . اعطي المصرف الحق في تبديل السفتجات وشراء السبائك
وبيعها وتقديم سلفات للأفراد واصدار نقد ورقي . وكان المصرف على اتصال يومي بالخزانة . وم
عملاؤه في أنفوس وامستردام وهامبورغ ولشبونا ومدريد والبندقية من أتاحوا للحكومة
تمويل الحرب . وبواسطته كان للرأسماليين الانكليز أثرهم حتى في مجلس الوزراء .

واخيراً ، ساعدت مدينة لندن المجلس التمثيلي والمصرف على فرض وجهات نظرهما على
الملك . ضمت لندن ٨٠٠٠٠٠ نفس ، اي ضعف سكان باريس ، واحتكرت ٩/١٠ النشاط
الانكليزي ، ولعبت دور الوسيط التجاري والمالي بالنسبة للقسم الأكبر من انكلترا . وشعر كل
سكانها متضامنين بقسطهم من المسؤولية في ازدهار التجارة الانكليزية ، وكان مركز الحكومة
قريباً من المدينة . فكان خطر الثورة قوة رأسمالية اضافية .

لم تتلاش سلطة الملك نهائياً. فالوزراء مسؤولون امامه أولاً. ولا يزال في جمعبته
قاعدة
الميزان السياسي
وسيلة قوية للتأثير على رجال السياسة : هي الوظائف العامة ، المتزايدة
تزايداً مطرداً في أيام الحرب ، التي يسندها الى من يشاء في الجيش والبحرية
والادارة المدنية . ولكن سلطته محدودة .

استطاع الرأسماليون العقاريون والتجار ، من ثم ، ادارة الحياة
المشاريع التجارية
الاقتصادية . المجلس يوجهها وفقاً لأرائهم بقوانين عامة ، والحرص
على استقرار النقد ، وتعزيز وثيقة الملاحة ، وحركة الرسوم الجمركية
والضرائب غير المباشرة . فالدولة توفر بذلك الظروف المواتية لحرية نشاط اصحاب المشاريع ،
ولكنها تمتنع عن اثبات وجودها بقرارات ادارية يومية . لا تدخل بعد السنة ١٦٨٨ من قبل
الحكومة في شؤون الادارة المحلية . فرمام هذه الاخيرة في ايدي الاعيان ، اسباب الرعايا ،
وحرية تأسيس المشاريع تامة مطلقة . لذلك انطلقت الرأسمالية انطلاقة كبرى . « تجارنا اعظم
تجارة في العالم » . وتوسعت طبقة الممولين والتجار . ولكن الرأسماليين العقاريين اهتموم
باستغلال الحروب لمصلحتهم ، وثار تأثيرهم عندما رأوم يشترون الاراضي ويصبحون قضاة
ومدراء كوتشيات ينافسونهم في مناصب الكنيسة والدولة . الا ان التضاد بينهم ليس عميق
الجدور ، فكثير من مصالحهم مشتركة ، ولم يغرب ذلك الا عن بال القلة النادرة منهم . فليس في
انكلترا جارك داخلية . انها تؤلف سوقاً قومية تلتصق في السنة ١٧٠٧ باتحادها مع سكتلندا
تحت اسم المملكة المتحدة . التاجر يتوجه حيث يريد لشراء الحنطة التي يبيعها في المناطق النائية
ويفتح في كل مكان اسواقاً لتصريف بضائع المنتجين . الصناعة ملتشقة جداً : ففي كل مكان
مناجم ومشاريع مختلفة تشكل اسواقاً للمواد الغذائية . الرأسماليون العقاريون يضاربون في
مصنق لندن ويسهمون في اقراض الدولة وفي عمليات رجال المال . اشقاؤهم الاصغر منهم سناً
يصبحون ممولين وتجاراً . لذلك بات البورجوازي ، في انكلترا ، مُمثل الانسانية الاعلى . منذ
السنة ١٧٠٩ ، سخر اديسون وستيل في مطبوعتيها الدوريتين ، « سبكتاتور » و « فاقلر » ، من
الالقاب التي يمنحها النسب و اخلاق طبقة الاشراف والمبارزة والمقامرة ، ومن فئة المتصرفين الى
شؤون الفكر ايضاً ، المنشغلين ابدأ بالفنون الجميلة والآداب . النفع الاجتماعي هو الجوهر . يجب
الانصراف الى التجارة والفنون الآلية والتوفير . فصديق الجنس البشري ، من ثم ، هو التاجر
الذي يشرك كل البلدان في اليسار الشامل .

« أما نحن التجار فأشبه بطبقة من النبلاء تكونت في العالم خلال القرن السالف ... ان
التاجر التاجر خير من في البلاد من اشراف » .

التاجر هو « الاديب » (Gentleman) . الفقر في نظره دليل العيب . الفقراء كسالى
ومتكبرون . فلاحسان ، فردياً كان أو تطبيقاً لقانون الفقراء ، ليس محبة حقيقية . المحبة

الحقيقية هي اصلاح الطبع بغية اغناء الفقير عن تلقي المساعدة . الاسعار المرتفعة بركة من الله لانها ترفع على مضاعفة العمل ؛ أما الاجور المرتفعة فكارثة ، لأنها تشجع على الفجور الاسبوعي (ديفو ، ١٧٠٤) .

لذلك كانت الحياة الفكرية الانكليزية معقولة وعملية ونفعية قبل اي شيء آخر . ولذلك نجح العلم الاختباري والفلسفة الاختبارية . نشر « نيوتون » ، في السنة ١٦٨٧ ، « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » . وطبق « ولیم بتي » و « غريغوري ككنغ » و « دافنت » روح الجهاز الآلي على دراسة المجتمعات واسسوا « الحساب السياسي » . ورسم « لوك » المثل الفلسفي والانساني الاعلى لهذا المجتمع البورجوازي في « محاولات » ثلاث : « الحكومة المدنية » ، « العقل البشري » ، « تربية الاولاد » . وقاد مذهب العقلين بعضهم الى الدين الطبيعي وإنكار الوحي : « جون تولند » (١٦٩٦) و « كولنز » والملاحدين . وعرفت الصحافة الدورية نجاحاً كبيراً . ففي عهد اتساع النشاطات القومية هذا ، استلعت انكلترا زمام الحركة الفكرية الأوروبية .

الانكليز فخورون جداً بنظمهم ، وهم يعتبرون انهم مدينون لها بانتصارهم وبإثبات تفوقهم على الملكية المطلقة ، وانها المثل الاعلى للحكومة الفضلى . ولكنهم ينسون انهم مدينون بالنصر الى حلف لمبت فيه الملكية التمسوية المطلقة دوراً اولياً . انتصر الانكليز بأثرة ملكية مطلقة على ملكية مطلقة ، ولم يأت النصر حاسماً على كل حال .

سبب التطبيع باطباع البورجوازية انهيار الاخلاق الرفيعة ، فبرهنت الطبقات العليا عن تعطش لا يروى للمال وعن اخلاق فاسدة وداعرة ، وتميز الشعب بالفظاظة والاهواء العنيفة . وهوت الامة في مادية فظيعة . فانفجرت في كل مكان ، حوالي السنة ١٧١٥ ، الشكاوى والفتن والثورات ضد سيطرة التجار ورجال المال . فاضطر المجلس التمثيلي الى اعلان الحكم العرفي في بلاد الحرية هذه .

فرضت الحرب دكتاتورية غليوم دورانج . ولكنه توفي عقيماً في السنة ١٧٠٢ ، ولم يكن في سلالة اورانج من هو جدير بخلافته ، فاستغني عن منصب رئاسة السلطة التنفيذية . سار الاورانجيون وراء رئيس السلطة التنفيذية هينسيوس ، خليفة غليوم دورانج ، الذي واصل سياسته بالعناد العبوس نفسه . وبسبب الحرب انضم الحزب الجمهوري والبورجوازي الى شخصه . فاحتفظت الحكومة حتى معاهدة الصلح بقوة كفية . ولكن الغلبة تأمنت بعد ذلك للاوليفارشية البورجوازية .

كانت الحرب ثقيلة الوطأة جداً على الاقاليم المتحدة . بلغ الدين ٢٥٠ مليون فلورين يقابلها دخل سنوي يقدر بـ ١٣ مليوناً . فأدى ابتلاع هذه الاموال والمنافسة الانكليزية التي اقلعت الاسواق التجارية الى انهيار البحرية والتجارة وصيد الاسماك . ولم تتوصل الاقاليم الى حفظ

حد ادنى من التوازن الا بفضل المصرف والقروض من الخارج . ففسدت بلد المضاربين وذوي الدخول بعد ان كانت بلد اصحاب المشاريع ومجهزي السفن والتجار والصناعيين . « لم يعرف التاريخ يهودا أبعد يهودية من بعضهم » (مونتسكيو) . ورافق هذا النوع المتدني من النشاط ، الذي عقب مجهوداً عسكرياً تجاوز قوة البلاد المادية والادبية ، انهيار المزائم وزوال القوة الخلاقة الذي زال معه كل مثل اعلى . وسعى البورجوازيون وراء المتعة . فبنوا لانفسهم بيوتاً وفرت فيها الفروش والمديجات ، والطنافس المقرصة بالذهب ، والمداخن المرتفعة ذات الاعمدة المرمرية ، واللوحات الثمينة ، والاواري الذهبية والفضية . وكانت روح التضامن العام سائرة في طريق الانهيار الكامل ، فليس بعد من يتم للصلحة العامة . وغدت المحسوبة والرشوة قاعدة تمشى عليها هؤلاء البورجوازيون الذين احتكروا الوظائف العامة . كما غدت هدايا ملتزمي الدخول العامة للقضاة أمراً مألوفاً . ولن يلبث أحد المؤرخين ان يسخر من البحارة الذين آثروا اثناء حرب الاستقلال ، نفس العدو لسفنهم على اخفاض البيرق استسلاماً . اما الميل الى الآداب والفنون فقد افصح المجال للميل الى المعارف المفيدة كالقانون والعلوم الاختبارية . وفترت الروح الدينية ، فارتفع عدد العقليين القائلين بالدين الطبيعي . وتدهور الحس الفني القومي : فشيء فندقا . قصر غراخت ، و « هيرغراخت » ، الكبيران على الطراز الذي يحمل اسم لويس الرابع عشر ؛ واعاد الرسامون النماذج الايطالية كما لو كانوا مجرد تماثيل متحركة ، . والمحط الشمب بفعل يؤسه المتزايد فغدا متسولا وقحاً . واصيبت الامة بالهزال .

ففجرت في فرنسا ازمة حادة بفعل ندرة النقد وانخفاض الاسعار العام
فرنسا
دكتاتورية الحكم
والدواقب الاقتصادية الوخيمة . ا . « فناء » ١٦٩٣ - ١٦٩٤ و ١٧٠٩ - ١٧١٠ ، ولا سيما المجهود الحربي الذي زاد في الطين بلة . الملك يحكم حكماً مباشراً مطرداً ، بمعاونة مفوضيه ، فتبرز الصبغة التمسفية والدكتاتورية للملكية المطلقة . فهو الملك وحده من يدرس الامور مع احد الوزراء ويتخذ القرارات ويمجري الاصلاحات ويفرضها على مجالسه التي تناقشت جلساتها تناقصاً مطرداً والتي لا تستشار الا شكلاً . ويبرز انفراد الملك هذا في الدبلوماسية وتنسيق العمليات العسكرية واحداث الضرائب كالضريبة الشخصية والعشر . ويلعب الدور الاول بين الوزراء مراقب المالية العام ، « بونشارترين » ، « شاميار » ، « دده ماريه » (١٧٠٨ - ١٧١٥) ، الذي يطيب للملك العمل معه بالتفضيل على غيره . يشترك في اعمال المجلس الاعلى الذي يوجه السياسة العامة ، ولرأيه فيه حول الاساليب والوسائل ، تأثير حاسم .

اضطر امناء سر الدولة الى زيادة عدد كتبهم بسبب كثرة وأهمية الشؤون
المكاتب
المتزايدة والحاجة الى الاسراع في العمل والضرب بقوة . في فرساي ، احتلت المكاتب وحدها بنامين طويلين على جانبي الدار الامامية ، أو داز الوزراء . وكان للوكلاء ، الذين أسند اليهم المزيد من الاعمال ، مكاتبهم ايضاً ، رئيساً كتبة أو ثلاثة ، وعدد من الكتبة ،

قولوا توجيه مراسلات ادارية منتظمة ، لا سيما الى المراقب العام ، وتكونت لديهم محفوظات كبيرة الحجم . ودرج الملك اكثر فأكثر على ابقائهم مدة اطول في مراكز عملهم : « دوجيه دي بانيول » ، « ٢٤ سنة في ليل » و « لاموانيون دي بافيل » ، « ٣٠ سنة في اللندورك » . فاصطبغوا بصبغة المدراء الدائمين . اختاروا لهم مندوبين ثانويين بين ضباط محاكم الارياف والمدن ليقوموا في وجه ضباط المحاكم العليا . وامت فرنسا شبكة من المفوضين الملكيين يعاونهم وكلاء الشرطة الذين عينوا في السنة ١٦٩٩ في كافة المدن الكبرى والمتوسطة ، بعد نجاح هذه المؤسسة في باريس ، وقد استخدم هؤلاء المفوضون ، لجمع الضرائب وتنفيذ سياسة التمويل ، احصاءات اكثر وفرة وافضل اتقاناً : احصاءات السكان ، تسجيل العمادات ، الزواجيات والوفيات ، جداول الاسعار ، بيانات حركة الاسعار .

في هذه المرحلة بالذات ، وبسبب الحاجة الماسة الى جمع الضرائب واستخدامها
النظام الاداري لشعريات الجيش ، وبسبب الحاجة الماسة الى العمل في الاقتصاد ، مصدر مطارح الضرائب ، لم تكتف ادارة الوكلاء بمنافسة ادارة الضباط فحسب ، بل حلت محلها احياناً . عمل الوكلاء مع ضباط المالية وراقبهم في كل ما له صلة بالضرائب القديمة . ووقع عليهم وخدم تقريباً عبء الضرائب الجديدة و « الشؤون الاستثنائية الطارئة » . وكان لهم ، في الحقل القضائي ، صلاحية اصدار الاحكام في مادي الامن السياسي والتمرد وكل ما يمر اليه . وقد اعطتهم قرارات عديدة بتحديد مهامهم حتى الحكم في كل القضايا التي يبدو من المفيد سحبها من القضاة العاديين . اشراف الوكلاء على « الامن » بمنهاه الواسع ، أي على الادارة ، واعتمدوا طريقة العمل المباشر ، واصدروا القرارات والانظمة ، فعالجوا الحاجات العامة بنصوص ترتدي طابع الاكراه . نفذ هؤلاء المفوضون مقاصدهم دون ان يطلبوا اي اذن أو إجازة من القضاة ، الضباط العاديين . ولم يكن باستطاعة القضاة التدخل في اعمالهم أو طلب ملاحظتهم بمادة المسؤولية الشخصية ، خشية من أن تكف يد هؤلاء القضاة لمصلحة مجلس شوري الدولة ، جهاز القضاء الخاص ، الذي يحكم ابدأ ، في هذه الحالة ، لمصلحة مفوضي الملك . وهكذا تعاضم النظام الاداري شيئاً فشيئاً ، بسبب الحرب ، على حساب النظام القضائي ، ووفر سلطة كبرى للحكومة المركزية وتأثيرها حتى في اعمال حياة رعاياها اليومية . أما في انكلترا فقد خضع الضباط والمفوضون للقاضي العادي . وحق للسلطة القضائية التدخل في الاعمال الادارية وتلقي الشكاوى المرفوعة على الضباط والمفوضين وتقدير الاخطاء المرتكبة وحتى دستورية القوانين . اضيف الى ذلك من جهة ثانية ان الادارة كلها يمارسها أهل اليسار ، كما أن الاعيان وشتى الهيئات المحلية تمارس الادارة بحرية ، على انها تكون مسؤولة عن اعمالها أمام المحاكم . الحرية مؤمنة في الجزيرة ، أقله حرية أهل اليسار . أما في فرنسا ، ذات الحدود البرية الطويلة المهددة بالآخطار ، فكل شيء يخضع لفعالية الدفاع ، والملك ، القائد الحربي ، سيد مع مفوضيه . نظام انكلترا بلوقراطي ذو نزعات الى الحرية المدنية والدينية . حكومة فرنسا دكتاتورية الطابع تسلطية

البنزعة . الحرب ابرزت الخلافات بواسطة عصبها ، المال ، لأن المجلس التمثيلي امسى في النهاية سيد الضريبة في انكلترا ، وهم أهل اليسار أنفسهم من يحبونها ، بينما يقرها الملك وحده في فرنسا . ويراقب جبايتها بواسطة مفوضيه . ملك انكلترا لا يحصل بنفسه على عصب الحرب ودم الاقتصاد العام ؛ أما ملك فرنسا فعلى نقض ذلك .

البيروقراطية
الا ان ارتفاع عدد المعاملات غالباً ما حال ، اقله بالنسبة للامور الجارية ، دون تمكن الملك ، وامين سر الدولة ، والوكلاء في الولايات ، من اتخاذ القرارات اللازمة بصدها . فهي المكاتب التي تعد القرارات ، استناداً الى السوابق الماثلة ، وترسل المعاملات جاهزة للتوقيع . وهكذا حدت السلطة الشخصية من ذاتها ، على غير قصد منها ، بالإدارة التي انشأتها والتي تسير على غرار جهاز ضخم يعيش حياته الخاصة ويتمتع بقوته الخاصة . فكان هذا مولد البيروقراطية .

الحقوق
الاميرية اثناء الحرب
سيطرت الحقوق الاميرية اثناء الحرب على حياة المملكة في هذه المرحلة . اضطر الملك لأن يحذر حذو انكلترا وهولندا والنمسا وبروسيا ، ولأن يطلع بكل جديد مريب . فبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٦٩٨ جبي ضريبة شخصية وبذل جهداً كبيراً لجعلها متناسبة ودخل الاشخاص الفعلي فوق تناسبها ووضعهم القانوني ، ثم جددتها ابتداء من السنة ١٧٠١ حتى السنة ١٧١٥ . واحداث منذ السنة ١٧١٠ ضريبة العشر ، المستوحاة من الرسوم المحدثه في انكلترا وهولندا وفلاندر ، التي فرضت بالتساوي على جميع انواع الدخول . فكان ذلك تقدماً تدريجياً نحو المساواة أمام الضريبة التي تنطوي على مبدأ المساواة . في خدمة الدولة والمجتمع . قبولت هذه الضرائب بمقاومات ضارية . الا ان الضريبة ما لبثت ان تحولت الى ضريبة تقسط اجزاء من المنة تضاف الى الاقتطاع ، أو الى مجرد وسيلة لتسهيل القروض بشكل اشترك في الضريبة . ووسع الملك الضرائب غير المباشرة ورسوم الجمارك والورق الموسوم ، مستهدفاً من ورائها اسهام ذوي الامتيازات ايضاً في النفقات العامة . ولكن كل ذلك لم يكف لسد الحاجة . فبات لزاماً اللجوء الى دين قومي . ولكن الملك لم يتوقف ، كما حدث في انكلترا ، الى انشاء مصرف دولة . فالصيارفة لم يوافقوا على تأسيسه بسبب نقص النقد ، ولا سيما بسبب اعتقادهم باستحالة قيام مثل هذا الجهاز في ملكية مطلقة : أراد الصيارفة أن يبقوا اسياذ استخدام مالههم ؛ كما ان انشاء مصرف الدولة يستلزم استبدال النظم السياسية . لذلك اكره الملك على اللجوء الى حيل باعطة الاكلاف كالتحويلات النقدية واحداث الوظائف وقعيين الدخول وتجربة النقد الورقي (١٧٠١ - ١٧١٢) وابتكار شتى انواع السندات الملكية ، والقروض الالزامية ، دون ان يتوصل في الوقت نفسه الى استهلاكها . استهلاكاً منتظماً . فلا عجب من ثم اذا ما بلغ الدين ، في السنة (١٧١٣) ، ٢٣٢٨ مليون ليرة ملكية ثورية (نسبة الى مدينة تور) ، يقابلها ٣٤٤ مليوناً في انكلترا . فان فرنسا التي

لم تتجمع فيها رؤوس أموال ضخمة ، قد انهكت تحت وطأة مجهود الحرب .

الاقتصاد اثناء الحرب
إذا اقضت اموال مجهود الحرب الى نتيجة مفيدة، هي ايلاف الفرنسيين النقد الورقي ، فأنها قد انضمت الى «الفناءين» لزيادة الازمة الاقتصادية والاجتماعية سوءاً . فالحروب رفعت نسبة نقص النقد الذي شكت منه فرنسا ، وشأنها في ذلك شأن أوروبا ، في اعقاب تدني انتاج المناجم الاميركية ، والذي آل طبعاً الى تخفيض الاسعار تخفيضاً مكدرأ . وقد صدرت فرنسا النقد بانتظام لتأمين حاجات جيوشها في الخارج . ومنذ السنة ١٦٨٦ ، اشهر « ده ماريه » نتيجة هذا الضرر الوخيمة على الاسعار والتجارة والاقتصاد . وغالباً ما أبعد النقد المتبقي عن وظيفته الاقتصادية بنقله الى دور النقد للتحويلات النقدية . واذا ما استثنينا ارتفاع الاسعار في سنوات المحول ، جاز لنا القول ان الاسعار بقيت متدنية والارباح محدودة والانتاج منخفضاً ، لا سيما وان التبدلات الدائمة الطارئة على قيمة النقد تحول دون كل حدس أو تقدير ونحمد نشاط التجار والصناعيين اليدويين والتجار الصناعيين . وجرى الركود الاقتصادي الى تعزيز التنظيم المعروف باسم كولبير . ووضعت بالإضافة الى ذلك انظمة لا يحمي لها عد . ولكن الوظائف المحدثة آنذاك عُدِد وافر من وظائف المفتشين والمراقبين والكيالين والوسطاء والحراس ، الخ . الذين يتقاضون كلهم رسوماً مختلفة مقابل كل عمل من اعمال وظيفتهم . فارتفعت الاسعار عند الاستهلاك بينما هي تدنت عند الانتاج . ابتاع الصناعي اليدوي بالغلاء نبيذه وخشبه وشمعه ؛ وابتاع الفلاح بالغلاء ، من سوق البلدة ، ادواته أو احذيته ، بينما لم تطرأ أية زيادة على سعر الحنطة . خفت نسبة الاستهلاك ، ثم نسبة الانتاج بدورها ايضاً . وتضررت التجارة والصناعة . زد على ذلك ان مراقبة المحاصيل الزراعية والجهود المبذولة للابقاء على تدني الاسعار قد جرّت الى الاجداب وزادت من سعة تبدلات الاسعار . وقد بين ذلك « ده كازودي هاليه » لمجلس التجارة في السنة ١٧٠١ ، و « بواغليير » للمراقب العام « شاميار » في السنة ١٧٠٤ . اذا عين للحنطة سعر منخفض ومنع بيعها خارج نطاق الولاية ، اكتفى فلاح مناطق زراعة القمح بزراعة ما يكفي لسد حاجته . واذا ما احل المحصول ، عمت الفاقة والعوز . يضاف الى ذلك ان نظام السنة ١٦٩٩ مثلاً ، رغبة في منع المضاربة ، قد حظر على التجار شراء الحبوب قبل الحصاد . اي ان القانون حظر الصفقات البعيدة الاجل التي تحد من الارتفاعات والانخفاضات . لذلك كان التاجر مضطراً ، بعد الحصاد الماحل ، الى الشراء والبيع بأسعار مرتفعة جداً؛ أما اذا كان الحصاد وفيراً ، فيمكنه الشراء من الفلاح بأسعار متدنية جداً . وأدى انهيار الاسعار ، بين السنة ١٧٠٣ والسنة ١٧٠٨ مثلاً ، واستحالة البيع الى ضيق ذات يد الملاكين والفلاحين وعجزهم عن دفع الضريبة . لذلك طالب العالمون بأصول الاقتصاد ، من امثال « كازو » و « بواغليير » ، والوكلاء ، بحرية التجارة وتخفيف الحقوق الاميرية ورفع سعر الحبوب الذي سيتيح للفلاحين والملاكين الشراء ، ومن ثم توفير العمل والازدهار للعمال والتجار . فطلعت بعض الآراء القائلة بالحرية الاقتصادية وباعتبار الزراعة

مصدر الثروة الوحيد (*Physiocratie*) . ولكن الرقابة العامة ما لبثت ان اجابت بواغليب
بما معناه : لا بد من مرور سنوات عدة قبل ان تقضي حرية التجارة وحرية الاسعار وتخفيض
الضرائب الى انطلاقة الزراعة والاثراء العام وزيادة مطارج الضريبة ، بينما نحن بحاجة ملحة الى
توفير النظام في المدن بتخفيض اسعار الخبز ، ووسائل الدفاع عن المملكة بحماية الضرائب .
فتوجب الاكتفاء بإجازات تصدير دوريه .

تفانم الصراع الطبقي في مجتمع شكا من نقص مواد الاستهلاك فبورجوازية
التجار والصيارفة الذين يسهمون في التجارة البحرية والامتيازات الحربية
والعمليات المالية الرسمية قد حافظت على مستوى معين من الازدهار والنموذ.
شيد أعضاؤها الفنادق الفاخرة وغدوا خير زين الفنانين واشتروا الاراضي من الارستوقراطية
العقارية وجاروها وزاحوها . واكرم الملك نفسه في قصر مارلي مثنى الصيرفي «صموئيل برنار»
واستأله للاستفادة مما له من وجاهة ومكانة وما يتمتع به من ثقة . وأخذ المثل البورجوازي يزاحم
في الادب مثل الرجل النزيه ومثل البطل .

أما صفار الاشراف الريفين فقد عظم الزمان بنابه ، فتزوجت كريماتهم من الفلاحين .
وأوصى بعض كبار النبلاء بأن يتعلم ابناؤهم مهنة لا تليق بمقامهم . ومال الدهر بعدهم كذلك
على صفار المستثمرين الزراعيين وصفار أرباب المهن والعمال .

لذلك بات حقد شتى درجات الارستوقراطية على البورجوازيين حقدأ جافياً وضارياً .
ولكن ثورات العمال والفلاحين على البورجوازيين كانت شبه مستمرة أيضاً . وقد استهدفت في
أغلب الاحيان الجبهة بائمي الوظائف ومندوبي.ملتزمي الضريبة . وقد لعبت الشائعات دوراً
كبيراً في اندلاع هذه الثورات ، لان الجماهير صدقتها دونما تردد في غمرة الحقوق الاميرية . ففي
آلنسون ثارت نساء الشعب لانهن ائقنن بان عليهن دفع «سنة فلوس عن كل قميص بيضاء وعشر
نحاسات عن ولادة الذكر وخمس نحاسات عن ولادة الانثى» . وقد حدثت في الارياف ظواهر
مماثلة لظواهر « الذعر العظيم » .

ارتد هذا الاستياء كله على السلطة المطلقة وعلى الملك . في السنة ١٧٠٩ ،
مارضة السلطة
المطلقة والثورة الفكرية
سار بعض الباريسيين على قصر فرساي نفسه : فاقومهم الجيش عند جسر
« سيفر » . عادت المجالس التمثيلية الى معارضتها،ولكن بخشية وحياء .
وحاولت المجالس التمثيلية الاقليمية استتبات البراءات واللجوء الى التحذيرات . وآثر مجلس
باريس التمثيلي استقالة الرأي العام بتشيعه للفليكانية.فساند الجنسينيين ضد تدخل البابا في شؤون
فرنسا (١٧٠٥ و ١٧١٣) . ومن جهة ثانية اعاد البروتستانتى « انطوان كور » تأسيس كنيسة
كلفينية في الحفاء (مجمع الصحراء الاول ، ٢١ آب ١٧١٥) .

لم يعد الملك سيد بلاطه كلياً . فان مشهد الضباط الاشراف الذين يمدون يديهم من الجيش فاقدن ساقا او ذراعاً ، والجدال الطويلة باسماء الاشراف الذين لا قوا حتفهم في المعارك ، وحسرات كبريات السيدات ، امهاتهم ، قد دفعت الى الاستفادة من الحياة بالزهد من الاستمتاع والتلذذ . فكانت النتيجة ذلة الشباب والمخطاطة .

« يتكلمون عن بقعة يتميز شيوعها بالظرف والتعذيب والادب ؛ أما شبانها فأفظاظ وقساء قلوب ، دوغما اخلاق ولا تعذيب ، ينصرفون عن التولع بالنساء في سن الانصراف اليه في البقاع الاخرى ، ويؤثرون عليهم الاطعمة واللحوم والاهواء المضحكة » (لايروير) .

ظهرت بوادر ثورة فكرية حقيقية على أنظمة الفكر التي بدت مرتبطة بالسلطة المطلقة . الا ان الحكومة المفتقرة الى وسائل عمل دول القرن العشرين ، قد انقضت ظواهر السلطة . يضاف الى ذلك ان بعض كبار الموظفين قد استمبلوا : كالمستشار « بونشارترين » الذي رفض الموافقة على التدابير القاسية التي طالب بها « بوسويه » . فبرز مذهب جمع بين الكرتزيانية والفستندية والمذهب الذري ، وتحول الى ذهنية عقلية ونفعية ، وشغف بالعلوم ، وكلاسيكية كاذبة في علم سنن الجمال ، ودين طبيعي ، وتعذيب اخلاق . وكان « فونتيل » و « بيل » من كبار دعاة هذه التعاليم . وانتشرت نظريات « لوك » السياسية والاجتماعية في أوساط البورجوازيين ، بينما حدد الاقطاعيون الغاضبون مثلهم السياسي الاعلى كاستورقراطيين معادين للملكية المطلقة في معية دوق بورغونيا . فتكونت من ثم معظم آراء « عصر الانوار » .

في كافة المحاء اوروبا ، باستثناء بولونيا واسوج ، ادت الحروب الى تقدم
نجاحات السلطة المطلقة في اوروبا
السلطة المطلقة وتوحيد ومركزية الدولة التي سارت شوطاً الى الامام في ارغام كافة طبقات المجتمع على خدمتها . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان هجرة البروتستانت الفرنسيين ، ونفوذ بلاط لويس الرابع عشر وفرنسا واقتفاء التقنيات والممارسات المفيدة لزيادة القوة أو للدعاوة ، ادت الى انتشار الآراء نفسها من اقصى اوروبا الى أقصاها . ولكن هذه الظواهر اختلفت باختلاف نظام الدول الاقتصادي والاجتماعي ووفقاً لتحول الحروب الى انتصار أو هزيمة .

اسبانيا
جديد لويس الرابع عشر اسبانيا . فهو من أسدى النصيح والمشورة الى حفيده
وقدم له المديرين المدبرين . تحققت مركزية المملكة ، وألغيت امتيازات كتالونيا وأراغون . واضلعت الحكومة على شاكلة الحكومة الفرنسية : اربعة أمناء سر دولة ، وكيل مالية عام ، مجلس مؤلف من غرف ذات اختصاص ، وكلاء أقاليم ، خزانة مركزية ، ملقثمون عامون ، ولايات تعامل معاملة مالية واحدة . زد على ذلك ان دخول الدولة قد ازدادت بسرعة بفضل النقد الذي ادخلته الجيوش الاجنبية والذي أنعش الاقتصاد الاسباني ، فاستطاع فيليب الخامس ، في السنة ١٧١٤ ، تجهيز ٢١ سفينة وتجنيد ١٣٢ فوجاً من المشاة ، و ١٣٠ كوكبة من

الحياة . وعلى الرغم من محاكم التفتيش واليسوعيين ، انفتحت أسبانيا للتأثيرات الأجنبية : فقد نقلت مسرحية « سنا » لـ كورتاي الى الاسبانية في السنة ١٧١٣ ، و « عظمات زمارن الهجي » ، « لبوردالو » في السنة ١٧١٤ . وأسس الملك أكاديميية ، وكان للموسيقى الابطالية حظوة كبرى عند الاسبانيين . فمادت أسبانيا الميتة الى الحياة .

استغل الامبراطور ، في ممتلكاته « النمساوية » النفوذ الذي اولته اياه الملكية النمساوية انتصاراته الداوية على الاتراك وصراعه ضد لويس الرابع عشر . فقد حاول خلق شعور هسبورغي مشترك في هذه الملكية المتعددة الدول المتشعبة في انحاء اوروبا ، واصدر في السنة ١٧١٣ ، امراً يعلن الوحدة الممتعة الانحلال لـ مختلف بلدان الملكية . ولكن البلدان التي غنمها في السنة ١٧١٣ ، اي لومبارديا والمناطق المنخفضة ، وهي اغناها وانشطها اطلاقاً ، قد عاشت في الواقع حياة انفراد . واضطرت هنغاريا المحتلة ، تحت الضغط ، لان تقترح في السنة ١٦٨٧ لحق الذكور من انسال سلالة هسبورغ في وراثة التاج ، وقضي على ثورة « راكوكزي » . الا ان جوزف الاول اضطر في السنة ١٧١١ الى التمهيد باحترام الكلفينية وضمن امتيازات « الدول » الهنغارية حيث يسيطر كبار الملاكين المقاريين . أما في النمسا وبوهيميا وفي « الدول الوراثية » القديمة ، وهي بلدان زراعية بحثة مدنها كثيرة وبورجوازياتها فقيرة ، فقد عزز الامير سلطته ولكن بواسطة تقاسم الارباح مع كبار الارستقراطيين المقاريين . وقد خدم هؤلاء الامير ، وغدوا ، من أوجه كثيرة ، طبقة اشرف خدمة . وفي الجمعيات فرضوا الارادة الملكية على طبقة الاشرف الوسطى وعلى البورجوازية . ولكن الامير احتفظ لهم بالوظائف الهامة في الجيش والادارة وأتمن لهم كل سلطة على الفلاحين المزارعين المرمقين بأعمال التسخير والاقوات . ولما كانت الدولة تسلسلية السلطات وكل طبقة مسجونة داخل امتيازاتها ، باتت الحياة الفكرية والاخلاقية والدينية مقتصرة على أبسط مظاهرها . فتلقت النمسا سلبيا التأثيرات الخارجية : كاثوليكية المجمع التريدينيني ، اليسوعيين ، الاستهجات الايطالي ، والتأثيرات الفرنسية اخيراً . ولكن الغلبة ما زالت للتأثيرات الايطالية . ففي الحضارة كما في السياسة ، ولت النمسا الجرمانية وجهها قوية مطردة شطر ايطاليا والشرق .

ما زالت ايطاليا مقسمة وخاضعة للسيطرة الأجنبية : فقد حلت النمسا فيها
ايطاليا محل أسبانيا في السنة ١٧١٣ . ولكن الكلاسيكية الفرنسية والعلم والفلسفة الفرنسيين ، قد تركت أثراً عميقاً فيها . فقد درست تعاليم غسندي في بيزا وبادوا ونابولي وروما . وكان لديكارث حظوة في نابولي ، وتهاقت الناس اكثر فأكثر على قراءة مؤلفاته في كافة أنحاء ايطاليا . ومثلت مسرحيات كورتاي وراسين . وكانت مؤلفات « مايون » و « مونفوكون » الواسمي الاطلاع موضوع اعجاب عام . فاستمدت نخبة ايطالية بقوتها الخلاقة ، لا سيما منذ السنة ١٦٩٠ . ونهضت العلوم الاختبارية من سباتها بفضل « ريدي » و « فالسينيري » . وطمح « مافي » الى

مجاراة الفرنسيين في حقل المآسي . واسس « موراتوري » وذوو العلم الواسع من الايطاليين مدرسة كبرى للنقد والتاريخ . وفرضت الموسيقى الايطالية نفسها في النمسا وألمانيا بفضل « كورتي » و « فيفالدي » . وامتزج الغالب الايطالي بالغالب الفرنسي في المؤلفات الالمانية .

تألفت دول سلالة براندبورغ ، في أواسط القرن ، من ست مجموعات من دول آل هوهنولرن الاقاليم منتشرة بين نهر « نيمن » ونهر « الموز » : دوقية بروسيا ، بومرانيا الشرقية ، براندبورغ ، امارة هالبرستات ، امارة « مندن » ، كوتية « رافنسبورغ » ، كوتية « مارك » ، دوقية « كليف » . فالدولة اذن مجموعة دول والامير مجموعة امراء يتمتعون بسلطات مختلفة تقبدها ابدأ جمعيات محلية هي المجالس الاقليمية . وليس من رابطة سوى شخص الامير ومجلسه السري . الامير يعيش من دخول املاك لم يحسن استثمارها واحتكارات ورسوم جمركية ، على غرار السيد في القرون الوسطى . لا يحصل بسهولة ، اثناء الحرب ، على مساهمات الدول التي تعتبر ان الحرب لا تمنحها اذا توالى فصولها في دولة اخرى من الملكية . وليس لديه ، في أيام السلم ، سوى بضعة الوف من الجنود الموزعين هنا وهناك وهناك .

استفاد المنتخب « فردريك - غليوم » (١٦٤٠ - ١٦٨٠) ، المنتخب الاكبر ، من اشتراكه في الحروب الاوروبية الكبرى كي يحقق انتقال امارة القرون الوسطى الى الدولة العصرية . فبعد من صلاحيات الجمعيات المحلية التي عارضت الضرائب الضرورية للحرب وغدا سيد الضريبة وتوصل في السنة ١٦٨٦ ، بعد صراع طويل ، الى وضع الحزانات الاقليمية ، التي ادارها حتى ذلك التاريخ ممثلو المجالس الاقليمية ، تحت سلطة موظفيه المباشرة . وحدث ضرائب غير مباشرة ، كالضريبة على مواد الاستهلاك ، التي كانت ضريبة دائمة وتناولت النبلاء انفسهم . واذا ما احتفظت بعض الدول بحق الموافقة على الضريبة ، فان موافقتها لم تكن سوى اجراء شكلي .

مكن المنتخب نظم الحكومة المركزية اي المجلس السري ، وديوان المستشار للشؤون الخارجية ومجلس الدعاوى للقضاء ، وغرفة المال ، ومفوضية الحرب العامة ، فجاءت آلة كبرى تسير كل شيء . وفي الولايات عزز صلاحية الحكام ، ومجلس الوصاية الذي عاون كلا منهم ، وموظفي الدائرة الخاضعين لهم ، وأكثر في كل مكان من المفوضين والمستشارين الاقليميين ومفوضي الرسوم . أما الضباط ، قضاة كانوا أم رتباء عسكريين ، الذين كانوا مرتبطين بالمجالس الاقليمية وتميزين بروحهم النفعية ، فقد قلت اظافرهم . وهكذا اوجد المنتخب طبقة من الموظفين البورجوازيين ، المزمين بتحمل اعباء الخدمة العامة الثقيلة مقابل اجر هزيل ، والمقصورين على حياة وضيقة ومتقشفة ، والمتعلقين بالتهذيب والوقار ، والمستمدين عزة مفيدة من شعورهم بدورهم الاجتماعي . وقد امن تنفيذ الاوامر جيش دائم من المرتزقة يبلغ عددهم ٣٠ ٠٠٠ رجل ويخضعون لنظام صارم .

وفي سبيل تأمين الاموال اللازمة للنفقات ، انصرف المنتخب الى تحقيق مجبوحة رعاياه وزيادة عيادهم بانتهاج سياسة تجارية صارمة. فأمر باصلاح الاراضي وجعل من براندبورغ ملجأ لكل من هاجروا بلادهم بسبب الاضطهاد الديني ، وقدم لهم الاراضي ومواد البناء ، واعقام مؤقناً من الضرائب . وانمى التجارة والصناعة باعتماد انظمة كوليرية صارمة . فارتفع عدد السكان الى مليون ونصف المليون تقريباً . وأحرز تصدير الاخشاب والجلود والآدمه والحبوب تقدماً سريعاً .

وقد أكمل عمله خليفته فردريك (١٦٨٨ - ١٧١٣) . استفاد من الخدمات التي أداها للامبراطور خلال الحرب ليحصل منه على اجازة بحمل لقب ملك بروسيا . توج في ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ . فبات سيداً ، وسما بنفوذه فوق نفوذ كافة الامراء الالمان وعزز سلطته فتميزت قوة دوله ووحدتها . وكان يعد نفسه بمقام الامبراطور . فنشطت مقاومة سلالة براندبورغ لسلالة النمسا ، وتكهن بعضهم بان الملك الجديد لن يلبث ان يقف في وجه النمسا، لانه هرطوقي وملك أرض انتزعها الفرسان التوتونيون من السلافين ، أي ملك ولاية ألمانية تنبسط عند الحدود ، فيحق له من ثم ان يجعل من نفسه يمثل الجرمانية ضد النمسا الكاثوليكية التي ترتبط بالبابا وتميل عن المانيا نحو البلدان الدانوبية والبلقانية .

روسيا بعد الحرب الاهلية في « عهد الاضطرابات » واستتباب الامن والنظام
روسيا واوروسيا في عهد القيصرية ، ميشال فيدوروفتش (١٦١٣ - ١٦٤٥)
« وألكسي ميخالوفتش » (١٦٤٥ - ١٦٧٦) و « فيدور ألكسندروفتش » (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ، اضطرت الحكومة ، بسبب حروبها الدائمة ضد اسوج وبولونيا والترك ، الى اقتباس التقنية العسكرية عن الغرب . فدخلت كتائب من الانكليز والالمان في خدمة القيصرية وتولى بعض الضباط الاجانب تدريب الجيوش الروسية . وحدثت الحقوق الاميرية خلال الحرب تطورا نحو السلطة المطلقة والمركزية . واحظى القيصرية طبقة نبلاء خدمة على حساب الطبقات الاخرى . وقصد البلاط والماصمة بعض التجار الاجانب . فانفتحت البلاد لبعض التأثيرات الاجنبية ، التأثير الالمانى في ايام ميشال وألكسي ، والتاثير البولوني في ايام « فيدور » الذي كان اول من تلقى تربية اوروبية . وتسربت اليها بعض الكتب اللاتينية والبولونية . وقد تابع السير في هذه الطريق بطرس الاكبر الذي جلس على عرش القيصرية منذ السنة ١٦٨٢ حتى السنة ١٧٢٥ . امسى سيد روسيا الاوحد في السنة ١٦٨٩ بفضل الضباط الاجانب ، السكتلنديين منهم والسويسريين والالمان ، وحنكته رحلته الى الغرب (١٦٩٧ - ١٦٩٨) ، فكان مديناً لحرب خلافة عرش اسبانيا ، بعد انتزاعه آزوف من الترك ، بالاشتراك في السياسة الاوروبية الكبرى . فأرغم دول جنوبي البلطيك الداخلة في صراع ضد اسوج ، التي بسطت سيطرتها على شاطئى هذا البحر ، على قبول التحالف مع روسيا . ووقع كل من « اوغست دي ساكس » ، ملك بولونيا ، وملك الدانمرك ، معاهدة مع بطرس (١٦٩٩) ، ثم تحالفت الدانمرك

مع براندبورغ (١٧٠٠) . فلمس الهانوفريون والهولنديون والامبراطور ان توازن القوى في البلطيك لن يلبث ان يختل وان هنالك خطراً كبيراً من ان تبسط روسيا سيادتها على البلطيك والمضائق الدانمركية اذا قدر لاسوج ان تمنى بالهزيمة . ولكنهم كانوا منهمكين بمحاربة حليف اسوج ، لويس الرابع عشر . وبينما كان ملك اسوج ، شارل الثاني ، سائراً قدماً في الاستيلاء على بولونيا ، كان بطرس منصرفاً الى احتلال سواحل خليج فنلندا وبلاد ليفونيا وتأسيس « مدينة القديس بطرس » (سان - بطرسبورغ) (١٧٠٣) . وبعد ان سحق القيصر جيوش شارل الثاني عشر في بولتافا (١٧٠٩) ، استولى على « ريفا » وفتح استونيا وزوج ابنة شقيقه من دوق « كورلند » واستولى على بومرانيا (١٧١٢) وفنلندا الجنوبية وجزر « آلند » (١٧١٤) ، بينما انتزع الحلفاء ما تبقى من فتوحات « غوستاف ادولف » . فانهارت السيادة الاسوجية على البلطيك وتوجب النظر في خلافة اسوج .

اصلاحات بطرس الاكبر الاول
خلال هذه الحروب ، ولأجل هذه الحروب ، طبع بطرس
روسيا بالطابع الاوروبي . وقد تم ذلك باصلاحات كثيرة
غير مدروسة اجريت بحسب الظروف او الدوافع الظرفية . فبعد عودته من اوروبا اصدر
الامور بسبب اللحى وتقضييب الاكسية والاكمام وفرض اللباس الهنغاري او الالماني (١٧٠٠)
واصلح الرزنامة واوجب احصاء السنين لا ابتداء من خلق العالم بل ابتداء من اصلاح الرزنامة .
واصبح الجيش جيشاً دائماً بقيادة ضباط من فرقتي الحرس اللتين غدتا مدرسة للاشراف وخلقنا
طبقة عسكرية . وبسبب تعدد الغزوات وتكرر غيابه ، هذا القيصر حذو اسوج وانشأ
تدريجياً ، منذ السنة ١٧٠٧ ، مجلس الشيوخ المؤلف من بعض اختصاصي بطانته الذين يحملون
معه في الادارة ويوجهون الامور الى الحكام . وحدثت شيئاً فشيئاً ثنائي حكومات يرئسها
قائد منتدب يتمتع بكافة الصلاحيات العسكرية والمالية والقضائية . وقسمت الحكومة ولايات
والولايات اقصية والاقضية مديريات . وتولى ادارة الولاية مفوض اقليمي يعينه القيصر .
وهكذا كان مجلس الشيوخ والحاكم ومفوضو الولايات كلهم مفوضي القيصر يتمتعون بصلاحيات
القيصر نفسها . اختيروا من طبقة الاشراف اما مفوضو الاقصية فقد انتخبهم الاشراف المحليون
وكانت مهمتهم الاولى جباية الضرائب . واما في المديريات ، فقد انتخب الفلاحون مجلس قضاء
اضطلع في الوقت نفسه بجباية الضرائب . وحق للمدن ان تحدد الضرائب وتسند توزيعها
وجبايتها الى هيئات منتخبة . فكأن مفهوم الادارة في جوهره افراداً او هيئات تنتخبها
فئات السكان المختلفة المتجمعة طوائف وتراقبها شبكة محكمة الحلقات من مفوضي القيصر .
ولكن مجلس الشيوخ تكشف عن عدم الوفاء بالحاجة . فقد تبين ان هنالك حلقة مفقودة بينه
وبين الحكومات . وظن بطرس بأنه اهتدى اليها في نظام الهيئات الاسوجي (القضاء ، الشؤون
الخارجية ، امارة البحر ، الحربية ، المالية ، التجارة) ، وبدأ منذ السنة ١٧١٢ بإنشاء هيئة
التجارة .

لجأ بطرس ، في كافة الوظائف الهامة وقيادة الجيش ، الى الاشراف الملتزمين بخدمة الدولة . وبالمقابلة لم يعد القيصر ليتدخل بينهم وبين الفلاحين . وبعد ان فشل في تعليمهم مهنتهم بممارستهم لها ، اوجب بطرس على الاشراف الاختلاف الى المدارس المهنية ، مدرسة العلوم الرياضية (١٧٠٥) ، الاكاديمية البحرية ، مدرسة المهندسين ، مدرسة المدفعية (١٧١٢) .

ولكن كل ذلك ما زال في طور البداية . اما الحقوق الاميرية فليست سوى فيض من الحيل المرجلة ، كما ان السياسة الاقتصادية ما زالت مرتكزة الى نظريات وتعاليم غير واضحة . ولن يستطيع القيصر الشروع في وضع تنظيم جديد شامل منسّق الا ابتداء من السنة ١٧١٥ . تسببت هذه الاصلاحات في ازمة داخلية خطيرة . ولعلها ايقظت الفتنة اكثر من الحسارة الرهيبة في الارواح ومن ثقل الضرائب ، لأنها شكلت قطعة مع نهج حياة وحضارة . فالقديسون يلتحون وليس من سابيدي اللحى سوى الهلكى . ودخان التبغ دنس لان الانجيل قال ان ما يخرج من الفم يدين الانسان . افليس هذا القيصر العاري الذقن ، الذي يدخن ويمتطي البحر ويسترق السنوات من الله ، هو نفسه المسيح الدجال يا ترى ؟

هزائم السلطة
استفاد ملوك اسوج من حروبهم الظافرة لتحديد ممتلكات
الاسرجية المطلقة وانهارها كبار الاشراف ، واقصائهم عن الحكومة والادارة ،
واقامة نظام مطلق مركزي وبيروقراطي أتاح حسن ادارته لهذه البلاد الصغيرة الانطلاقة
الاقتصادية ولعب دور هام في السياسة الأوروبية . اسوج بلاد غنية انتجت الحبوب في سكانييا
وقامت فيها صناعات تعدينية متقدمة بفضل مناجمها الحديدية والنحاسية واحراجها الكثيفة ،
ومارست تجارة بحرية ناشطة على هذا البلطيك الذي هو « بحيرة اسوجية » . فتمت بورجوازيته
وشاع الميل الى فنون الغرب وعلومه الاختبارية في هذه الطبقة الصاعدة وفي الارستوقراطية .

الا ان هزائم شارل الثاني عشر افقدت السلطة المطلقة حظوتها . فقد خسرت اسوج الاقاليم
الغنية التي أمنت لها ، الى جانب الموارد الكبرى ، السيطرة التجارية في البلطيك . وشكت
البلاد من التجنيد العسكري المتكرر ، والضرائب ، وتوقف التجارة ، والسلطة الملكية . وما
عادت الوصاية لتتمكن من اسماج كلمتها اثناء غياب شارل الثاني عشر . وتصرف قادة الولايات
وحكامها وكأنهم مستقلون عن السلطة المركزية . واستعدت الارستوقراطية لمعارضة السلطة
الملكية المطلقة والقيام بشورتها بعد وفاة شارل الثاني عشر (١٧١٨) .

يتضح من ثم ، خلال حروب أواخر القرن الكبرى ، ان كافة الدول الأوروبية كانت سائرة
في طريق تبدل الانظمة ، وتطور توازن الطبقات ، وازمة الحس والفكر . وستسهم هذه
الظواهر ، في ام الدول الغربية ، انكلترا ، والاقاليم المتحدة ، وفرنسا ، وفي ايطاليا والمانيا
الغربية الى حد ما ، في انقلاب العلوم والفلسفة والدين وعلم سنن الجمال والمفاهيم السياسية
والاجتماعية وفي بث بعض الآراء الجديدة في النحاء اوروبا الاخرى .

٣ - أزمة الفكر والحس

ان للعلم المصري ، والحروب ، و « الفناء » ، والازمة الاقتصادية ،
الكروتزياني والنيوتوني العلم واستبداد لويس الرابع عشر الشامل ، والتهديد الدائم الذي ناء به على
اوروبا ، قد أسهمت كلها في معارضة المذاهب التي بدت وكأنها ادوية
ناجعة لازمة ، مركزية الله الصوفية ، الكلاسيكية ، الكروتزيانية ، السلطة المطلقة ، الروح
التجارية على الطريقة الكولبيرية ، فبرزت الازمة مرة اخرى . ويرجح ان كفة الازمة كانت
صائرة الى الرجحان حتى بم عزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لان المذاهب
قد حملت في ذاتها بذور تناقض او اتجاهات جديدة . ولكن الظروف ساعدت مساعدة كبرى
على طلوع أو تجدد آراء مختلفة او مناقضة . ادت حالة اوروبا الى سيطرة قلق مقض غامض ،
مادي وادبي معا . ومال عدد متعاطف من الناس الى البحث عن اللذة والرفاهية . ورجحت كفة
فقدان التوازن والوحدة . فكانت الاولوية للعقل والمنطق في الظاهر . أما في الواقع ، فان معظم
الناس قد استخلصوا النتائج منطقياً من مقدمات يفرضها الحس . وفي معظم الحالات تحول هذا
الحس الى البحث عن حياة ارضية فضلى ؛ فسادت الذهنية النفعية .

تؤلف اوروبا جمهورية كبرى من العقول المثقفة . أما مركز الحياة الفكرية
الذي قام في ايطاليا خلال القرن السادس عشر وفي فرنسا خلال الاربع
الثلثة الاولى من القرن السابع عشر ، فما زال ينتقل باتجاه الشمال . فهم الانكليز من يلعبون
الآن اكبر دور خلاق بفضل انطلاقتهم الاقتصادية والسياسية العارمة وذهنيتهم البورجوازية
المسيطرة . فان « مبادئ » ، « نيوتون » تعود الى السنة ١٦٨٧ و « مجادلات » ، « لوك » الى
السنة ١٦٩٠ . منذ السنة ١٧٠٢ ، كانت الآداب الانكليزية في رائعة نهضتها ، وفي السنة
١٧١٢ تفوق الانتاج الانكليزي على الانتاج الفرنسي كمية ونوعاً . وكانت السنة ١٧١٣ ، وهي
سنة معاهدتي اوترخت ، سنة عجائبية بلغ فيها « بركلي » و « بوب » و « سوفيت »
و « اربوثنوت » و « اديسون » و « ستيل » ذروة عبقريتهم .

حافظت فرنساعلى مركز عظيم جداً بفضل اللغة التي ابتدعها كلاسيكيوها والتي طابقت حاجات
اوروبا . حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية . « الناس كلهم يرغبون في تكلم الفرنسية ؛
وهم يرون في ذلك دليلاً على التربية الجيدة . . . هنالك مدينة توجد فيها اثنتا عشرة مدرسة
فرنسية مقابل مدرسة لاتينية واحدة ؛ مؤلفات الاقدمين تترجم في كل مكان ، وقد اخذ
العلماء يخشون من ان تقصى اللغة اللاتينية عن ارضها القديمة » (« اخبار جمهورية الآداب » ،
١٦٨٤) . وقد لعب دور الوسيط الاكبر البرتستانات الفرنسيون المهاجرون الى « ملاحظتهم »
المختلفة في انكلترا و « براندبورغ - بروسيا » و « هس - كاسل » و « سويسرا ونرويج واسوج

والدائرك والمستعمرات الانكليزية، بوسطن ونيويورك، وحتى في موسكو. وكان اهمها اطلاقاً ملجأ هولندا .

منذ ذلك الحين ، تلاقى في الاقاليم المتحدة، مفترق الامم ، رجال آتون من كافة البلدان . فقد قصدها الانكليز والسكتلنديون والدائمكيون والاسوجيون والبولونيون والهناريون والالمان لتلقي الدروس في ليدن وغروننغ واورنخت . وتعاضل بمجيء البروتستانت الفرنسيين دور هولندا الدولي الكبير . وأسس البروتستانت الفرنسيون صحفاً اوروبية كبرى : « اخبار جمهورية الآداب » ، لبيير بيل ، (اذار ١٦٨٣) و « المكتبة الشاملة والتاريخية » لجان لو كلير (كانون الثاني ١٦٨٦) ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » لـ « باسناج دي بوفال » (ايلول ١٦٨٧) . فأثروا في الانكليز اللاجئين الذين كانوا يعدون الثورة الانكليزية . وكان « جان لو كلير » و « باسناج » و « دي بوسك » وجوريو عوناً للوك على انضاج الآراء الدينية والسياسية التي بررت الثورة والتي كان لها تأثيرها الشامل فيما بعد . وبعد الثورة قام اللاجئون البروتستانت الى انكلترا ، « ابل رويته » و « ده ميزو » و « كوست » بترجمة المؤلفات الانكليزية وادخلوا عليها ما افترقت اليه من وضوح وتلاحم واحتشام ورفانة فاستطاعت بجلتها الجديدة ان تقتشر في كافة أنحاء اوروبا . وان بيير كوست الذي اصبح عضواً في جمعية لندن الملكية ونشر مؤلفات « لابرويير » و « لافوتين » و « موتاني » في انكلترا ، قد ترجم « المحارلة الفلسفية » للوك (١٧٠٤) و « محاولة في علم البصريات » لنوتون (١٧٠٤) و « محاولة في السخرية » لشافلسبري . وهكذا فقد تبودلت الآراء وامتزجت وتلقت بفضل الجمهورية البروتستانتية الفرنسية الكبرى .

انتشرت الكرتزيانية في كل مكان . في السنة ١٦٥٧ ، درس مذهب انتشار الكرتزيانية ديكارت علانية في جامعات هولندا . بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٦ ، نشر « كلير سليه » ، الهامي في مجلس باريس التمثيلي ، ثلاثة مجلدات من آثار ديكارت اللاتينية غير المنشورة ، مع ترجمتها الفرنسية ، ولا سيما من الرسائل التي هي اسهل مناسلاً من الابحاث العقائدية . استطاعت الكرتزيانية من ثم تثبيت أقدامها في كافة البلدان وكافة الاوساط الراقية . في فرنسا ، رُحِبَ بها كبار النبلاء ، وكبار البورجوازيين في المحاكم العليا والمهن الحرة ، والجمعيات الدينية الكبرى . تألفت اكااديميات كرتزيانية حقيقية ، والقيت اسبوعياً محاضرات علمية كرتزيانية في قصر الدوق « دي لوين » ، ودائرة الامير « دي كونديه » ، ومنزل مقدم المرائض « هابر دي مونمور » ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، وفي اجمل قصور باريس . فدان بالذهب الكرتزياني المركيزة « دي سابل » ومدام « دي سيفيني » وابنتها مدام « دي غرينيان » ومدام « دي لافايت » و « لاروشفوكو » و « آرنو » . ودرست الكرتزيانية عند رهبان القديس فيلبس النيري ، والبندكتيين، والاوغسطينيين . ويعود الفضل لاحد الفرنسيين سكان في انتقال الكرتزيانية الى انكلترا ودخولها دخول الفاتحين الى جامعي كمبردج واوكسفورد .

وانتشرت الكرتزيانية في جنيف واستولت على عقول كثيرة في ايطاليا والمانيا . وقد بلغ المذهب ذروته بكتاب « احاديث حول تعدد العوالم » لفوننتيل (١٦٨٦) .

على الرغم من كل ذلك ، لم تتوقف مقاومة الكنيسة لديكار . كان الكنيسة ضد الكرتزيانية مقصده انقاذ الدين ، ولكن تعليمه ما لبث ان اصبح خطراً عليه . رد المادة الى الاتساع ، ولكن ما هي الطريقة ، والحالة هذه ، لفهم استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه ؟ كيف يمكن لجسد المسيح ، الذي هو جزء من الاتساع ، ان يكون في خبز الذبيحة ، بينما لا يزال الخبز ، الذي هو جزء من الاتساع ايضاً ، يحتل مكاناً معيناً ؟ ان ما كانت حوشياً في مذهب الماهيات الواقعي ، قد بات مستغلقاً كلياً ، لا بل مستحيلاً ، في مذهب الاتساع الكرتزياني . كان اله ديكار مهندساً عبوساً ، وميكانيكياً فقط ، لا يستشف فيه الاله الحي الذي عبده اسحق وابراهيم ويعقوب . ولم يكن في مذهب ديكار مكان لشخص المسيح . وكان من شأن ديكار ان يوصل الى الدين الطبيعي الذي قد لا يكون اقل مناقضة للمسيحية من الاحاد ، والذي ربما ادرك فيه « الفيلسوف المقتنع » شيخوخته مجروراً بمنطق تعليمه ، كذاك الشريف الريفي ، الذي جرفته مذهبه في الرشد والادراك ، وربما غدا ديموقراطياً .

لذلك وقفت الكنيسة موقفاً صريحاً مناهضاً للكرتزيانية . في فرنسا طالبت السوربون ، في السنة ١٦٧١ ، بتدريس ارسطو دون غيره ، فكان من الملك ، المقيد بقسم التنوير ، ان منعه تدريس مذهب ديكار (١٦٧١ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٨) . فخضع رهبان القديس فيلبس النيري وبندكتيو « سان - مور » وكهنة « سانت جنيفيف » القانونيون . وفي السنة ١٦٨٠ ، منعت محاضرات « ريجيس » الكرتزيانية . وفي السنتين ١٦٩١ و ١٧٠٤ ، ألزم الملك اساتذة الفلسفة في كليات جامعة باريس بالتعهد خطياً بان لا يدرسوا المبادئ الكرتزيانية . وادرجت مؤلفات الاب « مالبرانش » في فهرست الكتب المحرمة (١٧٠٩) . ولكن الملك لم يتخذ اي اجراء ضد المدنيين الكرتزيانيين ، لا بل اقدم المستشار ، في السنة ١٦٩٢ ، على تأنيب مؤلف « مكرور الظريف » لانه نشر « شيئاً ما » تعرض فيه لسعة ديكار .

ولكن الكرتزيانية التي انتشرت لم تكن ، من جهة ثانية ، مذهب تشويحات الكرتزيانية المعلم الصحيح الذي كان ارفع واعز من ان يستطيع الكثيرون ان يدركوه ويحيوه في مجموعه . ان ما احرز النجاح كان كرتزيانية مشوهة تلتفها الفسندية والمذهب الذري . يتضح ذلك في « الاسس الطبيعية » لـ « ريجيوس » (١٦٤٦) و « التمييز بين الجسد والروح » لـ « كوردمو » الذي عين قارئاً لولي العهد بوساطة بوسويه ، و « بحث في الطبيعيات » الشهير لـ « روهو » (١٦٧١) الذين اعيد نشره تكررراً ، و « الجملة الفلسفية » لـ ريجيس (١٦٩٠) . فان هؤلاء الفلاسفة ، الذين تمودوا التفسيرات الآلية ، ولم يروا بعد ضرورة لاثبات قيمة العلوم الطبيعية الرياضية ، وكانوا اقل تحمساً للحقيقة من ديكار ، وحملتهم فطنتهم ، من

جهة ثانية ، على عرض آرائهم مجزأة وكأنها نظريات او ترجيحات ، قد فصلوا العلم عن علم المعقولات ونادوا باستقلالها الواحد عن الآخر ولم يعودوا يبحثون عن استخلاص كل شيء من مبدأ واحد ، بل يقدمون مجموع تفسيرات آلية لظواهر منفردة . وتعلقوا بالاختبارات تدفعهم اليها رسائل ديكارت التي يتجلى هذا العقائدي فيها مختبرا ذات له الكل بالكثير خلال القرن السابع عشر . وفي نظرم ان مطابقة الاختبار للنظرية تعطي احتمالا عقليا يكتفون به . وهم يبدون عاجزين عن التفريق بين الفكر والصورة ، بين الفكر والحس . سبق لديكارت ان لفت الانتباه الى اننا قد نكون فكرة واضحة وجلية عن شكل له الف ضلع يستحيل علينا تصوره . أما في رأي ريجيوس وريجيس ، « فالفكرة » لا تمثل لنا هذا الشكل تمثيلا اوضح من شكل آخر يختلف عنه بعدد اضلاعه . فلا عجب من ثم اذا ما انزلقوا نحو مذهب الحاشيين : كل افكارنا تأتينا من الاختبار والحواس . اما الافكار الازلية ، كفكرة الله ، فتتكون بالتجريد والافتراضات الاختيارية . والنفس لا تعمل الا بفعل ارتباطها بالجسد ، ثم تقضى بعد الموت . وانزلقوا نحو المذهب الذري ايضا لأن جزئيات المواد ، كما يقول « كوردمو » تصير حتما الى الانسحاق لولا وجود الذرات . ونظرت « صحيفة العلماء » الى الكرتزياني ريجيس ، الذي لم يعرف لا نيوتون ولا لوك ، نظرتها الى احد الفسنيين .

تقدم العلوم ضد الكرتزيانية يضاف الى ذلك اخيراً ان اكتشافات علماء الطبيعة قد خطأت الألبون ونقد ديكارت ديكارت في العديد من النقاط ايضا . يرد ذلك الى ان ديكارت يبدي بعض اللامبالاة حيال الوقائع . انه يستخلص ، وفي رأيه ان الاختبار هو موافقة بين أن من اوان الاستخلاص وبين التحقق من ظاهرة ما . فسر بعض الوقائع المعروفة تفسيراً آلياً دون ان يستثبها دائما . انتقد التفسيرات السابقة ولكنه نادراً ما انتقد الوقائع . يسلّم بأن الصاعقة تتحول حجراً ، وبأن النيازك والمذنبات ليست سوى مجرد انجرة ملتبهة . يشاطر ارسطو رأيه في ان القلب مركز حرارة قوية يضمها الله فيه . هذه الحرارة تغلي الدم الذي تتخثر انجرته في الرئة . الغليان يسبب حركات القلب . ويدافع ديكارت عن الدورة الدموية ، ويشهر « هارفي » بايراد اسمه في « الخطبة » ، ولكنه لا يسلّم بتفسيره لحركات القلب . اما هارفي فيبين ان حركات القلب دقائق مفاجئة وحركات سريعة لا قدرة للغليان على احداثها . ديكارت يتمسك بنظريته لانها تهر الفرق بين دم الشرايين ودم الاوردة . ويتمسك بها كذلك لانها تتيح له الحفاظ على تسلسل استخلاصاته ، وينبذ الملاحظة الثانية التي لا تندمج فيها . ويكتب لـ « مرسين » : اذا كان تفسيري خاطئاً ، فكل فلسفي خاطئ أيضاً . ولكن الملاحظين اضطروا لان يقولوا قول هارفي : القلب عضل ينقبض .

وانجر ديكارت كذلك ، بفعل مفهومه للاتساع ، الى اعتبار رومر وسرعة النور انتشار النور انتشاراً فواتياً . الاتساع هو جوهر المادة ، فالجرم من ثم جزء محدود من الاتساع ، وهو بالتالي متعلق وعادم الحركة . وليس لحركته او لتوقفه سوى سبب واحد هو الصدمة . عمل الصدمة فواتي ، لذلك فان عمل النور ينتقل من الاجرام

المنيرة الى العين على طريقة انتقال حركة الدفع من طرف عصا صلبة الى طرفها الآخر . ويعلم ديكارت ان فلسفته ستتهار كلياً اذا اثبت الاختبار الحسي وجود تأخر ما ، لان مذهبه متماسك الحلقات . ولكن الدانمركي « رومر » لاحظ في السنة ١٦٧٦ ظهور القمر التابع الاول حين خروجه من ظل جوبيتر ، بالنسبة لوضع الارض المختلفة على مدارها ، فتحقق له ان النور يتأخر ستة عشر دقيقة عن بلوغ الارض حين يتوجب على القمر اجتياز مدار الارض . وكانت نتيجة العملية الحسابية التي اجراها ان سرعة النور تبلغ ٣٠٨ ٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وتقدر هذه السرعة اليوم في الثانية بحوالي ٢٩٩ ٧٧٨ كم في الهواء وير ٢٩٩ ٧٩٦ كم في الفضاء .

لينيز والحركة وانتهى ديكارت اخيراً الى الكف عن البحث عن الصيغة الرياضية لسنن الطبيعة . ولا غرو فألته آلية الصدمة . ولما كان سبب كل حركة حركة ، لا يمكن ان يجري التبادل الا بالصدمة التي تفسر الصدم والضغط والتل . العلة الاولى للصدمة هي ذاك الثبات الالهي الذي يستلزمه عقلياً دوام الحركة . من هذه العلة الاولى نستخلص عللاً ثانوية ، مبدأ ثبوت الجداد ، المبدأ العام لتصادم الاجرام الذي تؤلف ملاحقه السنن السبع لتصادم الاجرام ، واخيراً مبدأ الجداد . وقد اعطى ديكارت مبدأ تصادم الاجرام العام الصيغة التالية : « اذا كان الجرم المتحرك الذي يصطدم بجرم آخر اقل قوة لمواصلة الحركة المستقيمة من هذا الجرم الآخر لمقاومته ، فانه يفقد بعض الشيء من مقصده دون ان يفقد شيئاً من حركته ؛ و ... اذا كان اعظم قوة ، فانه يحرك معه هذا الجرم الآخر ويفقد من حركته بقدر ما يعطي منها » .

بيد ان لينيز قد أثبت ، بعد ان اكتشف حساب الكمية الصغرى في السنة ١٦٧٦ ، خطأ سنة دوام الحركة التي توصل اليها ديكارت . يفرض ديكارت خطأً ان الحركة مقياس القوة ، التي هي حاصل ضرب الحجم بالسرعة ، اي $ح \times س$ ، لان لبرة تهبط اربع اقدام تحقق طبعاً قوة اربع لبرات تهبط قدماً واحدة . ولكن نسبة حركة اللبرة لحركة اللبرات الاربع ، كما يقول لينيز ، هي نسبة ٢ الى ٣ بحسب سنن غاليليو ، وان المطابقة في الوزنين هي حاصل ضرب الحجم بمربع السرعة اي $ح \times س^2$ ، وهذه القوة هي الثابتة الحقيقية التي يبحث عنها ديكارت .

وفي رأي لينيز ان سنن التصادم التي توصل اليها ديكارت تناقض مبدأ الديمومة الذي هو ملحق مبدأ اللانهاية . يعبر مبدأ الديمومة عن خاصية مشتركة بين كافة التنوعات الحقيقية هي التالية : الطبيعة لا تقفز قفزاً ، ولا يمكن لشيء ان ينتقل من حالة الى اخرى الا بوسائط متعاقبة لا يحصى لها عدد . ان ما يمكن مشاهدته استمرار مركب من اجزاء لا يمكن مشاهدتها ؛ لا شيء يحدث فجأة ، لا الفكر ولا الحركة . الواقع ديمومة قد نعجز عن استقصاء اجزائها . وقد اعتقد ديكارت ، بسبب انكفاه عن مواصلة التعمق في فكرة

اللانهاية ، وافتنقاره الى مبدأ الاستمرار والى الاداة الرياضية الضرورية ، اي تحليل الكمية الصغرى ، والى الاختبارات الكافية ، بأن الجرم ، كلما استوقفه عائق متمطط ، يطفر ويعود الى الوراء بسرعة مساوية عددياً لسرعته الاولى ، لان حركته تستمر ومقصده ينمكس . ولكن هذه الظاهرة لا تحدث الا في بعض الحالات . ولو ان ديكارت فكر بالحالات التي يكون فيها للجسم الصادم قوة تفوق مقاومة الجسم المصدوم بقدر غاية في الصغر ، لأدرك ان الصدمة ليست ظاهرة بسيطة بل معقدة جداً تنطوي على تعاقب تحول حركات طفيفة جداً : خمود ، تبادل تشوه الاجرام ، توقف ، استعادة الشكل ، استعادة الحركات . كل هذا الذي يدوم ، على الرغم من انه يبدو فواتياً ، اعتبره ديكارت بسيطاً . فتوصل من ثم الى آلية حركية لا يستطيع ان يحسب فيها شيئاً . واضطر بسبب ذلك لان يتخيل ، لتفسير نوع من الظواهر ، آلية تصورها على غرار الحيل البشرية . ولكن نتيجة واحدة قد تحقق بعدة اليات مختلفة كل الاختلاف بعضها عن البعض الآخر . لذلك فان مكتشف الهندسة التحليلية ، والعالم بعلم الكائنات الذي جعل من الرياضيات جوهر الواقع ، ومنقذ علم الطبيعيات الرياضي ، قد انتهى الى مذهب في العالم لم يعد فيه مكان للرياضيات .

كل هذا اثبت ان الطريقة الكرتزيانية تنطوي على خطأ اساسي .
 باسكال
 ونظرية رجحان الافتراض
 فمئذ نشر الخطب ، راح علماء كثيرون من المقربين الى مرسين وروبرفال وغسندي وباسكال وهوبس يتسمون تهكماً من بمائلة الاتساع للمادة ويحكمون على تولد الظواهر من تقلبات المادة اللطيفة والزوابع حكمهم على مجرد اسطورة . « ان اسفاط البوري ... وماء البحر والخشب العفن تنطوي ، في هذا القدر القليل من النور الذي تولده » على بدائع تفوق كل ما نستطيع معرفته . واستمررا في التحزب للفراغ ضد الملء الكرتزياني ، وكان اشهرهم « بليز باسكال^(١) » ، ابن احد القضاة في محكمة المساعدات في « كلرمون - فران » . نظر الى المادة اللطيفة التي قال بها ديكارت كما الى صورة جوهريّة ونظر الى ديكارت كما الى فيلسوف مدرسي . ازدرى بنظرية الافتراض الكرتزيانية وباعتقادية ديكارت المبنية على مبدأ عقلي اكيد لا يحتاج تحقيقه الى اختبار . في رأي ديكارت ان نظرية النور تستخلص من السنن التي طبع الله مثل مفاهيمها في نفوسنا والتي لا يمكننا ، بعد امان التفكير بها ، ان نشك في انها تطبق بكل دقة في كل ما هو موجود او حادث في العالم . الله أوجد المطابقة بين نفوسنا ، حيث اودعت بذور الحقيقة ، وبين العالم الواقعي الذي يخضع لسنن الله . فالاستخلاص ، من ثم ، سيتيح لنا ادراك الواقع . ولكن باسكال يكتب بخلاف ذلك : « ليس كافياً ، لكي يكون الافتراض جلي الوضوح ، ان تنتج عنه كل الظواهر ... لان كل اشياء هذه الطبيعية ، التي لا يبرز وجودها لاية حاسة من حواسنا ، يصعب الايمان بوجودها بقدر ما يسهل اكتشافها » . ليس للافتراض من قيمة ألا اذا امكن استنباطه بالحواس . ويكون محتملاً حين يتفق والحواس كلها . ولكنه قد لا يكون صحيحاً ، فاذا نتج عنه ما يناقض ظاهرة واحدة من

الظواهر مثلاً ، فيكون ذلك كافياً للجزم في بيهانه . قابل بأسكال اعتقادية ديكرات ومبدأه العقلي الاكيد بنظرية اختبارية الافتراض ورجحانه . وقد توصل بالفعل الى نتائج جلية . فقد فسر بثقل الهواء صعود الماء في الانابيب الذي عزي حتى ذاك التاريخ الى نفور الطبيعة من الفراغ . وفي السنة ١٦٤٨ ، اثبت ، باختبار « بوي دي دوم » ، افتراض توريشلي ، الذي قال بان الهواء وازن . وفي كتابه « بحث في توازن السوائل وثقل الهواء » ، رد كل الظواهر الى حركات المادة ووضع مبدأ الضغط المائي ؛ وابتكر ميزان الجو ، ووفر امكانية حساب صعود الماء في الانابيب في كل مكان من العالم وحسب وزن كل الهواء الذي يحيط بالارض . ومنذ السنة ١٦٥٧ ، وضع اسس حساب الاتفاق . فجاءت النتائج تبرر مفهومه للافتراض .

ولكن ذلك أفضى بالنتيجة الى ان مبادئ المهندسين غير لازمة الحدوث وانها منهج الآلين مجرد معطيات حقيقية واختبارية تدرك بالحدس ، او بالقلب ، كما يقول بأسكال . فلم الطبيعيات ليس من ثم علماً اثباتياً ، استنتاجياً ، مرتبطاً بعلم المقولات . وفي هذه الحالة ليس علم المقولات ، وهو علم صوري على غرار الرياضيات والجدول والمنطق ، تحليلاً للواقع . فليس من ثم اي اعتراض اذا لجأ بأسكال الى القلب لاثبات الدين . رفض العلماء المبادئ العقلية الاكيدة ومبادئ علم المقولات وبراهين اثبات السنن . لم يقبلوا بهذه الاعتقادية الجديدة . واكتفوا ببعض القواعد المنهجية البسيطة : رفض التسلط ، واستيحاء العقل في كل شيء ، واعتبار الجلاء مقياساً للحقيقة ، والفصل أبداً بين المهم والواضح ، والاختبار لاجل المراقبة ، لان لا سبيل لنا الا الى الكائن العلمي ، لا الى الواقع ، ولا سبيل لنا الا الى الكمية التي ليست سوى احد مرثي الظواهر . ليست سنننا سوى أوصاف للطبيعة ، لا براهين على تركيبها . فلنقل : « كل شيء يحدث كما لو ان ... » ، ولكن الجميع يؤمنون بالسنن الطبيعية ، ومن ثم بالاله السامي الثبات والاستمرار في مقاصده ، الذي خلق العالم على غرار آلة ضخمة تقصي سنة الجداد عنها مع قاعدة ديمومة العمل ، التي هي القاعدة الذهنية في علم الطبيعيات الجديد ، كل شعر ، وتجمل من العلم معرفة شتى أنواع الحركات المنظمة . وهكذا تخلخل مذهب ديكرات بدوره بفعل هذه الآلية العملية . بيد ان التأليف لا يهدم الا بتأليف آخر توصل اليه نيوتون .

ان نيوتون (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ، استاذ الرياضيات في جامعة كبرج تاليف نيوتون (ترينتي كوليج) منذ السنة ١٦٦٧ ، وعضو الجمعية الملكية للعلوم منذ السنة ١٦٧٢ ، وموظف دار النقود في لندن منذ السنة ١٦٩٥ ، قد قام في وقت واحد ، منذ ١٦٦٥ - ١٦٦٦ ، بأبحاثه الرياضية والآلية والبصرية . في تموز ١٦٨٧ ، نشر « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » ، التي طبعها طبعة ثانية في السنة ١٧١٣ . وظهر كتابه ، « بحث في البصريات » ، في السنة ١٧٠٤ . ولكنه ، منذ السنة ١٦٦٦ ، أطلع اصداقه على اسلوبه في حساب المودود وأبحاثه الاولى حول الجاذبية الكونية . ومنذ السنة ١٦٧٢ نوقشت في جمعية لندن

الملكية طريقته في تحليل الضوء الى ألوانه الاولى بواسطة المنشور، كما نوقش، منذ السنة ١٦٧٥، مفهومه للهواء الاصفى المعد لتفسير الجاذبية الكونية .

منهجه هو منهج باسكال والالين الاقبحاح . ولا يبدو انه استوحى «بيكون» . منهج نيوتون ففي رأي العالم الانكليزي ، « دافيد بروستر » ، ان نيوتون ليس مديناً بشيء ليبيكون ، وحتى لو لم يكتب بيكون شيئاً ، لما حال ذلك دون اكتشافاته ، لا سيما وانه من المستحيل ان يكتشف شيئاً بناهج بيكون .

نيوتون يسير في طريق التحليل . يرفض « الافتراضات » ، اي كل القضايا التي لا تستنتج من الظواهر . وهو لا يعني بذلك رفض كل افتراض يستهدف البحث ، وهذا أمر مستحيل ، بل كل قضية لا يمكن استنباطها باختبار تقع نتائجها تحت الحواس . على الفيلسوف ان يجري ملاحظات واختبارات ويخلص منها بالاستنتاج الى نتائج عامة واعتبار هذه القضايا صحيحة الى ان تثبتها بعض الظواهر اثباتاً كلياً أو تظهر انها قابلة للاستثناءات . لا يستطيع اي « افتراض » اضعاف البراهين المبنية على استنتاج مستخلص من الاختبار . يجب على الفيلسوف ان لا يسلم الا بالمدل التي هي كلية الضرورة لتفسير الظواهر ، لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً دون جدوى ولانها لا تلجأ في عملها الا الى حد ادنى من الملل البسيطة جداً . يجب الا يبحث الا عن الملل الموجودة حقاً ، لا « عن السنن التي كان باستطاعة الكلي القدرة ان يوجد بواسطتها النظام المدهش الذي يسود الكون » ، لو رأى من الموافق استخدامها ، بل تلك التي وضعها بعمل حر صادر عن ارادته . فيمكننا ان نعتقد بالصواب بأن الملل الواحد قد ينتج عن عدة علل مختلفة ؛ ولكن العلة الحقيقية ، في نظر الفيلسوف ، هي تلك التي تحدث حالياً الملل موضوع البحث : ولا تعترف الفلسفة الصحيحة بغيرها . ومن البديهي ان الفيلسوف يستخدم الرياضيات ، ولكن بحسب رأي غاليليو وباسكال ، بغية حساب وارتقاب عدد كبير من الظواهر ، لا بغية اسدال الستار على جوهر خفي ما ، كالقوة الجاذبة الحقيقية مثلاً . هذه البراهين لا توصل ، على وجه مقنع ، الى نتائج عامة ، ولكن يغدو ممكناً ، بفضل هذا التحليل ، الانتقال من المركبات الى البساط ، ومن الحركات الى القوى التي تسببها ، ومن الملل الى العلل ، ومن الملل الخاصة الى علل اعم . ثم يتيح التأليف الانطلاق من هذه العلل المعروفة والمتحنة وعرض نظام وترتيب الظواهر المرتبطة بها .

حساب الكمية الصغرى ابتكر نيوتون الاداة الرياضية الضرورية للابحاث الجديدة . منذ ١٦٦٥ ١٦٦٦ صمم طريقة المدود التي اطلع الجمهور على مبادئها الاساسية في كتاب « المبادئ » ، وعلى علاماتها الخاصة في المجلد الثاني من كتاب جبر « ووليس » ، الذي نشره هو . لقد سبق لكبلر منذ السنة ١٦٣٥ ان استوحى مفهوم اللانهاية الجديد وطلع بفكرة الكميات الكبرى والكميات الصغرى التي نبذتها الهندسة اليونانية . تحليل الدائرة وكانها مركبة من عدد لامتناه من مثلثات تجتمع رؤوسها في نقطة الدائرة وتتوزع

قواعدها على محيط الدائرة ؛ والكرة وكأنها مركبة من عدد لامتناه من الاهرام . وسبق لديكارت ان ادخل على الرياضيات فكرة الحركة التي افترقت اليها الهندسة اليونانية . وسبق لـ (١٦١٦ - ١٧٠٣) ، في كتابه ، حساب اللانهاية ، ان استخدم سنة الاستمرار التي تفرق بين الهندسة المصرية والهندسة القديمة . درس نيوتون كبلر وديكارت وفيت ووليس . فرض ان المحور الافقي يزداد ازدياداً متساوياً بدلالة الزمان ، فاعتبر مساحة المنحني كمية ناشئة تزداد بنسبة طول المحور العمودي . توصل الى جملة المد واوضحها في حدود متوالية متناهية او لامتناهية . أما منهجه فطريقة حساب الكمية الصفوى الشبيهة بطريقة ليبنيز . فقد توصل ليبنيز ، خلال احدى اقاماته في باريس ، حيث حوّل هويغنس شغفه نحو الرياضيات ، الى ان يتكرر بدوره حساب التفاضل وحساب التكامل ، ونشر مبادئه الاولى في السنة ١٦٨٤ ومبادئه الثاني في السنة ١٦٨٦ ، مع العلامات التي ما تزال مستخدمة في ايامنا هذه . ولكنه اعتقد بأنه اكتشف جوهرأ خفياً حين اهتدى الى $x \times s^2$ ، ولم يتمكن من استخدام اكتشافه في حساب سنن الطبيعة . ومنذ السنة ١٦٩٩ ، وخلال جدال حاد ، اتهم نيوتون بانتحال ليبنيز وليبنيز بانتحال نيوتون .

مسألة الجاذبية استطاع نيوتون ، بعد هذا الاكتشاف ، بحجة مسألة لم يتوفق كبلر وغاليليو الى حلها . القوة الخارجية ضرورية لتحويل حركة جرم مستقيمة ومتساوية السرعة . فما هي والحالة هذه القوة التي تحيد الكواكب عن الخط المستقيم في الفضاء وتجعلها ترسم خطوطاً منحنية يا ترى ؟ منذ السنة ١٦٦٦ فكر نيوتون بحركة القمر حول الارض ففساد عما اذا لم تكن الجاذبية ، التي يُستثبت تأثيرها حتى في اعلى قمم الجبال ، تمتد الى القمر وتؤثر في هذا الجرم وتبقيه على مداره ، وعما اذا لم تكن الجاذبية هي القوة الجاذبة الى المركز . استند في براهينه ، بالمثالة ، الى حركة القذائف . فاذا رادت السرعة ، قاومت القوة الجاذبة الى المركز ، وسقطت القذيفة على سطح الارض في مكان يزداد بعده بنسبة سرعتها . فبمكنتنا من ثم تصور قذيفة تسير بسرعة فائقة بحيث انها لا تسقط بل تعود الى قمة الجبل العالي الذي يفترض انها أطلقت منها . واذا كانت سنة كبلر الثالثة صحيحة ، فكما ان المساحات التي يرسمها شعاعها الى مركز الارض تكون نسبة للوقت ، كذلك تكون سرعتها في طريق عودتها الى الجبل مساوية لها عند الانطلاق ، فتستأنف دورتها كما تفعل السيارات بالضبط على مدارها . وقد بلور افكار نيوتون في المسائل المطلوب حلها هبوط تفاحة سقطت على الأرض .

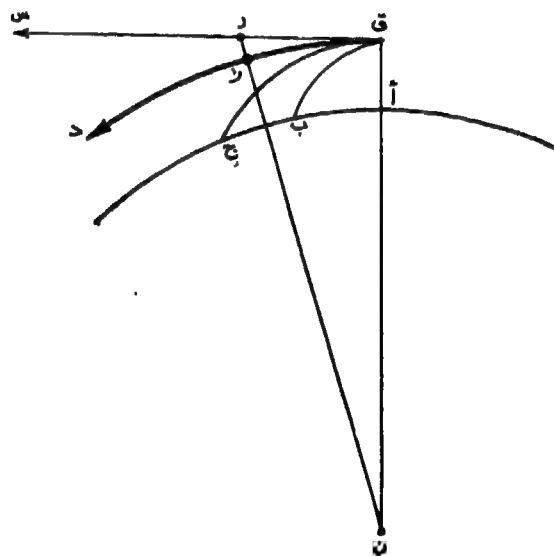
فأخذ نيوتون من ثم يحاول معرفة السنة التي بموجبها تتدنى قوة الجاذبية كلما ابتعد الجرم عن الأرض .

ان قذيفة تترك وشأنها في النقطة ق تهبط وفقاً للخط العمودي ق ا . ولكنها تطلق وفقاً للخط الافقي ق س بسرعة تقاوم الجاذبية . كان من الواجب بعد مرور ثانية ان تكون في

النقطة ر ، ولكنها تكون في النقطة ر١ على محيط دائرة شعاعها ن ق . فقد سقطت اذن من ر الى ر١ ي خمسة امتار .

بموجب هذه السنة حسب نيوتون آنذاك مقدار الاسراع الذي تحدثه قوة الجاذبية في جرم يبلغ بعده بعد القمر . ارتأى ، بالاستناد الى سنن كيبلر ، انه ، في الارجح ، نسي نسبة عكسية لمربع الأبعاد . فاذا كان الامر كذلك ، ولما كان هذا الجرم ، الموجود على مقربة من سطح الارض ، وقصده عن مركز الارض مسافة توازي الشعاع الارضي ، اي ٦٤٠٠٠٠٠ متر ، يهبط ٥ امتار أو ٥٠٠٠ مم في الثانية ، فانه حين يكون على مسافة توازي مسافة القمر ، أي على بعد ٦٠ شعاعاً ارضياً ، أو ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ، يهبط في الارجح ٥٠٠٠ مم : اي ٢٦٠ ، ٣٩ ، ١ مم .

تبقي على نيوتون معرفة ما اذا كان هذا المقدار هو مقدار اسراع التجاذب القمر نحو المركز يرسم القمر محيط دائرة في ٢٨ يوماً ، أو ٢٤١٩٢٠٠ ثانية . شعاع هذه الدائرة يوازي شعاع الأرض ٦٠ ضعفاً أي ٣٨٤٠٠٠٠٠٠ متر ومحيطها ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ متر . فسرعة القمر من ثم هي دون ١٠٠٠ متر بقليل . فيتضح بعد حساب وتر الزاوية القائمة ن ل في المثلث القائم الزاوية ن ق ل ان القمر يهبط ، بعد مرور ثانية ، من ل الى ل' اي ١٠٣٩ مم . فاهتدى نيوتون



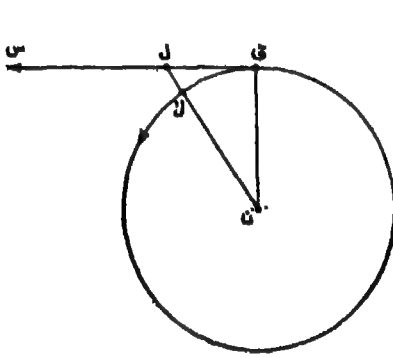
الشكل ١٤ - السقوط والذلي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة بسرعة كافية لأن لا تهبط في ب او ج بل لأن تدور حول الارض وفقاً لدائرة شعاعها ن ق .

تقريباً الى المقدار نفسه الذي اهتدى اليه في حسابه الاول . واتضح من ثم ان الجاذبية الارضية تتحول كمعكس مربع المسافة .

أما الهولندي « هويغنس » (١٦٢٩ - ١٦٩٥) الذي كان والده صديقاً لديكارت فقد حاول بدوره ، بعد ان اكتشف حلقة زحل في السنة ١٦٥٦ ، تركيب ساعة ذات رقاص ، ودرس هبوط الاجرام الوازنة ، ودرس قوة السيارات المبعدة عن المركز ، وغدا على قاب قوسين من سنة الجاذبية . ولكنه اعتمد الهندسة القديمة بصورة خاصة ، فلم يهتد اليها (« ذبذبة الساعة » ١٦٧٣) . فاستفاد نيوتون ، بعد ذلك ، من نظريته في القوة المبعدة عن المركز ،

أو الحركة الدائرية ، ليثبت ان قوة الجاذبية الشمسية تتحول ، هي أيضاً ، كعكس مربع المسافة ، ويرتفع الى سنة الجاذبية العامة .

بيد انه لم ينشر استنتاجاته لانه لم يعرف ما اذا كان يقتضي حساب المسافة بين الكواكب و سطح الارض أو بين الكواكب ومركز الارض . وليس صحيحاً انه اضطر الى انتظار نشر قياس خط الطول الذي اجراه الاب بيكار في السنة ١٦٦٩ - ١٦٧٠ ، لمعرفة الشعاع الارضي وحساب المسافة بين الارض والقمر . فقد كان لديه عدة تقديرات كافية لطول الشعاع الارضي نخص بالذكر منها تقدير « غونتر » . ولكنه حل ، في السنة ١٦٨٠ ، مسألة معرفة مسيرة جزء صغير يتحرك في جوار قوة جاذبه تتحول بحسب سنة المربع المعكوس . فظهر ان هذه المسيرة قطع اهليلجي يحتمل الجرم الجاذب أحد محترقيه . وأثبت في السنة ١٦٨٥ أن جرماً كروياً ذا ثقل نوعي متساو في كافة نقاطه المتساوية البعد عن مركزه يجذب جزءاً صغيراً خارجياً كما لو كان كل ثقل الجرم مجموعاً في مركزه . فبات من ثم باستطاعته اعتبار كافة أجزاء النظام الشمسي كما لو كانت اجزاء صغرى ثقيلة . وقرر اذ ذاك نشر « المبادئ » .



درس فيها ، أول ما درس ، نظرية نيوتون الحركات الطليقة للاجزاء الصغرى والاجرام الخاضعة لبعض سنن قوى معلومة . فاقر مبادئ أساسية مسلماً بها بدون برهان ، هي وجود زمان مطلق وحقيقي ورياضي ، يجري جرياناً متساوياً دونما اعتبار لأي شيء خارجي ، ووجود فضاء مطلق يبقى هو دون تغير ، ووجود « حركة مطلقة »

هي « انتقال جرم من مكان الى آخر » ، وقد غدت هذه المبادئ مبادئ علم الطبيعيات حتى « انشتين » . وأقر أخيراً ، كمبدأً أساسياً ، ثبات سنن الطبيعة .

وصاغ سنن الحركة :

- ١ - كل جرم يستمر في سكونه أو في حركته المتساوية السرعة وفاقاً لخط مستقيم ، ما لم تتبدل حاله بفعل بعض القوى . وهذه سنة سبق لديكارت ان صاغها .
- ٢ - ان تبدل الحركة نسبي للقوة ويجري في اتجاه انطلاق القوة . ويستخلص ذلك من استنتاجات غاليليو .
- ٣ - يقابل كل فعل ردة فعل موازية ، أو الافعال المتبادلة بين جسم وآخر متساوية ومتقابلة

ابداً . ويعود الفضل في صياغة هذه السنة الى نيوتون وحده .

قادته حساباته الى تأمل الاجزاء الصغرى الثقيلة . كما ان تجمع السوائل ، واحتفاظ الاشعة الضوئية بخصائص مختلفة في جهاتها المختلفة ، الذي جعله يعتقد بان الاشعة المضيئة اجسام جامدة ، وثبات طبيعة الماء ذاتها وطبيعة الارض عينها واجزائها الصغرى منذ قرون ، الذي يبعد فكرة الدروس التي قال بها ديكارت ، قد حملته على اعتبار كل الاجسام مركبة من اجزاء صغرى متسعة ، صلبة ، ثابتة ، مستقلة ، لا تقسم ، متحركة وذات قوة ثبوت ، اي مركبة من ذرات .

ان هذه الاجزاء الصغرى تتحرك في الفراغ أو اقله في وسط قليل مهاجمة لنيوتون
للزوايا الكرتزائية
الكثافة جداً . وهاجم نيوتون : في المجلد الثاني من « المبادئ » ، زوايا ديكارت ونظرية المثلث . استخلص بالحساب نتائج المبادئ الآلية الكرتزائية واطهر ان علم الطبيعيات الزوابعي يفضي الى نتائج تتنافى وسنن كبلر . فذا دارت كرة صلبة مثلاً في سائل جديس خاضع لحركة دائرية متساوية السرعة ، فان الوقت الدوري لاجزاء هذه الزوابع الكرتزائية يكون نسبياً لمربعات المسافة الى مركز الكرة . ولكن الاوقات الدورية للاقمار التي تدور حول جوبيتر هي بنفسه واحد ونصف لمسافاتها الى مركز هذه السيارة ، والقاعدة نفسها ترى السيارات التي تدور حول الشمس . فلو كانت هذه السيارات تتنقل بفعل الزوايا ، لحضمت هذه الزوايا للسنة نفسها التي تخضع لها السيارات . ولكن لا شيء من ذلك ، اذن ليس من زوايا .

وبحسب الآلية الكرتزائية كذلك ، تتحرك الاجرام ، التي تنقلها الزوايا ، وفاقاً للسنة نفسها التي تسير اجزاء الزوايا ، من حيث السرعة والاتجاه . ولكن ، لو كان هنالك زوابع لكانت مادة الزوابع ، بتأثير ضغط مادة الزوايا المجاورة ، اشد المحصاراً ، في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس ، منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولكانت مادة الزوابع المنحصرة اسرع حركة في اقصى نقاط القطع الاهليلجي عن الشمس منها في ادنى نقاط هذا القطع الى الشمس ، ولغاصت السيارة في الزوابع ايضاً . ولكن السيارة ، بحسب سنة كبلر الاولى ، اسرع حركة في ادنى نقاط القطع الى الشمس منها في اقصاها . فليس ثمة من زوايا .

لو كانت الكواكب تتنقل بفعل الزوايا لصعب التوفيق بينها وبين وفرة الزوايا ، وبينها وبين حركة الزوابع الشمسية وحركات زوايا السيارات ، ولصعبت معرفة كيف ان المذنبات ، التي تنقلها الزوايا ، تستطيع ان تجتاز بسرعة فائقة وبسهولة فائقة مدارات السيارات من خلال زوايا هذه الاخيرة .

واخيراً ، لو كانت الفضاءات السماوية مملأ بالمادة ، دون ان يتخللها اي فراغ ، وبالتالي

كثيفة جداً ، مهما كان من رقة وسائلة هذه المادة ، لكنت مقاومتها أكبر من مقاومة الزئبق ، ولقدت الكرة الصلبة ، في مثل هذا الوسط ، أكثر من نصف حركتها في اجتيازها ثلاثة اضعاف محورها . « لذلك يقتضي ان تكون هذه الفضاءات السبائية ، التي تتحرك فيها السيارات والمذنبات في كل اتجاه ، حركة طليقة مستمرة ، دون اي نقص محسوس في حركاتها ، خالية من كل سائل مادي .

بيد ان ميزان الحرارة الذي يوضع في الفراغ يشير الى الحرارة نفسها التي يشير اليها ميزان آخر يوضع في الهواء ، وفي الوقت نفسه تقريباً . فبمكنتنا التسليم اذن بان الحرارة تنتقل في الفراغ بفعل اهتزازات وسط أرق من الهواء الى حد بعيد يبقى في الفراغ بعد اقضاء الهواء عنه بواسطة المضخة الماصة . وبمكنتنا ان نسلم كذلك بان هذا الوسط هو نفسه ما يكسر النور ويعكسه ، ويدفعه النور الاجسام بفعل اهتزازاته . وبمكنتنا اخيراً ان نسلم بان هذا الوسط ، اي الاثير ، يملأ السماوات كلها ويتسرب الى الاجسام كلها .

وهكذا تمكن نيوتون ، بتطبيق براهينه حيال الكواكب ، بالمائة ، على
آلية
الفراغ اللدونة
اجزاء الاجسام الصغرى ، من بناء آلية ذرية مرتكزة الى الفراغ
والجاذبية الكونية . في الفراغ تتحرك كائنات مادية هي عبارة عن نقطة
ذات ثقل ثابت . كل من هذه الذرات يخضع لقوة جاذبة تنبثق عن نقطة اخرى ويعمل بدوره
في هذه الاخيرة عملاً موازياً يقابل جاذبيتها مباشرة . يتجه هذا العمل المتبادل بين الذرتين وفقاً
للخط المستقيم الذي يصل بينهما . وهو نسي لثقلهما ويتحول بنسبة عكسية لتربيع المسافة
بينهما . اذا كانت هذه المسافة مملوءة ، اصبح هذا العمل جاذبية الثقل التي تفسر سقوط الاشياء
على سطح الارض ، وسير القمر ، والسيارات ، والاقمار والمذنبات ، ومد البحر وجزره ،
وتسطح الارض عند القطب الذي اثبتته اكتشاف « ريشيه » في « كاين » في السنة ١٦٧٢ ؛
يجب تقصير رقاص الساعة عند خط الاستواء لا اذن فهو يميل الى حركة ابطأ ، اذن الجاذبية
أقل في خط الاستواء ، اذن الرقاص فيه كما على جبل عال ، اذن الارض سميكه في المنطقة
الاستوائية ، اذن القوة الجاذبة الى المركز في هذه المنطقة متدنية . اما اذا كانت المسافة قصيرة
جداً ، فان هذا العمل يفسر تلاحم الاجسام عند ما تكون الذرات متجانسة تفسيراً افضل من
السكون الذي فسره ديكارت كيفية تلاصق اجزاء الجوامد الصغرى . وفي نظر نيوتون ان هذا
السكون صفة خفية او مجرد لا شيء . التلاحم يفسر خصائص الجوامد والسوائل والغازات .
واذا كانت الذرات مختلفة كياوياً ، فان هذا العمل يفسر التقارب الذي يسهم مع التلاحم في تحديد
وتنظيم التركيب والتحلل الكيماويين .

على الرغم من تفوره من « الافتراضات » ، حاول نيوتون تفسير الجاذبية الكونية . وقد
الأثير
اعتقد ان الاثير يجب ان يكون في الشمس والسيارات والمذنبات والنجوم اندر
منه في الفضاءات السبائية . فيجوز الاعتقاد من ثم بان كثافة الاثير تزداد كلما ابتعدنا في الفضاء .

الاجرام السماوية تبذل جهوداً في انتقالها من مناطق كثافة الاثير الى مناطق ندرته ، وهذا ما يسبب الجاذبية المتبادلة بين هذه الاجرام والجاذبية بين اجزائها وبينها بالذات . والخلاصة هي ان الجاذبية ضابقتها ، فساد ، على غرار ديكارت ، الى تصور انتقال الحركة بالتسـ ، بالدفع . يضاف الى ذلك انه لاحظ من جهة ثانية ان كل الاجسام البالغة درجة معينة من الحرارة تنشر نوراً مصدره حركة اجزائها ، كماء البحر في الطقس العاصف ، أو كالخشب واللحم والنمل حين يتسرب اليها الفساد ، فتسائل عما اذا لم يكن ممكناً ، بعكس الامر ، ان تتلقى الاجسام نشاطها من اجزاء ضوئية صفرى مصدرها اشعة ماثثة في الاجسام تحرك اجزاء هذه الاجسام .

فقد سبق له منذ السنة ١٦٦٦ ان حلل نور الشمس ، بواسطة الموشور ، ووجد النور ان الطول في صورة الشمس ، عند خروجها من الموشور ، يبلغ خمسة اضعاف العرض ، وان ألوان الموشور تتعاقب وفقاً لنظام محدد على الحاجز العاكس : الاحمر في الاعلى والبنفسجي في الاسفل . فالاشعة المختلفة تنكسر من ثم انكساراً غير متساو ، ويقابل كل درجة من درجات قابلية الانكسار لون معين . ولكن نيوتون اعتقد ، على نقبض « هويغنس » الذي تصور اللون في « بحث حول النور » كموجات سائل ، أو اثير مختلف عن اثير نيوتون ، يحركه خفقات الاجسام المنيرة ، بان الاشعة الضوئية جسيمات صفرى ، أو ذرات تطلقها الاجسام المنيرة . فمن شأن السائل ان يحول دون ارتجاجات اجزاء الاجسام الصفرى وان يحول كذلك دون حركة الكواكب . وتخضع هذه الذرات بدورها لسنة الجاذبية الكونية وتحدث ارتجاجات في الوسط الذي تعمل فيه .

ولكنه لم يتوقف عند هذه العطل الثاوية ، بل ارتفع الى العلة الاولى « التي « الساعاتي الاولي » ليست آلية ، ، وذمل منها . فتدبير الفاعل المفكر يبدو ظاهراً في نظام الاشياء . ولا يعقل ان تتحرك كل السيارات في اتجاه واحد وفي مدارات مشتركة المركز بفعل قدر اعمى او سن الطبيعة البسيطة . « يجب ان ينظر الى مثل هذا التناسق المدهش في نظام السيارات كما الى نتيجة اختيار . ويصح القول نفسه في التناسق البادي في جسم الحيوانات . . . لا يمكن ان تكون هذه الصنعة سوى نتيجة حكمة وتفكير فاعل قدير حي ابداء يستطيع ، بفعل وجوده في كل مكان ، ان يحرك الاجسام على هواه في مركز حواسه الثابت اللامتناهي ، وان يكون اجزاء الكون ويميد تكوينها بهذه الوسيلة . . . بيد ان ذلك لا يميز لنا النظر الى العالم كما الى جسد الله ولا الى اجزائه المختلفة كما الى اجزاء مختلفة من الله . . . » ، الله هو الله الذاتي ، « سيد الاشياء » ، الكائن اللامتناهي ، الازلي ، الكلتي الكمال ، « الكلتي القدرة والعالم بكل شيء » . العلم يثبت وجود الله لان القول بلازمة الحركة للمادة يتنافى وسنة ثبوت الجما ، ولو ان الله لا يخلق في كل آن كمية جديدة من الحركة ، لفسد العالم وسقم وفني شيئاً

فشيئاً بفعل تلف طاقته . فقاد العلم من ثم الى دين طبيعي يجب ان يكمله الدين الموحى به . وكما كتب البروتستانتي الفرنسي ، كوست ، الذي ترجم مؤلفاته في السنة ١٧١٣ : « بمكثنا الآن ان نعبد ونخدم ، بمزيد من الحرارة ، سيد وخالق الاشياء كلها ، وهذا هو اكبر خير نستطيع جنيه من الفلسفة . . . ان هذا المؤلف الكبير لنيوتون سيكون من ثم سوراً ركيناً لن يقوى الملحدون والزنادقة على تقويضه البتة ، وفيه يجب البحث عن الاسلحة اذا اردنا الدخول في حرب ظافرة » .

استقبل مذهب نيوتون استقبالا حماسيا في انكلترا . « كانت الطبيعة وسنن الطبيعة متواريتين في الظلمة . قال الرب : ليكن نيوتون . فكان النور » (بوب) .

بيد ان الكرتزيانيين الانكليز قد ابدوا بعض المقاومة ، وفي البر الاوروبي مقاومة الكرتزيانيين قابل كبار العلماء نيوتون بعنف . فان هويغنس ، وليبنيز ، واكاديمية العلوم في باريس ، وكافة الكرتزيانيين ، فونتيل ، « كسني » ، « رومور » ، الابطالي « بوليني » ، قد وقفوا في وجهه . نعت هويغنس مبدأ الجاذبية بالحال ، ولم يختلف ليبنيز عنه في الرأي .

كلمهم نبذوا الجاذبية باعتبارها صفة خفية . « اذا نحن استشرنا افكارنا في موضوع سبب الحركة الطبيعي ، فهي لن تقدم لنا شيئاً جلياً واضحاً سوى الصدمة او الدفع ... فلا نتخلين قط عن مبادئ آلية واضحة ؛ اذا نحن تخلينا عنها ، ينطفئ كل النور الذي نستطيع الحصول عليه منها ، ونفرق نحن مرة اخرى في ظلمات فلسفة ارسطو القديمة ، حفظنا الله منها » (سورين ، في اكااديمية العلوم في باريس ، ١٧٠٩) . وعبثاً اجاب النيوتونيون بانه لا يجوز ان نعت بالحقبة صفات أثبت الاختبار وجودها ، حتى ولو استحال علينا تكوين فكرة واضحة وجلية عنها .

تسرب الشك الى اذهان بعض المؤمنين . ففي نظر ليبنيز ان الله هو العقل الشامل ، بينما يرى نيوتون ان الله يختار الاشياء والسنن الطبيعية بفعل ارادة اختياري ، كفنان اختار ان يتمهد عمل الكون ويحافظ عليه . فرأى ليبنيز في ذلك إهانة للحكمة الالهية ، لان الاعتقاد على غرار نيوتون بان الله قد بنى عالماً لا يستطيع السير بمفرده ، بدون معجزة تدخل الله الدائم لتعمهد الحركة ، هو استهانة للقدرة الالهية والكمال الالهي . وتمسك ليبنيز اخيراً بالملء الكرتزياني ضد الفراغ ، لان ازدياد حجم المادة يتيح لله مزيداً من الظروف لممارسة حكمته وقدرته .

بذل الكرتزيانيون اذن جهوداً يائسة للمحافظة على الزوايع . فان الاب « فيلمو » قد وفق في السنة ١٧٠٧ بين حركة الزوايع وسنن كبلر مهملاً ما ارتآه ديكارت بأن السيارات هي كالسفن التي تسير ابدأ سيراً ابطلاً من النهر الذي يجرها : السيارات والزوايع تخضع لحركة واحدة . وفي السنة ١٧٠٩ رد سورين على هويغنس ، الذي اكد بأن سرعة الزوبعة يجب ان تكون ١٧ ضعف سرعة الارض ، وبأن الاشياء كلها ستتطاير عن سطح الارض ، اذا كانت الارض متحركة بفعل الزوبعة ، بأن كلما ازدادت سرعة السائل كلما تدنت كثافته . فلا يستطيع

من ثم ان ينزاع او يقتلع شيئاً . اما المذنبات فكانت ملبكة . كان « هالي » قد حدد عناصر مدارات ٣٤ مذنباً ظهرت بين السنة ١٣٣٧ والسنة ١٦٩٨ . لاحظ التشابه البادي في عناصر مدارات مذنبات ١٥٣١ و ١٦٠٧ و ١٦٨٢ ، فمزأها الى مذنب واحد انبأ بظهوره مرة اخرى في السنة ١٧٥٨ . ولاحظ « لاهير » في السنة ١٧٠٢ ان ظهور واختفاء المذنبات لا يُرى ان تدريجياً ، بل دفعة واحدة : اذن فهي نيران عابرة تشتعل اشتعالاً فجائياً . ولكن كستيني اثبت انها تزداد حجماً وسرعة ظاهرين . فارتأى فيلمو حينذاك وضعها فوق سماء زحل بنية تجنّبها مصادفة زوينة السيارات . ولكن لوحظ ان ارتفاع مذنب ١٧٠٢ كان خمسة اضعاف ارتفاع القمر فقط . عزاديكارت مد البحر وجزره الى ضغط القمر على المادة الرقيقة التي قال بوجودها بينه وبين الارض . ومن الجلي ان القمر اصغر من ان يسبب هذه النتيجة . فاجاب فيلمو على الاعتراض في السنة ١٧١٠ : « هي زوينة القمر ما يسبب الضغط » . ولكن تأثير الشمس لوحظ بعد ذلك ايضاً ، فتوجب اذ ذاك اللجوء الى زوينة الشمس . وفي سبيل الاتفاق مع الملاحظات والحسابات ، مست الحاجة الى تعقيد التفسير الكرتزيالي تعقيداً مطرداً ، في حال ان التفسير النيوتوني قد اجاب على كل شيء بمنتهى البساطة . ولكن الكرتزيانيين كانوا ابعد من ان يقتنعوا ، حوالي السنة ١٧١٣ - ١٧١٤ ، واستمر الصراع ضارباً بينهم وبين النيوتونيين . فتخبط العالم العلمي في ازمة حادة .

ادخل الكيميائيون الآلية الى عملهم . ففي باريس فسر الكرتزيانية والنيوتونية والكيمياء « نقولاً لتري » الطواهر بمبادئ الفلاسفة المعصرين ، اي ديكارت ، وذلك خلال دروسه في مختبره (شارع غالند) ، « المغارة السحرية المضادة باكفهرار الافران » ، وفي « كتاب الكيمياء المدرسي » الذي نشره في السنة ١٦٧٥ . محل ماء تحليل الذهب في الذهب مصدره « حدود » هذا الماء ، ومذاق الحوامض الحازر ، والشكل المقرن الذي تتخذُه هند التبلور مصدرها اجزاؤها الصغرى المقرنة . القويات تفور اذا ما امتزجت بالحوامض ، اذن اجزاؤها الصغرى مسامية وباستطاعة حدود الحوامض ان تتسرب الى الداخل . الزئبق سائل ابدأ لان اجزائه الصغرى مستديرة . ولاحظ « نقولاً له فيفر » ، مدرّس الكيمياء في حديقة النباتات ، في كتابه « الكيمياء القياسية » ، ارتساع وزن الاجسام التي تتأكسد ، وكسوت فكرة غامضة عن « روح شاملة » عرف خصائصها هي الاكسجين . تثبت هذه الروح الشاملة من الكواكب بشكل لور و « تنجسد » في الهواء وتسبب معظم النتائج الملموسة في المعادن والنباتات والحيوانات . وتعمل الروح الشاملة في النباتات ، وترقق وتبخر كل ما في الدم من سائل زائدة . وادخل الانكليزي « روبرت بويل » (١٦٢٧ - ١٦٩٧) في الكيمياء مفاهيم ديكارت ونيوتون ، فحدد الجسم البسيط جسماً لا يمكن تحليله بأية وسيلة من وسائلنا . كل ما يحدث في الطبيعة يجب ان يفسر آلياً ، ولا يمكن ان تتعلق الفوارق بين الاجسام المختلفة الا بحجم الاجزاء الصغرى وشكلها وحركتها . الهواء ضروري لاحداث اللمهب وتقليته . وهو

يلعب الدور نفسه في الاحتراق والتنفس ، ويشبه « بويل » ديمومة حياة الحيوان بديمومة لهيب الكحول في اثناء مقفل . وعرض بويل الصلصال والرصاص والقصدير للهب . فتغير منظر هذه الاجسام بعد العملية وزاد وزنها . اذن دخلت اجزاء النور الصغرى الموجودة في اللهب الى الرصاص والقصدير والصلصال وامتزجت بذرات هذه المواد واعطت بالاتحاد بها اجساماً جامدة . وميز الالماني « بكر » بين نوعين من الاجسام : الاجسام المركبة والاجسام غير القابلة التحليل . فكان بالامكان صنع مركبات بغية تحليلها واظهار عناصر تركيبها مع صفاتها . وقال مواطنه « ستاهل » (١٦٦٠ - ١٧٣٤) ان الذرات مختلفة بعضها عن البعض الآخر وان لها صفات خاصة اصلية مطلقة ، وان في التجاذب الكيميائي بين الاجسام بعض ما في الاجسام الحية : الذرات المتجانسة تطلب بعضها بعضاً بفعل طبيعتها . وكان اول من اكتشف ان تكليس المعدن ظاهرة مماثلة لاحتراق المواد العضوية المختلفة . الكلس المعدني هو رماد معدن محروق ؛ اذا اضيف بعض الزيت او الشحم او الدهن الى هذا الرماد ، فانه يصبح معدناً مرة اخرى . اذن فان الجزء القابل للاحتراق في الجسم الدهني ينتقل الى الكلس المعدني ويحل محل ما فقده المعدن بالتكليس . ومن ثم فان هذا الجزء القابل للاحتراق مادة تنتشر في الهواء اثناء الاحتراق دون ان تصير الى الزوال . وان هذه المادة سائل كوني هو « السائل اللهي » .

الكرتزيانية
والآلية والمعلوم الطبيعية
علم الوظائف
الحيوانية : الحيوان - الآلة

وتسربت الكرتزيانية والآلية والطريقة الاختبارية تسرباً عميقاً الى علوم الطبيعة ايضاً . ولكن الحيوان - الآلة الذي تكلم عنه ديكارت قد افضى بعلماء كثيرين الى سلوك طريق مضلة . فنقل بعضهم علم الآليات ، بلا شرط ولا استثناء ، الى نطاق وقائع مختلفة . في كتابه « حركة الحيوانات » (١٦٨٠) فسر « بورلي » ، الرياضي والفلكي والمعالج بالطببيات ، حركة الكائنات الحية من زاوية آلية مجتة . واعجب الطبيبان « بلفي » (١٦٦٩ - ١٧٠٨) و « بورهاف » بتطبيق « المبادئ الرياضية ومبادئ الهندسة المائية ومبادئ علم السكون ومبادئ الجاذبية » على بنية الكائنات الحية . « فهل هذه الآلات المسلحة بالاسنان شيء آخر غير الكائنات يا ترى ؟ » المعدة قرعة زجاجية ؛ الاوردة والشرايين وجهاز العروق انايب مائية ؛ القلب زنبرك ؛ الاحشاء مناخل ومصاف ؛ الرئة منفاخ ؛ زاوية الصين بكرة ؛ العضلات حبال . فعلق من ثم على الالياف اهمية دونها اهمية الاخلاط . يجب ان تكون الالياف قوية ، والا فالمرض والموت . لذلك اعتمد المعالجة بالميجات والمقويات : الكمي والدلك والمعجم والحراقة ولصوق الحردل والكيينا ، دون ان يتخلينا ، من جهة ثانية ، عن المعالجة بكبريت الرصاص . اغتاظ « ستاهل » من اهمال العلماء للحياة . الا انه رجع القهقري الى تعليم عصر النهضة . النفس هي مبدأ الحياة . النفس تشرف على سير الاعضاء خير اشراف . فيقتضي من ثم احترام ردود الفعل الطبيعية ، والانصراف عن معالجة الحمى مثلاً لانها مجهود تبذله النفس

للتخلص من المواد التي تمسّتها .

احرز التقدم في حقل التشريح بصورة خاصة بفضل بعض المراقبين . استخدموا المجهر ، الذي كمله « روبرت هوك » ، وتقنيات جديدة تقضي بحقن العروق بسوائل ملونة . وهذا ما فعله « أوستاش » و « مالبيني » و « ربولن » و « غليستون » و « غرال » و « سوامردام » . وكان لدى « روبش » ، في امستردام ، مجموعة من الاجزاء التشريحية تظهر فيها العروق الدموية واللهاوية . وقد قال فونتنيل ان جميع هؤلاء الموتى ، « الحالين من الجفاف الظاهر ومن الغضون ، والمتميزين بزهرة الوجه ولدانة الاغشية ، شبه بالقائمين من بين الاموات » . فاستطاع مالبيني اكتشاف الفليقات الكبديّة وجسيات الكلى وجسيات حاسة الذوق و اظهار اتصالاتها بالشرايين الكلوية الصفراء . وشرح غليسون عروق الكبد . واكتشف الهولندي « لوينهوك » (١٦٣٢ - ١٧٢٣) في السنة ١٦٧٧ حيوانات الرجل المتوية ، والكرويات الحمراء البالغة الصغر ، بحيث لا توازي مئات الالوف منها حجم الرملة الواحدة ، والعروق الشعرية ، ورأى الكرويات الحمراء تتخذ شكلا مستطيلا لاجتياز العروق الشعرية الدقيقة جداً . فاكمل بذلك اكتشاف « هارفي » .

ولكن « مالبيني » و « لوينهوك » لم يتوصلا الى اقناع الارسطاطاليسيين وانصار المعالجة بكبريت الرصاص الذين قابلوهم بالصيغ الفلسفية والاستشادات بالنصوص الكتابية والكلاسيكية .

تقدم علم الوظائف النباتية بفضل اجاث « ماريوت » و « مالبيني » . علم الوظائف النباتية أظهر ماريوت ، في كتابه « بحث في نمو النبات » ، ان النباتات لا تمتص من التربة غذاء جاهزا يوافق مادتها الخاصة موافقة مباشرة ، بل تحول كلها عناصر مشتركة : « اذا أبرنا شجرة اجاص برية بمئبر من شجرة اجاص زراعية ، فان النسغ نفسه الذي كان من شأنه ان ينتج في الشجرة الاولى اثمارا صغيرة الحجم رديئة الطعم ، ينتقل الى الفصون التي تتفرع عن المئبر وينتج فيها اجاصا كبيرا الحجم لذيد الطعم ... فهو النسغ نفسه ، الذي كان في جذع الشجرة ، ما عين له نتيجتان مختلفتان ، اما بقوة خفية ، يدعوها البعض نوعية ، وتكون في كل مئبر ، اما بتركيب خاص في الالياف والمسام يحمل النسغ يتخذ اشكالا وأوضاعا شبيهة بما في هذه المآبر من اشكال واطواع . وعراى لمالبيني دور الاوراق في التغذية الذي انكره ارسطو . فقد طمر بالتراب فليقي نبيته قرع ذارّة ورأى ان النبيته ما لبثت ان ذبلت . ولاحظ من جهة ثانية ان اوراقها تتساقط حال تكون الاوراق الجديدة . فخلص من ذلك الى ان الفليقات تقوم بعمل المرزمة وان « الطبيعة أوجدت الاوراق بغية دهم النسغ المنتقل الى قريباتها بواسطة الالياف الحشبية » .

افتح المراقبون عالم أصاغر الاجسام كما افتح الفلكيون عالم اكبرها ، ورفعوا اصاغر الاجسام القناع عن تشابهات تغلق البال بين الجهاز العضوي لكل من الانسان والحيوانات وطرحوا مسائل التوالد والنوع . في السنة ١٦٧٥ ، اكتشف لوينهوك النقايمات ؛ وفي السنة ١٦٧٧ ، وصف حيوانات الانسان المنوية ، كما وصف بعد ذلك بقليل الحيوانات المنوية في الارنب والكلب والضفادع والاسماك والحلزونات والحمار ، وظهر الاخيطة الدموية في قلب ذكر البط وعضلات الضفدعة . وفي السنة ١٦٨٨ ، اهتدى الى كرويات الدم الحمراء في الحيوانات ، ولاحظ ان كرويات الاسماك والطيور بيضوية الشكل . وبين السنة ١٦٩٥ والسنة ١٧٠٠ استثبت التناسل الذاتي عند الارق . واورد « مالبيني » في كتابه حول دودة الحرير (١٦٦٩) تاريخ هذه الدودة الذي غدا مستنداً لمعرفة تنظيم الحشرات . واكتشف أنابيب التنفس في دودة الحرير والزيز وقرن اليل والجرادة والنحلة ، ورجم بها تلعب عند الحشرات دور الرئتين . واورد الطبيب الهولندي « سوامردام » ، في كتابه « ملاحظات حول التحولات » (١٦٦٩) ، تاريخ القمل والصرصور والجرادة والبعوضة والخنفساء والفراشة والنملة والنحلة . ووصف « ريدي » (١٦٢٦ - ١٦٩٧) ، طبيب غراندوق توسكانا ، ديدانا معوية كثيرة ، واكتشف الغدتين اللتين تفرزان سم الثعابين . ولكن ما توصل اليه ، انكره « شاراس » (١٦٧٨) الذي زعم بان « السائل الاصفر » الذي تكلم عنه « ريدي » ، قد وضع في الجروح و « لم يتسبب في اي حادث » . وقد عزا « شاراس » نتائج النهش الى تأمير الثعبان الذي يفضب « فتصعد التأمير الى رأسه وتدخل بسرعة الى الجروح التي أحدثتها الاسنان » .

أسفرت هذه الملاحظات عن تجديد مسألة التوالد . اعتقد معظم العلماء بالتوالدات مسألة التوالد الذاتية . بين « ريدي » في « ابحاث في توالد الحشرات » (١٦٦٨) ان الديدان لا تولد تلقائياً من تعفن الجيف . فاذا حوفظ على قطعة لحم من الذباب بشق مغفل اقفالا محكماً ، لن تتولد ديدان البتة . لا تتولد هذه الاخيرة الا من البيوض التي يتركها الذباب . الكائنات الحية لا تتولد الا من الجراثيم . ولكن ما توصل اليه « ريدي » لم يبد عظيم الامة ، ودفعت الآلية ماريوت الى الاعتقاد بان النباتات قد تتولد من الحما المجفف بفعل تجمع بعض الاجزاء الصغرى .

دب الخلاف بين أنصار البيوض وأنصار الحيوانات المجهريّة . اعتقد لوينهوك بان الجنين يتكوّن بالحيوان المنوي ، وبان لا حاجة من ثم الى بيوض بل الى محل موافق . ولكنه واجه اذ ذاك الحالات الوراثية حيث يشابه النسل الابوين معاً . أما أنصار البيوض فقد اعتبروا الجنين سابق التكوين واقتصروا دور الحيوان المنوي على دور التحريك فقط . والواقع هو ان هؤلاء واولئك قد قالوا بالتكوين السابق . سبق لمالبيني ان لاحظ في السنة ١٦٦٩ « ان رسم خطوط الدجاجة الاولى موجودة مسبقاً في البيضة » ، وان اصل هذا الرسم سابق للولادة . قادت نظرية التكون السابق الى نظرية تداخل الجراثيم . فان للجنين السابق التكوين في البيضة.

مبايضة المصفرة التي تحتوي على جنين سابق التكوين له مبايضة ، الخ . كل الكائنات اللاحقة ، بعد الكائن الأول سابقة التكوين وتتداخل جراثيمها بعضها في البعض الآخر . « كانت البشرية كلها موجودة في أصلاب آدم وحواء » (١٦٩٢) . وقد حسب « هارتسوكر » في السنة ١٦٩٤ ، ان أول جرثومة تكونت ستصبح « بالنسبة لآخر جرثومة تظهر في السنة الأخيرة من القرن الستين كما هي الوحدة التي يليها ٣٠ ٠٠٠ صفر بالنسبة للوحدة » ، وخلص من ذلك الى استحالة النظرية . ولكن « المبرانش » اعلن ان « الفكرة لا يمكن ان تبدو ماجنة وغريبة الا لاولئك الذين يقيسون معجزات قدرة الله اللامتناهية بمقياس وحي حواسهم وغيلتهم » .

وطرحت الماثلاث مسألة تحديد النوع . لم يتحقق التقدم في علم الحيوان بل في مسألة النوع علم النبات حيث الاشياء اكثر بساطة ، اذ ان لبنية باديات اللواحق مخططا عاما واحداً . ففي السنة ١٦٨٦ ، اعطى « جون كاي » ، في « تاريخ النباتات » ، تحديدأ واضحا للنوع واقترح تصنيفاً مستنداً الى تركيب الطلوع والاوراق الاولى ، وادخل التمييز الاساسي بين ذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة . وميز « تورنفور » ، الاستاذ في « حديقة الملك » ، في كتابه « السبيل الى معرفة النباتات » (١٦٩٤) بين الاشجار والشجيرات والشجيرات الصغرى والاعشاب ، وعين التقسيمات في كل فئة وفقاً لميزات النورة . فصادف نجاحاً عظيماً لدى العلماء الفرنسيين والاطاليين والالمان والانكليز بفضل ايجازه ووضوحه . ولكن ست طوائف فقط ، من اصل ٢٢ ، طبقت فئات طبيعية . وفي السنة ١٦٨٩ ، ادخل « مانبول » الاستاذ في « مونبليه » مفهوم « الفصائل » المميزة لا بحسب جزء معين من النبات ، بل بحسب مجموع ميزات كل نبات يدخل في الفصيلة .

ان الكرتزيانية والآلية اوحيتا بفكرة العلم الاجتماعي ، وانضمنا في البلدان العلوم الاجتماعية التي تميزت بانطلاقة رأسمالية كبرى ، الى الحاجات المتولدة من توافر الحساب السياسي الرقبيات ومن نجاح التأمينات على الحياة ، للتسبب في ولادة علم احصاء الاحصائيات الجماعات البشرية . فنظم « غرونر » ، في السنة ١٦٦٢ ، بيانات بالوفيات ، مع حساب ترجيعات بقاء الاحياء ، بالاستناد الى لوائح الموتى في لندن ، ونظم الهولندي « دي فيت » ، في السنة ١٦٧١ ، بيانات مماثلة . واصلح هالي اخطاء غرونر في السنة ١٦٩٣ بالاستناد الى جداول برسلو . بفضل هذه البيانات توصل غرونر و « وليم بيتي » وماتيو هايلز ، في « اصول الانسانية الاولى » (١٦٧٧) ، الى وضع سنة نمو السكان وفقاً لمتواليات هندسية ، وحدد هايلز فترة المضاعفة بخمس وعشرين سنة . فلم يتبق أمام « مالتوس » سوى ان يقارن هذه السنة بسنة الايراد غير المتناسب . بذلك انتقل علم احصاء الجماعات البشرية من مرحلة الوصف التاريخية الى مرحلة وضع السنن العلمية . وانضمت الكرتزيانية والآلية الى الرأسمالية التي اوجدت عادة التعبير بالارقام عن كل شيء والى حاجات الدول المتحاربة ، عسكرياً ومالياً

فنشأ عنها كلها علم جديد .

ففي سبيل حساب نسبة القوى بين انكلترا وفرنسا المتنازعتين ، اوجد ولم يبق ، تحت تأثير الكرتزيانية والآلية ، علماً جديداً هو الدرس العددي للاحداث الاجتماعية ، « الحساب السياسي » (١٦٨٢ - ١٦٩١) ، وهو لمحات في مقارنة ثروات انكلترا وفرنسا . استهدف من وراء ذلك « ايضاح افكاره بمفردات العدد والوزن والقياس ، والاقتصار على البراهين المحسوسة والاسباب المرتكزة الى اسس ظاهرة في الطبيعة ، تاركا لسواء أمر الاهتمام بما يتعلق منها بذهن البشر وآرائهم وأهوائهم ورغائبهم المتقلبة » . حلل الظروف الطبيعية بالدقة التي اتاحتها له معطياته العددية المحدودة ، وحسب القوى والجهود ، وحاول رد القوى المركبة الى عملية القوى البسيطة ، الثابتة والقابلة للقياس . ونحا لمحور مواطناء « دافننت » و « غريغوري كنغ » ، فاصبح بمكنة السر « ددلي نورث » ان يكتب في السنة ١٦٩١ ، في مستهل « خطبته في التجارة » ، « امست المعرفة آلية الى حد بعيد » .

واعطت حاجات الدول العسكرية والمالية علم الاحصاء اهمية جديدة . ففي فرنسا فرضت بعض التدابير التشريعية (١٦٦٧ ، ١٦٧٣) على خدام الرعايا تنظيم سجلات الحالة المدنية . ونشرت مستندات الحالة المدنية في باريس ، بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٦٨٤ ، واستؤنف نشرها بعد السنة ١٧٠٩ ، وتكرر احصاء عدد السكان : استقصاء السنة ١٦٦٣ بناء على طلب كولبير ، واستقصاء السنة ١٦٩٣ في سبيل سياسة تموينية ، والاستقصاء الكبير الذي قام به الولاكلا منذ السنة ١٦٩٧ حتى السنة ١٧٠٠ ، بناء على طلب دوق بورغونيا ، والذي استخلص منه « فوبان » و « سوغرين » تقديراتها لعدد سكان فرنسا . نظمت هذه الاحصاءات على اساس « العائلة » ، لا على اساس الشخص في تاريخ معين فجاءت من ثم ناقصة جداً ، ولكن فوبان ، المهندس والمتعهد ، قد برهن عن ادراك حقيقي لما يجب ان يكونه الاستقصاء الاحصائي الجيد . فقد اقترح في « العشر الملكي » الذي حرره في السنة ١٦٩٩ ونشره في السنة ١٧٠٧ ، احصاء عدد السكان كل سنة على اساس مراقبتهم ومنهم ؛ ووزع جداول الاحصاء على اساس الرعية : الرجال ، النساء ، الفتيان (فوق ١٤ سنة) ، الفتيات (فوق ١٢ سنة) ، الصبيان ، الصبايا ، الخدام ، الحادامات ، عدد البيوت من الفئات المختلفة ، والحيوانات الاليفة من كل نوع ، والاراضي المزروعة والبائرة ، والكروم المزروعة والمهملة ، والغابات على انواعها ، والمطاحن والمخارات .

ما زال العلماء مسيرين قبل كل شيء ، في ابجائهم ، اما بالحاجة الى حل
النفعية ، الآلات
المسائل الفلسفية والدينية وتوطيد قواعد المعتقدات اللازمة لحياتهم ، واما
بالتعش الى الفهم الذي هو شكل من اشكال روح النهضة وشهوة القوة وروح السيطرة
والاستمتاع . ولكنهم انشغلوا اكثر فاكثر بتطبيق تحقيقاتهم على الحياة المادية . وجاءت
الانطلاقة الاقتصادية والاجتماعية تميز في الازدهان تقليد ديكرات . ففي رأي ديكرات ان

غاية الفلسفة هي فائدة الجنس البشري ، الفائدة الكلية . ولذلك فقد سعى وراء تخفيف آلام البشر وتميز قدرتهم على الطبيعة . منذ السنة ١٦٣٧ ، كتب لوالد « هويغنس » بحثاً موجزاً في الآلات البسيطة . وتحليل آلات متحركة لتنفيذ الأعمال الشاقة هي أسلاف أجهزتنا الآلية المسيرة بالكهرباء والمغناطيس . وبعد ان رأى مدارس الفنون والمهن في هولندا ، أشار بان تلقى على الصناعيين اليدويين دروس في الرياضيات والطبيعات والآليات في قاعات تزود بكافة الأدوات الضرورية . واتجهت الأفكار نحو اختراع الآلات . اُضيف الى ذلك ان أعمال البناء والاشغال العامة في الدول المطلقة ، والآلات المستعملة لرفع الاثقال قد أثارت الإعجاب وحملت على الاعتقاد بان البشرية دخلت في عهد الآلية . وتوصل الفرنسي باسكال في السنة ١٦٤٢ ، والانكليزي « صموئيل مورلند » في ١٦٦٦ ، والالمانى لينينز بين السنة ١٦٧١ والسنة ١٦٩٤ ، الى ابتكار آلات حاسبة ، وانهمك هويغنس في اكتشاف ساعة ذات رقاص ببقية حل مسألة خطوط الطول ، واخترع « ادوارد سومرست » ، « مركيز « وورستر » ، في السنة ١٦٥٥ ، آلة بخارية رفعت الماء حتى علو ٤٠ قدماً في « فوكس - هول » . وتوصل الفرنسي « دنيس بابين » الى ابتداء صمام الامان في السنة ١٦٨١ ، وأول آلة بخارية مزودة بمكبس يتحرك داخل اسطوانة . قوة البخار المتوسطة تدفع المكبس الى الاعلى . يتخثر البخار اذ ذاك فيحدث الفراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية تحت تأثير الضغط الجوي . في السنة ١٧٠٧ استخدم بابين آله في تحريك سفينة : الآلة البخارية ترفع الماء الذي يهبط على دولاب ويحركه ، وتنتقل الحركة الى العنفات . واستحصل المهندس العسكري الانكليزي « توماس سافري » (١٦٥٠ - ١٧١٦) ، في السنة ١٦٩٣ ، على شهادة حكومية حفظت له حقوق استثمار آلة بخارية معدة لضخ مياه المناجم نحو الخارج . فكانت هذه الآلة الاولى التي طبقت عملياً . استخدمت لتأمين المدن والمنازل الخاصة بالمياه ، ولانزاح بعض المناجم ، الا ان رفع المياه حتى علو كاف في المناجم يتطلب ضغطاً يبلغ عدة اجواء . ولكن تجاوز ضغط ثلاثة اجواء كان عملية خطيرة لاسيما وان « سافري » لم يستخدم صمام الامان . فكانت الآلة من ثم خطيرة ، واستازمت من جهة ثانية محروقات كثيرة ، فلم تفلح في التغلب على منافسة الآلات التي تدار بالاحصنة .

تقدمت الابحاث في كل الاتجاهات . ويتكلم اليسوعي « كسبار شوت » في احد مؤلفاته اللاتينية عن غواصة (؟) جرت تجربتها في السنة ١٦٥٣ ، على حد قوله ، في نهر الروت .

جاء في احدى فقرات مدخل وضعه باسكال لبحث في الفراغ راج
فكرة التقدم
والثقة العمياء في العلم
مخطوطاً في القرن السابع عشر ما يلي : « يجب ان ننظر الى جميع البشر
الذين تعاقبوا على مر القرون الطويلة كما الى انسان واحد يدوم ابداً
ويتعلم دائماً » . معارفنا تفوق معارف الاقدمين ، وهذا يعني ان معارف من سيأتون بعدنا
ستفوق معارفنا . وفي السنة ١٦٨٨ ، توسع فونتنيل في الفكرة نفسها خلال المشادة التي قامت

بين الاقدمين والمعاصرين ؟ فتنين ان العلم يمد السبيل لتقدم غير محدود . وانطوت مقدمته لكتاب « تاريخ تجدد الاكاديمية الملكية للعلوم » (١٧٠٢) على نشيد تهليل للعلم . الى العالم يعود امر توجيه البشر . العالم متفوق على الامراء والفاخرين . وهو سيرع في السياسة لانه متمرن على الحسابات الدقيقة والتركيبات الصعبة . معارفنا ستتوسع ابداً . سننتهي الى معرفة كافة اجزاء الآلة المدهشة . معارفنا ستمطينا القدرة لا على التفكير تفكيراً صحيحاً وجلياً فحسب ، بل على « اكتشاف الآلات الجديدة والسريعة التي تختصر وتسهل عملنا ، والتبصر في تدبير اعتماد عدة عوامل أو مواد تؤمن لنا منتوجات جديدة ومفيدة يكون باستطاعتنا استخدامها ومن ثم زيادة مجموع ثرواتنا ، اي الاشياء المفيدة لرفاهيتنا » . سيأتي يوم يطير فيه الانسان و « يصل في يوم آخر الى القمر » . الموت سيتقهقر والارض ستغدو فردوساً .

امسى العلم معبوداً واسطورة . فلم يفرق بينه وبين السعادة ، كما لم يفرق بين التقدم المادي وبين التقدم الاخلاقي . واتجه العلم الى الحلول محل الفلسفة والدين . « يسمو علم الطبيعيات الحقيقي حتى يصبح نوعاً من اللاموت » (فونتنيل) .

٤ - ازمة الفكر والحس

جماليات المعاصرين ، جفاف الادب

نشأت نظرة جديدة الى الجمال ، وقد نشأت عن العلم في الدرجة الاولى . وفسر فونتنيل ذلك بقوله : « لا ترتبط الروح الهندسية بالهندسة ارتباطاً يحول دون نقلها من الهندسة الى معارف اخرى . ان المؤلف السياسي ، والاخلاقي ، او الانتقادي ، أو حتى البياني ، سيكتسب مزيداً من الجمال ، مع حفظ النسب ، اذا ما دمجته يد المهندس . ولعل مصدر الترتيب والوضوح والدقة والضبط ، التي تسود الكتب منذ بعض الوقت ، تلك الروح الهندسية التي انتشرت انتشاراً لم تعرفه في أي وقت مضى » . ان الروح النفعية ، التي قوّاهما نمو العلم ، والازمة الاقتصادية والاجتماعية ، وارتقاء البورجوازية ، قد اوجدت الرغبة في المؤلفات المفيدة ، اي المؤلفات الواضحة الدقيقة . وجاءت الروح الهندسية والروح النفعية تعززان عصرية ردهات الاستقبال حيث كان الناس سعداء باكتشاف هذا العمول لمهاجمة العلماء والاساتذة وادعاء المعرفة ، اي كل اولئك المبرمين الذين يفرضون بذل الجهود . فقد ولى زمان أثارت فيه سعة الاطلاع ، والعصور القديمة ، حماس الهواة المستنيرين ، وحثت فيه رغبة المعرفة الجماهير ، ان عهد الشغف بمعرفة كل شيء ، بأي ثمن ، قد عقبه عهد نفقته الانظمة الاجتماعية خلال الحروب الطويلة فأراد التوصل الى بعض الوضوح في كل شيء ، باقل جهد ممكن ، اي الى « صباغ معرفة في أحب المسائل التي تثار في المجتمعات المحترمة » . الشيء المهم الوحيد هو التألق في الحديث ، والتخلي بخلق جميل ولهجة ظريفة ، فيُحف حينذاك عن المعرفة ، اذا كان هنالك من معرفة . المترفون

يزدرون بالملافة . بات التمكن من معرفة المؤلفين الاقدمين وقفا على اقلية ضئيلة . « ليس هناك سوى الملافة تقريباً من يتقنون اللاتينية » ؛ اما الآخرون فامامهم الترجمات ، « الخائنات الحسناوات » حيث الحذف والتخفيف والتجميل ، التي تموه مؤلفات الاقدمين وتشوهها خدمة للعالمين . هؤلاء فقدوا كلياً معنى الجمال الكلاسيكي . وفي المشادة بين الاقدمين والمعاصرين ، وقفوا الى جانب المعاصرين ، اي الى جانب « شارل برّو » (« قصيدة في عصر لويس الكبير » ، ١٦٨٧ ؛ « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨ - ١٦٩٦) ، وفونتنيل (« استطراد حول الاقدمين والمعاصرين » ، ١٦٨٨) وكل من يشبتون تفوق « عصر لويس » على عصري بريكليلس واوغسطوس وتفوق الكمال « العصري » على كمال الاقدمين . وكان للمشادة صداها في كافة الحماة اوروبا . ففي كل مكان ، في « لاهاي » ، و « امستردام » ، وانكلترا ، والمانيا ، صادفت النظرة « المصرية » الى الجمال انصاراً كثيرين .

النظرة الجمالية الجديدة هي انتقال بروح العلم الكرتزياني الى الادب . ان هدف المؤلف الأول هو الإفهام ونقل الحقائق المفيدة . فالصفات الجوهرية من ثم هي « الجملات الشاملة » ، العقل ، والرأي الرشيد ، وقابلية الملاحظة والفهم ، والتدقيق ، والترتيب ، والوضوح ، والمنطق . في سبيل بلوغ الحقيقة ، يجب اعتماد النهج المتبع في علم الطبيعيات حيث يحكم على الاجسام بحسب اتساعها وحركتها ، بصرف النظر عن الصفات الحسية : يجب ان نحكم على الشعر والبيان بصرف النظر عن الاذن والفؤاد . لنقف موقفاً حذراً من الاحساس والتأثر والهوى والحماة الجميلة والحرارة المقدسة والحماس والتمثل الشعري . كل ذلك حرارة دم وخيال وهم وجنون . الخلق الشعري المصري عملية حصافة وبرهنة لا تنطوي على اي غرض او ميل . واذا كان « المعاصر » يناقض بذلك كل من سبقه ، فهو الحق والمصيب : فكما ان هنالك تقدماً في العلوم ، فهناك تقدم في الفنون ايضاً ، واذا اختلف الكمال المعاصر عن كمالات المصور الاخرى ، فانه متفوق عليها جميعها . لذلك لم يتردد « هودار دي لاموت » في تكميل هوميروس وتنقيته من « النوافل » ، النعوت ، الصور ، المقارنات ، السذاجات ، الدنايا ، العوارض التاريخية ، الطابع المحلي ، وكل ما يبعد الى الذاكرة حضارة بربرية . وأقصر المؤلف المركب المتناسق الملون المليء بالحياة الذي وضعه الشاعر اليوناني على الوقائع والعناصر البيئة الشاملة . « ديكارت نجر الشعر في عنقه » (بوالو) . « الشلل ادرك القلب » (دارجنسون) . « لقد ذهب الآلهة . وباستطاعتي القول انني رأيت الآداب تزهر وتموت وانني عمرت فوق ما عمرت (هويه) . افضل كتاب هو « السبحايا » (١٦٨٨ - ١٦٩٤) للابرويير ، المراقب الاجتماعي المعارض . فكانت الغلبة للكلاسيكية الكاذبة المرتكزة في جوهرها الى القواعد والطرائق ، الحذرة من البعقرية ، العاطفة على متوسطي المواهب .

ملاجىء الشعر
الرسم والتزيين
الاوربا ، النظام الخيالي

« يمكنه الانسان ان يعيش ثلاثة ايام بدون خبز ؛ اما بدون شعر
فلا . ان الشعر ، الذي أقصى عن الادب ، قد التجأ الى الرسم
والتزيين . وفي المشادة التي قامت في فرنسا بين انصار « روبنس »
وانصار « بوسين » حوالي ١٦٦٨ ، رجعت كفة الاولين رجحاناً

ظاهراً : حوالي السنة ١٧٠٠ ، بحث المصورون والجمهور عن اللذة في الضوء واللون . جسد
الفنان في اثر ما يتميز بحميا الاهواء وقوة التعبير والحياة العارمة والسجايا الفردية . فان
« كوابل » ، في كنيسة فرساي ، و « لافوس » ، في « الانفاليد » ، قد اعادوا الشباب الى
العقود بالوان اوفر صفاء وبهجة وبرسوم ارسخ بروزاً ومثانة . ووصل « فاتو » (١٦٨٤ -
١٧٢١) من « فالنسين » الى باريس في السنة ١٧٠٢ وتلذذ « كلود جيلو » و « كلود اودران » .
ورسم لوحاته العسكرية الخالية من التصنع ، « ظهر الحرب » ، وعرض لوحاته المعدة للمهازل
والاعباد الانيقة . وتحول التزيين بعد ١٦٨٥ - ١٦٩٠ ، فأحب « بيري » تصوير الاوراق
المتشابكة واضفى عليه الخفة والرقعة ، واطلق العنان لمخيلته ، فابتدع مواضيعه الجديدة :
حنايا الاوراق النباتية ، والرسوم الحزونية الانيقة ، وقوائم الدرايزونات التي سند اليها صور
الانسان التيس واي الهول والعنقاء ، وبعض اشخاص المهزلة الايطالية والاوربا ، كالوسيفيين
المازفين على القيثارة والبوق ، الهازين الدفوف بايديهم ، الماشين على ايديهم ، او كالصينيين
والاتراك الذين ابتدعهم خياله . وفي « مودون » ، ملأ « كلود اودران » الثالث السقف
بصور آلهة الحب والقروود والهنود والدلافين . ففزت الجدران رسوم القروود او رسوم المواضيع
الصينية كتلك التي حققها « فاتو » في قصر « لامويت » . وبرزت مرة اخرى الحركة
والخيال وتأثيرات الخيلة والحس .

اما الاوربا ، وهي عيد الالحان والالوان والاوزان ، وتأثر شهواني عذب ، فقد استقبلت
استقبالاً حاراً في نابولي وروما وفلورنسا والبندقية وفيينا و « درسد » وليزيغ
وباريس ولندن .
واخيراً وجد الشعر له ملجأ غير منتظر في احلام عصور ذهبية اورد ذكرها على لسان
« البربري الصالح » و « الصيني الحكيم » في الف نظام اجتماعي خيالي نسقت تنسيقاً منطقياً
بالاستناد الى معطيات استوقفت الحواس .

المخطاط تعليم الآداب القديمة
هبط مستوى الدروس في العكليات بسبب سيطرة الشواغل
النفعية على التلاميذ وآبائهم . فالحياة قد قست على الكثيرين .
اما الاولاد ، المتزايدون تزايداً مطرداً ، والمنحدرون من البورجوازية التجارية ، فيأتون من
اوساط تقف موقفاً حذراً من الآداب القديمة : « اعتبرت الدروس اليونانية غير ذات فائدة
فضمخت والمحطت . وخلت صنوف الفلسفة : ما هي الفائدة من كل هذه الاشياء الباطلة ؟ »
واذا كان لغة اللاتينية بعض الحظوة « فبوصفها اجراءاً ضرورياً للوصول الى مهن مختلفة او

دلالة على المركز الاجتماعي المحترم . وطلب حديثو النعمة ، في الدرجة الاولى ، من المدرسة ، تزويد اولادهم بتلك « المعارف الجميلة » ، بتلك « الصباغات » من كل شيء ، بتلك « الآداب اللطيفة » ، التي تتيح كلها البروز في المجتمع . فارضاهم الاساتذة بفيض من التمارين العامة ، في التاريخ والجغرافيا ، والمراعات باللغة الفرنسية ، والرقصات الرمزية ، وكلها ترضي حب التظاهر العائلي ولكنها تضر بعلم الآداب القديمة اضراراً كبيراً .

٥ - ازمة الفكر والحس

ازمة الدين

راجع الصوفيين ان الصوفيين الذين انقذوا الكاثوليكية بالصلاة باقوا وكأنهم في عالم آخر لأن ليس من يفهمهم . فان « نيقول » (« مدعو الوحي » ١٦٦٥ - ١٦٦٦ ؛ « بحث في الصلاة » ، ١٦٢٩ ؛ « دحض اخطاء مذهب التجرد الرئيسية » ، ١٦٩٥) ، وما لبراناش ، وبوسويه ، وبوردالو ، كانوا غرباء عن الصوفية او معادين لها . الاوغسطينية سيطرت وسيطر معها الاقتناع بأن التنعم واللذة هما محرك الانسان الوحيد وبأن الارادة لا تميل الا الى ما يقع منها موقع الرضى . وذهب الجنسينيون بهذا المذهب الى حد الافراط : كل ميولنا وكل عواطفنا تعود في جوهرها الى حب الذات . ولكن الصوفيين ادعوا بأنهم لا يبحثون في محبتهم لله عن التعزيات الحسية . وقالوا ان هذه المحبة هي ميل الى الله ، قد يبغشه الله دون ان يرفقه باللذة ، في وسط ييوسة هي تطهير داخلي . واكدوا انهم يشعرون بالسعادة ، دوغمالذة ، في وسط الآلام . فكانوا من ثم مفررين انفسهم في نظر نيقول والآخرين . وكل ما يميزونه الى النعمة ليس سوى وهم انانيتهم وصنع مخيلتهم .

كان خصوم الصوفية كرتزيانيين وآلبيين ، فاعتقدوا بإمكانية معرفة الله العقلية فقط ، عن طريق الافكار الواضحة والبرهنة . أما الصوفيون فقد تكلموا عن مشاهدة مبهمة ، عن حوار مع الله دوغما صوت كلام أو تلامس مادي ، دوغما شيء يمكن ان يقع تحت الحواس أو يكون بمعنى الكلمة المادي . كانت معرفتهم لله معرفة سرية ، خالية من المثل ، غامضة ومبهمة . وابتى خصوم الصوفية التسليم بما لا يشعرون به ، اي بتمييز فكرة الله ومعاينة الله . وفي رأيهم ان الصوفيين لم يدركوا ما يقولون ، وانهم ضربوا بالرشد عرض الحائط ، وأنهم معتوهون ومجانين .

احب الصوفيون الله ، وكانت المحبة حياة لهم . أما خصومهم فقد أرادوا ديناً مفيداً ، علمياً ، يستهدف اكتساب الفضائل مباشرة . ورفضوا مناجاة النفس لله ، واتحاد النفس بالله ، وعبادة الله الحاضر حضوراً ذاتياً مباشراً . واقصروا الصلاة على التأمل استعداداً للقيام بواجب ، أو لتسلح ضد التجارب ، أو لتنظيم المشاغل والاعمال ، على فصوص الضمير المتمدة . باطللة كل فكرة عن الله « لا تتضمن اية فكرة عن أمر أو قاعدة يجب التقيد بها ، أو عن رذيلة يجب تجنبها » .

فاقتصروا الدين من ثم على مساعدة الاخلاق وبات علماً اخلاقياً نفعياً ، وأنزل الله الى مرتبة معاون للانسان . وكان ذلك انحداراً جديداً من نظرية مركزية الله الى نظرية مركزية الانسان .

انفجر الموقف هذا في قضية مذهب التجرد . ان النظرية التجردية التي طلع مذهب التجرد بها الاب « جان فالكوني » من جمعية سيدة الشكر ، انتشرت في فرنسا مرة اخرى بواسطة « مالافال » (« الطريقة السهلة للسمو بالنفس الى التأمل » ، ١٦٠٠) ، وفي اسبانيا بواسطة « مولينوس » ، أحد كهنة ابرشية « ساراغوس » (« الزمام الروحي » ، ١٦٧٥) . في رأي التجرديين ان من واجب النفس الاستسلام لله في راحة كاملة استسلاماً نهائياً . حينذاك يفعل الله بالنفس ما يطيّب له ان يفعل . في هذه الحالة ، التي تكون دائمة ، لا تستطيع النفس ان تخطئ منها صدر عنها . فيتضح من ذلك ان هذا التعليم الطوى على نتائج خطيرة : فقد رفض التجرديون الصلوات اللفظية ، والوردية ، وشارة الصليب ، والمصلوب ، زاعمين بان كل ذلك يمنهم من الاتحاد بالله . اعتبروا كل أفكارهم ايماءات من الله وحسبوا ان كل ما يمر في خاطرم جائز ومحلل لهم . سجن مولينوس وادين بناء على طلب محكمة التفتيش الرومانية . وأقدم البابا انوشنتيوس الحادي عشر على ما أقدم عليه مكرهاً تحت ضغط لويس الرابع عشر . فان رقيه ، في الواقع ، قد خُطأ مذهب التجرد وخطأ معه ممارسات مشتركة بين التجرديين والصوفيين تنفق كل الاتفاق والمعتقد القويم ، كصلة التجرد أو صلاة الايمان التي هي نظرة محبة مباشرة من النفس الى الله ، دونما صور باطنية وتأمل وبرهنة وتفكير .

أما في فرنسا فقد سبق لاحدى المتصوفات ، السيدة « غويون » ان نشرت « الطريقة الموجزة والسهلة جداً للصلاة » ، ولن تلبث ان تؤلف « السيول الروحية » . وجمعت من حولها بعض الاشخاص الروحانيين الذين كان لها عليهم سطوة كبرى . وكان من بينهم الاب « دي فينيلون » مذهب دوق « بورغونيا » . وكانت السيدة « غويون » صديقة للسيدة « دي منتنون » ، فشغفت بأرائها معلمات وآنسات « سان - سير » . الا ان صوفيتها ما لبثت ان اصبحت موضوع ارتياب لا سيما وان من شأن بعض تعابيرها المفرطة أو الخرقاء ان لا يفرق السامع بينها وبين التجرديين . حكم على « الطريقة الموجزة » في روما في السنة ١٦٨٩ . ونهبت السيدة « دي منتنون » الى الخطر في السنة ١٦٩٤ . وتحولت القضية الى مبارزة بين بوسويه وفينيلون دافع فيها كلاماً عن آرائهما ، بوسويه في « درس في حالات الصلاة » ، وفينيلون في « تفسير مبادئ القديسين حول الحياة الباطنية » في السنة ١٦٩٧ . وتدخل اخيراً لويس الرابع عشر ، فاعفي فينيلون من مهمة التهذيب في السنة ١٦٩٥ واقصي عن البلاط واسندت اليه رئاسة اساقفة « كمبريه » ، ثم حكم البابا على كتابه في السنة ١٦٩٩ .

بيد ان ما يلفت النظر هو ان « التفسير » قد اثبت بان فينيلون ، المدافع عن الصوفيين ، لم يكن اطول باعاً في فهم الصوفية من خصومه . فقد شدد على طابع التجرد في الحبة الصوفية ،

بحيث ان الصوفي يحب الله من كل نفسه حتى ولو حدث ، بفرض مستحيل ، ان الله يحل محبته ويريد له نيران جهنم الازلية . واستشهد فينيلون بالقدس برناردوس وغيره . ولكن القديس برناردوس قد تبرأ منه مسبقاً . فهو قد سبق له وابان ، ضد ابيلاز ، الذي قال قول فينيلون ، ان محبة الله لا يمكن ان تكون مجردة تماماً . فمحبة الله ، من جهة ، تستهدف الكائن الاعظم ، اي الخير الاسمي والسعادة السمي . أما محبة الخليفة ، من جهة ثانية ، فقد لا تقابلها مكافأة ، وتصبح مجردة في حال تمادياً . ولكن محبة الله مكافأة ابدأ لأن الله احبنا قبل ان نحبه ولا يطلب منا سوى محبتنا كي يسبح علينا نعماً جديدة . يضاف الى ذلك اخيراً ان النفس لا تحب الله من اجل ذاته ما دامت قادرة على فرض المستحيلات ، فان النفس ، حين تحب الله من اجل ذاته ، تنقطع عن الفرض والتفكير وتنصهر في الله . وقد اتضح من كل ذلك ان فينيلون لم يختبر الصوفية وانه ، هو ايضاً ، قد تكلم عنها كما يتكلم الاعمى عن الالوان .

ولكن النتيجة التي آلت اليها كل هذه المشاهدات هي تكريره قراءة المؤلفات الصوفية وانقاص عدد النفوس الداخلية حتى في الاديعة ، بينما كان الدين يتعرض لهجمات العقلين والمؤرخين .

استخدم العلم الواسع في التاريخ لغايات سياسية ودينية ، فعارض في نموه التاريخ ضد الدين التاريخ الخطابي على طريقة « تيت - ليف » مع ما ينطوي عليه من خطب وحكم وتحاليل ومقارنات . ولم يزل هنالك ، على كل حال ، مؤرخون من هذا الطراز ، كـ « فروتو » مثلاً الذي ارشد الى مستندات حول حصار مالطة بعد الانتهاء من تحرير نصه ، فأجاب بان المستندات جاءت متأخرة وان الحصار قد تم ، أو كـ « دانيال » الذي ذهب للاطلاع على مجلدات مكتبة الملك ، فامضى هناك ساعة واعتبر نفسه مسروراً جداً . وعارض التاريخ كذلك ، في اتساع ابحاثه ، بهض الكرتزيانيين المولعين بالحقائق الشاملة دون غيرها . فقد درج « مالبرانش » على القول ان آدم امتلك المعرفة الكاملة دون ان يعرف التاريخ ؛ وقد اكفى ، في حق التاريخ ، بما عرفه آدم . واعجب الكثيرون بهذا الموقف لأن « الجيل الطالع كان راغباً في الرخاء والطيش ومنصرفاً عن كل ما لم يبد له سهلاً » .

ولكن جمعية بندكتيني « سان - مور » كانت قد نذرت نفسها للعلم التاريخي البندكتيون الواسع لاجل مجد الله . وكانت مصممة على نشر مؤلفات الآباء وعلى وضع تاريخ جمعية القديس بندكتوس . وقد نظم العمل المشترك ، في دير الرئاسة ، « سان - جزمين » ده بريه ، ما بين السنة ١٦٣٠ والسنة ١٦٤٨ ، « لوقا داسري » الذي خلف غريغوريس تاريس . حوالي السنة ١٦٦٤ ، كانت تجتمع في قليته ، أيام الاحاد ، ندوة من العلماء الواسمي الاطلاع في التاريخ ، « دي كانج » ، « بالوز » ، « فيون ديروفال » ، رئيس « هارلي » . ثم جاء تلميذه « مابيون » (١٦٣٢ - ١٧٠٧) فأسس علم « الدبلوماسية » الذي يعين درجة صحة وثائق القرون الوسطى ، الصكوك ، المعاهدات ، العقود ، السجلات (« الدبلوماسية » ، ١٦٨١) .

واسهم بفخر في أعمال البندكتيين الذين نشروا ، حتى السنة ١٧٩٢ ، ٧١٠ مؤلفات يضم كل منها عدة مجلدات كبرى : « غالبا المسيحية » ، « مؤرخون من فرنسا » ، « مؤرخو الحروب الصليبية » ، « فن استنبات التواريخ » ، طبعات مؤلفات الآباء اللاتين واليونانين ، مجموعة الوثائق .

ومن جهة ثانية ، استهدف روح السلطة مهجوم عام زعزع الايمان في وحي الكتب المقدسة والامتياز الديني للشعب اليهودي . وكان مصدر هذا الهجوم ، في الدرجة الاولى ، تطبيق العقلية الكرتزيانية على العلم التاريخي الواسع .

أعلن سينوزا في كتابه « البحث اللاهوتي السياسي » ان العقل
اللاهوتي السياسي « سينوزا »
ثبت عجز الدين وضرورة نبد كافة المعتقدات التقليدية . الدين
غير ناجع : اذ يستحيل التمييز بين مسيحي ويهودي ، أو تركي
أو وثني . لماذا يا ترى ؟ لان الدين لم يعد فعلا داخليا ، مدرسا ، مقتنعا به ، بل عبادة خارجية ،
وممارسات آلية ، وطاعة سلبية لا واهر الكهنة . ولكن هؤلاء الكهنة طماع استولوا على
الكهنوت بدافع الجشع . يجب التخلص منهم ، والاعتماد على النفس ، واستخدام العقل ، شرف
الانسان .

الطاعة مفروضة باسم الكتاب ، في حال ان الكتاب ، كما ثبت ذلك ، ليس عمل الله ملقنا
أنبياءه : فهو محشو بالمتناقضات والاطغاء . كتب الكتاب القديم ليست اكيدة الصحة . فهي
متألفة من وثائق مختلفة المصادر ومتفاوتة القيمة . الوثائق الأصلية افسدت بفعل خرق
المستنسخين وأسيء سبكها . الكتب التاريخية البحثية (الاسفار الحسة ، يشوع ، القضاة ،
الملوك) معدة لتقديم تاريخ شعب اسرائيل من زاوية موافقة لمدرسة معينة من اللاهوتيين .
وهي لا تهود ، في شكلها الحالي ، الى ما قبل عزرا . ولا ريب في ان الشعب اليهودي لم يختار
للمحافظة على الشريعة الالهية لانه شعب ولى وانقرض . الدين العبراني والمسيحي ظاهرة تاريخية
ذات صبغة عابرة ، لها تفسيرها في زمانها وظروفها .

ان « ريشار سيمون » (١٦٣٨ - ١٧١٢) ، أحد كهنة جمعية القديس فيليب
ريشار سيمون النيري ، الذي سبق له ان قال بالكرتزيانية ، قد تأثر تأثراً عميقاً بـ « البحث
اللاهوتي السياسي » وبمحاكات المؤرخين الذين لم يتوصلوا الى التوفيق بين معطيات التوراة
المعدية والمعطيات العددية لدى الشعوب الاخرى . فسما بطريقة سينوزا الى ذروة كالهيا .
ووفقاً للروح الهندسية الكرتزيانية لم ينظر الا الى جزء من الواقع . فتكون لديه مبدأ اساسي
مسلّم به دون برهان : اقصى اعتبارات الجمال والاخلاق ؛ وجعل من شرح المتن علما قائماً
بذاته مستقلا عن اللاهوت وعلم المقولات . لم يكثر ، في تحديد درجة الصحة ، الا للمعطيات
المادية ، المخطوطات ، خبرها ، كتابتها ، احرفها ، فواصلها ، نقاطها ، حركاتها . فان تفسير

التوراة عملية تحليل لغوي ، واتباع نهج نحوي جيد ونقد تاريخي سليم ، واثقان اللغة العبرانية ولغات الشرق ، والاقتصار على المعنى الحرفي ، ووضع الكتب المقدسة في إطارها ، ومعرفة حياة الانبياء ودروسهم ودورهم ، وزمان وظرف تأليفهم كتبهم ، والشخص الذي وضعوها من أجله ، واللغة التي وضعت بها ، ونصيب كل كتاب ، وكيفية جمعه ، والأيدي التي انتهت إليها ، الخ .

استطاع حينذاك الاجابة على السؤال التالي : هل يجوز النظر الى التوراة كما الى كلام الله ، الموحى به مباشرة ، المدون خطأ ، المنتقل اليها في حالته الاصلية ؟ وقد أجاب بالنفي ، لان الاسفار الخمسة مثلا ليست من تأليف موسى ، كما هو ثابت . انها تتضمن استشهادات وامثالا وأشعاراً تم عن لغة وانشاء لاحقين لعهد موسى ، « فهل يعقل ان ينسب الى موسى الفصل الاخير من سفر «تثنية الاشراع» حيث دون وصف موته ودفنه ؟ » كما انها تتضمن اقوالاً مكررة لا يحصى لها عدد . فهي من ثم مؤلف غير متلاحم الأجزاء وضعت أفلام خرقاء في عهود مختلفة ، ونُقح برفل تكراراً ، بحيث يستحيل اليوم معرفة واضعه الاول الحقيقي .

هل يجوز اعتبار العقيدة الكاثوليكية والممارسات الكاثوليكية مستخلصة مباشرة من التوراة ومسوّغة بها ؟ كلا . فقد درس العهد الجديد ووجد ان هذا المقطع من القديس يوحنا : « لي ثلاثة شهود في السماء » ، الذي يؤلف احد مرتكزات عقيدة الثلاث ، لا أثر له في المخطوطات الصحيحة . ولا يمكن ان يعزى الى مريم نذر بتولية دائمة ، اذا ما استندنا الى لوقا ، ١ ، و ٣٤ . يضاف الى ذلك ان تفسير « ريشار سيمون » للكتاب المقدس كان تفسيراً عقلياً . فهو ، مثلاً ، يضعف النصوص التي تثبت مجانية انعامات الله . وقد ترجم هذا المقطع : « اعززت يعقوب ، ولكنني غضبت على عيسو » بـ « احببت يعقوب اكثر من عيسو » . وفي حادثة امرأة لوط ، ترجم هذا المقطع : « حولت الى تمثال من الملح » بـ « غدت كتمثال من الملح » ، اي جامدة . الا ان بوسويه توصل الى إدانة ريشار سيمون واتلاف طبعة الكتاب . وشن البروتستانتيون « فوسوس » و « سبانهام » و « باسناج دي بوفال » و « جورير » و « لوكير » هجمات عنيفة على سيمون . وكان في رأي بوسويه ان المهم في الامر هو فائدة القارىء الاخلاقية والدينية ، التي ترتبط بسلطة الكنيسة المؤتمنة على التقليد . ان التقليد ، اي ما آمنت به الكنيسة منذ البداية ، يتقدم على النص ، كما ان هذا المعنى او ذاك حقيقي لان الرسل والآباء والمجامع والملائنة قد اجمعوا الرأي على ذلك بالهام من الروح القدس ، وعلى علم قواعد اللغة ان ينحني امام اللاهوت . ولكن سيمون لم يرتدع ولم يتراجع . وحين نشر في السنة ١٧٠٢ ترجمة العهد الجديد ، المعروفة بترجمة « تريفو » ، لم يتوفق بوسويه ، هذه المرة ، الى حمل المستشار على إلغاء الكتاب ، لان الايام كانت قد تبدلت .

ان بوسويه ، الذي تأثر بالكرتزيانية ، قد خلخل ، على غير قصد منه ، الدين
 الذي كان راغباً في الذود عن حياضه . في كتابه « خطبة في التاريخ العام »
 والعلل الثانوية بوسويه (١٦٨١) ، اراد ان يثبت ان الله قد رتب كل تاريخ العالم الوثني استعداداً
 لمجيء يسوع المسيح . ولكنه لم يلجأ الى الله تفسيراً الامرة واحدة ، مكتفياً في ما عدا ذلك
 بالعلل الثانوية ، او العلل البشرية ، لتفسير الاحداث الانسانية . هاجم البروتستانت ، الذين
 جاهروا ، شأن الكاثوليك ، بان « الدوام دليل حقيقة » ، والتحول دليل ضلال » ، فنشر في
 السنة ١٦٨٨ ، « تاريخ محاولات الكنائس البروتستانتية » المستقى من المصادر . ادى هذا التاريخ
 الى بعض الارتدادات ، كما انه ادى عند البروتستانت ، كجورجو ، منذ « الراعيتين » السادسة
 والسابعة ، و « باسناج » ، و « بورنيه » ، الى ردة فعل شاملة : سلم كلهم بضرورة التحول ،
 دليل الحياة الداخلية وعمل الروح القدس . ولكن من شأن هذه الحركة ، اذا بولغ يوماً في
 تسلسلها المنطقي ، ان تفضي الى حرية دينية لا حدود لها . فأوحى بوسويه بذلك الى البروتستانت
 بنزعة خفية ، او استعداد غير ظاهر في البروتستانتية ، هو مبدأ الحرية لا بل مبدأ الاباحية الذي
 تنطوي عليه . ومن سخرية القدر ان بوسويه « قد عمل بصورة غير مباشرة على استعجال نشوء
 تلك المسيحية المبسطة ، المقتصرة على رمزية ملاطفة ومرتحية ومبهمة » ، التي أمست في القرن
 التاسع عشر « الدين السري للعديد من الزنادقة الاقبياء » .

نشر « بيير بيل » ، البروتستانتي الفرنسي اللاجئ الى هولندا ، عدة
 رسائل وآراء في المذنب « ظهرت في السنة ١٦٨٢ والسنة ١٦٨٣ »
 وآراءه في المذنب « بيل »
 والسنة ١٦٩٤ . ساد الرأي بان المذنبات دلالات طبيعية يرسلها الله
 للانبياء بقصاص صارم استحقه البشر . ودرج الناس على التأكيد بان حوادث مشؤومة تعقبها
 ابداً : اغتيال ملوك ، زلازل ، مجاعات ، حروب ، طواعين . فأثبت « بيل » ان هذا الرأي
 لا يستند الى اساس متين . ولو فرضنا جدلاً ان المذنبات ترافقها مصائب عدة ، فلا يعني ذلك انها
 الدليل عليها او المسبب لها . فلا يحق مثلاً للمرأة التي تنظر من نافذتها ، في شارع « سانت -
 اونوريه » ، فتري كل مرة عربات تمر امامها ، ان تتصور انها سبب مرورها ، كما ان ظهور هذه
 العربات ليس ، بالنسبة للجيران ، دلالة طبيعية على ان عربات اخرى لن تلبث ان تمر من بعدها .
 وفي الواقع ليست المصائب في سنوات المذنبات اكثر منها في السنوات الاخرى . فيجب من ثم
 ان نفرق بين مصادفة وجود شيئين معا وبين علاقة العلة بالمعلول .

لذلك كان من واجب الانسان السليم التفكير ان لا يمتدق بقدرة المذنبات حتى ولو اجمعت
 الآراء على ذلك وشهدت الشعوب كلها بذلك . ولكن اجماع الآراء يعطي برهاناً على وجود الله ،
 كما ان التقليد يعتبر محافظة مستمرة على حقائق الايمان : فاجماع الرأي ، كما قيل عن المذنب ،
 لا يبرهن شيئاً .

زد على ذلك ان القول بان المذنبات دلالات طبيعية خرافة وثنية قديمة حفوظ عليها في المسيحية . فلو كانت المذنبات دلالات طبيعية ، لالتى الله بالمعجزات ليحفظ الوثنيين في عبادة اصنامهم . وفي الواقع ليس المسيحيون الذين يؤمنون بقيمة المذنبات كدلالات طبيعية سوى عبدة اصنام . المعجزة لا تليق بكرامة الله ، لانها تخلف شرائع الله ، وتخالفها لاجل خلائق بشرية حقيرة . الايمان بالمعجزات والعناية الالهية ، انما هو نديجة الكبرياء . اذن فعبادة الاصنام تتنا كل المسيحيين الحاليين . ولذلك فانهم يقومون في كل الرذائل ، بينما هناك ملحدون صالحون يعملون بوحى قواعد الشرف . يجوز ان نتصور مجتمعاً من الملحدن قد يوازي مجتمعاً مسيحياً او يتفوق عليه . لم يكن للحاد ابطاله وشهادته ؟ وفي « قاموسه » ، الذي جاء روعة الاتحاد الواسع الاطلاع ، استأنف الارتياح « بيل » هجائته على الكتب المقدسة والمقائد الروحانية ، فتهاقت الشبان على ابواب المكتبات لاجل قراءة هذا الكتاب « الذي لم يتخله سطر واحد انطوى على تجديف صريح » والذي لم يكن من شأنه ، مع ذلك ، « ان يقود الى الاتحاد » . في فرنسا كانت المشاعر مهياة بفعل فضيحة المناولات الالزامية . فبعد ابطال براءة فانت ، ارغم الوكلاء البروتستانت بالقوة على المناولة . فكان ذلك خرقاً للقدسيات لان هؤلاء المنكودي الحظ لم يكتفوا بمسح جسد الرب بما يليق من عواطف الاحترام والحب . استنتج البروتستانت من ذلك ان الكهنة دجالون لا يؤمنون بالوجود الحقيقي . لا بل ان بعض الكاثوليك ، ممن عاش بينهم البروتستانت ، قد تزعزعوا حينذاك في ايمانهم . فكان ان بعض البروتستانت ، الذين جحدوا معتقدهم وتناولوا تحت سطوة الخوف ، اعترفوا في قرارة انفسهم بوثنيتهم وناقضات الخطيئة ضد الروح القدس ، وهي الوحيدة التي لا تغتفر ، فبحثوا عن النجاة من قلقهم المقض بتبني آراء الملحدن ونشروا العدوى في اوساط الكاثوليك .

وقد أثارَت الديابان والصين آنذاك شر المصاعب .

شقت الطريق أمام الملحدن الانكليز ؟ فان « تولند » (١٦٧٠ - ١٧٢٢) الملحدون عدو الكهنة الذين يبتكرون بعض المقائد ، كخلود النفس ، لضمان سلطتهم ، قد قال بعالم ازلي يسير بمرحلة تلقائية ، وبماديه تجمل من الفكر حركة من حركات الدماغ ، وباخلاق مبنية على العقل . أما « كولنز » (١٦٧٦ - ١٧٢٩) فقد احتج في « خطابه حول حرية الفكر » على غرابيات التوراة وعلى عجائبيها التي ليست سوى خداع وغش . وجاء في كتابه « محاولة في طبيعة النفس البشرية ومصيرها » : « لما كان الفكر نتيجة عمل المادة في حواسنا ، جاز لنا الاستنتاج بأنه خاصية من خاصيات المادة أو ظاهرة من ظواهر المادة يسببها عمل « المادة » .

عبثاً حسب نيوتون انه اثبت وجود الله . وعبثاً قاوم الراعي « ابلي بنوا » عقلية العلماء الواسعي الاطلاع ، في السنة ١٧١٢ . فبحسب طريقة « بيل » ، كما قال ، وهي طريقة كرتزيانية

تفرض الوضوح المطلق وثنى الشهادات ، يمكننا تقديم الدليل على ان « بيل » ليس مؤلف « قاموسه » . انه يؤكد ذلك : ولكن ما هو الدليل على صدقه ؟ انه يقسم على ذلك : ولكن هناك ايماناً كاذبة . قد يستشهد باصدقائه : ولكن يجب اثبات صدق الاصدقاء . قد يتعمل بالكتبي والصفاف والمصحح : ولكن هؤلاء شهود يجب استنبات صدقهم اولاً . في واقع الحياة ، يجب الاكتفاء بالبراهين التي توفر يقيناً أدبياً : « ان البراهين الصحيحة من الندرة والصعوبة بحيث تصبح غير ذات جدوى في الامور التي تفرض فيها الحياة ضرورة العمل ، وبحيث يجب التخلي عن كافة وظائف الحياة ، اذا ما طولب ، في سبيل الاختيار ، بوجود توفر البراهين التي لا تنال منها الاعتراضات التي قد يتقدم بها فيلسوف حذق . وليس من متركز للفنون والعلوم والمجتمعات والشرائع والتجارة سوى مثل هذه البراهين ... » ان المادة غير المخلوقة ، التي تتحرك وفقاً لنظام معين ، سر مستغلق على العقل استغلق اعظم اسرار الدين . الانسان حيوان متدين يميل بالسليقة الى المحبة والتفوق والانصهار في اللانهاية . وحين لا يعبد الله ، فانه يعبد العلم ، أو الوطن ، أو الملك ، لأن العبادة وبذل الذات فرض واجب عليه . ولكن السد كان اضعف من ان يقاوم قوة السيل الجارف .

٦ - أزمة الآراء السياسية والاجتماعية

كانت ثورة السنة ١٦٨٨ ، لـ « جون لوك » (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، مناسبة البورجوازيون : « لوك » لمراجعة ونشر الفلسفة العملية ، لا بل النفعية ، التي وافقت انطلاقاً العلوم وكانت معدة لتبرير ثورة الاعيان الظافرين وايضاح نزعاتهم العميقة . ولد « لوك » على مقربة من « بريستول » ، والمقدر من عائلة تجار رجال قانون ، وتلقى الدراسة في اوكسفورد ثم غدا فيلسوفاً ولاهوتياً وطبيباً ، وارتبط منذ السنة ١٦٦٦ ، كطبيب ، باللورد « اشلي » الذي اصبح الكونت « دي شافنسبري » في عهد لاحق . حين عين هذا الاخير وزيراً ، اصبح لوك امين سر « دائرة التجارة » (١٦٧٢ - ١٦٧٥) . بعد زوال حظوة الكونت ، سافر لوك الى فرنسا (١٦٧٥ - ١٦٧٩) . عندما اخفق شافنسبري في محاولته الثورة وفر الى هولندا ، لحق به لوك اليها في السنة ١٦٨٤ . حرره بيكون وديكارت وغسندي ، في هذه الاثناء ، من الارسططاليسية التي تدرس في اوكسفورد . في هولندا ، وضع لوك آراءه بمخالطته البروتستانت الفرنسيين اللاجئين . عاد الى انكلترا في السنة ١٦٨٨ . منذ السنة ١٦٧١ ، امتلك آراءه الرئيسية ، ولكنه لم ينشر أهم مؤلفاته الا بعد الثورة الانكليزية ولاجلها : « رسالة اولى في التساهل » ، وقد كتبت في السنة ١٦٨٥ - ١٦٨٦ ونشرت في السنة ١٦٨٩ ، « محاولة في الحكومة المدنية » و « محاولة في العقل البشري » (١٦٩٠) .

في رأي لوك ان البشر ، في حالة الطبيعة ، احرار ومتساوون فيما بينهم . يهتدون بهدي

العقل الذي يرشدهم الى حقوق الانسان الطبيعية ؛ الحياة ، الحرية ، الملكية اي حق كل فرد في التصرف بثمار عمله بنسبة حاجاته ، العائلة ، السلطة الابوية . كل هذه الحقوق مقدسة . الله وهبها للانسان . وهي سابقة في الزمان لكل مجتمع .

الا ان البشر ، بعد تعرضهم للكوارث الطبيعية وهجمات اعدائهم ، اضطروا لأن يتولفوا مجتمعاً حتى يستطيعوا التمتع بحقوقهم الطبيعية . هدف المجتمع هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية . البشر يؤلفون المجتمع بموجب عقد اجتماعي . كل منهم يتخلى للمجتمع عن حقه في تنفيذ القانون الطبيعي . « لا يمكن ان تتخطى سلطة المجتمع حدود الخير العام » . المقررات تتخذ بالاكثورية . القوانين متساوية للجميع . لا يستطيع اي قانون ان يحرم انساناً من ممتلكاته ؛ اذن الضرائب مقبولة . كل انسان يبلغ سن الرشد حر في ان ينخرط أو لا ينخرط في المجتمع ، وفي ان يعقد أو لا يعقد اتفاقاً مع الآخرين ، ولكنه ، اذا ما انتمى الى المجتمع ، لا يستطيع ان يتركه بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن .

يمكن ان تمارس سلطة المجموع مباشرة ، وهذه هي الديمقراطية . ولكن باستطاعة المجموع كذلك ان يفوض سلطته الى جماعة أو الى فرد ، ويؤسس أما اوليغارشية وأما ملكية . المجموع يعقد اتفاقاً مع مفوضه ، هيئة كان أم فرداً . المفوض مقيد ببندود العقد . لا يستطيع التصرف بممتلكات رعاياه تصرفاً تعسفياً . يطبق القوانين التي تسنها جمعية غير دائمة ، لأنه من الافضل الفصل بين سن القوانين وتنفيذها . يمكنه المجتمع استعادة السلطة من مفوضه اذا خالف العقد . الرعايا لا يقاسمون المفوض كفوض ، بل كمنفذ لارادة المجتمع . اذا لم ينفذ هذه الارادة ، فالرعايا في حل من يمينهم . بمقدورهم ان يثوروا ويستخدموا الاسلحة . جرائم جاك الثاني تبرر الثورة . ليس غليوم الثالث مقتصباً لأن سلطته الملكية تسند الى رضى الشعب . فاطمان بذلك الضمير الانكليزي .

يجب فصل الكنيسة عن الدولة . الدولة مجتمع معد لأن يضمن للمواطنين التمتع بحقوقهم الطبيعية . الكنيسة مجتمع معد لأن يتيح لهم كسب خلاصهم الابدي ؛ « مجتمع » طوعي مؤلف من افراد يجتمعون بملء اختيارهم بغية عبادة الله علناً ، بالشكل الذي يرون فيه ارضاء له وخلاصاً لنفوسهم . فليس الدين ، بالتالي ، من اختصاص القاضي . الكنائس اشبه بتعاونيات الصناعيين اليدويين أو الجمعيات العلمية . تقرر انظمتها وتفرض عقوبات روحية . ليس باستطاعتها التعرض لشخص المؤمنين أو لممتلكاتهم . حرية الضمير وحرية العبادة كليتان . لا حدود لهاتين الحريتين سوى التعديلات على الحقوق الطبيعية والآراء المتعارضة ووجود المجتمع الانساني أو القواعد الاخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني . فلا يجوز من ثم الاغضاء على الكاثوليك لانهم يربطون السلطة الزمنية بنعمة الهية هم مؤمنون عليها ولأن كهننتهم تحذوهم رغبة جشعة في السيطرة . ولا يمكن الاطراف على الملحنين لأن المهود المقطوعة لا تخضع ، بالنسبة لهم ، لاية

عقوبة ، ولأن الحقوق الطبيعية لم تعد في نظرهم ثابتة وممتنة الابطال . « ان إلغاء الله ، ولو بالفكر فقط ، معناه ملاشاة كل شيء » .

في سبيل ضمان التساهل والسلام الاجتماعي ، يطرح لوك جانباً كل المثل التي لا يمكن تبريرها بالاختبار أو التوصل اليها بالتركيب ، اي مثل اللانهاية الحالية ، المادة ، الجوهر الحقيقي ، حرية الارادة ، الخ . لا نبجش الا عن معرفة ما يمكن ان يفيد في الحياة . قوانا ضعيفة وفظة : لا نسمين وراء معرفة كاملة ومطلقة تعجز عنها الكائنات المتناهية . ولنهملن الافتراضات الميتافيزيقية حول طبيعة النفس وجوهرها وعمل النفس في الجسد وعمل الجسد في النفس . لا نهتمن الا لما هو مفيد . ولندرسن عقل الانسان فقط وكيفية تكون الافكار وتركيبها ، فهذه هي المعرفة الحقيقية التي يمكن تطبيقها عملياً .

النظرية الكرتزيانية في الافكار المطبوعة تطلق من معرفة مباشرة وباطنية مزعومة . فهي تفصح من ثم مجالا لكل الافكار الفردية السابقة التكوين . وان كل الآراء التي يجب ان توفر الطمأنينة للعقول ، كبراهين وجود الله مثلاً ، تتلمق من ثم بالافكار السابقة التكوين لدى كل فرد ، في حال ان تأمين توافق اعضاء الجسم الاجتماعي يوجب ايصالها الى « مفهوم صحيح للاشياء ... وايصال العقل الى طبيعتها المتصلبة وعلائقها الثابتة ، لا السعي وراء ايصال الاشياء الى آرائنا السابقة التكوين » . ليس لدينا ، لحسن الطالع ، مفاهيم مطبوعة ، كمفهوم الله ، واللانهاية ، والازل . فالطفل لا علم له بها ، ونادرون هم الاشخاص الذين يعرفون المبادئ النظرية كمبدأ المماثلة والتناقض ، والتعاليم العملية كـ « عامل الغير كما تريد ان يعاملك » . والعقل من ثم لوحة لمساء تنتظر ان تطبم الحروف عليها ، او غرفة مظلمة تنتظر وصول اشعة الشمس اليها . هو الحس ما يوقظ العقل ويولد الافكار ، الافكار البسيطة الخارجية ، كالحر ، والجماد والصقيع ، والصلب ، والمر ، والافكار البسيطة الداخلية ، الانتباه ، الذاكرة ، الارادة ، الديمومة . يلجأ العقل الى المقاربة والتركيب ، ويعمل من هذه الافكار موضوع استدلالاته الخاصة ، فتصبح على مزيد من التعقيد والتجريد . اليقين هو ادراك الموافقة بين فكرين بواسطة افكار وسيطة .

بعض الافكار البسيطة ، كالاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد ، « صفات اولية » تمثل الاشياء على علاقتها ، والبعض الآخر ، كالالوان ، والاصوات ، والطعوم ، « صفات ثانوية » يحدثها فينا ما تطبمه في حواسنا حركات الاجسام المختلفة الصغيرة . ولكن الصفات الاولى نفسها ليست العناصر الحقيقية للاشياء لأنه يتعذر علينا تصور هذه الافكار البسيطة موجودة بذاتها دون مادة تتحد بها لا نعرفها . ونحن ، في الواقع ، نطلق اسماً واحداً على مجموعة من الافكار البسيطة . فانت افكاراً بسيطة يرينا اياها الاختبار مجتمعة ابدأ ، كالاصفر ، وقابل الذوبان ، والمطيل ، والكثيف جداً ، الخ ، نطلق عليها

اسماً هو الذهب في ما يعيننا هنا . هذه الافكار مترابطة فعلاً وتكون كلاً واحداً ، وليس من ريب في تركيب الذهب الخاص ، في جوهر الذهب . الا اننا لا ندرك الجوهر وايس لدينا عنه اية فكرة ؛ لا نستطيع ان نضيف اليه شيئاً فوق ما يوفره لنا الحس والتفكير . فالبحث الممكن الوحيد هو من ثم البحث الاختباري عن الصفات المجتمعة معاً . وهكذا وضع لوك الاسس الركنية للعلم الاختباري واقصى اعتراض مبدأ الجاذبية النيوتونية ، وازال حظوة النظريات الميتافيزيقية ، المضرة بالنظم الاحتمالية ، التي تركز اليها الكاثوليكية مثلاً .

اوضحت دراسته قيمة العقل وحدوده في آن واحد . الانسان لا يستطيع ان يبلغ ن الحقائق الا ما يتيح له عقله . فواجبه يفرض عليه من ثم ان لا يقول بحقيقة قضية ، لا يقبل بها عقله ، اي انه يفرض عليه رفض الحال . وعليه بالتالي ان ينبذ النظرية الكاثوليكية المستحيلة حول الحق الالهي . ولكن العقل ، الذي لا يستطيع بلوغ العناصر الحقيقية للاشياء ، اي الجواهر ، لا يلبث ان يلمس عجزه . لذلك يكتفي الانسان بالحقيقة المرجعة ، ثم يتذكر صعوبة بلوغ الحقيقة ، فلا يرفض ما لا يمكن ادراكه ، ويصبح غاية في التواضع والمحبة . ويتذكر كذلك ان لكل هيئة اجتماعية الحق في اقامة الحكومة التي تبدر لها مفضلة على سواها ، وان ما من شكل حكومة افضل اطلاقاً من سواه ، وان الظروف والمصالح العابرة وتبدل الاشياء الدائم يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار .

ولكن الافكار البسيطة الداخلية أتاحت له اثبات وجود الله ، قاعدة مذهبه السياسي والاجتماعي . تعطي هذه الافكار البسيطة عن الذات فكرة مركبة لكائن غير لازم الحدوث . ان وجود مثل هذا الكائن تفرض وجود كائن ازلي ، كلتي القدرة ، كلتي الادراك ، خلق في خاصية المعرفة ، وخلق المادة ايضاً لأنه تَخَلَّقَ رُوحِي التي يصعب خلقها اكثر من المادة .

يتضح من ثم ان نظرية لوك كانت عقلية ، اختبارية ، بورجوازية . لم يكن لوك ديموقراطياً . في رأيه ان البشر الاحرار هم النبلاء والاكليروس وكبار الملاكين الريفيين والبورجوازية العقارية او التجارية . فهؤلاء هم الذين يضمون فيما بينهم العقيد الاجتماعي . وتتفق الملاحظات المدونة في مفكرته في السنة ١٦٧٩ وتقريره المرفوع للجنة التجارة في السنة ١٦٩٩ . فالمشردون الاصحاء الذين تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ٥٠ سنة ، والذين يقبض عليهم بسبب تسولهم ، يجب ان يحكم عليهم بخدمة ثلاث سنوات في الاسطول اذا كانوا من الكونتيات البحرية ، او بالعمل ثلاث سنوات في بيت العمل ، اذا كانوا من الكونتيات الاخرى . اما المتسولون الذين لم يبلغوا سن الرابعة عشرة فيجب ان يجلدوا ويرسلوا الى مدارس العمل الخاصة . مذهب لوك هو مذهب بورجوازي كبير مستنير . لذلك غدا هذا المذهب انجيل المجلس التمثيلي الانكليزي والبروتستانت الهولنديين ، كما غدا في وقت لاحق انجيل فولتير وكبار البورجوازيين الفرنسيين .

مبتدع الانظمة الخيالية
الارستوقراطيون الرجعيون
فينيلون

ان عدداً كبيراً من النبلاء المتضررين ، الذين اذلتهم سياسة
لويس الرابع عشر البورجوازية وانتفاخ رجال المال ورجال
الدولة المتحدرين من اصل بورجوازي ، اقاموا مثلاً اعلى لهم كل
نقيض لما يفعله الملك العظيم وانتصّبوا خصوصاً للملكية المطلقة
التي حاول بوسوييه الدفاع عنها في « السياسة المستمدة من الكتاب المقدس » (١٧٠٩) .
بعد وفاة الملك ، زجر الدوق « دي سان سيمون » قائلاً : « كان ملكه ملك بورجوازية
صغيرة » . منذ السنة ١٦٨٩ ، اجتمع حول دوق بورغونيا ، الابن البكر لولي العهد ، اشراف
ريفيون تواقون الى ردة فعل ارستوقراطية ، هم الدوق « دي بوفيليه » مربيه ، والدوق
« دي شفروز » ، والدوق « دي سان سيمون » والاب « دي فينيلون » ، مذهب دوق
بورغونيا ومرشد الدوق « دي شفروز » . وحين ذفي فينيلون رئيساً لأساقفة كمبريه ، لم
ينقطع عن مراسلة اصدقائه وعن الايحاء الى دوق بورغونيا ببعض الآراء . اصبح هذا الاخير
في السنة ١٧١١ ، الوارث المعين قبل وفاة والده ، ولكنه توفي هو نفسه في السنة التالية ، كما
توفي فينيلون ايضاً قبل الملك العظيم .

عبر فينيلون عن آراء هذا الفريق في عدة مؤلفات لخص بالذكر منها « مغامرات « تليهاك »
(١٦٩٩) ، و « غخططات حكم وضعت بالاتفاق مع الدوق « دي شفروز » بغية عرضها على
دوق بورغونيا » و « جداول شون » (تشرين الثاني ١٧١١) . انها احلام اشراف ريفيين
ساخطين يستمدون مثلاً اعلى من طراز مجتمع كان تحقيقه ممكناً قبل ٣٠٠ سنة . فان « جداول
شون » تعد لمجتمع فرنسي ارستوقراطي متسلسل السلطات مستقر حيث ستكون السيطرة
لطبقة مغلقة من النبلاء في مجلس الطبقات وفي الوظائف القضائية والادارية ، وحيث يحدد من
سلطة الملك مجلس طبقات يضم بعض كبار البورجوازيين واكثرية من النبلاء . سيجتمع هذا
المجلس مرة كل ثلاث سنوات ولا ترفع جلساته الا بعد انتهاء المناقشات . سيصوت على
الضريبة ويراقب جبايتها ويكون باستطاعته مراقبة كافة شؤون الدولة ويشرف على السياسة
الملكية . سيكون نظام الدولة اتحادياً . سيكون لكل ولاية مجلس خاص يتوزع اعضاؤه على
قرار توزيع اعضاء مجلس الطبقات ويتمتعون بسلطات مماثلة .

لن يحكم الملك وحده ، مع كل من امناء سر الدولة ، بل بحسب مبدأ الملكية القديم ، اي في
مجلس هام يماونه مجلس شورى يشارك في كافة اعماله ، وستة مجالس اخرى لكافة شؤون
الملكية . هذه هي نظرية تعدد المجالس . سيلقى بيع الوظائف . وسيستغنى عن خدومات
الوكلاء ومقدمي الماريش ، ادوات الحكم المطلق الاولى . سيعاد الى الضباط القداماء شأنهم
وظائفهم التي حدد منها وجود الوكلاء . سيارس القاضي الادارة بأحكامه وبقراره التنظيمية ،
وبفضل هذا التداخل بين الوظائف القضائية والادارية ، سيقدم القانون على ارادة الامير .

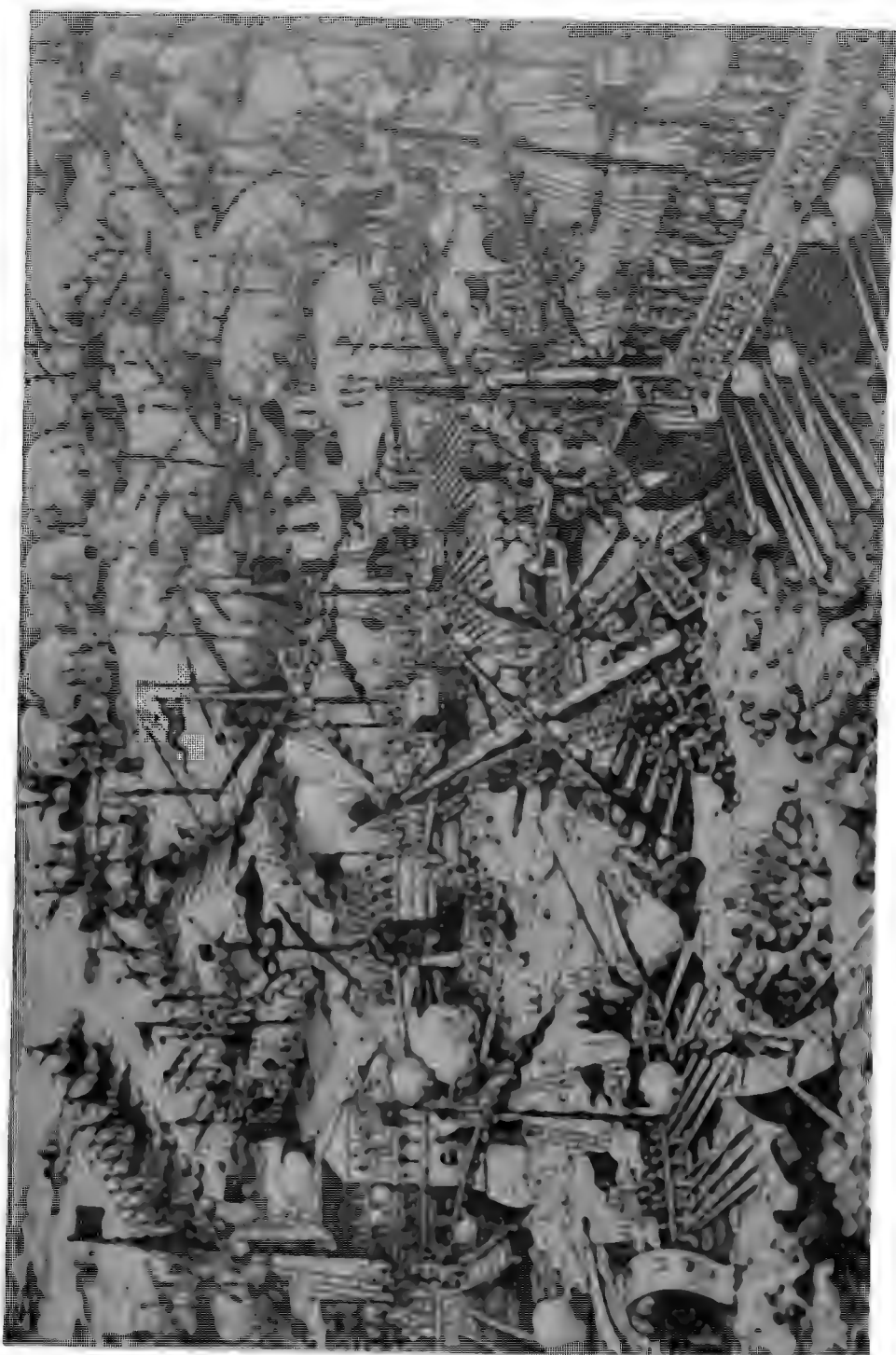
ستعاد الى النبلاء اولويتهم . سينظم في كل ولاية سجل بالاشراف وفي باريس سجل عام .

كل ولد نبيل سيدون اسمه في السجل . سيمنع الزواج من غير النظير . سيعظر الارتقاء الى طبقة الاشراف الا على اولئك الذين يؤدون للدولة خدمات جلى . سيعظر كذلك على مثاري اراضي النبلاء انتحال اسمائها . ستكون طبقة النبلاء قوية بثروتها . وسيعتمد في كل بيت ، على غرار اسبانيا ، نظام العقار المتعلق بلقب الشرف ، الذي يرثه مع اللقب بكر الابناء ، تجنباً لتجزئة الثروات بقسمة الارث . سيعحق للنبلاء تعاطي تجارة الجملة دون ان يحط ذلك من مقامهم . ستكون الوظائف المدنية والعسكرية في حاشية الملك وقفاً عليهم . سيلغى بيع الوظائف العسكرية وتكون الافضلية للنبلاء في تولي المناصب . لن يحق للنبلاء دخول القضاء فحسب ، بل سيفضلون على ادناء النسب المساوين لهم اهلية في مناصب الرئيس والمستشار في مجالس القضاء العليا ومناصب النائب العام والنائب الجنائي في المحاكم . ستارس هذه الوظائف مدى الحياة ، وسيخلف الابناء الاكفاء آباءهم . فستكون من ثم ، في وقت قريب نسبياً ، هيئة من « القضاة العسكريين » ، اي قضاء وادارة من النبلاء . وبما ان ضباط الفرق سيختارون من جسد المستطاع ، من بين اقارب واصدقاء كبار الضباط ، وبما ان الاسياد سيكونون قادرين على تسليح فلاحهم ، وبما ان مستشاري الدولة ، « الموفدين السيدين » الى الولايات لاصلاح التجاوزات ، سيختارون من بين القضاة ، فسيهضي كل ذلك الى حكومة وادارة ارستوقراطية غير مركزيين عملياً .

على هذا المجتمع ، حيث لا يشير الطموح نظام ينزع الى نظام الطبقات المغفلة ، ان يعيش في الفقر . سيؤمن الملك حاجاته بدخل املاكه ، على غرار ملوك القرون الوسطى . سيمطي مثل البساطة ويفرض على الجميع التقيد به . ستمن قوانين تقيد النفقات المفرطة : « البلخ يفقر النبلاء ويفسد الامة ويثري التجار » . سينظم مجلس الشورى كل التجارة . وسيمن رقباء لمعرفة وسائل اثره كل فرد . سيوضع بيان بثروات العائلات . ستلقى اعمال رجال المال . سيحول مجلس الطبقات دون كل مضاربة وكل التجار بالاموال وكل مراعاة . وسيحرص على ان لا تبور قطعة ارض واحدة . ستكون تجارة المحاصيل الزراعية طليقة من كل قيد . ستثري فرنسا ببيها الحنطة والزيت والحرير والانسجة النخ ، بأسعار مرتفعة ، لأن ما ستبتاعه من الانكليز والهولنديين ينحصر في « الافاويه والتحف » التي لا تداني البتة قيمة مبيعات فرنسا .

ان ما طلعت به « جداول شون » هو من ثم مخطط اشتراكية دولة ، زراعية ، تفرضها ارستوقراطية مسيحية برئاسة الملك .

وكان مقدراً لذهنية المقربين الى دوق بورغونيا ان توسعي بفكرة « تعدد المجالس » في عهد الوصاية ، وبنظريات « بولفيليه » و « منتسكيو » ، وبمعارضة محاكم فرنسا العليا للملك ، وان تلهم كل رجيمي القرن الثامن عشر .



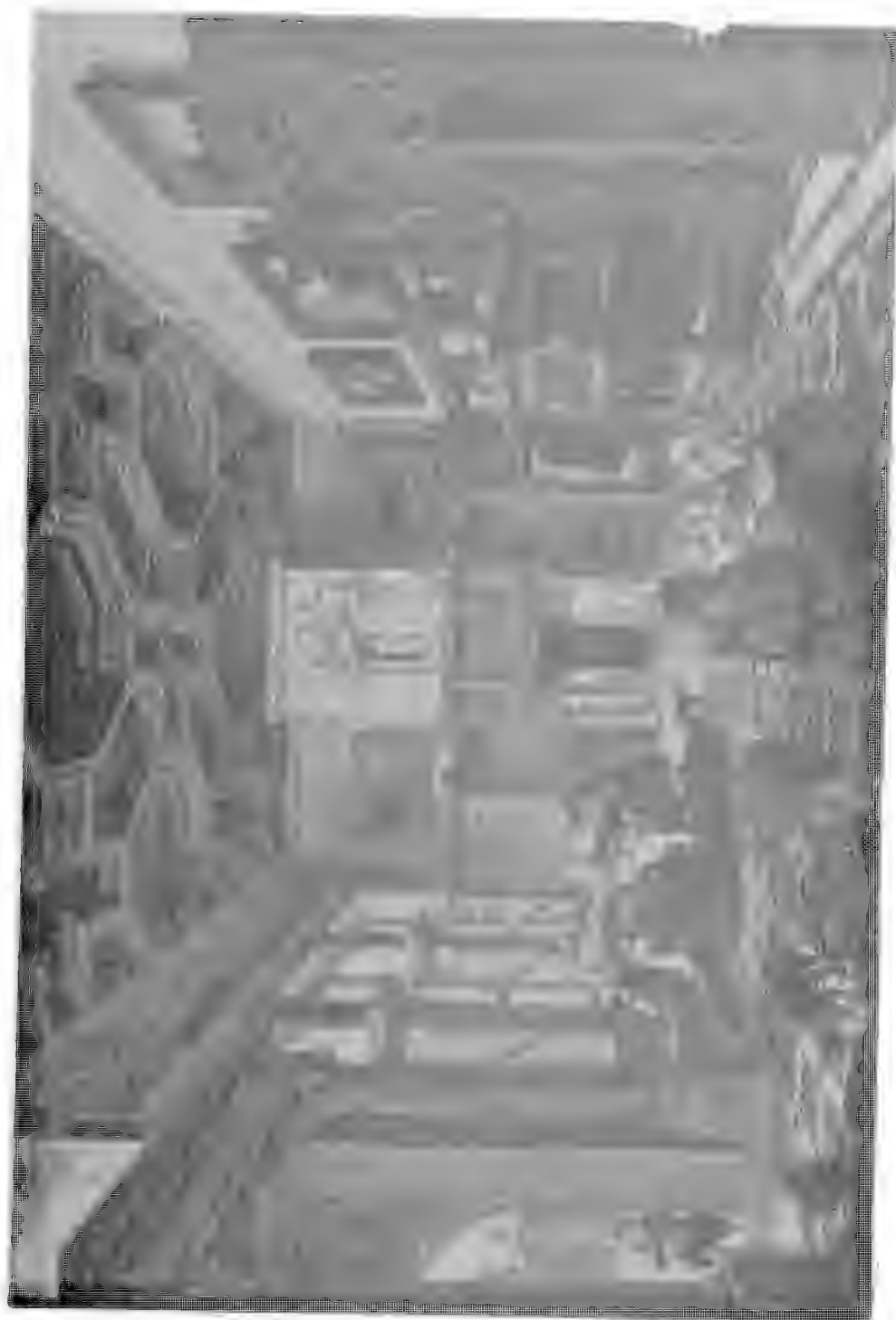
معركة لبنان (٨) - ٨١
(١٩٤١) (١٩٤١)



١٨- مجموع الأسطول الانكليزي على الارصادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨





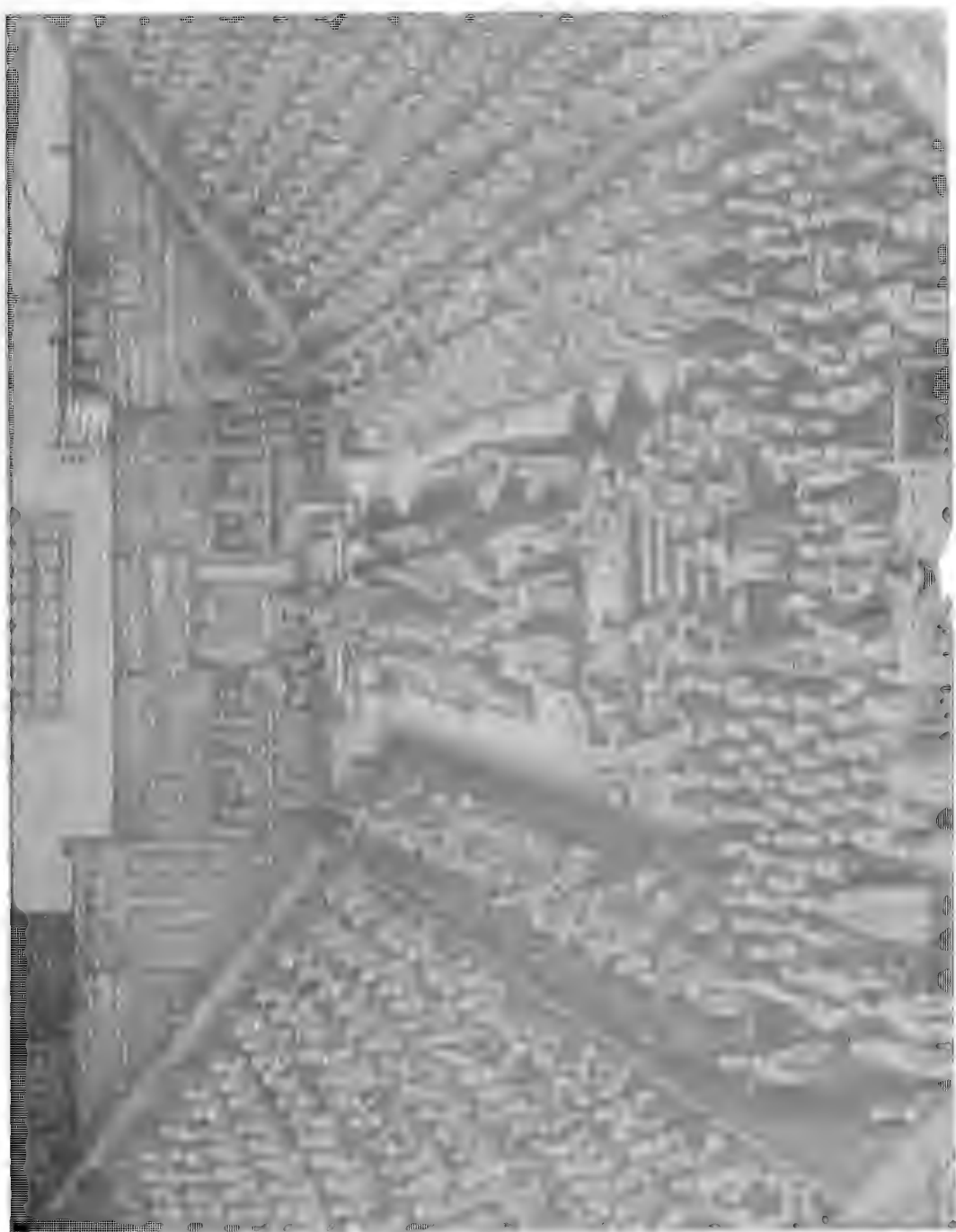


۲۱. داخل منزل سوریجیازی مولندی، نمازخانه القرب السایع عشر.



پارک ملی اسلام آباد





٢٤ - إحدى جلسات البرلمان الاتحادي (١٢ أيار ١٩٤١)

٦٥ - قلعة بينهنوف الكبرى في لاهاي أثناء انعقاد جمعية مجلس الطلبة برئاسة جاكوب كاتس في السنة ١٩٦١





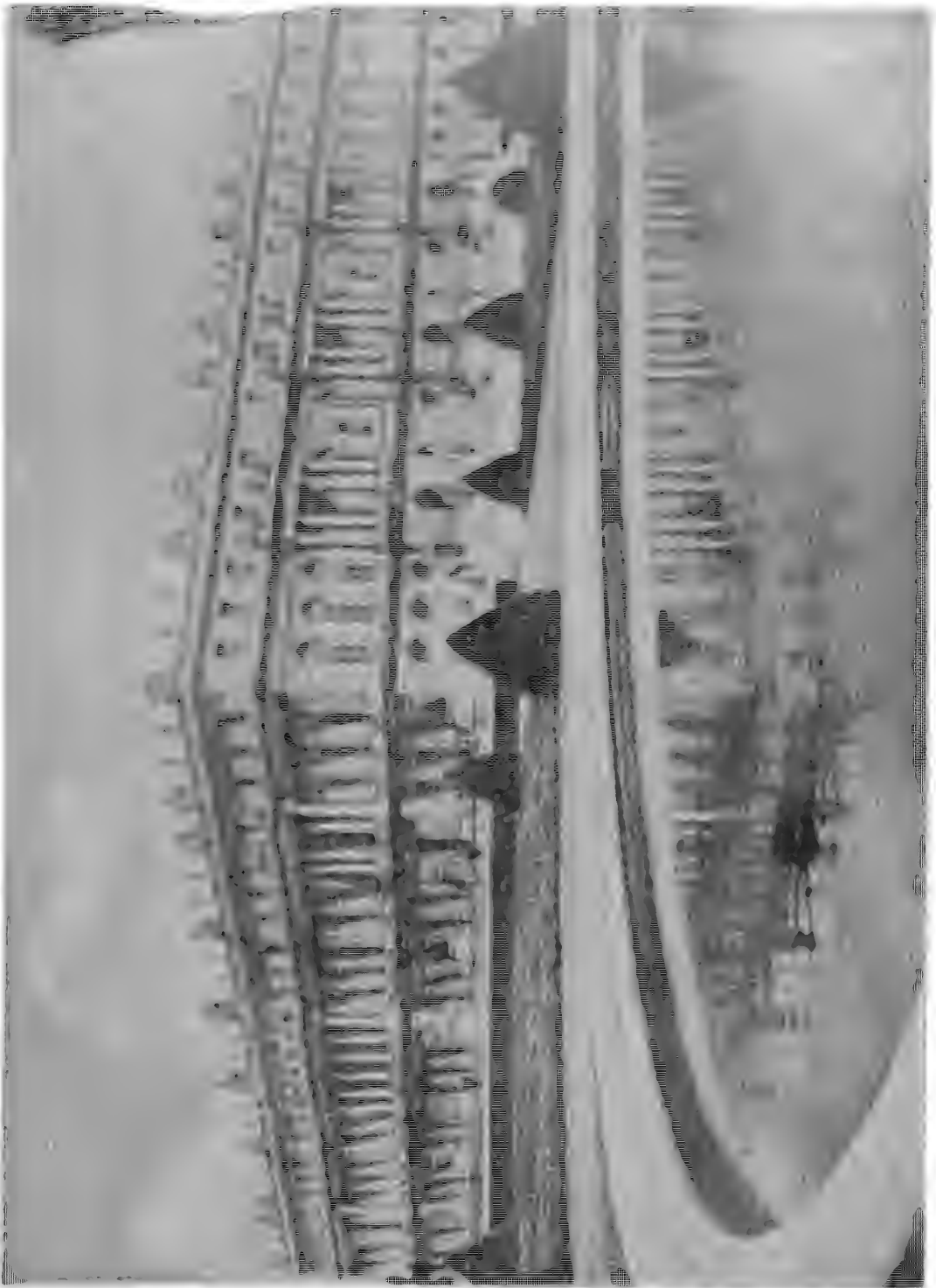


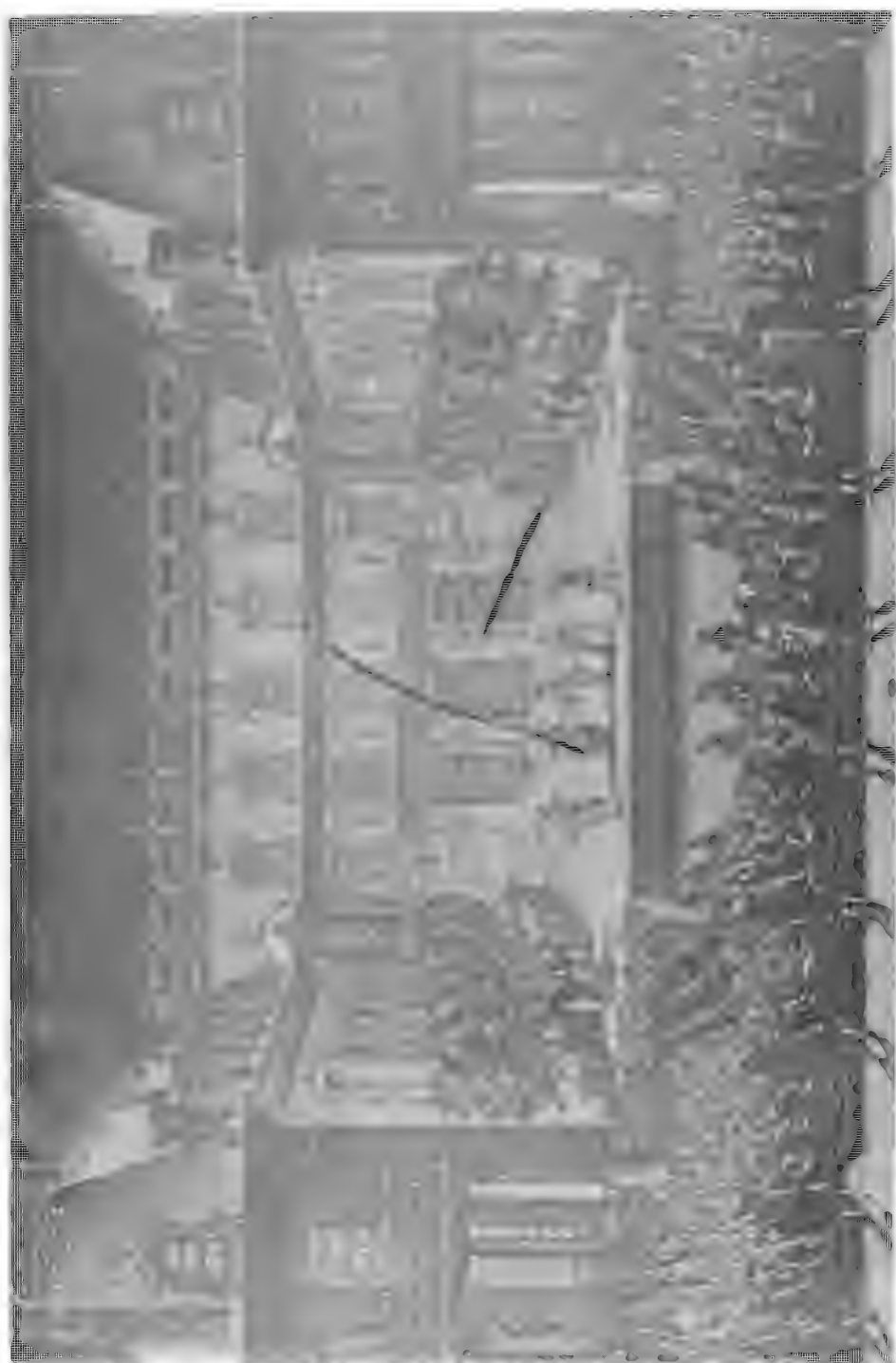
سید



٢٠ - منظر لقصر صربيا في مملكة صربيا - ١٩١٨

٦٩ - قصر قرية في منظر واسع لأوسط مائة مائة من جهة المدينة





٣٠ - القنصل الأول للسفارة الثانية - الست . وكنية . ولوبي . في الجاه في سنة ١٣١٤



الجامعة الإسلامية



٢٦ - رفع سار في قناه مصنع غوبلين الملحي

مبتدعو الانظمة الخيالية
الرومنطيقية السياسية
الديمقراطيون والاشتراكيون

ووضعت مخططات تجديد اجتماعي على ايدي اناس تألموا من
المجتمع واستخلصوا النتائج ، بصرامة كرتزيانية ، انطلاقاً من
معطيات اختارها حسهم .

في « البحث اللاهوتي ، السياسي » ، زعزع سبينوزا اركان
سلطة الكتاب المقدس لان هذه السلطة يستغلها الملوك . ولكن ما يدعوه الملوك ديناً هو الخوف
الذي يريدونه مسيطراً على الشعوب المستعبدة . النظام الملكي هو فن مخافة الشعوب . ان
ما تدعوه الرعية واجب الطاعة هو مصلحة الملك . وهي تعتقد انها تجاهد من أجل خلاصها بينما
هي تضمن عبوديتها . تقوي بدمها سلطة رجل واحد يعاملها معاملة الوسائل ، ويحرمها مبرر
حياتها بحرمانها من الحرية . اما العلاج فهو روح الامتحان التي تظهر ان السلطة تفويض تقبل به
الرعية ، وان الديموقراطية هي أقرب شكل حكم الى الحق الطبيعي ، وان هدف النظم السياسية
هو ان تضمن للفرد حرية المعتقد وحرية الكلام وحرية العمل .

واشاد البارون « دي لاهوتان » بالدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والشيوعية الاصلية .
البربري هو الجميل والنبيل والسعيد : انه ضليع ومشاء وصياد ماهر يقاوم التعب والحرمان وينقذه
جهله من ويلات عديدة . المتحضرون هم البرابرة الحقيقية . ليمش البربري الصالح (١٧٠٣) !

وولدت العلاقات بالبلدان النائية كذلك الف نظام خيالي اوردت في روايات الرحلات
الخيالية . فوصف ونظم الف مجتمع مقبل بالصرامة الهندسية التي تتميز بها روح المساواة . يجب
ان توزع المساكن بمجموعات وان تضم المجموعة ١٦ حياً ، والحي ٢٥ بيتاً ، والبيت ٤ غرف ، وان
يقيم في الغرفة ٤ اشخاص ؛ الشوارع تكون منظمة والبيوت مربعة وذات نط واحد . يجب ان
ترقب الاشجار في حدائق مربعة الشكل بحسب اثمارها المفيدة او اللذيذة الطعم . فتوالى حلم
التنسيق انتقاماً لاغترار الكبرياء وشهوة التسلط .

من لا يهتم بامور الدولة وامور الدين ؟ من لا يصلح هذا او تلك ؟ من لا يلقي درساً على الوزير
والاسقف ، وعلى البابا والملك ؟ وقد حدث ذلك بزيد من السهولة لان الكرتزيانية قد ازدادت
انتشاراً في المجتمعات الاوروبية وحملت معها الى كل مكان روح الارتياح والاستقصاء الحر .
أوليس الرشد خير ما يشترك فيه الجميع اشتراكاً متساوياً في العالم ؟ الا يحمل كل شخص ، في
ذاته ، العقل الشامل ؟ اوليس الانسان اكثر استعداداً لبلوغ الحقيقة بنور الطبيعة كلما قل
درسه وقلت معرفته وقل من ثم « انشغاله » وقلت آراؤه السابقة التكوين ؟ ان حالة ثورة
فكرية دائمة كانت في طور التمحض .

هكذا انتهى القرن السابع عشر بعاصفة هوجاء من الآراء المختلفة . ان قرنا
شاهد البورجوازي يثبت وجوده في وجه البطل والبطانة ورجل الفضيلة ،
والرأسمالية التجارية تتفتح وتزدهر ، والرأسمالية الصناعية تنمو وتتسع ، والروح التجارية

والملكية المطلقة تبلغان كإلهما الخاص ، واشتراكية الدولة ترتسم ، والنظام التمثيلي يرى النور ، ان قرنا شاهد ذروة الاستهجان والكلاسيكية ، شكسبير وراسين ، روبنس وبوسين ، واعطى غاليليو وديكارت ونيوتون ، وعقلية الكية والآلية ، ان قرنا قاطع العقل البشري فيه ارسطو نهائيا وأدرك الكون بالرياضيات والاختبار ، وفتح العلماء والفلاسفة ورجال الدين فيه اللانهاية امام الانسان ووضعوا امام اعينه تقدماً لا حدود له ، ان قرنا انتزع فيه مسيحيون من كل مذهب ، بيروك وباسكال ، وارمينيوس وغومار ، قلبهم الخافق المحتلج كي يمدّوه نحو لانهاية العظمة والقدرة والقداسة والكمال والمحبة ، ان قرنا ربما حقق ابدال النوع البشري ، ان مثل هذا القرن الجدير عن حق وحقيق ان يدعى : « القرن العظيم » .

انتهى بازمة متجددة . ولكنه مدين باخصابه ، الى حد بعيد ، لازماته بالذات . فان الانسان ، في بحثه عن الدواء وصراعه ضد قوى التفكيك والتهديم ، قد حقق المزيد من الاكتشافات في كل الحقول .

افضى هذا الجهد المبذول الى انهاء الفردية . فقد ابرزت الامم والافراد ، بفضل المجاهدة والمنافسة ، الميزات والابتكارات الخاصة ، وتبادلتها واستفاقت بالمقارنة الى ابتكارات جديدة انطلقت منها لتحقيق ابتكارات اخرى . لا ريب في ان الفرد اشد ارتباطاً بالهيئات والجمعيات والعائلة واكثر خضوعاً لسلطانها وتقاليدها وانظمتها من انسان مجتمعات القرن التاسع عشر المتحررة . ولكنه اكثر استقلالاً واقوى شخصية الى حد بعيد من اي انسان في اي مجتمع من مجتمعات القارات الاخرى . ان هذه الفردية ، هذه الحرية النسبية فكراً وعملاً ، هي ما صنعت اخصاب اوروبا وعظمتها وما تتسم بسمة خاصة هي « البحث دونما كلل » .

القسم الثاني

أوروبا والعالم

مدخل

اتصال أوروبا بالعالم

ان الأوروبيين ، الذين انزلوا حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في شبه جزيرتهم الصغيرة والبحار الضيقة المحيطة بها والجزر المنتثرة في هذه البحار ، قد شقوا آنذاك عباب الاوقيانوسات الشاسعة واتصلوا بالعالم . فاقبلت الانسانية على وعي ذاتها .

بدأت « الاكتشافات الكبرى » على ايدي البرتغاليين والاسبانيين الذين ما لبث الفرنسيون والانكليز والهولنديون ان حذوا حذوهم .
كان البرتغاليون السباقين في هذا المضمار لاسباب سياسية ودينية .
اراد الامير « هنري البحار » (١٣٩٤ ، ١٤٦٠) استكشاف شواطئ افريقيا الى الجنوب من مراكش بقية الاهتداء الى مملكة مسيحية اسطورية ، هي مملكة الخوري يوحنا ، ومهاجمة مسلمي مراكش من وراء . أي ان عمله كان امتداداً للحرب الصليبية . اسس هنري في « ساغر » على مقربة من رأس « سان - فنسان » ، مدرسة حقيقية للصلاح اجتذب اليها بحارة جنوبيين وفلورنسيين وفلكيين المانيين . منذ السنة ١٤٠٦ ، تقدم البرتغاليون على طول الشاطئ الافريقي وبلغوا « الرأس الاخضر » في السنة ١٤٤٥ ، وخط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، ورأس الرجاء الصالح في السنة ١٤٨٨ . ولم تكن فكرة مهاجمة الاسلام من وراء غريبة كذلك عن نزول الاسبانيين الى الحلبه . فان هؤلاء ، بعد سقوط غرناطة ، آخر مملكة اسلامية في اسبانيا (١٤٩١) ، قد اخذوا تحت حمايتهم المشروع الذي اعدده كريستوف كولومبوس للبعث في الغرب عن طريق تؤدي الى آسيا . وقد حركتهم كلهم اخيراً حرارة الرسالة والرغبة في اهداء كافة الشعوب النائية المجهولة الى « الدين الحقيقي » .

وكان لاندفاع الأوروبيين اسباب اقتصادية ايضاً لم تلبث ان احتلت مركز الصدارة بين الاسباب الاخرى . افترقت أوروبا للقرن الخامس عشر الى المعدن الثمين . ولم تكن النقود كافية

قط للملكيات وتجارة تتقدم تقدماً كلياً. ذهب الأوروبيون بعيداً في استثمار مناجم أوروبا الوسطى دون ان يتوصلوا الى إرواء عطشهم الى الفضة والذهب. تكلمت روايات اسطورية عن كنوز خيالية موجودة في افريقيا وآسيا التي اصبحت الاتصال بها اشد صعوبة ، بفعل الفتح التركي ، بينما اصبحت هذا الاتصال امراً منشوداً . رغب الأوروبيون في ان يذهبوا بانفسهم للبحث عن الذهب . فكانت اولى نجاحات البرتغاليين الذين قايسوا ، اقله منذ السنة ١٤٤٦ ، النحاس والنيبذ والحنطة والحياد والمنسوجات والسلعة بذهب السودان والعاج والعبيد والفلفل ، بمثابة تحريك جديد للاطباع .

لقد ذهب بعضهم الى ان السبب الاول للاكتشافات الكبرى هو تقدم الاتراك في آسيا الصغرى وحوض المتوسط الشرقي ، وقطعهم طرق التجارة القديمة بين الهند والغرب ، فأرغمت صعوبة الحصول على الافاويه على البحث عن طريق جديدة مباشرة . لا شك في ان حروب الاتراك قد شوت التجارة احياناً ، ولكن الاتراك انفسهم لم يقفوا موقفاً عدائياً من التجارة مع الغربيين . فقد جددوا تكراراً وبملاء رضام المماهدات التجارية مع البندقيين والجنوبيين وتقيدوا بما كانت تنص عليه . وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج الفارسي والبحر الاحمر . وما ان افتتح سليم الاول مصر في السنة ١٥١٤ حتى بادى الى تجديد المماهدات التي كانت الممالك ، اسيا مصر السابقون ، قد عقدوها مع البندقية . وفي السنة ١٥٢٨ ، وقع خليفته سليمان معاهدة مع فرنسوا الاول ، فجاءت السفن الفرنسية تنافس البندقيين في الاسكندرية . لا بل ان الاتراك خفصوا الرسوم التي فرضها الممالك على الافاويه : فجددوها بـ ٥٪ ثم بـ ٣٪ بدلا من ١٠٪ . كلا ، ليس للاتراك اي ضلع في ازمة الافاويه التي نجمت عن ظروف اخرى . فهناك اولا حروب الخلافة التي نشرت الخراب والدمار في امبراطورية الممالك بعد السابع من شهر آب من السنة ١٤٩٦ ، والتي استفاد منها البدو لقطع طرق القوافل . منذ السنة ١٤٩٧ ، اقفلت اسواق القاهرة لان بضائع الشرق قد قطعت عنها . وفي الوقت نفسه انتشرت في ايطاليا ازمة اقتصادية : فانهارت المصارف الواحد بعد الآخر في روما والبندقية . ولعل احد أسباب هذه الازمة الاموال الطائلة التي استقرضتها الدولة البندقية لتأمين نفقات الحرب ضد الاتراك والفرنسيين . وقد يكون هنالك سبب آخر هو الحاجة المتزايدة الى النقد . فان البرتغاليين اخذوا يجمعون ذهب السودان عن طريق شاطئ افريقيا الاطلسي ، فلم يعد يصل بانتظام الى المتوسط كما في السابق . اضاف الى ذلك ان الاضطرابات في مصر قد انقصت حجم الافاويه المستوردة ، وان التجار الالمان انقصوا حجم الفضة التي كانوا يأتون بها من مناجم أوروبا الوسطى الى البندقية . الى هذا ترد افلاسات المصارف . ولكن الاكتشافات الكبرى كانت قد ابتدأت حين برزت هذه الازمات . زد على ذلك ان البرتغاليين لم يتقدموا على طول الشاطئ الافريقي بحثاً عن الافاويه في الدرجة الاولى . فبالاضافة الى الذهب ، كانوا بحاجة الى اليد العاملة ، الى عبيد ، الى الملونات لمنسوجاتهم ،



- ١ - طرق بحرية
- ٢ - ايراح
- ٣ - تيارات
- ٤ - الخط الفاصل بموجب
- ٥ - معاهدة تورديسيلاس
- ٦ - معاهدة ساو أغوستا
- ٧ - الخطوط الفاصلة بين الأسبانيين والبرتغاليين
- ٨ - التوقيع من بين الأشياء الأخرى
- ٩ - أهم الطرق البحرية في القرن السادس عشر

النيلج ، العظم ، « دم التنين » ، والى المواد الغذائية التي كانوا بحاجة دائمة اليها ، القمح ، السكر ، السمك . ولكن نجاحات الاتراك ربما لعبت دوراً سيكولوجياً . فيبدو ان هجوم الاسلام الكبير الواسع قد ولد في كافة العالم المسيحي قلقاً مقضياً جماعياً وزاد في تصميمه على ضرب المسلمين من وراءه .

بدأت مغامرة ما وراء الاوقيانوسات على ايدي البرتغاليين والاسبانيين . وقد دفع هؤلاء واولئك اليها ثلاثة بواعث : الانجيل والمجد والذهب . وهؤلاء واولئك كانوا صليبيين في الدرجة الاولى بعد صراع ضد المغاربة استغرق ثمانية قرون الاستعمار هو الطريق الاوقيانوسية للحرب الصليبية . يستمد له بالصلاة ، على غرار خدمة الفروسية . وتُحقق الفتوحات « كي يحارب الاسبانيون ابداً ضد غير المؤمنين واعداً ايمان المسيح المقدس » (غومارا) . فان « دياغو فيلاسكيز » ، حاكم كوبا ، حين زود فرناندو كورتيز بتعليماته ، عين له هدفاً اولاً من فتح المكسيك خدمة الله ونشر الايمان المسيحي . يجب ان لا يضاع اي ظرف يتيح التبشير بايمان كنيسة الله الحقيقي . هذه هي وصية فيلاسكيز الوحيدة التي لم يخل بها كورتيز قط . حمل البريق هذه الكلمات باللغة اللاتينية : « ايها الاصدقاء ، فلنتبع الصليب ، اذا كنا مؤمنين ، فهذه العلامة سننتصر حقاً » . وان هذا الدبلوماسي الماهر قد عرض عمله اكثر من مرة للخطر بتسريعه في تحطيم اصنام الوثنيين وارغام هؤلاء على اعتناق الدين المسيحي . ولكن الحرب الصليبية كانت قد عودت المسيحيين تصور نشر الدين المسيحي بشكل الحرب وافناء غير المؤمنين او اخضاعهم .

غالباً ما كان البرتغاليون والاسبانيون اشرافاً ريفيين واشقاء اباكار العائلات النبيلة في المناطق الفقيرة . وكان جلهم من الجنود المتهنين . كما ان العديد من جنود جيوش الفتح الاسباني اصبحوا احراراً في اعقاب الاستيلاء على غرناطة . مثاهم هو « خوان موغولون » ، « الفسارس » ، ابن الفارس ، المولود في « كاسيرس » في مقاطعة « استرامادورا » ، الذي خدم في الجيوش الملكية على التوالي في ايطاليا والمغرب حيث اشترك في الحملات العسكرية واعمال الحاميات في جربا والجزائر وأسهم في فتوحات فلوريدا وفنزويلا والبيرو ووصل اخيراً الى المكسيك بعد خدمة احدى وثلاثين سنة في الجندية قضى منها اثنتين وعشرين في الهند . ولم يكن الكثيرون ايضاً سوى رعاة فقراء ويتامى واولاد عائلات فقيرة رافقوا الجنود ثم غدوا جنوداً بدورهم . ولكنهم كلهم ادعوا وطالبوا بحمل لقب « هيدالغو » ، اي اشراف ريفيين ، وسمعوا وراء تحقيق مثل الفروسية . كلهم غادروا بلادهم تحرّكهم رغبة في تحقيق عظام الامور . واتهم البرتغاليون بانهم اعتقدوا بان العالم انما خلق لاجلهم وبانهم يريدون بسط سيطرة شاملة . اما الاسبانيون ، فقد كتب عنهم مواطنهم « ميشال سرفيه » : « ان روح الاسبانيين قلقة وتسعى وراء المشاريع الكبرى » ، وذكر « برنال دياز دل كستيلو » في تقريره عن فتح المكسيك ، انه ورفاقه كانوا يحملون بالتفوق على الرومان انفسهم ، بومبيوس وقيصر ، وعلى هانيبعل نفسه ،

اعظم قائد عرفته العصور القديمة . ولكن ما أسهم في احياء مثل الفروسية ، في عهد الاستعمار ، هو روايات الفروسية قبل دراسة الآداب القديمة . ففي اواخر القرن الخامس عشر قسام بعض الكتبة من جهة بصهر الموضوعين القصصيين الكبيرين : موضوع شارلمان ورولان وموضوع روايات الطاولة المستديرة ، ومن جهة ثانية ، نشرت الطباعة هذه الروايات . فان اول كتاب مطبوع عن الفروسية ، في اسبانيا ، طبع في فالنس في السنة ١٤٩٠ ، وهو كتاب « تيرانت الابيض » الذي كان موضوعاً باللغة الكاتالونية . وترجمت عدة روايات فرنسية الى اللغة الاسبانية وطبعت في الفترة نفسها . واخيرا احزرت قصة « اماديس غاليا » لاسباني « مونتالفو » ، في السنة ١٥٠٨ ، نجاحاً قلما عرفته قصة اخرى في عصر من العصور . واتبعه المؤلف بملحق في السنة ١٥١٠ ، هو « مآثر اسبلنديان » . ونشر اكثر من خمسين رواية فروسية حتى السنة ١٥٥٠ عرضت كلها على القارئ ، وكأنها قصص حقيقية ، دارت حوادثها ابداً في بلدان ثائية ، في جزر مسحورة ، ملأى بالوحوش الغريبة والكنوز الاسطورية . وكان بطلها ابداً فتى شجاعاً ذكياً جليلاً ينتصر وحده في النهاية على كافة الاعداء ويتغلب على كافة الصعوبات ويجمع الثروات ويتزوج من اميرة جميلة كالقمر ويصبح ملكاً . فعرفت نجاحاً منقطع النظير . ان السفراء والقادة ورجال الدولة والامبراطور شارل الخامس نفسه كانوا ينقلون ابداً روايات فروسية بين امتعتهم . قرئت بصوت عال في المحارات ، وفي المزارع للحمصادين ، وفي المعسكرات للجنود . فكم رواية تظهر لنا محاربين بلغوا البطولة بفضل امثلة قصص الفروسية اكان « الفاتحون » متشربين بها . وقد جاء في تقرير « برنال دياز دل كستيلو » ، حين رأى هو ورفاق كورتيز بحيرة مكسيكو ، المأوى بالجزر ، للمرة الاولى ، ما يلي : « ما ان رأينا كل هذه المدن الالهة بالسكان ، في المياه ، وسكان آخرين كثيرين في اليابسة ، وتلك الطريق المستقيمة الممهدة التي تؤدي الى مكسيكو حتى بلغت منا الدهشة كل مبلغ . فقلنا ان ذلك اشبه بالاشياء السحرية التي يرويها كتاب « اماديس » بسبب الابراج الكبرى والابنية المنتصبة في المياه » . وفي « مآثر اسبلنديان » ، عاد مونتالفو الى اسطورة « الامارون » ، تقودهم الملكة « كالافيا » ، كما يقول ، ويعشن في جزيرة تدعى كاليفورنيا . هذه الجزيرة شهيرة بوفرة ذهبها وفضتها . تقع « الى يمين الهند » من جهة الفردوس الارضي . وتعني « الى يمين الهند » الشمال الغربي بالنسبة لاناس آتين من اوروبا . وقد جاء في تعليمات « دون دياغو فيلاسكيز » حاكم كوبا الى فرناندو كورتيز ، بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٥١٨ . في البند ٢٦ ، ما يلي : « عليكم معرفة مكان وجود الامازون اللواتي يقول عنهن مرافقكم من الهنود انهن لسن ببعيدات عنهم » . واثناء الحملة على « غريمالفا » في « بوكاتان » ، دون احد الكهنة ، في شهر ايار ١٥١٨ ، ما يلي : « سرنا والشاطئ حيث صادفنا برجا جليلاً جداً مشيداً على أحد الرؤوس . يقال انه مأهول بنساء يعشن دون رجال . يعتقد بانهن جلس الامازون » . وكتب كورتيز في رسالته الرابعة الى الامبراطور ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٥٢٤ ، ما يلي : « يؤكد اسياذ ولاية « سيفواتان » انهم رأوا جزيرة مأهولة كلها بنساء ليس بينهن رجل واحد ، وان هذه الجزيرة تقع على مسيرة عشرة أيام من ولايتهم ، وان الكثيرين منهم ذهبوا

اليها ورأوها . ويقولون كذلك انها غنية جداً بالآلئ والذهب . سأسعى جهدي لمعرفة الحقيقة وارفع بها تقريراً مسبباً لجلالتكم » . واستهدفت عدة حملات بعد ذلك بلاد الامازون . وفي اسبانيا اصبح الاشتراك في البحث عن الامازون يعطي الحق بحمل الوسام . وبموجب مرسوم صادر في حزيران ١٥٣٠ ، انعم الملك على الفاتح « جيرونيمو لوبيز » بترس اعترافاً منه ببسالته . وقد جاء في تعداد الخدمات التي اوردتها تبريراً لهذا الامتياز « ثم ذهبتم نحو الشمال بحثاً عن الامازون » . ان اسعار الخيالات بروايات الفروسية كان من ثم احد الظروف الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس امبراطوريات شاسعة جداً ، بالنسبة لتقنيات ذلك العهد ، وسعت توسيعاً مطرداً « بالسيف والبركار اكثر فأكثر واكثر فأكثر » (شعار الضابط « برناردو دي فارغاس ماشوكا ») .

اما الذهب فكان الحصول عليه شغل الاوربيين الشاغل . فقد كتب برنال دياز دل كستيلو :
جئنا الى هنا كي نخدم الله والملك ، ولكننا حثنا كي نصبح أغنياء ايضاً . واطفاً التكالب على الذهب عند بعضهم كل عاطفة اخرى . فقد أجاب « فرنسوا بيزار » راهباً اخذ عليه سرقة الهنود واهمال تبشيرهم بالله ، بقوله : « لم آت لمثل هذه الاسباب » ، انما اتيت لاستولي على ذهبهم » .

جابه البرتغاليون والاسبانيون صعوبات الاستعمار في ما وراء الاوقيانوسات وتقلبوا عليها بفضل النظم الاجتماعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وبفضل سلسلتين من الاختبارات الاستعمارية : اختبارات استرداد اسبانيا واختبارات الاستعمار الاوربي في المتوسط والبحر الاسود خلال القرون الوسطى . كان الفتح مشروع توصية نهض به « الاقارب » و « الانساب » من جهة ، و « المتفانون » او « المعالون » ، اي « الخلائق » من جهة ثانية . ورافق الضباط الاسبانيين الذين ذهبوا الى الانتيل ، ثم الى المكسيك والبيرو ، عدد كبير من افراد عائلاتهم ممن عاشوا في مساكنهم وعلى موائدهم ، خدموم وشاركهم مكاسب الفتح . فقد احاط به « الونسو بيرابرا » ستة عشر شخصاً من اخوته واعمامه وابناء اعمامه اشتركوا كلهم في الاستيلاء على مكسيكو . واحاط كذلك بكل هؤلاء الضباط « خلائق » وفيه يتعهدونها وتخدمهم بتفان مطلق . في البدء احيط بها القائد العام . فكورتيث كان « معال » « دياغو فيلاسكيز » اولاً . ولكن « الخلائق » بدورها تعهدت « معاليها » . فان « الفارو دي براغامونتي » قد آوى باستمرار بين عشرة وخمسة عشرة رجلاً وفر لهم سبل العيش والاسلحة والمطايا مقابل خدماتهم المنزلية والمكرية . فتكونت من ثم فئات تسلسلية الدرجات قوية جداً من الاوفياء الخالص . توجب على كل فرد ان يسهم بما يستطيع الاسهام به . القائد يقدم رؤوس الأموال والسفن والمدافع . الآخرون يقدمون ما تسمح لهم به امكانياتهم . أما الفقراء فيقدمون سيوفهم والمؤن التي يحتاجون اليها في الطريق . وبعد الفتح ، يكون نصيب الفرد نسبياً لاسهامه . استمرت هذه الفئات الاجتماعية في المستعمرات طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكان نواب

الملك خلافتي احد اعضاء مجلس الهند . يصلون الى مراكز ولايتهم محاطين بالانساب حتى الدرجة الخامسة . يعينونهم حكماً ومستنطقين وقضاة . وكان هؤلاء بدورهم خلافتهم التي يسندون اليها الوظائف . وكان لديهم بالاضافة الى ذلك اناس يؤمنون لهم القوات والسكنى مقابل مواجبهم لهم في حلهم وترحالهم . وكانت الحاشية الكبيرة سبيلا للظهور واثبات الوجود . فيتضح من كل ذلك ان مجتمع العوالم الجديدة قد اقتبس اعرافاً اوربية قديمة جداً .

جرى تقاسم الفنائم واستغلال المهزومين وفاقا لطرائق اقتبست عن حرب الاسترداد . فبعد انتزاع اقليم من ايدي المسلمين ، كان المنتصرون يتقاسمون الاراضي والحقوق . والمقصود بالحقوق هو حق المنتصر في فرض الجزية واعمال التسخير على المغلوبين في ارض معينة ، شريطة تعهد المستفيد من هذا الحق بالخدمة العسكرية ونشر العبادة المسيحية . وحصل المنتصرون كذلك على املاك واسعة وارقاء كثيرين ، ارقاء مغاربة ، وارقاء برتغاليين واسبانيين من معتنقي الدين الاسلامي ، وارقاء زوج بيتاعونهم بواسطة المسلمين . لذلك كانت الاملاك الواسعة المملوكة للعبيد مألوفة لدى البرتغاليين والاسبانيين قبل فتوحات ما وراء الاوقيانوسات بزمان طويل . اضاف الى ذلك ان عدد الارقاء قد بقي مرتفعاً في اوروبا القرون الوسطى ، في ايطاليا ، وفرنسا الجنوبية ، واسبانيا والبرتغال . وكالوا يستوردون من المستعمرات الإيطالية في البحر الاسود خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ومن شواطئ افريقيا منذ « هنري البحار » . وكان الاوروبيون قد الفوا استخدام اليد العاملة العبدية في مؤسساتهم الاستعمارية في ازمير وآسيا الصغرى وفلسطين و « كريت » و « كيو » وحتى في شبه الجزيرة الإيطالية . وشبه الجزيرة الايبيرية . فنقلت كل هذه الاعراف والانظمة الاجتماعية الى ما وراء الاوقيانوسات .

واخيراً اقتبس البرتغاليون والاسبانيون الاختبار الاستعماري عن الايطاليين ولا سيما الجنوبيين في اساكل الشرق الادنى وفي البحر الاسود . لقد انعم الجنوبيون الشركات الاستعمارية منذ السنة ١٣٤٦ واقتنوا دقائق تقنياتها كما اقتنوا تقنية احتلال الارض في البلاد المحتلة . وصادف ان جنوى فقدت مستعمراتها في اساكل الشرق الادنى في الوقت نفسه الذي بدأت فيه الحملات الاسبانية والبرتغالية . فانضم الى هذه الاخيرة عدد من الجنوبيين . وكان للجنوبيين من جهة ثانية مؤسسات هامة في لشبونة واشبيلية . فأخذ البرتغاليون منذ السنة ١٤٥٤ يطبقون اساليب الاستعمار المتوسطي على العالم الاوقيانوسي ، فأنشأوا امبراطورية استعمارية هي امبراطورية الشمال الغربي الافريقي والجزر التابعة له : مناطق مراكش الغربية ، والساحل الصحراوي ، والشواطئ السودانية ، وجزر « ماديرا » و « الأماور » و « الكناري » و « الرأس الاخضر » . فتوصلوا بفضل قواعدهم البحرية في « أسفي » و « زامور » و « ارزلا » والقصر الصغير الى فصل الامبراطورية الشريفة عن البحر . وفتحوا الطريق الى « اوقيانوسات الحبوب » المراكشية والى « سوسة » التي يصل اليها الارقاء الزوج من « النيجر » ، والى التبر السوداني وسكر سوسة وماديرا . وضمنوا بذلك سلامتهم . كما اشترك الفلنكيون والانكليز والنيرلنديون والفرنسيون

كساحمين في مشاريعهم ، وكانوا على اتصال دائم بها . فيتضح من ذلك ان اوربا اختبرت الاستعمار منذ امد طويل في العالم القديم فنقلت خبرتها الى العوالم الجديدة .

ان اقصى جنوبي غربي شبه الجزيرة الاسبانية ، اي الشاطئ الممتد من لشبونة الى جبل طارق هو ما لعب في البدء ، ولمدة طويلة ، الدور الاستعماري الاول . فهنا تتوفر بالتعاقب الريح اللازمة لبلوغ السفن عرض البحر ، حتى موعد هبوب الرياح بين دائرتي الانقلاب ، عند انقلاب الشمس الصيفي ، والرياح اللازمة للعودة الى اسبانيا في فصل الخريف . وهنا يوجد الملاحون المدربون على تسيير السفن نحو الجزر البرتغالية ، وملاحو « الفارف » البرتغاليون وملاحو موانئ « نيابلا » و « بالوس » و « مغير » وبجارة « الوادي الكبير » واشيلية و « سان لوكار كاديذ » . وقد استفادت هذه الموانئ الاخيرة من محور مواصلات الاندلس ومن ثروة السهل الزراعية فانتهت الى احتلال المركز الاول من الجهة الاسبانية ، كلشبونة على مصب نهرها الواسع من الجهة البرتغالية . فتأسس احتكار عملي اثبتته القانون .

سار البرتغاليون والشاطئ الافريقي وفي نيتهم تغيير سيرهم نحو الشرق حالما يستطيعون الى ذلك سبيلا والاتجاه بعد ذلك شطر آسيا . اما كريستوف كولومبوس ، فقد سار في السنة ١٤٩٢ باتجاه الغرب بغية بلوغ آسيا بعد دورة حول الارض . كان التعمق في درس مؤلفات المصور القديمة قد ادى بالعمل الى حدوث نهضة في الرياضيات وعلم الفلك منذ اواسط القرن الخامس عشر . ففي « بادوا » و « فراري » والبندقية ، عند الفلورنسي توسكانلي ، وفي فيينا ، مع بورباخ (١٤٢٣ - ١٤٦١) ، وفي نورمبرغ ، مع تلميذه « ريچيو مونتاناوس » (١٤٣٦ - ١٥١١) ، وفي « ساغر » ، بين اعضاء المجلس الذي الفه جان الثاني ملك البرتغال (١٤٨١ - ١٤٩٥) والذي عمل فيه « مارتن بيهام » من نورمبرغ ، رسخت آراء الاقدمين حول كروية الارض . وقد ساد الاعتقاد من جهة ثانية بان آسيا غير بعيدة من جهة الغرب بسبب خطأ ارتكبه بطليموس في تحديد المتوسط بالاتجاه الشرقي الغربي وتقدير طوله بستين درجة . فعسب الناس ان آسيا توجد حيث تقع اميركا . وقد انتشرت هذه الآراء وامت . فاستطاع كولومبوس الاتفاق مع بعض البحارة ، الاخوة (بنزون) ، الذين كانوا قد فكروا بدورهم بمشروع بلوغ آسيا من جهة الغرب .

منذ هذا التاريخ ، وحتى القرن التاسع عشر ، اعتمدت اوربا على البحر في الدرجة الاولى للاتصال حتى ببلدان العالم القديم . ولا غرو فان القوة اللازمة لنقل الوزن نفسه هي بنسبة ١ في البحر ل ٣٥ في البر . فالببحر حر وخال من جميع العوائق ، كالاحراج والمستنقعات والصحاري والجبال العالية واعتمادات السكان ، التي تزيد كلها من مشقة وخطر الاستكشافات والاسفار البرية .

تفوق السفينة الأوروبية هم الأوروبيون وحدهم من حلّسوا مشاكل الملاحة عبر الاوقيانوسات. وقد ولد الفن البحري القادر على قهر المسافات البحرية الطويلة في ثلاثة مراكز : مركز الزورق المصنوع من جذع شجر مجوف والمزود برقاص (بين جزيرة مدغشقر وجزيرة الفصح) ، ومركز السفينة الشراعية المستوية القعر (في بحار الشرق الاقصى) ومركز السفينة ذات الحيزوم (في بحار اوروبا) . ولكن منطقة الزورق ذي الرقاص قد افتقرت الى الحامات والحركة التجارية فعال ذلك دون تقدمها . زد على ذلك من جهة ثانية ان الزورق ذا الرقاص لم يكن قادراً على السير بمنة وبسرعة لمقاومة الريح . واذا ما استثنينا المساحلة بين جزيرة واخرى ، التي قد تغطي مسافات طويلة على كل حال ، فان فائدة هذا الزورق تنحصر في الهرب على غير هدى امام خطر كبير ، دون امل بالعودة .

كانت السفينة الشراعية المستوية القعر قادرة على قطع المسافات الطويلة . فقبل وصول الأوروبيين بحراً ، بلغت اساطيل الدولة الصينية ، بين السنة ١٤٠٣ والسنة ١٤٣١ ، الجزيرة العربية ومضيق اورموز . ولكن طاقة حضارات الشرق الاقصى على التوسع والانتشار كانت محدودة وضئيلة لاسباب اجتماعية ودينية . في اواخر القرن الخامس عشر ، طرأ على التجارة الصينية تقهقر ملموس . اما السفينة الشراعية نفسها فلم تخل من مساوئ كبرى . فقبل وصول (فاسكو دي غاما) (١٤٩٨) و (البوكرك) (١٤٠٣) ، كان الصينيون لا يزالون يستعملون دفعة اشبه بالمخفاف . لذلك لم تتمكن من المياه ، وكانت ادارتها عملاً شاقاً ، فقدّر للسفينة ان تبقى صغيرة وان لا تسير بالاشرعة الا اذا دفعتها الرياح من الراء . فاقصر عملها على المساحلة وعلى الرحلات المباشرة ، بفضل الرياح الموسمية الشتوية ، بين الصين وجزر « السوند » ، وبفضل الرياح الموسمية الصيفية بين « السوند » والشواطئ الصينية . وحين شاهد الصيّدون الدفة المحورية الأوروبية ذات المفصلة المعدنية ، حاولوا النسخ على منوالها . ولكن تأخر صناعتهم المعدنية لم يتح لهم استعمال المفصلة . فارغموا على الاكتفاء بدفة محورية ذات مدار خشبي هي دون الدفة ذات المفصلة بسبب احتكاك الخشب بالخشب وهشاشتها النسبية . الا ان حجم السفينة الشراعية قد تضخم . فبلغ محمول السفن التجارية ١٢٠٠ طنة مع أربعة الى ستة صوار و ١٠٠ الى ١٢٥ بحاراً و ٢٠٠ الى ٤٠٠ مسافر . وتمكن الصينيون ، اكثر من السابق ، من الاستفادة من سهولات قيادتها ، فان قمرها المستوي يتيح لها الدوران كالخندوف ، ودخولها المحدود في الماء مناشب جداً على مقربة من مصاب أنهر الشرق الاقصى ، واشرعتها الحصيرية المركبة على عوارض خيزرانية افقية متعاقبة سهلة التحريك على غرار مصاريع النوافذ المتحركة ، ومن السهل كذلك تضيق وتوسيع مساحتها برفع او خفض الدوئل العلوي فقط لان العوارض يستقر بعضها على البمض الآخر على التوالي اذا خفض الدوئل فلا تدفع الريح اذ ذاك سوى القسم العلوي من الشراع ؛ يضاف الى ذلك اخيراً ان هذا الشراع المشدود الملصق بالصاري يتجه من ذاته حين تبدل السفينة اتجاهها وانه يسمح بحصر الريح اكثر من الشراع اللاتيني . ولكن هذه السفينة

الشراعية ، بسبب اشكالها المسطحة التي جعلتها تزليخ عن طريقها ، وبسبب صعوبة استعمال دفتها التي كان يقتضي لتحريكها بين ستة وثمانية ملاحين ، وبسبب ضعفها من جراء تكرار انقطاع ردنّها ، قد بقيت في الدرجة الاولى سفينة تسيّر بالريح الهابة على اشراعتها من الوراء ، كما بقي استخدامها محصوراً في مناطق الرياح الموسمية ولا سيما في الشرق الاقصى .

هي السفينة الأوروبية وحدها ما توجهت الى كل مكان . فقد كان للدفة المهورية ذات المفصلة ، التي ابتكرت في القرن الثالث عشر ، اثرها العظيم في الماء بفضل مساحتها العريضة . كما ان ذراع الرافعة من جهة مدير الدفة قد ضاعف قوة الرجل ، وقد عرف الأوروبيون ، خلال القرن السابع عشر ، كيف يركبون الملفاف على الدفة التي زودت منذئذ بدولاب سهل الادارة . غدت قياسات الدفة غير محدودة فازدادت قياسات السفن والاشرعة حين توفر الخشب لذلك . وابتكر البرتغاليون ، في القرن الخامس عشر في الاربع ، السفينة المزودة بعدة مزدوجة : اشرعة مربعة للريح الهابة من الوراء ، واشرعة لاتينية لمقاومة الريح المعاكسة ، وهي عدة اتاحت اجتياز الرياح الهابة بين دائرتي الانقلاب من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . اُضيف الى ذلك ان حيزوم السفن واشكالها الدقيقة قد اتاحت لها مقاومة التهور والحيدان عن الطريق ، والسير بالتالي بينة ويسرى في اقرب التجاه الى التجاه الريح المعاكسة . سار كولومبوس بالتجاه يؤلف مع التجاه الريح ٦٧°٥ درجة . فكان بمقدوره ، اذا ما سار على التوالي بينة ويسرى ان يمتاز الريح المعاكسة . وقد تمتعت هذه السفينة ، حيال الريح ، باستقلال يوازي استقلال السفن الشرعية الكبرى في القرن التاسع عشر . وكان طبيعياً ان تدور بصعوبة ولكنها كانت تدور بأمان وبسهولة . فتطورت السفينة الشرعية الأوروبية وفقاً لهذه المميزات . واعتمدت في النهاية الاشرعة المربعة لان الدفة واشكال السفينة قد اتاحت السير في اقرب التجاه الى التجاه الريح المعاكسة ، ودونما صعوبة تذكر . حمل كل من الصاري الامامي والصاري الكبير من اسفل الى اعلى ، شراعاً منخفضاً ، وسطحاً مستديراً ، وشراعاً مربعاً . واحتفظ صاري مؤخر المركب بشراع لاتيني تسهلاً للحركة . وحمل الصاري الكبير المائل على مقدم السفينة شرعين . وكان هذان الاخيران مع شراع صاري المؤخر يساعدان على تدوير السفينة كما لو كان ذلك بحركة رافعة . اما الكوئل ، الذي كان مربعاً في اوائل القرن السادس عشر ، فقد استدار اسفله منذ السنة ١٦٣٥ في انكلترا ، ومنذ السنة ١٦٧٣ في فرنسا ، ومنذ السنة ١٧٢٠ في البلدان الشالية ، لان كل انقاص غير مدروس يطرأ على القطع يحدث الدراير ويزيد من مقاومة المياه . فسيطرت السفينة الأوروبية على البحار ، وفي القرن السابع عشر بات المركب المثلث الصواري ملك الاوقيانوسات .

ان الأوروبيين وحدهم عرفوا كيف يحددون ، بضبط كاف ، نقطة مسألة تحديد المكان الانطلاق والاتجاه الذي يسرون فيه ونقطة وجودهم في وقت معين في عرض البحر ، ونقطة الوصول ، وكيف يمطون هذه المعارف قيمة شاملة بنقلها من جيل

الى جيل بأساليب كانت في متناول عقل كل انسان . لم يستخدم الصينيون البوصلة بل استرشدوا النجوم . وهكذا فعل البولنديون الذين تميزوا ، بالإضافة الى ذلك ، بتلك الفطرة البدائية الغريبة الغامضة التي استطاعوا بفضلها ، في بحارهم ، ان يسبروا في الاتجاه المقصود دون ان يروا اي شاطئ . ولكن الأساليب بقيت اختبارية ، ذات قيمة محلية فقط ، غير محددة وصعبة النقل الى الاجيال اللاحقة .

ووجهت مسائل الملاحة أول ما ووجهت حين تخطيطي خط الاستواء في السنة ١٤٧١ ، فتعدرت الاستفادة من النجم القطبي لتعيين العرض ، اي المسافة بالنسبة الى خط الاستواء ، ثم حين بلغ « برتلي دياز » ، في السنة ١٤٨٦ ، خط العرض الجنوبي ٢٦ ، اثناء سيره بمحاذاة الشاطئ الافريقي ، فعاد عنه لتجنب الارياح والتيارات المعاكسة ، وامتطى عرض البحر عدة ايام فنبهته حالة البحر والجو الخاصة الى انه لم يعد في حى افريقيا ، فصعد نحو الشمال بعد ان دار حول رأس الرجاء الصالح دون ان يراه ، واعطى بذلك اول مثل اكيد لامتطاء عرض البحر في التاريخ المعاصر .

الأساليب في اواخر اعتمد الربانة ، في ملاحظتهم ، « على التقدير » في الدرجة الاولى ، القرن الخامس عشر لمعرفة الطريق التي قطعوها والنقطة التي بلغوها . وقد قدروا سرعة السفينة بالمراقبة ، اي بالنظر الى مرور المياه امام جانب المركب . وتوجهوا بواسطة ابرة ممغنطة مركزة على عوامة في حوض مليء بالماء . ولمعرفة مكان وجودهم ، جمعوا بين الدلالات السابقة . ورسخوا على الخرائط « طرقاً وابعاداً » ، تتيح لهم معرفة العرض والطول . ولكن الدلالات كانت تقريبية ، بسبب الانحراف الممكن عن الاتجاه المعين ، فكان الاسلوب غير ذي جدوى للرحلات الطويلة . فرسم الربانة في هذه الحالة على الخرائط « طرقاً وارفعاعات » ، وخطوط عرض وحسبوا كل يوم نقطة وجود المركب على خطوط العرض . كان هذا الاسلوب معروفاً منذ المصور القديمة في نصف الكرة الشمالي . والمفروض هو ان يكون النجم القطبي في سمت الرأس (٩٠ درجة) بالنسبة لمراقب يشاهده من القطب ، وبمستوى الأفق بالنسبة لمراقب يشاهده من خط الاستواء . فيكفي من ثم تحديد الزاوية التي يؤلفها مع الأفق الخط الذي يصل عين المراقب بالنجم القطبي لمعرفة العرض . واستخدم الربانة « الاسطرلاب » ، وهو دائرة مقسمة الى ٣٦٠ درجة ومزودة بمضادة متحركة ينتقل احد طرفيها فوق التداريج ، وبصفيحتين عموديتين مثبتتين في كل من طرفي المضادة فتحت فيها خلسة لتصويب النظر . اما « الربع البحري » الذي استخدم منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر فكان جهازاً يمثل ربع الاسطرلاب . ولكن نسبة الخطأ في هذه الاجهزة بلغت بين ٤ و ٥ درجات . لذلك استخدم « القوس » الذي ابتكر في القرن الرابع عشر ، وهو سهم خشبي مدرج يتزحلق عليه عدد من المطارق ويصوب النظر بواسطة النجم القطبي . فتراوحت نسبة الخطأ بفضل بين ١٢ و ١٥ دقيقة فقط . الا ان الربانة ، بالإضافة الى اخطاء

التصويب بسبب حركات المركب ، قد اهملوا اصلاح المحراف الاشعة .

ما ان تجاوز البحارة خط الاستواء حتى تلبكوا ووقموا في حيرة . اختفى النجم القطبي عن الانظار . فعين ملك البرتغال ، جاب الثاني ، مجلساً ضم اليه فلكياً من نورمبرغ هو مارتن بيهايم (١٤٥٠ - ١٥٠٧) . سافر هذا الاخير حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٤٠ من العرض الجنوبي . اتقن المجلس طريقة تعيين العرض بالارتفاع الزاوي للشمس فوق خط الاستواء الساهوي في اعلى منحناه الظاهر عند نصف النهار . ولكن هذا الارتفاع يختلف باختلاف الفصول في كل نقطة من مساحة الارض خارج خط الاستواء . فتوجب من ثم تزويد البحارة بجدول المحراف حسب عليها مسبقاً ارتفاع الشمس الزاوي ، في كل عرض ، وفي كل يوم من ايام السنة . وضع المجلس هذه الجداول فبات ممكناً استئناف السير قدماً .

وبفضل معرفة العرض والاتجاه والمسافة المقطوعة المقدرة على اساس السرعة ، استطاع الربانة استدلال الطول . ولكن نسبة الخطأ كانت كبيرة جداً . لذلك بحثوا عن تقدير الطول تقديرأ مباشراً . فقد كانوا ملين بمبدأ الفروق بين الساعات . ان فرق الطول بين مكانين يساوي ١٥ درجة في الساعة و١٥ دقيقة من القوس في الدقيقة و١٥ ثانية من القوس في الثانية . ولكنهم افتقروا الى وسيلة عملية لحساب فرق الساعة بين مكان وجودهم ونقطة انطلاقهم . و يخامرنا الشك في ان يتوصل شيطان الى صناعة ساعة تقي بالحاجة . استخدموا الساعات الرملية المقدرة ل ٢٤ ساعة التي كانوا يقبلونها رأساً على عقب . طيلة الرحلة رغبة في المحافظة على ساعة الانطلاق . ولكن العواصف البحرية كانت تغير سرعة تساقط الرمل في جهاز غير دقيق . وكان سهلاً ، في رحلة طويلة ، ان يحصل خطأ في احصاء تقلبات الساعة المتعاقبة . ولكن جهل الربانة الذي اثار كريستوف كولومبوس وامريكو فسبوشي ، لم يوصلهم الى حلول اخرى . فبلغ خطاهم ٢٠ درجة تقريباً بحسب تقدير كولومبوس ، اي ما يناهز ٤٠٠ عقدة

حاول دياز وكولومبوس وفسبوشي استخدام الطرائق القمرية وطرائق مقارنة السيارات . في ١٣ كانون الثاني ١٤٩٣ ، بحث كولومبوس في هابتي عن ميناء امين يراقب منه مقارنة الشمس والقمر . فاذا عرفت في زمان ومكان معينين ساعة اخفاء القمر لنجم معين ، يكفي مراقبة الاخفاء في مكان آخر يبلغه البحار وتعيين ساعة حدوثه ، فيكون الفرق بين ساعتى المراقبة على الارض لظاهرة فلكية واحدة هو الفرق بين خطي الطول . واستخدمت بالشكل نفسه الكسوفات والخسوفات وكافة المقارنات او اللقاءات الظاهرة بين النجوم . في ٢٣ آب ١٤٩٩ ، راقب فسبوشي لقاء القمر بالمرخ الذي انبأ « ريجيومونتانوس » بحدوثه في نصف الليل بالضبط في نورمبرغ . فوجد القمر على بعد ٥٥ درجات الى الشرق من المريخ عند نصف الليل ، وقدر سرعة القمر بالنسبة الى المريخ بدرجة في الساعة واستنتج من ذلك انه على خط الطول الغربي ٨٢٥ . واستخدم دياز وكولومبوس وفسبوشي « تقويم

« ريحيوموتانوس » بين السنة ١٤٧٥ والسنة ١٥٠٦ ، « ورزنامة الكسوفات والخسوفات » بين السنة ١٤٨٣ والسنة ١٥٣٠ ، وكأنا واسمي الانتشار في الأوساط الاسبانية والبرتغالية . ولكن الاخطاء لم تكن نادرة في تقدير بداية الظواهر ونهايتها ، الكسوفات والخسوفات ، اللقاءات ، الاخفاءات ، وفي تحديد مكان النجوم الصحيح بالاستناد الى ميلها وعمودها المستقيم . وقد بلغت هذه الاخطاء ٢٤ دقيقة احيانا ، مع العلم ان خطأ عشر دقائق في محل القمر يؤدي الى خطأ ٥ درجات في الطول او ١٠٠ عقدة .

النجاحات المحققة يتضح مما تقدم ان جهوداً كبرى بذلت للتوصل الى تعيينات اكثر دقة . فقد ابتكر البحارة ، لحساب السرعة ، مقياساً خاصاً اطلق عليه اسم « لوك » ، وصف للمرة الاولى في السنة ١٥٧٧ ، وضيف بعد السنة ١٦٢٠ الى كافة المؤلفات التي تبحث في الملاحة . واللوك حبل مجهز بعقد متساوية المسافات ومنته بلوحة سنديانية مثقلة بالرصاص ومزودة بموامة . تلقى اللوحة في البحر ، فتستقر في مكانها تقريباً ، وينحل الحبل وتر العقد بين اصابع الرمان . اما المسافة بين عقدتين فتوازي جزءاً من ١٢٠ من الميل البحري . فالعقد التي تمر بين اصابع الرمان في ٣٠ ثانية ، يقابلها عدد موازي من الاميال البحرية في الساعة . ولكن كان يقتضي معرفة طول الدقيقة في دائرة الارض الكبرى لتحديد الميل وتحويل المسافة المقطوعة الى احداثيات هندسية . منذ السنة ١٦٣٣ ، وجد « مور وود » للميل قياساً يوازي ١٨٦٦٠٦٦ م واقترح ان يكون طول العقدة ٥١ قدماً . ولكن البحارة تمسكوا بعقدة الـ ٤٢ قدماً ، اي ١٥٤٠ متراً لكل دقيقة من دائرة العرض الكبرى لتأمين سلامة النزول الى اليابسة : اذ ان البقاء على مسافة ٢٠ عقدة من المكان الذي يعتقد الملاح انه بلغه ، افضل من الوصول الى مرمى المدفع من بعده .

وفي سبيل التوصل الى معرفة الاتجاه ، استبدلت الابرة الممغنطة ، المترجرة ابدأ بفعل حركات السفينة ، ببركار الطريق ، وهو ابرة بشكل معين على كثير من الاطالة مركبة على جذع فولاذي هو لها بمثابة المدار ، تدور فوق دائرة ارياح عينت عليها مساحات محدودة للارياح تتخللها الاشارة الى الاتجاهات . وسبق لكولومبوس ان اكتشف في ١٣ ايلول ١٤٩٢ انحراف الابرة الممغنطة . فان هذا الانحراف قد اتجه نحو الشمال الشرقي بعد ان اتجه نحو الشمال الغربي . وهناك خط انعدم فيه الانحراف يقع على مئة عقدة الى الغرب من جزر الاسور . ولكن سواد الملاحين انكروا واقع هذا الانحراف حتى في القرن السابع عشر .

حسب المرض بسهولة كبرى بفضل قوس « دايفز » ، وهو جزء من الربع البحري ، الذي وصف شكله الاول في السنة ١٥٩٤ والذي استعمل بعد ذلك حتى القرن الثامن عشر . ولكن حساب الطول قد بقي شغل البحارة شاغل ، مع ان كسوفات الاقمار التابعة لجوبيتر قد أتاحت التوصل الى مزيد من الدقة . فان مراقبة قواربها في ظل النجم السيار وخروجها من هذا الظل ، اذا ما قورنت بمعطيات جدول الانباء ، تعطى مباشرة فرق الساعة المطلوب .

استخدم بصورة خاصة بعد نشر تقويم «كسيني» (١٦٦٨). الا ان الحل الحقيقي الذي لم يتوصل احد اليه كان في اكتشاف مقياس الزمان . منذ السنة ١٥٣٠ وصف «غامالفريزي» الساعات التي يسهل نقلها وأشار «راي» بساعات ذات زنبرك محرك ومنفذ يزود بسدولاب التواء . وكان «بارنتز» اول بحار استخدمها في رحلته الى زيلندا الجديدة (١٥٩٦) . ولكن هذه الساعات كانت سريعة التعطل . في السنة ١٦٦٤ سلم «هويغنس» ساعتين الى الماحور «هولس» الذي وفق الى تقديرات محدودة الاخطاء على الشاطئ الافريقي . وحذا حذو هذا الاخير الاسطول الفرنسي المرسل الى «كنديا» في السنة ١٦٦٩ . ولكن النتائج كانت هادفا للاعتراف والانكار . فبقيت المسألة بدون حل طيلة القرن السابع عشر .

ازدري الربانة باعمال الفلكيين وتابعوا الملاحة «على التقدير» . فان النتائج المشكوك فيها التي حققتها الاساليب العملية قد ساعدت على استمرار الثقة في الطول المقدر الذي اعتبره وكأنه الطول فعصب . فقد كتب الاب فورنييه ، مؤلف كتاب شهير في علم المياه السطحية (١٦٤٣) ، ما يلي : « في السنة ١٦٣٥ بالفات » ، وصل الى «دييب» مركب كان قد ارسل الى جزيرة «موريس» التي تبعد اكثر من ١٣٠٠ عقدة والتي بلغها الربان دون ان يضل الطريق ، مع انه لم يذهب اليها قط من قبل . واني اشك كثيرا في ان يقدم اولئك الذين يثقون بعملياتهم الفلكية على مثل هذه الرحلات ، مع ما لديهم من ادوات . اجل لقد بلغ الربانية اهدافهم ، ولكنهم بلغوها بعد جهد وتيس وتردد . كانت الخرائط الموضوعة ملأى بالاخطاء . وبلغ الخطأ في خريطة العالم التي وضعها «اورتليوس» في السنة ١٥٨٧ ، سبعة عشر درجة في الفرق بين طول لندن وشنغاي . وجاءت الشواطئ في خريطة فرنسا التي وضعها «سانسون» في السنة ١٦٧٩ مئة كيلومتر ابعد الى الغرب . وحتى في السنوات ١٧١٢ - ١٧١٤ ، ارسل «فريزيه» ، مهندس الملك ، الى «شيلي» ، فحدد الطول الغربي لمضيق «لومير» بـ ٦١,٣٥ درجة بدلا من ٦٧,٣٥ درجة ، وعين المسافة بين هذا المضيق ورأس «هورن» بخمسين عقدة بدلا من ٣٠ . وكانت نتيجة هذه الاخطاء ان عيبت امكنة عدة على العرض الواحد للجزر الصغيرة المنعزلة . فوجب اتخاذ الاحتياطات لبلوغ الشاطئ ، ايقاف المراكب بواسطة القلوع ، وقياس عمق البحر ، واطلاق نيران المدافع في الضباب لتقدير المسافة بالاستناد الى الصدى . فهدر وقت كثير ، ولم يحل كل ذلك دون حوادث غرق السفن . في السنة ١٦٨٦ ، غرقت عند الشواطئ الافريقية السفينة البرتغالية المملة الوفد السياحي الى البرتغال ، بينما اعتبر القبطان انه تجاوز رأس الرجاء الصالح وبات بعيدا في عرض البحر . وكان من بعد مسافة المكان الذي حصل فيه الحادث على الشاطئ الشرقي الى الرأس ان توجب على الناجين من الفرق السير غربا مدة ٣١ يوما على طول الشاطئ قبل ان يبلغوه .

حللت مسائل الملاحة هندسيا على كرة ، كذلك الكرة الشهيرة التي جاء بها الكرات والخرائط «مارتن بيهايم» الى نورمبرغ (١٤٩١) ، وهي نسخة عما وضعه بطليموس اضيفت اليها معلومات ماركو بولو حول آسيا ومعلومات البرتغاليين حول افريقيا ، او ككرة

مركاتور (١٥٤١) . ولكن المليمتر الواحدة في كرة شعاعها ٦٠ سنتيمترا ، يعادل ١١,٥ ميلا في الواقع . فبات لزاما رسم خرائط ، هي ادوات حساب ، لايحاء الحل البياني لمسائل التقدير . فاستخدمت حتى القرن الثامن عشر ، خرائط موضوعة على مسطحات رسمت عليها خطوط عرض وخطوط طول مستقيمة متساوية البعد . وكانت فائدتها ان مسيرة المراكب المنحنية كانت بمثابة بخط مستقيم . اما مساوئها فان كل خط عرض كان له مقياسه الخاص وان الخريطة لم تحتفظ لا بالمسافات ولا بالزوايا . فكلما اجتاز قوس الدائرة الكبرى التي ترسمها طريق المركب خط طول جديد ، اختلف زاوية مختلفة . فكان لزاما حساب هذه الزوايا المختلفة مسبقا للتمكن من توجيه السفينة وفقا لقوس الدائرة الواصل بين نقطة الانطلاق والنقطة المقصودة ، واذا انحرفت للسفينة عن طريقها مست الحاجة الى حسابات جديدة . فكان لا بد من خريطة تحتفظ بالزوايا .

نشر مركاتور في السنة ١٥٦٩ خريطة الاولى التي رسمها بعد بحث وتردد على مسقط مركاتور الكرة . ازدادت المسافات بين خطوط العرض ازديادا مطردا نحو الشمال ، ولكن مركاتور جهل قاعدة تدريج خط الطول وتوسيع خطوط العرض في كل نقطة من خط الطول . تأمل « ادوارد رايت » في خريطة سابقة وعرض في السنة ١٥٩٩ نظرية المسقط المعروفة باسم مركاتور . ترسم كرة داخل اسطوانة ، وتوسع الكرة الى ان تلتصق كل نقطة من هذه الاخيرة بكل نقطة من الاسطوانة . فتكون خطوط الطول الخطوط المستقيمة المتوازية العمودية بالنسبة لخط الاستواء ، وخطوط العرض الخطوط المستقيمة الموازية لخط الاستواء . ولما كان خط العرض يصبح دائرة كبرى ، وجب ان يوسع خط الطول في عرض معين بنسبة الدائرة الكبرى للطول الاصلي لخط العرض هذا . وازدادت المسافة باطراد بين خطوط العرض وفاقا لقاعدة معروفة . ففي كل نقطة يكبر الطول والعرض والميقات بنسبة واحدة وتحتفظ الخريطة من ثم بالزوايا وبالوضع الخاص لكل مكان بالنسبة لغيره . والمسيرات خطوط مستقيمة تقطع كل خطوط الطول مكونة معها زاوية واحدة لان نسبة خط الطول لخط العرض في كل نقطة هي النسبة نفسها بينها على الارض . ووضع « رايت » بالاضافة الى ذلك ، لكل معين ، جداول تبين عرض نقاط تقاطع المعين وخطوط الطول المتوالية . الا ان الرابطة لم يعبروا هذه التحسينات اهتماما كبيرا .

لم يحرز رسم اليابسة سوى تقدم بطيء . فالمنشورات حول الاسفار قد افترقت تقدم الجغرافيا الى الدقة والوضوح ، وقد حدث احيانا ان ظهرت بعد تحريرها بزمان طويل فلم تلفت الانتباه دائما . ان رواية رحلة كولبوس الاولى (شباط ١٤٩٣) التي ترجمت الى اللاتينية وطبعت في روما ، وبال (١٤٩٤) ، وستراسبورغ (١٤٩٧) ، ودخلت فرنسا والمناطق المنخفضة ، قد بقيت شبه مجهولة تقريبا ، في جبال ان احدى رسائل « امريكو فسبوشي » حول رحلته الثالثة (١٣ ايار ١٥٠١ حتى ٧ ايلول ١٥٠٢) ، التي نشرت في باريس

ثم في ستراسبورغ في السنة ١٥٠٥ ، عرفت اوسع انتشار بين روايات الاسفار . في السنة ١٥٠٧ ، اوعز « وولد سيمولر » ، في أعقاب ظهور كتابه « علم الفلك » ، بطبع روايات اسفار امريكو فسبوشي الاربع وباعتماد اسم امريكا للاراضي الجديدة .

الا ان سلطة بطليموس قد اخرت التقدم . فعلى الرغم من ان البحارة قد أثبتوا ان خط الاستواء يمر في البحر جنوبي غينيا ، «عند وولد سيمولر و « شونر » وغيرهما في احلال غينيا جنوبي خط الاستواء لأن بطليموس ، الذي جعل خليج غينيا ، قد أحل خط الاستواء في البر . وكان هنالك شبه قطيعة بين البحارة المتهنين والعلماء . ولم يسلم هؤلاء الا تدريجياً بقيمة ما شاهدته البحارة بأعينهم .

وأعاقبت سلطة الدولة بدورها انتشار المعارف . فقد سدد رغب الامراء في حفظ سر الاكتشافات . وقد حُظر في البرتغال ، تحت طائلة الاعدام ، كشف النقاب عن الخرائط التي وضعها رواد العوالم الجديدة . وحتى في البر الاوروي ، عارض منتخب ساكس ، « جانت فردريك » ، نشر خريطة للساكس . وكان من الضروري ، لمصلحة الدفاع ، ان يبقى علم وضع الخرائط سراً في ايدي الامراء . ولكن الحكومات المدونة قد لجأت الى الرشوة واستحصلت على الخرائط بمبالغ طائلة ، وكان البحارة الايطاليون الذين يلتقون من خدمة دولة الى خدمة اخرى ، ينقلون خرائطهم معهم .

يضاف الى ذلك أخيراً ان التعليم الذي اعتمد في جوهره على تفسير مؤلف مكروس مقرر كـ « بحث في الكرة » لـ « ساكرو بوسكو » ، الذي حرر في القرن الثاني عشر ، او « النظريات الجديدة في السيارات » لـ « بويرباخ » (١٤٦٠) ، قد تسبب في نوع من الشلل .

بيد ان الاكتشافات قد ذاع خبرها . ففي السنة ١٥١٣ ، انكر « ستوفلد » في محاضراته التدريسية التي القاها في « توينجن » ، وجود منطقة حارة يستحيل اجتيازها . واكد استدارة الارض وواقع التقابل بين جهات الارض ، باسم اختبار البحارة . وبعد الرحلة الدائرية التي قام بها « ماجلان » و « سيبيثيان دل كانو » مرورا بمضيق ماجلان ، والفيليبين ، حيث قتل ماجلان ، ورأس الرجاء الصالح (١٥١٩ - ١٥٢٢) ، اظهرت الكرات التي صنعها شونر في السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٣٣ ، قارة اميركية مفلوطة في رسمها ، ولكنها متميزة عن آسيا .

تحلى الرجال الذين القوا بانفسهم في البحار ببسالة نادرة جداً . فقد شاعت اساطير الاسفار البحرية روايات مرعبة كثيرة : عند خط الاستواء توجد منطقة مياه غالية ، وسجارة منفاطيسية تجتذب السفن الى قعر البحار ، وحيوانات مخيفة غريبة تقصد السفن والبحارة . أجل لقد خفت وطأة الذعر مع الاختبار ، ولكن الاساطير الحقيقية قد بقيت : الموائج العاتية التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع مبكّن مؤلف من ست طبقات في رأس الرجاء الصالح وتهدد بإبتلاع السفن الخشبية الصغيرة ، واساطير الجماعات في اسفار بحرية غير

التغلغل بعيداً في افريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغابات في
الفينيه ، المطلة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جماهير غفيرة ضغمة على الوثنية ، بين سكان
مقاطعة ماندنغ ، ألقت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الارواح ، مراكز مقاومة لمحمد من
تقدم الاسلام في تلك البلاد .

اما في آسيا ، فقد تابع الاسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والافاويه .
فقد عمل سلاطين ترنات وتيدور على نشر الدين الاسلامي في جزر المولوسك . وحل دعاة
الاسلام ، سكان جزيرة مندناو ، احدى جزر الفيلبين ، على اعتناق الاسلام . واضطر الاسبانيون
الى اغراق السفن الاسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، ان تعرضت
مصالحهم التجارية للاذى والحسرة ، للحوول منهم دون تغلغل الاسلام ، الى جزيرة لوسون التي
ألقت الحصن الامامي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام
وكمبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد ان كانوا يلتزمون جباية الضرائب والرسوم ، يزاحون بشدة
الاراسليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون اسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وقصصوا ، عام
١٦٤٢ ، الى حل رهاما ديباتي ، ملك كمبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبا ، على
اعتناق الاسلام .

اما الصين . فلم يقيم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون اخذ
عددهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخامس عشر كان
الدرويش علي اكبر يعتريه الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من ازدهار وما تمتعوا به
من حريات واسعة ، وما نعموا به من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفات
الامبراطور على انه اعتنق الاسلام سراً الا انه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد
اقترح على سلطان الاتراك ان يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الاسلام .

اما في اوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الاسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى
ان المسلمين اطلوا على ابواب فيينا ، اذ ان اعداداً كبيرة من رعايا الشعوب التي علبت على
امرها ودالت دولها للاتراك ، راحوا يعتنقون الاسلام ، كما ان عدداً محترماً من الاوروبيين
نزحوا ليقبضوا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، او في بلدان شمالي افريقيا . ونرى في البلقان
بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ - ١٦٤٨ اسلامية بكامل سكانها ، في مقاطعة رودرب
الجبليية والباينا وجزيرة أوبه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا
وتساليا ومولدافيا وبلاد الفلاخ . ويؤكد أحد المعاصرين ان الناس كانوا يقبلون على الاسلام
بمشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وان اعداداً كبيرة من النازحين والاسرى والهاربين كانوا
يعتقدون الاسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحاميات الاسبانية في افريقيا تألف معظمها
من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقلية وكالابريا وجنوى
والبنديقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركابها ، قاصدين شمالي افريقيا كانوا مرشحين لاعتناق

أوروبا والعالم القديم

الفصل الأول

الحضارات البلدية عند قدوم الأوروبيين

تحقق الفتح الأوروبي على أيدي اعداد قليلة من الرجال . ويرد ذلك الى ان الأوروبيين قد وجدوا امامهم شعوبا ما زالت في مختلف مراحل العصر النيوليتي وعصر النحاس واول عصور الشبه وافترقت افتقاراً يكاد يكون كلياً الى الحيوانات الليفة ، ولا سيما الى حيوانات الركوب والجرو ونقل الاحمال ، وافترقاراً كلياً الى المعجلة والحديد . انتسبت هذه الشعوب كلها الى الجنس المعروف بالجنس المغولي ، والتميز ببشرة متفاوتة الصفرة ووجنات نائشة وشعر اسود واملس . ويغلب على الظن ان هذه الشعوب متأصلة من العالمين الماليزي والبولينيزي في آسيا ، وقد انتقلت منها الى اميركا ، كما نرجح ، عن طريق مضيق « بهرينغ » ، والجزر الاليوسية ، واستراليا والقطب الجنوبي ، في عهد غير معروف ، قبل العهد الميلادي . وكانت قلة عند قدوم الأوروبيين لا يتجاوز عددها الخمسين مليوناً في كل القارة الامركية ، وقد توزعت على غير تساور في مناطق القارة المختلفة . وكانت قد بلغت مستويات حضارية على كثير من التفاوت . ففي الوسط ، اي في المكسيك والمضيق الاميركي والبيرو ، وجدت دول حقيقية كثيفة السكان . وقد تعلق هؤلاء بالارض وعاشوا من الزراعة واسسوا المدن . اما الى الشرق من جبال « اندس » ، الى الشمال من نهر « ريو ليرما » في المكسيك ، فقد عاشت قبائل من القناصين والقطافين والصيادين عيشة بدوية او شبه بدوية ومارست احيانا زراعية بدائية متناثرة جدا : ولعل سكان اميركا كلها ، الى الشمال من نهر « ريو غرانده دل نورته » ، لم يتجاوزوا خمسمائة الف نسمة . وجلي ان النتائج

جاءت مختلفة جداً . ففي الوسط وفي جبال « اندس » ، حل الاسبانيون محل الطبقة الحاكمة ونشأت حضارة مختلطة سيطر عليها الطابع الاوروبي ، وفي الشمال رفض البلديون مبدأ الانصهار واعلنوا على الاوروبيين حرباً شعواء لا هوادة فيها ، في جزر الانتيل والى الشرق من جبال اندس ، تعرضوا خلالها للتقتيل والافناء فلبجأوا الى الغابات العميقة النائية . الحضارات الاميركية عديدة جداً وتاريخها متطاوّل في الزمان . ولكننا لن نتكلم هنا ، وبإيجاز ، الا عن اهم هذه الحضارات عند حدوث الفتح .

١ - حضارات العهد النيوليتي

في البدء وجد الاسبانيون في جزر الانتيل منذ السنة ١٤٩٢ ، ثم في اليابسة بين نهر « دارين » ومصب الاورينوك منذ السنة ١٤٩٩ ، والبرتغاليون في البرازيل منذ السنة ١٥٠٣ ، والفرنسيون في كندا منذ السنة ١٥٣٣ ، والانكليز ، امام شعوب مستوياتها التقنية متدنية جداً تقابل مراحل تخطاها الاوروبيون منذ زمن بعيد : لا نستطيع تعدادها كلها والتعمق في درسها . بل نكتفي بتقديم بعض الامثلة فقط .

في اسفل مستويات سلم التقنيات ، نجد شعوباً لا تتعاطى سوى القنص والصيد ، كالالفونكيين ، او الشعوب التي تتكلم الالفونكينية . تقسمت هذه الشعوب الى فروع عدة . ففي اكاديا ، وفي ما يعرف اليوم بـ « برونسيك الجديدة » ، انتشر الـ « اناكاي » : « ميكهاك » ، « اينناكي » ، « مالميسيت » ، « باساكوامودي » ، « بينوبسكوت » ، « فوفنوك » ، وفي لابرادور : « مونتانيه » ، « وناسكاي » ، « وين نهر » ، « سان لوران » والبحيرات الكبرى : « الالفونكيون » ، بحصر الاسم ، في شمال البحيرة العليا : « اوجبوا » ، في جنوبي خليج هدسون : « كريبه » . وحين دخل « جاك كارتيه » في السنة ١٥٣٤ الى خليج « ميراميشي » ، احاط بسفينته على الفور عدد غفير من زوارق الميكهاك . ونحن مدينون بالكثير مما نعرفه عن هذه الشعوب لتقارير الآباء اليسوعيين ومذكرات ورسائل تجار الفراء ومراسلات الضباط الملكيين الادارية .

باستطاعتنا ان نقدم الميكهاك مثلاً عن الالفونكيين . استقروا في اكاديا حتى رأس « غاسيزيا » وفي الارض الجديدة ، ولا سيما في المنطقة المحيطة بـ « خليج الفرنسيين » (خليج « فوندي ») . اوصلتهم رحلات القنص والصيد والتجارة الى « دادوساك » على نهر « سان لوران » . وقد وجدوا في جزيرة « انتيكوستي » ايضاً ، وغالباً ما صمدوا في حملاتهم على طول شواطئ لابرادور . تراوح عددهم بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ في الارجح . اقاموا في منطقة بحيرات وخليجان تحيط بها احراج السنديان والدردار والجيز والصنوبر واشجار القضبان . وفرة قنيص : اليل ، الدب ، الدل ، السنجاب ، الارنب ، القندس ، البط ، الاوز . وفرة اسماك . كان الميكهاك

اصحاء البنية ، اقوياء ، اصغر شكلا من الاوروبيين ؛ ويميزوا بعيونهم السود وشعرهم الاسمر ولحيتهم الفضة . عولوا في معيشتهم على القنص والصيد وتناقلوا انتقالا موسميا من منطقة الى اخرى . ففي الربيع والصيف وأوائل الخريف يقيمون على مقربة من الانهر وعلى شاطئ البحر . وفي اواخر الخريف وفي الشتاء ينكفئون الى الغابات ، وفي كانون الثاني يقصدون صيد الفقمة . وفي شباط وآذار يقتنصون القندس والدب والوعل . وفي منتصف آذار يصطادون الاسماك في النهر لانها اذ ذاك تملأ مياهه . وفي اواخر نيسان يكثر الرنك والحفش والحوت والبطل الكبير . وبين ايار وابلول تغزو الاسماك مياه الشواطىء . وفي اوائل ايلول يصعد الميكاك الانهر مع السلور . وفي تشرين الاول وتشرين الثاني يقتنصون الوعل والقندس مرة اخرى . وفي كانون الاول يبحثون تحت الجليد عن اسماك « يونامو » ويحصدون عدداً وافراً من الرقوق الصغيرة .

استخدم هؤلاء الهنود السكاكين والفؤوس والمهاتك المصنوعة من المرو والصوان . واستخدموا كذلك خطاطيف خشبية ذات رأسين وصنابير عظمية واشباكاً من اغصان محبوكة قد تبلغ ٦٠ متراً طولا . وصنعت اقواسهم من اغصان الجرمشق . كما صنعت اوتارها من اطناب الحيوانات . وزودت سهامهم برأس عظمي . عرفوا اضراء الكلاب بالصيد . ونصبوا الاشراك حتى للدب والاييل . وعرفوا تعطين الجلود بتجفيفها تحت اشعة الشمس ، وصقلها بكبد الطير ، وبذلكها الى ان تصبح لينة كالقشة الصوفية . وصنعوا منها الاحذية والملابس والاكياس . اتسعت زوارقهم المصنوعة من قشور الاشجار لـ ٥ او ٦ اشخاص بالاضافة الى الكلاب والاكياس ، وقد تراوح طولها بين ثنائي وعشر اقدام . اقام الميكاك في الـ « ويغوم » ، وهو كوخ مخروطي الشكل مركب من مجموع قطع خشبية ، يبلغ عددها ١٦ او ١٨ ، ينحني بعضها نحو البعض الآخر ، وتغطي بصفائح من قشور الشجر . كان باستطاعة النساء ان يبنين الويغوم في اقل من ساعتين . كما كان باستطاعتهم نقضه ولفه وحمله على ظهورهن في اقل من هذا الوقت . عرف هؤلاء الهنود تدخين الاسماك واللحوم . جوفوا جذوع الشجر بالجمر والمناحت العظمية وصنعوا منها القدور . صنعوا الاقداح بثني قشور الشجر وتخييطها بابر عظمية وخيوط مستخرجة من الجذور . غزلت النساء وبر الوعل بمغزل من خشب الجرمشق وحكن منه الجوارب وزخارف الملابس والزناير والاساور والمعقود ، وصبغنه صباغاً احمر او اصفر او اسود او ابيض . ونقش الرجال في العظم والخشب ، « لمجرد التسلية » ، الحيوانات ، والطيور ، والاشكال البشرية .

الفئة الاجتماعية الاساسية هي الزمرة المؤلفة من عدة عائلات تنتقل مجتمعة من مكان الى آخر . يسود العائلة مبدأ تعدد الزوجات . للقادة زوجات كثيرات يؤمن لهم اليد العاملة وينجبن المحاربين . المحاربون العاديون يكتبون بامرأتين او ثلاث . اعتبر الزواج شأناً عائلياً . ولكن الفتاة لا تكره على الزواج . الخطيب يبيض الوالد من خسارته بان يعمل في خدمته سنة او سنتين . يتمتع الزوج بسلطة كبرى . وغالباً ما تتعرض النساء للضرب ، وتسند اليهن الاعمال دائماً : بناء الزوارق ، دباغة الجلود ، صنع الالبسة ، اقامة الويغوم ، نقل الاحمال ، تزيين

المحاربين بالسهم اثناء المعارك ، ولكنهم يتصرفون بحرية في منازلهم ويأكلون كل ما يشتهون . نظام الويفوام صارم جداً . لكل فرد مكانه الذي يحدده التقليد . تفصل النار بين الفتيان والفتيات ويحظر عليهم تبادل اطراف الحديث . اضيف الى ذلك ان هذا التبادل محظر على كافة فتيان وفتيات الزمرة .

لكل زمرة رئيسها ، « ساغامو » ، او « الرجل القوي » . ينتخب مدى الحياة ، تارة من بين المحاربين الاكفاء ، واخرى من بين ابناء الرئيس الراحل ، ابتداءً بالبكر . تخضع لكل رئيس عائلتان على الاقل وخمسة عشر عائلة على الاكثر . يحدد لكل منها دورياً مكان الصيد . يفصل في الخلافات ولكنه يحكم في الجرائم الهامة بالاشراك مع المجموع . الاغتصاب والاعتصاب يُصَفَّيان بالثأر والانتقام . الرئيس يشرف على صنع الزوارق وترويض الكلاب على الصيد وتخزين المواد الغذائية . يجمع حوله شباناً ورجالا لاعائلة لهم ويغذيهم ويؤلف منهم حرسه الخاص وقوته الضاربة .

الحروب كثيرة وتعلن انتقاماً للشرف . خير الصفات الشجاعة . مطمع المحاربين هو اثبات بسالتهم وفرض هيبتهم . يقرر اعلان الحرب بعد خطب طويلة ويعمل بحجج مختلفة اكثرها وروداً اهانة القبيلة او مسبة احد الاجداد . تبتدىء برقصات حربية ، وممارسات سحرية : الحرب سلسلة من المفاجآت والمكامن والغارات الليلية . يسجل الظافر رؤوس المهزومين او يقطعها حتى يعود بأشعة القلب . يشد الاسرى الذكور الى جذوع الاشجار وترقص نساء المنتصرين من حولهم موجهة اليهم الشتائم ، ثم يقطعون اربا اربا . اما مصير نساء المغلوبين واولادهم فالعبودية . في سبيل ضمان الوحدة ضد ال « ابروكوا » ، تألف اتحاد من قبائل ال « واناكي » كان يعقد مؤتمرات منظمة تتخللها الاحتفالات الرمزية .

ان الطبيعة ، في نظر الميكماك ، نسخة عن الحياة الاجتماعية ، او مجتمع كبير من الارواح الخفية ، المائلة لروح البشر . يعبدون الشمس وزوجها ، القمر . ترفع القبيلة صلواتها الى الشمس كل صباح ومساء وتشكرها لانعامها بالوجود على الرجال وتوفيرها الغذاء لهم ، وتمجد عظمته وجمالها ، وتلتبس منها منحهم قنبصاً وفيراً والتغلب على الاعداء ، واخصاب نساؤهم . لكل رجل نفس هي كالصورة عن ذاته . تسبقه في الوجود ، وتستطيع على مرور الزمن ان تكون عدة اشخاص على التوالي . كل نفس تعيش بعض الوقت ، بعد المساء ، حول ويفوام العائلة وتقتنص ارواح الحيوانات بارواح الاقواس والسهم . لذلك يوارى الميت القراب مع اسلحته وادواته . الروح تأكل ارواح الاطعمة . لذلك يحتفظ بمحبتها من كل الوجبات . في يوم غير معروف تنتقل الى بلاد الارواح ، نحو الغرب ، وتستطيع ان تبلغ ، بعد عن كثيرة ، ارضا سعيدة تعيش فيها حياة هائلة وتأكل ما يطيب لها اكله وتقتنص لمجرد التسلية .

لكل ما في الطبيعة روح اشبه بطيف يستطيع ، الى ما حد له ، اعطاء صورة الى مواد

جديدة . تحليل الهنود الانواع الحيوانية على صورة القبائل البشرية ، وتحيلوا لكل منها لغته الخاصة . الحيوانات الهرمة لا تموت بل تتحول الى انواع اخرى . الوعل الهرم يصبح حوتاً والعكس بالعكس ، وهذا ما يفسر تشابه لحوم الوعل ولحوم الحوت . القندس يصبح ارنباً أسود لان هذا وذاك هما الحيوانان الوحيدان اللذان يشعران بالصيد من مسافة بعيدة ويهربان قبل ان يقرب منها . السنجاب يتحول الى ثعبان لان الثعابين تكثر حين ينسدر السناجب والعكس بالعكس . ولما كانت للحيوانات ارواحها ، باقت الحيلة امرأ ضرورياً ، لان هذه الارواح سريعة الانفعال على غرار الهنود ، ولذلك يجب الا يلقي بعظام الوعل الى الكلاب ، اذ ان روح الوعل الميت تذهب وتحرق الوعول الحية التي لا يمكنها ان تفتقر الاهانة ، فيصبح القنص عملية غير مثمرة باعتبار ان القنص هدية القبيلة الحيوانية للقبيلة البشرية .

ان هذا العالم غير المنظور لاعظم شأناً الى حد بعيد من العالم المادي المنظور . فما هو السبيل الى الاتصال بهذه النفوس او الارواح يا ترى ؟ ان هذا الاتصال يتم بواسطة الانسان الذي ندعوه « شامان » ، اقتباساً من تعبير نقله قوزاق بطرس الاكبر عن « تونغوز » في سيبيريا . لقد توصل الشامان ، بفضل الايمان والصلوات الطويلة والاخلاق الطاهرة ، لان يضمن لنفسه حماية احدى الانفس التي يفضلها يعرف كل ما يجري في عالم الارواح ويستطيع التأثير عليها . وهكذا فانه يعرف المستقبل ويبيدي رأيه في قيمة مخطط حربي ويستمطر الغيوم للحيولة دون وصول العدو او يحدث الجفاف قهيداً لمجموع قبيلته . يعرف اين يتوفر القنص . يرثس في بدء كل سنة احتفالات انبعاث التجديد التي بدونها قد تتوقف اعمال الطبيعة . يحول دون نجوى انفس الاموات لتعذيب الاحياء . يؤمن لكل هندي روحاً حامية . يشفي المرضى باستحضار روحه الحامية التي تطرد الارواح الشريرة ، اذا كان الناس كلهم مؤمنين . يحول جلد حيوان يبسطه امامه الى حيوان حي يتقدم ويطلب الاكل . يطفئ مشعلاً من مسافة بعيدة ويجعل الماء يغلي بمجرد النظر اليه ، ويخلص نفسه دفعة واحدة من القيود التي يكون موثقاً بها . انه نبي يجترح المعجزات .

ولعل هؤلاء الهنود آمنوا بقوة كبرى محبة للانسان ، كلية الوجود في الطبيعة ، هي الـ « مانيتو » ولعل هذا الايمان وصل اليهم عن طريق المسيحيين .

وفي مستوى اعلى ، اي في درجة الزراعة المتقدمة في الاحراج المحرقة ،
« توبي - غواراني » وجد ، في جزر الانتيل واميركا الجنوبية ، الـ « اراواك » الودعاء الهادئون الذين صادفهم كولومبوس ، والـ « توبي - غواراني » . توزعت قبائل هؤلاء بين فنزويلا و « ريو ده لا بلاتا » . وان من نعرف اخبارهم هم الـ « توينمبا » الذين استوطنوا ، في القرن السادس عشر واول القرن السابع عشر ، الشاطئ الشرقي من القارة الاميركية بين مصب الامازون ومصب « ريو ده لا بلاتا » . وقد وصلت الينا اخبارهم بواسطة مؤلفات « توفيه »

الذي قام برحلتين الى البرازيل (١٥٥٠ - ١٥٥٤) ، ومؤلفات البروتستانتى « ليري » ، رفىق « فيلو غينيون » ، وكتاب المرسل البرتغالى « كاردين » الذي تكلم عن الطقوس والمعدات ، وكتب المرسلين الفرنسيين « كلود دابفيل » (١٦١٤) و « ايف ديفرو » (١٦١٣ - ١٦١٤) ورسوم الهولندي « كهوت » التي صورها في البرازيل في السنة ١٦٤٣ ، ومستندات كثيرة اخيراً حول خصوصيات هذه الشعوب .

كان التوبي - غواراني في مرحلة نيوليتية متخلفة عن المرحلة التي بلغها الـ « مايا » . جهلوا المعدن باستثناء الذهب الذي روجته التجارة . استعملوا قوساً من حجر ازرق - اسود ، ذات حد نصف مستدير ، تصنع ليلا كل شهر في اليوم الاول من الهلال . نساؤهم وبناتهم يرقصن ويفنن اثناء العمل امام القمر . وقد اعتقدوا انهم يتصرفهم هذا لن يمنوا بهزيمة . وصنعوا سكاكين حجرية . واستخدموا اسنان بعض القواضم للقص والثقب . كما استخدموا عمارة الطلزون الكبير للنجح والصقل . وصنعوا الصنائير من الاشواك المعقوفة . ولم يكن لديهم من ادوات زراعية سوى الحربة المصلبة بالنار .

كان النصوص سلاحهم المفضل . واستعملوا كذلك اقواسا كبيرة ذات اوتار قطنية ونبالا قصية طوية مزودة برأس من العظم او من الكوسج او ذنب الشفنين البحري . وعرفوا الـ « بولاس » ، وهي كرتان تزود بها سيور جلدية وقذفان بحيث تلفان السيور حول حوامل الحيوان او الانسان المطارد . واستخدموا للدفاع عن انفسهم تروسا مستديرة مصنوعة من تجلد الثاير او الخشب الخفيف او قشور الشجر . ولم يجهلوا النار التي كانوا يشعلونها بتدوير مثقب صلب في خشب طري . وجوفوا جذوع الشجر او لجأوا الى قشورها لصنع الزوارق التي اسمت لثلاثين او ستين شخصاً والتي كانوا يحذقون فيها وقوفاً . وقد كانوا بخارة مهرة . ولم يكن لديهم حيوانات للركوب والجر او للتغذية الكبرى .

وفرت لهم الزراعة تغذيتهم الاساسية . مارسوا الزراعة المتنقلة في الاحراج المحرقة . زرعوا المنيهوت والذرة الصفراء والفلقاس الهندي والفاصوليا والفول السوداني والقشطة والفلفل والتبغ والموز وقصب السكر . كما زرعوا الاشجار المثمرة ، البلاذر والنباء ودباء الهند والقرع . و اضافوا الى ذلك حصيلة القنص والصيد .

كلوا يسمنون نساءهم ويحزرونهن في الوقت اللازم ، ويلتهمون المدو الذي يهوي ارضاً ، ويسمنون الاسرى للمآدب الكبرى * ويسكرون بمصير القشطة والمنيهوت المختمر . واستعملوا المهدرات : لفافات التبغ الطويلة ، وغبار الـ « بارىكا » وممجون الـ « غوارانا » .

اقاموا في قرى محاطة بسياج من اوتاد تتخللها المنافذ وتنبص امامها الافخاخ . وضمت القرية بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولاً و ١٥ و ١٦ م عرضاً ، هيكلها خشبي وعقدما بشكل نصف دائرة ، بين ٥٠ و ٢٠٠ م طولاً و ١٥ و ١٦ م عرضاً ، هيكلها خشبي وعقدما بشكل نصف دائرة ،

يقطعها سنف النخيل او قشور الشجر . كان البيت الواحد يؤوي بين ٥٠ و ٢٠٠ شخص ، وهو اشبه بـ « جينوس » اغريق هوميروس وبـ « جنس » الرومان الاولين . وكان هنالك نادى للرجال . وكانت القرية تنقل من مكانها مرة كل خمس او ست سنوات بسبب المزروعات . ضمت مفروشات البيت الاسرة المعلقة والمناصب الخشبية والحزفيات والزناويل والمناخل ومباشر ومعاصر المنيهوت والهواوين المحفورة في جذوع الشجر ، والعلب المصنوعة من بيوت السلاحف . ولم يعتبر الفتيان يافعين الا بعد مرحلة تدريب تشمل درس الدين وتقاليده التكتل التاريخية . وكانوا خلال هذه المرحلة التي تسبق المراهقة 'يفصلون عن بنات حواء وينلقنون الدروس في نادى الرجال ، وهذا ما ساعد على انتشار السحاق والملاوطة . وكان تصدد الزوجات شيئاً مألوفاً وقد درج عليه الرؤساء بصورة خاصة . ولكن الأزواج من الجنسين غالباً ما كانوا يستبدلون أزواجهم .

سار التوبي - غواراني حفاة في اغلب الاحيان . ولكن النساء عرفن غزل الحبال والاسرة المعلقة والخدمات وتعلمن من الارواك بعض مبادئ الحياكة . وصنعن الوشاح والوزرات .

تزين التوبي بالارياش الملصقة بالجسم بواسطة الراتينج او العسل . واعتمر الرجال قبعات من الارياش الخضراء والحمر والصفراء والزرقاء وحملوا تيجاناً وعقوداً واساور ومخدعات من ريش واطاراً كبيراً من ارياش النعام على الاليتين . وحصر في الرجال تزيين الشفتين وتعليق المعطيات بالانف . وحملت النساء الاقراط واساور كبيرة من المعظم الابيض أو الاصداق .

درج كلا الجنسين على تكتيف الشعر حتى الاهداب والحواجب . وسبد الرجال شعرهم بشكل نصف قمر في القسم الامامي من الرأس . ودرج كلا الجنسين كذلك على تزيين الجسم والوجه بخطوط مستقيمة وخطوط حلزونية وخطوط بموجة زرقاء وصفراء وسوداء وحمر ، اي انها درجا على التوشم .

فسر التوينمبا كافة الظواهر الطبيعية واصل الاشياء ومصير الانسان بروايات خرافية تتدخل فيها كائنات ماثلة للانسان اعظم قوة منه رأوا في عواطفها وأهوائها وآرائها تأويلاً لكل شيء . اعتقدوا بوجود الروح في كافة الاجسام الحية ، ولكنهم كانوا آخذين في التطور نحو القول بتعدد الآلهة .

ان « مونان » ، الكائن الذي لا نهاية ولا بداية له ، قد خلق السماء والارض والبشر . عاش بين الناس ولكن الناس ازدروا به . عند ذاك انزل مونان عليهم نار السماء . خلص رجلاً واحداً ، هو « ايرين - مايه » ، واعطاه امرأة كي يعمر الارض مرة اخرى . من « ايرين - مايه » ، انعدر كافة البشر ونبي او « كرايب » ، هو « ميرمونان » ، المقرب الى مونان العظيم ، الذي علم البشر سير القمر والشمس ، وخلود النفس ، والزراعة ، وتكتيف الشعر ، الخ . ولكنه حول الاشرار الى بهائم . وحين تقروا منه أحرقوه على حكومة من حطب ، فانشق رأسه

محدثاً صوتاً فظيماً، وكان ذلك مصدر البروق والرعد. ترك « مير-موان » ابناً هو « سوماي » .
رزق هذا الأخير توأمين ، « تامندوار » ، الفلاح ، و « اريكونت » ، المحارب . اهان اريكونت
تامندوار الذي اغتاز وضرب الارض ضربة قوية جعلت الماء ينبجس منها . فكان الطوفان .
غرق كافة البشر باستثناء الاخوين وامراتيهما .

من تامندوار انحدر التوينمبا ومن اريكونت ^ك « تومينو » ، الذين يتحاربون تحارباً دائماً .
آمن التوينمبا بالحياة الثانية ويتجسد الاجداد مرة ثانية في الولد وبرحلة طويلة وسلسلة من
الامتحانات قبل بلوغ منطقة ستجد النفس فيها سعادتها الابدية . اما نفوس اولئك الذين انتقموا
الانتقام الحسن واكثروا الاكل من لحوم أعدائهم فستذهب الى ما وراء جبال مرتفعة ، الى منزله
تكسوه الاحراج ، قرب موان ، حيث يرقصون ويستهجون ابتهاجاً دائماً .

خشي التوينمبا الجن والشياطين والارواح ونفوس الموتى التي تسبب الزواجع والعواصف
والامراض والجفاف والهزيمة في الحرب والحوادث الطارئة والحدورات . درجوا على تطيب
خاطرهم بتقادم زهور وأرياش . وحملوا أنفسهم منها بمشاعل أو نار تحت السرير المعلق تخاف
الارواح منها خوفاً كبيراً . وكلما تعرضت صوالح القبيلة للخطر ، احتسوا المشروبات المحمرة
ثلاثة او اربعة ايام متتالية . فتحركهم اذ ذاك حمية وحشية يعتقدون تحت تأثيرها انهم يتصلون
بالقوى غير المنظورة . ويحدث خلال هذه الايام انفلات جنسي لا يعرف حداً .

وكان لدى التوينمبا سحرة محترمون جداً .

وكانت الحروب دائمة بين القبائل . الاسرى يؤكلون . وتقوم هذه الشعوب بنزوحات كبرى
دافعين بالمهزومين امامهم . وكان التوينمبا قد توصلوا في اواخر القرن الخامس عشر الى طرد
ال « توينبا » الى داخل البلاد والحلول محلهم على شاطئ البحر بين مصب « سان - فرنسكو »
و « كهاميا » .

عند وصول الاوروبيين ، كان التوينمبا في طريق التطور نحو الوثنية
التطورات
حين وصول الاوروبيين
وعبادة الاصنام . ينصبون في مداخل القرى اوتاداً مزدانة باوتاد صغيرة
رسم عليها رجال عراة . وينحتون في القرع شكل اوجه بشرية ويعتقدون
ان الارواح تقيم في هذه الاشكال . ويصنعون اصناماً من الشمع او من الخشب . ويحرسون على
ان تكون لكل عائلة قرعتها ، « ماراكا » ، الملائى بالحبوب او الحصى . ويتخيلون ان صوت
الحصى والحبوب هو صوت احد الارواح . ويسأل التوينمبا الماراكاه عما تريد . وتقرر الماراكاه
الحرب او السلم ، وتشكرها الانتصارات بالاناشيد والرقصات .

انتشر الايمان « بالارض التي لا موت فيها » . وتنبأ الرقا والسحرة بنهاية العالم . فاقترضى
من ثم البحث عن ارض امينة تنمو فيها المزروعات وتقلب المجارف الارض تلقائياً وتجدد

النساء المسنات صباهن . ادى وصول البرتغاليين والحروب والمذابح الى تعزيز هذه الاعتقادات وتسببت في نزوحات جديدة اهمها نزوح السنة ١٥٤٠ . انجبت احدى قبائل التوينمبا نحو المغرب ، بقيادة ساحر ، بحثاً عن « ارض الخلود والراحة الابدية » . كانت افرادها عشرة آلاف ، فوصل منهم ٣٠٠ الى البيرو في السنة ١٥٤٩ حيث اسرهم سكان « شاشابوياس » . وتكلم الهنود عن بلاد خرافية ، هي مملكة الـ « اوماغا » ، حيث كل شيء حجارة كريهة وذهب . وهكذا تمززت اسطورة الـ « الدورادو » .

لم تكن الحضارات البلدية هنا ادنى من حضارات الاوروبيين فعصب ، بل كانت في تفهم وهبوط ايضاً ربما بسبب الحروب الدائمة بين القبائل ، وربما بسبب تطور طبيعي في المفاهيم الدينية . فان التأثير الذي بعثه وصول الاوروبيين ، اولئك المسوخ الغريبة ، قد عزز على الفور الايمان بانقلاب العالم ونهاية الازمنة وحياة جديدة ، كما عزز نوعاً من الايمان بمهدي آت ، ولعله تسبب في المحلل اخلاقي واجتماعي .

الايروكيون وبلغ ايروكيو اميركا الشالية درجة اعلى من درجات الحضارة النيوليتية . ونقصد بالايروكيين هنا الشعوب التي تكلمت اللغة الايروكية ، « ايروكوا » ، « هورون » ، « نوترال » ، « توباكو » . احتل الايروكوا جنوبي بحيرة ايرييه ، وبحيرة « اونتاريو » واعالى نهر « سان لوران » حتى مسيرة يومين الى الجنوب من « مونريال » وحتى النهر هودسن . والايروكوا اقوام من قدامى القناصين والصيادين اتوا من كولومبيا في الاربع عن طريق وادي نهر « ميسيسيبي » حيث يعتقد انهم تعلموا الزراعة . واستقرت بعض فروعهم ابعد الى الجنوب ، الـ « شبروكي » في جنوب جبال « السخاني » ، والـ « كونستاجا » والـ « سوسكينا » ، في وادي سوسكينا ، والـ « توسكارورا » في كارولينا الشالية .

بقي الشطر الاكبر من الايروكوا قناصين وقطافين ، ولكن زراعة الذرة الصفراء ، بالإضافة الى زراعة الفاصوليا والجلبات والفول والبطيخ الاصفر ، قد لعبت دوراً متزايد الاهمية واخذت تحتل المركز الاول في اواخر القرن السادس عشر . فقد امتدت حول قرى الـ « اونونداغا » على ثلاثة او اربعة كيلومترات ، حقول واسعة مزروعة بالذرة الصفراء . اتاحت الذرة الصفراء للهورون احتياطياً غذائياً يكفي لثلاث او اربع سنوات وفائضاً معدداً للبيع اشترؤا باثمائة الفراء والزوارق من الالفونكيين ، والاصداف الصغيرة المستخدمة تقوداً من قبائل الشاطيء .

الادوات شبيهة بأدوات التوبي - غواراني ولكن طريقة الزراعة طريقة فضلى . فنحن هنا امام زراعة متناوبة غير متنقلة . الايروكوا يبقون بين عشر سنوات واثنى عشرة سنة في المكان الواحد ، ما دامت التربة قادرة على الانتاج . زد على ذلك انهم يعرفون طريقة اراحة الارض ويلبسون بعض الشيء بزراعتها ، دورياً ، ذرة صفراء وفاصوليا وفولا . مرتكز التغذية

الـ « ساغاميتيه » وهو حساء من الذرة الصفراء واللحم والسلك المجفف والبقول والجلبان ؛ اما طعام المآدب الفاخر فالساغاميتيه المطهية بلحم الدب والفلقاس الرومي وزيت الجوز .

الاعمال كلها تنجز وفقاً لثنوية جنسية . فالايروكوا يقسمون فئات يوزع العمل في كل منها على فريقين ، فريق النساء للزراعة ، وفريق الرجال للقنص والصيد . الجنسان يتبادلان المساعدة ، ولكن الادارة للنساء في العمل الزراعي والسلطة للرجال في القنص والصيد . ينجز العمل كله جماعياً في نطاق الفئة . توزع الفئة الاراضي للزراعة على كل عائلة . ولكن عندما يحين زمان الزرع ، تجتمع النساء وينتخبن احدهن رئيسة عمل عليهن ، ويذهبن ليزرعن تلم ذرة صفراء في حقول احدى العائلات ثم تلم ذرة صفراء في حقول عائلة اخرى وهكذا دواليك الى ان تزرع كل الحقول . ويجري الشيء نفسه في ايام الحصاد . والقنص شأن من شؤون الفئة ايضاً .

سيطرت على آراء الايروكوا في الطبيعة ثنوية في طريقة الولادة عند الضرعيات . فقد تقسمت كل الطبيعة الى ذكر وانثى . الرجل ذكر ويتمتع بالقوة . وذكور كذلك هي الشجرة والسهاء والنسر والقندس والشمس الشارقة واللون الاحمر والشمال الذي يأتي منه الجليد ، والزرقاء ، لون الجليد ، والصلابة . اما الانثى فضعيفة نسبياً ووديمة ، وقبكي . اذن فالطر انثى ، والقمر الشاحب جداً بالنسبة للشمس ، والارض التي تولد كالأم ، والغرب الذي تأتي منه الامطار ، والسود ، لون الفهام الممطر ، والاختصاب ، والجنوب ، والبياض ، اثاث ايضاً .

ويمكن توزيع كل ذلك بشكل صليب يمين اربع مناطق من الكون

الحرب

الزرقاء

الذكر

الشمال

الاختصاب - السود - الانثى - المغرب + الشرق - الذكر - الحمرة - القوة

الجنوب

الانثى

البياض

السلم

ويتجمع الآلهة ، حيث يسيطر الآلهة الزراعيون ، وفقاً لهذه المبادئ . فهم ليسوا من بعد كيانات مستقلة على بعض الالهام ، بل آلهة ذاتيين يؤلفون زوفاً متسلسل السلطات . الاله الرئيسي هو « تارونيافاغون » ، اله السهاء ، الذي ينظم الفصول ، وسيطر على الريح ويعطن عن رغائبه للبشر في الاحلام ، ويصيب الذرة الصفراء بالصر إذا كان غاضباً ، انه اشبه بيجوبتير

ايروكوا . قريفته هي « اياها هانتليك » ، إلهة الارض والمرض والموت . حفيدهما هو « جوسكيرا » اله التجدد والنمو في الحياة النباتية والحيوانية . فهو الذي خلق كل ما يقوم على الارض من بحيرات وانهار واسماك واحراج وقنيص وحقول وحصيد . وهو الذي يرسل المطر والحرارة ، والذي علم البشر فن النار . انه اله القيامة . يشيخ ويميل الى الزوال ، ولكنه ما ان يبلغ الهرم حتى يعود شاباً ، فتبدأ اذ ذاك دورة جديدة . نظيره هو توأمه ، « تاويسكارا » ، اله القوة التخريبية والصر والجليد ، الخ .

اما « اغرسكوي » ، اله الشمسي ، فشفيح القناصين والمحاربين الذين يقدمون له حتى لحوم الاسرى وفقاً لطقوس مماثلة لطقوس الـ « ازتيك » .

تألف العبادة من ثمانية اعياد قانونية تشير الى تعاقب مراحل الحياة الزراعية . اعظمها اهمية عيد المزروعات وعيد الذرة الصفراء النامية وعيد الحصاد . تستلزم مراسم وطقوساً يحتفل بها كهنة معينون ، « حراس الايمان » الثمانية ، اربعة رجال واربع نساء .

يرتكز المجتمع الى الثنوية نفسها . وهو ذو نظام امومي تعطي الام فيه اسمها لأولادها . الأولاد هم اولاد الزوجة ويربون في عشيرة الام على يدي خالهم . الاب والام لا يعيشان معاً تحت سقف واحد ، وانما تشارك الزوجة الزوج سريره مساء الى ان تصبح حاملاً . وعلى الرغم من ذلك فان الرجل ملازم طبعاً بتقديم الغذاء والكساء لزوجته واولاده . كما ان المرأة ملازمة بتحضير الطعام ولوازم الصيد لزوجها . اما اذا تزوج رجل ينتمي الى عشيرة الذئب من امرأة تنتمي الى عشيرة الدب ، فيكون الاولاد من عشيرة الدب ويعيشون معها . ومن المسلم به ، اذا هوجت عشيرة الدب ، ان يبادر الزوج المنتمي الى عشيرة الذئب الى مساعدتها مع كل عشيرته ، بسبب التضامن الذي يسود العشيرة .

يشرف على ادارة العشيرة مجلس مؤلف من ثلاث نساء يختارن ابدأ من العائلة نفسها ، ويعين لا بالانتخاب بل « بالاتفاق » في اعقاب مفاوضات طويلة . تنتخب هذه النساء الثلاث رئيس العشيرة ، او « ساشم » ، الذي يجب ان يكون ذكراً ، وابن شقيقة الرئيس المتوفي في اغلب الاحيان . يستشير الساشم مجلس النساء في الشؤون العامة ، ويجلسا من المحاربين في شؤون الصيد والحرب . وتعرض مقررات كل عشيرة على مجلس القبيلة ، وتضم كل قبيلة ثنائي عشائر على الاقل ، ويتألف مجلس القبيلة من مستشارات كل عشيرة وساشمها . وتعرض مقررات مجلس القبيلة على مجلس الشيوخ المذكور الذي يتمتع بحق نقض مطلق .

ان قبائل الايروكوا الاربعة ، منذ السنة ١٤٥٠ تقريباً ، وقبيلة الـ « موهوك » منذ السنة ١٥٧٠ ، قد الفت اتحاداً . فتألف مجلس الاتحاد من كافة مجالس العشائر وساشم كل عشيرة . اما في الشؤون الخطيرة ، كالحرب مثلاً ، فيجتمع شعب الايروكوا كله . تتفاوض النساء أولاً ويتخذن المقررات ثم يلبس الرجال . ثم يجتمع الرؤساء ويقترعون في كل قبيلة . واخيراً

تقتصر كل قبيلة في الاتحاد ، حيث يجب الاجماع . وجلي ان هذه الانظمة اعطت الايروكوا تفوقاً كبيراً على هباء القبائل المنشور حولهم .

كان كافة هؤلاء الهنود في الدرجة الدنيا من سلم الفكر البشري . فكان العالم في نظرهم سحراً اكبر يستطيع كل شيء فيه مبدئياً ان يؤثر على كل شيء بتشابهات وتلازمات سرية . وقد اعتقدوا باتحاد كافة الاشياء بقوى خفية متوزعة في الكون لا تقع تحت الحواس مع ان وجودها لا شك فيه ، ولم يميزوا تمييزاً كبيراً بين الكائنات الحية والكائنات الجامدة . فكان في رأيهم ان الاشياء المصنوعة تحيا على غرار النباتات او الحيوانات التي تتخدر طيلة الشتاء ، او البشر النيام ، وان لها وظائفها بحسب اشكالها ، وان صور الكائنات وتمثيلها ليست اقل واقماً من هذه الكائنات . فان قطعة مادية صغيرة تلامس شيئاً ، او رسماً او رمزاً او كلمة ذات دلالة ، تنقل الى الشيء الفعل الذي يأتيه الانسان . كان الـ « سيو » ، قبل الصيد ، يرقصون « رقصة الدب » ، فيقلد الراقصون الدب بدقة ويتوجهون بأناشيدهم الى روح الدب لاستئانك واستعطافه . وكان الصيادون يصومون قبل السفر ، ويمتنعون عن العلائق الجنسية ، ويتطهرون ، ويتجملون برونم خاصة ، ويبتهلون الى ارواح الحيوانات التي قتلوها في رحلات الصيد السابقة . واعتقدوا انهم انما يقيمون بذلك رابطة صوفية بينهم وبين ارواح الدببة ، وان الحيوانات ستقرب منهم وتعرض نفسها لضرباتهم . واعتبر الهنود غذاءهم بمثابة هبة طوعية من ارواح الحيوانات والنباتات . وفي حالات اخرى ، مثل الراقصون بالايما موت الحيوان المطارد . يرتدي الراقص جلد الحيوان وقناعه ، وحين يصاب بالعياء ، يضرب بسهم لا حد له فيهوي على الارض مقلداً الحيوان بسقوطه ثم يخرج من وسط الدائرة ، فيمثل صياد آخر بالايما تقطيعه وتجزئته ، ثم يليه صياد ثالث . ذاك كان المصير الذي ينتظر الحيوان لان الصورة بعض الاصل . وقد اعتبرت هذه الممارسات اعظم اهمية من المطاردة الفعلية . اما بعد الصيد ، ففرضت بعض الطقوس المعدة للحيولة دون انتقام الحيوان وروح النوع الذي ينتمي اليه . فتتلى صيغ مهدئة ، وتكرم الحيوانات المقتنصة ، وترفع الابتهالات حتى لا تنفر الحيوانات الاخرى وتقام صلوات الشكر .

يرد كل ذلك الى ان نشاط هؤلاء الهنود العقلي لم يتطور تطوراً يستحق الذكر . فلم يتكون لديهم بعد افكار او صور عن الاشياء مستقلة عن المواقف والتأثرات والاهواء التي كانوا يشعرون بها . كان فكركم حدساً اجمالياً يدرك فطرياً مجموعاً من الصفات . وسيطرت على كل ما يعرفون حالات غامضة لا تليح التحليل والنقد . حكموا احكاماً على جانب من الاهمية ، متناقضة منطقياً ، الا انها مقبولة شرط ان تكون من طبيعة المضمون التأثري نفسه . فلم يكن هنا ، والحالة هذه ، من مكان او عمل لمبدأ التناقض . اذا ما عوى كلب مثلاً ، او اسمعت بومة صمها صوتها على مقربة من احد الاكواخ ، فكان ذلك في نظر الهنود موجباً لقتل مالك الكوخ . ان الصوت الحزن ، والفشمريّة التي يحدثها ، وفكرة المصائب التي يوحياها ، والتمثيل العقلي لسيد الكوخ ، كانت تؤلف ، في وجدان السامعين ، كلا واحداً ، وتوجب من ثم ازالة سيد

الكوخ . لذلك لم يتقن الهنود الحساب الذي كان في نظرهم عملية شاقة . كانوا يدركون مسن نظرة واحدة ان كومة من الجلود اكبر من كومة اخرى ، وان قطعاً من البقر الوحشي يفوق عدداً قطعاً آخر مر قبله ، وما كانوا من جهة ثانية ليخطئوا في العدد في نطاق حدود معينة ، ولكن ما كانوا يدركونه اجمالياً هو مجموعة نوعية فقط . لم يحسبوا ولم يحللوا بتمييز العناصر المجردة بفكرهم وبرؤية كمية الزيادة في احدى الجهتين .

يتضح من ذلك ان حضارتهم لم تكن متدنية فحسب ، بل متوقفة وراقدة ايضاً . اذا كانت للاشياء وظائفها بحسب اشكالها ، واذا كان لحركات الصيد والفلاح اثرها الرمزي ، فان لأدنى جزئيات الشكل او حركات الاحتفالات الدينية امية رئيسية ، اذ ان كل جديد فيها يخلق وظائف جديدة ، وباستطاعته اثارة قوى خفية واثار الف خطر وخطر . لذلك كانت كراهية هؤلاء الهنود لكل تغيير شديدة جداً . فكانوا يرتاعون مثلاً من الاطباء الاربوبيين ومعالجتهم ومن المفاعيل المشؤومة لخصائص الاشخاص والادوية الخفية . لم ينقلوا عن الاربوبيين سوى استخدام الحصان وبعض الاسلحة وبعض الادوات . اضاف الى ذلك ان كل تقدم مشروط بتكون المفاهيم المجردة ، العامة ، تحت ظل مبادئ الذاتية والتناقض والسببية ، وبمراقبة هذه المفاهيم بواسطة الاختبار . فان تحديد المفهوم « حجر » لا يميز التصور بأن يكون للحجر حياة الكائن الحي الخفية وبأن يززع اركان عالم البدائيين . ولكن هذا الانتقال من المنطق البدائي الى منطق المفاهيم ، الذي هو الشرط الاول للاستساغة ، عملية طويلة وصعبة جداً .

« مايا » في الدرجة العليا من الحضارة النيوليتية ، نجد ، في اميركا الوسطى ، قبيلة المايا .

احتل المايا على « المتوسط الاميركي » منطقة حارة توافر في المكان المكسيك الحالية ، وشرقي مضيق « تهوانتيك » وشبه جزيرة يوكاتان ، وغواتمالا باستثناء الشاطئ الباسيفيكي ، وغربي هوندوراس وهندوراس البريطانية . لقد احرق الكهنة الاسبانويون معظم مخطوطات المايا الهيروغليفية اعتباراً منهم بأنها تتضمن اكاذيب الشيطان . الا ان ثلاثة ابحاث قد وصلت اليها : في علم الفلك وعلم التنجيم والطقوس الدينية . ووصلت اليها كذلك مؤلفات بلغة المايا والايچدية الاسبانية وضعها بعض البلديين بعد الفتح تؤلف موجزاً لاهبار تاريخ المايا . ولدينا ايضاً التقرير المفصل الفريد الذي وضعه الاسقف لاند (١٥٦٦) . ولدينا اخيراً اطلال ١١٦ مدينة من مدن المايا اظهرت واكتشف بعض ابنتها وكتاباتهما بعد استئصال نباتات المناطق الحارة منها ، والمايا الحاليون الذين اثبتت مقارنتهم بالاثار والرسوم التي وصلت اليها انهم احتفظوا بالشيء الكثير من اجدادهم وان باستطاعتنا سد بعض فراغ المستندات بالمراقبة المباشرة . اجريت بعض اختبارات زراعة الذرة الصفراء بحسب طرائق المايا تحت رعاية مؤسسة كارنجي في واشنطن . فيبدو ان حضارة المايا حضارة بلدية اصيلة تمت محلياً ، بمجرد علاقة العنصر البشري بالبيئة الجغرافية ، دون اي اقتباس عن الخارج ودون تأثيرات خارجية

ربما منذ ثلاثة الاف سنة قبل يسوع المسيح . ارتكزت هذه الحضارة الى ادوات من عهد الحجر المصقول ، والكتايب الهيرغليفية ، وزراعة الذرة الصفراء . وقد بدت ، عند وصول الاوروبيين ، وكأنها بلغت منتهى النمو الفكري الممكن بلوغه في هذا المجموع ، واستقرت منذ خمسة عشر قرناً ، فلم تحرز بعد ذلك اي تقدم .

المميزات الطبيعية والاخلاقية
المبايا متوسطو القامة ، عراض الكتفين ، متقمر الصدر ، طوال الساعدين ، كبار الرأس ، نحاسيو اللون ، شعرهم اسود مستقيم .
الرجل امرد اللحية والشاربين على العموم .

مقاييس الجمال في نظرم انخفاض في الجبهة وحول في العين 'يكتسبان بشد خشبة الى الجبهة وبتعليق كرة صغيرة من الراتينج بين العينين منذ الولادة . يتحلون بالقوة وصحة البنية والنشاط والعزم والجلادة على العمل ولا يصابون بالمرض الا نادراً . انهم اشبه شيء بالصينيين : يحبون المرح والثروة والحياة الاجتماعية والضحك والمزاح ، يميلون بالفطرة الى الكرم والثقة بالغير وملاطفة الغرباء ومصادقتهم ، ويدركون كل الادراك معنى العدالة والشرف والنزاهة ويتحلون بروح الملاحظة والتخيل ويحسون بالجمال . عواطفهم العائلية قوية جداً . الوالد يتمتع بسلطة كبرى . يكون الاحترام للاشخاص المتقدمين في السن . البنون مرغوب فيهم جداً ، والزيجات تعقد في سن مبكرة ١٢ سنة للفتيات و ١٤ للفتيان ، ونسبة الولادات مرتفعة تبلغ بين ٥٠ و ٦٠ ٪ وبين ٧ و ٩ اولاد بالعائلة يبقى منهم في قيد الحياة بين ٣ و ٤ . وعلى الرغم من ذلك فان الاخلاق اباحية ، والطلاقات غير فادرة من كلا الجانبين . يتزوجون بين ١٠ مرات و ١٢ مرة متتالية ، وللنساء عشاقهن ، وللمتبات عشاقهن ايضاً وقد ينجبن الاولاد قبل الزواج ولكنهن يتزوجن بدون صعوبة على الرغم من كل ذلك .

يحمل الرجال طريدة قطنية تلتف حول القد وتمر بين الساقين يتدلى احد طرفيها من الامام والطرف الآخر من وراء ، ومربعاً من القماش يبكّل عند الكتفين بمثابة معطف . شعر الرأس يقص في مقدم الرأس وتتدلى منه ذؤابة طويلة على الظهر . يدهن الجسم والوجه باللون الاسود . حتى الزواج وباللون الاحمر بعد ذلك . اجسام المحاربين تدهن باللونين الاسود والاحمر ، والكهنة باللون الازرق ، والاسرى بخطوط افقية بيضاء وسوداء . يستوشمون ويتعطرون . النبلاء والكهنة يتألقون : ارباش ، وزين يشب واقراط صدف وجلود فهد واسنان تماسيح وعقود واساور وقبعات مزدانة بالريش ، وارباش فاخرة خضراء وزرقاء تتسلون بالوان قوس قزح للقادة والرؤساء .

اما النساء فيرتدين الغلالة القطنية المطرزة بالزهور والطيور والحشرات ، ويحملن معطفاً طويلاً ويفطين رأسهن بقطعة من القماش . يرسلن شعرهن ويتوشمن ويتطين .

الادوات المادية عرف المايا استعمال النار . واستخدموا مواد عهد الحجر المصقول من مطارق وفؤوس ومناحت نسيجية وصوانية، ومطارق خشبية مصلبة ، وعصي خشبية بواسطة النار . لم يستخدموا المعدن . اما النحاس والذهب فلم يستعملوهما الا للزينة وقد استوردوا من بلدان اخرى . جملوا المسامير واستعاضوا عنها بالثربط النباتية . توصلوا الى ادجان الديكة الهندية والنحل ، ولكنهم لم يقتنوا حيواناً واحداً لحمل الاثقال ولم يعرفوا العجلة . نقلوا الاثقال كلها على رؤوس الرجال .

يتبين من ثم ان وسائل علمهم في الطبيعة كانت محدودة جداً . ولكنهم استطاعوا بلوغ مستوى فكري وسياسي رفيع بفضل الذرة الصفراء . يبدو ان الذرة الصفراء متأصلة من مرتفعات غربي غواتمالا حيث يوجد اليوم النباتان البلديان الوحيدان اللذان ينموان مع الذرة الصفراء واللذان هما ، بالتالي ، من النوع نفسه . ويغلب على الظن ان المايا هم الذين جعلوا منها نباتاً زراعياً واعطوا بذلك نبات الخلاص كافة قبائل الفلاحين في اميركا . زرع المايا الذرة الصفراء وفقاً لطريقة الـ « ملبا » (جمع الاعشاب واحراقها وذرت رمادها) . ففي اذار ونيسان يحرقون الاعشاب اليابسة ، بعد امطار ايار الاولى ، يحدثون في الارض الخصبه بالرماد ، بواسطة قضيب مقرر ، ثقباً يودعونها الحبوب . يزرعون تباعاً ثلاثة انواع من الذرة الصفراء : نوعاً ينضج بعد شهرين ونصف الشهر ، وآخر بعد اربعة اشهر ، وثالثاً بعد ستة اشهر . وبعد نزع الاعشاب تكرر ارجو وجني السنبلة في ايلول او تشرين الاول لمنع تسرب المياه اليها وتعدي الطيور على حبوبها ، يجمعون الحصاد بين كانون الثاني ونيسان . يقتضي ١٤ هكتاراً ونصف الهكتار تقريباً لتغذية عائلة طيلة سنة كاملة ، وبلاستطاعة انتاج الكفاف خلال ثمانية واربعين يوماً . فيتبقى من ثم فائض طاقة معد لتمهد الاختصاصيين والكهنة والحاربين المعفيين من الاعمال اليدوية ولتجهيز الادوات العلمية والدينية : المعابد ، المراصد ، الاهرام ، القصور ، وساحات الرقصات الطقسية . وهكذا تمكن المايا من بلوغ المستوى الفكري الذي بلغه اقوام استخدموا ادوات فضلى واستعملوا الشبه والحديد والعجلة : الكلدانيون والبابليون والاشوريون والمصريون والاغريق والصينيون .

التجهيز الفكري بيد ان مستواهم الديني والعلمي والفني قدفاق مستواهم التقني الى حد بعيد . بلغ المايا الدرجة الثانية من درجات الفكر البشري التي وصفها « ابليل راي » ، اي الدرجة التي نعتها « ر . برتلو » بالـ « استروبيولوجية » . والاستروبيولوجيا مرحلة من مراحل القول بتعدد الالهة حيث يعتبر كل شيء ، حتى السماء والكواكب ، كائناً حياً على غرار الحيوانات والبشر ، وحيث يخضع كل شيء ، على غرار الكواكب ، لسنن دورية ، اي سنن الضرورة وسنن التوافق وسنن الاستقرار معاً ، التي توحىها الحركات الدورية في القبة الزرقاء ، وتعاقب الفصول المنتظم ، وتجدد الحياة النباتية كل سنة ، وحيث يعتبر كل شيء ، الاحداث والاعمال ، مرتبطاً بمواقع الاجرام السماوية وحركاتها . يضاف الى ذلك من جهة ثانية

ان زراعة الذرة الصفراء الفضلى تستلزم تقدم علم الفلك الذي يفرض استخدام كتابة وهندسة عمارة ، ومن ثم تنظيمًا اجتماعيًا وسياسيًا كاملاً .

تكلم المايا لغة بسيطة متقدمة اقل تصريفًا اسميًا وفعليًا من اللغة الاسبانية واسهل تعلمًا على الانكليزي من اللغة الاسبانية ايضاً . استخدموا كتابة هيروغليفية تعبر عن الافكار تمثيلياً على غرار الكتابة الصينية ، فكانوا من ثم في مرحلة تطور تتقدم مرحلة الكتابتين المصرية والمسماة السومرية اللتين تتضمنان عدة عناصر صوتية مقطعية . اما ما خلفوه من كتابات فيبحث في التاريخ والفلك والدين ، لا في الفتوحات واجداد الامير .

انهم اول من ابتكر في العالم ، منذ ثلاثة او اربعة الاف سنة قبل يسوع المسيح في الأرجح ، العد استنباداً للمرتبة واستخدام الصفر ، وهذا يفرض قدرة كبرى على التجريد الفكري . ارقامهم اكبر من الارقام الرومانية ! استخدموا رمزين عوضاً عن ثلاثة ورتبهما بواسطة الجمع والطرح . واليك هذه الارقام .

- ١ . طريقتهم عشرينية : ٢٠ وحدة من المرتبة الاولى او « كن » ، تؤلف وحدة
- ٢ . من المرتبة الثانية ، اي جزءاً من عشرين او « فينال » ؛ ٢٠ فينالاً تؤلف
- ٣ . وحدة من المرتبة الثالثة ، او « تون » ، الذي يساوي ٤٠٠ كن ؛ ٢٠
- ٥ . تونا تؤلف وحدة من المرتبة الرابعة ، او « كاتون » ، الذي يساوي ٤٠٠ فينال
- ٧ . و ٨٠٠٠ كن ، الخ . القيم تزداد عشرين عشرين ، من أسفل الى أعلى ، بدلا
- ٩ . من عشرة عشرة ، من اليمين الى اليسار كما في طريقتنا .
- ١٠ . لترتب اذن من اسفل الى اعلى ، ارقام المايا التي تقابل ٢٨٠٠٠ وحدة .

١٤

ثلاث وحدات من المرتبة الرابعة	٠٠٠	ثلاثة « كاتون »
عشر وحدات من المرتبة الثالثة	=	عشرة « تون »
صفر وحدة من المرتبة الثانية		صفر « فينال »
صفر وحدة من المرتبة الاولى		صفر « كن »

تساوي ٢٨٠٠٠ كن .

وكانوا اول من طلع بفكرة قاعدة ثابتة للتاريخ بدلا من التاريخ وفاقاً لسني ولاية الرئيس . انطلقوا من حدث فرضي بحيث ان نقطة الانطلاق (الصفر) قد سبقت اول تواريخهم المعاصرة للاحداث بـ ٣٤٣٣ سنة . كان لهم سنتان ، سنة مقدسة تبلغ ٢٦٠ يوماً ، وسنة شمسية موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر من ٥ ايام . تأخرت سنتهم الشمسية يوماً كل اربع سنوات وعرفوا كيف يصححون هذا التأخير . كان حسابهم للتاريخ دقيقاً جداً على غرار ملاحظاتهم .

حددوا مدة السنة بـ ٣٦٥,٢٤٢٠ يوماً ، ويبلغ النقص فيها ٢,١٠٠٠٠ ، في حال ان ستننا
 الفريغورية محددة بـ ٣٦٥,٢٤٢٥ يوماً وتبلغ الزيادة فيها ١٠٠٠٠,٣ . وعرفوا مدة الشهر القمري ،
 ٢٩,٥٣٠,٥٩ يوماً ، وادرجوا اشهرأ من ثلاثين يوماً بمهارة كلية جعلت الفوارق بين الرزنامة
 والهلل لا تتعدى يوماً كل اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أرباع السنة ، وفي ذلك ما فيه من الدقة .
 وعرفوا النجم القطبي والثريا والجوزاء ، ولعلمهم قسموا مجرى الشمس الظاهر الى بروج أيضا .
 كانت مدنها مرصد تنظم كل الحياة . أقاموا اهراماً بسيطة وأهراماً ذات سطوح في الاتجاهات
 التي يشاهد منها شروق الشمس في مواعيد انقلاب الشمس ومعادلة الليل للنهار . كان الكهنة
 يراقبون شروق الشمس من هذه الاهرام بالنظر اليه بين عصي متقاطعة ويحددون التاريخ بالزاوية
 التي يؤلفها خط الموقع المتكون بفعل هذه المراقبة مع خطوط انقلاب الشمس ومعادلة الليل
 للنهار ويعينون موعد تنفيذ اعمال الحقول . وغني عن البيان ان عودة الكواكب دورياً الى
 مواقعها التي ترتبط بها تقلبات أمطار المنسهاطق الحارة ، وموعد نمو النباتات ، والنشاطات
 البشرية ، قد أوحى ببنيان واسع الاطراف من السنن المتناسقة .

ديانة المايا اعتقد المايا ان العالم يؤلف وحدة حية . نسبوا صفات البشر الى كافة قوى
 الطبيعة . حافظوا على رواسب كثيرة من المذهب القائل بوجود الروح في كافة
 الاجسام الحية . ولكن الكهنة تخضوا في عقلم بزون متسلسل السلطات . في القمة يجلس على
 العرش « هوناب » الخالق الذي لم يسمح سموه باللجوء اليه في الحياة اليومية . ويليها ابنه « اتزاما »
 سيد السماوات ، الاله الشمسي ، الذي ابتكر الكتابة والكتب والرزنامة وعلم التاريخ وكان
 الها كثير الاحسان وصديق الانسان ابداً . ويليها « شاك » ، الاله الواحد في أربعة اقانم تقابل
 الجهات الاربع ، الذي كان إله المطر والرعد والبرق والخصاب والزراعة . أما إله الذرة
 الصفراء فكان الها شابا يعني بالازدهار والوفرة . وكان هنالك إله الموت ، وإله الحرب ، وإلهة
 القمر ، وإلهة الانتحار ، وآلهة الاعداد ، وجمهرة من صغار آلهة المطر والحقول والاشجار ، الخ .

فسرت الكون ومصير الانسان روايات اسطورية . « هوناب » خلق العالم الذي سبقته
 عدة عوالم خرب الطوفان كلا منها بذوره ؛ وهذا هو المصير الذي ينتظر هذا العالم . يشمل هذا
 العالم ١٣ سماء ، آخرها الارض ، و ١٣ دائرة جهنمية . وهو مركز الصراع بين الخير والشر ، بين
 آلهة الخير الذين يوفرون النور والرعد والمطر والذرة الصفراء والوفرة ، وبين الهة الشر الذين
 يتسببون في الحرب والاعاصير والمجاعة والشقاء . وخلق « هوناب » انسان الذرة الصفراء .
 يحاول الانسان استعطاف الآلهة بالصوم والزهد والتقربين والصلوات والرقصات الطقسية والرش
 بالدم البشري ، والذبائح البشرية . اذا كانت الضحية جندبا اسلا مقداما يقطع جسمه ويأكله
 المشاهدون . النفس خالدة وستذهب اما الى الفردوس واما الى جهنم . المنتحرون شقيا ،
 والمحاربون الذين يقتلون في المعركة ، وضحايا الذبائح ، والحوامل اللواتي يمتن أثناء الوضع ،
 والكهنة ، يذهبون توأ الى الفردوس ، مكان الراحة الابدية ووفرة الماكل والمشرب . أما في

جهنم فيعذب الشياطين الهلكى عذابا ابديا بالجوع والبرد والعياء والحزن .

يجمع المايا مدنا ، في مساحة قابلة للاصلاح الزراعي ، حول مركز فلكي التنظيم السياسي والاجتماعي وديني مشترك . الفت المدن أحيانا اتحادات تقرر في اجتماع الرؤساء في نقطة متفق عليها ، ولكنها استمرت في العيش منعزلة ، ولم تستطع قط تأليف دولة اقليمية . ويرد ذلك الى ان المايا لم يكونوا مجهزين تجهيزاً حسناً للتغلب على المسافة . أجل لقد توفرت لديهم طرقات مرصوفة بالحجارة ومنطقة بطين كلسي ، ولكن هذه الطرقات لا تحتل سوى المربعة الثالثة اذا ما قورنت بطرقات الـ « إنكا » .

كان مركز المدينة مدينة قائمة بحد ذاتها تنتصب فيها ، حول الساحات العامة ، المعابد والاهرام ، والاديرة ، والقصور . وبلي ذلك مساكن الاغنياء . وتقوم أخيراً بيوت مشتتة في ضواح طويلة . ليس هنالك من شوارع ، لذلك كان منظر هذه المدن ريفياً جداً . ويغلب على الظن ان الكثافة لم تتجاوز ٣٠٠ نفس في الكيلومتر المربع . ربما بلغ سكان المدن الكبرى ٢٠٠٠٠٠ نفس والمدن الثانوية ٥٠٠٠٠ . وربما بلغ عدد سكان بلاد المايا كلها ١٥ مليون نفس (مقابل مليونين في أيامنا) .

بقيت مدينة المايا مدينة ملكية من الطراز الاغريقي . بعد ان عرف المايا نظاما بمائلا للـ « جينوس » يحكمها الـ « هالاك فينيك » بالوراثة في عائلة واحدة من كل مدينة بحسب تسلسل البكورية الذكورية . يجمع في شخصه كل السلطات الدينية والعسكرية والمدنية يختار من بين أفراد ارسوقراطية وراثية الـ « باتاب » أي رؤساء القرى التابعة للمدينة . الباتاب يقود الجنود ويرأس المجلس المحلي ويفصل في الدعاوى ويسهر على ان تدفع الضريبة للهالاك فينيك وان تحرق الحقول وتزرع في المواعيد التي يحددها الكهنة . النبلاء يحافظون بكل عناية على تواريتهم العائلية وانسابهم وذكرياتهم . الكهنوت وراثي أيضاً ، وانما يحق لاشقاء ابناء النبلاء ان يصبحوا كهنة . رؤساء الكهنة ينحدرون وراثيا من عائلة واحدة . الكهنة رياضيون وفلكيون واداريون وعرفون ومقربو ذبائح ، يحكم كهنتهم . يمارسون العرافة والنبوءة ، وينجمون ، ويعزمون من مسهم الشيطان وينبئون بالكسوفات والخسوفات ويفيدون عن المطر والجفاف . الجميع يهابونهم ويحترمونهم . أما افراد عامة الشعب فيمارسون ، ابا عن جد ، زراعة الذرة الصفراء واعمال البناء والخدمة العسكرية ، ويدفعون الضرائب ويقدمون الهدايا لاسيادهم والقرايين للآلهة . ويوفر الارقاء واسرى الحرب والايتم والسارقون المحكومون يدا عاملة اضافية .

أما بصدد نظام التملك فنحن نفتقر الى المعلومات .

لا تثبت المدن في مكان واحد . فليس نادراً ان يهاجر السكان مدينتهم ليذهبوا ويبنوا مدينة اخرى في ارض جديدة من أراضيها . ويرد ذلك الى ان الزراعة في الارض المحرقة تستلزم

الاحراج والسباسب . فيستحيل من ثم متابعتها أكثر من خمس سنوات في المكان الواحد ، لا سيما وان العشب يفرز الحقول بعد هذه المدة ويخثق الذرة الصفراء النامية . لذلك يقتضي استبدال الحقل قبل استنفاد طاقته الانتاجية . فعندما تصبح أراضي المدينة غير صالحة للزراعة ، يتوجب نقل المدينة الى مكان آخر . زد على ذلك ان الموتى يدفنون في البيوت ، والمايا يخشون الموتى ، ويغادرون بيوتهم بعد وقت معين .

كان المايا في دور المخطاط عند قدوم الاسبانيين . فبعد عهد متطاوّل سبق المايا المخطاط المايا ربما منذ ٣٠٠٠ سنة قبل يسوع المسيح حتى السنة ٣٥٣ قبل يسوع المسيح ، وبعد عهد اعداد منذ السنة ٣٥٣ قبل المسيح حتى السنة ٣١٧ بعد المسيح ، اكتملت فيه حضارتهم ، عرف المايا العهد المدعو بالامبراطورية القديمة (٣١٧ بعد المسيح حتى ٩٣٧ بعد المسيح) . وقد بلغت حضارة هذا العهد ذروتها في الشمال الشرقي من « بيتن سنترال » في « تيكال » و « اواكزاكتوم » بين السنة ٦٣٣ والسنة ٧٣١ ، وذروتها الجالية بين السنة ٦٩٢ و ٧٩٥ . ثم بدأ المخطاط ومجرت المدن الواحدة تلو الاخرى . وحين اجتاز « كورتيس » منطقة « بيتن » من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في السنة ١٥٢٤ - ١٥٢٥ كانت احراج المناطق الحارة قد غطت المدن كلها ، ولم يشاهد الاسبانيون الاولون « ياكشيلان » و « تيكال » الا في السنة ١٦٩٦ . ولعل عدد السكان قد أصبح مرتفعاً جداً بالنسبة لامكانيات نظام المايا الزراعي ، فجر ذلك الى ارتفاع الاسعار والاضطرابات الاجتماعية وروال الانتظام الحكومي والاضطرار الى الهجرة . فاستوطن المايا يوكاتان تدريجياً .

تلا ذلك النهضة والعهد المدعو بالامبراطورية الحديثة (٩٨٧ - ١٦٩٧) . ففي القرن العاشر تسربت من الجنوب الشرقي بعض قبائل المايا ، ال « اتزا » ، التي است « شيشن اتر » (٩٨٦ - ٩٩٨) . واقامت بعض القبائل المكسيكية المتأثرة بحضارة المايا والحاضرة لهائلة « كوكوم » في « مايا بان » ، والبعض الآخر في « اوكسال » بقيادة ال « كسيو » (٩٨٧ - ١٠٠٧) . اتحدت هذه القبائل في تحالف « مايا بان » فعرفت للبلاد عهد ازدهار : نهضة المايا . ولكن حرباً اهلية اندلعت في السنة ١١٩٤ انتهت بانتصار الكوكوم بفضل المرتزقة المكسيكيين . ففرضوا على جميع نبل المايا الاقامة في « مايا بان » كرهائن . وفي السنة ١٤٤١ ، ثار رؤساء المايا ، بقيادة الكسيو في اوكسال ، وقتلوا الكوكوم الا واحداً وقوضوا مايا بان وولوا هاربين .

بدأ حينذاك عهد تفكك والمحلل . اخليت كافة المركز الكبرى . وهاجر الاتزا « شيشن اتزا » واقاموا على ضفاف بحيرة « بيتن » في « تايا زال » . اما الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عائلة كوكوم فقد استس مدينة تيبولون مع شتات قبيلته . ولم يرجع الكسيو انفسهم الى اوكسال بل اسسوا مدينة جديدة ، « ماني » . وتجددت بين الكسيو والكوكوم حرب لا هوادة فيها . وتجزأت يوكاتان ولايات صغرى متعدية . زد على ذلك ان بلاد المايا التي خربتها

الحرب قد دمرتها الاعاصير في السنة ١٤٦٤ وفتك سكانها الطاعون في ١٤٨٠ ، والجفاف ووباء الجدري الذي نقل الاوروبيون جرثومته منذ السنة ١٥١١ ، في السنة ١٥١٥ والسنة ١٥١٦ . وقد افضى كل ذلك الى اضماع المايا معنوياً . فقد انحطت ديانتهم . واشركهم المكسيكيون في ميلهم الى المجازر البشرية ضحية للآلهة . ولم يعد فؤادهم ليسمو حتى عبادة الخالق والآلهة العظام المحسنين ، بل غدا كل شيء موضوعاً لعبادتهم بسبب جبنهم وحرصهم على استرضاء كل القوى . وفقدوا اخيراً الايمان بحضارتهم . ثقلت عليهم المصائب فاقتنعوا بأن الازمنة قد انتهت . وما ان وصل الاوروبيون حتى تنبأ الكهنة بأن المايا سينتخلون عن آلهتهم . ولكن متى يكون ذلك ؟ لاحظوا ان احداثاً محزنة تجري في تاريخ المايا في فترة العشرين سنة التي تنتهي بيوم ٨ « آهو » : اخلاء « شيشن اتزا » الاول (١٦٧٢) ، المؤامرات ، الحروب ، هزيمة الكوكوم ، هزيمة مايبان ، الخ . ولما كان مثل هذه الفترة سيتجدد بين السنة ١٦٩٧ والسنة ١٧١٧ ، فقد نظروا الى العشرين سنة هذه كما الى الوقت الذي حددته الآلهة . فان آخر مركز من مراكز مقاومة المايا ، « تايارال » ، قد سقط في ١٣ اذار من السنة ١٦٩٧ ، دون حدوث معركة تقريباً ، لان الوقت الذي يفصلهم عن بدء الفترة المشؤومة هو ١٣٦ يوماً : فلا فائدة من مواصلة المقاومة . ان حضارتهم ارتكزت الى ملاحظة تكرار الارتباطات نفسها لا الى التحليل ودرس الحدث الطبيعي درساً عقلياً منطقياً . وليس ما يبدل على انهم تخيلوا نظاماً شمسياً بغية تفسير الظواهر . فكانوا من ثم عاجزين عن التمييز بين الملل الحقيقية وبمجرد المصادفات ، وحين تعرضوا للنكبة ، انهارت اعصابهم واستسلموا لليأس لانهم لم يعيروا اهتمامهم الا الاتفاقات المشؤومة . لذلك وجد الاسبانيون امامهم مجتمعاً في طريق الانحلال الكامل .

٢ - حضارة العصر النحاسي حضارة الازتيك

لم يتصل الاسبانيون اتصالاً جدياً بهنود بلفوا مستوى حضارياً ارفع الا بعد اتصال دام ٢٧ سنة بحضارات نيوليتية وبعد ان تكونت آراء كثيرة حول الهنود ولحددت مواقف كثيرة . في السنة ١٥١٩ شرع كورتيس في فتح المكسيك ، وما لبث ان حارب الازتيك .

لقد عقب الفتح في المكسيك ، كما عند المايا ، وكما في كل مكان ، قدمير منظم سكان المكسيك للكتابات البلدية . ولكن ما نجما منها هنا يفوق ما نجما في بلاد المايا ، اي حوالي الثلاثين معظمها سابق للفتح . ولدينا بالاضافة الى ذلك مؤلفات الاسبانيين التي نخص بالذكر منها رسائل كورتيس ومذكرات رفيقه « برغال دياز دل كستلو » ومؤلفات « غومارا » و « موتولينسا » و « اوليس » و « كلافيجرو » والمنهضات الكثيرة التي جمعها الاب « دي ساهاغون » . يضاف الى كل ذلك المستندات الاثرية العديدة التي توفرت للباحثين .

عند قدوم الاسبانيين كانت بعض القبائل البربرية التي جمعها الاسبانيون تحت اسم «شيشيميك» تعيش الى الشمال من نهر «ريو كيرما» وبحيرة «شابالا» ، في البورات الغنية بالصباريات في التجد الاوسط . هؤلاء هم بدو المكسيك . ينتقلون عراة . يتقنون رمي السهام ويعيشون من حصيلة قنصهم التي يكلونها يجني الثمار ولا سيما ثمر الصبار . ليست لهم معابد ولا اصنام . يعبدون الشمس . يهونون الاستقلال بشراسة ويبرهنون عن عدائهم لكل حياة اخرى .

على الشواطىء عاشت قبائل من البلديين البدائيين نسبياً ، القناصين ، القطافين ، أكلة لحم البشر عند الحاجة . ولكن هؤلاء البلديين كانوا اهل حضر وعرفوا بعض مبادئ زراعة الذرة الصفراء . وكانوا كذلك شديدي التمسك بالاستقلال ويشق عليهم ان تفرض عليهم ضريبة ما .

اما في المناطق المروية من نجد « انا هواك » ، وفي وديان واحواض « ميشوكان » و « او كساكا » ، التي تكثر فيها النباتات العشبية ، فقد عاشت قبائل مختلفة تجمع بينها عناصر حضارة مشتركة ، هي حضارة الـ « تولتيك » ، المتأثرة بحضارة المايا . وقد برز بينها اتحاد الازتيك ، « مكسيكو » ، و « تزكوكو » ، و « تلاكوبان » ، الذي غدا امها سياسياً وامتدت امبراطوريته في اواخر القرن الخامس عشر من المحيط الى المحيط ومن البدو الى المايا . الا ان بعض الشعوب قد حافظت على استقلالها في هذه الامبراطورية مؤلفة الجيوب التالية : دولة « تلاكسالا » ، دولة « ماتزتينلان » ، دولة الـ « يوبيس » ، دولة الـ « مكستيك » ، في « توتوتيك » ، دولة الـ « تاراسك » ، في « ميشواكان » . وحافظت على استقلالها الداخلي ، بدفع الضريبة للارتيك ، « شوهيلا » ، و « هواجو تونغوا » و « تهاوكان » ، و جزء من منطقة الـ « مكستيك » وبلاد الـ « زابوتيك » ، و جزء من منطقة الـ « هواستيك » ، و « شياباس » و « سوكونوسكو » .

لم تكن حضارة الازتيك حضارة بلدية اصيلة على غرار حضارة ارجه التشابه بين الازتيك والمايا . فقد جاء الازتيك الفاتحون من الشمال في عهد غير بعيد ، ربما في القرن الثاني عشر . كان موقف البلديين منهم موقفاً عدائياً ، فتشردوا زمناً طويلاً ثم اقاموا في جزر المستنقعات الوحلية ودخلوا في حرب دائمة ضد جيرانهم بغية تأمين مياه الشفة والارض الصالحة للزراعة . لذلك تطور نظامهم في سبيل الحرب ، فانتقل من نظام العشائر الى نظام المدينة . في القرن الرابع عشر ، وفي السنة ١٣٥٢ بالضغط ، انتخب « اكامابيتشلي » رئيساً ، او « تلاكتيكوهنتلي » في مكسيكو . ومنذ هذا التاريخ انتخب الـ « تلاكتيكوهنتلي » ابداً من عائلته ، فنقلت هذه السلالة ما لم يكن سوى مدينة حقيرة في المستنقعات الى رأس امبراطورية عظيمة . منذ السنة ١٤٢٥ ، شرع الـ « تلاكتيكوهنتلي » ، « ازاكواتل » ، في فتح شواطىء المستنقع واسس اتحاد الازتيك ، مرتكز الامبراطورية . في منتصف القرن الخامس عشر بلغت جيوش الاتحاد خليج المكسيك في ولاية « فيراكروز » الحالية . وفي اواخر القرن بلغت مضيق « تهاوتيك » وحدود « ميشواكان » . وحوالي السنة ١٥٠٠ وصل

الازتيك الى « ريو بانوكو » في الشمال و « شيايا » وغواتمالا في الجنوب الشرقي .

على غرار المايا ، جهلوا العجلة والعقد ، ولم يقتنوا حيوانات جبر ولا حيوانات ركوب .
الا انهم سمّنوا الكلاب الصغيرة والديكة الهندية والتدارج . وعلى غرار المايا استخدموا بصورة
خاصة ادوات نيوليتية : اوارٍ محجّنة لرسم الاتلام ، مقالب من الخشب الصلب ، سكاكين ،
دبابيس ، رؤوس نبال ، حدود فؤوس من حجر اسود ، اقواس ، سهام ، مقاليح ، دافعات
لقذف العنزات ، رمح من خشب قاس مجهز بصوانة حادة . صنعوا الخزفيات دونما دولا ب .
وحاكو اقمشة قطنية ، واقمشة ناعمة من خيوط الباهرة ، واقمشة اخرى من الياف النخيل ومن
وبر الارنب الذي سدّ مسدّ الحرير . ولونوا هذه الاقمشة بالوان جميلة ، النيلي ، الاخضر الزاهر ،
البرتقالي ، الاحمر . ارتدى الرجال وزرة ودثاراً ، والنساء قميصاً طويلاً وثوباً داخلياً .
وروعيت في صناعة الدثر المرتبة الاجتماعية . وروعت المرتبة الاجتماعية كذلك في تزيين
الرجال بالحلي الذهبية والاقراط واهلة الانف والقبعات الريشية الكبرى . وعلى غرار حضارة
المايا ، ارتكزت حضارتهم الى الذرة الصفراء التي سحقوا حبوبها على صفيحة حجرية بواسطة
اسطوانة حجرية واستهلكوها اقراصاً يسطحون عليها عجيناً من الفاصوليا والفلفل المسحوق ،
وأكلوا بالاضافة الى ذلك الشوكولاتة واليقطين والبطاطا الحلوة ، والبطاطا الصينية والذبان
وبيوض الذبان وشربوا المشروبات المخمرة ولا سيما روح عصير الباهرة وشربوا الدخان لفافة
او بواسطة الفليون .

وعلى غرار المايا ، بلغوا مرحلة نسبة صفات البشر الى قوى الطبيعة ولكنهم بدأوا يتخطونها .
ففي القمة يوجد اله مجهول خالق كل شيء ، لا اسم له ولا اسطورة ولا وجه ، يتعلّى ببعض
مميزات « الارلي » في الفصول الاولى من التوراة . شيدوا له معبداً وعبدوه . ولكن الالهين
الرئيسيين كانا عملياً وهويتيلوبوشي ، المشترك مع « تنزكاليبوكا » . هويتيلوبوشي هو شمس
الربيع الفتية ، اله الحرب . وتنزكاليبوكا هو شمس الصيف ، منضج الحصاد ، اله الموسيقى
والرقص ، شفيع المراقبين . وكان لهم زون متسلسل السلطات يتميز جميع آلهته بطابع شمسي
او نجمي . مثل آلهتهم قوى الطبيعة المشبهة بالنجوم ووزعوا وفقاً لجهات الفضاء الثلاثة
عشر وبحسب مستويات ثلاثة ، مستوى الارض ، ومستوى سمّت الرأس ، ومستوى سمّت
القدم ، التي لكل منها اربعة اتجاهات ، يضاف اليها المركز . وان آثار المذهب القائل بوجود
الروح في كل الاجسام الحية لا تحتاج الى برهان اذا ان عدداً كبيراً من صغار الالهة والشياطين
وعفاريت ما خارج الارض وداخلها تملأ الطبيعة كلها . وكانت معابدهم اشبه بمراصد المايا .
وقسّر الازتيك العالم بالحرفات . فالالهة خلقوا على التوالي اربعة عوالم تضيئها اربع شمس
مختلفة . اضاءت العالم الاول شمس من الحجارة الكريمة ولكن الامطار اغرقت كل شيء ؛
تحول بعض البشر الى اسماء انحدرت منها الامم الحالية . وضاءت العالم الثاني شمس من نار .
ولكن امطاراً من نار استمجلت نهايته وتحول البشر الى دجاج وفراس وكلاب . وعقب هذين

العالمين عالم شمس الظلمة . تغذى البشر فيه بالقار والرائنج . محقتهم الزلازل او افترستهم الحيوانات الضارية . ثم جاء دور العالم الرابع ، عالم شمس الريح . اقتدات البشر بالانمار . محقتهم العواصف الهوجاء وتحولوا الى قرود . واخيراً خلق العالم الحسالي « تنزكاتليبوكا » ، شمس الصيف ، منضج الحصاد . وسيدمر هذا العالم بدوره ايضاً .

آمن الازتيك باستمرار الحياة بعد الموت . فان عامة الموتى يذهبون الى « مكتلفتيكوهتلي » وزوجته « مكتلنسيهواتل » اللذين يتسلطان على انهار تسعة تجري تحت الارض وعلى ارواح الموتى . ويذهب المحاربون الذين يسقطون في ساحة الوغى أو تهرق دماؤهم على حجر الذبائح ، والنساء اللواتي يقضين في الوضع ، الى السماء ويسمن الراس حيث يقيمون في قاعات منزل الشمس . ويذهب الفرقى والمجذومون ومرضى الداء الزهري الى جحيم من الدرجة الثانية . ولكن الازتيك جهلوا مفهوم المسؤولية الشخصية ، وبالتالي احترام القانون الاخلاقي ، والثواب ، والعقاب : فالهم في نظرهم هو الظروف التي اكتنفت موت الانسان . واذا هم تحلوا بالطاعة واللفظ والبساطة والصبر ، فانهم قد ملوا بالفطرة الى السرقة والمداينة والكسل وشرب المسكرات . « وكان من المسلم به ان يكون للرجال ، خارج الزواج ، علائق جنسية بنساء اخرى غير متزوجات ؛ فكان البغاء من ثم معترفا به ؛ ولم يكن نادراً ان يقدم عامة الشعب بناتهم سراي للنبله » . وقد استسلموا الى أكثر الاهواء اخزاء وكان التلوط منتشرأ جداً .

يذكرنا تجهيز الازتيك الفكري بتجهيز المايا في كافة نواحي فكرهم : الطريقة العددية العشرينية نفسها ، عد المركز نفسه باستثناء الصفر الذي لا وجود له ؛ السنة المقدسة نفسها (٢٦٠ يوما) والسنة الشمسية نفسها (٣٦٥ يوماً موزعة على ١٨ شهراً من ٢٠ يوماً وشهر واحد من خمسة أيام) ؛ ولكن دون التصحيح الضروري لاعادة التطابق بين السنة المدنية والسنة الشمسية ؛ وكتب الازتيك على طرائد كبرى من رق الايل أو لبد الباهرة ، مغطاة بطلاء كلسي ، تلف كما يلف الحاجز الواقي من الهواء . رسموا الاشكال بشوك الباهرة وملأوا الاقسام الدائرية بالالوان . وكانت احرفهم رموزاً هيروغليفية ثقل اشياء مبسطة في كتابة تصويرية . ولكنهم استخدموا علامات اشتقاقية توحى الأفكار . وخطوا خطوة نحو الصوتية : فلتشيل بعض المقاطع استخدموا صوراً أو اشياء يكون اسمها أو صوتها متشابهاً دون اعارة معنى الرمز المختار اية قيمة . فكانت كتابتهم من ثم لفزا ينطوي على استعارات .

كل هذا يقرب من تجهيز المايا الفكري ومفاهيمهم ، مع فارق تدني قدرتهم على التجريد وقلة اهتمامهم لامكانات الموافقة المنطقية أو مبدأ الذاتية ، والموانع الحقيقية أو مبدأ التناقض . ونحن نرجح ان جوهر حضارة الازتيك وجيرانهم مقتبس عن المايا .

الا ان حضارة الازتيك ميزات تبدو مجهولة من المايا . فقد عرف الازتيك النحاس ، ولعل مرد ذلك الى ان مناطق المناجم لم تقمرها الاشجار الكثيفة . واستعملوا رؤوس نبال نحاسية ومناجل نحاسية وادوات نحاسية لمعالجة الحجارة الصلبة .

خصائص الازتيك
البلاد
والديموقراطية السلطية

وحافظ الازتيك على قواعد تنظيم قوي في الديموقراطية السلطانية الشيوعية . ولعل البيئة الجغرافية هي ما دفعهم الى ذلك . فان البلاد ، « التي شكت من بعض العقم الارستوقراطي » ، تساقط عليها أمطار صيفية قليلة وغير منتظمة ، قد تكون غير كافية طيلة سنوات عدة . وجلي ان هذا الوضع غير مؤات للمستثمر الفردي الصغير الذي يتعرض لان يفرق في ديونه . فيقتضي والحالة هذه القيام بأعمال ري باهظة الأكلاف لا يمكن ان يقوم بها سوى الاثرياء أو الجمعيات المنظمة تنظيمياً جيداً . لذلك كانت الموارد محدودة وغير مضمونة . فتوجب الاستحصا على المواد الغذائية والحامات النباتية المكلة من المناطق النائية . ولكن المكسيك بلاد واسعة الاطراف تتخللها مساحات خالية لا حدود لها ، وجبال وعرة واودية بعيدة القعر تسبب الدوار . يجب حمل مؤن لاسباع عدة والاتجاه على طريقة البحارة في المحيط ، بالاستناد الى الشمس والنجوم ، في مسيرات لا نهاية لها . ولعل خطر العوز الدائم وصعوبة المواصلات غير غريبين عن واقع كون التجارة حملة عسكرية وواقع تحول هذه الحملة بسرعة الى عملية غزو ، وواقع اعدادها لحرب الفتح ، وواقع حياة الدولة من النهب والضرائب ، وواقع كون الحرب غاية هذا المجتمع وصناعته الرئيسية اذا صح التعبير .

ان الاعمال الكبرى والحرب قد فرضت نظاما تسلطيا في الارجح . الحضارة

مكسيكو
تنوشتلان

مدنية بالضرورة الدينية والعسكرية ، وقلب الوحدة السياسية هو المدينة . عدد سكان « تنوشتلان - مكسيكو » يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ الف نسمة .

وقد وصفها لنا كورتيس كما يلي : « ان مدينة مكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين اي من أطرافها وقلب المدينة فرسخين (أو ثمانية كيلومترات) . لها أربعة مداخل تؤدي اليها سدود صنعية يبلغ عرضها طول رحين من رماح الفرسان . مساحتها تعادل مساحة اشبيلية وقرطبة معاً . شوارعها مستقيمة وعريضة جداً . وقد قسم بعضها بحيث يكون نصفها طريقاً والنصف الآخر قناة تجتازها الزوارق ذهاباً وإياباً . وقد حفرت بين مسافة وأخرى خنادق تصل اقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض . وانشئت فوق هذه الخنادق ، الواسعة جداً أحياناً ، جسور مبنية بموارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع . ويتسع بعض هذه الجسور لشجرة فرسان يسرون معاً جنباً الى جنب » . وقد وسعت أرض المدينة الضيقة بالحدائق العائمة المشهورة المكونة من إطار من حصير وضمت في داخله ، فوق طوف من الاعشاب . والخيزران ، طبقة ترابية لزراعة النباتات . وقامت في الشوارع الضيقة الكثيرة ساحات عامة تظللها الاشجار ، تقام فيها الاسواق . استوحى تصميم المدينة العام من الشمس والجهات الاربع . اجتاز المدينة شارعان كبيران يؤلفان زاوية مستقيمة عند تقاطعها في وسط المدينة . وامتدت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المعبد الكبير والابنية البلدية . وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حبر أحياناً ومن قصب غالباً . لم تشمل البيوت الا على قاعة واحدة مع طبقة تحت السقف .

وكانت المعابد كثيرة جداً وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع . وكانت اهراماً ذات سطوح ، مع خنادق وسدود .

يبدو ان باستطاعتنا ان نميز ، في تطور الازتيك ، ثلاث مراحل من الديمقراطية الشيوعية الى الملكية الارستوقراطية تركت الاوليان منها آثاراً عميقة في الاخيرة . كان الازتيك في البدء قبيلة من البدو القناصين والقطافين الذين ينتقلون نحو الجنوب حاملين معهم إلههم الشمس « ويتزيلو يوشتلي » . ثم تعلموا الزراعة النصف البدوية ، وذلك حين بلغوا هضبة المكسيك الوسطى حوالي القرن الثاني عشر في الارجح . ولما كانوا فلاحين وجنوداً في آن واحد ، كانوا يتوقفون أحياناً عدة سنوات في منطقة خصبة ثم يستأنفون رحيلهم . ويبدو اذ ذاك ان الخلية الاساسية في القبيلة كانت العشيرة ، « كلبولي » ، التي خضعت لتنظيم ديموقراطي يدين بالمساواة . يجتمع رؤساء العائلات ويتخذون المقررات الهامة وينتخبون رئيس العشيرة ، « كلبول » . تعود الاراضي للكلبولي جماعياً ، وتعين جمعية العشيرة قطعة لكل رجل مازوج يستثمرها ويلزم بزراعتها . واننا نميل الى الاعتقاد بان جمعية رؤساء العشيرة تتخذ المقررات باسم القبيلة . ولكن كهنه « ويتزيلو يوشتلي » يمارسون القيادة العسكرية ويتمتعون بسلطة عامة على العشائر كلها .

بعد اقامتهم في المستنقع ، فرضت الحرب ضد المدن المجاورة المعادية ، والاشغال العامة الضرورية لاعداد الجزر وكوم الرمل والوحل ، الانتقال تدريجياً الى نظام المدينة الملكية . بقي المجتمع شيوعياً وعسكرياً . الرجال مكرسون كلهم للحرب ويتوجب عليهم تقديم الامرى للذبايح البشرية الضرورية للحيلولة دون فناء هذا العالم على غرار العوالم السابقة . بعد ان يتوفق المحارب الى امر أربعة محاربين اعداء ، ينتقل الى طبقة عليا ، هي طبقة الـ « تكيفا » ، ويستطيع حينذاك ان يصبح موظفاً ، « تكوهتلي » ، أو سيداً . الوظائف انتخابية كلها . وقسمت المدينة الى عشرين حياً تخصص بكل منها عشيرة . لكل عشيرة أراضيها ، ومسكنها المشترك ، وآلهتها الخاصة ، وأعيادها ، ورقصاتها ، واحتفالاتها الدينية وادارتها الخاصة . يقوم على رأسها مجلس شيوخ يفصل في كل شيء ويمين الاراضي للأشخاص ويحكم في القضايا الخطيرة وينتخب الموظفون مدى الحياة . أهم الموظف هو الـ « كلبوليك » الذي يختار أبدأ مسن عائلة واحدة ويراقب توزيع الاراضي ووضع اهرام العشيرة . ويسهر على زراعة الحقول ، لا سيما ما يعد منها لتأدية الضريبة ، ويسلم حصيلة الضريبة الى موظفي الادارة المالية ، ويقود الفرق العسكرية ويوزع العدل ويدافع عن عشيرته امام السلطة العليا . الاعتداء على قوة العشيرة وتضامنها يعاقب بصرامة . يحكم بالموت على القتل والرجال الذين يرتدون ثياب النساء ويتخلفون باخلاقهن ، والنساء اللواتي يرتدين ثياب الرجال ويتخلفن باخلاقهم ، والزناة ، ومحوري حدود الحقول ، ومدنسي القديسات ، والخنونة . الموظف الكبير يخلع من منصبه . السارق ذو السوابق يصبح عبداً لسروقه . سارق الذهب والفضة ، وهما معدنان إلهيا المصدر ، يحكم عليه

بالموت . تتحد العشائر خمساً وخمساً وتؤلف اخوة . فكان هنالك أربع اخوات لكل منها قائدها العسكري ، وهو أحد الاكابر الاربعة المحيطين بالملك ، وكنهها ، وآلهتها . وفي خارج « مكسيكو - تنو شتلان » ، ينتخب اهالي القرى والمدن موظفيه ، « تكوهتلي » ، الذين تتمتعوا بسلطات كبار الموظفين ، « كلبوليك » ، نفسها . تعين العشائر مجلساً قبيلاً وتنتخب الرئيس الاعلى ، « تلاكاتكوهتلي » ، الذي يختار ابدأ من عائلة « اكاما بيشتلي » ، ويتمتع بسلطات ملكية . يكافأ الموظفون ، « تكوهتلي » ، عن طريق اراض يستثمرها المواطنون لهم ، وأقمشة وألبسة ومواد غذائية يهبهم اياها الرئيس الاعلى من الضريبة المفروضة على المواطنين والاثوات المفروضة على المدن المهزومة .

لاشك في ان الدولة والمجتمع قد تطورا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر واورائل القرن السادس عشر في اعقاب الفتوحات وقيام امبراطورية حقيقية . لا تزال مدينة الازتيك مبدئياً ديمقراطية شيعية . ولكنها تتخذ صفات الملكية الارستوقراطية بسبب توسع رقعتها ، وتقعدها شؤونها ، واثرائها الذي تدين به لسيطرتها على المغلوبين . فليست جمعية الشعب ، بعد اليوم ، ما ينتخب الـ « تلاكاتكوهتلي » ، بل هيئة انتخابية من المستشارين وكبار الموظفين والكهنة يعين هوقسباً منهم وتعين هي القسم الآخر . اما الكلبوليك والتكوهتلي الآخرون فلا يزالون ينتخبون انتخاباً ، ولكن انتخابهم ليس سوى تقديمهم للوظيفة ، اذ انهم يستمدون سلطاتهم من تعيين التلاكاتكوهتلي لهم . ويحدث احيانا ان يفرض هذا الاخير بما له من سلطة ، اشخاصاً لم ينتخبوا . فالسلطة تأتي من اعلى لا من اسفل . كل مواطن يستطيع مبدئياً شغل اعلى الوظائف . ولكن ابناء التكوهتلي يستفيدون عملياً من ثقافة عليا يحصلونها في احد الاديرة ، « كلكاك » ، بدلا من الدخول الى مدرسة الكلبولي . فبينهم يختار التلاكاتكوهتلي بالترفضيل السفراء والقضاة وحكام المدن وموظفي الادارة المالية ورؤساء الكهنة . اما بين اكابر الموظفين ، فنائب التلاكاتكوهتلي ، او « سيواكواتل » ، يكون ابدأ أحد حفدة « تلاكالاتزين » ، شقيق « ماتكوهزوما » الاول . ويختار اهم موظفين بعده من بين افراد عائلة التلاكاتكوهتلي : يورث التكوهتلي ابناءهم الراضين التي اقتطعتهم اياها الحكومة للاستثمار بمثابة مرتب سنوي . فتتكون بذلك املاك خاصة على حساب الاملاك العامة ، وتزرع هذه الاملاك الكبرى على ايدي فداديين فلاحين مجهولي المنشأ يعقد التكوهتلي معهم مشاركات زراعية لقاء اأوات واعمال تسخير . يتسلم التكوهتلي النصيب الاكبر من الضريبة المفروضة على المواطنين والجزية المفروضة على المدن المغلوبة الداخلة في الاتحاد . فتضاف بذلك ثروة منقولة الى الثروة المقارية . وهكذا تبرز شيئاً فشيئاً بين جمهور المواطنين ارستوقراطية متسلسلة السلطات . اما التلاكاتكوهتلي ، « والد ووالدة » المكسيكيين ، فتتسع سلطاته . فقد رأى الاسبانيون ، في « موكتزوما » الثاني ، التلاكاتكوهتلي منذ السنة ١٥٠٣ ، امبراطوراً محاطاً بطبقة من النبلاء الوراثنين .

في هذا المجتمع العسكري والديني ، تكون مجتمع غريب عن مبادئه لا يطلب سوى الربح

التجاري . فقد تنظمت في مكسيكو في السنة ١٥٠٤ على غرار ما حدث في « ثلاثلكو » التي فتحت في السنة ١٤٧٣ ، في الأرجح ، تماونيات تجار استحصلت على احتكار التجارة الخارجية : تصدير مصنوعات الحامات المستوفاة جزية من المفلوبين ، واستيراد المصنوعات البذخية . وقد ألف التجار مجتمعاً مقلداً . فالتاجر تاجر أباً عن جد ولا يصبح تكوهتلي . التجار وضعا يفضون الطرف في تنقلاتهم ويرتدون ممطفاً ملوناً ويخفون ثروتهم . ولكن ثروتهم ترفع طبقتهم في المجتمع . وبمجاز قانوني يعتبرون جنوداً من انساب الامبراطور ؛ ابناؤهم يربون في الكلكاك ؛ يحق لهم تقديم الذبيحة « هويتزيلوبوشتلي » ، وستلحق روحهم بالشمس على غرار روح المحاربين ؛ وقد أخذ بعض كبار الاسياد يتخذون من بناتهم زوجات ثانوية . وهكذا برزت ، بالاضافة الى طبقة النبلاء ، طبقة من « البورجوازيين الرأسماليين » .

ان شمس الربيع الفتية ، « هويتزيلوبوشتلي » ، التي ولدت من عذراء ،
تدلل الديانة
تكاثر الذبائح البشرية هي اله الحرب وهي ما اصبح الاول بين الآلهة . لها كرس المرم
الرئيسي في « تنوشنتلان » ، ولأجلها تكاثرت الذبائح البشرية . ولا
غرو فبالذبائح البشرية ترتبط كل حياة هذا العالم ، لكي تتابع الشمس والنجوم طريقها ، ولكي
تكلل دورات الحياة النباتية ، يجب اراقة الدم البشري . الحرب ، التي توفر الضحايا ، مقدسة .
المحارب والكاهن يصارعان العدم بدون توقف . اقيم برج في طرف السطح الاخير الذي يعلو
هرم تنوشنتلان الكبير . وفي احدى القاعات الكبرى المظلمة اقيم مذبحان تغطيها اخشاب
منقوشة . كان بالامكان ، حين تألف الاعين الظلمة ، رؤية خلقتين جسيمتين ريلتين ، تتركأنليوكا ،
شمس الصيف ، منضج الحصاد ، روح العالم ، محفورا في حجر الاوبسيديين الاسود ، تلتف حول
جسمه شياطين صغيرة اذناها اشبه باذنان الثعابين ، ووجهه أشبه بمخطم الدب ، وعيناه براقتان ،
وهويتزيلوبوشتلي ، المحارب ، الانجل ، الذي تلتف حول بطنه ثعابين كبرى من ذهب .

امامها ضحى الكهنة بأسرى الحرب او بالاطفال ، يلقونهم ارضاً ويلوون جسمهم الى الراء
حتى يجذب الصدر . يفلع الصدر حينذاك بضربة سكين صوانية . وينتزع القلب ويلقى في
بجرة يحرق فيها البخور ويحمل امام نائيل الآلهة التي ترش بدم الضحايا . ويقطع الجثثان ويقدم
في اللوامم الطقسية . يسود الغرفة جو فساد وثانة . الجدران والارض ترشح دماً يتحول ، حين
يحف ، الى طلاء لزج سوداوي اللون . التهجير يقزز النفس . اما الكهنة ، المرتسدون ثوباً
قطنياً قائماً يتقطر الدم منه ، فيبدون كمن اختطف بالروح ، شعورهم الطويلة ملطخة بالدم ،
وايديهم ملوثة بالدم الحديث الازاقة ، واصابعهم مرتعدة ومرتعشة ، ويعرضون تشوهات
جسمية فظيعة ، لا سيما آذاذا مزقها معظلمهم لرش وجه الآلهة بدمائها . ولا غرو فان دماء بعض
الآلهة قد بذلت في سبيل خلق الشمس وحركتها .

عندما يخرج المرء من القاعة ، يشاهد معبد « كتراكوانلكس » ، اله الرياح ومبتكر كافة

الفنون الذي تشوى فيه لحوم الضحايا . صنع مدخله بشكل شديق مفتوح تبرز منه الاسنان ، على غرار مدخل جهنم في « اسرار » القرون الوسطى .

رافقت الذبائح في الاعياد الكبرى السنوية الاربعة عشر اناشيد الشعب تكريما للآلهة . الناس كلهم يثملون لان الثمل اعتبر مقدساً في هذه الظروف ؛ الشرائع المدنية كلها تعلق ، ويرافق وليمة اللحم البشري الطقسية حرية جنسية مطلقة . ويقدر عدد الذبائح البشرية بمشرين الف ضحية سنويا .

لعل هذا الشعب الذي نظر اليه الاسبانيون عند قدومهم وكأنه الشياطين بالذات ، كان في مرحلة المخطاط . فقد دلت بعض الاطلال والحطام على انه توصل في بعض النقاط الى معارف هندسية وزراعية وصناعية دونها معارفه في اواخر القرن الخامس عشر . ومها يكن من الامر فان امبراطوريته ، الحديثة العهد والمنشأة في وقت قصير ، لم تكن راسخة الاركان . وما كان المغلوبون ليقربوا سوى ساحة للثورة والمنافسون سوى ساحة للهجوم .

٣ - حضارات عصر الشبه حضارة الـ « انكا »

جاءت مواجهة الاسبانيين لارفع حضارة في آخر المطاف . وصلت المعلومات الاولى الى باناما في السنة ١٥٣٢ . ولكن « فرنسوا بيزار » لم يشرع في الفتح الا بعد انقضاء عشر سنوات .

يتوفر للؤرخين ، بالاضافة الى عدة أثرية ضخمة ، مؤلفات رصينة مبنية على الملاحظات الشخصية اثناء الفتح ، او على استقصاءات اجريت مع الهنود الباقين على قيد الحياة بعد الفتح . واهم مؤلفات الاختصاصيين هي « تاريخ العالم الجديد » لليسوعي « برنابا كوبو » ؛ « تاريخ حوادث البيرو » لـ « بدرو دي شيزا » ، و « ليون » ، احد جنود بيزار ، الذي اجتاز امبراطورية الانكا من الشمال الى الجنوب ووضع يوميات استفاد منها في كتابه : « حصيلة وتفاصيل » سيرة « خوان بيتانزوس » ، الذي كان قد تزوج من ابنة « اتاهوالبا » آخر اباطرة الانكا ، وتكلم لغة الكيشوا وشاهد انهيار الامبراطورية ؛ مؤلفات « خوان بالودي اوندغارديو » حاكم كوزكو ، الذي اجرى في السنة ١٥٥٠ تحقيقا حول شكل حكم الانكا وديانتهم ؛ واخيراً التحقيقات حول تاريخ الانكا وعاداتهم التي اجريت بين السنة ١٥٦٩ والسنة ١٥٨٢ ، بامر من نائب ملك البيرو ، « فرنسيسكو دي توليدو » . اما معظم المعلومات التي يوردها « غارسيلازو دي لافيغا » والتي كانت موضوع ثقة لفترة طويلة من الزمن ، لانه كان ابناً لجندي اسباني واميرة من أميرات الانكا ، فلا يعيرها الاختصاصيون اليوم اية همة .

كانت امبراطورية الانكا حديثة العهد عند قدوم الاسبانيين . فقد ارتسمت في الثلث الاول

من القرن الخامس عشر . وكان الانكا حتى ذاك التاريخ محصورين في مدينة كوزكو تقريبا . وكانت الشعوب ، حتى مداخل المدينة ، شبه مستقلة . دخل الانكا حروبا كثيرة ، ولكنهم كانوا يكتفون بالسلب وفرض الجزية ، اذا ما تغلبوا على سكان احدى المدن ، ويعودون الى مواقعهم .

بذل المحاولات الاولى ، في سبيل تنظيم الفتوحات ، امبراطور الانكا الثامن ، « فيراكوشا » . ولكن الامبراطورية ما زالت صغيرة الرقعة . وفي شيخوخة فيراكوشا ، هاجم كوزكو هنود من الشمال ، هم الـ « شانكا » ، اول شعب محارب في ذاك العهد . تولى الدفاع ابن فيراكوشا ، يوبانكي ، وصدهم . ثم قاد جيش الانكا وهزم الشانكا تكراراً في اراض منبسطة . فبسط الانكا نفوذه على البيرو دفعة واحدة .

توج يوبانكي في السنة ١٤٣٨ ، بعد وفاة أبيه ، وحمل اسم « باشاكوتي » . فوسع سيطرة الانكا جنوباً حتى بحيرة تيتيكاكا التي بلغها في السنة ١٤٦٣ والتي وجد الـ « ايمارا » بالقرب منها ، وشمالاً حتى « كيتو » . وهو انما وضع القواعد الاولى لنظام الانكا الاداري .

جلس ابنه « توبا » على عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٧١ حتى السنة ١٤٩٣ . واصل فتوحات أبيه وهزم سكان « كيتو » ، الـ « كارا » ، واستولى على ما يؤلف اليوم بوليفيا وشيلي حتى مدينة « كونستيتوسيون » الحالية . واحتل ، في ما أصبح الارجننتين ، الانجساد الشمالية الغربية ومنطقة « توكومان » . وهو الذي أعطى تنظيم الانكا الاداري مميزاتة النهائية ، في الارجح .

خلفه « هويينا كاباك » . اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة ١٤٩٣ حتى السنة ١٥٢٧ وواصل الفتح . فبلغ ، الى الشمال من كيتو ، الحدود الحالية بين الاكوادور وكولومبيا . قمع ثورات عديدة وسار قدماً في تنظيم الامبراطورية . عند وفاته ، افاد الراصدون في « تومبز » بان « مسوخاً غريبة لحبانية تقيم في بيوت كبيرة عائمة » تطوف في البحر . لم تكن هذه المسوخ سوى الاسبانين بالذات .

لسنا ندرك تماماً المبررات الاقتصادية لحروب الانكا . فكانت معظم البلدان المحتلة من الفقر بحيث اضطر الانكا لأن يدوها بالمواد الغذائية . اضاف الى ذلك ان امطار منطقة الاندس غير منتظمة وارضها الزراعية ضيقة ومحصورة في تخوم المناطق البركانية . فكان الجوع من ثم خطراً دائماً مداماً . لذلك فان الفتوحات قد انجزت في سبيل المجد اولاً ، وفي سبيل ايجاد عمل بعيد عن المدينة للقادة ومنهم بذلك عن الاقصاد على الثورة . وقد نظرت اباطرة الانكا الى الحرب اخيراً كما الى حملة عسكرية مقدسة تستهدف نشر ديانة الانكا .

سبقت العمليات العسكرية مساع دبلوماسية . أوفد المندوبون الى القبائل للتشديد على قوة الانكا ومخادير المقاومة ، ولعرض الوراثة على الرؤساء مع امتيازات اخرى كثيرة . وقد

فأرض المندوبون ، على العموم ، اناساً لا يتمتعون بسلطة ثابتة يمثل نظام الانكا في نظرهم تقدماً كبيراً . لذلك غالباً ما جر خضوع الرؤساء الى خضوع القبائل .

وان لم يحدث ذلك ، فلا مناص من الحرب . الانكا كلهم ملازمون بالخدمة العسكرية . الجيش مجهز تجهيزاً حسناً بسيوف من الشبه وفؤوس من الحجر ومقاليص وتروس ودروع من زرد . ينتقل الجيش صفوفاً منظمة ، ولكنه لا يعرف ، على ما يبدو ، خوض المعركة او المناورة ، كلا منظماً . فلا تلبث المعركة ان تتحول الى مجموع معارك بين افراد . ينظم الجيش حركاته وفقاً لتنبؤات المرافين والعائفين . تقدم الذبائح قبل المعركة ويعزى النصر للآلهة .

استولى الانكا على بعض الممالك احياناً ، كملكة الـ « شيمو » ، بين ليا و كيتو ، التي عرفت طبقة من الاشراف الوراثيين . الا انهم اخضعوا في اغلب الاحيان عدداً كبيراً من القبائل لا تخضع لأي تنظيم سياسي ، وشتاتاً من الـ « أيلو » . اما الـ « ايلو » فوحدة انتاجية ، او رهط من الانسباء المجتمعين للقيام بعمل مشترك في مساحة معينة ، اشبه بالزمرة اللغونيكينية .

ما إن يستولى الانكا على اقليم من الاقاليم حتى يرسموا له مصغراً نافراً من الغرين تبرز فيه الجبال والادوية والانهار والقرى والحقول المزروعة ، الخ . يحصون السكان ويدونون النتائج بواسطة حبال قصيرة مزودة بعقد « كيبو » كانت لهم بمثابة اختزال . بعد الفتح الاسباني ، املى بعض اليسوعيين مبادئ دينية على عدد من البلديين المتقدمين في السن . دونها هؤلاء بعناية بواسطة عدد من العقد . ثم رددوا بواسطة عقد الكيبو اللاهوت الذي علمه اليسوعيون . وكان لدى الانكا دور كيبو ، اشبه بدور الكتب ، تتضمن شتى الاحصاءات عن الامبراطورية .

ترسل الكيبو والمصغرات الى الامبراطور الذي يدرسها ويأمر باعادة توزيع القرى والسكان . وانما كان لا بد من مجهود جماعي كبير لتوسيع الاراضي الزراعية باحداث الارصفة الترابية ، وللري بواسطة الاقنية ولتجويد التربة بسجاد الـ « غوانو » . وكان قد سبق للايمارا ان سلكوا هذه الطريق بداعي الحاجة . وكانت القرى ، قبل الفتح ، قائمة على مرتفعات بعيدة عن الحقول . فأسكن الانكا المغلوبين في قرى جديدة قريبة من حقولهم بغية مضاعفة انتاج العامل . واعادوا تكوين الـ « ايلو » المحدود باضافة عدة عائلات مختلفة اليه . وجمعوا عدداً من الـ « ايلو » في قبيلة واحدة عدداً وجمعوا في قبيلة كبرى واحدة عدداً من القبائل الصغرى . واذا لم يبرهن السكان عن طواعيتهم ، اقصوا العصاة واستبدلهم بمستعمرات عسكرية من الكيشوا

يرسلون ابناء الرؤساء الى كوزكو للتخلى بأخلاق الانكا . يتابع هؤلاء الابناء طيلة سنوات اربع دروساً عملية . في السنة الاولى : لغة الكيشوا ؛ في الثانية : لاهوت وطقوس ؛ في الثالثة : تدرب على الكيبو ؛ في الرابعة : تاريخ الانكا وتقاليدهم السياسية . الامبراطور يعين الرؤساء المحليين موظفين . يبادر الانكا الى بناء مخازن للمواد الغذائية في البلاد المحتلة

حيث يكون مستوى الحياة منخفضاً جداً على العموم . ويتمهدون تغذية السكان . وينظمون العمل . ويفرضون الكيشوا لغة ادارية .

تم التوحيد بسرعة فائقة . زالت مئات اللغات السابقة للفتح . لم يبق سوى الكيشوا والايمارا وربما لغتان حضاريتان اخريان . استمرت لغة الكيشوا في العهد الاسباني . نسي البلديون مؤسساتهم ، والتنظيم الوحيد الذي بقيت له قوته بعد الفتح الاسباني هو تنظيم الانكا . اعتقد بعضهم ان اركان امبراطورية الانكا تعززت ، قبيل قدوم الاسبانيين ، بثورات المفلوبين من شيمو وكارا انتصروا لأحد ابناء الامبراطور المتوفى في الارجح . ولكن بعض المؤرخين لا يمتثلون بواقع هذه الثورات ويردون الاضطرابات الى مجرد منازعة حول الخلافة . لم يكن هنالك من نظام خلافي . كانت الامبراطور يعين بين ابنائه ، المولودين من خمسين او ستين امرأة من نساء حرمه ، الابن الذي يريده خلفاً له . ولكن « هويانا - كاباك » توفي متأثراً بعرواء دون ان يستطيع اجراء هذا التعيين . فكان ان هواسكار ، بكر ابنائه من امرأته الرئيسية ، اعلن نفسه امبراطوراً . ولكن اخاه من امرأة اخرى ، اتاهوالبا ، الذي كان في كيتو ، على رأس الجيش الكبير المحشود لمحاربة سكان كولومبيا الحالية ، اكد حينذاك ان « هويانا - كاباك » قد قسم امبراطوريته ، وهو على فراش الموت ، الى شطرين متساويين احدهما لهواسكار ، والثاني له . فنشبت الحرب بين الشقيقين ، وكان النصر لحليف اتاهوالبا قائد الجيش المتحرك . ولكنه لم يفكر بعد ذلك بتقسيم الامبراطورية التي يراها بعض المؤرخين طويلة جداً : لم يكن من ضرورة لذلك .

توفرت لامبراطورية الانكا وسائل انتاج تفوق وسائل امبرطورية الازتيك . فقد استعمل الانكا المحراث الرّجلي ، وهو اشدّ بعضاً تبلغ ١٨٠ م طولاً ، مزودة برأس شبيه صلب وبركاب يتبع غرزها في الارض بواسطة الرجل التي ينوء عليها الفلاح بثقل جسمه . لذلك كانت حراثتهم اعمقاً ، وامكن القيام بها في اوعر تربة . وكانت مسلّحين مزودة بشفرة شبيهة عريضة جداً تمكن من تهشم اشد المدر قساوة . وكان هاونهم المعد لسحق الذرة الصفراء افضل الى حد بعيد من هاون المكسيكيين . فقد استعمل هؤلاء اسطوانة يجب التثقيب عليها بقوة . اما هاون الانكا فكان مؤلفاً من قاعدة مربعة الزوايا توضع عليها الحبوب ثم يوضع فوقها حجر آخر ثقيل جداً ، وحينذاك يصبح بإمكان فتاة في العاشرة او الثانية عشرة من سنّها تحريك الحجر الأعلى الذي يسحق الحبوب بمجرد حركته . فكان تحضير الطحين من ثم اسرع منه بواسطة الاسطوانة المكسيكية ، ولم يستلزم تجميد شخص كبير . وللحياكة كان المكسيكيون يفرزون وتدا في الارض ويثبتون فيه قضيبين خشبيين فتجشو الحائكة على احدهما وتركب خيوط السدى بين القضيبين . وترفع بعد ذلك الخيوط بتعاقب مطرد بواسطة عصا وتدخل المكوك بين الخيوط المرفوعة والخيوط غير المرفوعة . اما الانكا فقد ارتأوا وربط القضيب الثاني يحسم الحائك الذي يستطيع بذلك شد النول اليه

دون الجبوء الى ركبتيه او يديه ، بمجرد انحناء منه الى الوراء ، بسهولة ودون عناء يذكر ، فتبقى يداه طليقتين ، وتزداد سرعة العمل ازدياداً كبيراً . واتاحت لهم الخول الشبيهة نقل حجارة اكبر ؛ كما اتاحت لهم المطارق والسكاكين البرونزية معالجة الحجر معالجة سريعة . فيتضح من ثم ان طاقتهم الانتاجية كانت فوق طاقة المكسيكيين الى حد بعيد .

وتفوقوا عليهم بوسائل النقل ايضا . فقد ربي الانكا حيواناً داخناً هو الجمل الاميركي الذي يستطيع ان ينقل بين ٢٠ و ٤٠ كيلوغراماً ويقطع بين ١٥ و ٢٠ كيلومتراً في اليوم . يضاف الى ذلك استفادة الانكا من لحم هذا الجمل وصفه . وشق الانكا شبكة طرقات ؛ طريقين من الشمال الى الجنوب ؛ تحاذي احدهما الشاطئ ابتداء من « تومبيس » حتى « اوكويبا » . يتراوح عرضها بين اربعة وخمسة امتار في الاودية المروية ، وتحيط بها جدران واشجار مثمرة وقناة ماء ، ولا تعتمدى مسلكا بسيطاً في الصحاري حيث ترسم بالآلات ؛ وتمر الثانية في الجبال المرتفعة ابتداء من حدود كولومبيا والاكوادور حتى توكونمان ، مروراً بكيتو وكوزكو وبحيرة تيتيكاكا ؛ وهي اضيق من الاولى ، اذ انها غالباً ما لا تتجاوز المتر عرضاً ؛ ولكنها جهزت بالسلام في اوعر المنحدرات ؛ ورصفت احياناً بحجارة مسطحة ؛ وطرقاً معترضة تصل المدن بالشاطئ والمدن ببعضها ايضا . واقامت هنا وهناك ، وهناك ، على شبكة الطرقات ، مخازن مواد غذائية لتأمين المسافرين ؛ ومراكز عدائين تتبّع نقل خبر بين ليا وكوزكو ، اللتين تفصلهما مسافة ٢٤٠ كيلومتراً تقريباً ، في ثلاثة ايام ، بينما اقتضى للبريد الاسباني ١٣ يوماً على ظهور الاحصنة ، في السنة ١٦٥٠ . وانشئت فوق الانهار والاودية جسور كبرى ، مملقة ، قوامها خمسة حبال ضخمة متوازية قطر الواحد منها ٤٠ سنتيمتراً ، وحبال اخرى معترضة ، تعلوها كلها اغصان الأشجار . وهكذا استطاع الانكا ، في بلاد توزعت مناطقها الزراعية بين شواطئ البحر وقمم الجبال ، ان يستفيدوا ، للتموين ، من محاصيل المناطق الحارة والمناطق المعتدلة والمناطق الباردة .

كل الحقول الزراعية ملك الانكا . بعضها يخص للحكومة ، وبعضها لتمهد المعابد ، وبعضها يوزع للاستثمار على الافراد . ولكن العمل مشترك في كل الحقول ، ينفذ تحت اشراف مدير وتنشد خلاله الاناشيد الدينية . كل المنتجات موحدة . الخزفيات تصنع بالجملة ولا تعتمدى نماذج معدودة ذات طابع عملي .

الديانة هنا ايضا تنسب صفات البشر الى قوى الطبيعة ، وتنطوي على زون متسلسل السلطات . ولكن الانكا وصلوا الى مفهوم اوضح من مفهوم الازتيك ، والى اجلى مفهوم لكائن اسمى لا اسم له ولا بداية ولا نهاية ، خالق كل الكائنات وسيدھا المطلق ، عايش في السواوات ، ويأتي بين حين وآخر الى الارض ، ويمثل بصورة انسان . ان مذهب التشبيه هذا ينطوي على تقدم في الارجح . وهو يعني بصورة اكيدة ان الانكا تصوروا الاله شخصاً متميزاً عن الكون ، والديانة شائناً خاصاً ، وحديتاً بين الانسان والاله .

وتفوق الانكا في تعاليمهم الاخلاقية ايضاً . فالذهاب الى الفردوس او الى جهنم ، عند الازتيك ، ليس مشروطاً بنوعية الاعمال بل بظروف الموت . اما عند الانكا فالملت يذهب الى الفردوس ، الى السماء ، ليعيش مع الشمس ، اذا كان قد قضى حياة صالحة . ويذهب الى جهنم ليقاسي الجوع والبرد في جوف الارض ، اذا كان قد ارتكب اعمالاً تسترذها التعاليم الاخلاقية . كانت الغاية من الاعتراف بالخطايا عند الازتيك تجنب عقاب القضاء المدني ، اما عند الانكا ، فالهدف من الاعتراف بالخطايا هو الحصول على حل من اهانة الإله ، والخطايا هي : القتل ، السرقة ، الزنى ، افساد الاخلاق ، عصيان الامبراطور ، الاهمال في عبادة الآلهة . اما الكفارات فهي الصوم والاغسال المطهر ، ولا سيما الصلوات .

الا ان الديانة ابقت على ذبائح الاولاد ، بالمئات ، حين يعتلي الامبراطور العرش او يصاب بمرض ، وفي حالات المجاعة والهزيمة والطاعون .

مركز المجتمع العائلة الكبرى ذات النسب الواحد لجهة الاب . الزواج محصور في نطاق العائلة . تجتمع العائلة حول المومياءات لمباداة الاجداد . لذلك تتألف المدن من عدد من الحظارات يقابل عدد العائلات الكبرى ويضم كل منها خمسة او ستة بيوت . وتتوزع العائلات الكبرى الى وحدات عمل ، « ايلو » ، حول جد اسطوري . يخصص الزوجان سنوياً بقطعة ارض يستثمرانها وتكفي لعائلتها ، « توبو » . ويضاف اليها نصف « توبو » كلما رزقا ولداً .

عم « باشاكوتي » نظام الأيلو على كل ادارة الامبراطورية . كل امبراطور ، ابن الشمس ، يتمتع بسلطة مطلقة ولكنه ملزم باحترام العرف وتوفير الاود لرعاياه . ولكل امبراطور حريمه وابناء كثيرون . الاعقاب الذكور المنتسبون الى امبراطور واحد يؤلفون « ايلو ملكياً » مسؤولاً عن عبادة الجد . كان عدد الاباطرة قد بلغ ١١ في السنة ١٥٣٢ ، فكان في كوزوكو ١١ ايلو ملكياً . وقد ضم ايلو امبراطور الانكا الاول ، « مانكو - كاباك » ، خمسين عاقب . وارتفع هذا العدد الى ٥٦٧ في السنة ١٦٠٣ . الامبراطور يختار من هذه « الأيلوات » الملكية كافة كبار موظفي الادارة .

اعضاء هذه « الأيلوات » الملكية هم الانكا بالنسب . ولكن الانكا انشأوا طبقة نبيلة من الانكا بالامتياز ، تضم الرؤساء المحليين الذين يتكلمون الكيشوا وانسألم الذين يربون في كوزكو . واخيراً نظموا طبقة نبيلة ثالثة وراثية دنيا تضم موظفي الادارة الذين لا يتكلمون الكيشوا ، « كوراكا » . كل هؤلاء النبلاء موظفون معفون من الرسوم واعمال التسخير ، يمتاشون من محاصيل حقول الحكومة ويتقبلون الهدايا من الامبراطور ، الزوجات ، الاقشة ، للرياش ، الاواني ، الجمال الاميركية ، اراضي الاستئثار ، الخ . فنجم عن ذلك تمييز بالثروات ، الا ان واحداً لم يملك وسائل التاج .

منذ السنة ١٤٦٠ قسمت الامبراطورية الى اربع حكومات ، وقسمت كل حكومة الى

ولايات تضم مقاطعات ، وضمت كل مقاطعة عدة « ايلوات » . يتولى ادارة الحكومة « آيو » ، يختار من عائلة الامبراطور . رؤساء الحكومات الاربعة يؤلفون مجلس الدولة . ويتولى السلطة في كل ولاية حاكم انكا يميل طبعا الى جعل منصبه وراثيا ويجمع في شخصه الصلاحيات القضائية والادارية . ويتوزع الوظائف الاخرى ، وراثيا وبالتسلسل ، « رؤساء الـ ١٠٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ٥٠٠٠ » ، و « رؤساء الـ ١٠٠٠ » ، الخ ، حتى « رؤساء الـ ١٠ » .

الامبراطورية لا تعرف نقداً ولا ضريبة . ولكن الجميع يخضعون للعمل القسري . المواطنون موزعون طبقات بحسب سنهم وطاقتهم على العمل . لا يطلب منهم سوى القيام باعمال صغيرة بعد بلوغهم الخمسين . الجميع ملزمون بالعمل في حقول الحكومة وحقول الكهنة وحقول الجماعة وحقول الجيران . ولهم قدوة في ذلك بالامبراطور ورجال البلاط والرؤساء . ولكن مدة العمل تختلف باختلاف مراتب المجتمع . كل ما لا يترك لاستهلاك الافراد يخزن في مخازن الدولة حيث يجمع كل ما هو ضروري لاعالة الجيش والنبلاء والموظفين والارامل والشيوخ والمقعدين والصناعيين وعائلات الجنود المحاربين ، وموظفي البريد وعمال المناجم ، والشعب كله اذا اجذب الحصاد .

كل مواطن ملزم بالـ « ميتا » ، بالاضافة الى العمل في الحقول . فالحكومة تصادرسنويا هندايا من اصل عشرة . الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٢٠ سنة يستخدمون كعدائين لنقل البريد ، والرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و ٣٥ سنة يستخدمون في المناجم او المشاريع العامة الكبرى او فرق المشاة . ويصبح غيرهم خدماً او موظفي ادارة .

يعنى من الميتا والعمل في الحقول الـ « ياناكونا » ، او اعضاء الفئات التالية من الصناعيين : النجادة ، الحدادون ، الخرافون ، الصاغة ، صانعو الاسلحة ، نجاروا الابنوس ، الذين تميلهم الحكومة . لا يعملون الا في المخازن الامبراطورية ، ويوزع الامبراطور انتاجهم على موظفي الادارة بحسب الخدمات المؤداة .

ولما كان الانتاج يتجاوز الحاجات بصورة عامة ، تعاطى الامبراطور تجارة رسمية كبرى ، وجاز لكل رئيس عائلة مقايضة فائض انتاجه بفائض انتاج سواء . فنجم عن ذلك تفاوت في الثروات . ولكن هذا التفاوت لم يكن ليتيح الانتقال من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية اخرى او تقلك وسائل الانتاج .

راقب الانتاج والاستهلاك جيش من المفتشين . وكانت العقوبات قاسية جداً ؛ فيلقى مثلاً بالموظف الذي يخالف واجبات منصبه الى الثعابين السامة ؛ ويضرب المواطن الكسول بمحجر ثقيل على سلسلته الفقرية .

لم يعتبر الهنود انهم اجرؤا صفقة رابحة بانتقالهم من حكم الانكا الى الحكم الاسباني . لا ريب في ان حكم الانكا كان استبدادياً ، ولكنه حاول ان يكون عادلا وان يوفر لكل فرد ما يحتاج

اليه في حياته . الا ان الهنود اعتبروا الحكم الاسباني استبداد فاشحين ، ظالماً ، يشذرع بالحرية والملكية والمنافسة ولا يكثرث عملياً لرفاهية الفرد ولا لحياته نفسها . ويبدو ان الهنود ، حتى المغلوبين وابناء المغلوبين منهم ، تحسروا على حكم الانكا .

يتبين من كل ما سبق ان الاوروبيين وجدوا امامهم ، في كل مكان ، شعوباً منقسمة بعضها على بعض ، وسائل عملها دون وسائل عنهم ، اضطرت الى الاستسلام عاجلاً ام آجلاً . والشعوب التي تغلب الاسبانيون عليها بسرعة وحققوا في مناطقها حضارة مختلطة يغلب فيها الطابع الاوروبي ، هي بالضبط ابعد الشعوب رقياً وتقدماً ، اي شعوب المكسيك والبيرو التي الفت التنظيم السياسي والخضوع لسلطة حل محلها الاسبانيون ، والتي كانت قبائلها اقل القبائل بعداً عن الاوروبيين عقلية وتفكيراً . اما في المناطق الاخرى فقد برهن الهنود عن عناد في العداة ونفور من كل اندماج . وغالباً ما ادى استيطان الاوروبيين الى افناء مثل هؤلاء الهنود او الى اقصائهم عن مناطقهم .

الفصل الثاني

الأوروبيون والأعراق الملونة في أمريكا

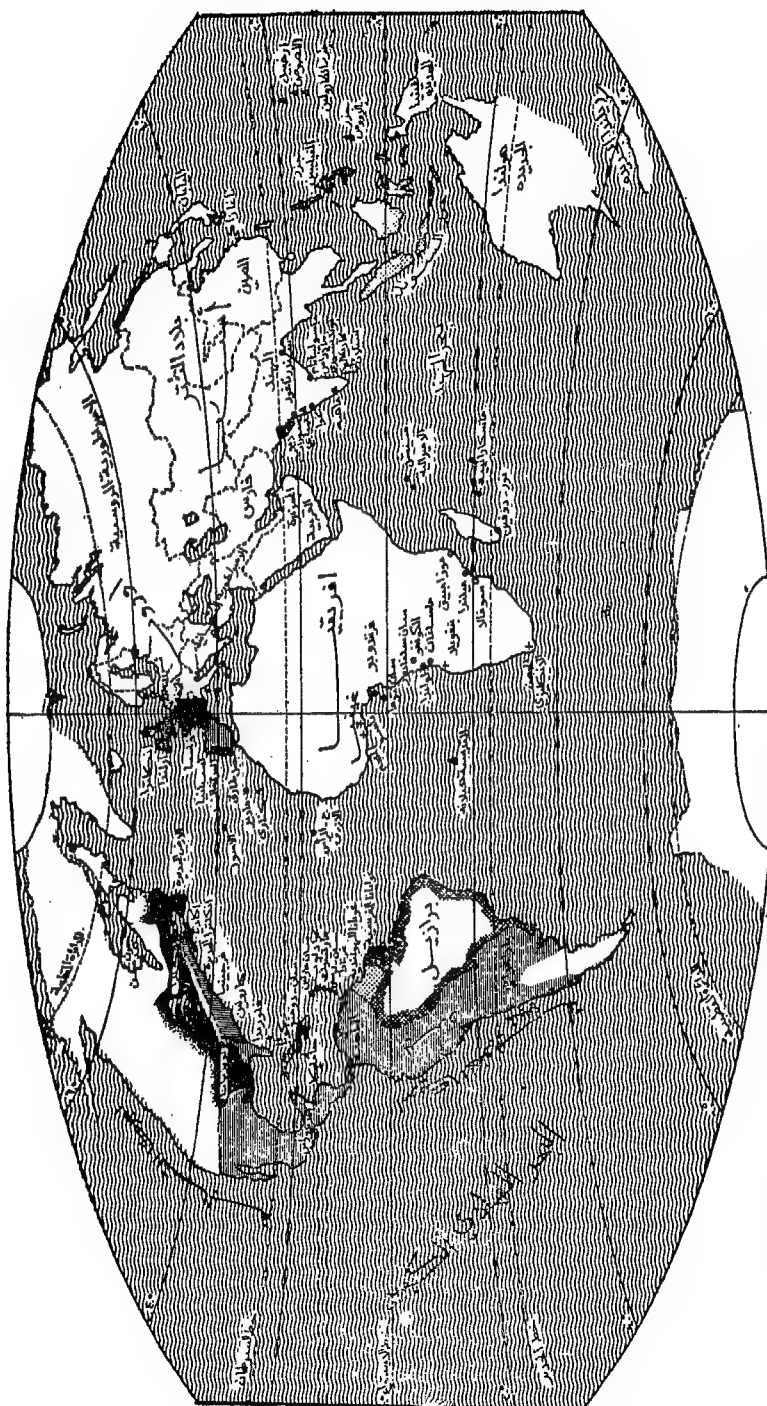
١ - الأوروبيون في أمريكا

الفضاء الأوروبي الجديد

كان الهدف من رحلة كولومبوس البحث عن الهند ، وحين بلغ اليابسة
اكتشافات عظيمة :
قارة أمريكا الجديدة
اطلق على البلديين الاول الذين رأهم اسم الهنود الذي احتفظنا به على الرغم
من عدم انطباقه على الواقع . وصل كولومبوس في رحلته الاولى الى هاي تي
التي اسمها « اسبانيولا » وترك فيها المستعمرة الأوروبية الاولى وعاد الى أوروبا في شهر كانون
الثاني من السنة ١٤٩٣ مقتنعاً بأنه انما بلغ اراضي « سينغو » الامامية ، اي اليابان . فلم يبق من
مسألة ، في نظره ونظر معاصريه ، سوى بلوغ القارة نفسها وبلاط امبراطور الصين . وغني عن
البيان ان رحلات عديدة لاحقة لم تسفر عن اية نتيجة . في السنة ١٥٠٠ بلغ البرتغالي « كابرال »
بدوره شواطئ البرازيل في منطقة رأس « سان - روك » . كان الهدف من رحلة كابرال
الدوران حول افريقيا . تقيد بالتعليلات الملاحية البرتغالية ، فابتعد منذ « الرأس الاخضر » عن
الشاطئ الافريقي وتوغل غرباً رغبة منه في ان يبلغ اضيئ منطقة هدوء استوائية ، وفي ان
يتجنب كذلك الرياح والتيار المعاكس في محاذة الشاطئ الغربي لافريقيا الجنوبية . فكان من
حسن تصرفه ان التيار الاستوائي الجنوبي حمله الى البرازيل ، ثم اتاح له تيار « الفويان » ان يبلغ
جزر الانتيل الصغرى . وقد أخذ الملاحون والجغرافيون يفكرون جدياً بانهم ليسوا امام
آسيا بل امام قارة جديدة . وقدم « بالبوا » البرهسان على ذلك في السنة ١٥١٣ . انطلق من
« داريان » مع ٢٠٠ اوروبي و ١٠٠٠ هندي واجتاز مضيق باناما ، فشاهد امامه ، على مدّة
النظر ، تلالاً امواج محيط جديد ، المحيط الباسيفيكي . فازدوجت الهند ، وأصبح هنالك الهند
الشرقية ، القديمة ، الحقيقية ، والهند الغربية ، بديلة الهند ، اميركا .

كان رصيد المغامرة نحو الغرب ، في نظر الأوروبيين ، فشلاً ذريعاً ، وانهار آمال زاد من خطورته ان البرتغاليين اكتشفوا طريقاً الى الهند من الشرق ، وانه يقتضي التغلب على هذا المنافس . فغدت المسألة الكبرى منذ ذاك الحين إيجاد ممر الى الغرب من خلال الحاجز الاميركي . فجاءت رحلة « ماجلان » في السنة ١٥١٥ مأثرة رياضية لا تنطوي على اهمية تجارية تذكر . لذلك لم يكن البحث عن الممر الشمالي الشرقي وعن الطريق الى الصين اقل منه عن الامازون . فوجه الاسبانيون عدة بعثات الى جنوبي الولايات المتحدة الحالية . وكان البرتغاليون السابقين الى بلوغ شواطئ « اكاديا » و « الارض الجديدة » . وقام الفرنسيون بمحاولات جدية . فقد ارسل فرنسوا الاول في السنة ١٥٢٣ ، الى شمالي المستعمرات الاسبانية ، « فرازانو » الذي خيل له انه رأى ، وراء مضيق يبلغ ميلاً عرضاً ، البحور التي تقوم على شواطئها الهند والصين و « كاثي » ، في حين لم يكن ما رآه سوى بحيرة صغيرة ، « بمبليكو سوند » . ولكن « بحر فرازانو » الذي أبعد تدريجياً نحو الغرب قد ورد ذكره على الخرائط حتى القرن الثامن عشر . وبين السنة ١٥٣١ والسنة ١٥٤١ حمل فرنسوا الاول « جاك كارتيه » على القيام بثلاث رحلات . دخل جاك كارتيه بحري « سان - لوران » وصعد فيه حتى جزيرة « مونريال » ووضع يده على تلك البقاع باسم ملك فرنسا . وظن بانه غداً على قاب قوسين من البحر الطلق وبحر الصين . واكثر الانكليز من محاولاتهم ايضاً . فمئذ السنة ١٤٩٧ قام « جيوفاني كابوتو » ، بمساندة تجار « بريستول » ولندن ، برحلة انتهت بها الى « لابرادور » وجزيرة « الرأس البريطاني » . وفي عهد « اليزابت » ، واصل « فروبشر » و « هدسون » و « بافن » الجهود لمنفعة الشركات التجارية وعلى نفقتها ، بينما حاول السر « مفرى جلبرت » و « وولتر رالي » في « فرجينيا » مشاهدة « بحر فرازانو » .

لم يتوفق الأوروبيون الى اكتشاف طريق آسيا من الغرب . ولكنهم بخروجهم
الفضاء العالمي
الاروبي الجديد
من بحار اوزوبا الضيقة ، فتحوا خلال عقود معدودة ، بين السنوات ١٤٩٠ - ١٥٠٠ والسنوات ١٥٣٠ - ١٥٤٠ ، فضاء اوروبيا جديداً ، وأوجدوا اول اقتصاد على مستوى العالم . فبعد « سان - دومنغ » ، استولى الاسبانيون بين السنتين ١٥٠٨ و ١٥١٦ ، على « كوبا » و « پورتوريكو » . وبعد ان استقروا في البر ، عند شاطئ « اللاك » ، ثبتوا أقدامهم في مضيق داريان وبلغوا المحيط الباسيفيقي في ٢٤ أيلول من السنة ١٥١٣ ، وأسسوا « باناما » ، في السنة ١٥١٩ ، في « قشتالة الذهبية » . ومنذ السنة ١٥١٩ شرعوا في فتح المكسيك ، ثم جاء دور البيرو في السنة ١٥٣٢ . وفي الجنوب أقام بعض التجار البرتغاليين والفرنسيين في شواطئ « باراهيبيا » و « برنمبوك » و « ريو - ريال » و « رأس « فريو » وجون « ريو دي جانيرو » . انفجر الخلاف منذ السنة ١٥٢٧ بين البرتغاليين والفرنسيين . في السنة ١٥٣٤ اخذ التاج البرتغالي ينشئ القبطانيات . حوالي السنة ١٥٤٠ رسمت الخطوط الكبرى للاتلسي الاروبي ،



- ٥٠١ ■■■■ ١ - ممتلكات فرنسية
 ٤٢ ■■■■ ٢ - ممتلكات إسبانية
 ٥٢ ■■■■ ٣ - ممتلكات برتغالية
 ٤٤ ■■■■ ٤ - ممتلكات إنكليزية
 ٥٥ ■■■■ ٥ - ممتلكات هولندية
 الشكل ١٧ - العالم الاستعماري في أواخر القرن السابع عشر

الذي سيتسع تدريجياً حتى القرن الثامن عشر دون ان يتبدل جوهر طبيعته . انتقلت المساحة التي أشرف عليها الاسبانين في اميركا من الصفر في السنة ١٤٩٢ الى قرابة ٣ ملايين كيلومتر مربع حوالي السنة ١٥٤٠ . ولم يشاهد قط بعد ذلك مثل هذا التوسع السريع . ففي اقل من نصف قرن تأسس عالم اوروبي جديد ، وتبدل وجه العالم .

تحدثت دفعة واحدة ، منذ كولومبوس ، طرق اجتياز الاطلسي الاوروبي والوقت الذي تستغرقه . تنطلق الاساطيل من اشبيلية باتجاه الجنوب - الجنوبي - الشرقي حتى تبلغ تيار جزر « الكناري » ، فتسير فيه وعرسو في هذه الجزر . ثم تجتاز القوس الكبير الذي تكونه الرياح الشمالية الشرقية بين دائرتي الانقلاب ابتداء من الدرجة ٢٨ حتى نقطة تقع بين الدرجتين ١٣ و ١٤ من العرض الشمالي في جزر الانتيل الصغرى ، بين « ماري - غالانت » و « الدومينيكا » . وللمعودة يجب البحث ، صيفاً ، الى الشمال الشرقي من جزر باهاما ، عن الرياح الجنوبية - الغربية - الشمالية - الشرقية ، والمرور شمالي جزر « برمودا » ، ثم السير شرقاً باتجاه مستقيم ، والرسو في جزر « اسور » . تصرف القوافل ١٢ يوماً تقريباً من قادس الى جزر كناري . ومن جزر كناري الى جزر الانتيل الصغرى ٣٠ يوماً . ومن جزر الانتيل الصغرى الى « فيرا - كروز » ، او « نومبره دي ديتوس » ، في مضيق باناما ، ٣٠ يوماً . وفي طريق العودة من « فيرا - كروز » او « نومبره دي ديتوس » الى « هافانا » بين ٦٠ و ٧٠ يوماً ، ومن « هافانا » الى قادس ، ٧٠ يوماً . فالذهاب يعني اجتياز الاطلسي بحصر المعنى ، وهو اقصر مراحل الرحلة ، باتجاه اميركا الجنوبية ، وبمحاذي شطر كبير من المسيرة الشواطىء الافريقية ويمر بجزر ماديرا وكناري والرأس الاخضر و « سان - بول » و « فرناندو لورونها » . ولا تخلو المسيرة من الجزر الا على مسافة ٩٥٠ كيلومتراً بخط مستقيم بين رأس « سان - فنان » و « بورتو - سانتو » ، وعلى مسافة ١٧٠٠ كيلومتر بين اقصى جزر « الرأس الاخضر » وجزيرة « سان - بول » . وقد استفادت الاساطيل من الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية بين دائرتي الانقلاب بدونها منها جهد المستطاع تجنباً للرياح الماكسة . وكان باستطاعة السفن قطع المسافة بين لشبونة وريودي جانيرو في مدة ٦٠ يوماً . ولكن غالباً ما استغرقت الرحلة بين شهرين وثلاثة اشهر .

سفينه مانيل الكبرى
اتسع الفضاء الاوروبي بسرعة قصوى . فخطر للاسبانين في عهد
مبكر جداً ان يعملوا من الشاطئ الغربي في اميركا الوسطى انطلاقاً
نحو آسيا . ومنذ السنة ١٥٢٧ اندفع الاسبانون نحو بلدان الافاريه . الا انهم واجهوا صعوبة
تحديد الطريق الواجب سلوكها . فارسلت في خلال خمسين سنة عشر بعثات توفقت الى
اكتشافات هامة في الباسيفيكي ، دون ان تفلح في تحقيق المطلب المنشود . الا ان « فيلالوبوس »
ادرك في السنة ١٥٤٢ ضرورة الانطلاق من « اسبانيا الجديدة » ، وبلوغ دفع الرياح بين دائرتي
الانقلاب على ارتفاع الدرجة العاشرة من العرض الشمالي ، والاستفادة منها في السير حتى جزر

« ماريان » ، وهي رحلة سهلة تستغرق بين ثمانية وعشرة اسابيع . ولكن ما ان وصل الاسبانويون الى الفيلبين حتى وجدوا انفسهم شبه محاصرين ، فقد اصطدموا بالبرتغاليين غربا وبحدار الرياح ما بين دائرتي الانقلاب شرقا . وفي هذه الاثناء مست الحاجة اكثر فاكثرا الى الفلفل الذي ارتفع سعره في لشبونة اكثر من كل المواد الاخرى . فقام « لغازي » في السنة ١٥٦٨ برحلة اسند القيادة البحرية فيها الى العالم الفلكي الاوغسطيني « اوردانيتا » . ولعل هذا الاخير هو من اكتشف ، بعد تردد كثير ، طريق العودة ، اعني بها دفع الرياح الذي ينقل الهواء من الغرب الى الشرق في مناطق العرض المتوسطة . فعند مغادرة الفيلبين يجب الاتجاه شمالا والسير ضد الرياح بمنة ويسرة في منطقة الاعاصير الخطرة ؛ وغالبا ما تستغرق مسافة الـ ٥٠٠ كيلومتر بين خليج مانيلا ورأس « بوجادور » شهرين كاملين يجب خلالها اللجوء تكرارا الى عملية خطيرة هي اطلاق مدافع السفن في آن واحد . فيجدر والحالة هذه الانطلاق بين منتصف حزيران ومنتصف تموز بنية تجنب الاعاصير جهد المستطاع ، واستخدام سفن سريعة ومنينة . ثم يجب الصعود حتى الدرجة ٤٠ او ٣٠ من العرض الشمالي والسير ضد الرياح بمنة ويسرة باتجاه فورموزا و « ساكي - شيا » و « ريو - كيو » و « كيو - شيو » و « سيكوك » و « هوندو » وبلوغ خط عرض الرأس « بريمو » في « هوكايدو » تقريبا . ثم تدفع الرياح السفن حتى الشاطئ الاميركي عند الدرجة ٣٥ تقريبا ، ومنها لحاذي السفن شاطئ كاليفورنيا حتى « اكابولكو » . الا ان هذه الرحلة محفوفة بالاعطال وتستغرق بين اربعة وسبعة اشهر ، تبلغ نسبة الخسائر في الارواح خلالها بين ٣٠ و ٤٠ ٪ ، وكثيرا ما ترتفع حتى ٦٠ و ٧٥ ٪ . واذا استغرقت الرحلة اكثر من سبعة اشهر فينظر الى السفن الكبرى وكأنها اشباح سفن تجري التحقيق مع ملاحها سفن اكابولكو الحربية التي ترسل للبحث عنها . وانما قد تحقق بذلك الاتصال بين اوروبا وآسيا عن طريق الغرب ، عن طريق العالم الجديد ، بواسطة « سفينة مانيلا الكبرى » او بالاحرى بواسطة السفينتين الكبيرتين اللتين تسافران معا كل سنة . اجل انه اتصال هزيل ، ولكنه جمل من الفيلبين ملتقى العوالم وحصن المسيحية في وجه المسلمين والاولان .

بينما كان الاسبانويون مستمرين في التقدم خلال القرن السابع عشر ، أسهم الفرنسيون والانكليز بدورهم في توسيع الفضاء الاوروبي . فقد واصل الفرنسيون السير في الاتجاه الذي رسمه جاك كارتييه ، يدفعهم الى ذلك الازمة وسياسة الكسب التجاري . اكتشفوا شبكة مدهشة من المواصلات الداخلية ، نهر « سان - لوران » ، البحيرات الكبرى ، نهر « ميسيسيبي » ، واستطاعوا سبق الانكليز في كل مكان وتأسيس « كيبيك » (١٦٠٨) وبسط سيطرتهم على البحيرات الكبرى والد « الينوا » (١٦٧١) . واخيرا نزل « كافليه دي لا سال » في السنة ١٦٨٢ نهر الميسيسيبي وبلغ مصابه واستولى باسم لويس الرابع عشر على كل البلاد التي اطلق عليها اسم لويزيانا . وانهز سبل من المستعمرين الانكليز على الشاطئ الاميركي بين الممتلكات الفرنسية والممتلكات الاسبانية . اما عناصر تفسير هذا العدد الكبير من المهاجرين ففي انطلاقة

الرأسمالية التجارية والصناعية ، وازمة المشاريع المتوسطة ، وازمة تصوين الاملاك التي دعت الى الاعتقاد بضيق انكلترا بسكانها ، واقفال الاسواق الاوروبية بسبب حرب الثلاثين سنة ، والمنازعات الدينية في انكلترا واضطهاد المنشقين ، وثورة انكلترا ، والسير منذ السنة ١٦٦٢ على نهج نقي محكومي الحق العام الى المستعمرات حيث يصبحون مواطنين صالحين ، بعد انقضاء مدة احكامهم ، لانهم انما كانوا يحاكمون بسبب مخالفات صغرى .

زد على ذلك ان الاستعمار الانكليزي ، بسبب تقدم الرأسمالية في انكلترا ، قد تولت شركات تجارية او جمعيات ملاكين نهضت به في سبيل الكسب : الكسب التجاري والدخول العقارية . لم تتدخل الدولة في البداية الا بمنح الاحتكارات بشكل رسائل تحمل توقيع الملك بغية اجتذاب رؤوس الاموال وبانظمة تستهدف ضمان اولوية الصالح العام وسياسة الكسب التجاري . وحاول الملاكون اجتذاب المزارعين . فوزعوا البيانات ونشروا روايات المسافرين ورسائل المهاجرين واسسوا وكالات الهجرة مطمئنين في وفرة الاراضي وخصبها وتدني سعرها وارتفاع الاجور وانخفاض كلمة المعيشة وامكان العثور على المعادن الثمينة . تجمع بعض المستعمرين كتلا كثيفة نسبيا على طول الشاطئ .

وتمكن الفرنسيون والانكليز من الاقامة في جزر الانتيل الصغرى الخصبة جدا على انها خالية من المعادن الثمينة وآهلة باقوام من اكلة لحوم البشر : « كرايب » . كانت هذه الجزر داخلية في قطاع الدفوذ الاسباني . ولكن الاسبانين املوها بسبب افتقارهم الى الرجال . فاستطاع الفرنسيون ، منذ السنة ١٦٣٥ ، الاستيلاء على « سان - كريستوف » والـ « مارتينيك » و « غوادالوب » والـ « دومينيكا » و « غرنادا » و « سانت - لوسي » و « سان - برقلي » و « سان - مارتين » و « سانت - كروا » . واستقر الانكليز في « بارباد » و « نفيس » و « مونسرا » و « انتيفوا » و « انفويلا » . واحتلوا جزر برمودا وباهاما وجامايكا .

أما اسباب توزيع الاوروبيين فهي التالية : كان الاسبانيون والبرتغاليون سباقين في السفر الى اميركا ، فاحتفظوا لانفسهم الادعاءات الاسبانية - البرتغالية بالاحتكار باحتكار الاراضي الجديدة . وحصلوا من البابا على تثبيت حقوقهم ، لان البابوية كانت تطالب بسيادة دولية شاملة . ففي رسالة مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني ١١٩٩ ، اوضح انوشنتيوس الثالث لبطريك القسطنطينية بان بطرس ، حين سار على البحر ليذهب الى يسوع ، « قد عبّر بهذا السلوك عن امتياز الخبرة الوحيدة الذي يوليها حق حكم الكون كله » ، اي كافة الامم الوثنية منها واليهودية على السواء . واثبت بعض رجال القانون حق الباباوات في تفويض احتلال الاراضي الحديثة الاكتشاف الى سوام . يضاف الى ذلك ان البابا ، من حيث هو اب روحي لكافة الشعوب ، قد احتفظ لنفسه بحق تنظيم العلاقات بين المسيحيين وغير المؤمنين . وبموجب الرقيم « من بين الاشياء الاخرى » ، الصادر بتاريخ ٤ ايار

من السنة ١٤٩٣ ، وهب البابا الكسندروس السادس « الملك الكاثوليكي » كافة القارات والجزر التي اكتشفت او ستكتشف في المستقبل ، في ما وراء خط رسم على مسافة ١٠٠ فرسخ الى الغرب من جزر الأسور وجزر الرأس الأخضر . وبموجب الاتفاق المعقود في السنة ١٤٧٩ ، الذي صادق عليه البابا في السنة ١٤٨١ ، احتفظ للبرتغاليين بتجارة غينيا وأراضيها . الا ان الملك جان الثاني رفض القبول بالرقم لان السفن البرتغالية التي تدور حول رأس الرجاء الصالح كانت بحاجة الى الابتعاد مسافة كبرى عن الشاطئ الافريقي . ففقد الاسبانيون والبرتغاليون معاهدة « تورد سلاس » (٧ حزيران ١٤٩٤) : ابعد الخط الفاصل الى مسافة ٣٧٠ فرسخاً الى الغرب من جزر « الرأس الأخضر » . ولوحظ في وقت لاحق ان البرازيل و « الارض الجديدة » بقيتا في المنطقة البرتغالية . فأصدر البابا « جول » الثاني رقياً آخر أبرم الاتفاق (٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦) . وبعد رحلة ماجلان ومحاولات الاسبانيين الاولى في الفيليبين ، بات لزاماً تحديد المناطق في الباسيفيكي . كان البرتغاليون راغبين في الاحتفاظ بتجارة الافاويه ، فاستفادوا من متاعب شارل الخامس الدلية . فوافق الامبراطور في معاهدة « ساراغوسا » (٢٢ نيسان ١٥٢٩) ، لقاء ٣٥٠.٠٠٠ دوقية ، على ان يكون الخط الفاصل دائرة الطول التي تمر في الدرجة ١٧ شرقي جزر الـ « مولوك » ، وهي الجزر الفنية بالافاويه . بقيت الفيليبين في المنطقة البرتغالية ، دون ان يمنع ذلك من استقرار الاسبانيين فيها ؛ فحدثت بين هؤلاء والبرتغاليين نزاعات مسلحة عديدة .

كانت كافة الامم الاخرى مقصاة عن الاراضي الجديدة . وكان البرتغاليون والاسبانيون مقتنعين بالطابع المقدس الذي يتميز به احتكارهم ، فعاملوا التجار والرواد الاجانب معاملة القراصنة .

في القرن السادس عشر كرس بحارة وتجار الشاطئ الاطلسي الفرنسيون الاستثمار الفرنسي جهوداً تلقائية للاراضي الجديدة . ازدرى تجارهم وقراصنتهم بالحروم والآثارات ، فتوجهوا شطر البرازيل وأنزلوا فيها عملاء « خالطوا » الهنديات وأنجبوا العديد من الخلاسين ذوي الشعر الاشقر والوجه الابيض الامنش واهملوا المسيحية وتعاليمها ، وحظوا بسلطة كبرى على البلديين بروح مبادرتهم وحسن تدبيرهم وقاموا بعمل الوسطاء بينهم وبين التجار . وقد استمال هؤلاء البلديين اليهم بتواضعهم وصدقهم في المعاملة اللذين ابرزوا عجرفة البرتغاليين وخداعهم .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تساند هذه الجهود مساندة تذكر ، فكان عليها ارضاء اكثرية السكان في امة تحصر اهتمامها في الاراضي والزراعة ولا تعير اهتمامها ، في ما عدا ذلك ، الا الاتراك وآسيا . وقد تضايق ملوك فرنسا ، بوصفهم بكور ابناء الكنيسة ، من المراسم البابوية التي تمنح الاحتكار للاسبانيين والبرتغاليين . ورغبوا كذلك في ارضاء رعاياهم في اللندوك وبروفنسا وكرسوا جزءاً من قواهم للمتوسط وموانئ الشرق الادنى .

وصرفتهم كذلك عن مساندة جهود المستعمرين مستلزمات الصراع ضد آل هابسبورغ وواجباتهم في الحلف التركي . اضيف الى ذلك ان صفوف البحارة والتجار المستعمرين قد ضمت كثيراً من البروتستانت . وقام الاميرال « كسبار دي كوليني » ، بين السنة ١٥٥٥ والسنة ١٥٧٢ ، في « ريو دي جانيرو » وفي فلوريدا ، بمحاولات عدة لتأسيس امبراطورية فرنسية كان مقدراً لها ، في نظر فرنسي ذاك العهد ، ان تكون بروتستانتية قبل ان تكون فرنسية . لهذه الاسباب جميعها ، ساند الملوك المستعمرين حيناً واحجموا عن مساندتهم حيناً آخر ، وفقاً لحاجات التهويل الدبلوماسي على الحكومات الاسبانية والبرتغالية . وفي معاهدة « كانو - كمبرزيس » ، قبل « هنري الثاني » ، المشغول بتوحيد القوى الكاثوليكية ضد الهرطقة ، بأن يحتجز على السفن الفرنسية كسفن قراصنة ، بدون جدال ، في ما وراء خط طول يمر على بعض المسافة من الشواطئ الاوروبية والافريقية وفي الجنوب من دائرة انقلاب السرطان . فتخلت فرنسا عن كل محاولة في اميركا الجنوبية ولكنها احتفظت ببلد حريتها في اميركا الشمالية .

٢ - الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليتية

الاسبانيون وهنود الحضارة النيوليتية فقد تمخض الاستعمار في ذهن ملوك اسبانيا ، الملوك الكاثوليك ، لا سيما شارل الخامس وفيليب الثاني ، بشكل تمثيل او دمج . كان على الاسبانيين ان يؤلفوا شعباً واحداً مع الهنود . وكان مفروضاً ان تصبح اميركا ولاية من ولايات اسبانيا . فكان من ثم من واجب الاسبانيين تلقين الهنود كافة طرائقهم في الحياة : تبشيرهم بالانجيل اولاً ؛ ثم تعليمهم اللغة القشتالية مع كل ما تنطوي عليه من صيغ فكر واشكال حس ؛ واخيراً طبعهم باخلاق الاسبانيين : الزي ، السلوك ، الطقوس ، النظم الاجتماعية والسياسية . وكان على الهنود ان يصبحوا قشتاليين . لذلك اوصت الملكة « ايزابيل » بالزواج المتخلط . وقد اوضح قانون السنة ١٥٠٣ ان الهنود احرار ، ولا يتوجب عليهم سوى الضريبة والخدمات بأشكالها المختلفة ، على غرار الاسبانيين انفسهم .

الا ان حسن نوايا الحكومة قد عاكسه الفرق البعيد في الحضارة بين « الفاتحين » والهنود . فقد اعتبر كافة الاسبانيين انفسهم « اسياداً » او « اقوا » الى ذلك . ولم ينظروا الى علائقهم مع الهنود الا كما الى علائق السيد بقداديبه . زد على ذلك انهم كانوا اقلية ضئيلة . فتكونت عندهم ، بتأثير ردة فعل دفاعية ، رغبة ملحة في اقناع الهنود بتفوقهم . ورغبوا اخيراً في الاثراء . ولكن الذهب ، في اسبانيا ، يجب البحث عنه في رمال الانهر ، وقد رفض الهنود العمل . فارغم « الفاتحون » الارواك ، الودعاء الهادئين على البحث عن الذهب . ومنح

كولومبوس الامتيازات الاولى ، فأثار بعمله حفيظة الملكة ايزابيل التي عادت وسلمت بها في السنة ١٥٠٢ ؛ فكان ذلك كارثة حلت بالهنود . كان الهنود كثيري العدد عند قدوم الاسبانين ، دون ان يستطيع احد تحديد هذا العدد على اي حال . ولكن لم يبق منهم سوى ٤٦٠٠٠ تقريباً في السنة ١٥١٠ ، و ١٦٠٠٠ حوالي السنة ١٥٢٠ ، و ١٠٠٠٠ تقريباً حوالي السنة ١٥٣٠ . وكان الهنود الـ « تاينوس » ضعفاء البنية ، يشكون من نقص في التغذية ويكرهون كل مجهود متواصل لأنه يتنافى وتقاليدهم الموروثة . ولم تكن علاقتهم بأصحاب الامتيازات انفسهم في اغلب الاحيان بل برؤساء ووكلاء يلزمونهم بالعمل منذ الصباح حتى المساء . وكان هؤلاء الكادحون بحاجة الى المزيد من التغذية . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب خفض انتاج المواد الغذائية ، ففعل سوء التغذية فعله . زد على ذلك ان المواسي الأوروبية قد تكاثرت بسرعة واتلفت مزروعات الهنود . ولم يبد هؤلاء اية مقاومة امام الامراض الجرثومية التي استوردتها الأوروبية معهم . ففتكت بهم الحسبة والجذري ، لا سيما وانهم لم يعالجوها الا بالفطس في المياه الباردة . ولم تكف الولادات لتعوض عن الخسائر بالارواح . وبسبب افتقار الهنديات الى ما يحل محل حليب الام ، اخترن الفطام ما استطعن الى ذلك سبيلا ، فأرضعن اولادهن حتى اربع سنوات . ولكن العمل في حقول التنقيب عن الذهب استنزف حليب الامهات وارغم على الفطام باكراً جداً : فأدى ذلك الى ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال ارتفاعاً خفيفاً . وزاد في الطين بلة النتائج العاطفية لسيطرة الاجنبي ، وعزلة الافراد الموزعين بين اصحاب الامتيازات ، وفصل الأزواج عن نسايم ، والاتجار بالهنود ، والقضاء على القبائل والعشائر . فنجم عن كل ذلك حالة يأس جعلت الهنود يؤثرون الانتحار او الاستسلام للموت . اما الاسبانيون ، الذين افترقوا الى اليد العاملة ، فقد غزوا الهنود في جزر باهاما و « لوكاي » ولم يلبثوا ان افنؤم افناء تاماً . منذ السنة ١٥٠١ اخذ الاسبانون يستوردون الزوج . ولكن ائمان هؤلاء كانت مرتفعة جداً . وهو القصد في اليد العاملة الضرورية لحقول التنقيب عن الذهب ما ادى الى موجات الفتوحات المتعاقبة ، في كوبا وبورتوريكو اولاً ، وفي المضيق ثانياً . فجاءت النتائج متائلة في جزر الإنديس الكبرى ومناطق المضيق حيث كان البلديون في مستوى حضاري واحد .

ان هذه الوقائع وضعت الاسبانين امام المسألة القانونية . هل يحق لهم احتلال الهند الغربية؟ وهل يحق لهم استعباد الهنود ؟ وقد نتج عن ذلك سيل من الرسائل والمذكرات والكتب لان ملوك اسبانيا قد استطلعوا رأي تبعيهم من اصحاب الاخاذات في كل ما يتعلق بالهند . فأكد المقربون الى ملوك اسبانيا ان للملك حق تملك البلاد وان له من ثم حق الفتح . واقعدوا هذا الرأي على الرقيم « وبين الاشياء الاخرى » الذي اعطاه البابا الكسندروس السادس بورجيا في ٣ ايار من السنة ١٤٩٣ . فان البابا الذي بلغه « ان هذه الشعوب نفسها ، التي تعيش في الجزر المذكورة وشتى مناطق البر الجديد » تؤمن باله واحد ، الخالق في السماء ، وتبدو مستعدة

استعداداً كافياً لاعتناق الايمان الكاثوليكي وتلقي مبادئ اخلاقية قوية ، قد عين فردينان وايزابيل « سيدي الاراضي التي اكتشفت والتي تستكشف » مع ما يستلزم ذلك من صلاحية وسلطة كاملة وحررة ومطلقة . ومن لقب السيادة هذا استنتج ملوك اسبانيا انهم مالكو العالم الجديد . ولهذا السبب اصدر شارل الخامس في السنة ١٥١٩ امراً بضم العالم الجديد بملكيتهم الى اقاليم تاج قشتالة الملكي . ولهذا السبب ايضاً اعتبروا ان لهم الحق ، في ارضهم ، في اخضاع الهنود .

ولكن هل حق لهم استعبادهم يا ترى ؟ لم يخامر النشك المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك . وكان « اوفيدو » ابعد هؤلاء تأثيراً . اوضح نظرياته منذ السنة ١٥١٩ ضد « لاس كلاراس » ، وعاد اليها في كتابه « موجز في طبيعة الهند » ، ثم في كتابه « تاريخ الهند العام » ، الذي يعكس روح المستعمرين . يستصوب اوفيدو نظرية ارسطو ؛ هنالك اعراق يعدها تخلفها للعبودية بموجب الحق الطبيعي . وانما الهنود من هذه الفئة . فهم كسالى وفاسدون وسوداويون وجبناء وكذبة وبهائم . زواجهم مجموعة من الطقوس المدنسة للقدسيات . انهم عبدة اوثان وشهوانيون ولواطيون . لا يفكرون الا بالاكل والمشرى وعبادة الاصنام الوثنية وارثكاب القذائع البهيمية . اذا ما ابعدوا ، فلأن الله يعاقبهم ، على غرار سدوم وعمورة ، بسبب خطاياهم الجنسية . تحضيرهم امر مستحل . يجب استعبادهم بالقوة الى الابد .

واثبت آخرون ، ضد اوفيدو وانصاره ، ان الهنود كائنات عاقلة يجب معاملتها كاسبانيين ، ولكن بتحفظ ومداراة ، لأنهم متأخرون حضارياً ، كما هو واضح . كان هذا جوهر نظرية الدومينيكانيين ولا سيما نظرية عالم النظريات السياسية الشهير في جامعة « سلنكا » ، « فرنسيسكو دي فيتوريا » ، الذي توفي في السنة ١٥٤٩ . ففيتوريا يجاهر بأن هنالك ، خارج الحقائق الموحى بها ، نظاماً زمنياً ، او حقاً بشرياً ، يمكن ادراكه على ضوء العقل وحده . ان هذا الحق الطبيعي هو مرتكز « النظام والاتفاق » ، اساس كافة المجتمعات . وان هذا « النظام والاتفاق » واحد لكافة الكائنات العاقلة ، من مسيحيين او غير مسيحيين . ولكن الهنود كائنات عاقلة ، من حيث انهم بشر . لذلك فان الحق الطبيعي يشملهم كما يشمل الاسبانيين . ولذلك كانت لهم كافة حقوق الاسبانيين الطبيعية ، الحرية ، التملك ، القدرة على حكم انفسهم .

ان الآراء التي جعل منها « فيتوريا » علماً سياسياً ، قد اطلقها ، للمرة الاولى ، « مونتسينوس » في عظته في اسبانياولا يوم الاحد الواقع قبل عيد الميلاد في السنة ١٥١١ . وفيما يلي خلاصة ما قاله مونتسينوس : الهنود كائنات عاقلة ؛ فلهم الحق من ثم في ان يعاملوا معاملة الاسبانيين ؛ ويجب بالتالي تلقينهم حقائق الديانة لتخليص نفوسهم ؛ كما يجب الابقاء على حريتهم ، وعدم اضناكهم بالعمل ، واعطاؤهم كفافهم من المأكول ؛ والاعتناء بهم في امراضهم ، ومخالصتهم الود . ان الاسبانيين القساة والمستبدين الذين لا يتقيدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في

حالة الخطيئة المميتة. الا ان رئيس الدومينيكانيين في اسبانيا قد حظر على رهبانه في اسبانيولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين ، بناء على شكوى المستعمرين وعلى امر صادر عن الملك .

ولكن « برتلمايو دي لاس كازاس » قد اتاب عن موتسينوس بعد ذلك في موقفه من الهنود . كان كاهناً ، وصاحب امتياز ، في اسبانيولا منذ السنة ١٥٠٢ ، ثم في كوبا منذ السنة ١٥١٢ ، ووقف موقفاً عدائياً من الهنود ، فحلت عليه النعمة بينما كان يعد احدى المواعظ في السنة ١٥١٤ . اقتنع بأن معاملة الهنود كانت ظالمة واستبدادية ، فتخلى عن ممتلكاته واعتق هنوداً وغدا نصيرهم الذائد عن حياضهم منذ مذكرته الاولى (١٥١٦) الى ملك اسبانيا . يرى لاس كازاس ان سلطة الملك على الهنود سلطة لا شرعية لان كافة البشر احرار ، بموجب حق طبيعي ، اذ انهم مخلوقون على صورة الله احراراً ومسؤولين . كل ما استطاع البابا ان يفعله هو اسناد ادارة الى ملوك اسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين او قتلهم . ولكن ليس لأحد حق في تحطيم هذا الحد ، او في تنصير الهنود بالقوة . اما استعبادهم فلا شرعي ايضاً لان الهنود بشر كغيرهم . الاغريق الاقدمون ، التتر ، الهنود ، الاسبانيون ، افراد جنس بشري واحد ، انطلقوا من مستوى مهجي واحد ، وتوصلوا الى مستويات تقدم مختلفة بفعل ظروف مختلفة . « يتضح من هذه الامثلة القديمة والمعاصرة ان ليس من شعب في العالم ، مهما بلغ من قساوته وغمارقه وبربريته وخشوته ووحشيته وبهيميته ، يستحيل اقناعه واستمالته واعادته الى النظام وترويضه وجعله وديعاً وسهل المراس ، اذا اعتمدنا الارابة واللياقة وسلكتنا هذه الطريق الطبيعية الخاصة بالانسان بدافع من المحبة والحلم والوداعة والبهجة ، واذا كنا لا ننشد سوى هذه الغاية » (« التاريخ الدفاعي ») . فبالامكان من ثم ترقية كافة الشعوب اذا ما نظرنا اليها كما الى اخوة نفرغ جهودنا في سبيلهم دونما سعي وراء فوائد شخصية او قومية . ويجب بالتالي هديهم الى الدين القويم بالملاطفة ، « باقناع العقل » ، ثم « بتحريك الارادة برفق » . (« الوسيلة الوحيدة لاستمالة كافة الشعوب الى الديانة الحقيقية » ، ١٥٣٧) . زد على ذلك ان الاسبانين هم الهمجيون . ففي مؤلفه « بيان موجز في تدمير الهند » (١٥٤٢) المرفوع الى الامبراطور شارل الخامس ، يظهر لاس كازاس الهنود ، عند قدوم الاسبانين ، مطيعين ، اوفياء لرؤسائهم ، ضعفاء ، متبصرين ، هادئين ، ودعاء ، صادقين ، طيب القلب ، سليمي السرية ، فقراء ، مجردين عن النفايات ، متحلين بذكاء حاد وجديرين بتقبل الايمان الكاثوليكي المقدس . دخل الاسبانيون ديار هؤلاء المتوحشين الطيبين وكأنهم ذئاب وانمر واسود تنضور جوعاً . فاقصروا علمهم على تقتيل الهنود واسخان اعينهم وتعمذيبهم وافنائهم بوحشية فادرة . لا بل منعوا الرهبان من التبشير بالانجيل . وقد دفعهم الى كل ذلك تكالبهم على الذهب الى هذا الكتاب ، الذي انتشر في كل مكان ، يعود تاريخ « الاسطورة السوداء » حول الغول الاسباني ، سبب ارتعاد الامم .

اقرت قوانين « بورغوس » مبدأ اللجوء الى منح الامتيازات . وبناء على مطالبة

الدومينيكانيين ، اعلن تفسير قوانين بورغوس في السنة ١٥١٣ ان باستطاعة بعض الهنود ، المثقفين بمعاشره الاسبانيين ، ان يستحصلوا من القضاة على اعلان حريتهم . ولكن المستعمرين ولاس كاراس اعترضوا على ذلك لاسباب مختلفة .

امام تضارب الآراء ، قرر الكردينال « كسيميليس دي سيسنوس » اجراء تحقيق بواسطة لجنة تعين لهذه الغاية . فأرسل ثلاثة اخوة ايرونييمين مع « لاس كازاس » الذي اطلق عليه اسم « حامي الهنود » . طرح المحققون على كل شاهد سبعة اسئلة صيغ ثالثها على الشكل التالي : « هل يعلم الشاهد او يعتقد ، او هل سمع او لاحظ ان هؤلاء الهنود ، ولا سيما هنود اسبانيولا ، رجالاً ونساء على السواء ، يتحلون بمعرفة وكفاءة تتيجان اعطاءهم حرية كاملة ؟ هل هم قادرون على ممارسة حياة سياسية على غرار الاسبانيين ؟ هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بجهودهم الخاصة ، كان يستخرج كل هندي الذهب من المناجم او يحرث الارض او يؤمن معيشته بعمل يومي آخر ؟ هل يعرفون كيف يستفيدون مما قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجات حياتهم فقط كما يفعل العامل القشتالي ؟ » اجاب المستعمرون كلهم بالنفي ، وكان احدهم متزوجاً من هندية منذ ١٤ سنة . واستندوا في ذلك الى اختبار الحاكم « اوفندو » . اعطى هذا الاخير ، في السنة ١٥٠٨ ، الحرية لرئيسين هنديين منصرين تعلموا الكتابة والقراءة واقننا الاسبانية وكانا متزوجين وابوي عائلة . جعلهم اوفندو صاحبي امتيازات . ولكن هذين الهنديين قضيا ست سنوات احراراً دون ان يحرثا الارض ، او يتمكنوا من إعالة أنفسهم وتأمين ملابسهم بعملهم . فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر الايرونييمين الذين جمعوا الهنود في قرى تحت سلطة محافظين اسبانيين وتسببوا بعملهم هذا في انتشار وباء الجدري الفتاك .

اعترض « لاس كازاس » واستحصل من شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه في السنة ١٥١٩ والسنة ١٥٢٠ ، في اسبانيولا ، « رودريغو دي فيفورورا » . اختار هذا الاخير عدداً من الهنود ممن رأى فيهم الكفاءة وقدم لهم سلف اغذية وملابس وأدوات وعين لهم مناجم ذهب ترك لهم امر استثمارها وترك لهم الحرية في العمل على هواهم . فجاءت النتيجة فشلاً ذريعاً .

في السنة ١٥٢٦ ، استطاع المستعمر القديم « باريونيفو » ، الذي كان في المستعمرة منذ ٢٤ سنة ، الاستشهاد بمثل هندية كثيرات تزوجن من اسبانيين أو دخلن الاديرة مكرسات انفسهن لخدمة الجمعيات الرهبانية . فما ان يصبحن أرامل أو يخرجن من الدير حتى يتخلقن حالاً بالاخلاق الهندية ، بما فيها العمري والحرية الجنسية ، كما لو انهن لم يعشن طيلة سنوات عيشة اوروبية . واكد « باريونيفو » بأن لا أمل يرتجى من الهنود عموماً بسبب ضعف تفكيرهم وذاكرتهم . فهم ينسون صلاة « السلام عليك يا مريم » اذا مر يوم واحد دون ان يتلوها .

اجريت اختبارات اخرى في كوبا ، وفنزويلا ، وغواتمالا ، وفي المكسيك عند الشيشيميك . فجاءت النتيجة اخفاقاً في كل مكان . حاول الاسبانيون بين السنة ١٦٣٥ والسنة ١٦٧٦ انشاء

مستعمرات ثابتة ، يضم بعضها الاسبانيين والبعض الآخر الـ « اوتوميس » ، في الجبال التي لجأ اليها الشيشيميك ، ثم جمع الشيشيميك في قرى منفصلة خاصة يتعودون فيها ، على غرار جيرانهم المزارعين ، حياة القمار والزراعة . فلم يفلحوا في هذه المحاولة ايضاً اذ ان الشيشيميك رفضوا الاقامة في القرى ولم يأتوا اليها الا لبعض الاحتفالات الدينية . وكانوا يقدمون على الانتحار اذا ما ارغموا على حضور القداس بانتظام ، ويفرون الى اقصى القفار اذا ما طلب اليهم حضور دروس التعليم المسيحي بانتظام ايضاً . فكان في النهاية ان اباد الاسبانيون الشيشيميك في القرن الثامن عشر . ويتضح من ثم ان الاسبانيين قد اخفقوا في محاولاتهم استمالة اقوام القناصين والصيادين والمزارعين الوقتيين .

الا ان المسيحيين لم يعترفوا بالاخفاق . فان البابا بولس الثالث قد اعلن في رقيقه « الحقيقة نفسها » المؤرخ في ٢ تموز ١٥٣٧ ، ان الهنود بشر حقيقيون وان لهم نفساً جديرة بالحياة الابدية ، وان معاملتهم يجب ان تستوحى هذه الحقائق . بيد ان مجمع « ليا » الثالث الذي انعقد في السنة ١٥٨٣ قد اخذ نتائج الاختبار بعين الاعتبار واعترف بان الهنود ، مع كونهم بشراً سوا ، قد بقوا في حالة طفولة وان الواجب يقضي بان تضمن لهم كما للقصر حماية دائمة . فتولى اليسوعيون اجراء اختبار شيعية ابوية ، في « بارغواي » ، كمرحلة اولى ، بغية الانتقال بالهنود الى الحياة الشخصية . وكان هؤلاء من قبيلة التوبي غواراني الذين اخفقت في تبشيرهم بعض الرسائل المتنقلة . في السنة ١٦٠٧ اسند ملك اسبانيا ادارة البلاد الى اليسوعيين بغية تحضير الهنود في قرى اطلق عليها اسم « المعادات » لانها انشئت « لاعادة الهنود الى الحياة المدنية والكنيسة » . وُضع الآباء تحت سلطة الملك ومجلس الهند ونائب الملك في البيرو ، وسلطة مجالس « شاركاس » و « شونكيساكا » و « بونوس ايرس » القضائية ، ورقابة حاكمي باراغواي و « ريودي لابلاتا » الذين زارا « المعادات » زيارات منتظمة . وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة اسقفي « اسومبسيون » وبونوس ايرس الذين كانوا يتفقدان « المعادات » .

لم يلحق هنود القرى المسيحية قط « بالامتيازات » التي كان اسمها مثار هول ورعب لهم . ولم يمر وقت طويل حتى توارد بين الناس ان « المعادات » مواطن حرية . فتهاقت عليها الرؤساء والامراء مع قبايلهم . تأسس اول « معاد » ، وهو معاد « سان اينياسيو غوازو » ، في ٢٣ كانون الثاني من السنة ١٦٠٩ ، على مسافة ١٢٠ كيلومترا الى الشرق من « اسومبسيون » . ثم تأسس حوالي ثلاثين معاداً آخر . الا ان هذه المعادات قاست الامر من هجمات تجار الرق في ولاية « القديس بولس » البرتغالية ، بمساعدة قبائل التوبي - غواراني الباقية على وثنيتها ، الذين كانوا يقبضون على الاسرى ويبيعونهم من البوليسيين مقابل مقصات وسكاكين وصنابير . ولم تعرف المعادات الهدوء والسكينة الا بعد ان استحصل اليسوعيون من ملك اسبانيا على اذن بتسليح الهنود بأسلحة نارية والحقوا بالبوليسيين هزيمة نكراء في السنة ١٦٤١ .

شيدت المعادات على مرتفعات ، لاسباب تتعلق بالسلامة ، على بعض المسافة من نهر يستخدم

لنقل المحاصيل . يتوسطها ساحة عامة كبرى تحيط بها الكنيسة والمدرسة وبيت الارامل ومستشفى الشيوخ ودار البلدية ومركز إقامة الآباء وتحيط بها كذلك شوارع كثيرة تكون بتقاطعها مربعات تتوزع فيها المساكن . وحين يخرج الانسان منها يشاهد منطقة حدائق تتخللها معامل الأجر والقرميد ، والمسابك ، والمحاجر ؛ ومنطقة حقول زراعية : الذرة الصفراء ، الحنطة ، الفاصوليا ، المحص ، التي تستبدل سنة بعد أخرى في تعاقب مطرد بالشاي والقطن وقصب السكر ؛ ومنطقة املاك عامة مشتركة ، مروج ومراع تسرح فيها قطعان المواشي الكثيرة .

اخضع الهنود للنظام الاجتماعي الاوروبي . تتألف من الامراء واقاربهم طبقة اشراف وراثية جعلت في نظر القانون على مستوى طبقة الاشراف الاسبانيين . لكل امير سلطة على ٣٠ او ٤٠ هنديا يقومون نحوه بواجب الطاعة والعمل . يتمتع الهنود بالاستقلال الذاتي في نطاق المعادات . لكل معاد بلديته الهندية ، يعين الحاكم فيها قاضيا أولا مدى الحياة بناء على انهاء الآباء .

اما القضاة البلديون الآخرون فينتخبون انتخاباً ويوافق الحاكم على انتخابهم . لكل معاد كاهن رعية ، يسوعي يعينه الاسقف بموافقة الحاكم . ولما كان الفواراني يعتبرون كل ما يقوله ككلام الله بالذات ، فهو الذي يمارس السلطة الاولى . الخدمة العسكرية الزامية . الفواراني جنود اكفاء يجمعون فرقاً بقيادة الامراء ، يدينون للملك بالخدمة العسكرية ويشيدون الكنائس والمساكن والحصون . تفرض على الفواراني ضريبة ينعم عليهم بدفعها نقداً لا عينا .

ينشأ المعاد في مكان منعزل حفاظاً على الهنود من معايب الاسبانيين ، ولا يسمح بدخوله لاسباني ولا لزنجي ولا لخلاسي . وعليه من ثم ان يستقل اقتصاديا . كل الاراضي ملك الجماعة وفاقا لمعادات الهنود الاقدمين . وعلى كافة الرجال ان يعملوا يومين اسبوعيا في حقول الجماعة التي تقدم البذار والادوات والمحاريث وحيوانات الجر . تجمع محاصيل الارض المشتركة في مخازن خاصة . يباع قسم منها لتسديد الضريبة وابتياح الملح والحديد . ويستخدم الباقي لاعالة الشيوخ والارامل والايتام . يقسم ما يتبقى من اراضي الجماعة قطعا صغيرا توزع للاستثمار مدى الحياة على رؤساء العائلات الذين يتبقى لهم اربعة ايام لزراعتها وتكون حصاندها ملكاً خاصاً .

يضم « المعاد » عدداً من المصانع البلدية التي يمارس فيها الفواراني كل الحرف باتقان كامل وتنصرف الهنديات الى الغزل في بيوتهن . اما المصنوعات فتجمع في مخازن مشتركة وتوزع ملكا شخصياً صرفاً بحسب الحاجة .

يتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساء بقية افساح المجال لشؤون العبادة . ايام الاعياد مائة وثمانون ، ينقطع الهنود فيها عن كل عمل ، وتقام فيها الاحتفالات الدينية ، وترافقها ضروب اللهو المختلفة : الموسيقى ، الرقص ، اطلاق النار على المرمى ، العاب الكرة ، التمثيليات .

وغني عن البيان ان الحياة الدينية تسيطر على الحياة اليومية : صلوات وتعليم مسيحي صباح مساء ، اناشيد دينية قبل العمل وبعده ، الخ .

وخلاصة القول ان هذه الشيوعية استهدفت الانتقال بصيادين لا يزالون في حضارة المهمل النيوليتي الى مستوى اخوانهم من متحضري عصري النحاس والشبه . ولكن العمل ، في نظر اليسوعيين ، ما كان ليتوقف عند هذا الحد . فقد بذلوا جهداً كبيراً بغية بعث روح المبادرة الشخصية . استحثوا رؤساء العائلات على زراعة شاي الباراغواي والتبغ وقصب السكر والاتجار بها . وتعاونوا لو يصبح هؤلاء الرؤساء اصحاب مشاريع صغرى ويكفون انفسهم بأنفسهم ويجمعون الثروات اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وهذا يستلزم ، كما لا يخفى ، روح التمييز والتبصر في العواقب والثبات والمبادرة والاقدام ، كما يعني ، في حال توفر هذه الروح ، ان الفواراني قد اصبحوا قادرين حقاً على سياسة انفسهم وغدوا اشخاصاً مسؤولين حقاً واحراراً .

الا ان الفواراني بقوا شعباً طفلاً ، غافلاً ، متقلباً ، جامحاً . يأكلون البذور التي يستلونها لزراعة اراضيهم . يملكون زراعة اراضيهم الخاصة فلا يكفهم انتاجها اكثر من شهرين او ثلاثة . يعتمدون لما يتبقى من اشهر السنة على محصول الحقول المشتركة . يتركون مواشيتهم تنهت او تموت جوعاً اذا ما ارتفعت الرقابة عنهم . اذا ما اشتغلوا ، فانهم ينجزون في ستة اشهر ما ينجزه العامل الاوروبي في اربعة اسابيع . لم يتفوق اليسوعيون يوماً الى حلهم على بذل مجهود شخصي . تزوج خلاسي من هندية فسمح له اليسوعيون بالاقامة في المعاد . باع هذا الخلاسي في بونوس ايرس انتاج حقوله ومواشيه وعاش حياة يسر ورفاهية . انذهل الفواراني واعجبوا به ولكن واحداً منهم لم يحذ حذوه . زد على ذلك ان واحداً منهم لم يتوصل الى ادراك كيفية معاملة حيوان أليف . برهنوا في اعمال الحرف عن مهارة فائقة في تقليد المصنوعات الاوروبية ولكنهم لم يبتكروا قط شيئاً جديداً .

اما مشاعرهم فلم تتقدم خطوة واحدة حتى بعد اربعة او خمسة اجيال . فعواطفهم العائلية لم تتطور قط ، وكذلك ديانتهم الشخصية . وحافظوا في الناحية الفكرية على مستوى ابناء مجدهم من سكان الغابات .

ان المعادات اليسوعية في الباراغواي لخير مثل عن سلسلة مؤسسات ماثلة انشأها اليسوعيون في كافة انحاء اميركا على طول حدود الاستعمار الاوروبي وأعطت النتائج نفسها تقريباً .

وصل البرتغاليون الى شواطئ البرازيل واتصلوا بقبائل التوبي -
 البرتغاليون
 غواراني منذ السنة ١٥٠١ ؛ اما الفرنسيون فمنذ السنة ١٥٠٤ . أتوا
 وهنود الحضارة النيوليتية
 في البدء تجاراً يؤسسون المصانع تلقائياً . اما في جنوبي البرازيل حيث
 تأسست « سانتو - باولو » فيما بعد ، فقد اقام محكومون برتغاليون ومنفيون وبحارة . وثبت
 الفرنسيون اقدمهم في رأس « فريو » وجون « غواناغارا » حيث قامت ريو دي جانيرو
 بعد ذلك .

وقد اجتذب الاوروبيين خشب الصباغ الاحمر ، « البرازيل » ، « القطن » ، « الهجرس » ،

والبيضاء والفلفل . وافتتن الهنود بالمصنوعات الحديدية . فان مجرد اقتنائهم سكيناً او فأساً او اسافين يوليهم التفوق في العمل او الحرب على سواهم . فقطعوا الاشجار ببله ارادتهم ونقلوها وقدموا « البرازيل » بغية الحصول على « الحديديات » . فتمكن البرتغاليون والفرنسيون على السواء من ابقاء العملاء بين ظهراي الهنود لتعلم لغتهم . « خالط » هؤلاء العملاء الهنديين ، لا بل قصد بعضهم القبائل للميش فيها ، « على طريقة البرابرة » ، وامسوا وثنيين من أكلة لحوم البشر وأنسلوا ذرية من الخلاسين الذين سهلوا الملائق بين الاوروبيين والهنود .

قدم الهنود ، في الدرجة الاولى ، للبرتغاليين والفرنسيين ، المحاربين الذين افترقوا اليهم للقتال في حرب استعمارية لا هوادة فيها . استولى القراصنة الفرنسيون على عدد كبير من السفن البرتغالية على طول الطريق البحرية . وأفلحوا في استمالة البلدين بلطفهم وصديق معاملتهم وتساهلهم وحسن التفاتهم : فحين تأكدت لهم رغبة الـ « بوتيغوارا » في اكل لحوم البشر ، نظموا خدمة منتظمة تنقل زوجاً من غيليا يقدمونهم لهم ما كلاً . ويؤيد نجاح الفرنسيين عدد الخلاسين ذوي الشعر الاشقر والبشرة الوردية ، وواقع النجاة من أكلة لحوم البشر بمجرد الادعاء بالجنسية الفرنسية .

خشي البرتغاليون مغبة الامر . زد على ذلك ان استثمارهم تبدل شكله منذ السنة ١٥٣٠ واصبح استثمار مزارع ومشاجر . استفادوا من اختبارهم في « ماديرا » ، « وكناري » ، « واسور » ، فزرعوا قصب السكر . وطلب بعض كبار الملاكين عون التساج على الفرنسيين ، فأنشأ ملك البرتغال بين السنة ١٥٣٤ والسنة ١٥٣٩ اثني عشرة ضابطية في البرازيل . اسند كل منها الى سيد او الى ملاك كبير في اغلب الاحيان . برهن الاسياد عن استبدادهم او عن عجزهم . في السنة ١٥٤٩ استلم الملك نفسه زمام ادارة المستعمرة ، واسس الحاكم العام الاول ، « توميه دي سوزا » ، مدينة « سان - سلفادور دي باهيا » .

سارت الحكومة البرتغالية في الحرب بقوة وحزم بينما لم تقم الحكومة الفرنسية الا بجهود متفرقة بسبب انشغالها بمعاربة آل هابسبورغ . فان الاميرال كوليليني ، الذي حلم بامبراطورية فرنسية وبروتستانية ، ارسل « فيليپانيون » الذي اسس مستعمرة عسكرية في جون « ريودي جانيرو » في « جزيرة الفرنسيين » . ولكن الحاكم البرتغالي اصطحب اليسوعيين ، الذين كان لهم نفوذ « كبار السحرة » : فابعدوا عن الفرنسيين حلفاءهم من الهنود الواحد قتل الآخر . واحتل البرتغاليون « جزيرة الفرنسيين » في السنة ١٥٦٠ ، ثم استولوا تدريجياً على كافة المستعمرات الفرنسية . وحتى في السنة ١٥٩٧ ، توجهت الى منطقة « ريوغرانده دل نورته » ٢٠ سفينة فرنسية . ولكن المدفعية البرتغالية انتصرت في السنة ١٦٠٣ على حلفاء فرنسا الاخيرين ، البوتيغوارا . وهكذا لم يستطع الاوروبيون تسوية منازعاتهم الا بفضل المحاربين الهنود .

كان الاستثمار البرتغالي ، الا في منطقة سانتو - باولو ، استثمار الاملاك الكبرى ، الحاضمة

للنظام السبدي او الابوي ، والمرتكزة الى زراعة قصب السكر الوحيدة ، ومن ثم الى الرق .
فقدت عملية جمع الرقيق شغل البرتغاليين الشاغل ، لابل غدت صناعة قائمة بحمد ذاتها لسكان
ولاية القديس بولس ولا سيما لفئة « المالك » ، الخلاسين المتوحشين .

أتاح العبد في منطقة سانتو - باولو ، حيث استقر صناعيون برتغاليون معوزون ، قيام
استعمار الاملاك الصغرى . « اذا اتى شخص الى هذه البلاد وتوفى الى امتلاك اثنين منهم
(الهنود) ، توفرت له وسائل تمهد عائلته بشرف ، حتى ولو لم يمتلك اي شيء آخر ، لان
احدهما يؤمن له القنيس والثاني الاسماك ، والآخرين يزرعون في مقارسه ويجمعون الحصائد .
وليس عليه ، بهذه الطريقة ، ان ينفق على تأمين المواد الغذائية لهم ولعائلته لنفسه » (الاب دي
نوبرغا) . الا ان هؤلاء الهنود الاقوياء قد خيخوا الآمال في الاملاك الكبرى . فقد مارسوا القنص
والصيد في مواعيد معينة تتخللها فترات بطالة طويلة ، ولم يستطيعوا قط تعود عمل المشاجر
والمغارس المنتظم الممل ، ففتك الموت باعداد كبيرة منهم . وبات لزاماً منذ السنة ١٥٣٠
استحضار الزوج من افريقيا . ولكن كل مشجر او مغرس احتفظ بعدة عشرات او عدة مئات
من المحاربين الهنود لحماية المزروعات ومطاردة المبيد وجمعهم .

الا ان الاستعمار ما كان ليتحقق لولا المرأة الهندية ، زوجة كانت ام سرية . فهي من حالت
دون موت الاوروبيين جوعاً بتعليمهم فن صناعة طحين المنيهوت واستخدامه الذي ما زال
مركز الطهاية البرازيلية . وهي من وفرت لهم شتى الوصفات الصحية والمنزلية . وبفضلها
خطيت الخطوة الاولى الصعبة للاستعمار . واستخدمت لانجاب جواهر غفيرة من العبيد .

كانت نتيجة الاستعباد الاولى على الهنود نقصاً في التغذية . فان اصحاب المشاجر والمغارس
لم يكثرثوا لزراعة المواد التي قدخل في تحضير الاطعمة ، ولم يتمكن الهنود من الحصول على
المنيهوت ، في يوم من الايام ، الا بكيات محدودة . كما ان المشاجر والمغارس اقصد الماشية ولاسيما
ماشية « سرتاور » التي غدت اشبه بهياكل عظمية . وبات القنيس والسماك اكثر ندرة كلما ارتفع
عدد المستعمرين الاوروبيين . ولم يتناول العديد من الهنود العاملين في المشاجر والمغارس سوى
وجبة طعام يومية واحدة قوامها معجون المنيهوت مع بعض الارز .

تأثر الهنود تأثراً شديداً بالجدري ، وقتك بهم الداء الزهري ، لان جميع العاملين في
المشاجر والمغارس قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم . وكان كل من لا تظهر فيه
علائم الداء موضوع تهكم وسخرية . ونقلت اليهم الالبسة امراضاً جلدية وساعدت بتحويلها
وظائف الجلد على انتشار الامراض الرثوية . فتناقص عدد الهنود تناقصاً مستمراً .

حاولت الدولة البرتغالية هدي الهنود اي الانتقال بهم من المذهب القائل بوجود الروح في
كافة الاجسام الحية الى مذهب التوحيد ، من منطق المشاركة الى منطق الادراك ، من التفكير
السحري الى كفاية العقل النوعية . جعل الرقم « ومن بين الاشياء الاخرى » الصادر عن

الكسندروس السادس بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، من ملك البرتغال ، « نائب المسيح في الاراضي المكتشفة حديثاً » . فكان ملك البرتغال مسؤولاً شخصياً عن التبشير بالانجيل . وقد ادرك جان الثالث (١٥٢١ - ١٥٥٧) مسؤولياته ، فأوعز بارسال الآباء اليسوعيين الستة الاولين في السنة ١٥٤٩ وتعهد بالانفاق على معيشتهم . وحذا حذوه خلفاؤه من بعده . اما الحاكم الذي بعث الحركة الحاسمة فهو « مم دي سا » الذي تولى مهامه منذ السنة ١٥٥٧ حتى السنة ١٥٦٨ والذي كرس الايام الثمانية الاولى من ولايته للقيام بالمارين الروحية باشراف الاب « نوبرغا » . وعين اسقف على البرازيل في السنة ١٥٥١ . فانصرف الاساقفة الى تبشير الهنود بالانجيل ، واشتهر منهم في هذا المجال الاسقف الثاني « بدروليتاوا » .

الا ان تقدم التبشير كان بطيئاً . فان كهنة الرعايا المرسلين من البرتغال غالباً ما برهنوا عن جشع وفظاظة وسوء سلوك ، بينما كان اليسوعيون قلة ولم يتجاوز عددهم ١٤٢ في السنة ١٥٨٤ بينهم ٧٠ كامناً فقط . وكان الهنود متوزعين قبائل صغيرة متعزلة : تشاهد الواحدة منها في الصباح وتختفي بعد الظهر في الد « سرتاوا » . تكلم الهنود لغة عامية مشتركة هي لغة التوبي التي لم يتقنها المرسلون قط واضطروا بسبب ذلك الى سماع الاعترافات بواسطة الترجمة . ولكن هنالك استثناءات ، كالأب « انكيثا » مثلاً الذي وصل في السنة ١٥٥٣ الى سانتو - باولو والف اجرومية وقاموسياً وكتاباً في التعليم المسيحي وموجزاً لسامعي الاعترافات وناشيد ومسرقيات دينية ، وجعل من التوبي لغة حضارة . وانما افتقرت لغة التوبي الى مفردات تعبيرية صادقة عن المعتقد المسيحي . فقد اختار المرسلون للتعبير عن مفهوم « الله » كلمة « توبان » التي تشير الى قصف الرعد والتي اعتقدوا بانها تعني « الشيء الالهي » ، اي الكائن الجدير بصفات الاله المسيحي . ولكن « توبان » انما تشير الى شيطان الرعد ، فجز استعملها الى شتى ضروب اللبس والتشويش . وقد حدث مثل هذا اللبس والتشويش في تعابير دينية كثيرة بسبب فقر اللغة . وتوصل « السحرة اليسوعيون » بسهولة اخيراً الى اقناع هؤلاء الهنود السريعي التأثير . الا ان هؤلاء كانوا يعمدون الى وثنيتهم بمثل السهولة ذنبها بسبب ثقليهم وغبافهم . لذلك توجب وجود الكاهن بصورة دائمة .

افلح اليسوعيون من ثم في حمل الحكم على الزام الهنود بالتجمع والعيش في قرى تأسست القرى الاولى في السنة ١٥٥٧ في منطقة « باهيا » . ومنذ السنة ١٥٦٢ كانت هنالك عشر كنائس تجمع حولها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ هندي متحضر . وعاون الآباء في مهمتهم « امير نهوس » ، الامراء ، الذين تعينهم السلطات المدنية قضاة بناء على اقتراح اليسوعيين .

فرض اليسوعيون بعض السلطة على الهنود بتعاطيهم الطب والجراحة والحدادة والبناء والتجارة . فقد اتى الهنود الى التعليم المسيحي وطلبوا الى الآباء تربية اولادهم ، بغية الحصول على الادوات الحديدية . يبدأ النهار في القرية وينتهي بالتعليم المسيحي وتتخلله الصلوات في أوقات معينة على الطريقة الرهبانية تقريباً . استهدفت الجهود الاولاد بصورة خاصة ، ومنذ السنة ١٥٥٠

استحضر الآباء بعض الإتيام من البرتغال وادخلوهم مدارسهم الى جانب اولاد الغواراني ليجعلوا من العرقين شعباً واحداً يعبد الله . اسندت الى هؤلاء الاولاد مهمة التنبيه الى الولادات والأمراض ، كي يتاح للآباء توزيع سري العماد والمسحة الاخيرة ، ومهمة الوشاية بالسحرة وتعليم الاولاد الآخرين ، وحتى الفتيان ، مبادئ الدين المسيحي . زد على ذلك ان هؤلاء الاولاد اثروا في الهنود بتطوافتهم وانشيدهم .

استند التبشير بالانجيل الى دعوة نفعية . فقد بشر اليسوعيون الغواراني بانهم اذا ما اهتموا سيحصلون ، بفضل الله ، على غذاء وفير ، وسيتمتعون بصحة جيدة وسيحرزون النصر على اعدائهم . ارتعب الهنود من جهنم ، فشدد اليسوعيون الكلام عن العقوبات الابدية . وبغية التأثير في الهنود تمجيباً واحتراماً ، وبغية صرفهم عن « اعياد المسكر » والرقص ، اكثروا من الاحتفالات الزاهية مع ما تستلزمه من موسيقى وانشيد شغف بها الهنود ، ونظموا تطوافات عديدة رفعت فيها الرايات الكنسية الزاهية الالوان والشموع والمشاغل وتخللتها الرقصات ولا سيما الرمزية منها . وقد تجلت الرقصات الرمزية في المسرحيات الطقسية والايائية التي برهن الهنود عن اهلية كبرى لتمثيلها .

علم اليسوعيون الهنود مبادئ الدين ملياً وبطول اناة . فرضوا عليهم مرحلة اعدادية طويلة . طلبوا اليهم ان يختاروا بين نسائهم المعيدات واحدة يصرح الهنود بانهم يريدونها زوجة فريدة لهم مدى الحياة . وبعد زواجهم على هذا الشكل ، « بحسب سنة الطبيعة » ، كان باستطاعة اليسوعيين تنصيرهم بالعماد وتزويجهم بعد ذلك « بحسب سنة النعمة » . ثم يسمع اعترافهم بعد فحص ضميري تمهيدي . لم يفرض اليسوعيون عليهم سوى كفارات خفيفة ، وكفارات ادبية بصورة خاصة . وبكل احترام قدموا الهنود الى تناول سر القربان محور الحياة المسيحية . وفي السنة ١٥٧٣ سمح للهنود بالتناول مرة واحدة في السنة . ولكنهم كانوا قدوة في تقبل هذا السر فأجيز لهم في السنة ١٥٧٤ بتناول جسد الرب في الاعياد الاربعة الكبرى : الميلاد ، الفصح ، العنصرة ، انتقال السيدة .

برز بين الهنود مسيحيون صالحون كانوا تسابيح حقيقية حية للرب . الا ان اليسوعيين لم يرفعوا احداً منهم الى درجة الكهنوت لانهم اعتبروهم عاجزين عن حمل نير البتولية وغير مهينين للدروس اللاهوتية المعمول فيها على المنطق الصوري والفلسفة الكلامية . ولكن النتائج جاءت غير مرضية في اغلب الاحيان . « ان هؤلاء الاوثان من الهمجية بحيث لا يمشي شخص واحد منهم حياة مسيحية اذا انقطع اتصالهم بالآباء ثمانية ايام متوالية » (« غبريال دي سوزا » ، ١٥٨٧) . وغالباً ما يحدث ان القبائل التي تبدو وكأنها تسير في السبيل القويم تستعيد اولادها وتتوارى عن الانظار . وقد لقي احد اليسوعيين في الدهش يوم عيد الشعانين من السنة ١٥٦٠ : نظم هنود قرية « سان جوانو » في منطقة « باهيا » تطوفاً فخماً تجلت فيه اروع مظاهر التقوى وفجأة انسحبوا الى السرتاوو . فكيف تفسر مثل هذه التقلبات يا ترى ؟ هنالك قلقل الهنود . وهناك العمل الذي يطلبه اليسوعيون منهم . وهناك ايضاً مقاومة السحرة الذين يحرضون

الهنود سرّاً . وخطر ما هنالك السحرة المعروفون بالـ « قديسين » الذين يحتفظون من المسيحية بما يرضي الهنود ، وينبذون ما هو شاق كوحدة الزواج والاعتراف .

وهناك أخيراً المثل السيء الذي اعطاه بعض المستعمرين البرتغاليين بزواجهم سفاحاً من عشرين عبدة معاً أحياناً ، وعلى الأخص الغزو الذي استهدف مطاردة المبيد وجمعهم . تواصل هذا الغزو على الرغم من قانون السنة ١٥٧٤ الذي منح الحرية هنود القرى ، فأدى الى فرار هنود الجماعات المسيحية بحيث لم يبق من الكنائس العشر والـ ٤٠٠٠٠ هندي حول بأهيا سوى أربع كنائس و ٣٥٠٠ هندي في السنة ١٥٩٠ . اما الهنود المبيد فقد بذل اسيادهم جهد استطاعهم لمنع اليسوعيين من تبشيرهم بالانجيل . ومرد ذلك الى ان المبد المسيحي يحتمي بشريعة الله من بطش المستعمر وذائله . لهذه الاسباب كلها تكررت الاصطدامات بين اليسوعيين والمستعمرين . وجاءت المنافسة التجارية تزيد في الطين بلة . فقد استخدم اليسوعيون الهنود في جني العقاقير والمفردات ، وزراعة قصب السكر والقطن والتبغ واللوز الهندي والافاويه ، والعمل في مصانع تقطير الكحول والمطاحن . فاستعالت مزاحمة اليسوعيين في النوعية وانخفاض الاسعار . لذلك قامت بين اليسوعيين والمستعمرين حرب اهلية دائمة . وقاوم كبار الملاكين شيئاً فشيئاً المسيحية واليسوعيين . وبلغ هذا النزاع ذروته في القرن الثامن عشر فكان سبباً رئيسياً من اسباب إقصاء جمعية اليسوعيين .

كان هؤلاء الغواراني الماكين منطلقاً لبعض المع النظريات التي هاجت أوروبا . فان المعلومات التي اعطاها التراجمة ، وهم من تخلقوا بالاخلاق البلدية واضفوا عليها مسحة جمالية ، قد عرفت الانتشار بواسطة البحارة والتجار وكتب المسافرين . افتتن علماء الادب القديم بأسطورة العصر الذهبي ورغبوا في ارشاد مواطنهم بمن لا يعيشون حياة مسيحية حقيقية ، فاستخلصوا من هذه الروايات ، ومن مؤلفات « لاسر كازاس » وابنائهم الروحانيين ، ومن الاحاديث التي جرت بينهم وبين الهنود الذين جيء بهم الى أوروبا بواسطة تراجمة حواروا اجوبة الهنود ، أسطورة « الهمجي الصالح » . اشهر هؤلاء المؤلفين هو « مونتانيه » في « محاولاته » . تحدث في السنة ١٥٦٢ ، في روان ، الى ثلاثة من التوبي - غواراني بواسطة احد التراجمة . فأعلن في فصل « العربات » وفصل « اكلة لحوم البشر » ان المجتمع الهندي انقى مجتمع لانه اقرب المجتمعات الى السنن الطبيعية . وقد ارتأى ان الهمجيين يجب ان يكونوا قدوة لنا في سلوكنا ، لأننا نحن البرابرة حقاً . وكان مقدراً له الهمجي الصالح ، « ذاك الشخص الاسطوري الذي يعيش حرّاً ، بحسب طبيعته ، بوحى ارادته ، متعطلاً ، متغافلاً ، بريئاً ، دون ايذاء ، دون تلك ، دون حكومة ، فرحاً ، سعيداً ، ان يعرف شهرة مدهشة فائدة . فهو من سيثق الطريق امام الملّعين ، « بيير شارون » ، و « لاموت له فاييه » ، ويسهم في بليلة الافكار وفي ازمة القرن السابع عشر ، ويلهم بعد ذلك « الفلاسفة » واعداء الاستعمار في القرن الثامن عشر ، ويحقق الغلبة مع « جان جاك روسو » . وهو البربري الصالح ، من برّر

إيمان بطيبة الإنسان الأصلية ، فوفر بذلك أحد المبادئ الأساسية للمذاهب الاشتراكية .
لا بل ان قسماً هاماً من حضارتنا المعاصرة يعود ، بصورة غير مباشرة ، الى آراء بعض
الاوروبيين في هنود لا يزالون في مستوى الحضارة النيوليتية .

الفرنسيون وهنود منذ السنة ١٥٠٤ ، ازدحم النورمنديون والبريتانيون الفرنسيون
الحضارة النيوليتية في « الارض الجديدة » و « اكاديا » وحول مصب نهر « سان -
لوران » . وقد اجتذبهم الى تلك المناطق صيد الاسماك للايام الصائمة الكثيرة التي تفرضها
الكنيسة اولا ، والفراء النفيسة ثانياً . منذ هذا التاريخ تكررت اتصالاتهم بالـ « بيوتوك » في
الارض الجديدة والـ « واناياكي » والـ « مونتانيه » . وحين وصل « جاك كارتييه » في السنة ١٥٣٤
الى « جون القيوط » لوح الميكاك بالفراء في اعلى العصي لاجتذاب رفاقه اليهم . وفي ذلك
دليل على انهم عرفوا اثر جاذب الفراء في الملاحين الفرنسيين . وبعد السنة ١٥٧٥ انتشر في
اوروبا زرع القبعات المصنوعة من وبر القندس ، فارداد طلب القندس ازدياداً مطرداً .

ادت هذه التجارة الى تطوير الحياة الهندية تطويراً كلياً . ابدى الهنود رغبة كبرى في اقتناء
الادوات الحديدية من سكاكين وفؤوس ، وفي الاسلحة النارية ايضاً . وبلغ من استعماهم لهذه
الادوات انهم نسوا ، خلال قرن ، تقنياتهم الخاصة في صناعة الادوات الحجرية والمعدنية
والخشبية . فقدوا مضطرين لان يتناغوا مع الاوروبيين كافة المعدات الضرورية لحياتهم وبات
لزماً عليهم تنظيم نشاطهم للتجار مع الاوروبيين .

وجد جاك كارتييه ، في البقعة التي تقوم عليها « مونتريال » ، « الانهر الثلاثة » ، « كيبيك » ،
والـ « هورون » ، وفي السنة ١٦٠٣ ، وجد « شامبلين » الالفونكيين الذين اقصوا الهورون
والايروكو وقاموا بعد ذلك بهجمات دائمة على اراضيهم . الا ان الهورون ، المتفوقين في
الزراعة ، اسسوا امبراطورية تجارية واخضعوا لسيطرتهم الاقتصادية كافة الشعوب الالفونكية
وبعض الشعوب الايروكية ، كالـ « توباكو » والـ « نوترال » . واخذوا يتناغون مع هؤلاء
الآخرين كميات كبرى من الذرة الصفراء ويبيعونها من القبائل الشالية . كما اخذوا يجمعون
فراء المونتانيه والـ « كريبه » والـ « ناسكاي » مباشرة ، وفراء قبائل « البحيرة العليا » وقبائل
شعوب « المروج » وقبائل الالينوي سكان وادي الميسيسيبي الاعلى ، بواسطة الـ « اوتاوا » .
وهكذا فإن الاقتصاد الهوروني الذي كان زراعياً في الدرجة الاولى ، قد غدا تجارياً قبل اي
شيء آخر . وكانت كثافة الهورون حوالي السنة ١٦٣٠ مساوية لكثافة الاوروبيين في
المنطقة نفسها في السنة ١٩٠٦ . وقد بلغها الهورون بلمح دور الوسطاء بين القبائل ويتوجه
نشاطها التجاري . كانوا يقضون فصل الامطار في جمع الذرة الصفراء الضرورية ، وفي الربيع
يصعدون عن طريق الضفة اليمنى للبحيرة العليا والبحيرات الكندية باتجاه اعالي « ساغناي » ،
ويقاضيون الذرة الصفراء بالفراء ، ثم ينزلون « ساغناي » ويبلغون الفرنسيين عن طريق « تادوساك » ،
ويقاضيونهم الفراء . وعلى هذا المنوال وصل كل سنة الى كيبيك ٢٥٠ هيرونيسا في حوالي

اما الايروكوا ، فبعد ان هزموا الـ « موهيكان » ، أصبحوا حوالي السنة ١٦٢٦ - ١٦٢٧ المستارين الرئيسيين لشركة الهند الغربية الهولندية ، واقاموا في امستردام الجديدة ، اي نيويورك الحالية . ولكن الايروكوا كانوا قد أبادوا القندس عملياً في منطقتهم حوالي السنة ١٦٤٠ . فطلبوا حينذاك الفراء من الفرنسيين . الا ان الفرنسيين لم يروا اية فائدة من تمزيق الحلقة الهورونية ، فرفضوا عروض الايروكوا . عند ذلك اخذ هؤلاء يشنون الغارات في السنة ١٦٤٣ ، وفي السنة ١٦٤٩ انقض اكثر من الف ايروكي فجأة على الهورون ، الذين ما كانوا ليحرسوا قراهم ، فابيد هذا الشعب . لجأ بعضهم الى كيبيك ، وقصد البعض الآخر العيش الى الجنوب من بحيرة « ايرييه » . أراد الايروكوا حينذاك الحلول محل الهورون كوسطاء لتجارة الفراء . هاجوا على التوالي كافة طرق المواصلات وتوصلوا في النهاية الى ان يقطعوا جزئياً طرق الاتجار بالفراء . استمرت الحرب ضد الفرنسيين حتى السنة ١٧٠١ . ويفسر تفوق الايروكوا العسكري هذا بانهم كانوا يستعمضون عن قتلاهم بتجني اسرى الحرب وتجنيدهم ، وقد ضم جيش محاربي الايروكوا عدداً كبيراً من الفرنسيين والانكليز والهولنديين . وهكذا فان الرغبة في الحصول على المصنوعات الأوروبية قد تمخضت عند هنود الحضارة النيو ليتية الزراعية عن الحرب الاقتصادية .

تقدم الفرنسيون بعيداً جداً باتجاه الغرب . وشق المرسلون الطريق امام « عدائي الغابات » . استشف اليسوعيون منذ السنة ١٦٤١ أهمية اتصال البحيرة العليا وبحيرة ميشيفان وبحيرة هورون . وأسسو ارساليات « سولت سانت - ماري » التي أقاموا فيها منذ السنة ١٦٦٩ حتى السنة ١٦٨٣ و « سانت - اينياس » التي أقاموها ، في السنة ١٦٧١ ، في جزيرة « ميشيليا كيناك » وفي الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة التي تقابلها . ارتفع عدد « عدائي الغابات » في هذه الارساليات ، بين الالفونكيين والهورون ، لانها كانت مركز امتياز الذرة الصفراء قبل الغزوات . الا انهم حاولوا بدورهم الاستغناء عن الوسطاء فتوجهوا الى أعالي الميسيسي وبحيرة « المطر » وجون « هدسون » بغية امتياز الفراء مباشرة من القناصين . بلغ العدو ذروته في أيام الوكيل « تالون » . أدرك هذا الأخير ان « عدائي الغابات » كانوا خير أعوان لسياسته الاستعمارية . فشجعهم وقدم لهم المساعدات ، الى أن أصبح العدو ، الذي لم يكن سوى تكلفة للزراعة الكندية ، صناعة مستقلة كرس لها بعض الفرنسيين كل نشاطهم . وقد حمت « عدائي الغابات » بعض الحاميات العسكرية . في السنة ١٦٩٠ وجد في « ميشيليا كيناك » ١٤٣ رجلاً من فرقة « كارينيان » رأوا ان اجورهم غير كافية ، فأثروا الانخراط في صفوف العدائين ونتج عن ذلك انتشار الحضارة الأوروبية في المناطق البعيدة .

اقتبس الهنود عن الأوروبيين الادوات من سكاكين وفؤوس وصناير خبروا فعاليتها وديمومتها . واستعاضت النساء عن الخزفيات بالاناء المعدني وعن الابرة العظمية بالابرة الفولاذية

التي تؤمن عملاً سريعاً . تعلموا من الفرنسيين قرن الكلاب لجر المزالج التي كانوا يحرقونها بأنفسهم ، فصار العمل بسرعة . وبواسطة الفؤوس الحديدية تمكن الأوروبيون والهنود على السواء من ان يبنوا في سبعة ايام كوخاً كان بناؤه يستغرق شهوراً عدة بواسطة فؤوس حجرية تكاد لا تفعل في الجرمشق والبتولة . وتوفرت للهنود البنادق التي اصبح استعمالها عاماً . « كانوا يقتلون اوزة برية واحدة بواسطة السهم ؛ اما بواسطة الطلق الناري فيقتلون خساً او ستاً . وكان القنص بالسهم يوجب الاقتراب من الحيوان ؛ اما بواسطة البندقية فيقتلون الحيوان من مسافة بعيدة » . ولكنهم تمادوا في القتل حتى ندر القنص .

الف الهنود خبز الفرنسيين وطاهم ولوباهم وجلبانهم . حين تصل السفن الفرنسية صيفاً يكفون عن القنص ويتشبعون من المواد الغذائية الفرنسية . الا ان الالفونكيين ، الصيادين ، لم يستطيعوا تعود الاعمال الزراعية ، ففدوا من ثم مرتبطين ارتباطاً كلياً بالاوروبيين وبتجارهم .

تولع الهنود بالمسكر ، فباتوا سكرين . واذا ما ثملوا ، اغتاظوا وتضاربوا وتقاتلوا واحرقوا الوبغوم وأتوا كل قذع فاحش . في سبيل الحصول على المسكر ، استسلمت الهنديات لرغائب الاوروبيين . فحرم اسقف « لافال » في السنة ١٦٦٠ كل من يبيع مسكراً من الهنود . وحظرت الحكومة الملكية احياناً بيع المسكر ، ولكن السلطات الاستعمارية كانت مقتنعة بأن منع المسكر معناه القضاء على تجارة الفراء والنفوذ الفرنسي . ففتك داء الغول بالقبائل الهندية .

اما الهنود الذين بقوا على وثنتهم ، فقد تكون فيهم شعور جزع وقلق ولوع من اليأس بمخالطة الفرنسيين . لم يفقهوا شيئاً من العدالة الفرنسية والمسؤولية الشخصية والملكية الفردية والنعمة والغفران . اعتبروا انفسهم متفوقين على الفرنسيين ، كما اعتبروا خضوعهم لأقوام يستحيل عليهم احترامهم جوراً وعسفاً لا يقرهما حق وعدل . وكان الفرنسيون كلهم في نظرهم سراقاً ولصوصاً اذ ان التجار يقايضونهم كميات ضخمة من الجلود ببنادق لا تنفجر او او بارود لا يحترق . وكان الفرنسيون جنباء ايضاً في نظرهم ، اذ ان السفن الفرنسية التي يشتمونها او يسرقون بعض ما تنقله ، تبحر ثانية دون ان تنتقم منهم . سلموا بأن الفؤوس والسكاكين الحديدية تنطوي على شيء من الـ « مانتيو » . ولكنهم اعتبروا انهم احذق وادهى من الفرنسيين اذ ان هؤلاء قد اعجبوا بادواتهم الحجرية والعظمية واعترفوا من ثم بانهم دونهم ذكاء . يضاف الى ذلك ان في بحث الفرنسيين عن جلود القندس دليلاً على انهم افقر من الهنود . وقد اعلن احد الرؤساء الهنود يوماً في احدى نزوات سخائه انه يريد اهداء لويس الثالث عشر مائتي جلد قندس ليجعله اوسع ثروة من كافة اسلافه . فما هو من ثم مبرر هذه السيطرة الاجنبية التي لم يروا لها نهاية .

كانت النتيجة ارتفاعاً في نسبة الوفيات وتدنياً في نسبة الولادات ونقصاً في عدد السكان .

يتشبع الهنود في الحريف من طحين الحنطة والجلبان والفاصوليا ، فتفتك بهم التسممات المعوية. اما النساء اللواتي يصبن بدهاء الفول فيجهضن أو يقتلن المواليد . وقد سبب المسكر اضراراً هائلة . فقد جاء في تقرير يعود الى السنة ١٦٩٣ ان الاوروبيين كثيراً ما يعثرون على طول الانهر في الغابات على جثث هنود تجاورها ابداء اواني المسكر . وفتك بهم كذلك التدرن الرئوي والجديري والداء الزهري . فكثيراً ما اباد وباء الجدري ثلاثة ارباع سكان القرية الهندية وترك الباقين على قيد الحياة في هزال يكاد يقعدهم عن القنص : ومات غيرهم جوعاً بدورهم . اما الحروب الهندية فقد تحولت الى ملاحم ومجازر ، فأبديت بعض القبائل عن بكرة ابيها .

كان مستوى سكان كندا الفرنسيين عالياً يضم اشرافاً ريفيين وبورجوازيين مثقفين وصناعيين وفلاحين موزعين سيادات وفقاً للنظام الفرنسي الشرعي الراهن : اسياد واصحاب اقطاعات . ولكن ذلك لم يحل دون تأثرهم بمبادئ الهنود ، وعقليتهم ، ولم يؤلفوا قط سوى طرائد ضيقة على طول شواطئ « اكاديا » او على طول ضفتي نهر سان - لوران . ويرد ذلك الى صعوبة احياء الاراضي الحرجية في بلاد يدوم شتاؤها خمسة اشهر ونصف الشهر ، والى ان انتاج الاراضي لا يوازي نصف انتاج الحقول الفرنسية . لذلك لم يلبث الكنديون ان اعتمدوا اقتصاداً مختلطاً يركز الى القنص والصيد ثارة ، والى الزراعة طوراً ، في تماقب مطرد . ولكن سرعان ما احتل القنص والصيد المركز الاول ، وانصرف بعضهم الى العدو في الغابات . الفوا الجهد غير المنتظم واقتبسوا عن الهندي ثقافته وتقلبه . عاشوا في عزلة كما يطيب لهم العيش فعدوا متمجرفين وعصاة وسريعي الاغتيال من رؤسائهم ، على غرار الهنود . ومارسوا الحرب على الطريقة الهندية : كمناء وغارات فجائية .

وجمة الكلام انهم اكتسبوا شيئاً فشيئاً عقلية هندية كان من شأنها ان تشجع التقارب بين الشعوب . وهذا ما تمته الحكومة الفرنسية وریشليو وكولبير ، الذين رغبوا في ان تصبح كندا فرنسا - الجديدة ، وان يتفرنس البلديون ، وان تمعد زواجات مختلطة كثيرة ، وان تصبح المستعمرة ولاية فرنسية ، اذ انهم انتهجوا سياسة هي سياسة الدمج .

ولكن هذه السياسة آلت الى الفشل . فلم تمعد سوى زواجات قانونية قليلة جداً بين الهنديين والاوروبيين ، اذ ان الهنديين لم يرغبوا في دخول العائلات الاوروبية بسبب الفروق الكبيرة التي تباعد بين الماديات . وكان الخلاصون : ابناء التدرن الدائم او التدرن الوقفي ، يؤثران العيش في قبيلة والدتهم . الا ان « عدائي الغابات » في جوار مراكز العدو او الحاميات العسكرية ، وهم ابناء اشراف ريفيين وقضاة وجنود مسرحين وصناعيين يدويين ومشردين ، لم يستطيعوا الاستغناء عن الهنديين اللواتي يعرفون وحدهم تحضير الحساء وصناعة الاحذية والمياجير واعداد الجلود للبيع . فابتاعوا من ثم الهنديين لزواج وقفي . وتزوج بعضهم من اكثر من امرأة وتمهدوا « مراض صبايا » . واعتنق بعضهم الوثنية وكرموا ارواح الصخر وارواح النهر وارواحاً اخرى كثيرة . ففى ميشيليا كنانك وفي « سولت سانت - ماري » تجانبت

قرية اوروبية وقرية هندية كان اطفالها الخلاسيون ينتقلون بحرية بين قرية واخرى . ولولا الضباط والكهنة لألفت القريتان قرية واحدة ، ولانتهى الاستعمار الى « الهند - الجديدة » لا الى « فرنسا - الجديدة » . وانما الوقائع التي نسردها ليست سوى وقائع متفرقة على كل حال ، ولكن على الرغم من مقاصد الحكومة الملكية ، بقي المجتمعان منفصلين يترك احدهما في الوقت نفسه اثرأ بعيداً في الآخر .

كان النشاط التبشيري في فرنسا - الجديدة كبيراً على غرارها في المستعمرات الاسبانية . فان « جاك كاتييه » قد بين لفرنسا الاول ، بعد رحلته الاولى ، في « روايته القصيرة وقصته الموحزة » ، ان ملك اسبانيا قد نشر لواء الانجيل في اميركا الاسبانية وان ملك فرنسا لا يجوز ان يتأخر عنه في هذا المضمار . وفي السنة ١٥٤٠ ، حين فوض فرنسا الاول الى جاك كاتييه القيام برحلة ثانية ، اعلان عن رغبته في اشاء مستعمرة دائمة من الفرنسيين في فرنسا - الجديدة « لتسهيل حل الشعوب الاخرى في هذه الارض على اعتناق ايماننا المقدس » ، ولعمل شيء ما يرضي الله خالقنا وفادينا ويسهم في تعظيم اسمه الاقدس وامنا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة التي ندعى نحن باسم ابنها البكر » . واقتضى اثره هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ، لان الخضوع للملك هو في نظرهم وسيلة تبشير وهداية ولأن التبشير والهداية شرط ديمومة سلطة ملك فرنسا ، الهداية تلازم التحضير اي انها تستلزم حمل الهذود على تبني اخلاق الفرنسيين ولغتهم وعقليتهم . فيتضح من ثم ان الملوك اخضعوا التبشير للسيطرة الاجنبية ولتقبل شكل حضاري معين ، في حين ان الايمان بالمسيح مستقل كل الاستقلال عن كل شكل سياسي وكل شكل حضاري .

ان تبشير فرنسا - الجديدة لاحدى ظواهر النهضة الكاثوليكية الفرنسية في القرن السابع عشر . فان المركيزة « دي غرشفيل » ، والدوق « دي ليفي - فنتادور » ، البورجوازي ، و « ماري غويتار » ، ارملة احد الحرييين ، التي اصبحت « ماري التجسد » وذهبت الى كيبيك بالراهبات الاورسوليات في السنة ١٦٣٩ ، قد اسهما مع يسوع المسيح في بث الكلمة الالهية ، بحسب تعاليم « بيرول » و « كوندرن » و « جان - جاك اوليه » .

منذ السنة ١٦١١ ذهب اليسوعيون الاول الى بلاد الميكاك . وفي السنة ١٦١٥ استدعى شامبلين الى كيبيك رهبان القديس فرنسيس الذين كانوا يمشرون الالفونكيين . وفي السنة ١٦٤٢ اسس خادهم رعية « سان - سوليس » ، جان - جاك اوليه ، بناء على طلب رهبانية القربان - المقدس ، جمعية سيدة « مونريال » واقام فيها السوليسيين .

الا ان اليسوعيين هم من ادوا القسط الاكبر للتبشير . فقد حاولوا هدي المونتانييه والناسكابي والكريه والابناكي والهورون وحتى الايروكوا . ولم يختلف نهجهم في جوهره عن نهج اليسوعيين الاسبانيين والبرتغاليين ، فلا حاجة من ثم ان ندخل هنا في التفاصيل . وقد

توفقوا الى نتائج حسنة احياناً . فان الابناكي قد اصبحوا كاثوليكين متأصلين في ايمانهم وغدوا بالفعل نفسه حلفاء فرنسا الاوفياء على الانكليز البروتستانت . وقد اجابوا الانكليزي الذي جاء يطلب اليهم البقاء على الحياد ، خلال حرب حلف اوغسبورغ : « ايها الضابط العظيم ، انت تطلب الينا الان ننضم الى الفرنسي اذا ما اعلنت عليه الحرب . فأعلم انت الفرنسي شقيقي . صلاته وصلاتي واحدة . نميش في كوخ واحد حول نارين ، ناره وناري . محبتي لأخي اقوى من ان اتقاعس عن الدفاع عنه » . ولم يكف الابناكي عن شن الغارات على المنطقة الانكليزية . وكان من محافظة الميكاك على كاثوليكيتهم في قلب المنطقة البروتستانتية حتى القرن التاسع عشر ، ان احد المرسلين البروتستانت قد اقام فيما بينهم ولم يفلح في حمل شخص واحد منهم على التخلي عن عقيدته . وبرهن الكثيرون من هؤلاء المهتدين عن ايمان حار واخلاق طاهرة وضمير حي . اما المونتانييه والناسكاني فلم يبرهنوا عن انقيادهم الا في حضور الآباء . واذا ما ذهب الآباء ، عادوا هم الى وثنيته . وجدير بالذكر ان معظم البلديين لم يهتدوا . ففي السنة ١٦٤٠ لم يبلغ عدد المهتدين من الهورون سوى ١٠٠٠ شخص تقريباً من اصل ١٢٠٠٠ تناولهم التبشير والوعظ . وقدّر الاب « انطوان سيلفي » ، حوالي السنة ١٧٠٠ ، ان رسالة الهدي قد تستغرق عدة قرون . وتفانى اليسوعيون في تأدية رسالتهم حتى الاستشهاد . ولدينا خير مثل في ما حدث للاب « دي بريوف » في السنة ١٦٤٩ . اسره الايروكوا مع الاب « لالمان » في غارة شنوها على الهورون . الا ان النصر لا يكون تاماً في نظر الهنود الا اذا استسلمت ارادته ايضاً ، اي اذا صاح من الالم وطلب الرحمة . امرّوا الابوين بين صفين من الايروكوا المزودين بالدبابيس الذين انهلوا عليها ضرباً ، كل بدوره ، فلم يبق في جسيمها جزء واحد سالم من الضرب . وضموا عصياً ملتهبة تحت ساق الاب « دي بريوف » وابطيه . فلم يجب الاب الا بالصلاة من أجلهم . مزقوه حينذاك بالسكاكين ورؤوس النبال ، وعلقوا له في عنقه عقداً من الفؤوس الحماة . ولكن الاب قال لهم ان حروق جهنم ستكون اشد ايلذاء اذا لم يهتدوا . عنذئذ البسه الايروكوا نطقاً وحائل من قشور صمغية واشعلوا فيها النار . ولكن الاب استمر في التوجع لحالهم وفي استئزال رحمة الله عليهم . فاستشاط الايروكييوا غيظاً من انهم يعاملون معاملة النساء وعمدوه بالماء الفالي . عندما رأوا ان الاب يواصل الابتهاال الى الرب من اجلهم قطعوا لسانه وشفتيه وانفه واقتلعوا عينيه . ثم جرّوه الى سطح احد البيوت ليقدّموه ذبيحة لإلههم « اغرسكوي » . وبينما لم يزل حياً ، انتزع احد الرؤساء قلبه وشواه واكله رغبة منه في ان تتجسد فيه بسالته . ثم قطعه الهنود الآخرون ارباً ارباً والتهموه . وقد بدأ تعذيبه ظهراً وانتهى بعيد الساعة الثالثة زوالية ، في السادس عشر من آذار من السنة ١٦٤٩ .

لم يبذل الانكليز جهوداً تذكر في سبيل هداية الهنود . نقل الانكليز وهنود الحضارة النيبوليتية « جون البيوت » التوراة الى اللغات الهندية فأتاح بذلك اهتداء بعض الاقوام ، ٤٠٠٠ بلندي تقريباً « دجنوا » ، كما قال الانكليز دجوناً ميمزاً .

وقامت بعض العائلات التجارية . فقايض الهنود الفراء بعرق السكر والمصنوعات الحديدية . واستغلهم التجار . ولكن الهنود من جهتهم قد زاولوا السرقة لأنهم لم يفقهوا معنى للملك الخاص . فاشترى المستعمرون اراضي الهنود الذين لم يدركوا معنى العملية واعتقدوا بانهم انما يشاركون البيض استثمار الارض فقط . وحين طفت موجة المهاجرين والمزروعات ، ففرت من امامها الطرائد ، اراد البلديون الدفاع عن اراضيهم المخصصة للفنص . فأقدم بعض البلديين من قبيلة الـ « بيكو » على قتل بعض التجار ، فقام طاوور من متطوعي « ماساشوستس » باحراق قرام في السنة ١٦٣٦ . عند ذلك احاط المحاربون البيكو بقرى كونكتكت وقاتلوا البيض الذين صادفهم . في السنة ١٦٣٧ ، احاط جيش كونكتكت (٩٠ رجلاً) ليلاً بأهم قرية من قرى البيكو واشعلوا فيها النار ، فمات ٥٠٠ هندي بين رجل وامرأة وطفل . ثم طورد فلول القبيلة ، فقتل معظم الذكور واستعبدت النساء مع صغارهن . فقد كتب احد الرعاة البروتستانت الى حاكم ماساشوستس يقول له : « سيدي ، نحبيك في الرب يسوع انا والسيد « اندكوت » . أما بعد فقد بلغنا ان قسمة نساء واطفال تجري في الجون . فنرغب في الحصول على نصيبنا ، اي على فتاة او امرأة شابة وعلام اذا ما رأيت ذلك موافقاً ... » . احدث الجشع في طلب الاراضي غضباً وحقدأ شديدين على الهنود . فاستهدفت الجهود الكبرى ابادة هؤلاء « الاوثان » . غدت الارض « احد آلهة انكلترا الجديدة » . ولأدنى حجة اقتيد الـ « ساشم » عنوة الى « بوسطن » و « بليموث » وارغموا ، تحت طائلة النحر ، على تسليم اسلحتهم والتخلي عن بعض اراضيهم . في السنة ١٧٦٥ ، اعلن « الملك فيليب » الثورة . فدكت القرى وقتل ٦٠٠ من البيض عند حدود ماساشوستس وبليموث وكونكتكت . ولكن الهنود لم يكونوا متحدين ، فتمكنت قوى المستعمرات من قمع الثورة بمساعدة القبائل الوفية . هزم الهنود شر هزيمة وبيع الاسرى عبيداً وأعدم المسؤولون المجرمون . واستمر المستعمرون في كل مكان في تقتيل الهنود .

وهكذا فان الاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم ، قد اخفقوا في كل مكان في محاولاتهم الرامية الى دمج هنود الحضارة النيوليتية . ويرد ذلك الى التفاوت الكبير بين الحضارات . اما الهنود الذين حافظوا على علاقاتهم بالاوروبيين فقد اضمحلوا تدريجياً . الا ان بعضهم ، كالليكهاك مثلاً ، قد عرفوا البقاء لانهم انما « تكبّسوا » الحضارة الاوروبية . ولم يعرف البقاء حقاً الا عامة شعب المايا بعد ان ازال الاسياد والكهنة الاسبانيون اشراف وكنهة المايا وحلوا محلهم . ولكن المايا كانوا قد بلغوا ، لاعتبارات خاصة ، مرحلة عقلية عليا . فتمكنوا من ان يصبحوا مساعدين وضماة للاوروبيين ويتقبلوا الحضارة الاوروبية ، بعد خسائر فادحة في الارواح . ولكنهم احتفظوا عملياً تحت اسماء مسيحية ، بآلهتهم الزراعيين ، وتحت ظواهر مسيحية ، بعبادات حياتهم اليومية ، اي انهم تمكنوا من البقاء .

اما الهنود الآخرون فلم يتمكنوا من تغيير عاداتهم . والدليل على ذلك اختبار حاسم

اجري في القرن التاسع عشر . ثبني زوجان من الميكاك طفلاً ابيض صغيراً سلخ سني حدثته في هذه القبيلة ، ثم تزوج من كندية فرنسية وغادر نطاق القبيلة . يقول لنا ابنه ماييلي : حوالي السنة ١٨٩٠ ، « حين تقدم والدا ابي بالتبني في السن وضعفت قواهما الجسدية ، اتى بها الى بيته كي يقضيا شيخوختها فيه . ولكنها لم يتمكننا من تعود طرائق حياتنا . فلم يربدا الجلوس حول المائدة لتناول الطعام ، بل عندا في قعود الاربعاء والاستعاضة عن الخوان بقطعة من جلد قدامهما . قدمنا لهما سريراً ، ولكنها نزعا الشرشف والدثر وثاماً ارضاً . لم يحبا طعامنا ، حتى ولا خبزنا ، الا اذا خبز على الفحم . ثاقا ابدأ الى لحم الطرائد ، وحين بلغ توقها الذروة ، بلغا هما من الانهار والوهن ما حمل من لا يعرفها على الاعتقاد بانها مريضان . كلما اقتنصت لهما ارنباً او سنجاباً او دلدلاً ، غمرتها البهجة ... والحقاً ابدأ على ان يشوى لحم الطرائد فوق النار في الهواء الطلق » . ان حالة انهيار الهندي المحروم من طعامه المألوف تنطوي لمعري على مغزى كبير .

فهل ان صعوبة الانتقال هذه من حالة حضارية الى حالة حضارية اخرى هي ما يميز بعض الاعراق ياترى ؟ ان هذا الافتراض ، كما يبدو ، ليس متفقاً والواقع . فان هنود الحضارة النيوليتية ، حتى البدائيين منهم ، قد برهنوا عن قابلية كبرى للتكيف اذا ما فصلوا عن بيئتهم في حداثة سنهم . والدليل على ذلك ان اولاد المونتانيه الذين عاشوا في كيبيك في السنة ١٦٣٦ قد القوا بسهولة كلية المآكل والملابس الاوروبية ونبدوا مآكل البرابرة وملابسهم . وقد ذكر « جليروتو فرير » في كتاب شهير ان زوجين من البيض تبنيوا في ايامه احدى فتيات الغواراني . فصلها عن قبيلتها وربياها كما لو كانت ابنتها بالذات . ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى لمت في دروسها ، تسلك سلوك الفتاة البيضاء ولا تتميز بشيء عن رفيقاتها في المدرسة . وكذلك فان ابن الملك « اروسكا » ، التوبي - غواراني « اسونريك » ، قد جاء الى فرنسا واقام في نورمانديا وورث اسم اشبينه « بينو بوليه دي غوتفيل » والغابه وبعض ممتلكاته . واقام هنود آخرون كثيرون في فرنسا واندمجوا في الحضارة المسيحية بالعماد وفي المجتمع بالزواج . ان هذه الوقائع تثبت قابلية هندي الحضارة النيوليتية لاستساغة الحضارة الاوروبية ، وتقدم دليلاً اضافياً على وحدة الجنس البشري . اما فشل اوروبيي القرنين السادس عشر والسابع عشر فليس قضية عرق بل قضية حالة اجتماعية . فلم يتوقف تشبه هندي الحضارة النيوليتية على العموم آنذاك بالاوروبيين على هذين الشرطين : اخذه طفلاً وفصله كلياً عن بيئته الهندية وعائلته وقبيلته ؟ ولكن هب ان المسيحيين لم يأنفوا من ذلك ، فهل ان الوسائل اللازمة توفرت لهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟

٢ - الاوروبيون وهنود حضارة عصر النحاس

كان وصول القشتاليين حثيثاً نسبياً . فقد بلغ عددهم ، حوالي السنة ١٥٥٠ ، بين المكسيك ١٧٠٠٠ و ١٨٠٠٠ ، وضم حوالي ٣٠٠٠ مشرد . ومرت المستعمرات الجديدة ، حتى السنة ١٥٣١ - ١٥٣٢ في المكسيك ، وحتى حوالي السنة ١٥٤٠ في البيرو ، في مرحلة لامركزية حقيقية . تولى الفاتحون الوظائف العامة الرئيسية وحصلوا على «امتيازات» واقطاعات وعلى القاب الاشراف احياناً . وسبق لكورتيس ان عين ضابطاً - عاماً وحاكماً بموجب مرسوم «فالادوليد» المؤرخ في ١٥ تشرين الاول من السنة ١٥٢٢ . فتسلم اقطاعة تضم ٢٨ مدينة وقرية . وفي ٦ تموز من السنة ١٥٢٩ منح لقب مركيز «فاليه دى اوجاكا» وفارس «سانتياغو» .

وتد الفاتحون الاستقلال الذي اعطاه اياهم بعدئهم عن الحكومة بالتجمع في نقاط استراتيجية وبتأسيس مدن وتعيين بلديات تمارس فيها سلطات المديريات الاسبانية القديمة دونما اكتراث لرجال القانون الذين ارسلهم الامبراطور كموظفين . ومارس الفاتحون حيال الهنود السلطات السيديية بحلولهم محل الارستوقراطيات البلدية . اهلوا سياسة الحكومة القائلة بالدمج ونصبوا انفسهم عرقاً متفوقاً ، بحركة انمكاسية دفاعية ، وحاولوا اشعار البلديين بدونيتههم . تزوجوا من بنات الامراء واختاروا سراري لهم من عامة الشعب ، ولكن هؤلاء النساء والاولاد الذين رزقنهم منهم لم يحظوا باعتبار كبير . فغير ما حصل عليه انسال بنات الامراء هو صفة مواطنين اسبانين من منطقة ، ثانية بينما حصل سوام على اقل من ذلك بكثير . اما رؤساء البلديين فقد ثبتوا في وظائفهم ، ولكن ارستوقراطيتهم بقيت خاصة للارستوقراطية الاسبانية البيضاء .

انتهر اعيان الهنود ظرف زوال امبراطورية الازتيك ليستولوا على الاراضي التي امتلكها اما الامبراطور واما الدولة واما المعابد واما الكلبول . حاولوا الهنود الاحرار الى مزارعين دائمين يقدمون لهم ٥٠٪ من محاصيل الارض وخدمات اليد العاملة . فرفض بعض الهنود تحمل هذا النظام . ولجأت عشائر كاملة الى الجبال ، وهامت على وجهها جماعات وافراداً ، فعم التشرد وهكذا انحل المجتمع الهندي .

منذ السنة ١٥٠٢ حتى السنة ١٥٢٦ ، اعيد بناء مكسيكو التي توجب تدميرها للاستيلاء عليها وشيدت فيها كاتدرائية القديس فرنسيس حيث كان ينتصب المعبد الكبير . وشيدت كذلك ثلاثون كنيسة اخرى وبعض القصور . وبرز فن استعماري مستهجن . واخذ كبار اصحاب الامتيازات يستثمرون اراضيهم ، فاعطى كورتيس المثل في املاكه . شيد في «كوارنافاكا» قصرأ فخماً وانشأ حدائق عظيمة . وانشأ كذلك مزارع قصب السكر والتوت والقنب وحاول تربية دودة القز والاغنام الاسبانية واسس مصانع النسيج واعار اهتمامه مناجم الفضة . ولا غرو فان محاصيل الاملاك والمطلوب من الهنود ذرة صفراء وقطننا ولوزا هنديا لم تكن سهلة التصريف .

فليس هنالك اسواق لمثل هذه المحاصيل ، والمسافات شاسعة ومليئة بالاعطال . ولكن الحاجة ملحة الى استحضار الاسلحة والملابس والزيوت والنبذ من اوروبا . فمست الحاجة الى معادن ثمينة غالية الثمن وصغيرة الحجم تستعمل في سبيلها مواجهة اخطار النقل ونفقاته . فبحث الجميع عن المناجم يحشع .

نضبت حقول الذهب بسرعة . فتوجب التوغل في البلاد بعيدا . زد على ذلك ان هؤلاء الجنود القدامى لم يثبتوا في مكان ، فهم السكان على وجوههم « كالدادة الفلمنية على سطح الماء » . وباع صغار اصحاب الامتيازات امتيازاتهم وهاموا على وجوههم ايضا واقتحموا الأخطار . ونظم كبارهم حملات جديدة ، كحملة كورتيس مثلاً في السنة ١٥٣٦ الى خليج كاليفورنيا . ودفعت الحاجة الى اليد العاملة باصحاب الامتيازات الى مضاعفة اعمال التسخير التي افضت الى ان هناك الهنود او استعبادهم . كان المستعمر يوجه انذاراً الى القبيلة بوجود الاهتداء الى الدين المسيحي ، فترفض القبيلة وتعامل آنذاك معاملة القبيلة الثائرة ويستعبد من يقع من أفرادها في الأسر .

لم تكن هذه الظروف مؤاتية للتبشير ، ولكن التبشير تقدم تقدماً حثيثاً على الرغم من ذلك . قال كورتيس والفانجون ، القساة المتسرعون ، بالاكراه ، اي يهدم المعابد وتحطم التماثيل وتقتل الكهنة والعمادات الالزامية بالجملة . وطبقوا ما قالوا به بدون اعتدال . ولكن كاهن كورتيس الخاص ، الاخ « برتولوميو دي اوليدو » ، والمرسلين الذين استحضروهم كورتيس ، الفرنسين (١٥٢٤) والدومينيكيين (١٥٢٦) والاوغسطينيين (١٥٣٣) قد اعتبروا الهداية بالقوة عملاً جائراً . اعتناق المسيحية يجب ان يكون هبة ذاتية طوعية . فنصحوهم بان يترك الهنود شأنهم ويبشروا بالدين المسيحي بحلم وقوة . واستغل « اوليدو » فضول البلديين . فكان الفانجون يحضرون قداساً في الهواء الطلق ويصلون بالسبحة ركوعاً ويتلون صلاة « الملاك » امام الصليب كل يوم عندما يسمعون صوت الناقوس . وكان الهنود ينظرون اليهم بدهشة . وكثيراً ما سأل بعضهم عن سبب اقتضاع الاسبانيين امام هذه القطع الخشبية . فكان اوليدو يشرح حينذاك العقيدة المسيحية ويفسر لهم كيف ان يسوع ، الاله والانسان ، مات على الصليب محبة باخوته وكفارة عن خطايا البشر ورغبة منه في ايصالهم الى الحياة الابدية . ولم يفرض اوليدو في البدء ممن طلبوا التنصر سوى هذين التخليين : الامتناع عن اللواط والامتناع عن الذبائح البشرية . وحين مات في السنة ١٥٢٤ ، خلف وراءه تقليداً .

في هذه الاثناء ، واصل الملوك الاسبانيون جهودهم الكبرى ليخضعوا

العالم الجديد لسلطتهم المطلقة والمركزية الملكية . التاج نفسه يملك
المركزية الملكية
المؤسسات السياسية
الهند وقشتاليا : لذلك يجب ان تتشابه القوانين ونظام الحكم مسا
امكن التشابه . انشئ في الهند تدريجياً جهاز كامل من المؤسسات .

تألف مجلس الهند الى جانب المجالس الملكية الاخرى . ورد ذكره رسمياً في السنة ١٥٠٩ ، ثم غدا مؤسسة دائمة ابتداء من السنة ١٥٢٤ . وكما كان يفعل مجلس قشتاليا حيال القشتاليين ، حرر

مجلس الهند لاميركا القوانين التي اوحى بها الملك ، وراقب تنفيذها بالمراسلة او بارسال المفتشين ، ووضع اسس التنظيم الاداري واقترح المرشحين للوظائف ، وحي الهنود ولعب دور محكمة الاستئناف . منذ السنة ١٥٠٣ ، تأسست في اشبيلية غرفة تجارة الهند التي اشرفت على كل تجارة الهند وسهرت بصورة خاصة على جمع النصيب الملكي ، الذي حدد بعشرين بالمئة من قيمة المعادن الثمينة . وسلمت القباطنة ايصالات بهذه الضريبة . وقمعت مكتبا لقيادة السفن ومدرسة ملاحية كانت موضوع اعجاب عام ، وعالما فلكيا لوضع الجرائد . وصدر تحت اشرافها كتاب « فن الملاحة » الذي ألفه « بدرودى مدينا » ووافق عليه « الريان الاكبر » « دى لا كازا » ، ونقل الى الايطالية والفرنسية والفلمنكية والانكليزية وبات كتابا مدرسيا طيلة ١٠٠ سنة . ومنذ السنة ١٥٣٥ عينت قاضيا يمثلها في قانس ، بسبب حاجز « سان - لوكار » الصخري الذي حال دون وصول السفن الكبرى الى اشبيلية ، ولكن اشبيلية احتفظت لنفسها بالرقابة .

وانشأ الملوك في اميركا مجالس شبيهة بمجالس اسبانيا ، اي انها تلعب في آن واحد دور مجالس السلطة التنفيذية ، نائب الملك أو الضابط العام ، ودور الاجهزة الادارية على غرار المجالس (البرلمانات) الفرنسية . تالفت على العموم من رئيس واربعة موظفين (مستمعين) يعدون القرارات . انشئ المجلس الاول في اسبانيولا في السنة ١٥١١ ؛ وانشئ مجلس ثان في مكسيكو في السنة ١٥٢٧ ؛ وثالث في باناما في السنة ١٥٣٦ ؛ ورابع في ليا في السنة ١٥٤٤ ، الخ . وعين الى جانب المجلس ضابط عام يتولى قيادة الجيوش ويؤمن الدفاع ويسهر على تنفيذ القوانين والمقررات القضائية والادارية . وقسم نطاق صلاحية المجلس او الضابطية العامة الى حكومات يتولى السلطة فيها الحكام ، وقسمت الحكومات الى محاكم يتولى السلطة فيها القضاة ؛ وقسمت المحاكم الى محاكم بلدية يرأسها « قضاة عظام » . وفرض على ذوي الامتيازات اقسام اليمين واعتبروا ، هم ايضا ، موظفين ملكيين .

وعين في قمة هذا الهرم نواب ملك يعززون السلطة التنفيذية ويلقون الالهابة والخوف في الفاتحين النازعين الى مزيد من الاستقلال . كان اول نائب للملك « انطونيو دى مندوزا » ، مركيز « موندخار » ، الذي عين في السنة ١٥٢٩ ووصل الى مكسيكو في السنة ١٥٣٥ . ثم عين نائب ملك آخر في ليا في السنة ١٥٤٢ .

خضع نواب الملك وكافة الضباط الملكيين لرقابة المجلس ورقابة مفتشين او « زائرين » . وكانوا عرضة ، عند انتهاء ولايتهم ، لمحاكمات اقامة تسمع فيها شكاوى رعاياهم ويتوجب عليهم تبرئة أنفسهم منها .

توطدت السلطة الملكية شيئا فشيئا . في السنة ١٥٢٦ ، اضطرت كورتيس لان ينيخ عنقه لتحقيقى قضاة الاقامة . وحوالي السنة ١٥٣٦ ، أخذ قضاة المحاكم يستلمون مهامهم . وحوالي السنة ١٥٣٠ - ١٥٣١ ، اقصى كورتيس عن الحكم وتاسس مجلس مكسيكو الثاني . فبدأت

منذ هذا التاريخ المركزية النسبية في المكسيك ؛ ثم بدأت في البيرو ما بين السنة ١٥٤٤ والسنة ١٥٤٧ ، وكان مقدراً لها أن تدوم بعد شارل الخامس حتى السنة ١٥٧٣ تقريباً في عهد فيليب الثاني .

اسهم مجهود الحكومة في تنمية اقتصاد علائق مسافات كبرى بين مناطق المكسيك المختلفة وبين أوروبا ، افضى بالنتيجة الى تمكين السلطة النسبية . استمر مستعمرو البيرو في التوغل بعيداً في البلاد بحثاً عن المناجم ، فاكتشفوا في السنة ١٥٤٥ مناجم « بوتوسي » في « بوليفيا » الحالية ، التي تفجر منها سيل من الفضة ؛ واكتشف مستعمرو المكسيك في السنة ١٥٤٦ عروق « زاكاتيكاس » على مسافة ٧٠٠ كيلومتر مكسيكو ، وفي السنة ١٥٦٧ بلغوا « هندو » و « سانتا - بربارا » في قلب بلاد البدو على مسافة ١٥٠٠ كيلومتر ونيف عن مكسيكو . منذ السنة ١٥٤٨ قامت في زاكاتيكاس بين ليلة وضحاها مدينة ضمت خمس كنائس وحوالي خمسين « مطحنة معادن » . فتميز الاستعمار الاسباني منذئذ بسرعة التوسع واسترخاء الاحتلال . اعتمدت في البدء الطريقة الهندية : يسحق المعدن الخام بين حجرين قاسيين ويوضع فوق النار في افران ذات ثقوب للتحليل ، فتتحلل الفضة في الرصاص اثناء الذوبان . ثم يبعد الرصاص باكسدته بالهواء . الا ان نفقات المحروقات كانت باهظة ، والحصول على المعدن الثمين استغرق وقتاً طويلاً ؛ فبات لزاماً معالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها مرتفعة . في السنة ١٥٥٤ ادخل « برتولوميو دي مدينا » الى المكسيك طريقة اللغم او المزج التي اقتبسها عن أحد الالمان . يسحق المعدن الخام ويرش بالماء ويخلط بالملح والنحاس المزوج بكبريتور الحديد والزئبق . الزئبق يستولي على الفضة لانها قابلة الذوبان فيه . ثم يصعد الزئبق بخاراً وتجمع الفضة . فالتاحت هذه الطريقة وقرأ كبيراً في الوقت والمحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية . وفي السنة ١٥٦٣ ادخلت هذه الطريقة الى البيرو بعد اكتشاف مناجم الزئبق في « غواناكافليكا » .

ان عمل المناجم أوجد حركة بضائع كبرى . فكان على المناجم نقل انتاجها من المعدن الثمين . وحوالي السنة ١٦٠٠ بلغ تصدير الفضة الى أوروبا وآسيا ذروته ، ومثلت الفضة ثلثي أو ثلاثة أرباع قيمة المشحونات . وكان على المناجم الحصول على الزئبق الذي استورد الى المكسيك من أوروبا ، وعلى الجلد الضروري لتجفيف الدهايز ونقل الفضة ، وعلى المواد الغذائية . فتوجب من ثم تأمين حماية الطرقات من البدو وتعزيز الانتاج الزراعي وتربية المواشي . فان الشيشيميك ، في المكسيك ، وقد أصبحوا فرساناً مهرة في وقت قصير ، أخذوا يحرقون تجهيزات المناجم الصغرى المنعزلة ، ويمحقون الاستثمارات « فلا يبقون فيها على كلب أو هر في قيد الحياة » ، ويهاجمون المسافرين ويقتلونهم ويحرقون البضائع . فتوجب التنقل مواكب كبرى مسلحة تضم حتى ٨٠ عربية مصنوعة من الخشب السميكة المتين كانت اشبه ببحصون متحركة ، وأحداث نقاط عسكرية يواكب جنودها

المسافرين . الا ان الحل الحقيقي كان اعمار البلاد على جوانب طرق المدن باقامة جماعات من المزارعين ومربي المواشي فيها . فأكثر لواب الملك والبليات ، تحقيقاً لهذا الهدف ، توزيع امتيازات استثمار الاراضي والمراعي لقطعان الماشية .

سبق للاسبانيين ان استحضروا حيوانات اوربوا الداجنة للتغذية
فتح حيوانات
اوربوا الداجنة للعالم الجديد
والاعمال ، الخنزير ، الثور ، الخروف ، الحصان ، الحمير ،
واستخدموا البغل الذي ما كان الاستثمار ليصبح ممكناً بدونه .
ازدهرت تربية المواشي . فالمساحات واسعة جداً . ويكفي عدة حراس لالوف الحيوانات .
ولم تكن الحراسة على ظهر الحصان عملاً خديماً بل عملاً جديراً بمرق متفوق . خلال عقد
اجتاحت العالم الجديد موجات متعاقبة من المواشي . المراعي غنية بالكلل لان حوافر الحيوانات
لما تطأها . الا بقار تضع صغارها قبل ان تبلغ السنتين من عمرها . تتضاعف القطعان خلال ١٥
شهر . اصحاب القطعان يمتلكون ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ وحتى ١٠٠٠٠٠ حيوان . سعر اللحوم
ينخفض الى ثلثه في الاندلس فينجم عن ذلك خدمة جلي للاستثمار ، ولاخوف على الابيض من
ان لا يجد ما يؤمن غذاءه . اما الجلد الذي مست الحاجة اليه للمناجم وللجيوش الاسبانية في
اوربوا فقد غدا انتاجاً تصديرياً رابحاً . ولكن تربية المواشي لم تجدد سوى ملاكي القطعان
الكبرى ، وكان مقدراً لها ان تقضي الى الاملاك المقاربة الكبرى .

حافظ الاسبانيون على مبداء القشتيلي : العشب هبة الطبيعة ، فيجب ان تكون المراعي
مشتركة ، وقد اعترف بالمرعى العمومي حقاً وقانوناً بعد الحصاد . القطعان تنتقل بحرية ، وقد
توطدت من جهة ثانية عادة نقل المواشي من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة والعكس
بالمكس . انما يقتضي لمربي المواشي نقطة ثابتة لاقامة زرائب البهائم واكواخه . فاختلت
الجماعات متمزفة للمربين بنطاق وراثي قابل للتخلى ، اي بنقطة ثابتة لا يحق لاي مرب ان يقيم
حولها ضمن دائرة يبلغ شعاعها اربعة كيلومترات على الاقل . الا ان هذه الهبة لم تول حق غل
بل مجرد حق استعمال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الحرية لم تعد سوى الاسبانيين اذ ان
الهنود لا يمتلكون قطعاناً والمواشي تحتاج مزروعات الهنود فتفر جماعات كاملة الى الجبال . حتى
نواب الملك الهنود بتحديد نطاق حماية جوار القرى ، وبانقاص المدة المسموح خلالها الاستفادة
سوى من المراعي العمومية ، وبمحاولة رسم طرق تسلكها المواشي المنطلقة من منطقة الى اخرى .
وحاولوا اخيراً تحويل سيل القطعان نحو البورات الشمالية بمنح النقاط الثابتة مع نطاقاتها في قلب
مناطق البدو . فكان نصيب بعض كبار الموظفين والمستعمرين النافذين بين سبع نقاط واحدة
عشرة نقطة ثابتة ، فاشترى امتيازات غيرهم من المستعمرين الثانويين وكونوا لهم املاكاً كبرى .
والى جانب الثور ، وفرت اللحوم الشبيهة بقطعان كبرى من الاغنام نسجت اصوافها وحيكت
في النقاط الثابتة عيناها وبيعت الاعمشة في كافة انحاء العالم الجديد .

فتح نباتات اوروبا العالم الجديد استحصل الاسبانويون من البلديات او من نواب الملك على املاك تقارب مساحتها ٤٣ هكتاراً من الاراضي الزراعية ، رغبة منهم في انتاج اثمار وحبوب بلادهم . زرعوا القمح بصورة خاصة على جانبي الطريق . بين « فيراكروز » ، ومكسيكو ، واشجار البرتقال والليمون والتوت في منطقة « بوابلا » ، وربوا دودة القز في بوابلا والـ « مكستيك » . صدر الحرير خاماً الى اسبانيا او غزل وحيك في البلاد . وبيع القمح بسهولة لتموين الاساطيل الاسبانية والمناجم . اما اليد العاملة فقد وفرها الهنود باجور زهيدة بلغ من قدرها ان العمل اليدوي حظّر على البيض . شجع نواب الملك زراعة الخنطة ولكنهم تقيدوا بتعليمات سرية ووقفوا عثرة في سبيل زراعة الكرم وشجرة الزيتون اللتين تتوفران بكثرة في اسبانيا . وهنا ايضاً توصل بعضهم ، بالتغذية المباشرة او بالشراء ، الى امتلاك مساحات كبرى ، مع ان الاملاك المتوسطة المساحة لم تكن نادرة .

ازدهرت في الوديان العميقة والسهول الساحلية والمنحدرات المطلة على البحر زراعة قصب السكر ، وشجرة اللوز الهندي والمظلم في مغارس ومشاجر صغرى منعزلة تتوزع على مئات الكيلو مترات . في البدء استخدم اللوز الهندي نقداً ، وفي اواخر القرن السادس عشر اصبح الشوكولاتا المشروب المفضل في المكسيك واسبانيا ، ومسحوق اللوز الهندي مادة تجارة وتصدير كبيرين ، ونمت زراعة قصب السكر نمواً سريعاً بسبب تزايد استهلاك « الحلويات » الذي جعل من السكر مادة ضرورية جداً . ونمت كذلك زراعة المظلم بفضل الاحتكار الذي استحصل عليه ، في السنة ١٥٦١ والسنة ١٥٧٢ ، « بدرو دي لدماسا » ، « مكتشفه » ، والمركيز « دل فاله » احد حفدة فرنندو كورتيس . كانت كل هذه المغارس والمشاجر املاكاً كبرى او مشاريع رأسمالية . فتوجب استخدام عدة مئات من العمال وعدة مئات من الحيوانات في كل منها لحراستها حراسة عميقة ورعاية بها . سحق قصب السكر بواسطة محادل من الخشب الصلب تحركها مطاحن تسير على الماء او البغال ، ومست الحاجة الى قدور معدنية كبرى وقدور معدنية صغرى . كما مست الحاجة ، لمعالجة المظلم ، الى مضخة ماء ، وقدور معدنية للانضاج ، وعجلات ذات لوحت تحركها البغال لمزج المعجون ، واحواض للتصفيق ، واحواض للتجفيف . فلم يتمكن من تأمين الاموال اللازمة لكل ذلك سوى كبار الملاكين .

اعتمد نائب الملك « مندوزا » وخلفه « فيلاسكو القديم » (١٥٥٠ - ١٥٦٣) النظريات الدومينيكية وحاولا حماية الهنود وممتلكاتهم . فعين حاة للهنود في الولايات منذ السنة ١٥٤٢ . وانشئت في مجلس مكسيكو محكمة للشؤون البلدية منذ السنة ١٥٧٤ . الا ان الهنود بقوا احراراً في بيع ممتلكاتهم . فباعوا الكثير منها في اواخر القرن السادس عشر ، مع انهم كانوا مسؤولين عن الجزية المفروضة على جماعاتهم . ثم انتشرت الاوبئة ما بين السنة ١٥٧٦ والسنة ١٥٧٩ وقضت على نصف السكان الهنود . ولكن مقدار الجزية لم يتبدل . فاضطر زعماء الهنود للبيع لاجل دفع الجزية . بيد ان بعضهم احتفظوا باملاك واسعة جداً .

لم تستثمر الجماعات الهندية سوى مساحات صغرى من اراضي المكسيك . فاتيح الاسبانيين من ثم الاستيطان وتلك اراض شاسعة دون التعرض مباشرة للجماعات . ولكن الاراضي الخصبة في منطقة « اناهواك » مالبثت ان امتدت واحاطت تدريجياً بالقرى الهندية . فاعتصب الاسبانيون الاراضي ، وانتهى الهنود احياناً الى الفاقة . وحدث في اماكن اخرى ان خربت قطعان الاسبانيين المزروعات الهندية . انما يبدو بصورة عامة ان اراضي الجماعات كادت تكون كاملة سليمة في اواخر القرن السادس عشر . ففي اواسط القرن السابع عشر ، وامام ابواب مكسيكو بالذات ، ما زالت بعض الجماعات الهندية تمتلك اراضي غنية جداً . وحين اجاز قانون السنة ١٨٥٦ بيع الاملاك العامة ، كان حجم المبيعات كبيراً جداً ، مما يثبت ان الجماعات الهندية احتفظت بمساحات كبرى حتى القرن التاسع عشر .

وجدت المركزية والعمل التبشيري . توغل المرسلون في البلاد المركزية والعمل التبشيري وراء المستعمرين من اصحاب المناجم والمشاريع الزراعية . التمسوا الرعاية الملكية ايد الملك وغدوا بالمقابلة عوناً قوياً للسلطة الملكية . نظر ملوك اسبانيا الى التبشير كما الى واجهم الاول . ومنذ السنة ١٥٠٨ خط الملوك الكاثوليكيون بحق رعاية كنيسة الهند كما مارسوه في اسبانيا : يقترح الملوك احداث الاسقفيات والخورنيات وينفذ البابا مقترحاتهم ، ويقدم الملوك للبابا مرشحيهم للاسقفيات ورئاسة الاديرة ، وللاساقفة مرشحيهم للمناصب الكنسية الاخرى . منذ السنة ١٥١٢ - ١٥١٣ انشئت ثلاث اسقفيات في الجزر . وفي السنة ١٥٢٨ احدثت اسقفية مكسيكو مع ٢٣ اسقفية اخرى . وفي السنة ١٥٤٦ جعلت كل من ليا ومكسيكو مركزاً لرئيس اساقفة . وفي السنة ١٥٥٥ انعقد اول مجمع اقليمي في مكسيكو ، كما انعقد في السنة ١٥٦٧ اول مجمع اقليمي في البيرو . وتأسست جامعات في مكسيكو ، وليما ، وسانتا - فيه ، وكوردوبا وشاركاس .

فوض شارل الخامس شؤون كنيسة المكسيك الى جمعيات الرهبان المتولين لانه لم يطمئن الى الكهنة العلمانيين . وفي ٩ ايار من السنة ١٥٢٢ ، وجه البابا اوربانوس السادس رقيماً الى شارل الخامس حوّل بموجبه سلطته الرسولية للرهبان لهداية الهنود في كل مكان يبعد اكثر من مسيرة يومين عن الاساقفة . وكان اسقف مكسيكو الاول فرنسيساً هو الاخ « خوان دي زوماراغا » (١٥٢٨ - ١٥٤٨) . وسم بعد ذلك اساقفة من بين الكهنة العلمانيين ، ولكن المسافات وتأثير الرهبان على البلديين شلت سلطتهم .

قامت الاديرة في كل مكان ، متقاربة في المناطق المكتظة بالسكان الغريبيين الاديرة ومتعاقبة على جوانب طرق المواصلات في المناطق الاخرى . في السنة ١٥٥٩ ، كان للفرنسيسيين ٨٠ ديراً و ٣٨٠ راهباً ، وللدومينيكيين ٤٠ ديراً و ٢١٠ رهباناً ، وللأوغسطينيين ٤٠ ديراً و ٢١٢ راهباً . احتلت الاديرة مواقع ستراتيجية ، على مرتفعات داخل القرى او في

جوارها ، وقامت في اغلب الاحيان على انقاض معابد بلدية قديمة . وصممت بشكل كتلة شرفاء تتألف من دور واحد فتحت نوافذه في اعلى الجدران وقدعها من الخارج ركائز كبيرة مربعة الشكل وتقوم امامها مصطبة للمدعية وفناء واسع يحيط به سور اثرف . وشكلت حصوناً لضبط الهنود في نطاق الطاعة وملاحية للسكان الاوروبيين في حال اندلاع الثورات . وغالباً ما كانت الاديرة ضخمة وكنائسها زاهية فاخرة لان الهنود كانوا شديدي التأثر بالالهة والفخامة وشديدي الولع برؤية دير جميل بفعل غطرستهم المحلية . ولكن اديرة كثيرة كانت ابنية عادية .

تجنب المرسلون جهد المستطاع ، خشية من الهرطقة ، الاستفادة من التشابه بين الديانات البلدية والديانات المسيحية ، وذلك على الرغم من نظريات الفرنسيي . « برناردو دي ساحاغون » وبحثه المستفيض حول البلديين . ولكنهم استفادوا من عادات الهنود وزعاتهم . فقد استمر الشيوخ كما في السابق في مرافقة تلامذة الصفوف الابتدائية الى المدرسة ، ولكن لتعلم مبادئ الدين المسيحي . وكما في السابق ، تلقى ابناء الارستوقراطية الهندية دروساً خاصة ، ولكنهم كانوا داخليين في الاديرة . واشبع ميل الجماهير الهندية الى الموسيقى والرقص والتمثيل وعظمة الاحتفالات .

حاول المرسلون ، بالاتفاق مع نواب الملك ، اعادة تجميع الهنود الذين ارغموا على الانتزاح عن قراهم وتحسين سكنى الجماعات التي لم تغادر قراها . فأحدثت « قرى التجميع » التي أطلق عليها اسم « المعادات » منذ السنة ١٥٩٥ . تبنى المرسلون آراء رئيس أساقفة مكسيكو « زوماراغا » واعتقدوا بأن الهنود لن يلبثوا أن يتخلقوا بالاخلاق القشتيلية اذا ما عاشوا على الطريقة الاسبانية في قرى مماثلة لقرى إسبانيا . وفي سبيل هذه الغاية ، تعاقبت الاوامر الملكية بين السنة ١٥٢٣ والسنة ١٥٧٠ . وأفاد الرهبان بما له طابع جماعي في النظم البلدية الاسبانية بغية تسهيل الانتقال من نظم الازتيك الجماعية . فبنوا من ثم قرى ضمت ساحة عامة وكنيسة وداراً بلدية ومستشفى وسجناً ، وشيدوا حول هذه الابنية احياء هندية ، على غرار الكلبولي القديمة ، اشتملت منازلها على أكثر من غرفة . وأحدث المرسلون بلديات هندية وانشأوا صناديق قروية . وكان على الهنود ان يديروا شؤونهم بأنفسهم . فوفق بين الملكية الجماعية والملكية الفردية . امتلك كل هندي بيتاً وأرضاً . وأعطى رؤساء العائلات أراضي أخرى يستثمرونها مدى الحياة على أن يزرعوها ولا يبيعوها . واستثمرت بعض الاراضي المشاعية مجهود مشتركة لتغطية النفقات البلدية . واستزرع الرهبان أشجار التوت لتربية دودة القز وأشجار الصبار ذات الدودة القرمزية والاشجار المثمرة . وبنيت الاقنية والمجرات والاعين واعتمد أكثر فأكثر على الري . وتسلمت البلديات الهندية مراعي ممتعة البسيع لتربية الضأن والماعز وقضى الرهبان بين الناس واعتنوا بالارامل واليتام . وتوجب على المسافرين الاسبانيين ان يغادروا القرى في اليوم الثالث كحد أقصى . ولم يحق لاي اوروبي او زنجي او خلاسي ان يستقر في القرية . ولكن الهنود لم يتجمعوا تجمعاً كافياً . وكان عدد الرهبان ضئيلاً جداً لا يتجاوز الاثنین مقابل ١٠٠٠٠٠ هندي أحياناً .

وغالباً ما سعى الهنود وراء العيش في العزلة والانفراد ، بدافع من روحهم الاستقلالية حيناً ، وعجزهم عن تعود حياة جديدة حيناً آخر ، ورغبتهم في الاستسلام لردائهم في أكثر الاحيان .

التربية الدينية استخدم المرسلون ، في تعليم البلديين المعجزين تقريباً عن التجديد العقلي ، طرائق معدة للتأثير في الحواس وربط الافكار بالجسم كله والحس كله . كانت الأيحية صعبة الإدراك بالنسبة للهنود ، وكان من شأن استخدامها ان يستتبع ثورة فكرية . فوجب من ثم ربط تمثيل الاحرف بتمثيل الاشياء التي كانت في متناول يد التلميذ : فمثلت **A** بالبركار و **B** بالقيثارة و **C** بنمل الفرس ، الخ . وأعطى المرسلون المثل في تقائيم الكلي في سبيل القريب لارساخ تعليمهم في العقول . ورفضوا أبداً استيفاء العشر من الهنود . وارتدوا الخفيف أو نسيجا صوفيا خشنا ، وتنقلوا حفاة ، وافتروا الألواح الخشبية ، وتفقدوا بالجذور وامتنعوا عن اللحوم والخبز والنبيد ، وقاتلوا بالهنود . واذا ما سئل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين ، أجابوا : « لانهم فقراء وحفاة مثلنا ، وياكلون ما نأكل ، ويقومون فيما بيننا ويمشون فيما بيننا مسالين » . عاشوا معهم وماتوا من أجلهم . وقد بلغ من غذاء الرهبان وحرمانهم ان نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً . وحين كان الأخ « انطونيوي دي روا » يتكلم عن الجحيم ، كان يلقي بنفسه الى النار ويلفت نظر الهنود الى انه اذا لم يستطع تحمل مثل هذا الالم ، فماذا سيكون من النار الابدية ! وكلما صادف أو نصب صليبا طلب أن يحل ويسفع ويهان ويصق في وجهه ، لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عن خطايا البشر . فكان يرسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود . وانتعان الرهبان بلوحات تشكل تعليماً مسيحياً مصوراً ؛ كما استعانوا بالمسرح وتمثيل الاسرار أو انتصارات المسيحيين على المغاربة . وحلوا الهنود على أن يمشوا بالتعليم الروحي بالزامهم على أن يتناولوا الخدمة أسبوعاً في المستشفى . وحولوا ثلاثة فصل الايمان كل صباح ومساء ، والصلاة ، وترتيل صلاة الحر ركوعاً ، الى ممارسات لا تلبث أن تصبح حمية بخدمة القريب . وعامل الرهبان الهنود بحلم ومسامحة واكتفوا منهم بتقديم بطيء .

عرائق التبشير الا ان عملهم التبشيري قامت في طريقه عقبات كثيرة . فكانت هنالك مقاومات البلديين : قبائل متوحشة تحرق الكنائس والصلبان وتشعل النار في الأديرة وتقتل الاخوة ؛ وكهنة وثنيون وسحرة يدعون الى الثورة في السنوات ١٥٤١ و ١٥٤٧ و ١٥٥٠ ؛ وملحدون ينضمون الى الثائرين ؛ وفي غير مكان هنود ينفرون أمام المرسلين ويختبئون ويستمرون في السرور والملاوطة . وغالباً ما اصطدم الرهبان بالمقاومة السلبية : فقد تظاهر الهنود بالاهتداء ومارسوا عبادة الاوثان سراً في الليل . وروى لهم كهنتهم ان الرهبان أموات وملابسهم أكفان ، يخفون ليلاً للالتحاق بنسائهم في الجحيم ولا يتركون على الأرض سوى عظامهم وثيابهم . أما مصدر هذه الاوهام فهو عدم ادراك الهنود لمعنى الامانة والبتولية وصلاة السحر . ولكن بعض الرهبان لم يستطيعوا التغلب على التجارب . فان بعض فرنسيسكي المكسيك او البيرو

فد جمعوا الثروات وخلصوا الثوب الرهباني وعادوا إلى إسبانيا ليعيشوا فيها حياة يسار . حوالي السنة ١٥٦٢ شوهده الاخ « أنطونيو دي سان - ايزيدورو » ، رئيس دير مكسيكو ، يساكن سرية ويرزق منها ابنة ، ويبرهن عن مهارة كلية في أعمال تجارية مثمرة . ودفعت روح التضامن بالجمعيات الرهبانية إلى التشاجر والتخاصم ورفض طاعة الاساقفة . وحدث أحيانا ان جمع الرهبان هنودهم وساحوهم وحلومهم على سلب ونهب وإحراق كنائس جمعية اخرى وطرد الزائرين الاسقفيين بمراشقتهم بالحجارة . وينتهي ان مثل هذه الزلات تصدر عن الكهنة قد أبعدت الهنود عن المسيح .

وأخيراً ، غالباً ما قاوم العلمانيون رجال الدين . ففي سبيل تشغيل الهنود ، حتى أيام الآحاد والأعياد ، أقدم بعض الملاكين على تشجيع ممارسة عبادة الاوثان والاشتراك في الاحتفالات الوثنية ومهاجمة المرسلين وطردهم .

ولا عجب في هذا السلوك يسلكه الملاكون لأن المرسلين قد حووا الهنود وحاربوا حماية الهنود أعمال التسخير لأنها تتنافى والحق الطبيعي . وبلغاجتهم استحصولوا من شارل الخامس على قوانين السنة ١٥٤٢ الشهيرة : « تحظير » استعباد « الهنود » تحظير منح امتيازات جديدة ؛ إبطال وراثية الامتيازات الممنوحة . فكادت تحدث حركة انفصالية في المكسيك ؛ واندلعت ثورة في البيرو ؛ لان المستعمرين افتقروا إلى اليد العاملة ، والهنود الاحرار أنفوا من العمل المأجور . فاضطر الملك إلى الرجوع عن هذه القوانين منذ السنة ١٥٤٥ . ولكن التاج استعاد شيئاً فشيئاً امتيازات كثيرة من الاحبار وكبار الموظفين ؛ وفي السنة ١٥٤٩ فصلت أعمال التسخير عن الامتياز الذي آل إلى مجرد دخل ؛ ووزعت أعمال التسخير منذ ذلك التاريخ على المشاريع التي اعتبرت مفيدة ، أي على مشاريع زراعة الحنطة في الدرجة الاولى . ثم أخذت هذه التوزيعات تتلاشى عدداً وتواتراً إلى أن الغيت نهائياً في السنة ١٦٣٢ . وانما فرض على المتعطلين القيام بما يطلب منهم من أعمال مأجورة . وبينما كان لا يزال هنالك ٤٨٠ صاحب امتياز في المكسيك في السنة ١٥٦٠ ، هبط هذا العدد إلى ١٤٠ فقط في السنة ١٦٠٢ .

لم تكن المركزية قوية في يوم من الأيام . فالضباط الملكيون لم يلبثوا أن أصبحوا من بين كبار الملاكين ، لأن مرتب الموظف في بلاد تفتقر إلى رؤوس الأموال يعطي امكانات كبرى . فان « تيخادا » ، الهجاز في الحقوق ، وعضو مجلس مكسيكو ، وصل في السنة ١٧٣٧ ، وبنى بيتاً في مكسيكو للتأجير واستحصل على أراض ، ورواها ، وجنى منها ١٠٠٠٠ مد من الحنطة ، وزرع التوت والكرمة والحضار ، واقتنى قطعان المواشي ، وخفض سعر الفواكه في أسواق مكسيكو . وغدا من ثم قوة حقيقية . أضف إلى ذلك أن نظام التبعية والأنساب قد زاد من قوة واستقلال الضباط والملاكين . فان قضة مجلس الحدود على مقربة من غواتمالا كانوا كلهم في السنة ١٥٦٢ أصحاب

أحماء أو أصهرة أو أختان الضباط المحليين وأصحاب الامتيازات وأصحاب المشاجر والمغارس . أفسحت المركزية المكان ، منذ السنة ١٥٧٣ ، للامركزية تدريجية . أما السبب الأول في ذلك فافتقار الملكية الاسبانية إلى الأموال : فقال الملك طبعاً إلى تحويل نفقات الاستثمار إلى عاتق الأعيان بتخليه لهم مقابل ذلك عن بعض سلطته . منذ السنة ١٥٧١ ، حق لكل من يؤسس مدينة جديدة ضد البدو ان يحتفظ بمحصول وراثية ويمتلك ربع الأراضي ويستعبد أسرى الحرب ويحصل على امتيازات . ومنذ السنة ١٥٩١ انتقلت الأملاك والمراعي العامة ، وأملاك الجمعيات الرهبانية ، التي لم يسمح بها نظرياً ، إلى الأعيان مقابل « تسوية » مالية . فحل محل الحقوق العرفية القديمة تلك حقيقي للأرض . وزاد من اتساع الاملاك اقدام الأعيان على اغتصاب حقول الجماعات الهندية وفوزهم بموافقة المسؤولين على اغتصابهم . وبلغت الحركة ذروتها ما بين السنة ١٦٤٢ والسنة ١٦٤٨ . وتصرف الملاكون في هذه الاملاك الكبرى تصرف الاسياد وادعوا لانفسهم بعدة حقوق ملكية . أما الملك ، الذي لا مال لديه والذي لم يوفد بعد ذلك سوى نواب الملك من أسبانيا ، فقد تفاضى عما جرى مكتفياً بتأمين النظام والدفاع .

اتجه الاقتصاد المكسيكي في الوقت نفسه إلى الاقتراب من اقتصاد أملاك
اقتصاد
الاملاك العامة
كبرى ، اقتصاد الاملاك العامة . سبق مثل هذا الاتجاه ، في القرن السادس عشر ، اتجاه ملاكي المناجم إلى انشاء أملاك كبرى تكفي نفسها بنفسها .
الا ان الانتاج والنقد المتداول قد تدنيا منذ السنة ١٦٠٠ ، فأدى تدنيها بعد السنة ١٦٣٠ إلى كارثة حقيقية نرجح ان احد أسبابها ارتفاع سعر الزئبق الذي يحتكره الملك . وانخفضت في الوقت نفسه ، بفعل « التسويات » ، نسبة النقد المتداول . فتدنت الاسعار ، لان المال « عصب » الاقتصاد المكسيكي ، وانتقصت التيارات التجارية ، وانخفض الانتاج ، وانعزلت المناطق .

لم يُعز عن ذلك دور الوسيط الذي لمبته المكسيك بين الصين وأوروبا في انتقال حرير الصين إلى أوروبا عن طرق ماكاو ومانبلا وكابولكو ومكسيكو وفيراكروز واشبيلية بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٤٢ . لابل ان حرير الصين قد افقر منتجي الحرير المكسيكيين واسهم في انكماش مناطق انتاج الحرير على نفسها .

زد على ذلك ان تقييد الحكومة للعلاقات بين المستعمرات ، وانخفاض حجم تصدير الاقشة الصوفية من المكسيك إلى البيرو ، وحرب القرصنة بين الفرنسيين والانكليز والهولنديين ، والقضاء في السنة ١٦٢٨ على اسطول كامل للمرة الاولى في التاريخ ، ورفع رسم الضمان الالزامي لتغطية نفقات « الاساطيل » او قوافل السفن إلى أوروبا ، واقدام حكومة في حالة اليأس على رفع الرسوم والضرائب ، واحتكار تجار اشبيلية ، قد انقصت تدريجياً التصديرات ومحمول

« السيادة » ساحة عامة كبرى مربعة الشكل . يقوم على احد جوانبها ممكن السيد ، وهو بناء حجري كبير يتميز بأسوار ضخمة شرقا وبأبراج لمقاومة قطاع الطرق والثوار البلديين . يشتمل على فناء كبير ذي احبة يدخل منه الى القاعات والغرف التي يسكنها السيد وترى فيها الاسرة ذات المظال وصناديق الملابس والمجوهرات والآنية والصحون من قطعة واحدة والسنور في الجدران ، وعلى فناء ثان محيط به الاصطبلات لخيول هؤلاء الفرسان الذين يسلخون معظم حياتهم على ظهور الجياد ، وللوازم من مروج خشبية وجلدية ثقيلة تزدان بالفضة ، وجلول فاخرة ، وملابس جلدية ، ومهاميز كبرى . وغدت الاديرة مراكز سيادات ايضا ، وغالبا ما مارس رؤساؤها علما كافة سلطات السيد . اما اكليروس السادات العلانية ، وهو خليفة السيد ، فكان يتحول تدريجيا الى اكليروس ارستوقراطي ، وعنصري .

والجزر الفدادية تفكيك القبائل وتقويضها . فقد عاش معا في الاملاك الكبرى فداديون مدينون انتسبوا الى شتى القبائل ، تصاهروا وصاهروا الاسبانين ، وتعلموا اللغة الاسبانية او حشوا لهجاتهم بالتعابير الاسبانية ، ونقلوا عن الاسبانين كثيرا من عاداتهم ، والفوا من ثم ، بالانصهار ، فئات اجتماعية جديدة تتألف منها الامة المكسيكية .

فيتضح من ثم ، خلافا لما ذكرنا عن شعوب الحضارة النيبوليتية ، ان هنود المصراع النحاسي ، المزارعين المتحضرين ، قد تيسر تمثيلهم ، بل ضمهم الى الحضارة الأوروبية اما بشكل فئات ، الجماعات والقرى الهندية ، المتميزة عن الأوروبيين مع اشتراكها في النظام الأوروبي ، واما بشكل طبقة دنيا من العمال ، المشاة . ففي الواقع استطاع المزارعون المتحضرون ، ال « اوتومي » ، وال « مكسيكا » ، وال « تلاكالكتيك » ، الخ ، الاندماج في النظام الاقتصادي الأوروبي ، لانهم استطاعوا التحول الى مواني مواد غذائية يحتاج اليها الأوروبيون في حياتهم اليومية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المزارعين المتحضرين قد استطاعوا تعود العمل في المزارع والمناجم بفضل تمودهم عمل الفلاحين المنتظم الثابت . فهم هنود الحضارة النيبوليتية من افناعم عمل المناجم . في حال ان ال « اوتومي » الذين لم يمارسوا عملا زراعيًا دائما قد تمكنوا من الصمود . ولكن التلاكالكتيك ، الفلاحين الحقيقيين ، قد تحملوا عمل المناجم وبرهنوا عن انهم عمال اكفاء . وهم ايضا من انتقلوا مع بعض هنود منطقة مكسيكو الى مزارع الشمال والفوا اكثرية المشاة .

وتحمل هؤلاء الهنود كذلك التجمع في قرى اسبانية ، لانهم عرفوا في القرى الهندية ، قبل الفتح ، حياة شبيهة بحياة الاسبانين من حيث قوة التنظيم العائلي والبلدي والحضارة الزراعية المبنية على الزراعة وتربية المواشي ، وان كانت الزراعة ابعد تقدما عند الاسبانين .

يضاف الى ذلك ان هؤلاء الهنود قد بلغوا عقليا مرحلة نسبة الحياة للاجرام السماوية . وتوصلوا الى طريقة عدية ، وعرفوا الحساب واستخدموه حتى في حياتهم العادية اذ انهم كانوا

يحصون خطاياهم حين يتقدمون من سر الاعتراف ، في حال ان التعداد كان عملية لا تطاق في نظر هنود الحضارة النيوليتية . وقامت بين ديارتهم والديانة المسيحية بعض نقاط التشابه . فقد توصلوا الى مثل اله اسمى . واعتقدوا بان هويتزيلوبوشي ولد من عذراء . ومارسوا معمودية تطرد « الشيء المؤذي » ؛ واعترفوا بخطاياهم وآمنوا بالحياة ؛ وتناولوا باكلهم قلب الضحية الذي مثله بذات الله ؛ وآمنوا بخلود النفس وبالفردوس وجهنم والطوفان ، وتوصلوا الى فكرة ذبيحة الالهة . لا ريب في ان العقيدتين اختلفتا كل الاختلاف من حيث الجوهر ولكن اوجه التشابه السطحية هذه قد سهلت التعامل ومهدت سبل التحول .

وعرفت هذه الشعوب واجب الطاعة للملك اعلى بواسطة الموظفين . وتعددت الخضوع لارستوقراطية سيدي . لا بل لم تجمل التجارة الكبرى . ولم تكن الدولة المنظمة شيئاً جديداً كل الجدة بالنسبة لها .

فليس من الصعب ، والحالة هذه ، ان ندرك كيف ان هذه الشعوب استطاعت ، بفضل التخليط ، وبعد تكيف استغرق ثلاثة قرون وكلف الكثير من الضحايا ، ان تؤلف الشعب المكسيكي والامة المكسيكية .

٤ - الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الشبه

كانت مقاومة الـ « انكا » اطول ديمومة من مقاومة الازتيك . ففي ولاية « فيلكا بيا » لم تتم التهدة الا في السنة ١٥٧٢ . وقد استمر حتى هذا التاريخ نظام الانكا السياسي في هذه الولاية ، ولكن بواسطة الاسلحة الاوروبية والخيول التي حصلوا عليها بالغزو او بمقايضة التبغ والكوكا والمعادن الثمينة . بيد ان الانكا المقاومين قد تسامحوا في دخول المرسلين الى مناطقهم لانهم لم يقاوموا الديانة بل نظام الاسبانيين السيامي والاجتماعي والاقتصادي .

قضى الاسبانيون على سيطرة الانكا وحلوا محلهم طبقة حاكمة . الا انهم احتفظوا لمصلحتهم بالايلاو والكوراكا والاياناكونا . وحصل الاسبانيون في كل مكان على الامتياز . ولكن صاحب الامتياز ، قد اصبح عملياً ، على الرغم من القوانين ، سيداً اغتصب السلطات العامة الرئيسية : القضاء ، جباية الضرائب ، نشر الايمان . فصاحب الامتياز يعين كاهن رعية يصبح عملياً رئيس خدامه وداعيته وقاضيه في الشؤون المدنية ؛ الامتناع عن دفع الجزية لصاحب الامتياز والتفاس عن التفاني في خدمته يصبحان خطيئتين ضد الله . ويعين صاحب الامتياز « كوراكا » لامتيازته وآخرين لكل « ايلو » يسند اليهم ادارة العمل وجباية الجزية . ولكن الكوراكا الذين لا رقابة عليهم والذين يدفعون الجزية كغيرهم ولا يتقاضون اجراً ، ينصبون انفسهم طبقة في خدمة الفاتح ويستغلون اخوتهم في العرق ، المهزومين . يمتلك الكوراكا مساكن جميلة ومزارع وقطعانا ويرقدون الحرير ويحتسون النبيذ الاسباني ويمتطون الجياد .

ومحيطون انفسهم بموسمين زنوج او خلاسين اشد حزمًا واسبق مبادرة واعظم وفاءً ، بحيث اصبح عدد الموظفين ، لمئة هندي ، يوازي عددهم لالف هندي قبل الفتح .

كان هنالك ، في السنة ١٥٩١ ، ٧٧٥ امتيازاً و ٨٠ « كورجيمينتو » . والكورجيمينتو هو امتياز ملكي يشرف عليه قاض يعينه الملك . ولكن الملكية الاسبانية لم تعرف قط كيف تكافئ موظفيها مكافأة لائقة . لذلك فان القاضي نفسه ، « كورجيدور » ، يجمع الثروات باغتصاب اموال الهنود ومحيط نفسه بجيش من المستخدمين الزنوج والخلاسين .

وهكذا استمرت سلطة امبراطور الانكا المطلقة موزعة على مئات الاشخاص الذين مارسوها كاملة ، ولكن على فئات محدودة .

الاياكونا هم بعد الفتح هنود هجروا الى « ايلو » ، ليعيشوا بين الاسبانيين خداماً وصناعيين . يعتبرون اعضاء في الجماعة المسيحية ويعفون من الجزية وال « ميتا » . يحق لهم اقتناء الممتلكات الخاصة وممارسة الصناعة اليدوية او التجارة بحرية . وهم يشكلون في الواقع طبقة كادحة في خدمة الاسبانيين . وقد احاط هؤلاء انفسهم بالعديد من الاياكونا رغبة منهم في اثبات نفوذهم . وحين اثار « مانكو انكا » الى « كيشوا » على الاسبانيين في السنة ١٥٣٦ والسنة ١٥٣٧ ، لم ينج هؤلاء الا بفضل مساعدة الاياكونا . الا ان نائب الملك في « طليطة » اوقف تفكك ال « ايلو » في السنة ١٥٧١ . فحظر احداث « اياكونا » جدد ، وارغم كافة المشردين على الالتحاق باسياد . وامر بان لا يترك احد عمله او يسرح منه الا باذن رسمي . فبات الاياكونا من ثم اشبه بالفدادين المنزليين .

ال « هاتورونا » هم اعضاء اليلو . يلزمون بدفع الجزية لا لتأمين اقتصاد تغذية في مجتمع قائم على تعاون متسلسل فحسب ، بل لتوفير مواد التصدير الى اوروبا ايضاً التي يجب ان تؤمن اثمان المستوردات الاوروبية وتوفر كسباً في اقتصاد تنافس ورأسمالية تجارية . فاضطروا من ثم الى تبديل انتاجهم . لم يتغير غذاؤهم قط : ذرة صفراء ، بطاطا ، لحوم جل اميركا المجففة . وانما اضافوا الى ذلك السكر والاجبان وال « شركي » او لحوم العجول المجففة . ولكنهم اعتمدوا زراعة النباتات الاوروبية ، لا سيما لتقديم مايتوجب عليهم . فزرعوا قصب السكر في المناطق التي لا تعملو ٢٣٠٠ متر . وربوا المواشي في المناطق التي تعملو ٤٠٠٠ متر . وفي المناطق الواقعة بين هذين الارتفاعين ، زرعوا الحنطة والشعير والبطاطا . غير انهم فشلوا نسبياً في زراعة الخضار والكرمة التي لم تناسب عاداتهم الجماعية . تعودوا تربية المواشي : الثور الذي استخدموه لنقل الاحمال ووفر لهم اللحم والشحم والجلد ، والضأن والماعز ، في كل مكان ؛ والخنازير والدجاج والبيض لتلبية طلبات الاسبانيين . بيد ان قطعان اصحاب الامتيازات ، وقد تراوحت بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ رأس ، قد حالت احياناً دون تربية الهنود للمواشي ، واتلفت المزروعات واكرهت الهنود على الاحتماء في المناطق الجبلية الصخرية .

توجب على الهانوزونا تأدية الـ « ميتا » . ففي اواخر القرن السادس عشر كان هنالك في الولايات السبعة عشر المحيطة بمناجم « بوتوسي » ٨٠٠٠٠ مكلف تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة . كان سبع هذا العدد يقضي ١٨ اسبوعاً في المناجم كل سنة . ولكن عدد السكان قدنى ، واستخدم الكوراكاً عمالاً مأجورين من بين الايانا كوناً زاد عددهم على ٤٠ ٠٠٠ في بوتوسي ، في السنة ١٦٠١ . وكان الهنود الـ « ميتايو » (ميتا) يأتون الى بوتوسي مع عائلاتهم ويصطحب كل منهم ثمانية او عشرة جمال على الاقل . اما الاغنياء فكانوا ينتقلون مصطحبين ٤٠ جملاً يحملونها الذرة الصفراء والبطاطا ويعتبرونها لحوماً احتياطية . وبالإضافة الى الخدمة في المناجم ، كان الميتايو يقومون طيلة شهرين بالخدمة المنزلية في بوتوسي . ولم يعد الكثيرون منهم الى مناطقهم ، فبقى بعضهم في بوتوسي كايانا كوناً ويهرب غيرهم شرقاً باتجاه الاحراج والادوية الجبلية .

واخذت الميتا ايضاً شكل عمل في مصانع الجماعات الهندية للاسهام في الجزية المتوجبة . انتجت هذه المصانع المنسوحات في الدرجة الاولى ، ولكنها انتجت كذلك الخزفيات والزجاجيات والفضيات والمصنوعات الخشبية . ولذلك ادعى الحكام ، « كورجيدور » ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، باحتكار التجارة مع الهنود . فারণوم على شراء كافة المصنوعات التي لا يحتاج اليها اوروبيو اوروبا . وترقت من ثم على الهنود ديون وفوائد جعلتهم فدادين مدينين حقيقيين .

شكا الهنود من المساعي التي بذلها الاسبانويون بغية ارغامهم على التسليم بالملكية الخاصة الفردية والمطلقة . وابدوا مقاومة سلبية في وجه المحاولات الرامية الى إلزامهم بوضع وصية خطية لمصلحة وريث وحيد ، اذ ان الارث في عرفهم يبقى شائعاً بين كافة الورثة وبديره يمثل الابلو . ولم يستطيعوا قط تعود العمل الجاف على الطريقة الأوروبية الذي لا يستهدف سوى الانتاج فقط ، اذ ان العمل في نظر الانكا كان طقساً دينياً . وقالم الهانوزونا في شعورهم . ويبدو ان عددهم قد قدنى ثانياً ملحوظاً ربما بلغت نسبته ٥٠ ٪ ما بين السنة ١٥٦١ والسنة ١٦٥٤ . ولكن قد يرد ذلك الى انتقالهم نحو الشرق ، نحو الاحراج والادوية المنخفضة ، والولايات القائمة الى الغرب نحو بوينوس ايرس ، بعيداً عن الاسبانين .

كان موقف الهنود من التبشير موقفاً أشد تصلباً من موقف هنود المكسيك . استؤصلت شافة الديانة الهندية كما استؤصلت شافة المجتمع الهندي . لم يبق ذكر للكائن الاسمي والآلهة العظماء . ولكن بقي الـ « هواكا » اي الارواح المقيمة في الاشياء . فهو اكا هي الشمس والجبال والأكام والجداول والبحيرات والمناجم ومدينة بوتوسي والجثث المخطئة . اما المصنوعات الأوروبية من زجاج وحرير وشمع فقد اصبحت تعاويذ وطلاسم . ومزج بعض السحرة بين مفاهيم المسيحية والانكا : فبات يسوع والشيطان اخوين توأمين ، كما بات القديسون المسيحيون « هواكا » ادير العالم الطبيعي .

لم يصبح عدد الكهنة كافياً للقيام بجهود تبشير منتظمة الا منذ اوائل القرن السابع عشر فقط . حاربوا الخطايا الرئيسية ، الملاوطة ، والبهيمية ، والسكر ، وزواج الاختبار ، وعبادة الهواكا . وأوعزوا بالقاء القبض على الكهنة البلديين والسحرة وتدمير بيوت العبادة وتحطيم الاصنام . بين السنة ١٦٠٧ والسنة ١٦١٥ احرق في ساحة ليا العامة اكثر من ٦٠٠ صنم هندي ما زالت موضوع عبادة . وخلال السنتين ١٦١٧ و ١٦١٨ اكتشف ٦٧٩ ساحراً في ولاية « شانكاكي » وحدها . حوالي السنة ١٦٧٧ ، كان ايمانهم بطبيعة الهواكا الالهية قد تلاشى نهائياً ، فلم يكونوا من بعد عبدة اصنام بل كاثوليكاً غير كاملين لان الثالوث لم يكن في رأيهم طبيعة واحدة في ثلاثة اقانيم بل ثلاثة اقانيم متميزة ، والاب أكبر سناً من الابن ، ولم يميز بعضهم بين الله ومملك إسبانيا . وكان الكهنة قد أسسوا « أخويات » أو جمعيات من المؤمنين تخصص مواردها لتعميد المذابح والكنائس وتنظيم التطوافات والاحتفال بالاعیاد وتبادل المساعدة في ظروف الوفاة أو المرض . انتخب الهنود أنفسهم رؤساء هذه الاخويات واداروا أنفسهم بأنفسهم ، وأدت هذه الجمعيات خدمة جلی في محافظتها على الطوائف الهندية .

وهكذا نجح هنود حضارة عصر الشبه في البيرو أكثر من هنود حضارة عصر النحاس في المكسيك في الامتزاز بالنظام الاوروبي والاحتفاظ مع ذلك بفرديتهم . واستساغ هنود البيرو تقنيات أوروبية كثيرة لم يستفها هنود المكسيك . وفضلوا الاوتومي والمكسيكا في الجمع بين الزراعة وتربية المواشي . ويبدو انهم تمكنوا من تلبية طلبات الاوروبيين بمزيد من السهولة . ولكنهم فضلوهم بصورة خاصة في الاحتفاظ بشخصيتهم ، وكان من نجاحهم في هذا المضمار ان الجماعات الهندية والايلاو القديمة قد لعبت دوراً رئيسياً في ثورات البيرو ولا تزال حتى اليوم أحد متركزات الامة البيروية .

٥ - الاوروبيون وشعب حضارة عصر الحديد

تعايش أوروبا - افريقيا السوداء - اميركا

حين عجز الاوروبيون عن تمويد هنود الحضارة النيبوليتية عمل المشاجر
والفارس والمناجم ، استوردوا عبيداً زفوجاً الى المناطق الاميركية الحارة .
وقد وصلت قوافلهم الاولى الى اسبانيولا منذ السنة ١٥٠١ .

لم يتعرض الاوروبيون تقريباً لافريقيا السوداء الى الجنوب من العالم الاسلامي الذي حصروا مهم في الدوران حوله لبلوغ آسيا . فاكتفوا بأن أقاموا على شواطئها القواعد البحرية ، والاسواق التجارية للذهب والعبيد والعاج ، وقاموا ببعض محاولات التبشير دون ان يتعرضوا جدياً الى حضارة مختلفة معادية . ولعل لامبالاة الاوروبيين بافريقيا ونفور المجتمعات البلدية من الحضارة الاوروبية يفسران عدم التوغل نسبياً في افريقيا اكثر من الاسباب الجغرافية : اتساع

القارة الافريقية ، المرتفعات الدائرية ، الشلالات المتعاقبة على الانهر ، الشمس المحرقة القاتلة ،
العواصف الرملية في الصحارى أو كفن الحمى في الرطوبة الاستوائية ، الاحراج الشاسعة ،
الحشرات والجراثيم القتالة ..

كان البرتغاليون السابقين الى الاقامة على الشواطىء الافريقية . أنشأوا أسواقاً وموانئ
لتموين السفن في جزر الرأس الاخضر ، وجزر « بيساغوس » ، وشاطىء العبيد ، و « بنين »
(١٤٧٢) ، وجزيرة القديس توما . في السنة ١٤٨٢ اكتشف « ديفوكاوو » مصب الكونغو
وعلم بوجود دولتين كبيرين احدهما الى الشمال من النهر ، « لوانغو » ، والثانية الى الجنوب ،
« كونغو » ، التي كانت تمتد حتى نهر « كوانغو » ونهر « كوانزا » . استولى ديفوكاوو على
البلاد واتصل بالملك « ماني - كونغو » . أرسل هذا الامير الى لشبونة بعض رعاياه الذين أوعز
الملك بتعليمهم ليجعل منهم تراجمة ووسطاء . في السنة ١٤٩١ ، بلغ البرتغاليون العاصمة « مبالي »
وكانت قرية كبرى قائمة على هضبة مكشوفة . شيد البرتغاليون فيها كاندراية وكنائس وبيوتا
حجرية وأطلقوا على المدينة الجديدة اسم « سان سلفادور » . الا انهم سيضطرون في آخر الفترة
التي تمنينا الى الاقامة في « سان - بول دي لواندا » على شاطىء الاطلسي . وبعد اكتشاف
« فاسكو دي غاما » ، اعوزتهم الموانئ لتموين السفن على الشاطىء الشرقي ، وانتظار الارباح
المؤاتية أو تعاطي التجارة أحياناً . احتلوا « سوفالا » ، و « كيليبانه » ، و « موزامبيك » ،
محطتهم الرئيسية ، و « مومباسا » ، وماغادوكسو . وقعوا معاهدات مع الممالك البلدية الكبرى
ولا سيما مملكة « مونوموتابا » عند منعطف نهر « زامبيز » . انسل البرتغاليون الى « بومبيرو »
الحلايين وحاولوا انشاء املاك كبرى .

جاء بعدهم الهولنديون والانكليز والفرنسيون . أنشأ الهولنديون اسواقاً في المناطق القائمة
بين شاطىء الذهب وبلاد الكفرة وكادوا يحتكرون في القرن السابع عشر الذهب والعاج والجلد
والصمغ ولا سيما العبيد . اعوزهم ميناء لتموين السفن على طريق امبراطوريتهم في المحيط الهندي .
كانت الرحلة من « تكسل » الى « الرأس » تستغرق بين ثلاثة اشهر ونصف وستة أشهر . ولكنها
استغرقت وقتاً أطول حين نشبت الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسيين واكرهت القباطنة
على مساحة النروج والدوران حول جزر « شتلند » والمرور بين جزر « فاير - اوير » وجزيرة
« اسلندا » للنجاة من القراصنة . وكانت السفن ، حين تصل الى جنوب افريقيا ، مستشفيات ملأى
بالمرضى المصابين بداء الحفر . لذلك أرسلت شركة الهند الشرقية ، في السنة ١٦٥٢ ، « جوهان
فان ريببيك » وكلفته انشاء محطة تستطيع السفن فيها « بلوغ اليابسة بامان والتمون باللحوم
والخضار والماء » . في ٦ نيسان من السنة ١٦٥٢ ، دخل فان ريببيك « جون الطاوله » وأسس
مدينة « الرأس » . وفي ٢٠ شباط من السنة ١٦٥٧ أقطع المستعمرون الاول الاحرار املاكاً
واسعة . وفي أواخر القرن السابع عشر بلغ الاستعمار سلسلة الجبال الاولى . وأنشأ الانكليز
اسواقاً في غينيا والشاطىء الذهبي وبلاد « اشانتي » وبنين . اما الفرنسيون فقد استقروا في

السفغال وجزيرة « غوريه » وسان - لويس وفي عدة نقاط من الشاطئ الغيني .

فشل التبشير لم يتم الهولنديون لتبشير البلديين . اما البرتغاليون والفرنسيون فكان التبشير شغلهم الشاغل . فبموجب المراسيم البابوية منح البرتغاليون امتياز التبشير ورعاية المؤسسات الدينية ، والخورنيات والابرشيات التي تحدث في المستقبل . طلب بعض الملوك الزواج مرسلين من ملك البرتغال ، كملك « بنين » في السنة ١٤٨٦ والسنة ١٥١٥ ، وملك « اردر » في السنة ١٤٨٦ . وطلب المرسلين كذلك ، من فيليب الرابع ملك اسبانيا ، « توكسونو » ملك اردر ، في السنة ١٦٥٨ . تحققت بعض النجاحات الجزئية . ففي الكونغو ، تنصر الملك جان في السنة ١٤٩٢ . وأمر حفيده ، الملك الفونس (١٥٠٧ - ١٥٤٠) ، بتحطيم الاصنام وراسل روما ولشبونة بانتظام باللغة البرتغالية واللغة اللاتينية . اما ابنه هنري ، الذي استقبله البابا في السنة ١٥١٣ ، فقد أصبح أسقف سان - سلفادور في السنة ١٥٢٠ وكان اول اسقف اسود . ولكن النجاحات كانت محدودة وصار التبشير في النهاية الى الفشل . اما اسباب هذا الفشل فيجب البحث عنها عند السود من جهة وعند البيض من جهة أخرى .

ان الملوك السود الذين طلبوا المرسلين ، لم يطلبوهم في اغلب الاحيان الا بداعي المصلحة العليا . فان ما كانوا يصبون اليه هو تسهيل العلاقات التجارية ، وتأمين نجاح المفاوضات للحصول من الاوروبيين على بنادق ومدافع ، واستمالة قوى خفية مجهولة . فهم لم يدركوا الدين المسيحي ولم يروا فيه سوى رقية جديدة وفي الكهنة سوى سحرة مهرة من الافضل ان يكونوا لهم لا عليهم . واذا ما تعمقوا في الدين ، كما فعل توكسونو ملك اردر في السنة ١٦٦٠ ، هالتهم مستلزمات المسيحية ، كواجب الاكتفاء بامرأة واحدة والزهد في كل شيء ما عدا الله . زد على ذلك ان الخوف من استعلاء كافة ارواح البلاد والخشية من الخروج من المجتمع الزنجي ، قد قاوما في النفوس الخوف من الموت وامل الحصول على الحياة الابدية بالسير على خطى المسيح .

ولم يحسن البيض ايقاظ محبة يسوع المسيح للتلعب على هذا النفور وهذا الخوف . برهن الاكليروس ، عند البرتغاليين ، عن تصلب واستبداد . فبادر الى ادخال التفتيش ، وزاد من خوف الهنود وكراهيتهم . وكان من شأن النخاسة وحدها ، وهي منيع وحشية وقساوة ورذائل ، ان تخرج موقف البيض وتعرض كل عملهم للخطر . ففي شيخوخته ، لم يخف ملك الكونغو ، الفونس ، في مراسلاته مع لشبونة ، اشمئزازه وخود مته . وبعد وفاته ، اغتاز خليفة ديفو من تصرف البيض فطرده اكليروسهم من ولايته . فتخلى اليسوعيون عين عملهم التبشيري مكرهين بعد ان نصرخوا ٥٠٠٠ زنجي . ولم يبق سوى اسقف وبعض الكهنة البلديين في سان - سلفادور .

نظر الاوروبيون الى أفريقيا السوداء ، في الدرجة الاولى ، نظرتهم الى مخزن عبيد . وقد انتمى العبيد المنقولون الى اميركا ، بصورة خاصة ، الى اربع مجموعات من الشعوب . فقد توزع

الـ « بانتو » ، ولا سيما بانتو « انفولا » ، في كافة أنحاء اميركا المزودة بالزئبق . وتكاثر عدد الداهوميين في كافة أنحاء البرازيل وغويانا وغوادلوب والمريتينيك وسان - دومنغ . ونقل الـ « فانتى - اشانتي » بأعداد كبيرة الى كل مكان ولا سيما الى مناطق غويانا المختلفة . أما « ياروبا » و « بنين » حيث حققوا حضارة جميلة جداً اشتهرت ببرونزياتها ومنقوشاتها المصاحبة والخشبية ومصنوعاتها الخشبية وبلغت ذروتها بين السنة ١٥٧٥ و ١٦٤٨ ، فقد أرسلوا بصورة خاصة الى كوكا والبرازيل في المنطقة المحيطة بباهيا . وجاء مسلمو شمالي وشرقي افريقيا ايضا يجمعون العبيد لأحرامهم وتكناتهم ومشاكلهم في افريقيا وآسيا الصغرى ، والهند وجزر السوندي . ففدت افريقيا سوقاً كبيراً صدرت منها المواشي البشرية الى كل ناحية وصوب . لسنا ندري لعمري من أبعد منهم العدد الأكبر . ولكن الاضطرابات التي نجمت عن الاستعباد قد أسهمت اسهاماً أكيداً في ركود السود ثم في نكوصهم .

يمكننا ان نتخذ مثلاً هؤلاء السود ، الداهوميين الذين كانوا موضوع
 حضارات
 افريقيا السوداء
 المسال الداهومي
 دراسات كثيرة لا تخلو من بعض الترددات . فكان لا بد ، من ثم ، من التفريق بين درجات الشك . الا اننا لا نستطيع ، من جهة ثانية ، معرفة هذه الشعوب الا في القرن السابع عشر . ففي هذه المرحلة نرى ان قوام مملكة « داهومي » هو منطقة « ايومي » . وتفصل المملكة عن الشاطئ مملكتنا « أويده » و « آردر » . وكانت أويده المرفأ الرئيسي لتصدير العبيد ، وتنافسها في هذا الدور « ازدر » الصغرى ، او « جودا » . اسس السلالة الداهومية ، سلالة « الاواكونو » ، الملك « داكو » الذي تربع على العرش منذ السنة ١٦٢٠ او ١٦٢٥ حتى السنة ١٦٤٠ او ١٦٥٠ . ومن خلفائه « اكابا » الذي ملك منذ السنة ١٦٧٩ حتى السنة ١٧٠٨ ، و « اغادجا » الذي ملك منذ السنة ١٧٠٨ حتى السنة ١٧٢٩ .

يبدو الداهوميون شعباً تاجراً طامعاً في الكسب . فعلى الرجل المعتبر ، بموجب مثلهم الاعلى ، ان يورث خلفاءه فوق ما ورثه من ممتلكات ويعمل بوحى الشرف في الاتفاق من أجل النفوذ على الزواج والدفن وعبادة الجدود . وعليه من ثم ان ينتج ويبيع . يسهل التجارة النقد الصدفى المعروف باسم « كوري » . الجميع يتعاملون التجارة ، والملك يتعاملها قبل سواء . يبيع محصول نخيله وملحه وعاجه من محلي الشمال وممالك الشرق والغرب . ويبيع العبيد بصورة خاصة . وليست الحروب السنوية سوى غزوات لجمع العبيد . الجندي الذي يقبض على اسير يبيعه من الملك بخمسة « كوري » فيبيعه الملك بـ ١٤٠٠ « كوري » من تجار العبيد . فيصبح بمكنة الملك حيث ان يبتاع من الأوروبيين أسلحة نارية ، وحديدات من الصنف الممتاز جعل مستخرجي المعادن السود ينصرفون عن صهر المعدن الافريقي ، وقطائف وأنسجة حريرية مذهب ومفضضة لتقديم القرابين للألهة . الحروب حروب اقتصادية . ولم يستول الداهوميون على ممالك الساحل في السنة ١٧٢٤ والسنة ١٧٢٦ الا للتخلص من الوسطاء بينهم وبين الأوروبيين .

يبدو ان حمى الانتاج والتجارة قد وجدت لها عوناً في الملكية الخاصة . الملك ، مبدئياً ، صاحب كافة الممتلكات . ولكنه عملياً لا يمارس هذا الحق . له أملاكه الخاصة ، وللقبائل التي يقارب عددها الأربعين أملاكاً جماعية محدودة جداً : أماكن العبادة ، والهياكل المصنوعة من جذوع النخيل . فالملكية الخاصة هي السائدة على ما يبدو . وهي تشمل وسائل الانتاج ، الأراضي والأدوات ، كما تشمل الملابس والبيوت والأثاث .

تتوزع المحاصيل يومياً في الأسواق . كبار المزارعين يبيعون في أسواق جملة من بائعات ثانويات يقصدن أسواق البسج بالتفصيل في « ابومي » و « اويده » . يتفق المزارعون فيما بينهم على تحديد السعر ولا يتزاحمون . زد على ذلك من جهة ثانية ان الانتاج لا يتعدى على العموم امكانات السوق .

للمزارعين والصناعيين اليدويين المستقلين عبيدهم وفداديوهم . العبيد كثيرون في مشاجر الملك والزعماء والنبله وكبار المزارعين ومقارسمهم . يمتلك هؤلاء الاخيريون مزارع تبلغ ٣٠ كيلومتراً طولاً وعدة كيلومترات عرضاً يشغلون فيها العبيد بالشروط نفسها التي يفرضها الأوروبيون على عبيدهم في مشاجر ومقارم العالم الجديد . في المساكن يستخدم عبيد منزليون . أبناء العبيد المولودون في داهومي ليسوا عبيداً بل فداديين يستقرون في الاملاك ويعطون نصف المحاصيل .

يعمل الداهوميون ، بالإضافة الى ذلك ، على العمل المشترك . فان كافة رجال القرية أو كافة أعضاء حرفة واحدة يؤلفون وحدة عمل ، أو « دوكبويه » . الدوكبويه تحرق أراضي كل فرد من أفرادها دورياً وتلشد الاناشيد أثناء العمل . اذا ما طلب من الحداد مسحة ساعدته الدوكبويه التي ينتمي اليها على تطريق المسحة التي تصبح ملكه الخاص ، فيقيمها لحسابه الخاص ويحتفظ بمكسبها . ولكن اذا ما طلبت هذه الاداة أو غيرها من حداد آخر ، فان الحداد الأول يبادر بدوره الى مساعدته مع الدوكبويه .

في كل قرية نفر من القناصين يتولون توين القرية بالبحوم لان الماشية مفقودة . ولكن هؤلاء القناصين قد احتفظوا ، بالإضافة الى نوع عمل الالفونكينيين ، بمفهوم هؤلاء للطبيعة ومعتقداتهم القائلة بوجود الروح في كافة الاجسام الحية . القناصون يؤلفون في وسط الشعب الداهومي ، وفي حضارة من عصر الحديد ، فئة اجتماعية تحتفظ بطريقة انتاج قناصي الحضارة النيوليتية وذهنتهم . يؤلفون مجتمعاً قديماً جداً عرف الديمومة في مجتمع أكثر تقدماً لانهم يستطيعون ان يوفروا له نتاجاً ضرورياً . وفي ذلك دليل على تداخل المجتمعات .

يحتكر بعض النقابات الوراثية حرفاً معينة ، الحاكة وهم ينسجون القطن والرافية اللذين يغزلان في العائلات ، والحياطين ، والنحاسين ، ونقاشي التماثيل ، والحدادين ، ونقابات الخزافات .

الزراعة متقدمة . الرجال ينظفون الحقول بالنار . ثم يحرقون الارض جماعات بمساح حديدية عريضة الشفرة قصيرة المقبض . الشفرة منحرفة بالنسبة للمقبض ويستعملها الشخص بشدها اليه . توفر مزيداً من القوة والضغط وتتيح شق أنلام حقيقية . وللمها تفوق محراث الكيشوا الرجلي انتاجاً . بذر الداهوميون الذرة الصفراء ؛ واللوبياء بين جذوع الذرة الصفراء ؛ وأنواع القرعيات على طول الأنلام . وعرفوا مبادئ الزراعات الدورية ، ذرة صفراء - لوبياء - حمص . وزرعوا كذلك الذرة البيضاء والجاورس والقطن . وعاد الى الملك تنظيم الزراعات وفرض نسبها وفاقاً لحاجات التغذية والتجارة . وقد فعل الشيء نفسه في حقل الصناعة اليدوية بتجديده عدد المشاريع وتوقيعه بين الانتاج والاستهلاك .

الملك يحكم هضبة أبومي ومضبة كانا حكماً مباشراً . اما في المناطق البعيدة فيمين «كابيسيريس» يسند اليهم احقاق الحق ، وجباية الضرائب ، وتعبئة الجنود من الرجال الاحرار ، والاشراف على الامن ، ورقابة الزراعة ، وتنظيم العمل الجماعي . فكان هؤلاء الموظفون ، كما نرجح ، اشبه بقضاة الكابيتيين .

الملك يتمتع بسلطة مطلقة مبدئياً . مركزه يستلزم عدداً من المراسيم . زائروه يخرون امامه سجداً ويقبلون الارض وينثرون الغبار على رؤوسهم . الملك يختار خليفته بين ابنائه الكثيرين ، كما يختار زوجاته ومراره العديداً . فينجم عن ذلك دسائس بلاط كثيرة ودموية . الملك يعيش مع افراد عشيرته ، «ابناء الفهد» . الا أنه شديد الفطنة لا يسند اية وظيفة الى الامراء والاميرات الذين تولد بطالتهم انفلاتاً اخلاقياً مفرطاً . اما الوزراء والموظفون والضباط فيختارهم الملك من بين الطبقات المتوسطة خصوصاً . يفرض مراقبتهم الى زوجاته وبناته من زوجاته اللواتي لسن من عشيرته . ستة عشرة زوجة «كبوسي» يراقبن الزوجات الغريات او «ناية» . والناية يراقبن كافة الموظفين . يعاون الملك في الحكم جدوده الملكيون . كلما احتاج الى مشورة او مساعدة ، يقتل عبيداً ومحاربين وموظفين وافراداً من عائلته وفاقاً لخطورة الظرف ، فيذهب هؤلاء الى العالم الثاني وينبهون ارواح جدوده الملكيين ويستحثونها . ويحمي الملك وينصحه ايضاً الالهة الملكيون العظماء ، «ماو» ، «القمر» ، «وليزا» ، «الشمس» ، اللذان ينمكس نفوذهما على الملك . الا أنه يقصي عن «أبومي» عبادة «سغباتا» اله الارض ، الذي قد يصبح ، بهذه الصفة ، هو وكهنته ، منافسين للملك .

الملك يفرض رسوما جركية على كافة البضائع المنقولة والاسواق التجارية . ويحبي ضرائب مباشرة بفضائل احصاء الانابر والمصنوعات الذي يجريه ، في هذه البلاد التي لا تعرف الخط ، بواسطة الحصى في الارجح .

بالاضافة الى الكابيسيريس ، يعين الملك في كل قرية رئيساً قابلاً العزل يختار من بين حفدة ملك القرية قبل الفتح . ينفذ هذا الرئيس الاوامر الملكية ، ولكن عليه ان يأخذ بعين الاعتبار

رأي رؤساء العائلات الكبرى التي تتألف منها القرية من جهة ، ورأي رؤساء العشائر من جهة أخرى . كل قرية تضم عدة عائلات كبرى تنسب الى طبقات مختلفة . العشائر موزعة على كافة أنحاء « داهومي » وتمثلها عائلات كبرى في العديد من القرى . ولكنها تحتفظ بالوحدة والقوة بقيام اكبر الذكور سنًا على رأسها يعاونه مجلس رجال ونساء من الجيل نفسه يتخذون المقررات باسم العشيرة .

تعاون الارواح كل داهومي في حياته اليومية . قبل زراعة الحقل يفحص احد السحرة اذا كانت روح الحقل متلاطفة . في الايجاب ، تقدم لها القرابين . اذا انتج الحقل عدة حصائد متوالية ، تحصل الروح على ترقية . يشيد لها معبد صغير عند اقدام شجرة نخيل ، وترفع الى منزلة اله القرية .

يحمي كل داهومي جدوده الذين يؤدي لهم واجبات العبادة . لكل انسان ثلاث نفوس يمنحها « ماو » : اولاً ، « سيميكوكاتو » ، القرن الذي يؤلف جسم الانسان ؛ ثانياً ، « سيميدو » ، الروح الشخصية التي تعطي القرن شكل الانسان ؛ أخيراً ، « سيليدو » ، « الـ « ماو » الذي يقيم في جسم كل انسان » ، وهو انبثاق الهي ، وصوت داخلي ينبه الانسان الى ما يجب عمله في فترات معينة . عند وفاة الفرد تعود السيميكوكاتو الى القوى الاحيائية الكبرى . وتعود السيليدو الى « ماو » . اما السيميدو فتبقى وتقوم . ان مفهوم النفس هذا قريب جداً من مفهوم الاوروبيين المثقفين الذي راج في القرن السادس عشر . السيميدو تحتاز الانهر بعد ان تدفع الاجور المتوجبة لصاحب البطائح . تبلغ الفردوس ، وتدخله اذا اقام الاحياء من عائلتها بالاحتفال المناسب ، ثم تلحق بالجدود ، وقوله حين يحيي رئيس العائلة العائش على الارض احتفالات التأليه ، وتدخل الزون المائلي . وان النفوس المتصلة من الجسد ، التي تغدو اعظم قوتها منها حين تكون في قيد الحياة ، تصبح حاميات العائلة الكبرى ، وتؤدي لها واجبات العبادة .

ويحمي كافة الداهوميين اخيراً كبار آلهة الزون السماوي او الارضي . يوجد كبار الآلهة هؤلاء في كل مكان من الفضاء ولكنهم يأتون في فترات معينة الى اماكن خاصة حيث يستطيع الانسان الاتصال بهم والتماس تدخلهم ، وهو هذا الاعتقاد ما افضى الى عبادة « فودو » التي اشار اليها الكبوشيون منذ السنة ١٦٠٦ في مملكة اردر ، والتي وصفها غيرم في داهومي . « الـ « فودو » إله يستمر وجوده في الفضاء ولكنه مع ذلك اختار له مائتين او ثلاث مائة مكان مختلف ، تحت الجرار ، حيث يستطيع الانسان مناداته وتوجيه الاوامر اليه وارغامه على العمل . والاله نفسه يعين المكان الذي يريد الإقامة فيه . اذا مانغا احد فروخ الثبات في بيت من البيوت ، استدعي عراف على الفور ، لتعيين الاله الذي يريد معبداً . فيشيد المعبد في مكان قريب . ويعين الملك احد افراد العائلة كاهناً يكون كهنوته وراثياً .

وقد درجوا ، في تحديد مكان الفودو ، على رش الماء وبذر الذرة الصفراء في ثلاث نقاط من

مساحة مثلثة الزوايا بغية استئذان الارض . في كل من هذه النقاط يوضع اناء يحتوي على حصى واوراق خاصة ، ويحتوي الاناء الاول على بعض ماء البحر ، والثاني على بعض زيت النخيل ، والثالث على بعض الكحول . في وسط المثلث يوضع رأس حيوان غريب . فتنلى حينذاك صيغة تكريرية وتحدد بالضبط كافة المهام المطلوب من الاله ان يقوم بها . ثم تغطى الانية الثلاثة ورأس الحيوان بحرة كبرى . وكانوا يحتفظون بكل عناية بالسائل الذي استخدم لغسل رأس الحيوان . فاذا ما احتاجوا الى مساعدة ، رشوا الجرة بقليل من هذا السائل مستحضرين الاله . فيأتي حالا الى الجرة ، ويطلبون منه ما يريدون ، فيليي الطلب في اليوم نفسه ، حتى ولو كان الطلب قتل احدهم .

اقتضى درس اوليات عبادة الفودو . وكان هذا الدرس يستغرق ستة او سبعة اشهر ينمزل خلالها الطالب في مدرسة خاصة . وكانت مرحلة الدرس مرحلة خطيرة لان الاله قد لا يقبل المواعظ ويميته . يتعلم المرشح لغة العبادة ، والانشيد ، والرقصات الطقسية التي تتيح الاتحاد بالله ، والمحرمات الغذائية ، ويحافظ خلال فترات الدرس على طهارة تامة . حينذاك يدخل الفودو الى رأس الطالب الذي يموت روحيا ، ثم يعيا حياة جديدة بواسطة الاحتفالات التي تنهي مرحلة الدرس . وبعد اتحاده بالاله يشارك فودو قوته مشاركة دائمة . وما ان تقرر طلبة الرقصات حتى يأتي الاله ويسكن في من وقف على مبادئ عبادته . فيركض هذا الاخير ركضاً جنونياً ويرقص ويصيح صيحات حادة ويشعر بالتحاده بالاله . ولكن الفودو ، على نقيص ذلك ، يكون تحت تصرفه اذا رش الجرة بالماء وتلفظ بالكلمات المناسبة . فنحن اذن هنا امام اتحاد صوفي حقيقي ، وبالتالي امام ديانة ارفع من ديانة هنود اميركا .

الزنج في اميركا
ادخل الزنوج الى البرازيل منذ السنوات الاولى من القرن السادس عشر لمساعدة الهنود على قطع الاشجار وجرحها . وما ان ظهرت مغارس قصب السكر حتى استوردوا باعداد كبيرة . في السنة ١٥٣٣ ، انشأ الحاكم « مارتين افونسو » اولى مطاحن السكر في جزيرة « سانتو - فيسنته » امام مدينة « سانتوس » الحالية . ثم حذوه الحكام الآخرون والاسياد .

احتل السكر بسرعة مركزاً متزايد الاهمية في الاقتصاد الاوروبي . ففي اواخر القرن الخامس عشر ، كان عقاراً يباع بأسعار مرتفعة . وفي اواخر القرن السادس عشر غدا استهلاكه يومياً في البرتغال ، عند النبلاء والبورجوازيين ، بشكل حلاوى مختلفة ، وتجارته شاملة .

ان اكبر كمية من السكر وفرتها في البدء جزر شرقي المحيط الاطلسي : اسور ، مادير ، جزر الرأس الاخضر ، وجزر خليج غينيا ، جزيرة الامير ، وجزر القديس توما . اما البرازيل فكان دورها ثانوياً . ولكن البرازيل لعبت ، منذ السنة ١٥٨٠ تقريباً ، دوراً متزايد الاهمية ، وما لبث انتاج الجزر ، بسبب منافستها ، ان انخفضت قيمته المطلقة . ويفسر نجاح البرازيل

بثدي سعر كلفة السكر . فليس من حاجة هنا للري ، وتسميد الاراضي الراطئة التي تنتج قصب السكر كل ستة اشهر طيلة ثلاثين سنة ونيف . وتنتجها الاراضي المرتفعة اربع او خمس دورات متوالية دون تسميد . ويسر للبرازيليين ان يزرعوا قصب السكر في حقول واسعة كانت اكلافها العامة اقل ارتفاعاً نسبياً من اكلاف الحقول الصغرى في الجزر . اضيف الى ذلك اخيراً ان الديدان التي غالباً ما اتلقت قصب السكر في الجزر لم تصل الى البرازيل .

كان في البرازيل ، على ما يقال ، ٦٠ مطحنة للسكر في السنة ١٥٧٠ . وحوالي ١٥٨٣ - ١٥٨٥ ، تراوح عددها بين ١١٥ و ١٣٠ ، كما جاء في كتب المؤلفين . ولعله بلغ ٢٣٥ و ٣٤٦ بين السنة ١٦٢٨ والسنة ١٦٣٩ . وربما كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٧١٠ ، بعد نقصان الذي يرد الى الحرب الهولندية ٥٢٨ مطحنة سكر تقريباً .

ولكن لا مفارس ولا مطاحن سكر بدون الزنوج . وفي ترايد عدد هذه المفارس والمطاحن يكن السبب الاكبر لنقل زنوج افريقيا الى اميركا . منذ « السنوات الخمسين » في القرن السادس عشر ، غدا نقل السود الافريقيين في اتجاه البرازيل تصديراً بالجملة . وبين السنة ١٦٢٥ والسنة ١٦٥٠ ، وبعد استيلاء الهولنديين على باهيا في السنة ١٦٢٥ وبرغموك في السنة ١٦٣٠ ، وازدياد حركة القرصنة الهولندية في الاطلسي ، واحتلال الهولنديين لـ «انغولا» في السنة ١٦٤٠ ، انتشرت في البرازيل « جماعة السود » . ولكن التصدير باعداد كبيرة ما لبث ان تجدد بسرعة . اصدر البابا اوربانوس الثامن ، في ٢٢ نيسان من السنة ١٦٣٩ ، رقياً بتحظير الرق بجميع اشكاله . ولكن الرقيم لم يسفر عن اية نتيجة .

كانت النخاسة بين افريقيا والبرازيل وقفا على البرتغاليين . فقد توجب على البرتغاليين تأدية رسوم معينة للتاج يجيبها العملاء الملوكيون احياناً ، وتلزم غالباً بالتعاقد مع ملزم يحتكر النخاسة . فيعطى هذا الملزم اجازات للنخاسين الذين يدفعون له الرسوم .

النخاسون ينقلون « قطع » العبيد . اما « القطعة » فزنجي تراوح منه بين ١٥ و ٢٥ سنة ، ويبلغ ١٤٨٠ م طولاً ، ويتمتع بصحة جيدة . بين الثامنة والخامسة عشرة ، وبين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين ، يقتضي ثلاثة زنوج للحلول محل القطعة . اما دون الثامنة وفوق الخامسة والثلاثين ، فيقتضي اربعة زنوج . وقد استحصل النخاسون على العبيد عن طريق مفاوضة الزعماء الافريقيين الذين يبيعون امرى الحرب . لذلك عمد النخاسون الى الدبلوماسية بشتى اساليبها ، فشجعوا النزاعات واضرموا نيران الخلافات حول وراثة العرش . ولكن الزنوج المنقولين لم ينتموا الى الطبقات الدنيا في المجتمع الاسود فحسب . فان شحنة الزنوج اشبه بمملكة زنجية مصفرة تضم مهزومي حرب وراثة عرش من الامراء وكباو الموظفين ، ورجال الحاشية ، والمحاربين والمزارعين . فوصل من ثم الى البرازيل زنوج متطورون فكربا ، ضليعون في امور الادارة والقيادة والتنظيم ، جنود وعمال اكفاء ، اي شعوب مصفرة بلغت مستوى حضارياً رفيعاً .

استخدم النحاسون في افريقيا وسطاء زنوجاً (تانوسمو) يقومون بالمقايضة في الداخل ويلجأون عند الاقتضاء الى الحيلة والعنف . واستخدم اصحاب المزارع في انغولا بعض عبيدهم ، البومبيرو الزوج او الحلاسين ، القساء والمفسدين . وكان التانوسمو والبومبيرو يفادون عملاء الامراء الافريقيين (لنسادو) ، وهم خلاسيون مسيحيون يعتبرون انفسهم بيضاً ويقومون في بلاط الامراء ويبيعون عبيد هؤلاء . اما الثمن فبارود او اسلحة من البرتغال ، او ادوات حديدية ولعب من البرتغال او الهند الشرقية ، او « زمبو » او اصداغ اخرى تستخدم نقداً ، او « بانو » (اقشة) تصنع خصيصاً لهذه الغاية ، ترسم عليها اشعة وتكون لها قدرة تحريرية . وكانت قيمة البانو ١٠٠ ريال ، اي ان عبداً ثمنه ١٢٠٠٠ ريال يشتري بـ ١٢٠ بانو .

في السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، صدر مرفأ لواندا سنوياً بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ عبد ينقلون في سفن ذات اربعة صوار تقاروح حولتها بين ٨٦ و ١٣٠ برمبلا ، يكسب فيها ٥٠٠ عبد تقريباً . وكان الملاحون يستفيدون من الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب بين دائرتي الانقلاب من الشرق الى الغرب ، ثم من التيار الاستوائي الجنوبي ، فتستغرق الرحلة ٣٥ يوماً تقريباً من انغولا الى برنمبوك ، و ٤٠ يوماً الى باهيا ، و ٥٠ يوماً الى ريو دي جانيرو . ولكن نسبة الوفيات اثناء الرحلة كانت مرتفعة جداً . فقد حدث احياناً ان نصف الزوج لم يبلغوا اميركا . ولم يرسل الباقون على قيد الحياة الى البرازيل وحدها . فبين السنة ١٥٢٤ والسنة ١٥٢٦ ، نقل احد النخاسين ١٧٧٠٣ قطع ، ارسل منها ٧٤٥٤ قطعة الى البرازيل ، و ١١٨٤ الى جزيرة القديس توما . و ٩٠٧٠ الى الهند القشتالية في المنطقة الاسبانية . واعيد تصدير زوج البرازيل بالثلاث سنوياً الى منطقة « ريو دي لا بلاتا » الاسبانية . زد على ذلك اخيراً ان الاسبانيين والفرنسيين والانكليز كانوا يتعاطون التهريب ويزاولون المقايضة في المنطقة البرتغالية نفسها .

كان في البرازيل ، حوالي السنة ١٦٠٠ ، بين ١٣٠٠٠ و ١٥٠٠٠ زوجي و ٢٥٠٠٠ ابيض و ١٨٠٠٠ هندي « متمدن » اي متنصر . ولكن عدد العبيد الذين دخلوا البرازيل بين السنة ١٥٧٠ والسنة ١٦٧٠ يقدر بـ ٤٠٠٠٠٠٠ ، اي بمعدل ٤٠٠٠ في السنة . الا ان معدل حياة الزوجي في البرازيل لم يتجاوز السنوات السبع .

وفر الزوج القسم الاكبر من اليد العاملة في مزارع ومطاحن السكر . فقد عمل فيها ٧٠٪ منهم . وقد استخدم فيها ، بصورة خاصة ، زوج انغولا من الباتتو وهم قصيرو القامة ، وزاهرو البشرة ، وذوو ذلف ، واقل تنوعاً في الفكين ، ومتناسبو الاعضاء ، ومزارعون ممتازون لا حد لقدرة على تحمل التعب . اما الزوج الباقون فقد استخدموا خداماً وطهاة وحوذيين وحمالين ، الخ ، وكانوا داهوميين بصورة خاصة ، اكبر قامة ، واجمل جسماً ، يتميزون بحسهم وشدة حميتهم .

في مطحنة السكر ، كان مدير الانتاج ، والنجار ، والعمال الاختصاصيون ، والمرشد وامين السر ، ورؤساء العمال ، والوكيل ، من البيض . الزوج يزرعون قصب السكر ويجمعونه

وينقلونه ويسحقونه في ارجاء المطحنة ويقطعون الاخشاب للافران وينقلون عصير القصب الى القدور لتصفيته في ثماني مراحل متعاقبة ، ويضعونه بعد ذلك في آنية خزفية مجففة تعطي قالب السكر شكله المميز ، ويجمعون السكر غير الصافي ، وثقل القصب الذي يستخدم للتغذية والازباد التي يستعمل بعضها لتغذية المواشي والبعض الآخر لصنع الاشربة الكحولية ، « غارابا » و « كلاروس » .

استخدمت مطحنة السكر في كلية سانت - انطوان ٨٠ زنجيا في السنة ١٦٣٥ . وكان رأس مالها آنذاك ٥٠٠٠٠ كروزادو . الاجهزة تمثل ٢٠ ٪ ، والثيران والعربات والزوارق ٤٠ ٪ ، ورأس المال الاساسي ٢٠ ٪ ، والزواج ١٦ ٪ . ويتضح ان الزواج لا يمثلون الا نسبة ضئيلة من رأس المال ، في حال انهم الشطر الاهم فيه . فلولا مهارتهم التقنية وقوة سواعدهم لما امكن تحقيق شيء البتة .

معدل الانتاج السنوي ٧٠٠٠ كيس من السكر الابيض و ٣٥٠٠ كيس من السكر غير الصافي . نصف هذه الكمية يعود للمزارعين . اما النصف الآخر فيوفر « سيد المطحنة » مجموع دخل يقدر بـ ٣٨٧٤٠٠٠ ريال . اجور اركان الارادة تبتلع منه ٢٤ ٪ ، والمحروقات ٢١ ٪ ، والاوناني التحاسية ١١ ٪ ، والزوارق ١٠ ٪ ، والاعمال ٨ ٪ ، والنقبات المختلفة ١٤ ٪ ، ورديف الموتى من الزواج وغذاء الاحياء (لحوم واسماك) ١٠ ٪ .

الكسب الصافي يبلغ ٥٦٨٣٦٧ ريالا ، اي ٣ ٪ من رأس المال الاساسي و ١٣ ٪ من المجموع . وجلي انه كسب محدود جداً . ولو اضطر « سيد المطحنة » الى تشغيل يد عاملة مأجورة ، لما استطاع المشروع الى العيش سبيلا . فالمشروع مدين بوجوده لليد العاملة العبدية .

أُتخ عمل العبيد من ثم ، في البرازيل ، انماء رأسمالية صناعية في صناعة غذائية ثقيلة تسيطر على الاقتصاد البرازيلي . وليس التجار من يمولون هذه الصناعة . السكر هو محصول البرازيل الاول . انتاجه وتصديره يوفران القدرة على الشراء .

لعبت البرازيل دور المنطقة الاقتصادية المسيطرة بالنسبة لانغولا وغينية . فاذا تزايد طلب السكر البرازيلي في اوروبا ، طلب البرازيليون عبيداً وعاجاً وجلوداً من غينية وانغولا . واذا هبطت نسبة تصدير السكر البرازيلي ، انهارت تجارة انغولا وغينية . ولكن البرازيل من جهتها تلعب دور المنطقة الاقتصادية المسيطر عليها بالنسبة لاوروبا ، المنطقة الاقتصادية المسيطرة . فان انتاج البرازيل من السكر مرتبط كل الارتباط بالاستهلاك الاوروبي وبقدرة لشبونة على بيع السكر من امستردام التي يوزع منها على كافة انحاء اوروبا حتى بولونيا وبوهيميا وهنغاريا . اذا حدث اوروبا من استهلاكها ، دخل الاقتصاد البرازيلي في ازمة . البرازيل هي الراجحة . فالصناعة الثقيلة البرازيلية تنتج اصلحة الرأسمالية التي يشرف عليها « المسيحيون الحديثون » من اصل اسرائيلي . واوروبا هي الراجحة ايضاً . ففائدتها من البرازيل تفوق الى حد بعيد فائدة

البرازيل التي لا تحصل مقابل سكرها على عناصر الانتاج الضرورية ، اي الرجال ورؤوس الاموال ، التي قد تحتاج اليها . اما كبار المستفيدين من الصناعة البرازيلية الثقيلة فهم تجار السكر البرتغاليون والهولنديون الذين يبيعون المصنوعات في افريقيا والعبيد في البرازيل ويحتكرون في النهاية هذه التجارة المثلثة الزوايا . فالرق الزنجي في البرازيل هو من ثم شرط نظام اقتصادي كامل ، وقاعدة حضارة .

ان زواج حضارة عصر الحديد ، ينقلهم الى البرازيل تقنياتهم في الزراعة وتربية المواشي وصناعة الحديد والعمل المنزلي ، ويتمودم تطبيق التقنيات الاوروبية ، قد اتاحوا فو حضارة عقارية قبلية . فان سيد المطحنة يعيش في البطالة متكلا على العبيد الزوج يحممونه ولبسونه ثيابه ويفلونه ويبعدون عنه الذباب . « سيد المطحنة » لا يستخدم يديه الا لتلاوة سبحة واللعب بالورق واخذ قبضات السموط واستعمال السيف والخنجر . وغالبا ما يجهل القراءة والكتابة ، ويستخدم امين سر . دوره هو الادارة والقيادة . منذ سن العاشرة يتزيا بزي الرجال ويحمل خنجرأ كبيراً على جنبه ويفرض ارادته على صفار الزوج وينظم الالعاب ويضرب ويعذب ويؤلم . وحين يبلغ اشده ، يصبح ضابطا ممتازا يبرهن عن بسالة في الحروب ضد الهنود والفرنسيين والهولنديين . يقود الى المعركة فرقا من العبيد الزوج تحارب بشجاعة واخلاص . اما الفتيات فيربين مع الزنجيات الصغيرات ، ومع الـ « موكلما » ، القينة السوداء . ويتمودن توزيع الاوامر بصوت عال ويصبحن قاسيات وشرسات ، وظالمات احيانا . يتزوجن في سن مبكرة ، في الثانية عشرة او الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، لان الشغل الشاغل هو تركيز الاراضي ومطاحن السكر . ولكنهن أعجز من ان يلعبن دورهن كزوجات وامهات ، فيحتجن الى الزنجيات لارضاع الاولاد وتربيتهم وتحضير الطعام وتدبير المنزل .

لما كانت الارباح محدودة ، كانت الحياة ، في المنازل السيدية الكبرى ، حياة فقرية نسبياً . فلاسياد يرتدون في منازلهم قميصاً وصدرة ذات كمين ، والعبيد اسجلا . الغذاء زهيد والاثاث محدود ولكن التفلخل شيء مألوف في الاحتفالات الكبرى

لم يبد الزوج اي انزعاج من حياتهم في اقليم البرازيل الاستوائي . فقد الفوها بسهولة . كانوا جلدلين وثرثارين وحسن المباشرة وسريعي البداة وضحوكين ومنفتحين ، فبرز التضاد بين سلوكهم وسلوك الهنود العابسين الحزانى المنكشين على انفسهم . برهنوا عن قيمة عقلية حقيقية ومزيد من المبادهة الشخصية واهلية للتنظيم وقوة ابتداعية ومهارة . اذا ما أرسلوا الى المدرسة ، سبقوا التلاميذ البيض في التحصيل .

لم يقطعوا اتصالهم بافريقيا ، بل استمروا في استحضار مصنوعات دينية وكثيراً من الحاجيات الشخصية : جوز الكولا ، والكوري ، والزيت ، والاقمشة ، فانتقلت من افريقيا الى البرازيل تقاليد وافكار وممارسات دينية . ان الزوج « افرقوا » الساحل البرازيلي .

ان الرق أذل الزوج . فقد قضى البيض وقتهم في فض بركات المذارى من السود ومضاجعة الزنجيات ، العبدات اللواتي لم يحرّون على المقاومة ، هذا بصرف النظر عن اولئك اللواتي كن يمدن لهم السبيل لذلك . وقضت مصلحة الابيض من جهة ثانية بانجاب العبيد وتأمين اليد العاملة . ولكن الزنجيات غالباً ما فتن البيضاوات جريالاً واستملن البيض يجاذبن . فلم يكن عبيداً على السودانيات والداهوميّات ، المتميزات بقدم مياس وهينة ملكية وثديين فائتين تحت القميص واسنان لماعة ووجه متفهم ، ان يتغلبن على البيضاوات المحبوسات في منازلهن ، الامهات في سن مبكرة ، الداويات في الثامنة عشرة ، المعروفات ببشرتهن الصفراوية واسنانهن المثقلة وحركاتهن المتليكة ، وبدانتهن المبكرة وفقتهن المزدوج .

يستدعي الأبيض الى منزله اولاده من سراريه السوداوات ويجلسهم على مائدته الى جانب اولاده من زوجته البيضاء . وتقضي السراري والمرضعات حياتهن في منزل السيد . يعتبرن واولادهن من افراد العائلة ، ويخصصون بنصيب في الوصيات ويعتقن على العموم بعد وفاة السيد . بالإضافة الى الخدام الزوج ، عاش هكذا حول السيد بين ستين وسبعين شخصاً من غير البيض . لم يكن الدين الكاثوليكي مستثيراً ولكن الايمان كان حاراً ، لان هذه الاخلاق قد بدت طبيعية جداً . لا بل ان اعضاء الاكليروس ، باستثناء اليسوعيين ، قد سلكوا سلوك اسياد المطاحن وكان لهم سراريهم الدائمة والمؤقتة . كان اللمانيون من البيض والزواج اقلبياء جداً . كان كل العبيد منصرين ، وكان على السيد ان يقدمهم الى الخورنية بعد تعليمهم الصلوات .

وقد رغب العبيد في ان يكونوا مسيحيين لان غير المسيحيين قد اعتبروا وكأنهم بهائم . واصبح بعض العبيد مسيحيين مثالين ، وقضى بعضهم حياتهم في الصلوات . ومنهم من اعلنت قداستهم ، كالقديس « بنديتو » .

بيد ان بعض العبادات الافريقية قد عرفت البقاء متداخلة مع المعتقد الكاثوليكي او متنكرة به . فان عبادة الفودو مثلاً قد بقيت مزدهرة . وانتشرت في الاملاك الكبرى جميعات من عبدة الاوثان . وبشر بعض الزوج بالاسلام واحرزوا بمض النجاح في اكواخ العبيد باظهارهم الاسلام ديناً يعارض دين الاسياد . وجملة القول ان العبيد المستوردين باستمرار قد حافظوا على المعتقدات والعبادات الافريقية .

ادخل الطهاة الزوج على اطعمة البيض مواد جديدة ، زيت النخيل ، والفلفل ، وتوابل اخرى مختلفة . وادخلوا اصناف مأكولات جديدة . ولطفت المرضعات السوداوات اللثة البرتغالية التي استغني فيها عن بعض الاحرف المضاعفة وحوورت بعض مفرداتها . وادخل الزوج بعض التعابير الجديدة وبعض الصبغ الصرفية الجديدة ، وجلوا الفكر البرتغالي بروايات واساطير وخرافات افريقية .

اضف الى ذلك ان الاله كويلومبو ، او الزوج الفارين ، قد علموا الحنود العادات

الاوروبية . التجأوا الى مناطق البرازيل الوسطى التي لم يبلغها المرسلون قط ، فعملّموا الهنود اللغة البرتغالية ومبادئ الدين الكاثوليكي والتقنيات الزراعية وطرق تربية الطيور الداجنة وزراعة القطن وصناعة الاقمشة . وفي « ماتسو - غروستو » ادخلوا فن الحدادة وتربية المواشي فكانوا بذلك عوامل حضارة نشيطة .

في المستعمرات الاسبانية والفرنسية والانكليزية ادى دخول السود الى نتائج ، لا متماثلة ، بل متشابهة ، وآل الى نشو حضارات من نوع واحد . فلا داعي من ثم الى الكلام عن هذه النتائج وهذه الحضارات في مثل هذا الكتاب .

وهكذا فان الاوروبيين قد اوجدوا ، مع سود حضارة العصر الحديدي ، حضارة جديدة . وانما حقق الاوروبيون خير نجاح مع شعوب حضارة عصر الحديد . فان حضارة السكر هذه نجاح حققه البيض والسود على السواء ، الاوروبيون والافريقيون . وكان الافريقيون عوامل نشر حضارة اوروبية افريقية ، اوروبية الطابع ، في داخل القارة الاميركية . فكانت القارة الاميركية من ثم ، خلال هذين القرنين ، حقلاً فريداً للالتقى العروق والحضارات ومكاناً نادراً للاختبارات الاجتماعية . فان حضارة اطلسية متعددة المميزات الخاصة تصل بين شاطئتي المحيط .

الكتاب الثاني

أوروبا والعالم الجديد

كان هدف أوروبا ، خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا . فالوصول الى الهند والصين واليابان ، واستثمار ما فيها من موارد طائلة ، حمل سكانها على اعتناق المسيحية ، والقيام بحركة التفات على الاسلام ، من وراء ، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الارض سوى ايمان واحد وحضارة واحدة ، تلك كانت الغاية الاولى والاخيرة ، والحلم الاسمى البعيد الذي راود خواطر الاوروبيين بكثير من الاغراء .

فقد حلت أوروبا بتحقيق تبدل كامل بأخذ بتلابيب آسيا . ففي الوقت الذي تم لها التغلب على الصعاب ونجحت محاولتها في الكشف عن العالم الجديد واستصفاء خيراتهم ورفع لواء المسيحية في ارجائه وطبعه بطابع أوروبا ، بقيت آسيا الهدف الأكبر ، شبه مغلفة ، يصعب النفاذ اليها . كل شعوب أوروبا : من البرتغاليين اول من اسسوا في القرن السادس عشر اول امبراطورية اوروبية شملت بحار الهند والصين ، الى منافسيهم ومزاحمهم الاسبان ومن جاء بعدهم او خلفهم في هذه الرسالة من هولنديين وانكليز وفرنسيين ، في القرن السابع عشر ، واخيراً الروس الذين أطلوا ، من سيبيريا على مشارف الصين الشمالية ، بعد عام ١٦٤٠ ، كل هؤلاء واولئك اضطروا ان يفتنوا ببعض غرسات شتلوا بها سواحل القارة الآسيوية ، ممثلة بهذه الوكالات التجارية ، وهذه الحصون والمعاقل ، وهذه الرسائل الدينية ، ففتنوا من مسعاهم وحلمهم العريض ، بالتجارة مع سكان البلاد ، إن هم استجابوا لهذا المطلب ورضوا بالتعامل ، كما اقتنعوا باعتناق قلة ضئيلة من سكان البلاد ، المسيحية . آسيا هذه التي تحرقت قلوبهم بامتلاكها كفافهم ان يمتصوا خيرات بعض اطرافها ، وصاحب الحظ بينهم من قبيض له التجول في ارجائها ويضرب في مجاهلها ، فلم يبدلوا منها الا القليل ، في القليل من بعض مظاهرها . وبقي ما اصابهم من فشل وخسف ، سرّاً مطبقاً يحاول المؤرخ ان يكشف ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، عن اسبابه الخفية .

الفصل الأول

أوروبا والاسلام

١ - الاسلام

جاء البرتغاليون والاسبانيون البحار ، مشرقين ومغربين ، تفادياً منهم للاسلام الذي كانوا يجدونه اينما اتجهوا وفي اي مكان وطائفة اقدمهم . وقد حالقهم النجاح . ففي دورانهم حول جنوبي افريقيا ، وايغالهم بعيداً الى الغرب ، انما رموا الى الالتفاف حول المسلمين واخذهم من وراء ، اذ انهم اينما اتجهوا ، وأنى حلوا ، انتصب المسلمون امامهم . وقد اتضح للاوروبيين ان الاسلام يؤلف قوة اضخم مما ظنوا ، وهي قوة آخذة دوماً بالانتشار والامتداد والتوسع . فمن المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي ، ومن شطآن المغرب الاقصى الى هذه الجزر التي تفيض بالتوابل حتى في بكين نفسها وفي هذه الفياقي والسباسب التي تحيط بالعالم القديم إحاطة السوار بالمعصم : من الصحراء الكبرى والمغرب والجزيرة العربية وآسيا الصغرى وفارس وافغانستان والتركستان ، ومن الشال الغربي ، من الصين ومن مقاطعة كنصو حيث يؤلفون جماعات كبيرة ، ومن سو - تشو مروراً بالجماعات التي يزخرها التركستان الصيني الى ما وراء لان - تشاو وننغ - هبا حتى مشارف سي - نغان ، وفي آسيا الموسمية ، والمحيط الهندي ، في بنتام وفي جنوبي الصين ، في يونان وكوانغ - سي ، وفي كوانغ - تونغ حيث كان عددهم يتناوح بين ٢ - ٣ ملايين نسمة ، وفي مرافئ الصين ، وفي الحواضر التجارية الكبرى في الصين حيث اقبلت قوافل التجار المسلمين وأسست لها مجتمعات تنعم بالكثير من الامتيازات والانعامات والنفوذ ، اينما اتجه البرتغاليون والاسبانيون ، وجدوا امامهم قائمة ، راسخة ، دولاً وامارات اسلامية ، ومرسلين مسلمين ، وتجاراً مسلمين من جميع العروق والاجناس يعدون بالملايين . ففي بلاط امبراطور الصين نفسه ، وجد المرسلون

قيام الاسلام
وحضوره في كل مكان

اليسوعيون الذين جاؤوا يحاولون حل الامبراطور على اعتناق المسيحية ، انفسهم وجها لوجه مع المنجمين وعلماء الفلك المسلمين الذين واجهوا العالم الاوروبي بالعالم العربي ، كما جابهوا المسيحية ، بالديانة الاسلامية . وهكذا بدا لهم الاسلام كلي الحضور حتى ان الاب لاثيز ، مرشد لويس الرابع عشر ايقن بان كل آسيا انما هي اسلامية .

حيوية الاسلام وانتشاره سبق للإسلام وانتشر ، كالشهاب الخاطف ، في آسيا وافريقيا ، في هذه الحقبة التاريخية التي سبقت عهدنا هذا . وهذا المد لم يكن ليتوقف . وطاقة الاسلام على الانتشار والتغلغل لم تكن لتنضب . فقد استمر الاسلام في مده الصاعد ، جارفاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، متدفقا نحو الجنوب بين قبائل السودان . كثيراً ما تم هذا التغلغل بالفتح تقوم به شعوب وقبائل إسلامية ، او زعماء وملوك وطنيون ، ما كانوا يمتنقون الاسلام حتى يفرضوه فرضاً على جميع رعاياهم ، وقد قبل : الناس على دين ملوكهم . ففي مدن مقاطعة هاووساس ، في النيجر ، التي دخلها الاسلام في القرن السادس عشر ، وزازوون ، وغوبيس وكستينا وبيرام ، استمر الاسلام في انتشاره في الوقت الذي كان فيه سكان الريف يستمسكون بعقائدهم الدينية . ففي مملكة أوادات ، يبدو ان أسرة 'توئجور الملكية الاسلامية تمكنت ، في مطلع القرن السادس عشر من ان تحل محل الامراء المحليين في اقاليم كثيرة ، وبذلك فتحت ، في مطلع القرن السابع عشر ، الباب على مصراعيه ، امام رعاياهم ، لاعتناق الاسلام . واستطاع احد علماء المسلمين يدعى عبد الكريم ، ان يتغلب ، بين ١٦١٠ و ١٦٥٣ على سلطان توئجور . وفي دارفور ، تمكن السلطان سلتوم سلمان ، في القرن السادس عشر من انتزاع السلطة من احدى الأسر المالكة من قبائل توئجور التي كانت على الوثنية . وهكذا تمت السيطرة على مقاطعة كردفان التي كان سكانها على الوثنية ، لقبائل الغويا المسلمة ، الى الشرق من تشاد . وبين ١٥٠٠ و ١٥٦١ ، تم إنشاء سلطنة ، بكيرمي على يد غزاة فاتحين . وفي عهد الملك عبدالله (١٥٦١ - ١٢٠٢) راح الامراء البكيرميون يمتنقون الاسلام . وفي القرن السابع عشر ، قام اقوام رعاة من قبائل *Peuls* ، في مقاطعة فوتا جالون ، مهاجرون ، بحركة واسعة ، من مقاطعتي السنغال وماسينا ، ليستقروا في بلاد ماندينغ ، حيث تخلى لهم الاهلون عن اراضي واسعة تصلح لرعي الماشية . وقد تسلل معهم الى المقاطعة المذكورة ، مسلمون من فرقة القدرية من مدينة تمبكتو وشداها حملوا الكثيرين من حلتوا بين ظهرانيهم ، على اعتناق الدين الاسلامي . وهكذا لم تلبث ان عرفت قبائل « البول » في فوتا جالون ، بمصيبتها الدينية الشديدة ، وراح زعمائها ينظمون رجالهم للجهاد ، فاستطاعوا ، عام ١٧٣٥ ، ان يؤلفوا دولة اتحادية ، من هذه الولايات السبع تحت ادارة حاكم مستقل ليحملوا الوثنيين على اعتناق الاسلام . ثم اختاروا لهم زعيماً نصبوه رئيساً للاتحاد . وقد جرت ، على نطاق اضيق ، إرتدادات في مقاطعة فوتا تورن الواقعة عند نهر النيجر الاوسط ، وبين سكان ماسينا . وهكذا تمكن الاسلام من

التدخل بعيداً في أفريقيا السوداء . وسجلت ارتدادات إسلامية كثيرة بين سكان الغابات في الفينيه ، المطة على المحيط ، ومع ذلك بقيت جامير غفيرة ضخمة على الوثنية ، بين سكان مقاطعة ماندنغ ، ألفت من وجودها ومن تمسكها بعبادة الأرواح ، مراكز مقاومة تحد من تقدم الإسلام في تلك البلاد .

أما في آسيا ، فقد تابع الإسلام جهوده في اكتساب جزر السوند وبلاد التوابل والأفاويه . فقد عمل سلاطين برنات وتيدور على نشر الدين الإسلامي . في جزر المولسك . وحمل دعاة الإسلام ، سكان جزيرة مندناو ، إحدى جزر الفيلين ، على اعتناق الإسلام . واضطر الأسبانيون إلى اغراق السفن الإسلامية التي كانت تقوم بالنشاط التجاري في تلك المنطقة ، أن تعرضت مصالحهم التجارية للآذى والخسارة ، للحوول منهم دون تغفل الإسلام ، إلى جزيرة لوسون التي ألفت الحصن الأممي للحد من تقدم المسلمين في هذه المنطقة . وفي الهند الصينية وسيام وكبوديا ، راح المسلمون من الملايو بعد أن كانوا يلتزمون بجباية الضرائب والرسوم ، يزاحون بشدة الارساليات المسيحية التي كان يقوم بها مرسلون أسبان وبرتغاليون وفرنسيون ، وقولوا ، عام ١٦٤٢ ، إلى حل رهاما ديباتي ، ملك كبوديا ، وراماتو بداي تشام ، ملك تشامبا ، على اعتناق الإسلام .

أما الصين . فلم يقيم المسلمون فيها ببعثات دينية . وكان لهم فيها أتباع عديدون أخذ هدهم بالازدياد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ففي القرن الخامس عشر كان الدرويش علي أكبر يعثره الذهول لكثرتهم ، لما كان عليه المسلمون من إزدهار وما تمتعوا به من حريات واسعة ، وما نعموا به من نفوذ . فقد كتب ما يلي : « تدل بعض تصرفات الامبراطور على أنه اعتنق الإسلام سرّاً إلا أنه لم ير من المناسب الجهر بذلك علانية . وقد اقترح على سلطان الأتراك أن يتولى فتح الصين ليحمل الأهلين فيها على اعتناق الإسلام .

أما في أوروبا . فلم تتوقف الفتوحات الإسلامية عن تسجيل انتصارات جديدة لها ، حتى أن المسلمين اطلوا على أبواب فيينا ، إذ أن أعداداً كبيرة من رعيا الشعوب التي علبت على امرها ودالت دولها للأتراك ، راحوا يعتنقون الإسلام ، كما أن عدداً محترماً من الأوروبيين نزحوا ليقبوا بين المسلمين ، في السلطنة العثمانية ، أو في بلدان شمالي أفريقيا . ونرى في البلقان بعض المناطق تصبح بين ١٥٦٦ - ١٦٤٨ إسلامية بكامل سكانها ، في مقاطعة رودوب الجبلية والبابايا وجزيرة أوبه وكريت . كذلك نلاحظ وقوع ارتدادات كثيرة في مقدونيا ولباليا ومولدافيا وبلاد الفلاح . ويؤكد أحد المعاصرين أن الناس كانوا يقبلون على الإسلام بعشرات الألوف بل بمئات الألوف ، وأن أعداداً كبيرة من النازحين والأسرى والهاربين كانوا يعتنقون الإسلام وينصرفون للعيش بين المسلمين . فالحميات الأسبانية في أفريقيا تألف معظمها من النازحين هجروا بلدانهم زرافات من كورسكا وسردينيا وصقلية وكالابريا وجنوى والبندقية وإسبانيا ، في قوارب تنص بركابها ، قاصدين شمالي أفريقيا كانوا مرشحين لاعتناق

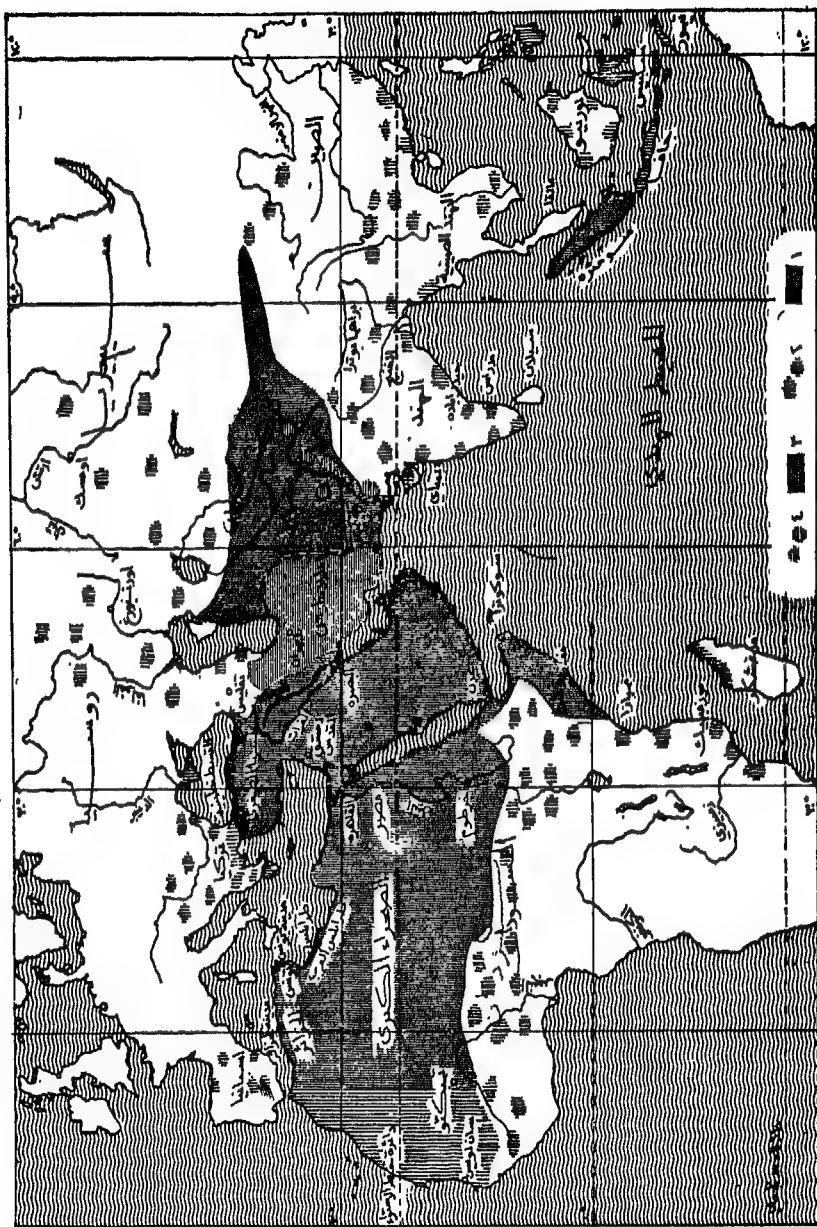
الاسلام . ويؤكد احد المؤرخين : « ان اضطرابات الذين جعلوا دينهم تؤلف اكداساً من الوثائق التاريخية » . فابنا مررت في أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وقمت انظارك على جاحدين او مارقين لدينهم ، من كل درجات السلم الاجتماعي والسياسي . فالجنوي جبرونيمو كمبودي مغليو ، الذي وقع اسيراً في مدينة الجزائر ، كان عمره عام ١٥٩٨ ؛ خمسين سنة . وعندما توفي سيده الذي كان تاجراً من تجار تلك المدينة ، تخلى له عن دكانه . وقد شوهد يسير في الشارع مرتدياً الزي التركي ، ويؤكد عارفوه انه متزوج من مسلمة ، « وفي اعتقادي انه خرج عن دينه المسيحي ولا يفكر قط بالرجوع الى اهل » . ونرى في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٢) ان من اصل عشرة قولوا مركز الصدر الاعظم ، ثمانية منهم كانوا جاحدين لدينهم ، حتى ان نائب السلطان في الجزائر أولج علي ، انما هو واحد من هؤلاء المارقين .

ولم يكن الاسلام اقل اجتذاباً للاروبيين ، من المسيحيين القاطنين الشرقي . وعندما قام المغول الاكبر اكبر ، بفتح مملكة احد لجار ، المسلمة ، أغرى المدافعين عن قلعة اسيرغار ، على الاستسلام ، عام ١٦٦١ . وكان بين ضباط الحامية سبعة ضباط برتقاليين ، وعدد كبير من المدنيين البرتغاليين ، من كلا الجنسين ، كلهم على الاسلام .

الاسلام ومغرياته كل شيء كان يفتدي الفكرة في قلب الاروبي . فالمسلم يتمثل عنده ، اول ما يتمثل ، في هذا التركي ، الذي اصبح مغزعة الغرب . « أليس الاتراك شرراً من الذئاب في كل ما يصنعون ؟ » (١٥٩٦) . وهل من عجب قط اذا ما اتخذ الله من الاتراك سوطاً لتأديب المسيحيين ، اسوة بما فعل باليهود عندما أهلوا شريعة المهم ... فالاتراك بالنسبة للمسيحيين ، هم بمثابة الاشوريين والبابليين لاسرائيل : مقرعة الله وموطه اللاهب (من اقوال فيريه ، عام ١٥٦٠) . ثم أو ليس المسلم هو هذا الشرقي الذي يقف مع الاروبي ، على طرفي نقيض ؟ هذا المسلم الذي تميز بالختان ، ولا يأكل نجساً كلهم الخنزير او لحم اي حيوان آخر لم يذبح بيد مسلم ، وفقاً لاحكام القرآن ، هذا الشرقي الذي يضي في كتابته من اليمين الى اليسار ، والذي يضع مقدمة كتابه والفصل الاول منه حيث نهاية الكتاب عند الاروبي .

هذا الانسان الذي يتول مقرصاً كالنساء والذي يجلس القرفصاء والذي لا يشعر بأي حياة في رسم عندهما يحشو ، حركة يشتمز منها الاروبي لانها تتم على العبودية ، والذي يخلع حذاءه عندما يدخل المنزل ، والذي يزهو بثوبه الفضفاض ، والذي يولد مقدساً بالوراثه ويسمح لنفسه ان يعمل كل شيء ، اذا انحدر من ولي او من شريف . فالمسلم هو نقيض الاروبي والاسلام نقيض أوروبا ، فالمسلم هو من خرج على المسيحية وسبب للمسيحي الهلاك الابدي .

الاسلام تنمة المسيحية من العناصر الاساسية التي ميزت الاسلام ومن ابرزها وابعدا اثرأ على الانسان الابيض في أوروبا وعلى الاسود والاصفر معاً ، قوة الجذب التي تتجلى في الديانة الاسلامية ، مما جعل للمدينة الاسلامية ، هذا الانز البعيد ، فقد رأى



الشكل ١٨ - العالم الإسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الابيض الاوروبي في الاسلام تنمة للمسيحة . بعد هذه السلسلة الطويلة من الانبياء : من آدم ونوح وابراهيم ويسوع الذي يعرف عند الاوروبيين بالمسيح ، جاء خاتمهم الرسول العربي ، محمد آخر النبيين واعظمهم . فقد رأى المسيحي في الاسلام ، عناصر كثيرة مألوفة لديه : الوحي المتوارث بين الناس على ألسنة انبياء أوحى الله اليهم به ، وكتاب موحي به هو القرآن الذي كان في نظر النبي تنمة للتوراة والانجيل ، وتفسير لنشوء الكون فيه قصة الخلق والخطيئة والسقوط وملائكة متشفعين وأبالسة ونفس خالدة ، ويوم الحساب ، وجنة ، وجحيم . كل هذه العناصر ألفت لدى المسيحي المتفرس في الاسلام ، جواً ليس بغريب عليه قط ، فهو لا يجد نفسه غريباً في محيط كهذا المحيط ، ولذا فالصدمة ، ان كان ثمة صدمة ، تأتي ضعيفة الوقع ، خفيفة ، بينما كل هذا قد يصدم بعنف الاسود الذي آمن بفعل الارواح . فكل ما يقدمه له الاسلام من تفسير لخلق العالم ولصير الانسان ، بشكل قصة او اسطورة ، يتفق تماماً ، في جوهره ، بما ألفه من قول وسمعه من تعاليم ، في هذا الشأن .

فقد ظهر الاسلام للمسيحي وللزنجي والآسيوي بسمو تعاليمه ولاسما بنظريته وحدانية الله الى الله . فقد كان تم للزنجي فكرة غامضة ، مشوشة عن الكائن الاعلى . اما انسان آميا فقد توصل بالادراك العقلي الى وحدانية الله ، مع ان الفلسفات الاساسية التي طلعت عليه لم تحسن خدمته اذ لم تستطع ان تخلصه من هذه الرموز والشبهات التي عاش في جوها ، فتلبست لبوساً حلولياً ، تارة ، وطوراً مشركاً ووثنيّاً . فالمسيح قال بالثالوث الاقدس ، وهو يقول بوحداية الله وبوحدة الجوهر في ذات الله في ثلاثة اقاليم ، يتميز الواحد منها عن الآخر ، هم الاب والابن والروح القدس ، وهي عقيدة يبقى العقل حيالها حائراً ، لا يستطيع النفاد اليها وهو امام امر لا يتصوره الخاطر ، وهي عقيدة وقفت دوماً حجرة عثرة لدى العقول وحالت كثيراً دون اعتناق الناس لها او دون استمرار من اخذ بها ، على القول بها . وعلى عكس ذلك جاءت العقيدة الاساسية في الاسلام . فهي تنطلق عقوية من الارض الى السماء ، كما ترتفع المأذنة البيضاء نحو القبة الزرقاء : هي وحدانية الله : « لا اله الا الله » . فالله هو الكائن الحي الاحد ، الابددي ، الازلي السرمدي الكلي القدرة ، والكلي المعرفة ، والملم المطلق . فيه كل شي وهو يتميز عن كل شيء . وكبيرة الكبائر هي من يقول بان الله شريكاً ، وهذه هي خطيئة المسيحي الكبرى في نظر الاسلام . وهذا الشعور بوحداية الله تغفل في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن ولا سيما على فن البناء والرسم . فالمسجد نفسه مشبع بهذه الفكرة : فهندسته صلاة وموعظة ، فالمسجد هو نسخة عن كنيسة يوستينياوس ، غير ان الاسلام نشر على كل شيء ، لونه وضياؤه الخاص بحيث ان مجموع هذه الاشكال المعروفة جعلتنا نتصور اننا امام بناء جديد او بالاحرى امام طراز هندسي جديد ، منه ينفلت النظر الى آفاق عالم غير منظور حيث تهب نفحة الهية جديدة . وتقع العين في داخل المسجد على صحن فسيح ، رحب تشعر حيال بساطته بالمهابة والعظمة ، دائم البياض ، ينقذ النور الى باحته

الداخلية من هذه النوفذ التي تطل من الخارج فتفيض على الداخل ضوءاً ناعماً حيث تقع العين على كل شيء وترتاح مع الفكر الفاني ، في ظل هذا السكون العميق الذي يشبه سكون الوادي اكتسب جلياً من هفاف الثلج ينعكس عليه سماء ابيض . ليس في الجامع ما يشتت الفكر : من خلال هذا الفراغ ، وعلى ضوء هذا السناء ، تجدد النفس ذاتها امام موضوع عبادتها ... فهي ترى نفسها مكتنفة بفكرة نيرة واضحة ، جليلة ، وضوءاً تملأ الروح رهبةً وخشعةً ، فكرة الله مالى هذه الوحدة ، ومالى هذه الفراغ الصارم المهبب الذي يسيطر على هذه الصغارى التي يغمرها النور . فهذا النور ، وهذا التجرد العاري للايمان برب أوجد احد ، كلي القدرة ، هذا ما حمله الاسلام للانسان المشدود المتطلع نحو الكمال الاسمى .

وهذا الكمال الاسمى له ، في الدين الاسلامي ، من الوسائل علاقة الانسان بالله - الصلاة الاسلامية ما يمكن الانسان من الاتجاه اليه والاتصال به . كم هو عظيم وبالع تأثير الاسلام على الزنجي ، مثلاً ، عندما يتبين بوضوح ، طريقة الأخذ بهذا كله ، وعندما يتبين ويفهم مقدار اهتمام الخالق بالخلقة التي برأ من العدم . فالمسلم في نظر الزنجي هو من يصلي الى الله ويبتهل اليه ، فلا تسل عن عظم تأثير الاسلام على الزنجي ، فهو لا يصدق نفسه ، ان باستطاعته ان يخاطب الله عزّ وعلا . فالدين الاسلامي يسهل للجميع ، اكثر من اي دين آخر ، اتجاه الفرد بنفسه الى الله الأحد . كل مسلم يكن لربه . فهو يقدس نهاره باقامته الصلاة ، خمساً في النهار : في السحر ، وعند الظهر ، وفي الأصيل ، وعند المغيب وفي العشية . فالصلاة فردية هي ، وان تمت مع الجمهور فهي فعل ايمان يتجلى بالبساطة والتجريد العكلي . وهذه الصلاة يمكن للانسان ان يقوم بها ابناً كان . ففي صلاته لا يطلب المسلم شيئاً لنفسه . والشئ الذي يطلبه هو ان تشملهُ نعمة الله ، فالصلاة عند المسلم هي اعتراف علني بربوبية الله . فهمي شكر له وعمل عبادة الله ، الشمس المضيئة للنفوس .

فالشهادة ، في الاسلام هي فعل ايمان ايسر بكثير واخصر من فعل الايمان عند المسيحيين : « اشهد ان لا إله الا الله ، وان محمداً رسول الله » ، كما نتبين ذلك في سورة الفاتحة :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المقضوب عليهم ولا الضالين ، آمين . »

ومع هذه الصلاة السامية ، على المسلم ان يصوم رمضان المبارك وان يدفع ما عليه من زكاة ليظهر قلبه وامواله ، وان يقوم بفريضة الحج الى مكة ، لمن يستطيعه ، وان يتصف بالمعدل والتصف والامانة والصدق والهمة .

رجاء المسلم والتسليم لمشينة الله
الايان بالله مالىء الكون ، هي العقيدة التي تملأ حياة المسلم . فالشعور
القوي بقدرة الله الكلية ، بقداسته وبحضوره الكلي الشامل ،
يحمل معه الايمان بالقضاء والقدر والتسليم الى مشينة الله وإرادته . « هذا شيء مقدّر » ، لتكون
إرادة الله ، « قاله قدر كل شيء في حكمته الازلية » ، بمنأى عن الزمن ، وقضى به الى
الابد وسيعجازي كلا بأعماله ويثيب المسكين العادل . فكل مشاغل الحياة ، مها كانت 'مقضىة' ،
لا تلبث ان تفقد حداثتها وانت تزول . ماذا يفيد الانسان ان يهتم ، أكثر مما يجب ، وان يشغل
باله بما هو ظل زائل . فقراءة القرآن وتصفحه أبقي وأجدى ، ولنتعمق في حفظ شريعة الله
وناموسه . فارادة الله هي الباقية وما 'قدر هو الذي سيكون .

فقد يسرت الشريعة الاسلامية حياة الدنيا في كثير من القضايا كما بعثت في المؤمن الرجاء بحياة
أفضل وأبقى . فقد أباح الاسلام تعدد الزوجات : إنكحوا لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ،
هذا ان عدلتم . باستطاعة المسلم ان يطلق زوجته لاختلافها الرديئة . واذا تعذر على بعضهم ،
لفقرهم ، الاحتفاظ بعدة زوجات معاً ، فباستطاعة المؤمن ان يطبق الآية بحيث تتم له عدة نساء
باستمرار . فالفرديوس الذي اعدّه الله للمؤمن يتألف من ثماني سموات ، تكون وفقاً لاستحقاق
المؤمن ، تجري من تحتها الانهار ، كما فيها انهار من اللبن والعسل ، وما تطمع فيه النفس من الحلوى
والجواهرات والمأكول والمشرب وحوريات لهن عيون دجاج . فكم هو شاسع الفرق بين هذا النعيم
يعده الله للمسلم وبين الفرديوس الموعود للمسيحيين حيث ينعمون بمشاهدة الله الى الابد . فعلى
ضوء هذه العقيدة الاسلامية وتحت تأثيرها ، يستهين الانسان أوروبا : ابيض كان ، او زنجياً
أو آسيوياً او مسيحياً ، بأحوال الموت ، وبالعذابات التي قد يتعرض لها ، اذا ما كان من القائلين
مثلاً بتناسخ الارواح وتقمصها ، امام ما ينتظره من سعادة واقعية ، محسوسة ، ملموسة . وهذه
السعادة الابدية ، يمكن للمؤمن ان يؤمنها دفعة واحدة ، اذا ما استشهد في سبيل الله ولبي نداء
الجهاد المقدس . ففي سبيل هذه السعادة التي لا نهاية لها تطيب كل تضحية ويعذب كل بذل .

أعد الاسلام لهذه النفوس ذات الشعور الرقيق والحس الناعم الاعتكاف
التصوف الاسلامي الى العبادة ، والإعراض عن بهرج هذه الدنيا وزينتها ، والانفراد عن الخلق
والتعبد له في نجوى ومسارعة بعيداً عن الناس للانقطاع للتصوف . فالله ، هذا الكائن الحي المحب
يسره ان يهيم الناس بحبه وان يتفانوا في الشوق اليه . ولذا راحت هذه النفوس الثملى بالحب
الإلهي تحاول الاتصال بالله ، وهي بعد في هذه الحياة . الا انها لن تلبث ان تقوم في وجهها
المصاعب . فالله لا يمكن ادراكه عن طريق الحواس لانه غير محدود بزمان او مكان . كذلك لا
يمكن ادراكه بطريق العقل لان العقل عاجز عن ذلك . وانما يُدرك بطريق القلب والروح .
ولذا حاول المتصوفة ان يتخلصوا من ذواتهم ، من « الانا » ، ليندوبوا في الوجود الالهي . وقد
اشتط بعضهم السعي فوقعوا في وحدة الوجود مع الله . كما ان بعضهم ذاب في محبة الله .
فاصبحوا أولياء ، شيئاً من الفيض الالهي ، لهم قدرة روحية « بركة » خاصة . وقامت

للسوفية تكتيقات خاصة ، ارتدى المتقطعون اليها مسوحاً من الصوف ، ومن هذا الزري جاءت الكلمة « صوفي » ، ونظموا انفسهم طرقاتاً ومذاهب خاصة ، لكل منها زعيمها او شيخها ، له على اصحابها سلطة انتقلت اليه بالزكاة من مؤسس الطريقة ، وهي قوة كان شيوخ الطريقة يتوارثونها خلفاً عن سلف . وقد اشتهر بعض هؤلاء المتصوفة بمسلكهم في هذا المجال مما يذكرنا بالنهج الذي سار عليه كل من القديسة تريزيا دافيللا ويوحنا ديه لاكروا ، مما جعل البعض على التساؤل ما اذا كان التصوف الاسباني في القرن السادس عشر ، لم يتأثر بالطرق الصوفية الاسلامية ، وعهد المسلمين بالاندلس ، قريب لم يندرس ذكره ولم تنسخ أعرافه وعوائده . وقد أجاب البعض بالنفي على هذا السؤال ، وذلك لان الاعتقاد بالله القيتوم قد ولد ، في اماكن مختلفة ، متباعدة ، حالات متشابهة . وعلى كل ، فالمشكلة المطروحة على بساط البحث هي ان مسيحياً من أبناء القرن السادس عشر او السابع عشر ، لم يكن من المستهجن لديه قط ان يرى في الاسلام ، كثيراً من تعاليم المسيحية وعقائدها الاساسية ، انما على نقاء اكثر ، واسهل تناولاً . كما يستطيع ان يجد شخص آخر ، في الاسلام من الوسائل ما يمكنه بلوغ الذروة من حياة كلها سمو وتعال .

انتشار الاسلام والتجار المسلمون ساعد التجار المسلمون على نشر الاسلام في كل رجع الشرق . فعندما بلغ البرتغاليون المحيط الهندي ، وجدوا امامهم التجار المسلمين من عرب و ايرانيين يسيطرون على الحركة التجارية في هذه الاصقاع المزامية بين مضيق الموزنبيق ومضيق مالقا . فقد وجدوا في اهم المرافئ الواقعة على سيف المحيط الهندي جوالي ومستعمرات اسلامية نالت مجتمعاتها من سلطات البلاد ، امتيازاً بحكم انفسهم بانفسهم ، تحت إدارة زعيم او رئيس ينتخبونه ، يقضي فيما بينهم ، وفقاً للشرع الاسلامي . وكثيراً ما تغفل هؤلاء التجار بعيداً في قلب البلاد وأسوا لهم مراكز او وكالات خاصة لاعمالهم . فقد قامت في بلدة فيجينا غار ، الواقعة الى الجنوب من الهند ، جالية اسلامية محترمة . وكثيراً ما حدث ان تزوج ممثلو او وكلاء شركات تجارية اسلامية اقاموا في الهند باستمرار ، من احدى نساء البلاد بعد ان يلقنوها اصول الديانة الاسلامية . وقد دخل الهند من نحو خمسمائة او ستمائة سنة ، عدد غفير من المسلمين جاؤوها من الشمال الغربي ، استقر كثيرون منهم فيها بصورة نهائية ، وقد استمرت هذه الهجرة على نشاطها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد اضطر البرتغاليون للاخذ بواقع الحال ومراعاته وأقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين ، دون ان يحاولوا مسهم باذى او ان يحربوا إخراجهم من البلاد . وعلى العكس ، فقد استمر هؤلاء التجار في اعمالهم ، في كل ارجاء المحيط الهندي ، بعد ان رخص لهم البرتغاليون بذلك ، فحافظوا على الانشاءات والمؤسسات التي كانوا اقاموها من قبل ، كما اسوا لهم مراكز جديدة في الممتلكات البرتغالية . وقد مثل سكان الملايو الذين عرفوا بمقدرتهم على الاعمال التجارية ، دوراً هاماً في كل ارجاء الهند الصينية . فقد استطاعوا ان يسيطروا تقريباً على كل الانشاءات الرسمية ولا سيما

ما تعلق منها ببلاط مملكة سيام ، كما سيطروا على الاحتكارات الرسمية ، وعُهد اليهم بتنظيم استقبال السفراء الاجانب . فعادت عليهم هذه الاعمال المتنوعة بأرباح طائلة ، كما عادت عليهم بنفوذ كبير . واستمر مسلمو الانسولاند بالتجار مع الصين حتى بعد وصول الاوروبيين اليها .

دعاة الاسلام كثيراً مارافق قوافل التجار ، دعاة عملوا على نشر الاسلام ، من قبل طوائف اسلامية او من قبل بعض المساجد الكبرى في السلطنة العثمانية ، باذن خاص من سلطات البلاد وبأذنتها احياناً . فاذا ما حالهم التوفيق ، عمدوا الى إنشاء جامع ليبدأ نشاطه متواضعاً ثم لن يلبث ان ينمو ويتطور بحيث يصبح ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، دائرة قطب وسط مجموعة من الابنية فيها كل ما يؤمن الإشعاع للجماعة : بيت للصلاة حيث تجري مناسك العبادة والصلاة إشباعاً لحاجة النفس الطبيعية ، وملجأ لتخفيف الآلام عن النفوس المعذبة ، ومدرسة تلقن الناس تعليم القرآن وتمهد للنفس الطريق المؤدية الى الله كما تلقنهم تعليم سُنَّة الله ورسوله ، فتطلعهم على أحاديث الرسول واعماله واقواله وما وضع المفسرون لها من تفسير وتعليق من شأنها ان تساعد على ضبط الاخلاق والآداب . ولم تلبث ان ظهرت الاوقاف التي جاءت تردف الصدقات والذكاة ، مساعدة للطلاب على طلب العلم ودرس العلوم العقلية والنقلية ، كالصرف والنحو والمنطق وعلم ماوراء الطبيعة ، واللغة والخطابة والهندسة وعلم الهيئة حتى اذا ما تم لطلاب العلم ، القدر الكافي من التحصيل ، أصبحوا بدورهم من علماء الملة ، يقومون للعلم في المعاهد الشرعية الكبرى ، او عملوا في خدمة الدولة أو خدمة الدين بوصفهم من العلماء .

كثيراً ما تميز هؤلاء الدعاة بصفات عالية . فبعد ان قارن الاسقف سلارار اسقف مانيدا الدومنيكي بين الاساليب التي اعتمدها هؤلاء الدعاة في نشر الاسلام والاساليب الإخرى التي عول عليها المرسلون البرتغاليون والاسبان ، كتب ، عام ١٥٩٠ ما يلي : « ان يقوم المبشر او الكارز بالدين بالدعوة للإنجيل وسحمة البنادق الى جنبه ، ليس قط بالطريقة التي يرضى عنها الله في نشر الايمان والدعوة الى السلام . من سوء حظنا جداً ومن دواصي خجلنا ان تكون تعاليم النبي العربي محمد قد توغلت في هذه الجزر وان يُقبل السكان على اعتناقها ، لما تبينوا في دعاة الدين الجديد من دعوة صادقة للسلام ، ومن رحمة للعباد وتحنان ، نرجو ان يتم شيء منها للدعاة بالإنجيل ... فقد حمل دعاة الاسلام تعاليم الاسلام وهم أشبه ما يكونون عراة ، حفاة ، لا يعولون قط على نفوذ البشر » .

الممالك الاسلامية

السلطنة العثمانية

عمل في خدمة الاسلام والدعوة له ونشر تعاليمه ، الممالك الاسلامية الكبرى التي قامت اذ ذاك . فالقوة التي تمت لها ، والنفوذ الواسع الذي نعمت به ، وحاجتها الملحة الى أخصائيين

وتقنين ، والامكانات الطائلة للعمل في ممتلكاتها الواسعة ، كل ذلك جعل منها مراكز استقطاب وقطب جذب ، في الوقت الذي مهدت الفتوحات العريضة التي تمت لها السبيل لانتشار الاسلام فوق اقطار واصقاع جديدة لم يعرفها من قبل . ولعل اقوى هذه الدول قاطبة ، وابعدها اسماً وشهرة وصيتاً بلغ مشارف الصين ، وواقعها طراً في قلوب الاوروبيين ، هي السلطنة العثمانية .

فقد احتفظت السلطنة العثمانية من الصفات التي احاطت بنشأتها الاولى بصفة جيش نصب سرادقه فوق بلاد فتحها بحد السيف . وهذه الميزة او الصفة شاركت بها ، الى حد بعيد ، امبراطورية المغول في الهند ، كما شاركت بها كذلك ، على قدر واسع ، امبراطورية المغل او المغول في منشوريا . يعود الاتراك العثمانيون ، باصلهم الى هذه القبائل الرحل التي كانت تدق ، من حين الى آخر ، مداخل آسيا وتقرع بشدة ابوابها . فاذا ما اردنا تصوير الامور تصويراً قريباً أمكننا ان نميز نوعين من آسيا : آسيا الخصبة ، الخيرة التي تتمثل في هذه الوديان الظليلة وهذه الدلتات الخصبة ، وهذه السهول الساحلية الفيحاء التي تقع في الصين والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر ، حيث نجد اقواماً نعمت لديهم جوانب الحياة ، واهاجهم الحر الشديد على رطوبة ، وانهمكتهم الحميات التي تألفت عليهم ، واخلوا باسترسالهم للراحة وهطول الامطار الموسمية وتحنث أغنياؤها لما رفلوا به من صنوف البذخ والقصف والتسري . اما آسيا الاخرى ، فهي آسيا الموحشة التي تتمثل في هذه الصحارى المترامية ، وهذه الجبال الشاهقة وما بينها من مقاطعات وارحاء : كمنغوليا والتركستان والجزيرة العربية وافغانستان ، وكردستان والقوقاس حيث تمور قبائل وأقوام على البداوة تظعن ابدأ في طلب الكلاً والماء . برّح بها الجوع والعطش ، وأثار شهوتها ما هم عليه سكان السهول من خصب ومحبوحة وما هي عليه الوديان من غنى وظلال وارفة ، فيفدون عليها مع مواشيهم او يأتونها قوافل للإتجار والمقايضة ، فيقتبسون شيئاً مما يقومون عليه فيها من الافكار الدينية والسياسية ، ويتبينون مكانم الضعف لدى سكان المنخفضات ، ويتألبون حول زعيم من زعمائهم العديدين يرون فيه القدرة على التنظيم وفرض هيئته ، فلا يعمتون ان ينقضوا على هؤلاء الخضر ، يفرضون عليهم سيطرتهم ويستثمرونهم شر استثمار . ويتمكن هؤلاء الزعماء من المحافظة ، بضعة اجيال على ما تم لهم من شأن وسلطان ، ويأخذون عن مواليهم ما لديهم من اخلاق وعادات ، يحرصون على الدفاع عنهم ويردون عنهم ما يستهدفون له من غزوات تقوم بها قبائل وأقوام تطمع بهم ، كما يحاولون توسيع نفوذهم ونشره بحيث يخضعون لهم مقاطعات حضرية اخرى . ولن يلبثوا ان يجدوا سعيّاً وراء مفاتن الحياة ولذائدها ، فيدب فيهم الضعف وتهين شوكتهم وتسترخي عضلاتهم بعد ان ينغمسوا في ملذات الاكل والشرب والقصف والتسري ، والغفلة ، فتتميل ، شمس دولتهم نحو الغروب لتنهار فجأة تحت ردة وطنية او تحت غزوة اجنبية .

الدولة معتمدة الجيش اقتست ذراري القبائل الرحل التي قامت بالفتح ، الكثير من حضارة الشعوب التي غلبوها على امرها ، اذ كانت اسمى بكثير مما تم لهم منها ، فصح بهذا القول ، بانهم هم ايضا غلبوا بدورهم على امرهم ، الا انهم لم يذوبوا مع الاهلين الذين جرى اخضاعهم ، بل ألقوا طبقة ممتازة هي طبقة العسكريين التي سيطرت على البلاد واستغلت أبشع استغلال الرعايا المغلوبين . ولم يشذ العثمانيون عن القاعدة . فقد ألقوا مادة الجيش وكانوا عماده ومادته ، فاذا بالجيش هو الدولة ، واذا بالسلطان زعيم حرب وقتال يجري انتخابه من قبل الجيش من بين اعضاء الاسرة الحاكمة ، بالنظر لما لها من نفوذ ومنزلة رفيعة في قلوب السكان ، لانحدار هذه الاسرة من السلطان عثمان جد العائلة ومؤسس الدولة الاول . وللسلطان سلطة مطلقة هي أكبر سلطة تمت لحاكم منذ التاريخ القديم . فهو « أمير المؤمنين » ، هذا اللقب الذي حله منذ ان فتح السلطان سليم الاول ، مصر ، عام ١٥١٧ ، بعد ان حل آخر خليفة عباسي ، هو الخليفة الثامن عشر من الخلفاء العباسيين في مصر ، على التنازل له عن هذا اللقب وبذلك أصبح السلطان خليفة الرسول العربي بعد ان انتقلت الخلافة من العرب الى الاتراك ، فولي أمر المسلمين ، وأصبح « خادم الحرمين » فجمع في قبضته : السلطة الزمنية باعتباره قائد الجيش الاعلى ، والسلطة الروحية ، باعتباره خليفة الرسول ، وبذلك شكلت السلطنة العثمانية دولة ثيوقراطية . فقد حل بوصفه القائد المظفر ، ألقاب وسلطات الملوك الذين اخضعهم لسلطانه ، فهو البادشاه او باديشاه او الامبراطور ، منذ ان تم له فتح القسطنطينية (١٤٥٣) ، وهو أمير البرين والبحرين ، وهو قيصر الروم وخليفة اوغسطس قيصر وقسطنطين ، وهو الفاسيلفس في نظر رعاياه من اليونان وريث الامبراطورية البيزنطية . وعلى هذا الاساس راح ينظم بلاطه وحكومته . فالقانون لا يطاله لانه فوق القانون . له وحده الحق ملء الحق بفتوى من كبار العلماء ، ان يصفتي بالصورة التي يراها ، اخوته واولاد اخوته ليؤمن للدولة الهدوء والسلام والاستقرار . ومع ذلك ، وبالرغم مما يتمتع به من حقوق وسلطات واسعة فهو يبقى جديراً بحمل هذا اللقب طالما يوجه جيوشه المظفرة ، من نصر الى نصر ، ويسهل لهم الغزو واسبابه وما يوفره الغزو من سلب ونهب واستباحة ، ويقضي بضريبة سيف ، على من يجرؤ برفع صوته محتجاً او مطالباً ، طالما له هالة القائد المظفر وطالما تهبه النفوس ، ويتفادى الناس ضربته القاضية التي لا طب لها ولا منها شفاء .

فهو يتولى قيادة جيش يتألف أساساً من كتائب يشكل الامراء الذين له عليهم حق التسمية والولاء ، ومن فرق حديثة معظمها من المرتزقة ، فيعمل اصحاب الاقطاعات على توفير ما يلزم له من خيل لفرق الخيالة ومن مشاة . وتتألف فرقة الخيالة من اصحاب التبادات ورؤساء المقاطعات . فعلى صاحب التيار ان يقدم فارساً مع خادمين او ثلاثة خدام ، بينما يترقب على الزعيم ان يقدم حوالي ٢٥ فارساً .

المنزلة الاولى في الجيش لفرقة الإنكشارية ، التي بلغ عدد افرادها ، في عهد السلطان سليمان

القانوني ١٢٠٠٠ من المشاة ، كما ختمت بعض الكتابب من فرسان الحياالة

كانت البلاد تخضع لسلطات مملكة على شاكلة نظام الجيش نفسه ، يماون السلطان كبير الوزراء او الصدر الاعظم يساعده اربعة وزراء ووزير للشؤون الخارجية يُعرف برئيس افندي . وكان يحف به عدد الآغاوات او ضباط بعض الفرق ، امثال آغا الانكشارية ، وآغا المشاة . ويرأس قيادة الاسطول الحربي موظف كبير يلعب قبطان باشا تمتد سلطته فوق الجزر ويشرف على علاقات الدولة مع المسيحيين . ويأتي في الدرجة الثانية بعد هؤلاء ، عدد من كبار الموظفين ، بينهم : النسخجي او امين سر الدولة ، والدفتردار او وزير المالية ، وقاضي عسكر او قاضي الجيش . اما شيخ الاسلام ، فكان رئيس فرقة العلماء والفقهاء ورجال الدين ، ومن بين رجال هذه الطنفة ، كان السلطان يختار القضاة والفقهاء وقاضي العسكر ، وغيرهم من رجال الدين الذين كانوا يقومون بوظائف رسمية في الدولة العثمانية .

اما علاقات الدولة او الادارة بالولايات والسنجاق ، فكان يؤمنها موظفون كبار يحملون لقب بيلر بك ، يتولون مهام الادارة العليا في الافاضول والرومي ، ويلبهم مرتبة ، الباشوات الذين امتدت سلطتهم الى عدة سناجق : ويقوم على ادارة السنجق « بك » الذي كان يشرف على اعمال وتصرفات اصحاب التيارات والزعماء . وكثيراً ما كان البكوات يلتزمون اعمال الادارة ، شرط ان يتعهدوا بضبط المعدل واقامة حدوده بين الناس ، والمحافظة على الامن ، وتأمين جباية الضرائب والرسوم وحملها الى خزينة السلطان وتقديم ما يترتب عليهم من الرجال للعمل في الجيش . وكان اصحاب التيارات والزعماء يتوارثون أبا عن جد ، إقطاعاتهم فينقلوها الى الذكور من ولدهم ، وكانوا يخضعون لنظام دقيق من الترقية والترفيه ، بحيث يرقى احدهم من تيار الى زعيم ، الى حاكم سنجق .

ونمت العسكرية ومن في خدمتهم من العلماء والكتاب ، كان يأتي رعايا الدولة معظمهم من الفلاحين والمزارعين وسكان المدن والريف ، بين مسلمين ومسيحيين يستغلونهم أبشع استغلال .

كان السلطان ، ولا شك في ذلك ، اغنى ملوك اوروبا قاطبة ، يتناول من رعاياه المسلمين العشر ومن المسيحيين ممن يخضعون لسلطته ، رسم الخراج . وهنالك رسوم تفرض على الاملاك والمقارات ، سواء اكان اصحابها مسلمين او نصارى . كذلك كانت تصل الى خزينة الدولة ، واردات المكوس ، ورسوم الجزاوات ، والمصادرات وحصائل الفدية المفروضة على المغلوبين ، وأسلاب الحرب ، وغير ذلك . وكان القسم الاكبر من هذه الواردات يلزم للمتهددين الذين يقومون على مسؤوليتهم باعمال الجباية وضبط الرسوم . فلا عجب ان تبلغ واردات السلطان من الاموال ، ضعف ما كان يدخل خزانة الامبراطور شارل الخامس .

كان الاتراك العثمانيون ، قليلي العدد ، نسيباً ، كما انهم
باصحاب التقنيات من الادوريين القوة التركية ومن
. انحدروا من حضارة قليلة الشأن والشار . ومع ذلك ، فقد
استطاعوا ان يصنوا امبراطوريتهم طويلاً وأن ينموا ،

بعد أن عرف السلاطين ان يدخلوا في خدمتهم ، افضل الموظفين ، ويستفيدوا ، على احسن
وجه ، مما تم لهم من تقنيات ومهارات فنية . فقد جيء بجانب كبير من افراد الجيش التركي
ورؤسائه وصناعه من بين المفلولين على امرهم من المسيحيين والارقاء وأسرى الحروب ، راحوا
فريسة الغزو ، او من بين الذين جعدوا ايمانهم . ولعل خير كبار رجال الادارة ، وخير ضباط
الجيش كانوا من بين رجال هذه الطبقات التي أشرنا اليها . فقد تولى ادارة الدولة واشرف على
تطورها ونموها ، وقام بأمر الدفاع عنها فريق طلع من بين الارقاء ، او من بين الذين جعدوا
دينهم من المسيحيين .

وفرقة الانكشارية نفسها التي كانت خير فرق الجيش التركي ، تألف معظم افرادها من
احداث مسيحيين وقموا في الاسر . وكان الاتراك يتقاضون كل خمس سنوات ضريبة الدم ، اذ
كانوا يتوغلون بعيداً ، في غزواتهم ، داخل بلاد النصارى ، فيأخذون ٢٠ ٪ من احدتهم
ينتقونهم من احسنهم ملاحه وأقوام بنية وقوة واعفام صحة ، ويخضعونهم لتربية اسلامية
ويخرجونهم بتعاليم القرآن ، ثم يدخلونهم في الجيش ويعملون منهم جنوداً محترفين يحظر عليهم
الزواج ، وتعاطي التجارة او اية مهنة أخرى ، فتألفت منهم فرقة ذات قيمة حربية عالية ،
أخلص الكثيرون منهم الخدمة للاسلام وللسلطنة ، وتميزوا بمصيبتهم المغالية للاسلام . احتفظ
بعضهم ، وهم قلة ، في سرائرهم ، بذكريات من العقائد الدينية التي شجوا عليها في حداثتهم
الاولى ، كما غرق بعضهم في بحر من التشكك . الا انهم استمسكوا كلهم بروح النظام ، وتمسقوا
الخدمة العسكرية واخلصوا لها ، وكانوا يتباهون بانتسابهم الى فرقة مختارة ، كثيراً ما رفعت الى
العرش او دحرجت الى الحضيض ، السلاطين ، على قدر ما اخلصت لهم او تنكبرت لهم .

كذلك ، هنالك عدد كبير من الذين قولوا مراكز الصدارة والوزارة والقيادة كانوا غرباء
الاصل ، بين أرقاء وأسرى وجاحدين لدينهم المسيحي . فمن بين ٤٨ صدرأ أعظم ، ١٢ لاغير .
ولسوا من أب مسلم . ومجلس الوزراء ، لم يكن في الغالب الا من الارقاء . ثم ، السلطان نفسه .
من هو ؟ فقد اعتاد سكان القسطنطينية ان يلقبوه بـ « ابن العبد » . والسلطانة الوالدة ، ام
السلطان ، كثيراً ما كانت : روسية او تركية ، او يونانية او ايطالية . فالسلطان سليم الثاني
(١٥٦٦ - ١٥٧٤) كان بأمه ، نصف روسي ، والسلطان محمود الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣)
كان ، بأمه ، نصف ايطالي ، وعثمان الثاني (١٦١٣ - ١٦٢١) ومراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)
وابراهيم الاول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) ، ومصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣) كانوا ، بآبائهم ،
نصف يونان .

برهن الاتراك العثمانيون عن مقدرة وكفاية بالغتين ، في اقتباسهم للاختراعات والاكتشافات

الحربية التي حققها الأوروبيون ، مما آمن لهم التفوق العسكري والحربي . فقد كانوا أول من استعمل ، على نطاق واسع ، الأسلحة النارية والمدفعية . وقد حافظوا بدقة على أساليب التهيئة الحربية عندهم . فالمينة ، تألفت على الأجمال ، من فرسان الحيلة ، يؤتى بأفرادها من الأناضول وبلاد الكرمان ، بينما تألفت وحدات الميسرة من عناصر أوروبية . وقام في القلب فرقة الانكشارية ، سلاحها المفضل البندقية يحميها سور من المركبات والجمال ، ثم المدفعية القائمة من كلا الجانبين . وكانت النار تطلق بغزارة من المدفعية ورماة البنادق ، فتحصده صفوف العدو حصداً قبل ان تنقض عليه فرقة الانكشارية لتمزقه شراً ممزقاً . وعندما استولى السلطان سليمان عام ١٥٢٣ ، على جزيرة رودس ، اخذ الاتراك بتنظيم حملات بحرية واسعة وأنشأوا لهم عمارات واساطيل قوية جابت أرجاء حوض البحر المتوسط ، وجعلت المواصلات فيه بمخطر دائم وتمكنت من قطعها أحياناً بين الجزر العديدة . وما خسروا معركة ليبانت البحرية ، عام ١٥٧١ ، الا لتفوق سلاح المسيحيين على سلاحهم . ولذا راحوا يعملون بنصيحة أولغ علي ، حاكم مدينة الجزائر ، وهو من اصل مسيحي ومن مواليد نابولي ، جحد إيمانه ، فجهزوا سفنهم برماة مسلحين بالبنادق والمدفعية ، وبذلك أفسدوا على المسيحيين استثمار فوزهم العسكري السابق .

وهذه التجهيزات الحربية الفنية ، عهد الاتراك بها الى فنيين من المسيحيين . فالتركي عسكري يدمه ، ولم يكن عنده اي إلمام بالتقنيات ، اذ كان الاسلام يحول دون اعدادهم رجالاً فنيين . ألم يكن القرآن مصدر كل العلوم النافعة . اما العلم الأوروبي ، فقد تبين فيه المسلم عمل الشيطان وصنيعه . فالاسلام لم يكن ليكثرث بالعالم الخارجي . فخير الاعمال لدى المسلم هو الانقطاع لدرس القرآن والاسترسال في تفهمه : اما مهمته الثانية فهي تحقيق ما كان يحلم به المسلم ، الجهاد المقدس ، وهي مهمة لم تكن لتنتهي قط . ولذا كان على السلطان ان يستقدم من أوروبا التي تميزت بتفوقها الفني والتقني ، ما كان بحاجة اليه من المدافع والمعادن والبارود . وكان يسعى جهده ليجد خارج السلطنة العثمانية الاخصائيين الذين كان بحاجة اليهم : كعمال النسيج وبنائي السفن ، والبحارة ، والعمال في صب المدافع ، وفي اعمال الحديد وشغله على انواعها ، والعمال في صناعة الأسلحة ، وراسمي الخرائط . وكان اول ما يهتم الاتراك فعله بعد فوزهم في المعركة وضع ايديهم على الفنيين بين الاسرى . وعندما احتل السلطان سليم مدينة تبريز ، عام ١٥١٤ ، عاصمة الفرس آنذاك ، قبل ان يفتح القاهرة ، عام ١٥١٧ ، امر بنقل مهرة الصناع الى القسطنطينية . وجمع ذلك فاوروبا وحدها تستطيع ان تقدم للسلطان اكبر عدد ممن يحتاج اليهم من مهرة العمال . واستدناء لهم كان بغريهم بمرتبات ضخمة ، وبذلك أغرى الكثيرين على جحد دينهم المسيحي واعتناق الاسلام . وقد نشطت حركة التهريب على شواطئ البحر الابيض المتوسط ، في الشمال والجنوب . فحملت هذه الحركة الألوف من الأوروبيين الى نكران دينهم واعتناق الاسلام . ولما كانت هذه الحركة لم تكن لتفي بحاجة

السلطان ومطلبه ، فقد عمد الى الغزو وتجنيد الحملات العسكرية . وما تكاد المعركة تنتهي حتى كان يصدر اوامره بنقل المدافع التي وقعت في ايديهم في جملة ما وقع من مساويات الحرب ، الى القسطنطينية . كما كان يجري انتخباً دقيقاً بين الاسرى ليختار من كان فنياً منهم وينتفع بمهارته . كانت اعمال القراصنة توفر له العدد الكافي من الاسرى . فالحرب وحدها هي التي تساعد على مد السفن بمحاجتها من المخذفين ، ومن الاسلحة الحديثة ، ولذا كانت الحرب الناجمة او المظفرة من ضرورات هذا الجيش الذي كانت السلطنة العثمانية عماده الاكبر .

الخطر التركي ألفت السلطنة العثمانية خطراً مستمراً على أوروبا وشوكة حادة تنحس على أوروبا وملكو اسبانيا في جنباتها ، وقد بلغ هذا الخطر أشده في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . وعندما تم له الاستيلاء على جزيرة رودس عام ١٥٢٣ ، هذه الجزيرة التي كانت تمثل نقطة الدائرة في اعمال القرصنة التي كان يقوم بها القراصنة المسيحيون في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، اذ كانت سفنهم تقف سداً منيعاً يحول دون الاتصال بالمرافئ والاسلحة الواقعة على سواحل سوريا او في مصر او قطنائاً على سواحل افريقيا الشمالية حتى اسبانيا ، اذ كانت هذه الاعمال تقطع اتصالاتها مع صقلية ومقاطعات بُولْي وناپولي المشهورة بانتاجها ، فتهدد اسبانيا بالجماعة ، كما كان من شأنها ان تشوش عليها امر تنفيق وارداتها من العالم الجديد ، كما كانت تقطع عليها الاموال والعوائد المحببة من المقاطعات الايطالية كما كان من شأنها ان تهدد املاكها السيادية في ايطاليا ، هذه الاموال التي كانت اساس المعاملات المصرفية مع متمولي المانيا وجنوى ، والتي كانت تمد شارل الخامس وابنه فيليب ، بجانب كبير من الاموال اللازمة للبهوض بالحروب التي خاضها . ثم ان اسبانيا كانت تحسب حساب قيام ثورة مسلحة في اراضيها نفسها كما كانت تخشى ان يقوم الاتراك انفسهم بعملية ازال جيوشهم في بلادها اذ كان لا يزال فيها عدد كبير من فراري المسلمين بعد سقوط مملكة غرناطة في ايدي الاسبان ، واعداد غفيرة منهم في مقاطعة قشتالة اقام في مملكة بلنسية عدد كبير من العرب من ذراري الفتح يؤلفون جانباً كبيراً من البروليتارية يعملون تحت اشراف رؤساء مسيحيين . اما في اراغون ، فقد كان عدد العرب كبيراً ايضاً تتألف من بينهم جماعة الصناع ويؤلفون مجتمعات تعمل في الزراعة وتربية الماشية . وكان يوجد بعض جماعات منهم في مقاطعات استوريا وبسكاي ونافار يعملون في الصناعة او في التجارة متنقلين . وألف العرب المسلمون في مملكة غرناطة مجتمعاً حسن التنظيم كان معظمهم من البورجوازيين اغنياء ، ينتشرون في هذه الربوع التي تمتد من مدينة الدبسي الى غرناطة او كانوا يقومون باعمال البستنة ، واستمروا يباشرون بحرية تامة واجباتهم الدينية . وزولوا عند رغبات المسيحيين ، قام الملوك الكاثوليك ، عام ١٤٩٩ ، بمحاولات كبيرة واسعة لتمثيل هذه العناصر وامتصاصها . وصدرت الاوامر الى عرب غرناطة بوجوب اعتناق المسيحية او النزوح عن البلاد ، خلافاً لمنطوق الاتفاق الذي وقع بين الطرفين ، عام ١٤٩٢ ، هذا الاتفاق الذي ضمن لهم الحرية الدينية وحرية ممارسة طقوس الاسلام . وجرى

تطبيق هذا القانون في جميع أنحاء قشتالة . كذلك طلب تطبيقه بالعنف والقوة نصارى مقاطعات اراغون وكاتالونيا وبلسية اثر هذه الحركات الانتفاضية التي قام بها الملون ، سنة ١٥٢٠ - ١٥٢١ واستمر العرب في ممارسة شعائهم الدينية سرأ في منازلهم بعد ان احتاطوا لامرهم ، كما انهم اتخذوا لهم علامات مميزة كاللباس الشرقي واستعمال الحمامات الشرقية والاحتفاظ باللغة العربية . وقد زاد شعور العداء نحوهم بعدما أطل على البلاد الخطر التركي . وقد غذت متاعب الحياة ومصاعبها الحسد في نفوس الاسبان بعد الذي رأوه من قساعة القوم وحذقهم ومهارتهم في الصنائع والفنون التي كانوا يتعاطونها ، والاعمال التجارية التي كانوا ينصرفون اليها بنجاح . وراح الاسبان ، ومعظمهم موظفون في خدمة الدولة او كهنة في خدمة الكنيسة يتفنون بأعمال العنف والتشفي ، ملهم على الثورة بفطرتهم واعمالهم المثيرة ، ويبتزون اموالهم ومقتنياتهم ، ويسلبونهم نساءهم وبناتهم . وقد عرف عرب الاندلس كيف يحافظون على علاقاتهم الوطيدة مع البلدان والممالك الاسلامية الاخرى وان ينموها ويزيدوها نشاطاً على نشاط . وكانت سفن المسلمين تجوب البحر ذهاباً واياباً بين المرافئ الاسبانية ، والموانئ الاسلامية الواقعة الى الشمال من افريقيا . وراح المسيحيون يهتمونهم يجمع الاسلحة بقصد الثورة واعلان العصيان . فتذعرت الحكومة الاسبانية بهذه الاسباب للقضاء على هذه الفردية ، فاصدرت عام ١٥٦٦ ، امراً يحظر على المسلمين ارتداء اللباس الشرقي ، وإيصاد ابواب منازلهم ليلا واستعمال الحمامات العامة والاقطاع عن استعمال العربية لغة للتخاطب فيما بينهم . فثارت غرناطة ، عام ١٥٦٥ ، وبعد ان اخذت الحكومة الثورة ، عمدت الى تهجير العرب القاطنين في سهول غرناطة الذين كانوا ينفذون ، بمساعدتهم المالية والعينية ، بعض مراكز المقاومة . اما في قشتالة والاندلس والمناطق الريفية الاخرى المحيطة بمديني اشبيلية وطليلة ، فقد استمر العرب في اعمالهم ومصالحهم التجارية والصناعية ، يعيشون على هامش الحياة في اسبانيا ، مهم الاثراء واكتناز الثروات ، رافضين بعناد كلي الذوبان في صفوف الاسبان . وفي سنة ١٦٠٩ ، قررت الحكومة الاسبانية ، التخلص منهم بإعدامهم نهائياً واجلائهم عن البلاد .

تابع الاتراك تقدمهم في ارجاء البلقان . فاحتل السلطان سليمان القانوني تقدم الاتراك في البلقان بلغراد عام ١٥٢١ ورفع حدود السلطنة ، من نهر الساف الى الدانوب ونهر الدراف ثم تجاوز بها نهر الدانوب ، ولم يلبث ان هاجم المجر . فبعد ان تمكنت كتائب خيالة المجر ، في معركة موهاكس ، من اختراق صفوف عدة فرق تركية ، راحت المدفعية التركية ورماة الانكشارية تحصم حصداً ، وقتل الملك لويس في المعركة عام ١٥٢٥ ، ودخل السلطان مدينة بودا عاصمة المجر ، وبذلك انفتحت الطريق امامه لمهاجمة المانيا والنمسا . وجاء السلطان عام ١٥٢٩ ، ينصب الحصار حول مدينه فيينا ، حتى ان طلائع الخيالة بلغت في اندفاعها مدينة راتسبون ، الا انه اضطر ان يرفع الحصار . وبقيت حملات الاتراك وغزواتهم الدورية كل سنة ، سيفاً مصلتاً فوق رأس النمسا والمسيحية في اوروبا ، الى الحصار الذي تعرضت له

فينا ، عام ١٦٨٣ . وقد يسر اعمال الفتح في البلقان والتوغل الى الشمال ، هذه الانقسامات التي نشبت بين المسيحيين على اختلاف مللهم ومذاهبهم . فقد خضع الشعب في البلقان لنظام سيادي بغيض وسيطرة شديدة الاسر ، يجعل الفلاحين يعمدون كثيراً الى الثورة ضد اسيادهم . ولم يلبث ان حل محل هؤلاء الاسياد ، اصحاب التيارات الذين اخذوا يشددون في جباية الرسوم العينية بدلاً من اعمال السخرة التي أجبر الفلاحون على القيام بها ، من قبل . ولم يلبث هؤلاء الفلاحون ان شعروا بالارتياح الكلي للنظام الجديد الذي أخضعوا له والذي حمل لهم في ثناياه بالرغم من بعض الاعمال التعسفية والابتزازات التي تعرضوا لها ، من وقت الى آخر ، الهدوء والطمأنينة بعد الذي خبروا وعاشوا من الحروب الدائمة بين الامراء المسيحيين ، فاستتب الأمن ، وقطع دابر القرصنة والتعديات ووضع حد لاعمال قطاع الطرق الذين اعتادوا ان يعمثوا فساداً ، فبرهن النظام الجديد عن روح تسامح ديني ، اذ تركهم يتمتعون بمؤسساتهم وعاداتهم . ثم ان عدداً كبيراً من الدويلات التي وقعت فريسة الفتح التركي ، احتفظت بامراتها وحكامها ، بعد ان تمهدت للدولة الفاتحة بتأمين الخراج والاعتراف لها بالولاء والتبعية ، من بينها جزيرة نكسوس ومقاطعة مولداڤيا وفلاخيا وترنسلڤانيا ، وبقي سكان الجبال على استقلالهم بالفعل معتمدين بمعاقلهم الحصينة . بينما سيطر الاتراك سيطرة تامة على السهول وثغور اليلاد ومعايرها الرئيسية لتأمين سلامة شبكة مواصلاتهم . بينما فضّل المغلوبون على امرهم النظام الجديد على حكومة الاسبتارية في رودس ، وادارة عمال البندقية في كريت والموريه ، وعلى سلطة الامراء المحليين في صربيا ورومانيا وهنغاريا . وهكذا برز السلطان سليمان الكبير ، سيد اوربا غير المنازع ، له فيها الكلمة الفصل ، فاعاد توازن القوى بين فرنسوا الاول وشارل الخامس . فلولا وجود الاتراك والدور البالغ الاثر الذي لعبوه ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر لكان عامل آل هابسبورغ تمكن من تحقيق الحلم المعسول الذي كثيراً ما دغدغ منه الخاطر .

عجز الاتراك عن فرض سيطرتهم على المسيحية كما فشلوا في
الاسباب الكامنة وراء فشل
محاولات الاتراك العثمانيين ضد المسيحية
القضاء على ما اعترض سبيلهم وحدت من زخم اندفاعهم من
روح المقاومة . فقد كانت المسافات الشاسعة المعائق الاكبر
والحائل الاول الذي شل حركتهم وقت في عَصْدِهِمْ . ففي عام ١٥٦٦ ، قضى سليمان القانوني
ثمانين يوماً ليبلغ شواطئ الدانوب . وقد كان بحاجة الى قوافل لا تنتهي ، لتأمين تموين جيوشه ،
تعد من ٢٠ - ٤٠ الف جمل او بعير . وهكذا أصبح تأمين عتاد الجيش امراً صعباً للغاية ،
بعد ان ابتعد كثيراً عن قواعده ، ليعمل في بلاد درستها الحرب واقفرتها وكدست فيها
الخراب والدمار . وبذلك فرضت المسافات والابعاد على السلطنة حدودها المعقولة .

ومن جهة اخرى ، لم يساند الاتراك جدياً ، في البحر المتوسط ، الحركات التي قام بها
الفرنسيون والمسلمون في شمالي افريقيا . فافتنموا من حركاتهم باعمال الغزو والسطو الطارىء ،

أخذوا منهم بمعاداتهم المألوفة وتردد الملك الحسن العبادة (لقب ملك فرنسا) . فلو عرف الاتراك عام ١٥٤٣ ، إثر نزولهم في مدينة نيس ، واقامتهم في فرنسا بعد احتلالهم لمدينة طولون ان يشنوا هجوماً مركزاً ضد مسينا وناپولي ، وعرفوا ان يحتلوا هذين المركزين ، لكانوا قطعوا تماماً مواصلات امبراطورية آل هسبورغ ، وقطعوا بالتالي سبل القوافل المحملة قحماً الى اسبانيا ، كما كانوا وقفوا حاجزاً في وجه العبارات الاسبانية التي كانت تنقل الامدادات الحربية والعسكرية الى المدن الايطالية ، ولكانوا سدّوا في وجهها منافذ وصول النقد اليها وبذلك هددوا الامبراطورية بأسوأ مصير وتسببوا بانهارها .

الحرب ضد الفرس اضطر الاتراك مراراً لخوض الحرب على جبهتين ، وان يواجهوا في وقت واحد ، حروباً قامت في جبهات اخرى . ولحسن حظ اوروبا والمسيحية معاً ، فقد ابتلى العالم الاسلامي بالشقاق والانقسام على نفسه . فقد قام السلطان سليم الاول ، بين ١٥١٦ - ١٥١٨ ، بحروبه ضد المماليك في سوريا ومصر ، وقد فتحت له الانتصارات الساحقة التي حققها بفضل المدفعية ، على فرسان المماليك ، ابواب سوريا وفلسطين فدخل دمشق والقاهرة ظافراً ، كما احتل بعد قليل اليمن . كذلك اضطر الاتراك للقيام ، دورياً بمجمعات تأديبية ضد الفرس ، يستهدفون منها تأمين سيطرتهم على أرمينيا والعراق ، ليلغوا عبرها ، المقاطعات الفارسية التي كثيراً ما شروها الى امتلاكها كأذربيجان والكرديستان ومقاطعات بحيرة وان وتبريز . وقد تلبست حروبهم ضد الفرس طابع حروب دينية ، اذ ان الفرس كانوا في غالبيتهم الساحقة ، من الشيعة الامامة ، بينما كان الاتراك على السنة . وكان الفرس يقومون بدعوة ناشطة لنشر مذهبهم . وحاول الشاه اسماعيل ، في مطلع القرن السادس عشر ، نشر التشيع بنشر تعاليم الامامية بين سكان الولايات التركية الواقعة الى الشرق من امبراطوريتهم .

بين الشيعة والسنة عداوة زرقاء وعداء مستحكم ، اضطر معه السلطان ان يتوقف عن متابعة الحرب في اوروبا ليرتد يمحوشه ضد ممالك فارس . وكانت اولى ردة فعل من قبل السلطان سليم على جهود الشاه اسماعيل ومحاولته الدعوة للشيعة في الولايات التركية ، ان قام بمذابح دامية بينهم زهقت فيها ارواح كثيرة أربى عددها على ٤٠٠.٠٠٠ شيعي (١٥١٣) ، كما انه ابلغ الشاه ان علماء الاسلام اصدروا فتوى اعلنوا فيها خروجه على الاسلام واستباحوا دمه بوصفه من الخوارج ، معلناً ضدّه الجهاد المقدس ، وارسل ضده جيشاً مؤلفاً من ١٤٠.٠٠٠ محارب . وتابع سليمان القانوني الذي اتقد غيرة على السُنّة ، هذه السياسة ، وقام ضد الفرس بعدة حملات عسكرية ، سنة ١٥٣٥ و ١٥٤٨ و ١٥٥٤ . وقام خلفاؤه من بعده بعدة تجريدات دارت فيها الحرب سجالاً ، انتهت بماهدة اعادة السلام مؤقتاً بين الطرفين ، ابرمت عام ١٥٩٠ ، نال معها مراد الثالث تبريز وشيروان وبعض المرافىء الواقعة على بحر قزوين ،

وبلاد الكرج واللورستان . وقام السلاطين الاتراك ، بين ١٦٠٢ - ١٦٢٧ ، بسدة حملات عسكرية ضد الشاه عباس الكبير ، كما قام السلطان مراد ، عام ١٦٣٠ ، و ١٦٣٨ بتجريدتين عسكريتين ضد الشاه صافي .

كان من بعض نتائج هذه الحروب المتعاقبة بين الفرس والاتراك ، ان رفعت الخطر التركي عن الغرب . كثيراً ما تغلب الاتراك بمدفيعتهم الثقيلة على فرق المشاة الفرس التي كانت فرقة الخيالة بينها تستعمل الدبوس والنبوت الحديدي والقوس والنشاب ، الا ان الاتراك عجزوا ، هنا ايضاً ، عن تحقيق نتائج نهائية وتسجيل انتصارات حاسمة لسبب بسيط جداً هو بعد المسافات التي كانت على جيوشهم ان تقطعها . وكثيراً ما كان الامراء المحليون الذين قامت اماراتهم في قلب هذه المناطق الجبلية الوعرة المسالك ، يميلون بولايم لهذا الجانب او لذاك ، وفقاً لظروف الحروب . اذ كثيراً ما اضطر الاتراك لحمل التبعذات الى بعض النقاط والمراكز ، في جبهتهم الطويلة في اوروا ، لتعرضها لهجوم مفاجيء . وقد استطاع الفرس ان يجهزوا جيشهم في عهد الشاه عباس الكبير ، بالمدفعية ، مما جعل كفة الحرب تميل اليهم .

كثيراً ما اضطر الاتراك للانثناء من حروبهم في اوروا والانكفاء ليواجهوا الاصطدام مع البرتغاليين
والازمات الاقتصادية منافسة البرتغاليين بعد ان اشتدت مزاحمتهم لهم في الاسواق التجارية ، او ليعالجوا الازمات الاقتصادية التي كانت تشتد حلقاتها حولهم على اثر الجفاف والقمح الذي كان ينزل ببعض ولايات السلطنة العثمانية ، وهي ازمات كثيراً ما تضاعفت ورافقها ازمات اجتماعية واضطرابات سياسية ، على غرار ما كان يصيب اوروا منها . وقد زادت هذه الازمات عنفاً واحتداماً في السلطنة العثمانية وفي اقطار افريقيا الشمالية من جراء سيطرة البرتغاليين على سواحل القارة الافريقية . والظاهر ان البرتغاليين استطاعوا ان يستصفوا لحسابهم ، الذهب الافريقي وغير ذلك من محاصيل القارة السوداء ، مما ادى الى هبوط فاضح في الحركة التجارية مع اقطار المغرب وطرابلس الغرب ومصر نفسها . كما انخفضت حركة التجارة البحرية بين المرافئ الافريقية القائمة على الساحل الشرقي وجزيرة العرب ، كما نتج ، عن ذلك كله ، تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الاسلامي المتوسطي . ولهذا رأى الاتراك انفسهم مسوقين لمحاربة البرتغاليين . فقد اصبح الاتراك ، بعد الفتوحات التي تمت لهم ، على سواحل البحر الاحمر وفي العراق كما اصبحوا بعد احتلالهم للسويس والبرصة ، احدى الدول المطلة على المحيط الهندي . ولذا كثيراً ما استنفرهم مسلمو الهند وجزر السوند وطلبوا تدخلهم لمحايتهم من تعدييات البرتغاليين . فقد وردت على السلطان ، في القسطنطينية ، عام ١٥٣٨ ، بعثة دبلوماسية من يهادور ، امير غوجيرات ، يشكو اليه عدوان البرتغاليين على بلاده واستيلائهم على مدينة ديو . وفي سنة ١٥٤٧ ، ارسل الامير علاء الدين ، احد امراء الهند ، يستنجد بالسلطان . وفي سنة ١٥٦٣ ، وفد على السلطان وفد ملك آسي يطلب منه تزويده بالمدافع ليرد عنه عادة البرتغاليين ، وهكذا توالى وصول الوفود والبعثات من الهند ومن جزر السند ، حاملين

معهم الهدايا السنوية كاللبغان والتوابل والطيب والبسم والعبيد والخصيان ، يستنجدون بالسلطان ويستنفرون غيرته شعوراً منه ومنهم بالتضامن الاسلامي ، ودفاعاً عن «وزة الدين ومحافظة على هيبة السلطنة ، وحماية للحجاج المساكين القادمين من الهند للحج الى بيت الله الحرام الذين كثيراً ما تعرضوا لاعمال القرصان البرتغاليين فيُصادرون منهم المواد الثمينة التي كان يحملها هؤلاء الحجاج ومعهم التوابل والخزفيات الصينية وغير ذلك ، ورغبة باستخلاص ذهب افريقيا من الذهاب الى ايدي البرتغاليين ، وتأميناً للخشب اللازم لبناء السفن ، هذا الخشب الذي كانت افريقيا وحدها تستطيع تقديمه للاتراك ، بعد ان انزلوا اسطولهم الى البحر الاحمر والخليج الفارسي ، كل هذه الاسباب مجتمعة ، حملت الاتراك على التدخل.. ففي سنة ١٥٣٨ احتل الاتراك عدن ، وبذلك سيطروا تماماً على البحر الاحمر الذي اصبح بالفعل بحيرة تركية . وقد قام الاتراك ، بهجمات متتالية ضد مدينة ديو ، مفتاح الهند الشالية الغربية ، وذلك عام ١٥٣٨ ، و ١٥٤٦ ، و ١٥٥٢ ، تمكن البرتغاليون من إحباطها وتفشيها بنجاح ، كذلك اضطر البرتغاليون ان يبذلوا جهوداً مريرة ، حفاظاً منهم على الحبشة المسيحية ، وحاول الاتراك ، مرتين : عام ١٥٥١ و ١٥٥٣ ، ان يسيطروا على الخليج الفارسي ، باحتلالهم لمدينة ارموز فارتدت سفنهم خاسئة بعد ان منيت بالفشل الذريع . ومنذ عام ١٥٧٥ ، حملت الازمة النقدية ، وضم البرتغال الى اسبانيا على يد الملك فيليب الثاني ، الاتراك العثمانيين على تحويل جهودهم الحربية الى البحر المتوسط حيث عهدوا الى اسطولهم بمراقبة حركات الدول المسيحية فيه ، وانصرفوا الى محاربة البرتغاليين في المحيط الهندي لكي يؤمنوا لهم ما يلزمهم من الذهب ، فاستطاع الاسطول التركي ، عام ١٥٨٥ - ١٥٨٦ ، ان يفرض فجأة سيطرته على الثغور والحاميات القائمة على ساحل البحر الاحمر ، كما احتل الاسطول التركي مدينة صوفالا التي كان ينتهي اليها الذهب المستخرج من مناجم مونوموتابا . وقام امير مونباسا بعلن ولاءه للسلطان وتابعيته له . لم يطل أمد هذا الفشل اذ استطاع الاسطول البرتغالي بقيادة توما ده صوزا ان يحطم الاسطول التركي في نهر مونباسا ثم تحولت المنافسة بين الجانبين الى المحيط فاصبح مجالاً لمنافسة حادة بين الطرفين . وهكذا بواسطة هذه الحروب العارضة تحول الخطر التركي عن اوربا المسيحية .

بعد موت السلطان سليمان القانوني بقليل أخذت تبدو على الاتراك اعراض بين تأخر الاتراك والنظام التأخر والقهقرى ، وهي اعراض ازدادت حدة منذ اواخر القرن السادس العائلي في الاسرة المالكة عشر ومطلع القرن السابع عشر . ولعلنا نستطيع ان نرد سبب هذا التأخر الى التنظيم الذي كانت عليه الاسرة المسلمة من وجهة تعدد الزوجات . فقد غام حق الوراثة بين اولاد الاب الواحد من عدة نساء مختلفات . ومن هنا طلعت علينا دسائس زوجات السلطان بغية تأمين الحكم لابنائهن ولابقاء هذا الابن الذي اصبح سلطاناً تحت نفوذ

امه باخضاعه لتربية رخوه . هشة ، متخنة بأشباع جميع شهواته ، حتى اذا ما صار اليه امر السلطنة لن يلبث ان يصبح العوبة بيد نسائه والخصيان والوزراء واخوته الذين لا يقلون عنه حقاً في الخلافة فيسلموا بسهولة بمثل هذا التدبير الجائر الذي حرّمهم حقهم المكتسب . فكثيراً ما حملوا السلاح وقاموا بثورات وحروب اهلية في سبيل تحقيق مطامعهم ، كهذه الحروب التي نهض بها وخرج منها منتصراً السلطان سليم الثاني ، بعد موت ابيه سليمان القانوني الكبير . وكثيراً ما لجأ السلطان الى القتل للتخلص من اخوته وبذلك يتفادى مطالبتهم بحقوقهم في الحكم . فالسلطان مراد الثالث الذي اشتهر بتقواه امر بخنق اخوته الخمسة ، كما ان السلطان محمد الثالث امر بقتل ١٩ من اخوته .

فالسُلطان سليم الثاني « السكير » (١٥٦٦ - ١٥٧٤) قد اعتلى العرش ^{عدم كفاءة السلاطين} بعد ان اقصى عنه اخوته ، مع انهم كانوا اكثر اهلية منه واكثر لباقة ، وذلك بفضل دسائس زوجته الروسية الاصل روكسلان ، وكان يقضي ايامه قابعاً في خبايا سراياه ، بين الحريم ، تاركاً امر تدبير شؤون السلطنة للموظفين الذين وكل اليهم امر الادارة . وقد تولى الحكم بعده ، عدة سلاطين احدث بينهم السلطان احمد الاول (١٦٠٤ - ١٦١٧) وعثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢١) ، ولهما من العمر ١٤ سنة ، ومراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وعمره ١٢ سنة ، ومحمود الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) ، وعمره ٧ سنوات . حكم هؤلاء تحت اوصياء لعبت النساء في عهدهم دوراً رئيسياً .

وقد استسلم السلاطين الاتراك للنساء بعد ان افسدتهن التربية المترفة ، المفهفة التي خضعوا لها منذ نعومة اظفارهم ، تقصّضت ايامهم بين الكأس والطاس والقصف ؛ لا يكون على شيء من امر السلطنة ، ولا يباليون بشيء البتة ، فاصبحوا عاجزين عن اتخاذ اي قرار او النهوض باية مهمة او القطع باي امر . فالسلطان مراد الثالث ، مثلاً راحت امه تشجعه على العبث والتسري نكابة بزوجته ، فالجذب مائة ولد وانتهى امره مصاباً بداء الخُباط . وقد جن ابراهيم الاول بعشق النساء ، فتيمة الفسق وتعتعه السكر ، فلم ير رجال البلاط بداً من التخلص منه خنقاً .

كان هؤلاء السلاطين عاجزين ، فقبعوا في زوايا قصورهم بعبيدين عن رعاياهم وتركوا شؤون الدولة وامورها جانباً ، وانقطعوا عن ترؤس مجلس الوزراء ، وابعدوا عنهم المتظلمين ولم يجلسوا للقضاء . فلم يُخضِعوا الوزراء والحكام لاية مراقبة وقعدوا عن الحرب . ثلاثة من بينهم لا غير قادوا جيوشهم ، اثنان منهم لمسة وجيزة ، هما محمود الثالث في حملته على كارازس ، وعثمان الثاني في حملته على خوتين ، واخيراً مراد الرابع الذي كان بالفعل ، رجل حرب وجهاد . وفقد السلاطين النفوذ والهيبة التي كانت تحف بالسلطان من قبل كفائد مظفر ، ولم تعد فرقة الانكشارية ، لترعى لهم حرمة . ولما ساء ما كان عليه السلطان سليم الثاني من ماضٍ قدر لا يشرف صاحبه ، استصدروا ، عام ١٦٢١ ، من شيخ الاسلام ، فتوى

بخلعه : أمن الجائر شرعاً قتل الذين يحملون السلطان على التزام الناس الأخذ بالتجدد ويعملون في الوقت ذاته على تبديد مال المسلمين ؟ ، ولما جاءت الفتوى بالايحباب راح الجند يقتلون السلطان ويعينون مكانه ، شخصاً بسيطاً مسكيناً هو السلطان مصطفى العاشر الحظ ، وهكذا نرى لأول مرة ، رعايا السلطان يقومون بقتله وما كان جند الانكشارية ليثوروا من قبل الا تلبية لمطلب احد الطامعين بالخلافة من افراد الاسرة الملكية . فان دل هذا القتل والظروف التي تم فيها على شيء ما ، فعلى ما وصل اليه الجنود والعلماء من اهمال واعراض وسد مبالاة لدم عثمان الاول .

تنظيم الاسرة في الدولة : القوضى
جر ضعف السلاطين العثمانيين على الدولة من العواقب الوخيمة
ما لم يحمره سوء سلوك ملك ، في الغرب ، من المحاذير والعواقب على مملكته . فالسلطنة العثمانية لم تؤلف دولة ، بالمعنى الحضري . فلم تقم فيها نظم ولا منظمات رسمية ، ولا مؤسسات اجتماعية ، لها حياتها الخاصة ، ولا قامت فيها جمعيات استوت على نظام . فالدولة كانت عبارة عن اسرة ، او بالاحرى ، احد اعضاء اسرة السلطان عثمان يختاره الجيش ويعينه رئيساً له وحاكماً عاماً . فالاسرة ، في الشرق الاسلامي لا تؤلف كائناً او وجوداً له كيان شخصي ، مستمر ، كما هو معروف عن وضع الاسرة ، في الغرب . فهي لا تحمل اسماً تعرف به وتتميز بحمله . فالافراد يحملون اسمهم الشخصي متبوعاً باسم الوالد او الاب ، فالمؤقت صفتها الملزمة . فهي تقوم مقام الاب اذا وجد . اما اذا مات وتوارى ، تشتت الاسرة بـدداً وتبعثر افرادها . فاذا ما مات السلطان زال معه كل شيء . فاذا ما انكشف ضعف السلطان ، اخذ كل شيء بالتفتت والانهيار . وهكذا اخذت السلطنة العثمانية بالتفسخ تدريجياً .

كثيراً ما تولى الصدارة العظمى اشخاص لا قيمة كبيرة لهم ، اذ جرى تعيينهم بتوجيه من الخصيان او من نساء السلطان ، وراحو فريسة الدسائس ، وبقي واقع الحكم والادارة بيد الخصيان والعبيد والزوجة ، وراحت اموال الدولة نهياً بين من عرفوا من اين تؤكل الكتف فيمعنون عبثاً وغيثاً . فتناقلت الضرائب على الاهلين وأن الناس وتعلموا . وقد كتب احد المؤرخين قائلاً : « فبدلاً من ٤٠ او ٥٠ اسبر » توجب على كل منزل دفعها ، اصبح المنزل يدفع اليوم ٣٠٠ اسبر ، وبدلاً من نصف درهم يجب دفعه عن كل رأس غنم ، صار المرء يدفع ٧ - ٨ اسبر . ولم تكن الضرائب لتفسي بالغرض ، مما اضطر اولو الامر معه الى تخفيض قيمة النقد ، وبيع املاك الدولة وكل ما كان يرتبط بالإدارة العامة . واخذت الحكومة تبسح المناصب لمن يدفع احسن الاسعار ، وبيعت مراتب الانكشارية ، وبطلت عادة انتقاظهم من بين المسيحيين . كذلك ابطلوا الاخذ بضريبة الاعناق وكثيراً ما رأينا اصحاب المهن والصنائع ، واصحاب الدكاكين يشترتون وظائف الانكشارية . وارتفع عدد افراد فرقة الانكشارية من

١٢٠٠٠ الى ٤٦٠٠٠ . وقد جرت الحرب على معظم هؤلاء المدنيين المرتدين بزة الانكشارية ، الشؤم . اذ كان معظمهم يخلي المعركة ويهرب فاراً من امام العدو . وهكذا اصبحت هذه الفرقة ليماً يتخبط افرادها بالفوضى والدسائس .

كذلك بيعت بيع السلع بالمزاد ، الشهادات العلمية والمراتب الحكومية ، ولكي يوفروا ظروف الانتفاع وامكانات استغلالها ، كان القضاة والعلماء والأئمة والاساتذة يمينون في وظائفهم لمدة معينة ، ثم يعزلون منها ، ليفتحوا المجال لصفقات جديدة . وهكذا ضعفت بين الناس الرغبة في العلم ، كما ضعف الضمير المسلكي بين الناس .

ومنذ عام ١٥٨٢ ، أخذت التيارات ومراتب الزعماء تباع علناً لمن يقدم أحسن الاسعار ، أو توزع بدلاً من النقد على الخصيان والاقزام ، والمعتهين ، وعلى النساء . وراح الحكام والوزراء يتنازعون منها ما تيسر ، وان تعذر عليهم ذلك ، عمدوا الى الاختلاس والمصادرة . وهكذا أفلوا عقارات سيادية واسعة عُرفت باسم جفتلك ، ولكي يجعلوها بأمن من كل مصادرة من قبل الحكومة ، أعلنوها أوقافاً ذرية يستثمرون ايرادها ، كما كان وكلاء الاديار يستثمرون ، في الأجيال الوسطى ما لهم من عقارات واسعة . وهكذا طلعت في البلاد أنواع جديدة من الاقطاع عُرفت بعدم انتظامها ، كما ان عدد أفراد الجيش هبط كثيراً . فقد كانت مقاطعة الرومي ، تعطي من قبل ، من ٧٠ - ٨٠ ألف خيال ، والبانبا ٣٠ ألف خيال ، وديار بكر وكرديستان ٢٠ ألف ، وارضروم ٢٠ ألف . أما اليوم (١٦٨٢) فقد هبط هذا العدد جداً ولم يعد يتعدى ٧ - ٨ آلاف فارس لكل من هذه المقاطعات ، بينهم عدد كبير من الارقاء والعبيد والمرتقة .

وهكذا تفشت الفوضى في السلطنة ، وأصبحت القسطنطينية مسرحاً لتنافس افراد الإنكشارية والصباحيين والعُزب. وأعضاء نقابات المهن الحرة والعلماء عندما يكون السلطان تحت الوصاية . وكثيراً ما قام الجند بأعمال النهب والسلب والقتل والحريق ، ثم يأخذ بالتحزب مع هذه أو تلك من أمهات السلاطين ، وزوجاتهم ، وأصبحت العاصمة سوقاً نشطت فيه الدسائس وحيكت الاحابيل وفسدت الضباط بعد ان باعت نفسها بالمزاد لمن يدفع احسن الاسعار .

وكثيراً ما قام الحكام ، على المكشوف بثورة ضد السلطان ، او ضربوا عرض الحائط بالأوامر الصادرة اليهم . فقد كانوا يشرفون على املاك طائلة ويتولون ادارة ولايات واسعة فيفرضون على الاهلين ضرائب ورسوماً لم ينزل الله بها من سلطان. وقاموا بأعمال لصوصية في نفس الادارة . وانتشرت اعمال اللصوصية بعد ان ألغى الاتراك عادة إنتقاء افراد فرقة الانكشارية من بين اقوى الفتيان المسيحيين من الاسرى واشدهم بأساً ، واضطرت السلطة لان تتخلى للمدن والقرى الجبلية عن امر الدفاع عن نفسها بتشكيل قوة محلية تكون قيادتها لا احد المسيحيين ،

كما شهدوا في بعض الجزر اليونانية وشبه جزيرة الموديه قيام بلديات ومجالس ادارية لتدبير شؤون الجماعة .

كان يتبوء عرش السلطنة من وقت لآخر ، سلطان شديد الشكيمة ، مهيب الجانب مثل السلطان مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠) وصدر أعظم يتصف بالمقدرة والزهامة امثال الكوبرلي من أصل أرثاؤوطي (كوبرلي الاول ١٥٦٦ - ١٥٦٨) ، واحد كوبرلي الثاني (١٦٦١ - ١٦٧٦) وكوبرلي الثالث مصطفى زاف (١٦٨٩ - ١٦٩١) وكوبرلي حسن امود جه زاده (١٦٩٧ - ١٧٠٢) ، فكان يدحرج رؤوس الوزراء والدفتردار وحكام الولايات والقضاة وافراد الانكشارية الذين يخرجون عن جادة الصراط القويم ، ويرغم على الطاعة وتقديم الولاء الولايات الثائرة ، ويشطب من سجلات المالية اسماء الانكشارية والصباحيين ، ويعيد النظر في جدول اصحاب الاقطاع ويصححها ويتشدد ضد استئثار القضاة لوظائفهم ، وتلاعب المحاسين . ويحدد قيمة واردات الدولة ومرقبات الجند ويؤمن انتصارات الجيش او يحدد نتائج الانكسارات التي يبنى بها :

تظهر المئتين وهذه الاسباب أخذت الاتراك بالتباطؤ ليتوقفوا عن السير تماماً . فقد قضوا عشرين سنة ، في فتح جزيرة كندي او كريت (١٦٦٩) ولا يزالون مفزعة أوروبا ، ولكن قام بينهم وبين أوروبا المسيحية شيء من توازن القوى ، ولو بصعوبة ، في القرن السابع عشر . وهذا الركود يصاب به الاتراك تقنياً ، ادى الى تأخرهم فلم يعد تحت تصرفهم ما كان تم لهم من صناعات مهرة وهذه المدفعية الشديدة الفعالية ، وهذا العدد العديد من الاسرى وأسلاب الحرب التي كانت تحبب اليهم الحرب وتحقيق الظفر . باستطاعتهم ، وايم الحق ، ان يحصلوا ، على أوروبا من تقنيين ، الا انهم بقوا عاجزين عن تمثيل ما يقتبسون من جديد الفنون والاختراعات واستثماره على الوجه الأفضل ووضع موضع التنفيذ . وبقيت الحضارتان الاسلامية والمسيحية قائمتين وجهاً لوجه دون ان يتأزجا او ان تنصب الواحدة في الاخرى .

ولم يلبث ان ظهر تأخر الأتراك للعيان ، بعد حصارهم لمدينة فيينا ، عام ١٦٨٣ ، اذ استطاع الامبراطور ان يلحق بهم هزائم نكراء وان يرغمهم على عقد معاهدة كارلوتز ، عام ١٦٩٩ ، وان يتنازلوا له ، بموجب هذه المعاهدة ، عن هنغاريا وسلافونيا وترنسلفانيا . وبعد صد الاسلام واجباره على التقهقر في الغرب ، ممثلاً بطرد العرب من اسبانيا ، بدت عليه عوارض قوية على تقهقره في الشرق .

يبدو ان المغرب اصبح في القرنين السادس عشر والسابع عشر مسرحاً للمغرب والمد القبلي لتدقق البدو واستشاطتهم دفاعاً عن الاسلام . فالانتصارات التي حققها المسيحيون اثارت ردة عنيفة في اسلام المغرب . فقد شعرت القبائل بتناقص الحركة التجارية بعد

ان عرف البرتغاليون وخلفاؤهم في هذا المجال ، من الهولنديين والانكليز والفرنسيين ان يحولوا ، شطر سواحل افريقيا الشرقية ، حركة انتقال الذهب والاتجار بالرق الى هذه المنطقة . كذلك أخذ البدو يشعرون بوطأة الغزوات التي أخذوا يتعرضون لها من قبل الحاميات الاوروبية التي ركزت أقدامها ورسخت سيطرتها على سواحل المغرب الشمالية ووسعت من نشاطها الزراعي ولاسيما زراعة الحنطة بقصد تصديرها الى اوروبا . والشر كل الشر في نظرهم كان مبعثه ومصدره هؤلاء الروم الذين يحملون لهم في القلوب كرهاً شديداً ولذا انفجرت قلوب هذه القبائل البدوية بالحقن على هؤلاء الطارقين . وقد تجلّى الحقن الديني على الاخص في هذه المراكز الدينية القائمة في قلب الواحات الواقعة الى الجنوب بمناى عن مساعدة الألوف من العرب المسلمين الذين تم إجلاؤهم عن اسبانيا ، فراحوا يفرغون جام غضبهم على سكان المدن الساحلية ، وعلى السلاطين وعلى القراصنة الذين ينعمون بما ينعمون به من رغد ومحبوحة بينما ترسب القبائل البدوية في فقر مدقع ، فراحوا يوجهون لهم التهم بالتعامل مع الكفار ، اذ يرضون منهم بافتكاك اسراهم لقاء بعض الدريهمات ، او بالاتجار معهم وباستخدامهم والاستفادة من معلوماتهم التقنية والفنية . ففي الجزائر وفي تونس ، اخفق البدو اخفاقاً ذريعاً بعد أن تصدت لهم المدفعية التركية وحصدتهم حصداً . اعتدنا أن نرى في الغرب سلاسل ملوكية تطلع من الجنوب وتستولي على الحكم ، وتأخذ بأسباب العمار والتحضّر ، ثم ترى نفسها ، في نهاية المطاف ، تتعامل مع المسيحيين ، الى ان يعثرها الانحلال والفساد عن طريق الانحراف الى لذائذها ، لتفسح المجال ، من جديد ، لسلالة جديدة تسير على النهج ذاته .

في أواخر القرن الخامس عشر ، يقع المغرب للأسباب ذاتها التي ادت الى انحلال السلطنة العثمانية ، في حالة مؤسفة من التضعف والتفسخ . فالدولة الحفصية اقتصرت سلطتها على تونس وضواحيها ، كما ان مملكة المملوكات التركية في الجزائر وتونس المستقلة الى أحلاف قبلية ومدن حرة . وألفت هذه المدن الحرة جمهوريات جرى تنظيمها على أساس من التنافس أهمها تونس وبنزرت وبوجي ، والجزائر ووهران ، وكان القرصان يقومون بأعمال الجهاد المقدس ويهاجمون المسيحيين ويفزون السواحل ، وينقضون على السفن ويقومون بحلب الميرة والذخيرة لعرب اسبانيا . وقد أوجس الاسبان في احتمال قيام حلف يضم السودان وأمراء المغرب فيبادر اعضاؤه الى مساعدة العرب في اسبانيا ، بعد ان قامت غرناطة بثورة عام ١٥٠١ .

ولكي يقضي الاسبان على كل خطر يتهدد طرق مواصلاتهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط وكل محاولة ازالة جيوش عربية جديدة في اسبانيا ، وتأميناً لهم بعض القواعد الامامية

على سواحل افريقيا يتخذها القرصان المسيحيون 'تكأة' لهم وملجأ خلال اسفارهم التجارية ، قاموا بحملة صليبية ، فاحتلوا تباعاً المرسى الكبير ، عام ١٥٠٥ ، ووهران (عام ١٥٠٩) ، وبوجي وطرابلس الغرب (١٥١٠) ، والبنون (الجزائر) واضطروا امراء هذه المدن على دفع جزية لهم . الا ان امور اسبانيا وقضاياها جعلتهم يقصرون احتلالهم على هذه المدن دون التوغل في داخل البلاد ، الامر الذي اثار كثيراً من المضاعف في وجوههم ، كما سبب لهم مشاكل عدة مع سكان البلاد ، اذ ان عدم انتظام وصول الامدادات بالدقة اللازمة ، حمل هذه الحاميات على القيام ببعض اعمال الغزو في الداخل .

واخذ المسلمون يلتمسون مساعدة بعض القرصان الذين اتخذوا من بلدة جيلجلي قاعدة لهم بقيادة اربعة اخوة هم الاخود باربروسة . وفي سنة ١٥١٦ أصبح اوروج باربروسة سيد الجزائر وباشر عمله باخضاع داخل البلاد لسلطته ، وبعد وفاته ، عام ١٥١٨ ، قام بالأمر اخوه خير الدين الذي أسس نيابة السلطان في الجزائر . ولكي يتخلص من الاسبان والمسلمين المغلوبين على امرهم الذين كانوا يرغبون في اقتكاكهم قدّم ولاءه للسلطان سليم الذي جاد عليه بلقب باشا بركلي وبقوة مسلحة قوامها ٣٠٠ جندي ومعهم مدفعية يردفهم اربعة آلاف من الانكشارية .

واستطاع عام ١٥٢٢ ، ان يتغلب على حلف تألف من سكان الجزائر وبعض القبائل ، ثم استولى على مدينة كولوبون (١٥٢٢) وله بينون ، وانشأ في مدينة الجزائر ، مرفأ يلجأ اليه القرصان المسلمون فيجملون سفنهم بأمن من كل خطر ، بعد ان كانوا يسحبونها من قبل على الرمل . من هذا المرفأ الذي اصبح القاعدة للقرصان المسلمين ، استطاعوا ان يتحكموا بالمواصلات الحربية بين جبل طارق وحوض البحر المتوسط الشرقي ، وهددوا خطوط المواصلات مع ايطاليا وصقلية .

كان على رأس دولة الجزائر حاكم يلقب بيلربك او امير الامراء ، يعينه السلطان ، يكون رئيساً لباشوات تونس وطرابلس الغرب . ومنذ سنة ١٥٨٧ ، استبدل اللقب بلقب باشا ، وامتدت سلطته الى المدن الثلاث : الجزائر وتونس وطرابلس الغرب التي تألفت منها نيابة ملكية . ومع ان البيلربك لم يكن ملازماً للعمل بموجب نصائح مستشاريه ، فقد كان يترتب عليه ، كما يترتب على الباشا بعده ، ان يراعي الى اقصى حد ، وجهة نظر قيادة فرقة الانكشارية ورئيس فرقة القراصنة الذين كانوا ينتدبون بعض اعضائهم للعمل في ديوان الباشا . وقد قام مندوبو فرقة الانكشارية ، وفرقة القراصنة ، بعد عام ١٥٨٧ ، بمهام الحكم ، فعلاً . وعندما دب الفساد الى جسم الدولة العثمانية ، دب الانقسام بين هؤلاء الحكام ، وقامت المنافسة بينهم الى ان تمت الغلبة للانكشارية ، سنة ١٦٥٩ . وفي سنة ١٦٧١ ، عهد القراصنة بهذه الحاكمة الى واحد من رؤسائهم يلقب داي . وفي سنة ١٧١١ ، رفض الداي الثاني ، علي شاوش ان يقوم باستقبال باشا واقنع السلطان في القسطنطينية ان ينعم عليه بهذا المركز . ومنذ ذلك

الحين أصبحت الجزائر ولاية من ضمن الولايات التابعة للسلطنة العثمانية . وفي سنة ١٥٩٠ ، قام ضباط الجيش ، يختارون حاكماً لتونس يحمل لقب باي ، يحل محل الباشا . وبعد سلسلة من المنافسة الطويلة بين الداي والباي ، وقادة الفرق التي كان ينشط بها جباية اموال الميرة والضرائب المرسومة وقيادة القبائل ، نودي بالآغا حسين بن علي قائد فرقة السباهيين . بك ، فألقي لقب داي (١٧٠٥) واسس دولة وراثية بقيت في دست الحكم حتى القرن العشرين . وكان عدد كبير من افراد فرقة الانكشارية والقراصنة والسباهيين المارقين عن دينهم المسيحي ، ينتمون في اصلهم الى سكان هذه الولايات الواقعة حول حوض البحر المتوسط ، او كانوا يرسفون ، من قبل ، في الأسر . واسوة بالسلطنة العثمانية نفسها ، وقعت هذه الولايات البعيدة عن المغرب فريسة عصابات من العكرين ، كانوا من قبل ، اسرى او من الجاحدين لدينهم ، وراحوا يستغلون سكان البلاد ابشع استغلال . وقد فتح الاتراك الجزائر بالفعل ، ووضموها حاميات قوية في المراكز الاستراتيجية الحاسمة ، واسوا ، منذ عام ١٥٦٣ ، قبائل الحزن تولت مع بعض الفرق العسكرية ، جباية الضرائب والرسوم . وقد أبعد عن الوظائف العامة وعن الخدمة العسكرية ، عرب الاندلس من سكان المدن ، واحتفظ بها للاتراك الصميين او للمسلكين من الجند . وكثيراً ما استعانوا بالقبائل المغلوبة على امرها او باصحاب الرُبط والارفاض المغالين في عصبيتهم الدينية .

واخذت مدينة الجزائر تتطور . فقد بلغ عدد سكانها ، في منتصف القرن السادس عشر نحواً من ٦٠.٠٠٠ ، ومعظمهم من المارقين عن دينهم ، بينهم أكثر من ٢٥.٠٠٠ اسير مسيحي وزاد عدد سكان هذه المدينة ، عام ١٦٥٠ ، على ١٠٠.٠٠٠ ، تراوح عدد الاسرى بينهم من ٢٥.٠٠٠ - ٣٠.٠٠٠ اسير . فقد كان القرن السابع عشر العصر الذهبي الذي بلغته القرصنة ، بعد ان ادخل القراصنة تحسينات عامة على سفنهم ، اذ رفعوا حاققتها عالياً . ويقدر عدد الاسرى الذين وقعوا بين ايديهم ، عام ١٦١٥ - ١٦١٦ ، بين مليونين وثلاثة ملايين أسير ، بحيث أُلّف الاسرى اربح تجارة على الاطلاق ، وازداد الطلب على الفتيان من الشبان والشابات « اذ كان مصيرهم معروفاً من قبل » ، كما كانوا يهتمون بالاختصاصيين بين الاسرى ببناء السفن والذين يحسنون الاعمال المرفئية ، والطوبجية . فليس بمعجيب قط ان تكثر اعمال الارتدادات بين هؤلاء الاسرى من المسيحيين ، ويحددون دينهم بالرغم من عمل المرسلين وعمل بعض الرهبان كالرهبان الثالوثيين والعاذريين ورهبان سيدة الرحمة ، مع ان الحرية الدينية كانت متروكة ، في اكثر الاحيان هؤلاء الاسرى ، كما تركت الحرية لهؤلاء الكهنة ليقدموا لهم الخدمات الدينية ، مع العلم ان اعتناق الاسرى للإسلام لم تكن ، في نظر القراصنة ، عملية ناجحة ، لانها كانت تفوت عليهم عملية الافادة من الفدية . وكنا نرى بين هذه المدن تجاراً اوروبيين يقيمون فيها بعد ان ينالوا ، لقاء دفع رسم عال ، ترخيصاً خاصاً من نائب السلطنة للعمل فيها ، كما كانوا يدفعون بالاضافة الى ذلك ، رسماً على الخروج . وقد برز في هذه الحركة

اليهود وسكان مدينة مرسيليا . الا انهم واجهوا ، بعد عام ١٦٨٥ ، منافسة قوية من قبل بروتستانت اللانغدوق اللاجئين . وكان الاوروبيون يتعاطون تصدير الجلود والشمع والصوف والتمر وريش النعام والمرجان والحبوب ، وغير ذلك من الاصناف ، كما كانوا يصدرون ، من مدينة تونس ، الاسفنج ، وكانوا يستوردون الاسلحة على انواعها والحرير ، والاقشة . وكثيراً ما عمد الحكام ، في حال هبوط معدل الاسرى ، الى فرض ضرائب جديدة ، وفي هذا ما فيه من ازعاجات ومضايقات . ولذا لم يكن سكان الجزائر يتعاملون الا مع الدول ، بينما كانوا يعاملون الآخرين بدون رحمة . وقد أحدث الصلح الموقود مع الهولنديين ، عام ١٦٦٣ ، ردة فعل قوية لدى القراصنة ، فزادوا من نشاطهم ضد الفرنسيين ، ثم تم الصلح مع الفرنسيين عام ١٦٧٠ في عهد لويس الرابع عشر ، واستثفت الحركة بعنف ضد الانكليز والهولنديين . ولذا كانت هذه الدول ترسل ، الفينة بعد الفينة ، اساطيلها الحربية ، تطمر مدينة الجزائر ، وابلا من المدافع ، يضطر معها الجزائريون للدخول بمفاوضات جديدة ، مع العلم ان الفرنسيين كانوا يتمتعون ، على الغالب ، بوضع افضل من سائر الدول الاخرى .

قام المغرب الأقصى في اطراف العالم الاسلامي الغربي ، تنزله عن باقي المغرب المستقل :
العالم الاسلامي ، سلسلة جبال الاطلس الشاهقة العلو ، فيتضرس من البحر المتوسط الى السودان
هو ايضاً ، على اقدار ، بحوادث العالم الاسلامي في البحر الابيض المتوسط . وقد تمرض المغرب على الاخص لهذه التدابير والاجراءات التي اتخذها المسيحيون في هذه البلاد والتقدم الذي حققوه فيها .

فنذا ان عمل البربر ، بين القرنين الثالث والثامن ، على تأهيل الجبل في اقطار افريقيا الشمالية واقاموا ، عبر الصحراء ، علاقات تجارية لهم ، ربطت ما بين المغرب والسودان ، اصبح سعر الذهب الافريقي ، في المغرب ، رخيصاً بينما سعر الفضة فيه كان مرتفعاً ، بحيث اصبحت النسبة بمعدل ٩ - ١ ، واصبح بالتالي التبادل به ميسوراً بمعدل الفضة الاوروبي الذي كان يستخرج بكثرة من مناجم الفينيه في القسم الجنوبي الشرقي من المانيا وبوهيميا وهنغاريا والتيرول ، حيث كان سعر الفضة رخيصاً وسعر الذهب مرتفعاً بنسبة ١١ - ١ واكثر . وكان الذهب يصل من جبال الفينيه ومن بامبوك وغنغران وفوتا جالون ومن مقاطعات سيراليون وآشنتي وموسني . ومن القرن الحادي عشر الى الثالث عشر ، تركزت حركة الاتجار بالذهب ، في قلب الامبراطورية السهلية والسنغالية التي كانت عاصمتها غانا ، وهي مدينة اسلامية كبيرة قام فيها ١٢ مسجداً وزخرت بعدد طيب من الائمة والفقهاء والادباء ، وكان يؤمها عدد كبير من التجار العرب والبربر . انهارت امبراطورية غانا في مطلع القرن الثالث عشر ، وحلت محلها امبراطورية زنجية ، قوامها قبائل الماندنغ ، ازدهرت في القرن الخامس عشر . كانت عاصمتها مدينة مالي . كان ملوك مالي او منديانسا مسلمين . ومن مالي كانت القوافل تخرج محملة بالذهب باتجاه تمبوكتو ، وكوكبا والقاهرة ، او باتجاه تمبوكتو واودان المغرب ، وهران وتونس . وكان المغرب الاقصى الحد الابعد الذي تنتهي عنده الطرق الصحراوية . ومنذ

القرن الثالث عشر كان التجار من جنوى والبندقية يأتون الى لاراش وأرزلا وصافي بحثاً عن ذهب السودان . وقد دفعت اسباب كثيرة البرتغاليين للسيطرة على مرافئ المغرب الأقصى الواقعة على الساحل الغربي ، منها الرغبة في السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس او مزاحم لهم عليها . وفي سبيل السيطرة على ذهب السودان والتصرف به بحرية ، اقام البرتغاليون لهم حاميات قوية في الربو ده أورو ، عام ١٤٤٢ ، واحتلوا جزر أرغوين ، عام ١٤٤٤ . ومنذ سنة ١٤٥٠ حتى اواخر القرن السادس عشر راحت عمارات من سفن الكرافيل البرتغالية يتراوح حجم الواحدة منها بين ٥٠ - ٦٠ برميلاً تتغلغل داخل الانهر الساحلية ، في الغنيبه يقايضون مع سكان البلاد ، الملح وسبائك النحاس الاصفر وطسوت الحلاقين والدسوت النحاسية والاقمشة الناعمة والحراير مقابل مسحوق الذهب . واكبر مراكز لحركة المفايضات التجارية هذه ، قامت في اسواق كنتور على نهر الغمبي ، على بعد ٧٠٠ كلم من البحر ، فنشطت الحركة فيه من سنة ١٤٥٦ الى ١٥٨٦ ، وفي مدينة جورج ده لامينا ، منذ سنة ١٤٧١ الى ان استولى عليها الهولنديون ، عام ١٦٣٧ وقد ألف ذهب المينا احتكاراً خاصاً بملك البرتغاليين . وفي كل شهر ، كانت سفينة تغادر مدينة سانت جورج هذه الى لشبونة . وبلغت كمية الذهب التي خرجت من مدينة ، لامينا ، بين ١٥٠٠ - ١٥٢١ نحواً من ٤١٠٠ كيلوغرام في السنة الواحدة . وبلغت تجارة البرتغاليين بالذهب أوجها بين ١٥٣٩ - ١٥٤٩ . وحاول البرتغاليون ، في راس ده غيه ، حصر السكر الوارد من مقاطعة السوس ، منعاً لكل مزاحم للسكر الذي كانت تنتجه الجزر الخالدات وجزر الاسور ، كما احتكروا القطن والنيلة الذي يستورد من بلاد السوس ومنعوا وصول الذهب الى مملكة مراکش التي اخذت تعاني شديداً من أزمة اقتصادية . وهكذا حالت الكرافيل دون الجمل في نقل الذهب .

وقد ضعفت تجارة البرتغاليين بالذهب خلال الازمة التي اشتدت بين ١٥٤٥ - ١٥٥٢ لاسباب عديدة ، منها : اشتداد القرصنة وحركة التهريب التي قام بها الاوروبيون على سواحل افريقيا الغربية ، وفي خليج الغنيبه ، ومعظمهم من الاسبان منذ سنة ١٥٤٧ ثم الانكليز منذ ١٥٥٥ ، ثم الفرنسيين والهولنديين الذين كان لهم عام ١٦٠٥ ، عشرون سفينة تعمل في خليج الغنيبه وحده . ومنذ سنة ١٥٥٠ ، كان استثمار ذهب لامينا عملية خاسرة .

من اهم الاسباب التي ادت الى تفشيل العملية ، ردة الفعل الاسلامية . فقد انتقل مركز الاتجار بالذهب شمالاً نحو السهل ، بعد ان سقط اتحاد مالي نهائياً بعد حماية سنراي في غاو ، في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حلت تمبوكتو وجنّة محل مالي كمستودع وكسوق يلتقي فيه التجار القادمون من المغرب الأقصى ، ومن يفدون من بلاد الذهب . وقد سيطرت امبراطورية أكيا الاسلامية الواسعة الاطراف التي قامت في غاو ، على مناطق الذهب والملح ، كما منها مقاطعة هاووسا وعابير ، مع ملاحات توتيك ومناجم النحاس في تاكدّا ، كما

وقعت تحت اشرافها الطرق التي تربط الصحراء الكبرى بالسودان. وهكذا ارتد ذهب السودان من شواطئ الاطلسي نحو بلدان البحر الابيض المتوسط . ان ظهور هذه الامبراطورية وازدهارها لم يكن غريباً عن استئناف سك العملة الذهبية ، في مصر بعد عام ١٥١٦ ، وبعد وصول الدولة السعدية ، الى الحكم في المغرب . وهكذا ثار الجمل لنفسه من الكرافيل التي زاحته من قبل .

شعر الناس عميقاً بالتأخر الذي لحق الاسلام في المغرب الذي كان ينبض بشعور ديني قوي للغاية . وقامت في طول البلاد وعرضها زوايا كانت ، في الوقت ذاته تكايا ومدارس وملاجئ . ينصرف فيها المتصوفة وشيوخهم ، للشطحات الروحية ، كما كان فيها عدد من الاولياء المرابطين ، تحدر بعضهم من الشرفاء اي من سلالة الرسول العربي ، يتمتعون بمحبة الناس وتقديرهم بما فيهم من بركة . وقد شعر هذا الفريق من الناس اكثر من غيره بهذا التأخر يمتس بها الاسلام في المغرب وكان نفوذهم كبيراً على جمهور المؤمنين ، كما كان شيوخ الزوايا يعطون كلمة السر الى اتباعهم .

وهذا الحقد يمحس في صدور المتصوفة ضد المسيحيين لم يلبث ان تحول ضد دولة الوطاسين التي عجزت عن وضع حد لتعدييات المسيحيين على البلاد كما عجزت عن تهدئة خواطر الشعب ، واعادة الثقة الى نفسه عن طريق فريق العلماء ورجال الدين . وقام الشيوخ يساندون كل الحركات الانتفاضية والمحاولات الثورية التي قام بها الشعب ضد هذه الحكومة كما ان هذه الدعوة لقيت تأييد قبائل البربر في المقاطعات الجبلية .

لعب الجنوب الدور الرئيسي في هذه البقطة الدينية اذ انطلقت القبائل منه تعلن الحرب والجهاد المقدس ، بقيادة بني سعد في السوس ، الذين كانوا يدعون انهم من سلالة النبي العربي ، وراحوا يحاربون البرتغاليين . واستطاعوا بواسطة الذهب الذي تلقوه من السودان ، منذ سنة ١٥٠٩ ان يجهزوا انفسهم بما يحتاجون اليه من المدافع والبنادق والمتاد الحربي . فاعلنت منطقة سوس استقلالها ، منذ سنة ١٥٠٩ وتمكنت عام ١٥٣٧ ، من الاستيلاء على مدينة طفيلة التي كانت المركز الذي يمر منه الذهب القادم من تمبوكتو . ثم اخذ بنو سعد يستولون على المراكز الحربية التي كانت بيد البرتغاليين ، على سيف المحيط الاطلسي ، الواحد بعد الآخر . فاحتلوا رأس غيه ، عام ١٥٤١ ، وصافي وازمور ، عام ١٥٤٢ ، والقصر الصغير وأرزلا ، عام ١٥٤٩ - ١٥٥٠ . وعجز البرتغاليون اذ ذاك عن رد هجمات قراصنة لاراش وصالح ضد المارد من تعدياتهم . ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة لا تنتهي من انكسارات تصيب البرتغاليين . فغسروا كل قواعدهم على « محيطات الجنوب » . وهكذا لم تلبث الحكومة الشريفة ان اصبحت دولة بحرية وخطراً دائماً ومنافساً قوياً . وهكذا اخذ ذهب السودان وسكر السوس يشحن رأساً من المغرب الى انكلترا وفرنسا . وفي سنة ١٥٥٣ ، انتهى امر الدولة الوطاسية تاركة المجال للدولة السعدية .

بلغت هذه الدولة الأوج من العزة والسؤدد في عهد السلطان احمد المنصور عندما تمكن من دحر البرتغاليين شر اندحار في معركة القصر الكبير الدامية ، عام ١٥٧٨ . واخذ في الحال ينظم البلاد تنظيمًا بقي معمولاً به حتى القرن العشرين . وتمكن من السيطرة على حلف تألف من القبائل الكبرى ، بواسطة جهاز جديد هو « المخزن » الذي كان يضم بلاط السلطان والوزراء وكبار الموظفين ، والحكام الاداريين ، كما انضم الى هذا الحلف القبائل الحربية بعد ان أمّن ولاءها عن طريق اعفاؤها من الضرائب واقطاعها الاراضي الكثيرة وغير ذلك من الامتيازات والمنافع ، بينما كانت الضرائب تجبى من القبائل المتحالفة الضاربة في بلاد المخزن . اما هذا القسم من المغرب الذي لم يخضع لهم فقد عرف : « ببلاد السبية » .

نمى المنصور علاقاته مع الاوروبيين . فاستقدم للعمل في البلاط الشريفي صناعات اوروبية و متمولين يهوداً وتجاراً مسيحيين وأدخل في جيشه عدداً كبيراً من الاسبان المارقين عن دينهم وقد ادخلت الدول الأوروبية في حسابها ما للدولة الشريفة من قوة وشأن واقامت معها تمثيلاً دبلوماسياً . ووضع السلطان ، بالاتفاق مع الانكليز ، مشروعاً لاحتلال اسبانيا .

ونقل السلطان عاصمة ملكه الى مدينة مراكش ، في الجنوب . بحيث يستطيع مراقبة البدو والحركات التي يقومون بها في حلهم وترحالهم . وحدثته نفسه باحتلال السودان « بلاد الذهب » وتأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء تجمع بين اطرافها المترامية ، المسالك والمجازات والمعابر التي كانت تخترق الصحراء الكبرى والتي كانت تسلكها القوافل حاملة ذهب السودان ، كما كانت تهيم على ملاحات الصحراء . وفي سنة ١٥٧٠ ، غادرت فرقة عسكرية مراكش ، قوامها ٤٠٠٠ جندي معظمهم من الاسبان مرقوا عن دينهم ولفتهم الرسمية الاسبانية ، برئاسة الباشا جودير الذي كان هو الآخر ممن تنكروا لدينهم المسيحي . وبعد ان اجتازت الفرقة ، الصحراء ، تمكنت بواسطة طابور حملة البنادق من ان تهزم جيش سنهراي ، في مدينة تونديتي ، بتاريخ اول اذار ١٥٩١ ، وفي ٢٥ نيسان ، تمكن الجيش المراكشي من الاستيلاء على تمبوكتو ، فوضع بذلك حداً للامبراطورية سنهراي . ومنذ سنة ١٦١٢ ، انقطع السلطان عن تعيين الباشوات حكام تمبوكتو . وقد ألفت فرقة الجيش من بين قادتها وضباطها نوعاً من الارستوقراطية العسكرية وراح الاسبان يتزوجون زنجيات . وورث الخلاسيون من آباءهم الاسبان حدة الذكاء وحب التسلط والروح الحربية التي عرف بها الاسبان . وعمدوا فيما بعد الى انتخاب الباشا حاكماً عليهم . وقامت منافسة شديدة بين هذه الفرق التي رغبت كل واحدة منها في ان يكون الباشا منها ، فاندلعت بينهم حرب اهلية حامية الوطيس ، كما ان المنافسات والمنازعات الدامية ، التي نشبت ، أدت الى خراب التجارة السودانية والقضاء على فريق العلماء والادباء في البلاد ، والضرائب الفادحة التي فرضت على الاهلين ، والمهاجمات التي فتكت بالناس . وتأخر السودان امام ردة فعل زنجية ، كل ذلك جاء نذيراً بمواجهة الإسلام أزمة تقهر في أرجاء البحر المتوسط .

واضطر المنصور ان يواجه طيلة حكمه الطويل مقاومة عنيفة من رجال الزوايا الذين كانوا ينتقدونه على اقامة علاقات له مع الاوروبيين . وعرفت البلاد ، بعد وفاته ، عام ١٦٠٣ ، منافسات عائلية عنيفة نجم عنها أزمة بلغ من حدتها وشدها ما حل العفراني على وصفها بانها « تشيب الرضّع لهولها » . وقد عاد الامر بالقائده للزوايا ولقبائل البربر . وبعد سنة ١٦٢٧ ، اصبح زمام الامر في البلاد بيد شيوخ الزوايا ورجال الرُّبُط . وقامت في مدينة صالح ، عام ١٦١٠ ، جمهورية تألفت من قراصنة عرب الاسبان وقراصنة الانكليز ، ولم تلبث هذه الجمهورية ان أعلنت استقلالها التام عن السلطان ، عام ١٦٢٧ . وقامت بالجهاد ضد المسيحيين ، وسيطرت على مضيق جبل طارق وتحكمت بطرق المواصلات مع اميركا الجنوبية والهند الشرقية ، وعجلت في انهيار الامبراطورية البرتغالية كما أثارت المصاعب في وجه الاسبان . الا أن اضطرابها للافراج عن الاسرى ، وحاجتها الماسة للأسلحة ارغمتها على ابرام معاهدات مع الدول الكبرى المسيحية . وانتهت حرب الجهاد هذه بأعمال قرصنة عادية . وهكذا أصبحت مدينة صالح لمدة قرن تقريباً ، ام مركز للنشاط التجاري في المغرب .

زالت الدولة الشريفة السعوية من الوجود عام ١٦٥٤ بعد ان مات قتلًا ثمانية من سلاطينها من اصل ١١ ، وراحت القبائل الرحل وقبائل القوافل ورجال الزوايا في الجنوب الذين أصبحوا أكثر تطلباً ، يتنازعون السلطة ويتقاسمون اطراف البلاد . واستطاع شرفاء الطفيلان ان يتفلبوا على شرفاء السوس ، وهكذا اطلت على البلاد دولة جديدة هي الدولة العلوية . وفي سنة ١٦٧٢ ، تولى زمام الحكم في البلاد السلطان مولاي اسماعيل الذي عرف بنشاطه وغبان الدم في عروقه ، ففطرت يده دماً من هذه الدماء الحمية ، لكثرة ما سكب من الدماء ، والذي أنجب ٧٠٠ ولد . وجعل قوام سلطنته تنمية العلاقات مع السودان وتشجيع التجارة مع الصحراء بعد ان نفخ فيها روحاً جديداً . فن السودان ، ومن تمبوكتو ، ومن قبائل الصحراء جمع جيشاً لجأ تألف من ١٥٠،٠٠٠ ، فنهض سيطرته على البلاد . وقد عين في المراكز الحساسة تسعين من الباشوات . ومن السودان وصلت الى طفيل مساحيق الذهب والنيلة ، والعاج وريش النعام والتمور التي كانت مواداً صالحة للمقايضات التجارية مع المنتوجات الأوروبية . ولما كان السلطان مطبوعاً على التقوى ، فقد امر بمتابعة الجهاد المقدس بكل همة ونشاط .

فانتزع من بين يدي الاسبان : المامورا ، (١٦٦١) ، ولاراش (١٦٨٩) ، وارزلا (١٦٩١) ، ولم يبق بين ابدي الاوروبيين ، على المحيط الاطلسي سوى مركز مازغان احتفظ به البرتغاليون ، ومراكز مليلا وسبتا ، بيد الاسبان ، على ساحل البحر المتوسط . وقد ادرك السلطان بدوره ضرورة المحافظة على الحركة التجارية ، ولا سيما على حرية المقايضات والمبادلات مع المسيحيين . وقد نفر سكان مدينة صالح وفريق القراصنة فيها لاستيلائه على المراكز الأوروبية . وترك لليهود والمسيحيين احتكار الاعمال التجارية في صالح وقطوان ، وصافي واغادير . وتمكنت فرنسا من احتلال اول مركز لها في المغرب ، عام ١٦٨١ ، وسولت له النفس عقد

معاهدة تجارية مع فرنسا ضد اسبانيا. واقترح ان يتزوج من الاميرة كونتي ابنة الملك لويس الرابع عشر . الا ان الاتحاد الذي تم بين فرنسا واسبانيا ، ورفض السلطان اعتناق المسيحية ، ادى الى فشل المفاوضات ، وشجع اللاجئين من بروتستانت ، مقاطعة اللاندوق على التجار مع الانكليز والهولنديين ، وفي اواخر عهد الملك لويس الرابع عشر ، تمكن الانكليز من احتلال المرتبة الاولى في التجارة مع الدولة الشريفة .

وهكذا تمكن المغرب الأقصى من المحافظة على الوضع العام الذي كان عليه الاسلام تجاه الحضارة المسيحية ، في هذه النقطة بالذات الواقعة الى الشمال الغربي من القارة الافريقية . واذ كانت هذه الناحية في شبه عزلة عن العالم عائشة على مشاعرها الدينية ، فقد كانت اكثر من الجزائر وتونس ، بناءً على السلطنة العثمانية . ان عجز الاتراك العثمانيين عن الوصول بالاسلام الى وحدة متماسكة ضد اوروبا المسيحية ، ساعد كثيراً على انقاذ المسيحية وصيانتها .

امبراطورية الفرس

اذا ما كانت لبلاد فارس منزلة مرموقة في الشرق الاسلامي ، فقد كانت للمذهب الديني الخاص الذي ارتضته وسارت عليه ، سبباً من الضعف الذي رسف فيه الاسلام . قوام هذه البلاد الشاسعة صعيد مرتفع تقاسمه السباسب والصحارى ، فقد شطرت العالم الاسلامي الى شطرين متميزين ، كما ان وقوع بلاد فارس بين بحر قزوين في الشمال والخليج الفارسي في الجنوب جعل منها ممبراً تجتازه الطرقات التي ربطت بين اوروبا غرباً وبين الشرق الأقصى والهند شرقاً . ان لمضيق مَرُو في هراة من الشهرة والاهمية ، ما لمضيق الدردنيل بين اوروبا وآسيا ، وكانت تجتاز ايران بطولها طريق تمر على محاذات مدينة مشهد وطهران عبر تبريز وديار بكر وحلب ، ثم تنتهي قليلاً الى الشمال لتمر في ارضروم وطرابزونند ، فكانت بذلك من هذه الشرايين الهامة التي سلكها الانسان عبر الاجيال والمدنيات ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن الخليج الفارسي .

ألف الفرس ، في قلب العالم الاسلامي ، كتلة ، تباينت من حيث مذهبها الملعب الشيعي الديني الخاص ، عن مجموعة الشعوب الاسلامية ، اذ كان أهلها على مذهب الامامية بينما أخذ العالم الاسلامي بالسنة . فقد كان الشيعة من اتباع علي بن ابي طالب ، ابن عمي النبي ، وصهره على ابنته فاطمة الزهراء ، يطالبون بحقه الاول في الخلافة ، بعد ان أقصي عنها ظلماً وعدواناً . فهم يقولون ان النبي اوصى بخلافته له ، ولذا اعتبروا علياً والائمة الاثني عشر من ذريته الورثة الحقيقيين للخلافة من بعده ، ولتابعة رسالته بتوصية خاصة منه ، وفقاً لتدبير الهي منذ آدم عبر الانبياء . وقد قام بعد علي اثنا عشر اماماً تولوا الامر بعده ، لم يمت

آخرهم انما اختفى عن الانظار ليعود للظهور من جديد على رأس امتك ، فيملأ الارض عدلاً وسلاماً .

ليس من يحبل النتائج الخطيرة التي ترتبت على هذا التباين في العقيدة بين السنة والشيعة والذين حصروا كل شيء في عثرة الرسول واهل بيته وابوا التسليم بان تذهب الخلافة الى فريق من صحابة النبي فيستأثروا بها من دون اصحاب الحق ، فيؤلفون في القرن الثامن خلافة هي الخلافة الاموية وجعلوا من دمشق عاصمة لها . فابوا التسليم بمبدأ انتخاب الخليفة على اساس من الشورى اذ ان الخلافة ، في نظرهم ، هي قبض الهي ينتقل بالوراثة الى الامام . والائمة ، في نظر الشيعة ، معصومون عن الخطأ وعن كل زلل . وهكذا صح لنا القول ان فرقة الشيعة اساسها السلطة ، بينما السنة الشورى والاجماع . العقل ، في نظر الشيعة ، عاجز في كل ما يتعلق بقضايا الايمان . فالهم في الامر هو الوحي النازل على الائمة . فالامام غير المنظور يتكلم بلسان علماء الله ، فعلى كل شيعي ان يسلم بهذا الكلام الموحى به على لسان الامام . وقد قامت بينهم فرقة عُرفت بفالاتها وترفضها بحيث ان اعضاءها تجنبوا لمس الكفار والاختلاط بهم .

الدعوة الفارسية
'عرف الفرس بروحهم الوطنية فزعموا ان ملك الملوك وهو لقب ملكهم ، له السلطة على كل الشعوب . يحفظون منذ صباهم كتاب الملوك ، او الشاهنامة ، للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له من الشأن لدى الفرس ، ما للابادة والاذنية عند اليونان ، حتى ان الاميين بينهم راحوا يمتقدون ان شعبهم هو اقدم شعوب العالم وانه فوق شعوب الارض طراً ، واسماها على الاطلاق . وهم شديدو التعلق بأدابهم واعرافهم التقليدية . فالشاعر الفارسي حافظ الذي لمع اسمه في القرن الرابع عشر ، والشاعر سعدي الذي كان معاصراً للملك القديس لويس التاسع في فرنسا ، سارت اشعارهما على لسان الادباء والرواة ، وحادي المس وساري السبل في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت لدولة الفرس شخصية مفرّدة . واللغة الفارسية كانت لغة الشعر والأدب في كل العالم الاسلامي ، كما كانت التركية لغة رجل الحرب والادارة ، والعربية لغة الدين والعلوم . فالفارسية هي اللغة المستعملة في بلاط السلطان وبلاط المفل ، وفي عدد من الدول الاسلامية الاخرى في الهند . وكانت الآثار الشعرية الفارسية تنقل الى اللغات الاخرى وتشرح وتفسر ويحتذي الناس حذوها . كل هذه الامور وما اليها من شؤون ومفارقات جعلت الاتراك العثمانيين يتحولون بانظارهم عن متابعة الجهاد ضد الكفار في الغرب . وقام بين الشيعة والسنة حروب دينية دامية ، اذ شره الاتراك للتحكم بالطرق التجارية التي تمر ببلاد فارس ، كما ان الشهور القومي المتأجج في صدور الشيعة حتم ان يكون الشاه رجل حرب كبير يشمر عن ساعديه للغزو والفتح .

الدولة الصفوية والبدو في الحكم
شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر طلوع الدولة الصفوية واجادها كما سجلنا زوالها . نرى من خلال تاريخ بلاد فارس ان الاسرة الملكية التي تقوم بالامر لا تستمر في الحكم أكثر من قرنين . أسس هذه الدولة الشاه

اسماعيل (١٤٩٩ - ١٥٢٤) . فقد كان تركياً بابيه ويونانياً بامه ، ينحدر من اسرة تنتسب الى الامام السابع وهي اسرة كسرت بالقداسة والشهادة . فقد كان ، في الاساس شيخاً لاحدى القبائل البدوية الرحل المتنقلة على حدود لهران . فجمع يوماً حوله عصابة من رجاله استولى بهم على مدينة باكو وشاخا ، ولم يلبث ان انضم اليه كثيرون ، واستطاع ان يهزم بسهولة آخر ملوك الدولة التيمورية ، وتم له من الانتصارات الباهرة ما جعله يوحد بين القبائل ، فنودي به شاه ، وقاد رجاله من غزو الى آخر وانقض من الجبال على سهول العراق الغنية ، وفتح بغداد واستولى على الموصل وديار بكر .

كان هذا المسلك النهج التقليدي الذي نهجه الحكم في العجم ، اذ ما يكاد الفساد يدب في الاسرة الملكية وينغرس افرادها في الموبقات حتى يقوم زعيم قبيلة من القبائل البدوية الضاربة بين هذه المقاطعات الجبلية التي تتقاطعها الوديان الظليلة على حدود البلاد ، ويجمع من بين هؤلاء الاقوام العاملين في رعاية السائمة ، كتائب من الشبان المقتولي العضلات ، يفيضون صحة ورفاء ، تعودوا شطف العيش واخشوشنت اجسامهم ، وتردفه القبائل المتجاورة التي كان قومه يتجرون معها ، بالنصح والمؤازرة والعتاد . وما ان يأنس من نفسه القوة حتى يهاجم ، لاسباب واهية واعذار شتى ، كالتعمدي على المياه ، او نهب بعض الماشية ، او الحاق بعض الاضرار البسيطة ، القبيلة المجاورة له التي يتولى امرها شيخ مسن او فتى غر تحت الوصاية ، ويخضعها لسلطانه ، ثم يعمل على كسب الانصار له بين رجالها بما يقدق عليهم من عوارفه وما يوزع فيهم من هدايا واعطيات ويرحب بقدم متطوعين من قبائل اخرى رغبوا العمل تحت ادارته ، حتى اذا ما اشتد منه المساعد عمل في اخضاع القبائل الواحدة تلو الاخرى . فاذا ما اعترض سيره الصاعد وقام في طريقه حلف ما لجأ للحرب فيصطف الحصان وجهاً لوجه ويأخذ الفريقان بالمباهلة يستعرضون قوام دون سكب الدماء ، حتى اذا ما انطلق فجأة عيار ناري دب الذعر في الصفوف واخذ العدو في الفرار . وقد يحدث ان يفر الحصان كل من جهته . بعد ان يدب فيها الخوف ، حتى اذا ما عاد فريق منهم واستملك روعه وعادت اليه رباطة جأشه ، مسك بزمام الامر ، قبل الآخر وفاز بالنصر . ففي عاصمة كل ما فيها يتداعي للخراب ، لا جند فيها ولا حاميات تدفع عنها عوادي الزمن ، وفي بلاط يغص بالخصيان والنساء ويفيض غنى وثناء ، تقع العين فيه على شيخ كليل او على ولد منهوك القوى ، ينتزع عنه التاج ويستأثر دونه بالسلطة .

ويرتسخ ملكه بالمزيد من الانصار والازلام عن طريق المصاهرة والزواج من بنات او شقيقات شيوخ القبائل التي غلبت على امرها ، وبالشبان الشجعان الانخراط في جيشه ، من بين القبائل التي قدمت له خضوعها . اما اساس قوته ومحور سلطانه فيتركز بالدرجة الاولى على رجال قبيلته والقبائل التي ارتبطت معها بوشائج القربى والنسب . ومن بين افراد هذه القبائل يختار مساعديه في الادارة ، والمدبرين لاملاكه وافراد حرسه ، ويجري فيهم العطاء بسخاء استدناء لهم ، ويعهد اليهم بتربية ابنه الذي يقضي طفولته الاولى وحدثاته بين البدو . وكانت

قبائل قزلباخ التركية السبع تنظر الى الشاه اسماعيل وخلفائه نظرها الى احد اولياء الله .

ويبقى الشاه في حياته البدوية على طباع البدو وعوائدهم يظمن كلما ظفروا ، فيصرف فصل الشتاء في سهول دجلة ، والصيف بين غابات مقاطعات بحر قزوين . اما فصلا الربيع والخريف فيصرفهما في الوديان الخضراء الظليلة الواقعة بين الجبال . وعندما يظمن الشاه وينتقل من مكان الى آخر ، ينقل معه مضاربه وما عنده من فرش ورياش واثاث ، وما يملكه من الطنافس والسجاجيد وما عنده من آنية ذهبية وذخائر ، والمواسير وطسوت الرصاص الكبيرة اللازمة لرسم حدائقه كل مساء . ويعمل في نقل هذه الامتعة اكثر من سبعة آلاف رجل فيسير في يومه مرحلة من ٨ - ١٢ كيلومتراً . وكانت الخيم والمضارب تنصب كل مساء لتؤلف مدينة يقوم في قلب منها خيمة الشاه او سرادقه ، وهي خيمة طولها ٢٠ متراً بعرض ١٢ متراً وعلو ١٠ امتار ، تعتمد على خمسة ركائز كبيرة تتقاطعها الستائر والسجد الفنية الموشاة بالذهب والفضة ، يتدلى من على جوانبها الديباج . ويستعمل في تركيز الطنافس في اماكنها رزات من الذهب الخالص . وكانوا يحرصون على تحويل مجرى الينابيع والترع بحيث تمر امام خيمة الشاه ، تحف بها الزهور والرياحين على انواعها . وعلى مسافة قليلة منها ، كانت تقوم مضارب الحريم والديوان والحرس ، ورجال البلاط ، والحمامات .

وقد حرص الشاه على ان ينشئ على مسافات معينة ، محددة بعضها من بعض ، اماكن للزمة والتسري مع الحدائق الغناء . وكثيراً ما تبني على طريق القوافل عاصمة جديدة له مع قصر منيف وقلة حصينة ، مع خانات واسواق ، يمد لها الحدائق الغناء توفر له متعة حياة البدواة ، بحيث يسمر ليلاً مفترشاً خاتل الحدائق السندسية مع سحاره وندمائه .

فالحكم والادارة ، في نظر الشاه واتباعه ، كما هو في الشرق عامة ،
الدولة مزرعة الظاهر
وسيلة لتأمين المنافع الخاصة ، وليس قط خدمة عامة في سبيل
يستغل فيها المغلوبين على امرهم
المجتمع . على من يتقدم ، من الشاه او من رجال الحكم والادارة
لديه ، بطلب ما ، ان يرفق طلبه بما يشفع به ويضمن الاستجابة له باسرع ما يمكن . فالدولة
إقطاع للشاه يستغله على هواه . فهي متاعه او ملكه منذ أن آتاه الله نصرأ مبيناً .

ولكي ينمتي الشاه موارده من المكس ورسوم الدخولية ويؤمن لنفسه موارد طيبة ، يذخر منها لليوم المصيب ، رأى ان يشجع التجارة والوقوف الى جانب التجار . ولذا سهر على تأمين المواصلات ويسر السير عليها بتوفير الماء للسابلة والقوافل الضاربة في طول البلاد وعرضها ، وذلك بالاكثار من الينابيع والآبار ، والسبل وأماكن الراحة والاستجمام ، وان يبني الجسور والمعابر والمجازات . كذلك كان عليه ان يؤمن البريد وان يحول دون تعديات البدو ، ويظهر الاسواق من الطفيليين والخطئة الذين يغشونها ، ويفرغ التجار الاجانب للقدوم الى البلاد . وكان يلزم جبابة رسوم المكس لعماله بينما أقطع معظم رسوم الدخولية شيوخ القبائل الذين كانوا

يسهرون على أمن المارة وراحتهم. فهو دوماً بحاجة للمال من التجار بانحس الاسعار ، ويكافىء رعاياه على امانتهم . فقد اوجب القرآن الكريم على المسلم ان يعشتر ماله . والمعروف عن سكان المدن انهم لم يكونوا ليرضوا ان يشتروا الا عن ايراداتهم من الملحقات او على الرسوم التي يجبونها من القرى ، وهي رسوم يفوض الشاه اليهم جبايتها عندما يكون بحاجة ماسة للمال . اما البدو فلم يكونوا ليدفعوا رسماً عن مراعيهم . فكل الضرائب وكل النفقات الخاصة بحياة البلاط وأود الجيش كانت تقع على كواهل اهل الحضر او على الفلاحين الذين كان يترقب عليهم ان يقوموا بأود جيش لجب من الموظفين وما اليهم من الاتباع . الا ان الشاه لم يكن ليرضى باعتصار الفلاح اكثر من طاقته . فالبلاد لم تكن لتفتقر للاراضي الزراعية ، بل لليد العاملة اذ ان الاراضي الجيدة كانت تتوفر تقريباً في كل مكان ، وكانت تدور كل اربع سنوات . وتشيد بيت لم يكن ليتطلب اكثر من ٨ - ١٠ عوارض قوية من خشب الحور ولا اكثر من ٨ ايام بناء . وتالف اثاث المنزل على الاجمال ، من سجادتين او ثلاث سجادات ، ومن اربعة الى خمسة صناديق وبعض الآنية الخزفية والجرار . فاذا ما برهن متمعد جباية الضرائب والاعشار عن جشع ، وابى ابن المدينة ان يدفع ما يتوجب على الارض المقطوعة له من ضرائب ورسوم ، فما كان اسهل على المزارع ، الذي ما زال يذكر انه كان للأمس العابر من اهل البدو ، الا ان يضع في عبه ما اقتصده من مال ، ويحمل حماره وزوجته ما خف حمله وغلائمه ، وسار على بركة الرحمن لا يلوي على شيء ، وهو واثق بأن ارض الله واسعة ترحب به انى حل وايثا نزل . وهكذا فغداة الفلاحين لقرام كانت تخفف عنهم جباية الرسوم وتجنبهم ما يتعرضون له من ابتزاز واعتصار بفيض ، تقوم به هذه الطبقة او هذه الفئة المقيمة غير المنتجة على نطاق واسع .

ولكي يرضى اقباعه ويقوم بما يتوجب عليه كولي وكمدافع عن الدين ورجاله وكزعيم يوزع عوارفه بسخاء ، كان على الشاه ان ينهض للحرب . وهذا ما تفرغ له تماماً الشاه اسماعيل وابنه الشاه تيماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) ، وقد اضطروا ان ينهضوا بالحرب على ثلاث جبهات : ضد الاتراك العثمانيين من جهة الغرب ، وضد اوزبك التركستان ، في الشرق ، وضد البرتغاليين في الجنوب ، مع العلم ان الاتراك والبرتغاليين كانوا يتميزون بما لديهم من مدفعية وحلة البنادق . فاذا ما تمكن من استرجاع مقاطعة خراسان من حوزة الاوزبك في الشرق (١٥١٠) والتقدم باتجاه بخارى ، فانه لم يستطع البقاء في اواسط آسيا كما ان خليفته على العرش امتنع عليه وضع حد لتعدييات الاوزبك على خراسان المتعددة . اما في الغرب فاستمرت غزوات الترك سجالاً . وفي الجنوب استطاع البرتغالي البوكر ك ان يستولي على جزيرة ارموز الصغيرة في مداخل الخليج الفارسي ، وشيد عليها قلعة حصينة (١٥١٥) فتمكن بذلك من السيطرة على الحركة التجارية في الخليج المذكور .

الاسرة الصفوية في الارج .
 الشاه عباس الكبير وفتحاته المظفرة
 بعد حقبة من الحروب الاهلية بين قبائل كزالباك حيث اخذ كل فريق يؤازر المطالب بالعرش ، استطاع حفيد الشاه تيماسب ، الشاه عباس الاول الكبير ، ان يستأثر بالحكم وان ينهض به الى الارج (١٥٨٧ - ١٦٢٩) . شب الشاه عباس بين قبائل كزالباك فتشرب روح البداوة وتخلق بالشجاعة والنشاط ، لا يبالي بالتمب . فقد كان شاباً مفتول العضل ، كثيف الشوارب ينم نظره الحاد عن عقل ثاقب وفكر صائب ، ان دل على شيء فعلى الحزم والعزم وصدق القصد في كل ما يقرر . تغلب على الازبك في هراة (١٥٩٧) وبذلك وضع حداً نهائياً لغزواتهم السنوية ولاستباحاتهم دورياً لخراسان . ولكي يضع حدود هذه المقاطعة في امان اجلى الوفا الاكراد عن بلادهم في كردستان مع ما لهم من الذراري والقطمان ، واسكنهم القسم الشمالي من خراسان حيث عهد اليهم بحراسة الحدود . وقاد ، بين ١٦٠٢ - ١٦٢٧ ، عدة حملات موفقة ضد الاتراك الممانيين ، فانزع من بين ايديهم تبريز وأروان وشروان وقرص ، وفتح أذربيجان وخوزستان ، ودخل بغداد والموصل وديار بكر وخفص الجزيرة التي كان عليه دفعها للسلطان الى ١٠٠ حمل من الحرير .

ولعل الشاه عباس الاول الكبير هو اول من ادرك ، بالمحسوس ، انه يستحيل عليه النهوض بالحرب على عدة جبهات . فقد قبل ان يعقد ، عام ١٥٩٠ ، مع الاتراك صلحاً خاسراً بحيث يستطيع ان يتفرغ لحرب الازبك . وبعد ان كسرم شر كسرة ارتد لحاربة الاتراك .

تعوية الروح الاستبدادية
 عرف ان يفيد الى اقصى حد ، من الانظمة والقوانين المعمول بها في البلاد ، ليقوي من سلطته ، وليزيد من واردات الخزينة وليضاعف من منعة الجيش . كانت الملكية الفارسية ملكية مطلقة . فالشاه هو سيد البلاد المطلق ، في الزمنيات والروحيات ، المتصرف بحياة الناس وباموال رعاياه ، كما يشاء . كل ما يأمر به يجب تنفيذه في الحال حتى ولو كان مثلاً ، فاقداً لوعيه . فهو فوق القوانين الطبيعية والوضعية . فاذا ما اصدر امره لابن ، كان على الابن ان يمثل للامر الصادر ، حتى ولو امره بقتل ابيه . فعلى الفرس ان يطيعوه في كل شيء الا فيما يخالف احكام الشريعة او امر بشرب السكر . كذلك يعتقد الفرس ان من طبيعة الملوك ان يتصفوا بالعنف والظلم . من اقوالهم المأثورة : « كمن ملكاً ، وهم يمعنون : كمن ظالماً ، ولا بأس من ان تحكم بخلاف العدل . كان احدهم اذا ما اشتكى امام القضاة من ظلم وقع عليه ، قال : « جرى معي ما يحريه الملوك » .

وهذا الطغيان المستبد انما يتبع من مصدرين رئيسيين ، فبلاد فارس فاز بها غالباً اي اخذها بالفتح ، ولذا كانت حكومته حكومة عسكرية ، مستبدة ، (تافرنيه) ومن جهة ثانية فالشاه هو نائب النبي المرزي وخليفته ، له فضائل خارقة الطبيعة ، والقدرة على شفاء المرضى . وهو بذلك سيد العالم وملك الملوك . وقد استطاع الشاه عباس الكبير ان يشدد على هذه الصفة

بكونه حامى الدين وحامى دمار الشيعة . ولذا شيد في مدينة مشهد ، في خراسان ، مسجداً كبيراً احتفظ فيه بذخيرة من ذخائر المسلمين ، هي قَدَمُ الناقة التي كانت تحمل النبي . وكان في كل سنة يتجه للتبرك بزيارة مشهد مع رجال حاشيته حيث كانت تجري خوارق مدهشة . وقد اعتاد الفرس ان يحجوا الى مشهد بدلاً من الحج الى مكة المكرمة . وكان للشيعة محجهم الذي يختلف عن حج السنة . وقد هدف من وراء هذا الحج الى امر اقتصادي هام هو الحؤول دون خروج الذهب من البلاد . وقد اعتاد ان يحج الى النجف وان يقوم بتنظيف وغسل قبر جده الامام علي .

عرف الشاه عباس بجذره الشديد تجاه قبائل كزالبك عماد
اسرته المالكة والتي كانت تتخذ من الاقليات وسيلة لتقوية
جهوده في سبيل تقوية
الاسرة الملكية من الوجهة القومية
نفوذها ، بعد ان نالت من الامتيازات ما شجع قبائل غيرها
على العصيان والتمرّد . فراح يحرق العرش والاسرة من تمويله على هذه القبائل وحمايتها باصطناعه
قبيلة جديدة باسم انصار الشاه ، ضمت بضعة آلاف من الرجال انتقام من بين كل القبائل ،
تطوعوا للعمل في الجيش وعملوا في خدمة العرش بكل ولاء ، وعرفت هذه القبيلة ان تقيم لها
علاقات ودية مع القبائل الفارسية الاخرى ، وهكذا اكتسبت الاسرة دعامة اكبر فازدادت
قومية في اعين رعاياها .

كذلك اخذ يخفض من افراد قبائل الكزالبك في الجيش ، فانزل عددهم من ٦٠ ألفاً الى ٣٠
ألفاً . واستعاض عن الفرق التي رفضت الخدمة في الجيش ، الا تحت قيادة خاناتها المعروفين بولايتهم
لسطان الاتراك ، بكتائب من المرتزقة ، بينها ١٠٤٠٠٠ فارس ، و ١٢٤٠٠٠ من المشاة ، كان
هو يعين ، ضباطهم ويصرفهم من الخدمة عندما يشاء . وكانت نواة الجيش فرقة الغلمان ، وهي
فرقة تألفت من الارقاء وابناء الارقاء . يؤتى بهم من كل القبائل ولا سيما من سكان الكرج .
ومن بين رجال هذه الفرقة اتخذ الشاه معظم حكام الولايات وموظفي البلاط . وهكذا نرى
هنا كما في السلطنة العثمانية كيف ان الدولة هي الجيش .

تلبست الحكومة مظهر حكومة منزلية فكبّار الموظفين في البلاط
او العاملين في خدمة الشاه الخاصة هم اعضاء في مجلس الملك الخاص .
تقوية الروح المركزية
يأتي في المقام الاول ، عظمة الدولة ، وهو بمثابة رئيس الوزراء .
ويليه مرتبة « الصدر » وهو المرجع الاكبر ، فهو بمثابة الوزير الاول لشؤون الدين ، وبإمكانه
ان يصبح رئيس الوزراء او « عظمة الدولة » ، وهو مرجع القضاة ، ويدبر الاوقاف والمساجد
لما فيه كماله رجال الدين وطلاب العلم . ثم يأتي « الناظر » الذي يتولى النظر في كل ما يتصل
باسطبلات الشاه والثياب والاواني المنزلية ، ثم رئيس الخدم ، وهو ابدأ من الخصيان البيض ،
يبقى على مقربة من سيده ويقوم بكتابة سره الخاص . وهناك موظف يعمل كأمين سر

الدولة ، فيطلع الشاه على ما يرد على الديوان من اوراق وظلامات . وهناك ناظر المالية او محاسب بيت المال يشرف على مالية الشاه ويضبط اعمال الجباية ، كما ان ناظر العدل يشرف على القضاء الديني والزمني على السواء ، ويقضي في امور خانات القبائل وكبار رجال الدولة . وكان العمل في مجلس الملك يقتضي له عدد كبير من الكتبة ، ولذا ترتب على الشاه ان يؤمن أود ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ من الارقاء الفتيان ، كان يجري تدريبهم على الكتابة والقراءة . فاذا ما اقترب احدهم ذنباً او هفا هفوة ادّبه الشاه وارسله للعمل في احد دواوينه الكثيرة في الولايات.

تقسم الدولة الى ولايات ، يتولى الحكم واعمال الادارة فيها حاكم يتمتع حاجات أود البلاط اسبوعاً كاملاً ، ويلزم جباية الضرائب ورسوم المكس ، ويرسل الاموال المحصلة ، كل سنة مع الهدايا السنية ، الى الشاه ، مرفقاً بما يفرض عليه تقديمه من الهندين ، بين خيالة ومهشة يجري انتقاؤهم بكل دقة ، وبذلك يقوم على الوجه الاكمل بما عهد به اليه الشاه من سلطات ، يساعده في تدبير امور الولايات موظفون من مختلف المراتب والدرجات ، وتقسم كل ولاية الى عدد من الاقضية ، يقوم على ادارة كل قضاء ، مأمور يرجع في الامور الدقيقة الى الوالي ، رئيسه المباشر يجري تعيينه او رفته من قبل الشاه . اما في الريف فكانت تقوم اقطاعات خاصة برجال البلاط وضباطه المعروفين بولائهم للشاه ، وهي اقطاعات يتمتع اصحابها بريعتها مدى الحياة ، كما كان يوجد اقطاعات معينة يتخلى الشاه عن ايرادها ، بما فيه ضريبة الخراج ، كلياً او جزئياً ، لصاحب الاقطاع .

ويقوم في كل مدينة قاضيات يجري تعيينها وعزلها من قبل الشاه تمود امورهما للمفتي ، يتولى احدهما النظر في الامور الجزائية ، كما ينظر في جنح السرقات والمشاكرات وجرائم القتل والامور المحلة بالآداب ، يساعده في اعماله هذه ضابط شرطة وبعض النبالين . وهناك قاض خاص كانت مهمته الدفاع عن مصالح الشعب والنظر في تعديات الحكام وتجاوزاتهم صلاحياتهم بابتزاز اموال الرعية . وهناك محتسب مهمته تحديد الاسعار للمواد الغذائية . فمن من التجار تجاوز هذه الاسعار ، تعرض للجزاء وللجلد معاً . وكان يقوم على الطرقات ، ولا سيما عند مركز الماء ، مأمور حراسة للنظر في هويات الناس وجوازات المسافرين . اما السرقة فكان عقابها شديداً اذ كان السارق يربط الى ذيل الحصان او الجمل ويجر على قارعة الطريق ، عاري البطن ، بحيث يموت جوعاً ، او انه يعرض مصلوباً على خشبة فوق ظهر حصان ، بعد ان تغرس قضبان الشمع في اطرافه . واذا لم يتم القبض على السارق ، كان على الحاكم ان يموض على التاجر الحسارة التي لحقت به . اما القتل ، فكثيراً ما كانوا يستهدفون القتل ، عملاً بشريعة السن بالن والعين بالعين . فقد اتفق ان قتل احد غلمان الحاكم ، فتى من نبله الفرس ، فما كان من الشاه الا ان اسلم القاتل الى اسرة المغدور به ، بحيث راحت ارملة وامه وشقيقته يقمن كل واحدة منهن بطمنة في قلبه ، يشربن دمه ، ليشفين غليلهن منه .

وهناك عدد كبير من الاثمة والشيوخ ينصرف للعلم والدرس ، بحيث كان طلاب العلم يتلقون

دروسهم على حساب الاوقاف . وكانت اسعار الكتب على الاجال ، عالية . ومع ذلك فمعظم الصناع والمهال كانوا لا يجمعون عن شرائها لشدة اقبالهم على العلم وحباً في المطالعة ولتهذيب اولادهم وتثقيفهم . وكان يقوم في الحى الواحد بضعة مدارس ابتدائية ، مع ان العدد الكبير من طلاب العلم كان يؤلف عائلة لانهم كانوا يتمتعون خيرات البلاد .

دان الشاه عباس بانتصاراته الحربية هذه العلاقات الوطيدة التي اقتباس الفنون الأوروبية ، اقامها مع الأوروبيين . ولما كان البرتغاليون قد قطعوا طريق ونشاط الحركة التجارية أرموز ، في الخليج الفارسي ، منذ عام ١٥٦١ ، استطاعت الشركة الانكليزية ، في موسكو ، ان توفد احد ممثليها المدعو جنكنسن لينشئ لها علاقات مع بلاد فارس عبر روسيا ، التي كانت بسطت سيطرتها على حوض نهر الفولغا . وقد نجح جنكنسن في محاولته هذه ، ودخل الانكليز الى بلاد فارس عن طريق مدينة استراكهان وبحر قزوين وبأكو وشيروان . الا ان الفوضى المستحكة حلقاتها في البلاد ، والاضطراب التي كان يتعرض لها عملاء الشركة الانكليزية ، من قبل القراصنة ، في بحر قزوين ، ارغمتها على قطع علاقاتها ، عام ١٥٨١ ، بعد ست رحلات قامت بها ، في ذلك الحين .

وفي عهد الشاه عباس ، دخل نيبلان انكليزيان مغامران بلاد فارس ، هما انطوني وروبرت تشرلي ، وبصحبتهما ٢٦ مرافقاً ، بينهم ماهر بصب المدافع ، وعملوا جميعاً في خدمة الشاه ، سنة ١٥٩٨ . وقد لقنوا الفرس شيئاً من اصول النظام واسبابه والاعتصام بالانضباط كما لقنهم بعض الفنون الأوروبية ، واسسوا بعض الفرق المدفعية وبعض الطوابير ، وجهزوا الجيش بـ ٥٠٠ مدفع . وسلحوا بالبنادق ٦٠،٠٠٠ جندي . وقد اشتهر روبرت تشرلي خلال الحملة التي قام بها الشاه ضد الاتراك . وبفضل هؤلاء الأوروبيين ، والعتاد الحربي الذي جهز الجيش به ، استطاع الشاه ان يلحق هزيمة نكراء بالاتراك السنيين .

ورغبة منه في مضاعفة وارداته ، راح الشاه يحتكر تجارة الحرير ، ورغب في انماء صادراته عن طريق الخليج الفارسي ، تفادياً منه للرسوم الباهظة التي فرضها الاتراك على مرور السلع في بلادهم . ولذا اضطر الشاه لمحاربة البرتغاليين . فوافد الى اوروبا ، السير روبرت تشرلي الذي مر ببولونيا والمانيا وروما وانكلترا واسبانيا دون ان يتمكن من الحصول على شيء رسمي . الا ان الانكليز المقيمين في صور (الهند) كانوا يجدون صعوبة في تصريف اجواخهم في السلطنة العثمانية . وقد وصل الى مسامع الوكيل الانكليزي العام بان بضاعته ستلاقي رواجاً في ايران ، حيث يشتد البرد والصقيع طيلة خمسة اشهر في السنة ، وبان في امكانه شراء الحرير من البلاد ، ٥٠٪ ارخص من سعره في حلب . ولذا راح يفاوض روبرت تشرلي في الامر . وبواسطة هذا الاخير اصدر الشاه ، عام ١٦٠٤ ، امراً للحاكم ان يبذل للسفن البريطانية ، كل مساعدة ممكنة . وهكذا قامت علاقات تجارية بين الطرفين عن طريق مرفأ جرسك . وفي ٢٨

كانون الاول ، حاول البرتغاليون ، اعتراض الاسطول الانكليزي في صورات . فساكن من السفن الانكليزية ، الاربعة الا ان حطمت السفن البرتغالية المساوية لها بالعدد . وبواسطة هذا التعاون الوثيق الذي تم بين الجيش الفارسي والاسطول الانكليزي ، سقطت قاعدة ارموز بيد الفرس عام ١٦٢٢ ، وعلى الاثر ، أسس الانكليز ومن بعدهم الهولنديون ، معامل لهم في ارموز ، وراح الشاه عباس يقدق انعاماته بسخاء على التجار المسيحيين ، وأمن لهم ممارسة واجباتهم الدينية ، وعمل على تحسين طرق المواصلات ، وبني الكباري والجسور والخانات ، واقام في غيلان ومازندران خانات من المروج السندية الخضراء ، كما انشأ طريقاً عريضة اجتازت الولايات المحيطة ببحر قزوين من الشرق الى الغرب ، واقام في ضواحي زلفا واصفهان بعض الجاليات الارمنية ، وعهد اليها القيام بتجارة الحرير الذي اخذوا بتصديره الى اوروبا . وبالمثل راحت الاجواخ تزد على المعجم من هولندا وانكلترا وغيرها من الديباج ويلور البندقية والساعات .

راح الشاه عباس ، كغيره من ملوك المعجم ، يبني له عاصمة في اصفهان
نهضة الفن الوطني : الواقعة على طريق القوافل الضاربة بين الخليج الفارسي وطهران ، والتي
اصفهان واوروبا كانت تتقاطع مع الطرق السلطاني الذي يصل الصين باوروبا مع بحر
قزوين . وشيد له فيها قصراً منيفاً جميلاً كما زينها بالقصور والمساجد والحدائق . وقد غطى
جدران المسجد بالفسيفساء والمينا والنقوش البديعة ، بحيث كانت قبة المسجد وجدرانه تتلألأ
بالانوار الساطعة عندما تنعكس عليها اشعة الشمس . فيخيل للرائي ، كأنه في بحر من اللازورد
المتلوج . وقام الى جانب قصر الشاه ، سوق ضخمة غصت بالصناع والصاغة وباعة الحلي
والمجوهرات بحيث اخذ يقصدها كبار التجار من الهند والصين واوروبا ، كما احتشد على مقربة
منها في الضواحي الوف من رجال القبائل يسكنون الاكواخ من التراب والقش .

ولم تقيم ان اصبحت اصفهان قلب الحركة الفنية في البلاد . واشتهرت على الاخص
بصناعة القاشاني الشبيه بالقاشاني الصيني . وعمل الهولنديون على تنقيته وبيعه في اقطار اوروبا
كأنه الخزف الصيني الاصل . كذلك نشطت فيها صناعة السجاد على انواعه واشكاله ، بعضها
نم عن ذوق الشيعة ، يشيع البهجة في قلب الرائي لما تقع عليه العين من الرسوم الجميلة ، وصور
الحيوانات والنباتات والاشجار والمشجرات ، بينما نرى ، من جهة اخرى نوعاً من السجاد
المعاري من كل حلي ، تبدو فيه رسوم هندسية وبعض الالوان الزاهية . كذلك اخذوا ينسجون
انواعاً جميلة جداً من الديباج الموشى بالقصب واسلاك الحرير الذهبية والخمائل ، كما فرشت
الجدران بالرسوم الجميلة من صنائع الفنانين الاوروبيين ، الذين جيء بهم من ميلانو والبندقية
ومقاطعات الفلاندر والمانيا ، او جاءت تقليداً حرفياً لهذه الصور والرسوم التي اهداها
لشاه عباس ، ملوك اوروبا وامراؤها ، وبرزت عليها صور فرسان اوروبيين بسراويلهم
وقبعاتهم وعمائمهم وجزماتهم ، كما برزت فيها نساء اوروبيات ، متخففات بأرديتهن الناعمة

المكشوفة ، بينهم لويس الثالث عشر ، الى جانبه ايرانيون ، واجناس من الكرج ، وجنويون وصينيون وصينيات ، بحيث كنا نرى مظاهر كل الفنون تتفاعل بعضها مع بعض . وعرف الايرانيون ان يخرجوا من كل هذا مزيج خاص ، واطلعوا منه فناً قومياً تميز بهذه الدقة في الصناعة وهذه التعابير الدقيقة التي تنسجم ببساطتها مع الروح السمحاء في المجموع . كل ذلك في نشابك وتلاحم وانسجام وتناغم من الوحدة والهدوء . فاذا بنا امام فن آسيوي بمقاييسه ومزدوجاته ، واوروبي بدقته وتناسقه وتناسب خطوطه ، هو قبل كل شيء ، فن ايراني صميم .

المخطاط الدولة الصفوية ما كاد الشاه يتواري عن الانظار والاذهان ، حتى اخذ الانحلال طريقه الى قلب الاسرة الصفوية المالكة . فقد كان من شدة غلوه في الحذر والتحجب ان أمر بان تشمل عيون ابنائه الاربعة ، كما اصدر اوامره بان يبقى امراء الاسرة المالكة قابعين في قصورهم مع الخصيان في عشرة موصولة مع النساء ، بدلا من ان يتدربوا على اعمال الحرب والمقارعة . وكان هؤلاء الامراء يقضون ليالهم في السمر يعاقرون الحرة حتى يتعتهم السكر . وكانوا في صحبة النساء وعشرتهم ، منذ حداثتهم حتى يغشاهم الفتيان فيسمعون وراء الغلمان يستسلمون للذائذم . وهكذا توالى على العرش اقزام من الملوك هم الشاه صافي (١٦٢٩ - ١٦٤٢) ، وعباس الثاني (١٦٤٢ - ١٦٦٧) وسليمان ١٦٦٧ - ١٦٩٤) ، والشاه سلطان حسين . واصبحت الوظائف العامة تشرى وتباع كالمحتاج ، يتوارثها الابن عن ابيه . وساءت مرتبات الضباط ، بعد ان تولى امور بيت المال مجلس المحاسبة ، اذ راح يوزع مرتباتهم أنجبا او اقساطا يفرضها على القرى بحيث كان الضابط يرى نفسه مضطراً لان يرشو اعضاء المجلس المذكور ليتاح له قبض مرتبه من صندوق واحد معين ، والا باع حوالبته بخسارة كبيرة لبعض التجار . وراح الحكام و متمهدو جباية الضرائب يخلسون معظم ما يجبون من ضرائب ورسوم ، بحيث لم يكن ليصل الى بيت المال ، اكثر من ثلث المبلغ العائد له . وهكذا تخلخلت وحدة الجيش واصيبت أطُسرُه بالانحلال ، وواح الاتراك ، بقيادة السلطان مراد الرابع يحتلون ، من جديد ، بغداد ، والعراق (١٦٣٨) ، كما اخذت قبائل الاوزبك تغزو ، من جديد ، خراسان ، الا انهم كانوا ، هم ايضا ، في طريق التفسخ والانحلال . واستطاع لإمام عمان ان ينتزع مسقط من ايدي البرتغاليين (١٦٥١) ، وراح يكثر من غزواته لمرافيه ايران . على الخليج الفارسي .

كان الاوروبيون يتنافسون ، فيما بينهم ، على الاتجار مع بلاد فارس . فالى الاسباب العديدة التي كانت تدعو الشاه لمعاملتهم بالحسنى والترحيب بهم ، هنالك سبب هام جسدأ في نظره ، وهو الحصول على المدافع الاوروبية ، ليصد الطامعين في خيرات البلاد ، واذا كان الانكليز منصرفين لحروبهم الداخلية ، منذ عام ١٦٤٥ ، استطاع الهولنديون ان يفرضوا سيطرتهم على الحركة التجارية مع بلاد فارس ، بعد ان نالوا امتيازاً من الشاه ، بشراء الحبر من كل مكان وتصديره للخارج بدون رسم عليه . وعندما شرع لويس الرابع عشر يطبق

سياسته التجارية ، أصبحت المنافسة الفرنسية تكون مزاحماً يحسب له الف حساب في هذا المضمار . وفي سنة ١٦٦٤ ، أوفدت الشركة الفرنسية للهند ، موفدين من قبلها الى اصفهان ، ومعها نبيلان هما : قائد ملك اوروبا العظيم وسفيره . وقد توصل السفير الى ان يحصل لحساب الشركة الفرنسية على فرمان يعفيها من رسوم المكس ، مقابل مبلغ ٣٠٠٠٠ ليرة يتبرع بها الملك لويس للشاه ، كما نال الملك تصريحاً من الشاه يجعله حامياً للمسيحيين الارمن والكلدان والسرمان (١٦٨٣) ، وتمنى الشاه قدوم عمارة فرنسية للحد من إمام مسقط ، وقدم مقابل ذلك حصنين من حصون مسقط ، ومرفأ يقع على مقربة من بندر عباس ، والاعفاءات من رسوم المكس (١٦٨٩) . الا ان الحروب التي نشبت بمناسبة خلافة اسبانيا وضعت حداً لكل هذه العلائق المشجعة . وفي سنة ١٧٠٨ ، عقد ملك فرنسا وشاه ايران معاهدة تجارية حالت الحرب دون تنفيذها . ووصل مدينة مرسيلى ، عام ١٧١٥ ، محمد بك السفير الفارسي الذي وقع معاهدة تجارية جديدة وميثاق صداقة ، في ١٣ / ٨ / ١٧١٥ مع سمو امپراطور فرنسا الممتاز لويس الرابع عشر ، الملك السيد المطلق ، لفرنسا والممالك والمقاطعات ومدن باريس ونورمنديا وبريتانيا ، والاكويتين وغسكونيا والبواتو سانتونج ، وغير ذلك ، من المدن والممالك . وفي هذا الوقت بالذات كانت تنهياً امور واحداث هامة تستهدف بلاد فارس بالذات . ففي الوقت الذي راح فيه الشاه سلطان حسين المشهور بورعه يكل الى الخفيان ورجال الدين المراكز المهمة في الدولة ، هذه المراكز التي يجب ان يحتلها رجال السيف اذ بسفيرين روسيين يفدان على اصفهان ، عام ١٧٠٨ ، و ١٧١٥ ، وراح الروس يتهاون للهجوم والانقضاض على البلاد ، كما راح الافغانيون من جهتهم يعلنون الثورة ، وهم سنيون صادقون لعقيدتهم ، الذين لم يصدقوا يوماً ولاهم ، في هذه الجبال الوعرة المسالك التي كانوا ينزلون بينها . وكان هذا من شأنه ان يحمل الفوضى والاضطراب الى بلاد فارس .

هنالك بلدان اسلامية اخرى تتبع قارات اخرى سيجري ،
بين رفض الاسلام لاوروبا
وعدم استغنائها عنها
درسها بالدقة والتفصيل اللازمين ، عندما يحين درس هذه الاقطار .
غير ان السلطنة العثمانية والدولة الفارسية يؤلفان مثلين على ما
لهاتين الدولتين من اشعاع على الاسلام وما يخفيانه ، في الداخل ، من ضعف يحد من طاقتهما
على الاشعاع والتوسع . فالانقسامات الدينية ، وتنظيم الاسرة المسلمة والدولة الاسلامية ،
والنقص الفاضح في العلوم التي لا تنبع من صميم القرآن ، والقول بالقدرية ، تركت مع ذلك
للاسلام ما يكفي من القوة للوقوف بوجه اوروبا وللانسياع منها والاستبطار في بعض نواحيها
الى حد ما . انما شكاً في داخله من اعراض او هنته فأقعدته ، وحالت بالتالي دون استباحته
العالم المسيحي . وكان القدر الذي قسم للمدنية الاسلامية ، التي بقيت في طورها اللاهوتي ،
قد قدر لها ان تعرض عن المدنية الاوروبية ، مدنية الكفار الهالكين في النار ، هؤلاء الكفار
الذين يشركون مع الله شريكاً ، كما اسقط في يده لعمل شيء ضد هذه المدنية البغيضة ،
بواسطة هذه الذرائع والادوات ذاتها التي استنبطها العقل الاوروبي « الواقعي » .

الفصل الثاني

العالم الهندي، الاسلام وأوروبا

الدول الاسلامية كان المسلمون في اواخر القرن الخامس عشر ، باعتبارهم جيشاً فاتحاً مرابطاً في الاقطار المفتوحة ، يسيرون عالم الهند الحشف والمهانة ويستثمرونه أبشع استثمار ، وكانت الهند ، اذ ذاك منقسمة الى عدة ممالك يتولى الامر فيها زعماء مسلمون تدعمهم جيوش قوية . وقد قام في د س هول الهند الفانجية ، بضعة منها ، امها مملكة افغانستان ، في لاهور ، ومملكة البنغال . وقام في قلب البلاد ، على صعيد الدكن المرتفع ، بضعة ممالك بينها مملكة الخندش ، واحمد نجاتر وغولكوند وبدجاور وبيدار . وقام الى الجنوب ، امبراطورية هندية هي مملكة فيجانيغار التي كانت ترسف في القوضى ، والتي اعتراها الانحلال بعد عام ١٥٦٥ ، وانقسمت على نفسها الى عدة امارات يتولى الامر فيها حكام هم الناباك ، تحت سلطة الامبراطور الاسمية . وهذه الدول الاسلامية ، انما كانت بالاساس جيوشاً غريبة استوطنت البلاد ، من اصل بدوي او نصف بدوي ، هبطت ، اساساً من جبال افغانستان او من فيافي التركستان وثاقلت وطأتها على الهنود المسلمين الذين تراوح عددهم في هذه المنطقة الشمالية الغربية . بين بضعة ملايين ، وهو عدد لا ينقص بشيء عن عدد الهنود التابعين للديانة الهندوكية .

المسلمون الفاتحون ونظام الطبقات كان الفاتحون بالنسبة للهنود بنسبة الورقة الى البحر . فالمدنية الهندية لم يدخل عليها من جراء وجودهم اي تطور ، لها من هذه الكتلة الضخمة من السكان الذين تجاوز عددهم مائة مليون ، منهم تقريباً ٣٠ مليون في الدكن وامبراطورية فيجانيغار ، و ٦٠ مليوناً تقريباً في الشمال ، ما يصونها ويحافظ عليها . وكان لهذه الكتلة البشرية ، من عقيدتها الدينية ، ومن النظام الطبقي الذي سارت عليه منذ اجيال ، ما يحول دون الحاق اي تأثير عليها . تشتق كلمة « طبقة » *Caste* من كلمة برتغالية *Castu* ، التي تعني عرفاً او سلالة . واول استعمال لهذه الكلمة بالمعنى الهندي الضيق ، يعود لسنة ١٥٦٣ . فقد كتب غارسيا ده اورتا قائلاً : « ما من احد يعمل في مهنة تختلف عن مهنة ابيه

وكل من م من « طبقة » الاسكافيين يعملون في الاسكافة . وقد اعلن مجمع غوا المقدس ، عام ١٥٦٧ ، ان اقوام الهند ينقسمون الى « طبقات » ، متميزة الواحدة عن الاخرى ، وتباين فيما بينها منزلة وكرامة وتنتظر جميعها الى المسيحيين كن م في أحط دركات المجتمع البشري ، ينظرون اليهم نظرة ملؤها الاستهجان ويعززون اليهم الحرافات والاساطير (بالنظر الى عاداتهم المميزة) بحيث يأبى اي شخص من الطبقات العليا الاخرى ان يحاسنهم او ان يقاسمهم المأكول والمشرب . وهكذا ألفت الطبقة فئة من فئات المجتمع ، مطبقة على نفسها ، معزولة عن غيرها من الطبقات ، تعيش على اعرافها وعاداتها الموروثة ، لها انظمتها الخاصة ومجالها الاجتماعي الخاص ، ومهنتها وعصبيتها . وهذه الفئات البشرية والمجتمعات التي تؤلفها تختلف اصلاً وفصلاً . ويلاحظ احد المؤرخين ان جدول الطبقات الخاص باحصاء ولاية مدراس ، عام ١٩١١ ، يعطي فكرة عن تقسيم الانكليز انفسهم ، الى أسر نورماندية الاصل والى كهنة ونبلاء ، ووضعيين وتجار حديد ، وبقوليين وشيوعيين واسكتلانديين ، وهذه الطبقات كانت الواحدة منها معزولة بتماماً عن الاخرى ، كما كانت جميعها تعزل نفسها عن الفاتحين والغزاة المسلمين ، وتنفادي الاختلاط بهم ، وذلك سيراً منها مع تقاليد الموروثة ، وتجنباً للتدنس او التنجس ، اذ كان يترتب على المزارع ، وهو من طبقة البولايان *Poulayan* او طبقة المنبوذين ، ان يقف من محذو البراهمان ، على بعد ٩٦ خطوة ، لا يخاطبه الا عن مثل هذه المسافة او هذا البعد ، خشية ان يلحق به الدنس اذ وقف منه على ٩٥ خطوة . واضطر الغزاة لمراعاة هذه الاعراف والعوائد اذ ان مسها او تمديليها من شأنه ان يسبب هيجاناً عاماً ، وربما ثورة عارمة بين الهنود الذين كانوا يتبرمون باحتلال الغريب لبلادهم ، وطرق الاجني لها ، شريطة ان تكون حياتهم الخاصة ، وهي الحياة التي لها قيمتها في نظرم تبقى مصونة محترمة . ونظام الطبقات هذا أتاح لحضارات كثيرة ان تعيش جنباً لجنب مع غيرها من الحضارات الغربية التي سيطرت في الهند ، وانقذ المدنية الهندية وحفظها سليمة مصونة بالرغم من توالي الفاتحين وتعاقب احتلال الاوروبيين .

١ - السلاطة المغولية الاولى

قامت في الهند ، في مطلع القرن السادس عشر ، دولة مغولية جديدة ، بابر سارت في تطورها الصاعد على النهج الذي اتبعته الدولة الصفوية ، مدفوعة الى هذا المسلك ، بالاسباب ذاتها . تحدربابر (١٤٨٣ - ١٥٣٠) من عائلة تيمورلنك ، لجهة ابيه ، ومن اسرة جنكيزخان لجهة امه ، وولي الحكم خلفاً لابيه سلطان علي ، على فرغانة ، في التركستان ، عام ١٤٩٤ . فبعد ان خلمه الاوزبك ، عمل على جمع فريق من المغامرين وشذاذ الآفاق حوله واحتل بهم مدينة كابل ، وحاول بعد ان عقد حلفاً مع بلاد فارس ان يفتح فرغانة من جديد . وقد جر عليه تحالفه مع الشيعة نقمة المتعصبين من السنة ، ثم لم يلبث ان انتنى عن فكرته هذه ، بعد ان دخل مدينة سمرقند واضطر لمغادرتها مرتين ثم اتجه نحو الهند

منجذباً اليها بعد الذي سمعة من اخبار الذهب والفضة وتوافر الصناعات الماهرة . ولذا اخذ بمهاجمة مملكة دلهي الافغانية ، ثم لاهور ، وكسر الافغان شر كسرة في معركة بانيبوت (١٥٢٦) فاستولى معها على دلهي واكرانودي به امبراطوراً على هندستان ، في مسجد دلهي ، وذلك يوم ٢٧ نيسان ١٥٢٦ .

الا ان بابر كان اعجز من ان يحقق حلمه هذا . فلم يقم من يقف بوجه المغول مع ان جيشه لم يكن ليتجاوز عدده الـ ٢٥٠٠٠ جندي ، تجاه ١٠٠٠٠٠٠ . الا ان نظام التعبئة الذي سار عليه ، والمدفعية الشديدة ال اثر التي استعملها ، وكلاهما من اصل تركي ، امنّا له الفوز على الفرسان الافغان والراجبوت . فجعل في مقدمة جيشه وطلبعته مئات من المركبات والعربات شدها بعضاً الى بعض ، ونصب بينها مدفعيته التي أوكل امرها الى طويحية اترك ، فحصلت العدو حصداً ، بعد ان أسقط في يده امام هذه الجبهة المتراسة على هذا الشكل . ونصب فرقة الخيالة ، الى جناحي جيشه ، فاخذت تقطر العدو سحابة من النشاب ، ليقوم بعد ذلك بهجوم جانبي يضع حداً لكل مقاومة .

حمل هذا الامبراطور احتقاراً عميقاً للهند . فقد جاء الهند لعدم وجود شيء آخر احسن منه ، الى حيث لا مقاومة ولا من يقف بوجهه . الا ان مزاجه البدوي كان يجعله دوماً نحو الجبال والتفكير بارضها العاصية . فقد وجد الهنود لا كفاءة لهم ، ولا اساليب ولا طرق لهم معينة ، ولا خيول عندهم ولا كلاب أصيلة ، ولا بطيخ 'مقطر' ، ولا غنبل ولا خبز طيب ، ولا ماء قراح ، ولا ماء جار في حدائقهم ورياضهم . فلم يكن في الهند على الاجمال ولا لدى الهنود شيء طيب يذكر . فقد ازدراهم من حيث هو مسلم واخضعهم لضرائب خاصة كالجزية كما فرض رسوماً على مزارعهم واماكن الحج عندهم . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ان يحمل له الهنود كل - قد واحتقار ، اذ قيل : وكما تراني يا جميل اراك . فلا عجب ان يتفادى الهنود المغول ، ويتجنبوهم ، وان يحلوا الفلاحون عن قراهم ، وسكان المدن عن مدنهم . فاهملت الارض وبارت الفلال بعد ان اجذبت المزارع ، وانتشرت في طول البلاد وعرضها عصافيات تقطع الطرق وتعرض للسابلة . ولذا كان عليه ان يحمل من امبراطوريته امبراطورية بالفعل لا بالكلام .

هذه المهمة كانت من حظ السلطان اكبر ان ينهض بها وان

مشكلة تكيف المغول مع الهند : السلطان اكبر يحققها على الوجه الاكمل . (١٥٤٢ - ١٦٠٥) . صار اليه الامر بعد ان توفي ابوه السلطان هومايون ، ابن السلطان بابر ، الذي عرف بالشجاعة والاقدام . تولى اكبر الحكم عام ١٥٥٦ ، بعد ان بدا العوبة بيد امه ومرضعه ووزرائه . الا انه لم يبدأ بالحكم الفعلي الا سنة ١٥٦٢ ، عندما صرع بضربة من جماع يده رئيس وزرائه . فقد صرف حداثته يلهو بالقنص والصيد . أوتي من القوة البدنية وقوة

الاحتمال ، ومن النشاط والشجاعة الشيء الكثير بحيث أصبح مفزعة الشرق كله . فقد شابه الاسكندر المقدوني من وجوه عدة . فقد كان يروض ، وهو ابن ١٤ سنة ، اشد القبيلة شراسة ، تمردت احدى القرى ضده فاسرع مهاجها على ظهر فيله ، ولم يبال بالنبال المنهالة عليه وتكسر على درعه ، ثم اندفع بفيه فوق الحواجز ، ودخل البلدة وامر رجاله باحراقها . هاجم مرة وهو في الجبال غمرة وصارعها بضربة نجلاء من سيفه البتار . فقد وجدت الهند في هذا الشاب فتاهاً وسيداً .

كان ربة ، عريض المنكبين ، أعقف الساقين ، تقدح عيناه اللوزيتان النار والشر ، له شاربان خفيفان وصوت جهوري ، حنطي اللون ، وكان من المهابة والوقار بحيث تدرك من اول الحظة انك امام ملك . فقد كان وقوراً رصيناً . اتصف بالطيبة واللطف . على الاجمال ، يمتلك زمام امره ويخفي سريره . اما اذا ما استشاط غيظاً وحمي غضبه انزل الرعب في القلوب . وبالرغم مما اوتي من قوة بدنية ، فقد كان دائماً قلق البال ، لا يرتاح ولا يسلو اضطراب الحاطر الا اذا اخذ بعض المسكرات او اخذ شمة من الافيون .

كان امياً يحمل الكتابة والقراءة ، مع الملاحظة ان زعماء الهنود كانوا دائماً يرددون بان الكتابة ليست بامر خليق بالفاتحين . فقد استمع الى قصص وحكايات كثيرة ، وأوتي ذاكرة هائلة . يحفظ جيداً اسماء شعراء الاسلام ومؤرخيهم ، كما كان وافقاً على تعاليم الانجيل والمقائد الرئيسية في الديانة المسيحية ، ومبادئ الهندوكية واليانية والزرادشتية . وكان يناقش ويجادل بمعرفة ، في هذا كله ، بدقة واستبانة . عرف بذكاء فطري واسع وبمنطقه السليم . نظر الى الامور من فوق ، من عل ، كما عرف الكثير من الاشياء بتفاصيلها . ملك من الجيل الثالث . ومع ذلك لا تزال تجيش فيه روح البداوة . فقد ادرك جيداً ما فات باپر وابنه هومايون تفهمه . تمت له نظرة شاملة وفكرة عالية عن السياسة والدولة . فقد ادرك على الوجه الصحيح الظروف التي تمت فيها الغلبة للمغول وساعدت على ترسيخ دولتهم .

من جداً ان يكون جيشه دوماً على احسن ما يكون تدريباً وعدة ، وكفاية وفعالية لينهض على الوجه الاتم بالحروب التي تحتم عليه مواجهتها . وقد أدرك جيداً فلسفة التكتيك الحربي القائلة : اذا لم تبادر للهجوم ، استهدفت له وتمرضت له بأسرع مما تظن . حارب طوال حياته المدينة مستجيباً لداعي الجهاد المقدس ، من اقصى الهند الى اقاصها ، فدوخ غوجرات (١٥٧٢) ، وصورات (١٥٧٣) وملكة الافغان في البنغال (١٥٧٤) وملكة اوريسا (١٥٩٢) ، وغزاة سلطنة احمد نجار ثم انكفأ على اعقاب ليخمد ثورة الراجبوت و ثورة البنغال وبيهار (١٥٨٠) والثورة التي قام بها التيموريون ، كما رد التهجيات والتعدييات التي تعرضت لها من قبل الاوزبك ، واعاد فتح كابول (١٥٨٥) وضم الى ممتلكاته كشمير التي اصبحت روضته الغناء (١٥٨٦) فقد تم له اكليل الفاتحين ومجد الغزاة المظفرين ، واشتهر بتوزيع اسلاب الحرب بين جنوده .

الدولة هي معتمدة الجيش
المغولي . استغلال المتجيبين
اختار اكبر من بين ضباط جيشه عماله علي الايالات والموظفين
الذين كان بحاجة اليهم لشؤون الادارة ، معظمهم اغراب عن الهند
اجانب من المرق . الابيض . فقد كان يزديري اولاد هؤلاء البيض
الذين يسمون وراء تغيير لون بشرتهم . او تبدل طبائعهم فيسترسلون للبطالة كالهندوس . ولكي
تفتح امام الموظف الابواب على مصراعها للنجاح والترقي ، كان يستحسن فيه ان يتحدر
اصله من جبال افغانستان او من سباسب ايران ، او من بقاع التركستان او من مغوليا . ان
٧٠٪ من عماله وموظفي الادارة هم من هذه الاسر التي جاءت الهند في عهد ابيه السلطان
هومايون او اثر تبوئه هو نفسه العرش وآلت اليه مقاليد السلطة . فقد كان بينهم ١٥٪ من
مسلي الهند ، و ١٥٪ من الهنود غير المسلمين ، لا يصل بينهم للراتب العلي سوى
النزر النزر .

فبالنظر لوضع البلاد الاقتصادي ، كان المسلك الوظيفي هو الذي له قيمته ، ولا سيما
الوظيفة في البلاط الملكي او في الادارة العامة التي هي تعبير عن الجيش ، هذا الجيش الذي هو
عماد الدولة وفيه قيامها . وقد مثل الجيش بهذه المقادير التي كان يستهلكها من غلال الارض
وانتاج البلاد ، المنصر الاكبر في مرافق الدولة الاقتصادية ، كما ان الطبقات المقيمة كانت
تستهلك جانبا كبيرا من محاصيل البلاد ، في الوقت الذي لم تكن لتموض على المنتج بأي شيء .
وهؤلاء الطفيلون كانوا من الكثرة بحيث كان يتعذر حصرهم وعددهم . ضم الجيش في مختلف
قطعاته وألويته ، في جميع انحاء الهند اكثر من مليون جندي . فقد ألفت قطعاته حلقات
متسلسلة بينهم امراء الدم من الاسرة المالكة الذين كانوا على رأس وحدات تتألف من ١٠,٠٠٠
خيال او فارس . ويليهم مرتبة على التتابع ، رؤساء الوحدات من ٥,٠٠٠ و ٣,٠٠٠ و ٢,٥٠٠
و ١,٠٠٠ و ٥٠٠ و ٤٠٠ و ٥٠ و ١٠ وكان من المتوجب على هؤلاء الضباط
ان يجندوا الجنود ويحضروا لهم الخيل ويجهزوههم بما يلزم من عدة وعناد ، مقابل مرتبات تدفع
لهم . ومن بين هؤلاء الضباط كان السلطان اكبر يختار عماله والموظفين الكفاة للمراكز
الادارية البارزة فاذا ما عين مباشرة موظفين مدنيين كانت عليه ان يعين مرتباتهم وان
يوليهم مسؤوليات المنسبدار .

كان السلطان اكبر يتولى الحكم بنفسه دون مساعدة رئيس وزراء ، يعاونه اربعة وزراء
وبعض الضباط العاملين في البلاط ، وقسم البلاط ورئيس الطهارة . ومن مجموع هؤلاء كان يتألف
مجلس الملك الخاص ، الذي كان يقدم النصيح والمشورة للملك الذي يحتفظ لنفسه باتخاذ القرار
اللازم في نهاية الامر ، وليس من يحد من ارادته او يقف بوجهه ، لا قانون ولا دستور ، يقضي
في يومه بالامور العارضة له ، ويستقبل في ديوانه الملكي في جلسات عامة كل ملتصق او مطالب
بحق مهضوم ، او متظلم من ظلامة واقمة عليه ، فيجزم السلطان نفسه بالقضايا المختلف عليها .
وكان كتبة السر يحرسون على قراراته هذه . اما الادارة فكانت متشعبة للغاية بحيث يجري

تسجيل كل قضية بما يلزم من الايضاحات والبيانات اللازمة . كل هذه المعاملات كان يقتضي لها جيش لجلب من الموظفين والكتبة ليس لهم محل او ذكر بين مراتب الجيش وصفوه . ولضبط غلال الارض والمحاصيل ، كان لا بد من عدد محترم من المحاسبين والكتبة ، ومثل هذا العدد واكثر ، لجباية الرسوم ، ومثلهم لمتولي شؤون المال والتحصيلات ، وغيرهم من المحاسبين والمفتشين لضبط القيود والاشراف على عمليات الجرد ، وكان الوف من الكتبة يسجلون كل يوم بيومه مجموع واردات الدولة ومداجيل الضرائب ومصروفات الملك كما يسجلون البارز من حوادث البلاد وماجرياتها اليومية ، ويضبطون اسماء الاجانب الذين يدخلون البلاد ، مع بيان باسماء البلدان التي قدموا منها والغرض من زيارتهم .

كان للسلطان اطباؤه وفنانوه وشعراؤه ، وكان يعمل في حرمه اكثر من ٥٠٠٠ امرأة لكل واحدة منهن شقتها الخاصة وخادمتها ، يقوم على حراسة هذه الجحافل من النساء حراس نساء وخصيان وعدد لا يحصى من العبيد الارقاء .

وكان السلطان يستهلك كل يوم مقادير هائلة من انتاج رعاياه ، يؤتى له بماء نهر الغانج اينما حل ، وكان العدائون يحملون الثلج اللازم للتبريد ، من الجبال كما يحملون الفاكهة والثمار الشهية من كشمير وكابول وسمرقند . وكان في خدمة كل فيل من فيلته من ٤ - ٧ اشخاص . وقد اخذ السلطات على نفقة الخاصة اعالة الألوف من المسافين والمصارعين والصيادين المعننين بامور البيرة . وقد حلا له ان يشيد الصروح والقصور والاضاريج الكبيرة والمساجد الجميلة ، والمدن كمدينة فاثبور سيكاي التي شيدها بين ١٥٧٠ - ١٥٨٠ ، بمناسبة مولد ابنه وولي عهده . وكان يعين في كل ولاية او صوبا حاكما او منسبدار . وتقسّم الولاية نفسها الى عدد من الاقضية او سرکسن على رأس كل قضاء منسبداران احدهما قائد للجيش والاخر ناظر لبیت المال . وقامت في المدن والمرافىء البحرية ، ادارات مستقلة يعهد بها الى محتسب او كاتوال يكلف بالسهر على امور الأمن ، ومعاينة المجرمين وتحديد الأسعار ، ومراقبة المكايل والموازين وملاحقة الكسالى والزاهم على العمل ، والسهر على تنفيذ التعليمات الصادرة عن السلطان . وكان يساعد الموظف القائم على شؤون الادارة ، مئات الكتبة والخدمة ، فحمة المشاعل ، وحلة الأسرة ، واهل الطرب والموسيقين ، والارقاء والخدم من كل نوع ولون . وكان الموظفون الملكيون يمارسون كل السلطات التي يعهد بها اليهم ، فكانوا يتقاضون رواتبهم عن وظائفهم من عوائد « جاجير » وهو عبارة عن قرية او عدة قرى ، يتولى ادارتها ويستغلها كملك خاص ومن ريعها يؤمن مرتبه . وكان في كل ولاية محاسب عام يؤمن النفقات الادارية العامة ويرسل بالفائض من واردات الضرائب والرسوم للامبراطور . اما الجمارك او ادارة المكس فكانت تخضع لنظام خاص من التزيم .

واخيرا قام في كل مكان زامندارات نبلاء يتولون ادارة اراض واسعة ويمارسون فيها كل انواع السلطة لقاء عوائد معينة ، يدفعونها للامبراطور ، الذي كان يوسع ان يسترد هذه

الاراضي المقطعة . وكثيراً ما كان يترك هذه الاراضي لاصحابها يستغلونها كما يشاؤون لتنقل منهم الى ذريتهم .

وهكذا نجد أنى وقعت منا العين ، عدداً كبيراً من الناس استهلك الانتاج واستعالة الادخار لا يقومون بأي نشاط منتج ، وان نشطوا فلا يعطي نشاطهم اي انتاج . فالبلاء ، موظفو الادارة والزمندار ، كل هؤلاء ومن لف لفهم ، عاشوا في بذخ اسطوري ، التفت حولهم حاشية طويلة من الطفيليين ولم يكونوا ليعطوا البلاد شيئاً يذكر ، لا من باب المنافع العامة كالطرق والجسور والقناطر المائية ، وسبل المياه والاquatic الخاصة بالري ، ولا ما يؤول الى تنشيط الحركة التجارية او يضمن سلامتها . فقد كان من المستحيل ، في مثل هذه الاوضاع جمع رؤوس اموال ، كما كان من المستحيل على اصحاب الثروات ، ان وجدوا ، ان يستثمروا اموالهم . فلم يكن احد من النبلاء ليجرؤ على التظاهر انه يدخر او يقتصد من مرقبه او يجمع ثروة ، والا تعرض للمصادرة . وعند وفاة احد النبلاء ، كان الامبراطور يصادر خلفاته ، وبذلك تضطر كل اسرة ان تعاود سيرتها من جديد . وعلى مثل هذا قس ايضاً التجار الاغنياء . وكان كل تاجر من طغمة التجار عرضة للبص والاعتصار عن طريق سلفات اجبارية لا تسدد ابدأ لصاحبها ، كما كان يفرض عليه رسم معين اذا ما اشتبهوا بتوفيره مبلغاً من العملة السائلة . اما الفناذير فكان النبلاء يرغمونهم بالقوة ، واحياناً تحت طائلة الجلد ، للعمل في خدمتهم بالهجان ، وان دفعوا فنصف المبلغ المتفق عليه . ولذا كان من المحال عليهم ان يقتصدوا بشيء من دخلهم او ان يجمعوا رأس مال يستثمرونه بالتي هي احسن ، بشراء امتهنة او بعض الحامات وكثيراً ما بلغ من شدة فقرهم ما اضطروا معه للاستدانة لشراء الفل الذي لا بد منه في صناعة الحياكة والنسيج ، او النول اللازم لفزله . وهكذا فقد امتنع كل صاحب صنعة او معمل عن ان يقتصد بشيء . فكل ثروة او رأس مال هي من حق النبلاء او من حق كبار التجار . وبذلك امتنع كل تقدم او تطور واصبح امره من المحال .

فالموظفون لم يكن لهم من هم سوى جباية الرسوم المفروضة على الفلاحين ، والمفروضة على المئات من اصحاب الحرف والمهن ، والرسوم المتوجبة على اجتياز الانهر والترع وغير ذلك من رسوم المرور على الطرقات ، او الرسوم المفروضة على المبيعات او على المواليد . كل شيء كان عرضة لدفع رسم عنه . وكثيراً ما كانوا يجبون من الرسوم تأميناً لمصالحهم الخاصة ، اربعة اضعاف ما يرسمه او يعينه الامبراطور ، بعد ان تعذر القيام بأية مراقبة او تفتيش . فاذا ما رغب التجار والصناع ان يعاملوا بالعدل والنصفة ، ترتب عليهم ان يحزلوا الهدايا الثمينة .

ولذا رأت التجارة نفسها مقيدة من كل جانب ، كما انها كانت دوما مهددة لفقدان السلام والطمأنينة . ولذا أجبر التجار على السفر قوافل تتألف القافلة الواحدة من ٥٠٠ شخص واكثر تحت حماية قوية من الجند المدججين بالسلاح .

وكانت نفقات السفر تزيد من اسعار الحاجيات ، بحيث ان ثمن صنف من هذه الاصناف يصعب في غير متناول العادي من الناس ، بعد ان كانت هذه المواد تقطع في تنقلها من ٢٠٠ - ٢٥٠ كيلو متر ، وهذه المسافة هي المجال التجاري لمدينة لها بعض الشأن . والتجارة البعيدة المدى لم تكن ممكنة الا لهذه الاصناف او المواد التي تتحمل طبيعتها ، مجالاً اوسع من الارباح ، وهي مواد قليلة ، على الاجمال ، نادرة ، لا تنقل الا بمقادير قليلة .

اما الصناعة فكانت يدوية ، يعمل اصحاب المهن والحرف ، بناء على طلب او توصية بسيطه كلي ، وبكسل ، على اجهزة وادوات فقيره ، فلم يكن ليتوفر لهم من الخامات بحيث ينتجون او يصنعون مسبقاً هذه الاصناف الموصى عليها ، مع العلم انهم لم يكونوا يتناولون من الغذاء في اكثر الاحيان ، ما فيه الكفاية ، يعملون بشمهل كلي وببلادة ، وينقطعون عن العمل حالما يتوفر لهم ما يسد رمقهم .

اما الاقتصاد فكان يعمل على الزراعة التي هدفت قبل كل شيء لتلبية حاجات المحيط المحلي .

الفلاح : وسائل الانتاج
عنده ومستوى العيش لديه

كتب على الفلاح الهندي ان يؤمن أود الطفيليين ، في الجيش والدولة . فكلن يحرق ارضه بمحراث من الخشب يحرقه جاموس ضامر خاوي البطن . يكذب من صدره ويتعرض للاختناق وهو يحرق المحراث : وكثيراً ما استعمل في عداد ما اتخذ من عدة وعتاد : المول والمحرقة والریش ، وكلها متخذة من الخشب ، اذ ان ثمن نصف كيلو من الحديد كان يساوي ثمن ١٠ ليبرات من القمح (ما يعادل ثلاث ليبرات عام ١٩١٤) ولم يكن لدى المزارع سوى القليل من وسائل تسميد الارض ، كما ان نظام السقاية كان سيئاً في الشمال الغربي من البلاد ، ناهيك عن انه لم يكن مطمئناً الى بقاءه في استثمار ارضه ، اذ كثيراً ما كان الموظف ينزعها منه لينقله الى مزرعة اخرى او يستبدله بمزارع آخر يكون اوسع حيلة واقوى طاقة على استرضائه ، او انه ينزع منه الارض ليستغلها هو بنفسه وليس ما يحفزه قط للتوسع في اعماله الزراعية ، او ليستمّر في صيانة ما لديه من احواض الماء والبرك ، كما ان الضرائب المفروضة عليه كان معدلها يزيد على ما كان مترتباً عليه منها عام ١٩١٤ ، وتتجاوز قيمتها ثمن نصف غلته . اما تغذيته فكانت سيئة اذ لم يكن ليتناول سوى وجبة واحدة في المساء تتألف من بعض الارز وبعض البقول مع قليل من الزبدة ويقضي نهاره في مضغ بعض الحبوب المحففة لهاء للعدة . واقتصر لبسه على مئزر من القطن يستر عورته ، ويسكن زريبة من الطين لا مدخنة لها ولا نافذة ، سقفها من القش . واقتصرت امتعته المنزلية على بعض مراطين الفخار وبعض الشراشف القطنية ، وليرد عنه لسع البرد القارص ليلاً كان يستعمل رجيع البقر المحفف وقوداً امام باب داره . فاذا ما أجذبت الارض جاء ذلك نذيراً له بالموت جوعاً . فاينما مررت في الحقول او على مفارق الطرق ، وقعت منك الدين على جثث الموتى تقترش عرض الطرقات ، او اناساً هائمين على وجوههم وقد غارت عيونهم في مآقيها ، وشحبت

شفاهم وعلاها الزبد . وكادت نواتي عظامهم تشق أديم جلده ، وقد ترهل بطنه كالجيب الفارغ ، وهو يعوي من الجوع ، والنساء يبعن اولادهن او يبعن انفسهن ليرسفن في الرق الى الابد . وكانت أسر بكاملها تضع حداً لبؤسها بالسلم لتسريح مما تعاني من سغب وتضور ، كما لم يكن من النادر قط ان تأكل نساء اولادهن . وكثيراً ما وقمت الانظار على قوم جالسين على مقربة من نار مشبوبة يستصلون حتى شواط ايدهم وارجلهم ، كما يبيع اللحم البشري في الاسواق .

السلطان اكبر واصلاح ضريبة الاملاك
حاول السلطان اكبر ان يزيد من وارداته المالية بادخال
بعض التحسينات على هذا الوضع المؤسف . وقد استبدل ،
عندما توفرت له الامكانات ، المزارع والهاجير ، بمبلغ من المال ، كما استبدل المزارع والتابع
بموظف فقد ادخل نظاماً جديداً من الضرائب على السكان القاطنين السهول الشمالية ، الممتدة
من مالغان الى بيهار ، او في اجزاء عديدة من مقاطعة راجبوتانا وما لوا وغوميرات فلم يستبق ،
مبدئياً ، سوى ضريبة الارض ، كما عمد الى تحديد مساحة الارض المزروعة . كذلك عمل على
تخمين معدل الغلة التي تعطىها قطعة ارض معينة من الذرة والقمح والنبيلة والقطن . وفرض على
المزارع دفع ضريبة كل سنة حدد قيمتها ، يتفق معدلها مع مساحة أرضه . وهكذا راحت الدولة
والمزارعون يعتمدون مبدأ التخمين . اتخذ السلطان اكبر معدلاً له غلة سنة متوسطة ، وفرض
على المزارع تقديم ثلث الغلة . وراحوا يقدرون النفقات المترتبة على المزارع تحملها او تخفيضها ،
كالإزار والغذاء ، بمعدل نصف الغلة او المحصول . وقد ابقى سدس الغلة لادخال تحسينات على
نظام حياة الفلاح كصيانة له اذا لم يأت حساب البيدر على حساب الحقل . ولم يخطر للسلطان
اكبر ان يدخل اي تغيير او تبديل على الوضع السياسي والاجتماعي ، هذا الوضع المرتبط الى حد
بعيد ، بالوضع الاقتصادي في البلاد . فبعد ان كان يصفي الى المظالم التي ترفع اليه وينظر فيها ،
كان يتخذ أقصى العقوبات ضد الماينين بمؤولياتهم من هؤلاء الموظفين . ولم ينج من مراقبته
الشديدة سوى عملائه العاملين في اطراف الامبراطورية البعيدة .

وجود الفلاح ووصفه امر لم يكن ليفهم على الوجه الصحيح لولا الدين ، ولولا هذا الادب
الرمزي المكتوب باللغة العامية ، هذا الادب الذي كان يحلو للفلاح ان يردد منه ، شيء من
التأثر والشمور العميق ، مقاطع تفعل فيه فعل الراح في النفس .

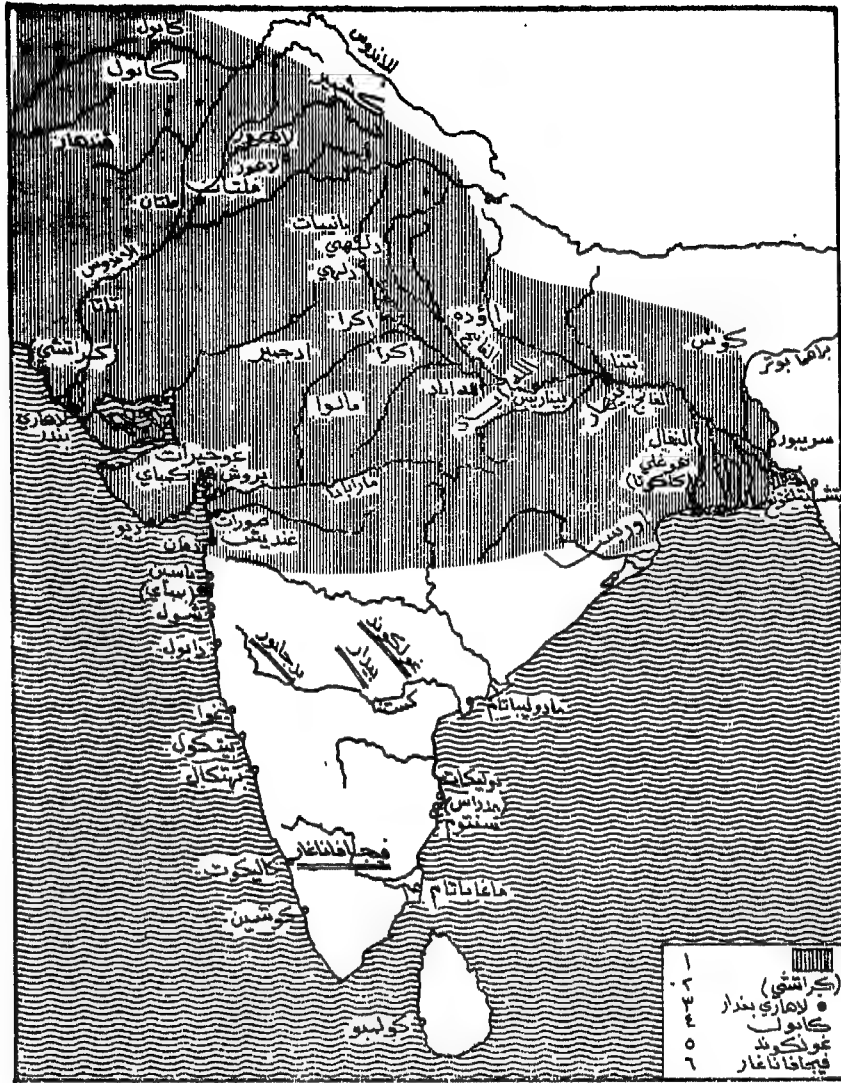
السلطان اكبر يعمل
على ايقاظ الهندوكية وبشها
ادرك اكبر ضرورة التقرب من الهندوس ، وضرورة نفخ روح
قومية في الدولة . فقد تزوج ، عام ١٥٦٢ ، من اميرة هندية هي
ابنة الراجا عبر ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة بان يكون
باديشاه المسلمين والهندوس على السواء . وامر عام ١٥٦٣ ، بإلغاء كل الرسوم المفروضة على اماكن
الحج الهندوكية ، كما ألغى ، عام ١٥٦٤ ، الجزية ، هذه الضريبة التي تصم من نصيبه من الهندوس

بوصمة التأخر الديني ، كما ترك للهندوس ملء الحرية الدينية ، وشجع إحياء عادات الهندوس واعرافهم ، كما سعى الى احياء اساليب تفكيرهم . حاول كذلك ان يوسع من نطاق معلوماته حول آداب الهند القديمة ، فأمر بنقل الآداب السنسكريتية الى الفارسية . ولما كان الفكر الهندي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأمور الدينية ، فقد شهدت الهند نهضة جديدة في آدابها القومية . فآخذ الكاتب والاديب البراهماني الكبير تولو داس ، يعيد من جديد بين ١٥٧٤ - ١٦١٤ ، كتابة الملحمة الهندية المشهورة « رامايانا » (بحيرة مآتي رام) ، « هذا الاله المتجسد ، المخلص ، الذي كانت زوجته إيدا ، المثل الاسمي لكل أنثى . فراما اله انساني ، يحب الناس كما يحب اولاده فتجسد ولبس طبيعة البشر ليكمل نفسه اكثر إدراكاً لديهم . ففي كتابه هذا تقارب الديانة الهندوكية كثيراً من الديانة المسيحية بحيث يكفي في مقاطع كثيرة ان تستبدل اسم رام باسم يسوع ، كما ان عدداً كبيراً من صلواتهم الطويلة لا يستنكف احد من المسيحيين من وجودها في كتب الصلوات المعتمدة لديهم . واستقر في يقين الهندوس ان قراءة هذه الصلوات وتلاوة هذه الاشيد الروحية من شأنها ان تطهر النفس من أدران الخطيئة كمن يستحم في مياه بحيرة مقدسة » فهذه الانشودة هي في نظر هندوس الشمال ، اكثر من التوراة لدى المسيحيين المعادين في انكلترا . وهكذا شهدت البلاد إحياء للهندوكية .

عاش الشاه أكبر حتى عام ١٥٧٤ كسلم سني ، مخلص ، ثم اخذت محاولة صهر الشعوب
أكبر و « التوحيد الالهي »
تغلب عليه روح تشككية مع بقاء الشعور الديني قوياً في قرارة نفسه ، فلم يكن ينقطع دقيقة عن ذكر اسم الله ، وقضى حياته يعبد الله بالروح . الا ان ما شاهد في مملكته من كثرة الطوائف والملل والنحل ، أقلقته وآلمه كثيراً ولذا لم يكن واثقاً من نفسه اين تقوم الحقيقة . فخيّل اليه يوماً انه يستطيع ان يحل هذه المشاكل التي تعترضه ، أو ليست « الملكية نوراً مصدره الله » . واعتقد أكبر في سويداء قلبه انه شعاع الله وفيض منه . فأمر عام ١٥٧٥ ، بإنشاء « بيت العبادة » ، وهو منتدى للمناقشات والمجادلات الدينية الطويلة النفس ، تم بعضها تحت اشرافه مباشرة ، ولا سيما ما دار منها حول القضايا الخاصة بالالوهية .

ومنذ سنة ١٥٧٨ قبل ان يشارك في هذه المناقشات الدينية الهندوس والمسيحيون . فطلب من البرتغاليين في مدينة غوا ان يوفدوا اليه مرسلين مسيحيين ، فجاء ثلاثة مرسلين يسوعيين . فاستمع السلطان أكبر الى مجادلاتهم وخرج بما يقرب من اليقين بان المسيحية هي افضل دياناات العالم . الا ان الاستشارية او التفردية المسيحية ، وسر الثالوث الافدس ، ووجوب رذل تمسّد الزوجات ، كل ذلك احدث فيه صدمة قوية .

ولذا مال ، أكثر فأكثر ، الى انشاء ديانة عامة ، تضم احسن ما يوجد من العقائد في الاديان الاخرى ، يفرغ فيها كل الملل والنحل الموجوده في امبراطوريته . وفي اواخر حزيران ١٥٧٩ ،



الشكل ١٩ - الهند عند وفات أكبر

- | | |
|-----------------------------------|--|
| ١ - امبراطورية المغول في عهد أكبر | ٤ - المقاطعات التي ضمت الى امبراطورية المغول |
| ٢ - الموانئ الجديدة | ٥ - الدول الاسلامية المستقلة |
| ٣ - موانئ لم يعد لها وجود | ٦ - الدول الهندية المستقلة |

ترأس الصلاة محل الامام في مسجد فائبرور سيكري الكبير . وبعد ان فرغ من الصلاة قال :
 « الله اكبر » معلناً بذلك انه مشارك للطبيعة الالهية ، وفي عام ١٥٧٩ ، اعلن عصمته امام
 الناس ، وطالب جميع العلماء والامة جمعاء ان ياتوا بهديه ورايه . فمن لم يمثل له ، فقد امواله

ومقتنياته واستوجب الهلاك الأبدي. فالامبراطور هو نائب الله على الارض، وينبوع النعم. وهكذا فرض اكبر توحيداً الهياً مع شيء من الحلولية. اوصى بعبادة الشمس وباحترام النار، واقتبس عدداً كبيراً من المراسم والمعادن الدينية الهندوكية واليانية والزرادشتية او المجوسية، واعلن عام ١٥٧٨، انه كما لا يمكن للانسان ان يكون له اكثر من اله كذلك يجب الا يكون له اكثر من امرأة. ومن الجائز احتمال الظن انه طلق كل النساء التي كن في عصمته. كذلك ترك حرية العمل والتصرف لكل الاديان، واصدر عام ١٥٩٣ فرماناً بذلك. فالديانة التي تادي بها اكبر انما هي نظام ديني، امبراطوري اكثر منه عقيدة محددة. واستقدم الشاه اكبر نفسه مرسلين كاثوليك من غوا عام ١٥٩٠ و ١٥٩٤، مع الملاحظة هنا انه كان يتودد للبرتغاليين للحصول منهم على مدافع. وراح من جهة ثانية في اضطهاد المسلمين. فالاولاد الذين حملوا اسم محمد اجبروا على تغيير اسمائهم، وحظر على المرأة الهندية الزواج من مسلم، وامر ببيع بعض الشيوخ عبيداً وارقاء. وراح رجال البلاط والموظفون يعتقدون نظامه، ان لم يكن رغبة منهم فرهبة، وحمل كثيرون منهم صورة الامبراطور وكانوا يتبادلون التحية بكلمة « الله اكبر ». وقد تكاثرت اتباع العقيدة الجديدة في اماكن كثيرة الا ان هذا المذهب او الطريقة الايمانلة الجديدة توارت عن الانظار وزالت من الوجود بعد وفاة السلطان اكبر، ولم يبق من محاولته الدينية هذه التي حاول معها افراغ كل شعوب سلطنته في طائفة واحدة، شيء يذكر.

قامت امبراطورية السلطان اكبر على اساس من التسامح والتسامح
مع الهندوس، ونظام ضرائبي اصاب الاملاك كان قريباً من نظام
المحاصة النسبية، وهو نظام شابه كثيراً النظام الذي عمل به
الانكليز، فيما بعد عند احتلالهم للهند، وغرس الروح الوظيفية

المخطاط الدولة المغولية ؛
التفكير الاداري وقهر
العامل الهندوسي

في الخدمات العامة، والنزعة الى تأسيس دولة عصرية. الا ان خلفاء جهانجير (١٥٦٩ -
١٦٢٧) وشاه جهان اي « ملك العالم » (١٦٥٩ - ١٧٠٧) لم يفقهوا شيئاً من هذه السياسة التي
اختطها السلطان اكبر، واخذوا بتفكيك كل شيء. فقد كان جهانجير يكرع كل مساء عشرين
كأساً من العرق القوي بحيث ان رائحته كانت تجمل السفير الانكليزي يعطس. اما شاه جهان
الذي عرف في حداثته بالرصانة والشجاعة في الحرب، فقد انفوس في الملذات، اثر وفاة
زوجته المفضلة، عام ١٦٣١. اما السلطان اورنكزيب. فقد كان تقياً، ورعاً، قانتاً من
كثرة الصوم، لطيف المعاشرة، ولكن لم يعرف ان يكتسب ثقة الناس لعلمهم انه لم يكن ليحب
احداً، ليله الفطري الديني: الى الحلم، اذ كثيراً ما كان يصفح عن الضباط الذين يصمون
اوامر السلطان فيعفو عنهم. وقد اهل هؤلاء السلاطين اموالاً ثامناً العادة التي سار عليها اكبر،
اذ كان يستقبل كل يوم اصحاب المظالم ويقضي لهم او عليهم بالسرعة المطلوبة. وقد جهلوا تماماً
ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من اوضاع، فاملوا امر مراقبتها عن كثب تاركين شؤون
مراقبتها لعالمهم، وعادوا الى احياء عادة مكافأة موظفيهم بتوزيع اقطاعات (جاجير) عليهم،

كما عادوا الى نظام تازيم جباية الرسوم والضرائب ، وصرفوا النظر عن الطريقة التي سار عليها أكبر بتخمين المساحات المزروعة والمحاصيل السنوية ، وتركوا عيالهم يستبدلون ضريبة الاملاك بضريبة توزيعية ، فيعاملون كل قرية مستقلة بدلاً من النظر في وضع كل مزارع على حدة ، كما غصوا النظر عن تصرف المزارعين الاكثر بسطة ونفوذاً ، في اعتصار الآخرين وتحميلهم فوق طاقتهم . ولم يلبثوا ، بدافع الحاجة للعملة ، ان يبيعوا وظائف الدولة بالمزاد تاركين لمن رست عليهم عملية المزايدة ، الحرية التامة باستعمال الوسائل التي تؤهلهم لاسترداد المبالغ الباهظة التي دفعوها . وقد اخذ الحكام شيئاً فشيئاً ، في توريث مناصبهم لاولادهم ، كما نزعوا ، اكثر فاكثراً ، للتصرف في ولاياتهم كأنها ممتلكات خاصة بهم . واخذ هؤلاء الحكام يشعرون اكثر فاكثراً ، بمحاجتهم للمال ، كما اشتدت فيهم النفرة من وظائفهم واستشروا استشارهم بالمسؤولية . ففي هذا القسم الواقع في منطقة الدائرة الانقلابية ، في الهند ، اخذت دولة المغول بالانحطاط وراح المغول ، يستسلمون وراء البذخ والسكر وفساد الاخلاق ، بما فت كثيرأ في عضدهم . فقد قطع بابر سباحة ، كل الانهر التي اعترضت سيره ، خلال الثلاثين سنة من حروبه الدامية بينما كان النبلاء الذين كانوا بمعية السلطان اورنكزيب يرتدون انعم الملابس وافخرها ، ولا ينتقلون من مكان الى آخر الا محمولين على محفّة . واخذت الضرائب ترهق كاهل الفلاح وتبهظه . فاذا قدرنا ان معدل ما كانت يدفعه الفلاح هو ١٠٠ في عهد أكبر ، فقد ارتفع هذا المعدل الى ١٢٥ عند ارتقاء شاه جهان العرش ، كما ارتفع الى ١٦٦ عام ١٦٤٧ ، ثم الى ١٧٥ في عهد اورنكزيب ، قبل ١٦٦٨ ليلبلغ سنة ١٧٠٠ ما نسبته ٢٧٨ . وقد زادت نسبة الضريبة الجديدة على نصف قيمة الفلة او المحصول ، فلم يبق للمزارع النصف اللازم لتأمين البذار وأود المعيشة . ففي السنوات الجيدة اضطر الفلاح ان يقطع من الكمية المخصصة لغذائه ، ففقد بالتالي القدرة على العمل . اما في السنوات التي كانت مواسمها سيئة ، فلم يكن لديه ما يطمئن معه لمستقبله او يرد عنه غائلة المجاعة ، فتركبه الهم والقلق والحيرة . وتلبية لمطالب الخزينة ، كثيراً ما كان الفلاح يضطر لبيع محصوله بسرعة وبسعر متدنٍ . ورخص اسعار الحاجيات في المدن ، انما كان يتم على حساب المزارع والفلاح . فالفلاح الرازح تحت وطأة الضرائب والدين ، تعطلت لديه كل امكانية لشراء حاجته من الحيوانات اللازمة لاجمال مزرعته او للتوسع بهذه الاعمال ، او ليقوم بزراعات تعطيه مردوداً اكبر كالتبغ مثلاً . ويشهد الطبيب الفرنسي رنبيه كيف ان الفلاحين كانوا يهجرون الريف ويهبطون المدينة بحثاً عن مورد لهم او عمل في المعسكرات .

ومع انحطاط الزراعة انحطت بالطبع ، الصناعة هي ايضاً ، اذ ان تكرار المجاعات وتقادم الأزمات كان يقضي على الصناع واصحاب الحرف ويقعدم . فالعاملون منهم بالحياسة في كورومنديل ، ماتوا جوعاً ، عام ١٦١٦ . وقد أقفرت مقاطعة رديوثا وجلا عنها اهلها عام ١٦٤٧ . ولعل افتك واروع المجاعات طراً ، هذه المجاعة التي استهدفت لها الهند عام ١٦٣٠

و ١٦٥٠ . ففي تموز ١٦٣٠ ، مات القسم الأكبر من عمال النسيج الذين يعملون في قصر المنسوجات في مازوليباتام . كذلك في سنة ١٦٣٤ ، مع ان الوضع الزراعي كان قد تحسن كثيراً . كانت التجارة مشلولة تماماً لغلاء اسعار الاقمشة القطنية ، اذ لم يكن تم بعد تعلم الاولاد صناعة النسيج . وفي سنة ١٦٣٩ ، كانت المنسوجات القطنية في غوجارات أقل جودة مما كانت عليه ، عام ١٦٢٩ ، بعد ان توارى من المهنة ، العمال الماهرون ولم يكن قام في البلاد من حل محلهم بعد . وفي سنة ١٦٥٣ ، لم تكن الدكن استردت بعد ، المهارة التي عرفت بها قبل الهجعة الكبرى . وهكذا نرى كيف ان الهند اخذت تفتقر .

اضطهاد المسلمين النيس
ومن جهة اخرى ، راحت الدولة المغولية تعزل نفسها عن الهندوس . فمع ان جهانجير قد عهد بالوظائف الكبيرة في البلاد الى نبلاء الهندوس ، فقد اخذ شاه جهان يبرهن ، اكثر من مرة عن تعصب ديني ، بينا السلطان اورنكزيب الذي عرف بشدة تقواه والذي كان مدة عضواً في فرقة الفقراء ، فقراء الهند ، وكان يحسن القرآن عن ظهر قلبه ، وقد نسخ مرتين عملاً بالآية الكريمة التي توصي بان يعرف كل مسلم مهنة ، راح ينسج القبعات كما راح يصلي الهندوس اضطهاداً لا هوادة فيه . فقد اصدر اوامره الى كل حكام الولايات بان يهدموا كل مدارس الكفار وهياكلهم ، وان يمنعوا تماماً ، كل مظهر من مظاهر عبادة الاصنام . وهكذا جرى هدم هيكل فكنو في بيناريس ، وحملت اصنام الشعب الى اكرار ودمت مع التراب تحت درجات المسجد ليدوس عليها المسلمون في دخولهم اليه وخروجهم منه . وفي سنة ١٦٧٥ ، اعاد اورنكزيب العمل بالجزية ، فتجهمر الشعب حول قصر الامبراطور ، في دلهي ساخطاً غاضباً بوجه اللعنات للامبراطور . وقام الهندوس بردة معاكسة تباشرت في هذه الثورة اللاهبة التي قام بها المهرات والسيخ .

وعمل بما فيه من روح التعصب الديني واستجابة منه لمتطلبات الحكم ، أعلن اورنكزيب الحرب على ملك الدكن الذي كان على المذهب الشيعي ، والذي بقي ٢٣ سنة دون ان يتجه لشمال الهند . وفي الوقت ذاته ، قام يصرف من خدمته الفرس الشيعة الذين ألفوا نواة جيش أكبر فكانوا دوماً اكفا العناصر الفنية في مجلس اركان الحرب ، كما كان على وشك الاصطدام بالمهرات .

ألفت المهرات فرعاً من فروع قبائل الغات الغربيين ،
ردة الفعل الهندوكية : المهرات
انقطعوا للاعمال الزراعية بين غوا وغودافيري ، فقد كانوا على الاجمال ، ربعة ، اشداء ، نزعوا للفروسية وللاعبا الخفيفة ، وكثيراً ما ادخلهم ملوك بدجاپور المسلمون في خدمتهم انتفاعاً بمهارتهم وشجاعتهم ، فنال زعمائهم مراتب عالية ونفوذاً كبيراً . وقد راح واحد من ابناء هؤلاء الموظفين هو سيجاني عام (١٦٣٧ - ١٦٨٠) الذي عرف عنه عصبية للهند وغيرته الدينية ، يبعث فيهم روحاً قومية وشعوراً حاراً بالوطنية .

وعندما تبدى له ان حصون الفات أهمل امرها وضعفت حامياتها ، أخذ يهاجمها ويستولي عليها الواحد تلو الآخر ، كهاراج يدافع عن الهندوس ضد تعديبات المسلمين وشرع سلسلة لا تنقطع من اعمال السلب والنهب والعبث ، واسعة المدى ، يهاجم القوافل والركبان عام (١٦٤٨) . ومنذ ذلك الحين ، اخذ يتوافد عليه كثيرون من متطوعة الهند ، قدموا من جميع اطراف البلاد ، بعد ان اصبحت المحاولة المهراتية ، في روحها واهدافها ، محاولة وطنية وقومية ، وتجربة حربية عسكرية ، على نطاق واسع ، فألف منهم جيشاً قوياً يستمر ما وقع تحت امرته من البلاد ، على غرار الحكام المسلمين ، ويقف منهم على طرفي نقيض . وكان زعماء المهرات من الفئة الاخيرة بين طبقات الهند *Soudras* ، يقومون على خدمة الطبقات العليا . هل كان المهرات ، يا ترى ، يعلقون فعلاً ، أهمية كبرى على نظام الطبقات في البلاد ؟ والحركة الوطنية التي نهضوا بها ، أكانت ترمي بالفعل الى تحرير الهند والهنود من النظام الطبقي الذي رسفت فيه الهند منذ مئات السنين ؟ ومهما يكن ، فقد قامت فرقة الحيلة الخفيفة الحركة لدى المهرات ، بسلسلة من الغزوات بقصد السلب والنهب ، اوغلت معها بعيداً في ممالك بدجاپور وغوكوند ، كما اوغلت عميقاً في الاراضي الخاضعة للمغول . وغزا سيجاني مدينة صورات ونهبها ، عام ١٦٦٤ ، كما غزا الخندش ، عام ١٦٧١ ، وراح يفرض على كل ناحية تطوؤها سنايك خيله ، الربع من ايراداتها ، شرطاً منه ليجمل السكان في مأمن من غائلة السلب والنهب . فاذا ما رفض القوم قام المهرات بسلب كل شيء . وهكذا وقعت هذه المقاطعة فريسة لعملية اعتصار على نطاق واسع . واستمرت مملكتا غولكوند وبدجاپور على دفع الربع المترتب عليها دفعه للمهرات ، الى ما بعد وفاة سيجاني . وتمتع المهرات بشعبية واسعة بين الهنود فنظروا اليهم كأبطال وطنيين ، يذودون دونهم ضد الغزاة المسلمين ويلقون منهم كل أزر وأيد ، وخدمة ومعونة ، يمدونهم بما يلزم من ميرة وذخيرة وعدة وعتاد ، ويتنسّمون لهم ، عيوناً وارصاداً ، اخبار الاعداء ، وحركاتهم وسكناتهم .

بامت بالفشل كل المحاولات التي قام بها قواد اورنكزيب ضد ملوك الدكن وضد المهرات ، وتابع هؤلاء غزواتهم وحروبهم التي كانت تؤمن لهم الموارد التي هم بحاجة اليها ، وتضمن لهم نيل الاستقلال بمنأى عن الامبراطور . الا ان سوء الظن الذي دب بينهم جعلهم يوزعون القيادة بين قائدين متنافسين كما راحوا يبدلون كثيراً من القواد . وقد استلم اورنكزيب نفسه قيادة جيشه سنة ١٦٨١ ، من احمد نجار ، وله من العمر ٦٣ سنة ، وبقي يحاربهم ٢٦ سنة . وهكذا اخضع لحكمه كل الدكن حتى الحكام المحليين المستبدين الذين حلوا محل امبراطورية الفيجايانفار ، والقائمين الى الجنوب من تربيشينولي . ولم يربح من وراء هذا الجهد الحربي الطويل سوى اراض المجردت من كل خيراتها لكثرة ما تعرضت له من الغزو والسلب ، واصيب بالحيرة امام المهرات . فلم يعد له ما كان لآبائه من فرسان راجپوت المعروفين بنخسة حركاتهم وسرعة مناوراتهم ، بعد ان اخرجهم فاخرجهم وعلنوا العصيان والثورة لغرائبهم . اما جيشه

فكان لجبا للفاية اذ كانت مضاربه تضم خمسة ملايين من الاهلين تحت تصرفهم ٢٥٠ سوقاً، يتارها ٦٠٠٠٠٠ فارس واكثر من ١٠٠٠٠٠٠ من البيادي ، وكان الضباط ضعافاً ، ظرفاء في مظهرهم ، سروجهم مريحة للفاية ومزركشة ، كأنهم يعملون في استعراض عام ، ينزلون الخيام الفخمة ، اما الجنود فكانوا مخنثين ، يرفعون اصواتهم بالتذمر ، اذا لم تكن خيامهم على مثل نعيمهم في اكرا من البذخ . بينما لم يكن المهرات ليحتاجوا حتى يحيا حياة طيبة ، الا لفطيرة من خبز الذرة وبعض البصل . وكيف العمل ضد هؤلاء الفرسان الذين لم يكن من سبيل لالقاء القبض عليهم ، والذين عرفوا ان يتجنبوا خوض معارك كبيرة ، فعملوا فئات صغيرة ، مشتتة ، ينقضون فجأة على الوحدات المنفردة او المعزولة ، ويوجهون الضربات القاسمة الى جناحي الجيش يطلقون النار على الحشود الضخمة ثم يتوارون ، ، ويزرعون الملح والفرع اينما حلوا ، يقطعون المزروعات بحيث تضطر فرق العدو للتوقف عن الحرب ، لحاجتها الشديدة الى المؤن والمتاد والعلف اللازم لحيلهم . وهل من حل غير احتلال حصون الغات ؟ كانت هذه الحصون وافرة العدد يستमित حماتها في سبيل الدفاع عنها . وكان الوقت الذي يفصل بين فصلين من الامطار الموسمية ضيقاً للفاية وقد شاخ اورنكزيب وتقوتت ظهره وابيضت لحيته واصبح وكأنه سجين في معسكره . وكان سكان الدكن من الهنود عوناً للمهرات ، ولذا اضطر الامبراطور للتقهقر والانكضاء حتى مدينة احمد نجار التي انطلق منها هجومه ، قبل ذلك بر ٢٦ سنة .

في هذه الاثناء ، ظهرت في الشمال الغربي من الهند ، قوة جديدة كان ردة الفعل الهندية : السيخ لها شأن في تاريخ تطور البلاد ، نشأت عن اسلوب جديد في تفسير الهندوكية وشرحها ، تمثلت في طائفة السيخ التي كانت قذى في اعين امبراطورية المغول في الهند وشجى في حلقهم ، وحملت للمسلمين بغضاً أزرق . فقد بعثت من سباتها الطويل نزعة الهندوكية القديمة الى التوحيد . فالريخ فيدا ، الكتاب الاول من كتب الهند الاربعة المقدسة الذي يضم نواة الفلسفة البراهمانية ، كثيراً ما اعلن وجود اله ، هو سيد المخلوقات ، والكائن الاعلى ، اللامتناهي ، الذي تبقى الالهة حياله خداماً له تستمد منه الوجود . غير ان البراهمان جعلوا من الله روح العالم ممزجاً بالمادة ، لا فردية له مميزة . وقد راح عدد كبير من الهندوس ، ولا سيما بين الجنود ، يمتقدون وثيقاً ان روح العالم كانت تتجسد وتلبس جسد انسان وتبدو عن طريق بعض الاجسام في مظهر خاص يتلبسه الله هو : « المايا » والوم ، يمكن الاقتراب منه او الدنو اليه بواسطة الصلاة . وهكذا رأينا عدداً كبيراً من الهندوس يعبدون الله بشكل فكنو الذي يمثل روح العالم متجلياً في العناية الربانية او الالهية . ففي القرن الخامس عشر ونحت تأثير الاسلام مباشرة ، قام مجدودن هندوس ، امثال راماناند في مدينة بيناريس ، وغوراغ ، في البنغال ، وكبير احد تلاميذ راماناند ومن اتباعه الحميمين ، وقالاب ، احد البراهمان الذين هاجوا بعنف تعدد الالهة ورددوا عبادة الاصنام ، وطالبوا بان يتحرر الناس من نفوذ الكهان

ونادوا بالطهارة والنقاوة الداخلية ، والعبادة بالروح ، كما نادوا عالياً ان الايمان يطهر النفس من ادرانها وينقيها ، وطالبوا بالغاء نظام الطبقات ، كما اعلنوا ان التقوى لا تتعارض قط مع واجبات الانسان العادية .

كان لتعليم المصلحين : كبير وغوراغ تأثير بيتن على المجدد والمصلح الديني
ثانك والغول
بديانة انسانية عامة
ثانك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) الذي رأى النور على مقربة من لاهور ، في اسرة تنتسب الى اسرة طبقة المحاربين (Kshatryas) هذه الطبقة الاجتماعية التي تأتي ، في الهند ، دون البراهمان والكهنة ، وكان يتجر بالخطوة وينصرف لقراءة القرآن والشاستراس . وقد علم ان الانبياء العرب وانبياء الهندوس هم مرسلون من الله لارشاد البشرية الى الهدى والصراط المستقيم ، وواجب عبادة الله الابدي ، الكلي القدرة ، الكائن منذ الازل ، قبل كل شيء ، وبأرى العالم ووارثه ، الكلي الحضور ، الموجود في كل مكان وزمان ، موجود مع العالم ، متسام فوقه ، ومتميز عنه . فالله هو محب للعالم ولا سباً للخطاة وللبنائين ، لا يلتقي بالله الا الذين ينظر اليهم بعطف وحنان . فالانسان عاجز ، لا يستطيع شيئاً بذاته ، كذلك قال بالقدرة واعداد المختارين منذ الازل . ولكن هذه النعمة - نعمة اعداد المختارين للخلاص - يعطيها الله وينميها في الانسان على نسبة ما يسير الانسان بروحي قواه العقلية وارادته . فالله يجعل الخلاص في متناول كل البشر من اي نوع او جنس كانوا ، كالخطاة والنساء والمنبوذين ، ودعماً تميز او نظر الى طبقاتهم التي لا تحسب شيئاً امامه . فهو يجعل هذا الخلاص في متناول رب الاسرة والفلاحين والمحاربين والنسك ايضاً . اذ ان المهم ، في نظر الله ، هو العبادة بالحق والروح هو الايمان والمحبة والامتثال للشرعة الالهية ، وعمل الخير والبر . اما الطقوس والصيام ومراسم الحج ، وتلاوة المسبحة ، والزهد والتقشف ، فأشياء واعمال لا قيمة لها ولا شأن .

وعمل بناموس « كارما » ، وهو الناموس او القاعدة التي بموجبها لا بد للانسان ان ينال ثمره جهوده واتعابه ، فمن أتى اعمال البر والتقوى على رجاء المثوبة والمكافأة ، خضعت نفسه ، بالضرورة للتقمص وتناسخ الارواح ، على ان يلد من جديد في ظروف افضل تساعد ، اكثر فأكثر على التطور الادبي والروحي . اما من يكون اتى اعماله البارة تقية ، لمجد الله ووجه الكريم ، فلا تخضع نفسه للتقمص ، فيبلغ السعادة ويدخل النرفانا - السعادة ، ينعم بها بصحبة ثانك ، ولا يذوب مع الكائن او الوجود المطلق ، بل يتحد اتحاداً كاملاً مع الخالق ، فيزول منه الضمير الفردي ليدوب في ضمير الله .

وهكذا نرى ان ثانك لم يبلغ الهندوكية . فقد احتفظ منها بما فيها من تعاليم سامية ، ولا سيما بمقيدتها الاساسية « لا مايا » ، هذه التجليات المختلفة في مظاهرها ، الله ، مثله في براهمان ، وفكنو ، وشيفا ، وغيرهما ، وفي التقمص Karma والسعادة Nirvana . ولكن بإبرازه وحدانية الله وشخصانيته ، وبإفادته على علاقات الانسان بالله هذه الروحانية ، فكان به يلغيها

بالفعل ويطلبها . وعندما أُلغى حدود الطبقات المباحة ، بإعلانه المساواة العامة بين من يعبدون الله بالحق والروح ، مها كانت لبوسهم ، قام بثورة جذرية يمكن للهند معها ان تخرج منقاة ، مطهرة ، متجددة ، متخففة من هذه الطقوس الجامدة التي تُرْزِحها وتقعدها الى الحضيض . واذ ذاك فقط تأخذ بالتطور والنماء .

علم ناناك انه لابد للمريد او التلميذ ان يسترشد بـ : *Gourou* ، اي بقديس تنظيم السيخ او معلم مرشد يحمل في نفسه روح الله ، اعلن عنه واوحى باسمه ، المرشد السابق . ومن خلفاء ناناك في دعوته هذه والشهوس برسالته من بعده : امارادار الذي توفي عام ١٥٧٤ وهو ممن تتلمذ عليه أكبر ، والذي راح يشدد على خواء حياة التأمل ، وحال دون استعالة السيخ الى فرقة جديدة من هذه الفرق الهندوكية المتنسكة ، العديدة في الهند . وقام بتنظيم السيخ المرشد والمعلم أرجون ، المتوفي عام ١٦٠٦ ، فجعل من مدينة أمرتزار محور الديانة الجديدة والقبلة التي يتجه اليها حجاج السيخ ، فنمت وتطورت واصبحت من مدن الهند الكبرى . واخذ يجمع افكار ناناك باعتباره التجسد الاول لله ، كما اخذ يجمع ما كتبه اسلافه بهذا الشأن ، ولف من هذا كله ما يعرف بـ « الكتاب » ورتب الشريعة الدينية والادبية ، وانشأ لها مراكز ونوادي لاستقبال الاتباع والمريدين ، في جميع المدن والولايات ، وقرر وجوب عقد اجتماع عام كل سنة . ومنذ ذلك الحين أُلِفَ السيخ العمل بهذا النظام ، وانشأوا لهم شكلاً حكومياً .

السيخ ضد المسلمين - خالصة الله
اخذ المسلمون باضطهاد السيخ في عهد السلطان جاه نجير . واذ ذاك نهض المرشد هارغوبند ، ابن ارجون مهاجم ضابط السلطنة المغولية في البنجاب حتى وفاته (١٦٤٥) ، وكتب له النصر في معارك كثيرة ، فأخذ الناس يقدسونه . وازداد اضطهادهم شدة واحتراماً في عهد اورنكزيب ، واصبح المرشد غوبند - سنغ ، حفيد المرشد هارغوبند ، العدو اللدود للمسلمين في الهند . وقد سوت له نفسه ان يحول من الهندوس المغلوبين على امرهم شعباً جديداً ، متجدداً ، ينهض للعلی ويشرب بنواظره نجو المجد . وشرع هذا المرشد منذ عام ١٦٧٥ ، بمحشد المريدين حوله والاتباع . ومع ان جيشه كان ليماً من الحشود جيء بهم من مختلف الطبقات الاجتماعية ، فقد جعل منهم الايمان الشديد الذي نبض في عروقهم ، جنوداً أشداء جديرين بكل تقدير وإكبار . فأنشأ لهم ، قبل كل شيء : معمودية السيف او الدم . فمن منهم تسليح به اصبحوا أسوداً *Singhs* ، اما الباقون فقد أُلِفوا فرقة *Sohidjaris* ، اي فرقة هؤلاء الذين يعيشون بيسر ، اي التجار ورجال الصناعة . اما حفلة معمودية السيف ، فقد قامت بوضع سيف ذي حدين في الماء وتحريكه بشدة ، وترداد اسم ناناك وتلاوة الاناشيد ، ثم يجري سكب الماء المقدسة براحة اليد ثم ترش الماء على رأس المتمد وعيبيه ، فيمضي هاتفاً هتاف جنود السيخ في الحرب : يا امة الله ! الظفر لله . وراح غوبند سنغ يطلب من امراء الهند (الراجا) الساكنين في المناطق الجبلية ان يعتمدوا ليعموا

انفسهم من الاتراك (المسلمين) . فكانوا يجهلون : « باستطاعة التركي (المسلم) ان يأكل شاة بكاملها ، فكيف يمكننا نحن الذين نقاتل بالإرزاق ان نجابه من لهم مثل هذه القوة » . وكان غوبند سنغ يجهلهم : « المعمودية تجعل من السيخ المتعمد مساوياً للمسلم في قوته » ، ولم يلبث ان أخذ عدد كبير من المنبوذين يعتمدون ويأكلون اللحوم ، بعد ان تخففوا من مراسم الدين وطقوسه واصبحوا جنوداً أشداء .

كان على السيخ ان يرخي شعره وان يقضي مشطاً وسيفاً ويلبس سروالاً مقشراً وسواراً من الفولاذ . كذلك كان على السيخ ان يبرهنوا عن ولائهم الشديد نحو رؤسائهم ، والا يدبروا ظهورهم للعدو ، وان يؤمنوا بان كل الناس سواء هم . عليهم ان يستحموا بعد نهوضهم باكراً عند الفجر ، وان يتلوا أناشيد المرشدين ، وان يتأملوا في الخالق كما كان عليهم ان يردلوا جانباً خرافات الهندوس : كمراسم الحج ، وقتل الاولاد ، وحرق الارامل على محرقة بعد وفاة ازواجهن . والزموا انفسهم بأكل اللحم على شرط ان يكون الناحر او الذابح احد رجال السيخ ، على ان يقوم بنحر الذبيحة بحجة واحدة ، كما عليهم ان يمتنعوا عن التدخين وتعاطي الخمر وانواع المسكرات . اما الميزة الكبرى التي يجب ان يتحلى بها السيخ فهي التقوى والشعائر الدينية فغداها تلاوة الأناشيد الروحية وترداد اسم الله بحرارة وتوق ، والانصراف الى التأمل ، وغير ذلك من اعمال البر والتقوى ، اذ « بدون هذه الاعمال التقوية لا يمكن للمرء ان يخلص » . وكان اعتقادهم بانهم مختارون ومدعوون للخلاص يدفع فيهم الحماسة في الحرب ، حتى ان المظهر الخارجي للمنبوذين تغير : فظهروا بمظهر اكثر رجولة من قبل ، وصاروا ينظرون الى الانسان في عينيه .

حاول غوبند سنغ ، منذ ١٦٩٥ ، ان ينشئ مملكة للسيخ بين نهر الجوما والسليج ، ونهض للحرب اورنكزيب حتى الرمي الأخير . فقد نفخ في المغلوبين على امرهم روحاً جديداً ، طلقوا معه الجلود الذي عرف عنهم من قبل ، كما عرف ان يبعث فيهم الشعور بالكرامة الانسانية في نشدان روح الحرية . وعندما توفي اورنكزيب ، نهار الجمعة الواقع في الرابع من اذار ١٧٠٧ ، وله من العمر ٨٩ سنة ، قضى منها ٥٠ سنة ملكاً على الهند ، كانت الامة الهندوكية أفاقاً من سباتها العميق . وهذه الهندوكية التي عاد اليها وعيها ويقظتها ، انتصبت بكل ما لها من شخصية ، ضد الاسلام ، متمردة على هذا الاستعمار البغيض الذي وقعت فريسة له من قبل الامبراطورية المغولية .

٢ - العالم الهندي واوروبا

كان هم البرتغاليين الاول نشر الانجيل والمسيحية في ارجاء آسيا ومنافاة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على اسواق البلاد التجارية ، بحيث لم يكن ليهمهم كثيراً احتلال الهند او بعض

موانئها الا بالقدر الذي يخدم مصالحهم التجارية. واغراضهم المادية . فقد خيل اليهم ان احتلالهم لبعض المرافىء والموانىء الهامة على ساحل الهند الغربي ، من شأنه ان يساعدهم كثيراً على تحقيق ما يرمون اليه من اهداف اقتصادية . ولذا تألفت امبراطوريتهم من سلسلة متصلة الحلقات من هذه المرافىء والموانىء ومن الجزر المتناثرة في عرض البحار مما يقع على طريق اساطيلهم التجارية التي تشق عباب اليم من البرتغال حتى مشارف الشرق الاقصى ، في افريقيا وآسيا . فمالك الهند القارية او البرية لم تكن لتستطيع الوقوف بوجه الاساطيل البرتغالية ، كما ان حصونها وقلاعها كانت اعجز من ان تصمد لضرب المدفعية الاوروبية . وهكذا تم اقتسام صامت لعالم الهند : اذ راح البر الهندي للمغول والهندوس والبحر والشواطىء البحرية للاروبيين .

عندما بلغ فاسكود د غاما ، مدينة كوشين ، عام ١٤٩٨ ، كانت الحركة التجارية في المحيط الهندي عند ظهور البرتغاليين فيه قسوي من النظام والتنظيم . والاروبيون الذين اضطلموا ، على التوالي ، بالنشاط التجاري في هذا المحيط ، الى سنة ١٧١٥ ، حلوا محل التجار ، والبحارة الذين سيطروا على الحركة التجارية في هذه البحار ، في القرن الخامس عشر ، ثم اخذوا يستبدلون بعضهم البعض دون ان يدخلوا اي تغيير ملحوظ او اي تطور محسوس . كانت الحركة التجارية بيد المسلمين من عرب وفرس الذين كانوا يملكون ويديرون معظم السفن العاملة في تلك البحار ، ويؤمنون الجانب الاكبر من هذه الحركة للتجارية النشطة في المحيط الهندي بين افريقيا غرباً وآسيا شرقاً . وتلاههم في هذا المجال الصابئة *Pursis* في غوجارات ، والشطي في كورمانديل ، ثم الصينيون واليابانيون . وكانت التجارة تتم على مرحلتين ، او ترتكز على محطتين رئيسيتين : سواحل الملابار ، في الهند ، حيث كانت مدينة كاليكوت تؤلف المرفأ الرئيسي ، وهو ميناء واقع في اماره زامورين . اما الثانية فكانت مالقا . كانت مالقا وسلطنتها من هذه الانشاءات التي اوجدها المسلمون ، كما كانت نقطة الالتقاء للحركة التجارية بين المحيط الهندي وبحار الصين ، وكانت هذه المدينة النقطة التي يلتقي عندها تجار العرب والفرس والصابئة والشطي والصينيون واليابانيون الذين قلما تجاوزت سفنهم مضيق مالقا ، باستثناء بعض قوارب صغيرة بلغت عرضاً واتفاقاً ، سواحل كورومانديل . وفي هذه النقطة بالذات كان يقع التبادل التجاري بين محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل وجزر الصوند مع البضائع والسلع والمحاصيل من انتاج الهند والجزيرة العربية وافريقيا واروبا . وكانت محاصيل الشرق الاقصى تجمع فيها بعد في مدينة كاليكوت والمرافىء الواقعة على مقربة منها . يضاف اليها الفلفل من مقاطعة الملابار ، والمحاصيل الهندية الاخرى . كالفرقة والحجارة الكريمة من سيلان ، والنيلة من غوجارات والمنسوجات القطنية والجسوت من البنغال وغوجارات والبنجاب ، والافيون والعقاقير ، ثم يجري شحن كل هذه السلع عبر البحر الاحمر والخليج الفارسي والاقطار الاسلامية الواقعة حول

حوض البحر المتوسط الشرقي واوروبا ، مقابل الذهب ، ولا سيما الفضة ، وخيل المعجم ، وجياد الجزيرة العربية التي اشتد عليها الطلب عند الجيوش المتحاربة ، والحري الحام والآلئ من بلاد فارس ، والببن والعطور من العربية ، والنحاس والقصدير ، والزئبق والرصاص ، والزئبق والحرائر ، والخمل والديباج ، من اوروبا ، وهي فصل عن طريق البلدان الاسلامية ، والعاج والعنبر والمرجان والعبيد من افريقيا ، وكلها مواد واضناف لسد حاجات الجيوش والبلطات الملكية .

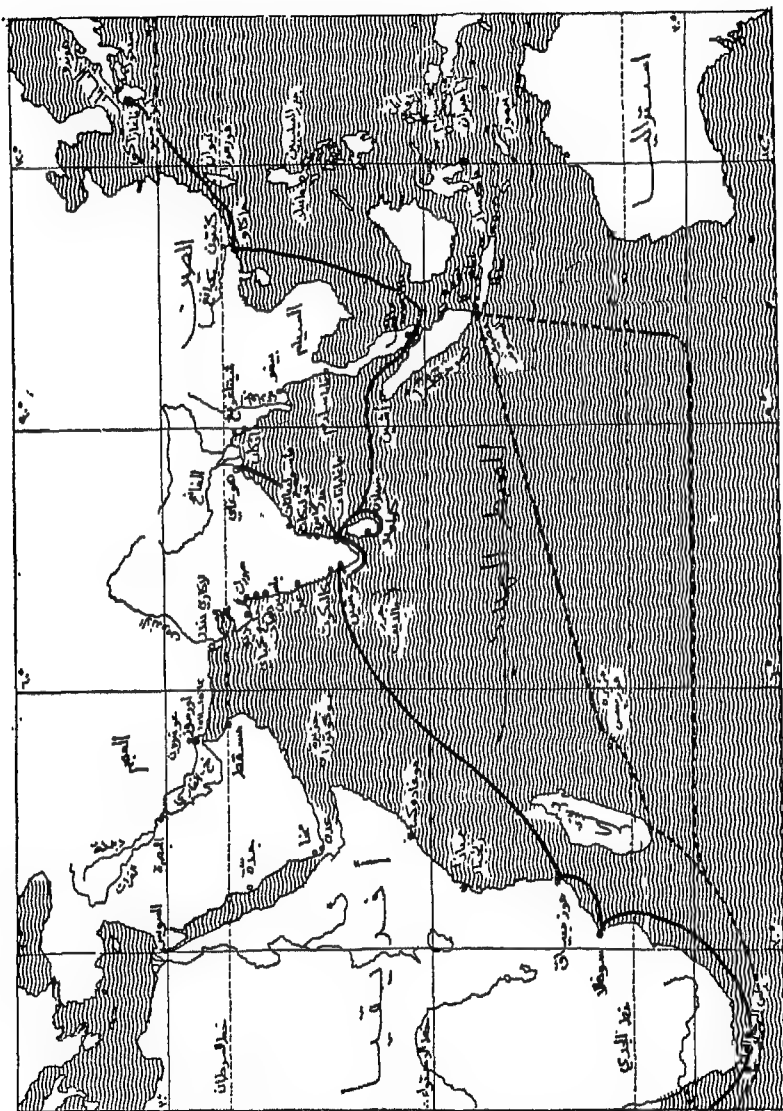
ولكي ينشئ التجار لهم مركزاً تجارياً او وكالة تجارية في مرفأ ما كان عليهم ان يحصلوا بذلك على رخصة من سلطات البلاد التي كانت تجهز لهم انشاء مراكز تجارية تضم ابناء الجالية الاوروبيين ، مع الاعتراف لهم بممارسة قوانينهم الخاصة وعاداتهم ، ويتولى رئيس من ابناء هذه القوميات ، كل بحسب جنسها ، امور الرعية . ويتمتع هذا المركز الذي كثيراً ما يكون مرفأ ، بإعفاءات ملكية باعتباره ارضا اجنبية لا تخضع لادارة الدولة . ولما كان هذا الاعفاء قابل للالغاء والنسخ من قبل ملك البلاد ، وجب على الوكالة التجارية ان تحتاط للامر بتوفير نقطة ارتكاز لها ، وتأمين شيء من التفوق البحري بحيث يؤلف تهديداً لممتلكات الملك البرية ، وفرض الحصار على المرافئ والموانئ الواقعة تحت اشرافه ، والحؤول دون وصول السفن الى مرافئه ، وحمل الملك على المفاوضة بشل حركة الجمارك ، بالتالي تخفيض مداخيل الدولة ووارداتها من المكس ، ومنع وصول الاسلحة لديه وغير ذلك . والا اضطر التجار للانتقال من المرفأ الى الحصن بحيث يكونون بأمن . ولذلك كان عليهم ان يوسعوا سيطرتهم على النواحي المجاورة للقاعدة التي يحتلونها ، وتأمين سيادتهم على السكان القاطنين فيها ولا سيما السلطة التشريعية والسلطة التي تفرض الرسوم او تجبيها . ففي الهند وفي شبه جزيرة مالقا ، كان التجار المسلمون لا يزالون بعد عند مرحلة الوكالة التجارية ، اذ ان نظام التضامن الذي عملوا به وساروا عليه ، كان يتيح لهم قفل المرافئ الخاضعة للملك المتمرد دون اضطرابهم لحمل السلاح . اما في المرافئ الواقعة على سواحل افريقيا الشرقية التي لا تزال على البربرية ، فقد بلغ التجار فيها مرحلة الحصن .

لم يكن يسمح ببقاء السفن طويلاً في موانئ آسيا الموسمية خشية ان يفتك السوس بها ، وتجنباً لاسترسال البعارة في الفسق والقصف في هذه الاقطار الحارة . كذلك وجب الاستغناء ، ما امكن ، عن الوسطاء قفادياً للتكاليف الباهظة . ولذا اسس التجار لهم محلياً ، وكلاء او ممثلين اقاموا في هذه المرافئ او في بعض الجزر ، كلفوا شراء التوابل مباشرة من منتجها في زمن القطاف ، يحتفظون بها في مستودعاتهم ريثما تصل السفن المعدة لشحنها ونقلها . وعلى مثل هذا سارت المعاملات المتعلقة بتوسيق هذه المحاصيل . وكانت الارياح الموسمية هي التي تتحكم بنظام المواصلات وسير السفن . كانت هذه الارياح الموسمية تبدأ ، على سواحل الملابار ، في اوائل حزيران مما يجعل من الصعب جداً على السفن مغادرة موانئها لمعاكسة الارياح لها ، كما كان يستحيل على اي سفينة القدوم للمرفأ لثلا تتعرض للعطل او للتخبط . ولذا كانت المرافئ

تقفل في اواخر ايار الى اوائل ايلول. ولهذه الاسباب حرصت السفن على ان 'توقفت' قدومها في الوقت الذي تهب فيه الارياح من الشمال ، وقبل ان يتحول اتجاهها . فالرياح الشمالية كانت ملائمة لمغادرة السفن موانئها واقلعها . وكان لا بد من الاقلاع باكراً بحيث تتجاوز سيلان الى الشرق ، وتبلغ الموزمبيق ، في الجنوب قبل ان تكون الرياح الموسمية تحولت من جديد الى الجنوب الغربي . فالرحلة البحرية نحو الجنوب كانت تتم بين ايلول و كانون الثاني . اما في البحر الاحمر ، فترتب على السفن ان تغادره للهند في آذار ، وكان نيسان احسن شهور السنة لاجتياز مضيق باب المندب .

كانت حركة السفن تبلغ اشدها ، في مرفأى مخا وجدة ، في شهري ايار وحزيران . وكانت السفن تلتجىء ، وهي في سبيل عودتها ، الى نقطة ما تقع الى الشمال من جزيرة سوكو تورا . اما اذا اتفق وكانت الرياح الموسمية في الجنوب لا تزال على شدتها ، فالسفن لا تصل الى الهند الا في ايلول . اما في جهة مالقا ، فالوقت المناسب للسفر البحرية هو الفترة الواقعة بين ايلول ونيسان . فالسفينة التي قفاجتها الرياح الموسمية كان عليها ان تتوقف مدة طويلة ، وبذلك 'تفوت' عليها فرصة طيبة للكسب والربح . والسفن التي كابت تنقل الحجاج بحرأ الى مكة من مالقا ونواحيها ، تراوح حجمها بين ٢٠٠ - ١٠٠٠ برميل ، بينما لم تكن سفن الشحن لتتسع لـ ١٣٠ - ٣٠٠ برميل ، بينما تراوح حجم السفن الصغيرة التي تسير والساحل بين ٣٠ - ٤٠ برميلاً .

وقد تم لهؤلاء التجار الآسيويين من مسلمين وصابئة وشطي وصينيين ، خبرة واسعة لاطلاع دقيق على قانون العرض والطلب ، يحسنون على خير وجه ، المعاملات الخاصة بعقد الصفقات التجارية والاحتكارات ، كما يحسنون الافادة من السماسرة والملاء ، واعمال الصرافة والمضاربات ، ويؤمنون على معاملاتهم بسندات مالية . فلم يكونوا ليجهلوا ما يتعرضون له هم وبضاعته من مخاطر ، وما يتهدد مشحوناتهم من أزمات وافلاسات . وكثيراً ما عولوا على التعاويل والصفائح المالية في معاملاتهم التجارية . فاذا ما اراد تاجر ، مثلاً ان يشتري بضائع بقصد تصديرها لصورات ، استطاع ان يجد حاجته من المال في اكرا ، وذلك باعطائه تجويلاً على صورات تستحق بعد شهرين ، مع حسم واحد في المائة . وكان باستطاعته ان يحصل من صورات على المبالغ التي كان بحاجة اليها لشراء البضائع ، مثلاً ، من ارموز ولكن بعد حسم ١٢ - ١٦ ٪ لقاء المخاطر والمهالك التي تتعرض لها البضاعة من اخطار البحر والقرصان . وهكذا كان يلحق الفائدة نفسها نوع من التأمين . ومبالغ من هذا النوع كان بالامكان تأمينها لمن يرغب في شراء بضائع له من جزر الفيليبين . وكان يقوم على الساحل اسواق ضخمة ، موحدة ، قبل غوجارات ملبار ، وصورات ماسوليباتام لسهولة النقل البحري . اما الهند ، فكانت منقسمة في الداخل الى اسواق فردية ، ضيقة المجال . فلحصول على بضاعة ليست في



الشكل ٢٠ - الامبراطورية البرتغالية

في مطلع القرن السابع عشر

الطريق البحري

الطريق البري

الطريق الجوي

٤ - - - - -

٢ - - - - -

٥٥ هجري

مرفأ يقم فيه مستمد تجاري برتغالي كبير

مستعمرات برتغالية برية

٥١ غوا

السوق ، كان يقتضي له سنتين . وتقطع البضاعة في انتقالها ١٨٥ كيلومتراً ، مما يزيد في كلفتها وبالتالي في ثمنها .

لم يدخل البرتغاليون أي تغيير يذكر على الأوضاع السياسية التي
الامبراطورية البرتغالية : استعرضنا لها في آسيا . فقد احتكروا تجارة بعض الاصناف وبعض
احتكار تجاري السلع وحاولوا استغلال التجار المسلمين في ما يتعلق بالاصناف
الآخري ، دون ان يحاولوا اقضاءهم او تنفيرهم من المجالات التي سيطروا عليها . فقد كان لهم
من تفوق مدفيعتهم ومن الطريقة الوحشية التي يصتفون معها بسرعة ، السفن الاسلامية المنافسة
لهم ، بعد ان يملأوا ببحارتها ويشنعوا بهم ، ما جعل اسمهم بعبء او مفزعة في تلك الارحاء .
فقد فرضوا قوانين صارمة ، وحظروا ، تحت طائلة الإغراق على كل سفينة غير برتغالية ،
التجار بين الهند وسواحل انريقيا الشرقية ، او بين الهند والصين واليابان . وفي هذا السبيل ،
احتلوا بعض القواعد البحرية منها ، في الدرجة الاولى ، مراكز توزيع السلع التجارية .
فاتحلوا على سواحل ملابار : كوشين وغوا التي جعلوها عاصمة امبراطوريتهم البحرية المترامية
الأطراف ، كما احتلوا عام ١٥١٠ ، مرفأ باسين على مقربة من مدينة ممباي ، حيث اقاموا دار
صناعة لبناء السفن ، واخيراً مالقا التي استولى عليها البوكرك ، عام ١٥١١ . كذلك
سيطروا على بعض الثغور التي تستقطب النشاط التجاري والاقتصادي في المنطقة ، يتخذون
منها مراكز لمراقبة الحركة التجارية . واحتلوا أرموز على يد البوكرك ايضاً ، عام ١٥١٥ ،
ثم مدن ريو ودامان عند مداخل الخليج الفارسي . وسيطروا على الخط التجاري ، عبر صورات
ومنها عبر الهند ، الى اكرا ودلهي . وقد عجزوا عن الاحتفاظ بـمدن ، الا انهم استطاعوا
قطع المواصلات البحرية عند اطراف مضيق باب المندب ، ونشروا الحصون والقلاع على
السواحل التي يمكن لهم الاستفادة من الاتجار معها . حلوا محل العرب على سواحل افريقيا الشرقية
في صوفالا والموزمبيق التي كانت مركزاً لتجديد اساطيلهم وعماراتهم التجارية ، باستبدالها
بالسفن القادمة من اوروبا ، ومباسا ولوليانه وموغا دو كسو ، وسيطروا ، في ارخبيل المولوسك
على جزر التوابل والافاويه ، واقاموا فيها قلاعاً صغيرة ، اهمها الحصن الذي شيدوه في جزيرة
امبوان (١٥١١) كما اقاموا حصناً لهم ، هو الثاني اهمية بين حصونهم الرئيسية ، في جزيرة
تيمور للسيطرة على خشب الصندل الابيض ، واكتفوا بقواعد تجارية ثانوية اقاموها عند مصب
نهر الفانج ، في هوغلي ، بالقرب من كلكتوتا ، وتشيتاغونغ على سواحل مقاطعة كورومانديل ،
وفي سان توما وبنغافام ، وفي الصين ، ماكاو (١٥٢١) وفي اليابان . وقد تمكن البرتغاليون
من انشاء قواعدهم ، بينهم من تعهد بدفع جزية سنوية نقداً ، وهو وضع سلطان ارموز ، بينما
تعهد البعض الآخر بتقديم محاصيل عينية ، وهو وضع عدد كبير من صفار الامراء في
جزر المولوسك وجزر لاكديف فيجهزون التجار البرتغاليين باصناف كثيرة . اما من كان من
هؤلاء الاتباع يتصرف بمرافء تنشط فيها الحركة التجارية او يملك اسطولاً حريباً يخشى

جانبه ، فراح البرتغاليون يعاملونه بأقصى الشدة . فقد تعهد حاكم زامورين كاليكوت ، عام ١٥٠٩ الا يحتفظ بأسطول حربي ، كما ، تعهد عام ١٥١٥ الا يستقبل في موانئه اعداء او خصوصاً للبرتغاليين ، او منافسين لهم ، وان يعفيهم من كل رسم وضريبة ، وان يقاسمهم نصف ايراد المكس المفروض على غير المسيحيين . كذلك تعهد لهم ، عام ١٥٤٠ ، ان يتمتع عن الاتجار مع السواحل العربية وان يحظر على رعاياه التوجه اليها ، وان يحتفظ لحساب البرتغاليين بكل غلته من الفلفل والزنجبيل . وعقد البرتغاليون مع غودجارات ، عام ١٥٣٤ ، معاهدة حظرت عليها بناء سفن تجارية . فقد قنع البرتغاليون واكتفوا بما تم لهم من السيطرة والسيادة في المجال التجاري ، تاركين لرجاوات الهند ولسلاطين الدول الاسلامية الصغيرة الذين ارتبطوا معهم بالولاء والتابعة ، الحرية التامة بادارة اماراتهم وممالكهم كما يشاؤون ، ولم يظهروا بمظهر السادة المطلقين السلطة الا في ممتلكاتهم الخاصة : في غوا وكوشين ومالقا وغيرها . فقد كان لهم نائب ملك مركزه غوا ، كما كان لهم فيها محكمة عدل عليا ومطرائية ، بينما تولى الامر في المراكز الاخرى حكام برتبة قبطان . وكانت ذهنية المجتمع ، اذ ذاك ، ذهنية من يقول بالرق ويطالب بتطبيقه على نطاق واسع والنهوض به اسوة بما كان عليه الوضع في البرازيل ، وهكذا امتدت رقعة الامبراطورية البرتغالية من ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ كيلومتر من رأس الرجاء الصالح الى الخليج الفارسي ، كما امتدت ١١ الف كيلومتر من سواحل افريقيا الشرقية الى جزر المولوسك . وقد وجدت الامبراطوريات الغازية ، مصلحة لها في مثل هذا الوضع اذ لم يلحق بها اي تغيير او تبديل يذكر . فقد قبل السلطان اكبر ، مثلاً بطلب الترخيص له وبدفع الرسوم المتوجبة للسفن المعدة لنقل الحجاج من صور الى مكة . اما التجار المسلمون ، فقد ألفوا الحصول على ترخيص لهم بمتابعة نشاطهم التجاري وراح عدد كبير منهم يقوم باعمال التهريب وينقطع لعمال القرصنة في البحار .

فالامبراطورية البرتغالية كانت في عرف اصحابها ، عملية تجارية واسعة النطاق تابعة للتاج . فالملك هو اكبر تاجر او مساهم في هذه الامبراطورية ، ويعتكر لنفسه تجارة التوابل والمواد الصيفية والمواد الطبية ، بينما تبقى حرة ، تجارة الصمغ والراتنجات والعطور والحجارة الكريمة . فقد انشأ ملك البرتغال على مقربة من قصره « وكالة » خاصة عرفت بوكالة الهند التي كانت في الوقت ذاته مركزاً لادارة هذه الامبراطورية ومستودعاً كبيراً قام تجار ارضه لشبونة . وقد تسمى *La Casa da India* . بيع كل المحاصيل المستوردة من الهند ، وكانت تصرف فيها كيفما تشاء فتحدد منها ثمن المبيع ، كما انها تفرض رسوماً على المبيعات وتحدد للمتسوقين مهلة لتنفيذ البضائع المشتراة والكميات المعروضة للبيع تقادياً لهبوط الاسعار . وبالمقابل كانت وكالة الهند تشتري ، في انفرنس ، النحاس والمدافع ، والاسلحة والقلاع والاقشة والحضروات اللازمة لتجهيز الاساطيل البرتغالية في الهند وتوطينها .

وبين هذه القوافل التي تتجر مع الهند الشرقية ، للملك سفنه ومشحناته الخاصة . واذ

كان يفتقر لرؤوس اموال يستثمرها في هذه التجارة ، فقد كان يمنح اجازات ترخيص ترخص الاتجار مع الهند لهذه الجمعيات التجارية التي تتألف من تجار ايطاليين وألمان ، امثال شركة ويلر التي فتحت لها فرعاً في لشبونة ، عام ١٥٠٣ ، وفوجر وهوشستر وماركيوني وايتاتي ، وغيرها . ومثل هذه الرخص والاجازات ، اعطاها الملك للنواجد او متعهدي تجهيز السفن التجارية من البرتغاليين ، ولاميرالية البحر ، وقباطنة السفن . كذلك ترك الحرية لقباطنة السفن والبحارة والحكام وقادة الحصون وللجنود أن ينقلوا معهم ، ذهاباً واياباً من الهند ، ما شاؤوا من محاصيل البلاد ، على ان يدفعوا للملك ٢٥٪ من ثمن مبيع البضاعة .

فلا عجب والحالة هذه ان تكون الارباح العائدة اليه واهية وافرة . فقد بلغ معدّلها ، حتى في حالات فقدان السفن وتلفها ، ٢٠٠٪ وقد ارتفعت الواردات العامة في عهد الملك جان الثالث ، عام ١٥٣٦ ، من ٢٠٠،٠٠٠ كروزيديوس ، الى ٦٥٠،٠٠٠ بفضل الاتجار مع البلدان المحيطة بالهند . فقد كانت طريق رأس الرجاء الصالح اكثر مردوداً من طريق البحر الاحمر حيث كان يقتضي اعمالاً كثيرة لتفريغ الوُسق واعادة شحنه في مرافئ عدن وجدة وقصير على النيل ، والقاهرة . وهكذا وجد الاقتصاد البرتغالي نفسه في « دوامة الدولة » .

اما المشكلة الكبرى فقد تمثلت بشراء التوابل من الهند التي لم تكن بحاجة الاعداد يسير من البضائع الاوروبية . فالملوك والامراء الهنود آثروا ، بالاحرى ، الذهب ليحتفظوا به ودائع في صناديقهم ، بينما فضل الهنود نقداً من الفضة ، والنحاس لحاجتهم اليه في معاملاتهم اليومية . فلم تكن الهند من البلدان المنتجة للمعادن الثمينة ، انما هي جزء من هذه المنطقة ذات الاقتصاد النقدي الواحد التي تتألف من اوروبا وافريقيا الشمالية والسلطنة العثمانية وبلاد فارس . فالهند تمتص عملات هذه الاقطار من غوازي البندقية الى « دوقا » المانيا وبولونيا وهنغاريا ، وجنابات انكلترا وسلطانيات مصر . كل هذه العملات وما اليها كانت ترد عن طريق القاهرة وعدن مع سيرات الفارسية . ولعل اكثر العملات رواجاً اذ ذاك ، هي السبيكة الفارسية ، وهي عبارة عن قطعة من الفضة بشكل ريشة الأوز ، اسطوانية الشكل من اطرافها ، مسطحة في الوسط ، مطوية على نفسها شقتين متوازيتين ، عليها كتابة فارسية ، وزنها ٥ غرامات ونصف الغرام . وكانت تسك في مدينة تقع على مسافة قريبة من الخليج الفارسي . ويقدر الثقا ان اوروبا كانت تصدر كل سنة ، نحو بلدان الشرق ، ما زنته ١٧٥ كيلو غراماً من الذهب ، ونحواً من ٢٠،٥٠٠ كيلو من الفضة . وقد بلغ انتاج مناجم الفضة ، في اوروبا الوسطى ، بين ١٥٣٦-١٥٣٥ الذروة ، اذ سجل ٨٤،٠٠٠ كيلو غرام من الفضة في السنة الواحدة . وكان جانب كبير من المعادن الثمينة المرسلة الى آسيا الصغرى او الى مصر يصل الهند حيث كان يتوزع بين الملوك والسلاطين والامراء والعامة ، اذ كانت الهند تقتنر كلياً للمعادن الثمينة وللنقد ، في اواخر القرن الخامس عشر . فقد توقف سك العملة الثمينة في هندستان ، منذ اواسط القرن الرابع عشر ، ونقصت كمياته كثيراً في غوجارات وفي الدكن . وكان للهنود ، الى جانب عملة

النحاس عملة من الحديد ، القطعة منها بشكل هلال صغير او مسلات صغيرة . كذلك استعملوا طريقة مقايضة البضائع بعد تخمين اثمانها بالعملة الدارجة ، ثم تجري عملية المقايضة .

لم تكن البرتغال لتفتقر بالمعنى المصري ، للمعادن الثمينة لكي ينهض بنشاطه التجاري في الهند . فكان بإمكانه ان يعتمد على الذهب الافريقي ، ابي المصدر من بلاد آشتي وموسى عن طريق مرفأ سان جورج المينا ، وعلى ذهب الغينه . فيوفر له ١٥٠٠ ، و ١٥٢٠ كيلو بالإضافة الى ٧٠٠ كيلو غرام من المعادن الثمينة ، في السنة الواحدة وفي ١٥١٩ ، كان سكان البندقية يلقبون ملك البرتغال ، لدى زيارته لمدينتهم : « ملك الذهب » وكان قسم من هذا الذهب ينفق في أنفوس لشراء الفضة والنحاس والقمح والمدافع ، كما يذهب منه قسم الى صقلية ، ثمناً لقمحها ، وليلانو ثمناً للأسلحة ، وللانديلس ثمناً لعتاد حربي مختلف تحتاجة حصون البرتغال وقلاعها في المغرب الأقصى . فلم يكن لديه ما يفيض على حاجته .

ولذا قررت حكومة البرتغال ان تشحن كمية قليلة ، من المعادن الثمينة الى الهند عن طريق الرأس . فقد بلغ ما شحنوه منها ، بين ١٥٠٤ - ١٥٥١ ، ما يتراوح بين ٣٠٠،٠٠٠ و ٨٠٠،٠٠٠ كروزيديو في السنة الواحدة ، اقل مما كان يدره مرفأ المينا من الذهب ، على الملك . وقد شكلت شحنات المعادن الثمينة ، في اول الامر ، ابي حوالي ١٥٠٦ ، نحواً من ٧٥ ٪ من قيمة الشحن . بينما هبط هذا المعدل بين ١٥٢٢ - ١٥٥٧ الى ١٢ - ٢٣ ٪ . وكانت هذه المشحونات تضم ، فيما تضمه ، الزنجفر والزئبق والمرجان والرصاص ، ولا سيما النحاس المستورد من بلدان اوروبا الوسطى بعد ان يجري تسويقه في مدينة أنفوس ، وغلبت قيمة المعادن الثمينة . فقد شحن ، بين ١٥٤٠ - ١٥٥٥ من ٥٥٠٠ الى ٧٥٠٠ قنطار في السنة الواحدة . وقد سُكت كمية من هذا النحاس تبلغ ١٥٠٠ قنطار ، نقداً هندياً من نوع بازاروكوس ، وما تبقى فقد بيع ، وزناً بوزن ، بهاراً . والى هذا فقد استعمل البرتغاليون منذ السنين الاولى من القرن السادس عشر ، معادلة منهم لرصيدهم مع الهد ، كُتب الاعتد والسفجة بدلاً من شحن نقد سائل اليها ، مما يوازي ٤٠ ٪ من مجموع هذه المبالغ . وهكذا فلم تر ان الاقتصاد البرتغالي خسر كثيراً من كمية المعادن الثمينة التي توفرت له .

وعرف البرتغاليون ان يفيدوا من وضع الهند والبلاد المحيطة بها التي لم تنهض اقتصادياتها على نقد معين والمعروفة بانتاجها العظيم للمعادن الثمينة ولا سيما للذهب . ففي افريقيا الشرقية نجد مدينة ممباسا التي اقام فيها البرتغاليون احتكراً ملكياً للذهب بعد ان اقصوا منها المسلمين . فقد كان يصل كل سنة ، من الهند سفينة مشحونة بالانسجة القطنية ، مصدرة من خليج كمباى ومزالج ومفالى يرغب اصحابها من قبائل البننو مقايضتها بالذهب . ففي سنة ١٥٨٥ ، تم شحن ٤٧٣ كيلو غراماً من الذهب ، كما تم سنة ١٦١٠ شحن ٨٠٠ كيلو غرام من افريقيا الى غوجارات والى فيجاياناغار ، تلبية لحاجات المزارات والمعابد الوثنية . وكان الذهب يجمع في جاوا وصومطرة وبورنيو وماكسار وريو - كيو ومن كل هذه الجزر المتناثرة في البحر

حتى مشارف اليابان ، ويحمل من ثم الى مالقا . وعلى هذا النحو قس يو - نام في بورما واللاوس والبنغو في كيبوديا . وكانت كل موانئ الهند الصينية تشحن الذهب الى مالقا فيحمله البرتغاليون الى الهند بمعدل طنين في السنة . كذلك كان البرتغاليون يستوردون من مرفأ أرموز عملة فارسية السكة من نوع *Lerins* ويقايضون بها في مدينة كوشين ، الفلفل والبهارات ، بربح ٢٥ - ٢٠ في المائة ، كما كانوا يستفيدون من المضاربة بهذه العملة صعوداً وهبوطاً ، بربح يتراوح بين ٣ - ٢٢ ٪ حسب المواسم .

وقد بعث البرتغاليون عن طريق هذه العملات والمعادن الثمينة ينزلونها للاسواق بنشاط في مرافق الهند الاقتصادية كاللجاعة والصناعة ، ولا سيما في مقاطعات غوجارات وهندستان فاستأنفت الهند سك العملة منذ اواسط القرن السادس عشر . كذلك عمل البرتغاليون في تطوير امبراطوريتهم في الهند الشرقية بحيث تكفي نفسها بنفسها تحت ادارة حاكم الهند العام الفونسو ده صوصه (١٥٤٢١ - ١٥٤٥) ، كما استطاعت هذه الامبراطورية البرتغالية في الهند ان تؤمن بمواردها الخاصة كل نفقاتها العامة ، وان تؤمن مشترياتها من التوابل بما تحققه من الارباح من تجارتها : « في الهند ومع الهند » ، دون ان تضطر لطلب اية مساعدة مالية من البرتغال . ومما هو اكثر من ذلك ، ان التجار والموظفين البرتغاليين الذين اثروا من تجارتهم في الهند ومع الهند ، استطاعوا ان يحمّلوا معهم لدى عودتهم الى بلدهم الام ، مقادير كبيرة من المعادن الثمينة .

وقد بدت هذه الامبراطورية مزعزعة الدعائم ، بين ١٥٤٥ - ١٥٥٢ ، من جراء هذه الازمة الاقتصادية التي كادت تمتد الى اطراف العالم . بدت اعراض هذه الازمة ، واضحة في انفرنس ، ولندن ولشبونة والبرازيل وارموز ومالقا ومكاو . فقد بلغ معدل السفن البرتغالية التي اتمت انفرنس ، من ١٥٣٦ - ١٥٤٤ ، ما يتراوح عدده بين ٢٢ - ٢٣ سفينة في السنة ، وبين ١٥٥٤ - ١٥٦٠ ، نحواً من ١٤ سفينة . وهبط دخل الجمر في ارموز ٢٥ ٪ بينما بلغ معدل هذا الهبوط في مرفأ مالقا ٥٠ ٪ . اما اسباب هذا الهبوط فيمكن ردها الى ازمة الذهب ووصول مقادير كبيرة من الفضة الاسبانية المستخرجة من مناجم بوتوزي في البيرو ، عن طريق اشبيلية ، الذي طرد ، تدريجياً ، الفضة المستخرجة من مناجم اوروبا الوسطى : من بوهيميا والتيرول وسيليزيا والشاكس والهارتز ، فكان ذلك سبب انهيار هذه المناجم ، بعد عام ١٥٥٠ ، وزاحم الذهب البرتغالي . هنالك سبب آخر مجده في ردة الفعل يقوم بها الاسلام ضد البرتغاليين . استأنف الاتراك العثمانيون هجومهم ضد مدينة ديو ، عام ١٥٤٦ . فالحقوا بالبرتغاليين اضراراً كبيرة وكبدوم نفقات باهظة ، كذلك سبق ونوهنا بالهجوم الذي قام به المراكشيون في المغرب الاقصى .

لنجم عن هذه الاحداث تغييرات اساسية في النظام الاقتصادي للامبراطورية البرتغالية . فقرر الملك ، في اواخر عام ١٥٤٨ ، إقفال الوكالة او المفوضية التي كان انشأها في انفرنس ، كما كف منذ عام ١٥٧٠ ، عن استئجار طريق رأس الرجاء الصالح استئجاراً مباشراً ، فاعتمد ، اكثر فاكثر ،

اسلوب الاجازات والترخيص وعقد اتفاقات خاصة مع شركات خاصة . والاحتكار الملكي الوحيد الذي بقي قائماً هو احتكار النحاس .

والتغير الثاني المهم الذي عرفه النظام الاقتصادي ، تمثل في هذا النجاح العظيم تصبیه الفضة الاسبانية والريال الاسباني ، الذي اخذ يفزو اقطار المحيط الهندي ، وبلغ بلدان الشرق الاقصى بين ١٥٥٤ - ١٥٦٩ ، عن طريق الرأس اولا ، ثم عن طريق اسكة الشرق الأدنى ، ثم بعد سنة ١٥٧١ ، من المكسيك ، عن طريق ما سمي بـ « باخرة مانيلا » التي لاقت نجاحاً منقطع النظير . واقبل المسلمون الهندوس يشترون الريال الاسباني ، باي غن كان ، باليرة الذهب . وحوالي ١٥٨٣ ، راحوا يحملون التعامل بالبضائع والسلع ، لينقطعوا للتجار بالعملة والنقد السائل . ودرج استعمال الريال في جميع اطراف الهند ، بين ١٥٨٠ - ١٥٩٠ ، ولم يكن هذا النجاح بأقل منه في الصين ، حيث اخذت المضاربات بالريال ، تبلغ ٢٠ - ٢٢ ٪ . فاسبانيا هي التي تملك هذه الفضة وتسك هذه العملات على اختلافها ، ولذا لجأ البرتغاليون للتهريب متخفين من جزر الازور قاعدة لهم للحصول على حاجتهم من الريال بالتجار في الهند ومع الهند ، وفي عام ١٥٨٠ ، بانضمامها الى اسبانيا . كذلك راح البرتغاليون يبحثون عن الفضة في اليابان .

واخيراً ، سجلت طريق رأس الرجاء الصالح بمض المبوط في نشاط الحركة التجارية ، وهو مبوط يمكن رده لعدة عوامل ، منها ان مسلمي صومطرا اخذوا يستنبطون نوعاً من اغراس الفلفل ، احسن انتاجاً ، وارفع قيمة من فلفل مليزيا . وراحوا يوردونه الى القاهرة ودمشق مباشرة ، على خط مستقيم يمتد من أتيش الى عدن . وهكذا عاد النشاط الى الحركة التجارية في كل من البحر الاحمر والخليج الفارسي . كذلك اخذت البندقية بعد ان يسر لديها الحصول على الريال الاسباني ، اكثر مما توفر للبرتغاليين ، عن طريق جنوى ومرافئ اوروبا الشمالية ، تستأنف التجار بالتوابل مع طرابلس الشام وبيروت . وقبل وصول البرتغاليين الى الهند ، كانت البندقية تستورد الافاويه من الاسكندرية بمعدل ١٠٠٧٦٠ قنطاراً في السنة . وقد استوردت في الحقبة الواقعة بين ١٥٦٠ - ١٥٦٤ ، من هذه التوابل ، ما معدله ١١٠٧٠٠ قنطار في السنة ، اذ ان استهلاك اوروبا من التوابل ارتفع من ١٧٠٦٠٠ قنطار ، عام ١٥٠٠ ، الى ٢٧٠٠٠ قنطار في السنة .

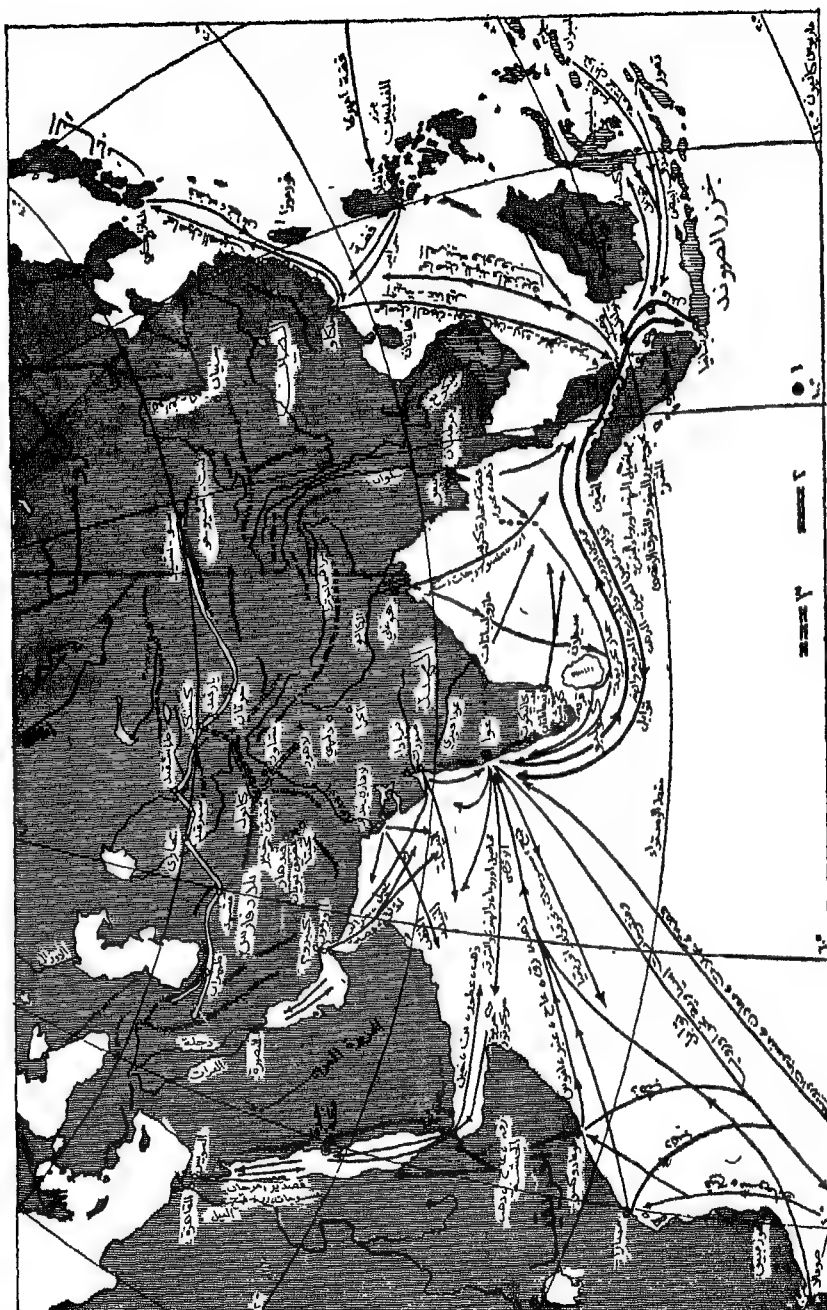
اشتدت ، من جهة ثانية ، المنافسة التجارية ، بين الفرنسيين والانكليز . فقد ركز السلطان أكبر ، امبراطوريته على دعائم قوية ، وشجع الرجوع الى الطرق البرية ودعا الى اعتمادها في نقل التوابل باتجاه الصين او بلاد فارس ، وتحول قسم كبير من محصول التوابل ، في الملابار الى آسيا الوسطى . ولهذا الاسباب ، ارتفع سعر هذه الاصناف عند البرتغاليين .

وهكذا اخذ البرتغاليون بصادفون في تجارتهم عدداً اكبر من المزارحين ، اكثر استعداداً

وجرأة وعدة . ولذا خفت بعض الشيء حركة نقل التوابل عن طريق رأس الرجاء الصالح . فقد بلغ معدل ما مر ، عبر هذه الطريق ، بين ١٥٦٠ - ١٥٧٠ ، من ٣٠ - ٣٥ ألف قنطار من الافاويه في السنة ، بينما نرى هذا المعدل يهبط الى ما يتراوح بين ٢٥ - ٣٠ ألف قنطار في السنة ، في هذه الفترة ، الممتدة من ١٥٧٥ - ١٥٩٥ . الا ان هذا النقص ، امكن تعويضه ، عن طريق ارتفاع معدل الارباح من التجارة مع الهند ، وهي ارباح ، بلغت في الربع الاول من القرن السادس عشر ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كانت عليه في الربع الثاني من القرن المذكور . فهناك ارتفاع في القيمة العامة او المطلقة . وهكذا كان تأخر الحركة التجارية في البرتغال تأخراً نسبياً .

اصبح هذا التأخر شيئاً واضحاً لا يمكن تجاهله ، بعد عام ١٥٩٥ ، عقب دخول الهولنديين حلبة التجارة في الشرق الاقصى . فلم يعد البرتغاليون يستوردون الا عن طريق رأس الرجاء الصالح ما مقداره ١٥،٠٠٠ قنطار في السنة ، من التوابل ، ثم هبطت هذه الكمية الى ٧٠٠٠ قنطار . ففي مطلع القرن السابع عشر ، اصبح استيراد التوابل عن طريق اسكوتلندا الشرقية الاذن أقل كلفة وبالتالي ارخص من كلفته عن طريق الرأس . والتجارة مع اقطار الهند الشرقية لم يعد لها المكان البارز في الاقتصاد البرتغالي . ولكن ما لنا وللحديث عن هبوط الحركة الاقتصادية في البرتغال ، اذ ان البرازيل سيلعب ، في القرن السابع عشر ، الدور الرئيسي في هذا الاقتصاد . ففي عام ١٦٢٧ ، بلغ دخل الرسوم المدفوعة على السكر اكثر من نصف واردات الجازك في لشبونة ، وهكذا انتقل البرتغال من منطقة « البهارات » الى منطقة « السكر » . وبعد سنة ١٦٤٠ ، اي بعد ان تحرر من التبعية الاسبانية ، اصبح اقوى بكثير مما كان عليه في منتصف القرن السادس عشر ، اذ اصبح يسيطر ، في المحيط الاطلسي ، على امبراطورية دونها الامبراطورية التي تمت له في المحيط الهندي .

المحيط الهندي في المحيط الهندي
حل الهولنديون ، اثناء القرن السابع عشر ، كدولة رئيسية في المحيط الهندي ، محل البرتغاليين فيه . ففي سنة ١٥٩٤ قرر الملك فيليب الثاني ، اقفال مرفأ لشبونة في وجه الهولنديين والانكليز ، وهو قرار لم يجر تنفيذه دوماً ، على الوجه المرغوب فيه ، بحيث كانت بعض سفن هاتين الدولتين تقع في قبضة الاسبانيين فتصادر منها البضائع التي تملكها . وقد خشيت الدولتان المذكورتان معاً ، سد المسالك البحرية في وجهه سفنها ، وهو خطر من شأنه ان يلحق التشويش والاضطراب في الاقتصاد الهولندي ، فراححت تسعيان لاقامة علاقات تجارية لها مباشرة مع اقطار لمحيط الهندي . وفي سنة ١٥٩٥ ، قفل راجعاً الى هولندا احد الهولنديين ، هو فان لنشوت بعد ان اقام في غوا خمس سنوات ، جمع خلالها كثيراً من المعلومات الدقيقة ، كما عاد اليها من لشبونة مواطن هولندي آخر هو كورناليس هوفمان ، بعد ان قام بعمة سرية فيها جمع خلالها ، هو الآخر ، كثيراً من المعلومات . وفي ٢٣ حزيران ١٥٩٦ رحلت اربع سفن هولندية الى بنتام ، احدي السلطنات



الشكل ٢١ - أم التيارات التجارية في الإمبراطورية البريطانية

الاسلامية ، الواقعة الى الشمال الغربي من جزيرة جاوا .

كانت الاوضاع السياسية السائدة اذ ذاك ، في مصلحة الهولنديين ومؤاتية لهم جداً ، بعد ان اقتضت سيطرة البرتغاليين على بضع قلاع وعدد من الحصون ، كما انهم كانوا في حروب موصولة مع اصحاب السلطنات الاسلامية الذين كانوا يتجرون بالتوابل هم ايضاً ، وكانوا على اتم استعداد للتعامل مع غير البرتغاليين من التجار . ومن جهة ثانية ، لم يكن هنالك من ممالك وطنية تستطيع الوقوف في وجه الهولنديين وتحمدهم من تقدمهم وتقليلهم ، اذ ان معظم هذه الممالك كانت سلطنات بحرية يحاول بعضها بسط سيطرتهم على بعض المسالك والمعابر المائية ، مثل مضيق أشين ، الى الشمال من صومطرة ، وهي نقطة رسو اضطرارية لكل هذه القوافل البحرية العائدة من الغرب ، ترغب في الايفال شرقاً عبر مضيق مالقا وجوهور (مالقا) الى الشرق من صومطرة او الى الغرب من بورنيو ، وبنتام الى الغرب من جاوا ، او الى الجنوب الشرقي من صومطرة ، وماكسار الى الشرق من بورنيو ، وجزيرة بيا ، الطريق المركزية في الانسولند ، وترنات (الى الجنوب من جزر الفيليبين ، سيراف وامبوان وسولور ، وبالاختصار جزر التوابل) ، وتيدور (الى الشرق من ترنات مع الجزر المجاورة ، والشمال الغربي من جزيرة الفينيه الجديدة) . كل هذه السلطنات انهكتها الحروب المستمرة بعضها مع البعض ، وضد البرتغاليين من جهة اخرى . ففي جزيرة جاوا ، راح احد السلاطين السوسوتام هو سلطان ماتارام ، بانهاك قوى كل السلطنات الصغيرة الواقعة في داخل البلاد ، الى الشمال التي كان بإمكان سفنها ان تؤلف سداً في وجه الهولنديين . فهو لم يكن ليحسب حساباً الا للجيوش الغربية .

ومنذ عام ١٥٩٨ ، اسس الهولنديون لهم ، مراكز تجارية في جزر : بندا وترنات ، وأشين وجاهور وبنتام وبتاني (الساحل الشمالي من شبه جزيرة ماليزيا) . فقد جلبوا معهم خرداً وزروداً ومصنوعات زجاجية ومنسوجات مخملية والعبابا خشبية من صنع نورمبرغ ، وكلها سلع واصناف لاقت عند سكان الهند الشرقية رواجاً عظيماً . وحلوا معهم في طريق عودتهم الفلفل وكبش القرنفل وجوز الطيب . واخذت الشركات الهولندية في مزاحمة بعضها البعض ، مما ادى الى ارتفاع سعر الافاويه في الجزر المنتجة لها ، واخذ السلاطين يرفعون الاسعار شهراً بعد شهر . وقد اوشكت اسواق امستردام تصاب بالتمخمة . اذ ذاك رأى حاكم هولندا العام ، هو اولدن بارندفلت ان يتدارك الامر فاصدر عام ١٦٠٢ ، امراً بإنشاء الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية .

ودخل الهولنديون في منافسة حادة مع البرتغاليين واستطاعت الشركة الهولندية ان تستولي على حصونهم تباعاً الواحد بعد الآخر ، فاحتلت سفنها : امبوان وتيدور ، وجددوا ، عام ١٦٠٠ ، المعاهدة التي سبقوا وعقدوها مع سلطنة امبوان التي نصت على قبول حمايتهم للسلطنة ،

واقامة استحكامات فيها وحق احتكار تجارة التوابل . وبهذه المناسبة ، وضع الكاتب الهولندي المشهور ، الفقيه هوغو غروتوس كتابه المشهور *De Jure praedue* الذي لخصه ونشره موجزاً عام ١٦٠٩ بعنوان : « *Le mare Liberum* » - او حرية البحار . ان حرية البحار وحرية التجارة هي من حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن لاية قوة نسخها او حرمان الآخرين منها وهكذا كان هذا الكتاب نواة للحق الدولي . وبموجب هذا القانون لا حق للبرتغاليين قط حرمان الهولنديين من الاتجار مع جزر الافاويه . وقد اصبح هذا الكتاب ، فيما بعد من اصول الحق الدولي الحديث . ونحن مدينون لظهوره ، ولو بصورة جزئية ، لهذه العلاقات التي شدت بين الاوروبيين والدول الاخرى الواقعة وراء البحار .

وفي عام ١٦٠٠ ، رأت الشركة الهندية الشرقية الانكليزية النور ، برأسمال يوازي ثمن رأس مال الشركة الهولندية . وسار الانكليز ، في كل مكان على خطى الهولنديين . فبعد ان رستخ هؤلاء أسس التجارة الأوروبية في الاماكن التي اقاموا فيها ، راح الانكليز ينشئون لهم مراكز قريبة من مراكز الهولنديين ، الامر الذي ادى الى التنافس والتصادم والاقتتال بين الفريقين ، مما حل الحكومتين على الدخول في مفاوضات ، سنة ١٦١٣ و ١٦١٥ و ١٦١٩ . وقد تشبث الهولنديون بمحهم فرض احتكارات ، واحتج الانكليز بدورهم متسائلين : وحرية التجارة ؟ ، فاجاب الهولنديون ان مبدأ حرية التجارة يقوم حيث لا معاهدات ولا عقود تحد من نطاق النشاطات التجارية . اما وقد وقعت معاهدات ووضعت موافقتي ، فقد زال كل اساس وبطل كل حق لهذه الحرية ، لا سيما وان الاتفاقات والمعاهدات هي من صميم الحق الدولي العام . والحال فقد كما (الهولنديون) السباقين لمقد مثل هذه المعاهدات والاتفاقات مع سلطنات امبوان وتراث وبننام ، ولذا لا حق لسكان البلاد الاصليين ان يخالفوا تعهداتهم ، بعد الانكليز بهذه التوابل ، كما انه ليس من حقم (الانكليز) قط ان تحميلهم على نقض هذه المواثيق ، او تغروهم بلحس توقيعاتهم . ومع هذا وذاك ، فقد تكبدت مصارفات باهظة ، وشغلنا رؤوس اموال ضخمة ، فمن الحيف والظلم معاً ، والحالة هذه ، الانقيد من هذه التضحيات ، كما يجب .

وبعد مفاوضات طويلة توصل اولدن باررنفلدت وجاك الاول ملك انكلترا الى تأليف شركة جديدة بدمج الشركتين معاً . غير ان المستعمرين الهولنديين رفضوا قبول هذه التسوية وحطموا العمارة الانكليزية شر تحطم عام ١٦١٩ ، كما ان محكمة العدل الهولندية في امبوان حكمت بالاعدام على ثمانية انكليز ، ونفذت بهم حكم الاعدام ، بعد ان اتهموا بمحاولة الاستيلاء على الحصن الهولندي ، بمساعدة بعض المرتزقة من اليابانيين . وهذا الحادث بالذات يعرف في التاريخ بـ « مذبحه امبوان » .

اخذت الامبراطورية الاستعمارية الهولندية تنمو وتتطور وفقاً للأفكار والمبادئ التي قال بها وطبقها الحاكم العام كوين من عام ١٦١٨ - ١٦٢٣ ، كما عمل بهذه المبادئ من جديد

بين ١٦٢٧ - ١٦٣٩ . اوحى اولى هذه المبادئ بفرض التجارة الهولندية بالقوة ولو ادهى الامر الى فرض السيطرة السياسية . وقد رأى ، من جهة اخرى ، ان الامبراطورية البرتغالية تلاشت وانهارت لانها كانت تجارية محضة . ثم ان تجارة الافاويه والتوابل ، بين اوروبا وآسيا ، لا يمكن ان تؤلف ، لوحدها ، تجارة رابحة . ولتأمين ربح عادل يترتب على الهولنديين الا يكونوا تجاراً فحسب بل منتجين للتوابل والافاويه بانفسهم . يتوجب عليهم والحالة هذه ، ان ينشئوا لهم مزدروعات واسعة وان يرعوها عن كسب بواسطة ما يتم لهم من عبید أرقاء . فاذا ما بيع انتاجهم من التوابل في اوروبا استطاعوا ان يؤمنوا لهم ربحاً كافياً . فالتجارة الوحيدة المرجحة بالفعل هي التي تقوم على مبدأ : « الاتجار مع الهند وفي الهند » ، اي الاتجار مع بلدان آسيا وضمن هذه البلدان بالذات . فعلى الهولنديين ان يقوموا هم بانفسهم بالقسم الاوفى من هذا النشاط التجاري الممتد نطاقه من بلاد فارس الى اليابان ، عليهم ان يتسوقوا بانفسهم الحرير من بلاد فارس ، والقطن من الهند ، والزنجفر من سيلان ، والقيشاني من الصين ، والنحاس من اليابان ، وخشب الصندال من تيمور ، والتوابل من جزر المولسك ، وجمع كل المواد والسلع في بتافيا ومنها تشحن على السفن المحملة قوابل الى اوروبا ، والأهم من كل هذا ، تنظيم مقايضة هذه البضائع وتسهيل تبادلها عن طريق انشاء امبراطورية استعمارية ، تجارية ضخمة مركزها بتافيا . فبدلاً من تركيز ازدهار هذه الامبراطورية على محور الاتجار بين اوروبا وآسيا ، رأى كوين ان يركز هذا المحور على التجارة الآسيوية ، تكون التجارة بين اوروبا وآسيا فرعاً منه لا غير .

اتفق ظهور هذه الافكار والنظريات مع ظهور نقص كبير في كمية الفضة التي كان الاوروبيون يمسيس الحاجة اليها لتغطية ثمن مشترياتهم في آسيا ، بعد ان انهار الانتاج الاميركي من الفضة ، وتمكن الهولنديون من الحصول على المعادن القابلة لسك العملة او من الحصول على العملة نفسها من البلدان الآسيوية ، وهذا ما يفسر لنا الجهود التي بذلها الهولنديون للاحتفاظ بالتجارة مع اليابان وللسيطرة على انتاج مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، ولهاجمة السفن المحملة فضة ، القادمة من المكسيك باتجاه الفلبين ، وللحصول ، بواسطة المنسوجات القطنية الهندية ، على انتاج الذهب في صومطرة وبورنيو ، وبواسطة حرير البنغال الخام ، على ذهب الصين والهند الصينية ، وبواسطة عدد كبير من منتجات الهند المتنوعة ، على النقود المسكوكة في البنديقية وغيرها من العملات الاوروبية القوية من مخا على ساحل البحر الاحمر . وكان كوين والتجار الهولنديون في كل هذه الامور ، باستثناء سياسة اعتماد المزدروعات ، ينحون نحو البرتغاليين .

وقد رفض مدير الشركة الاخذ بنظريات كوين وتبني اقتراحاته هذه ، وجل ما تمنوه هو تأمين استتباب السلام عن طريق عقد معاهدات تجارية مع الامراء المحليين وبعض الموانئ المركزية ، وبناء حصن واحد من هذه الحصون المركزية التي كانوا يشيدونها في النقاط الاستراتيجية ، الا ان طبيعة الاشياء ادت بالهولنديين الى الاخذ بنظريات كوين وتطبيقها .

في سنة ١٦٢٧ ، احتل الهولنديون عنوة ، مرفأ جاكرتا وفرضوا عليه سيطرتهم وسيادتهم التامة ، وبنوا فيه حصناً منيعاً ، واقاموا حوله مدينة هولندية الطابع والمظهر ، واطلقوا عليها اسم بتافيا ، وهو اسم هولندا قديماً . كذلك تمكنوا من فرض سيطرتهم على امارتين غارقتين في الديون . وراح الهولنديون يشترون المواسم بالمواعدة ، فيقدمون سلفات مالية مهمة ، نقداً او عيناً . وكثيراً ما اتفق ان انفق المستلفون المبالغ التي استلفوها وباعوا محاصيلهم ومواسمهم مرة ثانية لشار جديد . وفي سبيل تأمين الاموال التي سلفوها ، راح الهولنديون يطلبون من حكام المقاطعات التنازل لهم عن بعض سلطاتهم . وهكذا فتحوا عام ١٦٢٣ ، بقوة السلاح ، جزر بندا ، وجزيرة أمبوان وجزر الوولوسك ، مقابل معاش تقاعدي دفعوه لسلطان ترنات . وهكذا اصبحوا اسيا الجزر . وسيطروا على المضائق والمعابر التي لا بد من اجتيازها او المرور بها في التجول بين هذه الاقطار ، وكلها مراكز ومقاطعات انتزعوها من البرتغاليين عنوة وعدواناً : سيلان التي احتلوا عاصمتها كولمبو عام ١٦٣٦ ، ونيغباتام على ساحل ملابار (١٦٤٢) ومالقا ، عام ١٦٤١ ، وكوشين ، عام ١٦٦٢ . وفي سنة ١٦٥٢ ، اسسوا مدينة الكاب التي كانت نقطة رئيسية لرسو السفن ، اذ انهم مفاداة منهم للاصطدام بالبرتغاليين بعد اجتياهم لرأس الرجاء الصالح ، تركوا سفنهم تسير مع التيار والارياح التي تهب غرباً ، حتى تبلغ مشارف استراليا ، ثم تتجه رأساً نحو الشمال . وباستثناء امبراطوريتهم الواسعة الارحاء هذه ، فالوا من شاه ايران ومن المغول الكبير في الهند ، ومن امبراطور الصين ومن الشوغون في اليابان ، الترخيص لهم بانشاء بعض وكالات تجارية تناثرت حباتها من اصفهان غرباً ، الى تاغازاكي في اليابان ، شرقاً .

بدا للحاكم الهولندي العام متسويكر ، بين ١٦٥٣-١٦٧٨ ان الولايات الاندونيسية اخذت تنهار وتهاوى ، من جراء هذه الحروب التي مزقتها بدداً ، وانه لا يمكن للهولنديين ان يحتفظوا باحتكاراتهم التجارية ما لم يضموا حداً لهذه الفوضى ، وذلك بفرض سيطرتهم السياسية . ولذا راحت الشركة ترغم السلاطين المحليين على الاعتراف بالولاء لها والتسليم ببناء حصن هولندي ضمن سلطنتهم ، وان يعترفوا للهولنديين بحق فرض احتكارات تجارية ، على هذا النحو سارت الامور في ماكسار ، سنة ١٦٦٨ ، وفي أشين ، وماثارام سنة ١٦٧٩ ، وفي بادانغ ، عام ١٦٨٤ . وهكذا فرضت الشركة الهولندية سيطرتها على كل أنحاء اندونيسيا من جنوبي الفيليبين حتى سواحل الهند .

أسس الهولنديون في بتافيا مجتمعاً مسيحياً لا عنصرياً . فقد تزوجوا من نساء آسيويات ، نلن بعد تصيرهن ، جميع حقوق المواطنة الهولندية ، كما ان الخلاسين الذين ولدوا من هذا الزواج ، تمتعوا بدورهم ، بجميع حقوق الهولنديين ، وهؤلاء المستعمرون الذين تزوجوا من نساء وطنيات ، بقوا ، في اكثر الاحيان في البلاد ، فنشأ مع مرور الزمن ، جالية هولندية تراوح عدد افرادها بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ هولندي او من هولندي وزوجة آسيوية . وهذا المجتمع الهولندي كان

بطالب بنظام الرق والاسترقاق شأنه في ذلك ، شأن المجتمع البرتغالي الذي قام في البرازيل ، من وجوه عدة ، مع الفارق الوحيد ، وهو ان معظم الارقاء كانوا هنوداً ، وان معظم رؤساء الورش والاعمال الذين يعملون لحساب الشركة او يقومون باعمال الربا ، كانوا يدأبون على العمل طويلاً واقلامهم بايديهم ، من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساءً ، مع انقطاع صغير عن العمل لمدة نصف ساعة للترويقة ، وانقطاع اطول مدته ساعتان ، للفقور .

برهن الهولنديون ، تجاراً ، عن روح سمحاء ، وعن تربية مدنية ، عالية تجاه الآسيويين الذين لم يخضعوا لحكمهم ، ولا ساءاً للتجار بينهم . فقد عاملوا الصينيين بينهم معاملة طيبة ، سواء كانوا تجاراً او صناعاً او مزارعين ، واجازوا لهم تعيين رئيس لمحكمتهم الخاصة برتبة قبطان ، يقضي بينهم وفاقاً للقانون الصيني ، كما اعفوا من الخدمة العسكرية .

ولم يسمح ، مبدئياً ، لاية ديانة غير الكلفينية ، ممارسة عقائدها . وكان الصينيون والمسلون يمارسون بالفعل ، مراسم طقوسهم الدينية ، على مقربة من بتافيا ، مما دفع القساوسة البروتستانت للندم بان شريعة موسى كثيراً ما كانت تنتهك ، فيجيبهم ، متسويكر على ذلك قائلاً : ان قوانين الجمهوريات اليهودية القديمة لم يعد لها اي اثر او فعل في الاراضي الخاضعة للشركة الهولندية في الهند الشرقية . وبذلك تنتهي الشكوى وترفع القضية بعد ان حلت المشكلة على هذا النحو .

اقام الهولنديون سلطتهم وركزوا سلطانهم على اساس من المذابح والنفي والابعاد ، اقسمت بالبربرية والوحشية ، فأفقدوا الجزر واخضعوا للرق الاحياء الباقين متذرعين بالدين الذي رزحوا تحته . وكانوا يشتركون بالوعة الغلال ويقدمون لاصحابها المواد الغذائية ، اذ ان جزر التوابل لم تكن تنتج ما فيه الكفاية ، يقدمونها باسعار عالية بحيث ان السكان الوطنيين لم يكن في مقدورهم تسديد اثمان هذه المواد فيرزحوا تحت وطأتها ، فيضطرم الهولنديون للتخلي لهم عن زرع المحاصيل التجارية كالفلفل وكبش القرنفل ، ويستبدلونها بزروع غذائية كالارز والصاغو ، محتفظين بزراعة التوابل لمزارعهم الخاصة . ففي جزر بندا وحدها التي كانت تعد ٣٨٤٥ نسمة عام ١٦٠٦ ، احصوا ٥٦٠ وطنياً من ابناء البلاط بقوا قيد الحياة ، و٥٣٩ هولندياً ، و ١٩١٢ من ارقاء الهنود يعملون في الزراعة ، و ٨٤٣ من الاغراب الاحرار ، بين تجار واصحاب حرف .

لم يتسم القساوسة الهولنديون بمحمل السكان الآسيويين على اعتناق الكلفينية ، فراح هؤلاء نكابة بالفالحين وتشفيأ منهم ، يقبلون على اعتناق الاسلام . فاندونيسيا التي اقصفت حضارتها بالطابع الهندي ، اقبلت على الاسلام ، منذ القرن الخامس عشر . والظاهر انه تم ادخال الاسلام الى هذه المنطقة على يد تجار مسلمين قدموا من غوجارات ، فعملوا على نشر الاسلام في امم هذه المناطق الساحلية من جزر السوند ، واعتنق امراء اندونيسيون الاسلام طمعاً منهم أجبانا بيد كريمة

بعض التجار الأترياء . ولم يكن الهولنديون يصادفون ، عندما قدموا الى اندونيسيا ، مسلمين الا في بطانات الامراء وفي بعض المناطق الساحلية . اما في داخل الجزر فمعظم السكان كانت على الهندوكية ، بوجه عام ، الى الشرق من جزيرة جاوا حيث كانت منتشرة ، على الاخص ، عبادة شيفا . وبقيت جزيرة بالي برمتها ، مدة طويلة ، مركزاً قوياً للهندوكية ، ووقفت حائلاً دون انتشار الاسلام هنالك . مع ذلك هنالك مناطق عديدة في الداخل ، لم تعرف الهندوكية ، بل كان اهلها على الوثنية او قالوا بالاحيائية الحيوانية .

وقد أولى الهولنديون ، من حيث لا يشعرون ، وبالرغم عنهم احياناً ، دفعاً جديداً لنشر الاسلام في طول البلاد وعرضها . فقد وقع عام ١٦٤٠ ، نشاط ملحوظ في نشر الاسلام والدعوة له ، من قبل بعض الدعاة النشيطين ، فاخذ الاسلام يتغلغل عمودياً بين الطبقات الشعبية ، ولا يزال الى يومنا هذا . وحاول السلاطين الداخلون في منازعات مع الهولنديين ان يستغلوا مواسم الحج الى المدن المقدسة الاسلامية ، رأساً من جزر الملايو الى البحر الاحمر ، منذ القرن السابع عشر ، ليطلبوا العون والموازة من البلاد العربية او من سلطان الاتراك . كذلك شجعوا مواطنيهم ، لدى رجوعهم ، على ان يصطحبوا ، وهم في طريق عودتهم ، مسلمين ذوي شأن وشيخاً يعملون أئمة بينهم . ففي عام ١٦٣٩ ، راح احد هؤلاء الشيوخ يلقب سوسونام مترام ، بلقب سلطان واعترف له الى جانب السلطة الزمنية بالسلطة الروحية ، واذ ذاك باشر السلطان الجديد ، أخونغ ، جهاداً مقدساً ضد اتباع شيفا وعباده في بالي . وجرى مثل هذا في بنتام واشين . وهكذا شد انتشار الاسلام من ازر الوعاء الوطنيين وقوى من سلطانهم ، كما حلمهم على اعلان الجهاد ضد الهندوكيين وضد الكفار عامة وضد الاوروبيين . فبعد سقوط مترام عام ١٦٩٧ ، وبنتام عام ١٦٨٤ ، قام سكان الملايو بحروب دينية ضد الكفار . وراح القرصان المسلمون يعيشون فساداً في بحر جاوا كما امتلأت الادغال بحرب العصابات مع المسلمين . واليهود الاخيرة ، في هذا الحال ، قام ببلدها المدعو ابن اسكندر الذي ادعى النبوة وزعم انه من ولد الاسكندر الكبير كما قام بمثل هذه اليهود الشيخ يوسف الذي درس في مكة ونظر اليه الكثيرون نظراً الى ولي من اولياء الاسلام في البلاد . ومن حسن الصدق والاتفاقات ، ان الصوفي الكبير ، والسلطان المثنائي وسلطان المفول كانوا مشغولين اذ ذاك عن هذه الحركات ، بأمور اخرى . كما لم يكونوا فيما بينهم على اتفاق . فلو عرف المسلمون ان يوحدهم صفوفهم لكانوا قضوا على الاوروبيين وازالوا كل نفوذ لهم في المحيط الهندي .

في بالي ، اي في قلب هذه الجزيرة بقي السكان على الهندوكية ، اما في الاماكن الاخرى فقد عرف الاندونيسيون بتمسكهم بالاسلام وبمعيبتهم الدينية . غير ان الاسلام الذي حل محل الهندوكية في النفوس لم يستطع ان يقضي عليها ولو اضطر بالتالي لمصانعتها . فالاسلام الاندونيسي كان في نظر المسلم العربي او المسلم من شمالي افريقيا اكثر الشيع والملل الاسلامية هرطقة وخروجاً على الشريعة . ففي نظر المسلم الاندونيسي ، يحتلظ الله بالبراهمان ، فيترتب على المسلم كما يترتب على الصوفي

الهندوسي ، ان يفقد ، عن طريق التأمل ، كل فردية وان يذوب في ذات الله ، لكي يصبح «الموجة التي لا تؤلف البحر ومع ذلك فهي ليست شيئاً يختلف عن البحر .. النقطة التي يتجلى فيها ملء الكائن الكلي » . فهذا نوع من الحلولية الرمزية . ومن صلب الهندوكية ضرورة ذوبان الفرد في شخص الله بينما الاسلام القديم الارثوذكسي العقيدة يشدد كثيراً ويميز بين النفس البشرية وبين الله . وهذا التعبير الهندوسي للاسلام لم يتمثل في هذه الكتب الصوفية الكبرى فحسب بل انتشر ايضاً بين كل طبقات المجتمع الاندونيسي عن طريق كررايس تعليمية او بواسطة رسوم هندسية تجسم او تلخص مبادئ هذه الرمزية الحلولية حتى بين الاميين .

كان من النتائج التي ترتبت على هذا الوضع ، النجاس الذي عرفته الجمعيات الصوفية او الرمزية كجمعية «شنادياس» وعدم المبالاة بالطقوس الدينية ومراسم العبادة ، والوضوء التقليدي والصلوات المألوفة والصدقة والصوم . ففريضة الحج الى مكة المكرمة يكلف بها شخص بالنيابة . انهم يأكلون لحم الخنزير بالرغم من نواهي القرآن الكريم . فالاندونيسيون لا يتورعون قط عن ارتداء الملابس الحريرية والحلي الذهبية ، وينصرفون لتعاطي ألعاب الحظ والقمار والربا ، المهم في نظرهم ، الصلاة الروحية بحيث يتم الاتحاد الرمزي مع الخالق .

فبدلاً من الثانية او الأولياء التسعة المتفق على تكريمهم ، اصبح عدد الأولياء الآن لا يحصى بعد ان البست معبودات الهندوكيين لبوساً اسلامياً يحيون باحتفالات حافلة ، مشاهدين حياتهم تنضح بالاساطير والخرافات الهندوكية . وهكذا عاشت في قلب بلاد اسلامية وفي اوساط اسلامية حميمة واستمرت حية نابضة ، اعراف الهندوكيين وتقاليدهم الدينية . وهكذا بقي الاندونيسيون محتفظين بأعرافهم وتقاليدهم المتوارثة يحيون فيها اساطير الجبال والانهر والمناوير والبحيرات ، وحكايات هذه الارواح حارسة القرى وارواح الموتى التي كانوا يشناقلون اخبارها خلفاً عن سلف ويحيونها قبل دخولهم الاسلام . واستمر كثيرون بينهم على الدول بتناسخ الارواح وتقمصها فراحوا يقدسون بعض الاطعمة الغذائية او يحرمون استعمالها او تعاطيها حتى في هذه القرى التي اسلمت برمتها ، كما استمروا في تحريم الانصاب وتماثيل البوذيين والهندوكيين ينضحونها ببعض الزيوت والشحوم الخاصة ويمرقون على اقدامها بحامس البخور ويقدمون لها القرابين من الازاهير والأرز .

وهذه الاعراف والتقاليد والمادات التي تختلط بعبادات قبائل الشانز ، في اندونيسيا ، وباعراف الفيلبين ولوروموزا وبتقاليد من مدغشكر بقيت مرعية الجانب معمولاً بها في كل مكان . فالقانون الاسلامي لا يعترف بالتبني . وبقيت اعراف الاندونيسيين تعترف ليس فقط بالتبني بل ايضاً تعترف الابن المتبنى بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها الابن الشرعي . فالشرع الاسلامي لا يبيح التسري لرب الاسرة الا مع امائه ، ولا يبيح له الزواج من احداهن . وأباحته الاعراف المعمول بها في جوار التسري مع المحصنات والزواج الموقت باحدى الشراري بمدحها ،

الى ان تضع ولدها الشرعي ثم تطلق بعد عملية الوضع. فالمسلم الذي يمكن ان يتخذ له شرعاً اربع نساء ، كما نصت الآية ، يستطيع ، وفقاً للتقاليد المرعية ان يطلق احدها ليتزوج من احدى سرايره العالقة منه ، ثم يعود الى زوجته الاولى . والشرع الاسلامي الذي ينظر الى المرأة نظرة دون الرجل في ما يتعلق بالميراث لا يمنحها الحقوق التي يمنحها للرجل في الموارث . فالتقاليد الاندونيسية المعمول بها في فرائض الارث لا تفرق بين حقوق الرجل وحقوق المرأة في هذا الصدد .

وهكذا فنحن امام صفة او شكل خاص من الاسلام في اندونيسيا بحيث يمكننا التساؤل عما اذا كان اعتناق القوم للإسلام ، في هذه البلاد يجب رده ، الى حد بعيد ، للشعور بالظهور بظهور السيادة والتسامي والمباهاة الذي يبعثه الاسلام في صاحبه ، امام الغريب او الاجنبي ، اكثر منه الى الشعور بطلب ديني ، تحقيقاً منه لما شرع الانبياء او سوتغوا بوجوب تحقيقه ، او عملاً بطلب الجهاد المقدس .

هل من ضرورة ، بعد هذا ، للتحدث عن الاستعمار الانكليزي او الفرنسي في هذا الكتاب بعد الذي ذكرنا عن الاستعمار الهولندي ؟ فمهما كان من شأن هذا الاستعمار ، ومهما كان له من اهمية في حد ذاته ، فليس من مبرر ولا بموجب قط ان نتعرض للكلام عنه هنا ، اذ اننا سنجد ولا شك ، الملامح والسمات والصفات النوعية الاساسية التي طبعت وصبغت منهاهج الاستعمارين البرتغالي والهولندي .

اروربا والتجارة الآسيوية
أثر الأوروبيون على التجارة في آسيا تأثيراً كبيراً بما ادخلوا على الاقتصاد الهندي من معادن ثمينة و عملات مختلفة ازدادت رواجاً بصورة مطردة خلال القرن السادس عشر. ويقدر العالم الاقتصادي الانكليزي *De Mun* بليون دولاراً ونصف المليون قيمة المبالغ التي كان الأوروبيون يصدرونها ، كل سنة الى الشرق ، وهي مبالغ زادت ثلاثة اضعاف منذ مطلع القرن السادس عشر ، ووصل قسم كبير من هذه العملات الى الهند . فقد احدثوا بعض التيارات التجارية ، ولا سيما الهولنديون منهم الذين روجوا بعض الاصناف بادخالهم لها في الهند وجزر الصونند كالحديد والفولاذ والاكياس والجلود والملح والقرميد ، ولا سيما الارز وبعض البقسول وتجارة الرق ، اذ تراوح عدد الارقاء الذين كانوا يأخذوهم في السنة من ٥٠٠ - ١٠٠٠ رقيق ، معظمهم من الهنود الذين وقعوا فريسة الجوع ، في البنغال وسواحل الملابار . وقد مثلت هذه التجارة من حيث حجمها شيئاً زهيداً . فقد بلغت تجارة الهند الخارجية ، بعد السلطان اكبر ، وفقاً لتقديرات البعض ، بين ٢٤٠٠٠ - ٣٦٠٠٠ طن في السنة ، بينما بلغ معدل هذه التجارة ، في السنة ، بين ١٩١١ - ١٩١٤ ، نحو ٦٠٠٠٠ طن . والذي يبدو لنا ان الهولنديين والانكليز والفرنسيين تقاسموا ، فيما بينهم ، في القرن السابع عشر ، التجارة التي كان يقوم بها البرتغاليون دون ان يسجل المجموع زيادة مسا

تذكر . قد يكون حدث بعض الزيادة ، بعد سنة ١٦٦٠ ، عقب ان اخذ البنغال بتصدير الحرير وبعد ان نشطت صناعة المسلمين في اوروبا ، وبعد ان اشتد الطلب على ملح البارود لتلبية حاجة الحرب التي قام بها لويس الرابع عشر . ففي ايلول ١٧٠١ ، لم تكن الشركة الانكليزية للهند تملك سوى ١٤ سفينة في آسيا : واحدة في غنا و ٣ في كنتون ، وواحدة في أرموس ، وثلاثة على سواحل كورمانديل ، وسفینتان في صورات ، وسفینتان في البنغال ، وواحدة في بورنيو وواحدة في لمبو . وبلغت قيمة شحنة من البضائع الانكليزية ٧٥٠٠٠ ليرة استرلينية بينما بلغت قيمة البضائع الاجنبية المشحونة ، مع الفضة ٣٨٠٠٠ ليرة انكليزية ، وهو لمعري مبلغ زهيد .

والتجارة « في الهند ومع الهند » كانت تدر من الارباح على هذه الشركات اكثر مما تدره منها الحركة التجارية بين آسيا واوروبا . فلنأخذ مثلاً على ذلك ، الشركة الهولندية للهند الشرقية . كان الهولنديون يحشدون ، في مدينة بتافيا ، كل البضائع التي يجمعونها من هذه البلدان الواقعة بين بلاد فارس واليابان ليتمكنوا من القيام بتدقيق حساباتهم العامة . وكانت الشركة تستقدم كل سنة ، الى بتافيا ، دفاتر حساباتها في كل المراكز والوكالات التجارية التابعة لها لتقوم بعملية تدقيق المحاسبة العامة . وبعد ان تعد الشركة تقريراً عاماً عن اعمالها ونشاطها يقع في عدة اجزاء ، يحجري ارساله ، سنة فسنة ، الى اوروبا ، على متن سفينة خاصة عرفت بـ « سفينة الشاي والدفاتر » . والحال فقد ثبت الآن ان هذا التقرير كان مزوراً ، بينما اسرار المحاسبة الصحيحة تبقى خفية لا يطلع عليها الا الراسخون في العلم . ويبدو ان الارباح كانت بالفعل زهيدة جداً خلال سنين عديدة . ولهذا قرر مديرو الشركة ان يوزعوا على المساهمين ، مرضاة لهم ، حصصاً وهمية ، بمعدل ١٠ ٪ . ولكي يقوموا بهذه العملية اقترضوا سراً ، في السنوات الثلاثين الاولى من تأسيس الشركة ، ١٠ ملايين جلدري في هولندا . وهكذا استطاعوا ان يحتفظوا ، في خزائهم وصناديقهم في الشرق ، بمبالغ طائلة من النقد يستخدمونه في اغراضهم السياسية . وعندما ازاسوا بعد سنة ١٦٣٠ ، من طريقهم الانكليز والبرتغاليين ، بقوة السلاح ، اخذت تجارتهم من الهند ومع الهند ، تدر عليهم بالفعل ارباحاً طيبة . فقد سجلت اعمالهم التجارية ١٠١ مليون جلدري ، بين ١٦١٣ - ١٦٥٤ ، بلغت نفقاتهم ٧٦ مليون جلدري ، وبذلك حققوا ربحاً قدره ٢٥ مليون جلدري . ومن اصل هذه الملايين الخمسة والعشرين ، ارسلت الشركة الى اوروبا ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة واحتفظ بالباقي في الهند كمبرك سائل يستثمر في النشاطات التجارية بين البلدان الاسيوية .

وهكذا يبدو لنا ان الارباح التي عادت على الوطن الام كانت جد متواضعة خلافاً لما رده البعض . فالغنى الذي رفلت به البلاد الواطية ، في القرن السابع عشر ، لم يأت من تجارتها مع آسيا ، بل يجب رده بالاحرى الى الدور الذي لعبه الهولنديون كعملاء او وسطاء تجاريين بين اوروبا واميركا . ومثل هذا القول يمكن اطلاقه على باقي الدول الاوروبية باستثناء البرتغال في مطلع القرن السادس عشر . فالحركة التجارية بين اوروبا وآسيا لم تكن ذات تأثير بالغ في

الاقتصاد الاوروبي، والمبالغ التي جمعتها هذه الحركة كانت اقل من المبالغ المستثمرة في تجارة الحنطة في داخل الدول الاوروبية وبين هذه الدول ، بالرغم من انها محاصيل ثقيلة الوزن ، فالحركة التجارية القائمة على مبدأ « مع اوروبا وفي اوروبا » في الدرجة الاولى ، والتجارة بين اوروبا واميركا ، في الدرجة الثانية ، هي التي أغنت اوروبا .

والراجع هو ان « تجارة الهند مع الهند » عادت بالاكثر ، بالنفع على الآسيويين انفسهم . من الصعب ان نعرف الى اي مدى بلغ النقد وحافز المعادن الثمينة المستوردة في تأثيرها على الصناعة والتجارة ، والمدى الذي بلغه هذا التأثير ، في تغيير وضع العامل والمزارع في الهند . لا شك ان كبار التجار من هنود وسكان الملايو وعجم افادوا كثيراً من المنافسة الحادة التي قامت بين الدول الاوروبية ، رفعوا معها من اسعارهم وعرفوا كيف يثروا بما عرف عنهم من مقدرة ومهارة دونها « مقدرة الشياطين » . ففي مدينة صورات ، رئيس برجي يوراه ، بين ١٦١٩ - ١٦٦٥ ، ادارة اتحاد تجاري كان يوسعه ان يشتري وسق سفينة او اكثر كاملة وقد كان لهذا الاتحاد وكالات فرعية في احمد آباد واكرا وكولكوند وجاوا وكمبروم استمرت على نشاطها حتى عام ١٦٤٩ . وهؤلاء الاقوام من صيارفة وتجار من ملوك الهند وحكام الولايات الذين كانوا يفرضون رسوماً جركية وينشئون احتكارات على هذا الصنف او ذاك ، كانوا بالفعل ، اول من استفاد من نشاط الاوروبيين في تجارتهم مع آسيا .

جاء البرتغاليون الهند لينشروا فيها الدين المسيحي . فقد وجدوا
الامبراطورية
البرتغالية وكالة تبشير بالانجيل
فيها طائفة من النصارى بلغ عدد اتباعها نحواً من ١٥٠ الف من
النساطرة اعتنقوا هذا المذهب على يد كهنة سريان ، وتوزعوا في
المدن والقرى المتناثرة على سواحل الملابار وكورمانديل . وكان بطريرك الكلدان ، في بابل يمدحهم
بالاساقفة ، ولكي يستطيعوا البقاء في خضم البحر الهندوسي كان عليهم ان يؤلفوا هم انفسهم ،
طريقة خاصة انطوت على نفسها لا تستطيع انتشاراً ولا توسعاً . والبراءات البابوية التي اصدرها
البابا اسكندر السادس بعنوان *Inter Coetera* بتاريخ ٤ ايار ١٤٩٣ ، والبابا جبول الثاني
بعنوان *Ex quo* بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٥٠٦ ، اعترفت للبرتغاليين بحق الولاية على المحيط
الهندي وعلى بحار الصين ، وخولتهم حق انشاء مطرانيات واسقفيات ، وتعيين اساقفة
والاحتفاظ بحق التبشير بالانجيل في الشيريف . ولم يكن لاحد من رجال الاكليروس ان يأتي
هذه الديار والمناطق التي تهب فيها الرياح الموسمية الا بأذن خاص من ملك البرتغال ، وبعد ان
يعرج على لشبونة وغوا . وبعد فترة من التردد انشئ في غوا مركز لرئيس اساقفة امتدت
ولايته من لشبونة الى اليابان ، كما انشئ فيها كاتدرائية ودير للرهبان الفرنسيكان ، ومعهد
اكليريكي كبيت يأخذ على عاتقه إعداد الكهنة لعمل الكرازة والتبشير بين الهندوس . وليس
من ينكر ان البرتغاليين قاموا بجهود جبارة في هذا المجال . فقد سمحوا بالجهي الى الاقطار
الآسيوية لعدد كبير من المرسلين من كل الدول الاوروبية ، وبذلوا لهم كل عون وحماية

ومساعدة ، من اسبان وابطالين وفلمنكيين . فقد عدوا في غوا وضواحيها اكثر من ٣٠٠,٠٠٠ مسيحي بين الهنود . وكان في غوا ١٠٠ خياط يعملون في اعداد القمصان الجديدة للمعمدين الجدد . وعدت مدينة امبوان وحدها ، سنة ١٦٠٤ ، نحو ١٦,٠٠٠ نصراني ، وهو عدد ضئيل بالطبع اذا ما قيس بهذه الجماهير من سكان البلاد الوطنيين ، اقاموا ، على الغالب ، في ممتلكات البرتغاليين ، وكانوا بالاكثري من الطبقة المتوسطة الحال .

اسماء البرتغاليون تفسير الآية القائلة : « دعوهم بدخلون » ، فراحوا يستعملون الشدة في حمل الوثنيين على اعتناق المسيحية . ومن جهة ثانية ، كان عدد الكهنة قليلا ، ومع ذلك فكانوا يؤمنون ارتدادات بالجملة ، اذ كانوا يحشدون بضخ آلاف من الوطنيين ويعلمونهم بضخ كلمات ، مما يجب عليهم اعتقاده من قضايا الايمان . فمن رضي منهم ان يكونوا مسيحيين جرى تنصيرهم في الحال . وكان بينهم بالطبع مسيحيون لا يعرفون قط ما يجب عليهم حفظه من الايمان الجديد ولا يعرفون صلاة : « ابانا » ولا « السلام عليك يا مريم » ، ولا قانون الايمان . فليس من غريب قط ان يتخلوا بسرعة عن ايمانهم الجديد ليعودوا الى وثنييتهم الاولى او يرقوا الى الاسلام . وقد شجع البرتغاليون الزواج بين مواطنيهم والهنودوس وكانو يدفعون نحو ١٨,٠٠٠ غرش لكل اسرة جديدة ويقطعونها ارضا . وهكذا اقبلت نساء كثيرات من بين الطبقات الدنيا على اعتناق المسيحية ، وتزوجن من برتغاليين . الا ان الطبقات العليا اردت كثيرا بالمسيحية واغضت من جانب المسيحيين . وكثيرا ما شاهد البرتغاليون بين عمليات التنصير وعملية تنصير الناس بطابع البرتغالية ، اذ كثيرا ما طلب المرسلون البرتغاليون من الموعظين الجدد ان يتخلوا عن نظامهم الطبقي وان يرتدوا الزي البرتغالي والتخاطب باللغة البرتغالية واكل اللحوم . واسلوب الارشاد المتبع والدعوة الى اعتناق الدين المسيحي لم يكن : « هل تحب ان تصير مسيحيا » بل « هل ترغب الدخول في طبقة البرتغاليين » ؟ ومن هنا اذا انكره للديانة المسيحية التي كانت ديانة المستعمرين من البرتغاليين العائشين بنظام الطبقات والمردين لها ، واكله لحوم الثيران ، هذا الحيوان المقدس عند الهنود .

فامام هذا الفشل الذريع تصاب به عملية التبشير بالمسيحية ، راح الملك يوسنا الثالث يطلب من اغناطيوس ده لوبولا ، كهنة ومبشرين يسوعيين . وفي ايار ١٥١٢ ، وصل الى غوا حاملا لقب سفير بابوي ، فرنسوا كسافييه .

قام الابهاء اليسوعيون بمجهود كبير لتبشير بالانجيل ونشر المسيحية .
القدس فرنسوا كسافييه
فرنسوا كسافييه الذي اعلنت قداسه فجاء بعد ، كان اول من وضع في التربة ، الفرسات الاولى . فقد كان كريم الطلعة ، قريبا للقلب ، وقور المشية ، ثابت الخطى وثيها ، صريحا الى آخر حدود الصراصة ، شديد الحماسة والاندفاع ، تنفذ عبارته الى القلب توأما لمحملة من عاطفة نابضة وايمان حي وشعور متدفق . فليس من عجب ان يسدده الجميع

وان يكونوا له محبة خالصة . فقد كان فارساً ، ولذا كانت مقرراته تؤخذ بسرعة وتنفذ بحزم ، يلحظ بشدة جميع الانطباعات الجديدة ويقبل بجرأة ، على المشروعات التي لا تخلو من الخطر والمغامرة ، يبدو عليه القلق وقلة الاضطراب احياناً . فلم يبدل شيئاً من المبادئ الاساسية كالارتدادات بالجملة واستعمال الضغط والقوة . وطلب من نائب الملك استعمال السلاح ضد العصاة من امراء الهند وتمنى عليه لو يشكل جيشاً يهاجم مكة ويقلم اظافر الاسلام فيخفف من شأنه . والنجاح الذي اصابه يجب رده بالدرجة الاولى ، لصفاته الشخصية ولفقره وتواضعه ولحبته الصادقة وللمعجزات التي صنعها . حرص كل الحرص على ان يوفر للمسلمين ، ربة احسن بقيت مع ذلك ، دون المرجى ، من الربة التي عمل فيها اوائل المسلمين . فقد كان رجاؤه الاكبر وتمويله الاول على نعمة العماد . قام في اواخر عام ١٥٤٢ ، بزيارة لقباثل برافير ومنها هذا الفريق من الغطاسين العاملين في صيد اللآلئ ، الى الشرق من رأس كومورين ، والذين وقعوا ، من عهد قريب ، تحت حماية البرتغاليين ، كان بينهم عدة الوف اصطفوا بالعماد المسيحي . وراح فرنسوا كسافييه يطوف بين القرى والداكر بصحبة بعض المترجمين ، ثم يأخذ يجمع الرجال والأولاد معاً على قرع الاجراس ، ثم يتلوا عليهم : « اباؤا » و « السلام » و « أوسن » ووصايا الله العشر . فمن آمن منهم ، امر بتمييدهم للحل . وكان يهدى الى بعض وجوه القوم بينهم ليعلمهم اهم قضايا الايمان ويفسروها لهم ويقوموا امامهم بالصلوات المتتادة . وكثيراً ما حمل معه ، في طريق عودته شباناً ليعدهم للكهنة فينشئ بذلك اكليروساً وطنياً ويستأنف مسيرته الى ابعد . وفي ١٥٤٤ ، توفى الى تنصير بضعة آلاف من صيادي السمك على سواحل ترافنكور . ومنها واصل سعيه ورسالته التبشيرية الى ان وصل مالقا (١٥٤٥) وامبوان وترفات في جزر المولوسك ، واخيراً بلغ اليابان سنة ١٥٤٩ ، وتوفي عند مداخل الصين في ٢ كانون الاول ١٥٥٢ ، في جزيرة سنيا الصغيرة على مربة من غوا .

بعد وفاة فرنسوا كسافييه ، اشرف على عملية نشر الرسالة توجييات الاب فالغنياني والتبشير بالمسيحية والانجيل ، الاب فالغنياني ، احد ابناء الاسر الشريفة في نابولي ، بعد ان تعين زائراً على اديار الرهبنة ، في الشرق الاقصى ، فوصل غوا ، في ٦ ايلول ١٥٧٤ وبرفته ٤١ راهباً يسوعياً ، فعمل على اتحاد المسيحيين وفقاً لارشاداته وتوجيهاته . فقد قدم المطران النسطوري ابراهيم إنقمال ، بالقرب من كوشين ، خضوعه للبابا وسمح للآباء اليسوعيين بالاقامة عنده . واستطاع فالغنياني ان يبني في قابيكوتا معهداً صغيراً يُعنى باعداد كهنة من ابناء البلاد ، بعد اعدادهم الاعداد الكافي يؤهلهم للقيام بعملية الرسالة في الهند . ثم طبع التعليم المسيحي الطبعة الملابارية . وفي مجمع ديامبور الاقليمي الذي عقد عام ١٥٩٧ ، اعلن الكهنة النسطوريون اعتناقهم للايمان الكاثوليكي . وقبلوا العمل تحت ولاية اسقف يسوعي .

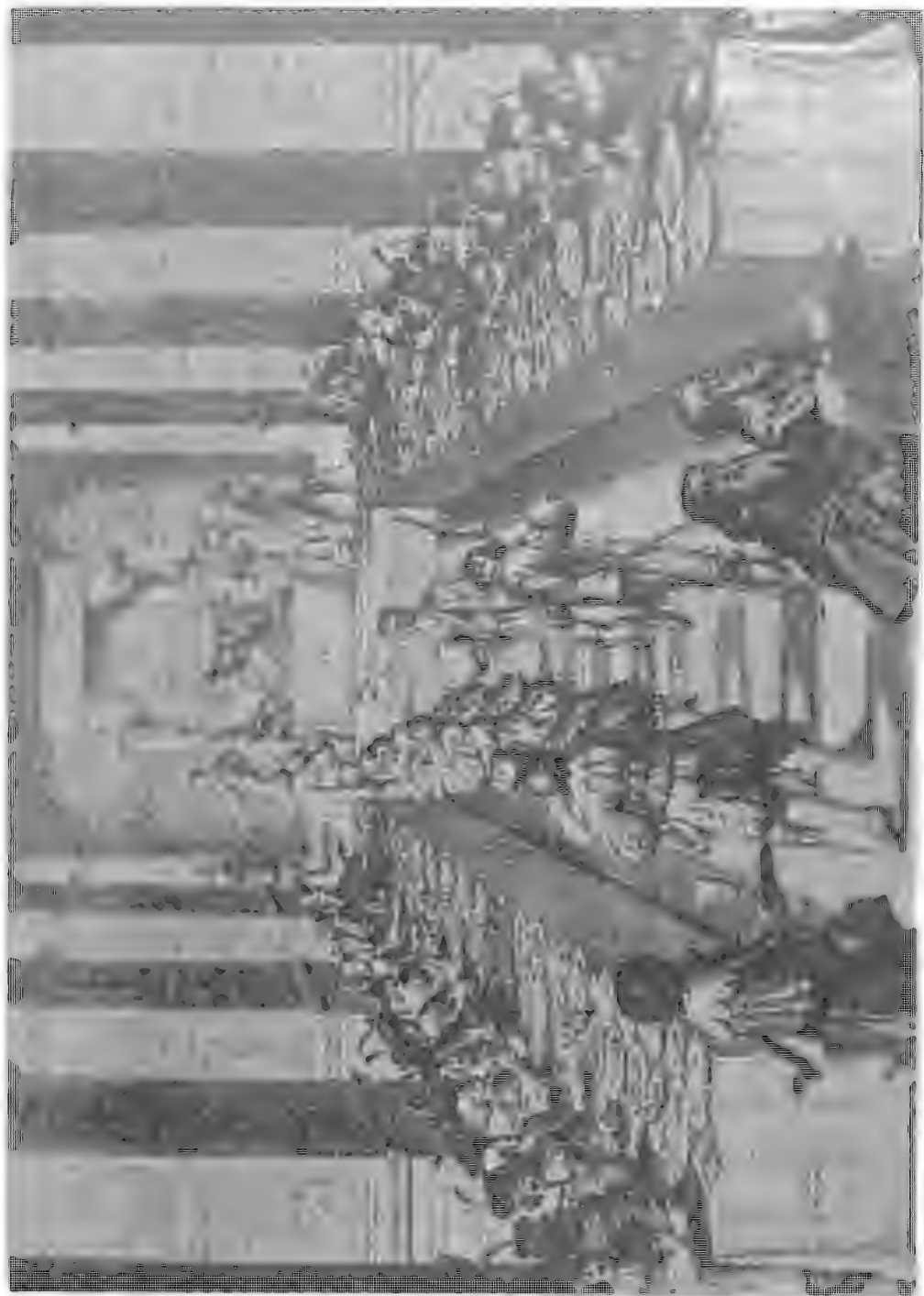
فبدلاً من الانصراف لتبشير الطبقات الدنيا و « المنبوذين » امثال صيادي السمك ، راح

المرسلون يتوجهون من الملوك والاسياد وعلية القوم ، نفاذاً منهم الى قلب الهند ، فقد أرسلت بعض الرسائل الى السلطان اكبر ، عام ١٥٨٠ ، ١٥٩١ ، ولا سيما الرسالة التي وفدت عليه عام ١٥٩٤ . بقي السلطان اكبر لا يلين ، انما اصدر عام ١٦٠٠ ، امراً يميز المرسلين التبشير بالانجيل ، كاترك لرعاياه الحرية باعتناق المسيحية . وفي سنة ١٦٠٢ ، اسست اول كنيسة مسيحية في اكرا . وبعد اكرا ، رخص بعض الامراء اليسوعيين بانشاء رسائل تبشيرية ، في اماراتهم . وفي سنة ١٦١٠ ، كان لمحب تصرف اليسوعيين ، معاهد ووكالات في معظم المدن الساحلية حيث كنا نجد اكثر من ١٦٩ كنيسة . وبلغ عدد المسيحيين ، خارج غوا ٢٧٠٠٠٠ . كل هذه الجهود ادت مع ذلك ، الى فشل جديد ، في هذا المجال ..

لغت هذا الوضع المؤسف ، والفشل الذي انتهت اليه جهود روبرت نوبلي ولفوس ملابار المرسلين ، انظار كاهن يسوعي من نبلاء روما ، هو روبرت ده نوبلي المولود عام ١٥٧٧ ، الذي قدم ، عام ١٦٠٦ ، الى الهند الجنوبية ، الى مادوره . فقد فكر ، مدفوعاً الى ذلك بمثل الاب ماتيورثي في الصين ، بان المسيحيين لم يبرهنوا عن ايمانهم الوطيد به وعن ثقتهم ولم يستجيبوا لجهود الرامية للاتحاد مع الله ، بعد ان ضللتهم التعابير الحلولية والاصطلاحات الهندوكية التي تنتزى بالكفر والالحاد والقول بتعدد الالهة ، وانه من المناسب لذلك ، استخدام تعاليم الهندوكية نفسها بعد ان تستخلص منها ما يتفق والحقائق الدينية المسيحية ، وبعبارة اخرى رأى ان المطلوب ليس فقط إبلاس الهندوكية ثوباً مسيحياً فضفاضاً وجعلها نسخة مشوهة عن الحضارة المسيحية او اصفاء روح المسيحية على المجتمع الهندي والنظم الهندوكية ، كما هي بعد التأليف بين الطبقات . المهم ، قبل كل شيء استئالة الطبقات العليا واكتساب عطفها وثقتها ، اي البراهمان والكهنة ، والباقي يتبع من نفسه او من تلقاء ذاته .

كان في مدينة مادوره اكثر من ١٠٠٠ طالب براهماني . فتقدم نوبلي منهم باعتباره راجا رومانيا يرغب في العيش في التقى والصلاة ودرس الشريعة الالهية . ولذا راح يمتدح شارات الـ *Kahatryas* او النبلاء المحاربين وهي علامة البراهمان ، كما حمل الـ *Kinoudumi* او خصلة الشعر المتدلية من الرأس ، وهي تختلف حسبكم وضفراً والجهاً باختلاف الطبقات ، وارقدى بزة صفراء ، وهي تميز السانياسي الذين كانوا يتجردون من كل شيء ، ويمرضون عن كل شيء .

واقام وحده في كوخ من الحشائش والاعشاب واخذ يفتات بالبقول ويشرب الماء القراح فاطماً سعابة نهاره في التأمل . واذا ذاك بجاء البراهمان يزورونه في خلوته ، بعد ان سحرم بنصاعة لفته وهي التناول ، والنصوص الكثيرة المستمدة من خيرة كتابهم ، ومن قصائد الم الوطنية التي كان يستشهد بها في مجال التحدث اليهم . فقد كان يعرف معرفة لامة كتب الفييدا



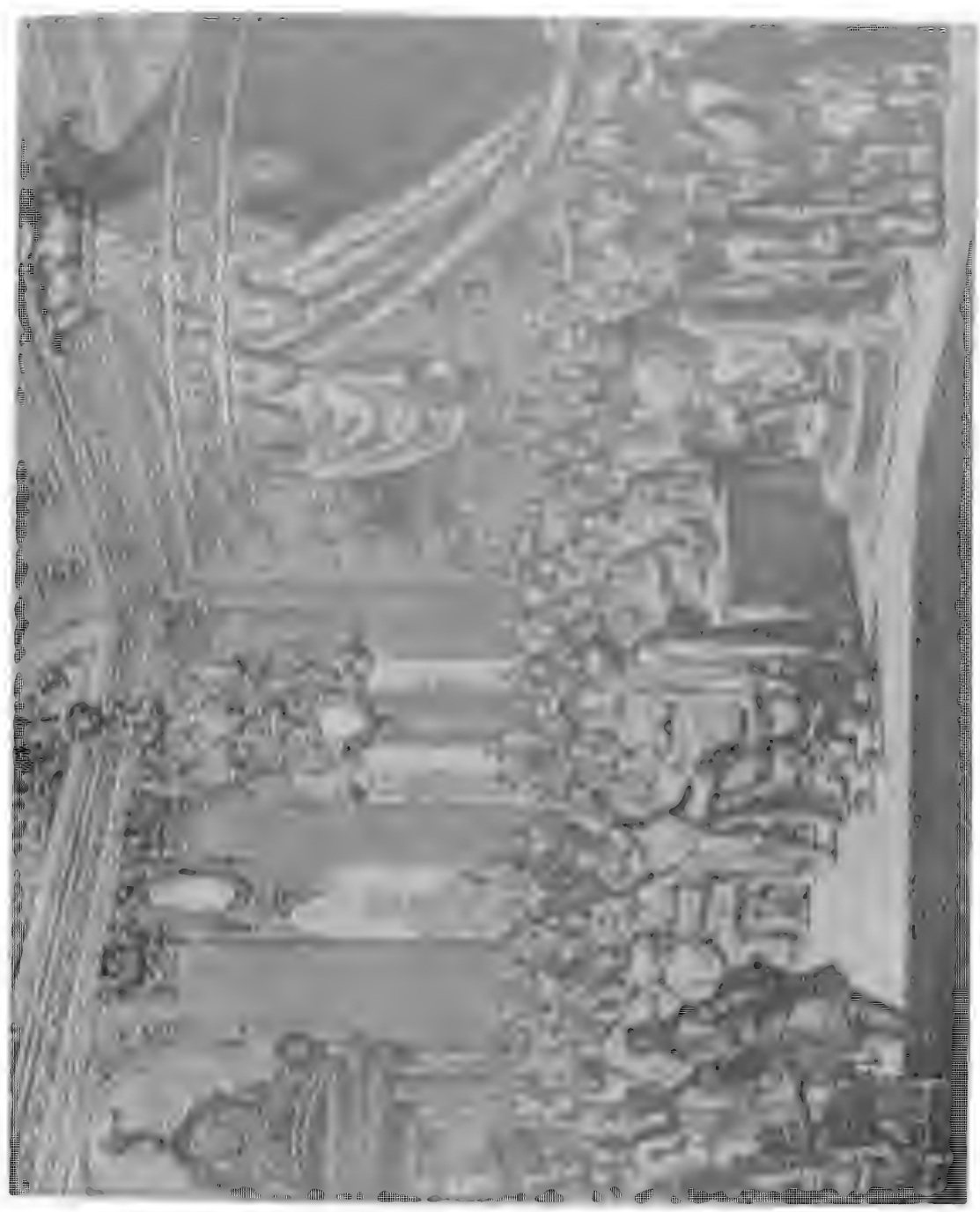
٣٣ - تنظيم اللحية التي أفاد طاعناته لحضرات الزمسان بعد تأسيسهم ، في فونينبور ، في الرابع عشر من أيار من السنة ١٨١٣ .





(٣) - ليرة القوم في القاعة الكبرى في سنة ١٩١٤











١٤٠ - حيد من حيدية عمدة وكيفية التي رسمت بالبحر والحد في حيدية ١٨٨٣ (مصر، مرسى) (١٨٨٣)







١٥ - عيد ملكي في حديقة فارسية



١٥٠. مصور ليل يذبح في القصر. ثمانمائة وخمسون.





١٤٠٠ : تجمّع مسيحي في حيّوايا في القدس المقدسة - ١٩١٩

اذ كان سبق له ودرس اللغة السنسكريتية وكشف لهم عما في كتبهم المقدسة من شواهد وأدلة على المسيحية وصحتها . اعترف البراهمان به كواحد منهم وقبلوه رسمياً في مصافهم ، وهو امر يكاد لا يصدق ، اذ ان المرء يولد هندوسياً حسب الهندوكية المستقيمة الرأي ، ولا يصير المرء هندوكياً ، اي ان اي غريب يتمذهب بالهندوكية يبقى دوماً *mlechcha* ، ويحظر عليه درس الكتب المقدسة . وقد ألف نوبلي بلغة التابول كتباً فيها الدليل على ان المسيحية هي تمنة الهندوكية . كذلك وضع انشيد تقرب بيناها ومعناها من الاناشيد التي تتغنى بألهة الهند ، بحيث كان يتوجب على المدقق ان يتملى النظر ليتبين الفرق بينها . وقد احترم جداً مبدأ الطبقات . وكان يعمد البراهمان ويتركهم يحملون شاراتهم المميزة لطبقته الخاصة ، ويقومون بمراسم طقوسهم التي احب ان يرى فيها ليس مظهراً من مظاهر الصنمية بل مراسم اجتماعية ، وسياسية . ومن جهة اخرى ، كان نوبلي هذا البراهمان الذي يغار جداً على نقائه وطهارته ، يناول المسيحيين من طبقة ادنى ، القربان الاقدس برأس عصا صغيرة او يضع القربان امام عتبة بابهم .

استمر نوبلي على رسالته هذه حتى سنة ١٦٥٦ ، وحرص اخوته المرسلون العاملون معه في جنوبي الهند على تبني طريقته هذه وانتهاج نهجه . وهكذا رأينا يسوعيين براهمان بينهم دون جوان ده بريتو ، وكونستان بشي كأرأينا رهبان يسوعيين من ضمن طبقة المنبوذين ، أمثال عمانوئيل لويس وغيره . فالبراهمان اليسوعيون كانوا يحملون على محفات ، ولا يؤدون التحية لآخوانهم من الآباء اليسوعيين في طبقة المنبوذين ، نصف المرأة ، يخفي عورتهم مئزر حول حقوبهم . وقد جاءت النتائج حرة بالملاحظة . ففي سنة ١٦٧٦ ، احصوا في مادوره ومقاطعة كراتيك وميسور ، ٢٥٠،٠٠٠ هندي مسيحي كاثوليكي ، بينما كان صرف احد الآباء اليسوعيين ، قبل قدوم نوبلي ١٤ سنة في مادوره ، دون ان يسجل اي ارتداد للمسيحية . والجهد الذي قام به نوبلي وجد صده الطيب واثره الجميل باصطباغ الهندوكية في مادوره بصباغ وحدة الالهية والثنائية بعد ان تطورت فيها الى هذا الحد تحت تأثير النسطرة والمسلمين في هذه المنطقة .

أثارت هذه الاشياء المستجدة او المستحدثة في مناهج الرسالة المسيحية بين الهندوكيين هواجس رئيس اساقفة غوا واقلقت تفكيره . ولذا استدعى اليه الاب روبرت نوبلي للمثول امام محكته . فحضر بزي براهمان بما اثار دهشة الجميع ورفع المطران القضية للكرسي الرسولي ، فاصدر البابا غريغوريوس الخامس عشر امره للمطران بالتوقف عن ملاحقة نوبلي وعدم مضايقته ، وسمح له باستعمال «الطقوس الملبارية» بصورة مؤقتة ، اشفافاً على الضعف البشري (٣١ كانون الثاني ١٦٢٣) . اما الفرنسيون ، فقد رأوا من جهتهم ، في هذه الطقوس شيئاً مخالفاً للمعجبة المسيحية ، اذ ان المسيح قد حرر المسيحيين من التقيد بمراسم التطهير الخارجية التي تؤلف مخالفة لعبادة الاله الحقيقي ، بعد ان اختلطت اختلاطاً بالطقوس الوثنية يصعب التفريق

بينها . وهكذا عادوا من جديد لبحث : « الطقوس الملاحية » . فصدر عام ١٦٤٥ ، و ١٦٤٩ قرارات بابوية بشجب هذه الطقوس ، كما شجبت الطقوس الصينية . ولم يتقيد الآباء اليسوعيون بنطوق هذه القرارات بدعوى ان البابا اتخذ قراره هذا في نطاق الاسباب المرجحة التي تبنت له . فالرأي المبني على المرجح لا ينبغي ان يكون عكسه ، له ايضاً ما يجعله مرجحاً . وهكذا فلم يحدث ما يزعج الارسلات او يشوش عليها العمل . الا ان الآباء الكبوشيين شكوا اليسوعيين عام ١٧٠٤ ، بانهم يتساهلون مع خرافات خطيرة . ففي طريقه الى الصين ، توقف المطران تورنوف الذي كان ممثلاً للبابا في مدينة بونديشري ، واصدر في ٢٣ ايار ١٧٠٤ ، حكماً مطلقاً ضد الطقوس الملاحية وسياسة مراعاة اليسوعيين لنظام الطبقات في الهند . ثم اصدر الديوان المقدس (١٧٠٦) كما اصدر البابا إقليس الحادي عشر عام (١٧١٢) براءة ارغم فيها اليسوعيين على الطاعة . غير ان القضية لم تنته نهائياً الا ببراءة من البابا بندكتوس الرابع عشر ، صدرت عام ١٧٤٥ .

قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية
ان تكون لبضع مئات الألوف من الهنود المتنصرين من
قيمة بالنسبة لهؤلاء الهندوس الذين يعدون مائة مليون .
ولعل الصعوبة الكبرى والمعقدة الكأداء التي اعترضت رسالة المبشرين بالانجيل هي في هذا الشبه
الكبير بين المسيحية والهندوكية . فالمرء الذي يكرس ذاته كاملاً لله بحيث اصبح *Ishta deva*
والذي جعل من الله مسرته وسعاده ليتخلص ويتطهر من ادران الـ *kurma* ، واصبح في منجى
من سلسلة التقمصات المتصلة الحلقات ، وتم اتحاده بالله الى الابد ، مثل هذا الانسان لم يعد
ليشعر بحاجة للمسيح . فكيف لا يشعر من اعماق قلبه بالرضى والارتياح هذا الانسان الذي
تم له مثل هذا الحنان ومثل هذا الحب الالهي ، والذي كان يصرخ مترنماً في القرن السابع عشر ،
في هيكل فكنو بالعناية الالهية قائلاً :

« ليس في الكون مكان ما ولو كان بقدر حبة خردل ، لا يتلىء بالله . فعمضة الله فوق كل بحث وابعد من ان
تدرك . فكيف تستطيع عقولنا ان تتسع لهذا الخالق الذي يشرق بنوره على الشمس والقمر ؟ » .

« هذا هو إلهنا ، هو الروح من اوراقنا . كل شيء فينا او من حولنا يحدث باسمه ويذيع مجده . الله اله الرحمة
والحنان والعطف ، الاله الذي يشبع رغائبنا ، الاله الذي يحمينا ويحترق علينا » . هذا الاله ، اله المحبة ، لا سبيل
اليه الا بالمحبة وفي المحبة . فهو يسمو بكثير فوق ادراكنا وافكارنا ، وفوق كل كلمة وتعبير بشري . فليس له من
قياس غير قياس الحب والادراك » .

واي ايمان يمكن لهذه الألوف من القرويين ومن الحجاج ان يشعروا بحاجتهم اليه ، هؤلاء
الذين تعمر صدورهم بالهتاف فينشدون غيباً هذه الاناشيد والترانيم التي وضعها تاكا - راما ، عام
١٦٠٠ احد تجار الحبوب ، في بوقنا ، في مقاطعة المهرات .

« الشمس رحلتك ، باكياً ، منتحباً كمن ضل سبيله وراه عن الطريق . فسرت متكئاً على عكازي ، من باب الى باب الى ان اعياني السير ، فلم اجد احداً يؤاسيني او يحبر نفسي الكسيرة ، لم اجد احداً ينقلني من اوصاب هذه الحياة الفانية ... مات ابي وعيناه مسمران عليك ، يا رجائي وهكذا فعل جدي وجده من قبل ... فطفولتي وحداثتي ورجولتي طاردتني ودفعتنني فاذا بي امامك . اما انت ، فانت القيوم الى الابد ، انت الذي لا تبدلك الايام ولا تحيلك الدهور ، انت انت مهما امتد الزمن . ليس من يقف او من يمر على الوقوف امامك ... كيف السبيل اليك والتعرف عليك ؟ يا اخي ! تعرف عليه بالفكر ، بالتأمل من اعماق روحك . سر في افره كما يسير الصياد الماهر في اثر طريدته » .

وهكذا فشلت اوروبا كما فشل الاسلام ، من قبل في تبديل عالم الهند .

الفصل الثالث العالم الصيني وأوروبا

١ - الصين واليابان

الصين

يمثل القرنان السادس عشر والسابع عشر ، عصر انحطاط انكماش الصين وانطوائها على نفسها دولة منغ ، واستبدالها ، عام ١٦٤٤ ، بدولة جديدة ، بربرية من منشوريا ، هي ذولة تسنغ . عاشت الصين ، هذه الحقبة ، منطوية على نفسها . فالثورة التي آتت عام ١٣٨٦ الى طرد الدولة المغولية : يوان وحلول دولة منغ محلها ، كانت اشبه ما تكون بردة فعل انعكاسية قام بها الصينيون ضد البرابرة . فقد حملت هذه البقعة الوطنية ممها نتائج طيبة لم تلبث ان ظهرت بوضوح . فقد اعرب الصينيون عن رغبتهم بالعودة الى ماضيهم السابق ، الى تقاليدهم المرعية ، بعد ان علفتهم الايام ان يكونوا حذرين جداً ، يقظين من العالم الخارجي . وعندما التقت هذه النزعة مع الوهن الذي تمكن من جسم اباطرة الصين الذين استسلموا لحياة الدعة والرفاه في بلاط عامر بالذخائر ، والاستكانة الى الحريم ، حصلت الردة الصينية . ففي سنة ١٤٣١ ، قامت آخر حملة صينية استهدفت شواطئ الجزيرة العربية ومضيق ارموز ، وراحوا لآخر مرة ، يطالبون ملوك جاوا وصومطرة وسيلان والملابار ، بدفع الجزية . والقرارات التي صدرت عام ١٤٤٣ و ١٤٤٩ و ١٤٥٢ ، حظرت على الصينيين مغادرة المياه الصينية . وفي سنة ١٤٥٩ ظهرت السفن الصينية ، لآخر مرة ، في مياه كوشين . وفي سنة ١٤٥٣ ، توقف الصينيون ، لآخر مرة ، عن الاهتمام بشؤون المغول . ومنذ ذلك الحين ، انكفأوا على انفسهم وانطوا على ذواتهم ، فقبعوا داخل سورهم ينصرفون للتأمل والتجريد .

تكاثر السكان بالرغم من رغبتهم بالمحافظة على عدم الاتيان بأي حركة ، نشهد وقوع تغييرات مهمة في انظمتهم الاقتصادية والاجتماعية، وهي تغييرات اقل بروزاً للعين من الاحداث السياسية والدسائس التي عمر بها البلاط الامبراطوري . فقد اخذ عدد السكان بالازدياد والارتفاع . وبلغ عندد سكان الصين ، عام ١٥٠٢ ، نحواً من ٥٣،٢٨٠،٠٠٠ نسمة ، فارتفع هذا العدد ، عام ١٥٧٨ ، الى ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ ، ليتجاوز ، عام ١٦٦٢ ، مائة مليون . فقد بلغ من اكتظاظ البلاد بالاولاد ما حمل بعض الاوروبيين على التندر متسائلين ، ما اذا كانت الصينيات يلدن كل شهر او يضمن خمسة توائم دفعة واحدة ، وفي هذا دليل على ان نسبة المواليد لدى الصينيين كانت تفوق نسبتهم لدى الاوروبيين ، بحيث بلغت ٦٠ في الألف . مع العلم ان نسبة الوفيات بين الاولاد لم تكن لتقل عن ٥٠ ٪ في السنة ، ومهما يكن ، فقد أثار هذا النمو مشكلة الغذاء . هل ان توطين نباتات غذائية جديدة كان الباعث الاول على ازدياد عدد السكان ، ام انه جاء نتيجة لها ؟ فقد دخلت زراعة الذرة الصفراء عام ١٥٥٠ إلى مكة على يد مغاربة من عرب الاندلس ، ومنها دخلت الصين على يد حجاج صينيين . وللحال اخذ الصينيون بزراعتها على نطاق واسع . وفي آخر عهد دولة المنغ كانت زراعة الذرة تسير على قدم المساواة مع زراعة الذرة البيضاء (الدخن) والقمح ، كذلك ظهرت زراعة البطاطا الحلوة عام ١٥٩٠ ، بعد ان دخلت زراعتها الفلبينيين مع الاسبان ، ومنها امتدت الى الصين على يد تجار صينيين من فو - كيان . وقد حلت زراعتها في اواخر للقرن السابع عشر في كل مكان واستعملت لها على الاخص التربة الرملية . كذلك انتشرت زراعة الحمص بأنواعه والبازلا ، وهي مادة لها اهميتها ، ليس لما فيها من مادة ازوتية متممة للحيوب فحسب ، بل ايضاً لاستعمالها سماداً ازوتياً لاختصاب التربة الفقيرة .

عرف الصينيون ان يفيدوا ، الى اقصى حد من موقعهم الجغرافي الممتاز الممتد بين درجة ٢٠ - ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وما يوفره لها هذا الموقع المؤاتي من فصول زراعية تمتد طويلاً ، وامطار غزيرة ، في الصيف ، اي في هذه الفترة من السنة التي تكثر المحاصيل والفلاخ الزراعية التي تتطلب من ٣٠٠ - ٦٠٠ طن من المياه لكل طن من الفلاخ حتى تبلغ حد النضج . وبفضل مقادير هائلة من الاسمدة والمخصبات الزراعية كطمي القنوات وروث الحيوانات ، ورجيع الناس المزوج بالتراب المحفف الناعم ليذر على وجه التربة بمسد اختباره ، استطاعوا ان يحصلوا على عدة مواسم في السنة ؛ من الحقل الواحد في اثر الآخر ، او تقريباً في الوقت ذاته : اغراس على سطور متوازية ، وغلال صالحة للحصاد بينها غلة قريبة القطاف ، وأخرى آخذة بالنمو والنضج . وقد تمكنوا من الحصول على موسمين من الارز ، من الحقل الواحد ، في السنة ، في مقاطعة تشي - كيانغ ، بعد موسم القمح او الشعير او الذرة او الكولزا او الفاصولياء ، وموسم أرز وقطن ، في مقاطعة تشان - تونغ ، وموسم قمح او شعير في الربيع ، وآخر من الذرة الصفراء او البيضاء او بطاطس حلوة او حمص في الصيف ، بقطع النظر عن مواسم فرعية

اخرى كالمفوف والبصل والفجل ، ومع ذلك فلم تكن هذه المحاصيل والغلال الزراعية لتفي بحاجة السكان الغذائية بعد هذا الارتفاع في عدد السكان . ومن جهة ثانية ، هبطت مساحة الارض الزراعية من جراء الاضطرابات والحروب القائمة ، من ٧٠١٣٧٩٦ كنغ (٤٢٠٨٢٠٧٧٦ هكتاراً) ، سنة ١٥٧٨ ، الى ٥٣١١٠٣٥٨ كنغ (٣١٠٨٦٨٠١٤٨ هكتاراً) سنة ١٦٦٠ . اما المعدل العام بالنسبة للسكان فكان طبيعياً عام ١٥٧٨ ، اذ كان يقتضي ٧٠ meau (٨٠ هكتار) لتأمين أود أسرة . اما في سنة ١٦٦٠ ، فقد كانت مساحة الارض الزراعية لا تفي بحاجة الاهلين الغذائية . ولذا كانت البلاد تتعرض ، دورياً ، لتفشي المجاعة وللكتير من الازمات والهزات السياسية والاجتماعية . وهكذا نرى ان الاوضاع التي صارت اليها امور التغذية والاعاشة ساءت جداً في عهد دولة المنغ .

ازدهار البورجوازية
نلاحظ ظهور طبقة كبيرة من البورجوازية ، تألف معظمها من التجار ورجال المال والاعمال ، دون ان نتبين بوضوح الحوافز التي بعثت على ذلك : فهل يجب رد هذه الظاهرة ، يا ترى ، الى هذا النشاط الملحوظ الذي رافق زراعة القطن والتجار به منذ ان راح ملوك دولة المنغ يكرهون الفلاحين للانصراف الى زراعة القطن ، بعد النجاح الذي حققته هذه الزراعة منذ اواخر القرن الخامس عشر ؟ ام يجب رد ذلك الى ازدياد النشاط في حركة التصدير الى الافطار المجاورة ، كالفيليبين واليابان وجزر الصوند الواقعة وسطاً ، بين الصين واوروبا ، او ان نمو البورجوازية جاء نتيجة لقدوم الاوروبيين الى الشرق الاقصى ؟ ومهما يكن من الامر ، فالبورجوازية الجديدة اخذت توجه ابناءها نحو الامتحانات الرسمية ، منافسة بذلك اولاد الاقطاعيين بعد ان كانت وفقاً عليهم وحدهم دون سواهم . فقد سبق لملوك المنغ ان نظموا مناهج الدروس وضبطوا طريقة الاخذ بالامتحانات . فقد كان الولد يعطى ، وهو في السادسة من عمره ، دروساً تمهيدية في تاريخ الادب ومجاريه الكبرى عبر تاريخ البلاد ، ثم يقضي من ٤ - ٥ سنوات في تعلم القراءة والكتابة والمنتقيات الادبية ، ثمراً وشعراً عن ظهر قلبه ، فيتدرب على الخط والانشاء ونظم الشعر وقرض القصائد . واذا ذاك يتقدم للامتحان الرسمي ، فيقضي المرشحون يوماً وليلة في محل منزل ، يعالجون موضوعين يعينان لهم وينظمون قصيدة في موضوع مقترح عليهم . اما معدل النجاح فكان بنسبة ١٪ . اما الناجحون بالامتحان فكانوا يعفون من دفع الضرائب ومن العقوبات الجسدية ، ويصبح في مقدورهم ان يتقدموا ، عندما يبلغون السن القانونية التي تخولهم العمل في دوائر الحكومة ، لطلب وظيفة في خدمة الدولة ، في دائرة من الدوائر المحلية . اما من رغب بينهم بمتابعة تحصيلهم ، كان بإمكانهم ان يقضوا ثلاث سنوات في احدى الاكاديميات الاقليمية . واذا ذاك ، يصبح في مقدورهم ، التقدم للامتحانات الثاني ، فيقضون ثلاث دورات تستمر الواحدة ثلاثة ايام . في الاولى ، يطلب اليهم معالجة ثلاثة مواضيع ادبية وان ينظموا ثنائي قصائد ، وفي الثانية ، يعالجون خمسة مواضيع تتعلق بالادب الاتباعي ومشاهير رجاله ، وفي الثالثة يعالجون كتابة خمسة مواضيع تتعلق بامور الحكم وفن

الادارة ، مع تأييد آرائهم بالحجج والشواهد التاريخية الدامغة . فمن منهم كان يطمح للمراكز والوظائف العليا ، كان بإمكانه ان يدرس ثلاث سنوات اخرى ، ثم يتقدم لامتحانات نهائية تجري في القصر الامبراطوري نفسه ، في بكين ، حيث يطلب اليه معالجة موضوع يتعلق بقضية سياسية اجتماعية ، او بمشكلة وطنية كالري والزراعة ، والاستعمار والنقد ، والجيش والتربية . فمن يرغب في خدمة الجيش الامبراطوري اجتاز امتحاناً اكثر تبسيطاً واقل تعقيداً اذ كان يطلب منه معرفة اهم المصادر والمراجع التي تتعلق بفنون الحرب ، والرمي بالقوس ، ورفع الاثقال والاحمال الباهظة ، واستعمال السيوف الكبيرة . اما الموظفون الذين كانوا في خدمة الدولة عام ١٤٦٩ ، فقد بلغ عددهم نحو ١٠٠،٠٠٠ موظف مدني ، و ٨٠،٠٠٠ ضابط في الجيش .

كانت تكاليف الدرس والامتحانات عالية باهظة . ففي عام ١٥٤٧ ، كان يترتب على من يتقدم للامتحان النهائي ، دفع ٦٠٠ *taels* من الفضة ، كما كان عليه ان يبقى فترة طويلة لينتظر دوره في التعيين . ولم يكن المرشح لوظيفة يؤمن تعيينه الا بعد ان يتكبد مبالغ طائلة تذهب هدايا سنية يتوجب عليه تقديمها للخصيان او لمن بيدهم الحل والربط . اما المرتبات فكانت جد ضئيلة ، كما ان الموظفين الذين طلّعو من الطبقات البورجوازية كانوا يحاولون جدهم لاسترداد ما دفعوه تسديداً منهم لديونهم . وكانت الرشوة ضاربة اطنابها بين الموظفين ، وقؤلف عورة من العورات التي شانت عهد دولة المنغ . وكانت المبالغ المقتطعة من ايراد الطبقة المنتجة ، باهظة للغاية .

بعد هذا ، هل يمكن لنا ان نرد المميزات التي اصطبغ بها الادب والفن ، في عهد المنغ ، لطولع الطبقة البورجوازية ؟ فالرواية والرواية الاجتماعية ، هي التي طبعت الانتاج الادبي ، اذ ذاك ، بينما اخذ الشعر بالانحطاط والتدهور . فالكاتب الصيني ونغ - تاو - كوين ، ترك لنا عام ١٥٥٠ ، صورة للانحطاط الذي كانت عليه الادرة ، اذ ذاك ، وذلك في كتابه : « على شواطئ النهر » ، كما اننا نرى الكاتب الصيني دون - تشانغ - إن ، يسخر في كتابه الموسوم : « الحج الى الغرب » من الطبقات ويزأ بهذه الملل والنحل الدينية . ومن جهة اخرى ، نرى تزدهر في البلاد فن الرواية التي تعالج البطولة وفن المسرحية . هل يجوز بعد هذا ، ان رد الهبوط او الانحدار في النوع او الكيف ، وضمف النشاط الخلاق ، والميل للتقليد والمحاكاة ، وما هو فارغ اجوف ، الى حركة التصدير الناشطة التي تناولت مصنوعات القيشاني والعاج والحلي ، الى بلدان كوريا واليابان والفيليبين واندونيسيا ، او الى هذه الغزعة القديمة للتقليد والاعراف ؟ هل يجب ان نرد الى التطور العظيم الذي تم للطبقة البورجوازية ، او لتقليد الاوروبيين ، هذا الاهتمام الشديد الذي يبديه المثقفون ورجال الفكر ، نحو الدرس وتحصيل المعارف العملية والتطبيقية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، وفي خضم هذه الاضطرابات ، عندما استطاع الرحالة الجغرافي الكبير هاو - هانغ - تسو (١٥٨٥ - ١٦٤٣) الكشف عن منابع

نهر البانغشي الاصلية - وعندما تمكن من وضع الحد بين نهري سالوين والميكونغ ، كما استطاع رسامون فنانون مهرة ، وضع خريطة دقيقة للصين ، او عندما امكن نشر بعض موسوعات عام ١٦٠٩ و ١٦٢٨ و ١٦٣٧ . ولا سيما الموسوعة المعروفة بينها بعنوان : *Tien kung k'ainru* التي وضعها سونغ - ينغ - هسنگ ، وهي عبارة عن معجم للحرف والمهن والصنائع ، وعندما استطاع ماينغ - تسو ، عام ١٦١٥ اختصار الايجدية الصينية وتخفيض عدد علاماتها او حروفها من ٥٤٤ حرفاً الى ٢١٤ ؟

ولد وانغ - يانغ - منغ في ٣١ تشرين الاول ١٤٧٢ ، على مقربة
 فلسفة وانغ - يانغ - منغ
 من مدينة تنغ - بو ، من اعمال ولاية تشاي - كيانغ . فقد كان
 ابناً لاحد كبار ممثلي الثقافة في الصين ، عمل وزيراً وقوى وزارة
 الداخلية . اجتاز هذا الصبي بنجاح كل الامتحانات المفروضة ودخل موظفاً في الادارة . تاق
 وهو حدث ، للكمال الخلفي والادبي ، ولذا راح يدرس البوذية والطاوية ، وعزف عن العالم وزهد ،
 وراح يسكن في غار . ولم يلبث ان وجد حياة الرهبان البوذيين والطاويين النسكية مخالفة
 للطبيعة البشرية ، متعارضة ، تماماً مع واجبات الانسان الاجتماعية . فعاد من جديد الى
 الكونفوشية ، حوالي ١٥٠٢ - ١٥٠٤ ، وعين رئيس قلم في المحكمة الحربية بكيين . غير انه
 لم يجد في الكونفوشية سوى الجود والصقيع وخساسة المادة . فالتعليم الرسمي الذي اعتمدته
 دولة المنغ وكرسته الامتحانات الرسمية ، لم يكن سوى التفسير المادي او الوضعي للكونفوشية ،
 كما خرج من يد تشو - هي (١١٣٠ - ١٢٠٠) ، في عهد دولة السونغ ، فأبت دولة المنغ
 العودة اليه ، لان ظهوره سبق ظهور الـ *Yuans* ففي تعاليم تشو - هي ان وو - كي الكائن
 بالقوة صدر عن تاي - كي الطاهر ، النقي ، الابدي ، الارلي ، السرمدى ، المطلق الوجود ، والكلبي
 الحضور ، السامي الفضائل ، الكلبي الحكمة . فحكماء الحكماء وفضيلة الاولياء هما من بعض فيض
 حكمتهم وفضيلتهم الساميتين . ولكن هذا الاله تاي - كي ، ليس قط باله شخصي او فردي ،
 فهو ليس بعناية الهية ، فهو اصل او مبدأ ، يكون وحدة مع المادة ، فهو يوجه المادة عن طريق
 لي ويولها ما هي عليه من نواميس طبيعية وما لها من قاعدة تسيير بموجبها . يبعث لي النشاط
 في كي (المادة) ويولها نسمة شبيهة بكتلة غازية ، هوائية الشكل ، هذا الجوهر اللطيف
 للغاية . وبالتفاعل المتبادل بين هذين العنصرين : ين ، عنصر التركيز ، ويانغ ، عنصر الامتداد ،
 يتم خلق كل الكائنات . فالعناصر التي لا يمكن مسها او لمسها في كي ، تتكثل عماء الذي
 يستحيل بدوره كوناً ، محوره الثابت في الارض التي لا تتحرك ، يضم مع الارض السهوات
 والشموس والنجوم والبشر . وبعد ان يبلغ الكون تمامه وكاله يتفتت وينحل ليعود من جديد
 عماء ثم يستحيل الى كي . وهذان المنصران : كي ولي ، اللذان لا ينقسم الواحد منهما عن
 الآخر يعودان الى تاي - كي وهذا يعود بدوره الى وو - كي وهكذا يعمد الوجود دورته
 الى ما لا نهاية له . فنحن امام كوسمولوجيا خالدة ، ابدية تطورية ، خاضعة دوماً لناموس

التكرار الابدى .

للانسان روحان : احدهما شعورية ، مادية ، حساسة ، تعود عند الموت الى الارض . اما الثانية ، فهي الروح العاملة ، المدركة تترج عند الموت بالهبولى اللطيفة التي تتألف منها السماء . فليس من خلود فردي . فالحكيم يموت كلياً . هو يجد في هذه الحياة سعادته اذا ما عرف ان يستجيب للناموس الادبي . ولذا ترتب عليه الاتصال بالكائنات والتلاقي معها « ليطور معارفه وينمي افكاره » ، « ويقوم قلبه » ، « ولا يروض جسده » . وعلى مثال الانسان وشاكلته ، يجب ان يسود الانسجام والتناغم المجتمع والعالم . فالعالم الاصغر هو صورة مصغرة للعالم الاكبر . فالتكامل الذاتي يولد الادارة الرشيدة في الاسرة ، في الدولة ، في الكون كله ، وهو الذي يخلق الدقة والانضباط بين فصول السنة ، ويؤمن للارض الغلال الطيبة والمحاصيل الوفيرة ، ويولي الانهر والسواقي ما هي عليه من نظام وحكمة . وقد عنى تشو - هي بعبارة « ادراك الكائنات » ، « النظر ملياً في كائنات هذا الوجود » ، والتبصر فيها بانعام نظر ودقة بصر ، وبعبارة اخرى ، الوصول الى معرفة ، عميقة صحيحة ، قبل « تنقية افكارنا وتخليصها مما يشوبها » ، قبل القيام باي مجهود ادبي ، لان الحقيقة الادبية التي يجب ان تكون قاعدة السلوك هي خارجة عنا . علينا ان نتبين الحقائق الادبية ، في المجرد ، قبل كل شيء ، ثم نأخذ بتطبيقها وممارستها في انفسنا . وهذه المعرفة الكاملة ، المعرفة لا يمكن ان تتوفر فينا او تتم لنا الا بدراس كتب الكمال والاطلاع على كل ما جاء به الاقدمون من شروح وابحاث .

يبدو لنا ان فلسفة تشو - هي كانت فلسفة ارسوقراطية . فهو يوجه كلامه وتعاليمه للمستنيرين اي المثقفين ، وبكلمة كمال ، انما قصد الكمال الذي لا بد منه لمن يضطلعون بمسؤولية الامور العامة . وهي فلسفة مرزحة 'مقعدة' ، تسبب الشلل لمن يتقبلها ، طالما تلزمه بالتعويل على كتب الاقدمين كما كانت ، من جهة اخرى ، مثبطة للعزم . ان اشتراط المعرفة الكاملة لبلوغ الكمال الادبي وادراكه ، عملية مربكة ، معجزة ، اذ يجعل هذا الكمال صعب التناول ، لا يدرك ولا يبلغ اليه . ولذا أعرض المفكرون عن هذه الفلسفة ورغبوا عنها وزهدوا بها وهزئوا من كل من يحاول الاخذ بها ووضعها موضع التحيز ، وراحوا يستسلون لغرائز النفس البشرية . ويأخذ وانغ - يانغ - منغ بتصويرهم لنا قائلاً : « مجموعة محفوظاتهم الكتابية تجعلهم يتيهون كبراً ، ووفرة معلوماتهم ومعارفهم تزيدهم سوءاً وشرأ ، وكثرة ما يحملون من فوائد تحملهم على الثروة ، وجمال الاسلوب الذي تم لهم يذهب في تزويق اكاذبيهم وتزاهاتهم » .

وجه وانغ - يانغ - منغ ، عام ١٥٠٦ ، بعض انتقادات الامبراطور او - تسونغ مما حمل ليو - كين ، احد خصيان الملك ومن اقرب الناس اليه ، على الحكم عليه بالجلد ٤٠ جلدة وامر بزجه في غياهب السجن سنة كاملة ، ثم ارسله مأموراً في شعبة بريد في لونغ - تشانغ من اعمال

ولاية كوي - تشاو ، وهي ولاية تسرح فيها قبائل مياؤس نصف المتمدنين . وهناك اضطراب وانغ ان يبني له بنفسه كوخاً من الآجر ، وان يزرع بنفسه بعض البقول . وقد جاءه الهاتف ، في



الشكل ٢٢ - الصين في عهد المنغ والتسنغ

اتحدى الليالي وافاض عليه من انواره وتعاليمه . أعيد وانغ الى البلاط بعد ان اصدر الامبراطور حكمه على ليو - كين بالاعدام واستأنف عمله في وظيفته كالامتداد . تمكن عام ١٥١٩ من ان يخذ فتنه قام بها احد الامراء في مقاطعة كيانغ - سي ، استهدف بعدها للدسائس والمؤامرات

وسوء المعاملة ، كما تعرض لسيل من الاهانات والافتراءات الذميمة بحيث أصبحت حياته :سوأ بكثير مما كانت في سونغ - تشانغ . واذ ذاك توصل للكشف عن محور فلسفته الا وهو الادراك العقلي او الاكتناء *Liang tche* ، وذلك سنة ١٥٢١ ، ومات سنة ١٥٢٩ . فلم يترك لنا كتباً ، انما سلك نهجاً روحياً تجلّ بوضوح في رسائله الكثيرة واحاديثه . وقد ظهرت الاولى مطبوعة ، عام ١٥١٨ ، كما ظهرت طبعة كاملة لأثاره ، سنة ١٥٧٢ .

وهكذا نرى ان وانغ - يانغ - ملغ ليس فيلسوفاً بالمعنى المصري - يبحث في ما وراء الطبيعة والوجود ، انما هو رجل عملي ، استمد فلسفته من تجاربه الشخصية ومن تصرفه .

فهو يقف من الادبيات موقفاً مضاداً لتشو - هي ، ويرد كل شيء الى الاكتناء الشخصي . فالقاعدة او *Norme* هي في قلب كل منا « فالقلب هو القانون الساوي الذي لا ينقصه شيء » . ففي نظره كما في نظر باسكال ، القلب هو الانا باعتباره شخصاً مفكراً ، هو الفرد . فالقانون او القاعدة هو شيء متميز عن الكائن الخارجي ، فهو ملازم لعملية التفكير نفسه . « فادراك الكائنات » لا يقوم في رصد كائنات هذا الوجود ، بل يتمثل بعمل شخصي شعوري الصميم . ان « انهاء المرء لمعلوماته الشخصية » لا يتم بدرس العالم او الكتب القديمة ، بل بالوصول الى المعرفة الادبية عن طريق احكام ادبية . فالقلب هو الحكم في ما لعلنا او لشعورنا الداخلي من قيمة ادبية . فهو دليلنا الى ما هو واجبنا في الوقت الحاضر . فالعمليات الخمس التي غثلها تشو - هي متتابعة ، اعتبرها وانغ واقعة معاً في وقت واحد . فهو عمل واحد ، وحيد يجري تحت مظاهر مختلفة .

فالانسان لا تتم له الحقيقة الادبية بواسطة العقل ، بل بعمل اكتناهي ادبي هو *Liang - tche* ، غير المتحيز ، الذي لا دليل عليه ، بل يشمر به ، ويمكن لكل واحد منا مشاهدته فينا . في كل انسان مثل هذا الاكتناء الادبي ، هذه المعرفة الفطرية (*Inné*) غير المكتسبة ، هي معرفة الخير والشر ، الحق والباطل ، هذه الحاسة تدرك الامور دون اعمال الفكر او الروية وتصرف دونما حاجة ، للتعلم . هذا الاكتناء الادبي يصدر عن طبيعتنا ، فهو مباشر ، معصوم كالطبيعة نفسها بالضرورة ، عند كل الناس . فهو لدى السارق والقاتل ، ولو بشكل مستقر ، ولا يمكن لوجه من وجوه المعرفة ان يحل محله او ان يقوم مقامه . يجب ان تكون ثقتنا بهذا الاكتناء الداخلي لا حد لها ، كما علينا العمل باحكامه مهما كانت وكيفية كانت . فهذا الاكتناء الذي تم لي هو ذاته في من بلغوا الكمال . فاذا ما أجهدت النفس جيداً لاتبين هذا الاكتناء الذي حصل لي ، فلامح الكاملين لم تعد فيهم بل في . فالاكتناء هذا *Liang - tche* لا يتمثل بفعل او بمصدر الاكتناء فحسب ، بل ايضاً في مبدأ الاكتناء بالذات ،

هو القلب ، هو القاعدة السهوية ، السماء بالذات مبدأ الكمال الذي يجب ان نحققه في ذواتنا ، هو اكتناء الجنس البشري ، هو اكتناء الكون . فالمعرفة هي ادراك ، هي فهم طبيعة العمل الادبي ، هو التصرف وفقاً للاكتناء الادبي . لنعرف ، يجب ان نتعرف ، ان نتخبر . وليستطيع المرء التأكيد بان لفلان البر البنوي وبانه تم له العرف الاخوي ، يترتب عليه ان يكون مارس التقوى البنوية ، وخبر الفرق الاخوي ... لا يكفيه ان يردد عن ظهر قلبه بعض كلمات او تعبارات حول التقوى البنوية ، او حول الفرق الاخوي . كذلك ان معرفة الآلم تتطلب ان يكون المرء تألم ومر بالآلم .

ولكي يحصل لنا الاكتناء الادبي ، يجب كبح رغائبنا والتغلب على كبريائنا . يجب ان تتحلى بالتواضع ، وهذا الاستعداد الداخلي الذي يجعلنا دوماً على استعداد للاعتراف بخطايانا . من الضروري للمرء ان يعترف على ذاته ، وينطوي على نفسه ، وان يطرح جانباً الافكار الباطلة وان يكبح فيه جماح الهيلة ، وان يتفادى تشتت الفكر والانتباه ، يجب ان يتم له تهوؤ خاص لصنع الخير واتيان البر ، وان نسعى جهداً للكشف في دواخلنا عن الحقائق التي جاءت على ذكرها وتكلمت عنها كتب الاقدمين . ان فحص الضمير ومجادلة النفس والكفاح الروحي ، امور يجب الا ننقطع عنها ابداً . يجب على المرء ان يحاول الكشف عما في نفسه من حب الذات والجشع فيجثها من الاساس ، باسرع ما يمكن . علينا ان نتمرس بهذه العملية ونحن نقوم بواجباتنا المعادية اليومية ، اذ ان كل عمل هو فرصة مؤاتية لتحقيق الاكتناء الادبي في داخلنا . هذا هو الضروري ، اللازم . وهكذا لا لزوم بعد ، للعزلة ، ولا لجمع المعارف من الكتب ، ولا للاهتمام باقوال الناس وآراء الغير .

قام وانغ - يانغ - منغ بعملية تحرير ، التحرر من كتب الاقدمين ، التحرر من تقاليد القدامى واعرافهم المتوارثة ، التحرر من نظريات الدولة وآراء السلطة ، التحرر من التسلسل الاجتماعي وترابطه الاقطاعي . باستطاعة كل امرء ان يحقق الكمال ، مهما كان شأنه او وضعه او الدروس التي تمت له ، لان الكمال لا يتوقف على كمية المعارف ، بل على العزم بالجهر بالحقيقة وبالسر ، هذا الشعور الذي يتوفر لكل واحد منا ، وهذه الفلسفة التي قال بها وانغ - يانغ - منغ وعلم ، كان باستطاعتها ان تصبح لدى كل شخص في هذه الصين المتمسكة تمسكاً اعمى بتقاليد الاقدمين ، نقطة انطلاق نحو التقدم والتطور الذي لا حد له ، اذ بتحريرها الحكم الشخصي في الانسان ، تحرير للشخصية البشرية .

تكاثر عدد تلاميذ وانغ - يانغ منغ ومريديه ، وبلغ بعض منهم شأواً بعيداً بما تم له من شهرة واسعة وذكر بعيد ، فاصبحوا بدورهم معلمين مصلحين ولهم تلاميذهم ومريدوهم . وانتشرت تعاليمه في الصين حتى سنة ١٦٣٠ ، الا ان تلاميذه لم يلبثوا ان اصطدموا بمخضبان الامبراطور وبما لهم من سلطة وسلطان . وهكذا بقيت تعاليم تشو - هي الاساس او المحور

الذي قامت عليه الامتحانات . وهكذا كتب لفلسفة وانغ - يانغ - منغ ان تبقى الى جانب الحياة ، في الظل .

ان بروز البورجوازية في الصين وتجليها على هذا النحو اضفى طغيان الخسيان وصولتهم على النهج السياسي خلال دولة المنغ ، مزيداً من الشدة والعنف . فقد كانت هذه الدولة ، في القرن السادس عشر ، في إبان المخطاطها . فلجناح الحريم في البلاط الامبراطوري تأثيره البارز في هذا المجال ، اذ كثيراً ما آل الامر ، في البلاد ، الى اباطرة ، جهلة ، متخشين ، عاجزين ، قعدة لا قدرة لهم على شيء ، يقضون حياتهم منكفئين في زوايا البلاط بين الخسيان والنساء ، يتربصون بهذه المشاكل الكبرى التي تقض مضاجعهم ، ممثلة بهـذه المناقسات الحادة ، الشائكة بين زوجات الامبراطور ، اذ كان قانون الإرث حقاً ، كما رأيناه عند المسلمين ، مبها مطاطاً ، غير واضح البتة . فكان الامبراطور يختار خليفته ووريثه الشرعي من بين اولاده العديدين الذين المجبتهن له زوجات عديدات وسراثر اكثر عدداً ، فنجم عن هذه السياسة صراع هائل بين نساء الحريم ، اذ تحاول كل واحدة منهن ان تجعل من ابنها الوريث العتيد ، وبين الخسيان الذين راحوا يتحيزون ، هم ايضاً ، لهذه او لتلك من هاته النسوة ، وفقاً لميلهم لهذا المرشح او لذاك . وكثيراً ما قضت مصلحتهم توحيد كلمتهم ، فتتفق مشاربهم على معاضدة من من ابناء الامبراطور يكون ألغوبة بين ايديهم ، يوجهونه الوجهة التي تلائمهم .

فالنظام الامبراطوري كان نظاماً استبدادياً : فلم يكن للقانون ، في الصين ، ما له في اوروبا من قيمة وحرمة ، اوروبا وريثة القانون الرماني وحاضنته . فكل من من الصينيين اضطلع بمسؤولية او سلطة سياسية ، كان اقل اكراماً بالقانون واحتراماً له منه بالاخلاقيات والمصلحة العامة . ومثل هذه الذهنية كانت تتسع اكثر للتقدير الشخصي ، للكيف والاعتباط ، وبالتالي للاستبداد . فلكي يلعب الصيني دوراً بارزاً في البلاد يكفيه ان يلقى أذنًا صاغية لدى الامبراطور . هذه هي القاعدة الذهبية ومفتاح السر . اما من جانب الحريم ونساء الامبراطور ، فمن كان اكثر اتصالاً بالامبراطور ، مكنته حظوته ان يقابله متى اراد وفي الوقت الذي يريد ، كان هو صاحب النفوذ الاكبر والمسيطر الفعلي . فمن يتمتع بمثل هذه القدرة اكثر من الخسيان ؟ ولذا رأى عدد كبير من رجال الفكر وحمله الثقافة من ابناء الطبقة الوسطى ان خير ما يفتح امامهم باب الترقى والتقدم السريع في الوظيفة هو ان يتخذوا برضام ، طوعاً واختياراً من الخساء سبيلاً لهم للعيش في البلاط . وبفضل ما كان لهم من ثقافة وعلم استطاعوا ان يلعبوا بالفعل ، دوراً بارزاً في ادارة الامبراطورية التي راحت فعلاً ، فريسة الخسيان بعد ان وقعت تحت سيطرتهم .

فما يكاد الواحد منهم يرقى الى الوظائف المهمة او المراكز المفاتيح ، حتى ينصرف لتأمين

المنافع له ولاعضاء أسرته واقاربه . فيؤلبون حولهم الزبائن والانصار ، ويزعون المنافع والوظائف على خاصتهم ، وبذلك تتوفر لهم ، في البلاط وخارجة ، من القوة وبعده النفوذ ، ما يجعل الامبراطور نفسه يوجس شراً منهم ويخشى جانبهم . فالنفوذ العظيم الذي تم للخصيان جاء بخدم ، في المدى البعيد ، الطبقة البورجوازية ويعمل على تطويرها وتقويتها في البلاد . ولذا اخذ امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة يسيجون حول مصالحهم ونفوذهم بالاكتثار من الانصار يتخذونهم من بين المثقفين من ابناء الطبقة الوسطى ، فيحملونهم على العمل في خدمة الدولة . وهكذا راحت الدولة فريسة الصراع بين الخصيان وبين طبقات المثقفين ، والامبراطور من الوسط ، فمعظمهم تخرج بفلسفة لوانغ - يانغ - مانغ ويعملون بتعاليمه مناهضة منهم للخصيان المستأثرين بالسلطة والمحسوبين من انصار تشو - هي المدافع عن التقاليد القومية ، وعن السلطة الشرعية .

الأزمة الاجتماعية والسياسية
ازدهار البوذية والطاوية

مما زاد في خطر هذا الصراع هو ان امراء الدم او امراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة والخصيان كان تحت تصرفهم قوى خاصة بهم باعتبارهم اسياد الارض ومالكها . وقد حاولت دولة المنغ تقوية مركزها وترسيخ هيبتها بتوزيع الاقطاعات على ذوي القربى والانصار . فقد اقطعهم اراضي شاسعة اعفوها من الضرائب والسخرة ، وهي سياسة استمروا على الاخذ بها بالرغم من مساوئها طيلة القرن السادس عشر . وهؤلاء الاقطاعيون الذين كانوا اسياداً في اقطاعاتهم يتولى ادارتها باسمهم وكيل عام ، كانوا هم انفسهم ، يقومون بامور القضاء ويضبطون سير الامن ، يعمل تحت اشرافهم وتوجيهاتهم حكام ونظار حسبوا عليهم ، ألفوا على مر الزمن ، خطراً على العرش .

وقد راح الفلاحون بالطبع فريسة هذا الوضع . كانت تكاليف الدولة بارتفاع مستمر . هنالك الوف من الفتيات يعملن في البلاط وينفقن الملايين على الاسيذاج والزنجفر ، كما كانت مرتبات عالية تدفع لاءعضاء الاسرة المالكة وللكبار الموظفين ، عدا عن مبالغ طائلة تذهب هدرأ بين الائتلاف والاختلاسات ، ومبالغ طائلة تهدر على الاعمال والاشغال ، وعلى الجيش الذي بلغت نفقاته ٢٠ مليون تايل *taels* ، مع العلم ان الموازنة العامة لم تكن عند اعتلاء هذه الدولة العرش سوى مليوني *taels* لا غير ، كما ان الجيش يستهلك اكثر من نصف واردات الضرائب بين ١٦٢٥ - ١٦٥٠ ، عدا عن رسوم احتكار الملح الذي نفر منه الشعب في الصين نفور الفرنسيين من ضريبة الملح *gabelle* في فرنسا . وقد اخذ الخصيان والموظفون يغالون في مطالب واشباع رغائب لا حد لها ؛ واخذوا يفرضون رسوماً من عندهم وبطالون باكراميات عالية . وبما زاد في احراج الفلاحين توزيع الاملاك الشاسعة اقطاعات وأخاذات تمرضوا معها للطرد من الاراضي التي كانوا يستغلونها ، فيزحون تحت الديون مما يضطرهم لترك مزارعهم والعيث فساداً في البلاد بعد ان يؤلفوا من بينهم عصابات تسلب المارة ، او ينقطعوا لاعمال

القرصنة . وهكذا مع ازدياد عدد السكان واتساع الاقطاعات ازداد ، في البلاد ، قطاع الطرق وشذاذ الآفاق والخارجون على القانون .

قد يكون بالامكان رد هذا الوضع الى انتشار نفوذ البوذية والطاوية في الصين ، بعد ان امتدت تعاليمهما الى الطبقات الشعبية ، بحيث ان الحصيان رأوا انفسهم مدفوعين ، نوعاً ، الى تخصيص مبالغ طائلة لتشييد معابد بوذية ورفع هياكل في المزارات واماكن الحج الرئيسية . من الثابت ان الجماهير الشعبية كانت تلوذ بالبوذية لما كانت تجد فيها من سلوى وسلوان بعد ان قالت بمقيدة الـ *amidisme* . فالبوذية البدائية (الاولى) كانت لأدرية (*agnostique*) . فهي مجرد اصول تقنية توصل انسان بشري للكشف عنها ، هو بوذا تشاكياموني ، ليكون بمنجاة من آلام هذه الفانية وعذاباتها ولتفادي هذه الحلقات من سلسلة التناسخ والتقمص . فلكسي نتجنب الألم علينا ان نتجاهل الاهواء والرغبات ، وان نتمسك بالحياة حتى نبلغ فناء الشخصية فينا بالدخول الى هذه الطوبى *nirvana* (السعادة) وهي تعاليم صعبة التحقيق لهؤلاء الناس العطاش الى هذه المعزيات الحسية . وهكذا فتعاليم ماهيانا التي امتدت من البنغال الى التبت لتتوغل في الصين واليابان ، رأت في بوذا الها ، هو الحكمة الابدية ، كلي الحضور وكلي القدرة ، يتضاعف ويتكاثر الى ما لا حد له في الزمان والمكان اذ يخلق على شاكلته ومثاله بوذات *Bouddhas* ، وبوذات المستقبل *Bodhisattvas* او *Bouddhas à venir* . وعندما تتم لاحد الاتباع مشاهدة احد البوذات مشاهدة رمزية ، تستحيل هذه الرؤيا الى *Dhyani-bouddha* اي الى شخصية جديدة هي « اميدا » اي كلمة بوذا المتجسد ، اله الرحمة ، اله المحبة ، مخلص العالم ومنقذ البشر الذي يغطي باستحقاقاته اللامتناهية ، كل خاطيء يضرع اليه تائباً مستغفراً ، فيبرره بنعمته ، وينقذه من هذه التقمصات المتتالية ، ويجود عليه بالسعادة ناعماً الى جنبه ، بالسعادة الساوية . وقد لاقى الاعتقاد ر اميدا ، رواجاً عظيماً في الصين ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في صورة الانثى التي تسربلها ، هي : كلون - إن ، الحكيمة ، الرؤوم ، التي طالما صوروها بصورة ام باسطة ذراعيها وعليها طفلها ، لهذه النسوة اللواتي يرغبن في ان يجود الله عليهن بمولود .

اما اتباع الديانة الطاوية ، فقد عملوا على نشر كتبهم المقدسة ، في هذه الفترة الممتدة بين ١٥٢٢ - ١٥٦٦ ، حتى ان الامبراطور تشي - تسونغ اخذهم تحت جناحه ووضعهم تحت حمايته ، مدفوعاً على ذلك بعامل الجشع والطمع اكثر منه تذوقاً لهذه التعاليم التي علم بها لاو - تسي (٥٧٠ - ٤٩٠ ق . م) فالطاو هو القيوم ، الكائن بذاته ، الابدي ، اللامتناهي ، الكلي الحضور الذي لا يقع تحت الحواس . فهو يفيض من براءته *Tei* التي تتخذ في تفاعلها شكلين متناوبين هما : ين ويانغ ، وتبدع كل الكائنات المحسوسة التي هي امتداد للطاو . فالطاو هو في كل شيء ، وكل شيء فيه . فالحكيم هو الذي يحاول ان يتفادى كل ما يتعرض له الانسان من آلام وعذابات ، ويخضع له من تبدل وتحول ، وهذه السلاسل من مصروف

وصروف متصلة الحلقات التي تتألف من *yang* و *yin* ليعود الى حالته الاولى ، الى البساطة الاولى ، الى الفناء . فهو يقتل فيه كل فكرة ، ويفقده كل معنى او صورة للعالم الخارجي حتى فكرة وجوده بالذات ليدوب في الطاو . لا ، لم يكن هذا السعي السامي نحو الكائن المطلق هو الذي كان يجذب اليه معظم اتباع الديانة الطاوية ، حتى والامبراطور نفسه . ولما كان كل شيء هو واحد في الاصل ومماثلاً بعضه البعض في الطاو ، فقد نظر الناس الى كهنة الطاوية نظراً الى جماعة تم لهم الكشف عن حجر الفلاسفة الذي له القدرة على تحويل المعادن الخسيسة الى معادن كريمة اي الى ذهب وفضة ، ونسبوا اليهم اكتشاف اكسير الخلود . ما اشد من اغراء لشعب تتلاطمه الاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، الذي يمثله الاله الرئيسي تساي - تشن ، اله الفن والثراء ، الذي قامت له الهياكل في كل مكان ، لشعب كان ينشر خزفياته الصينية وتعاويذه ومطرزاته وتمنياته لحياة مديدة ، اذ ان صلاة التبرك تفعل من نفسها !

مثل الشطر الثاني من عصر المنغ حقبة اشتدت فيها تفكك الامبراطورية وانحلالها
في القرن السابع عشر : المنشو
الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية .
استطاعت قبائل التتار التي لا تزال على بدايتها ، غزو مقاطعتي تشانسي وتشنسي فاطلت على ابواب بكين ، عام ١٥٥٠ ، بينما كان القراصنة اليابانيون يعيشون فساداً على شواطئ تشا - كيا - نغ وفو - كيان وكوانغ - تونغ ، وبلغوا نانكين عام ١٥٥٥ ، ونزلوا ، بين ١٥٥١ - ١٥٧٠ عند مصب نهر اليانغ - تسي .

امعنت الامبراطورية في الانحلال ، في مطلع القرن السابع عشر ، بعد ان استحالت المنافسة بين الخصيان ورجال الفكر ، الى حوادث دامية ، بعد الذي استهدف له الفريق الاخير من قطائع وقظاظات الحضي واي - تونغ - كيان . فالفوا من بينهم منظمة او حزب خاص للدفاع عن انفسهم تحت ستار اكااديمية ، هو حزب تونغ - ين الذي قام بينه وبين الخصيان خصومة عنيفة وعراك هائل ، وبالتالي ، ضد الحكومة التي كانوا يمثلونها . اندلعت الثورة وامتدت الى كل مكان ، بين ١٦١٩ - ١٦٤٠ ، وقام الاقطاعيون بؤلفون جمعيات سرية لمقاومة نفوذ الخصيان وسطوتهم . وعلى هذا النحو سار الفلاحون والمزارعون فأبوا دفع الضرائب المترتبة عليهم ، وثاروا على الاخص ضد ابتزازات الموظفين وتعسفاتهم وضد المضاربات التي كان يقوم بها المضاربون البورجوازيون الذين كانوا يستغلون ما لهم عليهم من ديون لينتزعوا منهم املاكهم ومقتنياتهم . وقامت عصابات من الفلاحين عاثت فساداً في الريف . ووضع قادة الجيش يدهم على مرتبات الجنود . ولكي يهدئوا من ثورتهم وبيعانهم كانوا يقومون معهم بعمليات النهب والسلب والاستباحة . فكان لزاماً على الامبراطور ان يرسل قوى يطمئن الى ولائها ضد هؤلاء « السلاخين » (١٦٣٢) . فاذا بالحرب الاهلية وبالفوضى تسود البلاد في الوقت الذي كان يتهدد حدود الصين من الشمال اعداء يترصدون بها الشر .

قام امام ابواب الصين من الشمال قبائل تنغوس البدوية وهي قبائل من المنشو اخذت في

النصف الاول من القرن السابع عشر، باسباب الحضارة الصينية. وهكذا ألفت هذه القبائل الى الدعة واخذت تنصرف للاعمال الزراعية، في هذه الممتلكات المحصنة والقرى التي يسيطرون عليها ، واستطاع واحد من زعمائهم البارزين هو نورهاشو (١٥٥٩ - ١٦٢٦) ان يوحد من هذه القبائل وينشئ من مجموعها دولة . فاحذ عن دولة المنغ تنظيمهم للحدود ، وقسم المنشو الى ٨ وحدات ادارية انتظمت عسكرياً تحت ألوية ، ضمت الى جانب النورهاشو : المغول والكوريين ، وصيني منشوريا . واستطاع ابن نورهاشو المدعو تاي - تسونغ ان يشكل ، عام ١٦٣١ حكومة وان يقيم في البلاد ادارة مدنية وعسكرية ، وفقاً للنموذج الصيني ، وتبني نظام الامتحانات والابديولوجيا الكونفوشية في السياسة . وكان يقيم باعتباره ابن السماء ، بكل ابهة وفخامة ، الاحتفالات الامبراطورية ، على شرف الزراعة . وقام عدة مرات بغزو تشي - لي يشد من ازره صينيون ، وجاء بصحبتهم يهدد بكين سنة ١٦٢٩ ، و١٦٣٤ . توفي سنة ١٦٤٥ دون ان يعقب ، فانتخب المنشو خليفة له ابن اخيه تشوان - تشي الذي حكم تحت وصاية النبلاء ، حتى عام ١٦٥١ .

وفي هذه الغضون ، قام زعيم شعبي يدعى لي - تسن - تشنغ ، بثورة في مقاطعة تسو - تشوان (١٦٣٧) قادته بمساعدة الفلاحين ، الى بكين . واذ ذاك اضطر الامبراطور تشوانغ - لي - تي الى اعتزال الحكم والتنازل عن العرش وانهى حياته منتحراً ، عام ١٩٤٤ . واذ ذاك ، قام الجنرال وو - سيو - كوي المكلف بالدفاع عن الحدود يستنجد بالمنشو . فقد المحذر هو نفسه محتداً ، من اسرة منشورية ، وأيقن انه مها ساءت الامور تحت سيطرة المنشو ، فلن يكون وضعه بأقل مما هو عليه وانه سيبقى قائداً . فاردفه المنشو بفرقة من ٧٠٠٠ محارب . ومن جهة اخرى ، لم يتمكن لي من ان يجمع حوله رجال الفكر والثقافة الذين كانوا يكرهون الفلاحين ، والذين لم يكونوا ينظرون شزراً الى المنشو الذين كانوا من اتباع كونفوشيوس ، لا غش فيهم . وبعد ان انهزم مرتين ، اضطر الى اخلاء بكين ثم جرى قتله . وراح وو - سيو - كوي ، يحاول آتئذ اقناع المنشو بالانسحاب ، الا انهم ، على عكس ذلك ، توافدوا باعداد كبيرة . واذ ذاك ، نودي بر تشوان - تشي امبراطوراً ، فكان اول ملوك دولة تسنغ (١٦٤٤) . وقام المنشو بتدوير كل الصين . وراح الذين نجوا من دولة المنغ ينتخبون لهم امبراطوراً في شخص هوانغ - كوانغ ، وألفوا لهم حكومة في نانكين ، وبذلك استمرت المقاومة في الجنوب وقوامها مسلمو كان - سو الناثرون يقودها الامبراطور منغ - كواي - وانغ الذي اعتنق المسيحية على يد القرصان كوكسغا ، المولود من اب صيني وام يابانية والذي تمت له السيطرة على فورموزا وعلى نهر يانغ - تسي . وقد جسم المنشو التماثيل الكونفوشية المستقيمة الرأي . واذ كانوا يفوقون الصينيين قوة بما تم لهم من خيالة ومن مدفعية قوية سبكها لهم اليسوعيون في بكين ، استولوا على نانكين عام (١٦٤٥) ، وكنتون (١٦٥٠) واصبحوا مسيطرين بالفعل على الصين كلها . واضطر حفيد كوكسغا ان يقدم خضوعه عام ١٦٨٣ . وفي سنة ١٦٦١ ، توفي تشوان -

تشي بعد ان عين خليفة له على العرش ، ابنه الثالث كانغ - هي الذي حكم في بده عهده تحت وصاية مجلس وصاية تألف من بعض النبلاء حتى عام ١٦٦٧ .

نظم المنشو ، الصين على اساس عرقى بحيث أمتنوا سيطرتهم التامة
سيطرة المنشو العرقية على الصينيين المغلوبين على امرهم ، وبذلك تقادوا الذوبان والانصهار
فيهم . فحملت الالوية المنشوية الى الصين وعهد اليها بحراسة المواضع الاستراتيجية . وطلب من
المنشو ان يحافظوا على طابعهم العسكري ، وحظر عليهم تعاظمي اية مهنة غير مهنة عسكري
مزارع ، كما اشترطوا ان يكون جميع ضباطهم من العسكريين وكذلك الحكام الاداريين .
وهكذا برزوا بوضوح في مرتبة اعلى من الصينيين . وأعفى المنشو من دفع الرسوم والضرائب
والسخرة فوَقعت اعباؤها كلها على الصينيين ، وفتحت امامهم ابواب الوظائف العامة ، بينما بقي
الصينيون خاضعين لنظام الامتحانات . وبدأ على المنشو ازدهارهم للدرس والثقافة والآداب .
وقام الى جانب كل موظف صيني ، ضابط منشو عهد اليه السر على مصالح الفاتحين ، وكانت
اوراق الدواوين تحرر بالمنشوية والصينية . وقد روعي بشدة المحافظة على طابع جيش فاتح ،
يستمر على هواه ، بلاداً تم له فتحها بجد السيف . وهذا الجيش الفاتح الغازي ، شكل عرقاً
اسمى بكثير حرصوا كل الحرص على صيانة نقائه . وقد حظر بشدة على المنشو الزواج من
صينيات . وصدر عام ١٦٤٥ ، قانون ألزم الصينيين الاحتفاظ بمجديلة الشعر المتدلية من
الرأس . وهكذا « بقي المجتمعان البربري والصيني متميزين ، متباينين الواحد عن الآخر ، لا
يختلطان ولا يتمازجان ، وبقيت جماهير الفزاة الفاتحين تتجاهل كلياً حضارة لا تهما بشيء »
وزاد تباين نهج الحياة بين الجانبين شقة الخلاف بينها تباعداً ، كما باعدت بينها سماتهم الخارجية ،
ومساق التصرف عند كل فريق . فبعد الفتح بوقت طويل كان الغرباء الطارئون يميزون في بكين ،
المنشو البرابرة بشواربهم ، « اشداء بناكبهم العريضة ورقابهم الغليظة كرقاب الثيران واحناكهم
النافرة واسنانهم كاسنان أكلة اللحوم » يدفعون من امامهم بازدهاء كلي الصينيين المرد الخنشين .

شعرت الصين في الصميم بألم الصدمة التي نزلت بها . فبعد دخول
المنشو بكين ، راح ألوف من رجال الفكر والثقافة والموظفين
الاقطاعيين ينتحرون فيضعون حداً لحزبهم بوضعهم حداً لحياتهم :
فرقاً على ما آلوا اليه من مهانة وضعة شأن . وقد اخذ الصينيون يرضخون ، مع الزمن ، للقدر
الغاشم كما اخذ جماعة رجال الفكر يلون على بعضهم البعض ويتعاطفون . ففي نظر الصينيين
يستمد الامبراطور حقوقه من الحكمة . فاذا ما حاد عن الحكمة وخرج عن جاداتها ، كان ذلك
دلالة من السوء على عدم رضاها وشجبها لما يقع في البلاد ، وذلك بتأليب المصائب على
الامبرطورية وانزال القصاص بالامبراطور ، بحمل الشعب على الاعراض عنه والتحول ضده .
فمن نهض محاولاً نزع التاج عن رأس الامبراطور ، ونجح في محاولته هذه ، كان ذلك ايذاناً من

استسلام الصينيين

المنشو اداة الثورة وعهدتها

السماء واعلاماً منها بانها اختارته لانفاذ البلاد فتجب طاعته والالتفاف حوله . وهذه القاعدة جرى تطبيقها على آخر امبراطور من سلالة المنغ ، كما يجب تطبيقها على اول امبراطور من اسرة تسنغ . ومن جهة اخرى فقد سبق لكونفوشيوس وقال : « من لم تكن له خدمة في الحكومة وجب عليه الا يتدخل بشؤونها ولا ان يتناول بالنقد تصرفاتها والتدابير التي تتخذها . فعلى الضيفي ، ما لم يكن موظفاً ، ان يهتم بما لعائلته وبما لامور مهنته ، والا يبالي باي شيء آخر » . وهكذا ضعفت في البلاد الروح الوطنية ومفهوم الدولة ، مع ان الشعب كان يحيش بالروح القومية ويكنّ للأجنبي مقتاً عميقاً وكرهاً شديداً .

وقد عرف المنشو أن يفوزوا برضى الفلاحين بعد ان فرضوا احترامهم بفرض النظام في البلاد واعادة الامن الى نصابه ، فضبطوا مالية الدولة وقضوا على نظام الاقطاع فاكتمل كائنه - هي بالاحتفاظ بـ ٣٠٠ فتاة في بلاطه . كذلك الفى الاقطاعات ووزع الاراضي التي تألفت منها هذه الاقطاعات على اعضاء الاسرة الامبراطورية ، كما وزع بعضها على ابناء الأولوية ، وبذلك أصبحت ضمن املاك الدولة . فالذين استفادوا من هذا التوزيع لم يصحبوا اسياداً بل اصحاب ايراد ثابت ، فاضطر الواحد منهم ان يؤجر ارضه لمتعهد عام يؤجر من ضمنه مزارعين يأخذون باستئجار الارض برضاهم . وقد اعترف القانون ، في آخر الامر ، لهؤلاء المزارعين بحق ثقلك شرعي لسطح الارض ، مع بقاء حق الملكية لصاحب الارض . وهكذا رأى الفلاح نفسه مدعواً لتحسين ارضه كي يزيد من دخله .

كان من نتائج هذه السياسة واستتباب الأمن في البلاد ان ازداد عدد سكان الصين ، وهي زيادة اربت بالطبع على معدل نمو المواد الغذائية ونسبة الانتاج . فمن ١٠٠ مليون نسمة بلغ عدد سكان البلاد عام ١٦٦١ ، تحت تصرفهم ٣٥٣ ، ٥٣١١ لي من الاراضي الزراعية ، ارتفع هذا العدد ، عام ١٧١٠ ، الى ١١٦ مليون نسمة يتصرفون بـ ٦٦٣١ ، ٦٣٢ لي . ولكي تأتي النسبة بين مساحة الارض المزروعة وعدد السكان طبيعية ، كان من اللازم ان يتوفر لهم ايضاً ١٢ مليون كمنغ . ولذا اخذت الزراعة في الصين تصطبغ بالصفات العصرية التي تقسم بها اليوم زراعة الحدائق والبستنة ، كما اخذ المطبخ الصيني يستعمل كل ما يصح استعماله او يصلح للاكل ، حتى مرببات العناكب .

ويبدو ان البورجوازية التجارية والمالية حققت هي الاخرى اغراضها ، اذ اخذ فانغ من مدينة ننج - بو ، يؤسس في عهد الامبراطور كمنغ - هي ، في بكين ، المصارف الاربعة الكبرى التي كانت لاتزال مزدهرة اعمالها ، مضطلة بنشاطها ، في مطلع القرن العشرين . كذلك اخذت نقابات عمالية تضع منذ ذلك الحين ، قوانين خاصة بها نظمت من المهنة . فاحتكر حاك الاقشة الحريرية ، مثلاً ، لانفسهم صنع الاقشة ، الفاخرة ، بينما تركوا لمن يرغب نسج الحرائر العادية ، ولم يخضعوا للاحتكار ، فافسحوا بذلك مجالاً للمزيد من الكسب لآلوف من الاسر القروية والفلاحين وسكان المدن ، للعمل بالحياكة في منازلهم . كذلك يبدو ان هذه الصناعة نزعّت ،

منذ ذلك الحين نحو التمرکز . ويبدو كذلك ان صناعيين لهم نشاطهم كانوا يحيلون طلباتهم لرؤساء الورش الرقيقى الحال ، وهؤلاء العمال الذين يعملون في منازلهم .

هل ادى فتح المنشو ، يا ترى ، الى احداث ثورة اقتصادية واجتماعية في البلاد ؟ . وهذا التبديل في النظام السياسى ، هل كان من نتائجه ترجيح السيطرة نهائياً للاقتصاد النقدى ولهذه الرأسمالية التجارية على النظام الاقتصادى السىادى او انه ادى بعبارة اخرى ، الى تكريس انتصار البورجوازية الصينية على الارستوقراطية التى خفض فتح المنشو للبلاد من جانبها كثيراً .

اما المثقفون ، فقد بادر كنيخ - هسي للاعراب عن تقديره المنشو اتباع
جيمون للكونفوشية التشوية . فالتفسير الذى وضعه لها تشو - هسي والذي جاء
في مصلحة السلطة ، بقى التفسير المعتمد والمعمول به لدى
الحكومة ، كما بقى اساساً للامتحانات الرسمية . وهكذا اخذوا يتناسون بسرعة تعاليم
وانغ - يانغ - منع بحيث ان المعلم الذى اخذ دوماً بتعاليم القدامى وبالواجبات الاجتماعية ، زغب
تلاميذه ، منذ ١٦٣١ ، في ان يتعلموا كل شيء من ليانغ - تشي ، فتاهوا في سفاسفهم وترهاتهم .
حافظ المنشو على نظام الامتحانات كما اخذوا بالنظام الادارى المسلسل الذى بقى مسلماً
' مشمراً للادباء والمثقفين . وبعبارة اخرى ، عمل النظام الادارى لمصلحة الفاتحين . وفي سنة
١٦٥٥ ، رجعت كفة الادباء على الحصيان بشكل لا يدع مجالاً للشك ، فحظر على هؤلاء التدخل
بالشؤون العامة ، تحت طائلة الموت ، مما ادى الى طرد عدد كبير من الحصيان وصرفهم من
المراكز التى كانوا يحتلونها . صحيح ان بعضهم استطاع الحصول على وظائف ومراكز في الدولة
انما لم تعد لهم فيها الكلمة الاولى .

ومع ذلك لبث المثقفون خاضعين لتعميم تشو - هسي المزرحة والمقعدة ، كما لبثوا ، شأن
من ' غلبوا على امرهم ، يتعززون جداً من التفوه بشيء يسيء الى الفاتحين . وزالت منهم كل
مقدرة او طاقة على الخلق والابداع . فالكونفوشية التشوية قضت تماماً على كل اثر لهذه
المثالية البوذية والطاوية التى عرفت ان تلهب خيال الصينيين . فالتشوية في خدمة الفاتحين
نزعت الى ان تجعل من الصين آلة ادبية عمياء لا تفكر ولا تعمل بذاتها ، بحيث يأتى كل نشاط تقوم
به وفقاً لقوالب مهيأة من قبل ، افرغتها السلطة على الشكل الذى تريد . فكانوا يلاحقون بعنف
لا يعرف الشفقة كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، مما ادى الى تجميد الفكر وتفقير الفن .
وشجع المنشو مدرسة بونجيفا التى كانت تحبذ ' تصوير رجال الفكر ' . وقد هدف هؤلاء
النظريون الى القضاء على كل تمييز بين التصوير والخط : فلم يعودوا ليأبوا بالطبيعة بل راحوا يدلون
تقليداً حرفياً ، النسخ المسحوبة عن آثار اساتذة الفن القدامى ، بنصها الواحد كما جاءت في
الصورة المبصرة عنها . والاساليب التى استعملها اساتذة عصر تانغ وسونغ ، جرى التعبير عنها
بطرائق واساليب ظهرت في موسوعة تصويرية بعنوان : « مبادئ تصوير حديقة حجمها

حجم حبة خردل » التي تم نشرها عام ١٧٠١ . وهذا الاثر الفني لم يثر الاعجاب الا بنسبة ما فيه من محاكاة لهذه الفوارق الملحوظة في رسم المخطوط في المخطوطة . وهكذا تخلوا عن هذا المدى الجمالي الشاسع للفن الصيني فنحن امام ثورة فكرية او ذهنية .

بقي شكل واحد من اشكال الفن يبعث الرضى والارتياح استأنس له الفاتح البربري ، يتمثل في صناعة الخزفيات ، هذه الصناعة التي عرفت ان تحافظ على نقائها وعلى تقنياتها محتفظة بقيمتها العالية .

والادب نفسه اصبح وسيلة من وسائل الدعاوة واسبابها . فالقصص والمسرحيات التمثيلية راحت تجعد الفضيلة وتشجب الرذيلة بشرط ان تكون الامثلة المضروبة تعمل على خدمة الفاتح . كذلك راحوا يتفننون ، بالوقت ذاته ، بالبر للوالدين والطاعة لهم رمزاً لما للامبراطور من سلطة ابوية وما له عليهم من حق الاحترام والخضوع ، كما راحوا يتفننون بالتفاني في سبيل الامبراطور . وحرص هانغ - هي على اعداد موسوعات عملية ، منها موسوعة تقع في ٤٤ مجلداً ، ومنها موسوعة في ٣٦ مجلداً تؤلف إزائية للادب الكلاسيكي القديم معجماً صينياً . وراح يظهر بمظهر الاديب الكونفوشي فاخذ يضع مؤلفات عديدة نثراً وشعراً ، كما وضع : « الامر المقدس » ، هو عبارة عن مجموعة من ١٦ حكمة او موعظة ادبية (١٦٧٠) . اما الآثار التي لها بالفعل قيمة كبيرة فهي الآثار التي وضعت في عهد المستقلين . فقد رفض بان - سونغ - كنج ان يقضي سحابة عمره موظفاً في خدمة الدولة وان يسير وفقاً للامور المطروقة . فقد ألف ، نحو عام ١٦٧٩ : « حكايات مدهشة » صادف كتابه نجاحاً منقطع النظير لما في هذه الحكايات من متانة السبك وقوة التعبير ، وما تحمله من الصيغ والافكار الجديدة التي تضفي على العبارة قوة لم تكن لها من قبل ، بمد ان اكثر من المحنات اللفظية كالهجاز المرسل والكناية والتورية . وقد رفض شو - يونغ - شون (١٦١٧ - ١٦٨٩) الذي قتل المنشو اباه ، قبول العمل في خدمة الدولة موظفاً ، فوضع كتاباً صغيراً في الحكم نال شهرة واسعة .

فقد انهار وزال كل ما لم يستطع تفادي الضغط الرسمي . فهل نرد الى القلق المسيطر على النفوس ، والحاصل من الوضع الذي صار اليه المغلوبون على امرهم ، على يد اقوام من عرق ادنى ، العادة التي ظهرت بين الصينيين ، اذ ذاك ، اي في القرن السابع عشر ، عادة تعاطي الافيون والاقبال على استنشاقه وشمه ؟

ازداد هانغ - هي شعبية بعد ان عرف كيف يمالء ما في الروح
المنشور والسيطرة
الصينية على آسيا الوسطى
الصينية من كبر . فهذا البدوي الصحراوي الذي اعتاد ان يصرف ،
كل سنة ، بضعة اشهر في الصحراء ، متمطياً حيناً ، سهوة جواده ،
ومستظلاً احياناً خيمته ، لا يستطيع ان يتصور نفسه امبراطوراً الا ان يعترف بامبراطورية
رفاقه في البداوة . وراح ، في هذا السبيل ، ينهج نحو بلدان آسيا الوسطى ، نهجاً استبدادياً ،

إستعماريًا ، فبسط سيطرته على البدو البرابرة الذين اذاقوا الصين الامرّين في اواخر عهد دولة المنغ .

حاول السو غار ان يعيدوا تأليف الامبراطورية المغولية التي نمت لجنكيزخان . الا ان الوهن الذي كان اخذ يدب في جسم المغول بعد ان ألغوا تقسيم إقطاعاتهم وما فيها من قطعان الماشية واسر العبيد العاملين في الارض ، بين ابناء السيد ، فاخذت مساحة الاقطاعات تسدق وتصفّر ، كما فشّت بينهم الحروب المخرّبة وتكرّر وقوعها مع ازدياد عدد الاسياد في البلاد .

ففي عام ١٧٩١ ، و ١٦٩٧ ، تم لهانغ - هي الانتصار مرتين على خصمه غلدان زعيم السونغار ، وذلك بعد ان تم تسليح جيشه بالبنادق والمدافع التي أتم اليسوعيون صبتها لهم . فأخذ تحت حمايته المغول الشرقيين او كلغاز . فقد قدّم امراؤهم بكل رضى وقبول ، مراسم الخضوع لامبراطور الصين الذي كان بربرياً على شاكلتهم بالركوع امامه ثلاث مرات وبالسجود امامه ٩ مرات تعبيراً له عن ولائهم وخضوعهم . وراح خانات المغول يمتنون من علاقاتهم بكبير خانات المنشو عن طريق تقديم ولائهم له . فادخلهم في خدمته ، ومد قبايلهم بالحبوب يوم تهددهم المجاعة ، كما انه وضع حداً لحروبهم الداخلية ولمنافساتهم . وهكذا توافد عليهم التجار الصينيون . وعلى الاثر توفرت عندهم الحاجيات المصنوعة ، اذ ان البندقية كانت تقايض بخمسة رؤوس من الماشية . اما في اواخر القرن ، فقد اصبحت البندقية والدرع تبادل برأس واحد من الخيل . وجاء في إثر التجار معمرون صينيون وقامت في مراكز معينة في طول البلاد وعرضها ، جماعات كبيرة تأخذ بإسباب التحضر . واخذ بعض الكلغاز يعملون في الزراعة وفي تربية الماشية ويقومون احياناً بنشاطات مهنية ، فتناقص بالتالي عدد قطعان الماشية كما تضاءلت بينهم حركة الظنن والارتحال مع تبدل الفصول والمواسم . وهكذا شهدنا بوادر حركة تطويرية كان من بعض شأنها ان تنقل البلاد ، ونبدأ ، من مجتمع إقطاعي ، بدوي ، الى مجتمع حضاري ، ورأسمالي . اما هانغ - هي فقد رغب في الابقاء ، قدر المستطاع ، على التنظيم الإقطاعي وتسخيره لاغراض عسكرية وتأديبية .

وراح هانغ - هي ، من جهة ثانية ، يقوي من نفوذه ، بين البوذيين الكثيرون المصددين في الصين ، وذلك عن طريق التفاهم مع رئيسهم الاعلى دالاي لاما الذي اعترف ، بدوره بشريعة اعتلاء السلالة المنشوية أريكة الامبراطورية ، مقابل التمهّد باحترام سلطته الزمنية . ففي سنة ١٧١٣ ، ساعد هانغ - هي على اقامة سلطة الدالاي لاما في لاهسا عاصمة التبت ، فكان من اشد انصار الحكم المنشوي في الصين . وهكذا تمتع هانغ - هي بنفوذ عظيم بين البوذيين المنتشرين في هذا المجال الجغرافي الممتد من بحر قزوين الى المحيط الهادي .

وقد عاد الى الدولة الصينية في عهد السلالة المنشوية ما كان لها من سالف العز والقوة . بينما رجعت الحضارة الصينية القهقرى وازدادت كرهاً واحتقاراً للأجنبي ، من اي وقت مضى .

اليابان

عرفت اليابان ، بالرغم من اتساع الرقعة الجغرافية التي تفصلها عن انبهار النظام الاقطاعي أوروبا ، والمثلة بما يعرف بأوراسيا ، نظاماً اقطاعياً خاصاً اتخذ قاعدة له النظام السيابدي . فقد قام في البلاد اساساً حكومة مركزية . فالامبراطور او الميكادو « ابن الشمس » الذي كان يقيم في عاصمته كيوتو ، عهد ، مكرهاً ، بالسلطة الى سادن القصر او الشوغون هذا المركز القيادي الذي احتفظت به اسرة اشيكاجا ، وكان الشوغون يتولى اعمال الادارة في الدولة بواسطة نظام اداري مسلسل من المصالح والدوائر المترابطة ، من بينها مجلس الدولة وثمانية وزراء و٦٦ ولاية او مقاطعة يتولى ادارتها حاكم يعينه الشوغون ، و٥٧٢ قضاء او ناحية يتولى الادارة فيها نقيب يُعين بناء على اقتراح حاكم الولاية ، ويتألف القضاء من قرى ودساكر .

وبالفعل لم يكن الميكادو ولا الشوغون حتى ولا أكبر ممثلي السلطة المركزية مهما علت وظيفته ، بالكلمة المسموعة في البلاد . فقد كانت عدد غفير من الحكام *Daïmios* يحف بهم عدد من حاملبي السلاح *Samourais* يمارسون السلطة الفعلية في مقاطعاتهم وإيالاتهم ، ولم يكن ليشدهم ، على ما يبدو ، الى كبار الاسياد سوى وشائج مطاطة من الولاء المش . وقد قامت بين هؤلاء الحكام والسادة الاشراف حروب اهلية لم ينقطع حبلها . واعتماداً منا على الرسوم والصور التي تعود الى ذلك العصر ، كان هؤلاء الحكام ومن اليهم من المجندين يشبهون الى حد بعيد ، مرتزقة الحروب *Reîtres* في أوروبا بسحناتهم الحشنة ، وملاعهم القاسية والاخاذيد الظاهرة التي تجعد وجوههم وجباههم ، وغير ذلك من هذه القسائم التي تم عن العنف والاهواء والشهوات .

وكان لاديار البوذيين املاك طائلة لرؤسائها ما للحكام من سلطة ومنزلة وشأن .

نظام الاقتصاد ونظام المفايضة
كان على الفلاحين ان يعملوا الطبقتين العسكرية والكهنوتية . فالاقتصاد المعمول به في البلاد اقتصاد زراعي ، مطبق على نفسه ، محوره الاساسي وركيزته الكبرى زراعة الارز . فقلة الاراضي الزراعية وغزارة المياه ، عوامل تساعد على استثمار اراض صغيرة تتراوح مساحة رقعتها بين ٢ - ٣ هكتار ويقتضي لها جهد شاق من العمل اليدوي بالمحول والجهرفة والرفش ، ويستعين الفلاح ببعض الحيوانات والبقر والخليل ، وهي نادرة على الاجمال بقلة المراعي في البلاد ، فيستعملها مرة في السنة ، لشق الارض وحرثها مفردة او مكدونة . اما النقد فكان من الندرة بحيث ان بعض الفلاحين لم تكن عندهم وقعت على قطعة عملة واحدة . فالأرز كان معيار الاسعار واساس المفايضة . فالخدم والحشم والمرتزقة من الجنود يتقاضون اجورهم أرزاً ، وكذلك الضرائب تدفع أرزاً . فالفلاح

في القرية يشترى سمكة من الصياد ارزاً يستخدمه لتسميد الارض واخصائها . اما المرأة في المنزل ، فكانت تقوم بامور الغزل والصباغة ، والاسرة تؤلف وحدة اقتصادية تكفي نفسها بنفسها .

والقرويون يقطنون قرى منازلها متفرقة ، ولكل قرية شخصيتها تؤلف وحدة ضرائبية ، لها الحق بمقد الاتفاقات واقتناء الاراضي والاحراج والمراعي ، سكانها مسؤولون بالتكافل والتضامن عن الضرائب المفروضة ، ويقوم بإدارة القرية مختار *Nannouchi* ، يأتي بالانتخاب احياناً واحياناً بالوراثة ، يكلف بتبليغ الاوامر للاهلين ، كما يرفع غزيات الاهلين ومطالبهم للسيد ، ويعد قيوداً يسجل بموجبها ملكية الاراضي ، وغلال كل فلاح ومزارع ، كما يسجل عدد المواليد والوفيات . كذلك من مهمته الاشراف على الاشغال العامة في القرية ، ويقضي بين الناس في صفار الامور . قسمت كل قرية الى فئات ضمت كل فئة خمسة اشخاص عليهم عريف . واذ كانوا مسؤولين بالتكافل عن الضرائب ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لانتاج اكبر كمية من المحاصيل الزراعية والغلال ويحولون دون اقتسام الاراضي وتشتتها بالإرث ، يبادرون لمساعدة بعضهم البعض ، حتى اذا ما مرض احدهم او اقعده علة قاموا مكانه بحرق ارضه .

وكان وكيل السيد يقوم ، من وقت الى آخر بمساحة الاراضي ويصفها بحسب طبيعة تربتها ونظام سقيتها ونسبة تعرضها للشمس ، وبعدها عن الاحياء المأهولة ، يخمن كل سنة ، غلة الارض بالنسبة لوحدة مساحة . فكان السيد يتقاضى 'خمين الغلة' ، عدا عن كمية صغيرة تذهب لوكيله وبعض الهدايا وتأمين أود عيشه والرسوم غير الملحوظة او الاستثنائية التي كانت تطلب منه احياناً . وكان الفلاح يحفظ موسم الارز في اكياس وينقلونه الى غنابر السيد ومستودعائه . فبعد ان يضع جانباً للموسم القادم البذار اللازم ، لا يبقى له ما يرد عنه غائلة الجوع والموت . اما غذاؤه فكان مزيحاً من بعض البقول والحشائش والجذور النباتية .

قام في اليابان ، بينه اواخر القرن الخامس عشر واواخر القرن
الرجوع الى نظام السلطة
السادس عشر حقبة عرفت عندئذ بعصر *Sengoku* 'أي عصر
العامة في القرن السادس عشر
الحرب في البلاد' ، وهي حقبة اخذت الأمر النبيلة توطن سلطتها
وتشدد من قبضتها السيادية على لقباعها وتوسع من نفوذها على حساب سيادات اخرى . فبين
١٤٤٧ - ١٦٠٠ ، من بين ٢٦٠ اسرة اقطاعية ، انقرض منها ٢٤٨ اسرة او فقدت كل نفوذ
لها ، واخذت حوالي سنة ١٥٦١ ، ست اسر تتحكم باليابان وتجتاذب الاستئثار بالسلطة فيما
بينها ، الى ان بقيت ، سنة ١٦٠٠ ، اسرة واحدة تسيطر على البلاد بأسرها . وقد تم اخضاع
اليابانيين تدريجياً على يد أودا نوبوناغا وهيدا يوشي ، وتوكوغاوا جيزاون . وكان نوبوناغا
(١٥٣٤ - ١٥٨٢) ابناً لاحد الزعماء الاقطاعيين في ولاية أواي ، فأنشأ لنفسه اقطاعاً على
حساب جيرانه ، وغلب على بارونات عديدين ، ونزعت نفسه الى مرتبة الشوغونا . فاستدعا
الامبراطور واستعمله ضد الاشيكاجا . كتب له النصر عام ١٥٦٨ ، الا انه اعاد الى الاشيكاجا

منزلتهم واحترامهم وبقي كذلك حتى سنة ١٥٩٧ . ولكن منذ سنة ١٥٦٨ لم يعد للاشيكاغا السلطة الفعلية في البلاد . وتابع نوبوناغا انتصاراته . وعندما وقع قتله عام ١٥٨٢ ، كانت تمت له السلطة العليا على نصف الولايات اليابانية المحيطة بكيوتو العاصمة . وخلفه في السلطة قائد جيشه هيدايوشي (١٥٨٢ - ١٥٩٨) ، وتابع رسالته وفتح كيوسيو واصبح بالفعل سيد اليابان . ونزولا منه عند رغبة الحكام النبلاء ، جرد حملة عسكرية تولى قيادتها وقصد بها غازيا الصين . الا انه لم يستطع ان يتجاوز كوريا (١٥٩٢ - ١٥٩٨) . وقام بالامر بعده توكوغاوا اياسو (١٥٤٢ - ١٦١٦) وهو من رفاق نوبوناغا وهيدايوشي ، فغلب على البارونات المتمردين ووطد نظام الحكم وأولى اليابان التنظيم الذي سارت عليه ٢٥٠ سنة تحت اشراف شوغونات توكاوا وهيداتاد ابن اياسو ، الذي اصبح رسمياً شوغون منذ عام ١٦٠٥ ، وتولى بالفعل الشوغونا من سنة ١٦١٦ - ١٦٢٢ ، ثم ياميتسو (١٦٢٣ - ١٦٥١) وخلفاؤه .

وهكذا انزلت اليابان وبقيت منكفئة على نفسها في عزلة آل تشوغاوا يحاربون تجميد
يابان في القرن السابع عشر
تامة حتى سنة ١٨٥٤ . واستطاع آل تشوغاوا ان يؤمنوا الاستقرار في هذا العالم المغفل ، وفقاً لتعاليم الكونفوشية التي قال بها تشو - هي بعد ان كان راضياً عن الاوضاع القائمة ويؤيد بالتالي نظام الحكم وسيطرة الشوغون . وفرض نظام التسلسل في المجتمع الياباني تحت نظام دكتاتوري عسكري يتمثل بالشوغون . وفرض آل تشوغاوا ، على اليابان النظم والقوانين السيادية التي كان يعمل بها ايام الحرب ، هذه النظم التي كرّست سلطتهم ووطدت سيطرتهم ، فقسّموا النبلاء الحكام الى قسمين : الفودا يمثلون الحكام الذين وقفوا الى جانبهم وألفوا أنصارهم ، والتوزاما ، وهم القسم الذي يمثل المعارضة بين النبلاء والحكام ويضم الحكام الذين ابدوا مقاومة ضدهم . فقد احتفظ لاتباعه ، اي الفودا ، بالوظائف الكبرى في الحكومة ، وبواسطتهم استطاع ان يرتسخ نظام المركزية في البلاد . واخضع الحكام النبلاء لسلطة مجلس الدولة ، كما عين المفوضين الاداريين في الاملاك السيادية الكبرى وفي حواضر البلاد الرئيسية ، وعين في النقاط الاستراتيجية الحساسة مراقبين يرفعون الى الادارة المركزية كل شاردة وواردة . وهكذا نرى ان الشوغون لم يكونوا ليتدخلوا بشؤون الحكام طالما ان الامن مستتب في البلاد . ولم يتمتع ببعض الاستقلال الداخلي بالفعل ، سوى قلة من كبار الحكام ، امثال ماييدا والشيدازو والدات . ومع ذلك فقد عرف الشوغون ان يحكموا حولهم القيود اذ فرضوا عليهم الاقامة اجبارياً سنة بعد سنة ، في مكشورادو ، عاصمة الشوغون ، وان يبقوا فيها أسرم وعيالمهم باستمرار . وبالإضافة الى هذه الرهائن ، فالنفقات الباهظة التي كان يتكبدها هؤلاء الحكام الكبار في حلهم وترحالهم ، ومستوى العيش الرفيع الذي ساروا عليه اضعف كثيراً طاقتهم الاقتصادية ، كما اضعف فيهم كل رغبة بالانتفاض او الثورة . اما آل تشوغاوا فقد عملوا دوماً على توسيع نطاق املاكهم الشاسعة . فكانوا ينتزعون من النبلاء ما لهم من املاك واقطاعات اذا ما توفوا بدون عقب

يرثهم . وعلى هذا النحو ساروا في معاملة النبلاء الذين يقترف احد ذوبهم احدى الكباثر . وهكذا نرى ان ٦١ اسرة فقدت املاكها السيادية في هذه الفترة الواقعة بين ١٦٠١ - ١٦٥١ .

كل فرد كان يرى نفسه مشدوداً الى طبقته . فالجنودون العديدون الذين كانوا عيالا على كل حاكم في اياته ، أجبروا على حمل السلاح ، لا سوى لهم في مهنتهم سوى الادب والفنون . وفرض على التجار لباس المجندين وقباعتهم ، كما فرض عليهم الانحناء عندما تقبع اعينهم على حاكم يمر في الشارع . اما الفلاحون فكان وضعهم وضع حيوانات الجر والبهايم . وكانت الحكومة تودهم في تعلم القراءة والكتابة وتربي في نفوسهم مركب النقص كما يستدل على ذلك من مطلع القرارات والاوامر التي كان الشوغون يصدرها ، اذ كثيراً ما تبتدىء : « لما كان الفلاحون جماعة اغبياء » ... او « لما كان الفلاحون يفتقرون كلياً للمنطق والفطنة » .. فقد ارهقهم بالضرائب ليضطرم دوماً للعمل ، وليقتل فيهم كل رغبة او ميل للانتفاض على السلطة . وكان الجباة يقطعون من مواسمهم الزراعية ثلثي غلة الارض . فقد بلغ انتاج البلاد في مطلع القرن السابع عشر ٢٨ مليون كوكوز من الارز . وبلغت حصة الشوغون توكوغاوا منها ٨ ملايين ، بينما بلغت غلة كل من مايدا وشيادوز والدات مليون كوكوز . ولم تكن حصة اي حاكم لتقل عن ١٠٠,٠٠٠ كوكوز ، وقال الـ ١٥٠٠ نبيل من حزب فوداي ١٠٠,٠٠٠ كوكوز وكان الحكام يدفعون مرتبات جنودهم ارزاً ، فينال بعضهم احياناً ١٠,٠٠٠ كوكوز ، ومعظمهم ١٠٠٠ كوكوز ، وعدد قليل بينهم يصيبه من ٤٠ - ٥٠ كوكوزاً . اما فلاحو الطبقة الدنيا فكان يصيب الواحد نحو ٣٠ كوكوزاً . ومنع الشوغون توكوغاوا الحكام من انتزاع الاراضي من ايدي الفلاحين بعد ان يكونوا استثمروها لمدة تتراوح بين ١٥ - ٢٠ سنة . وهكذا اعترف القانون على شكل ما ، للفلاح بحق التملك ، الا انه منعه من بيع ارضه .

كل العلاقات الاجتماعية والسياسية قامت على روابط الولاء والتابعة ، هذا الولاء الذي اصبح المثال الاعلى المشترك لكل الطبقات والقاعدة السلوكية الاولى التي شدد النبيل والحاكم الى اتباعه ، وبين المزارع والعامل في حقبة والتاجر والمستخدم في متجره ، وبين معلم الكار والمتمرن على العمل . فالمثال الفروسي الذي عرف باسم *bushido* بعد عام ١٩٠٠ ، ما لبث ان انتشر في البلاد حتى ساد العلاقات بين التجار وافراد الشعب . وهذا المثال كان غني المحتوى ، من ضمنه الدقة والاستقامة ، والاخلاص والنصح والشجاعة لتنفيذ كل ما هو عدل وخير في صالح الضملاء والمفلولين على امرهم ، وهذا الظرف الناعم ، والادب الرهيف ، وكبح اهواء النفس والامانة في الواجب حتى الموت ، تلك كانت المناقبة التي سكان على الجنود والمحاربين ان يتحلوا بها . فعلى الجندي ان يحكم بنفسه على نفسه لذنب اقترفه او لهفوة لطخت شرفه ، وذلك عن طريق المراكيري ، بقر بطنه . فالبوذية بمطلبها المطلق وبخضوعها الهادي المستكين للقوانين في هذا العالم ، والشتوية ينبوع الولاء للسيد ، والداعية الى تقديس الجدود ، والبر البنوي ، والكوفوشية ،

التي تعلم احترام القدامى والرؤساء ، واخيراً فلسفة وانغ - يانغ - منغ التي عرفت باسم Omei والتي لقيت رواجاً كبيراً في البلاد لحضها الناس على العمل ، كل هذه العوامل والعناصر جاءت تقوي من جانب المثالية الفروسيية ، هذه المثالية التي راحت فلسفة تشو - هي تضعها في خدمة الدولة .

لم يستطع آل توكوغاؤوا الخوول دون تطور المجتمع من نظام المقايضة الى الاقتصاد النقدي الياباني . فقد عمل نظامهم على انشاء اقتصاد نقدي في البلاد مع كل ما ترتب عليه من نتائج اجتماعية . فالبلالط الفخم الذي قام في مدينة ييدو ، والاسفار التي كان يقوم بها الحكام بين ييدو وإيلاتهم ، وغير ذلك من العوامل ، شجعت التجار واصحاب الحرف على إنشاء مخازن ومحلات للبيع في عاصمة الشوغون ، وفي هذه المدن الواقعة على طريق الحكام . ولكي يؤمنوا مشترياتهم راح حكام المقاطعات يشجعون على استثمار مناجم المعادن الثمينة . فقد وحد اياسو النقد في البلاد وامر بسك عملة من الذهب والفضة ، واخذ بتشجيع التجار واصحاب الحرف والمهن . كذلك عمل الحكام على التعامل ، اكثر فاكثراً ، بالمعادن الثمينة ، بفرضهم رسوماً تدفع نقداً وعيناً بالفضة ، عن محاصيل الارض غير الارز ، كالشاي واللاك والقطن والتبغ وهي مواد جرى ادخالها الى البلاد في مطلع القرن السابع عشر . كذلك فرضوا رسوماً تجبى نقداً فضة ، على اصحاب البضائع وعلى احجار المطاحن ، وبدلاً عن الخدمة العسكرية ، وغير ذلك . وحاول الحكام والنبلاء ، في آخر المطاف بيع مساكنهم من غلال الارز ، وحذا حذوهم العسكريون العاملون في خدمتهم . واستدانوا على غلالهم وهكذا اصبحت السندات التي يوقعونها لامر ، موضوع تحويل تجاري وتغيير .

وهكذا طلعت في البلاد طبقة جديدة من التجار اخذت تنمو عدداً وتزداد ثروة واثراء ، لا سيما ولم يكن اصحابها ، في بدء الامر ، يخضعون لاي ضريبة او رسم كان ، باعتبار ان غلال الارض وحدها تؤلف مورداً : وهكذا بقيت مدن كثيرة مثل ييدو وأوزاكا وكيوتو ونارا ونواسيمي وغيرها معفاة من الضرائب . واخذ التجار وارباب المهن يؤلفون من بينهم نقابات ، وحصلوا بالشراء من الشوغون ومن كبار الموظفين الاداريين امتيازات حددت من الانتاج ، وعدد المستكثبين والمساعدين وارباب الحرف ، وابقوا الاسعار على مستوى ممكن ، واقاموا احتكارات . وفي بورصة اوزاكا ، اتفق التجار على شراء الارز بالبخس الاسعار في كل انحاء اليابان . وقد سدوا افواه المسؤولين في الحكومة بالهدايا والأعطيات التي كانوا يدفعونها لهم . وعندما كان الشعب يأخذ بالتذمر والتأفف من هذه التجاوزات كانت الحكومة تمعد الى فرض بعض الضرائب والرسوم ، وتفرض تحديد الاسعار والاعلان عنها ، وتصادر المستودعات وتحرم الاحتكارات ، لمدة ثم تعود الامور عودتها الى الماضي من جديد .

في الصين واليابان

بقيت الصين مغلقة في وجه البرابرة طيلة عهد دولة المنغ ودولة تسنغ . فقد رضي البرتغاليون الصينيون ان يفتحوا على طول حدودهم ، بعض الثغور والنوافذ ، كدينقي كنتون وسو - تشيو ، تطل منها وفادات السفراء حاملين الهدايا والخراج الى الامبراطور ابن الشمس . ومثل هذا التأكيد ، زعم فيه الكثير من نسج الخيال . فالاجانب كانوا يلتفون حول سفير مزعوم فيؤلفون جماعة من التجار يستغلون بعض الاعفاءات الدبلوماسية . والهدايا المزعومة لم تمكن بالفعل سوى بضائع وسلع يقايضون بها بضائع غالية الثمن . ولم يكن مثل هذا الوضع يخاف على موظفي الحكومة ، يدركونه جيداً ، اذ المهم عندهم المحافظة قدر المستطاع على سيادة « امبراطورية الوسط » الشاملة *Empire du Milieu* ، كما كانوا يلقبون الصين ، اذ ذلك . اما فتح الصين امام الاجانب على نطاق واسع ، فامر لم يكن وارداً قط في حساب الصينيين ، اذ لم يكن هؤلاء الاجانب الاغراب خليقين باقتباس حضارة الصين ، قطب العالم المتمدين التي لم تر شيئاً عند البرابرة حرياً باقتباسهم .

ففي الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون وجدوا امامهم مكاناً ينفذون منه الى هذا المجال التجاري الممتد بين الصين واليابان وماليزيا والهند الصينية . ففي عهد الامبراطور يونغ - لو (١٤٠٣ - ١٤٢٤) من ملوك دولة المنغ ، بلغت الاساطيل الصينية الخليج الفارسي وشواطئ الصومال . وبعد وفاته حظر اباطرة المنغ ، على رعاياهم ، الاتجار مع الخارج ، والهجرة الى الخارج تحت طائلة الموت ، فرموا ، من وراء هذه التدابير الى تفشيل اعمال القرصنة ، التي كانت تقوم بها عصابات وو - كو ، تألفت معظمها من مجندين يابانيين قدموا من جزيرة كيو - سيو ، فراحوا يفامرون على متن سفن مسطحة الظهر ، قلاعها من الحصر ولها مجاذيف جانبية ، تهاجم مصبات الانهر في الصين . وكثيراً ما استكملوا عدتهم من مساعدين لهم من الملايو والفلبين . وقد عجزت ميليشيا اواي وسفن خفر السواحل الصينية ، عن رد تعديات هؤلاء القراصنة . ولم تكن حكومة الصين لتتوقع اي تعاون او مساعدة من حكومة الطل القائمة في اليابان . وفي سنة ١٥٥٩ تقدمت عصابات وو - كو واصبحت على مقربة من فانكين . وهكذا تمرقت الاعمال التجارية واضطرب حبلها دون ان تتوقف او تنقطع . وكان حكام المقاطعات في اليابان يطعمون جداً في الحصول على حرير الصين وعلى ذهب الصين لشدة الطلب عليها في اليابان . اما الصينيون ، فالاتجار مع الخارج ، لم يمثل سوى جزء ضئيل من نشاطهم التجاري ، وهذه الممارات الصينية الماخرة عباب البحار لم تكن سوى كمية مهمة اذا ما قيست بهذه

الاساطيل التي كانت تقوم بهذه الحركة التجارية على ساحل البلاد الشرقي ، والتي كانت تؤمن الملاحة النهرية . غير ان البلاد والموظفين كانوا دوماً يسعون للحصول على الافاويه والتوابل من ماليزيا ، وعلى غير ذلك من المحاصيل النادرة عندهم ، وعلى هذه الاصناف التي قامت عليها حياة البذخ ، كما ان الصين ، بلاد الذهب الفضلى ، كانت بحاجة كلية لكبة من الفضة المسكوكة نهوضاً باقتصادياتها .

وهكذا استمرت الحركة التجارية فيها تعتمد بالاكثر على الوسائل التالية : السفارات والترخيص والتهريب . فقد رخص الدول التابعة للصين او التي تدور في فلكها ، ان ترسل كل سنة لبكين ، وفادة لتقديم ولائها وخضوعها للامبراطور ، مع الخراج المترتب عليها . وكان السفير يعطى بدووه إجازات ورخصاً توزعها حكومته على تجارها في البلاد . وبهذه الاجازات يستطيعون الدخول الى الصين بعد الخضوع لعملية تفتيش او مراقبة من قبل احدى المراكز الثلاثة المهمة للتفتيش تتألف منها : مكاتب مراقبة السفن البحرية ، المعنية كل منها بمراقبة التجارة مع اليابان ، في مرفأ ننج - بو ومع جزر ريو - كيو في مرفأ تسنغ - شيو ، وفي مرفأ كنتون للسفن المتجرة مع اقطار الجنوب ، اي مع الفلبين وجزر السوند والسيام وكمبوديا . وكان التجار الاجانب يرسون بسفنهم في مصاب الانهر او في الجزر القريبة منها ، ويحشدون بضائهم في غنابر او مستودعات خفيفة . اذ ذاك فقط يسمح لهم بدخول البلاد والتجول في القرى المجاورة للمرفأ دون الدخول للمدينة نفسها . وكان هؤلاء التجار يدبرون شؤونهم الخاصة داخلياً وفقاً لقوانين بلادهم واعرافها التقليدية ، الا انهم لم يكونوا يتعاملون الا بواسطة الاتحادات التجارية الصينيين التي كانت تتولى تحديد الاسعار .

وكان الموظفون الصينيون *Mundurins* المحليون من حكام ونواب الملك يعطون رخصاً باسعار عالية ، لبعض التجار الصينيين للتأجير مع الخراج .

اما عمليات التهريب فكان يؤمنها او يقوم بها اصحاب السفن ومالكوها عن طريق قراصنة الوو - كو وعصاباتهم البحرية ، او عن طريق تجار جزر ريو - كيو او عن طريق الغور او الليكيوس ، عدا البرتغاليين ، الذين كانوا يحاولون على مسؤولياتهم ، خرق الحصار المفروض . وقد كان الغور ، في القرن الخامس عشر اهم العملاء في التأجير مع الصين واليابان

و « اقطار بحار الجنوب » . الا ان شأنهم هبط كثيراً في القرن السادس عشر . وعندما تم لألبو كرك ، الاستيلاء ، عام ١٥١١ ، على مالقا ، امر بان تعاد الى التجار الصينيين والسفن التي كان يحتجزها عنده سلطان المدينة ، كما سمح لهؤلاء التجار ان يتموا بحرية تامة ، عملية تسويقهم . وعاد الصينيون الى بلادهم وكلهم ثناء عاطر وألسنة مدح تلهج بارمحية ال *Folanguis* ، كما كان يسمون البرتغاليين . وقد بلغ البرتغاليين ان التجار الصينيين يحققون من التأجير بالفلفل ارباحاً تبلغ اربعة اضعاف ثمنه بعد نقله الى كنتون ، كما جاء من يؤكد لهم انهم

يستطيعون ان يؤمنوا من الارباح على البضائع والسلع الاخرى من ٢٠ - ٣٠ في المائة . وعلا
بالاوامر . والتعليقات التي تلقاها حاكم مالقا ، قدم جورج الفاريس ، عام ١٥١٤ ، الى مصب نهر
سي - كيانغ حيث تقع مدينة كنتون ، وباع بارباح طائلة ما كانت سفنه تشحن من بضائع
مختلفة . واذ ذاك ، ارسل الملك مانويل - ملك البرتغال ، الى امبراطور الصين ، يطلب اليه
اعطائه ترخيصاً لاقامة وكالة تمثيل تجارية (*Factorie*) على ارض صينية . واضطر السفير
البرتغالي ، توما بيريس الذي وصل كنتون عام ١٥١٧ ، ان ينتظر ، في هذه المدينة ، رد
الامبراطور بالسماح له بالتوجه الى بكين . وحمل البرتغاليون معهم كمية من الفلفل يبيعونه
غالياً . وسمح لهم الموظفون الصينيون ان يبنوا لهم مقراً في جزيرة توان - من ، وهي أسكلة
كان التجار القادمون من مالقا يتوقفون عندها .

الا ان سيمون ده اندراد ، وهو جندي جلف بدون تهذيب ، تصرف عام ١٥١٩ وكأنه في
ارض تخضع لسيادة البرتغال ، فامر ببناء حصن جهزه بمدافع قصيرة لقذف القنابل ، ونصب
مشنقة شتى عليها احد المجرمين ، كما ضرب موظفاً صينياً طلب اليه دفع الرسوم المترتبة على
الاجانب . وعندما وصل بيريس الى بكين ، عام ١٥٢٠ ، اتضح للصينيين بشيء من الدهشة
والاستهجان ، ان اوراق اعتماده لا تنص قط على تقديم الولاء والاحترام ، ولا تأتي على ذكر دفع
الخراج ، وهي عبارات والفاظ استعملتها ، الدبلوماسية الصينية ، اذ ذاك ، بل جل ما تطلبه ،
عقد معاهدة تجارية على قدم المساواة ، مع اعطائهم امتيازاً بانشاء وكالة تجارية لهم . ان قوماً
لا آداب لهم ولا احترام عندهم للرسم المرعية ، لا يمكن ان يكونوا اناساً ذوي اخلاق ، بل
انما هم جواسيس وقراصنة وغزاة ، و « اجانب ابالة » . فاصدر البلاط الامبراطوري امراً
حظر على البرتغاليين ان يطأوا ارض الصين . وقد هاجم الصينيون اسطول دياغو كالفو
الذي تألف من ثلاث سفن كبيرة وثمانية مراكب ، فاضطر البرتغاليون للتضحية بمراكبهم لانقاذ
سفنهم . وفي السنة التالية ، فقد البرتغاليون مركبين ايضاً ، كما ان اربعة سفن اخرى لقيت
صعوبات كثيرة لتتمكن من النجاة . وأرسل توما بيريس ورفاقه مخفورين الى كنتون وزج بهم
في غياهب السجن حتى سنة ١٥٢٤ حيث مات معظمهم من جراء ما لحق بهم من الهوان وسوء
المعاملة التي تعرضوا لها .

وهكذا رأى البرتغاليون انفسهم ، منذ عام ١٥٢٧ ، مرغبين ، على القيام باعمال التهريب
من مدينة كوانغ - تونغ في فو - كيان ، وتشي - كيانغ حيث استطاعوا ، منذ عام ١٥٣٣ ،
ان يقيموا لهم خفية ، علاقات سرية مع بعض الموظفين الصينيين المحليين ومع تجار النبيذ
المحليين . وقد وصلت بعض المهارات البرتغالية بقيادة رئيس - قبطان تحت إمرته سفينة
ملكية . وحبط البرتغاليون في جزيرة موحدة بنوا فيها اكواخاً من القش اقاموا فيها من شهر
تموز الى ايلول ، وانشأوا لهم سوقاً محلياً واخذوا بالتجارة مع السفن الصينية ثم يتوارون بمد ان
يبيعوا منهم ، ما لديهم من الفلفل بسعر معتدل ويشترون موادهم الغذائية بأسعار عالية .

وفي سنة ١٥٤٢ ، التقى ثلاثة من رواد البرتغاليين ، مراراً بمجماعات من الغور الى ان بلغوا ريو كيو . غير ان سكان البلاد الاصليين الذين كانوا يحرسون على بقاء سيطرتهم على الحركة التجارية اساءوا وفادة البرتغاليين الذين استأنفوا سيرهم شرقاً الى ان أطلوا على مشارف اليابان . وفي ٢٣ أيلول ١٥٤٣ ، وصل البرتغاليون الى جزيرة نائية عن أرخبيل اليابان هي جزيرة فانيغا . فقد كان لكشفهم الجغرافي هذا وقع كبير . وفي هذه السنة لم يرجع أحد من التجار البرتغاليين الى مالقا . وفي سنة ١٥٤٤ ، قدمت عمارة برتغالية مؤلفة من عشرة مراكب محملة شحنة حرير ودخلت خليج كاغوشيما . وبذلك ابتدأت هذه الحركة التجارية التي نشطت مجاريها بين مالقا والصين واليابان . ثم جاء الصينيون في أثر البرتغاليين .

كان البرتغاليون ، مع كل هذا ، بحاجة ماسة لقاعدة رئيسية تكون محور نشاطهم التجاري في هذه البحار . ففي سنة ١٥٥٤ ، عقد رئيس قبطان ليونيل ده صوصه ، اتفاقاً شفويّاً مع نائب الاميرال في نهر كنتون ، عندهم معه معاملة السياميين التابعين لامبراطور الصين ، سمح لهم بموجبه بالاتجار . واذ ذاك استطاع البرتغاليون ، باعتبارهم موالين للامبراطور وتابعين له أن يتزلوا ، عام ١٥٥٧ ، في خليج الإلهة أما : أماكاو ، ومن هذه الكلمة اشتق البرتغاليون كلمة مكاو . وقد سمح لهم الصينيون بالبقاء مشرطين عليهم الا يبنوا حصوناً لهم ، وان يقبلوا بدفع الرسوم المترتبة عليهم للعكس . وعندما كانت تصل لهذا المرفأ سفينة من سفنهم يقوم الصينيون للتحال بأخذ مقاييسها وتقييمها لتدفع رسوم الرسوم بنسبة حجمها ، ثم يعملون جردة كاملة بما تحمله من بضائع ووسق ، وما ينوون شراؤه بحيث يتبين للبرتغاليين ما يجب عليهم دفعه رسوماً للاستيراد والتصدير . وقد حالف الحظ البرتغاليين ، فلم يكونوا ليدفعوا عن سفينة سعتها ٢٠٠ برميل سوى ١٨٠٠ تايل *Taels* كرسوم رسو عن اول مرة ، و ٦٠٠ عن كل مرة ترسو فيه فيما بعد ، بينما السفن الاجنبية كانت تدفع ٥٤٠٠ تايل عن كل مرة ، كما ان رسوم التصدير كانت تخفض الى الثلثين . وكان للبرتغاليين حاكم عام برتبة رئيس قبطان يرأس عمارة الملك المسافرة الى اليابان . ولم تلبث المستعمرة البرتغالية في مكاو ان شكلت من ذاتها حكومة بدائية تألفت من قبطان وقاض واسقف مع ما يلزم من شرطة محلية حظيت بموافقة الصينيين ، ولم يعتم بهم الامر ان نالوا من الملك ترخيصاً بانتخاب حكامهم ، ومجلس شيوخ تولى ادارة المدينة . وتمتع بحق الانتخاب في المدينة كل رعايا ملك البرتغال الاحرار المقيمين في المدينة والمتزوجين فيها ومعظمهم من التجار . فقد كان عدد البرتغاليين في مكاو عام ١٥٦٣ ، نحواً من الف شخص وبضعة آلاف من العبيد والخدم معظمهم من الملايو والهنود والافريقيين ، عدا عن ١٠٠٠٠ صيني . وعندما ضم فيليب الثاني البرتغال الى املاكه احتفظ البرتغاليون بموجب اتفاق خاص ، باحتكارهم الاتجار في ممتلكاتهم عبر البحار ، كما نالوا حرية الاتجار مع الفلبين الاسبانية والبيرو واسبانيا نفسها . وفي سنة ١٥٨٦ أقر نائب الملك في الهند رسمياً ، النظام المعمول به في مكاو واعترف بها مدينة . وفي سنة ١٥٩٤ ، حظر فيليب الثاني على الاسبان الاتجار

مباشرة مع الصينيين ، من جهة ، ومع المكسيك والفلبين من جهة ثانية . وهكذا ابعد عنهم كل خطر او احتمال اي مزاحمة من قبل الاسبان . وبالإضافة الى هذه الإعفاءات والمنافع فقد سمح للبرتغاليين الاتجار مع كنتون بدون وساطة الاتحاد التجاري الصيني . وفي سنة ١٥٨٢ ، اجاز نائب الملك في ولاية كوانغ -تونغ ، للبرتغاليين في مكاو ، بعد ان عرفوا كيف يستميلونه بالهدايا الثمينة ، الاتجار مع كنتون . وفي سنة ١٥٨٤ ، عين امبراطور الصين ، النائب العام البرتغالي في مكاو ، « موظفاً Mandarin من الصف الثاني » اي ان النائب العام كان يمارس وظيفته باعتباره قاضياً صينياً وتحت الحماية الصينية . وهكذا فالفترة الممتدة بين ١٥٨٤-١٦٠٢ هي الحقبة التي بلغت فيها مكاو الأوج من الازدهار ، باعتبارها المركز الرئيسي للتجارة المحيطية في الشرق الأقصى .

وبعد تجارب ومحاولات متكررة ، وجد البرتغاليون ، في اليابان ، الميناء الأمثل لسفنهم في ناغازاكي ، الذي اعطى حاكم المقاطعة الآباء اليسوعيين ترخيصاً بالرسو فيه ، فاصبح منذ عام ١٥٧٢ ، المركز الرئيسي للبرتغاليين في تجارتهم مع اليابان . ان محور الحركة التجارية منذ عام ١٥٥٠ ، تمثل في هذه الرحلة السنوية التي كان البرتغال يهيئها ، او يعطي اعفاء بها لرئيس قبطان يتولى قيادة باخرة كبيرة nao الى اليابان . وكانت هذه الباخرة تقلع من غوا بعد ان تزودها السفن البرتغالية القادمة من لشبونة بالبضائع الأوروبية التي كان اليابانيون يرغبون فيها : كالزجاج والبلور والاقمشة الصوفية والنيبذ والساعات والبنادق والانواط والوسمة ، وجلود قرطبة ، والساعات الشمسية والشمعدانات والحمل . وكانت هذه الباخرة تتسوق في طريقها الفلفل من كوشي في الملابار ، والحجارة الكريمة من مالقا والمولوسك ، وخشب الصندال والزنجفر وجوز الطيب والصعفران والعنبر الرمادي والبخور البكر والعاج ، كما كانت تشحن من مكاو : الحرير والذهب الصيني . كذلك كانت تشحن نحواً من ١٠٠،٠٠٠ وزنة من الحرير الخام الصيني ، كل وزنة ٦١ كيلو . وهذا الحرير الخام الذي كانوا يبتاعونه من كنتون ، بسعر ٨٠ تائل ، الوزنة الواحدة ، كان يباع في اليابان بسعر يتراوح بين ١٤٠ - ٦٥٠ تائل ، الوزنة الواحدة . كذلك كانت الباخرة تشحن من ٤٠٠ - ٥٠٠ وزنة من الحرير الملون بسعر يتراوح بين ٤٠ - ١٤٠ تائل الوزنة ، ليجري بيعه في اليابان بين ١٠٠ - ٤٠٠ تائل من الذهب الخام ، بمعدل ٥ تائل ونصف من الذهب في الصين و ٧ تائل ونصف في ناغازاكي . كذلك كانت تشحن : مسحوق الذهب واقمشة قطنية ، والزئبق والنحاس ، والقصدير والرصاص ، والراوند ، والبقم والسكر والقاشاني ، والحرير والاقمشة المزركشة والاطلس والديباج . وكان امراء الهند يحتفظون لانفسهم بقسم كبير من هذه الاصناف ، كما ان قسماً من اللاك والقاشاني كان يرسل الى اوروبا .

والمهم في هذه الحركة هو الفضة اليابانية . ويمكن رسم صورة تقريبية لهذه التجارة ، على اساس مقايضة الحرير والذهب الصيني بفضة اليابان . وكان قسم من هذه الفضة يستعمل لشراء بعض الاصناف في الصين راسماً بذلك حركة دوران بين الصين واليابان ، كما ان جانباً منه

كان يشحن للهند واندونيسيا وكلا البلدين يفتقران دوماً للفضة . وزاد الاقبال على الفضة اليابانية في القرن السابع عشر ، بعد ان هبط وارد فضة المكسيك الى الفلبين ، بعد سنة ١٦٣٠ . ونشط اليابانيون ، بعد اشتداد الطلب على الفضة ، الى استثمار مناجم الفضة في بلادهم ، والتحري عن المزيد منها ، وكان اغزرها إنتاجاً يقع في جزيرة تسو - شيا ، في هذا القسم الأوسط من منحدر هوندو الشمالي باتجاه سيكوك .

وكانت هذه الباخرة تنسم ١٢١٦ برميلا ، وقد سماها اليابانيون « بالسفينة السوداء kouro fume » لها ثلاثة متون واربعة صوار ، وصرح شامق في المقدمة يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق . كانت هذه الباخرة ، تغادر غوا في نيسان او ايار بعد ان تقضي فصل الشتاء في مكار ، فيقوم قبطانها اذ ذاك بدور حاكم المدينة ، تأخذ باستئناف رحلتها نحو ناغازاكي مع الرياح الموسمية التي تهب من الغرب الجنوبي ، في حزيران او تموز من السنة التالية ، فتبلغ ناغازاكي خلال ١٥ يوماً لتغادرها في تشرين الثاني او آذار ، حسب طبيعة شحنها ، مع الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الشرقي ، يقودها ربان برتمالي من الاشراف ، تستعين بأسفارها بآلات الملاحة المستعملة آنذاك كالبيكار والاسطولا ب و « عصا يعقوب » . اما الخرائط الجغرافية فكانت نادرة جداً وسيئة الرسم ، بينما أدلة السفر والملاحة البحرية كانت تفيض بالمعلومات والفوائد ، فتصف بدقة معالم الشواطئ والمراسي والمواني ، ومهابت الارباج والمجاري المائية والتيارات المحيطية .

وتجارة البرتغاليين مع الشرق الأقصى استقلت تقريباً في علاقاتها عن اوروبا التي كانت تصدر القليل ، كما كانت تستورد القليل . ان جالية صغيرة من الاوروبيين كانت تحمل معها الى الشرق الأقصى روح الاقدام والمغامرة وتسلح بتقنيات بحرية وتجارية مستثمرة هذه العدة في شبه استقلال من الوطن الام . والارجح ان البرتغاليين كانوا روح النشاط في هذه الحركة التجارية التي عمر بها الشرق الأقصى ، اذا ما اخذنا مقياساً على ذلك ، مناجم الفضة والنحاس في اليابان ، وهذه الروح النقبانية التي دبت بين التجار الصينيين .

بلغت البعثة الاسبانية برئاسة له غاسي جزيرة سيبو ، في نيسان ١٥٦٥ ، الاسبان في الفلبين وهي جزيرة كان يؤمها في السنة من ١٢ - ١٥ سفينة صينية قادمة من فو - كيان الى مانيلا ، يضاف اليها بعض الزوارق اليابانية موسوقة بالحريز والاقمشة القطنية والقاشاني والقصدير وتعود منها حاملة الذهب والشمع . وكان مسلمو الفلبين وهم السوروي يقومون بدورهم بعملية توزيع هذه المواد والاصناف والبضائع الصينية واليابانية في انحاء الفلبين . وفي ايار ١٥٧١ استولى له غاسي على اهم المراكز التجارية التي كانت بيد المورو في مانيلا كما عرف ان يكسب ويحقق خضوع زعماء الفلبين للسلطة الاسبانية . وقد بدت مانيلا ومرفؤها الممتاز المركز التجاري الامثل للتجار مع اليابان والصين وجاوا وبورنيو والمولوسك

وغينية الجديدة، اذ كان يفصل بين هذه الاقطار المسافة نفسها بالنسبة لمحور مانيلا في اي اتجاه سرت . ونمت علاقات الاسبان بالصينيين مزيجاً وزاد عدد المراكب الصينية حتى ان نائب الملك في فو - كيان ارسل ، عام ١٥٧٤ ، مركباً امبراطوريا واستقدم اليه اربعة موفدين اسبان كلفوا مفاوضته للحصول على مرفأ في فو - كيان والساح لهم بالتبشير بالانجيل ، وكان يرأس هذا الوفد ، الراهب الفرنسي سكاني مارتن ده رادا الذي زودنا باولى معلوماتنا عن ديانة الصينيين . الا انه شجرت اختلافات بين الجانبين دعت لسوء التفاهم ، اذ ان اول حاكم اسباني كان متشاكاً ، جلف الطباع ، وعز الجانب ، انقطعت معها العلاقات السياسية عام ١٥٧٦ ، غير ان الحركة التجارية استمرت كالمعتاد .

وفي اواخر القرن السادس عشر ، كانت سفينة مانيلا ، تغادر مرفأ أكابولكو ، حاملة بانتظام الفضة من المكسيك . وكانت السفن الصينية تأتي في كل سنة الى مانيلا حاملة معها الحرير والنسائج الحريرية والقاشاني والقمح ومعادن الصين لمبادلتها بالفضة . وقد اقام عدد من الصينيين ، تراوح بين ١٠,٠٠٠ - ٢٠,٠٦٠ في ناحية باريان التي تؤلف ضاحية مانيلا . وكان الحرير يشحن من جديد على ظهر سفينة مانيلا ، باتجاه المكسيك ومنها باتجاه اوروبا . وقد تناولت هذه التجارة كميات كبيرة اخذت تزداد سنة فسنة حتى سنة ١٦٣٠ . وكان للعملة الفضية الاسبانية ، ولا سيما للريال منها طلب كبير في الصين . وكان يرد منها ، كل سنة ، عن طريق المكسيك بقيمة مليون بيزوس ، بحيث ان الاسبان كانوا يحققون من الارباح ما يتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ ٪ ، وهكذا كانت السفن الصينية تفد بكثرة على مانيلا ، وبصورة تصاعدية اذ جاء منها ست ، عام ١٥٧٤ ، و ١٤ - ١٥ سفينة عام ١٥٨٠ ، و ٣٠ كمعدل وسط لهذه السنوات بين ١٥٨٠ - ١٦٠٠ ، و ٥٠ عام ١٦٣١ .

أحدث دخول الهولنديين الحلبة التجارية في هذه المنطقة اضطراباً كبيراً وادخل عليها تغييراً عظيماً . وصلوا الى مكاو ، لأول مرة ، في ٢٧ ايلول ١٦٠١ ، ومنذ عام ١٦٠٦ راحوا يفرضون الحصار على مضائق مالقا وبذلك كادوا يقطعون الاتصال بين مكاو وغوا . وقد ادركوا ، بعد تحريات قاموا بها ، سر النهج او الاسلوب الذي سار عليه البرتغاليون في تجارتهم مع بلدان الشرق الاقصى ، فأسسوا عام ١٦٠٩ ، وكالة تجارية لهم في فيرنندو ، وهي جزيرة صغيرة ترتبط بجزيرة كيو - سيو . الا انهم رأوا انفسهم مضطرين للاعتقاد على التهريب واعمال القرصنة للحصول على حرير الصين ، فهاجموا مكاو عام ١٦٢٢ الا انهم ردوا عنها خاسئين بخسائر عظيمة ، واذ ذاك حاولوا ان يقطعوا مكاو عن اليابات ، ومانيلا عن الصين . فاحتلوا ، في هذا السبيل ، ارخبيل بسكادور وتقدموا من الصينيين بطلب السباح لهم بطلب الاتجار مع فو - كيان عن طريق تنغ - بو . فسمح لهم الصينيون بالنزول في فورموزا والاقامة في تيوان . واستطاع الاسبان من جهتهم ان يستعيدوا علاقاتهم مع فو - كيان ، باحتلالهم ثان - شواي الى الشمال من فورموزا .

وفي سنة ١٦٤١ ، استولى الهولنديون على مالقا كما استولوا عام ١٥٤٢ على فان - شوي ، وهكذا أصبحوا يسيطرون على المواصلات بين الصين واليابان .

لم تلبث هذه الحوادث ان تركت اثرها البعيد ، اذ غيرت وبدلت كثيراً في علاقات البرتغاليين مع اليابانيين . ف منذ ١٦١٨ ، استبدلوا باخرتهم الكبرى *Nao* السريعة العطب باسطول مين السفن الصغيرة ، الخفيفة الحركة ، تراوحت سعة السفينة بين ١٠٠ - ٣٠٠ برميل . واشتدت حاجة البرتغاليين للنحاس ليستعملوه لصب المدافع وضرب العملة النحاسية لتسهيل اعمالهم التجارية مع الجزر ، بعد ان اخذت الهند والصين تلتهمان الفضة ، وبعد ان تناقصت تدريجياً كمية الفضة المستوردة من العالم الجديد . فقد كان بالامكان الحصول على نحاس اليابان عن طريق مانيل . وكان سكان مكاو بحاجة ماسة للمصنوعات الاوروبية التي لم تعد لتصلهم عن طريق غوا ، انما تيسر توفيرها عن طريق مانيل . ولذا راحوا ينمون علاقاتهم مع القاعدة الاسبانية . وقد كان سبق للاسبان ان اعتمدوا ، بالرغم من اوامر الحظر ، على مكاو في تلبية حاجتهم للحبر . وكانت السفن الاسبانية تقترب من المرفأ بحجة امتياز الماء والتزود منه وشراء المتاد الحربي . فكانت زوارق مكاو تأتي ليلاً ناقلة اليهم الحبر والاقشة الحربية من الصين . وقد وصلت الحركة التجارية في مانيل الى الاوج بين ١٦٠٢ - ١٦٢٠ ، وهكذا أصبحت مانيل قاعدة اساسية لا بد من الاعتماد عليها في تصدير الحبر والالبسة الحربية من الصين نحو اكابولكو ومكسيكو وفيراكروز واسبيلية . وبقيت في ازدهارها هذا حتى سنة ١٦٤٠ .

عرف سكان مكاو ان يفيدوا كثيراً من نمو الاقتصاد النقدي في اليابان وتطوره السريع تحت تأثير التجارة الاوروبية ، ولم يكن بوسع اوائل الرأسماليين اليابانيين ان يستخدموا مباشرة وبانفسهم اموالهم في التجارة مع الخارج ، اذ كان يقتضي لهم الحصول مسبقاً على ترخيص بذلك من الشوغون ، وهو ترخيص من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الحصول عليه ، كما انه حظر على اليابانيين ، بعد سنة ١٦٣٦ ، الخروج من اليابان للانقطاع للاعمال التجارية . ولهذا عهد حكام كيو - سيو وغيرهم من بعض حكام المقاطعة الجنوبية باستئجار اموالهم الى بعض تجار مكاو الموثوق بهم ، لقاء فائدة تراوح معدلها بين ٢٥ - ٥٠ ٪ وبدلاً من ان يستخدم تجار مكاو اموالهم الخاصة في هذه الاعمال التجارية ، اخذوا ، اكثر فاكثراً ، يعولون على رؤوس الاموال اليابانية .

والحال ، فقد اقتصرت الحكومة اليابانية ، البرتغاليين ، في بدء الامر ، على الاتجار مع جزيرة دسما . ثم اخذت منافسة الهولنديين ومزاحمتهم لهم تعنف وتشتد . فقد استورد الهولنديون عام ١٦٣٦ الى اليابان ، ١٤٢١ وزنة من الحبر ، بينما لم يزد ما استورده منه البرتغاليون ، في تلك السنة ، على ٢٥٠ وزنة . فقد استطاع الهولنديون ، فعلاً ، بعد ان تم لهم النزول في فورموزا واقامة وكالة تجارية لهم في تيوان ، ان يحولوا نحو مرفأهم ، عن طريق فو - كيان ، جانباً كبيراً من الحبر الصيني الذي كان يصدر من قبل ، الى كنتون ومكاو . ومع ذلك فقد

استطاع البرتغاليون ان يعودوا من اليابان ومعهم من الفضة ما يعادل ثمنه ٧ ملايين فلورين ، بينما عاد الهولنديون باربعة ملايين لا غير ، وفقاً لتقديرات الهولنديين انفسهم . ومع ذلك ، فالنشاط الذي بعثه الاوروبيون في هذه الحركة التجارية ، عاد بالفائدة الكبرى على الآسيويين انفسهم بعد ان ساروا في اثرهم واحتذوا حذوهم . ففي عام ١٦٣٦ ، جاء اليابان اربع سفن برتغالية و١٢ سفينة هولندية ، بينما كان يصلها ، كل سنة من ٥٠ - ٦٠ سفينة صينية قادمة من مرافئ ننج - بو وفو - تشيو ، واموي وكنتون .

اخيراً ، بعد ان اوجس الشوغون خيفة من المرسلين ومن تأثيرهم السياسي على البلاد ، طرد عام ١٦٣٦ ، السفن البرتغالية . ولم يسمح لها بتفريغ شحنها . ثم امر بإبعاد كل البرتغاليين من اليابان حتى من جاء من اولادهم بالزواج من برتغالي ويابانية . ومنذ عام ١٦٤٢ ، سمح للهولنديين وحدهم بالتعامل مع جزيرة دشيا والاتجار مع اليابان ، هذه الجزيرة التي كانت غماد الحركة التجارية في بحار الصين ، وبذلك كادت هذه البحار تغلق في وجه الاوروبيين .

ففي سنة ١٦٤٠ ، ثار البرتغال في وجه اسبانيا وانضم سكان مكاو الى جانب ملك البرتغال الجديد ، مما سبب انقطاع العلاقات التجارية بين مكاو ومانيل ، وانخفاض بالتالي المنسوب التجاري بينهما ، الا ان مانيل عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع سواحل فو - كيان . غير ان هذا الحادث السياسي وانهار انتاج الفضة في المكسيك والمنافسة الشديدة التي قامت في وجهها من قبل الهولنديين وضع حداً للدور العظيم الذي طلما مثلته كوسيط بين الصين واوروبا .

ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر ، يتوزع النشاط التجاري ، بين اوروبا والصين ، على اكبر الدول ، كما اخذ نطاقه ، كما يبدو ، يضيق اكثر فاكثراً . ان اقبال اليابان في وجه التجار الاوروبيين خفض كثيراً من اهمية الحركة التجارية ، في هذه البحار . فلم يعد يسمح للهولنديين ان يدخلوا اكثر من سفينتين الى اربع سفن في السنة بعد ان بلغ عدد السفن من قبل ١٢ سفينة ، ثم جاء طردهم من فورموزا عام ١٦٦٢ على يد القرصان كوكسندا ، وفقدوا مراكزهم المتعككة بالحركة التجارية بين كنتون وماغازاكي ، وبين ننج - بو ومانيل . اما الاسبان فقد وفقوا ، عام ١٦٦٩ ، الى عقد اتفاق تجاري مع دولة تسنغ ينظم الحركة التجارية بين مانيل وكنتون وننج - بو . وهكذا اُطرد قدوم السفن الصينية الى مانيل . الا ان ندورة الريال الاميركي احدث رجّة وهبوطاً في مستوى الحركة التجارية .

اما الانكليز فقد قاموا من جهتهم بعدة اسفار ، كالرحلة التي قام بها هنري بونفورد الى مكاو ، عام ١٦٣٦ . وقد شعرت الشركة الانكليزية للهند الشرقية طويلاً بضغبتها حيال النهوض باسباب التجارة مع الصين . والراجح ان الشركة المذكورة حاولت في اواخر القرن ان تنظم تجارتها مع الصين ، اثر اشتداد الطلب على الشاي في انكلترا . ومنذ عام ١٦٩٩ ، اخذت الشركة تقوم برحلات منتظمة . ونالت عام ١٧٠٠ ترخيصاً لها بفتح وكالة لها في كنتون .

اما الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، التي تأسست بفضل مساعي الوزير كولبير ، فقد حصلت على حق التجارة الفرنسية مع العجم والصين . الا ان اهتمامها انصرف بالاكثر ، الى الهند ، وتحملت عام ١٦٩٨ عن احتكارها المتاجرة مع الصين . وفي هذه السنة بالذات اسس الصناعي الباريسي الكبير جوردان الذي كان يعنى بصناعة البلور « شركة الصين » وذلك نزولا عند مطلب المرسلين وبمبحثا عن الاموال اللازمة للارساليات الدينية . وتألفت الشركة من تجار باريسيين واعضاء البرلمان ، وقامت الباخرة أمفريت بأولى رحلاتها ، الى الصين ، عام ١٦٩٨ / ١٧٠٠ ، وعادت حاملة شحنة من الحرير الخام والاقشة الحريرية عادت عليها بربح وافر بحيث وزعت على المساهمين حصصا بلغت ٥٠ ٪ من رأس المال . وانضمت الشركة الى شركة اخرى في سان مالو ، واستؤنفت الحركة التجارية مع مكاو واموي ، ولا سيما مع كنتون ، بالرغم من بعض التغييرات التي لحقت بالشركة في فرنسا . الا انه صدر منذ عام ١٧١٣ قرار بمنع استيراد الحرير الصيني منعاً لمنافسته الحرير الفرنسي . ومنذ ذلك الحين دب الوهن الى الشركة الفرنسية .

وقامت الباخرة سانت انطوان ، عام ١٧٠٨ بالالتفاف حول اميركا، وجاءت والقت مرسها في مدينة كونسيبسيون في الشيلي ، ومنها بلغت الصين عن طريق بحار الجنوب . وحذا حذوها سفن كثيرة بعدها .

سجل تاريخ الحركة مع الصين ، منذ سنة ١٧٠٠ ، طلوع حقبة جديدة اذ لقي كل الاجانب استقبالا حاراً في كنتون ، مع انهم أقصروا على التعامل مع الصينيين بواسطة فريق معين من تجارهم ، عرفوا باسم *Hunistes* بينما وجدت اوربا نفسها في ازمة من التأخر والقهقرى التي طبعتم الحركة الاقتصادية ، في القرن السابع عشر . فالحكومات الاوروبية انهمكت ، بل غرقت في هذه الطروب الواسعة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر ، ولا يتهالك المراقب المنصف نفسه من الشعور بالتفتت والتأخر .

اما من البر ، فما زال الروس في تقدم مطرد . فقد فضل بينهم وبين الصين في آسيا حاجز من القبائل البدوية الرحل . الا انهم اصطدموا بالصينيين ، في الشمال الشرقي من منغوليا . فبعد ان قام الروس باستكشافاتهم الجغرافية في حوض نهر العامور على يد رحالتهم بوياركوف (١٦٤٣ - ١٦٤٦) ، اسسوا ، على النهر المذكور ، قلعة البازين عام (١٦٥١) . اما الصينيون ، فقد حرصوا من جهتهم ان يبقوا تحت اشرافهم المباشر ، المشارف المطلة على الصين من الشمال . ففي سنة ١٦٨٥ ، تمكنوا بواسطة ٢٠٠ مدفع صلبا لهم الآباء اليسوعيون ، مقابل ثلاثة للروس ، من الاستيلاء على نرشنسك ، واعملوا فيها النار وانسحبوا منها . وعاد الروس الى احتلال هذه المدينة ، عام ١٦٨٦ . وقام الصينيون يحاصرونها من جديد ، بالرغم مما قام بين الجانبين من رغبة صادقة في اقامة اتفاق سلام دائم . فصينيو الشمال كانوا بحاجة للفراء ، وفي مقدور سيبيريا ان توفر لهم من الفراء الجميل ، ما لا قبل لمنشوريا ومنغوليا بتقديمه . كذلك رغب

الروس ، من جهتهم ان يوطدوا صندوق دولتهم ، بالمعادن الثمينة ، عن طريق بيع الفراء . وكان الروس يجولون اللغة المنشوية والصينية كما كان الصينيون ، يجولون ، هم ايضا ، الروسية . فاستخدموا ترجمانا فيما بينهم ، راهبا يسوعيا في بكين يدعى الاب خربيلون وفي ٦ ايلول ١٦٨٩ ، وقع الطرفان معاهدة نرشنسك ، تخلى الروس بموجبها ، عن حوض نهر العامور للصينيين ، لقاء اطلاق الحرية لرعاياهم بالتجارة في الصين ، بعد تزويدهم بما يلزم من الترخيص القانوني . وهكذا امكن للروس ان يعيشوا كل سنة بقافلة الى بكين . فكانت هذه المعاهدة اول معاهدة تمقدها الصين مع دولة اوروبية .

كل هذا النشاط التجاري لم يتناول ، نسبيا ، سوى مقادير طفيفة من البضائع والسلع اذا ما قارناه بالنشاط العارم الذي سجلته التجارة العالمية في القرن العشرين . فقد انقطع لهذا النشاط عدد من الاوروبيين قضوا معظم حياتهم العاملة ، في الشرق الاقصى ، بينما عرف فريق آخر بينهم ان يحقق ارباحا وافرة . عادت هذه التجارة ، على اوروبا ، بنتائج لا تتكرر ، اذ ضمنت لها وصول الفضة سبائك او نقدا مسكوكا ، جاءها بالاخص ، من الصين وجزر السوندي ، وساعد على توفير كميات المعادن الثمينة في اوروبا وساعد على تأزم الوضع الاقتصادي ، خلال الضائقة التي نشبت اظافرها في القرن السابع عشر .

اما في آسيا فالنتائج التي ادت اليها هذه الحركة التجارية ، كانت اكبر أثرا وابعد شأنا واهمية . فقد لعب الاوروبيون ، في هذا المجال ، دور المثير المحرض ، فعاد ذلك بالنفع على الصينيين اليابانيين وسكان الفلبين والمالو . وكان من نتائج هذه الحركة ، كما يرجح العارفون ، إدخال الاقتصاد النقدي الى اليابان بعد عام ١٥٦٩ ، وما ادى اليه توفر النقد من نتائج اجتماعية هامة . الا ان نمو التجارة البحرية وظهور بورجوازية قوامها التجار دليلان مهمان على ما كان لهذه الحركة من شأو بعيد . ومع ذلك فلم تحدث اي تغيير ملموس في حضارات الشرق الاقصى ولا في الحضارة الاوروبية ولم تحل الازمات الاقتصادية التي وقعت في العالم الجديد وما ادت اليه من تقلبات ، من تأثير ظاهر على الوضع الاقتصادي في الشرق الاقصى ، ومن الشرق الاقصى على اوروبا . وهكذا اصبح بالامكان التحدث عن اقتصاد عالمي ، تناول العالم بأسره .

٣ - التبشير بالمسيحية في اليابان والصين

في كانون الأول ١٥٤٧ ، قدم بحارة برتغاليون ، لدى التبشير في اليابان وفلسفة الأنوار عودتهم من اليابان ، الى فرنسو كسافيه ، قرصانا يابانيين من جنود المرتزقة ، اسمه ياجيرو ، أخذته الندامة على ما اقترفت يدها من معاص وموبقات . فلم يعرف كهنة بلاده ان يؤمنوا له راحة الضمير وهدوء البال ، عندما طلب اليهم مساعدته . فلحقه فرنسو كسافيه اصول الدين المسيحي ، وعمده في مدينة غوا ، في العاشر من ايار ١٥٤٨ ،

يوم عيد النصر بالذات ، وسماء بالعاد : بولس ده سانتافيه ، فكان فاجيرو بذلك اول ياباني يعتنق المسيحية ، ولأول مرة أيضاً وجد فرنسوا كسافيه أمامه انساناً شرقياً يناقشه ويحاده مبدئياً فرقاً عظيماً بين وضعه ووضع هؤلاء الهنود الذين يتقبلون بلا مبالاة ما يلقي اليهم من تعاليم جديدة ، وبين حقد المورو في الفيليبين واعراض البراهمان في الهند ، بحيث تُخيل الى فرنسوا كسافيه امكان قيام مسيحية في اليابان يمكن ان تقوم بأمر الرسالة ونشر الايمان بين الآسيويين في الشرق الاقصى . وقد ذكر فاجيرو بطيبة قلب ، وبدون أنانية مبطنة ، بعض التفاصيل السطحية جعلت فرنسوا كسافيه يتصور ان ديانة اليابان قريبة من المسيحية وان امر اعتناقهم للتعاليم المسيحية سهل التحقيق ، قريب المعنى .

والحقيقة انه قام بين المسيحية والديانات اليابانية كالشنتوية والبوذية هوة سحيقة بعد ان تمثلت الأولى ، الكون ، مليئاً بالوف الأرواح *Kami* تسرح في الشمس والقمر وتوجد مع الريح والعاصفة وفي الينابيع والجاري المائية والصخور والأشجار وغيرها . وبين هؤلاء الأرواح *Kami* أرواح الأبطال والجدود الأول لنبلاد البلاد واشرافهم . وهذه الأرواح طغيات تقوم على مراتب سلسلة ، زعيماتها إمامتيراسو إلهة الشمس . فقد ارسلت نينسي نوميكوتو ، جد جيمو - قنوّ ، اول امبراطور قام في اليابان . وتتم للناس السيطرة على هذه الأرواح بالصلاة والطهارة والتطهيرات الطقسية وتنفيذ الوصايا الخمس : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزني ، لا تجزع للأمراض التي لا دواء لها يُستطب به ، والصفح عن اهانات الغير .

أما البوذية فكانت على مذهب مهّيانا الذي جاء من الصين في القرن السادس ، الذي امتص الشنتوية وتمثلها ، إذ قال وعلم ان الأرواح هي مظاهر وأشكال آنية لبوذا . وتفرّع عن البوذية عدد لا يحصى من الملل والنحل ، امها آنذاك ، من الوجهة الاجتماعية والسياسية ، مذهب إيكو *Ikko* وهوكيه *Hokke* وزن *Zen* . اما أتباع مذهب إيكو وهوكيه فقالوا ان الخلاص انما يحصل باستحقاقات بوذا . ويكفي المؤمن في مذهب إيكو ان يستهل ولو مرة واحدة لبوذا - اميدا ، بإيمان حار وصادق برحمته وحنانه ، لينال بنعمته وشفاعته : « الأرض النقية » حيث ينعم بالفيض الاشراقي . فالخلاص هو ايضاً من نصيب افقر الناس واوضعهم حالاً إذ يكفي له حركة بسيطة من حركات القلب . وقد قامت هذه الطائفة اساساً بالمساواة ولم يكن لها من طقوس ومراسم ، ولا كهنة عندها ، اتباعها من طبقات الشعب الدنيا ولا سباً من الفلاحين والمزارعين . اما طائفة هوكيه *Hokke* ، فالخلاص لدى اتباعها انما يحصل بتلاوة صلاة معينة ، تلاوة متصلة بخشوع « تكريم لوتس الحقيقة الكاملة » التي على يدها تم الحقائق المعلنة في كتاب الشاكا . وتزى في المريد او التابع ، نفس بوذا الكونية الخالدة . وكان بإمكان هذا المذهب ، ان يعيد ، ببساطته ، الوحدة بين اليابانيين ، وان يؤمن القوة للدولة . ولذا فطائفة الهوكيه التي كانت لها اتباع كثيرون ، بين الشعب ، كانت بمثابة ديانة اليابان القومية .

اما طائفة زن فقد فرضت على اصحابها ان يستجمعوا تفكيرهم ، حول تعاليم بوذا ، في

محل منفرد أو دير يعرف باسم *Zendo* أو « بيت التأمل » ، وهناك يحاول ان يتجرد من احواله ورغائبه بالزهد والتعشق والطاعة . فهو يضرع ويتأمل بحيث يذوب او يفرق في « الفراغ » ، في المطلق ، غير ان مذاهب المنطق ومصطلحاته وصيغته تفقدنا قسماً من الحقيقة فتحجرها وتقتلها . فالهمم في الدرجة الأولى الحصول على الحقيقة ، الحية ، النابضة ، والوصول الى المطلق في هذه الكائنات الخاصة ، وفي الحال ، عن طريق الاكتناء . وإذ ذاك يتم الفيض فجأة ، وبلمحة طرف يرى المؤمن العالم كما كان يبدو لهوذا سكياموني نفسه ، وبذلك ، يرى نفسه متحرراً : فما من شيء يزعبه او يقلق خاطره . وهذا المؤمن لا يمكن ان ينعم بهذا الفيض إلا بالمجاهدة الشخصية . اما قدرة المعلم زن فتقوم في ان يقسط له الـ *koan* ، بحيث يتجاوز بعبداً ، كل مظاهر الفكر الى ان يتبين للمؤمن ما في الألفاظ والكلمات من خواء وفراغ اجوف .

اما الكوان فهو صيغة او وضع فوق تناول المنطق وادراك العقل . فمتدما يسأل المؤمن : « من هو بوذا » يجيبه الربان زن : « الخيزران ينبت قريباً من الهضبة » . فالقصد الذي يرمي اليه المعلم او الربان هو ان يصطدم المؤمن بالكوان ، الى ان يتبين ، فجأة ، خواء صيغ الفكر والفراغ القائم وراء تراكيب وصيغ النعوم والمنطق الصوري ، وكل اشكال الفكر ، الى ان يتألق للنور سوله ، وتبدو له الحقيقة . بعد هذا الفيض يعود المؤمن الى الحياة في العالم ، بين الناس ، ويمتثل بحياة المجتمع ليبلغ النضج باتيانته اعمال البر والتقوى وبمحاولته ، في كل دقيقة ، ان يرى مآجريات الحياة المادية كما يراها بوذا نفسه . وهكذا يختلف صاحب مذهب زن عن الهندسي اليوغني من حيث ان هذا الأخير ينقطع للوحدة والتسك لينوب في المطلق عن طريق الخطف الذات . صحيح ان القائل بمذهب الـ زن يحاول ، هو الآخر ، الدوبان في المطلق ، انما عن طريق العيش في العالم ، وعن طريق السلوك الشخصي بواسطة الرؤية الشخصية . وهكذا فطائفة الزن هي المدرسة الفردية التي انتشرت بالأكثر ، بين النبلاء والعسكريين .

وبدون ان يغلطن لشيء من هذه الأمور التي تلبس التركيب الديني في اليابان للصعوبات التي تنتظره من جراء هذا الوضع ، سخط فرنسوا كسافيه رحاله في ١٥ آب ١٥٤٩ ، في الطرف الجنوبي من جزيرة كيوسيو اليابانية في خليج كاغوشيما ، وبصحبه فاجيرو والآباء الاسبانيون كوسم ده توريس وشوان فرنانديس . وراح فاجيرو يخبر الحاكم شيازو تاكاهيا ، في مدينة كوكوبو ، بالفرنسوا كسافيه من شأن رفيع ومزلة عالية لدى البرتغاليين ، فراح هذا يأمل ان يفتح التجار البرتغاليون الى مرفئه ، عن طريق كسافيه وتجريسه لهم . واصدر في الحال أمراً اجاز فيه لرعاياه اعتناق الديانة المسيحية . واخذ فرنسوا كسافيه بالتبشير ، الا انه لم يلبث ان تبين انه راح ضحية الوهم والخيال : فالكنية يؤمنون بعالم لا بداية له ولا نهاية ، وانهم لا يقولون بخلود النفس الشخصية ، كما اتضح له ان اليابانيين ألفوا عملية الاجهاض وقتل الاطفال ، وانهم ممن اصحاب اللواط وعبادة الاصنام . فلم يكن لهم اية فكرة عن خلق العالم ، ولا أي رأي او فكرة عن الخطيئة . وهكذا رأى نفسه ، بعد سنة واحدة ، بذل منها من الجهد ما بذل ، انه لم يستطع

ان يكسب للمسيحية التي جاء لنشرها ، سوى مائة شخص لا غير .

وفي هذه الغضون ، وصلت سفينة برتغالية الى هيرادو الواقعة الى الشمال الغربي من كيوسيو .
وإذ راح شيازو تاكاهيا يتبرم متأففًا ، صارحه المرسل الكاثوليكي ان لا سلطة له على التجار
البرتغاليين واذا ذاك ، اصدر هذا الحاكم اوامره لرعاياه بالامتناع عن التنصر تحت طائلة عقوبة
الموت ، كما حظر على المرسلين الاقتراب من مقاطعته او العمل فيها .

وفي تشرين الأول ١٥٥٠ جرى استقبال حار لفرنسوا كسافيه في هيرادو من قبل الحاكم
ماتسودا تاكانوبو ، أملاً منه ان يكون ذلك حافزاً على تمثين علاقاته مع التجار البرتغاليين .
وسمح لكسافيه بالتبشير بالمسيحية في إيالته . ومن هناك اتجه فرنسوا كسافيه لمقابلة الامبراطور
في كانون الثاني ١٥٥١ أملاً منه بالحصول على ترخيص له بالتبشير بالمسيحية 'بمعمل بموجبه في كل
اليابان ويصلح للتبشير دونما معارضة في أي مكان . وكم كانت دهشته عظيمة اذ انضح له ان
الامبراطور لم يكن سوى مسكين يلبو ببيع المراتب والالقاب الشرفية . ثم حاول ان يقابل
الشوغون ، فراح الحرس يرد بعيداً هذا الزائر الطارىء الذي يرتدي الاسمال والثياب الرثة .

واذا ذاك قرر فرنسوا كسافيه انتهاز نهج جديد في رسالته التبشيرية . ان فقره وعدم مبالاته
بالاهانات التي كان البعض يلحقها به حملت الناس على الاستهانة به والسخر منه وتلقيه القاباً
'هزأ فيعرضوا عن الديانة التي يبشر بها ويدعو الناس اليها . فارتدى آنشد زياً جميلاً من الحرير
الثمين وراح مهاجم الهازئين به ويرد على تحركاتهم بالسوء عليه . واذا انضح له ان اقوى اسما
اليابان وامراتها هو النبل الحاكم اوشي بوشيتاكا ، حاكم سوفو ، قصده في قصره في ياماغوشي ،
على ساحل البحر الداخلي . وقد رجا هذا الزعيم ان تسهل له هذه الزيارة اسباب الحصول ، من
البرتغاليين ، على الذهب والاسلحة النارية ، ولذا رخص لفرنسلين اليسوعيين بالوعظ والتبشير
والتنصير ، وقد وجد فرنسوا كسافيه في ياماغوشي بلاطاً ذواقه عالي الثقافة يحب اهل الجسد
والنقاش ، فارتفع منزلته بينهم ويزداد نفوذاً واستمراماً لدى القوم لمولمه الوافرة ولمعرفته علم
الفلك . وبفضل إنقائه لمنطق ارسطاطاليس واخذة بالقياس بوقع البلية في قلوب محاوريسه
ومجادليه ويجعلهم يتخبطون في بحر من المتناقضات والفساس والثرهات ، لم يعرفوا لهم منه
مخرجاً . واخذ فرنسوا كسافيه يزداد شعوراً ويتحسس على ضوء اتصالاته هذه ، الفرق بين
الديانات اليابانية وبين الديانة المسيحية . فقد ترجم كلمة ' الله ' بكلمة : داي نيشي : ' مبدأ
الكائنات ' . كذلك تبين له ان كلمة ' الاصل الاول للانس ' لا تعني الله
الحالق او المبدع ، بل انما تعني عندهم ' الهبولى ' التي تفسح تحت الحواس . واذا
ذاك انطلق من فلسفة طبيعية صرفة ، وبرهن عن طريق العقل ، عسـن وجود الله الشخصي
وعن خلقه العالم ، وعن خلود النفس البشرية .

فاحتج عليه اليابانيون قائلين : ' اذا كان الله خيراً هو ، فما معنى هذا الشر الذي نراه امامنا

على الارض ؟ فاجابهم قائلا : ان الله كلي الكمال . فكل ما ليس في الله لا يمكن له ان يكون كاملا ، والا اختلط بالله وامتزج به . فالشر في العالم ، على عكس ذلك ، دليل على وجود الله الخالق الشخصي . وهكذا نرى فرنسوا كسافيه اخذ يبشر بوحدانية الله على نور العقل بقطع النظر عن الوحي الالهي . ولما كان مشبعا بتعاليم الرسول يوحنا فقد ظن ان المسيحية ستتبع من ذاتها فيما بعد . وراح يعمد يابانيين لم يكلمهم قط عن يسوع المسيح ، وبعد العماد كان يظلمهم على لب العقيدة المسيحية ، ورسالة السيد المسيح ، وسرّي التجسد والغداء والصلب . وهذا المنهج هو الذي عول عليه المرسلون اليسوعيون فيما بعد ، في كل انحاء الشرق الاقصى ، كما في اوروبا ، وربما طبقوه في جامعاتهم في اوروبا ، اذا ما اقتضى الأمر . أفلا تصبح الديانة الطبيعية مبدأ الايمان بالله مجرداً عن الوحي ، اصل فلسفة الانوار .

ومهما يكن ، فقد توصل فرنسوا كسافيه ، منذ تموز ١٥٥١ للحصول على ارتدادات بين حكام المقاطعات وبين النبلاء وبين سادات البلاط والمفكرين . وبالرغم من جهوده ، فقد حصل بعض التشويش من جراء تأخره في البحث عن الخصائص المميّزة للديانة المسيحية باستعماله بعض المصطلحات اليابانية ومن بعض التشابه الخارجية . فقد خلط تلاميذه بين « الرياضة الروحية » التي عليها اغناطيوس ده لويولا وبين تأملات زن ، وانزلوا صلاة الوردية منزلة الزوزو التي تتألف من ١٠٨ حبات اشبه ما تكون بالسبعة ، كذلك خلطوا بين هذه التعاويذ الحربية التي تحتوي في داخلها صلاة بوذية وبين حجبات فرنسوا كسافيه التي كانت تضم آية من آيات المزامير . فقد رأى فريق لا يستهان به من المرتدين ان المسيحية انما هي شكل جديد او صيغة جديدة من صيغ البوذية .

وأخر حجة عند كهنة اليابان على عدم صحة المسيحية هي عدم اعتناق الصينيين لها وعدم اخذهم بتعاليمها . ولذا توجه فرنسوا كسافيه نحو الصين ، في تشرين الاول ١٥٥١ ، بعد ان اقام تقريبا ٣٠ شهرا في اليابان . فقد كان من إشباع ايمانه وشدة تأثيره على روح المسيحيين في اليابان ان بعد مائة سنة تمر على وفاته ، كان الشهداء اليابانيون ، يضرعون ، وهم يقاسون عذابات الاضطهاد الوائء ، ويتوسلون وهم في حشجة الموت ، الى القديس فرنسوا كسافيه .

خلفه في رئاسة العمل الرسولي ، الاب كوسم ده توريس ، من ١٥٥١ - ١٥٧٠ ، واستمر التبشير بالانجيل في هذه المرافىء التي كانت تؤمها السفن البرتغالية . وقد يكون الآباء اليسوعيون هم الذين نظموا ، عن طريق السلطات البرتغالية ، الرحلة السنوية الى اليابان ، بعد ان طلبوا ممن يبدم الحل والربط الا ترسو السفن البرتغالية الا في هذه المرافىء الواقعة ضمن المقاطعات التي اجاز حكامها التبشير فيها بالمسيحية ، امثال : اوتومو بوشيا في فوئاي ، واوشي يوشيتاكا في سوفو ، ومتسورا تاكانوبو في هيرادو . فالرغبة في التغلب على منافسه ، حملت حاكم مقاطعة اومورا سوميتادا ، على اعتناق المسيحية ، عام ١٥٥٣ ، كما حملت خصمه ومزاحمه حاكم أريما على الحدو حذوه . كذلك نجح اليسوعيون في تحقيق ارتدادات في مقاطعات غوكيناي وفي

مناطق اوزاكا وساكاكي وكيوتو وفي جزيرة هونشو . وقد حاول حكام الحصون في هذه المقاطعات ، ان ينتزعوا مع ما لديهم ، من رهبان اديار البوذية ، بعد ان اختلفوا معهم ، ما كان لهم من نفوذ وسلطة على الفلاحين والجنود .

كانت النتائج التي توصلوا اليها ، سريعة العطب ، واهية . ففي هذه الفوضى التي تتسكع فيها اليابان ، يكفي ان يحدث انكسار احد الحكام الاصدقاء ، حتى يخسر هذا الحاكم كل مقاطعته ، ومن ناحية اخرى ، كان اليسوعيون بأشد الحاجة للنقود . فقد اضطروا ، منذ عام ١٥٥٥ ، ان يستودعوا بعض التجار البرتغاليين ، مبلغاً من المال لشراء كمية من الحرير من الصين ، يبيعونها لحسابهم في اليابان ويدفعوا لليسوعيين الارباح بعد قطع عمولة عليها ، التي تمكنهم من العيش والاستمرار في رسالتهم . وقد تأمنت هذه التجارة عندما راح حاكم مقاطعة اوامورا سوميتادا المسيحي يميز اليسوعيين التبشير بالانجيل في ناغازاكي عام ١٥٧١ ، حيث كانت تصل الباخرة البرتغالية . وقد راح الاب فالغناي ينظم تجارة اليسوعيين عام ١٥٧٨ بعقده اتفاقاً مع تجار مكاو . وقد غض البابا النظر عن هذه المعاملة اذ لم يكن القصد منها الكسب والارباح الجورد الربح ، بل في سبيل العمل المسيحي . وهكذا استطاع الابه اليسوعيون ان يعتمدوا على ربح يحققونه ، يتراوح بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ دوقا في السنة .

اما الاب بلتارار غاغو الذي كان على رأس الارسالية في هيرادو فوناي ، فقد قامت بينه وبين رهبان زن مجادلات دينية ، فسمحت له الفرصة بذلك ان يضع كتاباً بعنوان : « موجز ضاللات الكفار في اليابان » . ولاول مرة جرى التمييز بين الشنتوية وبين البوذية ، كما انضحت حقيقة هذه الايماءات المزعومة لشاكا اميدا . فقد جاء على لسان شاكا في الكتاب المنسوب اليه وعنوانه : « لوطن الحقيقة الكاملة » : على كل انسان ان يسعى لخلاصه بعمل الخير وبالتضرع الى هوتوكيه المختص لئلا تذهب نفسه للجهنم ، بل على عكس ذلك ، تذهب الى النعيم . ومنسباً توصل الاب غاغو الى الاكتشاف الاساسي في ان شاكا نفسه في كتابه المذكور اعلاه ، يعترف في آخر الكتاب بان تعليمه ليس سوى *Hulun* ، اي ليس سوى الكذب . مضحكة ، ممددة لهذه الجواهر الجاهلة المتوحشة . وحقيقة تعاليمه التي تتفق تماماً مع تعاليم البوذية ، هي انه ليس هنالك مخلص ، ولا روح ولا نعيم ولا جهنم ، فالفرديوس او النعيم هو طمأنينة النفس في الانسان بعد ان يكون تغلب على ما فيه من رغائب واهواء ، والام واللذة والشعور بحيث يصل الى الوضع الذي يلته نذا . اما الجمع فيتمثل في وضع هذا الانسان الذي استسلم بكليته لجميع اهوائه في هذا العالم . فليس من الـ شخصي متمم ، فالمبدأ الاساسي او *Hombum* ، لا يحمي ولا يعيش ، ولا يموت ، ولا يمتزج عملياً بالعناصر الاربعة التي من تاراجها وتخالطها ، والتراكيب المختلفة التي تؤول اليها ، تطلع من هذه الكائنات . ليس من نفس فردية او شخصية ، اذ ان كل شيء يتركب من هذه العناصر الاربعة ينتهي دوماً الى الانحلال . والحال ، ان هذه الافكار الاساسية في عقيدة شاكا وجدها غاغو لدى كل المذاهب البوذية كما انه كشف

عن جميع الاتهامات المتضادة تماماً ، بين البوذية والمسيحية . ولكن هذا *Hoben* ، ألا يوجد في صلب اساس هذه الفكرة المألوفة في فلسفة الانوار ، التي تقول بان الديانات الموحى بها هي من نسيج هؤلاء الكهنة السحرة وخزغبلاتهم ؟

واذ ذاك عمد الاب غاغو الى اعداد تعليم مسيحي جديد ، عدل فيه عن النهج الذي سار عليه فرنسوا كسافيه باستعماله المصطلحات اليابانية التي خلقت هذا الالتباس بين البوذية والعقائد المسيحية ، واستعمل بدلاً منها مصطلحات لاتينية وبرتغالية مع مرادفات باليابانية ، منها مثلاً : «... *Substantia Hitotsuna , Persona - Mitsuna - Spiritu Suneta , Filio , Pater , Deos* » ، وشدد بعكس فرنسوا كسافيه على بعض الافكار الاساسية في المسيحية ، كالخطيئة الاصلية ، - المسيح - التجسد - الفداء . الا انه رأى ، هو ايضاً ان يؤجل ، الى ما بعد ، الكلام عن يسوع المصلوب ، لان فكرة الله المصلوب لا يمكن ان تتقبلها الذمينة اليابانية . قبل كل شيء ، يجب تنصيرهم بالعماد والتدريج ، فيما بعد ، في عرض اصول تعاليم المسيحية .

واستطاع الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٧٠ ، ان ينصروا حكام بعض الولايات اذ انت تنصيرهم كان يعجز معه تنصير سكان كل الولاية او المقاطعة ، امثال اومورا سوميتادا ، وآريما يوشيسادا ، واوتومو يوشيهيجه . ووثقوا صداقاتهم مع اودا نوبوناغا عن طريق احد جنوده المدعو هيدا يوشي . وقد لقي اودا نوبوناغا معارضة كبار اديار البوذيين وعدائهم . ففتح امام اليسوعيين الولايات التي تم له فتحها ، ونصف ولاية هونود . واخذت المسيحية تتسع وتنتشر مع التنظيم الجديد الذي تم للدولة اليابانية المناهضة لنفوذ الاديار البوذية التي كانت في عداد الامارات السيادية .

وقد قرر الاب فالغنياني خلال الفترات الثلاث التي قضاها في البلاد: الاولى من ١٥٧٩-١٥٨٢ والثانية من ١٥٩٠ - ١٥٩٢ ، والثالثة من ١٥٩٨ - ١٦٠٣ انشاء اكليروس وطني ياباني . وفي هذا السبيل انشا كلية في فوناي ومدارس اكليريكية في كل من آريما وأتوشي ودير ابتداء في أوزوكي ، كما اكثر من انشاء مراكز ثابتة للرساليات ضم الواحد من ٦ - ٧ رهبان يسوعيين ، يساعدكم الـ *doshukus* وهم من الاخوة العلمانيين . وبشد من ازهرهم علمانيون عرفوا بحسن تقوam يدهون *Cambox* . وهكذا اصبحت اليابان «نيابة» ابالة رسولية . فقد بلغ عدد المسيحيين فيها في مطلع القرن السادس عشر نحواً من ١٥٠ الفاً، توزعوا على ٢٠٠ كنيسة او رعية انتشرت في كل مكان حتى في الجنوب من جزيرة يازو . اما المجتمعات المسيحية الكبرى فقد قامت في جزيرة كيو - سيو ، وفي هوندور في مقاطعة غو - كيناي . والدليل على ما بلغت اليه كثافة المسيحيين في البلاد الوفادة التي جاءت روما والتي تألفت من حكام اومودا وآريما ، وهما اميران أتيا مع شقيق حاكم بونفو. حاكم آريما ، فاستقبلها البابا ، عام ١٥٨٥ ، والدموع تنهمر بفزارة من عيون الكرادلة لشدة الفرح .

جاء تنظيم الدولة الجديد في اليابان يحد من عمل الرسالة وانتشار المسيحية بعد ان كان الوضع من قبل ، مسعفا لها . فقد دهش هيدا يوشي من نفوذ اليسوعيين وما لهم من شأن بين الحكام المسيحيين ، وخشي من ان يدفع اليسوعيون ، البرتغاليين على الاعتداء ، كما انه أوجس خيفة من ان يقضي تشدد الحكام المسيحيين الى القضاء على الكهنة البوذيين وهدم الهياكل والاديار التي لهم في البلاد . لم يكن هيدا يوشي ليرضى او ليسم بزوال البوذية التي عرفت ان توطئن الشنتوية ، في اليابان وترسخ اصول عبادة الجدد ، فكانت بذلك مدرسة ولاء وثقة في نظر رؤساء الدولة ، كما وضعت ما لها من نفوذ في خدمته بعد ان اصبح سيد البلاد وقائدها . فقد ساعد تنظيم الدولة اليابانية على ايقاظ الروح الوطنية في البلاد كما بعث الحيوية والنشاط في طائفة الهوكيه المعروفة بعدائها ومقتها للاجانب . وقد رغب هيدا يوشي ان يقيم علاقات تجارية مع الاسبان في الفلبين وان يقوي من شأن هندو ، مركز اقامته ، وقاعدة قوته على حساب كيو - سيو . ومن جهة اخرى كان التجار البرتغاليون يبتاعون اليابانيين بالآلوف ويشحنونهم عبيداً ارقاه الى مكاو والفلبين او الى الصين . فاصدر عام ١٥٨٧ ، امراً بطرد اليسوعيين من البلاد . الا انه خشية بالحق الضرر بالحركة التجارية لم يعمد الى تطبيق هذا القرار . واستقبل الآباء الفرنسيون الاسبان على امل اقامة علاقات تجارية مع مانيل . وعلى اثر اشاعات نشرت الرعب والهلع في البلاد ، امر بتاريخ ٥ شباط ١٥٩٧ ، بصلب ستة آباء فرنسيين و ٢٠ يابانياً مسيحياً ، فكانوا اول شهداء يابانيين يمجدون بدمهم وحياتهم في سبيل المسيحية وتوطيدها .

وتابع يايازو سياسة سلفه هيدا يوشي . ففي سنة ١٦٠٢ ، اصدر امراً أكد فيه للاجانب حرية الاتجار في اليابان ، وحظر التبشير بالمسيحية ، الا انه غض النظر عن نشاط المرسلين . وقد حاول ان ينشط حركة الملاحة البحرية في هذه الممتلكات العائدة للدولة اليابانية ، وان يجعل من أوراغا المنافسة الكبرى لناغازاكي . وتمكن اليابانيون من الحصول على سفن اوروبية الصنع واعطى الشوغون عام ١٦٠٤ ، نحواً من ٢٩ ترخيصاً بالملاحة ، كما انه صدر في عهد خالفه ، ١٩٧ ترخيصاً جديداً اعطيت كلها عام ١٦٠٧ . وهكذا اخذت سفن يابانية ، بحارتها يابانيون ، تصل الى الهند وتبلغ اميركا . ويبدو ان اليابان اخذت تتجه للعمل في المدى التجاري بين المحيطات .

الا ان حاكم مانيل لم يستجب لطلب يايازو ببناء سفن جديدة لليابان كما انه حظر على السفن اليابانية دخول الفلبين مع انه كان سبق ليازو ورحب بمقدم بعثة من الآباء الفرنسيين والدومنيكيين والاوغوستيين الاسبان . ومن جهة اخرى ، فقد توصلت الشركة الهولندية للهند الشرقية الى عقد معاهدة تجارية ، مع يايازو ، عام ١٦٠٩ ، وانشاء وكالة تجارية لها في مرفأ هيرادو . وحذا الانكليز حذوهم ، عام ١٦١١ وتم في ما بعد انشاء مراكز هولندية وانكليزية ، في ساكاي وكيوتو وغيرها . وقد كانت خفت بالتالي حاجته للبرتغاليين والاسبان . وفي سنة ١٦١١ تلقى الشوغون من موريس ده تاسو ، حاكم هولندا العام ، رسالة تحذره من الكهنة

الكاثوليك باعتبارهم جواسيس وعبونا على اليابان يتآمرون لبعث التمرد في البلاد، تسهلاً لعملية فتح يقوم بها الاسبان والبرتغاليون. وقد راح الموقف الصلف الذي وقفه وفد اسباني يزيد الشك ويشير الظنون في قلب الشوغون ويؤيد هذه الدعوة. وقد جاء عام ١٦١٣، اكتشاف بعض وثائق لدى احد الحكام توضح للاجانب خطة لمهاجمة اليابان، مع قائمة بالحكام والنبلاء المشتركين بهذه المؤامرة التي جاءت ثلاثة الاثافي.

ومن جهة اخرى راح يايازو يمالء الكونفوشية، كما صورتها تعاليم تشو - هي، كما راح فوجيوارا سيكوا (١٥٦١ - ١٦٢٠)، يعلن على رؤوس الاشهاد ان المبادئ التي تنادي بها الكونفوشية هي نفسها المبادئ التي تقول بها الشنتوية ممثلة بصدق الولاء والاخلاص التام للامبراطور، واجلن موقفه المادي للبوذية. وهكذا نرى ان يايازو لم يعد بحاجة الى المسيحية طالما يستطيع ان يعتمد كلياً على ديانة آسيوية، يابانية تناهض الاديار البوذية للحد من نفوذها القوي في البلاد. واعلن بتأثير من هياشي رازن (١٥٧٣ - ١٦٥٧)، ان التشوية دين الدولة الرسمي، وحرّم كل دين آخر في البلاد مما منع قيام اي جدل ديني فيها. فكل مخالفة تعرض صاحبها للسجن وللنفي او للموت.

وهذا النجاح تصيبه التشوية في اليابان كان من اليسر والسهولة ما يحتاج به دليلاً على ان اليابانيين لم يفقهوا شيئاً من الروح العملية في الغرب. وبالنظر لما هم عليه من روح عملية، فقد كرهوا الخوض في فلسفة ما وراء الطبيعة والمنطق الصوري والرياضيات، دون ان ينظروا او يهتموا، من قريب او بعيد، الى الاسباب والعوامل التي امنت لاوروبا، التفوق التقني.

واخيراً راح يايازو يربط اليابان بهذه النظم السيادية والاقطاعية التي سخرها لتأمين فوزه ونجاحه. ولم يكن ليهمه كثيراً ان يرى، الى جانب الحركة التجارية، طبقات اجتماعية قوامها التجار والبرجوازيون.

وهذا ما يفسر لنا الخطوة التي لقيها هياشي رازن والثقة المظيمة التي تمتع بها عند يايازو وخلفائه الاقربين، حتى اصبح وزيراً للداخلية، عام ١٦٢٩. فهو واضع القانون الذي صدر بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٦١٤ والذي يوجب على الشعب الامتثال للامر الصادر اليه بالتخلي عن المسيحية. فمن خالف ولم يمثل صدرت الاوامر، في الحال، بإبعاده. فلا عجب ان يحدث هذا القرار ثورة بين المسيحيين تولى قيادتها هيدا يوري احد احفاد أشيكاغا. فقد كان وعد اليسوعيين باعطائهم حرية التبشير بالمسيحية. فلا عجب ان يدعمه اليسوعيون بكل ما لهم من نفوذ عريض في البلاد. الا ان هيدا يوري غلب على امره في معركة سيكيتانارا. وفي سنة ١٦١٦، راح الشوغون هيدا قياداً يؤكد من جديد منع الديانة المسيحية. وامر باعدام كل من يحاول ادخال مرسلين ومبشرين الى اليابان. وراحت الحكومة اليابانية تضحي شيئاً فشيئاً بالحركة التجارية في البلاد. وتكرر في السنوات ١٦٣٣ - ١٦٤٠ صدور الاوامر التي توصي باقفال اليابان في

وجهه الاجانب ، كما حظر على اليابانيين السفر للخارج او ارسال اية سفينة يابانية للخارج ، كما حظر على الآباء اليسوعيين دخول اليابان . ومنعت المسيحية تماماً في البلاد . وقد وضعت جوائز مفرية لكل من يخبر عن وجود المسيحيين او يسدل على رهبان دخلوا البلاد خلصة ، كما فرضت المسؤولية المشتركة بحيث تناولت خمس اسر معاً . فعلى اولاد البرتغاليين والاسبان ان يغادروا البلاد ، للحال ، كذلك حظر ادخال كتب اجنبية الى البلاد .

ليس بغريب قط ان تقيم هذه الاوامر والقوانين ، المسيحيين وتقدمهم وتحملهم على الثورة والعصيان . ولعل اهم الحركات الانتفاضية التي قاموا بها كانت ثورة اماكوسا ، عام ١٦٣٧ . وقد انكسر المسيحيون بفضل مدافع الهولنديين بادارة هولنديين ، وتقديراً لهذه الخدمات ، صدر ، عام ١٦٣٩ ، امر اعتبر البرتغاليين والاسبان اعداء البلاد ، ولذا امر بطرد تجارهم واخراجهم من اليابان . وبقي الهولنديون وحدهم في البلاد بعد ان كسروا الانكليز وتغلبوا عليهم عام ١٦٢٣ ، الا انهم تم حصرهم وأقصروا على خليج ناغازاكي ، على جزيرة دشيا الاصطناعية . وراح الشوغون ، منذ ذلك الحين ، يحدد هو بنفسه ، سعر الحرير الذي يستورده الهولنديون ، انها ترك اسعار السلع والبضائع الاخرى حرة . صحيح ان الهولنديين استمروا في تجارتهم ، انما نقص حجم هذه التجارة كثيراً .

استطاعت الجماعات المسيحية ان تعيش متخفية بفضل مسبحة الوردية ، كما استطاع بعض الادباء وبعض الفضوليين من اليابانيين ان يستوردوا ، عن طريق ناغازاكي تهريب كتب علمية واجهزة علمية ، من اوروبا . وظهر عام ١٦٥٠ كتاب « الفلك عند برايرة الجنوب » ، الذي نشر نظريات كوبرنيكوس حول مركز الشمس . وهكذا استطاع العلم في اوروبا ان يحيى حياة مستخفية في اليابان الى ان رفع الشوغون يوشيموينه ، عام ١٧٢٠ ، الحظر عن الكتب الاجنبية وامر باعداد تقديم فلكي جديد على اساس العلم في الغرب .

لم تلبث الرسائل الدينية ان وعت ، ببطء كلي ، الاوضاع
نشر المسيحية في
القائمة في الصين والتي يجب ان يحسب لها حساباً ، في كل
الصين والاراض التي احاطت بها
عمل رسولي ترغب القيام به . فوضع القائمون عليها خطة
عمل تكفل لهم التغلغل داخل البلاد وبين الاوساط الشعبية .

تؤلف الصين عالماً مغلقاً على نفسه . وقد استقر في اذهان الصينيين انهم الشعب الوحيد في العالم الذي تمت له اسباب الحضارة والتمدن ، وان سواهم من شعوب الارض يتسكع في دياجير البربرية والظلمة العقلية . والخرائط التي وضعها الصينيون تجمل من الصين قطب العالم ونقطة الدائرة ، وتحتل منها تسعة اعشارها ، يحف بها نثار من الجزر التي يقطنها البرابرة ولا يجوز الدخول الى حرمها الا للسفراء يقدمون ولاء البلاد التي يمثلونها وخضوعها برفعهم الهدايا السنية للامبراطور ، يحف بهم عدد من التجار وبعض الخاصة الذين أخذوا بها للصين من شهرة بعيدة

في الحكمة والاخلاق، فجاؤوها التماساً للفضائل البشرية وليعيشوا على طريقة الصينيين : رعايا
مخلصين للأمبراطور . «فما من دير للراهبات يتقيد مثلهم بقواعد التحصن» (الأب القارو) .

باشتر المرسلون محاولاتهم الاولى عام ١٥٥٢ ، ولم يلبث الكهنة والرهبان المرسلون ان
وجدوا الصينيين جد حذرين من الأجانب المتشائخين ، الجشعين ، القساء ، وانهم يختلفون عنهم
اختلافاً كبيراً ، اذ ان اي اوروبي ، مهما بدا وديعاً ، هادئاً ، مسالماً ، يبدو ، اذا ما قيس
بالصيني الوديع ، المتأنى ، الصبور ، حاد الطبع ، ملتبهاً يستشيط غيظاً ، فالأوروبي يحمل أنفاً
بارزاً ، وعينين غارقتين في محجرهما ، لونها غريب مستهجن ، كث اللحية ، بينما الصيني أفتس
الأنف ، عيناه سوداوان تبرزان على مستوى رأسه ، أمرد الوجه ، خفيف شعر الرأس .

ابقن فرنسوا كسافيه ان ارتداد الصين للمسيحية من شأنه ان يحر وراءه ارتداد اليابان ،
بعد ان ظهر له بوضوح ، ان حضارة اليابانيين تعود جذورها الاولى الى الصين ، هذه الصين التي
وصل اليها في طريق عودته من اليابان ، في آب ١٥٥٢ ، ونزل الى البر على مقربة من مكاو ،
وحاول عبثاً الدخول الى الصين ، وفاضت روحه من الضنى والوهن في ليل ٢ - ٣ كانون
الأول ١٥٥٢ .

ومنذ ١٥٥٤ ، تمكن بعض الكهنة والرهبان من الاقامة في مكاو بعدد قليل جداً ، اذ ان
هذه المدينة لم تكن سوى أسكلة ترسو فيها السفن في طريقها الى اليابان . فقد وصل أولهم
الاب غريغوريوس غونزاليس ان يكسب للدين المسيحي ، بين ١٥٥٤ - ١٥٦٨ ، نحو ٥٠٠٠
صيني ، في مكاو ، بالطرق التقليدية المتبعة التي قامت على تعليم موجز يتبعه العباد بالجملة .
واخذ الآباء اليسوعيون ، منذ عام ١٥٦٠ ، يضمّنون جهودهم ، في هذا المجال ، للجهود المبذولة ،
بعد ان باءت بالفشل كل المحاولات التي قاموا بها للنزول في كنتون .

وقام الاسبان من جهتهم ببعض المحاولات ، منطلقين من الفيليبين ، واستطاع الراهب
الفرنسيسكاني ده دادا الدخول الى فو - كيان عام ١٥٧٤ ، وكان اول من تعلم الصينية ، وجمع
مجموعة من ١٠٠ كتاب صيني بينها رُصف لامبراطورية الصين ، والآثار الصينية وعلم الازمنة
الصينية وكتب في الحكم والادارة ، واخرى في المالية والقوانين والطب وعلم الفلك الصيني .
وقد استل من هذه الكتب مجموعة منتخبات نشرها في اوروبا احد رفاقه هو الأب غونزاليس ده
مندوزا ، ١٥٨٥ .

غير انه لم يعم بين الاسبان والبرتغاليين اي تعاون بهذا المجال اذ راح كل فريق ينظر الى
الكراسة والتبشير بالإنجيل من زاوية عمل قومي وطني يعود أثره على بلاده . وابتى البرتغاليون
ان يسمحوا بالعمل الرسولي ، في مكاو الا للمرسلين الذين يقيمون الولاء للملك البرتغال ويعرون ،
قبل قدومهم ، بلشبونة والبرتغال وغوا . وحظر الاسبان ، من جهتهم الدخول الى ممتلكاتهم
والقيام بالتبشير لأي كاهن او راهب غير اسباني الجنسية . ورخص الكرسي الرسولي عام

١٥٧٥ ، للبرتغاليين ان يجعلوا من مكافو كرسياً أسقفياً باعتبار صاحب هذا الكرسي ، مطران الصين واليابان والأراضي والجزر المجاورة ، مما يجعل الفلبينيين من ضمنها . وقد رد الاسبان على ذلك بجعل مانيل كرسى مطرانية عام ١٥٧٨ ، انما وضعت مانيلاً سهواً على بعد ٢٠٠٠ فرسخ من ساحل الصين مما جعل الاسبان مستثنين من الصين .

الديانة الصينية ومع هذا وبالرغم من تصرف الأب دادا ، لم يفقه المرسلون شيئاً من الديانة الصينية كما تبلورت في عهدهم ، اذ كانت عبارة عن مراسم دينية حوت الطقوس الزراعية القديمة ، والطاوية والبوذية طلع بها الكونفوشيون المثقفون . فقد ظهرت في القرن السادس عشر على صيغة من الطاوية او البوذية المتفاعة بينا بقي جمهرة الشعب الصيني على أعراف الكهنة الطقسية الشخصية ، تحت اسم بوديساتفا (بوتسا) او عرفت بالالقاء او المسميات الطاوية ، امثال « السهاوي المحترم » او « الخالد » . فقد نظروا الى آلهتهم باعتبارهم افراداً من البشر استحقوا بعد حيوات متتالية ان يرقوا الى مصاف الآلهة . فالاعتقاد بتناسخ الأرواح عقيدة عامة عندهم ، مع انها كانت تتعارض منطقياً وعقلياً مع عبادة الجدد . وقد رأوا في هذه الآلهة طبقة من الموظفين نالوا ، بعد طول صبر وعناء ، الترفيع الذي استحقوه ، وراحوا بشخص نمائيلهم يمهدون بوظائفهم الى ارواح العادلين من حلتوا محلهم ليرفعوا لهم تقارير مفصلة في المواعيد المعينة . ففي طليعة هذه الآلهة : السماء او تسان - تي ، رب الاعالي الذي يحمي الاخيار ويقاضي الاشرار ، ويشرف على نظام الكون ، يسمع كل شيء ويقضي في كل شيء . ويأتي بعده الهه الظواهر الطبيعية : « كوت الريح » ، و « رب المطر » ، و « سيد الرعد » : جلاتد السماء ، و « امبراطور الجبل الشرقي العظيم » ، موزع الحظوظ ومقدر الأعمار .

ويأتي بعد ذلك ، سلسلة من آلهة الحقول . فكل ولاية وكل قضاء له : « إله الجدران والغدران » الذي ييسر الاراضي ويسهر على من فيها من السكان ، ويوطد السلام ويحلب السعادة ، ويصدر أوامره لهذا العديد من الآلهة المحليين الموكلتين : بالشارع ، والجسر والحقل . لكل منهم معبده وهيكله او مصلاه .

وفي المنزل إله الأسرة وزوجه « الهة الباب » وكلاهما قائدان قديمان من أسرة تانغ : إلهة الينبوع وإلهة المرحاض ، وغير ذلك ، واخيراً ارواح الجدد التي تسكن في مشكاة توضع على مصطبة في الدار ، ولكل إله من هذه الآلهة العديد من طقوسه المرسومة وعبادته التكريمية الخاصة . وكل سكان المنزل يشتركون مع ارواح الجدد في عشاء سرّي .

اما الأعياد الدينية فمعددة هي : منها عيد المصاييح لراحة أرواح الموتى ، وعيد تنظيف المدافن ، وعيد القمر ، وغير ذلك ، وعيد رأس السنة ، اذ كان إله المنزل يصعد الى السماء ليؤدي حساباً لسانغ - تي عما وقع في الأسرة ، خلال السنة ، من وقائع وحوادث . ولعل أهم هذه

الطقوس عبادة الجدد، والبر البنوي مدى الحياة، وهي طقوس كثيراً ما اختلطت بعبادة اميتا
ومراسم الطقوس البوذية .

كل هذه المراسم والطقوس وما اليها من حفلات كان المثقفون يفسرونها وفقاً لشرح
تشو - هي او تفسيراته المتشعبة بالمادية ، فيردن فيها وجهاً من وجوه الظواهر الطبيعية . واذ
كانوا يمتقدون ان الدين مفيد للشعب ، 'مسلي' له ، فقد أضفوا عليها شكل الديانة القديمة .
'فمنذما تمصف الارباع ، وينهمر المطر ويقصف الرعد ويتلألأ الجو بالبرق فهذا دليل على ان
الآلهة تتكلم لفتها وتعبر عن ارادتها ، وتعرب عن مشيئتها . وعندما يسكن الريح وينقطع
المطر ويسكت الرعد وينقطع البرق ، فتلك اعمال من فعل الآبالسة ' . اما المثقفون فقد رأوا
' في الآلهة مظهراً لياخن ، وفي الآبالسة صورة ليين . ولذا حرص الموظفون mandarins
الحرص كله على احترام المظاهر الخارجية لهذا الشومور الديني في الجماهير الشعبية ، مع انهم لم
يكونوا يؤمنوا بها .

بالنظر لعدم تفهمهم اسرار هذه الطقوس وجهلهم لمغلية هؤلاء الموظفين
اسلوب اليسوعيين فقد جاءت نتائج الجهود التي بذلها المرسلون ضعيفة جداً ونحبة
للأمل ، بحيث ان اليأس غمر نفوس الجميع وامتألت نفوسهم ، في أواخر القرن ، غماً وقنوطاً .
وقد راح الناس في مكاء يتندرون ويتفاكهون قائلين : انه لايسر ان تبيض بشرة الزنجي
من جعل الصيني مسيحياً . إلا انه في سنة ١٥٧٧ ، عندما مر الاب فالنياني ، الاب الزائر لهذه
النيابة الرسولية ، بمدينة مكاء ، رسم لعمل الرسالة الدينية في الصين وفي اليابان ، خطة جديدة
تضمنت حلاً مبدئياً لهذه المشكلة التي بدت لهم أعقد من ذنب الضب ، وهو مبدأ التنسيب
او التوافق مع اعراف وعادات سكان البلاد ، اذا لم تتعارض مع مبادئ الديانة المسيحية
وعقائدها الجذرية ، كما انه اوصى اليسوعيين بتعلم اللغة الصينية وان يتصنيوا ، قدر المستطاع .

وقد رأى معظم رجال الاكليروس واليسوعيون بينهم في هذه الاقتراحات مفامرة
جنونية . الا ان فريقاً صغيراً من الآباء اليسوعيين ادرك جيداً ما في اقتراحات الاب
فالنياني من صواب ومنطق ووضعوا خطة للتغلغل بين الصينيين ، قابلها فريق كبير منهم
بالهزاء والسخرية .

وراح راهب يسوعي ايطالي الجنسية هو الأب روجييري الذي كان دكتوراً في القانون ،
وعمل قاضياً من قبل ، يدلل ، منذ عام ١٥٨٠ ، على اهمية التقيد بالآداب والاعراف الصينية
كمثول الراهب أمام الناس أعزل من السلاح ، والركوع اثناء انقصاد جلسات المحاكمة ،
والانحناء عدة مرات معفراً الجباه بالتراب ، واستعمال تعابير تم عن الخضوع والخشوع
والتواضع عند التكلم عن الذات ، والإكثار من عبارات المديح والثناء عند مخاطبة الآخرين .
ولم يلبث ان ألح الموظفون على الاب روجييري حضور المناقشات وجلسات المحاكم ، لانه ، في

نظرم يتفوّه بالحكمة ويقضي بالعدل ، ويفتي بحكمة ونصفه ، بعبارة هينة ، وديعة ، ناعمة ، ولا يحمل سلاحاً ، وهي نقطة حساسة في نظر هؤلاء المثقفين الذين يزدرون كل ما هو عسكري . كذلك أدرك الاب روجيري ، ضرورة التخلي عن الزي الاوروي واخذ يرتدي لباس الرهبان البوذيين . ومنذ ذلك الحين اخذ الصينيون يلقبونه بـ « سونغ » وهو اللقب الذي اعتادوا اطلاقه على الرهبان الاجانب . وهكذا اصبح البابا عندما « السونغ الأعلى » الذي يوفد الوفود .

وانشأ روجيري في مكاو وكالة خاصة سماها : « منزل القديس مرقينوس » حيث عاش في عزلة على طريقة الرهبان الصينيين مع تلاميذه الموعظين . ثم قدّم إلّئاساً الى نائب الملك جاء فيه : « رسالتنا هي ان نخدم الله وان نقبّس العلوم المختلفة . وقد علمنا ونحن في بلادنا ان الشعب الصيني شعب طيب ، حليم ، هادئ ، منطقي له طقوس واعراف ممتازة ، ولديه الكثير من المعارف والمعلوم ، وعنده الوافر من كتب الحكمة والاخلاق الحميدة ومكارمها ، ولهذه الأسباب ، وحباً في الانتفاع من كل هذا ، والاقتباس من ينابيع الحكمة ، والتعرف الى اجماد هذه الامبراطورية ، والمعيش بين هذا الشعب الممتاز ، غادرنا بلادنا وجئناكم قاصدين . » وقد رخص نائب الملك وسمح لهذا البربري بالدخول الى الصين ، بعد الذي ابداه من حسن الاستعداد للقبس من الحضارة الصينية . وفي العاشر من ايلول ١٥٨٣ ، أسس الاب روجيري اول مقر للكنيسة الكاثوليكية في عاصمة كوانغ - تونغ ، في تشاو - كنغ - فو .

ولم يلبث ان التحق به الاب رتشي . فعرفا ان يثيرا فضول الموظفين بما بدا من ثقافتها العالية وعلمها الكثير ، وبما تم لهما من تقنية الغرب ومهارة في صنع الساعات الكبيرة والساعات اليدوية والكتب والخرائط الجغرافية التي تظهر عظمة الكون واتساع الاراضي التي لا تدخل في الصين ، وصنع الاقفال والزجاج ، ورسم الصور مع المحافظة على المدى والالوان . ولما كان رتشي خريج الكلية الرومانية ، فقد ركب لخدمة الموظفين ساعات شمسية (مزاول) ، ورسم خرائط مسطحة للكرة الارضية ، واخذ يعلمهم مبادئ الحساب والهندسة ، مما ادخل البهجة الى نفوسهم . وقد كانوا يجهلون تماماً كل ما يمت بصلة الى المنطق والتحليل الذي لم تكن لغتهم لتستجيب له لانها لغة ايمائية ، تصويرية ، رمزية . ووضع لهم سلسلة من المقدمات جعلتهم يطيطون فرحاً .

ودار بين الاءاء والموظفين ، محادثات استمرت من اربع الى خمس ساعات راحوا يفتنموها فرصة للبحث في امور الدين ، وقد عرض روجيري طريقته في العرض والبسط التي استوحاها من القديس بولس والقديس يوحنا ، في كتاب له سماه : « شرح التعليم المسيحي » ، وضمه سنة ١٥٨٥ فكان اول عرض للديانة المسيحية باللغة الصينية ، جرى طبعه على مطبعة حجرية ، ووزع منه اكثر من مليون نسخة في جميع انحاء البلاد والولايات . كان عليه ان يثبت هؤلاء المفكرين الماديين ان قواعد الدين لا تخالف العقل ولا المنطق . وكانوا كلهم على

اطلاع تام بهذه الاكتناحية ، التي قال بها وعلم وانغ - يانغ - زو منغ ، كما ألقوا ان يجدوا في ضمايرهم قواعد السلوكية الانسانية . ومن هنا انطلق الاب روجييري ، وراح يدلل على ان الانسان يجد في ذاته الخير « *Le Sen* » ، هذا الخير لا يمكن ان يكون مصدره الطبيعة البشرية . فالكمال هو لله وحده . وهذا الخير لا يمكن ان يأتي الا من كائن هو كل الخير ، هو ملء الخير بالذات . فالكمال الاكتم هو الله . فكمال الخير ، اي هذا القصد الدائم المستمر ان نعمل دوماً كل ما هو خير للآخرين ، لا يمكن ان يكون الا من إله شخصي ، له فرديته ، يشعر من ذاته ، ويريد الخير بذاته . فالطبيعة انما قامت لخدمة الانسان ، كما هو واضح . والدليل على ذلك ؟ - الدليل هو في تسلط الانسان على الحيوان ، وقدرته على تحويل المعادن وفلزاتها التي يستخرجها من اعماق الارض وداخل الجبال . ولكن : هل يمكن للطبيعة ان تفسر نفسها بنفسها او تعلق نفسها بنفسها ؟ . فاذا ما جئنا نبحث عن سبب حادث او ظاهرة طبيعية وتوصلنا الى معرفته ، كان علينا ان نبحث عن اصل هذا السبب ، وهكذا دواليك . ولذا كان لا بد لنا من ان نصل الى علة العلل ، الى علة تكفي نفسها وتشرح كل العلل . فهذه العلة الاخيرة ، هذه العلة الاولى انما هي الله ، مبدع الكائنات ، وخالق الطبيعة ، وما عليه هذه الطبيعة من نظام ، وهذا النظام يحتم ان تكون هذه العلة ، العقل الأسمى . اذن ، فالله يشعر من ذاته ويريد من ذاته ، له فرديته وشخصيته . فالانسان يحتاج للعدل وهذه الحاجة لا يمكن ان تجد شبيهاً في هذا العالم ولذا وجب ان يتم العدل في الحياة الاخرى ، في الحياة الباقية الخالدة ليتم شبع الانسان . اذن ، الانسان نفس خالدة .

وبعد ان اثبت روجييري وجود الله الفردي ، الشخصي ، بالعقل واثبت خلقه للكون ، وخلود النفس ، راح يدلل بان الله غرز في قلب الانسان وركز فيه ، كل ما هو لازم وضروري ليعيش حياة سعيدة . غير ان الانسان اختار ، بلء ارادته الشر والاثم . ولذا ارسل الله يوماً له مشرعاً هو موسى ليميد الانسان الى حالته الاولى . ثم عاد الناس ووقعوا في الاثم من جديد . ولذا قال الله في ذاته : لنضربن ضربة قوية . ولذا ارسل لخلاص البشر ابنه الوحيد يسوع المسيح الذي تجسد في احشاء العذراء مريم ، تماماً كما تملأ الشمس بنورها بلسورة دون ان تفس بشيء سلامة هذه البلورة .

واول صيني اعتنق المسيحية جرى تنصيره في ٣ حزيران ١٥٨٥ وحمل اسم بولس . وقد بلغ عدد الارتدادات في آخر السنة ، ٣٠ مسيحياً . وفي نيسان ١٥٨٦ ارتفع عددهم الى ٤٠ . اما روجييري فقد ضمف جسمه وهنت قواه واضطر ، عام ١٥٨٨ الى ان يتغلى عن العمل ويسافر .

اما رثتي فقد جرى نقله الى شيو - شيو بعد سوء تفاهم وقع له مع نائب الملك الجديد . وهناك تعرف الى احد المفكرين الادباء يدعى كيو - كاي - سو ، من هؤلاء الانسانيين الذين لا غش فيهم ، والذي هام بالملوم الاوروبية ، والذي وجهه الى رثتي من السؤالات

المرجة ما ساعده على ان يكتشف ، ما بين ١٥٨٨ - ١٥٩٠ ، مقومات الديانة الصينية ، الا وهي الوثنية والبوذية والطاوية ، والكونفوشية ، على مذهب تشو - سي ، ولاول مرة توصل اوروبي الى تفهم صحيح للديانة الصينية . كذلك ادرك الاب رتشي ان الوسيلة الوحيدة للدخول الى قلب الطبقة الاجتماعية العليا في الصين ، في هذه البلاد الشاسعة ، لا تقوم بان يبدو المرء كاهناً فقيراً مزدري ، بل ان يظهر بمظهر العالم المثقف . ولذا راح يتفقه بالأدب الصيني . فترجم الى اللاتينية الكتب الاربعة المنسوبة الى كونفوشيوس وهي :

الـ *Y-King* او كتاب التحولات

والـ *Chou King* اي الكتاب المقدس

والـ *Chi King* اي كتاب الشعر

والـ *Li-King* اي كتاب الطقوس

ففي الوقت الذي كان فيه الموظفون الصينيون لا يتعمقون الا في كتاب واحد من هذه الكتب الاربعة ، راح رتشي يدرسها جميعاً ويفوص في معانيها ومبانيها بدقة وإنعام نظر . فبعد ان تسلم بما تم له من اصول الفيلولوجيا الاوروبية ، وبدلاً من ان يقتصر على شروح وتفسير تشو - سي ، اعتمد هو رأساً النصوص ذاتها ، فوجد فيها معاني جديدة لم يصل اليها تشو - سي ، منها شخصانية الله وخلود النفس ومجد الطوباويين . وبهذا الاسلوب التحليلي الاوروبي ، فتح امام الصينيين امكانية الوصول الى معرفة واعية ، مدركة ، حية ، صحيحة ، لكتبهم المقدسة بنصها الحرفي ، مصدراً للرقى والتقدم . واذاً ذلك قرر ان يتبنى اسلوب المثقفين وان يسير طريقتهم في الحياة ، منذ عام ١٥٩٤ ، بارقدائه القبطان الحريري الاحمر المطرز بالحرير الازرق ، والاكمام الفضفاضة والزئار العريض الاحمر موشى بخيط ازرق فاتح ، وان يسير دوماً محملاً على محفظة ، بصحبته كاتب سر وخادمان او ثلاثة بقفاطينهم الطويلة . واذاً ذلك نظر اليه الناس باجلال واحترام . في هذه البلاد لا يمكن للمرء ان يشق طريقه فيها ، ولا ان يثري الا اذا عمل على احترام الآداب السلطانية .

وفي سنة ١٥٩٥ استطاع رتشي ان يستقر في نان - تشانغ في قلب الصين ، هذه المدينة التي تكثر فيها النوادي الادبية واكاديمية المثقفين . ونظراً لمعرفته الدقيقة للآداب الصينية استقبله نائب الملك استقبالا حاراً ومعه حاكم المدينة ووكيل الحاكم وغيرهما من القضاة وكبار الموظفين ولغيف كبير من الادباء ورجال الفكر . وقد لفت انتباهه ولحظ بسرعة ان التقنية الاوروبية تستأثر بانتباه المثقفين ، والأهمية التي تحتلها عندهم الفلسفة الادبية ، والاخلاقية ، والنبحث في الفضائل والردائل البشرية ، والظلم والحلم ، والشرف ، والصدقة والانشاء الجزل ولما كان الاب رتشي مطلعاً كل الاطلاع على الادب اللاتيني ، فقد وضع كتاباً صغيراً حول الصداقة ضمنه ٧٦ حكمة او كلمة مأثورة إستمدتها من شيشرون ، لقيت الرضى والاستحسان

لدى الصينيين بحيث ان نائب الحاكم امر بطبع الكتاب ونشره على الملأ . ومنذ ذلك الحين اخذوا ينظرون الى الاب رتشي كأحد كبار حملة الثقافة في الصين كما اخذ المفكرون ورجال الادب يقدون عليه للتحدث معه . وكثيراً ما مال الحديث بهم الى الدين وشؤونه وشجونه فيستعمل رتشي طريقة الاب روجييري . ولحظ ان نطق المدرسين الذي حذقه في الجامعة يوليه مقدرة راجحة على كل المثقفين الصينيين الذين يجهلون تماماً استعمال الدليل فيقنع عدداً كبيراً منهم فيعتقدون المسيحية .

كل هذا والآباء اليسوعيون في وضع دقيق ينصرفون لرسالتهم بموجب ترخيص بسيط يبقون معه تحت رحمة نائب الحاكم او نائب الملك . ولذا ترتب عليهم الآن الحصول على ترخيص رسمي لهم بالاقامة الدائمة ، ومثل هذا الترخيص لا يصدر الا عن الامبراطور نفسه . فكل جهدهم في القرن السابع عشر سيصرف في هذا السبيل .

تمكن الاب رتشي من ان يقيم له علاقات وثقى مع بعض اليسوعيين في البلاط الامبراطوري . الحصيان في البلاط الامبراطوري . وبالرغم من معارضة دائرة الطقوس وموقفها المعادي فقد رخص له الامبراطور ، عام ١٦٠١ ، الاقامة في بكين على حساب خزانة الدولة .

استقبل الاب رتشي استقبالا حسناً ، وهو الطالب الممتاز في الجامعة استبحر بدرس مؤلفات الاب كلافيوس الرياضية ، وأحد كبار العلماء الذين ساهموا في اصلاح التقويم الغريغوري ، والهندسة وفن بناء المزاويل او الساعات الشمسية والكوسموغرافيا وفن تحديد خطوط الطول والعرض . وقد دخل في يقين الصينيين وروعهم ان حياة الانسان تقدرها مواقع النجوم والأبراج الفلكية . ولعل مهمة الحكومة الاولى تهئة التقويم السنوي . فأن من صيني قط يقوم بأي عمل ما في حياته الا ويستطلع طلع برج المرسوم في مواقع النجوم ، ليرى ما اذا كانت فآله ملائمة ام لا . والحال ، فالدائرتان اللتان تعنيان بهذا الامر وهما الدائرة الصينية والدائرة الاسلامية كانتا على اسوأ وضع وحال . فالصينيون أهملوا الرياضيات واعتقدوا ان الارض مسطحة هي ومربعة وان حجم الشمس لا يزيد عن فتحة الدلو ، كما انهم اقتنعوا بان الشمس عندما تقيب انما تختفي عن انظارنا وراء احد الجبال وان خسوف القمر انما سببه الخوف من الشمس . ولما تم للمغول فتح الصين ونشروا سلطانهم من الصين الى مشارق اوزربا ، في القرن الثالث عشر ، ادخل مسلمو ايران الى الصين ، الرياضيات وعلم الفلك . ثم استحال اسلام الاتراك المغول ، عام ١٣٦٠ ، الى اسلام عرف بعصبيته وتشده الديني . وقامت في الصين ، عام ١٣٦٨ حركة قوية قضت على سلطة المغول في البلاد ، ورفعت الى دست الحكم اسرة منغ التي احتفظت فيما حافظت عليه بدائرة الرصد التي قام على ادارتها علماء مسلمون للفلك الذين لم يلبثوا ان صاروا الى مثل هذا المجتمع الصيني الذي تحدثت فيه العلوم الرياضية والهندسة

الى مستوى ادنى بكثير مما المحدرت اليه. الهندسة الاقليدية من الالمحطاط والتأخر . فقد فقدوا معلوماتهم النظرية ولم يبق لديهم سوى بعض جداول وازياج نسوا طريقة استعمالها وتطبيقها على الحركات الفلكية . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تتسرب المفوات والمغالط الى هذه التقاويم ، ففقدت ما هي بحاجة اليه من دقة وضبط واحكام ، شأن كل وضع تراخى فيه حلقات التقنية ، اذا ما أهمل العلم وتونسيت مبادؤه واصوله .

وقد عن للوزراء المسيحيين امثال بول سن - كيونغ - كي وليون لي - تشيه - تساو العمل على اصلاح الجداول الفلكية ، الصينية الاسلامية ، بالاستعانة بعلم الفلك الاوروي . وقام الأب رتشي بترجمة هندسة اقليدس المسطحة الى الصينية ، خلال عام ١٦٠٨ ، مما اثلج صدر الصينيين لشدة فرحهم بهذا العمل .

واعتقد الاوروبيون انفسهم ان رقعة الصين تنبسط بين خطي العرض ١٨° ١٨' الى الشمال من خط الاستواء ، وبين الدرجتين ١٢٨ - ١٧٧ من خط الطول الى الشرق من الجزر الخالدات ، أي انهم جعلوا ساحلها الشرقي في قلب المحيط الهادىء . يجوار ارخبيل جزر مارشال . وراح الأب رتشي يحدد خط العرض بالاستناد الى علو النجمة القطبية فوق الافق ، كما حدد خطوط الطول على اساس الفرق في الساعة (الوقت) بين رؤية الخسوف في الصين ورؤيته في اوروبا ، وبذلك وضع الصين بين درجتي العرض ١٩ - ٤٢ وبين درجتي الطول ١١٢ - ١٣١ الى الشرق من الجزر الخالدات .

كثيراً ما جاء ماركو بولو في رحلته المشهورة الى الصين على ذكر كاڤاي وذكر مدينة كبالو الجنية . فهل عنى يا ترى بذلك : الصين وعاصمتها بكين ؟ وراح الاب رتشي يدقق في الرحلة التي قام بها الاب اليسوعي بنتوده غويس الذي تنكسر بزي تاجر ارميني وسافر بصحبة قافلة من التجار مرت تباعاً بكابول وقرقاند وقشغر وكوغاند الى ان بلغت سو - تشيو ، عام ١٦٠٧ . فقد استكشف طريق خط العرض ٤٠ ، ولاحظ بانه اينما مر ، سمع المسلمين يدعون للصين كاڤاي ويسمون بكين كبالو .

وراح الاب رتشي يصوّب من وسائل تحويل هذه الارقام والجداول . وعندما كان يحالفه الحظ فيكنع صينياً بوجود الله ، كانت اصعب مرحلة او نقطة لديه الانتقال به من الاعتقاد بالله عن طريق العقل ، الى المسيحية . فيروح اذ ذاك يستعرض عمل الديانة مطبقاً على الحياة فيصف عمل الكنائس والمبادة والطقوس الدينية وحياة المعلمانيين التقوية ، وحياة الرهبان والراهبات الخشوعية والعناية التي يحيطون بها المرضى والبائسين ، في المستشفيات والملاجئ ودور المعجزة ، وغير ذلك من أمور التعليم والتلقين والمساعدة الاجتماعية ، ومن عرض هذه الاعمال كان يرفع بتعليقها الى الفكرة او الغاية التي تكمن وراءها : فيسوع المسيح الذي قبل الصلب تكفيراً عن خطايا البشر ، والذي قام ناهضاً من القبر وعاش حياً بينهم ، لا يمكن رؤيته

بالحس والنظر ، انما هو حاضر يستحق كل تكريم وعبادة يجب ان نحى به ومعنه بالمناولة وبالسير على خطاه في كل شيء .

والمشكلة الثانية هي التكيف مع الديانة والطقوس الصينية . فانطلاقاً من تعاليم الجمع التبريدني ، جرى الاعتقاد ان كل المجتمعات البشرية وكل الحضارات التي ظهرت عبر التاريخ ، قامت في الاساس ، على امور واشياء خيرة مشتركة مطابقة لتعاليم المسيحية في بعض مظاهرها . فالآداب الصينية هي من الآداب الانسانية في الصميم . فالمشكلة هي ان نجد في هذه الآداب الانسانية الصينية وبين الكتّاب التابعين للصينيين ، وفي هذه الجهود المبرورة التي بذلها بعض الصينيين لتحقيق 'مثل الانسانية السّفلى' ، ما جاء مطابقاً او مؤتلفاً مع الديانة المسيحية . ولم يكن الاب رتشي ليجعل او ليففل عن مساوي الصينيين وعوراتهم الذميمة ، كمبادتهم للاصنام ، وخرافاتهم السخيفة ، وعدم تحسّسهم بأية شفقة او رحمة نحو الفقراء والمرضى البائسين حتى بين اعضاء الاسرة الواحدة . وكم بدا على الآباء والامهات الصينيين انهم يلقون باولادهم الصغار وهم مرضى ، بين الاقذار والاساخ ، وكثرة السرقات وقبشي الفش بين الصينيين ، وفظاظة الجماهير الصينية ، وانتشار عادة اللواط بينهم . فقد رأى في هذه العورات والمثالب بعض نتائج الخطيئة الاصلية . واستقر في يقين الاب رتشي ان الصينيين تلقوا من خلفاء آدم المباشرين الوحي القائل بوجود كائن اعلى ، وبانهم حافظوا منذ اقدم المصور ، على فكرة الله الخالق المبدع ، الى ان فسدوا ووقع بينهم الضلال كفيرهم من الشعوب واسم الارض ، وتاهوا في طقوس وعبادات ومراسم خرافية اسطورية ، بينا اصول الديانة الصينية هي نفس اصول الديانة المسيحية . ويكفي ان يتوصل الصينيون للكشف عما هو مطابق في المسيحية للفكرة او العقيدة الاولى التي قال بها جدودهم الاولون والفضل الذي يجعل لهم هذه القيمة المثلى في نظرهم .

الا ان الصينيين كانوا يعتقدون ان جدودهم الاول كانوا آلهة . فعبادة الآباء الاقدمين كما تبنت مظاهرها وتبلورت ، صنمية محضة لا تتفق مع صميم العقيدة المسيحية . وقد عثر الاب رتشي في الكتب التي خلفها كونفوشيوس اللا ادري ، قوله ان الطقوس ليست سوى مظهر خارجي من التسليم بمجموعة من الحكم والقواعد السلوكية ، التي تساعد المجتمع على السير بانضباط ونظام . فهي مجرد ضوابط مدنية لا غير . وهذا هو بالطبع اعتقاد هؤلاء المثقفين الماديين الذين كانوا معاصرين للاب رتشي . فقد نظر العامة الى كونفوشيوس نظرتهم الى فيلسوف ، بينا رأى المثقفون ، في هذا الرجل وعبادته وتكريمه : احياء لذكر رجل حكيم . ولذا خطر للاب رتشي انه يمكن السماح للصينيين المسيحيين بممارسة تكريم الجدود ، وتكريم كونفوشيوس نفسه باعتبار هذه العبادة او هذا التكريم قاعدة سلوكية مع تمسكهم داخلياً بعقيدتهم المسيحية .

بعد هذا ، ماذا عن عبادة الالهة ؟ رأى فيها المثقفون او المستنيرون قوى طبيعية ، كما رأوا في طقوس عبادتها ، حفلات مدنية . ويبدو ان رتشي قبل الاخذ بهذا التخرّيج المجازي على شرط

ان ينقّي الصيني المسيحي نيته وان يرد ما يرى امامه من طقوس واحتفالات ، وهذه النذور والتقدم ، والتبركات والحركات والاشارات والاياءات ، الى سيدنا يسوع المسيح ممثلاً بصليب او ايقونة يخفيها داخل ثيابه .

هذا ما يفهم بالطقوس الصينية عندما يطرح على بساط البحث والنقاش امر التكيف او التطبيق .

وبفضل هذه القواعد والطقوس امكن لنا ان نعد في بكين عام ١٦٠٨ نحواً من ٣٠٠ مسيحي معظمهم من كبار الموظفين ورجال الفكر والثقافة . ورقد الاب رتشي بالرب سنة ١٦١٠ ولسان حاله يردد : « ها انا اترككم امام باب مفتوح على مصراعيه » . ومنذ ١٦١٦ ، كان اليسوعيين في الصين سبع وكالات او مراكز للرسالة ، منها واحدة في بكين ، وواحدة في نانكين ، وواحدة في تشي - كيانغ ، واخرى في كيانغ - سي وواحدة في كنتون ، تضم معاً ٢٢ راهباً يسوعياً يرعون ١٣٤٠٠٠ مسيحي صيني .

كان التقويم السنوي في الصين مصلحة رسمية تتعلق بالدولة . وقد خلف الاب لنفو باردو ، الاب رتشي ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين ، فجمع الاب باردو ، في اوروبا عدداً من مشاهير علماء زمانه في الرياضيات وعلم الفلك ، امثال ترنتيوس ، صديق غاليليو ، والاب آدم شال الذي وصل بكين عام ١٦٣٠ . واساء علماء الفلك الصينيون والمسلمون حساب كسوف الشمس الذي وقع في ٢١ حزيران ١٦٢٩ . واذا ذلك استصدر الوزير المسيحي بول سيو - كوانغ - كي من الامبراطور ، مرسوماً بإنشاء دائرة ثالثة لعلم الفلك ومكتباً اوروبياً لاصلاح التقويم ، ووضع تقويم يومي للظواهر الفلكية يمكن الركون الى صحته . واذا ذلك أتيح للآباء اليسوعيين ان يدخلوا الى الصين اجهزة علمية حديثة كالمجهر وان يعتمدوا الاختراعات التي تمت على يد غاليليو . فبعد ان تخلوا عن علم الفلك كما وضعه رتشي اعتماداً على بطليموس ، فقد بنوا الطريقة التي توصل الى وضعها العالم الفلكي تيخو براهيه ، والتي قالت بحركة الكواكب حول الشمس ، مع بقاء القول بدوران الشمس حول الارض . واستطاع الآباء ضبط التقويم كما نظموا بدقة جداول الرياح ورفعوا نتائجهم هذه الى الامبراطور ، عام ١٦٣٥ ، واخيراً قام الاب شال ، يصب على الطريقة الاوروبية المدافع اللازمة لتحصين القلاع بحيث تستطيع الصمود في وجه المنشو .

وكان الاب شال قد عُين ، عام ١٦٤٠ ، رئيساً عاماً للآباء اليسوعيين في الصين . وبوحي من القديس بولس بقي في بكين ، بعد سقوط المدينة بيد المنشو ، عام ١٦٤٤ ، واصبح صديقاً لاول امبراطور من اسرة تسنغ ، هو الامبراطور تشوان - تشي . فرقاه هذا وجعله موظفاً من الطبقة الاولى ، كما رفع من اصل اجداده ، وسمح له ان يرفع اليه شخصياً التماساته ومطالبه ، وعينه رئيساً لدائرة رصد الكواكب ، وهو مركز شغله الاوروبيون ، بلا

انقطاع ، حتى عام ١٨٢٥ . واخذ الاب شال يصب لأمرة سنغ المدافع التي كانت بحاجة اليها ، ووفق بين التقويم القمري المعمول به في الصين والتقويم الشمسي الفريغوري محققاً نجاحات باهرة في هذا الحقل . واعترافاً بهذه الخدمات صدر فرمان امبراطوري يعلن الديانة المسيحية ديانة حسنة واعطى اليسوعيين ، عام ١٦٥٠ ، ترخيصاً ببناء اول كنيسة في بكين بعد ان بلغ عدد المسيحيين في الصين ، اذ ذاك ، ١٥٠ ألف ، ثم ارتفع عددهم ، عام ١٦٦٧ ، اي في السنة التي توفي فيها الاب شال الى ٣٠٠،٠٠٠ نسمة .

مات الامبراطور تشوان - تشي ، عام ١٦٦١ . وفي عهد وصاية خلفه الامبراطور كانغ - هي ، توجه علماء الفلك المسلمون الى اليسوعيين تهمة الخيانة العظمى مما افقدهم الخطوة في عين الملك . غير ان العلماء المسلمين وقعوا في اغلاط كثيرة عند وضعهم التقويم . واذاً ، استدعى الامبراطور كانغ - هي ، عام ١٦٦٦ ، بعد ان اصبح راشداً ، الاب اليسوعي فريبييه الذي اصبح رئيساً عاماً للرسالة ، اثر وفاة الاب شال ، الى المجلس الامبراطوري واعلن ان علماء الفلك المسلمين ادخلوا في التقويم شهراً إضافياً راحوا يدعون من جهتهم انه لا بد من إدخاله ليستقيم التقويم . من نصدق واية جهة نشبل ؟ واذاً امر الامبراطور كانغ - هي باستقدام مزولة شمسية وطلب من اليسوعيين ومن علماء الفلك المسلمين ان يعينوا له موضع الظل في المزولة ، عند الظهيرة . وفي الصباح قام الاب فريبييه بالعملية الحسابية بطرفة عين ، بينما استمعى الامر على الجانب الآخر . وفي اليوم التالي ، وقع الظل تماماً في الموقع والمكان الذي حدده الآباء اليسوعيون . وهكذا رجعت بوضوح كفة اليسوعيين وبرزت دقة علماء الاوروبيين وكلف الاب فريبييه باصلاح التقويم ، ثم عين رئيساً لدائرة الرصد ، كما عين موظفاً Mandarin من الدرجة السادسة ، واستأذاً للامبراطور وللكبار الموظفين في البلاط ، في الرياضيات وعلم الفلك . وعمل الآباء اليسوعيون كمهندسين وميكانيكيين وطويحية ، وتمكن المنشو بفضل المدافع التي صلبها لهم الاب فريبييه من التغلب على الثائرين بزعامه وو - سان - كاي ، كما تمكنوا من الفوز بالروس عند نهر العامور . كذلك عمل اليسوعيون في حقل الديبلوماسية ، اذ قام الاب فريبييه بمفاوضة الهولنديين . وتمكن الاب غريلون من اعداد وتوقيع معاهدة رتشنسك . توفي الاب فريبييه عام ١٦٨٨ . فقد كان سبق له عام ١٦٦٨ ، بعد ان تبين ضعف الدولة البرتغالية وتأخرها ، ان توجه بطلب المساعدة من فرنسا ، وبعد ١٠ ايام من وفاته اخذ يتوافد آباء يسوعيون من الفرنسيين ، ألفوا بدورهم رسالة ثانية الى جوار رسالة اليسوعيين تحت حماية البرتغال .

وكان من اهمية الخدمات التي اداها الآباء اليسوعيون ، حمل الامبراطور على اصدار مرسوم امبراطوري ، عام ١٦٩٢ ، رخص فيه لرعاياه بخدمة الله وعبادته في كنائس الاوروبيين ، وهذا الترخيص الرسمي بممارسة العبادة الكاثوليكية علانية ضمن الترخيص بالبشارة بالانجيل . وهكذا فالديانة المسيحية التي كان مسموحاً بها حتى آنذاك ، اصبحت معترفاً بها رسمياً الآن .

وفي سنة ١٦٩٣ ، جعل القصر الامبراطوري مقراً للآباء اليسوعيين . وفي سنة ١٧٠٣ ، اقاموا فيه كنيسة . وقام اليسوعيون الفرنسيون ، بين ١٧٠٦ - ١٧١٦ ، يعدون للامبراطور خريطة للامبراطورية الصينية ، عمل على نشرها وتوزيعها الجيوجراف انجيل الذي نشر ، عمام ١٧٣٧ « أطلس الصين الجديد » .

طلع علينا القرن السادس عشر باكتشاف اميركا او العالم الجديد ،
كما طلع القرن السابع عشر علينا باكتشاف الصين . ان معارضة
افكار الاوروبيين بالافكار والمعلومات التي جمعوها عن الصين
ساعدت كثيراً على توضيح الافكار الرئيسية التي كانت اساساً لمذهب الميكانيكيين وفلسفة الانوار .

عرفت اوروبا الصين ، اول ما عرفتها ، من خلال كتاب وضعه ده غونزاليس ده مندوزا
الذي تم نقله الى الفرنسية عام ١٥٨٩ ، ثم عن طريق دراسة اضافية وضعها الاب تريفلت ،
اساسها مذكرات الاب رتشي ونشرت عام ١٦١٦ . ثم صدرت مذكرات ورسائل اخرى
لبعض الآباء اليسوعيين ، وقد عرضت هذه المؤلفات واعادت الى البحث مشكلات عويصة .

في مقدمة هذه المشكلات ، مشكلة صلاح الانسان والخطيئة الاصلية . فقد عمل الآباء
اليسوعيون على اساس المجانسة او التكيف بين اخلاقية كونفوشيوس والاخلاقية المسيحية .
وهنا كان لا بد للمرء من التساؤل ما اذا كان الصيني الذي ياتم بهذه الاخلاقية ، ويسير بهديها في
سلوكه ، يتخلص ويذهب الى النعيم . وقد اجاب الاب لا موت له فايه ، في كتابه الموسوم :
« فضيلة الوثنيين » المنشور عام ١٦٤٢ ، بالاجاب ، مدلل على ذلك بان كل حكماء الامم الذين
لم تصلهم البشارة بالانجيل والمسيحية ، والذين اتبعوا التاموس الطبيعي ، وعرفوا بتقوam ، قد
تم لهم الخلاص . وراح الاب ارنولد الكبير يبين ما في هذا التعليم من غلط وخواء وبطلان ، وما
يخفيه في ثناياه من سموم ، اذ في مثل هذا القول تأكيد بان الطبيعة البشرية بقيت ، بعد الخطيئة
الاصلية ، سالحة وقادرة على اتيان اعمال الخير والصلاح ، ليستحق معها صاحبها ، جزاءً
وشكوراً . فمثل هذا التأكيد يقضي بصاحبه الى الهرطقة البيلاجية ، اذ يقتل تماماً عقيدة
الخطيئة الاصلية كما يقضي على ضرورة النعمة .

اما الثانية من هذه المشكلات التي يثيرها هذا الاعتقاد فتتمس في الصميم الميزة التي خص الله
بها الشعب اليهودي منذ آدم ، هذا الشعب الذي عرف كيف يحافظ على وديعة الوحي وعلى صيانة
التوراة والعكسب الموحاة من الله ، هذه الكتب التي تؤلف اقدم تاريخ للبرية . والحال ان
قدم الشعب الصيني يضع في ليل الزمن ويبدو انه اقدم ما تقصه علينا التوراة من اخبار حول
ظهور شوب الارض . فالتاريخ الصيني لفت نظر لا بايرير لقدمه فشجعه على القول بوجود
بشر قبل آدم . فنشر عام ١٦٥٥ نظرية ما قبل الآدميين . اما جاء في الفصل الخامس من رسالة
القديس بولس الى الرومانيين انه قبل خطيئة آدم ، كان الناس يخطئون رغم ان خطاياهم لم تكن

لتحسب عليهم ، اذ لم يكن الناموس قد جاء بعد ؟ أو ليس الفصل الاول من سفر التكوين يروي لنا قصة خلق العالم والانسان ، والفصل الثاني قصة خلق آدم والامة اليهودية بعد ذلك ؟ وعندما طرد الله قايين من امام وجهه ، ألم يقل له هذا : ان الشعوب التي سأصافها سيقتلونني مع انه لم يكن لآدم بعد ، سوى قايين وهابيل ؟ فاذا لم تكن التوراة سوى قصة شنب صغير جاء بعد غيره من شعوب الارض ، وليس تاريخ الانسانية وتاريخ العلاقات التي ربطت هذه الانسانية بالله ، كما تزعم وقدعي ، فهل يمكن ان تكون التوراة كتاب الله الموحى به والذي يفيض بحقائق من المسير على العقل الوصول اليها بقوة الطبيعة ، مع انها فوق ادراك الانسان ؟ فالمسيحية والحالة هذه ، تصبح كلها مزعزة . وقد اثار هذا الكتاب الشكوك في فرنسا وهولندا والمانيا والسويد . وفي سنة ١٦٦٩ ، وضع الاب اليسوعي مارتيني : « تاريخ الصين القديم » ، تكلم فيه عن اول امبراطور عرفته الصين سنة ٢٩٥٢ ق.م ، اي ٦٠٠ سنة قبل التاريخ الذي يمينه النص العبراني لوقوع الطوفان ، في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الصين مأهولة بكاملها وعلم الفلك الصيني يعمل به ويعتمد في جميع الاقطار . فقد جاء تاريخه هذا يقوي ويؤيد ، من حيث لا يدري ، نظريات لابريير والنتائج التي آل اليها .

وثالث هذه المشكلات هي مشكلة « الطقوس الصينية » . لم تكن هذه الطقوس ، في نظر الآباء الدومينيكيين والفرنسيسكان سوى مظاهر لعبادة الاصنام . فقد حملوا البابا ، عام ١٦٤٥ ، على اصدار براءة تزدل هذه الطقوس الصينية بذاتها باعتبارها مضادة للمسيحية وعلى نقض منها ، ثم استصدر الآباء اليسوعيون ، عام ١٦٥٦ ، براءة بابوية تجيز هذه الطقوس دون ان يكون في الامر اي تناقض بين البراءتين . فهذه الطقوس ، فاسدة ، مفسدة ، من حيث المبدأ والأساس ، ولكن تجنباً لشر اكبر ، وتقديراً للحقد والبغضاء والعدا الذي سيتعرض له المرسلون في الصين ، يمكن نوعاً ما ، الاخذ بهذه الطقوس ، مراعاة للضعف البشري ، والتجاوز عنها مؤقتاً . وهكذا ، صدر من مجمع نشر الايمان ، عام ١٦٦٩ ، قراران ، باثبات البراءتين البابويتين الصادرتين عام ١٦٤٥ ، و ١٦٥٦ .

وقد راح الرأي العام بدوره يتعرض لهذه القضية بالجدل والنقاش الحاد المزدوج بالهزة والسخرية احياناً ، بعد ان شوّهت بشكل يدعو للاسف ، كما نرى ذلك في الرسالة الخامسة من رسائل بكال ، عام ١٦٥٦ . وفي هذه الرسالة الهجو القاذع يرشق به اليسوعيين ، بعنوان : « اخلاقية اليسوعيين العملية » ، مع انه لم يتعرض للنهج اليسوعي . وقد رجعت اليهم التهمة باخفاء تعاليم المسيح المصلوب ، والقيام باعمال تنتزى بالصنمية والشرك وتشجع على فساد الاخلاق .

وليس يستبعد قط ان تكون نظرية تشو - هي ، وهذه الحركات الدائرية المنسوبة الى كي تحت تأثير كل من Yin و Yan قد اوحى لديكارت بنظرية الزوبعة .

فقد رأى لينينز في العلم طريقة تساعد على بناء مدينة شاملة من شأنها ان توحد بين الناس

اجمع ، وهذه المدينة الشاملة بإمكان الناس ان يشيدوها بمزج كل الحضارات التي عرفت البشرية عبر تاريخها المديد . وانطلاقاً من مثل اليسوعيين في بكين ، راح عام ١٦٧٠ ، يقترح تأسيس جمعية انسانية *Soc philadelphique* ، وهي كناية عن جمعية تضم كل العلماء ، تأخذ على نفسها انشاء مكاتب اتصال او مكاتب ارتباط في الصين واليابان . وحاول ان يستنبط لغة عالمية من هذه الحروف الصينية ، ذات الدلالة وما لها من معان . وبعد ذلك يوحى له كانغ - هي « هذا الملك الذي يتجاوز بقامته الفارعة المديدة ، اعلى ارتفاع عين للانسان ان يصل اليه ، والذي يشبه الآلهة فيدير كل شيء بايماءة من رأسه ، والذي تحلى مع ذلك بالفضائل والحكمة ، فاستحق بذلك ان يحكم الناس ، فيرى فيه مثال : « المستبد العادل » . وقد شطح به الخيال ، فتصور مرسلين صينيين يعلمون الاوروبيين الاخلاق والسياسة الصينية ، وعصر الحضارة الذي يبرز فيه كانغ - هي ، العصر الاخر الذي يلعب فيه اسم لويس الرابع عشر يوحّد بينها عصر بطرس الاكبر . وليس بمستبعد قط ان كتاب *Ching* - I أو كتاب التحولات ونظرية تشو - هي اثر ا كثريراً في الفلسفة العضوية *Organiciste* التي قال بها لينز ، فادت به الى وضع نظريته في « الموادة » . هذا الجوهر البسيط ذو روحية لا جسم لها ولا امتداد ، غير قابلة للتجزئة وتدخل في تركيب الأشياء ، لا تتفاعل مع غيرها من المواتات ، ولها خاصتان اساسيتان هما الادراك والتزوع . صحيح ان لينز استوحى كثيراً من تقدم العلوم الطبيعية في زمانه ، بعد الاكتشافات الهامة التي حققها علماء بارزون امثال : لوينوك وسوامردام ، ومالبيجي . والصعوبة التي لقيها في محاولته لتقليل الكائن الحي ، قامت في اعتماده على الميكانيكية الكرتزيانية . هنالك ، ولا شك قرائن نحملنا على التفكير بهذا التناغم الذي احب لينز ان يراه قائماً بين الفكرة الشاملة المفروضة التي قل بها تشو - هي وبين هذه التطورات « او « التحولات » التي قال بها لينز ، والتحولات التي قال بها تشو - هي بواسطة الافعال المتتالية بين ين *Yin* ويان *Yan* . قد يكون قام شيء من هذا بين هذه التعاليم والفلسفة .

وقد اثرت الصين على عدد كبير من الاوروبيين الباحثين عن اخلاقية تحالف الاخلاقية التي تعلم بها الديانة المسيحية . ففي سنة ١٦٨٧ ، نشر الاب كويليه ، كتابه المعنون : « الفيلسوف الصيني كونفوشيوس » . وقد خصص له الناقد الفرنسي ريچيس نقداً علمياً نشره في « مجلة العلماء » *Il. des Savants* في عددهما الصادر بتاريخ ٥ يناير ١٦٨٨ ، وجد فيه : « استعداداً فكرياً شبيهاً بهذا الاستعداد الذي يدفع الانسان لان يتخلى عن منفعة او عن راحته الخاصة ويجعل لجميع الناس الحب الواحد كأنهم من لحمه ودمه يؤلفون معه شخصاً واحداً ، ويشاركهم بالتالي الشعور ذاته ، معبراً عن هذا الحب خير تعبير ، في السراء والضراء على السواء » . هذه هي الاخلاقية الانسانية التي قال بها ، وتمنى الحصول عليها مجتمع اخذ بالابتعاد عن المسيحية ومثلها ، فقصم فيه كل حب ليسوع المسيح وكل رغبة في الاقتداء به .

وفي الوقت ذاته ، اناحت هذه الكتب والمباحث العديدة التي صدرت حول الصين الوصول

الى هذه النتيجة وهي ان الاخلاقية الانسانية تكفي وحدها . فقد اعترف بهذا الاب كويليه نفسه في مقدمة كتابه حول « مادية الصينيين والحادهم » . وقد كرر هذا التأكيد الاب لونغو باردي ، عام ١٧٠١ . واذا ذلك ، راح بايل يعلم ويؤكد ان الدليل على وجود الله المبني على اخذ جميع الناس بهذا الايمان يسقط اذن ، من تلقاء نفسه . ومن جهة اخرى ، لما كان الصينيون اكثر شعوب الارض تمسكا بالاخلاق والآداب الانسانية ، فلا لزوم ، والحالة هذه ، للاخلاقية التي يقول بها الدين المسيحي ، ولا لزوم بالتالي لمستوى حضاري عال .

وفي سنة ١٦٩٦ ، في كتابه الموسوم : « رسائل حول الوضع الحالي في الصين » ، راح الاب له كونت ، يفسر النتائج الطبية التي اصابها اليسوعيون عن طريق تعويلهم على الديانة الصينية التي عرفت كيف تحافظ ، عبر الاجيال ، على نقاء وصفاء الحقائق الدينية الاولى التي اوحى الله بها للانسان الاول ، كما عرفت كيف تصون للأجيال الطالعة معرفة الله الحقيقي مدة ٢٠٠٠ سنة . وقد راح قراء كثيرون يضحخون كثيراً افكار الاب له كونت ويحسمونها ، عندماراخوا يؤكدون أن الصين مجدت الله بشكل وكرمه على صورة يمكن للمسيحيين ان يحتذوها ، وأن الديانة الصينية كانت انقى الديانات طراً ، وان الصينيين تفردوا بالتواضع وامتازوا بالمعبادة الداخلية والقداسة ، وان الصين وحدها بين كل الامم ، خصها الله ، دون سواها من الشعوب والبلدان ، بنعمته . واذا ذلك ، ماذا يبقى من امتياز الشعب اليهودي ؟ وما الحاجة ، بعد هذا ، الى موسى ، وما الحاجة بعد هذا ، للسيد المسيح وتجسده وفدائه والعهد الجديد ؟ واذا ذلك تطل علينا نظرية « الخطيئة الفلسفية » ، هذه النظرية التي علم بها الاب اليسوعي مونييه ، هذه الخطيئة الفلسفية المقترفة بدون اية معرفة لله ، ليست اهانة لله . اذن ، فالفيلسوف كونفوشيوس وكل قدامى الصينيين لم يهلكوا . ويبقى بعد هذا ، الاعتصام بالفضائل الطبيعية وتطبيقها وفقاً لقوى الانسان الطبيعية حتى يخلص الانسان . ولذا فالمسيحية لا تفيد شيئاً ، والدين الطبيعي يكفي وحده .

واذا ذلك تحتدم الحنافة ويرتفع النقاش حول « الطقوس الصينية » ، هذه القضية الشائكة التي راح يعالجها الاب سانت ماري ، من رهبانية المرسلين الاجانب ، في كتاب اصدده ، عام ١٧٠١ . فقد عمل الاب رتشي في محيط اوجو مشبع بالحدسية الادبية والفردية التي علم بها وانغ - يانغ - منغ ، والتي كانت تيسر الاتجاه نحو فكرة الله . وعلى عكس ذلك ، راحت اسرة تسنخ تعمل على تأمين الفوز للمادية التشريمية . وهذا الفرق الكبير القائم بين تفكير المندرين والمسيحية اخذ يتسع . وبعد ان درس الآباء اليسوعيون الكتب الصينية القديمة رأوا ان التدقيق بين هذه العقائد والطقوس الصينية ، وبين العقائد المسيحية ممكن تحقيقه ، اذا ما عاد الصينيون الى ايمانهم القويم الصحيح القديم ، ويمكن بالتالي الانتقال بهم الى المسيحية . فكانوا في تفكيرهم هذا على حق . اما الآباء الدومينيكيون والفرنسيسكان والآباء المرسلون في الخارج ، هذه الرهبانية التي انشئت عام ١٦٥٩ ، فقد راحوا يعلمون انطلاقاً مما كان عليه الصينيون من العقائد ، اذا ذلك ، انهم قوم ملحدون وبالتالي من عبدة الاصنام . فالطقوس الدينية ، والحالة

هذه ، هي تجديف على الله ، واهانة له . وكانوا في منطقهم هذا على صواب وحق .

ومنذ عام ١٦٥٨ ، كان الكرسي الرسولي ، قد عين ثلاثة نواب رسوليين تقاسموا فيما بينهم الادارة الكنسية في الصين ، من بينهم غريغوريوس لويس الذي جاء تعيينه ، عام ١٦٩٤ ، فكان اول اسقف على الصين . ففي سنة ١٦٩٣ ، اصدر ميغرو الذي كان نائباً رسولياً على فوكيان ، منشوراً شجّب فيه نظريات اليسوعيين وتعاليمهم حول الطقوس الصينية ، وحرّم التقاديم على شرف كونفوشيوس ، وعبادة او تكريم الجدود . وبتاريخ ١٣ تشرين الاول ، شجبت جامعة السوربون بعض المقترحات المنسوبة الى اليسوعيين باعتبارها ملحدة ومناقية للعقيدة الكاثوليكية . واذ ذاك ارسل البابا الى الصين مطراناً ده تورنون بطريرك انطاكية الذي وصل بكين ، عام ١٧٠٥ فاستقبله الامبراطور كانغ - هي ، فعلم هذا ان البابا اصدر حكماً في ٢٠ كانون الثاني ١٧٠٤ شجّب فيه تعاليم اليسوعيين ، فغضب كانغ - هي اذ كان سبق للبابا وأكد ، بناء على طلب الآباء اليسوعيين ، ان عبادة كونفوشيوس ليست سوى مراسم مدنية لا غير . فأصدر الامبراطور ، اذ ذاك امراً بطرد المطارنة ميغرو وده تورنون . فنشر هذا الاخير سنة ١٧٠٦ ، في نانكين منشوراً حرّم فيه كل الطقوس الصينية . وبعد ذلك بقليل ، اصدر الامبراطور كانغ - هي مرسوماً يحظر فيه على الأوروبيين الإقامة في الصين بدون ترخيص رسمي من السلطات المعنية . وفي ١٩ آذار عام ١٧١٥ ، صادق البابا بالبراءة التي اصدرها بعنوان *Ex Illa Die* القرار الذي اصدره عام ١٧٠٤ ، وطلب التقيد به .

ومنذ ذلك الحين ، اخذ انتشار المسيحية في الصين يتأخر ويتقهقر بشكل محسوس . وفي الوقت ذاته تحجرت الصين في فلسفة تشو - هي وشددت في فرض الطقوس والتمسك باعراف الاقدمين وعاداتهم المرفقة . اما في اوروبا فقد بعثت الافكار والنظريات التي قامت حول الصين ورمت الى التعريف بها ، النشاط وساعدت على ترويج بعض المبادئ التي قامت عليها فلسفة الانوار ، كالديانة الطبيعية وطبيب عنصر الانسان الاول ، والاخلاق الطبيعية ونظرية النفعية والاستبداد النير ، وغير ذلك ، اما الصين فازدادت تحجراً . اما التطورات التي اصابته اوروبا منذ ان اخذت من عهد بيميد باسباب التجدد والرقى الذي دعت اليه تعاليم المدرسة الاتباعية ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، و « المعتدلون » في القرن الرابع عشر والخامس عشر والميكانيكيون وديكارت اخيراً فقد ازدادت وسارت بخطى اسرع .

الفصل الرابع

آسيا تعرض عن أوروبا

التحجر الآسيوي . لم تدع آسيا مجالاً لأوروبا تجري فيها تعديلاً أو تدخل عليها تبديلاً ، باستثناء حفنة من بضعة ألوف من ابنائها . فقد أصبحت أذناها أمام الديانة الكاثوليكية كما أعرشنت عن العلم الأوروبي ، اذ لم تر فيه سوى اثاره للفضول . ثم انها تحاملت على نفسها ، واستمانت ببعض الفنانين الأوروبيين دون ان تتلقح روحها بالتقنية الأوروبية ، ورضيت تساهلها واغضائها بشيء من التبادل التجاري مع فريق من التجار الأوروبيين ، مع حرصها الشديد على الاستمساك بمؤسساتها ونظمها المتوارثة منذ القدم . خضعت للتطور واخذت بأسبابه خلال هذين القرنين استجابة لحوافز دفيئة اكثر منه رغبة " باحتذاء الغربيين " ، دون ان يحسن هذا التطور صلب مدنيتهما . وقد عبر شاردن احسن تعبير عما خامر الأوروبيين من شعور من هذا الوضع اذ قال : " ليست آسيا كقارتنا الأوروبية حيث يبدل الناس من أزيائهم ومشاربهم وهواياتهم في الملابس والمشرب والمأكل والسكن ، وفي كل شيء ، بأسهل مما يُظن . هناك الاستمرار على الوثيرة الوحيدة والبقاء على التقاليد الى مالا حد له ولا نهاية . فالملابس عندهم اليوم ، هي ما كانت عليه من زى من عدة قرون . وهذا ما يجهلنا نعتقد بأن هذه الاشكال والصور والصيغ الخارجية التي يتلبسها الناس في تصرفاتهم واعرافهم وعاداتهم واخلاقهم وطريقة تحدثهم ، في هذا الجزء من العالم ، هي ذاتها تقريباً كما كانت من نحو الف سنة ، باستثناء التبدلات التي طلعت بها الانتفاضات الدينية . وهو شيء لا يؤبه به وليس له اهمية ، فاسيا توسحي للرء فكرة الجود او التحجر .

ورب سائل يسأل لماذا لم يعتمد الأوروبيون هنا ، كما لماذا لم يعتمد الأوروبيون الى فتح آسيا بعد ان تم لهم التفوق الحربي اعتمدوا في اميركا ، مثلاً ، على السلاح واستعملوا بالقوة والبطش . ويرى الرحالة الأوروبيون ان ما تم لأوروبا من اسباب التفوق في السلاح والنظام والتقنية والتكتيك الحربي كان من شأنه ان يجعل الفتح امراً ميسوراً ، ومطلباً هيناً ، سهلاً ، وقد كتب احد المراقبين الفرنسيين المشهور لهم بعمق التفكير ،

وسداد الرأي وصدق الملاحظة ، بعد ان اقام في الهند من ١٦٥٥ - ١٦٦١ ، قائلا : « هذه الجيوش الجرارة التي تسمر الخوف في القلوب لكثرتها ، تقوم احيانا بمجهودات طيبة . اما اذا مادت اليها الرعب ونشبت الفوضى في صفوفها ، انقطعت الحيلة في ايقاف الذعر عند حد ، فاذا بها كالسيل الجارف وقد اطاح بما يقف في سبيله من حدود وسدود ، فتندفع المياه ، في كل حذب وصوب وتفرق البلاد في غمر مهلك مبيد وينقطع الرجاء من اي دواء ويبطل كل علاج . ولذا كم من مرة « رحت » اغلى النظر في وضع هذه الجيوش التي لا نظام لها ولا قيد ، والتي تكاد تسير في تنقلاتها سير النعاج في القطيع ، فاتصور ما عسى ان يكون منها المصير لو اتفق وهبط هذه البقاع ، جيش من ٢٥٠٠٠ جندي من هؤلاء الجنود الاشداء المجرّبين ، بمن رأيت مثلهم كثيراً مقاطعة الفلاندر ، بقيادة ولي العهد او بقيادة تورين مثلاً لتصورتهم يسرون على جثث هذه الجيوش مها بلغت من ضخامة او عدد . أصمّدوا في وجه الصدمة الاولى ، وهو امر ليس بالمسير ، فترام وكان على رؤوسهم الطير مصعوقين جزعاً ، او انقضوا كالصاعقة وهزوا الارض هزاً ، كما فعل الاسكندر . فاذا لم يصمدوا ، وهو شيء منتظر ومتوقع ، فكُن على ثقة بانه وقع فيهم المقدور وينتهي بهم الامر في جو الملح والحرب . والامر مع الصينيين لا يختلف عن هذا الوضع ، فالسلطات الاسبانية في الفيليبين عرضت على الملك فيليب الثاني ، فتح الصين وتدوينها لدعم عمل المرسلين بقوة السلاح ، مقدرين بان جيشاً من ١٠٤٠٠٠ - ١٢٤٠٠٠ جندي حسني التدريب ، تمسوا بغنون الحرب ، من جنود اسبانيا واطاليا المجرّبين ، يشد أزرهم من ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ يابالي مع ثلاثة او اربعة خبراء اخصائيين بصب المدافع يكفي للقيام بهذه المهمة . فلم تكن هذه السلطات على خطل او على وهم فيما فكرت به ، ومن الملاحظ ان الفشل الوحيد الذي مُني به المنشو في فتحهم للصين وقع لهم عند البدء بمحصارهم الأول لمدينة كواي - ين سنة ١٦٤٦ ، عندما اصطدموا بثلاثمائة جندي أوروبي تساندهم المدفعية التي ارسلها لهم البرتغاليون من مكاء . فكم بالاحرى ينجح الأوروبيون لو قاموا بالهجوم في عهد المنغ ، عندما كان الصينيون يطبقون بكل دقة طقوسهم الدينية في الحرب ، اذ أنهم لم يكونوا يرمون الى اباداة قوى العدو ، بل كانوا يتبعون لكل واحد المحافظة على الظواهر ليتم لهم عقد سلم مشرف . ففي حرب كهذه ، لا يهاجمون قلعة مرتبة الزوايا الا من جهات ثلاث ليتيحوا للمحاصرين الحرب والنجاة بانفسهم من الجهة الباقية حرة ، فيتفادون مقاومة شديدة . فلا يردّون على العدو الذي يقذفهم بالمدافع بالمثل ، وذلك ليحملوه على الخجل من نفسه للعنف الذي يلجأ اليه ، فيتوقف عن عمله الوحشي . فاذا ما اصيب العدو ببعض الضربات ، أرغم على المفاوضة . فعليك ، والحالة هذه ، سحب جيوشك من مراكزهم للتدليل على استعدادك لاستقبال ممثليه المفوضين . كل تحركاتهم الحربية تخضع للطيرة او الضرب بالرمل الذي يوجب بان تخلي القوات المرابطة مراكزها في الحصن ، من الباب الشرقي ، في الربيع ، ومن الباب الغربي ، في الصيف وهلمّ جرّ . لا وأيم الحق ، فالصينيون هم ابعد عن ان يصمدوا في الميدان ، لو صادفوا امامهم الجنرال سبينولا مثلاً ، او القائد تورين .

النظم الاجتماعية في أوروبا قولي
الدولة قوة اكبر

دخل في روع الأوروبيين ان الامور تسير بشكل ابسط بعد
تحقيقهم النصر الأول ، فتنهار امامهم هذه الامبراطوريات
الشاسعة ، دفعة واحدة . في بلاد المعجم والهند ، ينتقل

الرؤساء من جانب المغلوبين الى جانب الغالب . فالتركيب الاجتماعي والنظم الاجتماعية التي
عليها البلاد ، لا تساعد على المقاومة والصمود . لنترك الكلام هنا لبرنيه ، هذا المعلق الثاقب
النظر . « فالامر في الهند لا يشبه بشيء الوضع في فرنسا او في الدول المسيحية الأخرى ، حيث
يملك اسياد البلاد ممتلكات واسعة ، تدر عليهم واردات وافرة ، تتيح لهم وسائل العيش والبقاء
بعض الوقت . اما في الهند فليس لهؤلاء الأسياد سوى مرتباتهم .. التي باستطاعة الملك ان
يقطعها او ان يوقفها عنهم ، ساعة يشاء ، وبذلك يهون الى الحضيض ، دفعة واحدة ، ويفقدون ما
كان لهم من شأن واعتبار ويصبحون نسبياً منسياً فلا يجدون لهم مخرجاً يستظلون تحت كنفه ..
فكل الارض ومن عليها وما فيها هي ملك المغول الكبير ، باستثناء بعض المنازل والحدائق
يترك لرعاياه حرية التصرف بها بيعاً او يقتسمونها فيما بينهم كما يرغبون ... لا قدر الله ان
يكون ملوكنا في أوروبا مسيطرين على الارض والممتلكات التي هي ملك رعاياهم ، كما لا قدر
الله ان تكون ممالكنا في مثل الوضع الذي تتسكع فيه ممالك الهند ، وهي على ما هي عليه
من حسن العناية واكتظاظ السكان ، وجمال البنيان ، ووفرة الغنى وحسن الظرف والأدب
وسعة الازدهار الذي نراها عليه . فملوكنا هم على طراز آخر من الغنى ، والقوة ومنعة الجانب ،
ليس منه النزر النزر هنالك . ولا يسعنا الا الاشارة الى ما يتمتعون به من حسن الكلام وما
يحاطون به من صدق الخدمة وصادق الآراء . ولن يلبث هؤلاء الملوك ان يجدوا انفسهم في
البادية ، معزولين في الصحراء ، وضعهم وضع البائسين المستوحشين ، اي وضع هؤلاء بالذات
الذين جثت على وصف حالهم من قبل الذين طمعوا في الحصول على كل شيء ، ففقدوا كل شيء ،
وفي سعيهم الحثيث لكسب الغنى والثراء ، وجدوا انفسهم لا يملكون شروى نقيير ، او أقنله ،
بعيدين جداً عن هذه الاهداف التي وضعوها نصب اعينهم الرمداء ، او نصب اطباعهم الاشعبية
التي هدفوا من وراءها ليصبحوا اكثر استبداداً واكثر سلطة مما تسمح به الشرائع السبوية
والنواميس الطبيعية ؛ والا كيف يتوفر لنا مثل هؤلاء الامراء ، وهؤلاء الاحبار ، وهؤلاء
النبلاء ، وهؤلاء البورجوازيون الأثرياء وجدوا ، وهؤلاء التجار الاغنياء ، وهؤلاء العمال الصنعة الماهرين
وهذه المدن العامرة كباريس وليون ، وتولوز وروان ، ولندن مثلاً ، وغير ذلك من المدن
العكبيرة ؟ فاذا ما تضعض الجيش في البلاد ، دب اليها الفساد ، فلم يعد من تقوم له قائمة او
يتمتع بقوة خاصة تؤمن لها سلطة تتوفر لها من الوسائل والامكانيات ما يؤمن للبلاد نظاماً
دفاعياً فعالاً .

اما في الصين ، حيث الامبراطور هو المسيطر مبدئياً على كل الاملاك والاراضي ، فالملكية
العائلية كانت اقوى وارسخ (مما في الهند) ، انما المقاومة الوطنية في هذه الامبراطورية المترامية

الاطراف ، ضعيفة ، وهنة ، كما مر معنا ، وذلك لسبب رئيسي وهو ان كل فرد لا يهتم الا منفعته الخاصة ولا يهتم بالقضايا السياسية والوطنية ، ولا لقيام هذه الاسر التي تتألف من الآباء والجدود ، فيشكل اعضاؤها شيئاً اشبه ما يكون بجمهورية مستقلة .

الدفاع عن الوطن لا يمكن ان ينهض على مهارات العامل والمهندس . كل تفوق اورربا التقني ملوك آسيا رأوا انفسهم مضطرين للتعاقد مع طويجية ومع مهندسين عسكريين اوروبيين ، اذ ان الوسائل التقنية الآسيوية كانت في غاية الضعف . فقد وضع الاوروبيون في خدمتهم مئات الآلات والاعتدة التقنية ، بينما لم يكن ليتوفر للآسيون منها سوى نزر نزر .

لم يكن للفرس نجارون بحصر المعنى ، وليس للعاملين في النجارة غير الفأس والمنشار والمقص . فلم يعرفوا شيئاً عن المثقب ، وكانوا يستعملون المقدح بواسطة القوس والوتر . والعمال يعملون وفقاً للوامر والتعليمات الصادرة اليهم ، فيقبعون في زاوية الحجرة ويديرون اجهزتهم بارجلهم ، فالمبيض يعمل الى جانبه خادمه حامل كيس الفحم والمنفخ والقليل من الصودا ، وبعض روح النشادر يخزنه في قرن الثور ، وفي جيبه بضع قطع صغيرة من القصدير . واذ ذاك يعمد الى زاوية من فناء المنزل يركز فيها كوره ويوقد النار ويأخذ في العمل . وعلى هذا النحو سارت الامور ايضاً في الهند . فقد استعانوا بآلتين او ثلاث آلات لانجاز عمل يستخدم له الاوروبي ١٠٠ آلة مختلفة . فقد عرفوا ان يقلدوا المصنوعات الاوروبية ، انما كان يقتضيهم ذلك شهرين او اكثر ، بينما لا يحتاج الاوروبي لاكثر من ثلاثة ايام . فالنجار لم تكن تتوفر له طاولة ، ولذا تراه يجلس الى الارض يستعين برجله لتركيذ قطع الخشب ، كما كان يعالج الحجارة الكبيرة بالازميل ، وكان يقتضي له ثلاثة ايام لقطع قرمية خشب بينما يقطعها الاوروبي باقل من ساعة . اما الحداد فكان يركز عمله امام منزل الزبون ، ويوقد النار ويبني من التراب حائطاً صغيراً ، ويركب كوره ويجلس امام النار فيدفع برجله قطعة الحديد وهو ينفخ بالكور ، وعندما يحمى الحديد يأخذ ، وهو جالس الى الارض ، بتطريقه بمطارق صغيرة ، فوق سندان صغير ، كما ان غذاءه كان شيئاً .

اما الصين التي كانت من هذه الناحية احسن تجهيزاً ، بعض الشيء ، فلم تكن احسن وضعاً . فالعربة ذات الدولاب المركزي الوحيد كانت تؤلف مخلاً شيئاً كما انها لم تكن مستقرة التوازن . وكانت الزراعة فيها تتطلب مجهوداً كبيراً . كان المزارع الاوروبي يستخدم في فلاحه ارضه حيوانات الجر فيترك العشب يغمر المحراث ، ويبدل جهداً اقل مما يبدله الفلاح في الصين او في اليابان ، في حقل الارز . فكل نشاط زراعي يقوم به يحريه بيديه باستثناء شق الارض للوجه الاول ، ويمهد التربة ويصون الاقنية والمجاري المائية ويعشب الارض باستمرار . فالجاموس والبقرة والحمار عند الصيني او الياباني هي اسوأ من غذاء الثور عند الاوروبي ، ولذا تفقد هذه الحيوانات نشاطها في العمل .

رفض الآسيويون اقتباس الأساليب العلمية الجديدة . فقد أساءوا استعمال فارة التجارة التي أدخلها الأوروبيون على الاستعمال . وكان البون شامساً والفرق عظيماً في التحسس للاختراعات وطلب الكشف العلمية الجديدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد فضل الآسيويون ان يشتروا من الأوروبيين الأجهزة التي يرغبون فيها بدلاً من صنعها (الساعات والمدافع وغير ذلك) وقد فضل أمراؤهم ان يستوردوا من أوروبا تجار الجواهرات والصاغة وشغيلة الأبنوس وصناع المينا والرسمين . فالعرش المرصع الذي جلس عليه المغول الكبير كان من صنع أحد الصاغة الفرنسيين .

ولعل السبب الأكبر لهذا الركود التقني الذي تحبط فيه الفرس والهنود تفوق العلم الأوروبي هو احتقارهم للعمل اليدوي وازدراؤهم للعامل الذي كثيراً ما تعرض للضرب والاهانة ، كما كانت حصته من المعاش ضئيلة . أما في الصين ، فعلى عكس ذلك ، اذ كان العمل محترماً . واشتهر عن العامل الصيني قوة احتمال وجلد طويل وصبر نادر ، يعمل دوغماً ملل أو تعب ، ودون ثذمر أو تأفف . وهنا يقوم عامل مشترك بين جميع الاقطار الآسيوية ، ميز هذه الخيبة بالذات ، ويتمثل في مقت أو كره المجهود العقلي . فقد افترق الآسيويون للفضول الفكري أو العلمي . فكانوا يقلدون بمهارة كلما كان بوسعهم حصر الانتباه والافادة من الخيلة البصرية . فمنهم من افترق لروح التحليل وللتجريد ، كما افترقوا للبحث الشخصي . والكتابة الصينية التي كانت ايجابية والتي كانت تتطلب حفظ الآلاف من الصور والمراثيات ، وتفترض المقدرة على التمييز بين العلامات والشارات ، وتفرض المضي في رسمها واستنساخها وحفظها غيباً ، لم تكن لتربي في النفس القوى العلمية والقدرات على اكتساب العلوم ، كما يفعل فن الخط في أوروبا واللغات الأوروبية ، وهي كلها من ادهى ادوات التحليل وفك التقليد والتركيب التي تمهد للطريقة العلمية بالذات . ديانات الآسيويين توحى لهم احتقار العالم الخارجي . في بحثه عن الاوحد ، عن المطلق في ذاته ، وطلبه له في القرآن ، في الشاسترا او في السي - تشيو اي معرفة ما هو لازم للحياة ، فالآسيوي لا يهتم كثيراً لعلم الظواهر بحد ذاتها ويهمل درسها وتفهمها . فلم يستطع الباريسيون ان يتألموا انفسهم من العجب ، عندما عرفوا كيف ان سفير المعجم ، بقي ، عام ١٧١٥ ، معتزلاً في فندقه ، مستغرقاً في قراءة القرآن الكريم دون ان يبدي اي اهتمام بالوقوف على الحضارة الأوروبية . فأسيا قبعت راضية عند الدور الثاني من ادوار الفكر ، هذا الدور الذي يسبق العقلانية الكيفية التي ميزت اليونان ، حيث الفكر هو قبل كل شيء اكتناه الكليات الكلية . فالأسكافي الهندي لا يأخذ قياسات فهو يضع رجل زبونه في راحة يده ، ويرسم في ذهنه الصورة الذهنية أو الفكرية لحجم معين ، ويفصل حذاء يأتي كما يجب . والصابون الذي برهن عن مقدرة تجارية فائقة ، يسيء الحساب ولا يفقه شيئاً من قواعده . فهو يحمل كل شيء من القاعدة الثلاثية . والدليل على صحة اعماله الحسابية يثبت عندما يتوصل ثلاثة او اربعة الى النتائج ذاتها التي توصل اليها هو نفسه . فالفرس والهنود والصينيون

يجهلون تماماً منطق الافكار وترباطها ، كما يجهلون تماماً الدليل وفن البرهان ، وهي امور في الاساس من كل علم . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن السابع عشر معرفة هذا الفارق ، « فالصينيون دهشوا عندما وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام مقدمات اقليدس مترجمة الى لغتهم ، وتبينوا بصعوبة كلية البرهان اي الطريقة التي يتبعها العقل منتقلا من الامور الواضحة ، الى امور صحيحة ، هي الاخرى ، انما اقل وضوحاً من الاولى ، بحيث نصل بواسطة سلسلة من المقدمات الى حقائق مجردة ، تبتمد كثيراً عن الاولى التي كانت نقطة الانطلاق . لم يكونوا ليقترحوا او ليعرضوا شيئاً الا ما هو عملي ... ان عبقرية الصيني ، مع كل تقديرنا لها ، كانت دون ما تم منها للاوروبيين ... وقد قلت عندم القدرة على الاختراع او على التطوير والتحسين ... » وهكذا بقي الفرس والهنود والصينيون يتسكعون في مجوسية وشرك غليظ كثيف ولجأوا الى التعاويذ والطلاسم وهذه العقاقير السحرية التي كانوا يستطبون بها الامراض ، وهذا الحجاب الذي يحوي آية من القرآن ضد العين الشريرة الناقصة ، وعلم النجامة لاستطلاع كل ما هو مقدر لكل ظرف من ظروف الحياة ، كالنهوض من النوم صباحاً ، وتناول وجبة الاكل ، والعلاقات الزوجية . في العجم « اذكر جيداً القرار الذي اتخذ ، عام ١٦٦٨ لارسال اسطول الى بحر قزوين للوقوف في وجه القوزاق الذين راحوا يعيشون فساداً على سواحل هذا البحر . فقد اضاعوا هدراً ، شهراً من الزمن لوضع هذا القرار موضع التنفيذ ، لان القمر وقع في مدار برج العقرب ، مع ان اصوات النجدة كانت تشق عنان السماء من كل مكان . وكان الجواب يأتهم بكل برودة : تمهلوا قليلاً : فالقمر في العقرب ، وهو قران شر ومكان شؤم تطبع ما يحدث ، يجب التوقف عن كل شيء والتحرز من اتيان اي عمل كان في مثل هذا الوضع . صحيح ان الاوروبيين كانوا ، هم ايضاً ، فريسة السحر والتنجم ، حتى في بلاط لويس الرابع عشر ، كما يتبين ذلك بوضوح من « حكاية السموم » . ولكن هذه الامور لم تكن لتسيطر على حياتهم . ان طريقة التفكير او التصرف كهذه وطاقة ضعيفة على العمل كالتي اتينا على وصفها ، كان من شأنها ان تسهل ، الى حد بعيد ، عملية غزو او فتح .

لماذا لم يحاول الاوروبيون فتح الصين ؟ فقد تهيئوا عملية الفتح هذه ،

بعد ان وقعوا تحت سطوة هذه الامبراطوريات الضخمة التي اقتضاهم التعرف عليها وقتاً طويلاً ، كما ان ملوك اوربا وقعوا تحت تأثير السراب الشرقي . فجعل اوربا الطويل للقارة الاسيوية

روادع الفتح لدى
الاوروبيين : السراب الآسيوي
وبعد المسافات واكتظاظ السكان

هو فوق كل حد ويتجاوز كل خيال . فقد كتب الاب بارزيه ، من غوا ، عام ١٥٨٧ ، يقول : « استقر في روعي ان الصين او بالاحرى بلاد التتار الكبرى ، استطالت حدودها بحيث جاورت المانيا . وفي سنة ١٥٨٢ ، كان الآباء اليسوعيون في كلية القديس بولس في غوا يجهلون حتى وجود جبال همالايا وجبال الهندوكوش . وفي سنة ١٥٨٣ مط " رسامو الخرائط خريطة الصين فاوصلوها الى منتصف المحيط الهادي ، كما كانوا يجهلون تماماً المراد بكلمة كاڤي التي طالما وردت

على لسان ماركوبولو . والفضل كل الفضل يعود للاب متي رتشي الذي حدد عام ١٥٩٨ موقع الصين بين الدرجتين ١٩ - ٤٢ من خط العرض الشمالي ، واكد بأن مساحتها لا تتجاوز قط الدرجة ١٢٠ من خط الطول الى الشرق من باريس . واليه يعود الفضل كذلك ، اذ الرحلة التي قام بها بنتوده غوز بين الاقطار الاسلامية في آسيا الوسطى ، من ١٦٠٢ الى ١٦٠٧ ، حيث كانوا لا يزالون يسمون الصين باسم كاتاي ويكنين باسم كمبالو ، باثباته ان كاتاي هي الصين كما جاء ذكرها لدى ماركوبولو . وهذا الجهل المدقع هو الذي ساعد على استمرار هذا الوم حول قوة القارة الآسيوية .

ومن جهة اخرى ، فقد كان الاوروبيون غارقين في منافساتهم العنيفة في اوروبا وعلى كل البحار . فلم يتوفر يوماً لأي دولة من دول اوروبا جيش من ٢٥ ألف جندي كالذي طالب به برنبيه ، كما انه كان يقتضي ، بالإضافة الى هذا الجيش ، جيوش اخرى ، للعمل في بلاد فارس والهند والهند الصينية ، والصين واليابان . كذلك لعبت المسافات الشاسعة اثرها السيء على نفوس الاوروبيين . وجاء ما لهذه من وقع مهيب ، في غير مصلحتهم ، اذ كان يقتضي سنتين وبضعة اشهر لرسالة في طريقها من روما الى مكاء . وقد استلم رتشي عام ١٥٩٥ رسالة مؤرخة عام ١٥٩٣ ، يعلمه مراسله عن وصول رسالته المؤرخة عام ١٥٨٦ . والسفير الياباني الذي ارسل للبابا ، غادر ناغازاكي في ٢٠ شباط ١٥٨٢ ، ولم يصل لشبونة الا في ١٠ آب سنة ١٥٨٤ مع العلم انه اضاع فصلاً من الفصول الموسمية . ولكي يعبثوا للمعركة ٢٥ ألف جندي ، فما هو العدد الذي يجب ان يتوفر ، والحالة هذه في الحاميات والقواعد البحرية والقلاع والحصون ، وعلى خطوط التموين مع هذه المسافات الشاسعة ، وضخامة آسيا ، واكتظاظ السكان ووفرتهم ؟ كل ذلك قطع كل رغبة وقضى على كل امل بنجاح او بتأمين نصر عسكري ، في محاولة حربية على مثل هذه الضخامة ، تقوم بها اوروبا متحدة ، متأسكة . ويجب الانسى ان اميركا استأثرت لوحدها ، بالكثير من الوسائل والاعتدة اللازمة لاوروبا . ولكي تنقلب اوروبا على هذه الصعوبات التي لم تقطن لها ولم تدخل في الحساب ، فقد اضطرت ان ترسل الى اميركا من الجنود والمعمرين والمبشرين ، اكثر بكثير مما ارسلت الى آسيا خلال هذين القرنين ، بحيث صبح لنا ان نؤكد بان استعمار اميركا واستعمارها قد أنقذ آسيا .

لم تفتح اوروبا آسيا . كذلك لم تعرف ان تحملها على ان تقبض عجز اوروبا عن اقناع آسيا . نمط العيش الاوروبي والديانات الاوروبية . الاوروبي حركة دائمة ، نشاط اوروبا وجود آسيا . مثله : الجهاد والعمل والانشاء والرقى والتحول . يتأكله الظمأ الذي لا ينطفئ للجديد ، وما فيه من عدم اضطبار وعدم الخضوع او التسليم للصعوبة ، سواء أ جاءت من طبيعة الأشياء او من ارادة الناس . اما الآسيوي ، ففي حلم دائم وازدراء للجهد ، وعبادة القوانين المفروضة والتقاليد المرسومة والحذر من الجديد ، واحترام القوى البشرية الخارجية والطبيعية والاستسلام لها .

نظر الآسيويون الى الأوروبيين نظراً الى من بهم العتة او أصيبوا بمس . وقد وجد الفرس
 النزهة والتفريج عن النفس شيئاً غير معقول، كما رأوا في القيام بالاسفار والنزهات اعمالاً وتصرفات
 هي من شيم الناس الذين لا شعور لهم . فيتسائلون ما الذي قصد اليه الاوروبي من ذهابه الى
 آخر الطريق ، ولماذا لم يتوقف هناك لو كان بحاجة ، فعلاً الى شيء ما . فالرحلة مجرد الفضول
 وللإطلاع على الجديد من البلدان والناس شيء لا يمكن ان يتصوره . « فليس في العالم غير
 الأوروبيين الذين يسافرون إشباعاً لفضولهم » (شاردن) . هل يمكن الحصول على الفضيلة
 والاستمتاع باللذة ، بغير البيت ؟ حسن للمرء ان يسافر اذا كانت السفريعود عليه بالريح .
 فراحوا يتوهمون ان كل غريب هو جاسوس ولا سيما اذا لم يكن قاصراً او صاحب مهنة . على
 هذا النحو كان يفكر الهنود وكذلك الصينيون المشهور عنهم ، مع ذلك ، حبهم للعمل لحاجتهم
 اليه . في نظرم ، الاسفار والرياضة البدنية ، والسعي وراء اشياء لا جدوى منها ، امور تتم عن
 الجنون واضطراب العقل ، او ان الانسان ليس في وضع طبيعي قط . فالحياة ، في نظرم هي
 التمتع الهادئ ، هي الولايم والمآدب ، هي قطع الوقت وقتله بالحديث ، او الانصراف الى
 الأحلام والاسترسال في النظرات الدينية والفنية . فالحركة يجب ان تقتصر على ما لا بُد منه
 وعلى ما هو ضروري .

ولذا اذمن القوم في الهند وفي بلاد فارس على تعاطي المخدرات . اما الصينيون الذين كانوا اكثر
 واقفية وروحاً عملية ، فلم يألفوا هذه العادة الا بعدهم بزمان طويل ، اي في اواخر القرن السابع
 عشر . كذلك اذمن الفرس والهنود على التدخين ، فالعامل الذي يملك منهم خمس نحاسات مثلاً ،
 ينفق ثلاثاً منها على التدخين واثنين على اكله وشربه . كذلك كانوا يتعاطون غير ذلك من
 المخدرات ، فيدخنون التبغ ويفلون ورق القنب ، وبزر القنب . وعبثاً حاولت حكومة بلاد
 فارس تحظر تعاطي مضغ الأفيون ، بعد ان تأصلت هذه العادة في القوم بحيث لا يمكن ان تجرد
 بينهم من هم غير مصابين بها . ولذا كان من الصعب ان نجحد في المعجم شخصاً واحداً سليماً لا
 يتعاطى نوعاً ما من هذه المخدرات او من هذه المشروبات الكحولية ، والا فكيف تريد ان
 يعيشوا حياة هنيئة لذيدة .

باءت بالفشل هذه المحاولات التي بذلها المبشرون لنشر
 إعراس آسيا عن المسيحية وكرها لها المسيحية في آسيا . فقلّ عددهم فيها ، اذ فضل معظمهم
 العمل في حقن الرسالة في اميركا . ومما يجنب ملاحظته ان صلب العقيدة المسيحية اثار الشكوك
 بين معظم الآسيويين ، بعثت فيهم المقت والكراهة فأعرضوا عنها . فقبل الف وسبائة سنة من
 قدوم المرسلين الى آسيا ، كان جليلي يدعى يسوع المسيح قد بذل ذاته مصلوباً في القدس ، في
 قطر من اقطار آسيا الغربية . وبعد ذلك ببضع سنين ، راح موظف روماني يصف المسيحية
 الناشئة شجاراً بين اليهود حول شخص مانت يدعى يسوع ، بينما راح بولس يبشر به مدعياً انه
 حي يرزق . هذه هي المسيحية في بدء امرها ، فالاعتقاد بتجسد الله والايمان بانه تلبس بجسد

إنسان ، وأنه افتداء للبشر من خطاياهم ، مات لأجلهم على الصليب ميثا اللصوص وشذاذ الآفاق وكأحد العبيد الأرقاء . فالمسيحية تقوم على أن هذا الميت قام من القبر ناهضاً وأنه صعد إلى السماء حيث يحيا إلى الأبد مسح أنه موجود في قلب الكنيسة ، وأنه فوق تطاول السنين والعصور هو في حياة دائمة خالدة .

والحال أن فكرة ابن الله أو الله نفسه المساوي للآب في الجوهر ، أن الاعتقاد بأن الكائن العلي قد عاش حياة نجار ، خفية ، متواضعة ، وأنهى حياته تحت الإهانات ، فاقوال هي مضفة في أفواه الناس ، وعاش وحيداً ومات عرياناً مضرجاً بدمائه في عذابات مشينة ، هذه هي مفارقة الإنجيل الكبرى ، الفكرة التي لا تُحتمل في نظر الأمم ، جنون الصليب ومدعاة الشك . فالاشتمزاز من هذا القول ومن هذه التعاليم كان أقوى في الصين واليابان منه في أي مكان ، هذه البلدان العامرة بالزهو ، والنساء والولائم والمآدب الشخصية ، والثياب الفاخرة والاعجاذ التي تحملها معها الوظائف الرسمية الكبرى . هذا الشيء المتمم للحكمة ولاحترام الآداب الاجتماعية ، هذا المجتمع الذي يعتقد ، في الصميم ، أن الفاشل في الحياة هو هذا البائس ، التافس ، المغلوب على أمره في الحياة ، هو هذا الإنسان المدمم الأخلاق الذي لم يراع حرمة الجدود والآباء الأقدمين ولم يراع النواميس البشرية والإلهية . ولذا ، كثيراً ما كان اليسوعيون يخفون صليب المسيح ، ولا يتكلمون عن المسيح مصلوباً ، إلا عند العمد وبعده ، وكَم من هؤلاء الممعدنين لم يعتنوا أن يجحدوا إيمانهم الجديد وعادوا إلى الشك ، حتى أن خادم القديس فرنسوا كسافيه نفسه ، هذا الياباني المسيحي الأول جحد إيمانه الجديد وعاد إلى إيمان أجداده .

فالصعوبة الكبرى قامت في تفهم هذه الأفكار والتعاليم الجديدة وقبولها والاختذ بها . فقد كان في شبه المستحيل التعبير عن المعتقدات المسيحية بمعارات وتعابير الديانات الآسيوية . وهنا يكمن سر هذه المجادلات والمناقشات الدينية بين المرسلين في الصين ، وحول الـ *Tien* والـ *Chan - Ti* ، إذ كان المطلوب التعبير عن وجود اله شخصي ، متميز عن هذا العالم الذي أبدعه وخلقه والذي يملأ كل مكان منه ، والقول بأن كل إنسان فيه روح خالدة متميزة عن الجسد المادي ، والمتميزة عن الهيولى كما تتميز تماماً عن الله خالقها ، والمعدة ، بعد الموت ، إذا كانت خالصة ، للتنعم بمشاهدة الله إلى الأبد ، وبمشاهدة كلالته التي لا توصف ولا تُحمد ، مع بقاءها متميزة عنه ، لها وجودها الشخصي . والفكرة الدينية الآسيوية ، هي عكس ذلك تماماً . فهي وحدوية أي تقول بوحدة الوجود أي بوحداية كل ما في الكون . فقد سبق وذكرنا بإيجاز التحولات التي قال بها تشو - هي كما قالت بها الطاوية ، فلنلق الآن نظرة حول تعاليم الهند الدينية . فإذا ما اقتصرنا على صلب العقيدة الهندوكية ، وجدنا البراهمان الكائن بذاته ، الواحد المطلق . وهذا البراهمان هو الـ *Atman* ، نفس شاعرة ، لا حد لها ، مسكونية ولا نهاية لها « فالأتان » يخلق العالم بمجرد ما يفكر به ، فهو يخلق كل شيء بواسطة مايا ، أو الخيلة . وليس من فرق قط بين الكون وبين فكرة الله . فالنفس الواعية ، الشاعرة التي تعترف إليها الإنسان

بالاستبطان ، اي الانسان المفكر ، هي مظهر من مظاهر الـ *Atman* الشامل . اذاً ، هنالك وحدة الشخصية بين النفس الفرد والنفس الشاملة . يجب الخلط بين الـ *Atman* الانسان وبين « الأنا » الظاهري الذي هو حلقة في سلسلة الحالات الشعورية للأنا الشاعر ، الأنا المفكر ، والمتعيز بالأنا المادي . فعل الإنسان ان يتبين ، في ما وراء ذاته ، الأنا الحقيقي ، النفس الالهية . واذا ذاك ، وبعد ان يكون الانسان رجع الى براهمان ، ينعم بالراحة الابدية ، وتضمحل فيه الشخصية الانسانية .

ان هذه العقيدة الدينية والايان لعل طرفي نقيض ، وقد تربت عليها نتائج باعدت كثيراً بين التفكير والحياة ، وبين الحياة الأوروبية والفكر الأوروبي. فاذا لم تكن الكائنات الخارجية والانسان نفسه سوى مظاهر متغيرة لهذا الجوهر الذات غير المتغير لافكار الأتمان الشامل المسكوني ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، الركون قط لشهادة الحواس ، وما العالم الخارجي سوى مجموعة من الاوهام الزائلة . فهذه المظاهر تبقى حرة بالازدراء . وما العلوم والتاريخ الا تجريدات لاطائل تحتها . فالحقيقة المدركة وحدها هي الذات المفكرة . وهكذا يتسنى لنا ان ندرك وان نفسر كيف ان الهنود لم يستنبطوا العلم كالأوروبيين ولم يحاولوا قط في القرنين السادس عشر والسابع عشر ان يتفهموا العلم الأوروبي . وبامكاننا ان نطلق مثل هذا الحكم على الصينيين واليابانيين الذين قالوا بوحدانية الوجود .

فاذا ما كانت كل الكائنات مثالية او هي ذاتها بالاساس ، سهل علينا فهم القول بالتقمص او تناسخ الارواح ، ودورة التجسّدات. فالنفس تحيي مع ما اقتبسته من فردية باتحادها بالجسم وتقتبس اكثر فردية بنسبة ما تزداد تعلقاً بالطواهر ، اكثر منها بالأتمان . وما تكتسبه من تراث خلال التجسّدات الماضية يتكون الـ *karman* ، الذي يحدد طبيعة هذه التجسّدات التي سيتلبسها المرء في المستقبل ، ويوجه الفرد في كل من هذه التقمصات الجديدة . ولكي تنفادي النفس هذه التقمصات المتتابعة ، وبالتالي هذه الآلام التي تلازم هذه الكائنات ، عليها ان تفقد او تتخلص من فرديتها ، عن طريق الزهد والتكشف والاتصال الرمزي . فاي معنى ، يبقى اذ ذاك ، لهذا الكفاح يقوم به الانسان لاثبات فرديته ا فالشخصية او الذاتية هي الشر الأكبر ، واي معنى يبقى لكل مجهود يبذله المرء في سبيل التطور الاجتماعي ؟ لكل انسان الحياة التي استحقها في حياته السابقة ، والسعادة لا تقوم قط في هذا الهناء الذي يحصل عليه الانسان في هذا العالم المتغير المظاهر والرؤى ، بل في قهر الذات ومحو الذات وفنائها ، فيالبشاعة وبالفظاظه رجل النهضة ، رجل الحركة الانسانية ، في نظر الهندي ا او في نظر الصيني ، سواء اكان على مذهب تشو - هي او على الطاوية او البوذية . كل شيء كان على طرفي نقيض ، في هذه الصورة التي قامت ، من هنا وهناك : للعالم ، لله ، للحياة الاخرى ، للحياة الفانية ، لآسيا ولاوروبا .

فالمسيحية امتزجت ، على مر السنين وكر العصور ، مع الحضارة الأوروبية ، « ويبدو ان

انتشار هذه المسيحية ، يجب ان يسير وفقاً لسير الحضارة الأوروبية في تطورها ونموها ،
والمشكلة التي قامت بالفعل والتي كان على القرنين السادس عشر والسابع عشر مواجهة حلها ،
هي تكييف الديانة المسيحية مع هذه الحضارات المتباينة دون ان تفقد شيئاً من خصائصها المميزة
وطابعها المفراد . فقد كان الهندي والصيني والياباني مقيداً بالفعل ضمن قيود يستحيل عليه
الافلات منها ممثلة بهذه الاوضاع الاجتماعية ، المحكمة الحلقات ، كنظام الطبقات والاسرة ممثلة
بطقوس ومراسم واعراف دقيقة للغاية تضبط كل شاردة وواردة في اعمالها اليومية . وهذه
الأطر والقوالب الاجتماعية الجامدة التي كان لا بد للأوروبي ان يزرع تحتها لو عاش في جوها ،
وجد الآسيوي فيها والعيش تحت ظلها ، للنمى وحياة مشتركة ، فوجد نفسه فيها موجهاً ،
'مسيراً' ، مشجعاً دون ان يتعرض لهذه المخاطر ولهذا الجهد المرير الذي يتعرض له الفرد الحر .
فككل محاولة للتخلص من هذه الطقوس كانت بمثابة الخروج على المجتمع او بمثابة القيام بفحاشات
ومجازفات تحف بها المخاطر من كل صوب ولم يكن في مقدور معظم الآسيويين ان يفكروا
جدياً بالامر ، فكانت فرائضهم ترتعد لمجرد التفكير بالتخلي عن عادات واعراف وطقوس
امتزجت بدمائهم امتزاج الراح بالماء . وكانت فرائض البراهمان ترتعش فرقا ، ويذوب جسده
عرقاً ، وتقياً نفسه بمجرد التفكير بمس احد 'المنبوذين' . فالصيني العالسق بشباك هذه الاسر
المترابطة الحلقات الشبيهة بالاسر الاغريقية القديمة في عهد هوميروس ، مثلاً ، لم يكن في
استطاعته ان يتخلى او ان يستغني عن طقوس علماء الآباء والجدود الذين لا يزالون يحبوت مع
الاسرة ، وان أشكل عليه امر رؤيتهم ، ويرون ما يجري ضمن الاسرة ، ويتنبعون خركات
وسكنات اولادهم وذرائعهم ، وهم يشعرون بالحاجة الى التكريم من قبل الاحياء ، مع الاعتراف
لهم بالقدرة على استئزال النكبات والضرائب عليهم اذا ما أخرجوا على ذلك . فلم يكن في
مقدور هذا الصيني ان يتفادى او يتملص من الصلوات والمراسم الطقسية المحددة لكل ظرف من
ظروف الحياة : كالدخول والخروج ، والوقوف والجلوس ، والنظر الى الآخرين ، واستقبال
الضيف وتشيعه ، الخ . وكما انه لم يكن باستطاعته تفادي ضغط عبادة الجدود ، كذلك لم
يكن بوسعه قط ان يتخلص من نفوذ الاب ، وضغط شيخ الاسرة آله القد ، اذ كان عليه ان
يخفص من صوته ومن غلوائه عندما يكون في حضرته ، والذي له ملء الملطة على كل افراد
الاسرة ، يؤازره في الاشراف عليها ، مجلس الاختيارية المؤلف من شيوخ الاسرة كما كان في
وسعه ان يحكم بالموت على احد ابنائه . وفي هذا السبيل ، ولكي تخفف الكنيسة من هذه
الازدواجية التي وقع فيها عدد كبير من المرسلين بين التبشير بالانجيل وعملية التكييف . مع
الطقوس ، رأت البابوية ان من الضرورة بمكان ان تنشئ ادارة خاصة بالاساليب الدينية هي
مجمع نشر الايمان (١٦٢٢) وان تعين ، منذ عام ١٦٥٩ قصادتين رسوليتين فرنستين ، هما
سلطات غير محدودة ، تديران ، باسم البابا ، الكنائس التي قامت في التونكين والكوشنشين ،
وتأخذ كل واحدة منها ، الادارة الروحية في الولايات الصينية الخمس . وكان من المتوجب على
هاتين القصادتين الزام المرسلين الاخذ بالقرارات المتخذة عام ١٦٤٤ . فالمرسل الكاثوليكي

مكلف بمهمة دينية وليس بمهمة وطنية . والتبشير بالمسيحية يجب ان يتلبس ، وان يراعي صفات وعادات الشعب الذي تعمل الرسالة في محيطه . ليس المطلوب من هذه الرسائل فرض الحضارة الأوروبية على هذه البلدان وما فيها من شعوب واقوام . « إحترزوا من ان تأتوا اي مجهود او ان تقدموا أية نصيحة يراد منها حمل هذه الشعوب على تغيير طقوسهم ومراسيمهم وعاداتهم ، ما لم تكن مخالفة تماماً لمقائد الديانة المسيحية والآداب العامة » . وقد جاءت هذه التوصيات متأخرة جداً فقد كانت هذه الشعوب قد اخذت انطباعات مؤسفة للغاية ، فاهيك ان التوصيات لم تغير شيئاً في المشكلة . ان قضايا الطقوس الملبارية والطقوس الصينية لدليل قاطع على صعوبة تكييف المسيحية مع الحضارات الآسيوية . وهكذا بقيت المشكلة مستعصية دونما حل .

اما المشكلة الكبرى فتمثلت في ان هذه الديانات الآسيوية ، بقطع النظر عن وحدة الوجود التي قالت بها ، ضمت شخصيات دينية قادرة على ان تشبع ما في النفس البشرية من منازع عالية وتوق . فهذه *Isthadevas* الهندية التي تمثل بعض تجليات براهمات او أميدا البوذيين ، والتي كانت تجسداً للإرادة الخالدة ، أعطت الناس الاله الحارس ، الخبير ، المخير المخلص الواجب المحبة لما هو عليه من قداسة ، والذي لا غنى عنه لهذه النفوس العطشى للحنو والرافة والحب والذي لا حد له . ان عدداً كبيراً من نساء الهند وجدن في الهندوكية القوة على احتمال كل شيء ، والوجود بمحقوقهن وحياتهن لرجالهن : للباثيديفا ، هذا البعل والاله معاً . ان نساء هنديات كثيرات غرسن في روع اولادهن انهم يحبون دوماً في حضرة كريشنا أنقياء الفكر والأعمال . ان عدداً كبيراً من الارواح والآباء نسجوا على حياة راما وفضائله كما تأسوا بمثال الافانار الحارس ، رمز الفضيلة والتقوى في الاسرة . ان عدداً كبيراً من الصينيين واليابانيين استسلموا لعبادة اميدا ، وعاشوا في هدوء وسلام واطمئنان مع كل الكائنات بكل استقامة ونقاوة . فقد رأى المرسلون في هذه الطقوس بقايا هذه الحقائق الالهية ، بقية الوحي الالهي البدائي ، وبنوا عليها آمالاً عراضاً . فاي حاجة بعد هذا ، عند هذه النفوس التقية ، الى المسيح ، مع انه خليق بكل محبة . لا يمكن ان يكون ، بالاكتر ، الا واحداً من هؤلاء *Isthadevas* ، المعطوف على الاوروبيين ، مع ان هذا المسيح في نظر المرسلين ، هو المسيح الذي وحده يستطيع ان يشبع النزعات التي تثيرها هذه الطقوس الآسيوية .

وهكذا بقيت آسيا غريبة عن اوروبا ، مقفلة ابوابها في وجه اوروبا ، رافضة بكل قواها ، ما رغبت اوروبا في تقديمه لها ، باعتباره الخير الاكبر ، وهكذا رفضت آسيا بكل ما فيها من نزعات ، المثل الاوروبية والسعادة كما فهمتها اوروبا .

هذه المجموعة التي يؤلف هذا الجزء احد اجزائها تأبى اصدار اي حكم او رأي يراد منه التقييم والموازنة . هنالك فرق كبير بين الرغبة في التعبير عن حكم او رأي وبين القيام بعملية تصنيف المجتمعات البشرية على اساس من المقاييس الوصفية . فعملية التصنيف تقضي دوماً

الى اقامة نظام نسبي في المحتوى وفي القوة الناميين فالجانب الذي يسجل اعلى درجته من حيث التركيب او المحتوى يقال فيه انه اسى وارفع او اعلى ، وهو تعبير انما يشير الى رتبته او درجته في نظام ما ولا يتم قط عن اي حكم تقييمي . فاذا ما رتبنا المجتمعات وفقاً لقدرتها على البحث العلمي ، او بحسب ما لها من طاقة للتأثير على الطبيعة ، وجدنا ان اوربا فاقت ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كل المجتمعات البشرية الاخرى التي قامت او طلعت في اي جزء من العالم ، اذ ذاك . فهناك اقوام عديدون ، كالزنوج في افريقيا والهنود الحمر في اميركا ، وغيرهم من الاقوام الاسيويين امثال *Tupis guaramis* ، والسيو والكريك والمياوس وغيرهم ، فشل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد في « الدور البدائي » اي الدور الذي يعتنق اهله مذهب الاحيائية (القول بوجود ارواح عاقلة في الحيوان) ، كما تنشط فيه الجوسية والعرافة بصورة شاملة . هنالك شعوب اخرى ، كالمايا والازتيك وشعوب الهند والشرق الاقصى والصين واليابان ، بلغوا في تطورهم ، الدور الثاني ، الذي يقول بعلم الهيئة الاحيائي ، حيث تأخذ الحرف والمهن تعمي نفسها وتعتمد مبدأ الذاتية ومبدأ التضاد والتباين ، وحيث تطلق على الاشارة او الرمز مدلولاً معيناً تبدو معها الاشياء والمسميات ذات خصائص مميزة تنفي او تقصي ما هو ليس منها ، وحيث تشتد وتتوثق الروابط الفكرية او المنطقية ، بينما يبقى الاساس اكتنائها او بدائياً ، والتطورات رمزية . واخيراً تأتي الشعوب التي بلغت طور العقلانية النوعية ، يرافقها منطق محكم يربط بين الافكار ، والاستدلال ، والعلّة السببية . وهندسة الاجسام . بلغ هذا الحد من الرقي اكثر المتطورين في الاسلام ، والاوروبيون الذين لا يزالون يترسمون هدي هذه العقلانية النوعية التي حققوها ، في بلاد الاغريق ، منذ القرن السادس . ق . م ، وتجاوزوها بعيداً ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ليلفوا معها التفكير « المصري » مع العقلانية الكمية التي تفلسف الكم في هذه المقومات الهندسية الكامنة تحت الكم ، هذه العناصر التي تتمثل في هذه الانساب العددية او في هذه العلاقات التي تربط بين العلة والمعلول ، او بين السبب والنتيجة ، واخيراً يطلع في هذا الدور نوابغ امثال بسكال ونيوتن وهؤلاء الميكانيكيون الذين عرفوا ان يلائموا بين العقلانية الكمية الكرتزيانية والعقلانية التجريبية . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اصبح في مكنة الاوروبي ، ان يفهم ويعمل الظواهر الطبيعية وان يفيد منها بشكل يتجاوز بل يبرز درجة معرفة جميع الشعوب لها ويجعله مهيب الجانب من الجميع ويرغمهم على الخضوع للاروروبي او يحملهم على استعمالها في محاربته ومناقضته او لمراوغته مستغلاً انقسامات الاوروبيين ومشاحناتهم .

فلا مَ نرد هذا السبق يسجله الاوروبي على غيره من سكان القارات الاخرى ، والذي يجب رده ، كما يبدو لنا ، الى تحرر الفرد تدريجياً في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؟ فالفردي يتحرر تدريجياً من ضغط الجماعات : اي من ضغط الاسرة والمجتمعات الريفية او المدنية ، والنقابات والجامعات ، وغير ذلك من مظاهر واشكال هذه الجماعات . فشعور الفرد بذاته

وتوعيته لحقوقه الطبيعية ، والجهد الذي يبذله لتقوية الروح الاستقلالية في الفرد المفكر ولترسيخه في النفس ، وثقته بالحكم او الرأي الشخصي ، والارادة القوية ، والتمرد على الحدود والحدود والقيود ، ونزعه للمطلق وللإمتناعي ، كل هذا يبرز هنا ، في اوروبا بوضوح اكثر من اي مكان آخر في الدنيا . صحيح ان الهيئات الاجتماعية هي الآن ، اقوى من قبل بما لا يقاس . فقد قيدت الفرد اكثر مما قيدته هذه الهيئات المجتمعية في القرن التاسع عشر الذي كان عبارة عن نثار من الافراد . فالسلطة الابوية ، وروابط الدم ، وتأثير النقابات والهيئات المهنية ، وضغط الكنيسة ، وتأثير الدولة ، لا يزال الفرد يشعر بها اكثر من شعوره بها في عهد الحرية الفكرية . ولكن ما عسى ان يكون هذا كله ، اذا ما قسناه بهذا الضغط والارهاق تقوم به القبيلة التي لا تزال تأخذ بمقيدة الاحيائية ، وقوانين الطبقة المهرقة ، وطقوس العائلة في الصين ؟ فالفردية الاوروبية ، وان شئت فقل تحرر الشخصية البشرية في اوروبا ، اذ ذاك ما كان التعبير الاول شديداً او قوياً ، هي الحافز الاكبر والاقوى لهذه النشاطات ، ولهذا الجهود ، ولهذا السعي الحثيث وراء البحث العلمي الذي يمكن ان يكون الباعث الاول والسبب الاكبر الذي يكمن وراء رقي اوروبا وتطورها .

وهذه الشخصية البشرية التي تبرز وتنبجلى ، ما عسى ان تكون ، ياترى ، الدوافع الكامنة وراء بروزها ؟ . رد بعض الأوروبيين ، منذ القرن السابع عشر هذا التفوق الى العرق او الجنس . هنالك عروق واجناس أوتيت القدرة على الكشف والاختراع كما اعطيت عروق اخرى ، القدرة على القبس والتقاليد . « ان نبوغ الابداع والخلق يؤمن لمعلوماتنا ومعارفنا التقدم السريع والتطور الحثيث هو من نصيب بعض الشعوب دون غيرها . اما الامم الأخرى فهي مطبوعة على التقليد والتمثل . والقدرة على الخلق والابداع هي هبة من الطبيعة تجود بها حتى على ايسر الناس واحطهم قدراً . وهذه القوة العقلية الحارقة ، تجعلنا بمد ان نخرجنا من جو الأفكار العادية ، ونخلق ونرتفع لنبلغ افكاراً جديدة كانت مجهولة من قبل ، هي ولا شك ، من نصيب الأوروبيين ، وحدهم تقريباً » (اكااديمية العلوم في باريس) فالقضية في القرن السابع عشر كانت من الوضوح بحيث لا يمكن نكرانه . وكان لا بد من التدليل بالبرهان القاطع والحجة الدامغة على ان الطبيعة قد حرمت باقي الناس من موهبة الكشف العلمي والابداع ، وان التأخر الذي ترسف فيه الشعوب الاخرى ، لا يمكن رده قط لأسباب أخرى . فاذا ما جاءت اوروبا في مقدمة العالم ، وفي طليعة القارات الأخرى ، في القرن السابع عشر ، في تاريخ البشرية فلم يكن الامر معها دوماً على مثل هذا الشكل .

وقد وقع بعض الأوروبيين تحت تأثير الفوارق الجغرافية بنوع خاص ، ولا سيما فارق المناخ او الاقليم . فقد جعلوه مسؤولاً ، الى حد كبير ، عن خمول الآسيويين . فاسمع ما كتبه العالم الجغرافي الفرنسي شاردن عن الفرس : « ان ذلك ناجم عن انهم يقيمون في جو أحلم من الجو الذي نعيش فيه . فليس فيهم من الدم ما فينا نحن سكان الشمال ، وهذا الدم لا ينجلي فيهم كما

يفلي فينا . فالقسم الأنشط من دمائهم كان أكثر تعرقاً من دمائنا ، وهذا ما يفسر لنا كيف انهم ليسوا عرضة لهذه الحركات التي يأتيها الجسم والتي تتسم ، الى حد بعيد ، بالخفة والقلق ، والتي كثيراً ما تدفع بالمرء الى النزق والحدة ... فأنا اعتمد دوماً على المناخ في كل مرة اود ان افسر عادات الناس واخلاقهم حتى ما فيهم من عبقرية ونبوغ ، لأنني اجد هنا في المناخ من الأسباب والدوافع القومية ما لا اجد في الدوافع الأخرى التي قد يتذرع بها المرء . فالهواء الذي يهب على أوروبا يثير فينا الشدة ، من الرغائب والاحتياجات ما لا يتحسس بثملها الناس العائشون في الأقاليم الشرقية . فهو يقتضي وقاية اكبر . وبما ان الهواء عندنا يولي الجسم حرارة طبيعية أقوى مما هي في غير اقليم ، فهو يجعل الدم أكثر غليظاً كما يجعل نفوسنا ، بالتالي ، تجيش بأحاسيس القلب التي تتملاها . والحال فان الحالات التي نشعر بها من جهة ، وهذا القلق الطبيعي الذي يساورنا من جهة أخرى ... « يمكن ان رد ما فينا من روح الفضول وهذا التوق الشديد للعلم والمعرفة ، مما يجيش به صدر الأوروبي . وقد رد برنييه ، من جهته ، الى مناخ الهند واقليمها المسيطر ، هذا الوهن وهذا الخمول الذي تبيته في نفس الهندي . « فلا نجد فيه من الحيوية والنشاط ما نجده في سكان بلادنا الباردة . وهذا الخمول ، وهذا الانحطاط الذي يبعثه الحر في الجسم والنفس ، مما اشته به مرض قائم باستمرار تقريباً ، وهو مرض مزعج للجميع ولا سيما في اوقات القيق الشديد ، ابان الصيف ، ولا سيما للاروبيين الذين لم تألف اجسامهم بعد ، مثل هذه الحرارة الشديدة . واي شيء لم يكتبه الرحالة والمؤرخون ، عن هذا الانحطاط والخمول الذي تلحقه الطبيعة بسكان الاقطار الآسيوية الخاضعة للرياح الموسمية ، وعماً عليه هذه الجماهير الآسيوية من تبدل والتباعد ، امام مظاهر الطبيعة المتهتجة ، وامام هذه الاعاصير الهوجاء ، والانهار العارمة الخربة ، وهذه الاوبئة الفتاكة ؟ قد يستنتج البعض من هذه الاقوال ان بلاد المعجم كانت جد ملائمة للعمل الفكري وان الشعور بالحاجة التي جاشت في صدور الآسيويين لمقاومة الطبيعة والوقوف في وجهها ، كان يجب ان يحرك قواهم العقلية ويحملهم على الابداع . ومعتزض يعترض قائلاً ان المناخ السائد في وسط اليابان لا يحد من نشاط الانسان وان اليابان كان يجب ان تكون منارة اختراعات واكتشافات علمية ، بدلاً من ان تقتبس من الصين ومن جزر السوند مبادئ حضارتها . كذلك يمكن للبعض ان يحتج ملاحظاً ان بعض الاجناس كالزنج مثلاً يزدهرون فعلاً ، في المناطق الاستوائية ، وان مناخ المنطقة الاستوائية الذي يلائمها كثيراً ، لا يمنع عليها ان تبلغ درجة عالية من الرقي .

ولما كان العرق والوسط الجغرافي لا يؤلمان تفسيراً مقنعاً ولا تمليلاً كافياً لظاهرة تفوق الأوروبي ، امكن الاستعانة بالظروف التاريخية المصرية كزوال عهد الإقطاع وتكوين الدولة الحديثة ونشأتها ، وتطور المواصلات التجارية والبحث عن المعادن الثمينة وتدفعها على أوروبا . اذ ان هذا الأوروبي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذي يبدو لنا انه يعاني الحرمان ، هو مع ذلك احسن سكان الارض غذاءً . قد تتذرع ، كذلك بنظام الدول الآخذة بالنمو

واعادة تنظيم العلاقات الدولية التي ساعدت على تقوية التبادل الثقافي والحضاري وازدهار دولة
الادب ، وهذه الحرية الاصلاحية الدينية التي المهبت قلب الانسان بالنشاط ، اذ ان المسيحية ،
هذه الديانة القديمة المهد والنشأة ، هي ديانة عمل تقتضي من الانسان ان يستثمر ، على الوجه
الأكمل ، هذه الوزنات التي عهد الله بها اليه ، فيعيد الوزنة عشرة اضعاف ، فيدلل عن محبته لله .
باطعامه الجياح ، وكساء العريان ، وان يرغب عن مثالية الاعتدال الباهتة ، سعياً منه وراء
الحب الذي لا حده وطلب المطلق واللاتهائي . وهذه المؤثرات والحوافز الآتية لم تسكن لتؤمن
وحدها سيادة أوروبا وتفوقها ، اذ انه كان قد تم لأوروبا الى جانب هذه التقنيات التي اخذت
باعدادها منذ القرون الوسطى ، هذه الروح الكلاسيكية الناقدة ، وهذا القياس اليوناني وهندسة
اقليدس ، اس العلوم ، وهذه المسيحية التي كانت خمير النشاطات . ولهذا نرانا نرد قضية
المسيحية الى الاصل او المحدث ، وبالتالي نمود الى العرف والى الوسط الجغرافي ، والى ظروف
تاريخية جديدة ، وهكذا ندور على انفسنا في حلقة مفرغة دوننا اي امل بالخلاص .

ويبدو ان قضية الاسباب التي أمنت التفوق لأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ،
ليست من هذه القضايا التي تتيح لنا معلوماتنا الحاضرة لقاء اضاء جديدة عليها . فعلى المؤرخ
ان يقنع بتسجيل واقع هذا التفوق وان يحمد له بعض الاسباب الاولى المبررة لتحقيقه . فهذه
الحضارة الاوروبية ، بما تم لها من تقنيات متنوعة ، وبما تم لها من مؤسسات دولية ونظم ادارية ،
وبما فيها من فلسفات ومعرفه تتعلق بالله ، اتاحت للانسان الامل بان يشبع باستمرار ، اكثر
فاكثر ، ما فيه من توق للحياة والاشباع والانتشار ومن تطلع الى العلى ، وطلب المجهول ،
والبحث عن المطلق واللامتناهي من الخلود . وهي كلها نوازع دفينه في اعماق نفس الانسان
الذي سعى دوماً او بالاحرى ، علل النفس دوماً بالوصول اليها . ان مثل الجماهير الآسيوية التي
فجرت خلافاً لمنطق البراهمان او خلافاً لمنطق بوذا ، ولنطق فشنو وكرشنا ورامانا او
شخصية اميدا المحبوبة ، ومثال السيخ ووانغ - يانغ - منغ نوازع الطبيعة البشرية ، متحررة
من ربة الطبقات وعبودية الجودود ، كل هذا دليل على ان الانسان ، اينما وجد ، انجه بنظره الى
التحرر ، الى التجلي واثبات العظام ، والتوق الشديد الى الحياة . ان أوروبا لم تؤلف استثناءً
ولا شذوذاً . فهي جاءت في الطليعة ، في المقدمة ، وكانت الاولى بين اقران متماثلين . غير ان مثل
فلسفة الاغريق ورياضياتهم ، وهي من بعض نتائج لقاء أوروبا وآسيا ، وهذه المسيحية التي
جاءت تأليفاً انصهرت فيه العقائد والنزعات الاوروبية والآسيوية ، كل ذلك كان بمثابة اشارة
الى الطريق ، الى المستقبل .

ان حكاية بطولة أوروبا ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر فتحت باب الرجاء والامل
على مصراعيه امام البشرية جمعاء .

المراجع

١ - النهضة

- R. MOUSNIER, La Renaissance en Italie au XVI^e siècle. Sociétés et civilisations, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1956 et 1957.
- André CHASTEL, Art et humanisme à Florence au temps de Laurent le Magnifique. Etudes sur la Renaissance et l'Humanisme platonicien, thèse de lettres, Paris, P.U.F., 1959.
- W. FERGUSON, The Renaissance in Historical Thought. Five centuries of interpretation, Cambridge (Mass.), 1948, trad. franç., Paris, Payot.
- J. BURCKHART, Die kultur der Renaissance in Italien, ein Versuch, Bâle, 1860, trad. franç., par M. Schmitt, sur la 2^e édition.
- I. NORDSTROM, Moyen Age et Renaissance, trad. franç., Paris, Payot, 1933.
- E. GILSON, Héloïse et Abélard, Paris, Vrin, 1938.
- A. RENAUDET, Définition de l'Humanisme, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance, Travaux et Documents, Paris, Droz, 1945.
- P.O. KRISTELLER, The Philosophy of Marsilio Ficino, 1943.
- André CHASTEL, Marsile Ficin et l'Art, Paris, 1954.
- O. FISCHER, Raphael, Londres, 1948.
- Ch. DE TOLNAY, Michel-Ange, 4 vol., 1943-1954, en particulier le tome II, The Sistine Ceiling, Princeton, 1945.
- du même, Werk und Weltbild des Michel-Angelo, coll. Albae Vigiliae, Zürich, 1948
- Ludwig PASTOR, Histoire des Papes, trad. franç., t.VI.
- B. CASTIGLIONE, Il Cortegiano, éd. V. Gian, Florence, 1894.
- W. VON SEIDLITZ, Léonard de Vinci, 2^e éd., 1935.
- L. VENTURI, La critica e l'arte di Leonardo da Vinci, 1919.
- H. WOLFFLIN, Die klassische kunst, 7^e éd., 1921, trad. franç., sur 4^e éd. par C. de MANDACH.
- P. DUHEM, Léonard de Vinci, ceux qu'il a lus et ceux qui l'ont lu, 3 vol., Paris, 1906; Léonard de Vinci et l'expérience scientifique du XVI^e siècle, Paris, P.U.F., 1953, Colloques internationaux du C.N.R.S., Sciences humaines, Colloques des 4-7 Juillet 1952.
- A. KOYRE, éd. de Copernic, Des Révolutions des orbes célestes, textes et traductions pour servir à l'histoire de la pensée moderne, Paris, Alcan, 1934.
- A. KOYRE, Etudes galiléennes, 3 vol., Paris, Hermann 1939.
- E. GUYENOT, Les sciences de la vie aux XVI^e et XVII^e siècles, L'idée d'évolution, coll. «L'Evolution de l'Humanité», Paris, Albin Michel, 1941.
- R. LENOBLE, Mersenne et la naissance du mécanisme, Paris, Vrin, 1943.
- E. DELCAMBRE, Le concept de la sorcellerie dans le duché de Lorraine au XVI^e et XVII^e siècles, Nancy, Société d'Archéologie lorraine, 3 vol., 1948-1949.
- POMPONAZZI, De immortalitate Animae, éd. dans Philosophy of man, sous la dir. de E. CASSIRER, 1948; Les causes des merveilles de la nature, éd. H. Busson, Paris, 1930.

- P. MESNARD, *L'essor de la philosophie politique au XVI^e siècle*, 2^e éd., revue et augmentée, Paris, Vrin, 1952.
- A. RENAUDET, *Machiavel*, Paris, Gallimard, 1942.
- A. LEFRANC, *La vie quotidienne au temps de la Renaissance*, Paris, Hachette, 1938.
- P. LAVEDAN, *Histoire de l'urbanisme*, t. II, Renaissance et temps modernes, Paris, Laurens, 1941.
- E. MALE, *L'art religieux à la fin du Moyen Age*, Paris, Colin, 1949.
- J. DELUMEAU, *La vie économique et sociale de Rome dans la seconde moitié du XVI^e siècle*, Paris, E. de Broccard, 2 vol., 1957 et 1959.
- H. KRESTCHMAYR, *Geschichte von Venedig*, 2 vol., 1923 et 1934.
- P. SARDELLA, *Commerce et spéculation à Venise au milieu du XVII^e siècle*, Paris, A. Colin.
- R. ROMANO, *Aspetti economici degli armamenti navali veneziani nel secolo XVI^e*, *Rivista storica italiana*, 1954.
- G. MARANINI, *La costituzione di Venezia*, Venise, 2 vol., 1927 et 1931.
- H. HAUVERTE, *L'Arioste et la poésie chevaleresque à Ferrare*, Paris, 1927.
- M. CATALANO, *Vita di Ludovico Ariosto*, 1930, 2 vol., «Biblioteca del Archivum Romanicum».
- A. PIROMALLI, *La cultura a Ferrare al tempo de Ludovico Ariosto*, Florence, 1953.
- PERRENS, *Histoire de Florence depuis la domination des Médicis jusqu'à la chute de la République*, 1485-1512, Paris, Hachette, 1888.
- R. De ROOVER, *The Medici Bank*, New York, 1948.
- P. VILLARI, *Savonarola*, 2 vol., 1898.
- R. CAGGESE, *Firenze dalla decadenza di Roma al Risorgimento d'Italia*, t. II, III, Florence, 1913, 1921.
- M. VALERI, *La corte di Lodovico il Moro*, 2 vol., Milan, 1913.
- C. SANTORO, *Gli Uffici del Dominio Sforzesco*, 1450-1500, Milan 1948.
- G. BARBIERI, *Economia e politica nel ducato di Milano*, 1356-1545, Milan, 1938.
- E. FANFANI, *El origine delle spirito capitalistico in Italia*, 1933.
- F. CHABOD, *Lo stato di Milano nell'impero di Carlo V*, Roma, 1934; *Per la storia religiosa dello stato di Milano durante il regno di Carlo V*, Bologna, 1938.
- B. CROCE, *Storia del regno di Napoli*, «Scritti di storia letteraria e politica», 9, Bari, 1925.
- G. CONIGLIO, *Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto. Amministrazione e vita economico-sociale*, Naples, 1952.
- A. ALTAMURA, *L'umanesimo nel Mezzogiorno d'Italia*, Florence, 1941.

٢ - النهضة

- A. RENAUDET, *Préréforme et humanisme à Paris pendant la première guerre d'Italie*, 2^e éd., Librairie d'Argence, 1953; *Erasme, sa pensée religieuse et son action*, Paris, Alcan, 1926; *Etudes érasmiennes*, Paris, Droz, 1939; *La pensée religieuse de Lefèvre D'Étaples*, dans *Mélanges Bruno Nardi, Medioevo e Rinascimenti*, II, 1955.
- M. BATAILLON, *Erasme et l'Espagne*, Paris, 1936.
- P. MESNARD, *La Paracesis d'Erasme*, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», t. XIII, 1951.
- J. THOMAS, *Le Concordat de 1516*, 3 vol., 1910.
- L. PASTOR, *Histoire des Papes*, vol. VI et suiv.
- P. MESNARD, *La lettre d'Erasme à Paul Volz*, *Revue thomiste*, 47, 1947; *L'Essai sur le libre-arbitre d'Erasme*, Paris, P.U.F., 1945.
- L. FEBVRE, *Un destin; Martin Luther*, Paris, P.U.F., 1945.
- LUTHER, *Le serf-arbitre*, éd. Denis de Rougemont, 1936.

- R. MOUSNIER, *Etudes sur la France au XVI^e siècle*, 2^e partie, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1959; Saint-Bernard et Luther, dans *Témoignages*, Cahiers de la Pierre-qui-Vise, Juillet 1953.
- E. GILSON, *Moyen Age et Naturalisme antique*, dans *Héloïse et Abélard*, Paris, Vrin, 1938.
- Saint Ignace de LOYOLA, *Les exercices spirituels*, éd. Iparraguirre, Madrid 1952, ou éd. Jeunesseaux, nomb. éd. depuis 1853.
- L. FEBVRE, *L'origine des Placards de 1534*, «Bibliothèque d'humanisme et Renaissance», 7, 1945.
- P. WENDEL, *L'évolution de la pensée de Calvin*, Paris, P.U.F., 1950.
- H. BUSSON, *Le rationalisme dans la littérature française de la Renaissance, 1533-1601*, 2^e éd., Paris, 1957.
- L. FEBVRE, *Le problème de l'Incroissance au XVI^e siècle*, *La religion de Rabelais*, coll. «L'Evolution de l'Humanité», 53, 1942.
- P. IMBART de la TOUR, *Les origines de la réforme*, 4 vol., Paris, depuis 1905.
- R.H. TAWNEY, *La religion et l'essor du capitalisme*, trad. d'O. Merlat, Paris, Rivière, 1951.
- J. BARUZI, *Saint Jean de la Croix et le problème de l'expérience mystique*, Paris, Alcan, 1924.
- H. HAUSER, *La réponse de Jean Bodin à M. de Malestroït (1568)*, Paris, Colin, 1932; *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800*, Paris, Les Presses Modernes, 1936.
- W. SOMBART, *Le bourgeois*, trad. Jan délévitch, Paris, Payot, 1926.
- R. EHRENBURG, *Das Zeitalter des Fugger*, Jena, G. Fischer, 1896, 2 vol.
- J. STRIEDER, *Die Inventar der Firma Fugger aus Jahre 1527*, *Zeitschrift für die Gesamte Staatswissenschaft*, Hgg. dr. K. Bücher, Ergänzungsheft XVII, Tübingen, 1905.
- J. STRIEDER, *Studien zur Geschichte Kapitalistischer Organisationsformen*, München et Leipzig, Duncker and Humblot, 1914; *Jacob Fugger der Reiche*, Leipzig, Quelle and Meyer, s.d.

٣ - النهضة الاقتصادية

- G. ZELLER, *Aux origines de notre système douanier*, *Les premières taxes à l'importation*, Publications de la Faculté des Lettres de Strasbourg, Mélanges, 1945, III, *Etudes historiques*, p. 165-217.
- G. PARENTI, *Prime ricerca nella rivo'uzione dei prezzi in Firenze*, Firenze, 1939.
- F. SIMIAND, *Recherches anciennes et nouvelles sur le mouvement général des prix*, Paris, Domat-Montchrestien, 1932.
- W.H. BEVERIDGE, *Prices and wages in England from the XII to the XIXth century*, vol. 1, Londres, Longmans, 1939.
- A. FANFANI, *La rivoluzione dei prezzi a Milano nel XVI e XVII secolo*, Milano, 1934.
- E.J. HAMILTON, *Spanish mercantilism before 1700*, Cambridge (Mass), Harvard University Press, 1932; *American Treasure and the price revolution in Spain 1501-1650*, *ibid.*, 1934; *The decline of Spain*, *Economic history review*, mai 1938.
- R. DOUCET, *Lyon au XVI^e siècle*, 1938.
- F. BRAUDEL, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, Colin, 1949.
- R. de ROOVER, *L'évolution de la lettre de change (XIV^e - XVIII^e siècle)*, coll. «Affaires et gens d'affaires», no 4, Paris, A. Colin, 1953.
- J. BILLIARD, E. BARATIER, R. COLLIER, F. REYNAUD, *Histoire du commerce de Marseille*, t III (1480 - 1599), Paris, Plon, 1951.

- R. CARANDE, *Carlos Quintos y sus banqueros*, 2 vol., Madrid, 1943 et 1949.
 F. BENOIT, *L'outillage rural et artisanal*, Paris, Didier, 1947.
 H. LAPEYRE, *Une famille de marchands, les Ruiz*, Paris, Collin, 1955.
 J. GENTIL da SILVA, *Stratégie des affaires à Lisbonne*, Paris, S.E.V.P.E.N., 1956, coll. «Affaires et gens d'affaires».
 A.G. MANKOV, *Le mouvement des prix dans l'Etat russe du XVI^e siècle*, Paris, S.E.V.P.E.N., 1957, coll. «Oeuvres étrangères», III.
 Dr. L. MERLE, *La métairie et l'évolution agraire de la Gâtine poitevine du moyen Age à la Révolution*, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Les hommes et la terre», II.
 R. MOUSNIER, *Etudes sur la France, 1492-1559, 1ère Partie*, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
 J. CRAEYBECKX, *Les vins de France aux anciens Pays-Bas (XIII^e-XVI^e siècles)* Paris S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Trafics».
 A. TENENTI, *Navrages, corsaires et assurances maritimes à Venise, 1592-1609*, *ibid.*, 1959.

٤ - نهضة السولة

- F. HARTUNG et R. MOUSNIER *De quelques problèmes concernant la monarchie absolue*, Rapport pour le X^e congrès international des Sciences historiques, Rome, 1955.
 TASWELL-LANGMEAD, *English constitutional history*, 10 éd.
 NEALE, *The Elizabethan House of Commons*, Londres, Cape, 1949.
 R. DOUCET, *Les institutions de la France au XVI^e siècle*, 2 vol., Paris, A. Picard, 1948.
 F. OLIVIER-MARTIN, *Histoire du droit français*, Paris, Domat-Montachrestin, 1948.
 R. MOUSNIER, *La vénalité des offices sous Henri IV et Louis XIII, 1ère Partie, XVI^e siècle*, Rouen, Maugard, 1945.
 W.F. CHURCH, *Constitutional thought in sixteenth century France*, Harvard University Press, 1941.
 P. IMBART De la TOUR, *Les origines de la Réforme*, I, Paris, 1905.
 R. MOUSNIER, *Etudes sur la France, de 1492 à 1559, 1ère Partie*, cours multigraphié, Centre de Documentations universitaires, 1957.
 R. FILHOL, *Le Premier Président Christophe de Thou et la Réformation des Coutumes*, Paris, Sirey, 1937.
 H. DROUOT, *Moyenne et la Bourgogne*, 2 vol., Paris, H. Picard, 1937.
 R. MERRIMAN, *Rise of the Spanish Empire*, t. III et IV.
 G. CONIGLIO, *Il regno di Napoli al tempo di Carlo Quinto*, Naples, Edizioni scientifiche italiane, 1951.
 H. G. KOENIGSBERGER, *The government of Sicily under Philippe II of Spain*, London, 1951.
 J. GOUNON-LOUBENS, *Essais sur l'administration de la Castille au XVI^e siècle*, Paris, 1860.
 F. L. CARSTEN, *The origins of Prussia*, Oxford, 1954.
 A. EPCK, *Le Moyen Age russe*, Paris, 1933.
 S. KUTRZECA, *Grundriss der polnischen Verfassungs Geschichte*, trad. sur la 3^e éd., de 1911, par W. Christiani.
 H. HARTUNG, *Deutsche Verfassungs Geschichte*, 16 éd., Stuttgart, 1959.
 G. ZELLER, *La réunion de Metz à la France*, Paris, les Belles-Lettres, 1926; *La France et L'Allemagne depuis dix siècles*, Paris, Collin, 1932.
 J. BABELON, *Charles Quint*, Paris, S.E.F.I., 1947.
 P. de DAINVILLE, *La géographie des humanistes*, Paris, Beauchesne, 1940.

- G. ZÉLLER, *Le siège de Metz par Charles Quint*, Nancy, Soc.^{te}. L'Impressions typographiques, 1943.
- C.M. CIPOLLA, *Mouvements monétaires dans l'Etat de Milan (1580 - 1700)*, Paris, A. Colin, 1952.
- N. W. POSTHUMUS, *Inquiry into the history of prices in Holland*, Leiden, E.J. Brill, 1946.
- J.A. HAMILTON, *War and prices in Spain*, Cambridge (Mass.) Harvard University Press, 1947.
- J. FOURASTIE, *Machinisme et bien-être*, Paris, Les Editions de Minuit, 1951.
- HANTISCH (H.), *Die Geschichte Oesterreich*, I et II, Graz, Steyrische Verlag, 1950.
- J. ANDERSSON, *Schwedische Geschichte*, Munich, Oldenbourg, 1950.
- V. L. TAPIE, *La France de Louis XIII et de Richelieu*, Paris, Flammarion, 1952.
- R. MOUSNIER, *Les réglemens du Conseil du Roi sous Louis XIII*, 1945.
- E. d'ORS, *Du baroque*, Paris, Gallimard, 1935.
- E. MALE, *L'art deugieux après le Concile de Trente*, Paris, Colin, 1951.
- L. HAUTECOEUR, *Histoire de L'architecture classique en France*, I et II, 4 vol., Paris, A. Picard, 1943-48.
- J. ORCIBAL, *Jean Duvergier de Hauranne, Abbé de Saint-Cyran, et son temps*, Paris, Vrin, 1947.
- A. ADAM, *Histoire de la littérature française au XVII^e siècle*, 5 vol., Paris, Domat-Monchrestien, depuis 1949.
- R. LEBEGUE, *De la Renaissance au classicisme. Le théâtre baroque en France*, «Bibl d'Humanisme et Renaissance», 1941, t. I.
- J.B. DUMAS, *Philosophie chimique*.
- P. DUHEM, *Evolution de la mécanique*, Paris, Joanin, 1903.
- R. PINTARD, *Le libertinage érudit*, Paris, Boivin, 1943.
- P. GOUBERT, *Beauvais et le Beauvaisis au XVII^e siècle, étude sociale*, thèse de lettres, Paris, 1958; *Familles marchandes sous l'Ancien Régime, les Danse et les Motte de Beauvais*, Paris, S.E.V.P.E.N., 1958, coll. «Affaires et gens d'affaires».
- P. BLEI, *Le clergé de France et la Monarchie*, 2 vol., Rome, 1959.
- V. - L. TAPIE, *Baroque et classicisme*, Paris, Plon, 1957, coll. «Civilisation d'hier et d'aujourd'hui».
- P. ARIES, *L'enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime*. *ibid.*, 1960.
- R. BRAY, *La formation et la doctrine classique en France*, Paris, Hachette, 1931.
- D. MORNET, *Histoire de la littérature française classique*, Paris, Colin, 1950.
- P. DESJARDINS, *Poussin*, Paris, Laurens, 1904; *La méthode des classiques français*, Paris, Colin, 1904.
- L. RIVAILLE, *Les débuts de P. Corneille*, Paris, Boivin, 1936.
- O. NADAL, *De quelques mots de la langue cornélienne*, Paris, Gallimard, 1943; *Le sentiment de l'amour dans l'oeuvre de Corneille*, *ibid.*
- A. SCHIMBERG, *L'éducation morale dans les collèges de la compagnie de Jésus en France sous l'Ancien Régime*, H. Chaniniou, 1913.
- A. KOYRE, *Trois leçons sur Descartes*, Le Caire, 1938.
- E. GILSON, *Etudes sur le rôle de la pensée médiévale dans la formation du système cartésien*, Paris, Vrin, 1951.
- G. GILLES, *Les origines de la grande industrie métallurgique en France*, Paris, Domat-Monchrestien, 1947.
- H. HAUSER, *La pensée et l'action économique du cardinal de Richelieu*, Paris, P.U.F., 1944.
- J. ORCIBAL, *Louis XIV contre Innocent XI*, Paris, Vrin, 1949; *Louis XIV et les Protestants*, *ibid.*, 1951.
- R. MOUSNIER, *Etat et commissaire. Recherches sur la création des intendants des provinces (1634 - 1648)*, *Forschungen zu staat und Verfassung, Festgabe für Fritz Hartung*, Dunchen et Humb'ot, Berlin, 1958.
- A. - G. MARTIMORT, *Le Gallicanisme de Bossuet*, coll. Unam Sanctam, 1953.

- C. G. PICAUVET, La diplomatie française au temps de Louis XIV, Paris, Alcan, 1939.
- J. BARUZI, Leibniz et l'organisation religieuse de la terre, Paris, Alcan, 1907.
- H. GILLOT, Le règne de Louis XIV et l'opinion publique en Allemagne, Paris, Champion, 1914; La querelle des Anciens et des Modernes, Paris, Champion, 1914.
- G. ZELLER, L'organisation défensive des frontières du Nord et de l'Est au XVIII^e siècle, Paris, Berger-Levrault, 1928.
- J. SAINT-GERMAIN, Les financiers sous Louis XIV, Paris, Plon, 1950.
- P. HAZARD, La crise de la conscience européenne, Paris, Boivin, 1935.
- P. MOUY, Les développements de la physique cartésienne, Paris Vrin, 1934.
- L. DEFOSSEZ, Les savants du XVII^e siècle et la mesure du temps, Lausanne, Ed. du Journal suisse d'Horlogerie et de Bijouterie, 1946.
- P. BRUNET, Introduction des théories de Newton en France, I, Paris, Blanchard, 1931.
- J. LOCKE, Essai sur le pouvoir civil, éd. Fyot, Bibliothèque de la Science politique, Paris, P.U.F., 1953.
- H. LUTHY, La Banque protestante en France, de la Révocation de l'Edit de Nantes à la Révolution, I, 1695-1730, Paris, S.E.V.P.E.N., 1959, coll. «Affaires et gens d'affaires».
- F. MARQUET, Histoire générale de la navigation du XV^e au XX^e siècle, Paris, Société d'Éditions géographiques, maritimes et coloniales.
- G. LA ROERIE, Navires et marins, Paris, Rombaldi, 1946.
- CASTEX, Les idées militaires de la marine du XVIII^e siècle, 1911; Synthèses de la guerre sous-marine, 1920.
- PARIS, Essai sur la construction navale des peuples extra-européens, 1841.
- G. LAFOND Des NOETTES, De la marine antique à la marine moderne, Paris, coll. 1935.
- S. E. MORISSON, Admiral of the Ocean sea. A life of Christopher Columbus, Boston, 1942, 2 vol.
- M. MOLLAT, Le navire et l'économie maritime du XV^e au XVIII^e siècle, Paris, 1957, S.E.V.P.E.N.
- R. MOUSNIER, Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'à la fin du XVII^e siècle, cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1957.
- KENNEDY, Jesuits and savages in New France, Yale Historical Publications, 1950.
- W.D. et R.S. WALLIS, The Micmac Indians of Eastern Canada, Minneapolis, 1955.
- S. H. STITES, Economics of the Iroquois, Bryn Mawr College, 1905.
- M. BOUTELLER, Chamanisme et guérison magique, Paris, P.U.F., 1950.
- P. METRAUX, La civilisation matérielle des Tupi-Guarani; La religion des Tupi-namba, thèses de Lettres, Paris, 1928.
- S. - G. MORLEY, The ancient maya. Stanford University Press, 1946.
- J. SOUSTELLE, La vie quotidienne des Aztèques à la veille de la conquête espagnole, Paris, Hachette, 1955.
- L. BAUDIN, La vie quotidienne au temps des derniers Incas, Paris, Hachette, 1955.
- J. LEONARD, Books of braves, Harvard University Press, 1949.
- P. CHAUNU, Séville et l'Atlantique, Partie interprétative, structures et conjonctures, thèse de lettres, Paris, 1960, 3 vol., S.E.V.P.E.N., coll. «Ports-Routes-Traffic».
- R. RICARD, La conquête spirituelle du Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1933.
- M. FASSBINDER, Der Jesuiten staat in Paraguay, Studien über Amerika und Spanien 2, Halle, 1926.
- F. CHEVALIER, La formation du grand domaine au Mexique, Paris, Institut d'Ethnologie, 1952.
- L. HANKE, Colonisation et conscience chrétienne au XVI^e siècle, Paris, Plon, 1957, coll. «Civilisations d'hier et d'aujourd'hui».
- C. A. JULIEN, Les Français en Amérique. Les voyages de découvertes et les premiers établissements (XV^e - XVI^e siècles), P.U.F., 1948, Coll. «Colonies et Empires».

- C. de BONNAULT, *Histoire du Canada français (1534-1763)*, P.U.F. 1950 (même coll.)
- G. RIGAUD et G. GOYAU, *Martyrs de la Nouvelle France*, Bibl. des Missions, I, Paris, 1925.
- P. - C. de ROCHEMONTEIX, *Les Jésuites et la Nouvelle-France au XVII^e siècle*, Paris, 1895, 3 vol.
- M. BREMOND, *Hist. litt. du sentiment religieux, en France*, VI, *la conquête mystique, Marie de l'Incarnation*, 1922; *Les Français en Amérique pendant la première moitié du XVI^e siècle*, éd. par Ch. - A. Julien, Herval, Th. Beauchesne, P.U.F., 1946; *Les Français en Amérique pendant la seconde moitié du XVI^e siècle. Le Brésil et les Brésiliens*, par Andrié THEVET, P.U.F., 1953; *Les voyages de Samuel Champlain*, publ. par Hubert DESCHAMPS, P.U.F., 1951.
- M. GIRAUD, *Histoire de la Louisiane Française, I, Règne de Louis XIV, 1698-1615* P.U.F., 1951.
- G. FREYRE, *Maîtres et esclaves*, trad. Roger Bastide, Gallimard, 1952.
- G. SCHELLE, *La traite négrière aux Indes de Castille. Contrats et traités d'Asiento*, Paris, 1906, 2 vol.
- R. KONETZKE, *Coleccion de documentos para la historia de la formation social de hispano-America, I, (1493-1692)*, 1953.
- F. MAURO, *Le Portugal et l'Atlantique au XVII^e siècle*, thèse de Lettres, Paris, 1959.
- V. MAGALHAES-GODINHO, *L'économie de l'Empire portugais aux XV^e et XVI^e siècles*, thèse de Lettres, Paris, 1959.
- H.R.B. GIBB et H. BOWEN, *Islamic Society and the West, I*, Londres, 1950.
- Ch. - JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 1931, 2 éd., t. II, revue par le TOURNEAU, Payot, 1952.
- G. HANOTAUX, *Histoire de la nation égyptienne*, T.V, Paris, Plon, 1934.
- M. DELAFOSSE, *The Negroes of Africa*, Washington, The Associated Publishers, 1932.
- G. HARDY, *Nos grands problèmes coloniaux*, Paris, Colin, 1928.
- H. LABOURET, *Histoire des Noirs d'Afrique*, Paris, P.U.F., 1946.
- M. J. HERSKOVITZ, *Dahomey*, New York, 1938.
- E. DEHERAIN, *Etudes sur l'Afrique, I*, Paris, Hachette, 1909.
- H. LABOURET et P. RIVET, *Le royaume d'Ardres et son évangélisation au XVIII^e siècle*, Paris, Institut d'Ethnologie, 1929.
- R. MOUSNIER, *Les Européens hors d'Europe, de 1492 jusqu'à la fin du XVII^e siècle* (suite), cours multigraphié, Centre de Documentation universitaire, 1953.
- J.H. HUTTON, *Les castes dans l'Inde*, Paris, Payot, 1949.
- E. SENART, *Les castes dans l'Inde, L'effet et le système*, 1927, in 4°.
- C. BOUGLE, *Essai sur le régime des castes*, 2^e éd., 1927.
- R. GROUSSET, *Histoire de la philosophie orientale*.
- P. MASSON-OURSSEL, *Les religions de l'Inde*, Paris, Bloud et Gay, 1955.
- H. VON GLASENAPP, *Brahma et Bouddha, Les religions de l'Inde dans leur évolution historique*, Paris, Payot.
- J. HERBERT, *La mythologie hindoue*, Paris, 1953.
- W.O. MORELAND, *India at the death of Akbar*, Londres, 1920; *From Akbar to Aureng-zeb*, Londres, 1923.
- P.H. BADEN-POWELL, *Land Revenues and Tenure in British India*, Oxford, 1894.
- L. De AZEVEDO, *Epocas de Portugal Economico*, 1929.
- B.H.M. VLEKKE, NUSANTARA, *A history of the East Indian Archipelago*, Harvard University Press, 1944.
- A. BROU, *Saint François-Xavier*, 2 éd., 1922.
- P. DAHMEN, Robert de Nobili, l'apôtre des Brahmes (Bibliothèque des Missions, «mémoires et documents», vol. III, 1931.).
- A. FARJENEL, *Le peuple chinois*, Paris, 1906, in-12.
- H. BERNARD-MAITRE, *Sagesse chinoise et philosophie chrétienne*, Paris, Cathoria, 1950; *Pour la compréhension de l'Indochine et de l'Occident*, Paris, Les Belles-

- Lettres, 1950; Aux portes de la Chine, les missionnaires du XVI^e siècle (1514-1598), Tien-Tsin, Hautes Etudes; Le P.M. Ricci et la société chinoise de son temps, *ibid.*, 1937; Les îles Philippines du grand Archipel de la Chine, *ibid.*, 1936; Le Frère Bento de Goes chez les Musulmans de la Haute-Asie, *ibid.*, 1934; La science européenne au tribunal astronomique de Pékin, Université de Paris, Conférences du Palais de la Découverte, série D, no 9, 1951.
- H. MASPERO, Mélanges posthumes sur les religions et l'histoire de la Chine: I, Les religions chinoises, II, Le taoïsme, Publications du Musée Guimet, «Bibliothèque de diffusions», nos 57 et 58, 1950.
- J. NEEDHAM, Science and Civilisation in China, II, History of scientific thought, Cambridge, 1956.
- M. EBERHARD, Histoire de la Chine, Paris, Payot, 1952.
- P. GOUROU, La terre et l'homme en Extrême-Orient, Colin, 1949.
- MASPERO et J. ESCARRA, Les institutions de la Chine, Paris, P.U.F., 1952.
- WANG-TCH'ANG-TCHE, La philosophie morale de WANG-Yang-Ming, Paris, 1936.
- V. PINOT, La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France (1640-1740), Paris, Geuthner, 1932.
- A.H. ROWBOTHAN, Missionary and Mandarin. The Jesuits at the Court of China, 1942.
- SAMSON, Le Japon, Paris, Payot, 1938, morale de WANG-Yang, Paris, 1936.
- Nitobé INAZO, Le Bushido, Paris, 1927.
- L. BOURDON, La Compagnie de Jésus et le Japon de 1547 à 1570, thèse de Lettres, Paris, 1947.
- C.H. BOXER, Fidalgos in the Far East (1550-1570), La Haye, 1948; The Christian century in Japan (1549-1650), Londres, 1951.
- H. NAGAOKA, Histoire des relations du Japon avec l'Europe aux XVI^e et XVII^e siècles, Paris, 1905.
- D.T. SUZKI, An Introduction to Zen Buddhism, Klotz, The Eastern Buddhist Society, 1934; Manual of zen Buddhism, *ibid.*, 1935.
- KERNER, The urge to Sea, 1942.
- R. FISHER, The Russians fur Trade (1550-1770), 1943.
- P. PASCAL, Avvakum et les débuts du Raskol, thèse de Lettres, Paris, 1949.
- P. CHAUNU, Les Philippines et le Pacifique des Ibériques, Paris, S.E.V.P.E.N. 1960, coll. «Ports-Routes-Traffic».
- P. MASSON-OURSSEL, La philosophie comparée, 2 éd., Paris, P.U.F., 1932.
- R. BERTHELOT, La pensée de l'Asie et l'astrobiologie, Paris, Payot, 1938.
- A. REY, De la pensée primitive à la pensée actuelle, «Encyclopédie française», t.I.

جدول زماني مقارن

- ١٤٩٢ استيلاء الملوك الكاثوليك على غرناطة - « لوفيفر ديتابل » ينشر « شروح طبيعيات »
ارسطو - كريستوف كولومبوس يكتشف اميركا .
- ١٤٩٤ شارل الثامن في ايطاليا - « السدي مانوشي » يؤسس مطبعته في البندقية -
معاهدة « تور دي سيلاس » .
- ١٤٩٧ ليوناردو دافنشي : العشاء السري - سفر « فاسكو دي غاما » - « جان كابو » في
لابرادور (٤) .
- ١٤٩٨ « دورر » : « الجليان » - فاسكو دي غاميرا في الشاطيء في كاليكوت .
- ١٥٠٠ « اراسم » : الامثال السائرة الاولى - بويتشلي : مولد العلواء .
- ١٥٠٣ ميكال انجلو : العائلة المقدسة - تشييد جناح لويس الثاني عشر في قصر « بلوا » -
البوكرك يحتل كوشين في الهند - تأسيس « دار التعاقد » في اشبيلية - محمد
شيباني يطرد بابير من بلاد ما وراء الاوكسوس .
- ١٥٠٥ مارتن لوتر يدخل الدير .
- ١٥٠٦ ليوناردو دافنشي : الجوكوندا - برامنتي يباشر بناء كنيسة القديس بطرس في
روما - روتلين : مبادئ اللغة العبرية - البوكرك يستولي على سقوطرا .
- ١٥٠٩ مولد كالفين وميشال سرفيه واتيان دوليه - ميكال انجلو يعمد في « المعبد
السكستيني » - البرتغاليون يبلقون « مالاكا » - انشاء مجلس الهند في اسبانيا .
- ١٥١٠ ماتياس غرونولد : رافدة مذبح ايزنهايم - البوكرك يستولي على غوا .
- ١٥١١ اراسم : تقريظ الجنون - البوكرك يستولي على مالاكا ويبلغ امبوان .
- ١٥١٢ غاستون دي فوا في ايطاليا - ميكال انجلو : موسى - لوفيفر ديتابل ينشر « رسائل »
القديس بولس - بالبوا يكتشف المحيط الهادي .
- ١٥١٤ البرتغاليون في الصين .
- ١٥١٦ معاهدة بولونيا - تأسيس رهبانية الحب الالهي - ماكيا في : الامير - توماس نور :
« قصد الحال » - اريوستو : رولان الغضوب - سليم الاول يحتل مصر .
- ١٥١٧ نشر « النظريات الخمس والتسعون » للوتر - الاسبانيون في يوكاتان - البرتغاليون
في كانتون .
- ١٥١٩ انتخاب شارل الخامس ملكا على الرومان - ادالة لوتر في كولونيا - بدء رحلة ماجلان
- كورتيس في المكسيك - غزوة بابير الاولى في الهند .
- ١٥٢١ مجمع وورمس - حرم لوتر - دورر : المجهول - هولباين : المسيح الميت - لوفيفر
ديتابل يترجم « المزامير » - كورتيس يسترد مكسيكو - سليمان يستولي على بلغراد .
- ١٥٢٤ اندلاع ثورة الفلاحين في المانيا - لوتر : تقييد الارادة - اراسم : حرية الارادة -
الشروع في تشييد قصر شامبور - رحلة « بيزار » الاولى الى بلاد الانكا - رحلة
فرازاتو - بابير يغزو البنجاب .

- ١٥٢٥ معركة « باقي » ، أسر فرنسوا الاول .
- ١٥٢٦ معاهدة مدريد - انياس دي لويولا : تمارين روحية - معركة موهاكس - بابير يحتل سلطنة دلهي بعد انتصاره في بانيبات - امبرواز هوكستتر يلجأ للمرة الاولى الى قرض الدولة .
- ١٥٢٩ معاهدة ساراغوسا لوضع الحدود .
- ١٥٣٠ تتويج شارل الخامس امبراطورا - اعتراف اوغسبورغ - وفاة بابير - الفوضى في الهند .
- ١٥٣١ هنري الثامن يعلن نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية - تأسيس المصفق الجديد في انفرس .
- ١٥٣٤ ندور انياس دي لويولا في مونمارتر - رابليه : حياة فارغنتوا الكبير - جاك كارتيه في كندا - البرتغاليون يحصلون على « ديو » من ملك « كمباي » .
- ١٥٣٦ امتيازات القسطنطينية - كالفين : « نظام الديانة المسيحية » - جاك كارتيه يستكشف نهر سان - لوران .
- ١٥٣٩ قانون « فيليه - كوتيه » - « المواد الست » في انكلترا - تنظيم الجمعية اليسوعية تنظيمها نهائيا - مركاتور يرسم خريطة العالم - الاتراك يهاجمون « ديو » .
- ١٥٤١ « نظام » كالفين ينقل الى الفرنسية - انياس دي لويولا رئيس عام اليسوعيين - ميكال انجلو : الدينونة الاخيرة .
- ١٥٤٢ احداث التفتيش في روما - شرائع جديدة مراعاة للهنود - الاسبانيون في الفلبين - البرتغاليون في اليابان - مولد هيدوشي .
- ١٥٤٣ كوبرنيك : مدارات الاجرام السماوية - فيزال : معمل الجسم الانساني .
- ١٥٤٥ افتتاح المجمع التريدينيني - اكتشاف مناجم بوتوسي .
- ١٥٤٦ وفاة لوثر - رابليه : الكتاب الثالث - اليسوعيون في البرازيل - اليابانيون ينزلون الى اليابسة في تشي - كيانغ .
- ١٥٤٧ معركة موهلبرغ - ميكال انجلو يستلم ادارة اعمال كنيسة القديس بطرس في روما - تيسيان : فينوس وادونيس - ايفان المراهوب يستلم زمام الحكم .
- ١٥٤٩ وثيقة التساوي و « كتاب الصلاة » الاول - القديس فرنسيس كسافاريوس في اليابان - انشاء محاكم تجارة في ليون وتولوز .
- ١٥٥٢ هنري الثاني يحدث محاكم البداية - وثيقة التساوي الثانية و « كتاب الصلاة » الثاني - هنري الثاني يستولي على « الاسقفيات الثلاث » - وفاة القديس فرنسيس كسافاريوس - رونساو : « غراميات » - ايفان المراهوب يحتل « قازان » - نشر القانون الاستعماري الاسباني - اليابانيون يصعدون نهر « يانغ - تسي » .
- ١٥٥٣ اعدام ميشال سرفيه - « دي بلاي » يبدأ كتابة « آثار روما » - تأسيس جامعة مكسيكو - الانكليز في « اركنجلوسك » - الصينيون يحصرون البرتغاليين في « ماكاو » - محمد المهدي شيد مراکش .
- ١٥٥٤ اكتشاف الملمع لاستخراج الفضة من المعدن الخام .
- ١٥٥٦ تنازل شارل الخامس - وفاة القديس انياس دي لويولا - بومبونازي : « اسباب . . الطبيعية » - ايفان المراهوب يستولي على استراخان - ولاية اكبر .

- ١٥٥٧ براءة كومبيانيه - معركة سان - كوانتين - افلاسات في فرنسا واسبانيا - ازمة مالية في انقرس - احداث اسفوية في الصين .
- ١٥٥٩ وفاة هنري الثاني - معاهدة كاتو - كميربريس - « الفهرست الفاتيكانى » الاول - لسكو يعمل في اللوفر « اويو » ينقل « التراجم » لبلوتارك - « نوبوناغا » يخضع اقطاعي اليابان الشرقية .
- ١٥٦١ مجلس طبقات اورليان - معاوضات بواسى - القديسة تريزيا : « كتاب حياتي » - جون نوكنس : « كتاب النظام » - صك بتنظيم حركة اساطيل العالم الجديد .
- ١٥٦٢ مجزرة « فاسي » - بعثة جون هوكنر الى اميركا .
- ١٥٦٣ نشر « المواد النسع والتلائن » في اكلترا - انتهاء المجمع التريدينى .
- ١٥٦٤ « الرقيم » مبارك الله « يبرم اعمال المجمع التريدينى - وفاة كالفين - القديسة تريزيا : « طريق الكمال » - رابليه : الكتاب الخامس - اكبر يلغى الضرائب المفروضة على غير المسلمين في الهند .
- ١٥٦٥ ثورة في الاندلس - ايعان المراهوب ينشئ « اوبرتشنينا » - نوبوناغا يصبح نائب « شوغون » .
- ١٥٦٦ التعليم المسيحى بحسب المجمع التريدينى - القديسة تريزيا : « خطرات حول الحب الالهى » .
- ١٥٦٨ القديس يوحنا الصليب يؤسس جمعية الكرملين الحفاة - نشر كتاب فرض الكهنة - جان بودين : الجواب على مغالطات السيد « دي مالستروا » .
- ١٥٧١ قمع الثورة في الاندلس - معركة « لبيانت » - التتر يحرقون موسكو - نوبوناغا يقوض دير هييزيان .
- ١٥٧٢ يوم سان برتلمي - ثورة « الصعاليك » في المناطق المنخفضة - كاموانس : « لوزياد » - « دراك » يستولى على القافلة الاسبانية الى الهند - دراك في باناما .
- ١٥٧٣ له تاس : امتنا - هوتمن : فرنكو - غالبا - نوبوناغا يقضى بحرمان ال « شيكاغا » من سلطتهم .
- ١٥٧٥ اكبر ينشئ بيت عبادة - تاسيس رهبانية القديس فيلبوس النيرى .
- ١٥٧٦ جان بودين : « الجمهورية » - باليف الحلف - تهدئة غنت .
- ١٥٧٧ مارتن فروبيشر يبحث عن طريق من الشمال الغربى - القديسة تريزيا : « المساكن » .
- ١٥٧٩ اتحاد اوترخت - تكون المناطق المتحدة - انتقامات من المستبدن - اكبر يعلن نفسه رئيسا دينيا في ولايته .
- ١٥٨٠ مونتانيه : « المحاولات » (الطبعة الاولى) - له تاس : « انقاذ اورشليم » .
- ١٥٨٤ وفاة ايفان المراهوب - بداية « زمن الاضطرابات » - فيليب الثاني يستقبل اسبادا يابانيين ارسلهم الاب « فالينيانى » .
- ١٥٨٧ دراك ينهب قادس - تأسيس « مصرف ريالزو » في البندقية - وولتر رالاي يؤسس مستعمرة في فرجينيا - هيدىوشي يطرد المرسلين .
- ١٥٨٨ كارثة « الاسطول الذى لا يقهر » - مونتانيه : المحاولات (الكتاب الثالث) - غزو اليابانيين لكوريا .

- ١٥٩٢ الطبعة النهائية للترجمة العامة السكستينية - شكسبير : فينوس وادونيس - هيدبوشي يستولي على « يادو » .
- ١٥٩٦ كبلر : « سر الفلك » - شكسبير : « حلم ليلة من ليالي الصيف » - مولد ديكرات - الهولنديون يستقرون في زيلندا الجديدة وسبتربرغ .
- ١٥٩٨ براءة ثانت - معاهدة فرفين - لوب دي فيغا : « اركاديا » - بويرس غودونوف ينتخب قيصر - وفاة هيدبوشي .
- ١٦٠٠ اوليفيه دي سير : مسرح الزراعة - اصلاح جامعة باريس - شكسبير : « كما يطيب لك » - تاسيس الشركة الانكليزية للهند الشرقية - اكبر يباشر فتح دكان .
- ١٦٠٢ تاسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية .
- شكسبير : هملت - سلالة الشوغون توكوغاوا تتولى الحكم - رحلة شامبلين الاولى الى كندا .
- ١٦٠٣ شكسبير : اوتلو - تاسيس تومسك .
- ١٦٠٤ مباشرة بناء الساحة الملكية في باريس - شكسبير : مكبث - سرفنتس : دون كيشوت - وفاة اكبر .
- ١٦٠٥
- ١٦٠٧ اليسوعيون يستلمون زمام الحكم في الباراغواي - لقاء القديس فرنسوا دي سال والقديسة جان دي شانتال - بناء ساحة ولي العهد في باريس .
- ١٦٠٨ القديس فرنسوا دي سال : مدخل الى حياة التقوى - شامبلين يؤسس كيبك .
- ١٦٠٩ هدنة اثنى عشرة سنة بين اسبانيا والمناطق المتحدة - فروتيوس : البحر الحر - كبلر : علم الفلك الجديد - تاسيس مصرف امستردام .
- ١٦١٠ اغتيال هنري الرابع - غاليليو يتقن المرقب .
- ١٦١٣ بيرول يدخل رهبانية القديس فيلبوس النيري الى فرنسا - شكسبير : « هنري الثامن » - سرفنتس : « اخبار مثالية » - ولاية آل رومانوف .
- ١٦١٤ مجلس الطبقات في فرنسا - له غريكو : انتقال العداء - تاسيس الشركة الهولندية الشمالية .
- ١٦١٥ وليم هارفني يكتشف الدورة الدموية - سفارة انكليزية في الهند - ثورة هيدبوري بن هيدبوشي .
- ١٦١٦ القديس فرنسوا دي سال : « بحث في محبة الله » . طرد الاسبانين من اليابان - المنشوريون يغزون لياو - تونغ .
- ١٦١٨ ثورة بوهيميا .
- ١٦٢٠ معركة الجبل الابيض - بيكون : « نوفوم اورغانوم » - حجاج « مايفلور » في اميركا .
- ١٦٢١ تاسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية - المنشوريون يستقرون في موكن - توماس مون : « خطاب في التجارة » - تجدد الحرب بين اسبانيا والمناطق المتحدة .
- ١٦٢٢ الشاه عباس يسترد اورموز من البرتغاليين .
- ١٦٢٣ سمسو يتقلد ابواب اليابان في وجه الاجانب - الشاه عباس يسترد بغداد - فلسكيز : « رسم اوليفاريس » .
- ١٦٢٤ ريشليو يدخل المجلس - فلسكيز : « المتكاري » - الهولنديون يدهجون الانكليز في امبوان ويندا .

- ١٦٢٥ والنستين يتولى قيادة الجيوش الامبراطورية - سينولا يستولي على بريد - غروتوس : « قانون الحرب والسلام - الانكليز في « بارباد » .
- ١٦٢٦ فيليب دي شامبانيه : « رسم جنسينيوس » . تأسيس امستردام الجديدة - الفرنسيون في سان - كريستوف .
- ١٦٢٧ حصار لاروشيل - تأسيس جمعية القرن المقدس - طاي - تسنغ ، قائد المنشوريين ، يهدد بكين .
- ١٦٢٩ براءة عفو آل - فان ديك : « رينو وارميد » - الهولنديون يحصلون من الروس على حق تعاطي التجارة في اركنجلسك - منح مستعمرة ماساشوستس بعض الامتيازات - الانكليز يستولون على كيبك .
- ١٦٣٠ فلسكيك : « كورفولكين » - الهولنديون يستولون على برنموك وسورينام وكاراكاس - تأسيس مستعمرات « الماين » .
- ١٦٣١ غوستاف - ادولف على ضفاف الرين .
- ١٦٣٢ وفاة غوستاف - ادولف المنتصر في لوتزن - جيون سلدن : « البحر المغفل » - غاليليو : خطاب في النظامين الرئيسيين للعالم - رمبراندت : « درس التشريح » - تأسيس مستعمرة ماريلند - الهولنديون في كوراساو .
- ١٦٣٣ محكمه التفتيش تكره غاليليو على الاقلاع عن « اخطائه وهرطقاته » .
- ١٦٣٤ شارل الاول يفرض ضريبة « مال الاسطول » - اغتيال والنستين - معركة نوردلنجن - القديس منصور دي بول ولويس دي ماريلاك يؤسسان جمعية راهبات المحبة .
- ١٦٣٥ لويس الثالث عشر يعلن الحرب على اسبانيا - تأسيس الاكاديمية الفرنسية - روبنس : روضة الغرام - فان ديك : رسم شارل الاول - تأسيس الشركة الفرنسية للجزر الاميركية - الفرنسيون يحتلون غواد لوب .
- ١٦٣٦ غزو فرنسا - كورناي : السيد - تأسيس جامعة هارفرد - تفكك امبراطورية سلالة المنغ .
- ١٦٣٧ ديكرات : خطاب في المنهج - اوائل عهد جمعية معتملي بور - روبال .
- ١٦٣٨ دخول اليابان يحظر على كل اجنبي والخروج منها يحظر على كل ياباني - القديس منصور دي بول يؤسس مشروع جمع اللقطاء .
- ١٦٣٩ فلسكيك : الصلب - الانكليز في مدارس .
- ١٦٤٠ بوارد الثورة الانكليزية - جنسينيوس : اوغسطينوس - كورناي : هوراس .
- ١٦٤١ ديكرات : « تأملات » - كورناي : بوليوكت - له نين : « فينوس في كور فولكين » .
- ١٦٤٢ وفاة ريشليو - ثورة لندن - اوليه يؤسس جمعية سان - سوليس - برويس في مدغشقر - تأسيس مونريال - الهولنديون في تاسمانيا - مولد نيوتون .
- ١٦٤٣ ولاية لويس الرابع عشر - معركة روكروا - ارنولد : بحث في المناولة المتواترة - مؤلير يؤسس المسرح الشهير .
- ١٦٤٤ انمقاد مؤتمري مونستر واوسنابروك - توريشلي يخترع ميزان الجو - ديكرات : « مبادئ الفلسفة » - انتحار آخر اباطرة المنغ - بدء زراعة قصب السكر في جزر الانتيل .
- ١٦٤٧ باسكال : اختبارات جديدة حول الفراغ - فوجلاس : ملاحظات حول اللغة الفرنسية - بوتر : « الثور » - فلسكر : « الرماح » .

- ١٦٤٨ ثورة القلاع - محاكمة شارل الاول واعدامه - كرومول يحتل ايرلندا - معاهدتها
وستفاليا - اختبار باسكال في « بوي دي دوم » - رمبراندت : « حجاج عماوس »
- فيليب دي شامبانيه : « الام انجليكا » .
- ١٦٥٠ المنشوريون يغزون الصين الجنوبية .
- ١٦٥١ هزيمة شارل الثاني في وورستر - الغاء لقب « القائد العسكري » في المناطق
المنخفضة - تأسيس جمعية الرسائل الاجنبية - غيريك يخترع آلة تفريغ الهواء -
هويس : لقيتان - التصديق على وثيقة الملاحة في انكلترا - الفرس يستولون على
مسقط - نهاية السيطرة البرتغالية على الخليج الفارسي - المنشوريون يستولون على
كانتون - انهيار المقاومة الصينية .
- ١٦٥٢ اتحاد انكلترا وسكتلندا - الحرب الانكليزية الهولندية - اقرار « حرية النقض » في
جمعية بولونيا - الهولنديون ينتزعون مدينة « الراس » من البرتغاليين - الانكليز في
جزيرة القديسة هيلانة .
- ١٦٥٣ نهاية ثورة القلاع - كرومول ، اللورد الحامي - الدالاي لاما يحضر الى بكين لتولية
السلالة المنشورية - انهيار الامبراطورية الهولندية في البرازيل .
- ١٦٥٤ معاهدة وستمنستر - القوزاق ينضمون الى روسيا - الروس يصعدون الى
« سونغاري » .
- ١٦٥٥ الانكليز يحتلون جامايكا .
- ١٦٥٦ باسكال : « الاقليميات » - محمد كبرلي رئيس وزراء .
- ١٦٥٧ نقولا لمري : « كتاب الكيمياء » .
- ١٦٥٨ وفاة كرومول - معركة الدون - تأسيس اكااديمية العلوم في باريس - تأسيس
« نرثمنسك » .
- ١٦٥٩ الاب فرييست في الصين - الاعتراف بـ « اورنغ - زب » امبراطورا .
- ١٦٦٠ عودة شارل الثاني الى انكلترا - توقيع « صيغة » تفرض في فرنسا على الجنسينيين
- « هجاء » بوالو الاول .
- ١٦٦١ لويس الرابع عشر يتولى الحكم شخصيا - « منطق » بور - رويال - احداث « دائرة
التجارة والمغارس » .
- ١٦٦٢ وثيقة التساوي - تأسيس جمعية لندن الملكية - الانكليز يستلمون بومباي .
- ١٦٦٤ كولبير يضع تعرفه الحماية الجمركية الاولى - « وثيقة السنوات الثلاث » - موليير :
« المنافق » - تأسيس شركة الهند الفرنسية - الانكليز يستولون على امستردام الجديدة
التي أصبحت نيو - يورك .
- ١٦٦٥ تأسيس « جريدة العلماء » - الفرنسيون في سان - دومنغ .
- ١٦٦٦ نيوتون يحلل النور - موليير : « مبغض البشر » .
- ١٦٦٧ كولبير يضع تعرفه الحماية الثانية - لويس الرابع عشر يحتل المناطق المنخفضة -
معاهدة بريدا - بوفندورف : نظام الامبراطورية الجرمانية - راسين : « اندروماله »
- ملتون : « الفردوس المفقود » .
- ١٦٦٨ صلح اكس - لا - شايبل - « صلح الكنيسة » بين البابا والجنسينيين - تأسيس
اكاديمية فرنسا في روما . اورنغ - زب يسمح للفرنسيين بالاقامة في سورات -
الاسبانيون يستولون على المريان .

- ١٦٧٠ نشر القانون الجنائي في فرنسا - سبينوزا : « بحث لاهوتي سياسي » - باسكال : « خطرات » . ليبنيز : « نظرية الحركة » - كولبير يؤسس شركة أساكل الشرق الأدنى .
- ١٦٧٢ الحرب الهولندية - بوفندروف : « الحق الطبيعي وحقوق الإنسان » - تأسيس « المركور الفرنسي » .
- ١٦٧٣ هوفغنس : « رقااص الساعة » - مولير : « المريض الموهوم » - بعثة جوليه والاب ماركيت الى وادي الميسيسيبي .
- ١٦٧٤ مالبرانش : « البحث عن الحقيقة » - بوالو : « الفن الشعري » - الهولنديون يستولون على المرتينيك - الفرنسيون يقيمون في بوندشيري .
- ١٦٧٥ ليبنيز يكتشف حساب الكمية الصغرى - معركة توركهايم : موت تورين - معركة فهرلين .
- ١٦٧٦ الدانمركي رومر يحسب سرعة النور - تأسيس صندوق الاهتدات .
- ١٦٧٧ سبينوزا : « علم الاخلاق » - راسين : فيدر .
- ١٦٧٨ بواذر النزاع بين البابا وملك فرنسا - معاهدتا نيمغ - الجدل الديني بين بوسويه والراعي كلود - ر. سيمون : نقد تاريخ العهد القديم .
- ١٦٧٩ بوسويه : « السياسة المستوحاة من الكتاب المقدس » - ماريوت : « محاولة في نمو النباتات » .
- ١٦٨٠ بدء سياسة « الاجتماعات » - الجمعية الجرمانية تعترض على « الاجتماعات » .
- ١٦٨١ ج. مابيون : « في الدبلوماسية » - بوسويه : « خطاب في التاريخ العام » .
- ١٦٨٢ اعلان المواد الاربع - نيوتون يكتشف سنة الجاذبية الكونية - المناذرة ببطرس الاكبر قيصر - كافليه دي لاسال ينزل المسيحي .
- ١٦٨٥ الغاء براءة نانت - نشر القانون الاسود . الصينيون يرغمون الروس في الباسين على الاستسلام .
- ١٦٨٦ تأليف حلق أوغسبورغ - فونتيل : « محاورة في تصدد العوالم » - تأسيس شندر ناغور .
- ١٦٨٧ نيوتون : « مباديء الفلسفة » .
- ١٦٨٨ الثورة الانكليزية الثانية - لويس الرابع عشر يدخل الحرب - لابروير : « السجاي » - بوسويه : « تاريخ التقلبات » - ش. بيرو : « مقارنة بين الاقدمين والمعاصرين » - لوك : « رسائل في التساهل » - الامبراطوريون يستولون على بلغراد .
- ١٦٨٩ اعلان الحقوق - لوك : « محاولة في الحكومة المدنية » - زفرات فرنسا المستعبدة » - معاهدة نرتشنسك بين الصينيين والروس .
- ١٦٩٠ معركة فلوروس ورأس بيفيزيه - هوفغنس : « بحث في النور » - لوك : « محاولة في الادراك البشري » - دنيس بابين : « مذكرة في استخدام البخار المائي » - تأسيس كلكتا .
- ١٦٩٢ كانغ - هي يجيز المسيحية في الصين .
- ١٦٩٤ « قاموس » الاكاديمية - تأسيس مصرف انكلترا .
- ١٦٩٥ بيل : « القاموس التاريخي والنقدي » .

- ١٦٩٧ معاهدة « ريسويك » - فنيلون : « تفسير حكم القديسين » .
- ١٦٩٨ اضطهاد المسيحيين في كوشنشين - تنظيم خدمة قوافل منتظمة بين الصين وروسيا .
- ١٦٩٩ فنيلون : « تيلماك » - معاهدة كارلوفيتز - بطرس الأكبر يفرض الزي الأوروبي ويصلح الرزنامة .
- ١٧٠٠ تأسيس أكاديمية العلوم في برلين - كانغ - هي يعترف باتفاق الديانتين المسيحية والصينية - قبول لويس الرابع عشر بوصية شارل الثاني - فيليب الخامس ، ملك اسبانيا .
- ١٧٠٢ حرب وراثة عرش اسبانيا .
- ١٧٠٤ نيوتون : « بحث في علم النظريات » - اقليمنضوس الحادي عشر يصدر حكمه على « الطقوس الصينية » .
- ١٧٠٥ براءة بابوية بادانة الجنسية - مندقيل : « اسطورة النحل » - وفاة الامبراطور ليوبولد الاول - لويس الرابع عشر يقترح الصلح على هنسيوس .
- ١٧٠٧ فوبان : « العشر الملكي » - دنيس بابين يبنى سفينة بخارية - بطرس الأكبر يغزو بولونيا .
- ١٧٠٩ معركة « مابللاكية » - الروس يسحقون الاسوجيين في بولتافا .
- ١٧١٠ تقويض بور - رويال - لويس الرابع عشر يفرض ضريبة « العشر » - بركلي : « بحث في مبادئ المعرفة البشرية » - الروس يحتلون استونيا - تأسيس الشركة الانكليزية لبحر الجنوب .
- ١٧١١ مقدمات لندن - ستيل واديسون : السبكتاتور - بطرس الأكبر ينشيء مجلس الشيوخ
- ١٧١٢ افتتاح مؤتمر اوترخت - معركة دنين - بركلي : حوار هيلاس وفيلونوس - فاتو : ركوب البحر الى « سيتير » .
- ١٧١٣ معاهدتا اوترخت - كولنز : خطاب في الراي الحر - صلح ادرا بين الروس والأتراك - اقضاء المرسلين عن تونكين .
- ١٧١٤ معاهدة واستات - نيبينز : « بحث في الموناد » - بطرس الأكبر ينظم التعليم الرسمي ويحتل فنلندا - لويس الرابع عشر يرغم البرلمان على تسجيل الرقيم « الولد الوحيد » .
- ١٧١٥ وفاة لويس الرابع عشر .

جدول الاعلام

١

احاديث حول علمين جديدين لديكارت
٣٨١ ، (١٦٨٦)
احمد اباد ٦٢١
احمد الاول ، السلطان ٥٥٦
احمد نجار ، مدينة ٥٣٨ ، ٥٨١ .
اخوة الحياة المشتركة ١١ ، ٧٦ ، ٩٠ .
ادوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) ١٥٨ ،
١٥٩
اذريجان ٥٥٣ ، ٥٧٣
اراس ، ١٦٥
اراغون ، مملكة ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٠٠ ،
٣٤٣ ، ٣٧٣ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
اراغون ، اسيرة ٦٦
فردنان داراغون ٦٦
ارتوا ، مقاطعة ٣٤٣
ارخميدس ٣٨ ، ١٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥
ارذلا ، ٤٢٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧
ارسطو ٩ ، ١٧ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٤٤ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٢٦٣ ،
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٩٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٤١٨
الارض الجديدة ، جزيرة ١١٢ ، ٣٦١ ،
٤٤٠ ، ٤٧٦ ، ٤٩٥
اوضروم ٥٥٨ ، ٥٦٨
ارغوين ، جزر ٥٦٤
ارفورت ، مدينة ١٣٩
ارمادا (١٥٨٨) ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٧
ارمورا بربارو ٧٥ - ٧٦
اركنجلسك ١٧٥
ارموز ٦٢٩
ارموس ٦٢٠ ،
ارمينيا ١٢١ ، ٥٥٣
ارمينيوس ٥١٨
ارنو ، ٢٥٥
ارنولد (الاب) ٦٨٤ ،
اروان ٥٧٣

آدم ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩٧ ، ٢٥١ ،
٢٧١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٥٤٠ ، ٦٥٨
آردر ، مرفأ ٥٢٢
آرنو ٣٨٠
آزوف ، ٣٧٦
آسيا ٨ ، ١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٤ ، ٢٧١ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ،
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٧٦ ، ٥٠٦ ،
٥١٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٠ ،
٥٦٨
آسيا الصغرى ٤٢٧ ، ٥٣٥ ، ٦٤٦
آلمانوس ، ٣٦ ، ٧٦
آلد ، جزر ٣٧٧
آليه ، عفو ... ٣٣٣ ، ٣٣٢
الاب جوزف او صاحب النيافة الرمادية
٣٢٧
ابراهيم الاول ، السلطان ٥٤٨
الابرة الفنطيسية ٧
ابن اسكندر ٦١٧
ابي الودية مملكة ٥٦٠
ابيقور ٢٧٠ ، ٢٧٢
ابكتيس ١٠٢ ، ٢٧٢
ابن رشد ، ٣٦ ، ٦١ ، ٧٤
آبومي ٥٣٢ ، ٥٢٤
انزوشي ٦٦٩
اتشيم ٦٠٩
ايلار ١٧
اتحاد ... (١٥٧٩) ١٦٥
الاتراك العثمانيون ١٦٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٣٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ،
٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٤٢٢ ، ٤٨١ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ،
٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،
٥٧٦
احاديث حول تعدد العوالم ، لفونتنيل
٣٨١ ، ١٦٨٦

الأكاديمية الفرنسية (١٦٣٥) ٣٢٧ - ٣٢٨
الأكاديمية الملكية للتصوير والنقاشة
(١٦٦٣) ٣٢٩ ، ٣٣٠
أكاديمية هندسة العمارة (١٦٧١) ٣٢٩
أكاديمية الموسيقى (١٦٧٢) ٣٢٩
أكاديمية روما (١٦٦٨) ٣٢٩
أكارت ١٠١
أكبر ، السلطان ٥٣٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥
٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦١٩ ، ٦٢٤
أكرا ، مدينة ٥٨٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٤
جامعتها ١٧ ، ٤١ ، ٧٦
آس - لا شابل ، صلح (١٦٦٨) ٣٥٤
أفانتوس ٥١
الأكوادور ٤٦٧ ، ٤٧٠
الأكويني ، توما ٣٦ ، ٣٩ ، ١٠٧
الالب ، جبال ١٦ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ،
١٩٧ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
البا ، جزيرة ٢٣٩
البنيا ٢٠٤ ، ٥٣٧ ، ٥٥٨
البرت ده براندبورج ، رئيس فرقة
التيونيين ١٠٥ ، ١٦٨
البريه ، آل ١٥٣
البورك ٢٠ ، ٤٢٩ ، ٦٥٤
اللتاي ، نهر ١٧٥
اللاس ٢٠٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٣٧ ،
٣٣٨ ، ٣٥٣
السيات ٦٦
الفارو (الاب) ٦٧٣
الفاريس ، جورج ٦٥٥
الفونسو الاول ، دوق استيه ٦٣
الفونس دارافون ٦٦
الفونكيون وفروعهم ٤٤٠
الكسي ميخالوفتش (١٦٤٥ - ١٦٧٦)
٣٧٦
المادن ، مدينة ١٢٥ ، ١٣٠
المانيا ٨ ، ٢٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ،
١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٧٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥ ،
٣٧٨ ، ٤٠٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٦٣ ، ٥٧٦ ،
٥٧٧ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤
- الجنوبية ٨ ، ١٠١ ، ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ،
٢٤١
- الرينانية ٨ ، ٧٦
اللياذة ٥٦٩
اليصابات اليزابت ، الملكة ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧

اليوت ، جون ٥٠٠
الام الحزينة ، ليكالوانجلو ٢٠
اماديس غالبا طونتالو (قصة) ٤٢٥
الامازون ، نساء ٤٢٥ ، ٤٢٦
الامازون ، نهر ٣٤٣ ، ٤٧٦
اماكوسا ٦٧٢ ،
الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦
امبوان ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،
الامثال (كتاب) لابراسموس ١٥٠٠ ، ٧٦
الامر المقدس ، كتاب ٦٤٦
امستردام ١٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٣١٥ ،
٣١٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٥ ، ٤٠٢ ، ٥٢٩ ، ٦١٢
- مصرف ٣١٥ ، ٥١٦
امستردام الجديدة (نيويورك) ٣١٥
امفترت (البخرة) ٦٦٢
البازين (قلعة) ٦٦٢
اموي ٦٦١ ، ٦٦٢
اميتابا ٦٧٥
اميدا ٦٤٠ ، ٦٩٩ ، ٧٠٤
اميركا ٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١٢٠ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢٧١ ،
٣١٧ ، ٣٥٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٩ ، ٥٢١ ، ٦٢٠ ،
٦٢١ ، ٦٦٢ ، ٦٧٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ ،
٦٩٦ ، ٧٠١
- الاسبانية ٢١٢ ، ٣٦٠ ، ٤٩٩
- الشمالية ٣١١ ، ٣٤٤ ، ٤٨٢
- الجنوبية ٣٤٥ ، ٣٤٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢
- الوسطى ٥١
اميركو فسبوشي ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦
الاناضول ٥٤٧ ، ٥٤٩
اناكسارخوس ١٠٢
انا هوالبا ، آخر اباطرة الانكا ٤٦٦
الانتيل الصغرى ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
الانتيل الصغرى ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
انجو ، اسرة ٦٦
انتينوس ٢٨٧
انجو ، دوق ، الذي اصبح ملكا على اسبانيا
باسم فيليب الخامس (١٧٠٠) ٣٥٤
الانجيل ٥٤٠
اندريد ده سارتو ٣٠ ، ٣٢
الاندس ، جبال ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٦٧
الاندلس ١١٧ ، ١٢٦ ، ٥٠٧ ، ٥٤٣ ،
٥٥١ ، ٦٣٠
اندونيسيا ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ،
٦١٩ ، ٦٣٢ ، ٦٥٨ ،
انسبروك ٢٣٨

وعسطنس فیصر ۵۸۶

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٦ ،
 ٢٠٧
 ايران ٥٦٨ ، ٥٧٦ ، ٥٨٥ ، ٦١٥ ، ٦٧٩ ،
 ايرلندا ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
 ايزرايل ، الملكة ١٤٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،
 الايروكيون ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،
 ٥٠٠
 ايطاليا ٨ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٥٧ ،
 ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ١٠٧ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٧٥ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ،
 ٥٥٠ ، ٦٢٢ ، ٦٩٠ ،
 ايفان الثالث ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ايفان الرابع ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،
 ايكوسيا ١١٨
 الالب ، نهر ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٨ ،
 اينوشتيوس ٢٠١
 اينوشتيوس الماشر ٣٣٤
 اينوشتيوس الثالث ٤٨٠
 اينوشتيوس الحادي عشر ٣٣٥ ، ٣٤٥ ،
 ٤٠٥
 ايونيا ، مقاطعة ١٤٦

اوغسطينس ، القديس ٧٨ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ ،
 ٣٣٢ ، ٣٧٩
 الاوغسطينية ٢٧٨
 اوكا ، دير ١٧٦
 اوفرايل ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 اوفيد ١٧
 اوفيدو ٤٨٤
 - له :
 - موجز في طبيعة الهند ٤٨٤
 - تاريخ الهند العام ٤٨٤
 اوكسفورد ١٧ ، ٣٨٠ ، ٤١٢ ،
 اوكلهام ، وليم مؤسس الفلسفة الاسمية
 ١٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٢ ،
 اولدبرنفلت ٣١٠ ، ٦١٢ ،
 اولغ على ١٨٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩ ،
 اولم ، مدينة ١٣٩ ، ٢٩٠ ،
 اوليدو ٥٠٤
 اوليفاريس الكونت ٢٣٨ ، ٣٠٠ ،
 اوليه ، الاب جان جاك ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٤٩٩ ،
 - له التعليم المسيحي للحياة الداخلية ٢٨١
 اومورا سوميتادا ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ،
 اونوريه دورفيه ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
 اويده ، مرفأ ٥٢٢
 ايراسموس ١٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

ب

١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ،
 ١٣٩ ، ١٥٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ،
 ٢٤٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٤٠٣ ، ٤٣٥ ، ٦٩١ ،
 ٦٩٥ ، ٧٠٢ ،
 - جامعتها ١٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٦ ، ٩١ ،
 ١٠١ ، ٢٨١ ،
 الباستيل ٣٠٣
 باسكال ٢٥٥ ، ٢٥٧ (اقليميه) ٢٨٤ ،
 ٣٣٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤١٨ ،
 ٦٣٦ ، ٦٨٥ ، ٧٠١ (الامر باحراقها)
 عام ١٦٦٠
 باسناج ٣٨٠
 - له :
 - تاريخ مؤلفات العلماء ٣٨٠
 باسيل الثالث ١٧٢ ، ١٧٤ ،

بابر ، السلطان ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ،
 بابل ٦٢١
 بادانغ ٦١٥
 بادوا ، مدينة ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٤ ،
 ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٣٧٤ ، ٤٢٨ ،
 جامعة ٦١ ، ١٠١ ،
 باراداس ٣٠٥
 باراسلموس ٤٣
 باراغواي ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
 باربروسه ، الاخوة ٥٦١
 بارزبه (الاب) ٦٩٤
 بارفكت ، كلود ٢١٩
 بارنتز ، التجار ٤٣٤
 باروولد ، معاهدة (١٦٣١) ٣٣٩ ،
 باريان ٦٥٩ ،
 باريسس ١٧ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٦ ،

بخارس ٥٧٢
بدجاور ٥٨١
برابان ، مقاطعة ٣٥٨
برابات ، دوق ١٦١
البرازيل ١١٢ ، ١٢١ ، ٣١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
اكتشافه عام ١٥٠٠ على يد كابريال ، ٤٧٥
٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٦١٠ ، ٦١٦
براغ ، صلح ٤٣١
براغير ٦٢٣
برامنت ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٦٨
براندبورج ٢٣٧ ، ٣٣٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩
سلالة ٣٧٥ ... ٣٧٦
بربروسا ، الامبراطور ٦١
بربريني ، آل ٢٨٧
بريشيان ٣٥٤
البرتغال ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ،
٣١٨ ، ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ،
٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ،
٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٥٥ ،
٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ،
٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ،
٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ ،
فتح الاسبان له (١٥٨٠) ٢٠٠
برتلمي دي لافماس ٣١٩
برثلماس ، مذبحه القدسي ١٥٥
برجي بوراه ٦٢١
برشلونه ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٣٣٦
برفيه ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٧٠٣
بركار الطريق ٤٣٣
بركلي ٣٧٩
برمودا ، جزر ٤٧٨ ، ٤٨٠
برمنيد ٢٧٨
برناردوس ، القديس ٥٠٦
برنال دياز دل كستيلو ، فاتح المكسيك
٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٤٢٦
برنمبوك ٤٧٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
برنو ، كونت ده غرانفيل ١٤٨
بروج ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ،
١٦٢
بروسيا الملكية ٨٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
٣٧٠
بروسيا ، دوقية ١٦٩ ، ٢٤٠ ، ٣٧٥ ،
٣٧٦
بروفانس ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ٢٠٢ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٤٨١

بافي ، بافيا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥
بافير ٣٤٤ ، ٣٥٨
باكو ، مدينة ٥٧٠ ، ٥٧٦
بال ، مدينة ٨٦ ، ٣٣٧ ، ٤٣٥
مجمع ٨٧ ...
برن ٨٦
بالوا ٤٧٥
بالسترينا ، فسيفساء ٢٨٧ ...
البالاتينا العليا ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٨
- السفلى ٢٤١
بالي ٦١٧
باليرمو ، مدينة ١١٤
باليلوغ ، صوفيا ١٧٢
بامبوك ٥٦٣
باناما ٤٦٦ ، ٥٠٥
- تاسيسها عام ١٥١٩
- منضيق ٤٧٥
بانغتسي (نهر) ٦٣٣
بانغ - سونغ - كنف ٦٤٦
بانيبورت ، معركة (١٥٢٦) ٥٨٣
باهاسا ، جزر ٤٨٠
باهاما ، جزر ٤٧٨ ، ٤٨٣
باهيا ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
باي ٥٦٢
بايزيد ، السلطان ٢٠١
بايوس ٢٥٥
بايون ٣٥٤
بتافيا ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦٢٠
بتاني ٦١٢
بتراذك ١٨ ، ١٩
بحث في الكرة لساكرو بوسكو ٤٣٦
البحث اللاهوتي السياسي (كتاب) ٤٠٧
بحر
- البحر الاحمر ١٢١ ، ٤٢٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٧
- الاسود ١٧٥ ، ٤٢٧
- البلطيق ١٨٤ ، ٣٦٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
- الشمالي ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠
- قروين ٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٦٤٧
البحر الابيض المتوسط ٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٦٠ ، ٤٢٢ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ،
٥٥٥ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧
البحر الحر ، لفروتويس (١٦٠٩) ٢٤٠
البحر المغفل لسلدن (١٦٣٥) ٢٤٠
البحيرات الكبرى ٤٥٩

بروكسل ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٥
 برونسويك الجديدة ٤٤٠
 بروتو ٤٣
 بريوف ، الاب دي ٥٠٠
 برتانيا ، ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٢
 بريزاخ ٣٣٨
 برشيا ، مدينة ٤٤ ، ٦٢
 بريمن ٢٣٨
 بسكادور ٦٥٩ ،
 بسكاي ٥٥٠
 بسكوف ١٧٠ ، ١٧٦
 البصرة ٥٥٤
 بطرس ، القديس ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٨
 رسالته الثانية ٨٤
 كنيسة ٤٣ ، ٢٤ - ٢٦ ، ٦٨
 بطرس الاكبر ٣٧٦ ، ٣٧٧ - اصلاحاته
 ٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٤٤٣ ، ٦٨٦
 بطليموس الاسكندري ٥٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦
 بغداد ٥٧٣ ، ٥٧٨
 بكيرمي ، سلطنة ٥٣٦
 بكين ٥٣٥ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨٨ ، ٦٩٥
 بكيه ، جان ، مخترع دورة الكيلوس سنة ١٦٤٨ ، ٢٦٣
 بلزاك ٢٤٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
 البلطقي ، البحر ١٧٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
 بلغراد ، مدينة ٣٤٧
 بلباو ٢٠٥
 بلجكا ٢٣
 بلغور ٣٥٨
 البلقان ٥٣٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
 بلنسية ٥٥٠ ، ٥٥١
 بلنهايم ، (معركة ١٧٠٤) ٣٥٨
 بلوتارك ٢٨٧
 بليزانس ٣٥
 البلاتينا ٢٠٥
 البلاد الوطنية ٧٩ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧
 بليسون ، مؤرخ الملك لويس ١٤ ، ٣٣٣
 بليسييه ، نصير فرنسا في البندقية ١٨٣

بليني القديم ٦٧ ، ٢٧٢
 بليني ، جيوفاني ٦٢ ، ٦٤
 بعميو ، بيترو ٢٣ ، ٣٤ ، ٥٨
 بمبونازي ، ٣٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٦١ ، ١٠٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢
 بناما ، خليج ٢٠٥
 بنتام ٥٣٥ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦١٧
 بندر عباس ٥٧٩
 البندقية ٨ ، ١٠ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٠ ، ٣٢١ ، ٣٦٥ ، ٤٠٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٧٧ ، ٦٠٩
 حلف (١٤٩٥) ٢٠٠
 جامعتها ٣٦
 حلف ١٨٢
 بنتغويل ١٩
 بنشروس ١٠٣
 بندا ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٦
 البندقية ٦١٤
 بندكتوس الرابع عشر (البابا) ٦٢٦
 بنزرت ٥٦٠
 البنغال ٥٨١ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٤٠
 بنو سعد ٥٦٥
 البنون او مدينة الجزائر ٥٦١
 بنيارول ٢٠٥
 بنين ٥٢٠ ، ٥٢١
 بهادور ، الامير ٥٥٤
 بهرينغ (مضيق) ٤٣٩
 بو ، مدينة ١٠٦
 بوابلا ٥٠٨
 بواتو ، ١١٩ ، ٢٩٠
 بواتيه ٢٩٠
 بواريبيير ٣٢٧
 بوغلبير ٣٧١ ، ٣٧٢
 بوالو ٢٨٤ ، ٤٠٢
 بوب ، ٣٧٩
 بوتنا ٦٢٦
 بوتنجر ١٤١
 بوتوزي - مناجم الفضة ١١٦ ، ١٩٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٨
 بوتيشلي ٣٠
 بوجي ٥٦٠ ، ٥٦١
 بودوين ، ٢٨٣
 بودين ، جان ٣٨ ، ١١٧

بونا فنتورا ده برييه ١٠٣
 بوتوس دي لاغاردى ٢٢٨
 بوجيهار - مدرسه ٦٤٥
 بونديتري ٦٢٦
 بونغو ٦٦٩
 بونفورد (هنري) ٦٦١
 بونتيفاسيو الثامن ، البابا ٨٧
 بوهميا ٩٩ ، ١٦٨ ، ٢٣٦ ، ٣٧٤ ، ٥٢٩ ، ٥٦٣
 بوياردو ٦٤
 بوياركوف ٦٦٢
 بويتوس ١٨
 بويرباخ ٤٣٦
 بويل ، دوبرت ٣٩٤ ، ٣٩٥
 بوينوس ايرس ٤٨٧ ، ٥١٨
 بيت العبادة ٥٩٠
 بيت لحم ، بلدة ١١
 بيدار ٥٨١
 بيداسوا ، نهر ٣٤٢
 بيرسك ، ٢٧٣
 بيريس ، توما ٦٥٥
 البيرنيه ٣٣٧ ، ٣٣٨
 - معاهدة (١٦٦٠) ٣٤٢ ، ٣٥٠
 بيرول ١١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٣٣١ ، ٤١٨
 البيرو ١١٦ ، ١٩٩ ، ٣٥٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
 ٤٣٩ ، ٤٦٦ ، ٤٤٧ ، ٤٧٣ ، ٥٧٦
 ٤٨٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥١٣
 اول مجمع اقليمي فيها (١٥٦٧) ٥٠٩
 بيروت ١٢١ ، ١٢٢ ، ٦٠٩
 بيروس ، آل ١٢٨
 بيزا ، (جامعة) ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٣٧
 بيززار ، فرنسوا ١١٦ ، ١٩٩ ، ٤٢٦ ، ٤٦٦
 بيزنطية ١٧٢
 بيكارديا ٣٢٣
 بيكمن ٢٦٢
 بيكون ، اللورد ٢٣٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧
 ٢٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤١٢
 بيل ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٢
 ٦٨٧
 قاموسه ٤١٠
 بيلربك او امير الامراء ٥٦١
 البيلاجية ، الهرطقة ٨٨
 بيل ، بيير ٨٣ ، ٣٨٠
 له :

بوديه ، غليوم ١٤٤
 بوذا ٥٥١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٧٠٤
 بوذا نشاكياموني ٦٦٠ ، ٦٦٥
 بورباخ (١٤٦١ - ١٤٢٣) ٤٢٨
 بوربون ، آل ده ١٥٣ ، ١٥٥
 بورتوريكو ٤٧٦ ، ٤٨٣
 بروج - معاهدة (١٤٣٩)
 مدينة ١٣٥
 بروجي ٢٥٩
 بوجيا ، آل ٥٨
 - لوكريس ٦٤
 بوردالو ٢٨٢ ، ٣٧٤ ، ٤٠٤
 بور رويال ٢٥٥ ، ٣٣٤
 بورغوس ، قوانينها ٤٨٥ ، ٤٨٦
 البورصة ١٢٩
 بورغوان ، الاب ٢٨١
 بورغونيا ، دوقية ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢
 دوق بورغونيا ٤١٥ ، ٤١٦
 بوركهاردت ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨
 بونيو ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦٢٠ ، ٦٥٨
 بوريدان ، جان ١٠ ، ١٨ ، ٤٢ ، ٤٣
 بوسطن ٢٨٠
 بوسك ، ده ٣٨٠
 بوسويه ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣
 ٢٨١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
 ٤١٥
 بوسين ، الرسام ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٤٠٣ ، ٤١٨
 بوشار ده شاميني ٢٥٣
 بوفندورف ، مهذب ولي عهد اسوج ٣٤٥ ، ٣٦٢
 بولتافا ، معركة (١٧٠٩) ٣٧٧
 بولس ، الرسول ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩
 ٨٤ ، ١٠٨ ، ٢٨٠
 - رسائل بولس ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤
 بولس الثالث ، البابا ٤٩
 بولونيا ، مدينة ٣٦ ، ٤٨ ، ١٩٨
 جامعة ٤٨
 بولونيا ٢٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٥٧٦
 بوليب ، ٥٤
 بوليفيا ، ٤٦٧ ، ٥٠٦
 بوميرانيا الشرقية ٣٧٥ ، ٣٧٦
 بومبيوس ٤٢٤

بيهار ٥٨٤ ، ٥٨٩
بيهام ، مارتن ٤٣٢ ، ٤٣٤

اخبار جمهورية الاداب ٣٨٠
بيما (جزيرة) ٦١٢
بينيرول ، مدينة في ايطاليا ، ٣٣٧ ، ٣٥٩

ت

تريفولت (الاب) ٦٨٤
تريف ، ٣٣٧ ، ٣٤٢
تساليا ٥٣٧
تسان - تي ٦٧٤
تسو - تشوان ٦٤٢
تسنغ ، دولة ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤
٦٥٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٧ ،
تسو - شيما ٦٥٨
تشاد ٥٣٦
تشا - كيا - نغ ٦٤١
تشان - تونغ ٦٣٠
تشانسلر ، الرحالة الانكليزي ١٧٥
تشانسي ٦٤١
تشاد - كنغ - فو ٦٧٦
تشاي - كيانغ ٦٣٣
تشرلي ، انطوني ووبرت ٥٧٦
تشوان - تشي ٦٤٢ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ،
تشوانغ - لي - تي ٦٤٢
تشو - سي ٦٧٨
تشو - هي ٦٢٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ،
٦٣٩ ، ٦٤٥ ، ٦٥٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
٦٧٥ ، ٦٧٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨ ، ٦٩٧ ،
٦٩٨
تشي - تونغ ٦٤٠
تشيغي ، مصل ٣٤
تشي - كيانغ ٦٣٠ ، ٦٨٠ ،
تطوان ٥٦٧
تعليقات ، لكوبرنيكوس ٢٠
تقدم العلوم ، ليكون ٢٦٧
تقريظ الجنون ، كتاب لايراسموس ٧٩
حقلا القدسية ٣٥
تكسل ٥٢٠
تلمسان ٢٠٢ ، ٥٦٠
تليماك ، مفامرات (لفنون) ٤١٥
تمارين الحياة الروحية ، لفارسيدي
بيسنثروس ٩٠
تمبكتو ، مدينة ٥٣٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧
تلول الغربان التواتر ، لارنو (١٦٤٣) ٢٥٥

التاجر الكامل ، لجاك سافاري (١٦٦٩)
٣٢٢
التاجه ، نهر ١١
تاريخ تحولات الكنائس البروتستانتية
(١٦٨٨) ٤٠٨
التاريخ الطبيعي ، بليني ١٠٢
تاريخ العالم الجديد (كتاب للاب برنان
كولبو) ٤٦٦
تاريخ ولاية الملك لويس الثاني عشر (كتاب
لجان أوتون) ٧٤
تاسيت ٢٧٢
تافرييه ٥٧٣
تاك - راما ٦٢٦
تاكدا ، مناجم ٥٦٤
تامسب ، الشاه ٥٧٢ ، ٥٧٣
التأملات ، لديكارت (١٦٢٩) ٢٩١
تأملات ميتافيزيقية ٢٩٢
تاويلات قيصر (كتاب) ٣٣٨
تان - شواي ٦٥٩ ، ٦٦٠
تانغ ٦٤٥ ، ٦٦١ ، ٦٧٤
تاي ، تسونغ ٦٤٢
تاي - كي ٦٣٣
تبريز ٤٥٩ ، ٥٥٣ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣
التتار ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
٢٠٤
التحولات ، كتاب لاوفيد ٣٣١
ترافنكور ٦٢٣
ترغليا ٣٩
ترس الدولة والعدالة للسفير البابوي
ليزولا ٣٥٢
تركستان ١٧٥ ، ٥٣٥ ، ٥٤٥ ، ٥٧٢ ،
٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥
- الصيني ٥٣٥
ترشيا ٦١٧
ترنات ٥٣٧ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٣
ترنتيوس ٦٨٢
ترنسلفانيا ٣٣٦ ، ٣٥٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩
تريزيا دافيللا ٥٤٣
تريسمجست ٧٦

توكومان ٤٧٠
 ثول ، مدينة ٢٠٥
 تولو داس ، ٥٩٠
 تولوز ٦٨٩
 توليدو ، ١٢٥
 تومادا صوزا ٥٥٥
 تومبيسل ٤٧٠
 تونجور ، سلطان ٥٣٦
 تونديتي ، مدينة ٥٦٦
 تونس ١٣٤ ، ٢٠٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ،
 ٥٦٣ ، ٥٦٨
 تونكين ٦٩٩
 التيبب ١٢١ ، ٦٤٠ ، ٦٤٧
 تيت ليف ٥٤
 تيتيكاكا ، بحيرة ٤٦٧ ، ٤٧٠
 تيخوبراهي ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٦٨٢
 تيدور ٥٣٧
 تيران الابيض (كتاب) ٤٢٥
 التيرول ١٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٥٦٣
 تبلي ، القائد ٢٤١
 تيمور ٦١٤
 تيمورلنك ، ٥٨٢
 تيمون اليهودي ١٨ ، ٤٢
 تيوان ٦٥٩ ،
 تيودور ، ماري ١٥٨
 تيوفيل دي فيو ٢٧٥
 ثيوذوثيوس ١٥٦

تنغوس ، قبائل ٦٤١
 التوازن الدولي او توازن القوى ، سياسة
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٠
 توبا ، ٤٦٧
 التوبي - غواراني ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٧٠١
 توبينما ٤٤٥ - ٤٤٧
 توتيك ، ملاحات ٥٦٤
 التوراة ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٥٤٠
 تود ، مدينة ٢٢٢
 تورديسيلاس ، (بلدة) معاهدة لتقسيم
 اميركا بين اسبانيا والبرتغال (١٥٩٤)
 ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٤٨١
 التوراة : اصل وصفها ٤٠٧ - ٤٠٨
 تورستنسون ٣٣٩
 تورفيل ، الاميرال ٣٥٥
 تورنون ، الكرونيال ده ١٣٠ ، ١٣١ ،
 ١٩٣ ، ٦٢٦ ، ٦٨٨
 تورنيه ، مدينة ١٠١
 توريتشلي ٢٦٢ ، ٣٨٥
 تورين ٢٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٦٩٠
 التوزاما ٦٥٠
 توسكانا ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥١
 توسكانلي ٤٢٨
 توفيه ، الرحالة ٤٤٤
 توكسونو ، ملك اردر ٥٢١
 توكوغاوا اياسو ٦٥٠ ، ٦٥٢

ج

— الثالث ٤٩٢
 جان البير الاول بابلون ١٦٦ ، ١٦٧
 جان بار ٣٥٦
 جان دارك ٢٧١ ، ٢٨٣
 جان دي فيت ٣١٠ ، ٣١١
 جانفيه ، القديس ٤٤
 جاهور ٦١٢
 جاوا ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ،
 ٦٥٨
 جبل طارق ، مضيق ٢٥٧ ، ٣٦٠ ، ٤٢٨ ،
 ٥٦١
 جريدة فرنسا (١٦٣١) اسسها رينودو ٣٢٧
 الجزائر ٤٢٤ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ،
 ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٨

الجاذبية : نظريتها واكتشاف نيوتن لها ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٣
 جارغن ، الطبيب ٥٦٣
 جاكركا ٦١٥
 جاك الاول من آل ستيوارت ، (١٦٠٣) —
 (١٦٢٥) ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٥٨ ،
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٦١٣
 — الثاني ٢٣٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٤
 — الثالث ٣٥١
 جالينوس ١٢١
 جامايكا ٤٨٠
 جان الثاني ، ملك البرتغال (١٤٨١) —
 (١٤٩٥) ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٨١

٥٣٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٤ ، ٦٠٩ ،
جنيف ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٣٨١ ،
جهانجير ، الشاه ٥٩٢
جودير ، الباشا ، ٥٦٦
جورج ده لامينا ٥٦٤
جوردان ٦٦٢
جوزيف الاول ، الامبراطور ٣٧٤
جوكلر ١١٣
جول الثاني ، البابا ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٤٨١ ، ٦٢١
جبرار روسيل ١٠٥
جيلجلي ٥٦١
جيوتو ١٩
جيورجيني ٦٢
جيو ، قنو ٦٦٤

ـ ابو البنون ٥٦١
الجزر الخالدات اوكناري ١١٢ ، ٢٠٥ ،
٤٢٧
الجزيرة العربية ١٢١ ، ٤٢٩ ، ٥٤٥ ،
٦٢٩ ،
جسك ، مرفا ٥٧٦
جلبرت دي كولشستر ٢٥٧
جنسن ، اسقف اير ٢٥٥
الجنسينية ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ،
٢٣٤ ، ٣٧٢ ، ٤٠٤
جنكنسن ٥٧٦
جنكيزخان ٥٨٢ ، ٦٤٦
جنوباك ، غاليدو ١٤٦
جنوي ٨ ، ٦٧ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،
١٣١ ، ١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٣٩ ، ٤٢٧ ،

ح

٨٢
حول خلود النفس ، ليمونازي ٣٦
حول اسباب ومسببات كل ما يجري في
الطبيعة والسحر ، ليمونازي ٣٦
حول دوران الفلك ، لكوبرنيكوس ٤٩
حول طبيعة الاشياء والعرفاة ، للوكريس
١٠١
حول عبودية الارادة ، للوتر ٨٣
حول القدر وحرية الارادة ردا على لوتر ٨٧
حول الوظائف ، كتاب لشريشروب ٧٦
حول دوران الافلاك السماوية ، لكوبرنيكوس
٢٠

حافظ ، الشاعر ٥٦٩
الحبشه ٥٥٥
حرب الوردتين ١٥٨
حروب الفلاحين ١٥٢٤ ، ١٥٢٦ ، ٨٦ ،
الحرس القيصري ١٧٧
حركة القلب ، كتاب لهارفي (١٦٢٨) ٢٦٢
الحفصية ، الدولة ٥٦٠
حلب ، ٥٦٨
الحوار حول نظامي العالم الهامين لفاليو
٢٦٥
حول الاقتداء (كتات) ليمبو ٣٤
حول حرية الارادة ، لابراسموس ١٥٢٤ ،

خ

خناقة القربان الاقدس ٢٦ ، ٢٧ ،
الخليج الفارسي ١٢١ ، ٤٢٢ ، ٥٥٥ ،
٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٦٥٣ ، ٦٠٩ ،
الخندش ، ملكة ٥٨١
خوان بيتانزوس ٤٦٦
خوتين ٦٥٦
الخوري يوحنا (ملكة) ٤٢١
خوزستان ٥٧٣

خراسان ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،
خربيلون (الاب) ٦٦٣
خط الاستواء ٤٢١
خطاب حول اسلوب توجيه القتل والبحث
عن الحقيقة في العلوم ، لديكارت ، ١٦٣٧ ،
٢٩٢
خطبة في التاريخ العام ، لبوسوسيه
٤٠٨ (١٦٨١)
الخطرات - كتاب باسكال (١٦٥٨) ٢٥٥

دواغيه - تروين ٣٥٦
 دواغيه دي بانيول ٣٦٩
 دوق الب ١٦٤ ، ١٨٣
 دوكلين ، الاميرال ٣٥٥
 دوليه ، اتيان ٣٨ ، ١٠٣
 دومينكو ماريا ده نوفارا ٤٨ ، ٤٩
 الدون ، معركة (١٦٥٨) ٣٤٢
 الدونا ، نهر ١٧٢
 دون - تشانغ - ان ٦٣٢
 دون جوان ده برينو ٦٢٥
 دياربكر ٥٥٨ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣
 دياز ، برنلي ، ٤٣١ ، ٤٣٢
 دياغو فيلاسكيل ٤٢٤ ، ٤٢٥
 دياغو كالفو ٦٥٥
 دياغو كاوو ٥٢٠
 اكتشافه مصب نهر الكونغو ٥٢٠
 ديامبور ٦٢٣
 ديجون ، مدينة ١٩٦
 دي كانج ، ٤٠٦
 ديكرات ٩ ، ١١ ، ١٨ ، ١٠٤ ، ٢٦٢ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣١ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٩
 مؤلفاته ٢٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٢ ، ٤١٢ ، ٤١٨ ، ٦٨٥ ، ٦٨٨
 الديكارتيه او الكرتزيانية ٢٩٠ - ٢٩٨
 ٣٣١ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ،
 الزوايح الكرتزيانية ٣٩٠ - ٣٩٢ ، ٣٩٣ ،
 ٣٩٤
 الكرتزيانية والنيوتونية ٣٩٤ - ٣٩٥
 الدينونة الاخيرة ، صورة ليكالو انجلو ٦٨
 ديو ، مدينة ٥٥٤ ، ٥٥٥
 ديوان التفتيش ١٠٠
 ديب ، مدينة ٤٣٤
 الدبيت (بولونيا) ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩
 الدر العظيم ٣٧٢

دارفور ٥٣٦
 دارون ٩
 داربان ، مضيق ٤٧٥ ، ٤٧٦
 دالاي لاما ٦٤٧
 دانتزيغ ٢٤٠
 الدانمارك ٨٤ ، ١٠٩ ، ٢٣٨ ، ٣١٩ ،
 ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٩
 الدانوب ٢٣٦ ، ٣٤٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
 داهومي والداهومبون ٥٢٢ ، ٥٢٥
 داوود الملك ، ٦٥
 الداوي ٥٦١ ، ٥٦٢
 دجلة ٥٧٢
 الدراف ، نهر ٣٤٧ ، ٥٥١
 درايك ، القرصان الانكليزي ٢٠٥
 الدرذيل ، مضيق ٥٦٨
 درسد ٤٠٣
 دشيمبا ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٧٢
 الدعار او خالو المذار ١٠٠
 دعوة الى دراسة الفلسفة المسيحية
 لايراسموس ٧٩
 الدفتر دار ٥٤٧
 الدفينا ، نهر ١٧٥
 الدكن ٥٨١
 دلا روفير ، اسرة ٣٥
 دلهي ٥٨٣
 دمشقي ٥٥٣ ، ٥٦٩ ، ٦٠٩
 دنترك ٣٥١ ، ٣٥٤
 الدنيبر ، نهر ١٧٢
 دنيس الاروياجي ٧٦
 ده توريس (كوسم) ٦٦٥ ، ٦٦٧
 ده دادا ٦٧٣
 ده غويس (بنتو) ٦٨٠ ، ٦٩٥
 ده مندوزا غونزاليس ٦٧٣ ، ٦٨٤
 دوبرا ، الكردينال ٨٩
 دوتشي ، غسبار ١٣٢
 دوردرخت ، مجمع ٣١٠
 دورليان ، غاستون ٢٣٢
 الدوغا ٦١

الرأس ، مدينة ، تاسيسها على يد فان
 ريبك ٦ - ٤ - ١٩٥٢ ، ٥٢٠
 الرأس الاخضر ١١٢ ، ١٩٩ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٧ ، ٤٧٥ ، ٤٨١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦

رابليه ١٩ ، ٣٨
 راتسيون ٥٥١
 الراجيوث ٥٨٤
 راجبوتانا ، مقاطعة ٥٨٩

رأس ده غيه ٥٦٤ ، ٥٦٥
 رأس الرجاء الصالح ٦٢ ، ١٢٢ ، ٣١٨ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٨١ ، ٥٢٠ ، ٦١٠ ، ٦٠٩
 رأس سان روك ، ٤٧٥
 رأس سان منشان ٢٠٥ ، ٤٢١
 راستات ، معاهدة (١٧١٤) ٣٥٨
 راسين ٢٨٤ ، ٣٧٤ ، ٤١٨
 - بعض مؤلفاته : ٢٨٧
 راغوز ، مدينة ١٢٧
 رافنسبورغ ، كونتية ٣٧٥
 رافياك الراهب قاتل الملك هنري الرابع ١٥٦
 رافينا (معركة) ١٥١٠ - ١٨٩
 راكوكزي ، نائر هنغاري ٣٧٤
 راما ، الاله ، ٥٩٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠٤
 رامبرانت ٢٤٥
 رامبويه ٢٨٦
 الراميانا ٥٩٠
 راميسي (معركة ١٧٠٦) ٣٥٨
 رانجل ، قائد غوستاف ادولف ٣٣٩
 راي ، ابييل ٤٥٣
 رتس ، ٢٥٤ ، ٢٧٤
 رتشي ماتيو (الاب) ٦٢٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥
 رجل البلاط ٣٢
 رجل البلاط (كتاب) للكونت كستغليونسي ٣٣ ، ٣٢
 رسالة التاجر ، لرينشردستيل ٣٦٢
 الرسالة اللاتينية لديكارت ٢٨٥
 رسالة الى اهل كورنتس ٩٠
 رسالة بولس الى اهل تسالونيكي ٨٩
 رسائل القديس بولس ٧٦
 الرشدية (فلسفة ابن رشد) ١٠١
 رفائيل ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٨
 رفيق الفارس المسيحي ، لابراسموس ٨٠
 رفيق المناخل المسيحي ، كتاب لايراسموس ٧٨ ، ٧٧ ، ١٥٠٣
 رهبانية المعبد ، اسسها بيرول عام ١٦١١ ٢٨١
 روان ٦٩١
 روجييري (الاب) ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩
 رودوب ، مقاطعة ٥٣٧

روان ، مدينة ٦٢ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧
 رويرفال ٣٨٤
 روبنس ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥ ، ٤١٨ ، ٤٠٣
 - آثاره ٢٤٤/٤٥
 روتردام ، ٢٢٦
 رودوس ، جزيرة ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢
 روسليو ، انطونيو ٢٩
 روسو ، جان جاك ٤٩٤
 روسيون ، ٣٤٣
 روسيا ١٢٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٣١٦ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٥٧٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٨٣
 روشلين ١٩
 روضة التمارين والتأملات الروحية ، لجان ممبرت ، ٩٠
 روك ، الاميرال الانكليزي ٣٥٥
 روكلان ، زوجة السلطان سليم الثاني ٥٥٦
 روكروا (معركة) (١٦٤٣) ٣٣٩
 رولان العاشق ، ملحمة ليوباردو ٦٤
 رولان النائر لاريوست ٦٤
 رومر مكتشف سرعة النور ٣٨٢ ، ٣٨٣
 روما ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ٢٤١ ، ٣٧٤ ، ٤٠٣ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٥٢١ ، ٦٢٤ ، ٦٩٥
 روما الثالثة (موسكو) ١٧٢
 رومانيا ٥٥٢
 الروملي ٥٥٨
 رويتر ، الاميرال الهولندي ٣٥٥
 رويبروك ١١ ، ٩٠
 الرياضة الروحية ، لدهلويولا ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤
 ريسويك ، معاهدة ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 ريجيس ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٦٨٦
 - له :
 الاسس الطبيعية ٣٨١
 الجملة الفلسفية ٣٨١
 ريجيو مونتائوس ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣
 ديلبي ٣٧٤
 ريشليو ٢٢٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦

رينه ده فرانس ۱.۵
رينو ۲۸۷
رينو دو ۱۰۶ ، ۳۲۷
رينيه ۲۸۶ ، ۲۷۴
ريو ده اورو ۵۶۴
ريو دي جانيرو ۴۷۶ ، ۴۸۲ ، ۴۸۹ ، ۵۲۸
ريو ده لابلانا ، نهر ۴۴۳
ريو - ريال ۴۷۶
ريو غرانده دل نورث ۲۳۹ ، ۴۳۹
ريو - كيوي ، جزر ۶۵۴ ، ۶۵۶
ريو لوما ، نهر ۴۳۹ ، ۴۵۰
ريومور ۳۹۴

۳۲۷ ، ۳۲۸ ، ۳۲۹ ، ۳۳۲ ، ۳۳۳ ،
۳۳۴ ، ۳۳۶ ، ۳۳۸ ، ۳۴۰ ، ۳۵۱ ،
۴۹۸
دوق دي ... ۲۸۷
ريشيه ۳۳۴
اكتشافه سطح الارض عند القطب ۳۹۱
ريفا ، مدينة ۱۶۹ ، ۳۷۷
ريغيل ، مدينة ۱۶۹
ريمس ، مدينة ۱۷
الرين ، نهر ۱۲۳ ، ۲۰۵ ، ۲۳۴ ، ۲۳۸ ،
۲۴۰ ، ۳۱۴ ، ۳۳۷ ، ۳۳۸ ، ۳۵۳ ،
۳۵۷
حلف ... ۳۴۴

ز

زورخ ۸۵ ، ۸۶ ، ۱۰۴
زو ماراغا ، الاسقف خوان دي ، اول
اسقف على مكسيكو ۵۰۹ ، ۵۱۰
زونكلي ۸۵ ، ۹۰ ، ۹۴ ، ۹۵ ، ۹۶ ، ۹۸
زيلاندا ۱۶۴ ، ۱۶۵ ، ۱۶۵ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶ ، ۲۳۴
- الجديدة ۴۳۴

زامت ۲۱۸
الزباد شتية ۵۸۴ ، ۵۹۲
زلفا ۵۷۷
زمبينر ، نهر ۵۲۰
زن ، الديانة ۱۲ ، ۶۶۴ ، ۶۶۷
الزواج في اميركا ۵۲۶ - ۵۲۹

س

سانتونيچ ۲۲۱
سان جرمين ۳۰۵
سان جرمين ده بريه ، دير رئاسة بندكتيني
سان - مور ۴۰۶
سان دومنخ ۴۷۶ ، ۵۲۲
سانس ، مجمع (۱۵۲۸) ۸۹
سان سلفادور ۵۲۰ ، ۵۲۱
سان سولبيس ۲۸۱
سان سيمون ۳۰۵ ، ۴۱۵
سان فنسان ، رأس ، اطالب : رأس فنسان
سان كسيانو ۵۴
سان كنتين ، موقعة (۱۹۵۷) ، ۱۱۳/۱۱۴
۲۰۵
سان لوران ، نهر ۴۴۰ ، ۴۷۶ ، ۴۹۵ ،
۴۹۸
سان - لويس ۵۲۱
سان مالو ۶۶۲
سان - مور ، بندكتيون ۳۸۱ ، ۴۰۶
مطبوعاتهم ۴۰۷
سباكتاتور ، لاديسون ۳۶۱
سبتا ، مدينة ۵۶۷

سابليه ، المركب دي ۲۵۶ ، ۲۸۰
ساراغوسا (معاهدة ۱۵۲۹) ۴۸۱
سارانوف ، دير ۱۷۶
سمارا ۱۷۶
سافر ۴۲۱
الساف ، نهر ۵۴۷ ، ۵۵۱
سافرن ۳۳۸
ساقونا رولا ۲۳ ، ۶۵
سافوي بيا مونت ، دولة ۱۵۷ ، ۲۰۵
سافوي ۳۵۱ ، ۳۵۸
ساكاي ۶۶۸ ، ۶۷۰
ساكرو بوسكو ۴۳۶
ساكس ، مقاطعة ۸۴ ، ۸۶ ، ۲۳۷
ساكس السفلى ۲۳۸
ساكس ، البرت ده ۱۰ ، ۱۸ ، ۴۲
سالازار ، الاسقف ۵۴۴
سالوس ، مدينة ۳۵۹
ساليون (نهر) ۶۳۳
سان - بول دي لواندا ۵۲۰
سانت ماري (الاب) ۶۸۷
سانتو - باولو ۴۸۹ ، ۴۹۰ ، ۴۹۱ ، ۴۹۲

٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
 ٥٥٥ ، ٥٥٦ ،
 سليمان ، الشاه ٥٧٨
 سلافونيا ٥٥٩
 سمالكلاند ، حرب ١٢٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٣
 سمرقند ، مدينة ٥٨٢ ، ٥٨٦
 سمياند ، فرنسوا ١١٢
 سنراي ٥٦٤ ، ٥٦٦
 سنا : مسرحية كورناي : ترجمتها الى
 الاسبانية عام ١٧١٣ ، ٣٧٤
 سنوفينو ، اندريا ٣١
 سنوفينو ، جاكوبو ٦٢
 سنسيا (جزيرة) ٦٢٣
 سنخ ٦٨٣
 السنغال ٥٢١ ، ٥٣٦
 سنك مارس ٢٣٢ ، ٣٣٦
 سنكتو ٢١٨
 سن - كيونغ - كي (بول) ٦٨٠
 سنیکا ١٧ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ،
 سوامردام ٦٨٦
 سوتبير ٢١٤
 سو - تشيو ٥٣٥ ، ٦٨٠
 السودان ١١٦ ، ٤٢٢ ، ٥٣٦ ، ٥٦٠ ،
 ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧
 سوديريبي ، بيرو ، رئيس جمهورية
 فلورنسا ٦٥ ،
 السوربون تحرم مؤلفات ديكرات ٣٣١ ،
 ٢٨١
 سوريا ١٢١ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣
 سوز ، مدينة ٢٠٥
 سوزا ، توميه دي ، ٤٩٠
 السوس ١١٢ ، ٤٢٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧
 سوسكس ، مقاطعة ١٣٦
 سوسونام مترام ٦١٧
 سوسين ، لالبوس ١٠٣ ، ١٠٤
 السوغار ٦٤٦
 سوفو ٦٦٦ ، ٦٦٧
 سولي (ابنه) ارتداده الى الكاثوليكية ، ٣٣٢
 سولور ٦١٢
 السوم الاعلى ٢٠٥
 السوند ، جزر ٤٢٩ ، ٥٢٢ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤
 ٦٥٤ ، ٦١٦ ، ٦٦٣ ، ٧٠٣
 سونغ ٦٤٥ ، ٦٣٣
 سونغ - تشانغ ٦٣٦
 سونغ - ينغ - هنغ ٦٣٣
 السويس ٥٥٤
 سويسرا ٩٦ ، ١٤٣ ، ١٨٨ ، ٣٧٩

سبولفيدا ٨٧
 سبير ، مدينة ٣٣٨
 سبير ، مدينة ٢٣٨ ، ٣٥٨
 سبينوزا ٢٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤١٧
 - له :
 البحث اللاهوتي السياسي ٤٠٧ ، ٤١٧
 سبينولا ، القائد ٢٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٦٩٠
 ستاتين ، مدينة ١٢٢
 ستراسبورغ ، مدينة ١٤٦ ، ٢٠٢ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥٣ ، ٤٣٥
 سترافورد ، اللورد ٢٣٣
 ستيري ٢٣٦
 ستوارت ، آل ٢٣٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
 ستيل ٣٧٩
 السجايا (كتاب) للابروبير ٤٠٢
 السحر والمجوسية ٤٥ - ٤٧
 مخاطبة الارواح ٤٥
 المعجزات ٤٤
 النجامة ٤٤
 سردينيا ٢٣٩ ، ٣٥٨ ، ٥٣٧
 سرفسطة ١٩٩
 سرفيه ، ميشال ١٠٣ ، ٤٢٤ له :
 مغالط الثالث ١٠٣
 العودة بالمسبحية الى جلدورها الاولى ١٠٢
 سرنديب ، جزيرة ١٢١
 سريزول ، معركة ، ١٤٦ ، ٢٠٦
 سعدي ، الشاعر ٥٦٩
 السعدية ، الدولة ٥٦٥ ، ٥٦٧
 سفورزا ، فرنسوا ، ٦٥
 سفينية ، مدام دي ٣٠٥ ، ٣٨٠
 سقراط ٨٤
 سكستوس الرابع ، البابا ٢٣ ، ٣٥
 السكستينية ، الكنيسة ٣٥ ، ٦٨
 سكشويادو ٦٥٠
 سكندينايفيا ٢٤٠
 سكودري ، ده ٢٤٦ ، ٢٤٩
 مؤلفاته القصصية ٢٤٩
 سلس ١٠٢
 سلطان حسين ، الشاه ٥٧٨
 سلمنكا ، جامعة ٢٠٧
 سلوم سلمان ، السلطان ٥٣٦
 سليدان ، جان ٢٠٢
 سليم الاول ، السلطان ٤٢٢ ، ٥٤٦ ،
 ٥٥٣
 - الثاني ٥٣٨ ، ٥٤٨ ، ٥٥٦
 سليمان القانوني ، السلطان ٤٢٢ ، ٥٤٧ ،

سير مشاهير المهندسين والرسامين ،
لفاساري ١٩ ،
سيراليون ٥٦٣
سيريزيه ٢٨٧
سيراريني ٥٩
سيستروس ، فارسيا ٩٠
سي - كيائغ ٦٥٥
سبيكفانارا ٦٧١
سيلان ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦٢٩
سيمابو ١٩
سيميان ٢١٦
سيمولر ، وولد ٤٣٦
سيمون ، ريشار ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
سي - نغان ، ٥٣٥
سيمون ده اندراد ٦٥٥
السيو ٧٠١
سيو - كوانغ د كي ٦٨٢

سويقت ٣٧٩
السياسة المستمدة من الكتاب المقدس
(كتاب لبوسوسيه) ٤١٥
سيام ٦٥٤
السيبة ، بلاد ٥٦٦
سيبيريا ١٧٥ ، ٣٤٤ ، ٤٤٣ ، ٥٣٣ ، ٦٦٢
سيبيو ٦٥٨
سيت ، مدينة ٣٥٨
سيجسموند الاول ١٦٦ ، ١٦٦
- الثاني اوشطس ١٦٦ ، ١٦٧
- الثالث ١٦٦
السيخ ، طبقة ١٢
السيد : صلاحياته في المكسيك ٥١٧/٥١٤
السيد ، مسرحية لكورناي ٢٥٠
سيدان ٣٥٨
سيراف ٦١٢

ش

شارل التاسع ، ١٥٥
شارل الثاني عشر ، ملك اسوج ٣٧٧ ، ٣٧٨
- انكساره في بولنفا (١٧٠٩) ٣٧٧
شارل مارل ١٤٦
شارل ده نجات او شارل الخامس ١٦٢ ، ١٦٣
شارلوا ٣٥٩
شارلمان ٣٥٢ ، ٤٢٥
- وروان ٤٢٥
شارلوت دي مونمورانسي ٢٨٥
شارون ، بيير ، ٢٧٢ ، ٤١٤
الشاطيء الذهبي ٥٢٠
شافتسييري ٤١١
شال آدم (الاب) ٦٨٢ ، ٦٨٣
شاتولاي ، توماس برنو ده ١٨٣
شانغ - هي ٦٧٤
شانكا ٤٦٧
شاه جهان ٥٩٢
الشاهنامه للفردوسي ٥٦٩
شاطر ، الاب السوي ٢٥٩ ، مخترع
الرقب الشمسي ٢٦٤
شتاداس (جمعية) ٦١٨
شتوتغارت ٢٥٨
شرح العقدة الكالوليكية ، نسي المواضيع
المختلف عليها ، لبوسيه ٣٤٥
الشرق الادنى ٦٠٩ ، ٦١٠

شابالا ، بحيرة ٤٥٩
شابلين ٢٨٤
شارتر ، كاتدرائية ١٧
شاردن ٦٨٩ ، ٦٩٦ ، ٧٠٢
شارل الجسور ١٩٦
شارل الاول ، ملك انكلترا ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣١٨
- الثاني ملك انكلترا ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
شارل الثاني ، ملك اسبانيا ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤
شارل الخامس ، امبراطور النمسا ٣٥٨
شارل الخامس او شارل كنت ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥١٢ ، ٥٥٢ ، ٥٥٠
شارل السادس ، امبراطور النمسا ٣٥٨ ، ٣٦٠
شارل السابع ٨٧
شارل الثامن ٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٦

شماخا ، مدينة ٥٧.
شمايانا ، مقاطعة ١.٦
شنفاي ٤٣٤٠
الشوغون ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ،
٦١٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٦ ، ٦٧٠ ،
٦٧١
شو - يونغ - شون ٦٤٦
شيروان ٥٥٣ ، ٥٧٦
شيشرون ١٧ ، ٣٤ ، ٥٤ ، ٧٦ ، ٨٤ ،
١.١ ، ٢٧٢ ، ٦٧٨
الشيشميك (قبائل) ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٠٦ ،
الشيعة ٥٥٣ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٢ ،
شيفا ٦١٧
شيلي ٣٥٠ ، ٤٦٤ ، ٦٦٢
شيمازو تكتاهيا ٦٦٥ ، ٦٦٦ ،
شيو - شيو ٦٧٧

الشرق الأقصى ٧ ، ٦٢ ، ٥٦٨ ، ٦٠٩ ،
٦٢٣ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٣ ،
٦٦٤ ، ٧٠١
الشركة التركية ٣١٨
الشركة المسكوبية ٣١٨
شركة الهند الشرقية الهولندية تأسست
سنة ١٦٠٢ ، ٢٢٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
٣١٩
شركة الهند الشرقية الانكليزية (١٦٠٢)
٣١٩ ، ٣١٨
شركة الهند الغربية ٣١٥ (تأسست ١٥٢١)
شروان ٥٧٣
شعراء اللوفر ٣٢٧
شكسبير ٤١٨
شكوى السلام ، كتاب لايراسموس ١٥١٧
١٠٧

ص

٦٢٩ ،
الصوند ٦٢١ ، ٦٦٣ ،
الصين ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٢١ ، ٢٧١ ،
٣١٦ ، ٤٢٩ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥١٣ ،
٥٣٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٧٧ ، ٦٤١ ،
٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ،
٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
٦٥٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ،
٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٩ ،
٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ،
٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ،
٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ،
٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ،
٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ،
٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ،
٧٠٢ ، ٧٠٣

صافي ، الشاه ٥٥٤ ، ٥٧٨
صافي ، مدينة ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧
صالح ، مدينة ٥٦٧
صحيفة العلماء ٣٢٢
صربيا ٥٥٢
الصدر ٥٧٤
الصفوية ، الدولة ٥٦٩ - ٥٧١ ، ٥٧٢ ،
٥٧٣ ، ٥٧٨ ، ٥٨٢
صقلية ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
٥٥٠
صنوج العالم ، كتاب لبونا فنتورا ده برييه
١٥٣٧/٥٣٨ ، ١٠٣
صورات ، مدينة ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٨٤ ،
٦٢٠ ، ٦٢١
صوصة ، ليونل ده ٦٥٦
صوفالا ٢٠٠ ، ٥٢٠ ، ٥٥٥
صوفيا باليولوج ١٧٢ ، ١٧٤
الصومال ٦٥٣
صومطرة ١٢١ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ،

ط

٤٠٥
طفيليا ، مدينة ٥٦٥ ، ٥٦٧
طلفا ، اوتولفا (شب) ٢٤ ، ٦٠
طليطلة ٥٥١
طنجة ٣٠٩
طهران ٥٦٨ ، ٥٧٧
طولر ١١ ، ٩٠
طولون ١٩٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
طيماوس (كتاب لافلاطون) ٤٨

الطاولة المستديرة ، روايات ٤٢٥
الطاوية ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ ، ٦٩٧ ،
٦٩٨ ،
طبيعة الالهة والعرافة ، ليشيرون ١٠١
طرابزون ٥٦٨
طرابلس الشام ٦٠٩
طرابلس الغرب ٥٥٤ ، ٥٦١
طروا ، مدينة ٣٢٢
الطريقة الموجزة والسهلة للصلاة (كتاب)

ع

عصير بريكلينس ٤٠٢
عصير أوغسطس ٤٠٢
عصير لويس الرابع عشر ٤٠٢
عصير الانوار ٣٧٣
عظمة الدولة ٥٧٤
العفراني ٥٦٧
علم الفلك الجديد (كتاب لكبلر ١٦٠٩)
٢٥٨
علم الفلك (كتاب لولود سيمولر) ٤٣٦
علاء الدين ، الامير ٥٥٤
علي بن ابي طالب ٥٦٨ ، ٥٧٤
علي اكبر ، الدرويش ٥٣٧
علي شاووش ٥٦١
العلوية ، الدولة (المغرب) ٥٦٧
عمان ٥٧٨
عمانويل لويس ٦٢٥
الغابة السوداء او الحرج الاسود ١٠٥ ،
٣٣٨

عابير ، منطقة ٥٦٤
العاصفة ، صورة لجيورجيوني ٦٢
العامور ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٨٣
عباس الاول ، الشاه ٤٥٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،
٥٧٦ ، ٥٧٧
عباس الثاني ٥٧٨
عبد الكريم ٥٣٦
عبدالله ، الملك ، ٥٣٦
عثمان ، السلطان ٥٤٦
عثمان الثاني ، السلطان ٥٤٨ ، ٥٥٦
العثمانية ، الامبراطورية ٥٣٨ ، ٥٤٥ ،
٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ،
٥٦٢ ، ٥٦٨ ، ٥٧٦
عدن ٦٠٩
العداء على الصخور ، صورة ١٩
العراق ١٢١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٧٨
العشاء السري ، صورة لده فنشي ٦٥
العصبة الكاثوليكية ١٥٦

غ

غريغوريوس الخامس عشر (البابا) ٦٢٥
غريغوريوس لويس ٦٨٨
غريكو ٢٤٤ ، ٢٤٥
غريلون (الاب) ٦٨٣
غريتيان ، مدام دي ٣٨٠
غسكونيا ١٨٨ ، ٢٢٦
غلدر ٢٣٤ ، ٢٣٥
الفليكانية ، الكنيسة ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٧٢
غالييلو ٦٨٢
غلاطية ، ضالة (في قصر تشيجي) ٣٤
غلدان ٥٤٦
غليوم دورانج ١٦٤ ، ١٦٥
غمبي ، نهر ٥٦٤
غننت ، مدينة ١٣٤
غنغران ٥٦٣
غوا ، مدينة ٥٨٢ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ،
٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٧٣ ، ٦٩٤ ،
— مجمع .. (١٥٦٧) ٥٨٢
غوايمالا ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٨٦ ، ٥١٢
غوجيرات ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٦١٦
غوزاليس غريغوريوس (الاب) ٦٧٣
غوستاف — ادولف ٢٣٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ،
٣٧٧ ، ٣٣٩
غوكيتاي ٦٦٧ ، ٦٦٩ ،

غارسيا ده اورتا ٥٨١
الغارف ، ٤٢٨
غاستون دورليان ٢٧٣ ، ٢٧٤
غاسندي او غندي ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤ ، ٣٨٤ ، ٤١٢
غاستندية ٣٧٣
غافن ١٤٦
غافو ، بلتازار (الاب) ٦٦٨ ، ٦٦٩
غاليا ٢٤٠
غالييلو ٩ ، ١٠ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٢٥٧ ،
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٣ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤١٨
غانا ٥٦٣
الفانج ، نهر ٥٨٦
غار ٥٦٤
غرانفيل ، الكروينال ده ١٦٣ ، ١٨٣
غرفنتوبا ١٩
غرفة التوقيعات ٢٦
الغرفة الكوكبية ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
٣٦٣
غرناطة ١٤٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٥٥٠ ، ٥٦٠
غروتوس ٢٤٠ ، ٦١٢
غرونغ ٢٣٤ ، ٣٨٠

غویشیاردینی ۱۲۸
 فویون ، السیده ، ۴۰۵
 فوین ۲۰۳
 فیز ، آل ده ۱۴۸ ، ۱۵۵ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶
 فیشاردین ۶۵
 غیرلاندخو ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲
 غیلان ۵۷۷
 غینیا او غینیه ۳۱۶ ، ۴۳۶ ، ۴۸۱ ،
 ۵۲۰ ، ۵۳۷ ، ۵۶۳ ، ۶۵۹

غولکوند ۵۸۱
 غومار - والغوماریه ۲۸۲ ، ۴۱۸
 الغوماریه ۳۳۴ ، ۳۳۵
 غومیرات ، مقاطعة ۵۸۹
 غوندی ، دی ۲۵۴
 غونزالفو القرطبی ۱۹۰ ، ۱۹۲
 غویار ، ماری ۴۹۹
 غوادلوب ۵۲۲
 غویانا ۴۷۵ ، ۵۲۲

ف

فرسای ۳۰۰ ، ۳۰۵ ، ۳۳۰
 - قصر ۳۳۰
 فرغانه ۵۸۲
 فرناندیس (اخوان) ۱۶۵
 فرنا ۱۵ ، ۱۷ ، ۲۳ ، ۶۳ ، ۱۱۶ ، ۱۱۷ ،
 ۱۲۲ ، ۱۲۴ ، ۱۴۲ ، ۱۴۶ ، ۱۴۷ ،
 ۱۴۸ ، ۱۵۰ ، ۱۵۱ ، ۱۵۳ ، ۱۵۷ ،
 ۱۵۹ ، ۱۷۴ ، ۱۸۲ ، ۱۹۱ ، ۱۹۳ ،
 ۱۹۷ ، ۲۰۰ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۵ ،
 ۲۰۶ ، ۲۱۲ ، ۲۱۵ ، ۲۱۸ ، ۲۲۲ ،
 ۲۲۵ ، ۲۲۶ ، ۲۳۱ ، ۲۳۵ ، ۲۴۱ ،
 ۲۵۵ ، ۲۸۱ ، ۲۸۴ ، ۲۸۶ ، ۲۹۰ ،
 ۳۰۰ ، ۳۰۷ ، ۳۱۰ ، ۳۱۱ ، ۳۱۷ ،
 ۳۱۹ ، ۳۲۶ ، ۳۳۴ ، ۳۳۷ ، ۳۳۸ ،
 ۳۴۰ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ، ۳۴۴ ، ۳۴۵ ،
 ۳۵۰ ، ۳۵۱ ، ۳۵۳ ، ۳۶۱ ، ۳۶۴ ،
 ۳۶۵ ، ۳۶۹ ، ۳۷۰ ، ۳۷۳ ، ۳۷۸ ،
 ۳۷۹ ، ۴۰۵ ، ۴۱۲ ، ۴۲۷ ، ۴۹۹ ،
 ۵۵۳ ، ۵۶۵ ، ۵۶۷ ، ۵۶۸ ، ۶۰۹ ،
 ۶۱۹ ، ۶۳۹ ، ۶۶۲ ، ۶۸۲ ، ۶۸۵ ،
 ۶۹۱

فرنسا - الشمس ۳۵۲
 فرنسا - الكبرى ۳۵۲ ، ۳۵۳
 الفرنسواز الكبرى ، سفینه ۱۸۷
 فرنسوا دی سال ۲۸۰
 فرنسوا الثاني ۱۵۵
 فرنسوا دی کولینی ۱۰۵
 فرنسیس السالیزی ، القدیس ۱۱
 ۱۳۰ ، ۱۳۲ ، ۱۴۶ ، ۱۵۱ ، ۱۵۲ ،
 ۱۵۳ ، ۱۵۵ ، ۱۸۳ ، ۱۸۷ ، ۱۹۱ ،
 ۱۹۳ ، ۱۹۵ ، ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۰۲ ،
 ۲۰۳ ، ۲۰۶ ، ۴۲۲۰ ، ۴۷۶ ، ۴۹۹ ،
 ۵۵۲
 - محاولته النزول في انكلترا وغزوها
 ۱۵۴۵

فایکون ۶۲۳
 الفاتحة ، صلاۃ ۵۴۱
 فابر ، جان ۸۰
 فابور سیکای ، مدینه ۵۸۶ ، ۵۹۱
 فاجيرو ۶۶۳ ، ۶۶۵
 فاجیل ، تابع غلیوم اورانج ۳۱۱ ، ۳۱۲
 فارس ، بلاد او المعجم ۱۲۱ ، ۳۱۴ ،
 ۴۲۲ ، ۵۳۵ ، ۵۶۸ ، ۵۶۹ ، ۵۷۳ ،
 ۵۷۶ ، ۵۷۸ ، ۵۸۲ ، ۶۰۹ ، ۶۱۴ ،
 ۶۲۰ ، ۶۶۵ ، ۶۶۶ ، ۷۰۲ ، ۷۰۳
 فاریز ، الکردینال ۵۹ ، ۱۶۵
 فاریز ، قصر ۳۴
 فاساری ، جورج ۱۹
 فاسکو ده فاما ۱۱ ، ۲۰ ، ۶۲ ، ۱۲۲ ،
 ۴۲۹ ، ۵۲۰
 فاطمة الزهراء ۵۶۸
 فالغنیانی ۶۲۳ ، ۶۶۸ ، ۶۶۹ ، ۶۷۵ ،
 فالکونی ، جان ۴۰۵
 فان رینیك ۵۲۰
 فانغ ۶۴۴
 فان لنشوتن ۶۱۰
 فانیتی ۴۳
 فانیفا ، جزیره ۶۵۶ ن
 فتشینو ، مارسل ۲۰ ، ۲۲ ، ۲۵ ، ۲۶ ،
 ۳۸ ، ۷۵
 فتوبه ، مدینه ۱۱۴
 فتشیولی ، لوقا ۱۳۲
 فراره ۴۸ ، ۶۳ ، ۴۲۸
 فرانیش - کونیه ۱۴۳ ، ۱۴۴ ، ۱۶۳ ،
 ۲۰۷ ، ۲۳۹ ، ۳۴۷ ، ۳۵۱ ، ۳۵۲
 فرجیل ۱۷ ، ۲۶
 فردون ، مدینه ۲۰۵
 فردینان ، الامبراطور ۱۴۲ ، ۱۹۷ ، ۲۳۶ ،
 الفرس او المعجم ۶۹۱ ، ۶۹۲ ، ۶۹۳ ،
 ۶۹۴

فرنسيس الساليزي ، القديس ١١
 فرنسوا كسافييه ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٦٣ ،
 ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ،
 ٦٧٣ ، ٦٩٧ ،
 فرنسيسكو دي توليدو ٤٦٦
 فرنسيسكو دي فيتوريو ٤٨٤
 فرنكفورت ٢١٩
 فروبيشر ٢٠٥
 فروين ، دار نشر ٧٩
 فريبه (الاب) ٦٨٣
 فريبورغ في تريغو ٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٩
 فريدريك الخامس ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
 فريدريك غليوم ٣٧٥
 فريدريك هنري ٣١٢
 فريز ، مدينة ٢٤
 فشواو فكتو ٦٢٦ ، ٧٠٤
 فلسر ٢٦٤
 فلسطين ٥٥٣
 الفلسفة الاسمية ١٠ ،
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
 فلاخيا ، مقاطعة ٥٥٢
 الفلاندر ، مقاطعة ٨ ، ١٠١ ، ١٢٢ ،
 ١٣٨ ، ١٥٩ ، ٢٤١ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٤ ، ٣٧٠ ، ٥٧٧ ، ٦٢٢
 كونت ده فلاندر ١٦١
 فلورنسا ٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٧ ،
 ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٩٧ ، ٤٠٣ ،
 فلوري ، جان ٢٠٥
 فلوريدا ٤٢٤ ، ٤٢٥
 فنديم ٣٥٧
 فنزويلا ، ٤٢٤ ، ٤٤٣ ، ٤٨٦
 فنلندا ٣٧٧
 فوا ، امراء آل ١٥٣
 فواتور ٢٤٦
 فوبان ٣٥٦ ، ٣٥٨
 فوتا تورن ٥٣٦
 فوتا جالون ٥٣٦ ، ٥٦٣
 فو - تشيو ٦٦١
 فوجر ، آل ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠
 فوجيو ارا سيكوا ٦٧١
 الفودا ٦٥٠
 الفودو ، اله ٥٢٥ ، ٥٢٦
 فورموزا ٤٧٩ ، ٦٤٢ ، ٦١٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١
 فورنيخ ١٧٦
 فورنييه ، الاب ٤٣٤
 فو - كيان ٦٣٠ ، ٦٤١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ،

٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٧٣ ، ٦٨٨ ،
 فولتير ١٠٤ ، ٤١٤
 فولز ، بول ، ٨٠
 الفولغا ، نهر ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٥٧٦
 فوناي ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ،
 فونتبلو ٣٠٥ (براءة (الفت براءة نانت) ٣٢٣
 فونتيل ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠١
 - تنبؤه يطيران الانسان ، في مقدمة
 كتابه : تاريخ تجديد الاكاديمية الملكية
 للعلوم سنة ١٧٠٢
 فيتريه ، جان ٧٦
 فيتوريو ٢٠٧
 فيجيناغار ٥٤٣ ، ٥٨١
 فيدور الكسفتش (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ٣٧٦
 فيزا كروز ٤٧٨ ، ٥٠٨ ، ٥١٣ ، ٦٦٠ ،
 فيراكوشا ٤٦٧
 فيرفين (معاهدة - ١٥٩٨) ١٥٦ ، ١٩٨
 فيرندو ٦٥٩
 فيروكيو ٣١ ، ٤٧ ، ٦٥
 فيريه ٥٣٨
 الفيزر ، نهر ٢٣٨
 فيغر ، لوسيان ١٠٤ ، ١٠٥
 فيفالدي ، (اموسيتي ابطال) ٣٧٥
 فيكومير كاتو ١٠١
 فيليس النيري ، القديس ٣٨٠ ، ٣٨١
 فلز ، ١٢٦ ، ١٢٨
 فيلمو ، الاب ٣٩٤
 فيلوغينيون ٤٤٤
 فيلولوس ٥١
 فيليب الثاني ١١٤ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٤٨٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ،
 ٦١٠ ، ٦٥٦ ، ٦٩٠ ،
 - الرابع ٢٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٥٢١
 - فيليب الخامس ، هو دوق انجو حفيد
 لويس الرابع عشر ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧٣
 فيليب الجميل ١٦١
 الفيلبين ٨ ، ١٥١ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥٣٧ ،
 ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦٥٦ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ،
 ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ،
 ٦٩٠
 فينيلون ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٥
 فينيول ، جاك ٢٤١
 فيينا ٢٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ، ٤٠٣ ، ٤٢٨ ،
 ٥٣٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩

قاسطنطين ٢٤ ، ٢٩٩ ، ٥٤٦
 القسطنطينية ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ٢٨٣ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦١
 قشتاليه ، قشتالة ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ،
 ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٤٨٤ ، ٥٠٤ ، ٥٥٠ ،
 ٥٥١
 قشغر ٦٨٠
 القصر الصغير ، ٤٢٧ ، ٥٦٥
 القصر الكبير ، معركة (١٥٧٨) ٥٦٦
 قواعد توجيه العقل ، ليدكارت ١٩٦٥ ،
 ٢٩١
 القوزاق ٦٩٤
 قوس دايفز ٤٣٣
 القوقاس ١٧٥ ، ٥٤٥
 قيصر ٤٢٤
 القيصريات الاوروبية ١٩٥ - ١٩٩

قادش ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٤٧٨ ، ٥٠٥ ،
 قازان ، خانة ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦
 - قصر قازان ١٧٧
 القاهرة ٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٦٠٩
 قبرص ١٠٤
 قبطان باشا ٥٤٧
 القبيلة الذهبية ١٧٠ ، ١٧٢
 القديس توما ، جزر ٥٢٦
 القرآن ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٧٩
 قرار التهدة (١٥٧٦) في البلاد الواطية
 ١٦٤
 قرص ٥٧٣
 قرطبة ٤٦٢
 قرطجنة ٣١٦
 قرقاند ٦٨٠
 القرم ١٧٥
 قزوين ٥٥٣ ، ٦٩٤

كاميزار ، ثورة ٣٥٨٠٠٠
 كانغ - هي ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨
 كاهور ، مدينة ١٩٢
 كاون - ان ٦٤٠
 كايرال ، مكتشف البرازيل (١٥٠٠) ٤٧٥
 كبلر ، جان ١١ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٧ ، ٢٩٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤
 كشن ١١٣
 كتلونيا ، مقاطعة ٣٤٠ ، ٣٧٣ ، ٥٥١
 - امتيازات ٣٧٣
 الكرافيل ، سفينة ٨
 الكروتريانية ، انظر : الديكارتية ،
 الكرج ، بلاد ٥٥٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٨
 كردستان ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٥٧٣
 كردفان ٥٣٦
 كرشنا ٧٠٤ ، ٧٠٥
 كرناتيك ٦٢٥
 كرنبول ٣٣٦
 كرومويل ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣
 كريت ، او كندي ، جزيرة ٤٢٧ ، ٤٣٧ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٩
 كريستيان الرابع ، دوق هولستي ٢٣٨
 كريكي ، الدوق دي ٢٨٧
 كرلباخ ، قبائل ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤

الكتاب ٦١٥
 كابول ٥٨٢ ، ٥٨٦ ، ٦٨٠
 كابوتو ، جيوفاني ٤٧٦
 كائاي ٤٧٦ ، ٦٨٠ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ،
 كاترين دي براغانس ، زوجة شارل الثاني
 ٣٦٣
 كاترين ده مديتشي ١٥٥
 كاتو - كمبرسسي ، معاهدة (١٥٦٣) ١١٤
 ٤٨٢ ، ١٨٣
 كاتون ١٤١
 كاتينا ٣٥٧
 كارارنس ٥٥٦
 كارتية ، جاك ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩
 كاردين ٤٤٤
 كارلوفتس ، صلح (١٦٩٩) ٣٤٧ ، ٥٥٩
 كارنتيا ٣٦ ،
 كاربجي ٢٣
 كاريليا ، صلح ٢٣٩
 كاسيسانو دل بوزو ٢٨٧
 كافوشينا - خليج ٦٥٦ ، ٦٦٥
 كافليه دي لاسال ٤٧٩
 كالابريا ٥٣٧
 كاليفورنيا ٤٧٩ ، ٥٠٤
 كالية ، مدينة ١٩٨
 كامو ، نيقولا ٢١٩

٥٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٩٦
 كوبليه (الاب) ٦٨٦ ، ٦٨٧
 كوبنهاغن ٣٤٤
 كوبو ، الاب برنابا ٤٦٦
 - له : تاريخ العالم الجديد ٤٦٦
 كوتون ، الاب ٢٥٧
 كورا ساو ٣١٦
 كوربي ، مدينة ، معاهد صلح ٣٠٣ ، ٣٣٩
 كورثيس ، فرناندو ١١ ، ٢٠ ، ١١٦ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٢٤ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ،
 ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨
 كوردموا ٣٨١ ، ٣٨٢
 - له :
 التمييز بين الجسد والروح ٢٨١
 كورسكا ٥٣٧
 كودلي ٣٧٥
 كورمانديل ٦٢٠ ، ٦٢١ ،
 كورنسي ، ٢٤٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ،
 ٣٧٤
 - بعض مؤلفاته ٢٧٤
 كودي ١
 كوربا ٦٣٢ ، ٦٥٠
 كوزكو ، مدينة الانكا ٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ،
 ٤٧١
 كوشنشين ٦٩٩ ،
 كوشي ٦٥٧
 كوشين ٦١٥ ، ٦٢٣ ، ٦٢٩ ،
 كوهاند ٦٨٠
 كوكبا ٥٦٣
 كوكسفا ٦٤٢ ، ٦٦١
 كوكوبو ٦٦٥ ،
 كوكوم ٥٧٣
 كول ٦٠٧ ،
 كولبر ، ادوار ٢١٩ ، ٢١٨ ،
 كولبير ، الوزير ٢١٩ ، ٢٨٢ ، ٢٠١ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٦٦٢
 كولكوند ٦٢١
 كولمار ٣٢٨
 كولبو ٦١٥
 كولبوس ، كريستوف ٢٠ ، ١٢٥ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣
 كولبيا ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
 كولوميل ١٤١

كستغليون ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٨
 كسينوفون ٢٧٢
 كسيني ٣٩٤
 كشير ٥٨٤ ، ٥٨٦
 كلارانس ٢٠٣
 الكلاسيكية الادبية ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
 - في الفن ٢٨٧
 - الاخلاق الكلاسيكية ٢٨٨
 كلافيوس ٦٧٩
 كلافيه ، فيليب ٢٤٠
 كلخاز ٦٤٦
 الكلدان ٦٢١
 كلفين ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٢٥
 كلكت ، مدينة ١٢٢
 كلوفيس ٢٧١
 كليبرجر ، هانز ١٣٠
 كليف ، دوقية ٣٧٥
 كليوبترا ، تمثال ٦٠
 كمبالو ٦٨٠ ، ٦٩٥
 كمبانيا ٤٣
 كمبروم ٦٢١
 كمبريدج ، جامعة ٧٩ ، ٣٠٧ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٥
 كمبريه (معاهدة ١٥٢٩) ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
 كمبوديا ٥٣٧
 كناري ، جزر ٤٧٨
 كنت ١٠٤
 كنتور ، مدينة ٥٦٤
 كنتون ٦٢٠ ، ٦٤٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
 ٦٥٧ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧٣ ،
 ٦٨٢
 كندا ، ٤٤٠
 كنستانس ٢٣٨
 كنسو ، مقاطعة ٥٣٥
 كنغ - هي ٦٤٣
 كنيسة نوردام ٧٠
 كورناكا ٥٠٣
 كوانتين ١٠١
 كوانغ - تونغ ٥٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ،
 ٦٧٦
 كوي - ين ٦٩٠
 كوبا ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٥٢٢
 الكوبرلي ٥٥٩
 كوبرنيكوس ، كوبرنيك ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٨ ،

الكونغو ، نهر ٥٢٠
 - اكتشاف مصبه على يد ديفو كاو ٥٢٠
 كونفو ، دولة ٥٢٠ ، ٥٢١
 كونكتيكت ٥٠١
 كونكورداتو (١٥١٦) ٨٧ ، ١٥٣
 كوي ، تشايو ٦٣٥
 كوين ٦١٣ ، ٦١٤
 كي ٦٨٥
 كيانغ - سي ٦٣٥ ، ٦٨٢ ،
 كيبيك ، تأسيسها سنة ١٦٠٨ ، ٤٧٩ ،
 ٤٩٥ ، ٤٩٩
 كيتو ، مدينة ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠
 كيرلس ، القديس ١٠٢
 الكيشوا ، لغة ألانكا ٤٦٨ ، ٤٦٩
 كيليمانه ٥٢٠
 كيوتو ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩
 كيوسو ٦٥٠ ، ٦٥٣
 كيو - سيو ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٩ ، ٦٧٠
 كيو - كاي - سو ٦٧٧

كولوبون ، مدينة ٥٦١
 كولوني ٧٦ ، ١٣٩ ، ٣٤٢
 كوليت ، جون ٧٦
 كومين ١٨٣
 كوليني ، كسبار دي ٤٨٢
 كومورين (راس) ٦٢٣
 كونت ، اوغست ٩
 كونتليانوس ١٧
 كونتي ، الاميرة ، ابنة لويس الرابع عشر
 ٥٦٨
 كوندرانييف ١١٣
 كوندو ٦٥٨
 كونديه ١٣٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ،
 ٣٥٧
 كونسبسيون ٦٦٢ ،
 كونستانس ٨٧
 - مجمع ٨٧
 كونفوشيوس ٢٧١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧٨ ،
 ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٨٦٨
 الكونغولية التشويهية ٦٤٥

٧

لاكوادرا ، المطران الفارو ده ١٨٣
 اللامعدانيون ٨٦ ، ١٠٥
 لاموت له فاييه ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 ٦٨٤
 لامواتيون دي بافيل ٣٦٩
 لان - تشايو ٥٣٥
 لاندا ، الاسقف ٥١
 اللانفدوق او اللنفدوق ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
 ٢٠٥ ، ٣٦٩ ، ٤٨١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٨
 لانكشير ، مقاطعة ١٣٥
 لاهاي ، حلف (١٦٧٣) ٣٥٤ ، ٤٠٢ ،
 ٦٤٧
 لاهور ٥٨١
 لاهونتين ، البارون دي ٤١٧
 لاو - تسي ٦٤٠
 لاوكون ، تمثال ٦٠

لا بايرير ٦٨٤
 لابرادور ٤٤٠ ، ٥٧٦
 لا بروير ، ٣٨٠ ، ٤٠٢
 لابلاس ٥٣
 لاتران ، مجمع (١٥١٦) ٨٧ ، ١٠٧
 لاراش ٥٦٤ ، ٥٦٧
 لاروشفوكو ، الدوق ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠
 لاروشيل ، مدينة ١١٤ ، ٢٥٣ ، ٣٣٢
 لاس كازاس ، برتلمايو ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٤
 لاسكاريس ، جان ١٨٧
 لاشيز ، الاب ٥٣٦
 لافايت ، مدام دي ٣٨٠
 لافلغلين ٣٣٧
 لافونتين ٣٨٠
 لاقماس ٢١٩ ، ٣٢٠
 لاكارا ، دي ٥٠٥

٨

٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ،
 ٣٨٧ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ، ٦٩١
 لنس ، معركة ١٦٤٨
 لنغو باردو (الاب) ٦٨٢ ، ٦٨٧
 له ثلييه ، تقولا ٢٢٧
 له غاسبي ٦٥٨

لشوننة ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ،
 ١٣٤ ، ٣٦٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٧٨ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٦٢١ ، ٥٦٤ ،
 ٦١٠ ، ٦٥٧ ، ٦٧٣ ، ٦٩٥
 لمبو ٦٢٠
 لندن ١٠٩ ، ١٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٥٧ ، ٣٠٨ ،

له كونت (الاب) ٦٨٧

الوار ، نهر ١٣٥

لوانفو ، نهر ٥٢٠

لوبيز ، آل ١٢٨

لوبيز ، حيرونيمو ٤٢٦

لوبرون ، الرسام المزين ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

لوبيك ، مدينة ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢٣٩

— صلح ... (١٦٢٩) ٢٣٩

لوتريك ٢٠٥

لوتزن ، معركة ٣٣٦

لو تليه ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٠ ، ٣٣٩

لو تيتيان ٦٢ ، ٦٨

لوثير ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥

٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

لود ، رئيس اساقفة كنتبري ٣٠٦

لودفيك لو مور ٤٧ ، ٦٥

لودي ، صلح (١٤٥٤) ١٨١

لورا دياني ، عشيقه لوكرسي بورجا ٦٤

لورنتيوس العظيم ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

لوريت ٢٩١

اللورين ٢٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢

٣٥٨

اللورستان ٥٥٤

لوسون ، جزيرة ٥٣٧

اللوفر ٣٣٠

لوفوا ، ٢١٩ ، ٣٠٤ ، ٣٢٠ ، ٣٥٦

لوفيسر ديتابل ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦

لوقيانوس ١٠١

لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩

٣٨٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥

— له :

المحاولة الفلسفية ٣٨٠

رسالة اولى فى التساهل ٤١١

محاولة فى الحكومة المدنية ٤١١

محاولة فى العقل البشري ٤١١

اللوك ٤٣٣

لوكريس ١٠١ ، ٢٧٢

لوكسمبورغ ٢٣٧ ، ٢٣٧

دوق ده — ٣٥٧

لوكلير ، جان ٣٨٠

— له :

المكتبة الشاملة والتاريخية ٣٨٠

لومير ، مضيق ٤٣٤

لوموان ، كلية الكردينال ٧٥

لونف — تشانغ ٦٣٤

لويز دي كيروال دوقه برتسموث ٣٥٠

لويس التاسع ، ملك فرنسا ٥٦٩

لويس الثاني عشر ١٥١

لويس الثالث عشر ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٧

٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٤٩٩ ، ٥٧٨

لويس الرابع عشر ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢

٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢

٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧

٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٩٩ ، ٥٣٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٨ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦٢٠ ، ٦٦٢

٦٨٦ ، ٦٩٤

لويس الكبير ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

لويس — الشمس ٣٥٢

— عصر لويس الرابع عشر ٤٠٢

لويس ، ملك المجر ٥٥١

لويس ده باد ٣٥٧

لوفيوك ٦٨٦ ،

لي ، وليم ١٣٤

لياج ، مدينة ١٠١ ، ١٠٧

ليانغ — تشي ٦٤٥

ليانكور ، اللوق دي ٢٥٦

ليبانث ، معركة (١٥٧١) ١٩٩ ، ٥٤٩

ليبريغ ٢٤١ ، ٣٣٩ ، ٤٠٣

ليبتينز ٢٩٨ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٨٣

٣٨٧ ، ٣٩٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦

لي — تشنغ — تشي ٦٤٢

لي — تشيو — تساو (ليون) ٦٨٠

ليتوانيا ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢١٣

ليدن ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٣٨٠

ليري ٤٤٤

ليفورنو ، ١٣٤

ليفونيا ، بلاد ٣٧٧

ليو — كين ٦٣٤ ، ٦٣٥

ليل ٣٦٩

ليما ، مدينة ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠٥

٥٠٩ ، ٥١٩

— مجمع .. ٤٨٧

ليوبولد الاول ، الامبراطور ٣٤٧ ، ٣٤٩

٣٥٠ ، ٣٥١

ليون العاشر ، البابا ٢٤ ، ٥٩ ، ٨٧

٣٢٤ ، ٦٩١ ،
اتحاد ليون الكبير (١٥٥٥) ١٩٣
ليوناردو ده فشي ١٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٥ ،
٦٦

— عقده الكونكورداتو مع فرنسوا الاول ٨٧
ليون ، مدينة ١.٦ ، ١.٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،
١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٩ ، ١٩٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٣٢٣ ،

٢

مالي او منديمان ٥٦٣
مالبرانش ٢٩٨ ، ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،
مالستروا ١١٧
ماليرب ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
ماليزيا (العالم الماليزي) ٤٣٩ ، ٦٠٩ ،
٦٥٢ ، ٦٥٤
المامورا ، مدينة ٥٦٧
ماندينغ ، بلاد ٥٣٦ ، ٥٦٣
المانش ، بحر ١٩٨
مانكو انكا ٥١٧
المانوسية ٨٤
مانويل ، الملك ٦٥٥
مانيللا ٤٧٩ ، ٥١٣ ، ٦٠٩ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤
— سفينة ... الكبرى ٤٧٨ ، ٤٧٩
ماهيانا ٦٤٠ ، ٦٦٤
المابا ٤٥١ — ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ،
٧٠١ ،
مانيس ٢٣٨
مانغ — تسو ٦٣٣
مبادئ تصوير حديقة حجمها حجم حبة
خردل ٦٤٥
مبالي (عاصمة الكونغو الاولى) ٥٢٠
متر ، مدينة ١٢٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
متسويكر ٦١٥ ، ٦١٦
المجر ، ٥٥١
مجلس اللوردات ١٥٧ ، ١٦٠
مجلس العموم ١٥٧ ، ١٦٠
مجموعة الآلات ، الجزء الاول (كتاب ١٦٧٧)
٣٢٢
محمد بك ، السفير الفارسي ٥٧٩
محمود الثالث ، السلطان ٥٤٨ ، ٥٥٦
محمود الرابع ، السلطان ٥٥٦
المحاولة الفلسفية ، للوك ٣٨٠
المحيط الاطلسي ٨ ، ١٢٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ،
٤٧٨ ، ٥٣٥ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٦١٠
— المتحمذ الشمالي ١٧٥
المحيط الهادي او الباسفيكي ٧ ، ٨ ،
١٩٩ ، ٤٧٥ ، ٥٣٥ ، ٦٤٧ ، ٦٨٠ ،
٦٩٤

ماتارام ٦١٢ ، ٦١٥
ماتسودا تاكانوبو ٦٦٦ ، ٦٦٧
ماتر اسبلنديان (قصة لونتالغو) ٤٢٥
مابيون ٣٧٤ ، ٤٠٦
ماجلان ، مضيق ٣١٨ ، ٤٣٦ ، ٤٧٦ ،
٤٨١
— مضيق ٤٣٦
مادوره ٦٢٤ ، ١٢٥ ،
ماديرا ، جزر ١١٢ ، ٤٢٧ ، ٥٢٦ ،
مارتيني (الاب) ٦٨٥
المارتينيك ، جزيرة ٥٢٢
مارشال (جزر) ٦٨٠
مارغريت ده بارم ١٦٣
مارك ، كونتية ٣٧٥
ماركو بولو ٤٣٤ ، ٦٨٠ ، ٦٩٥
مارلبورو ، دوق دي ٣٥٧
ماري ستيواوت ١٥٩
ماري — تيريز ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،
ماري دي مديسيس ٢٨٥
ماريان ، جزر ٤٧٩
مارينيان ، معركة ١٩٠
مازارين ، الكردينال ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ،
٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤
مازغان ٥٦٧
مازندران ٥٧٧
ماساشوستس ٥٠١
ماغادوكسو ٥٢٠
مافيي ٣٧٤
ماكارو ٥١٣
ماكاو ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ،
٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ،
٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥
ماكسار ٦١٥
مالبيجي ٦٨٦
مالطة ٤٠٦
مالقا ٥٤٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦١٥ ، ٦٢٣ ،
٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠
مالقان ٥٨٨
مالفال ، ٤٠٥
مالوا ، مقاطعة ٥٨٩

المحيط الهندي ١١٢ ، ١٢٢ ، ٢٠٠ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ، ٦١٠ ، ٦٠٩ ، ٥٥٥ ، ٦٢١ ، ٦٢١
 مخا ، ٦٢٠ ، ٦١٤
 المخزن ، قبائل ٥٦٢ ، ٥٦٦
 المدخل الى الجغرافية العمومية (كتاب)
 لفيليب كلافييه ٢٤٠
 المدخل الى المنطق ، ١٤٩٦ للوفيفر ديتابل ، ٧٥
 ملواس ٥٨٢
 معاهدة ٢٠٢ ، ٢٠٢
 ملريد ١٢٥ ، ١٣٣ ، ٢٠٢ ، ٣٦٥
 مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية ٣٥٢
 مدغشقر ، جزيرة ٤٢٩ ، ٦١٨ ، ٢٥٨ ، ١٢٦
 مدلبرج ١٢٦ ، ٢٥٨
 مديتشي ، آل ٦٥
 ماري دي ٢٨٥
 المدنات ومؤلفات بيير بيل فيها ٤٠٩ - ٤١١
 مراد الثالث ، السلطان ٥٥٣ ، ٥٥٦
 مراد الرابع ، (١٦٣٢ - ١٦٤٠) ٥٤٨ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٧٨
 مراکش ٤٢١ ، ٥٦٦
 - مدينة ٥٦٦
 المرجام ، ثورة ٢٣١ ، ٢٣٢
 مرسي ، القائد ٣٣٩
 المرسى الكبير ٥٦١
 مرسليليا ١٢٧ ، ٢٠٥ ، ٢٨٥ ، ٥٦٣ ، ٥٧٩
 مرسين ٢٨٤
 مرغريت - تريب ، شقيقة ماري - تريب
 ابتنا فيليب الرابع ٣٥١
 مرغريت دنغوليم ١٠٥
 مركاتور ٤٣٥
 المركور الفرنسي (١٦١١) ٣٢٧
 مرو ، مضيق ٥٦٨
 مريم العذراء ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩١
 مريم المجدية ٤٤ ، ٩٠ ، ٢٥٢
 المزامير ، سفر ، نشره عام ١٥١٢
 مزير ٢٠٥
 مسائل حول التكوين ، لديكارت (١٦٢٣) ١٩١
 مسقط ٤٣٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩
 مسم ، هنري ده ٢١٩
 المسيح ١١ ، ٢٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١
 ١.٣ ، ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٠٨ ، ٤٥٤ ، ٤٩٩ ، ٥٤٠ ، ٥٢١
 مسيمي ، الكردينال ٢٨٧
 مسينا ، ١٩٨ ، ٥٢٧ ، ٥٥٣
 مشهد ، مدينة ٥٦٨ ، ٥٧٤
 مصر ١٢١ ، ٣٤٥ ، ٤٢٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٥
 مصطفى الثاني ، السلطان ٥٤٨
 العبد الصغير ، لبرامنت ٢٠ ، ٢٥
 معمودية السيد (صورة) لفيروكيو ٣١
 المغرب او المغرب الأقصى ٤٢٤ ، ٥٣٥ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٦٣٠
 المغل ، المغول ، الدولة المغولية ، ٥٤٥ ، ٥٨٢ ، ٦١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٢ ، ٦٧٩
 مقدونيا ١٤٦ ، ٥٣٧
 مكة ٦١٧ ، ٦٣٠
 المكتبة المرقسية ٦٢
 الكسيك ١١٦ ، ١٩٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٨٦ ، ٤٨٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩
 مكسيكو ٢٠٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٦٦٠
 اول. مجمع اقليمي فيها (١٠٥٥) ٧٠٩
 مكسيميليان ، الامبراطور ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٦١ ، ١٩٧
 - .. ده بافيير ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٣٣٦ ، ٣٤١
 مكة ٥٧٤
 مكياقلي ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ١٨٣ ، ٢٦٩
 مليلا ، مدينة ٥٦٧
 الماليك ، ٥٥٣
 الملابار ١٢١ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٥٧
 الملايو ٥٤٣ ، ٦١٧ ، ٦٢١ ، ٦٦٣
 ممبرت ، جان ٩٠
 منتسكيو ٤١٦
 منتنون ، دي ، ٤٠٥
 منتوا ، مدينة ٦٣
 مندن ، امارة ٣٧٥
 مندناو ، ٥٣٧

المحيط الهندي ١١٢ ، ١٢٢ ، ٢٠٠ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ، ٦١٠ ، ٦٠٩ ، ٥٥٥ ، ٦٢١ ، ٦٢١
 مخا ، ٦٢٠ ، ٦١٤
 المخزن ، قبائل ٥٦٢ ، ٥٦٦
 المدخل الى الجغرافية العمومية (كتاب)
 لفيليب كلافييه ٢٤٠
 المدخل الى المنطق ، ١٤٩٦ للوفيفر ديتابل ، ٧٥
 ملواس ٥٨٢
 معاهدة ٢٠٢ ، ٢٠٢
 ملريد ١٢٥ ، ١٣٣ ، ٢٠٢ ، ٣٦٥
 مدعيات الملك العادلة بالامبراطورية ٣٥٢
 مدغشقر ، جزيرة ٤٢٩ ، ٦١٨ ، ٢٥٨ ، ١٢٦
 مدلبرج ١٢٦ ، ٢٥٨
 مديتشي ، آل ٦٥
 ماري دي ٢٨٥
 المدنات ومؤلفات بيير بيل فيها ٤٠٩ - ٤١١
 مراد الثالث ، السلطان ٥٥٣ ، ٥٥٦
 مراد الرابع ، (١٦٣٢ - ١٦٤٠) ٥٤٨ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٧٨
 مراکش ٤٢١ ، ٥٦٦
 - مدينة ٥٦٦
 المرجام ، ثورة ٢٣١ ، ٢٣٢
 مرسي ، القائد ٣٣٩
 المرسى الكبير ٥٦١
 مرسليليا ١٢٧ ، ٢٠٥ ، ٢٨٥ ، ٥٦٣ ، ٥٧٩
 مرسين ٢٨٤
 مرغريت - تريب ، شقيقة ماري - تريب
 ابتنا فيليب الرابع ٣٥١
 مرغريت دنغوليم ١٠٥
 مركاتور ٤٣٥
 المركور الفرنسي (١٦١١) ٣٢٧
 مرو ، مضيق ٥٦٨
 مريم العذراء ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩١
 مريم المجدية ٤٤ ، ٩٠ ، ٢٥٢
 المزامير ، سفر ، نشره عام ١٥١٢
 مزير ٢٠٥
 مسائل حول التكوين ، لديكارت (١٦٢٣) ١٩١
 مسقط ٤٣٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩
 مسم ، هنري ده ٢١٩
 المسيح ١١ ، ٢٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١

المولينيون ٢٨١
 مومباسا ٥٢٠ ، ٥٥٥
 مونتاني ٣٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ،
 المحاولات ٤٩٤
 مونيليار ، كونتية ٣٣٧
 — له
 مونتسينوس ٤٨٤ ، ٤٨٥
 ٢٩١ ، ٣٨٠ ، ٤٩٤
 مونتسرات ، دير ٩٠
 مونتيكوكلي ٣٣٩
 مونريال ٤٩٥
 مونزور ٨٦
 مونستر ١٠٥ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠
 مونفوكون ، ٣٧٤
 موفكورتيان ٣١٩
 موتوموتابا ، مناجم ٥٥٥
 مونينج ٢١٦
 موهاكس ، معركة (١٥٢٥) ٥٥١
 موهليرج ، معركة (١٥٤٧) ١٩٧
 موهوك ، قبائل ٤٤٩
 ميالنيك ١٦٧
 ميتوين ، معاهدة (١٧٠٣) ٣٦٠
 ميسور ٦٢٥
 ميسيسيبي ، نهر ٤٧٩ ، ٤٩٦
 ميشال فندوفتش (١٦١٣ - ١٦٤٥) ٣٧٦
 ميشليه ، القورخ ١٥ ، ١٠٥
 مشو ، قانون (١٦٢٩) ٣٢٦
 ميغرو ٦٨٨
 الميكادو ٦٤٨
 ميكالو انجلو ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٨ ،
 ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨
 الميكمالك ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
 ميكونغ (نهر) ٦٣٣
 ميلانو ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨

مندوز ، انطونيو دي ٥٠٥ ، ٥٠٨
 منريز ، بلدة ٩٠ ، ٩١
 منشستر ، مدينة ١٦١
 المنشو ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ،
 ٦٤٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠
 منشوريا ٥٤٥ ، ٥٨٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٢ ،
 ٦٦٢
 المنصور ، السلطان احمد ٥٦٦ ، ٥٦٧
 المنغ ، اسرة ٦٢٩ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ،
 ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ ،
 ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٦٧٩ ، ٦٩٠ ،
 منغ - كوي - وانغ ٦٤٢
 منغوليا ٥٤٥ ، ٦٦٢
 منك ٣٥٥
 مواسيه ، ده ٢١٨
 موجر علم الفلك الكوبرنيكي ، لكبلر ٢٥٨
 مودينو ، مدينة ٦٤
 مورأتوري ٣٧٥
 مورافيا ٨٦
 موروا ٢٨٧
 موريس دي بافيير ٢٩٠
 موريس ده ناسو ١٩٢ ، ٢٩٠ ، ٣١٠ ، ٣١٢
 الموريه ٥٥٢ ، ٥٥٩
 الموز ، نهر ١٢٣ ، ٢٠٥ ، ٣٧٥
 موزنيك ٥٢٠ ، ٥٤٣
 الموزيل ، نهر ٢٠٥
 المؤسسة المسيحية لكلفين ٩٥ ، ٩٩
 موسكو ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٥٧٦
 موسى ، ٢٧١ ، ٦١٦
 موسي ٥٦٣
 الموصل ٥٧٠ ، ٥٧٣
 مولداقيا ٥٣٧ ، ٥٥٢
 مولوسك ، جزيرة ١٢١ ، ١٩٩
 ٥٢٧ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦٢٦ ، ٦٥٧ ،
 ٦٥٨
 مولينوس ٤٠٥

ن

نابوليون ٣٣٩
 نارا ، مدينة ٦٥٢
 نارفا ، ١٧٥
 ناسو ، موريس دي ٢٣٥ ، ٦٧٠
 ناغازاكسي : ٦١٥ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦١ ،
 ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٦٦٥ ،
 نافر ، ١٠٥ ، ٣٥١

نابيير ، مكتشف علم انساب الاعداد ٢٥٧
 ٢٥٩
 نابولي ، مدينة ٤٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٢٥ ،
 ١٢٧ ، ١٤٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،
 ٤٠٣ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٦٢٣

نورهاشو ٦٤٢
 نوفغورود الكبرى ١٤٤ ، ١٧٠ ، ١٧٨
 نيتشه ٢٨٥
 نيجر ، مقاطعة ٥٣٦
 نيراك ، ١٠٥
 نيس ٣٥١ ، ٥٥٣
 نيفا بتام ٦١٥
 نيقول ٤٠٤
 نيقولا الخامس ، البابا ٢٣
 نيقولا ده كوس ٤٩ ، ٧٦
 نيكاتوس السيراكوزي ٥١
 نيماج ، صلح ٣١١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤
 نيوتن ٩ : ٥٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤١٨ ، ٧٠١
 — مؤلفاته ٣٨٥ ، ٣٨٦
 — له : بحث في البصريات (١٧٠٤) ٣٨٥
 — محاولة في علم البصريات (١٧٠٤) ٣٨٠
 — المبادئ ٣٨٦
 النيمن ، نهر ٣٧٥
 نيوشاتل ٩٥ ، ١٠٤
 نيوكسل ٣١٨
 نيويورك ٣٨٠

نانت برامة ، او فرمان (١٥٩٨) ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٥٦ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٣ ، ٤١٠
 نان — تشانغ ٦٧٨
 نانكين ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٥٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨
 النابك ، ٥٨١
 النجف ٥٧٤
 نرشنك ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٨٣
 نروج ٣٧٩
 النساطره ٦٢١ ، ٦٢٥
 النظام الجديد ، ليكون ٢٦٧
 تكسوس ، جزيرة ٥٥٢
 النمسا ١٠٥ ، ١٦٨ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٥٥١
 ننج — بو ٦٣٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٩ ، ٦٦١
 ننج — هيا ٥٣٥
 نوبلي روبرت (الاب) ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٦٩ ، ٦٥٠ ، ٦٤٩ ، ٦٦٩ ، ٥٤٠
 نوج ٥٤٠
 نود به ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣
 نورد لنجن ، معركة (١٦٣٤) ٣٣٦ ، ٣٣٩
 نورمبرج ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢١٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٦١٢
 نورمنديا ١٠١ ، ١٥١ ، ٢٢٦

٨

هاو — هانغ — تسو ٦٣٢
 هاووساس ، مقاطعة ٥٣٦ ، ٥٦٤
 هايتي او اسبانيولا ٤٧٥
 هيسبورج ، آل ٦٦ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٨٢ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣
 — اسبانيا ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٣٤٢
 — النمسا ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٤
 هدسون ، ون ٣٦١
 هراة ٥٦٨ ، ٥٧٣
 الهراكييري ٦٥١
 هر كول ٣٥٢
 هس ٨٤
 — هس — كاسل ٣٧٩
 هس — برونسويك ٣٤٢

هارفي ، مخترع الدورة الدموية ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٩٦ ، ٣٨٢
 هارلم ٢٢٦
 هاغنو ٣٣٨
 هافانا ٤٧٨
 الهافر ، مدينة ١٨٧
 الهالاه فينيك ٤٥٦
 هالبرستات ، امارة ٣٧٥
 هالي ، ٣٩٤
 هاملتون ٢١٤
 الهانس الهانزا ١٢٢ ، ١٣٨ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠
 هانس ليبرشغ ، مخترع المرقب (١٦٠٨) ٢٥٨
 هانغ — هي ٥٤٦ ، ٦٤٧
 هانو ، الكونت دي ٣٣٧
 هانيبيل ٤٢٤

هوانغ ، كوانغ ٦٤٢
 هويس ٣٨٤
 هودار دي لاموت ٤٠٢
 هوذا الرجل ١٥٤٢ صورة ، لوتيتيان ٦٨
 هورن ، رأس ٤٣٤
 - قياثل ٤٩٥
 هوسر ١٠٥
 هوشستتر ، امبروسيوس ١٣٠
 هوغ كابت ١٥١
 هوكنز ٢٠٥
 هوفمن ، كورناليس ٦١٠
 هولندا ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٩١ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣٣٥ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ ،
 ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٥٧٧ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ،
 ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ،
 ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ،
 ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥
 هومايون ، السلطان ، ٥٨٣ ، ٥٨٤
 هوميروس ٨٢ - ٤٠٢ ، ٦٩٩ ،
 هوندو ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠
 هوندوراس ٤٥١
 هونغفلور ، مدينة ٢٠٥
 هوهنزولرن ٣٧٥ ، ٣٧٦
 هوبنيس ٢٩٨ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ،
 ٤٣٤
 هياسى رازن ٦٧١
 هايدا تبادا ٦٧١
 هيدا يورې ٦٧١
 هيدا يوشى ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ،
 هيدلبرغ ، مدينة ٣٥٨
 هيرادو ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠
 هيراقليدس ٥١
 هيرون ١٨٧
 هيلوين ، الراهبة ١٧

همالايا ٦٩٤ ،
 همبورغ ٣٦٥
 الهند ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ١٢١ ،
 ١٢٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٥٠٤ ،
 ٥٢٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٥٤ ،
 ٥٦٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ،
 ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ،
 ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٥٧ ،
 ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠ ،
 ٦٩٧ ، ٧٠١ ، ٧٠٠
 مجلس الهند ٥٠٤ ، ٦٥٣
 الهند الصينية ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٦١٤ ، ٦٩٥
 الهندوس ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦
 هندوكوش ٦٩٤
 الهندوكية ٥٨١ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٦١٧ ،
 ٦١٨ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٧٠٠
 هنري ده فالوا ١٦٦
 هنري الثالث بابلون ١٦٦
 هنري الثاني ١٥٥ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ،
 ٤٨٢
 هنري الثالث ، ملك فرنسا ١٥٦ ، ٢١٩
 هنري الرابع او هنري ده نافار ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١٥٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٥٧ ، ٢٨٥ ، ٣٠٠ ،
 ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ،
 ٣٢٩ ، ٣٢٨
 هنري السابع ، ملك انكلترا ١٥٨
 هنري الثامن ، ملك انكلترا ٤٥ ، ١٠٥ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١
 هنري البحار ٤٢١
 هنري موغ ٣٣٨
 هنرييت دي فرانس ٢٧٨
 هنغاريا ٢٣ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٦٨ ،
 ١٧٥ ، ٢٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٤ ، ٥٢٩ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣
 هينو ، مقاطعة ١٠١

و

وان ، بحيرة ٥٥٣
 وانغ - يانغ - منغ ١٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ،
 ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ،
 ٦٥٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٧٠٤
 واي - تونغ - كيان ٦٤١

وادي القنال ١٢٥
 الوادي الكبير ٤٢٨
 وادي النطرون ١٢١
 الواز ٣٥٨
 والنستين ، القائد ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١

وهران ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣
 وو - سان - كاي ٦٨٣
 وو - سيو - كوبي ٦٤٢
 وو - كو - عصابت ٦٥٣ ، ٦٥٤
 وو - كي ٦٣٣
 ووليس ٣٨٧
 - له :
 حساب اللانهاية ٣٨٧
 ويلز ، مقاطعة ١٤٣
 ويمغلنغ ١٤٦ ، ١٩٥

ورمس او وورمز ٣٣٨ ، ٣٥٨
 وستفاليا ٢٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤
 وصف الفنون والمهن ، كتاب (١٦٧٥) ٣٢٢
 الوطاسين ، دولة ٥٦٥
 وكالة الهند ١٢٨
 ولزر ١٠٧
 ونتورث ٣٠٩
 وندشهايم ، دير ٩٠
 ونغ - تاو - كوين ٦٣٢

ي

اليمن ٥٥٣
 اليهودية ١٢١
 يهوذا الاسخريوطي ٤١
 يوان ، ٦٢٩ ، ٦٣٣
 يوحنا الثالث (الملك) ٦٢٢
 يوحنا ، القديس ٢٨٠ ، ٦٧٦
 يوحنا المعمدان (صورته) ٣٠ ، ٣١
 يوحنا ده لاكروا ٥٤٣
 يوستنيانوس ١٥١ ، ٢٩٩ ، ٥٤٠
 يوسف (الشيخ) ٦١٧
 يوسف ، القديس ٢٩
 اليوسفية ١٧٢ ، ١٧٤
 يوشيمولية ٦٧٢ ،
 يوكاتان ٤٥١ ، ٤٥٧
 يوليانوس الجاحد ١٠٢
 يونان ٥٣٥
 يونانكي ٤٦٧
 يونغ - لو ٦٥٣
 ييدو ، مدينة ٦٥٢
 بين ٦٧٥

اليابان ٨ ، ٤٧٥ ، ٥٣٣ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ،
 ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٣ ،
 ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٩ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٤٠ ، ٦٥٧ ،
 ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ،
 ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ،
 ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ،
 ٦٧٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ،
 ٦٩٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ،
 ياغري ، جزيرة ١٧٥
 يافا ، ١٣٤
 يانغ : ٦٧٥
 يا يازو ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١
 ياما غوشي ٦٦٦
 يانسك ، مدينة ١٧٦
 أليانسي ، نهر ١٧٥
 أليانغ - تسي ، نهر ٦٤١
 الياية ، الديانة ٥٨٤ ، ٥٩٢
 يشي (كونستان) ٦٢٥
 يابلون ١٦٦

فهرست الخرائط والنصاميم

- الشكل ١ - الواردات الاسبانية من المعادن الثمينة وحركة الاسعار في اسبانيا . ص
بين ١٥٠٠ - ١٦٥٠ ١١٥
- الشكل ٢ - اوروبا في عهد شارل الخامس والسلطان سليمان القانوني . . . ١٤٥
- الشكل ٣ - تطور الامبراطورية الروسية ١٧١
- الشكل ٤ - السعر الاسمي للحنطة في اوروبا الغربية والوسطى ٢٤٣
- الشكل ٥ - سمر الجاودار في مونيخ بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٧١٥ ٢٤٣
- الشكل ٦ - الحدود الفرنسية في السنة ١٦٠٢ ، والطرق العسكرية الاسبانية . . ٢٤٧
- الشكل ٧ - رقاص غاليليو ٢٧٨
- الشكل ٨ - نظرية غاليليو في القذائف ٢٨٠
- الشكل ٩ - اوروبا بعد معاهدي وستفاليا ٣٤١
- الشكل ١٠ - الممتلكات الفرنسية ، ألزاس في السنة ١٦٤٨ ٣٤٣
- الشكل ١١ - الغنم الفرنسي منذ معاهدي وستفاليا حتى معاهدة اوترخت . . . ٣٤٩
- الشكل ١٢ - حدود فوبان الحديدية ٣٥٩
- الشكل ١٣ - حصون الحاجز التي احتلها الهولنديون (معاهدة اوترخت ١٧١٥) . . ٣٦١
- الشكل ١٤ - السقوط رز الذي تسقطه في ثانية قذيفة مندفعة ٣٨٨
- الشكل ١٥ - السقوط ل ل الذي يسقطه القمر في ثانية ٣٨٩
- الشكل ١٦ - اهم الطرق البحرية في القرن السادس عشر ٤٢٣
- الشكل ١٧ - العالم الاستعماري في اواخر القرن السابع عشر ٤٧٧
- الشكل ١٨ - العالم الاسلامي في القرنين السادس عشر والسابع عشر . . . ٥٣٩
- الشكل ١٩ - الهند عند وفاة أكبر ٥٩١
- الشكل ٢٠ - الامبراطورية البرتغالية ٦٠٣
- الشكل ٢١ - اهم التيارات التجارية في الامبراطورية البرتغالية ٦١١
- الشكل ٢٢ - الصين في عهد المنغ والتسنغ ٦٣٥

فهرست اللوحات

- ١ - اللوحة ... الحفلة الموسيقية .
ميناء تزيينية من ليموج لـ « ليونار ليموسين » . (متحف اللوفر - تصوير جيرودون .)
- ٢ - اللوحة ... عيد احياء هنري الثاني وكاترين دي مديسيس اكراماً لسفراء بولونيا .
وشي فلنكي من القرن السادس عشر . (فلورنسا ، متحف الماتيليد . تصوير اليناري .)
- ٣ - اللوحة ... مكتبة في القرن السادس عشر .
نقش لـ « كريستين دي باس » . (دار الصور المنقوشة .)
- ٤ - اللوحة ... « المباراة التي اصاب فيها الملك هنري الثاني بجرح مميت في آخر يوم من حزيران من السنة ١٥٥٩ » .
نقش لـ « جاك تورنوريسيل » و « وجسان برين » (١٥٧٠) . (دار الصور المنقوشة . تصوير جيرودون .)
- ٥ - اللوحة ... منظر عام لقصر شامبور .
(تصوير جان روبيه .)
- ٦ - اللوحة ... قبة كنيسة القديس بطرس في روما ، كما تشاهد من حدائق الماتيلكان .
(تصوير بيير جاهاك .)
- ٧ - اللوحة ... مقصف آل مديسيس في روما .
(تصوير بيير جاهاك .)
- ٨ - اللوحة ... مازسلقون في مجاويف باب كنيسة القديس جرجس في ادمرس (١٥٥٣) .
نقش لـ « جان غال » . (دار الصور المنقوشة .)
- ٩ - اللوحة ... منجم في اواسط القرن السادس عشر .
نقش على خشب نقل عن كتاب حول المادن صدر في بال (١٥٥٦) . (دار الكتب الوطنية .)
- ١٠ - اللوحة ... مشغل صانغ .
نقش لـ « اتيان ديلون » (١٥٧٦) . (دار الصور المنقوشة .)
- ١١ - اللوحة ... مجسم اوغزبورغ .
« جمعية اشهر امراء المانيا في الخامس والعشرين من حزيران من السنة ١٥٣٠ » في

قاعة الاساقفة في مدينة أوغزبورغ ، بحضور الامبراطور شارل الخامس ،
نقش مغفل (١٦٣٤) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٢ - المجمع التريدينيني .

لوحة لـ « له تيسان » . (متحف اللوفر . تصوير جيروودون) .

اللوحة ١٣ - التفنيس في اسبانيا ، في فالادوليد .

لوحة مغفلة رسمت في هولندا في السنة ١٥٦٠ (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٤ - اضطهاد الكاثوليك الانكليز في ولاية اليزبت (حوالى ١٥٨٠) .

نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٥ - جمعية ملوك اوروبيين برئاسة الامبراطور وملك فرنسا وملك اسبانيا .

نقش على خشب ينسب الى فنان فرنسي على الرغم من طغراء « ألبرت دورر » .

(دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٦ - قصر الاسكوريال .

المدرسة الاسبانية ، القرن السابع عشر . (متحف اللوفر . تصوير جيروودون) .

اللوحة ١٧ - معركة ليبانت (٧ تشرين الاول ١٥٧١) .

نقش لادريان كولاي ، بحسب جوهان سترادانوس . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ١٨ - هجوم الاسطول الانكليزي على الارمادا في شهر تموز من السنة ١٥٨٨ .

لوحة مأخوذة من مجموعة النقوش التي انجزها « جون بين » في السنة ١٧٣٩ نقلا

عن مديحات طلبها اللورد تشارلز هوارد من الرسام هنريك كورنلسزن فان فروم

من هارلم وحاكها فرنسيس سبيرنغ (لندن ، ١٧٣٩) . (مكتبة معهد الفن وعلم

الاثار في جامعة باريس ، تصوير ريفال) .

اللوحة ١٩ - مكتبة احد الوكلاء .

نقش لابراهيم بوس (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٢٠ - الصبرني .

لوحة من الفيشاني لدلفت ، ١٦٢٥ . (مجموعة بول انغولفان . تصوير بيير

دوبوا) .

اللوحة ٢١ - داخل منزل بورجوازي هولندي ، في اوائل القرن السابع عشر .

الاشكال من رسم « ازياس فان دي فلده » ، والباقي من رسم ب. فان باسن .

(متحف رجكس ، امستردام . تصوير المتحف) .

- اللوحة ٢٢ - معلمة المدرسة .
نقش لابراهيم بوس . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٢٣ - دير بور - رويال الحقول .
نقش لنقولا بوكيه نقلا عن صورة بالوان مزوجة بالماء والصمغ تنسب لماجدولين دي بولونيه . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٢٤ - احدى جلسات البرلمان الانكليزي (١٢ ايار ١٦٤١) .
نقش لونسلاس هولار . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٢٥ - قاعة بيننهوف الكبرى في لاهاي اثناء انقضاء مجلس جمعية الطبقات برئاسة جاكوب كاتس في السنة ١٦٥١ .
الاشكال من رسم بالامدسز ، والباقي من رسم ديرك فان ديلن . (متحف مورتشويس . تصوير براون) .
- اللوحة ٢٦ - تجاوزات المرتزقة :
١ - الشنق .
٢ - الهجوم على عربية المسافرين .
نقشان لجاك كالو ، نقلا عن « بلايا الحرب الكبرى » (١٦٣٣) . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٢٧ - استسلام بريدا .
رسم لفيلا سكينز . (متحف البرادو . تصوير جيرودون .)
- اللوحة ٢٨ - منظر لقصر فرساي مأخوذ من جادة باريس في السنة ١٦٦٨ .
لوحة لباتل . (متحف فرساي . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- اللوحة ٢٩ - قصر فرساي . منظر للقسم الاوسط من القصر مأخوذ من زهراء الجهة الجنوبية .
(تصوير جان روبيه) .
- اللوحة ٣٠ - التمثيل الاول للمأساة الفنائية « الست » لـ « كينو » و « لوتسي » ، في البهو الرخامي ، في السنة ١٦٧٤ .
نقش لـ « لبوتر » . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣١ - تشييد اعمدة اللوفر .
« تمثيل الآلات التي استخدمت لرفع الحجريين الكبيرين اللذين يغطيان الجبهة المثثة الزوايا في مدخل اللوفر الرئيسي » .
نقش لسيسيتيان له كلير (١٦٧٧) . (دار الصور المنقوشة) .

- اللوحة ٣٢ - رفع صار في فناء مصنع غوبلين الملكي .
 « منظر لاحد اقسام قصر غوبلين الملكي حيث توجد مصانع مفروشات التاج » .
 نقش لسيبستيان له كلير . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٣ - « تنظيم المأدبة التي اعدّها جلالتة لحضرات الفرسان بعد تأسيسهم » في فونتنبلو ،
 في الرابع عشر من ايار من السنة ١٦٦٣ » .
 نقش لابراهيم بوس . دار الصور المنقوشة . (صورة من المحفوظات الفوتوغرافية
 للفن والتاريخ) .
- اللوحة ٣٤ - توزيع الخبز على الجماهير في التويلري في السنة ١٦٦٢ .
 رسم مغفل . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٥ - رواق القصر .
 نقش لابراهيم بوس . (دار الصور المنقوشة . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية
 للفن والتاريخ) .
- اللوحة ٣٦ - زيارة لويس الرابع عشر للمرصد (١٦٦٤) .
 نقش لفواون نقلا عن سيبستيان له كلير (١٦٨٢) . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٧ - عائلة فلاحين في داخل منزل .
 رسم للويس له نين . (متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن
 والتاريخ) .
- اللوحة ٣٨ - ابطال براءة فانت (٨ تشرين الاول ١٦٨٥) .
 نقش لجان لويكن . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٣٩ - راس سابق لاكتشاف كولومبوس لاميركا مصدره المكسيك .
 الفن التوتوني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (؟) (متحف الانسان .
 تصوير روجيه باري) .
- اللوحة ٤٠ - نزول الاسبانين الى العالم الجديد : الامير « غواكانا ريلو » يستقبل خريستوف
 كولومبوس .
 نقش لثيودور دي بري (فرانكفورت ، ١٥٩٤) . (دار الصور المنقوشة) .
- اللوحة ٤١ - البرازيل في السنة ١٥١٩ .
 مرقاً صغير انشاء « لويو هومن » الملك البرتغال ثم اصبح ملك كاترين دي مديسيس
 (دار الكتب الوطنية) .

اللوحة ٤٢ - جزء من خريطة العالم الملكية التي رسمت على رق غزال في السنة ١٥٤٢ بأمر فرنسوا الاول .

(دار الكتب الوطنية .) .

اللوحة ٤٣ - زنوج استخدمهم اسبانيو اميركا في مطاحن السكر .
لوحة منقولة من كتاب الاسفار الكبرى لجان تيودور دي بري . (دار الصور المنقوشة) .

اللوحة ٤٤ - « ... هكذا تكلم زردشت » .
الني زردشت يهدي فيشتاسبيا ملك بلقي .
لوحة قيشانية متعددة الالوان ، فارس ، اواخر القرن السادس عشر . (مجموعة بول انغولفان . تصوير بيير دوبور) .

اللوحة ٤٥ - عيد ملكي في حديقة فارسية .
رسم متعدد الالوان المزوجة بالماء والصمغ ، المدرسة الصفوية ، اوائل القرن السابع عشر .
(متحف اللوفر . صورة من المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٤٦ - منظر طبيعي في ايام الشتاء .
صورة منقوشة من القرن السابع عشر . (مجموعة فيفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

اللوحة ٤٧ - وصول البرتغاليين الى اليابان في القرن السادس عشر .
رسم مذهب . (متحف غيمه) .

اللوحة ٤٨ - حاكم ميako في اليابان يذهب للقاء السفراء الهولنديين :
نقش لارنولد مونتائوس نقلا عن كتاب « وفود شركة الهند الشرقية ... الى اباطرة اليابان ... » ، امستردام ، جاكوب فون مورز ، ١٦٦٩ . (دار الكتب الوطنية) .

فهرست عام

ص

مدخل ٧

القسم الأول

اوروبا الجديدة

الكتاب الأول

القرن السادس عشر (١٤٩٢ — ١٥٩٨)

المؤسسات الجديدة

الفصل الأول .- المباني الفكرية الجديدة ، النهضة الكبرى ١٥

مشكلة النهضة وعقيدتها - العالم الجديد - الانسان والكون حسب الأفلاطونية الحديثة - روما والافلاطونية الحديثة - المباني الحديثة - كنيسة القديس بطرس في روما - غرفة التوقيعات - رجل البلاط - قصر فارنيز ومصل تشيجي - الكنيسة السكتيلية - العقلاية البدوانية ، بيمونازي - العلم ونظراته الجديدة على العالم ، فكتشينو وكوبرنيكوس - المعجزات - النجامة - غناطية الأرواح - السحر والمجوسية - الروح الرياضية - السياسة ومفهومها الجديد : مكيافلي - الاوضاع الاجتماعية والمجاري الفكرية الجديدة .

الفصل الثاني .- المجتمعات الدينية الجديدة . محاولات الاصلاح ٦٩

جفاف الشعور الديني - الوضع العام : الفلسفة والدين - روح الاصلاح - لوفيفر ديتابل - ايراسموس - لوثير - التصادم بين الانسانية الانجيلية والاصلاح - اللامعمدانيون - الاصلاح الكاثوليكي : البابا - علماء اللاهوت - الجامع - الصلاة الباطنية ، القديس اغناطيوس ده لويولا - كلفين - ديوان التفتيش والرهينة اليسوعية - هراطقة وملحدون - الارضاج الاجتماعية التي احاطت بالنظم الدينية الجديدة - الاصلاح والرأسماليون - الاصلاح والدولة - الاصلاح والتسامح .

الفصل الثالث .- النظم الاقتصادية الجديدة ١١١

المعادن الثمينة وارتفاع الاسعار - ازدهار حركة الاعمال التجارية الضخمة - الرأسمالية والملكية المطلقة - الدفع الديموغرافي او السكاني - شركات ودور البورصة - بين السندات والاعتادات المالية - المضاربات - المواصلات - النظم الرأسمالي والصناعة - النظم الرأسمالي والحياة في الريف - النتائج الاجتماعية للنظام الرأسمالي - البورجوازي الرأسمالي .

١٤٢ الفصل الرابع .- الدولة ونظمها الاقتصادية

بين دول كبيرة وصغيرة - الجغرافية السياسية وذو ال المدينة الدولة .

١٤٤ ١ - تطور الملكية المطلقة : اوضاعها

حب الوطن - عبادة البطل - صراع الأمم - النزعات الاقليمية - المنافسات السيادية - الصراع الطبقي - حدود السلطة المطلقة .

١٥١ ٢ - الملكية الفرنسية اكثر هذه النماذج تطوراً

وسائل العمل المتوفرة للملك - الحكم المطلق والكنيسة - الحكم المطلق ونظام الاقطاع - الحكم المطلق والمجتمعات المحلية - الحكم المطلق والحياة الاقتصادية - حدود الملكية في فرنسا - بيع الوظائف العامة والاعمار بها - الحروب الدينية - الملكيات الاوروبية على شاكله الملكية الفرنسية .

١٥٧ ٣ - الملكيات المعتدلة والجمهوريات البورجوازية

انكلترا - مبادئ الدستور الانكليزي - الحكم المطلق القائم بالفعل - الازدهار الرأسمالي في المجتمع البريطاني يشدد حقوي الحكم المطلق - معارضة الحكم المطلق - البلاد الواطية : النهضة البورجوازية والحكم المطلق الفعلي - الأمة ضد الملك - الدولة البورجوازية الدستورية والاتحادية المتحررة - الدكتاتورية الشعبية الكلفينية - القطيعة بين الشمال والجنوب .

١٦٦ ٤ - ملكيات القرون الوسطى

بولونيا - ومن الحكومة وعجزها - تسلط الارستوقراطية - اضعاف الأمة - موسكو - روسيا بلد ريفي منزول - النجاح الذي اصابه امير موسكو - الايدولوجيا الامبريالية البيزنطية ورسالة روسيا - الدولة العسكرية الروسية المطلقة - ايفان الرابع الخيف قائد الصليبية - تطور الاقتصاد النقدي - ازمة المجتمع الروسي - الانتقال من الادارة السيادية الى الادارة الحكومية - الدولة البوليسية - بين الملكية المسكوبية والملكيات الغربية .

١٨١ الفصل الخامس .- النظم الجديدة التي طبعت السياسة الخارجية

١٨٢ ١ - الظروف العامة

الديبلوماسية الثابتة - العمارة التجارية : بين الثلاثية والمركب الشراعي - الثلاثية ، المركب ، الريح والبحر - الثلاثية والمركب والمناخ والرحلات البحرية - السفينة الثلاثية والمركب في زمن الحرب - تطور الثلاثية والمركب - الجيش : جيش شارل الثالث - جيش المرتقة - فن الحرب - تأثير الحروب الايطالية على تطوير الاسلحة - الاصلاح الحربي الذي قام به غوزالفو القرطبي - من البندقية الى الطنبجة - المدفعية - التحصينات الحربية - الانحطاط والتفقر يطبع نهاية القرن - الحرب الاقتصادية والمالية .

١٩٤ ٢ - امبراطوريات وقيصريات

البابا - الامبراطور - اوربا والقيصرات - القيصرية الالمانية - القيصرية الفرنسية - القيصرية البورغونية - القيصرية القشتالية - القيصرات البحرية - قيصرية البحر المتوسط - القيصرات المحيطة - التوازن الدولي - السياسة اليمانية - مسيحيون وخوارج - رأي عام ودعارة - الاصلاح والامن :

٣ - قيادة الحرب والسير بها ٢٠٣

بين الحرب الطويلة والحرب القصيرة - التخوم الآسيوية - العمليات الحربية ليس لها من جبهة معينة - استراتيجيات التوابع - الثغور - الطرقات - الاتصال بين ساحات العمليات الحربية - اعمال المبارزة - الامرى - الحراب واعمال التخريب التدخل الاجنبي - الدعوة للسلام الحق الدولي .

الكتاب الثاني

القرن السابع عشر (١٥٩٨ - ١٧١٥)

الفصل الأول .- ازمة القرن ٢١١

١ - الازمة الاقتصادية ٢١١

السكان ومواد التنفيذ - التقنية الزراعية - توزيع السكان - نسبة الوفيات - المجاعة والازمة الاقتصادية - حركة الاسعار - النقص المتزايد في المعدن الثمين - الارتفاع البطيء ثم الانخفاض في الاسعار - بطء الانطلاقة الرأسمالية - تقلب الاسعار واسبابه - اثره المشؤوم في الاقتصاد .

٢ - الازمة الاجتماعية ٢١٧

المثال الفرنسي - تحويل رؤوس الاموال الى العمليات ، المالية الرسمية وارتفاع رجال المال والضباط - ارتفاع التجار الصناعيين - النبلاء ضد البورجوازيين - الاسياد ضد الفلاحين - الكبار ضد ارباب المهن والعمال - تفاقم الخصومات الاجتماعية بالخصومات الدينية - الثورة الصناعية الاولى في انكلترا - الرأسماليون والسيطرة على المجتمع الانكليزي - اصطدام المفاهيم الاجتماعية - صراع الطبقات في الاقاليم المتحدة .

٣ - ازمة الدولة ٢٢٦

المثال الفرنسي ، ثورات الفلاحين والعمال - ثورات الكبار ، امية الروابط القطاعية - اتفاق الطبقات الاجتماعية على الدولة - دور الضباط ، المجالس العليا والدستور - المجالس العليا وثوراتها الرجعية - الدور الثوري للحزب البروتستانتي - الثورات العامة - المثال الانكليزي : الدولة على الفردية البورجوازية - تقدم الفردية البورجوازية - الاختلاف الدستوري - المثال الهولندي .

٤ - الازمة السياسية الدولية ٢٣٥

خطر آل هابسبورغ - الفوضى في الامبراطورية المقدسة - محاولات الامبراطور التسلطية ، حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٦٤٨) - هابسبورغ النمسا وهابسبورغ اسبانيا : السيطرة على الطرق المكونة والبحرية - المعضلة البلطيقية - المعضلة السلوترنجية - الخطر يهدد فرنسا - القوميات - القيصريلت البحرية .

- ٢٤٢ ٥ - أزمة الحس الفني
مصادر الفن المستهجن - الفن المستهجن - مثال الفن المستهجن : روبنس - الفن المستهجن عند معارضيه - الفن المستهجن الفرنسي - الفن المستهجن اليومي - الفن المستهجن .
- ٢٥٠ ٦ - الأزمة الاخلاقية والدينية
البطل - النهضة الادبية الورعة - الصوفية - النهضة الادبية الورعة - تتعرض للخطر بفصل الايمان عن الحياة - الجلسلية .
- ٢٥٧ ٧ - أزمة العلم
الفن المستهجن والكنيسة والجامعات والامراء والعلماء - سن كبلر - وحيدة الكون : غاليليو وشاينر - مولد علم الآليات : غاليليو وعلم القوى - هارفي والدورة الدموية - اصطدام الكورنيكيين بالارسطاطاليسيين - الكنيسة تقاوم المجددين - التحول الفكري - استمرار الارسطاطاليسية ، فقدان نظام كوني آلي - تقصير ييكون - أزمة العقل .
- ٢٦٩ ٨ - المحدودون
ظروف الاتحاد السياسية - اتحاد الفكر ، ارتيائية المحدودين - الشعوب الغريبة والديانة الطبيعية - الاقدمون يحلون محل الديانة المسيحية ، الابيقوريون والرواقيون - الفجور .
- ٢٧٤ ٩ - الحركة الفكرية والعاطفية في السياسة
- ٢٧٧ الفصل الثاني - مقاومة الأزمة
- ٢٧٨ ١ - المدرسة الفرنسية ونظرية مركزية الاله الاوغسطينية
بيرويل - مركزية الله - الصلاة البيرولية - رهبانية المعبد - اثر البيرولية الشامل .
- ٢٨٢ ٢ - الكلاسيكية الادبية والفنية والاخلاقية
اليسوعيون والكلاسيكية - الكلاسيكية الادبية : القواعد والكلاسيكية - الكلاسيكية الكلاسيكية في الفن - الاخلاق الكلاسيكية .
- ٢٩٠ ٣ - الكرتزيانية (الديكارتيّة)
ثقافة ديكارت - هدف ديكارت احداث علم سام - مؤلفات ديكارت - العلم الشامل - الاسلوب - الشك المنهجي - الافكار المطبوعة ، الله ضمان العلم - الفعكر والابعاد - علم الآليات الشامل - الزوابع - الحيوان الآلة والانسان الآلة - الاهواء والارادة - حرية الارادة ، النجاة - انتصار ديكارت .
- ٢٩٩ ٤ - الملكية المطلقة
المثال الفرنسي : المفهوم الملكي للسلطة المطلقة - اسلوب الحكم الوزاري واسلوب الحكم الذاتي - تقدم الانظمة في عهد الحكم الوزاري وتقهقرها في عهد الحكم الذاتي - الاراس الملحقية بالسجن ومقوض الشرطة السياسية - لويس الرابع عشر سيد اوحده - الاستفادة من البورجوازية - ترويض النبلاء - ملوك سلالة ستيوارت والدولة - المجلس الخاص - سلطة الملك التشريعية - السلطات القضائية الخاصة - سلطة إحداث الضرائب - الجيش الدائم - مثالي الاقاليم المتحدة - الجمهورية البورجوازية العاجزة - سلطة غليوم الثالث امير اورانج المطلقة .

٥ - الروح التجارية ٣١٢

فكرة عامة عن الروح التجارية - مثال الاقاليم المتحدة : جمالة البحار - الشركات التجارية والدولة تجارة المعادن الثمينة ومصرف امستردام - المثال الانكليزي - وثائق الملاحه - الشركات التجارية - الرقابة الاقتصادية - المثال الفرنسي : الكولبيرية - الدافقة - الادارة الاقتصادية - الدولة عددة الصناعات - امثلة المشاريع صاحبة الامتيازات - طرائق الانتاج والكسب - الدولة والتقاليد - الدولة والتضعية بالعمال لاجل الانتاج - الدولة والزراعة - الدولة والتجارة الخارجية .

٦ - الدعاوة الملكية ٣٢٦

الدعاوة الادبية - الاكاديمية الفرنسية - الدعاوة الفنية : هنري الرابع والتجميل الملكي - لويس الرابع عشر وتسامع الفنون : الاكاديميات - التجميل في عهد السلطة المطلقة - تصوير عهد السلطة المطلقة - الدعاوة الفنية : تأخر الروح البروتستانتية - الدولة واخضاع البروتستانتية - الدولة والجلسلية - الكنيسة الفليكانية - القومارية .

٧ - التوازن الاوروبي والتسلسل في تنظيم اوروبا ٣٣٥

الاحلاف ضد تسلطية آل هابسبورغ - استراتيجية الواحق - السياسة وستراتيجية الابواب - حرب تقويض الجيوش - المؤتمرات الاوروبية - «الدستور» الاوروبي - معاهدة البيرونيه وخلافة ملك اسبانيا - التحكم الفرنسي في اوروبا - لينينز وخطط الاتحاد الاوروبي .

الفصل الثالث .- المظاهر الجديدة للأزمة ٣٤٧

١ - النزعات الاوروبية ٣٤٧

النزعات التسلطية القارية - النزعات التسلطية البحرية - خلافة عرش اسبانيا - النزعة الى التسلط الدستوري - المدعيات الفرنسية والهلص الاوروبي - الملك الشمس وفرنسا الشمس - المحالفات ضد فرنسا - ديومة الحرب وعجز الجيوش - الاساطيل والصف - التوازن الاوروبي - الحدود والخطوط والدول القضايل - الحق العام الجديد - انقسامات اوروبا ورجعان النفوذ الانكليزي - القوميات .

٢ - الحرب وأزمة الدولة ٣٦٢

انكلازا ، التصلب الرأسمالي - مجاحات الفردية النفعية - ثورة ١٦٨٨ وانتصار البورجوازية الرأسمالية - افر الحزبان ومصرف انكلازا والمدينة - قاعدة الميزان السيامي - المشاريع التجارية الحرة وانتشراح البورجوازي - الاقاليم المتحدة - فرنسا ، دكتاتورية الحكم - المكاتب - النظام الاداري - البيروقراطية - الحقوق الاميرية اثناء الحرب - الاقتصاد اثناء الحرب - تفاقم الصراع الطبقي - معارضة السلطة المطلقة والثورة الفكرية - مجاحات السلطة المطلقة في اوروبا - اسبانيا - الملكية النمساوية - إيطاليا - دول آل هوهنزولرن - روسيا واوروبا - اصلاحات بطرس الاكبر الاول - هزائم السلطة الاسرجية المطلقة وانهارها .

٣ - أزمة الفكر والحس ٣٧٩

علم الكورتزالي والنيوتوني - جمهورية الآداب - انتشار الكورتزالية - الكنيسة ضد الكورتزالية - تشويحات الكورتزالية - تقدم العلوم ضد الكورتزالية ، الآليون ونقد ديكرات - روسو وسرعة النور - لينيز والحركة - باسكال ونظرية رجحان الافتراض - منهج الآليين - تاليف نيوتون - منهج نيوتون - حساب الكمية الصغرى - مسألة الجاذبية - نظرية نيوتون - مهاجمة نيوتون للزوابع الكورتزالية - آلية الفراغ الذرية - الاثير - النور - « الساعاتي الاولي » - مقاومة الكورتزاليين - الكورتزالية والنيوتونية والكيمياء - الكورتزالية والآلية والعلوم الطبيعية ، علم الوظائف الحيوانية : الحيوان الآلة - علم الوظائف النباتية - اصغر الاجسام - مسألة التوالد - مسألة النوع - العلوم الاجتماعية ، الحساب السياسي ، الاحصائيات - النفعية ، الآلات - فكرة التقدم والشفقة العمياء في العلم .

٤ - أزمة الفكر والحس ، جاليات المعاصرين ، جفاف الأدب ٤٠١

ملاجره الشعر ، الرسم والتزيين ، الادبرا ، النظام الخيالي - انحطاط تعليم الآداب القديمة .

٥ - أزمة الفكر والحس ، أزمة الدين ٤٠٤

راجع الصوفيين - مذهب التجرد - التاريخ ضد الدين - البندكتيون - البحث اللاهوتي السياسي - لسينوز - ريشار سيمون - بوسويه والملل الثقافية - بيل وآراؤه في المذنب - الملحمون .

٦ - أزمة الآراء السياسية والاجتماعية ٤١١

البورجوازيون : لوك - مبتدعو الانظمة الخيالية ، الارستوقراطيون الرجعيون ، فينيلون - مبتدعو الانظمة الخيالية الرمنطقية السياسية ، الديموقراطيون والاشتراكيون - الخلاصة .

القسم الثاني

اوروبا والعالم

مدخل .- اتصال اوروبا بالعالم ٤٢١

لماذا اقتحم الاوروبيون الارقيانوسات - تفوق السفينة الاوروبية - مسألة تحديد المكان - الاساليب في اواخر القرن الخامس عشر - النجاحات المحقة - الكرات والحرائط - مسقط مركاتور - تقدم الجغرافيا - اخطار الاسفار البحرية .

الكتاب الأول

اوروبا والعالم الجديد

الفصل الأول .- المحاضرات البلدية عند قدوم الأوروبيين ٤٣٩

١ - حضارات العهد النيوليتي ٤٤٠

الالفونكيينون - التوبي غواراني - ديانة التوبينمبا - التطورات حين وصول الاوروبيين - الاروكيون - المايا - المميزات الطبيعية والاخلاقية - الادوات المادية - التجيز الفكري - ديانة المايا - التنظيم السياسي والاجتماعي - انحطاط المايا .

- ٢ - حضارة العصر النحاسي ، حضارة الازتيك ٤٥٨
- سكان المكسيك - أوجه التشابه بين الازتيكو والمايا - خصائص الازتيك ، البلاد والديمقراطية السلطانية - مكسيكو تنوشتلان - من الديمقراطية الشيوعية الى الملكية الارستوقراطية - نذال الديانة ، تكاثر الذبائح البشرية .
- ٣ - حضارات عصر الشبه ، حضارة الانكا ٤٦٦
- الفصل الثاني .- الاوروبيون والاعراق الملونة في اميركا ٤٧٥
- ١ - الاوروبيون في اميركا . الفضاء الاوروبي الجديد ٤٧٥
- اكتشافات عقب : قارة اميركا الجديدة - الفضاء العالمي الاوروبي الجديد - سفينة مانيلا الكبرى - اسباب توزيع الاوروبيين ، الادعاءات الاسبانية البرتغالية بالاحتكار - الاستعمار الفرنسي .
- ٢ - الاوروبيون وشعوب الحضارة النيوليتية ٤٨٢
- الاسبانيون وهنود الحضارة النيوليتية - البرتغاليون وهنود الحضارة النيوليتية - الفرنسيون وهنود الحضارة النيوليتية - الانكليز وهنود الحضارة النيوليتية .
- ٣ - الاوروبيون وهنود حضارة عصر النحاس ٥٠٣
- المكسيك - عهد المركزية الملكية ، المؤسسات السياسية - اقتصاد علائق المسافات الكبرى المبني على المصادن الثمينة - معضلة المواصلات والمون - فتح حيرات اوروبا الداجنة للعالم الجديد - فتح نباتات اوروبا للعالم الجديد - المركزية والعمل التبشيري ، الرعاية الملكية - الاديرة - التربية الدينية - عوائق التبشير - حماية الهنود - ومن السلطة المركزية ، زمن اللامركزية - اقتصاد الاملاك العامة - صلاحيات « السيد » وتفتت العالم الجديد على طريقة القرون الوسطى .
- ٤ - الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الشبه ٥١٦
- ٥ - الاوروبيون وشعوب حضارة عصر الحديد ، تعايش اوروبا ، افريقيا السوداء ، اميركا ٥١٩
- الاوروبيون وافريقيا السوداء - فشل التبشير - حضارات افريقيا السوداء ، المثال الداهومي - الزواج في اميركا .

الكتاب الثاني

اوروبا والعالم القديم

- الفصل الأول .- اوروبا والاسلام ٥٣٥
- ١ - الاسلام ٥٣٥
- قيادة الإسلام وحضوره في كل مكان - حيوية الإسلام وانتشاره - الإسلام ومفرياته - الإسلام تنمة المسيحية - وحدانية الله - علاقة الانسان بالله ، الصلاة الاسلامية - رجاء المسلم والتسليم لمشيئة الله - التصوف الاسلامي - انتشار الاسلام والتجار المسلمون - دعاه الاسلام .

٢ - الممالك الاسلامية ، السلطنة العثمانية ٥٤٤

الدولة ومتمدية الجيش - القوة التركية ومن باصحاب التقنيات من الأوروبيين - الخطر التركي على أوروبا ومسلمو إسبانيا - تقدم الأتراك في البلقان - الاسباب الكامنة وراء فشل محاولات الأتراك العثمانيين ضد المسيحية - الحرب ضد الفرس - الاصطدام مع البرتغاليين والازمات الاقتصادية - بين تأخر الأتراك والنظام العائلي في الأسرة المالكة - عدم كفاءة السلاطين - تنظيم الأسرة في الدولة : الفوضى - تقهر العثمانيين - المغرب والمند القبلية - الممتلكات التركية في الجزائر وتونس - المغرب المستقل من البحر المتوسط الى السودان .

٥٦٨ امبراطورية الفرس

الذهب الشيعي - الدعوة الفارسية - الدولة الصفوية والبدو في الحكم - الدولة مزروعة الظافر يستقل فيها المغلوبين على امرهم - الأسرة الصفوية في الارج؛ الشاه عباس الكبير وفتوحاته المظفرة - تقوية الروح الاستبدادية - جهوده في سبيل تقوية الأسرة الملكية من الوجهة القومية - جهوده في سبيل تقوية الروح المركزية - اقتباس الفنون الأوروبية ونشاط الحركة التجارية - نهضة الفن الوطني : اصفهان وأوروبا - المخطاط الدولة الصفوية - بين رفض الاسلام لأوروبا وعدم استغنائها عنها .

٥٨١ الفصل الثاني .- العالم الهندي ، الاسلام وأوروبا

الدولة الاسلامية - المسلمون الفاتحون ونظام الطبقات .

٥٨٢ ١ - السلالة المغولية الأولى

بابر - مشكلة تكيف المغول مع الهند؛ السلطان اكبر - الدولة هي معتمدية الجيش المغولي، استغلال المنتجين - استهلاك الانتاج واستحالة الادخار - الفلاح : وسائل الانتاج عنده ومستوى الميش لديه - السلطان اكبر واصلاح ضريبة الاملاك - السلطان أكبر يعمل على إيقاف الهندوكية ويعمها - محاولة صهر الشعوب ، أكبر والتوحيد الالهي - المخطاط الدولة المغولية؛ التفكك الإداري وتقهر العامل الهندوسي - اضطهاد المسلمين السنيين - ردة الفعل الهندوكية : المهرات - ردة الفعل الهندية : السيخ - ثائن والقول بديانة إنسانية عامة - تنظيم السيخ - السيخ ضد المسلمين .

٥٩٩ ٢ - العالم الهندي وأوروبا

الحركة التجارية في المحيط الهندي عند ظهور البرتغاليين فيه - الامبراطورية البرتغالية : احتكار تجاري - الهولنديون في المحيط الهندي - أوروبا والتجارة الآسيوية - الامبراطورية البرتغالية وكالة تبشير بالانجيل - القديس فرانسوا كسافيه - توجيهات الاب فالسيناتي - روبرت نوبلي وطقوس ملابار - قيمة الهندوكية من الوجهة الدينية وقشل عملية التبشير بالانجيل .

ص	
٦٢٩	الفصل الثالث .- العالم الصيني واوروبا
٦٢٩	١ - الصين واليابان . الصين
	انكماش الصين وانطواؤها على نفسها - تكاثر السكان - ازدهار البورجوازية - فلسفة دافنغ يانغ منغ في وجه الكونفوشية التشوية - طفيان الحصيان وصولتهم - الازمة الاجتماعية ، ازدهار البوذية والطاوية - تفكك الامبراطورية وانحلالها في القرن السابع عشر : المنشو - سيطرة المنشو المرقية - استسلام الصينيين ، المنشو اداة الثورة وعدتها - المنشو اتباع حميمون للكونفوشية التشوية - المنشو والسيطرة الصينية على آسيا الوسطى .
٦٤٨	اليابان
	انهيار النظام الاقطاعي - نظام الاقتصاد ونظام المقايضة - الرجوع إلى نظام السلطة العامة في القرن السادس عشر - آل تشوغاواو يحاولون تجميد اليابان في القرن السابع عشر .
٦٥٣	٢ - الأوروبيون ومحاولاتهم التجارية في الصين واليابان
	البرتغاليون - الاسبان في الفلبين - دخول الهولنديين الميدان التجاري وما كان له من أثر .
٦٦٣	٣ - التبشير بالمسيحية في اليابان والصين
	التبشير في اليابان وفلسفة الانوار - نشر المسيحية في الصين والارضات التي أحاطت بها - الديانة الصينية - أسلوب اليسوعيين - اليسوعيون في البلاط الامبراطوري - أثر الصين في تطوير الحركة الفكرية في أوروبا .
٦٨٩	الفصل الرابع .- آسيا تعرض عن أوروبا
	التعجير الآسيوي - لماذا لم يعمد الأوروبيون إلى فتح آسيا بعد أن تم لهم التفوق الحربي - النظم الاجتماعية في أوروبا تولي الدولة قوة أكبر - تفوق أوروبا التقني - تفوق العلم الأوروبي - روادع الفتح لدى الأوروبيين ، السراب الآسيوي وبعد المسافات واكتظاظ السكان - عجز أوروبا عن إقناع آسيا ، نشاط أوروبا وجود آسيا - أعراض آسيا عن المسيحية وكرها لها .
٧١٣	المراجع ٧٠٥ جدول زمني مقارنة
٧٥١	جدول الاعلام ٧٢١ فهرست الحرائط والتصاميم
٧٥٧	فهرست الصور ٠٠٠ فهرست عام

انتهى المجلد الرابع ، ويليه المجلد الخامس
القرن الثامن عشر

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME IV

LES XVI^e ET XVII^e SIÈCLES

*LA GRANDE MUTATION INTELLECTUELLE
DE L'HUMANITÉ*

*L'AVÈNEMENT DE LA SCIENCE MODERNE
ET L'EXPANSION DE L'EUROPE*

(TROISIÈME ÉDITION, REVUE, CORRIGÉE, AUGMENTÉE)

par

Roland MOUSNIER

Professeur à la Sorbonne

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

